الجُمْهُورِيَّةُ الجَزَائِرِيَّةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الشَّعْبِيَّةُ
وَزَارَةُ التَّعْلِيمِ العَالِي وَالبَحْثِ العِلْمِيِّ
جَامِعَةُ جِيلَالِي لْيَابَسْ – سِيدِي بَلْعَبَّاسْ
كُلِّيَّةُ الآدَابِ وَاللُّغَاتِ وَالفُنُونِ
قِسْمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا

خِطَابُ الزُّهْدِ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ
قِرَاءَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ

رِسَالَةٌ مُقَدَّمَةٌ لِنَيْلِ دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاهْ فِي العُلُومِ
تَخَصُّص: نَقْدٌ أَدَبِيٌّ عَرَبِيٌّ حَدِيثٌ وَمُعَاصِرٌ

إِعْدَادُ الطَّالِبِ:
بَلْهَادِي حُسَيْن

إِشْرَافُ:
أ. د. بَرَكَةُ لَخْضَرْ

* أَعْضَاءُ لَجْنَةِ المنَاقَشَةِ *

أ.د عْمَارَة بُوجَمْعَة	جَامِعَةُ سِيدِي بَلْعَبَّاس	رَئِيـــــــسًا
أ.د.بَرَكَـــة لَخْـــضَر	جَامِعَةُ سِيدِي بَلْعَبَّاس	مُشْرِفًا وَمُقَرِّرًا
أ.د عُكَاشَـة سَعِـــيد	جَامِعَةُ سِيدِي بَلْعَبَّاس	عُضْوًا مُنَاقِشًا
أ.د بَلَّحـــيَا الطَّـــاهَر	جَامِـــــعَةُ وَهَـــــرَانَ	عُضْوًا مُنَاقِشًا
أ.د عُبَيد نَصْر الدِّين	جَامِـــــعَةُ سْـــــعِيدَةُ	عُضْوًا مُنَاقِشًا
أ.د جَرْمُونـــي رُقَـــيَّة	جَامِـــــعَةُ مُعَسْـــكَر	عُضْوًا مُنَاقِشًا

السَّنَةُ الجَامِعِيَّةُ: 1442-1443هـ/ 2020-2021م

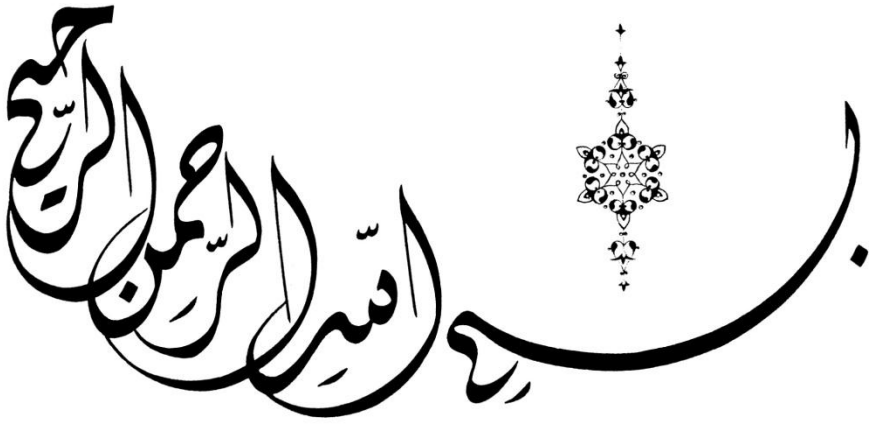

إهداء

* إلَى وَالِدَيَّ الكَرِيمَيْنِ حُبًّا تَقْدِيرًا وَاعْتِرَافًا، خَافِضًا لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ وَالتَّوَدُّدِ.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا٢٣﴾ الإسْراءُ.

* إلَى زَوجَتِي الفَاضِلَةِ وَأَبْنَائِي: مُحَمَّدُ مُصْطَفَى، أَنَسُ، أَنْفَالٌ وَآمِنَةُ تَسْنِيم.

* إلَى إخْوَتِي وَأَخَوَاتِي وَأَبْنَائِهِم وَالأَصْهَارِ الكِرَامِ أَدَامَ اللهُ الفَرَحَ وَالبَهْجَةَ.

* إلَى الأَصْدِقَاءِ وَالأَحِبَّةِ فِي كُلِّ آنٍ وَمَكَانٍ: حَمْزَةُ، فُؤادُ، مُحَمَّدُ، ...وَعُذْرًا لِمَنْ غَابُوا عَنِ اللِّسَانِ وَمَا غَابُوا عَنِ الجَنَانِ.

* إلَى مَنْ كَانُوا هُنَا، ثُمَّ إنَّهُمْ لاَ يَزَالُونَ قَرِيبِينَ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغِيبُوا عَنِ الذَّاكِرَةِ.

* إلَى رُوحِ أَخِي وَصَدِيقِي صَاطْ مُرَادْ رَحَمَاتُ رَبِّي تَغْشَاكَ فِي عَلْيَائِهِ.

* إلَيْكُمْ جَمِيعًا أُهْدِي ثَمَرَةَ هَذَا العَمَلِ الذِّي اسْتَغْرَقَنِي جُهْدًا جَمَعَ بَيْنَ العَنَاءِ وَاللَّذَّةِ حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ التِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكُمْ وَأَنْ تَكُونَ إضَافَةً نَوْعِيَّةً فِي مَجَالِ البَحْثِ النَّقْدِيِّ.

مُقَدِّمَةٌ

الحَمْدُ لِلّهِ وَكَفَى وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى الحَبِيبِ المُصْطَفَى، وَبَعْدُ:

فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ يَجِدُ نَفْسَهُ مُحَاصَرًا بِالأَسْئِلَةِ التِّي تُلِحُّ عَلَيْهِ، مَدْفُوعًا إِلَى البَحْثِ عَنِ أَجْوِبَةٍ لَهَا، وَلاَ مَهْرَبَ لَهُ حِينَهَا مِنْ سُلْطَةِ السُّؤَالِ وَسَطْوَتِهِ إِلاَّ أَنْ يُجِيبَ دَاعِيَهُ، وَيَرْوِيَ غَلِيلَهُ. ثُمَّ، لَعَلَّهُ بَعْدَ كَدٍّ وَحَفْرٍ نَحْوَ الجَوَابَاتِ المُمْكِنَةِ، وَبَعْدَ أَنْ يَطْمَئِنَّ لِمَا صَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ، يُعَاجِلُهُ سُؤَالٌ جَدِيدٌ يَقْطَعُ نَشْوَةَ الوُصُولُ وَيَفْتَحُ، مَرَّةً أُخْرَى، وَلَنْ تَكُونَ الأَخِيرَةَ حَتْمًا، أَبْوَابَ الرَّغْبَةِ وَالفُضُولِ.

وَلَقَدْ وَجَدْتُنِي مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ فِي المَاضِي، شَغُوفًا بِالنَّصِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ فِي جَمِيعِ تَجَلِّيَاتِهِ وَإِشْرَاقَاتِهِ، مَشْدُودًا أَكْثَرَ إِلَى النَّصِّ الشِّعْرِيِّ مِنْهُ تَحْدِيدًا، تُرَافِقُنِي أَسْئِلَةُ الوُجُودِ، تَمَامًا كَمَا رَافَقَتْ ذَاكَ الشَّاعِرَ فِي قَصِيدَتِهِ، يَحْمِلُهَا وَتَحْمِلُهُ، وَلاَ تَضَعُ عَنْهُ أَوْزَارَهَا وَلَوْ لِحِينٍ، وَكَيْفَ لَهَا ذَلِكَ وَهِيَ الجُرْحُ وَالبَلْسَمُ فِي آنٍ؟! ثُمَّ كَبُرَتْ تِلْكَ الأَسْئِلَةُ حِينَ اتَّسَعَ إِدْرَاكُنَا وَاتَّسَعَتْ أَمَامَنَا الآفَاقُ، وَكُنَّا نَظُنُّهَا سَتَصْغُرُ وَتَتَبَدَّدُ، فَإِذَا هِيَ تَزْدَادُ إِلْحَاحًا وَحُضُورًا.

هَكَذَا تَبَدَّتْ أُولَى إِرْهَاصَاتِ هَذَا البَحْثِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى سُوقِهِ، أَوْ نَحْسَبُهُ كَذَلِكَ! فَاخْتَرْتُ مِنْ ذَاكَ الشِّعْرِ الذِّي اسْتَهْوَانِي صَغِيرًا وَلَا يَزَالُ، " زُهْدِيَّاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ " لِتَكُونَ مَيْدَانَ الدِّرَاسَةِ، وَالمُقَارَبَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ مَشْفُوعَةً بِالتَّحْلِيلِ وَالإِحْصَاءِ وَالوَصْفِ لِتَكُونَ أَدَاتَهَا فِي مُقَارَعَةِ الإِشْكَالِيَّاتِ الأَسَاسِ التِّي اعْتَرَضَتْهُ، وَالتِّي يُمْكِنُنَا أَنْ نَخْتَصِرَ أَهَمَّهَا فِي مَا يَلِي:

* مَا مَدَى مُطَاوَعَةِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ القَدِيمِ لِإِجْرَاءَاتِ النَّقْدِ الحَدِيثِ مُمَثَّلًا هُنَا فِي القِرَاءَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ؟

* وَمِنْ ثَمَّ، إِلَى أَيِّ مَدَى يُمْكِنُ لِهَذَا النَّصِّ عُمُومًا، وَلِنَصِّ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، مَوْضُوعِ الدِّرَاسَةِ تَحْدِيدًا، أَنْ يَنْفَتِحَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ القِرَاءَةِ؟

* هَلْ هَذِهِ المُقَارَبَةُ وَمَثِيلاَتُهَا مُطَاوِعَةٌ فِعْلًا، أَمْ هِيَ إِقْحَامٌ وَفَضٌّ فَجٌّ لمَغَالِيقِ النَّصِّ القَدِيمِ؟

* مَا الإِضَافَةُ التِّي يُمْكِنُ أَنْ تُقَدِّمَهَا هَذِهِ المُمَارَسَةُ النَّقْدِيَّةُ، دَرْسًا وَتَحْلِيلًا، لِنَصٍّ هُوَ فِي عُرْفِنَا قَدِيمٌ مُسْتَهْلَكٌ إِلَى حَدٍّ مَا؟

* كَيْفَ سَتُخَاطِبُ النَّصَّ وَبِمَ وَكَيْفَ سَيُجِيبُ وَيَسْتَجِيبُ؟

* هَلْ بِمَقْدُورِ النَّصِّ العَتَاهِيِّ أَنْ يَتَفَاعَلَ مَعَ هَذِهِ الأَدَوَاتِ فَيَشِيَ وَيَتَكَشَّفَ؟

* أَيَمْلِكُ هَذَا النَّصُّ جُرْأَةَ الانْفِتَاحِ فَيُثْبِتَ جِدَّتَهُ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ تَجَدُّدَهُ؟

* فِي أَيِّ شَكْلٍ سَتَكُونُ نَتَائِجُ نَقْدِ النَّصِّ العَرَبِيِّ حِينَ يَسْتَعِيرُ إِجْرَاءَاتِ النَّقْدِ الغَرْبِيِّ؟ وَهَلْ مِنَ الضَّرُورَةِ أَنْ نُزَاوِجَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا يُتِيحُهُ التُّرَاثُ مِنْ أَدَوَاتٍ؟

لَقَدْ اسْتَدْعَتْ الإِجَابَةُ عَنْ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ وَكَثِيرٍ غَيْرِهَا، وَبَعْدَ ضَبْطِ العُنْوَانِ بِـ" خِطَابُ الزُّهْدِ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ " – قِرَاءَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ –، اتِّبَاعَ مَنْهَجِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي هَيْئَتِهَا النِّهَائِيَّةِ عَلَى العَنَاصِرِ الآتِيَةِ: مُقَدَّمَةٌ وَأَرْبَعَةُ فُصُولٍ وَخَاتِمَةٌ.

وَكَانَ عُنْوَانُ الفَصْلِ الأَوَّلِ " **بِنْيَةُ الإِيقَاعِ فِي زُهْدِيَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ** "، وَفِيهِ وَقَفْتُ عِنْدَ إِشْكَالِيَّةِ الإِيقَاعِ وَعَلاَقَتِهِ بِاللُّغَةِ، وَانتَقَلْتُ إِلَى وَصْفِ بَعْضِ جَمَالِيَاتِهِ وَتَمَظْهُرَاتِهَا، ثُمَّ تَحَدَّثْتُ عَنِ الإِيقَاعِ بَيْنَ القَدِيمِ وَالمُوَلَّدِ، وَمَا نَتَجَ عَنْهُ مِنْ صِرَاعٍ بَيْنَ دُعَاةِ الأَصَالَةِ وَدُعَاةِ التَّجْدِيدِ، وَانْتَهَيْتُ إِلَى تَتَبُّعِ الظَّوَاهِرِ الأُسلُوبِيَّةِ فِي إِيقَاعَاتِ أَبِي العتَاهِيَّةِ مِنْ خِلاَلِ وَصْفِ إِيقَاعِ الصَّوتِ المُفْرَدِ صَوْتًا وَحَرَكَةً وَسُكُونًا، وُصُولًا إِلَى إِيقَاعِ التَّكْرَارِ وَإِسْهَامَاتِهِ فِي صِنَاعَةِ خِطَابٍ مُتَمَيِّزٍ عَبْرَ الكَلِمَةِ المُكَرَّرَةِ تَارَةً وَأَضْدَادِهَا تَارَةً أُخْرَى.

أَمَّا الفَصْلُ الثَّانِي وَالمَوْسُومُ بِـ" **السِّمَاتُ الأُسْلُوبِيَّةُ فِي لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ** " فَبَدَأْتُهُ بِمُقَدَّمَةٍ نَظَرِيَّةٍ بَحَثَتْ مَفْهُومَ اللُّغَةِ وَفَلْسَفَتَهَا، بَيَّنْتُ بَعْدَهُ حَيَوِيَّةَ اللُّغَةِ وَحَرَكِيَّتَهَا مَعَ كُلِّ عَصْرٍ، وَعَلاَقَةَ ذَلِكَ بِثَرَاءِ المَعْجَمِ الشِّعْرِيِّ عِنْدَ كُلِّ مُبْدِعٍ، وَخَتَمْتُ بِمَبْحَثٍ عَنِ التَّضَادِ

وَفَاعِلِيَّتِهِ الأُسْلُوبِيَّةِ وَآخَرَ عَنِ تَشْكِيلِ المَرْجِعِ لمَعْجَمِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ.

وَبَحَثَ الفَصْلُ الثَّالِثُ، وَالذِّي عُنْوَانُهُ " **فِي شِعْرِيَّةُ التَّكْرَارِ**" مَسْأَلَةَ التَّكْرَارِ بَيْنَ القُدَمَاءِ وَالمُحْدَثِينَ، وَكَيْفَ نَظَرُوا إِلَيْهِ وَإِلَى خُصُوصِيَّاتِهِ فِي بَلْوَرَةِ الخِطَابِ، وَحَاوَلْتُ بَعْدَهَا أَنْ أَكْشِفَ عَنْ جَمَالِيَاتِهِ فِي نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مِنْ خِلاَلِ مَبْحَثَيْنِ: تَعَرَّضَ الأَوَّلُ إِلَى تَكْرَارِ الحَرْفِ وَالكَلِمَةِ وَالثَّانِي لِتَكْرَارِ العِبَارَةِ أَوِ الصِّيغَةِ وَاطِّرَادِ ذَلِكَ عَلَى هَيْئَةٍ وَسَمَتْ أُسْلُوبَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَمَيَّزَتْهُ.

أَمَّا الفَصْلُ الرَّابِعُ فَكَانَ تَحْتَ عُنْوَانِ " **التَّنَاصُّ فِي النَّصِّ العَتَاهِيِّ إِبْدَاعٌ أَمْ مُرَاوَحَةٌ**"، وَبَعْدَ بَحْثِ المَسْأَلَةِ نَظَرِيًّا عِنْدَ العَرَبِ وَالغَرْبِ، سَعَيْتُ فِي التَّطْبِيقِ إِلَى تِبْيَانِ أَشْكَالِهِ عِنْدَ شَاعِرِنَا مِنْ خِلاَلِ ثَلاَثَةِ مَبَاحِثَ: 1/ التَّنَاصُّ الدِّينِيُّ، وَفِيهِ عَرَضْتُ لِتَمَاهِي أَبِي العَتَاهِيَّةِ مَعَ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَالحَدِيثِ الشَّرِيفِ. 2/ التَّنَاصُّ مَعَ الآخَرِ وَتَتَبَّعْتُ فِيهِ صِيَغًا مِنَ التَّدَاخُلِ النَّصِّيِّ بَيْنَ شِعْرِ شَاعِرِنَا وَبَيْنَ نُصُوصِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ. 3/ التَّنَاصُّ الذَّاتِيُّ وَقَصَدْتُ فِيهِ إِلَى إِثْبَاتِ اتِّكَاءِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ المُسْتَمِرِّ عَلَى نُصُوصِهِ السَّابِقَةِ فِي إِنْشَاءِ خِطَابَاتِهِ اللاَّحِقَةِ.

وَجَمَعَتِ الخَاتِمَةُ خُلاَصَةَ جُهْدِ الفُصُولِ الأَرْبَعَةِ آنِفَةِ الذِّكْرِ، لِتُبْرِزَ جُمْلَةً مِنَ النَّتَائِجِ التِّي نَرَاهَا ذَاتَ شَأْنٍ فِي فَهْمِ خِطَابِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ عُمُومًا وَخِطَابِ الزُّهْدِ عِنْدَهُ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيصِ.

وَلاَ بُدَّ لأَيِّ بَحْثٍ، فِي مِثْلِ هَذَا المُسْتَوَى بِالتَّحْدِيدِ، أَنْ تُوَاجِهَهُ جُمْلَةٌ مِنَ الصُّعُوبَاتِ ذَاتِ المَنْشَإِ المُتَعَدِّدِ المُتَبَايِنِ، تَتَمَثَّلُ فِي اتِّسَاعِ مَكْتَبَةِ البَحْثِ حِينًا إِلَى دَرَجَةٍ يَصْعُبُ مَعَهَا الاخْتِيَارُ وَالتَّلْفِيقُ، وَتَضِيقُ مَرَّةً أُخْرَى حَتَّى لَكَأَنَّ العَمَلَ يَنْطَلِقُ مِنْ فَرَاغٍ، خُصُوصًا فِي بَعْضِ مَسَائِلِهِ الدَّقِيقَةِ التِّي تَحْتَاجُ مَرَاجِعَ مُعَيَّنَةً افْتَقَدْتُهَا كُلِّيَّةً فِي لُغَتِهَا الأَصْلِ، أَوْ افْتَقَدْتُ تَرْجَمَتَهَا فَأَلْقَتْ بِي مَقَالِيدُهَا فِي مَتَاهَاتِ العَمَلِ عَلَى التَّرْجَمَةِ بِمَا فِي

ذَلِكَ مِنْ مُخَاطَرَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ رُوحِ المُغَامَرَةِ وَلَذَّةِ الاكْتِشَافِ.

وَإِلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ جُمْلَةً مِنَ المَرَاجِعِ كَانَ لَهَا الأَثَرُ البَيِّنُ وَالإِيجَابِيُّ فِي دَفْعِ هَذَا العَمَلِ إِلَى مَا انْتَهَى إِلَيْهِ، مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ لاَ الحَصرِ، الاخْتِلاَفُ وَالتَّكْرَارُ لِجِيلْ دُولُوزْ بِنْيَةُ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ لِجُونْ كُوهِنْ، الأُسْلُوبِيَّةُ وَالأُسْلُوبُ لِعَبْدِ السَّلاَمِ المَسَدِّيُّ، وَالشِّعْرِيَّةُ العَرَبِيَّةُ لِجَمَالِ الدِّينِ بَنْ شِيخْ.

وَأَتَوَجَّهُ فِي الأَخِيرِ، بِالشُّكْرِ إِلَى كُلِّ مَنْ سَاهَمَ مِنْ قَرِيبٍ أَوِ بَعِيدٍ فِي وُصُولِ هَذَا البَحْثِ إِلَى بَعْضِ غَايَاتِهِ المُسَطَّرَةِ وَأَهْدَافِهِ المَرْجُوَّةِ، وَفِي مُقَدَّمِهِم أُسْتَاذِيَ المُشْرِفَ عَلَى عَمَلِي هَذَا لِمَا قَدَّمَهُ لِي تَشْجِيعًا وَتَوْجِيهًا، حَثًّا وَبَحْثًا.

وَاللهُ المُوفِّقُ إِلَى مَا فِيهِ الخَيْرُ وَالسَّدَادُ.

حُسَيْن بَلْهَادِي

سْفِيزَف، أُوت 2021

مَدْخَلٌ
الأُسلُوبُ والأُسْلُوبِيَّةُ

1- الأُسْلُوبُ:

أ- لُغَةً.

ب- اصْطِلاَحًا.

2- الأُسْلُوبِيَّةُ:

3- اتّجَاهَاتُ الأسلُوبِيَّةِ:

أ- الأُسْلُوبِيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ.

ب- الأسلُوبِيَّةُ التَّعبِيرِيَّةُ.

ج- الأُسْلُوبِيَّةُ النَّفْسِيَّةُ.

ح- الأُسْلُوبِيَّةُ البِنْيَوِيَّةُ.

د- الأُسْلُوبِيَّةُ الإِحْصَائِيَّةُ.

4- البَلاَغَةُ وَالأُسْلُوبِيَّةُ:

5- الأُسْلُوبِيَّةُ وَاللِّسَانِيَاتُ:

6- الأُسْلُوبِيَّةُ فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ الحَدِيثِ:

1- الأُسْلُوبُ:

أ- لُغَةً:

* " يُقَالُ لِلسَّطْرِ مِنَ النَّخِيلِ: أُسْلُوبٌ. وَكُلُّ طَرِيقٍ مُمْتَدٍّ، فَهُوَ أُسْلُوبٌ. قَالَ: وَالأُسْلُوبُ الطَّرِيقُ، وَالوَجْهُ، وَالمَذْهَبُ، يُقَالُ: أَنْتُمْ فِي أُسْلُوبِ سُوءٍ، وَيُجْمَعُ أَسَالِيبٌ. وَالأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ تَأْخُذُ فِيهِ. وَالأُسْلُوبُ، بِالضَّمِّ: الفَنُّ، يُقَالُ: أَخَذَ فُلاَنٌ فِي أَسَالِيبَ مِنَ القَوْلِ أَيْ أَفَانِينَ مِنْهُ.

وَالسَّلْبُ :ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ يَنْبُتُ مُتَنَاسِقًا "[1].

* والأُسْلُوبُ :الطَّرِيقُ[2].

* وَفِي قَامُوس لاَرُوس الفِرَنْسِيِّ *Larousse* الأُسْلُوبُ[3]:

- طَرِيقَةٌ خَاصَّةٌ يُعَبِّرُ بِهَا كُلُّ شَخْصٍ عَنْ أَفْكَارِهِ وَعَوَاطِفِهِ وَمَشَاعِرِهِ.
- مَجْمُوعَةٌ مِنَ المُمَيِّزَاتِ الشَّكْلِيَّةِ الجَمَالِيَّةِ لِشَيْءٍ مَا.

* وَلاَ يَبْتَعِدُ قَامُوسُ أُوكْسفُودْ *Oxford* الإِنْجْلِيزِي عَنْ هَذَا التَّعْرِيفِ كَثِيرًا، إِذْ يَحُدُّ كَلِمَةَ أُسْلُوبٍ بِكَوْنِهَا:

- الطَّرِيقَةُ الخَّاصَّةُ التِّي يَتِمُّ بِهَا عَمَلُ شَيْءٍ مَا[4].

---

[1]- لسان العرب، ابن منظور، مادّة: س- ل- ب، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ/1999م، ص319.

[2]- القاموس المحيط،ج1، مادّة: س - ل - ب، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، 1426 هـ/ 2005م، ص98.

[3]- *https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/style/74959. "Façon particulière dont chacun exprime sa pensée, ses émotions, ses sentiments" et "Ensemble des caractères formels esthétiques de quelque chose".*

[4]- *https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/english/style_1. "the particular way in which something is done".*

ب- اصْطِلاَحًا:

يَرْتَبِطُ الأُسْلُوبُ عِنْدَ أَفْلاَطُون بِالفَرْدِ ارْتِبَاطًا مُبَاشِرًا، فَهُوَ شَبِيهٌ بِالسِّمَةِ وَالمِيزَةِ المُلاَزِمَةِ لَهُ، فَـ" كَمَا تَكُونُ طَبَائِعُ الشَّخْصِ يَكُونُ أُسْلُوبُهُ "[1]. أَمَّا تِلْمِيذُهُ أَرِسْطُو فَتَحَدَّثَ عَنِ الأَسَالِيبِ الجَمِيلَةِ وَالقَبِيحَةِ وَهُوَ يَتَنَاوَلُ مَوْضُوعَ الخَطَابَةِ [2]، وَمِمَّا قَالَهُ بِهَذَا الصَّدَدِ: "حَقًّا لَوْ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَجِيبَ إِلَى الصَّوَابِ, وَنَرْعَى الأَمَانَةَ مِنْ حَيْثُ هِيَ، لَمَا كَانَتْ بِنَا حَاجَةٌ إِلَى الأُسْلُوبِ وَمُقْتَضَيَاتِهِ, وَلَكَان عَلَيْنَا أَلاَّ نَعْتَمِدَ فِي الدِّفَاعِ عَنْ رَأْيِنَا عَلَى شَيْءٍ سِوَى البَرْهَنَةِ عَلَى الحَقِيقَةِ, وَلَكِنْ كَثِيرًا مِمَّنْ يُصْغُونَ إِلَى بَرَاهِينِنَا يَتَأَثَّرُونَ بِمَشَاعِرِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَأَثَّرُونَ بِعُقُولِهِمْ. فَهُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى وَسَائِلِ الأُسْلُوبِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى الحُجَّةِ "[3]، فَالأُسْلُوبُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ يَصِيرُ عِنْدَهُ ضَرُورَةً ومَقْصَدًا.

وَهُو يَنْفِي بِشَكْلٍ مُطَّرِدٍ كُلَّ أَشْكَالِ التَّصْنِيفَاتِ، وَجَدَ **كْرُوْتْشِيهْ** نَفْسَهُ مَحْصُورًا بَيْنَ الجُدُرِ التِّي بَنَاهَا بِنَفْسِهِ، لأَنَّهُ لَيْسَ بِالإِمْكَانِ، ونَحْنُ نَعِيشُ فِي وَسَطٍ اجْتِمَاعِيٍّ مَفْتُوحٍ وَمُخْتَلِفٍ، أَنْ تَتَشَابَهَ تَعَابِيرُنا وإِدْرَاكَاتُنَا، أَوْ أَنْ تَتَطَابَقَ مَفَاهِيمُنَا وَنَظَرَاتُنا لِلأَشْيَاءِ التِّي تُحِيطُ بِنَا، أَوْ تِلْكَ التِّي نُنْتِجُهَا وَنتَفَاعَلُ مَعَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ، اللُّغَةُ وَالأُسْلُوبُ[4].

وَيَعْتَقِدُ هِنْرِيشْ بِلِيثْ *Heinrich Blyth* أَنَّ كَثْرَةَ المَعَانِي التِّي ارْتَبَطَتْ بِكَلِمَةِ " أُسْلُوبُ" لاَ تُسَهِّلُ مِنْ مَهَمَّةِ تَحْدِيدِ المَفْهُومِ وَضَبْطِهِ بِتعْرِيفٍ وَاحِدٍ " وَهَذَا رَاجِع إِلَى أَنَّ هَذِه الكَلِمَةَ لاَ تخُصُّ المَجَالَ اللِّسانِيَّ وَحْدَهُ، (...) إِنَّ التَّأَمُّلَ العِلْمِيَ حَوْلَ الأُسْلُوب قَدْ أَنْتَجَ أَيْضًا قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ المُدَوَّنَاتِ الاصْطِلاَحِيَّةِ التِّي لاَ تُبَسِّطُ المُشْكِلَ "[5]،

---

[1]- ينظر: النَّصُّ والأسلوب بين النّظريّة والتّطبيق- دراسة ، عدنان بن ذريل، منشورات إتّحاج الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2000م، ص43، وَيُنْظَر: اللُّغَة والأسلوب - دراسة، عدنان بن ذريل، ط2، 1427هـ/2006م، ص152.

[2]- ينظر: محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر ، بشير تاوريرت، دار الفجر للطباعة والنشّر، الجزائر، ط1، 2006م، صص162،161.

[3]- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار نَهضة مصر للطباعة والنّشر والتّوزيع، د.ط، 1997م، ص114.

[4]- يُنظر: نظرية الأدب، روني وليك وأوستن وارن، تر: عادل سلامة، دار المريخ للنشر، الرياض، السعودية، د.ط، 1412هـ/1992م، ص251.

[5]- البلاغة والأسلوبية - نحو نموذج سيميائيّ لتحليل النّصّ، هنريش بليت، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، د.ط،

بَلْ تَزيدُ الإِشْكَالِيَّةَ تَعْقِيدًا، إِذْ فَهْمُ المُصْطَلَحِ وَسِيلَةٌ أَسَاسٌ فِي تَكْوِينِ التَّصَوُّرِ العَامِ لأَيَّةِ مَسْأَلَةٍ.

وَلَعَلَّ أَشْهَرَ مَا يَتَرَدَّدُ حِينَ الحَدِيثِ عَنِ الأُسْلُوبِ، عِبَارَةُ بِيفُون *Buffon* :" إِنَّ المَعَارِفَ وَالوَقَائِعَ وَالاكْتِشَافَاتِ تَتَلاَشَى بِسُهُولَةٍ، وَقَدْ تَنْتَقِلُ مِنْ شَخْصٍ لِآخَرَ، وَيَكْتُبُهَا مَنْ هُمْ أَدْنَى مَهَارَةً، فَهَذِهِ الأَشْيَاءُ تَقُومُ خَارِجَ الإِنْسَانِ، **أَمَّا الأُسْلُوبُ فَهُوَ الإِنْسَانُ نَفْسُهُ**، فَالأُسْلُوبُ إِذًا لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَزُولَ أَوْ يَتَغَيَّرَ "[1]، وَيَقُولُ أَنَّ " الأَفْكَارَ تُشَكِّلُ وَحْدَهَا عُمْقَ **الأُسْلُوبِ**... لأَنَّ الأُسْلُوبَ لَيْسَ سِوَى النِّظَامَ وَالحَرَكَةَ، وَهَذَا مَا نَضَعُهُ فِي التَّفْكِيرِ "[2]. وَمِنْ هَذَا الفَهْمِ لِمَسْأَلَةِ الأُسْلُوبِ يَنْطَلِقُ كَثِيرٌ مِنَ الحَدَاثِيِّينَ حِينَ يُرِيدُونَ تَحْدِيدَ تَعْرِيفَاتِ وَخَصَائِصِ الأَسَالِيبِ.

وَيَعْتَقِدُ فْلُوبِيرْ *Flaubert* بِأَنَّ " الأُسْلُوبَ هُوَ الانْسِيَابِيَّةُ " [3] التِّي لاَ تَنْضَبُ، إِذْ كُلُّ تَعْبِيرٍ جَمِيلٍ عِنْدَهُ تَمْهِيدٌ لِمَا سَيَأْتِي بَعْدَهُ، أَمَّا مَالاَرْمِيهْ *Mallarme* فَيَرَى بِأَنَّهُ لَيْسَ بِالإِمْكَانِ كِتَابَةُ قَصِيدَةٍ بِالأَفْكَارِ وَحَسْب[4]، فِي إِشَارَةٍ مِنْهُ إِلَى أَهَمِيَّةِ الأُسْلُوبِ فِي إِخْرَاجْهَا إِلَى النَّاسِ. وَقَدْ تَبِعَهُ تِلْمِيذُهُ فْلُوبِيرْ *Flaubert* فِي ذَلِكَ حِينَ قَالَ بِأَنَّ الأُسْلُوبَ: " لِوحْدِهِ فَقَطْ، طَرِيقَةً لِلنَّظَرِ فِي الأَشْيَاءِ بِشَكْلٍ مُطْلَقٍ "[5]، فَهُوَ يَعْكِسُ بِشَكْلٍ جَلِيٍّ نَظْرَتَنَا لِتِلْكَ الأَشْيَاءِ. فِي حِينِ، يَجْعَلُ مَارْسَالْ بْرُوسِتْ *Marcel Proust*

1999م، ص51.

[1]– البنى الأسلوبية– دراسة في أنشودة المطر للسيّاب، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 ، 2002م، ص67 .

[2]– ينظر: الأسلوبية، جيرو، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري للدّراسات والتّرجمة والنّشر، حلب، سوريا، ط2، 1994م، ص36.

[3]- *Dictionnaire de la linguistique. Jean DUBOIS et autres, Larousse-Bordas, 2ème éd, 2002, p448 . « le style c'est la continuité ».*

[4]- *Ibid, p448. «On ne fait pas un poème avec des idées ».*

[5]-*Gustave Flaubert,* Correspondance,*édition établie par Jean Bruneau et Yvan Leclerc, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 5 vol. , 1973-2007, II, p :31. le style est « à lui tout seul une manière absolue de voir les choses ».*

الأُسْلُوبَ عِنْدَ الكَاتِبِ بِنَفْسِ أَهَمِّيَّةِ الأَلْوَانِ لَدَى الرَّسَّامِ، إِذْ المَسْأَلَةُ لَيْسَتْ مُتَعَلِّقَةً بِالتِّقْنِيَّةِ بَلْ بِالفِكْرِ[1] المُتَجَلِّي عَبْرَ الأُسْلُوبِ.

أَمَّا غُوتَه *Johann Goethe* فَيَرَى بِأَنَّ " الأُسْلُوبَ هُوَ مَبدَأُ التَّرْكِيبِ النَّشِطِ، والرَّفِيعِ، الذِّي يَتَمَكَّنُ بِهِ الكَاتِبُ النَّفَادَ إِلَى الشَّكْلِ الدَّاخِلِيِّ لِلُغَتِهِ، والكَشْفِ عَنْهُ "[2] كَوْنَهُ شَيْئًا دَاخِلِيًّا يَتَحَدَّدُ " كَأَثَرٍ تُنْتِجُهُ عَلاَقَاتٌ لُغَوِيَّةٌ بَيْنَ عَنَاصِرَ لِسَانِيَّةٍ. وَالبَحْثُ عَنْ هَذَا الأَثَرِ،إِنْ تَفْكِيكًا وَإِنْ إِعَادَةَ بِنَاءٍ، يَفْرِضُ عَلَى الدَّارِسِ البَقَاءَ دَاخِلَ الخِطَابِ "[3] الذِي لاَ يُمْكِنُ اسْتِجْلاَءُ عَنَاصِرِهِ جَمِيعِهَا بَعِيدًا عَنْ تَرْكِيبَتِهِ فِي كُلِّيَّتِهَا.

ثُمَّ بَدَأَتْ مَاهِيَّةُ الأُسْلُوبِ تَغْنَى مَعَ المَدَارِسِ الحَدِيثَةِ وَتَتَطَعَّمُ بِجُمْلَةٍ مِنَ التَّعْرِيفَات التِّي تَتَبَايَنُ مِنْ نَاقِدٍ إِلَى آخَرَ، فَهَذَا بُولْ فَالِيرِي *Paul Valéry* يَرَاهُ انْزِيَاحًا بِالنَّظَرِ إِلَى القَوَاعِدِ، أَيْ أَنَّهُ قُدْرَةُ الشَّاعِرِ أَوِ الكَاتِبِ عَلَى التَّمَرُّدِ عَلَى كُلِّ مَا هُوَ مَأْلُوفٌ [4]، إِذْ، كُلُّ مُتْعَةِ الأَدَبِ فِي البَحْثِ عَنِ الكَلِمَاتِ وَالحَفْرِ بَحْثًا عَنِ المَعْنَى فِي اللاَّمُتَوَقَّعِ مِنْهَا، خُصُوصًا وَأَنَّهُ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ مَاكَارُوفْسْكِي *Makarovsky* :" كُلَّمَا كَانَ قَانُونُ اللُّغَةِ المِعْيَارِيَّةِ أَكْثَرَ ثَبَاتًا فِي لُغَةٍ مَا، كَانَ انْتِهَاكُهُ أَكْثَرَ تَنَوُّعًا، وَمِنْ ثَمَّ كَثُرَتْ إِمْكَانَاتُ الشِّعْرِ فِي تِلْكَ اللُّغَةِ. وِمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، كُلَّمَا قَلَّ الوَعْيُ بِهَذَا القَانُونِ، قَلَّتْ إِمْكَانَاتُ الانْتِهَاكِ، وَمِنْ ثَمَّ تَقَلُّ إِمْكَانَاتُ الشِّعْرِ ".[5]

وَيُعَزِّزُ كُوهِنْ *Jean Cohen* هَذَا التَّوَجُّهَ فِي فَهْمِ الأُسْلُوبِ وَاصِفًا إِيَاهُ بِأَنَّهُ " كُلُّ مَا لَيْسَ شَائِعًا وَلاَ عَادِيًّا وَلاَ مُطَابِقًا لِلْمعيَارِ المَأْلُوفِ. وَيَبْقَى مَعَ ذَلِكَ أَنَّ الأُسْلُوبَ كَمَا مُورِسَ فِي الأَدَبِ، يَحْمِلُ قِيمَةً جَمَالِيَّةً. إِنَّهُ انْزِيَاحٌ بِالنِّسبَةِ لِلمِعْيَارِ، أَيْ أَنَّهُ خَطَأٌ. وَلَكِنَّه

---

[1]- *Marcel Proust, À la recherche du temps perdu, (Paris, Gallimard, 1989), IV, p. 474. « Le style pour l'écrivain aussi bien que la couleur pour le peintre est une question non de technique mais de vision ».*

[2]- النّصّ والأسلوب، عدنان بن ذريل، م.س، ص44.

[3]- الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002م، ص107.

[4]- ينظر محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر ، بشير تاوريرت، م.س، ص158

[5]- اللُّغة المعياريّة واللّغة الشّعريّة، جان مُوكاروفسكي، يُنظر: البنى الأسلوبية – دراسة في أنشودة المطر للسيّاب، حسن ناظم، م.س، ص44.

كَمَا يَقُولُ بْرُونُو (خَطَأٌ مَقْصُودٌ) "[1]، تَتَدَخَّلُ " جُرْأَةٌ مَا " لِدَفْعِ المُبْدِعِ إِلَى ارْتِكَابِهِ عَنْ وَعْيٍ وَسَبْقِ إِصْرَارٍ، إِذْ بِهِ يَصْنَعُ المُتْعَةَ التِّي يَرُومُ مِنْ خِلاَلِ الكِتَابَةِ.

أَمَّا كْرِيسُو *Marcel Cressot* فَيَرَى بِأَنَّ الأُسْلُوبَ هُوَ " الاختِيَارُ القَائِمُ مِنْ طَرَفِ المُتَكَلِّمِينَ فِي جَمِيعِ سُلُوكَاتِ اللُّغَةِ "[2]، لِذَلِكَ عَدَّهُ إِنْكِفَسْتْ *Enkvist Oskar* بِأَنَّهُ " مَجْموعَةٌ مِنَ الإِمْكَانِيَاتِ السِّيَاقِيَّةِ *Contextual* لِمُفْرَدَاتِهِ اللِّسَانِيَّةِ "[3]. وَهُوَ بِتَعْرِيفِ جَاكُبْسُونْ *Roman Jakobson* تَكَافُؤٌ، أَوْ تَعَادُلٌ مُرْتَبِطٌ " بِتَصَرُّفِ الكَاتِبِ أَو الشَّاعِرِ بِالمُفْرَدَاتِ، وَالتَّرَاكِيبِ عَلَى جَدْوَلَيْ (الاخْتِيَارِ وَالتَّوْزِيعِ)"[4].

وَيَبْدُو مَفْهُومُ الأُسْلُوبُ عِنْدَ بَارتْ *Roland Barthes* مُتَمَايِزًا عَمَّا سَبَقَ حِينَ يُصَرِّحُ بِأَنَّهُ لَيْسَ سِوَى " اسْتِعَارَةٍ أَيْ مُعَادَلَةِ مَا بَيْنَ النِّيَّةِ الأَدَبِيَّةِ وَالنِّيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ لِلكَاتِبِ "[5]، وَيُضِيفُ بِأَنَّهُ " لُغَةٌ اسْتِكْفَائِيَّةٌ تَغُوصُ فِي المِيثُولُوجْيَا الشَّخْصِيَّةِ وَالسَّرْدِيَّةِ لِلكَاتِبِ"[6] بَحْثًا عَنِ الكَامِنِ فِيهَا قُدُرَاتٍ وَطَاقَاتٍ تَعْبِرِيَّةٍ.

وَنَأْتِي إِلَى بْيِيرْ جِيرُو *Pièrre Guiroux* الذِّي يَرَى بِأَنَّ " مَضْمُونَ كَلِمَة أُسْلُوب وَاسِعٌ جِدًّا. وَهُوَ عِنْدَمَا يَخْضَع لِلتَّحْلِيلِ يَتَنَاثَرُ غُبَارًا مِنَ المَفَاهِيمِ المُسْتَقِلَّةِ "[7]، وَقَدْ رَاحَ النَّاقِدُ يُعَدِّدُ جُمْلَةً مِنَ المَفَاهِيمِ السَّابِقَةِ لِكَلِمَةِ (الأُسْلُوبِ)، وَالتِّي مِنْهَا، أَنَّهُ طَرِيقَةٌ جَمَالِيَّةٌ فِي اسْتِخْدَامِ الكِتَابَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ، أَوْ هُوَ اخْتِيَارٌ وَاعٍ لأَدَوَاتِ التَّعْبِيرِ[8]، وَالتِّي بِدُونِهَا يَسْتَحِيلُ " إِعْطَاءُ حُكْمٍ عَنِ الأُسْلُوبِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ العَمَلُ دُونَ مَعْرِفَةٍ وَثِيقَةٍ بِالأَهْدَافِ

---

[1]- بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م، ص15.

[2]- *Ibid, P :447 . Le style relève de la parole ; il est «le choix fait par les usagers dans tous les comportements de la langue ».*

[3]- ينظر: البنى الأسلوبية – دراسة في أنشودة المطر للسيّاب، حسن ناظم، م.س، ص22.

[4]- النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، م.س، ص37.

[5]- معاني علم الأسلوب، مصطفى الصاري الجوثي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م، ص180.

[6]- الأسلوبية وتحليل الخطاب – دراسة في النقد العربي الحديث، ج1، نور الدين السدّ، دار هومة، الجزائر، د.ط، 2010م، ص131.

[7]- الأسلوبيّة، جيرو، م.س، ص10.

[8]- يُنظر: الأسلوبية، جيرو، م.س، ص11.

التِّي حَدَّدَهَا العَمَلُ لِنَفْسِهِ وَالأَدَوَاتُ التِّي فِي حَوْزَتِهِ "[1]، وَلَعلَّ هَذَا يُشَوِّشُ الذِّهْنَ فِي مَرْحَلَةٍ مَا مِنْ مَرَاحِلِ اسْتِيعَابِ المَفْهُومِ.

فَالأُسلُوبَ، عِنْدَ جِيرُو " مَفْهُومٌ عَائِمٌ. فَهُو وَجْهٌ بَسِيطٌ للمَلْفُوظِ تارَةً، وهُوَ فَنٌّ واعٍ مِن فُنُونِ الكِتابَةِ تارَةً أُخْرَى، وهُو تَعْبِيرٌ يَصْدُرُ عَنْ طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ تارَةً ثَالِثَةً، ولِذَا فَهُوَ يَتَعَدَّى دَائِمًا الحُدُودَ التِّي يَدَّعِي أَنَّهُ انْغَلَقَ عَلَيْهَا "[2]. وَحِينَ صَنَّفَ جِيرُو الأُسْلُوبَ، عَرَّفَهُ " بِأَنَّهُ: – المظْهَرُ الذِّي فِي الخِطَابِ يَنْجُمُ عَنْ اخْتِيَارِ وَسائِلِ التَّعْبِيرِ، وَالتِّي بِدَوْرِهَا تُحَدِّدُهَا مَقَاصِدُ المتَكلِّمِ، أوِ الكَاتِبِ، وَطَبِيعَتِهِ "[3].

وَيَنْتَهِي جِيرُو، بَعْدَ هَذَا الوَصْفِ، إِلَى رَسْمِ تَعْرِيفَاتِهِ الخَاصَّةِ لِلأُسْلُوبِ انْطِلاَقًا مِنْ أَنَّهُ لاَ يُمِكِنُ " لِأَفْكَارِ الخِطَابِ وَجَوْهَرِهِ أَنْ تُؤْخَذَ مِنْ مُؤَلِّفِهَا، بَيْنَمَا الشَّكْلُ الذِّي أَعْطَاهُ لَهَا، فَهُوَ لَهُ خَاصِّيَةٌ مِنْ خَوَاصِّهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَوَّلَ، وَلاَ أَنْ يُهْدَمَ، وَلاَ أَنْ يُقَلَّدَ "[4]، مُؤَكِّدًا عَلَى خُصُوصِيَّةِ الأُسْلُوبِ وتَفَرُّدِ كُلِّ كَاتِبٍ بِهِ، ثُمَّ يَسْتَطْرِدُ فِي مَكَانٍ آخَرَ فَيَقُولُ: " وَلَكِنَّنَا نَرَى أَنَّ كَلِمَةَ أُسْلُوبٍ تَتَجَاوَزُ مَعْنَاهَا التَّقْلِيدِيَّ. وَالأُسْلُوبُ لَمْ يَعُدْ هُوَ فَنَّ الكَاتِبِ فَقَطْ، وَلَكِنَّهُ كُلُّ العُنْصُرِ الخَلَّاقِ لِلُّغَةِ وَالذِّي يُعَدُّ خَاصَّةً مِنْ خَوَاصِّ الفَرْدِ، وَيَعْكِسُ أَصَالَتَهُ "[5].

أَمَّا رِيفَاتِيرْ ***Riffaterre*** الذِّي مَالَ " إِلَى اعْتِبَارِ الأُسْلُوبِ مَصْدَرًا مُهِمًّا مِنْ مَصَادْرِ التَّأْثِيرِ الأَدَبِيِّ، وَعَرَّفَ الأُسْلُوبَ بِأَنَّهُ يَتَكَوَّنُ مِنْ تَأْسِيسٍ نَمَطٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الانْتِظَامِ اللُّغَوِيِّ الذِّي يُؤَدِّي إِلَى إِثَارَةِ تَوَقُّعَاتٍ لَدَى القَارِئِ "[6]، فَيَقُولُ بِأَنَّ: " اللُّغَةَ/الرِّسَالَةَ

---

[1]– الأسلوبية، بيير جيرو، م.س، ص29.

[2]– الأسلوبية، جيرو، م.س، ص47.

[3]– يُنظر: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، م.س، ص46.

[4]– الأسلوبية بيير جيرو، م.س، ص37.

[5]– نفسه، ص42.

[6]– النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، م.س، ص37.

تُعَبِّرُ، الأُسْلُوبُ يُؤَكِّدُ "[1]، أَيْ أَنَّهُ يَعْتَبِرُ الأُسْلُوبَ بُرُوزًا " تَفْرِضُهُ لَحَظَاتُ تَعاقُبِ الجُمَلِ عَلى انْتِبَاهِ القَارِئِ " [2].

وَيُؤَكِّدُ رِيفَاتِيرْ أَنَّ الأُسْلُوبَ لَيْسَ خَرْقًا لِعُرْفٍ خَارِجِيٍّ، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ مَنْظُورِ جَاكُبْسُون، بَلْ هُوَ خَرْقٌ يَقَعُ دَاخِلَ النَّصِّ نَفْسِهِ، إِذْ يُمْكِنُ لِلتَّأْثِيرِ الأُسْلُوبِيِّ أَنْ يَحْدُثَ عَنْ طَرِيقِ لُغَةٍ عَادِيَّةٍ، وَأَنَّ القَارِئَ هُوَ صَاحِبُ الحُكْمِ فِي الأَخِيرِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الأُسْلُوبَ هُوَ " إِبْرَازُ عَنَاصِرِ الكَلامِ، وَحَمْلُ المُتَلَقِّي لَهُ عَلَى الانْتِبَاهِ لَهَا..بِحَيْثُ إِذَا هُوَ غَفَلَ عَنْهَا شَوَّهَ النَّصَّ، وَإِذَا حَلَّلَهَا وَجَدَ فِيهَا دَلاَلاَتٍ مُتَمَيِّزَةٍ خَاصَّةٍ.."[3].

إِنَّ مَفْهُومُ النَّصِّ عِنْدَ رِيفَاتِيرْ مُرْتَبِطٌ بِالأَدَبِيَّةِ وَالتِّي تَرْتَبِطُ بِالفَرَادَةِ. وَالفَرَادةُ أُسْلُوبٌ. وَالأُسْلُوبُ هُوَ النَّصُّ.(...) وَالنَّصُّ الأَدَبِيُّ لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الوُجُودِ فِي غِيَابِ أُسْلُوبٍ يَحْتَوِيهِ، وَلاَ وُجُودَ لِلأُسْلُوبِ فِي غَيْرِ فَرَادَةٍ أَوْ تَمَيُّزٍ. وَيَدُورُ الأَمْرُ عَلَى نَفْسِهِ بِلاَ انْقِطَاعٍ[4].

2- الأُسْلُوبِيَّةُ:

لَعَلَّ نُوفَالِيسْ يَكُونُ أَوَّلَ مَنْ وَظَّفَ مُصْطَلَحَ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي كَانتْ عِنْدَهُ مُخْتَلِطَةً بِالبَلاَغَةِ. مَا جَعَلَ هِيلاَنْغْ، بَعْدَ ذَلِكَ، يَرَاهَا عِلْمًا بَلاَغِيًّا [5], لَكِنَّ تَحْدِيدَ تَعْرِيفَاتِ المُصْطَلَحِ الوَلِيدِ لَمْ تَشْهَدِ الدِّقَّةَ العِلْمِيَّةَ إِلاَّ مَعَ شَارْلْ بَالِي *Charles Bally* الذِّي اسْتَفَادَ مِنْ دِرَاسَاتِ وَنَتَائجِ أُسْتَاذِهِ دِي سُوسِير فِي مَجَالِ اللُّغَةِ، فَابْتَكَرَ " الأُسْلُوبِيَّةَ وَأَشَعَّ بِهَا عَلَى مَا أَشَعَّتْ عَلَيْهِ الدِّرَاسَةُ اللِّسَانِيَّةُ عَامَّةً "[6]، وَثَبَّتَ لِلأُسْلُوبِيَّةِ شَرْعِيَّةَ

[1] - *Ibid, p448. « La langue exprime, le style souligne », Voir aussi P :449. « le message exprime et le style souligne ».*

[2]- النّصّ والأسلوب، عدنان بن ذريل، م.س، ص44.

[3]- اللغة والأسلوب، عدنان بن ذريل، م.س، ص142.

[4]- يُنظر: الأسلوبية وتحليل الخِطاب، منذر عياشي، م.س، صص151،150.

[5]- يُنظر: الأسلوبية، بيير جيرو، م.س، ص9.

[6]- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدّار العربيّة للكتاب، ط3، د.ت، ص43.

وُجُودِهَا " كَعِلْمٍ جَدِيدٍ يَبْحَثُ فِي أَنْمَاطِ التَّعْبِيرِ التِّي تُقَدِّمُهَا اللُّغَةُ (...) وَالبَحْثُ الأُسْلُوبِيُّ إِنَّمَا يُحَاوِلُ- حَسَبَ بَالِي- أَنْ يَسْتَكْنِهَ انِقِيَادَاتِ الكَلاَمِ لِقَوَانِينِ اللُّغَةِ "[1]، فَقَدْ نَقَلَ بِذَلِكَ، وَبِتَأْثِيرٍ مِنَ اللِّسَانِيَاتِ، دَرْسَ الأُسْلُوبِ إِلَى مَيْدَانٍ جَدِيدٍ مُسْتَقِلٍّ عَنِ الدَّرْسِ البَلاَغِيِّ، لِيَصِيرَ دَرْسًا أُسْلُوبِيًّا[2]، وَالذِّي عَرَّفَهُ بِأَنَّهُ " دِرَاسَةُ الوَقَائِعِ التَّعْبِيرِيَّةِ المُنْتَظِمَةِ لِلُّغَةِ مِنْ زَاوِيَةِ مُحْتَوَاهَا العَاطِفِيِّ، أَيْ تَعْبِيرُ الأَفْعَالِ الشُّعُورِيَّةِ مِنْ خِلاَلِ اللُّغَةِ وَتَأْثِيرَاتِهَا عَلَى تِلْكَ المَشَاعِرِ"[3].

وَلِكَيْ يَضْبِطَ بَالِي حُدُودَ العِلْمِ النَّاشِئِ فَإِنَّهُ سَعَى إِلَى تَمْيِيزِهِ عَنْ بَقِيَّةِ العُلُومِ التِّي تُلاَمِسُ مَجَالَهُ فَتَتَدَاخَلُ مَعَهُ، كَمَا هِيَ الحَالُ مَع عِلْمِ النَّفْسِ وَاللِّسَانِيَاتِ مَثَلاً، فَيَقُولُ: " نَحْنُ نَرَى أَنَّ مَوْضُوعَ الأُسْلُوبِيَّةِ يَكْمُنُ فِي التَّعْبِيرِ المَنْطُوقِ وَلَيْسَ فِي حَدَثِ التَّفْكِيرِ"[4]، وَهُوَ بِهَذَا " لاَ يَرَى فِي الأُسْلُوبِ حَدَثًا لُغَوِيًّا يُفْصِحُ عَنْ شَكْلِهِ الخَاصِّ، كَمَا لاَ يَرَى فِي الأُسْلُوبِيَّةِ شَكْلَهَا المُضَاعَفَ، أَيْ أَنَّهَا (عِلْمُ التَّعْبِيرِ، وَنَقْدُ الأَسَالِيبِ الفَرْدِيَّةِ)"[5].

غَيْرَ أَنَّ هَذَا التَّوَجُّهَ جَعَلَ حُدُودَ الأُسْلُوبِيَّةِ تَضِيقُ مَعَ بَالِي إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْ تَلاَمِذَتَهُ أَنْفُسُهُمْ، فِيمَا بَعْدُ، يَعْمَلُونَ عَلَى تَجَاوُزِ هَذَا المَنْحَى فِي تَخْصِيصِ دَرْسِهَا عَلَى الجَانِبِ القَائِمِ عَلَى مَا " فِي اللُّغَةِ مِنْ وَسَائِلَ تَعْبِيرِيَّةٍ تُبرِزُ المُفَارَقَاتِ العَاطِفِيَّةَ وَالإِرَادِيَّةَ وَالجَمَالِيَّةَ بَلْ حَتَّى الاجْتِمَاعِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ، فَهِيَ إِذَنْ تَنْكَشِفُ أَوَّلاً وَبِالذَّاتِ فِي اللُّغَةِ الشَّائِعَةِ التَّلْقَائِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَبْرُزَ فِي الأَثَرِ الفَنِّيِّ "[6]. لَقَدْ فَتَحَ هَذَا، الدَّرْسَ الأُسْلُوبِيَّ عَلَى أَلْوَانِ الخِطَابِ كُلِّهَا، وَعَلَى الكَلاَمِ أَيْنَمَا كَانَ، غَيْرَ أَنَّ الأُسْلُوبِيِّينَ الذِّينَ آمَنُوا بِهَذَا

---

[1]- البنى الأسلوبية، حسن ناظم، م.س، ص32.

[2]- الأسلوبية وتحليل الخطاب، عياشي، م.س، ص30.

[3]- *Ibid, p448. «Etude des faits d'expression du langage organisé du point de vue de leur contenu affectif, c'est-a-dire l'expression des faits de la sensibilité par le langage et l'action des faits de langage sur la sensibilité ».*

[4]- الأسلوب وتحليل الخطاب، منذر عياشي، م.س، ص31.

[5]- الأسلوبية، جيرو، م.س، ص32.

[6]- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، م.س، ص41.

الطَّرْحِ، وَمِنْهُم أَتْبَاعَ بَالِي، عَادُوا عَنْ ذَلِكَ التَّوَسُّعِ لِيَقْصُرُوا الأُسْلُوبِيَّةَ عَلَى الخِطَابِ الأَدَبِيِّ وَفَقَطْ.

وَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْهِ رُومَانْ جَاكُبْسُونْ، وهُوَ الذِّي انطَلَقَ فِي جُهُودِهِ مِنْ مَقُولاَتِ الشَّكْلاَنِيِّينَ الرُّوسْ، إِذْ يُعَرِّفُ الأُسْلُوبِيَّةَ بِأَنَّهَا: " بَحْثٌ عَمَّا يَتَمَيَّزُ بِهِ الكَلاَمُ الفَنِّيُّ مِنْ بَقِيَّةِ مُسْتَوَيَاتِ الخِطَابِ أَوَّلاً، وَمِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الفُنُونِ الإِنْسَانِيَّةِ ثَانِيًا "[1]، وَهَذَا، كَمَا نَرَى، عَيْنُ التَّوَجُّهِ الذِّي وَصَلَتْ إِلَيْهِ مَدْرَسَةُ بَالِي حِينَ تَرَاجَعَتْ عَنْ مَقُولاَتِهَا الأُولَى، فَاللُّغَةُ الأَدَبِيَّةُ وَمَا يَنْتُجُ عَنْهَا مِنْ خِطَابَاتٍ تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهَا، وَمِنْ ثَمَّ تَخْتَلِفُ وُجُوهُ النَّظَرِ فِيهَا، حَتَّى أَنَّ كُوهِنْ يَعُدُّ اللُّغَةَ الشَّاعِرِيَّةَ " كَوَاقِعَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ فِي مَعْنَاهَا العَامِّ. وَالأَمْرُ الأَوَلِيُّ الذِّي سَيَنْبَنِي عَلَيْهِ هَذَا التَّحْلِيلُ هُوَ أَنَّ الشَّاعِرَ لاَ يَتَحَدَّثُ كَمَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ جَمِيعًا بَلْ إِنَّ لُغَتَهُ شَاذَّةٌ، وَهَذَا الشُّذُوذُ هُوَ الذِّي يُكْسِبُهَا أُسْلُوبًا، فَالشِّعْرِيَّةُ هِيَ عِلْمُ الأُسْلُوبِ الشِّعْرِيِّ "[2]، الذِّي يَتَتَبَّعُ مَكَامِنَ الفَرَادَةِ فِي أُسْلُوبِ شَاعِرٍ أَوْ كَاتِبٍ مَا.

وَمَعَ بُورتُونْ *Burton* " تَخْرُجُ الأُسْلُوبِيَّةُ عَنْ كَوْنِهَا مَنْهَجًا مُحَايِثًا يَنْظُرُ إِلَى اللُّغَةِ – وَاللُّغَةِ فَقَطْ– فِي عَمَلِيَّةِ التَّحلِيلِ الأُسْلُوبِيِّ، إِنَّهُ يَتَجَاوَزُ اللُّغَةَ إِلَى رَبْطِهَا بِالوَاقِعِ وَالإِيدْيُولُوجْيَا لِيَسْتَجْلِيَ رُؤْيَةَ العَالَمِ كَمَا تَتَكَوَّنُ فِي النَّصِّ عَبْرَ فَحْصِ لُغَتِهِ، أَوْ – بِشَكْلٍ أَدَقَّ– فَحْصِ طَبِيعَةِ الاخْتِيَارَاتِ الحَاصِلَةِ فِي لُغَةِ النَّصِّ "[3]، فَتُصْبِحُ العِنَايَةُ مُنْصَبَّةً لاَ عَلَى اللُّغَةِ وَحَسْبْ، بَلْ عَلَى حَمُولَتِهَا المَعْرِفِيَّةِ التِّي تَعْكِسُهَا اخْتِيَارَاتُ الكَاتِبِ وَ" بِهَذَا الإِجْرَاءِ إِنَّمَا نُمَارِسُ تَأْوِيلًا خَاصًّا لِلنَّصِّ الشِّعْرِيِّ. وَفِي الحقِيقَةِ، فَإِنَّ التَّأْوِيلَ لَصِيقٌ بِكُلِّ مُمَارَسَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ "[4].

---

[1]– جاكبسون، محاولات في اللّسانيات العامة، ينظر: الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، م.س، ص37.

[2]– بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، م.س، ص15.

[3]– البنى الأسلوبية، حسن ناظم، م.س، ص60.

[4]– نفسه، صص60،61.

يَدْفَعُنَا هَذَا إِلَى التَّسَاؤُلِ عَنِ الحُدُودِ التِّي تُلاَمِسُهَا الأُسْلُوبِيَّةُ فِي تَعَامُلِهَا مَع اللُّغَةِ، فَيُجِيبُنَا غِيُومْ *G. Guillaume* قَائِلاً: " لَيْسَتِ اللُّغَةُ هِيَ الذَّكِيَّةُ وَإِنَّمَا الاسْتِعْمَالُ هُوَ الذِّي يَجْعَلُهَا كَذَلِكَ " [1]، أَيْ أَنَّ الأُسْلُوبَ الذِّي يَخْتَارُهُ الكَاتِبُ لِتَوظِيفِ اللُّغَةِ هُوَ الذِّي يُعْطِي نَصَّهُ التَّمَيُّزَ وَالخُصُوصِيَّةَ، وَاعْتِبَارًا لِذَلِكَ فَإِنَّنَا سنُطْلِقُ " مُصْطَلَحَ (أُسْلُوبِيَّةُ) عَلَى: الدِّرَاسَةِ التِّي تُرَكِّزُ عَلَى الأَشْكَالِ الأَدَبِيَّةِ لِلنَّصِّ "[2] بَدْءً بِاللُّغَةِ وَتَمَظْهُرَاتِهَا، " بَيْدَ أَنَّ الدِّرَاسَةَ اللُّغَوِيَّةَ لاَ تُصْبِحُ أَدَبِيَّةً إِلَّا حِينَمَا تَخْدُمُ دِرَاسَةَ الأَدَبِ، أَيْ حِينَمَا تَبْحَثُ الآثَارَ الجَمَالِيَّةَ لِلُّغَةِ–بِاخْتِصَارٍ حِينَمَا تُصْبِحُ عِلْمَ الأَسَالِيبِ (عَلَى الأَقَلِّ فِي أَحَدِ مَعَانِي هَذِهِ الكَلِمَةِ)"[3].

غَيْرَ أَنَّ هَذَا لاَ يَمْنَعُ عِلَمَ الأَسَالِيبِ مِنْ النَّظَرِ فِي أَنْوَاعِ الخِطَابَاتِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، حَتَّى العَادِيِّ وَغَيْرِ الأَدَبِيِّ مِنْهَا، مِنْ بَابِ المُقَارَنَةِ بَيْنَ أَنْظِمَتِهَا لِإِدْرَاكِ اسْتِخْدَامَاتِهَا المُتَبَايِنَةِ فِي العُصُورِ المُخْتَلِفَةِ، لِلتَّمَكُّنِ مِنَ الحُكْمِ عَلَى أُسْلُوبِ كَاتِبٍ مَا أَوْ حَرَكَةٍ أَدَبِيَّةٍ مَا بِخَلْفِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ صَلْبَةٍ تُتِيحُ الإِحَاطَةَ بِخَصَائِصِ كُلِّ خِطَابٍ فِي كُلِّ عَصْرٍ بَعِيدًا عَنِ الأَحْكَامِ الجَاهِزَةِ، وَالقَوَالِبِ المُسْبَقَةِ[4].

لأَجْلِ هَذَا كَانَ رِيفَاتِيرْ يُؤَكِّدُ عَلَى" أَهَمِّيَةِ الزَّمَنِ كَعَامِلٍ مُغَيِّرٍ فِي الدَّلاَلَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، فَاسْتِجَابَاتُ القَارِئِ النَّمُوذَجِّيِّ لاَ تَصْلُحُ إِلاَّ بِالنِّسْبَةِ لِحَالَةِ اللُّغَةِ التِّي يَعْرِفُهَا، إِذْ إِنَّ وَعْيَهُ اللُّغَوِيَّ الذِّي يَتَحَكَّمُ فِي رُدُودِ فِعْلِهِ يَتَّصِلُ فَحَسْب بِفِتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ وَجِيزَةٍ فِي تَطَوُّرِ اللُّغَةِ "[5]، لاَ تَسْمَحُ لَهُ بِإِصْدَارِ أَحْكَامٍ عَامَّةٍ تَنْسَحِبُ عَلَى الخِطَابَاتِ المُخْتَلِفَةِ التِّي يَتَعَامَلُ مَعَهَا.

مِنْ هُنَا عَمِدَ رِيفَاتِيرْ فِي بَحْثِهِ الأُسْلُوبِيِّ إِلَى " انْتِقَاءِ وَقَائِعَ أُسْلُوبِيّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ، وَلاَ يُمْكِنُ

---

[1]- *Ibid, p448. «Ce n'est pas le langage qui est intelligent, mais l'utilisation qu'on en fait ».*

[2]– النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، م.س، ص36.

[3]– نظرية الأدب، أوستن وارن روني وبلاك، تر:عادل سلامة، م.س، ص241.

[4]– يُنْظر: نفسه، ص.ن.

[5]– علم الأسلوب، مبادئه، وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة – بيروت، ط1، 1419هـ/1998م، ص 223.

فَهْمُ هَذِهِ الوَقَائِعِ إلاَّ فِي اللُّغَةِ، بِمَعْنَى أَنَّ الإِطَارَ الذِّي يَضُمُّ هَذِهِ الوَقَائِعَ إِنَّمَا هُوَ اللُّغَةُ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ النُّصُوصَ الأَدَبِيَّةَ لاَ تُعَدُّ كَذَلِكَ إلاَّ إِذَا دَخَلَتْ فِي عَلاَقَةٍ مَعَ القَارِئِ "[1]، فكلِمَاتُ نَصٍّ مَا لاَ تُحَقِّقُ أَدبِيَّتَهَا إلاَّ فِي ضَوْءِ تِلْكَ العَلاَقَةِ التِّي تَسْعَى إِلَى اسْتِجْلاَءِ مَظَاهِرِ الانْحِرَافِ فِيهِ، وَالتِّي قَدْ تَكُونُ " المُتَسَبِّبَةِ فِي انِفْعَالِ القَارِئِ وَجُزْءًا مِنْ بِنْيَتِهِ الأُسْلُوبِيَّةِ "[2].

هَذَا الخُرُوجُ عَنِ المِعْيَارِ هُوَ الوَجْهُ الأَبْرَزُ فِي أُسْلُوبِيَّةِ سْبِيتْزَرْ وَالتِّي يُصْطَلَحُ عَلَى تَسْمِيَتِهَا: أُسْلُوبِيَّةَ الكَاتِبِ، " ذَلِكَ أَنَّ مِنْ أَهْدَافِهَا الكَشْفَ عَنْ المؤَلِّفِ عَبْرَ تَفَحُّصِ أُسْلُوبِهِ، أَيْ بُنَاهُ الأُسْلُوبِيَّةُ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ، وَأَنَّ أُسْلُوبِيَّتَهُ تُدْخِلُ فِي حِسَابِهَا فِكْرَةَ الانْحِرَافِ عَنِ المِعْيَارِ الذِّي يَتَمَثَّلُ بِخُرُوجِ بُنَى النَّصِّ عَنْ الاسْتِخْدَامِ الاعْتِيَادِيِّ لِلُّغَةِ، وَأَنَّهَا تُوجَدُ انْحِيَازًا لِلنَّصِّ مِنْ أَجْلِ مُعَالجَتِهِ مُعَالجَةً أُسْلُوبْيَّةً ".[3]

يَزْعُمُ بَاخْتِينْ أَنَّ المَصِيرَ الأَكْبَرَ لِلخِطَابِ الأَدَبِيِّ قَدْ وَاراهُ الاهْتِمَامُ بِمَسَائِلَ أَصْغَرَ وَهِيَ المُتَّصِلَةَ بِالفَنَّانِ وَتَوَجُّهَاتِهِ الفَرْدِيَّةِ، وَقَدْ حَرَمَ هَذَا الأُسْلُوبِيَّةَ مِنَ النَّظَرِ الجِدِّيِّ فِي مُشْكِلاَتِهَا، كَوْنَهَا غَرَقَتْ فِي التَّفَاصِيلِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْ دُونِ الانْتِبَاهِ إِلَى العَوَامِلِ الخَارِجِيَّةِ، بِكُلِّ أَشْكَالِهَا، المُوَجِّهَةِ لِلتَّحَوُّلاتِ فِي العَمَلِ الفَرْدِيِّ[4]، " إِنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ لاَ تَهْتَمُّ بِالكَلاَمِ الحَيِّ، بَلْ بِتَفْصِيلِهِ النَّسِيجَوِيِّ، وَباللَّفْظَةِ المُجَرَّدَةِ التِّي هِي فِي خِدْمَةِ قُدْرَةِ الفَنَّانِ عَلَى التَّحَكُّمِ وَالتَّطْوِيعِ. غَيْرَ أَنَّ تَنَاغُمَاتِ الأُسْلُوبِ تِلْكَ، وَقَدْ أُبْعِدَتْ عَنِ الطُّرُقِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لِحَيَاةِ اللَّفْظَةِ، تَتَعَرَّضُ حَتْمًا، لِتَنَاوُلٍ ضَيِّقٍ وَتَجْرِيدِيٍّ يَتَعَذَّرُ مَعَهُ أَنْ نَسْبِرَهَا ضِمْنَ كُلٍّ

[1]- البنى الأسلوبيّة، حسن ناظم، م.س، ص74.

[2]- الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، نور الدّين السّد، م.س، ص87.

[3]- البنى الأسلوبيّة، حسن ناظم، م.س، ص37.

[4]- الخِطَابُ الرِّوَائي، ميخَائيل باختين، تر: محمد برادة، دار الفكر للدّراسات والنّشر والتّوزيع، القاهرة-باريس، ط1، 1987م، ص35.

عُضْوِيٍّ فِي إِطَارِ مَجَالاَتِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ الدَّلاَلِيَّةِ "[1]، فَتَفْقِدُ الأُسْلُوبِيَّةِ حِينَذَاكَ وَاحِدَةً مِنْ أَهَمِّ أَدَاوَاتِهَا لِمُقَارَبَةٍ مُلِمَّةٍ بِتَفَاصِيلِ الخِطَابِ وَجُزْئِيَاتِهِ.

وَيُقِرُّ جِيرُو بِأَنَّ الدَّرْسَ الأُسْلُوبِيَّ يَتَفَاوَتُ وَيَبَايَنُ لِارْتِبَاطِهِ بِالزَّوَايَا المُخْتَلِفَةِ لِنَظَرِ المُحَلِّلِينَ الأُسْلُوبِيِّينَ لِلخِطَابِ[2]، ثُمَّ يَضَعُ تَصَوُّرَهُ الخَاصَّ لِهَذَا العِلْمِ وَالذِّي يَصِفُهُ بِأَنَّهُ " دِرَاسَةً لِلتَّعْبِيرِ اللِّسَانِيِّ "[3]، فَيَقُولُ:" إِنَّ أُسْلُوبِيَّتَنَا دِرَاسَةٌ لِلمُتَغَيِّرَاتِ اللِّسَانِيَّةِ إِزَاءَ المِعْيَارِ القَاعِدِيِّ. وَهَذَا يَتَطَابَقُ مَعَ التَّقْلِيدِ القَدِيمِ الذِّي يَضَعَ البَلاَغَةَ فِي مُوَاجَهَةِ القَوَاعِدِ. وَالقَوَاعِدُ فِي هَذَا المَنْظُورِ، هِيَ مَجْمُوعَةُ القَوَانِينِ، أَيْ الالتِزَامَاتُ التِّي يَفْرِضُهَا النِّظَامُ وَالمِعْيَارُ عَلَى مُسْتَعْمِلِ اللُّغَةِ. فَالأُسْلُوبِيَّةُ تُحَدِّدُ نَوْعِيَّةَ الحُرِّيَاتِ فِي دَاخِلِ هَذَا النِّظَامِ "[4]، الذِّي سَيَشْتَغِلُ عَلَيْهِ القَارِئُ بِنَوْعَيْهِ: العَادِيُّ والمُتَمَرِّسُ مِنْ أَجْلِ اسْتِخْلاَصِ الأَوْجُهِ المُمْكِنَةِ لِلأَدَبِيَّةِ ضِمْنَ خِطَابٍ مَا. إِنَّ القَوَاعِدَ هُنَا، هِيَ الضَّوَابِطُ وَالمَعَايِيرُ التِّي لَيْسَ لِلأَدِيبِ يَدٌ فِيهَا، فَـ " هِيَ العِلْمُ الذِّي لاَ يَسْتَطِيعُ الكَاتِبُ أَنْ يَصْنَعَهُ. أَمَّا الأُسْلُوبِيَّةُ، فَهِيَ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَهُ، لأَنَّ هَذَا هُوَ مَوْضُوعُ نَقْدِ الأُسْلُوبِ عَلَى مُسْتَوَى النَّصِّ "[5].

3- اتِّجَاهَاتُ الأُسْلُوبِيَّةِ:

فِي نَدْوَةٍ عِلْمِيَّةٍ أَقَامَتْهَا مَجَلَّةُ فُصُول فِي القَاهِرَةِ عَام 1982م، قَالَ سَعْدْ مَصْلُوحْ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَفْهُومِ الأُسْلُوبِيَّةِ وَجَدْوَاهَا بِأَنَّ تِلْكَ "كُلُّهَا مُقَارَبَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ لِظَاهِرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَبِهَا يَكُونُ عِلْمُ الأَسْلُوبِ لَيْسَ عِلْمًا وَاحِدًا، بَلْ سَيَكُونُ هُنَاكَ عِلْمُ الأُسْلُوبِ التَّعْبِيرِيِّ(...) وَيَدْرُسُ عَلاَقَةَ النَّصِّ بِالمُنْشِئِ، وَعِلْمُ الأُسْلُوبِ التَّأْثِيرِيُّ الذِّي يَدْرُسُ عَلاَقَةَ النَّصِّ بِمُتَلَقِّيهِ، وَهُنَاكَ عِلْمُ الأُسْلُوبِ المَوْضُوعِيُّ الذِّي يَقْصُرُ نَفْسَهُ عَلَى مُعَالَجَةِ

[1]- الخِطَابُ الرِّوَائِي، ميخَائيل باختين، م.س، ص.ن.

[2]- يُنظر: الأسلوبية، جيرو، م.س، ص144.

[3]- نفسه، ص10

[4]- نفسه، ص13.

[5]- نفسه، ص.ن.

النَّصِّ فِي ذَاتِهِ، وَهَكَذَا يَتَفَرَّعُ عِلْمُ الأُسْلُوبِ إِلَى عُلُومٍ عِدَّةٍ "[1]، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تُشَعِّبُ الإِشْكَالِيَّةَ وَتُفَرِّعُهَا، خُصُوصًا وَنَحْنُ فِي البِدَايَاتِ نُرِيدُ ضَبْطَ المُصْطَلَحَاتِ وَحَصْرَهَا، وَقَدْ حَاوَلْنَا جَهْدَنَا فِعْلَ ذَلِكَ فِي المَبْحَثِ السَّابِقِ، لِذَا سَيَكُونُ حَدِيثُنَا المُوالِي عَنْ اتِّجَاهَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ الكُبْرَى.

أ- الأُسْلُوبِيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ:

تُعْرَفُ الأُسْلُوبِيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ *Phonetic Stylistic* بِكَوْنِهَا عِلْمًا يَنْتَمِي إِلَىٰ الْفُونُولُوجْيَا *Phonology* ، وَيَتَنَاوَلُ بِالدِّرَاسَةِ الخَصَائِصَ الصَّوْتِيَّةَ فِي لُغَةِ الْإِنْسَانِ، وَالتِّي لاَ تَدْخُلُ فِي نِظَامِ اللُّغَةِ وَقَوَاعِدِهَا، مِنْ خِلاَلِ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَحْمِلُ الْوَظِيفَتَيْنِ:الإِنْفَعَالِيَّةَ وَالنِّدَائِيَّةَ، كَطَرِيقَةِ التَّلَفُّظِ وَمَوْضِعِ النُّطْقِ وَالنَّبْرَةِ وَحِدَّةِ الصَّوْتِ، وَكُلِّ مَا يَسْمَحُ لِلسَّامِعِ أَنْ يُكَوِّنَ فِكْرَةً عَنِ المُتَكَلِّمِ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ مَعْنَىٰ مَا يَقُولُهُ، كَأَصْلِهِ الإِجْتِمَاعِيِّ وَمَنْشَئِهِ الجُغْرَافِيِّ، وَدَرَجَةِ ثَقَافَتِهِ أَوْ جِنْسِيَّتِهِ[2].

وَقَدْ حَدَّدَ تْرُوبَتْزْ كُويْ *Troubetz koy* الإِطَارَ الْعَامَّ لِلْأُسْلُوبِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ فِي كِتَابِهِ (المَبَادِئُ الصَّوْتِيَّةُ) مُسْتَلْهِمًا مُخَطَّطَ ك.بُولْهِير بَيْنَ جُمْلَةٍ مِنَ الصَّوْتِيَاتِ وَالتِّي مِنْهَا: النِّدَائِيَّةَ وَالتَّعْبِيرِيَّةَ، وَاللَّذَانِ هُمَا أَسَاسُ الأُسْلُوبِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ المُعْتَمِدَةِ عَلَى مَفْهُومِ المُتَغَيِّرَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي تَسْتَطِيعُ اللُّغَةُ، بِقَدْرِ مَا تَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّصَرُّفِ، أَنْ تَسْتَخْدِمَهَا لِغَايَاتٍ أُسْلُوبِيَّةٍ[3].

فَالأُسْلُوبِيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ، كَآلِيَّةٍ نَقْدِيَّةٍ، تَتَّجِهُ فِي دِرَاسَتِهَا لُغَةَ الشِّعْرِ، إِلَى فَحْصِ المُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ فِيهِ، لَيْسَ لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ جَوْهَرَ الشِّعْرِ[4]، بَلْ أَيْضًا لِمَا تَحْوِيهِ المَادَّةُ الصَّوْتِيَّةُ

[1]- ندوة الأسلوبية، سعد مصلوح، مجلة فصول، ع1، مج5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م، ص217 .

[2]- المعجم المفصّل في اللّغة والأدب، مج1، إميل يعقوب وميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1987م، ص623.

[3]- الأسلوبيّة، بيير جيرو، م.س، صص59،60.

[4]- ينظر: أثر اللّسانيّات في النّقد الأدبيّ الحديث من خلال بعض نماذجه، توفيق الزّيديّ، د.ط، الدّار العربيّة للكتّاب، تونس، 1984م، ص61.

مِنَ تَأْثِيرَاتٍ تُلاَمِسُ وِجْدَانِ السَّامِعِ، دُونَ أَنْ تُغَادِرَ مِعْيَارِيَّةَ اللُّغَةِ التِّي تُمَثِّلُ " دَرَجَةَ الصِّفْرِ الْبَلاَغِيِّ "، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْتَقِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الفَنِّيَّةِ وَالجَمَالِ إِنْ هِيَ رُكِّبَتْ فِي قَوَالِبَ تَشِفُّ عَنْ الدَّلاَلَةِ الكَامِنَةِ وَتُفَعِّلُهَا، ذَلِكَ لأَنَّ " فِي حَوْزَةِ اللُّغَةِ نَسَقًا كَامِلاً مِنَ المُتَغَيِّرَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ (...) النَّبْرُ، المَدُّ، التَّكْرَارُ، المُحَاكَاةُ الصَّوْتِيَّةُ، الجِنَاسُ الاسْتِهْلاَلِيُّ، التَّنَاغُمُ،..."[1] وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ يُمْكِنُ تَوْظِيفُهُ لِلكَشْفِ عَنِ الخَصَائِصِ الأُسْلُوبِيَّةِ لِلصَّوْتِ فِي أَيِّ عَمَلٍ أَدَبِيٍّ.

وَمِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ، تَشْتَغِلُ الأُسْلُوبِيّةُ الصَّوْتِيَّةُ عَلَى مَظَاهِرِ الصَّوْتِ فِي النَّصِّ الشِّعْرِيِّ فِي كُلِّ تَجَلِّيَاتِهِ، وَتَسْتَنْطِقُ كُلَّ مُكَوِّنَاتِهِ مِنْ أَجْلِ الوُصُولِ إِلَى أَسْرَارِ الهَنْدَسَةِ الصَّوْتِيَّةِ فِيهِ، لِتَكْشِفَ تَأْثِيرَهَا وَفَاعِلِيَّتَهَا فِي الخِطَابِ، وَبِالطَّبْعِ لاَ يَكُونُ ذَلِكَ بِفَصْلِ دِرَاسَةِ المُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ عَنْ بَاقِي المُسْتَوَيَاتِ كَوْنَهَا تَعْمَلُ جَمِيعًا، وَفِي آنٍ وَاحِدٍ، عَلَى ضَمَانِ انْسِجَامِ النَّصِّ وَتَنَاسُقِهِ.

ب- الأُسْلُوبِيَّةُ التَّعْبِيرِيَّةُ:

وَيَتَزَعَّمُهَا اللِّسَانِيُّ شَارْلْ بَالِي وَحَسْبَهُ فَإِنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ تَدْرُسُ المَضْمُونَ الوِجْدَانِيَّ لِلُّغَةِ، حَيْثُ أَنَّ اللُّغَةَ سَوَاءً نَظَرْنَا إِلَيْهَا مِنْ زَاوِيَةِ المُتَكَلِّمِ أَوْ مِنْ زَاوِيَةِ المُخَاطَبِ فَإِنَّهَا تُعَبِّرُ عَنِ الفِكْرَةِ مِنْ خِلاَلِ مَوْقِفٍ وِجْدَانِيٍّ حَيْثُ يُشَكِّلُ المَضْمُونُ الوِجْدَانِيُّ لِلُّغَةِ مَوْضُوعَ الأُسْلُوبِيَّةِ عِنْدَهُ وَتَرْتَبِطُ أَشْكَالُ التَّعْبِيرِ بِالمَوَاقِفِ الوِجْدَانِيَّةِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا، وَلَكِنَّ دِرَاسَةَ المَضْمُونِ أَوِ الحَالَةِ الوِجْدَانِيَّةِ التِّي تَنْعَكِسُ فِي ظَرْفٍ مَا مِنَ الظُّرُوفِ تَبْدُو أَقَلَّ اهْتِمَامًا مِنَ الاهْتِمَامِ بِدِرَاسَةِ البُنَى اللِّسَانِيَّةِ وَقِيَمِهَا التَّعْبِيرِيَّةِ عُمُومًا[2].

[1]- الأسلوبيّة، جيرو، م.س، ص61.

[2]- ينظر: م.س، ص54.

يَرَى شَارْلْ بَالِي بِأَنَّ الطَّابَعَ الوِجْدَانِيَّ هُوَ الأَسَاسُ فِي أَيَّةِ عَمَلِيَّةِ تَوَاصُلٍ بَيْنَ المُخَاطِبِ وَالمُخَاطَبِ، وَيَعُدُّهُ عَلاَمَةً فَارِقَةً تَعْكِسُ المَوَاقِفَ جَمِيعَهَا مِنْ خِلاَلِ الوَاقِعِ اللُّغَوِيِّ وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ انْفِعَالاَتٍ وِجْدَانِيَّةٍ مَشْحُونَةٍ فِيهِ، يَسْعَى الأُسْلُوبِيُّ إِلَى تَحْدِيدِ المُفَارَقَاتِ الكَامِنَةِ فِيهَا، بِجَمِيعِ أَشْكَالِهَا (إِرَادِيَّةٍ، عَاطِفْيَّةٍ، جَمَالِيَّةٍ، اجْتِمَاعِيَّةٍ، نَفْسِيَّةٍ)، وَكَيْفَ تَجَسَّدَتْ فِي النَّصِّ عَبْرَ اللُّغَةِ.[1] فَالتَّحْلِيلُ الأُسْلُوبِيُّ عِنْدَ بَالِي يَشْمَلُ الخِطَابَ اللِّسَانِيَّ عُمُومًا، غَيْرَ أَنَّهُ يَحْصُرُ مَجَالَ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي القِيَمِ الإِخْبَارِيَّةِ وَحَسْبَ.[2]

وَيُحَاوِلُ بَالِي أَنْ يُفَسِّرَ مَفْهُومَهُ لِأُسْلُوبِيَّتِهِ، حَتَّى يُزِيحَ بَعْضَ الغَبَشِ الذِّي عَلِقَ بِأَذْهَانِ مُخَالِفِيهِ فَيَقُولُ:" أَنَا لَمْ أَزْعُمْ قَطُّ أَنَّ لُغَةَ الوُجْدَانِ لَهَا وُجُودٌ مُسْتَقِلٌّ عَنْ لُغَةِ العَقْلِ، وَأَنَّ عِلْمَ الأُسْلُوبِ يَنْبَغِي أَنْ يَدْرُسَ الأُولَى وَيَدَعَ الثَّانِيَةَ؛ بَلْ إِنَّهُ يَدْرُسُهُمَا مَعًا فِي عَلاَقَتِهِمَا المُتَبَادَلَةِ، وَيَبْحَثُ نَفْسِيَّةَ كُلِّ وَاحِدَةٍ إِلَى الأُخْرَى فِي تَكْوِينِ هَذَا النَّمَطِ مِنْ أَنْمَاطِ التَّعْبِيرِ"[3]. فَهُوَ إِذَنْ يَدْفَعُ إِلَى تَفَحُّصِ كُلِّ القِيَمِ التَّعْبِيرِيَّةِ التِّي بِحَوْزَةِ اللُّغَةِ لِمُعَايَنَةِ المُتَغَيِّرَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، إِذْ هِيَ تَرْتَبِطُ " بِوُجُودُ أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةِ التَّعْبِيرِ عَنْ فِكْرَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا يَعْنِي وُجُودَ مُتَرَادِفَاتٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ وَجْهٍ خَاصٍّ مِنْ أَوْجُهِ الاتِّصَالِ"[4].

دَرَسَ بَالِي اللُّغَةَ فِي مَسَارِهَا بَيْنَ المُخَاطِبِ وَالمُخَاطَبِ، فَوَجَدَ أَنَّهَا " لاَ تُعَبِّرُ عَنِ الفِكْرِ إِلاَّ مِنْ خِلاَلِ مَوْقِفٍ وِجْدَانِيٍّ "[5]، وَأَصَرَّ " عَلَى أَنَّ وَصْفَ المَسَالِكِ التَّعْبِيرِيَّةِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلاَّ بِمُقَارَنَةِ العَنَاصِرِ الفِكْرِيَّةِ بِالعَنَاصِرِ الوِجْدَانِيَّةِ فِي اللُّغَةِ المَدْرُوسَةِ، حَيْثُ يَقُولُ: فَعِنْدِي أَنَّ مَهَمَّةَ عِلْمِ الأُسْلُوبِ هِيَ اكْتِشَافُ الأَشْكَالِ التَّعْبِيرِيَّةِ التِّي تُسْتَخْدَمُ فِي حِقْبَةٍ

[1]- يُنظر: الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، نور الدّين السّدّ، م.س، ص66.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- ينظر: نفسه، ص 64.

[4]- اللّسانيّات وتطبيقاتها على الخطاب الشّعريّ، رابح بوحوش، دار العلوم للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط1، 2006م، ص37.

[5]- ينظر :علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات، محمد كريم الكوّاز، منشورات جامعة السّابع من أبريل ليبيا، ط1، 1426هـ/1997م، ص98.

مُعَيَّنَةٍ لِأَدَاءِ حَرَكَاتِ الفِكْرِ وَالشُّعُورِ لَدَى المُتَكَلِّمِينَ، وَدِرَاسَةُ الآثَارِ بِصُورَةٍ تِلْقَائِيَّةٍ عِنْدَ السَّامِعِينَ لَدَى اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الأَشْكَالِ "[1].

هَذَا الإِصْرَارُ مِنْ جَانِبِ بَالِي جَعَلَ وَاحِدًا مِنْ أَبْرَزِ تَلاَمِذَتِهِ، وَهُوَ كْرِيسُو، يُعْلِنُ صَرَاحَةً اخْتِلاَفَهُ فِي هَذِهِ النُّقْطَةِ عَنْ أُسْتَاذِهِ فَيُغَيِّرُ مَفْهُومَ التَّعْبِيرِيَّةِ بِمَفْهُومِ الحَدَثِ الفَنِيِّ، أَيْ بِالجَمَالِيَّةِ، قَائِلاً:" لاَ يَتَسَنَّى لأَحَدٍ أَنْ يُنَاقِضَنَا إِنْ نَحْنُ أَكَّدْنَا أَنَّ الكَاتِبَ لاَ يُفْصِحُ عَنْ حِسِّهِ وَلاَ عَنْ تَأْوِيلِهِ لِلْوُجُودِ إِلاَّ إِذَا مُدَّ بِمَعَاوِلَ مُلاَئِمَةٍ، وَلَيْسَ لِلأُسْلُوبِيِّ مِنْ عَمَلٍ سِوَى فَحْصِ تِلْكَ المَعَاوِلِ "[2] لاَ تَتَبُّعَ الآثَارِ الوِجْدَانِيَّةِ فِي لُغَةِ المُتَكَلِّمِ بِالطَرِيقَةِ التِّي نَزَعَ إِلَيْهَا بَالِي.

ج- الأُسْلُوبِيَّةُ النَّفْسِيَّةُ:

سَاهَمَتْ جُمْلَةٌ مِنَ الدِّرَاسَاتِ أَوَاخِرَ القَرْنِ19م فِي ظُهُورِ هَذَا التَّوَجُّهِ الأُسْلُوبِيِّ، وَكَانَ لأَعْمَالِ بِنِدِيتُّو كْرُوتْشِيهْ ذَاتِ المَنْحَى المِثَالِيِّ دَوْرٌ أَيْضًا فِي ذَلِكَ، وَبِالأَخَصِّ كِتَابَهُ فِي (عِلْمِ الجَمَالِ) الذِّي سَعَى فِيهِ إِلَى جَعْلِ الإِنْسَانِ مِحْوَرَ العَلاَقَاتِ المِثَالِيَّةِ خُصُوصًا فِي ارْتِبَاطِهِ بِاللُّغَةِ[3]. كَمَا كَانَ لِعَالِمِ النَّفْسِ فْرُويِدْ أَثَرٌ حَاسِمٌ عَلَى أَصْحَابِ النَّزْعَةِ النَّفْسِيَّةِ فِي الدِّرَاسَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ لِيُو سْبِتْزَرْ *Leo Spitzer*.

فَفِي دِرَاسَتِهِ لِخَصَائِصِ أَدِيبٍ مَا، يَهْتَمُّ هَذَا الاتِّجَاهُ، بِالأَخَصِّ مَعَ سْبِيتْزَرْ، بِمَضْمُونِ الحَالَةِ ونَسِيجِهَا اللُّغَوِيِّ، وَيَرَى أَنَّ الحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلأَدِيبِ تُؤَدِّي إِلَى نَحْوٍ مَا مِنَ الاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ، فَيَسْعَى إِلَى الكَشْفِ عَنْ خَفَايَا عَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِ وَنَفْسِيَّةِ الفَنَّانِ انْطِلاَقًا مِنَ النَّسِيجِ اللُّغَوِيِّ، وَيَعْتَمِدُ دِرَاسَةَ الأُسْلُوبِ لاكْتِشَافِ البِنْيَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالجَمَالِيَّةِ

[1]- دراسات لغويّة تطبيقيّة في العلاقة بين البنيّة والدّلالة، سعيد حسن بحيرى، مكتبة دار الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1426هـ/2005م، ص38.

[2]- الأسلوبيّة والأسلوب، المسدّيّ، م.س، ص44.

[3]- ينظر: الأسلوبيّة منهجا ونقدا، محمد عزام، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، دمشق، سوريا، ط1، 1989، ص 99..

لِلنَّصِّ[1]، بِتَحْدِيدِ مُخْتَلِفِ الحُقُولِ الدَّلاَلِيَّةِ مُسْتَعِينًا بِعِلْمِ الدَّلاَلَةِ التَّارِيخِيِّ مُرَاعِيًا السِّيَاقَ أَوِ المَقَامَ. وَيَعْتَمِدُ سْبِتْزَرْ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ المَبَادِئِ أَهَمُّهَا:ضَرُورَةُ التَّعَاطُفِ مَعَ النَّصِّ لِوُلُوجِ عَالَمِهِ وَمِنْ ثَمَّ الكَشْفِ عَنْ شَخْصِيَّةِ صَاحِبِهِ وَتَأْكِيدِ أَنَّ أُسْلُوبَهُ انْزِيَاحٌ فَرْدِيٌّ عَنْ الاسْتِعْمَالِ العَادِيِّ لِلُّغَةِ.

وَقَدْ دَعَا سْبِيتْزَرْ إِلَى الاسْتِعَانَةِ بِعِلْمِ الدَّلاَلَةِ التَّارِيخِيِّ فِي دِرَاسَةِ الأُسْلُوبِ الأَدَبِيّ لِكَوْنِهِ يَسْمَحُ بِفَهْمِ شَخْصِيَّةِ الكَاتِبِ وَكَذَا التَّعَمُّقِ فِي الكَلِمَاتِ التِّي يَسْتَعْمِلُهَا فِي أَيِّ فَتْرَةٍ تَارِيخِيَّةٍ كَانَتْ، حَتَّى أَنَّهُ بِإِمْكَانِ الكَلِمَاتِ بِحَدِّ ذَاتِهَا، أَنْ تُصْبِحَ مَوْضُوعًا لِلدَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ، كَوْنَهَا تَحْمِلُ فِي أَعْمَاقِهَا، سِمَاتِ شَخْصِيَّةِ الكَاتِبِ بِكُلِّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ ثَقَافَةٍ وحَضَارَةٍ وَانْتِمَاءٍ.

وَيَعْتَبِرُ حَمَّادِي صَمُّودْ الأُسْلُوبِيَّة النَّفْسِيَّةَ أَوِ الفَرْدِيَّةَ تَوَجُّهًا حَاسِمًا فِي " تَأْسِيسِ أُسْلُوبِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ تَتَّخِذُ مِنَ النَّصِّ الرَّاقِي مَوْضُوعًا، وَتَنْفَذُ مِنْ بِنْيَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ وَمَلاَمِحِهِ الأُسْلُوبِيَّةِ إِلَى بَاطِنِ صَاحِبِهِ وَمَجَامِعِ رُوحِهِ، وَهِيَ لِهَذَا تُعْتَبَرُ مُنْعَرَجًا حَادًّا بِالقِيَاسِ إِلَى مَرْحَلَةِ البِدَايَاتِ مَعَ عَالِمِ الأُسْلُوبِ شَارْلْ بَالِي "[2]. فَهِيَ بِهَذَا اتِّجَاهٌ مَنْهَجِيٌّ فِي تَحْلِيلِ الخِطَابِ، يُعْنَى بِمَضْمُونِ الرِّسَالَةِ وَنَسِيجِهَا اللُّغَوِيِّ مَعَ مُرَاعَاتِهِ لِمُكَوِّنَاتِ الحَدَثِ الأَدَبِيِّ، الذِّي هُوَ نَتِيجَةٌ لأَدَاءِ الإِنْسَانِ وَالكَلاَمِ وَالفَنِّ.

وَقَدْ تَجَاوَزَ أَصْحَابُ هَذَا المَنْزَعِ الأُسْلُوبِيِّ البَحْثَ فِي أَوْجُهِ التَّرَاكِيبِ وَوَظِيفَتِهَا فِي نِظَامِ اللُّغَةِ إِلَى النَظَرِ فِي العِلَلِ وَالأَسْبَابِ المُرْتَبِطَةِ بِالخِطَابِ الأَدَبِيِّ لاعْتِقَادِهِمْ بِذَاتِيَّةِ الأُسْلُوبِ وَفَرْدِيَّتِهِ، لِذَا فَهُوَ يَهْتَمُّ بِالعَلاَقَةِ بَيْنَ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ وَالفَرْدِ مِنْ غَيْرِ إِغْفَالٍ لِعَلاَقَةِ هَذِهِ الوَسَائِلِ بِالجَماعَةِ التِّي نَتَجَ فِيهَا هَذَا الخِطَابِ. انْصَرَفَ أَصْحَابُهَا عَنْ تَتَبُّعِ أَحْوَالِ المُؤَلِّفِينِ العَاطِفِيَّةِ لِفَهْمِ كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ أَسَالِيبِهِمْ، وَأَخْضَعُوا التَّحْلِيلَ الأُسْلُوبِيَّ لِتَفْسِيرِ

[1]- ينظر: الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، ج1، نور الدّين السّدّ، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، د.ط، 1997م، ص72 وَما بعدَها.

[2]- الوجه والقفا في تلازم التّراث والحداثة، حمّادي صمُّود، الدّار التونسيّة للنّشر، تونس، د.ط، 1988م، ص101.

الآثَارِ بِوَصْفِهَا "مَنْظُومَاتٍ شِعْرِيَّةٍ قَائِمَةٍ بِحَدِّ ذَاتِهَا" بَعِيدًا عَنْ أَمْزِجَةِ الكُتَّابِ وَمُيُولاَتِهِمْ [1].

لَكِنَّ رَائِدَ الأُسْلُوبِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ الذِّي كَانَ " يَرَى فِي النَّصِّ ذَاتِهِ دَلَالَاتٍ عَاطِفِيَّةٍ صَرِيحَةٍ وَمَشَاعِرَ وَأَهْوَاءَ لَا يَكْتَشِفُهَا فِي تَجْرِبَةٍ دَاخِلِيَّةٍ سَابِقَةٍ رُبَّمَا تَخَلَّتْهَا حَوَافِزُ غَامِضَةُ حَجَبَتْهَا الكِتَابَةُ أَوْ غَيَّرَتْ مِنْ مَعَالِمِهَا بَعْدَ حِينٍ. فَكَانَ تَفْسِيرُهُ الأُسْلُوبَ إِفْصَاحًا عَنْ مَضْمُونٍ جَلِيٍّ أَوْ إِبَانَةً لِمَغْزًى وَاضِحٍ، أَوْ ثَمَرَةَ الانْتِبَاهِ المُنْصَبِّ عَلَى الأَثَرِ الأَدَبِيِّ. فَالقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ تَضَعُ بَيْنَ يَدَيْ القَارِئِ ذَخَائِرَ وَفِيرَةً وَاضِحَةً لِلعَيَانِ، وتَمْضِي بِهِ إِلَى أُمُورٍ فِي غَايَةِ التَّعْقِيدِ وَالتَّرْكِيزِ، حَتَّى يَسْتَحِيلَ عَلَيْهِ عَمَلِيًّا السَّعْيَ عَنْ عَالَمٍ خَفِيٍّ مُسْتَتِرٍ "[2]، بَدَأَ شَيْئًا فَشَيْئًا التَّخَلِّي عَن بَعْضِ آرَائِهِ هَذِهِ حِينَ اصْطَدَم بِجُمْلَةٍ مِنَ الوَقَائِعِ الأَدَبِيَّةِ التِّي لَمْ يَجِدْ فِي "أُسْلُوبِيَّتِهِ" الإِجَابَةَ الشَّافِيَةَ لَهَا.

وَيَرَى جَانْ سْتَارُوبِنْسْكِي أَنَّ سْبِيتْزَرْ قَدْ تَخَلَّى عَنِ المَرَامِي النَّفْسِيَّةِ التِّي كَانَ قَدْ صَاغَهَا سَابِقًا، وَآثَرَ مَنْهَجًا يَظَلُّ فِيهِ التَّحْلِيلُ (أَوْ مُعْظَمُهُ) دَاخِلَ العَمَلِ الفَنِّيِّ، يُنَقِّبُ فِيهِ وَيُمَحِّصُهُ حَتَّى يَجْلُوهُ مِنَ الدَّاخِلِ وَيَكْشِفَ السِّتَارَ عَنْ عَلاَقَاتِهِ الضِّمْنِيَّةِ، وَهُوَ رَاضٍ كُلَّ الرِّضَى بِهَذِهِ القِرَاءَةِ المُسْتَفِيضَةِ وَيَجْعَلَ النَّاسَ يُصْغُونَ إِلَيْهِ، تَمَامًا كَمَا تُعْزَفُ القِطْعَةُ المُوسِيقِيَّةُ "[3]. بَلْ وَيُعَلِّلُ سْبِيتْزَرْ نَفْسُهُ انْصِرَافَهُ عَنْ بَحْثِ الحَالاَتِ النَّفْسِيَّةِ لِلمُبْدِعِينَ وَشَرْحِ أَسَالِيبِهِمْ تَبَعًا لأَمْزِجَتِهِمْ العَاطِفِيَّةِ وَأَنَّهُ جَعَلَ الآثَارَ بِوَصْفِهَا مَنْظُومَاتٍ شِعْرِيَّةٍ قَائِمَةٍ بِحَدِّ ذَاتِهَا الأَسَالِيبَ مَنَاطَ تَحْلِيلِ الأُسْلُوبِ، وَأَنَّهُ يُسَمِّي هَذَا التَّحَوُّلَ (النَّهْجَ البِنْيَوِيَّ)[4].

[1]- يُنظر: النّقد والأدب، جان ستاروبنسكي، تر: بدر الدّين القاسم، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، سوريا، 1976م، صص 54،55.

[2]- النّقد والأدب، جان ستاروبنسكي، تر: بدر الدّين القاسم، م.س، ص55.

[3]- نفسه، ص54.

[4]- نفسه، ص55.

وَبِهَذَا أَفْسَحَ سْبِيتْزَرْ مَجَالاً أَكْبَرَ مِنَ الحُرِّيَّةِ لِلأُسْلُوبِيِّينَ لِتَحْلِيلِ النُّصُوصِ، إِذْ بَعْدَ قِرَاءَتِهِمْ المُسْبَقَةِ لِمُجْمَلِ العَمَل يَخْتَارُونَ الجُزْئِيَّةَ الأَسَاسِيَّةَ التِّي يَرَوْنَهَا مُنَاسِبَةً " إِمَّا لِقِيمَتِهَا التَّفَاضُلِيَّةِ، وَإِمَّا بِسَبَبِ طَاقَتِهَا المُصَغَّرَةِ عَلَى التَّمْثِيلِ، أَيْ قُدْرَتِهَا عَلَى أَنْ تَعْرِضَ لَنَا مُنْذُ الآنَ، وَعَلَى صَعِيدِ الجُزْئِيَاتِ، مَا يَعْرِضُهُ الأَثَرُ بِكَامِلِهِ..."[1] . وَتَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ سَتَارُوبِنْسْكِي اعْتَبَرَ هَذَا التَّحَوَّلَ عِنْدَ سْبِيتْزَرْ طَبِيعِيًّا، بَلْ وَرَآهُ امْتِدَادًا مَنْهَجْيًّا لِرُؤْيَتِهِ السَّابِقَةِ فَهُوَ لَمْ يَزِدْ عَنْ دَعْمِ دِرَاسَةٍ بِنْيَوِيَّةٍ ظَلَّ يُمَارِسُهَا مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ[2].

ح- الأُسْلُوبِيَّةُ البِنْيَوِيَّةُ:

يُعْتَبَرُ رِيفَاتِيرْ مِنْ أَهَمِّ مَنْ أَصَّلَ لِمَا يُعْرَفُ بِـ" الأُسْلُوبِيَّةُ البِنْيَوِيَّةُ "[3]، التِّي يَرَى كْرِيسُو بِأَنَّهَا " تُعْنَى فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ بِعَلاَقَاتِ التَّكَامُلِ وَالتَّنَاقُضِ بَيْنَ الوَحَدَاتِ اللُّغَوِيَّةِ المُكَوِّنَةِ لِلنَّصِّ وَبِالدَّلاَلاَتِ وَالإِيحَاءَاتِ، التِّي تَنْمُو بِشَكْلٍ مُتَنَاغِمٍ (...) وَالأُسْلُوبِيَّةُ البِنْيَوِيَّةُ تَتَضَمَّنُ بُعْدًا أَلْسُنِيًّا قَائِمًا عَلَى عِلْمِ المَعَانِي وَالصَّرْفِ وَعِلْمِ التَّرَاكِيبِ. وَلكِنْ دُونَ الالْتِزَامِ الصَّارِمِ بِالقَوَاعِدِ "[4]، وَهِيَ بِذَلِكَ تَسْعَى إِلَى تَحْدِيدِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ مِنْ خِلاَلِ تِبْيَانِ العَلاَقَاتِ القَائِمَةِ بَيْنَ مُسْتَوَيَاتِ الأُسْلُوبِ فِيهِ، وَبِالأَسَاسِ العَلاَقَاتُ اللُّغَوِيَّةُ التِّي تُعَدُّ مُرْتَكَزًا أَسَاسِيًّا لِتَحْلِيلِ النُّصُوصِ[5].

لَقَدْ رَاعَى رِيفَاتِيرْ الوَظِيفَةَ الاتّصَالِيَّةَ حِينَ النَّظَرِ فِي الأُسْلُوبِ، وَلِذَلِكَ اشْتَغَلَ عَلَى عَدَدٍ مِنَ المَعَايِيرِ رآهَا ضَرُورِيَّةً لِنَكْتَشِفَ الظَّاهِرَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ، وَبِهَا نُمَيِّزُ بَيْنَ الوَاقِعَتَيْنِ اللِّسَانِيَّةِ وَالأُسْلُوبِيَّةِ[6]. فَهَدَفُ الأُسِلُوبِيَّةِ البِنْيَوِيَّةِ هُوَ إِدْرَاكُ العَلاَقَاتِ اللُّغَوِيَّةِ القَائِمَةِ بَيْنَ

---

[1]- نفسه، ص59.

[2]- ينظر: نفسه النّقد والأدب، جان ستاروبنسكي، تر: بدر الدّين القاسم، 59.(ص.ن).

[3]- الوجه والقفا، حمّادي صمُّود، م.س، ص129.

[4]- الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، نور الدّين السّدّ، م.س، ص86.

[5]- رولان بارت، النّقد والحقيقة، تر:إبراهيم الخطيب، مر:محمد برادة، مجلة الكرمل- فصليّة ثقافيّة،ع11، 1984م، بيسان للصّحافة والنّشر والتّوزيع، نيقوسيا، قبرص، ص32 وَما بعدهَا.

[6]- يُنظر: البنى الأسلوبيّة، حسن ناظم، م.س، ص73.

مُسْتَوَيَاتِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ بُغْيَةَ مُعَالَجَتِهِ كَوْنَهَا الأَسَاسَ فِي تَحْلِيلِ الخِطَابِ، وهُوَ مَا دَفَعَ تُودُورُوفْ إِلَى القَوْلِ: " إِنَّ العَمَلَ الأَدَبِيَّ لَمْ يَعُدْ إِلَّا كَأَيِّ مَنْطُوقٍ لُغَوِيٍّ آخَرَ، مَصْنُوعٌ مِنَ الكَلِمَاتِ، بَلْ إِنَّهُ مَصْنُوعٌ مِنْ جُمَلٍ، وَهَذِهِ الجُمَلُ خَاضِعَةٌ لِمُسْتَوَيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الكَلاَمِ "[1]، وَعَبْرَ تَحْلِيلِ بِنْيَتِهَا تَتَبَيَّنُ تَرْكِيبَةُ الخِطَابِ وَمَقَاصِدُهُ.

فَلَمَّا كَانَتْ " مُهِمَّةَ الأُسْلُوبِيَّةِ البِنْيَوِيَّةِ اكْتِشَافَ القَوَانِينِ التِّي تُنَظِّمُ الظَّاهِرَ الأَسَاسِيَّةَ فِي الخِطَابِ الأَدَبِيِّ "[2]، فَإِنَّ اهْتِمَامَهَا مُنْصَبٌّ عَلَى " البُنَى اللُّغَوِيَّةِ القَارَّةِ المُسْتَمِرَةِ التِّي لاَ تَقْبَلُ التَّعْوِيضَ وَلاَ يُؤَثِّرُ فِي وُجُودِهَا اخْتِلاَفُ سُنَّةُ القُرَّاءِ وَسِيَاقُهُم العَامُّ، كَمَا تَهْتَمُّ بِقَوَانِينِ الصِّيَاغَةِ وَالنَّظْمِ التِّي تَمْنَعُ قَارِئَ النَّصِّ مِنَ الاكْتِفَاءِ بِأَدْنَى جُهْدٍ يَضْمَنُ سَلاَمَةَ المَعْنَى كَمَا تَسْلُبُهُ طَاقَةَ القَرَارِ وَالحُرِّيَّةَ فِي مَا هُوَ فِي النَّصِّ هَامٌّ وَمَا لَيْسَ هَامًّا وَتَحْمِلُهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالخُضُوعِ وَالاسْتِجَابَةِ لِإِرَادَةِ مَنْ كَتَبَ النَّصَّ فَيَتَبَنَّى مَوَاقِفَهُ وَيَرَى رَأْيَهُ "[3].

وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ تَحْلِيلَ البِنْيَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، الذِّي يَتَّخِذُ النَّصَّ بِنْيَةً لُغَوِيَّةً، يُحَاوِلُ أَنْ " لاَ يُلْغِيَ كُلَّ مَا هُوَ خَارِجَ النَّصِّ، بَلْ يَنْطَلِقُ مِنْ البُنَى اللُّغَوِيَّةِ السَّطْحِيَّةِ وَالعَمِيقَةِ لِيَكْشِفَ الوَظَائِفَ الدَّلاَلِيَّةَ وَأَبْعَادَهَا الجَمَالِيَّةَ فِي النَّصِّ، وَلاَ مَجَالَ فِي الأُسْلُوبِيَّةِ البِنْيَوِيَّةِ لِلفَصْلِ بَيْنَ الدَّالِّ وَالمَدْلُولِ، كَمَا أَنَّهَا تَتَّخِذُ مِنَ النَّصِّ مَرْجِعًا وَحِيدًا لَهَا، لِأَنَّ النَّصَّ هُوَ المَعْنِيُّ بِالدَّرْسِ أَوَّلًا وَأَخِيرًا "[4].

فَلَمَّا كَانَ الأُسْلُوبُ هُوَ البِنْيَةُ الشَّكْلِيَّةُ لِلأَدَبِ التِّي عَلَيْهَا يَتَبَدَّى فِعْلُ الأَدِيبِ مِنْ خِلاَلِ النُّتُوءَاتِ التِّي يَسْعَى بِهَا إِلَى تَحْرِيكِ فِعْلِ القِرَاءَةِ وَتَفْعِيلِهِ، فَإِنَّ طَبِيعَةَ هَذِهِ البِنْيَةِ تَسْتَدْعِي المُقَارَبَةَ اللِّسَانِيَّةَ وَتَفْسَحُ لَهَا مَجَالًا أَوْسَعَ فِي التَّحْلِيلِ. غَيْرَ أَنَّ النَّصَّ

[1]- الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدّين السّدّ، م.س، ص93.

[2]- الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، م.س، ص89.

[3]- الوجه والقفا، حمّادي صمود، م.س، ص144.

[4]- الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، نور الدّين السّدّ، م.س، ص94.

الأَدَبِيَّ فَنٌّ وَلُغَةٌ فِي آنٍ، أَيْ أَنَّهُ بُنَى ذَاتُ قِيمَةٍ وَهُوَ مَا لاَ تَسْتَطِيعُ القِرَاءَةُ اللُّغَوِيَّةُ وَحْدَهَا، المُشْتِغلَةُ فِي حُدُودِ الجُمْلَةِ، الإِحَاطَةَ بِكُلِّ تَجَلِّيَّاتِ الظَّاهِرَةِ المُضَاعَفَةِ:البِنْيَةُ زَائِدَ القِيمَةِ أَيْ اللُّغَةِ وَالفَنِّ[1]. وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ رِيفَاتِيرْ كَانَ وَاعِيًّا بِذَلِكَ فَجَزَمَ بِأَنَّهُ " لاَ يَسْتَطِيعُ أَيُّ عُنْصُرٍ فِي النَّصِّ أَنْ يُحَقِّقَ بِنْيَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ مَوْضُوعَ اخْتِيَارٍ يَفْرِضُهُ عَلَى إِدْرَاكِ القَارِئِ، بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لِأَيِّ وِحْدَةٍ لِسَانِيَّةٍ وَظِيفَةٌ بِنْيَوِيَّةٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ هِيَ أَيْضًا وِحْدَةً أُسْلُوبِيَّةً "[2].

اسْتَنَدَ رِيفَاتِيرْ عَلَى بِنْيَةِ النَّصِّ اللِّسَانِيَّةِ فِي تَحْلِيلِهِ الأُسْلُوبِيِّ بِشَكْلٍ كَبِيرٍ إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ فَتْحِ آفَاقَ أُخْرَى فِي عَمَلِهِ التَّحْلِيلِيِّ، ذَاتِ صِلَةٍ مُبَاشِرَةٍ بِالقَارِئِ، مِنْ خِلاَلِ النَّظَرِ فِيمَا سَمَّاهُ العَوَامِلِ المَقَامِيَّةِ وَالوَظِيفَةِ الاتِّصَالِيَّةِ بِكَوْنِهِمَا مُحَدِّدَيْنِ أَسَاسَيْنِ لأَيَّةِ وَظِيفَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ[3]. لَكِنْ وَ" بِالرُّغْمِ مِنْ تَوَسُّعِ التَّحْلِيلِ الأُسْلُوبِيِّ عِنْدَ رِيفَاتِيرْ إِلَى القَارِئِ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يُفَارِقِ المَنْطِقَ المُحَايِثَ لِلدَّرْسِ الأُسْلُوبِيِّ الذِّي يَرَى أَنَّ الوَاقِعَةَ اللِّسَانِيَّةَ، مَا دَامَتْ تَكْتَسِي السِّمَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ، فَإِنَّهَا تَتَحَوَّلُ إِلَى وَاقِعَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ تُدْرَكُ عَبْرَ العَلاَقَةِ الجَدَلِيَّةِ بَيْنَ النَّصِّ وَالقَارِئِ، وَلَيْسَ فِي أَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ "[4].

د- الأُسْلُوبِيَّةُ الإِحْصَائِيَّةُ:

يَقُولُ بْيِيرْ جِيرُو *Pierre Giroux* بِأَنَّ الأُسْلُوبَ " انْزِيَاحٌ يُعْرَفُ كَمِّيًّا بِالقِيَاسِ إِلَى مِعْيَارٍ "[5]، فَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنَّ الإِحْصَاءُ سَيُسَاعِدُ، بِشَكْلٍ مَقْبُولٍ، فِي ضَبْطِ الظَّوَاهِرِ فِي أَيِّ نَصٍّ مِنَ النّصُوصِ الخَاضِعَةِ لِلدَّرْسِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلإِحَاطَةِ بِصِفَاتِ

[1]- ينظر: الوجه والقفا، م.س، ص140.

[2]- مونان جورج، جينيت جيرار، وريفاتير ميكائيل، البنيويّة والنّقد الأدبيّ، تر:محمد لقاّح، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م، ص67.

[3]- ينظر: البنى الأسلوبيّة، حسن ناظم، م.س، ص74.

[4]- نفسه، صص74،75.

[5]- بنية اللّغة الشّعريّة، جان كوهن، م.س، ص16.

الخِطَابِ الجَمَالِيَّةِ وَالبَلاَغِيَّةِ والصَّوْتِيَّةِ... فِي كُلِّيَّتِهَا وُصُولاً إِلَى تَصَوُّرٍ شَامِلٍ لِخَصَائِصِهِ البِنْيَوِيَّةِ وَالوَظِيفِيَّةِ، وَذَلِكَ عَبْرَ أَدَوَاتٍ إِجْرَائِيَّةٍ عَدِيدَةٍ كَالتَّكْرَارِ وَالإِيقَاعِ مَثَلاً، وَالذِّي بِإِمْكَانِهِ تَقْرِيبَ الاخْتِيَارَاتِ الأُسْلُوبِيَّةَ التِّي عَمِدَ إِلَيْهَا المُبْدِعُ مِنْ ذِهْنِ المُتَلَقِّي، وُصُولًا إِلَى أَثَرِهَا فِيهِ.

وَمَتَى مَا تَمَّ اسْتِعْمَالُهُ بِطَرِيقَةٍ تَسْتَغِلُ الجَانِبَ الرَّصِينَ مِنَ البَحْثِ فِيهِ، فَإِنَّهُ حَتْمًا سَيُعْطِي نَتَائِجَ يُطْمَأَنُّ لَهَا، إِذْ " هُوَ مِنَ المَعَايِيرِ المَوْضُوعِيَّةِ الأَسَاسِيَّةِ التِّي يُمْكِنُ بِاسْتِخْدَامِهَا تَشْخِيصُ الأَسَالِيبِ، وَتَمْيِيزُ الفُرُوقِ بَيْنَهَا. وَيَكَادُ يَنْفَرِدُ مِنْ بَيْنِ المَعَايِيرِ المَوْضُوعِيَّةِ بِقَابِلِيَّتِهِ لأَنْ يُسْتَخْدَمَ فِي قِيَاسِ الخَصَائِصِ الأُسْلُوبِيَّةِ كَائِنًا مَا كَانَ التَّعْرِيفُ الذِّي يَتَبَنَّاهُ البَاحِثُ لِلأُسْلُوبِ "[1]، لِذَلِكَ تَتِمُّ الاسْتِعَانَةُ بِهِ، بِشَكْلٍ وَاسِعٍ، فِي " قِيَاسِ الظَّوَاهِرِ وَضَوَابِطِ جَمْعِ العَيِّنَاتِ الإِحْصَائِيَّةِ الدَّالَّةِ، وَطَرِيقَةِ إِجْرَاءِ القِيَاسِ الإِحْصَائِيِّ، وَتَفْسِيرِ الفُرُوقِ(...)، ثُمَّ اسْتِعَارَةِ لُغَةِ الجَدَاوِلِ وَالأَشْكَالِ الهَنْدَسِيَّةِ وَالرُّسُومِ البَيَانِيَّةِ فِي تَقْدِيمِ الفُرُوضِ أَوِ النَّتَائِجِ أَثْنَاءَ تَحْلِيلِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ "[2].

وَلَمَّا كَانَ الأَدَبُ، وَالفَنُّ عَامَّةً مَادَّةً تَتَفَلَّتُ مِنَ القَوَاعِدِ وَالأَحْكَامِ المَضْبُوطَةِ لِطَبِيعَتِهَا التِّي تُفَارِقُ صَرَامَةَ النَّتَائِجِ العِلْمِيَّةِ المُتَحَكَّمِ فِيهَا، فَهِيَ عَصِيَّةٌ عَلَى المَقَايِيسِ وَالضَوَابِطِ، لاَ تَسْرِي عَلَى عَوَاطِفِهَا وَلاَ لُغَتِهَا وَلاَ أَخْيِلَتِهَا، فَإِنَّ اسْتِعَارَةَ بَعْضِ أَدَوَاتِ العِلْمِ وَإِجْرَاءَاتِهِ قَدْ تَكُونَ ذَاتَ فَائِدَةٍ يُسْتَأْنَسُ بِهَا فِي كُلَّ تَحْلِيلٍ يَرُومُ الجِدَّةَ وَلاَ يَتَعَسَّفُ فِي التَّوْظِيفِ وَالإِقْحَامِ. هَذَا " وَقَدْ وَجَدَتْ النَّظَرِيَّةُ الإِحْصَائِيَّةُ الأُسْلُوبِيَّةُ فِي مُصْطَلَحَاتِ وَمَفَاهِيمِ النَّحْوِ ضَالَّتَهَا حَتَّى أَنَّ لُوبُومِيرْ دُولُوزَالْ *Lubomír Dolezel* يَرَى فِيهَا (خَلْفِيَّةً ضَرُورِيَّةً لأَيِّ نَظَرِيَّةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ). وَيَرْتَبِطُ ذَلِكَ بِمَا سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَهَمِّيَّةِ تَحْدِيدِ الطِّرَازِ

[1]- الأسلوب دراسة لغويّة إحصائيّة، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1992م، ص51.

[2]- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتّراث، أحمد درويش، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت، ص49.

النَّحْوِيِّ الذِّي يُتَّخَذُ أَسَاسًا لِلدِّرَاسَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، وَضَرُورَةَ تَوَافُرِ شُرُوطٍ مُعَيَّنَةٍ فِي هَذَا الطِّرَازِ تُعِينُ البَاحِثَ عَلَى الوَصْفِ العِلْمِيِّ الدَّقِيقِ لِظَوَاهِرِ الأُسْلُوبِ "[1].

لَقَدْ سَوَّغَ كُوهِنْ اسْتِعْمَالَ الإِحْصَاءِ فِي الدِّرَاسَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، خُصُوصًا مَعَ كُلِّ مَا هُو خُرُوجٌ عَنِ المِعْيَارِ، فَقَالَ: " فَفِي مَفْهُومِ الانْزِيَاحِ يَتَأَكَّدُ لِقَاءٌ هَامٌّ بَيْنَ الأُسْلُوبِيَّةِ وَالإِحْصَاءِ. وَلِكَوْنِ الأُسْلُوبِيَّةِ هِيَ عِلْمُ الانْزِيَاحَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالإِحْصَاءُ عِلْمُ الانْزِيَاحَاتِ عَامَّةً، فَمِنَ الجَائِزِ تَطْبِيقُ نَتَائِجِ الإِحْصَاءِ عَلَى الأُسْلُوبِيَّةِ، لِتُصْبِحَ الوَاقِعَةُ الشِّعْرِيَّةُ قَابِلَةً لِلْقِيَاسِ، إِذْ تُبْرِزُ كَمُتَوَسِّطٍ تَرَدُّدَ الانْزِيَاحَاتِ التِّي تُقَدِّمُهَا اللُّغَةُ الشِّعْرِيَّةُ بِالنَّظَرِ إِلَى النَّثْرِ"[2]. وَلاَ يَكْتَفِي كُوهِنْ بِإِسْبَاغِ المَشْرُوعِيَّةِ عَلَى تَوْظِيفِ الإِحْصَاءِ فِي دِرَاسَةِ الأُسْلُوبِ فَيَفْتَرِضُ لِذَلِكَ طَرِيقَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا تَشْخِيصُ الوَاقِعَةِ، وَالأُخْرَى قِيَاسُهَا[3].

غَيْرَ أَنَّهُ، فِي نَظَرِ سَعْدْ مَصْلُوحْ، " لَيْسَ مِنْ مَهَمَّةِ الإِحْصَاءِ أَنْ يُحَدِّدَ السِّمَاتِ الجَدِيرَةَ بِأَنْ تُحْصَى. وَهُوَ لاَ يُعْطِي البَاحِثَ أَكْثَرَ مِنْ قِيمَةٍ عَدَدِيَّةٍ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا يُقَابِلُ هَذِهِ القِيمَةَ مِنْ وَحَدَاتٍ لُغَوِيَّةٍ. مِنْ ثَمَّ فَإِنَّ عَلَى دَارِسِ الأُسْلُوبِ أَنْ يُحَدِّدَ الخَصَائِصَ وَالسِّمَاتِ التِّي يَرَاهَا جَدِيرَةً بِالقِيَاسِ الكَمِّي لِيَحْصُلَ عَلَى مُؤَشِّرَاتٍ عَدَدِيَّةٍ تُفِيدُهُ فِي التَّوصُّلِ إِلَى نَتَائِجَ مَوْضُوعِيَّةٍ دَقِيقَةٍ فِي المَسْأَلَةِ مَوْضُوعِ البَحْثِ "[4]، وَهَذَا أَمْرٌ، لَيْسَ يَسِيرًا فِي مَيْدَانٍ كَالأَدَبِ بِطَبِيعَةِ الحَالِ لِمَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا عَنْ خُصُوصِيَّتِهِ، وَ"لاَعِلْمِيَّتِهِ".

وَيَشْتَرِطُ حَسَنٌ نَاظِمٌ عَدَم الاكْتِفَاءِ بِالمُعَالَجَةِ الإِحْصَائِيَّةِ لنَصٍّ مَا وَتَجَاوُزَهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ مُعَالَجَاتٍ يَرَاهَا " أَكْثَرَ جَوْهَرِيَّةً " فَالاقْتِصَارُ عَلَى الإِحْصَاءِ لاَ يُؤَدِّي إِلَى كَشْفٍ

[1]- الأسلوب دراسة لغويّة إحصائيّة، سعد مصلوح، م.س، ص53.

[2]- بنية اللّغة الشّعريّة، كوهن جان، م.س، ص16.

[3]- ينظر: نفسه، ص17.

[4]- الأسلوب دراسة لغويّة إحصائيّة، م.س، ص57.

حَقِيقِيٍّ لِخَبَايَا النَّصِّ[1]. وَهُوَ يُدَعِّمَ رَأْيَهُ هَذَا بِجُمْلَةٍ مِنَ المُلاَحَظَاتِ سَاقَهَا أُولْمَانْ لِمَزَالِقِ الدِّرَاسَةِ الإِحْصَائِيَّةِ نَذْكُرُ بَعْضَهَا اخْتِصَارًا، مِنْ ذَلِكَ[2]:

1/ إِنَّ الطَّرِيقَةَ الإِحْصَائِيَّةَ تَعُوزُهَا الحَسَاسِيَّةُ الكَافِيَةُ لالْتِقَاطِ بَعْضِ المُلاَحَظَاتِ الدَّقِيقَةِ فِي الأُسْلُوبِ كالظِّلاَلِ الوِجْدَانِيَّةِ وَالأَصْدَاءِ المُوحِيَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ الإِيقَاعِيَّةِ...

2/ البَيَانَاتُ العَدَدِيَّةُ يُمْكِنُ أَنْ تُضْفِي دِقَّةً زَائِفَةً عَلَى مُعْطَيَاتٍ أَشَدَّ تَعْقِيدًا أَوْ أَصْعَبَ ضَبْطًا مِنْ أَنْ تَسْمَحَ بِمِثْلِ هَذَا العِلاَجِ(...).

3/ وَمِنْ أَكْبَرِ المَآخِذِ عَلَى مَا يُسَمَّى بِطَرِيقَةِ (الإِحْصَاءِ الأُسْلُوبِيِّ) أَنَّهَا لاَ تُرَاعِي تَأْثِيرَ السِّيَاقِ مَعَ عَظِيمِ خَطَرِهِ فِي التَّحْلِيلِ الأُسْلُوبِيِّ(...).

وَيَسْتَدْرِكُ أُولْمَانْ بَعْدَ هَذَا، فَيُعَدِّدُ بَعْضَ مَزَايَا التَّحْلِيلِ الإِحْصَائِيِّ وَالتِّي مِنْهَا الكَشْفُ " عَنِ ظَوَاهِرَ اسْتِثْنَائِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِتَوْزِيعِ العَنَاصِرِ الأُسْلُوبِيَّةِ عَلَى النَّصِّ الأَدَبِيِّ، وَدَرَجَةَ اخْتِلاَفِ كَثَافَتِهَا فِي مَكَانٍ مِنَ النَّصِّ دُونَ آخَرَ "[3]. وَيُعَلِّقُ حَسَنْ نَاظِمْ عَلَى هَذَا بِالقَوْلِ:" بَيْدَ أَنَّ لِلإِحْصَاءِ جَانِبًا إِيجَابِيًّا فِي تَطْبِيقِهِ عَلَى بَعْضِ مَنَاحِي النَّصِّ الشِّعْرِيِّ وَلاَسِيَمَا رَصْدُ الكَلِمَةِ التِّي تُثِيرُ الانْتِبَاهَ بَدْءًا(...) وَمِنْ ثَمَّ تَتَكَرَّرُ فِي النَّصِّ ذَاتِهِ، الأَمْرُ الذِّي يُؤَدِّي إِلَى اكْتِسَابِهَا قِيمَةً أُسْلُوبِيَّةً لاَ عَبْرَ تَكْرَارِهَا فَقَطْ، وَإِنَّمَا هِيَ تَكْتَسِبُ القِيمَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ بَادِئَ ذِي بَدْءٍ، وَمِنْ ثَمَّ تُعَزِّزُ هَذِهِ القِيمَةَ عَبْرَ التَّكْرَارِ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ فَإِنَّنَا لَا نُطَبِّقُ التَّكْرَارَ بِشَكْلٍ تِقْنِيٍّ خَالِصٍ، بَلْ نُطَبِّقُهُ حَيْثُمَا اقْتَضَتِ الضَّرُورَةُ التِّي يُحَدِّدُهَا النَّصُّ الشِّعْرِيُّ واسْتِكْنَاهَاتُ التَّحْلِيلِ الأُسْلُوبِيِّ الخَاصَّةُ بِشَأْنِ النَّصِّ نَفْسِهِ "[4].

وَيَرَى سَعْدْ مَصْلُوحْ بِأَنَّ الاسْتِعَانَةَ بِالإِحْصَاءِ، وَالاسْتِفَادَةَ مِنْ إِجْرَاءَاتِهِ تَمْتَدُّ

[1]- ينظر: البنى الأسلوبيّة، حسن ناظم، م.س، ص49.

[2]- نفسه، ص50.

[3]- البنى الأسلوبيّة، حسن ناظم، م.س، ص51.

[4]- نفسه، ص53.

" إِلَى مَنْطِقَةٍ تَتَّصِلُ اتِّصَالًا وَثِيقًا بِنَقْدِ الأَدَبِ، وَتُغَطِّي دَائِرَةً وَاسِعَةً مِنْ المَسَائِلِ النَّقْدِيَّةِ مِثْلَ لُغَةِ الأَدَبِ، وَنَقْدِ الأُسْلُوبِ وتَمْيِيزِ خَصَائِصِهِ كَالتَّنَوُّعِ أَوِ الرَّتَابَةِ، وَالسُّهُولَةِ أَوِ الصُّعُوبَةِ، وَالطَّرَافَةِ أَوِ الإِمْلاَلِ، ذَلِكَ لأَنَّ هَذِهِ الأَحْكَامَ الذَّاتِيَّةَ الَّتِي يُصْدِرُهَا القُرَّاءُ وَطَائِفَةٌ مِنَ النُّقَّادِ الَّذِينَ يَحْتَكِمُونَ إِلَى أَذْوَاقِهِمْ المُدَرَّبَةِ تَرْتَبِطُ بِوُجُودِ مُنَبِّهَاتٍ هِيَ فِي مُعْظَمِ الأَحْيَانِ سِمَاتٌ لُغَوِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ تَرِدُ فِي النُّصُوصِ بِتَكْرَارٍ مُعَيَّنٍ وَنِسَبٍ وَكَثَافَاتٍ وَتَنْوِيعَاتٍ مُعَيَّنَةٍ "[1].

4- البَلاَغَةُ وَالأُسْلُوبِيَّةُ:

يَذْكُرُ جِيرُو أَنَّ نُوفَالِيسْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ اسْتَخْدَمَ مُصْطَلَحَ الأُسْلُوبِيَّةِ وَالتِّي تَخْتَلِطُ عِنْدَهُ مَعَ البَلاَغَةِ، بَلْ إِنَّ هِيلاَنْغْ، مِنْ بَعْدِهِ، قَالَ: إِنَّهَا عِلْمٌ بَلاَغِيٌّ[2]. عَلَى أَنَّ " البَلاَغَةَ تَرْمِي إِلَى خَلْقِ الإِبْدَاعِ بِوَصَايَاهَا التَّقْيِيمِيَّةِ بَيْنَمَا تَسْعَى الأُسْلُوبِيَّةُ إِلَى تَعْلِيلِ الظَّاهِرَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ بَعْدَ أَنْ يَتَقَرَّرَ وُجُودُهَا "[3]، وَهُنَا تَكْمُنُ أَهَمِّيَّةُ بَالِي إِذْ " أَنَّهُ – وَلِلْمَرَّةِ الأُولَى فِي تَارِيخِ الثَّقَافَةِ الغَرْبِيَّةِ – نَقَلَ دَرْسَ الأُسْلُوبِ مِنَ الدَّرْسِ البَلاَغِيِّ بِتَأْثِيرِ اللِّسَانِيَاتِ عَلَيْهِ مَنْهَجًا وَتَفْكِيرًا – إِلَى مَيْدَانٍ مُسْتَقِلٍّ. وَصَارَ يُعْرَفُ بِمَيْدَانِ الدَّرْسِ الأُسْلُوبِيِّ "[4].

يَرَى مُنْذِرْ عَيَّاشِي وَهُوَ يُتَرْجِمُ كِتَابَ جِيرُو بِأَنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ كَمَفْهُومٍ حَدَاثِيٍّ، هِيَ دِرَاسَةٌ لِلُّغَةِ وَلِعَمَلِهَا الذَّاتِيِّ المُبْدِعِ وَلِلكَائِنِ المُتَحَوِّلِ بِهَا، وَدِرَاسَةٌ لِلعَمَلِ الإِبْدَاعِيِّ أَيْضًا، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا، كَانَ تَحْدِيدُ مَفَاهِيمِهَا وَضَبْطُهَا عَمَلًا غَيْرَ يَسِيرٍ، تَمَامًا كَمَا كَانَتِ الحَالُ مَعَ البَلاغَةِ فِيمَا مَضَى[5]. لِذَلِكَ نَجِدُ أَتْبَاعَ بَالِي يُعِيدُونَ النَّظَرِ فِي الَّذِي قَرَّرُوهُ سَابِقًا، حِينَ اصْطَدَمُوا بِوَاقِعِ التَّحْلِيلِ، فَعَزَلُوا الأُسْلُوبِيَّةَ عَنِ الخِطَابِ الإِخْبَارِيِّ وَحَصَرُوهُ فِي الفَنِّيِّ مِنْهُ

[1]- الأسلوب دراسة لغويّة إحصائيّة، سعد مصلوح، م.س، ص62.

[2]- يُنْظَرُ: الأسلوبيّة، بيير جيرو، م.س، ص9.

[3]- الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص53.

[4]- الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، منذر عيّاشي، م.س، ص30.

[5]- يُنْظَرَ: الأسلوبيّة، بيير جيرو، م.س، ص6.

فَقَطْ، لِتَكُونَ بَدِيلاً لِلبَلاَغَةِ وَوَرِيثًا شَرْعِيًّا لَهَا[1]. فَبَالِي، رُغْمَ تَجَاوُزِهِ حُدُودَ البَلاَغَةِ القَدِيمَةِ وُصُولًا إِلَى مَفْهُومِهِ لِلأُسْلُوبِيَّةِ، إِلاَّ أَنَّهُ يَتَقَاطَعُ مَعَهَا فِي بُعْدَيْهَا: التَّعْبِيرِيِّ وَالتَّأْثِيرِيِّ لِيَتَعَمَّقَ بِذَلِكَ التَّرَابُطُ بَيْنَهُمَا[2].

إِذَنْ، جُلُّ البَاحِثِينَ مُتَّفِقُونَ اليَوْمَ، أَنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ وَلِيدَةُ البَلاغَةِ وَوَرِيثُهَا، فَهِيَ عِنْدَهُمْ " امْتِدَادٌ لِلبَلاَغَةِ وَنَفْيٌ لَهَا فِي نَفْسِ الوَقْتِ "[3]، مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا تَسْعَى، بِأَدَوَاتِ البَلاَغَةِ الأُولَى، إِلَى تَجَاوُزِهَا بَحْثًا عَنْ مَنَافِذَ جَدِيدَةٍ لِلتَّعَامُلِ مَعَ النَّصِّ، لِهَذَا " يُمْكِنُنَا القَوْلُ أَنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ بَلاَغَةٌ حَدِيثَةٌ ذَاتُ شَكْلٍ مُضَاعَفٍ: إِنَّهَا عِلْمُ التَّعْبِيرِ، وَهِيَ نَقْدٌ لِلأَسَالِيبِ الفَرْدِيَّةِ "[4].

لَقَدْ وَصَفَ جِيرو أُسلُوبِيَتَهُ بِأَنَّهَا " دِرَاسَةٌ لِلمُتَغَيِّرَاتِ اللِّسَانِيَّةِ إِزَاءَ المِعْيَارِ القَاعِدِيِّ. وَهذَا يَتَطابَقُ مَعَ التَّقْلِيدِ القَدِيمِ الذِّي يَضَعُ البَلاغَةَ فِي مُواجهَةِ القَواعِدِ. واَلقَوَاعِدُ فِي هَذَا المَنْظُورِ، هِيَ مَجْمُوعَةُ القَوَانِينِ، أَيْ مَجْمُوعَةُ الالْتِزَامَاتِ التِّي يَفْرِضُهَا النِّظَامُ وَالمِعْيَارُ عَلَى مُسْتَعْمِلِ اللُّغَةِ. فَالأُسْلُوبِيَّةُ تُحَدِّدُ نَوْعِيَّةَ الحُرِّيَاتِ فِي دَاخِلِ هَذَا النِّظَامِ.[5] وَمِنْ هُنَ، تَكُونُ البَلاَغَةُ، فِي حُدُودِ المُتَوَفِّرِ لِلقُدَمَاءِ مِنْ أَدَواتِ الدَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ، هِيَ عِلْمُ الأُسْلُوبِ وَقْتَهَا، خُصُوصًا فِي تَحْلِيلِهَا المَضْمُونِيِّ لِلتَّعْبِيرِ وَالذِّي يَتَنَاسَبُ، كَمَا يَرَى جِيرُو، مَعَ الرَّسْمِ البَيَانِيِّ لِلِّسَانِيَاتِ المُعَاصِرَةِ[6].

5- الأُسْلُوبِيَّةُ وَاللِّسَانِيَاتُ:

إِنَّ العَلاَقَةَ بَيْنَ اللِّسَانِيَّاتِ وَالأُسْلُوبِيَّةِ مُتَوَاشِجَةٌ إِلَى دَرَجَةٍ لاَ يُنْكِرُهَا أَيُّ نَاقِدٍ، وَإِنَّمَا

[1]- يُنظر: الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص42.

[2]- ينظر: نفسه، صص44،43.

[3]- الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص52.

[4]- الأسلوبيّة، جيرو، م.س، ص9.

[5]- نفسه، ص13.

[6]- ينظر: نفسه، ص27.

يَبْقَى الإِشْكَالُ فِي تَحْدِيدِ نَوْعِ تِلْكَ العَلاَقَةِ وَقُوَّتِهَا، وَتَفَاوُتِهَا بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ، وَأَهَمِّ المُرْتَكَزَاتِ التِّي يَنْطَلِقُ مِنْهَا كُلُّ نَاقِدٍ لِصِيَاغَةِ مَوقِفِهِ مِنَ المَسْأَلَةِ.

لَقَدْ نَادَى جُولْ مَارُوزُو *Jules Marouzeau* مُبَكِّرًا (مُنْذُ 1941م)، حِينَ عَايَنَ حَالَ الدِّرَاسَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ المُتَأَزِّمِ نَتِيجَةَ مُرَاوَحَتِهَا وَاضْطِّرَابِ تَحْلِيلاَتِهَا اسْتِقْرَاءً وَاسْتِنْتَاجًا، بِحَقِّهَا وَشَرْعِيَّتِهَا " فِي الوُجُودِ ضِمْنَ أَفْنَانِ الشَّجَرَةِ اللِّسَانِيَّةِ العَامَّةِ "[1]. وَاقْتَصَرَ رَأْيُ جَاكُبْسُونْ، فِي شَيْءٍ مِنَ العَفْوِيَّةِ، وَدُونَ أَنْ يَفُكَّ إِشْكَالِيَّةِ مَاهِيَّتَيْ الحَدَثِ الإِبْلاَغِيِّ وَالإِبْدَاعِ الأَدَبِيِّ " عَلَى إِثْبَاتِ أَنَّ (الأُسْلُوبِيَّةَ) فَنٌّ مِنْ أَفْنَانِ شَجَرَةِ اللِّسَانِيَّاتِ "[2].

وَقَدْ صَرَّحَ لِيفِي شْتْرَاوْسْ *Claude Lévi-Straus* ، فِي مَا يَبْدُو أَنَّهُ أَسَفٌ مِنْ عَجْزِهِ وَأَمْثَالِهُ مِنْ البِنْيَوِيِّينَ عَنْ مُسَايَرَةِ الطَّفْرَةِ الحَاصِلَةِ فِي اللُّغَةِ وَعُلُومِهَا، فَقَالَ مُحَدِّثًا زَمِيلَهُ رُومَان جَاكُبْسُونْ:" إِنَّنَا نَجِدُ أَنْفُسَنَا إِزَاءَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ فِي وَضْعٍ حَرِجٍ. فَطِوَالَ سَنَوَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُنَّا نَعْمَلُ مَعَهُمْ جَنْبا إِلَى جَنْبٍ وَفَجْأَةً يَبْدُو لَنَا أَنَّ اللُّغَوِيِّينَ لَمْ يَعُودُوا مَعَنَا وَإِنَّمَا انْتَقَلُوا إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ مِنْ ذَلِكَ الحَاجِزِ الذِّي يَفْصِلُ العُلُومَ الطَّبِيعِيَّةَ الدَّقِيقَةَ عَنِ العُلُومِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ "[3].

وَلَعَلَّ هذَا الحَرَجَ وَالتَّرَدُّدَ نَابِعٌ مِنْ صُعُوبَةِ الجَزْمِ: أَتَكُونُ الأُسْلُوبِيَّةُ مُجَرَّدَ مُوَاصَفَةٍ لِسَانِيَّةٍ تَخْتَصُّ بِذَاتِهَا أَمْ هِيَ مَنْهَجُ مُمَارَسةٍ نَقْدِيَّةٍ؟! فَقَدْ اعْتَبَرَهَا مِيشَالْ آرِيفِي وَصْفًا لِلنَّصِّ الأَدَبِيِّ بِأَدَوَاتٍ لِسَانِيَّةٍ، فِي حِينِ رآهَا رِيفَاتِيرْ وَدُولَاسْ مَنْهَجًا لِسَانِيًّا خَالِصًا [4]. وَقَدْ ذَهَبَ هِنْرِي جِيفُورْدِ إِلَى أَنَّهَا " لَيْسَتْ فَرْعًا مِنْ فُرُوعِ المَعْرِفَةِ بِذَاتِهَا، بَلْ هِيَ أَشْبَهُ بِمَعْبَرٍ يُوصِلُ بَيْنَ عِلْمِ اللِّسَانِيَاتِ الذِّي يَعْتَبِرُ النُّصُوصَ الأَدَبِيَّةَ مُجَرَّدَ مَادَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ تُثِيرُ

[1]- الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص22.

[2]- نفسه، صص46،47.

[3]- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتّراث، أحمد درويش، م.س، ص46.

[4]- ينظر: الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص48.

الاهْتِمَامَ فِي الدِّرَاسَةِ المُتَعَمِّقَةِ لِلُّغَةِ وَبَيْنَ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ "[1]. غَيْرَ أَنَّ سْتَارُوبِنْسكِي، وَهُوَ يَقْلِبُ سُلَّمَ القِيَمِ، رَأَى بِأَنَّ اللِّسانِيِّينَ وَهُم يَسْتَعِينُونَ بِالأُسْلُوبِيَّةِ لِتَجْدِيدِ مُمَارَسَاتِهِمْ النَّقْدِيَّةَ أَثْبَتُوا اسْتِقْلاَلَهَا ذَاتِيًّا عَنِ اللِّسَانِيَاتِ[2].

وَإِذْ إِنَّ اللُّغَةَ هِيَ العُمْدَةُ فِي أَيِّ خِطَابٍ، وَالخِطَابِ الأَدَبِيِّ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ، بِهَا يَسْتَقِيمُ أُسْلُوبُهُ وَيَتَجَلَّى عَلَى الهَيْئَةِ التِّي يُرِيدُ صَاحِبُهَا أَنْ تَكُونَ، فَفِي الأَدَبِ كُلُّ شَيْءٍ " مَوْكُولٌ بِاللُّغَةِ وَمُعَلَّقٌ بِهَا، وَلاَ وُجُودَ لِشَيْءٍ خَارِجَ مَا تُوَلِّدُ وَتَبْنِي فِي النَّصِّ وَبِهِ. وَمِنْ ثَمَّ يَغْدُو الْتِقَاطُ المَعْنَى رَهِينٌ[رَهِينًا] بِدِرَاسَةِ (سُلُوكِ الكَلِمَاتِ) وَأَشْكَالِ تَجَلِّيهَا. وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ اللُّغَوِيَّةُ العَلاَمِيَّةُ هِيَ التِّي سَتُمْلِي ضَرُورَةَ التَّوَسُّلِ فِي دِرَاسَةِ الأُسْلُوبِ بِمَنْهَجِ اللِّسَانِيَاتِ "[3].

عَلَى أَنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ فِيمَا يَبْدُو، قَدْ بَدَأَتْ تَشُقُّ طَرِيقَهَا، وَإِنْ بِحَذَرٍ، وَسَطَ هَذَا التَّشَابُكِ المَعْرِفِيِّ بُغْيَةَ ضَبْطِ أَدَوَاتِهَا وإِجْرَاءَاتِهَا التِّي سَتُثَبِّتُ أَقْدَامَهَا فِي الدَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ، فَهِيَ اليَوْمَ، كَمَا يَرَاهَا سْتِيفَنْ أُولْمَانْ ***Stephen Ulmann*** " مِنْ أَكْثَرِ أَفْنَانِ اللِّسَانِيَاتِ صَرَامَةً عَلَى مَا يَعْتَرِي غَائِيَاتِ هَذَا العِلْمِ الوَلِيدِ وَمَنَاهِجِهِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ مِنْ تَرَدُّدٍ، وَلَنَا أَنْ نَتَنَبَّأَ بِمَا سَيَكُونُ لِلْبُحُوثِ الأُسْلُوبِيَّةِ مِنْ فَضْلٍ عَلَى النَّقْدِ الأَدَبِيِّ وَاللِّسَانِيَاتِ مَعًا "[4].

وَلَعَلَّ أَجْلَى مَظَاهِرِ هَذَا التَّأْثِيرِ الأَسْلُبِيِّ تَتَبَدَّى فِي " تَقْرِيبِ الفَجْوَةِ بَيْنَ مَجَالاَتِ الآدَابِ وَالفُنُونِ، مِنْ خِلاَلِ التَّقَارُبِ بَيْنَ الأَسْلُبِيَّاتِ وَالسِّيمْيُولُوجْيَا وَقَدْ شَكَّلاَ مَعًا دَائِرَتَيْنِ مُتَدَاخِلَتَيْنِ تَهْتَمَّانِ بِالعَلاَقَةِ القَائِمَةِ بَيْنَ الدَّالِّ وَالمَدْلُولِ"[5]، وَلَكِنَّ الاعْتِمَادَ عَلَى

---

[1]- النّقد الأحدث من الحديث الأسلوبيّة والبنيويّة، هنري جيفورد، تر: موسى عاصي، مجلّة الآداب الأجنبيّة،ع121، س30، 2005م، موقع اتّحاد الكتّاب العرب *www.awu-dam.org*

[2]- ينظر: الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص.ن.

[3]- الوجه والقفا، حمادي صمود، م.س، ص143.

[4]- الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص24.

[5]- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والحداثة، أحمد درويش، م.س، ص48.

اللِّسَانِيَاتِ وَحْدَهَا لَيْسَ كَافِيًا " لِدِرَاسَةِ الأَدَبِ، ذَلِكَ، لِأَنَّ العَمَلَ الفَنِّيَّ يَطْرُحُ عَلَى اللِّسَانِيِّ قَضِيَّةً غَيْرَ لِسَانِيَّةٍ، أَلَا وَهِيَ الأَدَبِيَّةُ "[1]، وَالتِّي يَحْتَاجُ تَنَاوُلُهَا بِشَكْلٍ شَامِلٍ وَمُتَوَازِنٍ، إِلَى تَظَافُرِ جُمْلَةٍ مِنَ الشُّرُوطِ المَنْهَجِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ، وَالتِّي قَدْ يَكُونُ بُلُوغُهَا مُتَيَسِّرًا عَبْرَ دِرَاسَةٍ مُرَكَّبَةٍ لِلنَّصِّ الأَدَبِيِّ تَتَوَسَّلُ بِالنَّظَرِيَاتِ جَمِيعِهَا مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

هَكَذَا كَانَ شَأْنُ العِلْمِ الوَلِيدِ مَعَ اللِّسَانِيَاتِ، إِذْ انْقَسَمَ العَامِلُونَ فِي مَيْدَانِهِ قِسْمَيْنِ رَئِيسَيْنِ، يَرَى أَحَدُهُمَا الأُسْلُوبِيَّةَ جُزْءً أَصِيلاً مِنَ الدَرْسِ اللِّسَانِيِّ، وَهِيَ بِيَدِ أَصْحَابِهِ أَدَاةٌ لِلكَشْفِ عَنِ الخَصَائِصِ اللُّغَوِيَّةِ فِي أُسْلُوبِ مَا، أَمَّا ثَانِيهُمَا فَيَرَاهَا حَقْلاً عِلْمِيًّا قَائِمًا بِذَاتِهِ، أَوْ هُوَ عَلَى الأَقَلِّ، يُحَاوِلُ أَنْ يَكُونَ كَذِلِكَ فِي زَحْمَةِ تَجَاذُبَاتِ المَنَاهِجِ التِّي تَسْعَى إِلَى مُقَارَبَةِ الخِطَابِ مُقَارَبَةً تَصِفُ نَفْسَهَا بِـ " العِلْمِيَّةِ ".

6- الأُسْلُوبِيَّةُ فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ الحَدِيثِ:

إِنَّ الحَدِيثَ عَنِ الدَّرْسِ الأُسْلُوبِيِّ عِنْدَ العَرَبِ لَيْسَ أَمْرًا هَيِّنًا إِطْلاَقًا، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ عَدِيدِ القَضَايَا وَالمَسَائِلِ النَّقْدِيَّةِ الأُخْرَى حِينَ تَصْطَدِمُ رُؤَى التُّرَاثِيِّينَ وَالحَدَاثِيِّينَ فَيَصِيرُ مَعَهَا الوُقُوفُ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ غَيْرَ مُتَيَسِّرٍ دُونَ الدُّخُولِ فِي نِزَاعِ السَّابِقِ وَاللاَّحِقِ، وَالفَاضِلِ وَالمُتَفَضِّلِ. وَلَيْسَ تَدَخُّلُ الطَّرَفِ الثَّالِثِ فِي مُحَاوَلَتِهِ التَّوْفِيقَ بَيْنَ المَوْقِفَيْنِ لِيُنْهِيَ التَّضَارُبَ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، بَلْ لِيَزِيدَ الأَمْرَ ضَبَابِيَّةً وَتَشْوِيشًا. لِذَا سَنَكْتَفِي هُنَا بِذِكْرِ أَهَمِّ الأَسْمَاءِ التِّي تَتَرَدَّدُ فِي عَصْرِنَا هَذَا حِينَ الحَدِيثِ عَنِ الأُسْلُوبِ وَالأُسْلُوبِيَّةِ، مَعَ تَلْخِيصِ بَعْضِ آرَائِهَا فِي المَسْأَلَةِ، وَالتِّي لاَ تَبْتَعِدُ كَثِيرًا عَمَّا عِنْدَ الغَرْبِ إِذْ مِنْهَا وَبِهَا يَسْتَأْنِسُونَ.

أ- عَبْدُ السَّلامِ المَسْدِّيُّ:

[1]- الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، منذر عيّاشي، م.س، ص149.

يُحَدِّثُنَا عَبْدُ السَّلاَمِ المَسَدِّيُّ عَنْ بِدَايَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي كَانَ فِيهَا شَأْنُ هَذَا العِلْمِ مُتَأَرْجِحًا، يَمِيلُ حِينًا إِلَى القَدِيمِ وَتَارَةً إِلَى الحَدَاثَةِ فِي سَعْيِ دَؤُوبٍ لِإِثْبَاتِ الوُجُودِ فَخَيَّمَتْ عَلَى هَذِهِ الفِتْرَةِ الشُّكُوكُ وَالضَّبَابِيَّةُ، خُصُوصًا فِي المُصْطَلَحِ[1]. وَيَرَى أَنَّهُ " انْطِلاَقًا مِنَ المُصْطَلَحِ الذِّي اسْتَقَرَّ فِي العَرَبِيَّةِ نَقِفُ عَلَى دَالٍ مُرَكَّبٍ جِذْرُهُ (أُسْلُوبٌ) (*Style*) وَلاَحِقَتُهُ (ـيَّةٌ) (*ique*) (...) فَالأُسْلُوبُ – وَسَنَعُودُ إِلَيْهِ – ذُو مَدْلُولٍ إِنْسَانِيٍّ ذَاتِيٍّ، وَبِالتَّالِي نِسْبِيٍّ، وَاللاَّحِقَةُ تَخْتَصُّ – فِيمَا تَخْتَصُّ بِهِ – بِالبُعْدِ العَلْمَانِيِّ العَقْلِيِّ، وَبِالتَّالِي المَوْضُوعِيِّ. وَيُمْكِنُ فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ تَفْكِيكُ الدَّالِّ الاصْطِلاَحِيِّ إِلَى مَدْلُولَيْهِ بِمَا يُطَابِقُ عِبَارَةَ: عِلْمُ الأُسْلُوبِ (*Science du Style*). لِذَلِكَ تُعْرَّفُ الأُسْلُوبِيَّةُ بَدَاهَةً بِالبَحْثِ عَنِ الأُسُسِ المَوْضُوعِيَّةِ لِإِرْسَاءِ عِلْمِ الأُسْلُوبِ "[2].

لَقَدْ حَدَّدَ التَّفْكِيرُ الأُسْلُوبِيُّ، مِنَ البِدَايَةِ، لِلأُسْلُوبِيَّةِ صِفَةَ العِلْمِ التَّحْلِيلِيِّ الذِّي رَاحَتْ تَسْلُكُ طَرِيقَهُ، قَاصِدَةً المَوْضُوعِيَّةَ المُجَرَّدَةَ فِي كَشْفِ البَصَمَاتِ الأُسْلُوبِيَّةَ دَاخِلَ الحَقْلِ الإِنْسَانِيِّ، مُمَثَّلاً فِي الأَدَبِ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى[3]. وَهُنَا لَعِبَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ اللُّغَةِ كَظَاهِرَةٍ لاَ يَخْلُو مِنْهَا أَيُّ خِطَابٍ، وَبَيْنَ الكَلاَمِ المُجَسِّدِ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ دَوْرًا كَبِيرًا فِي حَصْرِ مَجَالِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي العِبَارَةِ أَوِ الخِطَابِ أَوِ الرِّسَالَةِ...[4]

وَيُضِيفُ المَسَدِّيُّ بِأَنَّ الظَّاهِرَةُ الوَلِيدَةَ، فِي يَوْمِنَا هَذَا، هِيَ نِتَاجُ تَفَاعُلٍ بَيْنَ الأَلْسُنِيَّةِ وَالنَّقْدِ الأَدَبِيِّ، حَتَّى أَصْبَحَتْ (الأُسْلُوبِيَّةُ) جِسْرًا يَصِلُ عُلُومِ اللِّسَانِ بِالإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ " لِذَلِكَ عُرِفَتْ مَبْدَئِيًّا بِكَوْنِهَا عِلْمًا أَلْسُنِيًّا يُعْنَى بِالبَحْثِ عَنِ الأُسُسِ المَوْضُوعِيَّةِ لِإِرْسَاءِ قَوَاعِدِ دِرَاسَةِ الأُسْلُوبِ كَمَا عُرِّفَتْ عَمَلِيًّا بِأَنَّهَا عِلْمٌ يُعْنَى بِدِرَاسَةِ الخَصَائِصِ اللُّغَوِيَّةِ التِّي تَنْتَقِلُ بِالكَلاَمِ مِنْ مُجَرَّدِ وَسِيلَةِ إِبْلاَغٍ عَادِيٍّ إِلَى أَدَاةِ تَأْثِيرٍ فَنِّيٍّ، ثُمَّ عُرِّفَتْ

[1]- ينظر: الأسلوب والأسلوبيّة، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، صص19،20.

[2]- الأسلوب والأسلوبيّة، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص34.

[3]- ينظر: نفسه، ص37.

[4]- ينظر: نفسه، ص39.

مَنْهَجِيًّا بِأَنَّهَا بَحْثٌ يُمَكِّنُ القَارِئَ مِنْ إِدْرَاكِ انْتِظَامِ خَصَائِصِ الأُسْلُوبِ الفَنِّيِّ إِدْرَاكًا نَقْدِيًّا مَعَ الوَعْيِ بِمَا تُحَقِّقُهُ تِلْكَ الخَصَائِصُ مِنْ غَايَاتٍ وَظَائِفِيَّةٍ "[1].

وَيَقْطَعُ المْسَدِّيُّ بِأَنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ مَنْهَجٌ عِلْمِيٌّ فِي مُقَارَبَتِهِ الأَدَبَ، وَأَنَّ الأُسْلُوبَ مِقْيَاسٌ ضَرُورِيٌّ لِذَلِكَ بِمَا أَنَّهُ المَظْهَرُ الفَنِّيُّ فِي كُلِّ إِبْدَاعٍ أَدَبِيٍّ " وَقَدْ أَلَحَّ كُلُّ رُوَّادِ الأُسلُوبِيَّةِ، فَضْلاً عَنْ نُقَّادِ الأَدَبِ، الكْلاَسِيكِيِّينَ مِنْهُمِ وَالطَّلاَئِعِيِّينَ، عَلَى البُعْدِ الإِنْشَائِيِّ الذِّي يَتَوَظَّفُ بِهِ الأُسْلُوبُ فِي عَمَلِيَّةِ الإِفْرَازِ الفَنِّيِّ طَالَمَا أَنَّ الأُسْلُوبَ هُوَ المِيزَةُ النَّوْعِيَّةُ لِلأَثَرِ الأَدَبِيِّ وَلَا يُعْرَفُ الأَثَرُ إِلَّا بِمَا يُمَيِّزُهُ "[2].

" فَهَلْ يَتَسَنَّى لِلأُسْلُوبِيَّةِ أَنْ تُفْضِيَ إِلَى نَظَرِيَّةٍ شُمُولِيَّةٍ فِي مَوْضُوعِهَا، وَهَلْ بِوُسْعِهَا أَنْ تُعَوِّضَ النَّقْدَ الأَدَبِيَّ إِنْ كَانَتْ فِي صَيْرُورَتِهَا تَرْمِي إِلَى الانْفِرَادِ بِسُلْطَانِ الحُكْمِ فِي الأَدَبِ؟ ثُمَّ مَا عَسَاهَا تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا مِنْ عَوَامِلِ التَّبْشِيرِ بِتَطَوُّرٍ مَوْضُوعِيٍّ أَوْ تَحَوُّلٍ عَلْمَانِيٍّ؟ "[3]. يُرَاكِمُ المسَدِّيُّ مِثْلَ هَذِهِ الأَسْئِلَةَ، فِي خِضَمِّ الأَجْوَاءِ المُتَسَارِعَةِ التِّي عَرَفَهَا العِلْمُ النَّاشِئُ، قَائِلاً أَنَّهُ فِي حَالِ آلَتِ الأُسْلُوبِيَّةُ نَظَرِيَّةً نَقْدِيَّةً لَهَا طَرِيقَتُهَا فِي تَعْرِيفِ الخِطَابِ الأَدَبِيِّ، أَيَكُونُ ذَلِكَ كَافِيًا لِتَتَحَوَّلَ، هِيَ ذَاتُهَا، إِلَى نَظَرِيَّةٍ نَقْدِيَّةٍ فَتَصِيرَ بَدِيلًا عَنِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ عَامَّةً؟[4]، فَيُجِيبُ نَافِيًّا هَذِهِ الصَّيْرُورَةَ، وَأَنْ تَتَمَكَّنَ الأُسْلُوبِيَّةُ مِنْ أَنْ تُصْبِحَ نَظَرِيَّةً تَشْمَلُ كُلَّ أَبْعَادِ الظَّاهِرَةِ الأَدَبِيَّةِ، وَيُرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى إِحْجَامِهَا عَنِ الحُكْمِ عَلَى رِسَالَةِ الأَدَبِ كَوْنَهَا " قَاصِرَةً عَنْ تَخَطِّي حَوَاجِزِ التَّحْلِيلِ إِلَى تَقْيِيمِ الأَثَرِ الأَدَبِيِّ بِالاحْتِكَامِ إِلَى التَّارِيخِ، بَيْنَمَا رِسَالَةُ النَّقْدِ كَامِنَةٌ فِي إِمَاطَةِ اللِّثَامِ عَنْ رِسَالَةِ الأَدَبِ، فَفِي النَّقْدِ إِذَنْ بَعْضُ مَا فِي الأُسْلُوبِيَّةِ وَزِيَادَةِ، وَفِي الأُسْلُوبِيَّةِ مَا فِي النَّقْدِ إِلاَّ بَعْضَهُ "[5]، لِيَحْكُمَ بِهَذَا عَلَى أَنَّ

---

[1]- المقاييس الأسلوبيّة في النّقد الأدبيّ من خلال البيان والتّبيين للجاحظ، عبد السّلام المسدّيّ، حوليّات الجامعة التّونسيّة،ع:13، سنة: 1976م، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التّونسيّة، صص156،155.

[2]- الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، صص110،109.

[3]- نفسه، ص108.

[4]- ينظر: نفسه، ص118.

[5]- نفسه، ص119.

الأُسْلُوبِيَّةَ أَضْيَقُ مَجَالًا مِنَ النَّقْدِ، وَأَقَلُّ قُدْرَةً عَلَى النَّظَرِ فِي الخِطَابِ فِي كُلِّيَّتِهِ.

وَيَخْلُصُ بِالنِّهَايَةِ إِلَى أَنَّهُ، مَا لَمْ نَتَعَامَلْ مَعَ الأَثَرِ الأَدَبِيِّ مِنْ خِلاَلِ تَشْرِيحِ لُغَتِهِ، دَالًّا وَمَدْلُولًا، وَالتِّي هِيَ أَسَاسُ كُلِّ أُسْلُوبٍ، فَإِنَّنَا لَنْ نَسْتَطِيعَ إِدْرَاكَ قِيَمِهِ الجَمَالِيَّةِ، بَلْ إِنَّهُ، أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ " لاَ أُسْلُوبِيَّةَ بِدُونِ غَوْصٍ فِي أَبْعَادِ الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا "[1].

ب- مُنْذِرْ عَيَّاشِي:

فِي كِتَابِهِ (الأُسْلُوبِيَّةُ وَتَحْلِيلُ الخِطَابِ) يُعَرِّفُ مُنْذِرْ عَيَّاشِي الأُسْلُوبِيَّةَ بِأَنَّهَا " مَوْقِفٌ مِنَ الخِطَابِ وَلُغَتِهِ. وَيَتَجَلَّى هَذَا المَوْقِفُ فِي عَمَلِ اللُّغَةِ نَفْسِهِ "[2]، وَيَصِفُهُ بِأَنَّهَا " عِلْمٌ يَدْرُسُ اللُّغَةَ ضِمْنَ نِظَامِ الخِطَابِ، وَلَكِنَّهَا - أَيْضًا - عِلْمٌ يَدْرُسُ الخِطَابَ مُوَزَّعًا عَلَى مَبْدَإِ هُوِيَّةِ الأَجْنَاسِ. وَلِذَا، كَانَ مَوْضُوعُ هَذَا العِلْمِ مُتَعَدِّدَ المُسْتَوَيَاتِ، مُخْتَلِفَ المَشَارِبِ وَالاهْتِمَامَاتِ، مُتَنَوِّعَ الأَهْدَافِ وَالاتِّجَاهَاتِ "[3]. كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الخَطَإِ القَوْلُ بِأَنَّ هَذَا العِلْمَ يُمَثِّلُ الرَّابِطَ بَيْنَ اللِّسَانِيَاتِ وَالأَدَبِ وَنَقْدِهِ، إِذْ يُمَكِّنُهَا عِلْمِ الأُسْلُوبِ مِنَ الانْتِقَالِ مِنْ دِرَاسَةِ الجُمْلَةِ إِلَى دِرَاسَةِ اللُّغَةِ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ أَعْلَى، أَيْ النَّصِّ وَالخِطَابِ وَالأَجْنَاسِ[4].

وَيَرَى عَيَّاشِي أَنَّ الاعْتِبَارَاتُ اللِّسَانِيَّةُ لاَ تَسْتَطِيعُ وَحْدَهَا تَشْكِيلَ الظَّوَاهِرِ الأُسْلُوبِيَّةِ ذَاتِ الأَهَمِّيَّةِ فِي أَيِّ تَحْلِيلٍ، فَهِيَ، مُنْفَرِدَةً، لَيْسَتِ المُكَوِّنَ الأَسَاسَ لِلخِطَابِ، فِي غِيَابِ الاعْتِبَارَاتِ الأُخْرَى اجْتِمَاعِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ... [5]، إِذْ قَدْ يَكُونُ هَدَفُ الخِطَابِ إِيصَالَ فِكْرَةٍ فَهَذَا يَفْتَرِضُ تَوافُقًا أُسْلُوبِيًّا مَا بَيْنَ عَنَاصِرِ الجَمَاعَةِ، أَوْ قَدْ يَكُونُ الغَرَضُ تَبْلِيغَ أَثَرٍ

[1]- الأسلوبيّة والأسلوب، عبد السّلام المسدّيّ، م.س، ص122.

[2]- الأسلوب وتحليل الخطاب، منذر عيّاشي، م.س، ص139. وَينظر: ص70 من الكتاب نفسه.

[3]- ينظر: نفسه، ص27. وَيُنظر: ص142 من الكتابِ نَفسِهِ.

[4]- ينظر: نفسه، ص27.

[5]- ينظر: نفسه، م.س، ص37.

وِجْدَانِيٍّ يَتَبَدَّى عَبْرَ اللُّغَةِ وَمِنْ خِلاَلِهَا فَيَعْكِسُ ذَلِكَ أُسْلُوبَ صَاحِبِهِ وَذَاتِيَّتَهُ[1].

وَالأُسْلُوبِيَّةُ، يُؤَكِّدُ عَيَّاشِي، لَا تَرَى إِلَى النَّصِّ كَمَادَّةٍ ثَابِتَةٍ، إِذْ هِيَ لاَ تَرَاهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بَدْءً، وَلِذَلِكَ تَسْعَى إِلَى الاقْتِرَابِ مِنْهُ قِرَاءَةً وَفَهْمًا وَتَفْسِيرًا، كَوْنَهُ لَيْسَ مُدْرَكًا بِشَكْلٍ نِهَائِيٍّ مِنَ الوَهْلَةِ الأُولَى، بَلْ هُوَ مُدْرَكٌ بِالمُمَارَسَةِ التِّي هِيَ إِنْجَازُهُ [2].

ت- صَلاَحْ فَضْلْ:

وَلاَ يَبْتَعِدُ صَلاَحْ فَضْلِ فِي حَدِيثِهِ عَنِ الأُسْلُوبِيَّةِ عَمَّا أَتَاهُ مُعَاصِرُوهُ، فَهُوَ فِي كِتَابِهِ (عِلْمُ الأُسْلُوبِ-مَبَادِئُهُ وَإِجْرَاءَاتُهُ) يُرَدِّدُ المَفَاهِيمَ النَّظَرِيَّةَ التِّي اْنْتَهَى إِلَيْهَا الدَّرْسُ الأُسْلُوبِيُّ، فَيَشْرَحُ وَيُحَلِّلُ وَيُقَارِنُ بَيْنَ التَّيَّارَاتِ بِهَدَفِ تَجْلِيَةِ مَوَاطِنِ الاخْتِلاَفِ بَيْنَهَا، وَيَنْتَهِي إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَغْفَلَتْ جَانِبًا مِنَ النَّصِّ الأَدَبِيِّ، أَوْ مُكَوِّنًا مِنْ مُكَوِّنَاتِ الخِطَابِ، أَوْ هِيَ أَخَّرَتْ مَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ مِنْ عَنَاصِرِ الأَثَرِ الفَنِّيِّ أَوِ العَكْسُ.

ثُمَّ يَقُولُ: " أَمَّا وَضْعُ عِلْمِ الأُسْلُوبِ بَيْنَ عُلُومِ الطَّبِيعةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ فَلاَ مَجَالَ لِلشَّكِّ فِيهِ، إِذْ إِنَّ وَصْفَ وَتَصْنِيفَ العَنَاصِرِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ يُسَاعِدُنَا عَلَى النَّفَاذِ فِيهِ إِلَى أَبْعَدِ مَدَى، وَإِنْ كَانَ لاَ يُؤَدِّي إِلَى قَانُونٍ عَامٍّ مُطَّرِدٍ، حَتَّى لَوْ أَضَفْنَا نُصُوصًا أُخْرَى مُحَلَّلَةً لِنَفْسِ المُؤَلِّفِ أَوْ لِنَفْسِ العَصْرِ أَوْ لمَوَاقِفَ شَبِيهَةٍ بِمَا نَدْرُسُ "[3]، فَذَلِكَ لَيْسَ بِمَقْدُورِهِ الإِحَاطَةَ بِجَمِيعِ ظَوَاهِرِ خِطَابٍ مَا.

لِهَذَا يَضَعُ فَضْلُ بَيْنَ أَيْدِينَا جُمْلَةً مِنَ المَحَاذِيرِ التِّي يَجِبُ الانْتِباهُ لَهَا حِينَ التَّعَامُلِ مَعَ النُّصُوصِ، فَلَيْسَ بِوُسْعِنَا مَثَلًا " أَنْ نَعْتَبِرَ جَمِيعَ الظَّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ فِي النَّصِّ الخَارِجَةَ عَلَى النِّظَامِ اللُّغَوِيِّ ذَاتَ أَهَمِّيَّةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ وَقِيمَةً فِعْلِيَّةً مُوَظَّفَةً فِي النَّصِّ"[4]. كَمَا أَنَّ الأُسْلُوبِيَّةَ، فِي

---

[1]- ينظر: نفسه، ص49.

[2]- ينظر: الأسلوب وتحليل الخطاب، منذر عيّاشي، م.س، ص41.

[3]- علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، م.س، ص144.

[4]- نفسه، ص213.

بَعْضِ اتِّجَاهَاتِهَا " تُغْفِلُ فِي دِرَاسَتِهَا لِعَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ الأَدَبِيِّ كُلاًّ مِنَ المُؤَلِّفِ وَالقَارِئِ وَتُرَكِّزُ عَلَى عَلاَقَةِ الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي النَّصِّ بِالقَاعِدَةِ المُنْشَقَّةِ عَلَيْهَا "[1].

وَيُنَبِّهُ صَلاَحُ فَضْلُ إِلَى نَوْعَيْنِ مُهِمَّيْنِ مِنَ الخَطَإِ قَدْ يَقَعُ فِيهِمَا المُحَلِّلُ الأُسْلُوبِيُّ، سَمَّى الأَوَّلَ:خَطَأَ الإِضَافَةِ، وَهُوَ أَنْ نَقْرَأَ النَّصَّ القَدِيمَ فَنَخْلَعَ عَلَيْهِ انْطِبَاعَاتِنَا الحَدِيثَةَ مُتَوَهِّمِينَ أَوْ زَاعِمِينَ اكْتِشَافَ تَأْثِيرَاتٍ أُسْلُوبِيَّةٍ كَامِنَةٍ فِيهِ، وَسَمَّى الثَّانِي:خَطَأَ النَّقْصِ، وَهُوَ أَنْ يَعْجَزَ القَارِئُ عَنْ إِدْرَاكِ القِيَمِ الأُسْلُوبِيَّةِ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَى تَمَثُّلِ السِّيَاقِ اللُّغَوِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الذِّي أُنْشِئَ فِيهِ النَّصُّ[2].

ث- حَسَنٌ نَاظِمْ:

مِنْ أَهَمِّ آرَاءِ حَسَنْ نَاظِمْ التِّي يُقَارِبُ فِيهَا الدَّرْسَ الأُسْلُوبِيِّ مَا اكْتَنَفَهُ كِتَابُهُ (البُنَى الأُسْلُوبِيَّةُ – دِرَاسَةٌ فِي أُنْشُودَةِ المَطَرِ لِلسَّيَّابِ)، وَالتِّي مِنْهَا قَوْلُهُ:

– الأُسْلُوبِيَّةَ تُعْنَى بِالقُوَّةِ التَّعْبِيرِيَّةِ لِلعَنَاصْرِ اللِّسَانِيَّةِ، فِي الوَقْتِ الذِّي تَهْتَمُ اللِّسَانِيَّاتُ بِهَذِهِ العَنَاصِرِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا[3].

– " إِنَّ دِرَاسَةَ الأُسْلُوبِيَّةِ لِلنُّصُوصِ يُمْكِنُ أَنْ تُعْنَى بِطَبَقَةٍ خَاصَّةٍ، بَيْدَ أَنَّ مَا تَرْمِي إِلَيْهِ فِي الأَخِيرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَصْفَ شَبَكَةِ العَلاَقَاتِ التِّي تُوَحِّدُ الطَّبَقَاتِ وَمُكَوِّنَاتِهَا فِي كُلِّيَّةٍ مِنَ التَّنَاغُمَاتِ وَالتَّعَارُضَاتِ وَالتَّرْتِيبَاتِ "[4].

– الأُسْلُوبِيَّةُ لَمْ تَكُنْ لِتَكْتَفِي بِالمَنْهَجِيَّةِ اللِّسَانِيَّةِ كَيْمَا تُقَدِّمَ دِرَاسَةً عِلْمِيَّةً وَمَوْضُوعِيَّةً عَنِ النُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ أَوِ النَّثْرِيَّةِ، وَأَنَّ ادِّعَاءَ العِلْمِيَّةِ بِالاسْتِنَادِ إِلَى اللِّسَانِيَّاتِ

[1]- نفسه، 216.

[2]- ينظر: نفسه، ص209.

[3]- ينظر: البنى الأسلوبيّة – دراسة في أنشودة المطر للسّيّاب، حسن ناظم، م.س، ص26.

[4]- نفسه، ص63.

رُبَّمَا يَكْشِفُ عَنْ قُصُورٍ فِي الأُسْلُوبِيَّةِ مِنْ نَوَاحٍ أُخْرَى[1].

ج- نُورُ الدِّينِ السَّدْ:

فِي كِتَابِهِ (الأُسْلُوبِيَّةُ وَتَحْلِيلُ الخِطَابِ - دِراسَة فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ الحدِيثِ) سَارَ نُور الدِّينِ السَّدُّ عَلَى طَرِيقَةِ الذِّينَ سَبَقُوهُ مِنْ نُقَّادِنَا، فَهُوَ يُصَرِّحُ فِي مُقَدِّمَتِهِ بِأَنَّهُ سَيَرْصُدُ المَسَارَ التَّارِيخِيَّ لِنَشْأَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي مَنَابِعِهِ الأَصْلِيَّةِ وَصِلَتِهَا بِاللِّسَانِيَاتِ[2]. وَعَمِلَ فِي الفَصْلِ الثَّانِي مِنْهُ عَلَى ضَبْطِ مَفْهُومِ الأُسْلُوبِ وَتَحْدِيدِ إِجْرَاءَاتِهِ، مُسْتَنْتِجًا أَنَّ ظَاهِرَةَ الانْزِيَاحِ هِيَ التِّي تَضْمَنُ لِلخِطَابِ أَدَبِيَّتَهُ، وَتُحَقِّقُ لَهُ مَشْرُوعِيَّتَهُ[3]. وَذَكَرَ أَنَّ بَحْثَهُ يَهْدِفُ إِلَى تَتَبُّعِ الدِّرَاسَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ العَرَبِيَّةِ الحَدِيثَةِ لِتَبَيُّنِ مَوَاطِنِ المَوْضُوعِيَّةِ وَالذَّاتِيَّةِ فِيهَا، وَأَسْبَابِ انْتِشَارِ الدَّرْسِ الأُسْلُوبِيِّ كَظَاهِرَةٍ فِي فَتْرَةٍ مِنَ فَتَرَاتِ النَّقْدِ العَرَبِيِّ المُعَاصِرِ[4].

وَقَدْ وَصَفَ النَّاقِدُ الجَدَلَ القَائِمَ بَيْنَ المُهْتَمِّينَ بِالدَّرْسِ الأُسْلُوبِيِّ مِنَ العَرَبِ، بِالأَخَصِّ فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِمَسْأَلَةِ الجُذُورِ التُّرَاثِيَّةِ لِهَذَا المَبْحَثِ فِي مُقَابِلِ المُصْطَلَحِ الوَافِدِ مِنَ الغَرْبِ، ثُمَّ حَسَمَ هَذَا الصِّرَاعَ، مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِهِ، مُنْتَصِرًا لِلفَرِيقِ الأَوَّلِ، رُغْمَ اعْتِرَافِهِ بِعَجْزِ التَّجْرِبَةِ التُّرَاثِيَّةِ عَنْ تَأْسِيسِ عِلْمٍ أُسْلُوبِيٍّ مُسْتَقِلٍّ، حِينَ قَالَ: " وَلَعَلَّنَا لَا نُبَالِغُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ طَبِيعَةَ هَذَا الخِلَافِ مُفْتَعَلَةٌ وَلاَ تَقُومُ عَلَى دَعَائِمَ مَوْضُوعِيَّةٍ لِأَنَّ الدَّرْسَ الأُسْلُوبِيَّ فِي العَرَبِيَّةِ لَيْسَ جَدِيدًا، وَهُوَ نَشَاطٌ مَارَسَتْهُ جَمِيعُ المَعَارِفِ التِّي اتَّخَذَتْ مِنَ الخِطَابِ مَيْدَانًا لَهَا، وَتَجَلَّتْ مَلاَمِحُهُ فِي الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ وَالدِّرَاسَاتِ البَلاَغِيَّةِ وَالنَّقْدِيَّةِ وَالشُّرُوحِ الشِّعْرِيَّةِ "[5].

---

[1]- نفسه، ص66.

[2]- ينظر: الأسلُوبية وتحليل الخطاب، نور الدّين السّدّ، م.س، ص6.

[3]- ينظر: الأسلُوبية وتحليل الخطاب، نور الدّين السّدّ، م.س، ص6.

[4]- ينظر : نفسه، ص7.

[5]- نفسه، ص5.

وَعَلَى العُمُومِ، نَقُولُ بِأَنَّ الدَّرْسَ الأُسْلُوبِيَّ العَرَبِيَّ، فِي العَصْرِ الحَدِيثِ، قَدْ وَاكَبَ السَّاحَةَ الأَدَبِيَّةَ وَالنَّقْدِيَّةَ فِي الغَرْبِ، وَسَعَى إِلَى الإِلمَامِ بِمَا يَسْتَجِدُّ فِيهَا وَتَشَرُّبِهِ، وَفِي مَرْحَلَةٍ أُولَى، اسْتِيعَابَهُ وَمُقَارَنَتَهُ بِمَا عِنْدَنَا، وَفِي مَرْحَلَةٍ ثَانِيَّةٍ، المُرُورَ إِلَى المُمَارَسَةِ تَأْصِيلًا وَتَنْظِيرًا وَنَقْدًا، وَقَدْ أَثْبَتَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، مَعَ الأَعْلاَمِ الذِّينَ ذَكَرْتُ بَعْضَهُمْ سَابِقًا، تَمَكُّنَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَى تَمَثُّلِ النَّظَرِيَّةِ فَهْمًا وَتَوْظِيفًا.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

بِنْيَةُ الإِيقَاعِ فِي زُهْدِيَات أَبِي العَتَاهِيَّةِ

1- تَمْهِيدٌ:
2- فِي إِشْكَالِيَّةِ الإِيقَاعِ:
3- تعريفُ الإِيقَاعِ:
4- الإِيقَاعُ واللُّغةُ:
5- فِي جمَالِيَّةِ الإِيقَاعِ:
6- عَلَى إِيقَاعِ القَدِيمِ والمُوَلَّدِ:
7- الظَّواهِرُ الأُسلُوبِيَّةُ فِي إِيقَاعَاتِ أَبِي العتَاهِيَّةِ:
أ-1/7- إِيقَاعُ الصَّوتِ المُفْرَد:
1/1/7- إِيقَاعُ الحُرُوفِ:
2/1/7- الحَرْفُ وإِيقَاعُ الحَرَكَةِ والسُّكُونِ:
3/1/7- إِيقَاعاتُ حُرُوفِ المَدِّ واللِّينِ:
ب-2/7- إِيقَاعُ التَّكْرَارِ.
1/2/7- فِي إِيقَاعِ الكَلمَةِ المُكرَّرَةِ.
2/2/7- إِيقَاعُ التَّضَادِّ.

1- تَمهِيد:

يَظَلُّ الإِيقَاعُ إِشْكَالِيَّةً كُبْرَى تَشْغَلُ النُّقَّادَ مِنْ عُصُورٍ بَعِيدَةٍ، وَلَا تَزَالُ إِلَى يَوْمِنَا تُثِيرُ المَسَائِلَ المُتَنَاقِضَةَ فِي عَوَالِمِ الشِّعْرِ، فَتَجْعَلُ الإِيقَاعَ مَرَّةً، الأَسَاسَ الذِّي عَلَيْهِ يُبْنَى النَّصُّ، وَالذِّي إِلَيْهِ يَرْجِعُ جَمَالُهُ وَجَاذِبِيَّتُهُ، وَتَارَةً يَصِيرُ مُجَرَّدَ وَاجِهَةٍ شَكْلِيَّةٍ، حَتَّى عَادَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بِنْيَةً لَا يَنْهَدِمُ النَّصُّ فِي غِيَابِهَا، وَذَاكَ مَا اجْتَهَدَ فِي إِثْبَاتِهِ شُعَرَاءُ القَصِيدَةِ النَّثْرِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ.

2- فِي إِشْكَالِيَّةِ الإِيقَاعِ:

اعْتَبَرَ رِيتْشَارْدْز الصَّوْتَ " مِفْتَاحَ التَّأْثِيرَاتِ الأُخْرَى فِي الشِّعْرِ "[1]، إِذْ إِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّمْعَ وَيَشُدُّ الانْتِبَاهَ قَبْلَ الالْتِفَاتِ إِلَى مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ رِسَالَةٍ، أَوْ يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ مُحْتَوَى. لِذَلِكَ " يُعَدُّ المُسْتَوَى الصَّوْتِيُّ أَوَّلَ المسْتَوَيَاتِ التِّي تَقُومُ عَلَيْهَا الدِّرَاسَةُ الأُسْلُوبِيَّةُ "[2]، وَيَمِيلُ النُّقَادُ إِلَى جَعْلِهِ المَدْخَلِ الذِّي مِنْهُ يَنْفُذُونَ إِلَى النُّصُوصِ. فَالأُذُنُ هِيَ الأَسْبَقُ إِلَى تَحَسُّسِ مَا يُحِيطُ بِهَا قِيَاسًا إِلَى بَقِيَّةِ أَعْضَاءِ الإِنْسَانِ، لِيَكُونَ الصَّوْتُ بِذَلِكَ " وَسِيلَةَ تَوْصِيلٍ تُثِيرُ مَعْنًى إِدْرَاكِيًّا "[3]، يَتِمُّ تَحْلِيلُهُ تَدْرِيجِيًّا أَوْ آنِيًّا بِحَسَبِ المَوَاقِفِ وَالظُّرُوفِ، وَهِيَ مُهِمَّةٌ غَيْرُ يَسِيرَةٍ بِالمَرَّةِ، لِيَكُونَ هَذَا العَمَلُ، تَبَعًا لِذَلِكَ، فَاتِحَةَ الإِشْكَالِيَاتِ التِّي تُوَاجِهُ الدَّارِسَ لِلإِيقَاعِ.

هَكَذَا إِذَن، إِنَّهُ وَ " مُنْذُ عَهْدِ اليُونَانِ الذِّين كَانُوا أَوَّلَ مَنْ اجْتَهَدُوا فِي تَحْدِيدِهِ، لَا يَزَالُ مَفْهُومُ الإِيقَاعِ مَحَلَّ نِزَاعٍ فِي الرَّأْيِ بَيْنَ البَاحِثِينَ قُدَامَى وَمُحْدَثِينَ "[4]. وَحِينَ وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الالْتِبَاسِ تَعُوقُ التَّوَاصُلَ العِلْمِيَّ كَفَّ البَاحِثُونَ المُحْدَثُونَ المَنْشَغِلُونَ

[1]- مبادئ النّقد الأدبيّ والعلم والشّعر، أ.أ.ريتشاردز، تر: محمّد مصطفى بَدوي، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، ط1، 2005م، ص188.

[2]- محنة المثقّف- دراسة نصوص عبد الله بن المقفّع أسلوبيًّا، عبد الحسين العمري، تَموز للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، 2012م، ص39.

[3]- الأسلوبيّة الصّوتيّة بين النظريّة والتّطبيق، ماهر مهدي هلال، آفاق عربية، ع:12، س:17، 1992م، ص68.

[4]- الإيقاع في السّجع العربيّ - محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدّي، مؤسسات عبد الكريم بن عبدالله، تونس، ط1، 1996م، ص5.

بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّأْوِيلِ عَنِ البَحْثِ فِي جَوْهَرِهِ وَوَصْف أَثَرِهِ فِي النَّفْسِ، وَانْصَرَفُوا إِلَى رَصْدِ مُكَوِّنَاتِهِ (أَوْ بِعِبَارَةٍ أَدَقَّ مَظَانِّهِ) فِي انْبِنَائِهَا وَتَفَاعُلِهَا[1]، سَعْيًا وَرَاءَ كَشْفِ جَمَالِيَاتِهِ، وَأَهَمِّيَّتِهِ فِي بِنْيَةِ النَّصِّ، وَإِسْهَامَاتِهِ فِي جَلَاءِ المَعْنَى وَنُضُوجِهِ.

لَقَدْ اسْتَقَرَّ الرَّأْيُ اليَوْمَ عَلَى أَنَّ عَمَلِيَّةَ التَّوَاصُلِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى مَا نَقُولُ فَقَطْ، وَإِنَّمَا كَيْفَ نَقُولُ أَيْضًا [2]، مِمَّا يَجْعَلُ عَنَاصِرَ أُخْرَى أَسَاسِيَّةً، إِلَى جَانِبِ المُفْرَدَاتِ، فِي تَحْدِيدِ مَضْمُونِ الرِّسَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ كَيْفِيَّةَ الأَدَاءِ الصَّوْتِيِّ الكَلَامِيِّ مُسْهِمَةٌ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ فِي ذَلِكَ[3]. وَحَيْثُ إِنَّ " الكَلَامَ أَصْوَاتٌ مَحَلُّهَا مِنَ الأَسْمَاعِ مَحَلُّ النَّوَاظِرِ مِنَ الأَبْصَارِ"[4]، فَإِنَّ لَهَا، كَمَا لِلْحَوَاسِّ وَالمُدْرَكَاتِ الأُخْرَى، مَكَانَةً فِي تَوْجِيهِ الخِطَابِ وَضَبْطِهِ اعْتِبَارًا مِنْ وَقْعِهَا وَأَثَرِهَا فِي النُّفُوسِ.

فَالصِّلَةُ وَثِيقَةٌ بَيْنَ الإِيقَاعِ المُوسِيقِيِّ وَبَيْنَ النِّظَامِ الذِّي تَسِيرُ عَلَيْهِ حَرَكَةُ الجِسْمِ وَالطَّبِيعَةُ[5]. وَالإِنْسَانُ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى هَذِهِ الحَيَاةِ يَأْلَفُ، حَتَّى قَبْلَ الوَعْيِ التَّامِّ، إِيقَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تَنْمُو مَعَهُ فَيَنْسَجِمُ مَعَهَا وَيَسْتَأْنِسُهَا، وَهُوَ جَنِينٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يَسْمَعُ ضَرَبَاتِ قَلْبِهَا، حِينَ يَبْكِي فَتُهَدْهِدُهُ لِينَامَ، وَهَكَذَا مَعَ بَاقِي الإِيقَاعَاتِ وَالحَرَكَاتِ التِّي تَلِجُ حَيَاتَهُ وَتَنْتَقِلُ مَعَهُ عَبْرَ مَرَاحِلِهَا المَتَعَدِّدَةِ[6].

وَقَدِيمًا قَالَ الجَاحِظُ:"... اعْلَمْ لَوْ أَنَّكَ اعْتَرَضْتَ أَحَادِيثَ النَّاسِ وَخُطَبَهُمْ

---

[1]- البنيّة الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، محمّد العمريّ، بحث منشور ضمن أعمال مهرجان القرين الثّقافيّ الثّامن، في كتاب: الأدب الكويتي خلال نصف قرن 1950-2000 م، صص149- 203، مطبوعات المجلس الوطنيّ، الكويت، 2003م. يُنظر: *http://medelomari.net/KOWEIT2c.htm*

[2]- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة – دراسة لغويّة لدلالة الصّوت ودوره في التّواصل، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1412هـ/ 1992م، ص149.

[3]- ينظر: نفسه، ص151.

[4]- الوَسَاطةُ بينَ المتنبّي وخُصُومِه، القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ، تح وشر: محمّد أبو الفضل إبراهيم وعليّ محمّد البجاوي، المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، ط1، 1427هـ/2006م، ص412.

[5]- ينظر: التّعبير الموسيقيّ، فؤاد زكريا، دار مصر للطّباعة، ط1، 1956م، صص20،21.

[6]- ينظر: الدّلالة الصّوتيّة، م.س، متن وهامش ص151.

وَرسَائِلَهُمْ لَوَجَدْتَ فِيهَا مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ كَثِيرًا، وَمُسْتَفْعِلُنْ مَفَاعِلُنْ وَلَيْسَ أَحَدٌ فِي الأَرْضِ يَجْعَلُ ذَلِكَ المِقْدَارَ شِعْرًا، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ البَاعَةِ صَاحَ: مَنْ يَشْتَرِي بَاذِنْجَانْ؟ لَقَدْ كَانَ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ فِي وَزْنِ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولَاتٌ، وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا شِعْرًا وَصَاحِبُهُ لَمْ يَقْصِدْ إِلَى الشِّعْرِ، وَمِثْلُ هذَا المِقْدَارِ مِنَ الوَزْنِ قَدْ يَتَهَيَّأُ فِي جَمِيعِ الكَلَامِ "[1]، مِمَّا يَزِيدُ مَسْأَلَةَ ضَبْطِ مَفْهُومٍ مُحَدَّدٍ ثَابِتٍ لِلإِيقَاعِ تَعْقِيدًا وَاضْطِرَابًا.

إِنَّ الإِيقَاعَاتِ التِّي تَزْدَحِمُ فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ عَادِيَّةٌ نَمَطِيَّةٌ مُطَّرِدَةٌ، وَحِينَ يَتَدَخَّلُ العَقْلُ وَالفِكْرُ وَالإِبْدَاعُ بَيْنَ ثَنَايَاهَا تَكْتَسِبُ فَنِّيَتَهَا مِنَ التَّوَازُنِ وَغِيَابِهِ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، لِذَا رَأَى هُوجَارِتْ أَنَّ القَاعِدَةَ الثَّابِتَةَ فِي الفَنِّ هِيَ تَحَاشِي الانْتِظَامِ، وَالمَقْصُودُ هُنَا الانْتِظَامُ التَّامُّ[2].

3- تَعْرِيفُ الإِيقَاعِ:

يَعْنِي الإِيقَاعُ، فِي الأَصْلِ اللُّغَوِيِّ، الوَقْعَ عَلَى الشَّيْءِ، فَيُصِيبُ جُزْءً مِنْهُ، وَيَتْرُكُ بَقِيَّةَ الأَجْزَاءِ، وَهَذَا مَلْحُوظٌ فِي تَوْقِيعِ المَطَرِ، وَتَوْقِيعِ الرَّمْيِ، وَإِيقَاعِ الأَلْحَانِ. وَهَذَا المعْنَى نُلاَحِظُهُ فِي الإِيقَاعِ المُوسِيقِيِّ لِلآلَاتِ، وَالإِيقَاعِ الموسِيقِيِّ لِلأَلْفَاظِ، إِذْ إِنَّ الموسِيقَا تَعْتَمِدُ عَلَى تَحْرِيكِ بَعْضِ الأَوْتَارِ دُونَ غَيْرِهَا، لِإِصْدَارِ نَغْمَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَالإِيقَاعُ فِي الأَلْفَاظِ يَعْتَمِدُ أَيْضًا علَى بَعْضِ الأَوْتَارِ الصَّوْتِيَّةِ لِإِصْدَارِ نَغْمَةٍ مُعَيَّنَةٍ، مُوَظِّفًا اخْتِلَافَ مَخَارِجِ الحُرُوفِ فِي تَنْوِيعَ هَذَا " التَّنْغِيمِ الصَّوْتِيِّ، " فَكَأَنَّ الجِهَازَ الصَّوْتِيَّ لِلإِنْسَانِ أَشْبَهُ بِالآلَاتِ الموسِيقِيَّةِ التِّي تُصْدِرُ نَغَمَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي شِدَّتِهَا وَضَعْفِهَا، وَسُرْعَتِهَا وَبُطْئِهَا، وَجَهْرِهَا وَهَمْسِهَا... وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الصَّوْتِيَّةِ التِّي تَحَدَّثَ عَنْهَا عُلَمَاءُ اللُّغَةِ وَالتَّجْوِيدِ.

---

[1]- البيان والتبّيين، ج1، الجاحظ، تح: عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، ص189.

[2]- علم الجمال، عبد الفتّاح الدّيدي، يُنظر: نظرة جديدة في موسيقى الشّعر العربيّ، علي يونس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1993م، ص39 والهامش رقم:1.

وَهُوَ فِي المَعْجَمِ العَرَبِيِّ مُسْتَمَدٌّ مِنْ وَقْعِ المَطَرِ " وَهُوَ شِدَّةُ ضَرْبِهِ الأَرْضَ إِذَا وَبَلَ"[1]، " وَالتَّوْقِيعُ: رَمْيٌ قَرِيبٌ لَا تُبَاعِدُهُ كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُوقِعَهُ عَلَى شَيْءٍ،(...). وَالتَّوْقِيعُ: إِصَابَةُ المَطَرِ بعْضَ الأَرْضِ وَإِخْطَاؤُهُ بَعْضَهَا، وَقِيلَ: هُوَ إِنْبَاتُ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ "[2]. وَالإِيقَاعُ " مِنْ إِيقَاعِ اللَّحْنِ وَالغِنَاءِ، وَهُوَ أَنْ يُوقِعَ الأَلْحَانَ وَيُبَيِّنَهَا، وَسَمَّى الخَلِيلُ، رَحِمَهُ اللهُ، كِتَابًا مِنْ كُتُبِهِ فِي ذَلِك المَعْنَى كِتَابَ الإِيقَاعِ "[3]، وَفِي عُرْفِ أَهْلِ اللُّغَةِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ " اتِّفَاقِ الأَصْوَاتِ وَالأَلْحَانِ وَتَوْقِيعِهَا فِي الغِنَاءِ أَوِ العَزْفِ"[4].

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ مُصْطَلَحَ إِيقَاعٌ (رِتْمُوسْ/*Rhuthmos*) وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ عِنْدِ الإِغْرِيقِ[5]، فَقَدْ ذَكَرَ أَفْلَاطُونُ *Platon* فِي (القَوَانِينِ) أَنَّهُ " بِاستِثْنَاءِ الإِنْسَانِ، فَإِنَّ بَقِيَّةَ الحَيَوَانَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَدْنَى فِكْرَةٍ عَنِ النِّظَامِ الذِّي يَجِبُ أَنْ يُسَيطِرَ عَلَى حَرَكَاتِ الجِسْمِ وَالصَّوْتِ، عَدَا تِلْكَ المُتَعَلِّقَةِ بِالحَرَكَاتِ الجَسَدِيَّةِ، هذَا النِّظَامُ كَانَ يُسَمَّى:قِيَاسًا، فَفِي مَعْزِلٍ عَنِ الصَّوْتِ، فَإِنَّهُمْ أَعْطَوْا لِمَزِيجِ الإِيقَاعَاتِ الفَخْمَةِ وَالحَادَّةِ مُسَمَّى: انْسِجَامٌ، فِي حِين أَنّ: كُورَالٌ تُشِيرُ إِلَى اتِّحادِ الغِنَاءُ وَالرَّقْصِ "[6]، مُضِيفًا بِأَنَّ الإِيقَاعَ هُوَ " تَحْقِيقُ الحَرَكَةِ فِيمَا يُشَاهَدُ وَفِيمَا يُسْمَعُ ".[7]

---

[1]- لسان العرب، ج8، ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري، مادة: و- ق-ع، ط ، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ص402.

[2]- نفسه، ص406.

[3]- نفسه، ص408.

[4]- لاروس- المعجم العربيّ الحديث، خليل الجرّ، مكتبة لاروس، باريس، 1973م، ص205.

[5]- *Le Robert ,Paul Robert,Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, socicaise, société du Nouveau Littré Le Robert,Paris XI. Tome: 06, p. 66 (Rythme).*

[6]-*Oeuvres de Platon, Lois N°665a, traduites par: Victor Coussin,T:, Pichons et Didiers Libraires, 1831, voir: http://remacle.org/bloodwolf/philosophes/platon/cousin/lois2.htm « qu'à l'exception de l'homme, les autres animaux n'avaient aucune idée de l'ordre qui doit régner dans les mouvements du corps et ceux de la voix ; que, par rapport aux mouvements du corps, cet ordre s'appelait mesure ; qu'à l'égard de la voix, on avait donné au mélange des tons graves et aigus le nom d'harmonie, et celui de chorée à l'union du chant et de la danse». Voir aussi: (Les Lois) Le rythme et la voix , Marie-France Castarède, castarede. at.infonie.fr - CAIRN.INFO -" Platon écrivait : " Cet ordre dans le mouvement a précisément reçu le nom de Rythme, tandis qu'on appelle Harmonie l'ordre de la voix où l'aigu et le grave se fondent et l'union des deux se nomme art choral".* كتب أفلاطُون يَقُول:" نِظامُ الحرَكاتِ هَذا حَمَلَ تَحدِيدًا تَسْمِيَةَ: إِيقَاع، فِي حِين نُسَمِّي" انسِجَامًا" نظَامَ الصَّوتِ الذِّي يَمتَزِجُ فِيه الفَخمُ والحَادُ لِيَنتُجَ عَنِ اتِّحادِهِما ما نُسَمِّيهِ:الفنَّ الكُورَالِيَّ".

[7]- الفيلسوف وفنّ الموسيقى، جُوليُوس بُورتنوي، تر: فؤاد زكريا، مطابع نهضة مصر للطّباعة والنّشر، القاهرة، د.ط، 1973م، ص71.

وَفِي العَصْرِ الحَدِيثِ نَجِدُ المعْجَمَ الفِرَنْسِيُّ لَارُوسْ يُعرِّفُ الإِيقَاعَ بِأَنَّهُ " فِي العَرُوضِ: تَرَدُّدٌ مُنْتَظِمٌ مَطْبُوعٌ بِتَوْزِيعِ عَنَاصِرَ لِسَانِيَّةٍ (زَمَنٌ قَوِيٌّ، زَمَنٌ ضَعِيفٌ،إِلَخ) فِي بَيْتٍ شِعْرِيٍّ، جُمْلَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ، إِلَخ، الحَرَكَةُ العَامَّةُ التِّي تَنْتُجُ عَنْهُ. فِي المُوسِيقَى:هُوَ تَوَافُقَاتُ قِيَمِ النُّوَطِ، وَالمُدَدِ. عَوْدَةٌ ذَاتُ فَوَاصِلَ مُنْتَظَمَةٍ فِي الزَّمَنِ، لِحَدَثٍ، أَوْ ظَاهِرَةٍ: إِيقَاعُ الفُصُولِ، وَإِيقَاعُ ضَرَبَاتِ القَلْبِ"[1]، وَهُوَ ذَاتُ التَّعْرِيفِ الذِّي تَسُوقُهُ المَعَاجِمُ الإِنْجْلِيزِيَّةُ، فَقَدْ جَاءَ فِي قَامُوسِ أُكْسْفُورْدْ أَنَّ الإِيقَاعَ هُوَ " تَوَافُقُ الصَّوْتِ بَيْنَ الكَلِمَاتِ أَوْ فِي نِهَايَاتِهَا، خُصُوصًا حِينَ تُسْتَعْمَلُ فِي آخِرِ الأَسْطُرِ الشِّعْرِيَّةِ "[2]. وَهَذَا مَا دَرَجَتْ عَلَيْهِ المَعَاجِمُ الغَرْبِيَّةُ مَعَ اخْتِلَافَاتٍ بَسِيطَةٍ نَاتِجَةٍ عَنِ المَجَالَاتِ التِّي ارْتَبَطَ بِهَا، قَبْلَ أَنْ يَتَطَوَّرَ المَفْهُومَ وَيَتَّسَعَ إِلَى أُخْرَى جَدِيدَةٍ.

وَمِمَا يُدَلِّلُ عَلَى الصُّعُوبَاتِ التِّي تُوَاجِهُ النُّقَادَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ مُصْطَلَحِ الإِيقَاعِ تَعَدُّدُ التَّعْرِيفَاتِ التِّي تُحَاوِلُ تَقْرِيرَ مَاهِيَّتِهِ وَتَحْدِيدَ خَصَائِصِهِ، فَقَدْ جَمَعَ بُولْ سُوفَانِيPaul Sovanni نَحْوَ مَائَةِ تَعْرِيفٍ لِلإِيقَاعِ فِي كِتَابِهِ (الإِيقَاعُ وَالمَنْطِقُ)[3] يَشْمَلُ مَنَاحِيَ عَدِيدَةً مِنَ الحَيَاةِ وَالعِلْمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَيَرَى جِيلْ دُلُوزْ G.Deleuze مِثْلَ هَذَا، إِذِ الإِيقَاعُ عِنْدَهُ لَيْسَ مَسْأَلَةَ مُوسِيقَى فَقَطْ، وَإِنَّمَا أُسْلُوبَ حَيَاةٍ: فَبِالسُّرْعَةِ وَالبُطْءِ نَتَسَلَّلُ بَيْنَ الأَشْيَاءِ، نَتَرَابَطُ مَعَ الشَّيْءِ الآخَرِ: لَا نَبْدأُ أَبَدًا، لَا نَمْحِي كُلِّيَّةً، بَلْ نَتَسَلَّلُ بَيْنَ، نَدْخُلُ فِي الوَسَطِ، نَقْتَرِنُ أَوْ نَفْرِضُ إِيقَاعَاتٍ "[4]. أَمَّا مُوتْشُونِيكْ وَدِيسُون فَيَقُولَانِ بِأَنَّ " الإِيقَاعُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ – إِذَا اسْتَعْصَى عَلَى التَّعْرِيفِ – كَتَنَاوُبِ عَلَامَاتٍ (أَزْمِنَةٌ قَوِيَّةٌ، أَزْمِنَةٌ ضَعِيفَةٌ) لِلمُتَشَابِهِ وَالمُخْتَلِفِ "[5].

---

[1]-*Le Petit Larousse Illustré, 1990, Librairie Larousse, P:864*

[2]-*Oxford Living Dictionaries, https://en.oxforddictionaries.com/definition/Rythm. "Correspondence of sound between words or the endings of words, especially when these are used at the ends of lines of poetry ".*

[3]-*Voir:Le Rythme et la raison ,T:1, Rythmologiques, P.SAUVANET, Paris, Kimé, 2000, Pp: 230-245.*

[4]-*G.Deleueze, Spinosa, Philosophie pratique, Minuit, 1981, P:166.*

[5]-*Traité du rythme, des vers et des proses, Gérard DESSONS, & Henri MESCHONNIC,1998, Paris, Dunod, P:33. " le rythme se perçoit - à défaut de se définir - comme une alternance de marques (temps fort, temps faible) du même et du different ".*

وعَلى العُمُومِ يُمكِنُ التَّأْكِيدُ عَلَى الصِّلَةِ الوَثِيقَةِ بَيْنَ مَعَانِي الإِيقَاعِ فِي اللُّغَةِ وَالاصْطِلاَحِ، إِذْ إِنَّ مِنْ مَعَانِيهِ فِي اللُّغَةِ، الوَقْعُ: الضَّرْبُ بِالشَيْءِ. وَهَذَا الذِّي نُلَاحِظُهُ فِي الإِيقَاعِ الموسِيقِيِّ لِلآلَاتِ، وَالإِيقَاعِ المُوسِيقِيِّ لِلأَلْفَاظِ أَيْضًا، فَالأَوَّلُ ضَرْبٌ عَلَى أَوْتَارٍ مُعَيَّنَةٍ فِي أَزْمِنَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فِي حِينَ أَنَّ الثَّانِي يُوَزِّعُ النَّقَرَاتِ عَلَى أَوْتَارِ الصَّوْتِ لِيَحْدُثَ الاخْتِلَافُ فِي مَخَارِجِ الحُرُوفِ وَتَنْغِيمَاتِهَا، سُرْعَةً وبُطءً، شِدَّة وضُعْفًا.

وَ" يَبْقَى أَنَّ الإِيقَاعَ، فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العَالَمِ، حَسَبَ الكَلِمَةِ المَشْهُورَةِ لمَايَاكُوفْسْكِي، هُوَ القُوَّةُ المغْنَاطِيسِيَّةُ لِلشِّعْرِ(القَصِيدِ)"[1] كَمَا يَقُولُ بُولْ زُمْطُورْ. وَكَانَ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَهُوَ يُعَرِّفُ الشِّعْرَ العَرَبِّي، نَوَّهَ بِاشْتِرَاكِ الأُمَمِ فِي عُنْصُرِ الإِيقَاعِ حِينَ قَالَ:" فَهَذِهِ أَرْبعَةُ أَشْيَاءٍ: اللَّفْظُ، المعْنَى، الوَزْنُ، القَافِيَةُ. فَاللَّفْظُ وَحْدَهُ هُوَ الذِّي يَقَعُ فِيهِ الاخْتِلاَفُ بَيْنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ(...). وَأَمَّا الثَّلاَثَةُ الأُخَرُ، الأَمْرُ فِيهَا عَلَى التَّسَاوِي بَيْنَ الأُمَمِ قَاطِبَةً "[2]. وَلَا يَزَالُ الأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، غَيْرَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي مفْهُومِهِ كَوْنَهُ " ظَاهِرَةً مُعَقَّدَةً نَاتِجَةً عَنْ مُكَوِّنَاتٍ لِسَانِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَهُوَ الطَّرِيقَةُ التيِّ تَتَوَزَّعُ بِهَا عَنَاصِرُ مُتَرَدِّدَةٌ عَبْرَ القَوْلِ. مِنْ هَذِهِ العَنَاصِرِ مَا هُوَ جَوْهَرِيٌّ وَهُوَ النَّبْرُ وَالوَقْفُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ثَانَوِيٌّ، قِوَامُهُ، الوَحَدَاتُ الصَّوْتِيَّةُ، وَالبُنَى التَّرْكِيبِيَّةِ، وَالأَلْفَاظُ المعْجَمِيَّة التِّي قَدْ يُسَاهِمُ تَرْجِيعُهَا فِي خَلْقِ إِحْسَاسٍ بِإِيقَاعٍ مَا "[3].

وَنَتِيجَةً لِهَذَا التَّعْقِيدِ هُنَاكَ مَنْ رَاحَ يَسْتَعِيضُ عَنْ كَلِمَةِ إِيقَاع (*rythme*) بِـ" البِّنْيَةِ الصَّوْتِيَّةِ "، أَوِ المسْتَوَى النَّظْمِيِّ، كَمَا هُوَ شَائِعٌ فِي الدِّرَاسَاتِ البَلاَغِيَّةِ/ اللِّسَانِيَّةِ، عَلَّهُمْ يُفْلِتُونَ مِن هَذِهِ الإِشْكَالِيَّةِ، وَمِنْهُم جُونْ كُوهِنْ فِي كِتَابِهِ: بِنْيَةُ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ[4]. أَمَّا غْرِيمَاسْ وَفِي مَقَالٍ لَهُ بِعُنْوَانِ:" نَحْوَ نَظَرِيَّةٍ لِلخِطَابِ الأَدَبِيِّ" فَيَسْتَخْدِمُ مُصْطَلَحَ (المسْتَوَى

---

[1]- مدخل إلى الشّعر الشّفويّ، بول زمطور، يُنظر: البنية الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، محمّد العمري، م.س.

[2]- القسطاس في علم العروض، الزّمخشريّ، تح: فخر الدّين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط2، 1410هـ/1989م، ص2.

[3]- *Catherine Kerbrat - Orecchioni La connotation*، يُنظر: البنية الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ ...، محمّد العمريّ، م.س.

[4]- نفسه.

التَّطْرِيزِيِّ) الذِّي يُمْكِنُ أَنْ يَجْمَعُ تَحْتَهُ " مُخْتَلَفَ التَّجَلِّيَاتِ الفَوْقْ–تَقْطِيعِيَّةٍ لمسْتَوَى التَّعْبِيرِ، ابْتِدَاءً مِنْ نَبْرِ الكَلِمَةِ مُرُورًا بِطَبَقَاتٍ تَشَكُّلِ الملْفُوظِ(القَولَ)، وُصُولًا إِلَى التَّمَوُّجَاتِ التَّنْغِيمِيَّةِ لِلجُمَلِ المعقَّدَةِ وَالدَّوَرَاتِ الخِطَابِيَّةِ (الإِلْقَائِيَّةِ)...إِلخَ "[1].

يَضْطَرُّنا هَذَا التَّبَايُنُ، الذِّي لَمْ تُبَدِّدْهُ الأَيَّامُ، لِنَسُوقَ جُمْلَةً مِنَ التَّعْرِيفَاتِ المُتَواتِرَة، فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَقْرِيبِ المفْهُومِ، وَحَصْرِ جَوَانِبِهِ المعْرِفِيَّةِ الكُبْرَى مَا أَمْكَنَنَا ذَلِكَ. فَالإِيقَاعُ " فِعْلٌ يَكِيلُ زَمَانَ الصَّوْتِ بِفَوَاصِلَ مُتَنَاسِبَةٍ مُتَشَابِهَةٍ مُتَعَادِلَةٍ "[2]، أَوْ هُوَ :" النُّقْلَة عَلَى النَّغَمِ فِي أَزْمِنَةٍ مَحْدُودَةِ المقَادِيرِ وَالنِّسَبِ "[3] كَمَا يَرَاهُ الفَارَابِي. وَهُوَ عِنْدَ ابْنِ سِينَا " تَقْدِيرٌ لِزَمَانِ النَّقَرَاتِ فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ كَانَتْ النَّقَرَاتُ مُنَغَّمَةً، كَانَ إِيقَاعًا لَحْنِيًّا، وَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ كَانَتِ النَّقَرَاتُ مُحْدِثَةً لِلْحُرُوفِ المنْتَظِمِ مِنْهَا كَلَامٌ، كَانَ الإِيقَاعُ شِعْرِيًّا "[4]. وَلَعَلَّ هَذِهِ المسَاحَةَ الضَّيِّقَةَ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالغِنَاءِ هِيَ التِّي جَعَلَتْ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ(ت 54 هـ/674م) يَقُولُ:

تَغَنَّ بِالشِّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ *** إِنَّ الغِنَاءَ لِهَذَا الشِّعْرِ مِضْمَارُ [5].

وَهُوَ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ ابْنُ فَارِسٍ أَيْضًا حِينَ أَكَّدَ بِأَنَّ " أَهْلَ العَرُوضِ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ صِنَاعَةِ العَرُوضِ وَصِنَاعَةِ الإِيقَاعِ، إِلَّا أَنَّ صِنَاعَةَ الإِيقَاعِ تُقَسِّمُ الزَّمَانَ بِالنَّغَمِ، وَصِنَاعَةُ العَرُوضِ تُقَسِّمُ الزَّمَانَ بِالحُرُوفِ المسْمُوعَةِ "[6]، فَيَتَّفِقَانِ بِذَلِكَ فِي كَوْنِهِمَا صَوْتًا يَتَرَدَّدُ بِشَكْلٍ مُعَيَّنٍ، إِنَّهُ " وِحْدَةُ النَّغْمَةِ التِّي تَتَكَرَّرُ عَلَى نَحْوٍ مَا فِي الكَلَامِ أَوْ فِي البَيْتِ، أَيْ تَوَالِي الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ عَلَى نَحْوٍ مُنْتَظَمٍ فِي فِقْرَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ فِقَر

---

[1]– يُنظر:البنية الإيقاعية في الشعر الكويتي خلال النصف الثاني من القرن 20، م.س.

[2]– المقابسات، أبو حيّان التوحيدي، عليّ بن محمّد بن العبّاس، تح: حسن السّندوبي، دار سعاد الصّباح، الكويت، ط2، 1992م، ص310.

[3]– المُوسيقى الكبير، أبو نصر محمد الفارابي، تح: غطّاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، د.ط، د.ت، ص436.

[4]– الشّفاء– جوامع علم الموسيقى، ابن سينا، تح: زكريا يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1977م، ص9.

[5]– **ينظر**: كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،ج2، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزديّ، تح: محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ/1981م، ص 313.

[6]– الصّاحبي في فقه اللّغة، ابن فارس, تح: مصطفى الشّويحي, مؤسسة أ.بدران، بيروت، 1963م، صص275،274، وينظر: المُزهِر في علوم اللّغة وأنواعها، السّيوطي، ج1، شر، تص:محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،د.ط، د.ت، ص470.

الكَلَامِ، أَوْ فِي أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ، وَقَدْ يَتَوفَّرُ الإيقَاعُ فِي النَّثْرِ" [1] كَمَا فِي التَّرْصِيعِ وَغَيْرِهِ.

وَمِنْ تَعْرِيفَاتِ الإِيقَاعِ أَنَّهُ " تَوَاتُرُ الحَرَكَةِ النَّغَمِيَّةِ، وتَكْرَارُ الوُقُوعِ المُطَّرِدِ لِلنَّبْرَةِ فِي الإِلْقَاءِ، وَتَدَفُّقُ الكَلَام المَنْظُومِ وَالمَنْثُورِ عَنْ طَرِيقِ تَآلفِ مُخْتَصَرِ العنَاصِرِ المُوسِيقِيَّةِ "[2]، وهُو " التَّوازُنُ النَّاشِئُ عَنْ تَقَارُبِ الشَّبَهِ بَيْنَ المسَافَاتِ الفَاصِلَةِ بَيْنَ كُلِّ نَبْرٍ وَنَبْرٍ، وَهَذَا التَّوَازُن هُوَ مَصْدَرُ رَشَاقَةِ الأُسْلُوبِ وَسَبَبٌ قَوِيٌّ مِنْ أَسْبَابِ ارْتِيَاحِ النَّفْسِ لَهُ "[3]. كَمَا أَنَّهُ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِه لَيْسَ مَادَّةً وَإِنَّمَا هُوَ إِحْسَاسٌ تُجَسِّدُهُ المَادَّةُ التيِّ يَرْتَبِطُ بِهَا فَيَتَّخِذُ شَكْلًا مَادِّيًّا، وَهُوَ فِي الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ مُتَمَثِّلٌ فِي الحَرَكَاتِ اللَّفْظِيَّة وَفِي المُوسِيقَى مُجَسَّدٌ فِي الحَرَكَاتِ الصَّوْتِيَّةِ، وَفِي الرَّقْصِ مُتَجَلٍّ فِي الحَرَكَاتِ البَدَنِيَّةِ، إِنَّهُ مِنْ هَذِهِ النَّوَاحِي كُلِّهَا بِمَثَابَةِ الظَّرْفِ أَوِ الوِعَاءِ أَوِ القَالَبِ لِلحَرَكَةِ اللَّفْظِيَّةِ وَالصَّوْتِيَّةِ وَالبَدَنِيَّةِ، فيَظْهَرُ بِذَلِكَ لِلْحِسِّ، وَيَشْعُرُ الإِنْسَانُ مَعَهُ بِاللَّذَّةِ وَالجَمَالِ، وَأَيُّ خَلَلٍ يُصِيبُهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَسَادُهُ وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ مَا يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُ بِالاضْطِرَابِ[4]. عَلَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَرَى فِي التَّبَايُنِ وَالاخْتِلَافِ تَجَانُسًا إِيقَاعِيًّا أَيْضًا*، إِذَا مَا كَانَ ذَلِكَ يَتِمُّ حَسَبَ تَوَاتُرٍ مُعَيَّنٍ يُكْسِبُهُ التَّكْرَارِيَّةَ وَالتَّمَاثُلَ كَمَا فِي تَعَاقُبِ الفُصُولِ[5] وَاللَّيْلِ وَالنَّهَار وَنَحْوِهِ.

أَمَّا رُوزْ غَرِيبْ فَتُعَرِّفُهُ عَلَى أَنَّهُ " التَّكْرَارُ المتَّسِقُ أَوْ غَيْرُ المتَّسِقِ لِوَضْعٍ أَوْ مَرْكَزِ قُوَّةٍ، لمِعْنَى أَوْ حَرَكَةٍ. وَهُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الوِحْدَةِ لِأَنَّهُ تَرْكِيزٌ عَلَى حَرَكَةٍ أَوْ نَغَمٍ أَوْ لَفْظٍ مُعَيَّن يَظْهَرُ فِي تَنَاوُبِ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، الأَنْوَارِ وَالظَّلَامِ، عَوْدَةِ البِدَايَةِ فِي النِّهَايَةِ، رُجُوعِ القَرَارِ فِي

---

[1]- النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد غنيمي هلال، م.س، ص435.

[2]- المعجم المفصل في الأدب، ج1، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 1419هـ/1999م، ص149.

[3]- الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، العيد محمد شبايك، دارُ حِراء، القاهرة، ط1، 1993م، ص70.

[4]- ينظر:الدّلالة الصّوتيّة، كريم زكي حسام الدين، م.س، صص152،151.

* يرى صلاح فضل رأيًا قريبًا مِن هذا، يُنظر: القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلالية والبنية الإيقاعيّة – حساسيّة الانبثاقة الشّعريّة الأولى- جيل الرّواد والسّتينات، محمّد صابر عُبيد، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م، ص23.

[5]- نظرية القراءة – تأسيس للنّظريّة العامّة للقراءة الأدبيّة، عبد الملك مرتاض، دار الغرب للنّشر والتوزيع، الجزائر، 2003م، ص226، ومُمَارسة العِشق بالقِراءة-سَعيٌ لتأسيسِ نظريّة للقراءة الأدبيّة، عبد الملك مرتاض، مجلّة نزوى، ع:8، جمادى الأولى1417هـ/01 أكتوبر 1996م، مَسقط، عُمان، ص62.

الأُغْنِيَةِ، رَدُّ العَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ فِي الشِّعْرِ، تَكْرَارُ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ قَوَافٍ مُتَنَاوِبَةٍ، رُجُوعُ نَوْبَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ عِبَارَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ فِي المَعْزُوفَةِ. فَهُوَ تَنَاظُرٌ زَمَنِيٌّ يُقَابِلُهُ فِي الطَّبِيعَةِ تَوَقُّفُ الحَرَكَةِ أَمَام حَاجِزٍ ثُمَّ اسْتِئْنَافُهَا "[1].

فَفِي الشِّعْرِ الإِيقَاعُ هُو النِّظَامُ الذِّي تَتَرَتَّبُ فِيهِ التَّفْعِيلَاتُ دَاخِلَ البَيْتِ، وَقَدْ أَشَارَ عَدَدٌ مِنَ البَاحِثِينَ إِلَى أَنَّ الوَزْنَ لَيْسَ مُجَرَّدَ صُورَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ صُوَرِ الإِيقَاعِ إِذْ لَهُ وَظَائِفُ أَكْثَرُ أَهَمِّيَةً فِي بَعْضِ الحَالَاتِ[2]، لَكِنَّهُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ يَسْتَمِرُ جُزْءً مِنْهُ، كَوْنَ الإِيقَاعِ يَشْمَلُ الوَزْنَ وَالقَافِيَةَ وَالإِيقَاعَ الدَّاخِلِيَّ، لِأَنَّهُ " تَتَابُعٌ مُنْتَظِمٌ لمَجمُوعَةٍ مِنَ العَنَاصِرِ"[3]، يَصيرُ مَعَهَا أَوْسَعَ مِنَ الوَزْنِ وَيَحْتَوِيهِ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو نَصْرٍ الفَارَابِيُّ بِـ" أَنَّ مَوَاقِعَ النَّقَرَاتِ هِيَ نَفْسُهَا مَوَاقِعُ النَّبَرَاتِ عَلَى التَّفَاعِيلِ المُتَتَابِعَةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ الاسْمُ بَيْنَ المُسَمَّيَيْنِ "[4]، لِذَلِكَ لَيْسَ الوَزْنُ إِلَّا صُورَةً جُزْئِيَّةً مِنَ الصُّوَرِ التِّي يَتَجَلَّى فِيهَا الإِيقَاعُ.

وَيُمَيِّزُ عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضٌ بَيْنَ الوَزْنِ وَالإِيقَاعِ، وَيرَى أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَخْلِطُ بَيْنَهُمَا، فِي حِينِ " إِنَّ الوَزْنَ يَتَشَكَّلُ مِنْ تَعَاقُبٍ مُنْتَظَمٍ، وَمُتَكَرِّرٍ بِغَيْرِ تَحْدِيدٍ، مِنَ الأَزْمِنَةِ القَوِيَّةِ، وَالأَزْمِنَةِ اللَّيِنَةِ، عَلَى حِين أَنَّ الإِيقَاعَ يَخْضَعُ لِقَانُونٍ آخَرَ مُخْتلِفٍ عَنِ الأَوَّلِ، إِنَّهُ يَتَشَكَّلُ مِنْ قِطَعٍ وَعَنَاصِرَ جُمَلٍ ذَاتِ امْتِدَادٍ، كَمَا يَتَشَكَّلُ مِنْ جُمَلٍ وَأَدْوَارَ أَيْضًا. وَإِنَّ انْقِسَامَاتِ الإِيقَاعِ يُمْكِنُ أَنْ تَتَصَافَّ بِالاتِّفَاقِ مَعَ بَعْضِ النُّقَطِ بِالقِيَاسِ إِلَى الوَزْنِ. لَكِنَّ مِثْلَ هَذَا الاتِّفَاقِ لَا يَحْدُثُ بِصُورَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ وَإِجْبَارِيَّةٍ "[5]، فَـ " الوَزْنَ حِينَ يَتَمَثَّلُ لَدَى بِدَايَةِ تَرْكِيبٍ مَا يَظَلُّ قَائِمًا بِدُونِ أَنْ يَعْتَرِيهِ تَغْيِيرٌ إِلَى النِّهَايَةِ، فَكَأَنَّهُ شَكْلٌ مِيكَانيكِيٌّ. بَيْنَمَا نُلْفِي الإِيقَاعَ كَأَنَّهُ خَلْقٌ جَمَالِيٌّ مَحْضٌ "[6].

---

[1]- تمهيد في النّقد الأدبيّ، روز غريب، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1971م، ص107.

[2]- ينظر: مَبادئ النّقد الأدبِيّ...، أ.أ.ريتشاردز، م.س، ص193.

[3]- نظرة جديدة في موسيقى الشّعر العربيّ، عليّ يونس، م.س، ص17.

[4]- كتاب الموسيقى الكبير، ج2، أبو نصر الفارابي، م.س، ص435.

[5]- مُمَارسة العِشق بالقِراءة، سَعيٌ لتأسيسِ نظريّة للقراءة الأدبيّة، م.س، صص62،63.

[6]- *Structure du langage poétique, J. Cohen*، يُنظر: ممارسة العشق بالقراءة، م.س، 63.

فَالإِيقَاعُ يَخْتَلفُ " عَنِ الوَزْنِ فِي المُوسِيقَى وَالشِّعْرِ، إِذْ إِنَّمَا الوَزْنُ هُوَ انْقِسَامُ إِبْدَاعٍ مُوسِيقِيٍّ إِلَى أَقْسَامٍ يَكُونَ لَهَا، كُلَّهَا المُدَّةَ نَفْسَهَا، عَلَى حِينِ إِنَّ الإِيقَاعَ يَتَشَكَّلُ مِنْ انْقِسَامٍ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مُخْتَلِفٍ عَنْهُ كُلَّ الاخْتِلَافِ: يَكُونُ مُقْحَمًا فَوْقَ الذِّي سَلَفَ، وَمُعْطِيًا أَقْسَامَ التَّرْكِيبِ المَاثِلِ مُدَدًا زَمَنِيَّةً لَيْسَتْ بِالضَّرُورَةِ مُتَسَاوِيَةً "[1]. وَمِنْ هُنَا فَـ " الوَزْنُ لَا يُمَثِّلُ إِلَّا عُنْصُرًا وَاحِدًا مِنْ عَنَاصِرِ الجَرْسِ حَيْثُ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ حَرَكَةٍ أَكْبَرَ هِيَ الإِيقَاعُ "[2]، يَعْمَلُ دَاخِلَهَا بِالتَّآزُرِ مَعَ غَيْرِهِ لِإِحْدَاثِ التَّأْثِيرِ الذِّي يُعْطِي لِلشِّعْرِ خَوَاصَّهُ المَادِّيَةَ وَالمَعْنَوِيَّةَ المُحْدِثَةَ لِلَّذَّةِ وَالجَمَالِ. لِذَا اعتبَرَ تَمَّام حَسَانُ " الإِيقَاعَ أَعَمَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَزْنًا فِي الشِّعْرِ أَوْ تَوَازُنًا فِي الصُّوَرِ الأُخْرَى مِنَ الاسْتِعْمَالِ. وَهُوَ مِمَّا يَتَنَاوَلُهُ التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ لِلأَدَبِ "[3]، مُضِيفًا بِأَنَّهُ مَا يَشْمَلُ النَّبْرَ وَالتَّنْغِيمَ كِلَيْهِمَا فِي الاسْتِعْمَالِ[4].

فَالوَزْنُ إِذَنْ عُنْصُرٌ أَسَاسٌ فِي التَّرْكِيبَةِ الكُلِّيَّةِ لِلإِيقَاعِ، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا يَبْقَى قَاصِرًا عَلَى أَنْ يُمَثِّلَهُ فِي شُمُولِيَّتِهِ وَانْتِشَارِهِ، فَهُوَ ذُو " نَمَطٍ مُجَرَّدٍ يُتَعَرَّفُ عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ التَّقْطِيعِ، يَخْلُقُ نِظَامَ تَوَقُّعَاتِهِ الخَاصَّ، جُمُودَهُ الخَاصَّ، وَسُرْعَانَ مَا يُصْبِحُ إِدْرَاكُهُ آلِيًّا "[5]، فِي حِينِ أَنَّ الإِيقَاعَ حَيَوِيٌّ مُتَجَدِّدٌ فِي تَرْكِيبَتِهِ وَفِي حُضُورِهِ، وَلَا يَكْفِي أَنْ يَقُومَ الوَزْنُ دَلِيلًا عَلَيْهِ " لِأَنَّ الإِيقَاعَ يَحْدُثُ لِمُسَبِّبَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الوَزْنِ وَقَد تَخْفَى عَلَيْنَا هَذِهِ المُسَبِّبَاتُ. وَلَكِنَّنَا دَائِمًا نُحِسّ بِأَثَرِهَا عَلَيْنَا. وَيَعْرِفُ قُرَّاءُ الشِّعْرِ أَنَّ لِكُلّ قَصِيدَةٍ وَقعًا عَلَى قَارِئِهَا يَخْتَلِفُ عَمَّا سِوَاهَا مِنْ قَصائِدَ، حَتَّى وَإِنْ تَمَاثَلَ وَزْنُهُنَّ العَرُوضِيَّ. وَلَوْ كَانَ الوَزْنُ مَصْدَرَ الإِيقَاعِ إِذًا لَتَسَاوَتْ القَصَائِدُ التِّي عَلَى بَحْرِ الخَفِيفِ مَثَلًا فِي إِيقَاعِهَا. وَهَذَا

---

[1]- *Jean Dubois et autres, Dictionnaire de Linguistique (Rythme)*، يُنظر: مُمَارسة العِشق بالقِراءة، م.س، ص62.

[2]- قصيدة النّثر من التّأسيس إلى المرجعيّة، عبد العزيز موافي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 2006م، ص316.

[3]- مقَالات فِي اللُّغةِ والأدب، تمّام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1427هـ/2006م، ص237.

[4]- يُنْظر: م.س، ص.ن.

[5]- بارتون جونسون، (دراسة يوري لوتمان البنيويّة للشّعر) تر: سيّد البحراوي، نقلًا عن: القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلالية والبنية الإيقاعيّة، محمّد صابر عُبيد، م.س، ص22.

افتِرَاضٌ غَيْرُ وَارِدٍ"[1]، وَمُدَوَّنَاتُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ وَنَقْدِهِ، قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ، تُؤَكِّدُ عَكْسَ ذَلِكَ تَمَامًا.

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ تَعْكِسُ فَهْمَ العَرَبِيِّ لِحَيْثِيَاتِ الصِّيَاغَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الوَزْنِ وَمُكَوِّنَاتِهِ، لِذَلِكَ نَرَاهُمْ " لَمْ يَتَّخِذُوا لِكُلِّ مَوْضُوعٍ مِنَ المَوْضُوعَاتِ وَزْنًا خَاصًّا، أَوْ بَحْرًا خَاصًّا مِنْ بُحُورِ الشِّعْرِ القَدِيمَةِ، فَكَانُوا يَمْدَحُونَ وَيُفَاخِرُونَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِي كُلِّ بُحُورِ الشِّعْرِ، وَتَكَادُ تَتَّفِقُ المُعَلَّقَاتُ فِي مَوْضُوعِهَا وَقَدْ نُظِمَتْ مِنَ الطَّوِيلِ وَالبَسِيطِ وَالخَفِيفِ وَالوَافِرِ وَالكَامِلِ. وَمَرَاثِيهِمْ فِي المُفَضَّلِيَّاتِ جَاءَتْ مِنَ الكَامِلِ وَالطَّوِيلِ وَالبَسِيطِ وَالسَّرِيعِ وَالخَفِيفِ، وَالأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلشَّاعِرِ"[2]. بَلْ إِنَّهُمْ عَمِدُوا إِلَى العَنَاصِرَ المُتَسَاوِيَةِ فِي مَتْنِ البَيْتِ الوَاحِدِ مُحَاوِلِينَ التَّفَلُّتَ مِنْهَا مَتَى مَا اسْتَطَاعُوا، فَلَجَأُوا لِأَجْلِ هَذَا إِلَى الضَّرُورَاتِ وَالعِلَلِ وَالزِّحَافَاتِ لِـ" أَنَّ هَذِهِ المُسَاوَاةَ فِي وَحَدَاتِ الإِيقَاعِ وَالوَزْنِ مَدْعَاةُ مَلَلٍ لَوْ كَانَتْ تَامَّةً كُلَّ التَّمَامِ،(...). لِأَنَّ النَّغَمَاتِ تَبْدُو، إِذَنْ، رَتِيبَةً يَمَلُّهَا السَّمْعُ[3]. وَقَدْ بَاشَرُوا هَذَا التَّنْوِيعَ فِي حُدُودِ مَا سَمَحَتْ لَهُم بِهِ طَبِيعَةُ النَّصِّ العَرَبِيِّ حِينَهَا وَالظُّرُوفُ المُرَافِقَةُ لِإِنْتَاجِهِ. وَلَسْنَا، حَتْمًا، نَطْلُبُ إِلَيْهِم أَنْ يُنْجِزُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَنْ يَتَجَاوَزُوهُ.

وَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ العُمَرِي أَنَّ مِنْ القُدَمَاءِ مَنِ انْتَبَه إِلَى تِلْكَ الفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ أَنْوَاعِ الأَوْزَانِ بِحَدِّ ذَاتِهَا، فَالوَزْنُ لَيْسَ العَرُوضِيَّ المُجَرَّدَ دَائِمًا، كَمَا اسْتَقَرَّ فِي الأَذْهَانِ، فَهَذَا " قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الذِّي طَالمَا حُمِّلَ وِزْرَ تَعْرِيفِ الشِّعْرِ بِاعْتِبَارِ الوَزْنِ، يَقُولُ:(وَمِنْ نُعُوتُ الوَزْنِ التَّرْصِيعُ)، وَالتَّرْصِيعُ مُكَوِّنٌ شِعْرِيٌّ حُرٌّ وَشِبْهُ حُرٍّ "[4]. وَمِنْهُ نُدْرِكُ أَنَّ بُحُورَ الشِّعْرِ وَالأَوْزَانَ العَرُوضِيَّةَ لَيْسَتْ وَحْدَهَا مَنَاطَ الإِيقَاعِ، بَلْ هُنَاكَ عَنَاصِرُ غَيْرُها تُسْهِمُ فِي

---

[1]- الخطيئة والتّكفير- من البنيويّة إلى التّشريحيّة- قراءة نقديّة لنموذج معاصر، محمّد عبد الله الغذامي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط4،= =1998م، ص314.

[2]- النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد غنيمي هلال، م.س، ص441. وينظر: موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرّية، القاهرة، ط5، 1981م، ص177.

[3]- نفسه، ص437.

[4]- البنية الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، م.س.

تَشْكِيلِ إِيقَاعِيَّةِ نَصٍّ مَا.

فَالإِيقَاعُ، بِهَذَا، سَيَكُونُ جُزْءً مِنَ المُوسِيقَى مَادَامَ مُرْتَبِطًا بِتِلْكَ العَنَاصِرِ فِي بِنْيَةٍ كُلِّيَّةٍ، لِتَتَعَدَّى مُوسِيقَى الشِّعْرِ بِذَلِكَ " العَرُوضَ إِلَى وَقْعِ الأَصْوَاتِ وَمَا تُوحِيهِ بِذَاتِهَا، أَوْ تَرَدُّدُهَا عَلَى نَحْوٍ مُعَيَّنٍ، فَالمُوسِيقَى خَارِجِيَّةٌ وَدَاخِلِيَّةٌ، وَإِذَا كَانَ العَرُوضُ يَحْكُمُ الأُولَى فَإِنَّ الثَّانِيَةَ تَحْكُمُهَا قِيَمٌ صَوْتِيَّة بَاطِنِيَّة مِنْ الوَزْنِ وَالنَّظْم المُجَرَّدَيْنِ "[1]. وَقَدْ شَغَلَتْ هَذِهِ الثُّنَائِيَّةُ النُّقَادَ مُنْذُ القَدِيمِ، كُلٌّ يُدْلِي بِدَلْوِهِ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ أَغْلَبُهُمْ مَالَ إِلَى تَنَاوُلِ مَسْأَلَةِ الإِيقَاعِ مُرْتَبِطَةً بِمَظْهرِهَا الوَزْنِيِّ بَعِيدًا عَنْ بَقِيَّةِ عَنَاصِرِهِ.

يَنْقُلُ لَنَا ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ بَعْضِ الطُّرُوحَاتِ التِّي تَدَاوَلَهَا النُّقَادُ فِي زَمَانِهِ فَيَقُولُ: " زَعَمَتِ الفَلَاسِفَةُ أَنَّ النَّغَمَ فَضْلٌ بَقِيَ مِنَ المَنْطِقِ لَمْ يَقْدِرِ اللِّسَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ، فَاسْتَخْرَجَتْهُ الطَّبِيعَة بِالأَلْحَانِ عَلَى التَّرْجِيعِ لَا عَلَى التَّقْطِيعِ فَلَمَّا ظَهَرَ عَشِقَتْهُ النَّفْسُ وَحَنَّت إِلَيْهِ الرُّوحُ "[2]، وَهَذَا التَّعْلِيلُ يُمْكِنُ قَبُولُهُ إِلَى حَدٍّ مَا، غَيْرَ أَنَّ اللُّغَةَ (اللِّسَانَ) وَالصَّوْتَ (الإِيقَاعَ/المُوسِيقَى) يُكَمِّلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، بَلْ إِنَّ اللُّغَةَ مَنْطُوقَةً أَبْرَزُ مَظَاهِرِهِ وَمُثِيرَاتِهِ.

وَكَانَ عِزُّ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ مِنَ الذِّينَ جَعَلُوا الإِيقَاعَ لَا يَخْرُجُ عَنْ دَائِرَةِ الموسِيقَى لِسُهُولَةِ ضَبْطِهِ وَتَلَمُّسِهِ فِيهَا، يَقُولُ: "وَالوَاقِعُ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ مِنَ السَّهْلِ دِرَاسَةُ الإِيقَاعِ فِي المُوسِيقَى وَكَشْفُ هَذِهِ القَوَانِينِ بِسُهُولَةٍ فِيهَا، لِأَنَّهَا فَنٌّ زَمَانِيٌّ تَتَّضِحُ فِيهِ الصُّورَةُ الأُولَى وَلَا تَخْتَلِطُ بِشَيْءٍ "[3]، كَاللُّغَةِ التِّي يَعْتَرِيهَا فِي الشِّعْرِ مِنَ الضَّرُورَاتِ مَا لَا يَعْتَرِي غَيْرَهَا. فَـ" الإِيقَاعَ، بِلُغَةِ الموسِيقَى، هُوَ الفَاعِلِيَّةُ التِّي تَمْنَحُ الحَيَاةَ لِلعَلَامَاتِ المُوسِيقِيَّةِ المُتَغَايِرَةِ التِّي تُؤَلِّفُ بِتَتَابُعِهَا العِبَارَةَ المُوسِيقِيَّةَ. وَاسْتِخْدَامُ لُغَةِ المُوسِيقَى هُنَا ذُو فَائِدَةٍ كَبِيرَةٍ، وَيُمْكِنُ، فِي

[1]- قصيدة النّثر من التّأسيس إلى المرجعيّة، عبد العزيز موافي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 2006م، ص316.

[2]- العقد الفريد، ج3، أحمد بن عبد ربّه، المطبعة الشّرقيّة، القاهرة، د.ط، 1305هـ، ص177.

[3]- الأسس الجماليّة في النّقد العربيّ- عرض وتفسير ومقارنة، عزّ الدّين إسماعيل، دار الفكر العربيّ، القاهرة،د.ط، 1412هـ/1992م، ص187.

الوَاقِعِ، أَنْ تُعِينَ الموسِيقَى النَّظَرِيَّةَ عَلَى تَفَهُّمِ طَبِيعَةِ الإِيقَاعِ الشِّعْرِيِّ عَوْنًا كَبِيرًا، إِذَا اسْتُخْدِمَتْ مُعْطَيَاتُهَا بِحَذَرٍ، وَدُونَ تَعَسُّفٍ أَوْ قَسْرٍ لِلْشِّعْرِ نَفْسِهِ "[1].

وَقَدْ كَانَ مُوتْشُنِيك دَعَا إِلَى التَّحَرُّزِ وَالاحْتِيَاطِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ المَسْأَلَةِ إِذْ " أَنَّ كُلَّ مُقَارَبَةٍ تَعْقِدُ مُقَارَنَةً بَيْنَ الإِيقَاعِ فِي الموسِيقَى وَالإِيقَاعِ فِي الشِّعرِ هِيَ مُقَارَبَةٌ تُجْرِي الإِيقَاعَ فِي تَيَّارٍ مُضَادٍّ لِلُّغَةِ وَمُضَادٍّ لِلشِّعْرِ "[2]. فَمُحَاوَلَةِ جَعْلِ المُوسِيقَى رَافِدًا أَسَاسًا فِي إِنْشَاءِ الدَّلَالَةِ وَإِثْرَاءِ الخِطَابِ مُخَاطَرَةٌ تَتَطَلَّبُ الوَعْيَ بِالفُرُوقِ التِّي تَحْكُمُ الإِيقَاعَ فِي كُلٍّ مِنَ الشِّعْرَ وَالمُوسِيقَى. فَأَنْ تَعْرِفَ الفُنُونُ مِنْ مَاءِ بَعْضِهَا بَعْضٍ أَمْرٌ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ مَتَى مَا أَدْرَكْنَا كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَالتَّحَكُّمِ فِي مُعْطَيَاتِهِ وَنَتَائِجِهِ.

يَقُولُ بَارْسِيفَالْ غُورِي *Percival Gurrey* بِأَنَّ " الذِّي يَجِبُ أَنْ لَا يَغِيبَ عَنْ بَالِنَا أَبَدًا فِي تَقْوِيمِنَا لِكُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ القَصِيدَةِ، هُوَ رَبْطُهُ بِالعَنَاصِرِ التِّي تُنْشِئُ لَنَا وِحْدَةً وَاحِدَةً. ولِذَلِكَ، فَإِنَّ التَّأْثِيرَاتِ الصَّوْتِيَّةَ يَنْبَغِي أَنْ تُدْرَسَ دَائِمًا مُرْتَبِطَةً بِالمَعْنَى، وَالفِكْرَةِ، وَالتَّخَيُّلِ، وَالإِيقَاعِ "[3]. فَالإِيقَاعُ إِذَنْ، لَيْسَ حِلْيَةً دَخِيلَةً عَلَى النَّصِّ، وَإِنَّمَا هُوَ مَادَّةٌ أَسَاسٌ فِي بِنْيَتِه، بِهِ تَنْجَلِي بَعْضُ غَوَامِضِ الخِطَابِ، وَعَلَى ضَوْئِهِ تُؤَوَّلُ ذَاتِيَّةُ المُبْدِعِ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ، إِذْ إِنَّ أَيَّ تَغَيُّرٍ فِي الإِيقَاعِ أَوْ تَنَوُّعٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ تَغَيُّرُ العَاطِفَة وَالفِكْرَةِ بَلْ وَالصُّورَةِ وَالإِحْسَاسِ كَذَلِكَ[4]. وَيَنْتَهِي هَذَا التَّلْوِينُ الصَّوْتِيُّ إِلَى عُنْصُرٍ أَسَاسٍ فِي تَحْدِيدِ مَفْهُومِ الرِّسَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ مِنْ دُونِهِ يُخْفِقُ المُخَاطِبُ فِي تَبْلِيغِهَا عَلَى الوَجْهِ الأَكْمَلِ الذِّي كَانَ قَصَد إِلَيْهِ.

لِهَذَا وَجَدْنَا مُوتْشُنِيكْ يَعْتَبِرُ الإِيقَاعَ حَادِثًا مُتَعَدِّدًا، لَا يَقِفُ عِنْدَ تَأْدِيَةِ مُهِمَّةِ إِلْبَاسِ

---

[1]- في البنيّة الإيقاعيّة للشّعر العربيّ، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1981م، ص231.

[2]- *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، ضمن: مقاربات في اللغة والأدب، إعداد: فالح الحربي، منشورات جمعية اللّهجات والتراث الشّعبي بجامعة الملك سعود، الرياض، 1428هـ/2007م، ص68.

[3]- تذوّق الشّعر، بَارْسِيفَالْ غُورِي، يُنظر: إبداع الدّلالة في الشعر الجاهليّ "مدخل لغويّ أسلوبيّ"، محمّد العبد، دار المعارف، مصر، ط1، 1988م، ص11.

[4]- ينظر: إبداع الدّلالة في الشّعر الجاهليّ، محمّد العبد، م.س، ص33.

الشِّعْرِ شَكْلَهُ العَرُوضِيَّ المُرَادَ بُلُوغُهُ. الإِيقَاعُ عِنْدَهُ " مُتَعَدّدٌ لِأَنَّهُ حَرَكَةٌ تَخْتَرِقُ الخِطَابَ بِرُمَّتِهِ وَلَيْس مَادَّةً كَائِنَةً فِي الكَلِمَاتِ، وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي الانْصِرَافُ عَنِ المقَارَبَاتِ السَّاذَجَةِ التيِّ تَرُدُّهُ إِلَى الصَّوْتِ أَوْ نِظَامِ التَّقْفِيَةِ وَوُجُوهِ الانْتِظَامِ فِي نَسَقِهَا أَوْ تَجْعَلُ وَجْهَ الحَدَاثَة فِيهِ فِي خُرُوجِ الشِّعْرِ الحَدِيثِ عَمّا سُمِّيَ قُيُودَ إِيقَاعٍ "[1]. الإِيقاعُ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ لِأَنَّهُ يَتَّصِلُ بِكُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ عنَاصِرِ بِنْيَةِ النَّصِّ، وَيُؤَدِّي دَوْرَهُ فِي تَشَكُّلِ الخِطَابِ وَتَجَسُّدِهِ فِي صُورَتِهِ المُتَكامِلَة.

لَا يَخْتَصِمُ اثْنَانِ اليَومَ فِي أَنَّ المُوسِيقَى وَالإِيقَاعَ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الشِّعْرِ الأَسَاسيَّةِ، إِذْ يَتَعَذَّرُ فَصْلُهُمَا عَنْ بَعْضٍ، أَوْ دِرَاسَةُ أَحَدِهِمَا فِي مَعْزِلٍ عَنِ الآخَرِ، بِهِمَا يَتَمَيَّزُ وَيُؤَثِّرُ فِي نُفُوسِ المتَلَقِّينَ، وَفِي غِيَابِهِمَا يَفْقِدُ مَاهِيَّةَ وُجُودِهِ[2]. فَبِالمُوسِيقَى تَكْتَسِبُ لُغَةُ الشِّعْرِ جِدَّتَهَا وَغَنَاءَهَا، وَبِهَا " تَقُولُ الكَلِمَاتُ مَا لَا تَقُولُ لَوْ لَمْ تُنْظَمْ تَحْتَ هَذَا النِّظَامِ المُسَمَى بِالوَزْنِ، وَالذِّي لَهُ القُدْرَةُ عَلَى نَقْلِ رُوحِ الشَّاعِرِ، أَوْ جُزْءٍ مِنْهَا، تِلْكَ الرُّوحُ التيِّ قَدْ يَصْعبُ عَلَى الأَلْفَاظِ نَقْلَهَا "[3].

لَقَدْ كَانَ أَفْلَاطوُنُ يَرَى فِي الوَزْن عُنْصُرًا عَرَضِيًّا فِي الشِّعْرِ وَالانْسِجَامَ وَالإِيقَاعَ عُنْصُرَيْنِ جَوْهَرِيَّيْنِ لِأَنَّهُمَا نَزْعَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِي الإِنْسَانِ " وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الارْتِبَاطِ الضَّرُورِيِّ بَيْنَ الشِّعْرِ وَالموسِيقَى"[4]. وَمِنْ ثَمَّ يَصِيرُ الإِيقَاعُ " القَانوُنَ التَولِيدِيَّ الأَسَاسَ الذِّي يَخْلُقُ الحَدَثَ الشِّعْرِيَّ "[5]، إِذْ هُوَ، مِنْ خِلَالِ الصَّوْتِ " أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ مَيْدَانَ

---

[1]- *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص69.

[2]- ينظر على سبيل المثال: عيار الشّعر، ابن طباطبا العلويّ، تح:طه الحاجريّ، دار سعد زغلول، القاهرة، د.ط، 1956م، ص3، ويُنظر: موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص17.

[3]- البناء الفنيّ لنقائض جرير والأخطل، عبد العظيم رهيف، يُنظر: البُنى الأسلوبيّة في شعر النّابغة الجعديّ، ياسر أحمد فيّاض و مَهَا فوّاز خليفة، مقال، مجلّة جامعة الأنبار الإسلاميّة، ع:4، مج:1، 2009م، ص351.

[4]- مباحث إيقاعيّة في اللّغة العربيّة، والي دادة عبد الحكيم، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، 2014م، ص115. وينظر: فن الشّعر، أرسطوطاليس، تح: عبد الرّحمن بدوي، دار الثّقافة، بيروت، د.ط، د.ت، صص5،4.

[5]- في بنية الشّعر العربي المعاصر، محمد لطفي اليوسفي، دار سيراس للنّشر، تونس، د.ط، 1985م، ص157.

الفِعْلِ. وَإِذَا مَا نُظِر إِلَيْهِ فِي عَلَاقَتِهِ بِالشِّعْرِ خَاصَّةً فَإِنَّهُ يُعَدُّ قُوَّةَ الشِّعْرِ الأَسَاسِيَّةَ وَطَاقَتَهُ الأَسَاسِيَّةَ "[1]. فَالمكَوِّنُ المرْكَزِيُّ فِي الإِيقَاعِ مُكَوِّنٌ مُوسِيقِيٌّ صَوْتِيٌّ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ المُكَوِّنَ الأَوْحَدَ، وَهَذَا مُبَرِّرُ نَعْتِ البِنْيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ بِمُوسِيقَى الشِّعْرِ حِينًا وَبِالمُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ حِينًا آخَرَ[2] كَمَا يَرَى مُحَمَّدُ العُمَرِي.

فَـ " لِلإِيقَاعِ الصَّوْتِيِّ المؤَثِّرِ دَلَالَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ، لَا تَقِلُّ فِي أَهَمِّيَّتِهَا عَنْ دَلَالَةِ الأَلْفَاظِ، وَتَزِيدُ أَهَمِّيَّةُ الإِيقَاعِ الصَّوْتِيِّ، إِذَا تَطَابَقَتْ دَلَالَاتُهُا مَعَ دَلَالَةِ الأَلْفَاظِ، أَوْ وَسَّعَتْهَا، أَوْ أَكْمَلَتْهَا "[3]، وَهُوَ مَا لَا يَغْفَلُ عَنْهُ النَّقْدُ الحَدِيثُ، بَلْ إِنَّهُ يَعْمِدُ إِلَى إِبْرَازِ دَوْرِهِ الأَكِيدِ فِي تَمَاسُكِ الخِطَابِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَدُونِيس:" الإِيقَاعُ فِي اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ لَا يَنْمُو فِي المظَاهِرِ الخَارِجِيَّةِ لِلْنَّغَمِ. القَافِيَةِ، الجِنَاسِ، تَزَاوُجُ الحُرُوفِ وَتَنَافُرِهَا، هَذِهِ كُلُّهَا مَظَاهِرُ أَوْ حَالَاتٌ خَاصَّةٌ مِنْ مَبَادِئِ الإِيقَاعِ وَأُصُولِهِ العَامَّةِ. إِنَّ الإِيقَاعَ يَتَجَاوَزُ هَذِهِ المظَاهِرَ إِلَى الأَسْرَارِ التِيِّ تَصِلُ بَيْنَ النَّفْسِ وَالكَلِمَةِ، بَيْنَ الإِنْسَان وَالحَيَاةِ "[4].

يُثِيرُ الإِيقَاعُ اسْتِجَابَةَ المُتَلَقِّي، وَيَسْتَدْعِيهِ لِلانْتِبَاهِ لِصَوْتِ الشَّاعِرِ وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ مَعْنَى، وَعَدَمِ اعْتِبَارِهِ حَالَةً نَفْسِيَّةً عَابِرَةً فِي النَّصِّ. إِنَّهُ عُنْصُرٌ إِبْدَاعِيٌّ كَبَاقِي العَنَاصِرِ دَاخِلَهُ [5]، وَلَا شَكَّ. فَتَضَافُرُ عُنْصُرَيْ الصَّوْتِ وَالمعْنَى يُؤَدِّي إِلَى خَلْقِ جَوٍّ دَلَالِيٍّ وَإِيقَاعِيٍّ قَادِرٍ عَلَى الانْسِجَامِ مَعَ الوَظِيفَةِ التَّدَاوُلِيَّةِ لِلْخِطَابِ. لِذَلِكَ نَجِدُ اللُّغَةَ الشِّعْرِيَّةَ، فِي حَدِّهَا الأَقْصَى، تَتَّجِهُ نَحْوَ الكَلِمَةِ الصِّوَاتِيَّةِ[6]، التِّي تَحْمِلُ أَعْبَاءَ نَقْلِ جُزْءٍ مُهِمٍّ مِنَ الرِّسَالَةِ، ضِمْنَ كُلِّيَّةِ الخِطَابِ وَشُمُولِيَّتِهِ، إِذْ " كُلُّ عَمَلٍ مِنْ فَنِّ الأَدَبِ هُوَ أَوَّلًا وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ،

---

[1]- مباحث إيقاعيّة في اللّغة العربيّة ، م.س، صص118،119.

[2]- البنية الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، محمد العمري، م.س.

[3]- روافد البلاغة – بحث في أصول التّفكير البلاغيّ، سمير استيتيّة، جذور، النّادي الأدبي الثّقافي، جدة، السّعودية،ع:6، رجب 1422هـ/سبتمبر 2001م، ص276.

[4]- مقدّمة للشّعر العربيّ، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط3، 1983م، ص94.

[5]- تذوّق الشّعر، بَارْسِيفَالْ غُورِي، يُنظر: إبداع الدّلالة في الشعر الجاهليّ، م.س، ص25.

[6]- في مسائل الشّعريّة،جاكبسون، يُنظر: نقد النّقد، تودروف، تر:سامي سويدان، دار الشّؤون الثّقافيّة العامة، بغداد، ط2، 1986م، ص26.

تَتَابُعٌ مِنَ الأَصْوَاتِ يَنْبَثِقُ مِنْهَا المَعْنَى. وَفِي بَعْضِ الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ تَتَنَاهَى أَهَمِيَّةُ المُسْتَوَى الصَّوْتِيِّ إِلَى الحَدِّ الأَدْنَى، (...) وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ المُسْتَوَى الصَّوْتِيَّ –حَتَّى فِي القَصَصِ– هُوَ تَمْهِيدٌ ضَرُورِيٌّ لِلمَعْنَى "[1].

وَلَطَالَمَا تَسَاءَلَ الشَّكْلَانِيُّونَ: " أَلَا يُعَدُّ اخْتِزَالُ اللُّغَةِ إِلَى مَوْضُوعٍ فِيزْيَائِيٍّ خَالِصٍ طَمْسًا لِلسِّمَةِ الأَسَاسِيَّةِ فِيهَا، بِاعْتِبَارِهَا صَوْتًا وَمَعْنىً، حُضُورًا وَغِيَابًا فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ؟ وَلِمَاذَا نَحْصُرُ انْتِبَاهَنَا بِمَا لَيْسَ إِلَّا ضَجَّةً وَحَسْبَ؟ "[2]. لِيُثْبِتَ وَاقِعُ الإِبْدَاعِ – الشِّعْرِيِّ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ لِارْتِبَاطِهِ بِالإِيقَاعِ– أَنَّ المعْنَى لَيْسَ كَامِنًا فِي اللُّغَةِ كَكَلِمَاتٍ وَحَسْبَ، بَلْ هُوَ كُلٌّ مُرَكَّبٌ تَصُبُّ عَنَاصِرُهُ فِي عَمَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ نِتَاجُهَا "الخِطَابُ"، لِذَلِكَ " لَيْسَ مَنْطِقِيًّا تَمَامًا اعْتِبَارُ الصَّوْتِ فِي مَبْحَثِ الإِيقَاعِ ظَاهِرَةً " أَكُوسْتِيكِيَّةً " أَوْ ظَاهِرَةً عَدَدِيَّةً مَحْضَةً، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ فِيهِ وَظِيفَتُهُ مِنْ نِظَامِ العَلَاقَاتِ وَالمَوْضِعُ الذِّي يَتَنَزَّلُ فِيهِ. فَهُوَ لِذَلِكَ لَا يَنْحَصِرُ فِي حُدُودِ التَّعْبِيرِ وَإِنَّمَا يَتَخَطَّاهُ إِلَى مَنْزِلَةِ فَاعِلٍ بِنَائِيٍّ فِي المضْمُونِ "[3]، عَلَيْهِ المُعَوَّلُ، كَمَا غَيْرُهُ مِنْ أَجْزَاءِ البِنْيَةِ، فِي رَسْمِ الطَّرِيقِ إِلَى التَّأْوِيلِ وَالفَهْمِ.

وَحِينَ يَتَحَكَّمُ المُبْدِعُ فِي أَدَوَاتِهِ، تَتَّسِعُ أَمَامَهُ زَوَايَا النَّظَرِ، وَيَمْتَلِكُ قُدْرَةً أَكْبَرَ عَلَى تَوْظِيفِهَا فِي خِطَابِهِ الفَنِّيِّ، مِنْ ذَلِكَ المتَغَيِّرَاتُ الإِيقَاعِيَّةُ التِيِّ تَنْسَاقُ عَلَى وِفْقِ نِظَامٍ صَوْتِيٍّ مُعَيَّنٍ يُسْهِمُ فِي إِدْرَاكِ الدَّلَالَاتِ، عَلَى اخْتِلَافِهَا، فِي القَصِيدَةِ [4]. وَلَعَلَّ هَذَا الذِّي عَنَاهُ جَاكُوبِنْسْكِي لَمَّا قَالَ أَنَّهُ:" فِي الفِكْرَةِ الأَلْسُنِيَّةِ المنْظُومَةُ، تُصْبِحُ الأَصْوَاتُ مَوْضُوعَ انْتِبَاهٍ، إِنَّهَا تَكْشِفُ عَنْ قِيمَتِهَا المسْتَقِلَّةِ، وَتَبْرُزُ فِي الحَقْلِ الوَاضِحِ لِلْوَعْيِ "[5]، وَهُوَ اعْتِرَافٌ مِنَ الشَّكْلَانِيِّينَ بِالقِيمَةِ الأَسَاسِيَّةِ، وَخَاصَّةً، المسْتَقِلَّةِ لِلأَصْوَاتِ فِي الشِّعْرِ.

---

[1]– نظرية الأدب، روني وليك وأوستن وارن، م.س، ص213.

[2]– نقد النّقد، تودوروف، م.س، ص26.

[3]– *La Structure du texte artistique , Lotman*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص77.

[4]– ينظر:من الصّوت إلى النّص– نحو نسق منهجي لدراسة النّص الشّعريّ، مراد عبد الرّحمن مبروك، عالم الكتب، القاهرة، 1993م، ص49.

[5]– نقد النقد، تودوروف، م.س، ص.ن.

وَلَيْسَتِ العَرَبُ تَشُذُّ عَنْ قَاعِدَةِ الإِعْجَابِ بِالإِيقَاعِ وَالتَّفَنُّنِ فِي تَوْظِيفِهِ وَاسْتِثْمَارِهِ، فَهُمْ مِنْ عَهْدِهِمُ الأَوَّلِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا شَغُوفُونَ بِالأَثَرِ الموسِيقِيِّ لِلُّغَةِ المتَوَلِّدِ عَنِ البِيئَةِ الصَّحْرَاوِيَّةِ وَمَا طبَعَتْ بِهِ حَيَاتَهُمْ الاجْتِمَاعِيَّةَ[1]. فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ التِّي وُصِفَتْ بِأَنَّهَا لُغَةٌ شَاعِرَةٌ هِيَ كَما يَقُولُ العَقَّادُ:" فَنٌّ مَنْظُومٌ، مُنَسَّقُ الأَوْزَانِ وَالأَصْوَاتِ "[2]، فَإِنْ نَحْنُ اسْتَمَعْنَا إِلَى كَلَامِهِمْ أَلْفَيْنَاهُ قَائِمًا عَلَى النَّغَمِ وَالتَّوَازُنِ، فَنُحِسُّ لِذَلِكَ بِتَشَابُهِ كَمِيَّاتِ المَسَافَاتِ بَيْنَ نَبْرٍ وَآخَرَ، أَوْ بِتَقَارُبِهَا، وَهُوَ مَا يَمْنَحُ الأُذُنَ إِحْسَاسًا مُتَجَدِّدًا بِالإِيقَاعِ[3]. ثُمَّ تَطَوَّرَ ذَلِكَ الإِعْجَابُ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ، لِيَصِيرَ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً طَبَعَتْ إِبْدَاعَ كَثِيرٍ مِنَ الكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ، كَمَا يَبْرُزُ بِجَلَاءٍ فِي نِتَاجِ طَهَ حُسَيْن مَثَلًا، حَيْثُ يُكَرِّرُ العِبَارَاتِ وَيُوَازِي بَيْنَ الكَمِّيَاتِ الإِيقَاعِيَّةِ، وَهُوَ يَسْتَحْسِنُ هَذَا وَيَتَلَذَّذُ بِهِ[4].

فَلِلإِيقَاعِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ حُضُورُهُ المُتَمَيِّزُ وَالأَكِيدُ، وَاعْتِبَارًا لِغَلَبَةِ المَنْطُوقِ عِنْدَ العَرَبِ، بِسَبَبِ الأُمِّيَّةِ المُتَفَشِّيَةِ بَيْنَهمْ، نَمَتْ أُذُنُهُمُ الموُسِيقِيَّةُ وَاسْتَسْلَمَتْ لِلْفِطْرَةِ بِإِحْسَاسٍ مُرْهَفٍ يَلْتَقِطُ النَّغَمَاتِ وَرَجْعِ صَدَاهَا، لِيُؤَلِّفَ أَعْذَبَ الإِيقَاعَاتِ، خُشُونَةً وَرِقَّةً تَبَعًا لِحَالِ المُبْدِعِ وَمُحِيطِهِ. لِذَلِكَ كَثِيرًا مَا نَجِدُهُمْ يَتَبَارُونَ وَيَتَفَاخَرُونَ بِالكَلَامِ المُؤَثِّرِ فِي السَّامِعِ فَـ " يَمْدَحُونَ شِدَّةَ العَارِضَةِ، وَقُوَّةَ المُنَّةِ، وَظُهُورَ الحُجَّةِ، وَثَبَاتَ الجِنَانِ، وَكَثْرَةَ الرِّيقِ وَالعُلُوَّ عَلَى الخَصْمِ، وَيَهْجُونَ بِخِلَافِ ذَلِكَ "[5] مَنْ قَصُرَ كَلَامُهُ عَنْ بُلُوغِ غَايَتِهِ.

لَقَدْ كَانَتِ العَرَبُ إِذَا أَرَادَتِ الحَدِيثَ قَدَّمَتْ الشَّدِقَ رَحْبَ الصَّوْتِ، فَتَفَنَّنَ " فِي طُرُقِ تَرْدِيدِ الأَصْوَاتِ فِي الكَلَامِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ نَغَمٌ وَمُوسِيقَى، وَحَتَّى يَسْتَرْعِيَ الآذَانَ

---

[1]- ينظر: فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط10، 1969م، ص46، وما بعدها. ويُنظر:الشّعر الجاهليّ، عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللّبنانيّ، مكتبة المدرسة، بيروت، د.ط، 1986م، ص69، وما بعدها. وكَذا: عبقرية اللّغة العربيّة: عمر فرّوخ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1981م، ص107.

[2]- اللّغة الشّاعرة، عبّاس محمود العقّاد, مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، د.ط، د.ت، ص11.

[3]- ينظر: الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، محمّد عيد شبايك، دار حِراء، مصر، ط1، 1413هـ/1993م، صص70،71.

[4]- ينظر:نظريّة التّطعيم الإيقاعيّ في الفصحى، البشير بن سلامة، الدّار التّونسيّة للنّشر، د.ط، 1984م، ص45 وما بعدها.

[5]- ينظر:البيان والتبيّين، 1ج، م.س، ص176.

بِأَلْفَاظِه، كَمَا يَسْتَرْعِي القُلُوبَ وَالعُقُولَ بِمَعَانِيهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَهَارَتِهِمْ فِي نَسْجِ الكَلِمَاتِ وَبَرَاعَتِهِمْ فِي تَرْتِيبِهَا وَتَنْسِيقِهَا، وَالهَدَفُ مِنْ هَذَا هُوَ العِنَايَةُ بِحُسْنِ الجَرْسِ وَوَقْعِ الأَلْفَاظِ فِي الأَسْمَاعِ، بِحَيْثُ يُصْبِحُ البَيْتُ الشِّعْرِيُّ أَوِ الجُمْلَةُ مِنَ الكَلَامِ أَشْبَهُ بِفَاصِلَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةِ النَّغَمِ، مُخْتَلِفَةِ الأَلْوَانِ يَسْتَمْتِعُ بِهَا مَنْ لَهُ دِرَايَةٌ بِهَذَا الفَنِّ، وَيَرَى فِيهَا دَلِيلًا عَلَى المَهَارَةِ وَالقُدْرَةِ الفَنِّيَّةِ "[1]. وَلَعَلَّ طَبِيعَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ذَاتِ السِّمَةِ الإِيقَاعِيَّةِ القَائِمَةَ عَلَى نِظَامِ المَقَاطِعِ المتَنَاسِبَةِ صَوَامِتُهَا وَصَوَائِتُهَا فِي المَنْظُوم وَالمَنثُورِ– المَسْجُوعِ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ – هُوَ الذِّي أَوْحَى لِلْخَلِيلِ بِأَنْ يَبْنِيَ عِلْمَهِ المُسْتَحْدَثَ: العَرُوضَ، عَلَى أَسَاسٍ صَوْتِيٍّ.

وَمِنَ الالْتِفَاتَاتِ اللَّطِيفَةِ التِّي يَسُوقُهَا مُحَمَّدُ عَبْدُ اللهِ دَرَّاز فِي (النَّبَأُ العَظِيمُ) قَوْلُهُ – وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ جَمَالِيَّةِ الإِيقَاعِ القُرْآنِيِّ – أَنَّ العَرَبَ: " إِذَا اخْتَصَمَتْ فِي القُرْآن قَارَنَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شِعْرٍ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَلَمْ تَعْرِضْ لِسَائِرِ كَلَامِهَا مِنْ الخَطَابَةِ وَغَيْرِهَا "[2]، وَيَعُودُ ذَلِكَ فِي رَأْيِهِ إِلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا اسْتَرْعَى انْتِبَاهَ : " الأُذُنِ العَرَبِيَّةِفِي نَظْمِ القُرْآنِ، هُوَ ذَلِكَ النِّظَامُ الصَّوْتِيُّ البَدِيعُ الذِّي قُسِّمَتْ فِيهِ الحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ تَقْسِيمًا مُنَوَّعًا يُجَدِّدُ نَشَاطَ السَّامِعِ لِسَمَاعِهِ، وَوُزِّعَتْ فِي تَضَاعِيفِهِ حُرُوفُ المدِّ وَالغُنَّةِ تَوْزِيعًا بِالقِسْطِ الذِّي يُسَاعِدُ عَلَى تَرْجِيعِ الصَّوْتِ بِهِ وَتَهَادِي النَّفْسِ فِيهِ آنًا بَعْدَ آنٍ "[3]، وَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذِهِ الخَوَاصِّ أَنِ احْتَارُوا أَإِلَى النَّثْرِ يَنْسِبُونَ هَذَا الكَلَامَ أَمْ إِلَى الشِّعْرِ يُرْجِعُونَهُ؟!

وَاسْتَمَرَّ هَذَا الانْبِهَارُ بِالنَّصِّ القُرْآنِيِّ، فَاتَّخَذُوهُ مَرْجِعًا يَسْتَأْنِسُونَ بِأَسَالِيبِهِ وَطُرُقِهِ فِي الخِطَابِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِإِحْدَاثِ قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الأَثَرِ فِي نُفُوسِ سَامِعِيهِم. ثُمَّ وُضِعَتِ فِيمَا بَعْدُ المُصَنَّفَاتُ التِّي تُوَجِّهُ المُبْدِعِينَ وَتَنْصَحُهُمْ بِأَسْلَمِ السُّبُلِ لِتَيْسِيرِ الإِبْدَاعِ، خُصُوصًا

[1]– لُغَتُنَا الجَمِيلةُ، فارُوق شُوشَة، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص165.

[2]– النبأ العظيم – نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، طيبة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، السّعوديّة، ط1، 1417هـ/1997م، ص131.

[3]– نفسه، ص.ن.

عَلَى المُبْتَدِئِينَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَرَادَ الشَّاعِرُ:" بِنَاءَ قَصِيدَةٍ مَخَّضَ المَعْنَى الذِّي يُرِيدُ بِنَاءَ الشِّعْرِ عَلَيْهِ فِي فِكْرِهِ نَثْرًا وَأَعَدَّ لَهُ مَا يُلْبِسُهُ إِيَاهُ مِنَ الأَلْفَاظِ التِّي تُطَابِقُهُ، وَالقَوَافِي التِّي تُوَافِقُهُ، وَالوَزْنَ الذِّي يَسَلُسُ لَهُ القَوْلُ عَلَيْهِ "[1].

وَنَحْنُ نَجِدُ النَّاقِدَ العَرَبِيَّ القَدِيمَ مُعْتَقِدًا، غَيْرَ مُخْطِئٍ، أَنَّ الإِيقَاعَ مُقَوِّمٌ أَسَاسٌ، لَيْسَ فَقَطْ لِكَيْ يَسْتَقِيمَ الوَزْنُ، بَلْ وَلِكَيْ يَتَفَاعَلَ القَارِئُ مَعَ المَعْنَى وَيَسْتَوْعِبَهُ، فَالوَزْنُ يُسَاعِدَ عَلَى" تَجْسِيمِ الاهْتِزَازَاتِ العَاطِفِيَّة وَتَحْرِيكِ الخَيَالِ وَإِثَارَةِ الانْتِبَاهِ لِمُتَابَعَةِ سَمَاعِ الإِنْشَادِ "[2]. لِذَلِكَ نَرَى الجُرْجَانِيَّ بَعْدَ أَنْ قَالَ فِي (دَلاَئِل الإِعْجَازِ) أَنَّ " الوَزْنَ لَيْسَ هُوَ مِنَ الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ فِي شَيْءٍ (...) فَلَيْس بِالوَزْنِ مَا كَانَ الكَلَامُ كَلَامًا وَلَا بِهِ كَانَ كَلَامٌ خَيْرًا مِنْ كَلَامٍ "[3]، عَادَ فِي (أَسْرَارِ البَلَاغَةِ)، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الخَطَابَةِ، لِيُبَيِّنَ فَضْلَ الأَوْزَانِ وَالأَسْجَاعِ فِي حِفْظِهَا وَتَنَاقُلِهَا وَإِظْهَارِ الاقْتِدَارِ وَالتَّفَنُّنِ، فَهِيَ لَا تَجُودُ وَتَحْسُنُ "حَتَّى يَكُونَ المَعْنَى هُوَ الذِّي طَلَبَهُ وَاسْتَدْعَاهُ وَسَاقَ نَحْوَهُ، وَحَتَّى تَجِدَهُ لَا تَبْتَغِي بِهِ بَدَلًا، وَلَا تَجِدَ عَنْهُ حِوَلًا "[4].

وَإِذَا كَانَ قَوْلُ الجَاحِظِ بِأَنَّ:" العَرَبَ تُقَطِّعُ الأَلْحَانَ المَوْزُونَةَ عَلَى الأَشْعَارِ المَوْزُونَةِ وَالعَجَمُ تُمَطِّطُ الأَلْفَاظَ فَتَقْبِضُ وَتَبْسُطُ حَتَّى تَدْخُلَ فِي وَزْنِ اللَّحْنِ فَتَضَعَ مَوْزُونًا عَلَى غَيْرِ مَوزُونٍ "[5] يَحتَاجُ إِلَى تَدقِيقٍ ونَظَرٍ فِي بَعضِ جُزْئِيَّاتِهِ، فَإِنَّ الذِّي لَا يُمَارِي فِيه أَحدٌ هُوَ كَوْنُ الإِيقَاعِ " المَلْمَحَ النَّوْعِيَّ لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ مُنْذُ القَدِيمِ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ هُوَ المَلْمَحُ الحَاضِرُ فِي كُلِّ النُّصُوصِ التِّيِّ لَمْ يُنَازَعْ فِي شِعْرِيَّتِهَا. وَحِينَ أَقُولُ المَمَيِّزُ لَا أَعْنِي الكَافِي، بَلْ أَعْنِي

---

[1]- عيار الشّعر، محمّد أحمد بم طباطبا العلويّ، تح: عبّاس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ/2005م، ص11.

[2]- قضيّة الشّعر الجديد، محمّد النّويهي، معهد الدّراسات العربيّة العاليّة، جامعة الدّول العربيّة، د.ط، 1964م، ص28.

[3]- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2001 م،ص300.

[4]- أسرار البلاغة، الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ط، د.ت، صص9-11.

[5]- البيان و التّبيين، ج1، م.س، ص385، ويُنظر:العمدة، ج2، م.س، ص273.

الشَّرْطَ الضَّرُورِيَّ لِدُخُولِ نَصٍّ مَا مَنْطِقَة الشِّعْرِ، ثُمَّ تَبْدَأُ التَّرْكِيبَاتُ الكِيمْيَائِيَّةُ حَوْلَهُ، وَيَبْدُو، لِحَدِّ الآنَ، أَنَّهُ عُنْصُرٌ غَيْرُ قَابِلٍ لِلتَّعْوِيضِ إِلَّا مِنْ طِينَتِهِ وَمَادَّتِهِ "[1].

إِنَّ تَكَامُلَ بِنْيَةِ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ، وَتَلَاحُمَ عَنَاصِرِهَا يَتَعَزَّزُ بِمَا يَبُثُّهُ كُلُّ عُنْصُرٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّمَاسُكِ وَالانْسِجَامِ، فَإِنْ فَكَّكْنَا تِلْكَ اللُّحْمَة فَلَنْ يَكُونَ سِوَى لِدِرَاسَةِ خَصَائِصِ هَذِهِ المُكَوِّنَاتِ تَأْكِيدًا لِدَوْرِهَا فِي نَسِيجِ النَّصِّ، وَفَهْمِ مِيكَانِيزْمَاتِ عَمَلِهَا دَاخِلَهُ، وَسَيَكُونُ، مِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ، تَحْلِيلُ بِنْيَةِ الإِيقَاعِ مَثَلًا، بِنَاءً وَلَيْسَ هَدْمًا، بَلْ إِنَّ " وَظِيفَةَ البِنْيَةِ الوَزْنِيَّة لِلقَصِيدَةِ تَتَمَثَّلُ فِي أَنَّ تِلْكَ البِنْيَةَ حِينَ تَكْسِرُ النَّصَّ إِلَى عَنَاصِرَ فَإِنَّهَا تُشِيرُ – فِي ذَاتِ الوَقْتِ – إِلَى انْتِمَائِهِ لِلشِّعْرِ "[2]، إِذْ أَنَّ إِثْبَاتَ (مُوسِيقِيَّةِ) نَصٍّ مَا، تَبْدَأُ بِإِثْبَاتِ مَادَّتِهَا الأُولَى، وَالتِّي هِيَ الأَوْزَانُ وَالإِيقَاعَاتُ.

وَفِيمَا يَخُصُّ مُوسِيقَى الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، إِذَا نَظَرنَا إِلَيْهَا مِنْ جِهَةِ الشَّكْلِ، فَإِنَّهَا تَتَكَوَّنُ مِنْ عُنْصُرَيْنِ، الأَوَّلُ: النِّظَامُ الخَاصُّ فِي تَوَالِي المَقَاطِعِ *Séquences*، وَالثَّانِي: مُرَاعَاةُ النَّغْمَةِ المُوسِيقِيَّةِ الخَاصَّةِ *Intonation* فِي إِنْشَادِهِ[3]. غَيْرَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ كَافٍ لِلإِحَاطَةِ بِخَصَائِصِ الإِيقَاعِ وَجَمَالِيَّاتِهِ، فَلِزَمَ الأَمْرُ تَغْيِيرَ طَرِيقَةِ النَّظَرِ إِلَى مَفْهُومِهِ كَكُلٍّ لَا يَتَجَزَّأُ إِلَّا فِي حُدُودٍ مُعَيَّنَةٍ، وَهُوَ مَا سَعَى إِلَى تَحْقِيقِهِ نُخْبَةٌ مِنَ النُّقَّادِ، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ كَمَالٍ أَبُو دِيبْ الذِّي يَقْتَرِحُ إِمْكَانِيَّةَ " تَنَاوُلِ إِيقَاعِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ مِنْ حَيْثُ هُوَ حَيَوِيَّةٌ نَغَمِيَّةٌ مُوسِيقِيَّةٌ، تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا حَمِيمًا بِمُوسِيقِيَّةِ اللُّغَةِ وَتَرْكِيبِهَا الإِيقَاعِيِّ، مِنْ جِهَة، وَبِطَبِيعَةِ التَّشَكُّلَاتِ المُوسِيقِيَّةِ التِّي نَمَّتْهَا الفَاعِلِيَّةُ الفَنِّيَّةُ العَرَبِيَّةُ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى "[4]، وَذَاكَ الذِّي سَنَعمَلُ عَلَى تَوْضِيحِهِ مِنْ خِلَالِ المَبْحَثِ التَّالِي.

---

[1]- البنية الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، محمد العمري، م.س.

[2]- تحليلُ النّصّ الشّعريّ " بنية القصيدة "، يُوري لاوتمان، تر: محمّد فتوح أحمد، دار المعارف، د.ط، د.ت، ص83.

[3]- ينظر: موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، صص149-151.

[4]- في البنية الإيقاعيّة في الشّعر العربيّ، كمال أبو ديب، م.س، ص230.

4- الإِيقَاعُ وَاللُّغَةُ:

يَنْمَازُ الشِّعْرُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ أَشْكَالِ الإِبْدَاعِ بِلُغَتِهِ التِّي تُشَكِّلُ نَوَاةَ الجَمَالِ فِيهِ، وَلَكِنْ مَا يُغْفَلُ عَنْهُ هُوَ البَحْثُ فِي مَصْدَرِ هَذَا الجَمَالِ وَحَقِيقَتِهِ، وَالذِّي يَرُدُّهُ كَثِيرٌ مِنَ الدَّارِسِينَ إِلَى الإِيقَاعِ، إِذْ " يُمْكِنُنَا القَوْلُ إِنَّ جَمِيعَ خَصَائِصِ الجُمْلَةِ فِي الشِّعْرِ مَبْعَثُهَا مِنَ الوَزْنِ وَالقَافِيَةِ، وَمِنْ هُنَا يُمَثِّلُ الوَزْنُ الشِّعْرِيُّ الخَصِّيصَةَ الأُخْرَى مَعَ المَجَازِ لِانْفِرَادِ لُغَةِ الشِّعْرِ عَنِ النَّثْرِ وَتَمَيُّزِهَا مِنْهُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الوَزْنَ يُمَثِّلُ مُبَايَنَةً وَاضِحَةً لِلُغَةِ الشِّعْرِ إِذْ تَسِيرُ الجُمْلَةُ فِي الشِّعْرِ سَيْرًا مُنَظَّمًا يَعْتَمِدُ عَلَى تَوَالِي المَقَاطِعِ الصَّوْتِيَّةِ فِيهَا تَوَالِيًا يَحْكُمُهُ النَّمَطُ الذِّي تَخْتَارُهُ القَصِيدَةُ لِإِيقَاعِهَا العَرُوضِيِّ "[1].

إِنَّ الوَزْنَ، مُتَعَانِقًا مَعَ المَجَازِ، يُنَظَّمُ لِإِقَامَةِ العَلاَقَاتِ بَيْنَ الجُمَلِ المُشْتَمِلَةِ عَلَيْهِ[2]، رُكْنٌ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ فِي وَسْمِ النَّصِّ بِالشِّعْرِيَّةِ وَالفَرَادَةِ، كَوْنَهُ " وِحْدَةً أَسَاسِيَّةً وَجَوْهَرِيَّةً ضِمْنَ الجُزْئِيَاتِ الهَامَّةِ التِّي تُشَكِّلُ الوَحْدَةَ الكُلِّيَّةَ لِلْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ العَرَبِيِّ بِوَجْهٍ خَاصٍّ "[3]، إِذْ هُوَ الذِّي يَمْنَحُ اللُّغَةَ حَرَكَةً وَانْسِيَابِيَّةً تَحْمِلُ صُورَةَ مُنْشِئِهِ وَحَالَتَهُ النَّفْسِيَّةَ البَاعِثَةَ عَلَى العَمَلِ الأَدَبِيِّ وَالمُتَرَتِّبَةِ عَنْهُ فِي الآنِ نَفْسِهِ.

فَلَيْسَ الوَزْنُ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ " مُجَرَّدَ تَشْكِيلٍ نَظْمِيٍّ أَوْ تَنْظِيمِيٍّ يَمْنَحُ العِبَارَةَ النَثْرِيَّةَ اسْمَ الشِّعْرِ وَحَسْبَ، وَلَكِنَّهُ أَيْضًا وَسِيلَةٌ يُمْكِنُ أَنْ تُغَيِّرَ مِنْ قِيمَةِ التَّعْبِيرِ النَّثْرِيِّ فِي السَّمْعِ وَالعَقْلِ وَالذَّوْقِ"[4]. غَيْرَ أَنَّهُ مُنْفَرِدًا، لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُقِيمَ جَمَالِيَّةَ نَصٍّ مَا، أَوْ أَنْ يَهَبَهُ

---

[1]- الجملة في الشّعر العربيّ، محمّد حماسة عبد اللّطيف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1410هـ/1990م، ص13.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- أصُول الشّعريّة العربيَّةِ - نظريّة حازم القرطاجَنِّيِّ في تأصيلِ الخِطابِ الشّعريِّ، الطّاهر بومزبَر، الدَّار العَربيَّة للعُلوم- نَاشِرون، بَيرُوت، لبنَان، منْشوُرات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م، ص104.

[4]- نقد الشّعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، عبد السّلام عبد الحفيظ عبد العال، مركز الفكر العربيّ، د.ط، 1978م، ص476.

التَّمَاسُكَ وَالدَّيْمُومَةَ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَنَاصِرَ أُخْرَى لِيَسْتَقِيمَ لَهُ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَلَعَلَّ أَبْرَزَها عَلَى الإِطْلَاقِ، طَرِيقَةُ الشَّاعِرِ فِي العَمَلِ عَلَى اللُّغَةِ، فَتَضَافُرُ هَذَيْنِ العُنْصُرَيْنِ وَانْسِجَامُهُمَا يُشَكِّلُ شِعْرِيَّة الخِطَابِ فِي تَقَاطُعِهِمَا أَوْ تَشَابُكِهِمَا حَسَبَ مُقْتَضَى الحَالِ، مِنْ أَصْغَرِ وِحْدَةٍ (الأَسْبَابُ) إِلَى أَكْبَرِ وِحْدَةٍ (الأَبْيَاتُ)، " وَيَتَوَازَى مَعَ هَذِهِ التَّدَرُّجَاتِ مِنَ الجُزْءِ إِلَى الكُلِّ فِي إِطَارِ الوَزْنِ تَدَرُّجَاتٌ مماثِلَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ مَعَهَا عَلَى صَعِيدِ اللُّغَةِ، بِحَيْثُ يُؤَدِّي تَعَاوُنُهُمَا التَّامُ إِلَى تَطْوِيعِ المخَيِّلَةِ الشِّعْرِيَّةِ فِي مَبْنًى خَاضِعٍ أَوْ مُسْتَجِيبٍ ضِمْنِيًّا لِلْوَزْنِ "[1]، يَنْتَهِي بِهَا إِلَى اسْتِحْبَابِ وَقْعِه فِي النُّفُوسِ أَوِ اسْتِهْجَانِهِ.

وَقَدْ أَدْرَكَ نُقَّادُنَا القُدَمَاءُ خُطُورَةَ هَذَا الأَمْرَ فِي بِنَاءِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ فَحَاوَلُوا تَعْلِيلَهُ، وَفَكَّ شِيفْرَةِ اشْتِغَالِهِ. فَأَدركُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ العَنَاصِر أَنْ يَشْتَطَّ أَوْ يَجُورَ عَلَى بَاقِي العَنَاصِرِ لِضَمَانِ تَنَاسُقِهَا وَانْتِظَامِهَا لِتُنْتِجَ لَنَا "لَذِيذَ الوَزْنِ" كَمَا يُسَمِّيهِ المَرْزُوقِيُّ[2]، وَهُوَ النَّاشِئُ عَنِ الْتِحَامِ الوَزْنِ بِلُغَةِ الشِّعْرِ عَنْ طَرِيقِ صِيَاغَةٍ مَخْصُوصَةٍ تَعْتَمِدُ تَخَيُّرَ الأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ[3]. وَقَدْ فَصَّل الجَاحِظُ هَذَا حِينَ جَعَلَ مَكَامِنَ الجَوْدَةِ الفَنِّيَّةِ " فِي القَوَالِبِ وَالأَشْكَالِ التِّي تَحْتَوِي المَعَانِي وَتُبْرِزُهَا مِثْلَ إِقَامَةِ الوَزْنِ وَسُهُولَةِ اللَّفْظِ، حَتَّى لَا يَكَدَّ اللِّسَانُ وَيَثْقُلَ عَلَى الأَسْمَاعِ، وَجَوْدَةُ السَّبْكِ وَهِيَ حُسْنُ تَأْلِيفِ الكَلَامِ وَنَظْمِهِ وَاتِّسَاقِ التَّرْكِيبِ فِي دَاخِلِ العِبَارَةِ وَهَذِهِ كُلُّهَا – الأَوْزَانُ وَالأَلْفَاظُ وَالجُمَلُ– لَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ أَشْكَالٍ وَقَوَالِبَ لِلْفَنِّ الشِّعْرِيِّ "[4] تُحَقِّقُ سَلَامَةُ بِنْيَتِهَا سَلَاسَةَ النَّصِّ وَانْسِيَابِيَّتَهُ، وَالتِّي تَتَعَزَّزُ حِينَ نَقْرِنُ البُعْدَيْنِ: الإِيقَاعِيَّ وَالتَّصْوِيرِيَّ[5]، أَيْ بِتَفَاعُل الجَانِبَيْنِ: المُوسِيقِيِّ

---

[1]– فلسفة الإيقاع في الشعر العربي، علوي الهاشمي، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، مملكة البحرين، ط1، 2006م، ص148.

[2]– يُنظر:شرح ديوان الحماسة، المرزوقي،ج1، تح:أحمد أمين، عبد السّلام محمّد هارون، لجنةُ التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، 1956م، ص10.

[3]– ينظر: شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ حتّى القرن الثّامن الهجريّ، جودت فخر الدّين، دار المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1984م، ص123.

[4]– ينظر: عُضويّة الموسيقى في النّصّ الشّعريّ– دراسة فنية موازنة، عبد الفتّاح صالح نافع، مكتبة المنار الإسلاميّة، الأردن، ط1، 1982م، ص43.

[5]– ينظر: شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ حتّى القرن الثّامن الهجريّ، م.س، ص58.

وَاللُّغَوِيِّ لِلْقَصِيدَةِ مِمَّا يَفْسَحُ أَمَامَهَا مَجَالًا أَرْحَبَ لِلتَّأْثِيرِ وَالفَاعِلِيَّةِ.

إِنَّ التَّجَانُسَ بَيْنَ الوَزْنِ وَاللُّغَةِ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ تَفَاعُلَاتٍ يَتَيَسَّرُ، بِدَرَجَةٍ أُولَى، بِفَضْلِ الاخْتِيَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ التِّي يَعْمِدُ إِلَيْهَا المُبْدِعُ لِيُحَقِّقَ لِنَصِّهِ شِعْرِيَّتَهُ، وَيَضْمَنَ لِخِطَابِهِ إِبْلَاغِيَّةً مُتَجَدِّدَةً. فَتَفَاعُلُ الوَزْنِ مَعِ الصُّورَةِ يَفْتَحُ أَمَامَ النَّصِّ وَالمُتَلَقِّي آفَاقًا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُهُمَا فَتْحَهَا بِمَعْزِلٍ عَنِ الآخَرِ، أَوْ فِي غِيَابِهِ، فَـ " الوَزْنِ الشِّعْرِيِّ يَنْبُعُ مِنْ تَآلُفِ الكَلِمَاتِ فِي عَلَاقَاتِ صَوْتِيَّةٍ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ العَلَاقَاتِ الدَّلَالِيَّة وَالنَّحْوِيَّةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِدَّ الوَزْنُ الشِّعْرِيُّ فَاعِلِيَّتَهُ مِنْ أَدَاةِ صِيَاغَتِهِ ذَاتِهَا أَيْ مِنَ اللُّغَةِ "[1]، التِّي تُغْنِي إِيقَاعِيَّةَ القَصِيدَةِ عَلَى المُسْتَوَيَيْنِ: الشَّكْلِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، عِلْمًا أَنَّ اللُّغَةَ " عِنْدَ الشَّاعِرِ لَيْسَتْ قَوَانِينَ مُطْلَقَةً أَوْ مُقَيَّدَةً، وَإِنَّمَا هِيَ مَجْمُوعَةٌ حُرَّةٌ مِنَ الاخْتِيَارَاتِ التِّي تَنْتَشِرُ لِتَلْفُظَ صُورَهُ وَتَدَاعِيَاتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ يَأْتِي تَأْكِيدُ الدَّوْرِ الجَمَالِيِّ فِي إِقَامَةِ البِنَاءِ وَنَسْجِ العَلَاقَاتِ بَيْنَ المُفْرَدَاتِ وَالتَّرَاكِيبِ، وَهُوَ بِهَذَا مَعْنِيٌّ بِنَقْلِ هَذَا المَوْرُوثِ مِنْ نِقَاطِ المُوَاضَعَةِ إِلَى مَنَاطِقِ الإِبدَاعِ وَالخَلْقِ"[2]، فَيَنْفَلِتُ بِذَلِكَ مِنْ إِكْرَاهَاتِ المِعْيَارِ سَابِحًا فِي فَضَاءَاتِ الجِدَّةِ وَالإِبْهَارِ التِّي يَتَطَلَّبُهَا كُلُّ نَصٍّ جَدِيرٍ بِالتَّمَيُّزِ.

وَإِلَى هَذَا نُضِيفُ " أَنَّ التَّخَلِّي عَنِ الوَزْنِ الفَاعِلِ يَجْعَلُ القَصِيدَةَ تَخْسَرُ مَنَاطِقَ فِي نَفْسِ المتَلَقِّي لَا يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهَا إِلَّا عَبْرَ الوَزْنِ "[3]، إِذِ الموسِيقَى فِي الشِّعْرِ كَمَا يُؤَكِّدُ عَلِيٌّ عَشْرِي زَايَدْ " لَيْسَتْ حِلْيَةً خَارِجِيَّةً تُضَافُ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا هِيَ وَسِيلَةٌ مِنْ أَقْوَى وَسَائِلِ الإِيحَاءِ، وَأَقْدَرِهَا عَلَى التَّعْبِير عَنْ كُلِّ مَا هُوَ عَمِيقٌ وَخَفِيٌّ فِي النَّفْسِ مِمَّا لاَ يَسْتَطِيعُ الكَلاَمُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ، وَلِهَذَا فَهِيَ مِنْ أَقْوَى وَسَائِلِ الإِيحَاءِ سُلْطَانًا عَلَى النَّفْسِ، وَأَعْمَقِهَا

[1]- مفهوم الشّعر، دراسة في التّراث النّقديّ، جابر عصفور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط5، 1995م، صص302،303.

[2]- هندسة المقاطع الصّوتيّة و موسيقى الشّعر العربيّ – رؤية لسانية حديثة، عبد القادر عبد الجليل، صفاء للنّشر و التّوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010م، ص144.

[3]- عُضويّة الموسيقى في النّصّ الشّعريّ- دراسة فنية موازنة، عبد الفتّاح صالح، م.س، ص51.

تَأْثِيرًا فِيهَا "[1].

وَلَيْسَ بِمَقْدُورِنَا الجَزْمُ هُنَا، إِنْ كَانَ الوَزْنُ الشِّعْرِيُّ هُوَ الذِّي يَتَّخِذُ اللُّغَةَ لِبَاسًا أَمِ العَكْسُ؟ وَلِكِنَّا مُتَأَكِّدُونَ مِنْ أَنَّ التِقَاءَهُمَا عَلَى صَعِيدِ القَصِيدَةِ يُحْدِثُ تَفَاعُلًا مُشْتَرَكًا تَبْدَأُ فَاعِلِيَّتُه مِنِ اسْتِغْلاَلِ الوَزْنِ لِلطَّاقَاتِ الصَّوْتِيَّةِ لِلُّغَةِ، التِّي تَتَكَيَّفُ مَعَ نَمَاءِ النَّصِّ لِاحْتِوَاءِ المَعْنَى المُتَشَكِّلِ سَلَفًا[2]. لِأَنَّ الوَزْنَ الخَاصَّ، فِي نَظَرِ حَمَاسَة عَبْدُ اللَّطِيفِ " يُؤَدِّي إِلَى أَلْفَاظٍ خَاصَّةٍ وَتَرَاكِيبَ خَاصَّةٍ، وَالأَلْفَاظُ فِي الشِّعْرِ لَا يُرَادُ بِهَا مُجَرَّدُ وُجُودِهَا فِي اللُّغَةِ بِمعَانِيهَا التِّي دَرَجَ عَلَيْهَا أَهْلُ كُلِّ لِسَانٍ فِي التَّعْبِير عَنْ فَحْوَى مَا يُرِيدُونَ، الأَلفَاظُ فِي الشِّعْرِ أَمْرُهَا مُخْتَلِفٌ"[3]، إِذْ لَهَا فِي الشِّعْرِ سِيَاقٌ مُنَظَّمٌ مِنَ الانْفِعَالَاتِ وَالمجَازَاتِ وَالتَّوَالُدَاتِ الدَّلَالِيَّةِ الجَدِيدَةِ وَلَهَا عَلَاقَةٌ وَثِيقَةُ الصِّلَةِ بِالأَوْزَانِ، وَهَذِهِ الأَوْزَانُ مُرْتَبِطَةٌ بِالأَلْفَاظِ، وَالأَلْفَاظُ مُرْتَبِطَةٌ بِالجُمَلِ فِي الشِّعْرِ وَهِيَ المدْخَلُ إِلَى تَمَثُّلِهِ وَتَذَوُّقِهِ وَفَهْمِهِ...[4].

فَلُغَةُ الشِّعْرِ بَاعِثَةٌ عَلَى الإِيقَاعِ، أَوْ لَعَلَّ العَكْسَ صَحِيحٌ، بَلْ إِنَّ دَرَجَةَ تَفَاعُلِهِمَا مَعًا هِيَ التِّي تُضْفِي عَلَى القَصِيدَةِ رُوحَهَا نَغَمًا وَدَلَالَةً، وَنَحْنُ هُنَا أَمَامَ حَقِيقَةٍ ذَاتِ شِقَّيْنِ: الأَوَّلُ، وَهُوَ الذِّي يَهُمُّنا فِي هَذَا المقَامِ " أَنَّ الإِيقَاعَ بَسِيطًا كَانَ أَوْ مُرَكَّبًا، يَتَحَكَّمُ فِي المَادَّةِ اللُّغَوِيَّةِ التِّي صُبَّتْ فِيهِ، بِحيثُ يُحِيلُهَا إِلَى وَضْعٍ تَعاقُبِيٍّ *Disposition Séquentielle* لِمُكَوِّنَاتِهَا الصَّوْتِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ وَالنَّظْمِيَّةِ، وَهُوَ شَيْءٌ لَا نَعْثُرُ عَلَيْهِ إِطْلَاقًا فِي اللُّغَةِ العَادِيَّةِ. ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ حِينَ يَكْتُبُ قَصِيدَةً مَا فِي إِيقَاعٍ عَرُوضِيٍّ مَا، يَكُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ مَا يُنَاسِبُ الإِيقَاعَ الذِّي اخْتَارَهُ إِطَارًا لَهَا "[5]، مَعَ أَنَّنَا لَا نَتَّفِقُ مَعَ السَّرْغِينِيِّ هُنَا فِي جَعْلِهِ الإِيقَاعَ قَالَبًا جَاهِزًا أَسْبَقَ فِي الوُجُودِ، وَأَنَّ اللُّغَةَ تتَهَيَّأُ لِتُفْرَغَ

[1]- عن بناء القصيدة العربيّة الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط4، 1423هـ/2002م، ص154.

[2]- يُنظر: مفهوم الشّعر، دراسة في التّراث النّقديّ، جابر عصفور، م.س، صص305،304.

[3]- الإبداع الموازي، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، د.ط،2001م، ص202.

[4]- يُنظر: الإبداع الموازي، نفسه، ص.ن.

[5]- مُحاضرات فِي السيميولوجيا، محمّد السّرغِيني، دار الثّقافة للنّشر والتّوزِيع، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1407هـ/1987م، ص152.

فِيهِ! وَإِنَّمَا رَأَيْنَا، هُوَ مَا أَثْبَتْنَاهُ فِي أَوَّلِ الفِقْرَةِ، وَالذِّي هُوَ أَنَّ الإِيقَاعَ وَاللُّغَةَ يَدْخُلَانِ فِي عَمَلِيَّةِ تَفَاعُلٍ كِيمْيَائِيٍّ نَاتِجُهُمَا تِلْكَ البِنْيَةُ الشِّعْرِيَّةُ المُتَكَامِلَةُ.

إِنَّ الوَزْنُ، فِي بَعْضِ جَوَانِبِهِ، عَمَلٌ تَنْظِيمِيٌّ لِلُّغةِ، يُسْهِمُ فِي جَلَاءِ المَعنَى كَجُزْءٍ مِنْ بِنْيَةِ النَّصِّ، وَيَتَضَافَرُ مَعَ الكَلِمَاتِ لِتَحْقِيقِ الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ المَرْغُوبِ، وَمِنْ ثَمَّ يَخْضَعُ المَوزُونُ (أَيْ اللُّغَةُ) " لِحُكْمِ الوَزْنِ، وَلِذَا فَإِنَّ المَنْطِقَ المِعْيَارِيَّ أَبَاحَ لِلشَّاعِرِ هَذَا الانْزِيَاحَ، وَاسْتَجَازَ لَهُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَقْوِيمِ الوَزْنِ، هَذَا الانْزِيَاحُ الذِّي أَمْلَتْهُ ضَرُورَةُ الاسْتِدْعَاءِ الوَزْنِيِّ لِلْأَنْسَاقِ الإِيقَاعِيَّةِ مِنْ حَقِّ الشَّاعِرِ لِوَحْدِهِ، وَإِنَّ الضَّوَابِطَ وَالأَقْيِسَةَ التِيِّ جَاهَدَ لُغَوِيُو العَرَبِيَّةِ وَمُقَعِّدُوهَا مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِهَا اسْتَجَازُوا الخُرُوجَ عَلَيْهَا وَعَلَّلُوهَا بِالضَّرَائِرِ الشِّعْرِيَّةِ... وَمِن ثَمَّ فَإِنَّ مَا يُسَمَّى بِـ (لُغَةِ الشِّعْرِ) لَيْسَ مَعْنَاهُ الانْحِرَافُ عَنْ سَنَنِ الشِّعْرِ وَإِنَّ إِقَامَةَ الوَزْنِ لَا تَمْتَلِكُ مَشْرُوعِيَّةَ الانْزِيَاحِ وَمُمَارَسَةَ حَقِّ التَّغْيِيرِ فِي البُنَى أَوِ التَّرَاكِيبِ اللُّغَوِيَّةِ، وَلَابُدَّ مِنْ إِقَامَةِ حُدُودِ الالْتِزَامِ، مَا دَامَ الشِّعْرُ فَنًّا لُغَوِيًّا "[1]. فَإِدْرَاكُ هَذِهِ الغَايَةِ، التِّي لَيْسَت هَيِّنَةً، تَجْعَلُ الشَّاعِرَ مُمْسِكًا بِأَدَوَاتِهِ، مُتَحَكِّمًا بِوَعْيٍ، فِي شَاعِرِيَّتِهِ.

وَالمُبْدِعُ فِي مُوَاجَهَةِ المَعْنَى القَائِمِ فِي النَّفْسِ مُطَالَبٌ بِنَسْجِ شَبَكَةٍ مِنَ العَلَائِقِ التِّي تَجْعَلُ مِنْ نَصِّهِ وِحْدَةً مُتَمَاسِكَةً، لَا تَنْفَصِمُ عُرَاهَا بِتَعَدُّدِ عَنَاصِرِهَا، وَالتِّي عَلَى رَأْسِهَا: الوَزْنُ وَاللُّغَةُ. فَهُوَ يَسْتَطِيعُ " أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَى اللُّغَةِ وَأَنْ يُطَوِّعَهَا بِوَصْفِهَا إِيقَاعًا، فَيَعْرِفَ مَتَى يَجْمَعُ الأَنْغَامَ وَمَتَى يُفْرِدُهَا عَلَى تَتَابع تمَكُّنَ(...) وَتُصْبِحُ اللُّغَةُ لَدَيْهِ ضَرْبًا مِنَ المُوسِيقَى تَنْبَثِق عَنِ النَّغَمِ وَالإِيقَاعِ وَاللَّحْنِ، وَلَا تَعُودُ المُتْعَةِ المُوسِيقِيَّةُ لَدَيْهِ حِسِيَّةً بَحْتَةً، أَيْ مُجَرَّدَ وَقْعٍ عَلَى الأُذُنِ، بَلْ تُصْبِحُ أَسْهُمًا نَارِيَّةً تَقْرَعُ الأُذُنَ، وَتَخْلَعُ شَكْلاً غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ عَلَى التَّجْرِبةِ، وَتَتَبَلْوَرُ فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ دَائِمًا "[2]. وَكُلَّمَا أَمْكَنَهُ تَرْوِيضُهُمَا لِيَخْدُمَا بَعْضَهُمَا بَعْضًا اسْتَوَتِ القَصِيدَةُ عَمَلاً مُكْتَمِلًا.

[1]– هندسة المقاطع الصّوتيّة وموسيقى الشّعر العربيّ، رؤية لسانيّة حديثة، عبد القادر عبد الجليل، م.س، ص349.

[2]– عضوية الموسيقى في النّصّ الشّعريّ، م.س، ص52.

وَلَيْسَ يَحْدُثُ الاتِّسَاقُ وَيَكْتَمِلُ إِلَّا فِي أَحْضَانِ الأَصْوَاتِ التِّي تَشْغَلُ بِنْيَتَهُ فِي كُلِّيَّتِها، وَتَسْتَحِثُّ المَعنَى وَتَسْتَدْعِيهِ بِحَرَكِيَّتِهَا وَتَفَاعُلِهَا، "هَكَذَا يَتَشَكَّلُ البَيْتُ الشِّعْرِيُّ مِنْ تعَاقُبِ وَحَدَاتٍ صَوْتِيَّةٍ، تتَجَلَّى كَمَا لَوْ كَانَتْ تُوجَدُ مُوَزَّعَةً مُسْتَقِلَّةً بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، وَفِي ذَاتِ الوَقْتِ مِنْ تَعَاقُبِ الكَلِمَاتِ التِّي تَتَجَلَّى بِاعْتِبَارِهَا وَحَدَاتٍ مُتَمَاسِكَةٍ تَتَكَوَّنُ بِدَوْرِهَا مِنَ التَّأْلِيفِ بَيْنَ تِلْكَ الوَحَدَاتِ الصَّوْتِيَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَاتَيْنِ الصُّورَتَيْنِ مِنَ التَّعَاقُبِ لَا تُوجَدَانِ إِلَّا فِي وَحْدَةٍ، أَيْ مِنْ حَيْثُ هُمَا وَجْهَانِ لِذَاتِ الوَاقِعِ: البَيْتِ الشِّعْرِيِّ، ثُمَّ مِنْ حَيْثُ هُمَا ثُنَائِيَّةٌ بِنَائِيَّةٌ مُتَلَاحِمَةٌ "[1]، يَتَأَكَّدُ مَعَهُمَا عَزْلُهُمَا نِهَائِيًّا لِغَايَةِ الدَّرْسِ وَالتَّبْسِيطِ لَيْسَ إِلَّا.

إِنَّ الضَّرُورَةَ تَدْفَعُ الشَّاعِرَ، فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، إِلَى التَّصَرُّفِ فِي البِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ لِنَصِّهِ سَعْيًا مِنْهُ لِضَمَانِ تَنَاسُقِهِ، لَيْسَ مَعْنَوِيًّا فَقَطْ، كَمَا يَسْبِقُ إِلَى أَذْهَانِ العَدِيدِ مِنَ القُرَّاءِ، وَلَكِنْ إِيقَاعِيًّا أَيْضًا، بَلْ إِنَّهُ يُخْضِعُ اللُّغَةَ لِلإِيقَاعِ مِنْ وَجْهٍ أَوْلَى، فَيَعْدِلُ عَنْ بِنْيَةِ الجُمْلَةِ الأَصِلِيَّةِ حَذْفًا وَإِضَافَةً، تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِيَغِ التَّصَرُّفِ، حِفَاظًا عَلَى الوَزْنِ، وَاكْتِمَالِ البِنَاءِ الشِّعْرِيِّ لِلْبَيْتِ[2]، وَبَحْثًا عَمَّا يَكْفُلُ لِقَصِيدَتِهِ خُرُوجَهَا عَلَى الصُّورَةِ التِّي ارْتَسَمَتْ فِي ذِهْنِهِ قَبْلَ أَنْ تتَشَكَّلَ لُغَةً بَادِيَةً لِلْعَيَانِ.

وَحَيْثُ أَنَّ عَلَاقَةَ الصَّوْتِ بِالمعْنَى أَضْحَتْ أَمْرًا بَدْهِيًّا عِنْدَ الدَّارِسِينَ، فَإِنَّهُ صَارَ لِزَامًا عَلَى المُتَعَامِلِ مَعَ النُّصُوصِ الإِبْدَاعِيَّةِ أَنْ يُلِمَّ بِجُمْلَةٍ مِنَ المَسَائِلِ الجَوْهَرِيَّةِ التِّي سَتَسْمَحُ لَهُ بِاسْتِخْلَاصِ أَقْصَى مَا يُمْكِنُهُ مِنْهَا. فَالإِيقَاعُ لَمْ يَعُدْ رَهْنًا بِالوَزْنِ وَقَضَايَاهُ التَّقْلِيدِيَّةُ، بَلْ إِنَّ " التَّمْثِيلَ الصَّوْتِيَّ يَتَعَلَّقُ بِالحُرُوفِ وَبِالصِّيغَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَبِالتَّكْرَارِ الصَّوْتِيِّ، وَالتَّقْسِيمِ وَالتَّقْطِيعِ اللُّغَوِيِّ. وَمُحَاوَلَةِ التَّعَرُّفِ عَلَى هَذَا النَّمَطِ مِنَ الإِيقَاعِ تَكُونُ بِالبَحْثِ عَنْ عَلَائِقَ لِهَذِهِ الأَوْجُهِ بِالفِكْرَةِ المحْوَرِيَّةِ لِلْبَيْتِ أَوْ لِمجْمُوعَةِ الأَبْيَاتِ التِّي ارْتَبَطَتْ بِهَذِهِ الفِكْرَةِ أَوْ

[1]- تحليل النَّصّ الشّعريّ، يُوري لَوتمان – بنية القصيدة، تر: محمد فتّوح أحمد، دار المعارف، مصر، د.ط، 1995م، ص82.

[2]- ينظر: في الضّرورات الشّعريّة، خليل بنيان الحسّون، المؤسّسة الجامعة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص13.

الحَدَثِ، أَوِ الصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ "[1]. إِذْ ذَاكَ يُمكِنُنَا بِتَفْكِيكِ عَنَاصِرِ البِنْيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ وَإِعَادَةِ تَرْكِيبِهَا الوُصُولُ إِلَى نَتَائِجَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا البَاحِثُ فِي خَفَايَا الصَوْتِ وَالدَّلَالَةِ.

إِنَّ التَّفَاعُلَ الحَادِثَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالوَزْنِ فِي النُّصُوصِ الجَيِّدَةِ يَتَبَدَّى أَكْثَرَ وُضُوحًا مِنْ غَيْرِهَا[2]، إِذْ مِنْ مُهِمَّةِ الأَوْزَانِ تَنْظِيمُ " الخَصَائِصِ الصَّوْتِيَّةِ فِي اللُّغَةِ وَهُوَ يَضْبِطُ الإِيقَاعَ فِي النَّثْرِ وَيُقَرِّبُهُ مِنَ التَّسَاوِي فِي الزَّمَانِ، وَبِالتَّالِي يَبْسُطُ الصِّلَةَ بَيْنَ أَطْوَالِ المَقَاطِعِ الهِجَائِيَّةِ "[3]، فَيَحْدُثُ فِي النَّفسِ ذَلِكَ الأَثَرُ المُتَوَلِّدُ عَنِ الانْسِجَامِ وَالتَّفَاعُلِ المُتَبَادَلِ وَالمُسْتَمِرِّ حَالَ القِرَاءَةِ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالإِيقَاعِ، وَهِيَ عَلَاقَةٌ " لَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُهَا وَإِدْرَاكُهَا إِلَّا وَهِيَ التِحَامٌ وَإِنَّ الإِيحَاءَ الشِّعْرِيَّ يَصْدُرُ مِنَ الأَلْفَاظِ وَمِنَ التَّرْكِيبِ الشِّعْرِيِّ الذِّي يُضْفِي عَلَيْهِ النَّغَمُ بُعْدًا نَفْسِيًّا إِسْهَامًا فَاعِلًا فِي جَلاَءِ المَعْنَى "[4] بِكُلِّ أَشْكَالِهِ، وَفِي أَكْثَرِهَا تَعْقِيدًا وَإِرْبَاكًا.

فَالإِبْدَاعُ عَمَلِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ تَتَآزَرُ عِدَّةُ عَنَاصِرَ فِيهَا لِتُعْطِي لِلنَّسِيجِ الفَنِّيِّ صُورَتَهُ النِّهَائِيَّةَ، وَانْتِظَامَهُ الخَاصَّ المُعتَمِدَ عَلَى كَيْفِيَّةِ تَنَاسُبِ الكَلِمَاتِ، وَتَوَافُقِ أَحْرُفِهَا زَمَنِيًّا، مَعَ صُورَةِ الوَزْنِ العَرُوضِيِّ الذِّي يَتَقَدَّمُ بِهِ الشِّعْرُ العَرَبِيُّ[5]. وَهُوَ مَا يُدَلِّلُ " عَلَى أَنَّ العَامِلَ البِنَائِيَّ المُسيْطِرَ فِي بيْتِ الشِّعْرِ الذِّي يُعَدِّلُ وَيُكَيِّفُ بَاقِي العَنَاصِرِ، وَيُمَارِسُ بِالتَّالِي تَأْثِيرًا حَاسِمًا عَلَى جَمِيعِ مُسْتَوَيَاتِ هَذَا الشِّعْرِ الصَّرْفِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ هُوَ النَّمُوذَجُ الخَاصُّ بِالإِيقَاعِ، فَالإِيقَاعُ بِاعْتِبَارِهِ التَّنَاوُبَ الزَّمَنِيَّ المُنْتَظِمَ لِلْظَّوَاهِرِ المتَرَاكِبَةِ هُوَ الخَاصِّيَةُ المَمَيِّزَةُ لِلْقَوْلِ الشِّعْرِيِّ وَالمَبْدَأُ المُنَظِّمُ لِلُغَتِهِ "[6]، بِهِ يُخَاطِبُ الشَّاعِرُ وَيُبَلِّغُ رِسَالَتَهُ حِينَ تَفْقِدُ اللُّغَةُ فَاعِلِيَّتَهَا، وَتَعْتَاصُ

---

[1]- مُوسيقى الشّعر العربيّ – دراسة فنّيّة وعروضيّة،ج1، حسني عبد الجليل يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1989م، ص188.

[2]- ينظر: تطوّر الشّعر العربيّ الحديث في العراق–اتّجاهات الرّؤيا وجماليّات النّسيج، عليّ عبّاس علوان، منشورات وزارة الإعلام، العراق، 1975م، ص232.

[3]- نظرية الأدب، روني وليك، أوستن وارن، م.س، ص225.

[4]- اللّغة الشّعريّة في الخطاب النّقديّ تلازُم التُّراث والمُعاصَرة، محمّد رضَا مُبارك، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط1، 1993م، ص177.

[5]- ينظر: شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ حتّى القرن الثّامن الهجريّ، م.س، ص136.

[6]- نظريّة البنائيّة في النّقد الأدبيّ، صلاح فضل، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 1419هـ/1998م، صص49،50.

عَلَيْهَا أَبْوَابُ المَعْنَى، وَتُسَدُّ دُونَهَا أَوْجُهُ الدَّلَالَةِ.

لِهَذَا قَرَّرَ جُونْ كُوهِنْ بِأَنَّ النَّظْمَ " لَيْسَ عُنْصُرًا مُسْتَقِلًّا يُضَافُ مِنْ الخَارِجِ إِلَى المُحْتَوَى، بَلْ هُوَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ مُسَلْسَلِ الدَّلَالَةِ، وَهُوَ بِذَلِكَ لَا يَرْجِعُ إِلَى عِلْمِ المُوسِيقَى بَلْ إِلَى اللِّسَانِيَاتِ "[1]، فَالإِيقَاعُ بِهَذَا المفْهُومِ " خَاصَّةٌ مُحَايِثَةٌ لِلْوَظِيفَةِ اللُّغَوِيَّةِ وَكَامِنَةٌ فِيهَا "[2]، حَتَّى أَنَّ مُتْشُونِيكْ عَدَّهُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ اللُّغَةِ " غَيْرَ وَقْفٍ عَلَى النُّصُوصِ الأَدَبِيَّةِ أَوْ خَاصٍّ بِجِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الكِتَابَةِ. كُلُّ نَصٍّ لُغَوِيٍّ هُوَ نَصٌّ إِيقَاعِيٌّ بَلْ إِنَّ الإِيقَاعَ هُوَ عُنْصُرُ التَّكْوِينِ الأَسَاسِيِّ فِيهِ، مُلَازِمٌ لِلدَّلَالَةِ مُمَيِّزٌ لَهَا، يَسِمُهَا فِي كُلِّ خِطَابٍ بِسِمَاتٍ فَرِيدَةٍ "[3]، وَهُوَ مَا يُكْسِبُ كُلَّ نَصٍّ خُصُوصِيَّتَهُ مِنْ حَيْثُ تَأْثِيرُهُ فِي المتَلَقِّي وَاخْتِلَافُ أَدَوَاتِ ذَلِكَ التَّأْثِيرِ بَيْنَ مُبْدِعٍ وَآخَرَ، بَلْ وَبَيْنَ نُصُوصِ المُبْدِعِ الوَاحِدِ.

إِنَّ الإِيقَاعَ وَهُوَ يَتَكَرَّرُ عَلَى هَيْئَةٍ مُعَيَّنَةٍ يُمَثِّلُ، حَالَ كَوْنِهِ صَوْتًا، وَسِيلَةً بَلَاغِيَّةً تَعْمَلُ عَلَى تَصْوِيرِ المَوْقِفِ وَتَجْسِيمِهِ، فَضْلًا عَنِ الإِيحَاءِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الصَّوْتُ ضِمْنَ الأَلْفَاظِ مِنْ خَصَائِصَ صَوْتِيَّةٍ وَطَاقَةٍ تَنْغِيمِيَّةٍ مِمَّا يُسَاهِمُ فِي إِبْرَازِ المَعْنَى المُرَادِ وَتَأْكِيدِهِ[4]. فَالتَّرْجِيعُ وَالتَّكْرَارُ، كَمَا يَرَاهُ زُمْطُورْ:" مُدْرَكٌ إِيقَاعِيٌّ يَتَجَاوَزُ المسْتَوَى الصَّوْتِيَّ إِلَى مُسْتَوَيَاتٍ أُخْرَى هِيَ أَقْرَبُ إِلَى تَشَكُّلَاتِ اللُّغَةِ فِي بُعْدِهَا الدَّلَالِيِّ مِنْ مُجَرَّدِ التَّشَكُّلَاتِ الصَّوْتِيَّةِ:(إِنَّ الإِيقَاعَ النَّاشِئَ عَنْ التَّرْجِيعِ يَتَحَقَّقُ فِي كُلِّ مُسْتَوَيَاتِ الكَلَامِ) "[5]، وَيُعْطِيهَا بِذَلِكَ صُورَتَهَا النِّهَائِيَّةَ، فِي هَيْئَتِهَا التِّي يَتَلَقَّاهَا المُخَاطَبُ، لِيَفْتَحَ فِي ذِهْنِهِ آفَاقًا لِلْمَعْنَى لَمْ تَكُنْ لِتُفْتَحَ لَوْلَا هَذَا التَّنْغِيمُ الذِّي حَمَلَ المشَاعِرَ مِنْ صَدْرِ المُبْدِعِ إِلَى مُتَلَقِّيهَا.

---

[1]- بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، ص32.

[2]- *J.Kristiva, La révolution du langage poétique*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص73.

[3]- *H.Meschonniic - G.Dessons, Traité du rythme des vers et des Proses*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص68.

[4]- ينظر:لغة القرآن الكريم في جزء عم، محمّد أحمد بخلة، دار النّهضة العربية للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، 1981، صص347،346.

[5]- *P.Zumtor, Introduction a la poésie orale*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص68.

وَإِذَا ذَهَبْنَا مَعَ فَالِيرِي فِي أَنَّ التَّكْرَارَ لَيْسَ " هُوَ الذِّي يَصْنَعُ الإِيقَاعَ وَإِنَّمَا هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِهِ يَحْدُثُ بِأَثَرٍ مِنْهُ "[1]، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْنَا لِفَهْمِ الخِطَابِ " أَوَّلًا تَقْسِيمَهُ، أَيْ تَعْيِينَ عَلَاقَاتِ التَّرَابُطِ المُتَغَيِّرَةِ التِّي تُوَحِّدُ مُخْتَلَفَ عَنَاصِرِهِ، وَهَذَا التَّرَابُطُ المَنْطِقِيُّ وَالنَّحْوِيُّ فِي آنٍ وَاحِدٍ هُوَ الذِّي يُقَسِّمُ الخِطَابَ إِلَى أَجْزَاءَ مُنْدَمِجَةٍ فِي بَعْضِهَا، فِي الفُصُولِ، وَالفَقَرَاتُ، وَالجُمَلُ، وَالكَلِمَاتُ. وَهَذَا التَّقْسِيمُ يَتِمُّ طَبْعًا حَسْبَ المَعْنَى، غَيْرَ أَنَّهُ يُيَسَّرُ كَثِيرًا إِذَا مَا أُضِيفَتْ إِلَى الوَقْفَةِ المَعْنَوِيَّةِ وَقْفَةٌ صَوْتِيَّةٌ.

وَيَجِدُ المُتَكَلِّمُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يُوقِعَ الوَقْفَةَ الصَّوْتِيَّةَ عَلَى الوَقْفَةِ المَعْنَوِيَّةِ، وَتَأْخُذُ الوَقْفَةُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ مَعْنًى مُحَدَّدًا: إِنَّهَا تُسَجِّلُ الاسْتِقْلَالَ الدَّلَالِيَّ لِلوَحَدَاتِ التِّي تَفْصِلُ بَيْنَهُمَا "[2]. وَفِي هَذَا تَأْكِيدٌ لِمَا أَثْبَتْنَاهُ سَابِقًا مِنْ أَنَّ الإِيقَاعَ – بِكُلِّ أَشْكَالِهِ وَتَمَظْهُرَاتِهِ – يَغْدُو أَسَاسِيًّا فِي فَكِّ شِيفْرَةِ الخِطَابِ فِي مُسْتَوَيَاتِهِ المُتَعَدِّدَةِ، الدَّلَالِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أَوْلَى.

لَيْسَ الإِيقَاعُ، إِذَن، مُجَرَّدَ شَكْلٍ يُصَاحِبُ المَعْنَى وَإِنَّمَا هُوَ القُوَّةُ المُلَازِمَةُ لأَنْوَاعِ العَلَاقَاتِ التِّي يَنْهَضُ عَلَيْهَا الخِطَابُ، أَيْ الكَيْفِيَّةُ التِي تَأْتَلِفُ عَنَاصِرُهُ وَتَنْتَظِمُ وَحَدَاتُهُ بِهَا فِي عَمَلِيَّةِ تَبَادُلٍ وَتَوَافُقٍ لِتَدُلَّ عَلَى مَعْنًى. فَالشَّكْلُ لَا يُمْكِنُ فَصْلُهُ عَنِ المَعْنَى وَإِلَّا صَارَتْ قِيمَتُهُ الجَمَالِيَّةُ مَحَلَّ شَكٍّ وَاضْطِّرَابٍ " وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ نَظَرِيَّةً فِي الإِيقَاعِ هِي نَظَرِيَّةٌ فِي المَعْنَى لَا لِكَوْنِ هَذَا يُطَابِقُ ذَاكَ وَإِنَّمَا لِكَوْنِهِمَا مُتَفَاعِلَيْنِ "[3]، لِكُلٍّ مِنْهُمَا سُلْطَتُهُ فِي ضَبْطِ المَعْنَى وَإِقَامَتِهِ. وَالإِيقَاعُ مِنْ زَاوِيَةِ الرُّؤْيَةِ هَاتِهِ يَأْتِي لِدَعْمِ الإِحْسَاسِ العَامِّ بِالانْسِجَامِ وَالتَّنَاسُقِ. إِذْ هُوَ كَمَا يَقُولُ بْيُوسْ سِيرْفْيَانْ: (دَوْرِيَّةٌ [زَمَنِيَّةٌ]مَلْحُوظَةٌ)[4]، مِنْ تَرَدُّدِهَا وَتَرْجِيعِهَا يَسْتَلْهِمُ الخِطَابُ مَتَانَتَهُ، وَيَهَبُ المَعْنَى مَا يَكْفِي مِنْ مَسَاحَةٍ زَمَنِيَّةٍ/ صَوْتِيَّةٍ لِيَضْبِطَ مَوَادَّ بِنَائِهِ، وَعَنَاصِرَ تَمَاسُكِهِ.

---

[1]– " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص78.

[2]– بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، ص55.

[3]– *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص69.

[4]– يُنظر: بنيةُ اللُّغة الشِّعريّةِ، جون كُوهن، م.س، ص86.

وَإِذِ "البِنْيَةُ الإِيقَاعِيَّةُ لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ،(...)، بِنْيَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ:الشِّعْرُ هُوَ جَسَدُ الكَلِمَاتِ الصَّوْتِيُّ، مُنَسَّقًا، مُتَلَائِمَةً أَعْضَاؤُهُ، هَيْكَلًا نَغَمِيًّا يَتَحَرَّكُ وَيَقَرُّ، لِيَتَحَرَّكَ وَيَقَرَّ مِنْ جَدِيدٍ. وَالكَلِمَةُ مَوْجُودَةٌ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ بِاعْتِبَارِهَا جَسَدًا صَوْتِيًّا فَقَطْ. الشِّعْرُ يَسْتَغِلُّ كُلَّ نَسْمَةِ حَيَاةٍ فِي الكَلِمَةِ، كُلَّ نَأْمَةِ حَرَكَةٍ، وَلَا يُطِيلُ السُّكُونَ إِلَّا حَيْثُ يُشَكِّلُ السُّكُونُ قَرَارًا تَهْدَأُ عِنْدَهُ الحَرَكَةُ لِلَحَظَاتٍ خَاطِفَةٍ، ثُمَّ تَبْدَأُ مِنْ جَدِيدٍ "[1]. فَإِنَّ النَّظَرَ فِي جَمَالِيَاتِ الإِيقَاعِ يَسْتَوْجِبُ إِعَارَةَ الأَنْغَام غَيْرِ التَّقْلِيدِيَّةِ عِنَايَةً أَكْبَرَ مِنَ الدِّرَاسَةِ وَالمُعَايَنَةِ لِاسْتِجْلَاءِ خَبَايَا تِلْكَ البُنَى وَمَكَانَتَهَا فِي تَمَاسُكِ الخِطَابِ.

وَنَقْصِدُ بِالإِيقَاعِ التَّقْلِيدِيِّ ذَاكَ الذِّي يَنْشَأُ عَنِ الوَزْنِ الخَلِيلِيِّ وَمُكَوِّنَاتِهِ الأَسَاسِيَّةِ كَالقَافِيَةِ وَرَوِيِّهَا، وَالذِّي عَلَى الشَّاعِرِ الحَقِّ أَنْ يُوظِّفَ أَدَوَاتٍ أُخْرَى تَعْضُدُهُ وَتَرْفَعُ مُسْتَوَى الشِّعْرِيَّةِ فِيهِ لِيَتَجَاوَزَ التَّكْرَارَ وَالرَّتَابَةَ المُنهِكَةَ لِلْمَعْنَى، الحَائِلَةَ دُونَ تَوَسُّعِهِ وَانْشِطَارِهِ، وَتَجْعَلَ النَّصَّ أَعْلَقَ بِالذَّائِقَةِ، وَأَكْثَرَ جَاذِبِيَّةً وَتَأْثِيرًا، وَإِنْ كَانَتْ مَوْضُوعَاتُهُ قَدِيمَةً مُسْتَهْلَكَةً، لِأَنَّ صَاحِبَهُ عَرَفَ كَيْفَ يَنْفُخُ فِيهَا رُوحَ الجِدَّةِ، وَدِمَاءَ الخُلُودِ حِينَ جَعَلَ اللُّغَةَ وَالإِيقَاعَ يَتَنَاوَبَانِ، بَلْ وَفِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، يَتَضَافَرَانِ لِرَفْعِهِ عَالِيًا فِي مَدَارِجِ الفَنِّيَّةِ وَالجَمالِ.

5- فِي جمَاليَّةِ الإِيقَاعِ:

يَقِفُ القَارِئُ أَمَامَ القَصِيدَةُ، فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ عَاجِزًا عَنْ تَفْسِيرِ كُنْهِ تِلْكَ القُوَّةِ الآسِرَةِ التِّي تُسَيْطِرُ عَلَيْهِ، وَتَسْتَدْعِيهِ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ المُتْعَةِ وَالتَّذَوُّق، وَفِي نَظَرِ عَدِيدِ النُّقَّادِ " جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ قِيمَةِ الشِّعْرِ الجَمَالِيَّةِ يُعْزَى إِلَى صُورَتِهِ المُوسِيقِيَّةِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَ أَكْبَرُ قَدْرٍ مِنْ هَذِهِ القِيمَةِ مَرْجِعُهُ إِلَى هَذِهِ الصُّورَةِ المُوسِيقِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الدَّارِسِينَ يُعْزُونَ مَا نَجِدُهُ فِي الشِّعْرِ مِنْ سِحْرٍ إِلَى صُورَتِهِ الموسِيقِيَّةِ "[2]. وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ لَا يُمكِنُ إِنْكَارُهَا، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ

[1]- البنية الإيقاعيّة في الشّعر العربيّ، كمال أبو ديب، م.س، ص520.

[2]- التّفسير النّفسيّ للأدب، عزّ الدّين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، ط4،1981م، ص64.

الحَقِيقَةَ المُطْلَقَةَ، وَإِلَّا كُنَّا بِذَلِكَ أَلْغَيْنَا جَوَانِبَ عَدِيدَةً لَهَا مِنَ الأَثَرِ فِي إِثْرَاءِ جَمَالِيَّةِ القَصِيدَةِ الشَّيْء الكَثِيرَ.

الشِّعْرُ وَالإِنْسَانُ عَلَاقَةُ وُجُودٍ، فِعْلُ تَمَاهِي يَنْبُشُ فِي الذَّاكِرَةِ العَمِيقَةِ بَحْثًا عَنِ الشَّاعِرِ الأَوَّلِ، الإِيقَاعِ الأَزَلِيِّ فِي أَبْعَادِهِ الأَنْثْرُوبُولُوجِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ: " حِينَ يُحِيلُ عَلَى التَّلَذُّذِ، زِيَادَةً عَلَى مَا كَانَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ سِحْرِيَّةٍ فِي المَاضِي، وَمَا أَدَّاهُ مِنْ دَوْرٍ حِينَ كَانَ إِطَارًا لِمُمَارَسَاتٍ شِعْرِيَّةٍ. إِنَّ لَهُ مِنْ جِهَةٍ بُعْدًا شُعُورِيًّا، بَلَغَ مِنَ المُرُونَةِ حَدًّا إِنْ كَانَ قَرَّبَهُ مِنَ الشِّعْرِ فَقَدْ جَعَلَ مَعْنَاهُ مُسْتَعْصِيًا عَلَى اللُّغةِ وَغَيْرَ مُدْرَكٍ إِلَّا بِالتَّجْرِبَةِ فِي حُدُودٍ لَا دَلَالِيَّةٍ. وَأَخِيرًا فَلَهُ أَيْضًا بُعْدٌ فَلْسَفِيٌّ، أَهْمَلَ العَرُوضِيُّونَ البَحْثَ فِيهِ، ذَلِكَ هُوَ اغْتِرَافُهُ مِنْ نَظَرِيَّةِ الأَعْدَادِ الفِيثَاغُورِيَّةِ، حَيْثُ تُتَّخَذُ جَمَالِيَّةُ النِّظَامِ رِيَاضِيًّا، وَهُوَ لَا يَزَالُ مُلَاحَظًا إِلَى حَدِّ الآنَ "[1]. هَذَا بَعضُ التَّعْقِيدِ وَالتَّشَعُّبِ الذِّي يَعْتَرِضُنا حِينَ نَرُومُ البَحْثَ فِي أَسْرَارِ الشِّعْرِ وَخَفَايَاهُ، وَ" إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا "[2] يَبْعَثُ عَلَى العَجَبِ، وَيُوقِظُ غَوَافِلَ الدَّهْشَةِ.

" الإِيقَاعُ هُوَ مَادَّةُ المَعْنَى، قَدْ يَكُونُ المَعْنَى بَسِيطًا إِلاَّ أَنَّهُ مَعْنىً فَرْدٌ فِي كُلِّ مرَّةٍ "[3]، مِنْ هذَا المُنطَلَقِ نَنْظُرُ فِي أَهَمِّيَّةِ الإِيقَاعِ فِي إِلْبَاسِ المَعْنَى جَمَالِيَّتَهُ وَفَرَادَتَهُ، التِّي لَا تَسْتَدْعِي بِالضَّرُورَةِ، التَّعْقِيدَ وَالغَرَابَةَ كَيْ تَلْفِتَ انْتِبَاهَ المُتَلَقِّي. فَكَثِيرًا مَا يَكُونُ المَعْنَى بَسِيطًا – وَلَا نَقْصِدُ هُنَا أَنْ يَكُونَ مُبْتَذَلًا– غَيْرَ أَنَّ الإِيقَاعَ يَشْتَغِلُ عَلَى زَوَايَا تَغِيبُ عَنَّا أَهَمِّيَّتُهَا، فَيُعِيدُ لَهُ نَضَارَتَهُ وَبَهَاءَهُ، إِذْ تَعْمَلُ مَسَافَةُ التّقَاطُعِ، وَهِيَ تُشَكِّلُ الوَحَدَاتِ الوَزْنِيَّةَ، عَلَى كَسْرِ الرَّتَابَةِ التِّي تَنْشَأُ مِنَ التِّكْرَارِ المُطْلَقِ وَخَلْقِ تَنْوِيعٍ إِيقَاعِيٍّ غَنِيٍّ[4]، يَصْرِفُنَا عَنِ النَّمَطِيَّةِ إِلَى الجِدَّةِ وَالتَّمَيُّزِ. فَهُوَ " أَدَاةُ تَعْزِيزٍ لِلمَعْنَى "[5] لَا يَتَحَقَّقُ فِي الشِّعْرِ إِلَّا بِوُجُودِهِ، وَلَا تَتَجَلَّى

---

[1]– محاضرات في السّيميولوجيا، م.س، ص151.

[2]– صحيح البخاري، ج7، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ. رقم: 5146، ص19، و رقم: 5767، ص38.

[3]– *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص70.

[4]– ينظر: جدليّة الخفاء و التّجلّي، دراسات بنيويّة في الشّعر،كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1995م، ص94.

[5]– تمهيد في النّقد الحديث، روز غريب، م.س، ص189.

جَمَالِيَّتُهُ إِلَّا فِي حُضُورِهِ.

وَحَيْثُ إِنَّنَا " لَا نُفَكِّرُ – أَبَدًا – فِي القِيَمِ الصَّوْتِيَّةِ مُنْفَصِلَةً عَنِ المَعْنَى، بَلْ نُفَكِّرُ فِي المَعْنَى مِنْ خِلَالِ مُسْتَوَيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَتَجَاوَبُ مَعًا تَجَاوُبًا لَا يَسْمَحُ بِالتَّمْيِيزِ بَيْنَهَا، وَلَا يَسْمَحُ بِالتَّفْكِيرِ فِيهَا مُنْفَصِلَةً عَنْ غَيْرِهَا "[1]، فَإِنَّهُ مِنْ غيْرِ المَنْطِقِيِّ، إِذَنْ، – بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ – دِرَاسَةُ الإِيقَاعِ مُجَرَّدًا عَنِ النَّصِّ الأَدَبِّي فِي حَدِّ ذَاتِهِ، فَالعَلَاقَةُ بَيْنَ الإِيقَاعِ وَالمَعْنَى مِنْ أَشْكَالِهِ المُتَعَدِّدَةِ هِيَ التِّي تَعْنِي دَارِسَ الشِّعْرِ، وَإِنَّ دِرَاسَةَ الإِيقَاعِ بِمَعْزِلٍ عَنِ المَعْنَى مُحَاوَلَةٌ مَشْكُوكٌ فِي قِيمَتِهَا[2]. إِذْ أَنَّ المَعْنَى الشِّعْرِيَّ مُتَوَحِّدٌ مَعَ الإِيقَاعِ، فَيَكُونُ المَعْنَى إِيقَاعًا كَمَا يَكُونُ الإِيقَاعُ مَعْنَوِيًّا، وَهَذَا مَا يُحْدِثُ تَدَاخُلاً بَيْنَ مُسْتَوَيَاتِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ التَّجَاذُبِ الحَاصِلِ بَيْنَ المُسْتَوَيَيْنِ: الصَّوْتِيِّ وَالدَّلَالِيّ، فَالشِّعْرُ ضَرْبٌ مِنَ المُوسِيقَى: إِلاَّ أَنَّهُ تَزْدَوِجُ نَغَمَاتُهُ بِالدَّلَالَةِ اللُّغَوِيَّةِ [3]، " وَذَلِك أَنَّ مُوسِيقَى الشِّعْرِ لَا تَنْفَكُّ عَنْ مَعْنَاهُ "[4]، وَطَبِيعِيٌّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ، يَقُولُ مُحَمَّدُ شُكْرِي عَيَّادُ، فَهُوَ يَرَى بِأَنَّ الدِّرَاسَةَ اللُّغَوِيَّةَ وَالدِّرَاسَةَ المُوسِيقِيَّة قَدْ أَفْضَتْ إِلَى تَأْكِيدِ تِلْكَ العَلاقَةِ[5].

وَعَلَيْنَا قَبْلَ أَنْ نُؤَكِّدَ عَلَى هَذَا الدَّوْرِ الجَوْهَرِيِّ لِلإِيقَاعِ أَنْ نُثَبِّتَ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا مِنْ فُرُوقٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الوَزْنِ، فَالوَزْنُ، لَا يَعْدُو، مُقَارَنَةً بِه، أَنْ يَكُونَ وِعَاءً ذَا " أَبْعَادٍ مُنْتَظِمَةٍ يَسْتَوْعِبُ التَّجَارِبَ الشِّعْرِيَّةَ، وَالتَّجْرِبَةُ هِيَ التِّي تَخْتَارُ وَزْنَهَا بِمَا يَتَلائَمُ مَعَ طَبِيعَتِهَا وَخَوَّاصِهَا، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ لِكُلِّ وَزْنٍ نِظَامَهُ الخَاصَّ الذِّي يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ قُدْرَةً خَاصَّةً عَلَى استِيعَابِ نَمَطٍ مُعَيَّنٍ مِنَ التَّجَارِبِ، وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ تَعَدُّدَ البُحُورِ وَتَنَوُّعَهَا، إِذْ لَوْ كَانَ بَحْرًا وَاحِدًا قَابِلًا لِاسْتِيعَابِ كُلِّ التَّجَارِبِ لَاكْتَفَتْ بِه القَصِيدَةُ العَرَبِيَّةُ. إِلاَّ أَنَّ الوَزْنَ هُوَ مَادَّةُ

[1]– مفهوم الشّعر، جابر عصفور، م.س، ص337.

[2]– ينظر: مبادئ النّقد الأدبيّ والعلم والشّعر، أ.أ.ريتشاردز، م.س، ص200، وموسيقى الشّعر العربيّ، م.س، ص137.

[3]– ينظر: النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد غنيمي هلال، م.س، ص436.

[4]– نفسه، ص441.

[5]– ينظر: موسيقى الشّعر العربيّ – مشروع دراسة علمية، محمّد شكري عيّاد، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1978، ص97.

مُوسِيقَى الشِّعْرِ، وَلَا يُمْكِنُ لِهَذِهِ المادَّةِ أَنْ تَحْيَا مِنْ دُونِ تَدَخُّلِ الرُّوحِ فِيهَا، وَرُوحُ الوَزْنِ هُوَ الإِيقَاعُ الذِّي يُوَلَّدُ مِنْ خِلَالِ امْتِزَاجِ التَّجْرِبَةِ بِالوَزْنِ. وَلَا تَظْهَرُ القَصِيدَةُ بِوَزْنِهَا عِنْدَ المتَلَقِّي إِنَّمَا تَظْهَرُ بِإِيقَاعِهَا(مُمَثِّلُ الوَزْنِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّوْصِيلِ)"[1]، إِذِ الوَزْنُ يَقِفُ عِندَ حُدُودِ هنْدَسَتِهِ وانْتِظَامِهِ الذِّي يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ قَالَبًا يَطَّرِدُ وَيَتَكَرَّرُ فَلَا يَكَادُ يَحِيدُ عَنْهُ إِلَّا بِحَسَبِ الاخْتِيَارِ الأَوَّلِيِّ لِلبَحْرِ العَرُوضِيِّ.

وَبِالمُحَصِّلَةِ يَجِدُ الشَّاعِرُ نَفْسَهُ " أَمَامَ ضِرْبَيْنِ مِنَ النَّظْمِ: النَّظْمُ الذِّي يَتَّصِلُ بِالمبْنَى أَصْوَاتًا وَحَرَكَاتٍ وَسَكَنَاتٍ وَالذِّي تَكُونُ مُحَصِّلَتُهُ الإِيقَاعُ أَوِ الوَزْنُ الشِّعْرِيُّ، وَالنَّظمُ الذِّي يَتَّصِلُ بِالمعْنَى وَالتِّي تَكُونُ مُحَصِّلَتُهُ حُدُوثَ الفَائِدَةِ وَوُضُوحَ المعْنَى وَتَمَامَهُ. وَالشَّاعِرُ المُجِيدُ مُطَالَبٌ أَنْ يُوَازِيَ وَيُوَازِنَ بَيْنَ النَّظْمَيْنِ فَلَا يُخِلَّ طَلَبُ المعْنَى بِالوَزْنِ وَلَا يُخِلَّ تَحْقِيقُ الوَزْنِ بِالمعْنَى وَالفَهْمِ "[2]، وَإِدْرَاكُ الشَّاعِرِ لِحَقِيقَةِ هَذِهِ المُعَادَلَةِ الصَّعْبَةِ يُمَكِّنُهُ مِنْ ضَبْطِ أَدَوَاتِهِ الفَنِّيَّةِ، وَاخْتِبَارِ اسْتِعْدَادِهِ النَّفْسِيِّ وَالفِكْرِيِّ لِإِبْدَاعٍ مُتَكَافِئٍ.

فَالتّوَاشُجُ بَيْنَ الوَزْنِ وَالدَّلَالَةِ يَنْقُلُهُ مِنْ كَوْنِهِ مُجَرَّدَ قَوَالِبَ عَرُوضِيَّةٍ لِيَجْعَلَهُ إِيقَاعًا، وَعُنْصُرَ إِيحَاءٍ حَافِلًا بِدَلَالَاتِ النَّصِّ وَجَمَالِيَّاتِهِ، أَكْثَرَ قُدْرَةً عَلَى نَقْلِ التَّجربَةِ الشِّعْرِيَّةِ إِلَى المُتَلقِّي " لِذَلِكَ كَانَتْ أَعْمَقُ القَصَائِدِ شِعْرِيَّةً هِيَ تِلْكَ التِّي تَتَنَاسَبُ فِيهَا الحَرَكَاتُ الإِيقَاعِيَّةُ الموحِيَّةُ مَعَ الحَرَكَاتِ الدَّلَالِيَّةِ "[3]. وَهَذَا الالْتِحَامُ الجَدَلِيُّ بَيْنَ الصَّوْتِ- فِي عُمُومِهِ - وَبَيْنَ المَعْنَى يُرَسِّخُ دَوْرَ وَأَهَمِّيَّةَ الوَزْنِ فِي النَّصِّ الشِّعْرِيِّ، فَيَصِيرُ مُجَسِّدًا وَمُعَمِّقًا لِلبِنْيَةِ الدَّلَالِيَّةِ ذَاتِهَا[4]، وَيَصِيرُ مَعَهُ الانْتِقَالُ بَيْنَ الصَّوْتِ وَالمعْنَى فِي عَمَلِيَّةِ تَنَاوُبٍ مُسْتَمِرَّةٍ تَجْعَلُ الأَوَّلَ كَأَنَّهُ صَدًى لِلثَّانِي[5]، يَعْكِسُ دَلَالَاتِهِ وَصُوَرَهُ، حَتَّى لَكَأَنَّ الإِيقَاعَ

---

[1]- القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلاليّة و البنية الإيقاعيّة ...، محمّد صابر عُبيد، م.س، صص24،25.

[2]- موسيقى الشعر العربيّ- العروض دراسة فنّيّة وعروضيّة، حسن عبد الجليل يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1989م، ص266.

[3]- مقوّمات عمود الشّعر الأسلوبيّة بين النّظريّة والتّطبيق، عبد الرّحمن غركان، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2004م، ص166.

[4]- في الشّعريّة، كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العروضيّة، بيروت، لبنان، د.ت، د.ط، صص155،156.

[5]- ينظر: نظريّة البنائيّة في النّقد العربيّ، صلاح فضل، م.س، ص39.

هُوَ " القَانُونُ التَّوْلِيدِيُّ الأَسَاسُ الذِّي يَخْلُقُ الحَدَثَ الشِّعْرِيَّ "[1]، وَهُوَ بِقُدْرَتِهِ الخَاصَّةِ " عَلَى التَّعْبِيرِ وَالتَّصْوِيرِ وَالتَّأْثِيرِ "[2] يَهَبُهُ فَاعِلِيَّتَهُ وفَنِّيَّتَهُ.

إِنَّ المعْنَى هُوَ " مُوَلِّدُ الخِطَابُ تَمَامًا كَمَا الإِيقَاعُ يُوَلِّدُ المعْنَى: هُوَيَّتَانِ مُتَلَازِمَتَانِ غَيْرُ قَابِلَتَيْنِ لِلقَيْسِ "[3]، كَمِّيًّا بِالأَخَصِّ وَلَيْسَ كَيْفِيًّا، لِأَنَّهُمَا مُتَكَافِئَتَانِ فِي إِنْتَاجِ الخِطَابِ. وَقَدْ كَانَ مِمَّا عِيبَ عَلَى الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ اعْتِمَادُهُ عَلَى " إِيقَاعٍ عَدَدَيٍّ مُنْتَظِمٍ يَرْتَكِزُ تَأْثِيرُهُ عَلَى لَذَّةِ انْتِظَارِ مَا نَتَوَقَّعُ عَوْدَتَهُ بِصُورَةٍ قِيَاسِيَّةٍ دُونَ مُفَاجَأَةٍ أَوْ تَبْدِيلٍ. وَتَأْثِيرُهُ مُخَدِّرٌ كَتَأْثِيرِ حَرَكَةِ المِحْدَافِ أَوِ اهْتِزَازِ السَّرِيرِ"[4]، أَيْ بِشَكْلٍ نَمَطِيٍّ مُطَّرِدٍ، وَتَرْجِيعٍ نَغَمِيٍّ قِوَامُهُ الوَزْنُ المُرْتَهَنُ لِلقِيَاسِ. غَيْرَ أَنَّ الإِيقَاعَ فَضْلًا عَنْ "وَظِيفَتِهِ كَوَسِيلَةٍ لِلْقِيَاسِ – يَلْعَبُ دَوْرًا دَلَالِيًّا. فَتَشَابُهُ عَنَاصِرَ مُخْتَلِفَةٍ جِدًّا أَوْ –بِالعَكْسِ– اخْتِلَافُ عَنَاصِرَ مُتَشَابِهَةً جِدًّا، يُمْكِنُ أَنْ يَزْدَادَ تَأَكُّدُهُ مِنْ خِلَالِ تَوَاجُدِهَا فِي مَوَاضِعَ وَزْنِيَّة مُتَطَابِقَةٍ. إِنَّ الإِيقَاعَ كَيَانٌ نَصِّيٌّ مُعَارِضٌ لِلْوَزْنِ الذِّي هُوَ نِظَامِيٌّ. فَالإِيقَاعُ هُوَ المتَغَيِّرُ وَالوَزْنُ هُوَ الثَّابِتُ "[5]، وَهُوَ المَسَارُ الأَسَاسُ الذِّي يَرْسُمُ الفُرُوقَ بَيْنَهُمَا دُونَمَا انْفِصَالٍ تَامٍّ وَكُلِّيٍّ.

فِي نُقْطَةِ التَّقَاطُعِ بَيْنَ الوَزْنِ وَالإِيقَاعِ عَلَى مُسْتَوَى البَيْتِ تَلْتَقِي خُطُوطُ اللُّغَةِ وَالأَصْوَاتِ وَالصُّوَرِ وَالأَفْكَارِ لِتُشَكِّلَ بِتَرَاكِيبِهَا تَرَاكُمَاتِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ فِي اتِّجَاهِهَا الأُفُقِيِّ، فَهِيَ سَتَظَلُّ مُجَرَّدَ تَرَاكُمَاتٍ كَمِيَّةٍ " لَوْلَا تَقَاطُعُهَا مَعَ خَطِّ الإِيقَاعِ الذِّي يُحَوِّلُهَا وَيَتَحَوَّلُ مَعَهَا إِلَى بُؤَرٍ كَيْفِيَّةٍ أَوْ نَوْعِيَّةٍ(...). فَخَطُّ الوَزْنِ يَغْدُو فِي نُقْطَةِ تَقَاطُعِهِ بِالإِيقَاعِ ذَا خُصُوصِيَّةٍ مُوسِيقِيَّةٍ تَتَّصِلُ بِتَجْرِبَةِ النَّصِّ وَخُصُوصِيَّةِ الشَّاعِرِ، مِمَّا يُمَثِّلُ إِحْدَى السِّمَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ مَعَ بَقِيَّةِ الخُطُوطِ الأُفُقِيَّةِ فِي نُقَطَ تَقَاطُعِهَا بِخَطِّ الإِيقَاعِ الذِّي

[1]– فِي بنية الشّعر العربيّ المعاصر، محمد لطفي اليوسفي، م.س، ص157.

[2]– نظريّة إيقاع الشّعر العربيّ في ضوء نظرية العيّاشي، فضل بن عمّار العمّاري، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، ص69.

[3]– *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، صص69،70.

[4]– تمهيد في النّقد الحديث، روز غريب، م.س، ص178.

[5]– بارتون جونسون، (دراسة يوري لوتمان البنيويّة للشّعر)، تر: سيّد البحراوي، م.س، ص23.

يُحَوِّلَهَا إِلَى مَظَاهِرَ أُسْلُوبِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ فِي تَجْرِبَةِ النَّصِّ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ خَطَّ الإِيقَاعِ عِنْدَمَا يَمُرُّ عَلَى خَطٍّ أُفُقِيٍّ وَيَتَقَاطَعُ مَعَهُ يُحَوِّلُهُ فِي نُقْطَةِ التَّقَاطُعِ بِالذَّاتِ إِلَى حَالَةٍ إِيقَاعِيَّةٍ تُمَيِّزُ ذَلِكَ الخَطَّ وَتَتَمَايزُ بِهِ فِي آنٍ وَاحِد"[1]، خُصُوصًا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الأَوْزَانَ، وَالأَفكَارَ، وَالمَوْضُوعَاتِ، وَالأَغْرَاضَ قَدْ تتَمَاثَلُ عِنْدَ الشُّعَرَاءِ، بَلْ إِنَّهَا كَذَلِكَ عِنْدَ الشَّاعِرِ الوَاحِدِ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، فَمَا الذِّي سَيُعْطِيهَا تَمَيُّزَهَا وَفَرَادَتَهَا لَوْلَا هَذِهِ الكِيمْيَائِيَّةَ التِّي تَحْدُثُ فِي بُؤرَةِ التَّلَاقِي وَالتَّفَاعُلِ تِلْكَ؟! إِنَّهُ وَ" مَهْمَا كَانَتِ الطَّرِيقةُ التِّي يُنْظَرُ فِيهَا إِلَى العَلاَقَاتِ المتَدَاخِلَةِ بَيْنَ الصُّورَةِ وَالصَّوْتِ، فَإِنَّ هُنَاكَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ دَحْضُهُ: لَيْسَتِ الأَصْواتُ، التَّنَاغُمَاتُ الصَّوْتِيَّةُ، مُجَرَّدَ مُلْحَقٍ تَرْخِيمِيٍّ، وَلَكِنَّهَا نَتِيجَةُ تَطَلُّعٍ شِعْرِيٍّ مُسْتَقِلٍّ "[2]، يَحْمِلُ فِي رَحِمِ هَذِهِ العَلَاقَةِ كُلَّ الذِّي نَتَوَسَّمُهُ فِي النَّصِّ مِنْ جَمَالِيَّةٍ وَإِبْدَاعٍ مُتَفَرِّدٍ.

هَكَذَا، إِذَنْ، تَتَوَثَّقُ جَمَالِيَّةُ الإِيقَاعِ وَحُضُورُهُ فِي بِنْيَةِ النَّصِّ، مِنْ خِلَالِ وَظِيفَتِهِ فِي تَوْطِيدِ العَلَاقَةِ بَيْنَ مَا هُوَ شِعْرِيٌّ وَمَا هُوَ وَاقِعِيٌّ[3]، فَفَاعِلِيَّتُهُ كَامِنَةٌ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى جَعْلِ المُتَلَقِّي يُحِسُّ بِوُجُودِ حَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تَشْحَنُ النَّصَّ بِالدَّلَالَاتِ المُتَوَلِّدَةِ تِبَاعًا، خُصُوصًا حِينَ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ شَاعِرٍ حَاذِقٍ يُحَوِّلُ نَقْرَةَ الوَزْنِ المُنْتَظِمَةَ إِلَى عُنْصُرٍ فِي حَرَكَةٍ أَكْبَرَ، هِيَ حَرَكَةُ الإِيقَاعِ وَيَجْعَلَهَا القَاعِدَةَ التِّي يَتَبَاعَدُ مِنْهَا ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهَا[4]. فَالوُقُوفُ عِنْدَ الإِيقَاعَاتِ بِأَشْكَالِهَا المُخْتَلِفَةِ وَاسْتِكْشَافُهَا، خُصُوصًا فِي القَصِيدَةِ الحَدِيثَةِ "يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالدَّلَالَةِ، عَبْرَ الالْتِحَامِ وَالتَّدَاخُلِ الحَاصِلِ بَيْنَ البِنْيَّة الإِيقَاعِيَّةِ وَالبِنْيَّة الدَّلَالِيَّةِ"[5]، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ المُجْدِي فِعْلِيًّا تَجْرِبَةُ ذَلِكَ عَلَى النُّصُوصِ القَدِيمَةِ سَعْيًا وَرَاءَ فَضَاءَاتٍ بَقِيَتْ، إِلَى حِينٍ، مُوصَدَةً أَبْوَابُهَا عَلَى قِرَاءَاتٍ أَكْثَرَ انْفِتَاحًا وَجِدَّةً.

---

[1]- فلسفة الإيقاع في الشّعر العربيّ، علوي الهاشميّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، مملكة البحرين، ط1، 2006م، ص23.

[2]- تكرارات الأصوات، أوسيب بريك، ينظر: نقد النّقد، تودوروف، م.س، ص26.

[3]- ينظر: البنية الإيقاعيّة في شعر حميد سعيد، حسن الغرفي، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، العراق، ط1، 1989م، ص12.

[4]- الشّعر كيف نفهمه ونتذّوقه، إليزابيث درُو، تر: محمد إبراهيم الشّوش، مكتبة منيمنة، بيروت، لبنان، د.ط،1961م، ص50.

[5]- شعريّة الإيقاع السّمعي ونبوءة الرّؤية الشّعريّة، محمد صابر عبيد، مجلة الأقلام، ع: 3، أيار/حزيران(ماي/جوان) 2002م، ص6.

فَلِلإِيقَاعِ جَمَالٌ وَلَذَّةٌ لَا يَظْهَرَانِ فِي الْمَلْفُوظِ مِنَ الأَنْغَامِ أَوِ المَسْمُوعِ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا يَنْعَكِسَانِ فِي إِحْسَاسِ المتَلَقِّي بِتَحْقِيقِ التَّلَاؤُمِ وَالتَّطَابُقِ بَيْنَ الأَنْغَامِ وَالكَلِمَاتِ وَالمَعَانِي التيِّ تَهُزُّ أَعْمَاقَهُ[1]، وَتُحَرِّكُ مَوَاطِنَ اللَّذَّةِ فِي كَيَانِهِ. فَهُوَ "الفَاعِلِيَّةُ التيِّ تَنْقُلُ إِلَى المُتَلَقِّي ذِي الحَسَاسِيَّة المرْهَفَةِ الشُّعُورَ بِوُجُودِ حَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ ذَاتِ حَيَوِيَّةٍ مُتَنَامِيَّةٍ تَمْنَحُ التَّتَابُعَ الحَرَكِيَّ وَحْدَةً نَغَمِيَّةً عَمِيقَةً "[2]، لَاسِيَمَا إِذَا تَعَلَّقَ الأَمْرُ بِنَقْلِ مَضْمُونٍ مُرْتَبِطٍ بِخَلَجَاتِ الشَّاعِرِ وَأَحَاسِيسِهِ[3]. نُدْرِكُ مِنْ هَذَا " أَنَّ الشِّعْرَ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِلَ مَعَانِيَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُ النَّثْرُ أَنْ يُؤَدِّيَ، وَأَنَّ مُوسِيقَى الشِّعْرِ هِيَ التِّي تُمَكِّنُهُ مِنَ الوُصُولِ إِلَى تِلْكَ المعَانِي "[4]، وَتَتَحَمَّلُ أَعْبَاءَ تَبْلِيغِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ اللُّغَةُ، وَقَصُرَتْ فِيهِ عَنِ المُبْتَغَى.

هَذَا إِنْ تَحَدَّثْنَا عَنِ الوَزْنِ مُجَرَّدًا، فَإِنْ عَطَفْنَاهُ عَلَى الإِلْقَاءِ وَالإِنْشَادِ رَأَيْنَا ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقُومَ " بِدَوْرٍ دَلَالِيٍّ يُنَاسِبُ التَّغْيِيرَاتِ الحَادِثَةِ فِي طَبَقَةِ الصَّوْتِ "[5]، فَيَرْفَعُ القِيمَةِ الجَمَالِيَّةِ لِلإِيقَاعِ وَيُوَجِّهُ الدَّلَالَةَ، إِذْ " إِنَّ النَّغْمَةَ أَوِ التَّنغِيمَ، أَيْ المُنْحَنَى البَيَانِيَّ الذِّي يُسَجِّلُهُ الصَّوْتُ، يَخْتَلِفُ فِي الوَاقِعِ اخْتِلَافًا مَلْحُوظًا حَسْبَ المعْنَى وَالخِطَابِ "[6]، فَالكَلِمَاتُ مَكْتُوبَةً غَيْرُ الكَلِمَاتِ مَنْطُوقَةً، حَيْثُ " لِبَعْضِ الأَصْوَاتِ قُدْرَةٌ عَلَى التَّكَيُّفِ وَالتَّوَافُقِ مَعَ ظِلَالِ المشَاعِرِ فِي أَدَقِّ حَالَاتِهَا وَتَرْتَبِطَ الظِّلَالُ المُخْتَلِفَةُ لِلأَصْوَاتِ بِاتِّجَاهِ الشُّعُورِ وَهُنَا تُثْرِي اللُّغَةَ ثَرَاءً لَا حُدُودَ لَهُ "[7]، وَتَفْسَحُ أَمَامَ الإِبْلَاغِ الشِّعْرِيِّ، وَالجَمَالِ الدَّفِينِ آفَاقَ التَّكَشُّفِ وَالانْبِثَاقِ.

---

[1]- ينظر: الإبلاغيّة في البلاغة العربيّة، سمير أبو حمدان، منشورات عويدات الدوليّة، بيروت، باريس، ط1، 1991م، صص66-68. وينظر: الشّعر العربيّ المعاصر، قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص67.

[2]- في البنية الإيقاعيّة للشّعر العربيّ، كمال أبو ديب، م.س، ص230.

[3]- ينظر: فنّ الشّعر، هيجل، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، د.ط، 1981م، ص78.

[4]- قضيّة الشّعر الجديد، محمّد النّويهيّ، المطبعة العالمية، القاهرة، د.ط، 1964م، ص18.

[5]- في التّنظيم الإيقاعيّ للّغة العربيّة- نموذج الوقف، مبارك حنون، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان وَمنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ/2010م، ص35.

[6]- بنية اللُّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، ص90.

[7]- إبداع الدّلالة في الشّعر الجاهليّ، م.س، ص14.

عِنْدَ هَذَا المُسْتَوَى " تَتَجَلَّى فَاعِلِيَّةُ الأَصْوَاتِ وَقُدْرَتُهَا عَلَى إِضَافَةِ طَبَقَةٍ دَلَالِيَّةٍ – إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ– مِنْ خِلَالِ الطَّبَقَةِ الصَّوْتِيَّةِ وَهِيَ فِي ذَلِكَ وَكَأَنَّهَا إِيمَاءٌ مُكَثَّفٌ يَخْتَزِلُ إِضَافَاتٍ وَصْفِيَّةً وَتَشْبِيهِيَّةً أَوْ سِوَاهُمَا وَكَأَنَّهَا لِذَلِك مَعْنًى فَوْقَ المَعْنَى "[1]، يُضِيءُ كَوَامِنَهُ، وَيُجْلِي خَوَافِيهِ، وَيُحَرِّكُ فِي المُتَلَقِّي شُعُورًا بِالزِّيَادةِ وَالتَّجَدُّدِ، لِأَنَّهُ يُضِيفُ إِلَى المَعْنَى الذِّي اسْتَقَرَّ فِي ذَهْنِهِ أَوَّلَ الأَمْرِ مَعْنًى رَدِيفًا، وَيَجْعَلُ مِنَ الإِيقَاعِ قُوَّةً فَاعِلَةً قَادِرَةً عَلَى تَرْكِ أَثَرٍ مُمْتِعٍ فِي القَصِيدَةِ عَلَى المسْتَوَى العَقْلِيّ وَالجَمَالِيِّ وَالنَّفْسِيّ[2]، لَمَ يَكُن لِيَحدُثَ لَوْلاَ طَاقَةُ الإِيقَاعِ هَذِهِ.

فَإِنْ كَانَ الوَزْنُ يُحَقِّقُ بِثَبَاتِ مَسَافَاتِهِ وَتَرَدُّدِهَا تِلْكَ النَّغَمِيَّةَ المُطْرِبَةَ فَهُوَ لَا يَتَجَاوَزُ الشَّكْلَ الخَارِجِيَّ الذِّي يَفْتَقِدُ إِلَى مَا يُكَمِّلُ مُوسِيقِيَّتَهُ، فَيَتَدَخَّلُ الإِيقَاعُ لِيَسُدَّ هَذَا الجَانِبَ، بَلْ وَلِيُضِيفَ إِلَيْهِ وَيَكْسِرَ جُمُودَهُ وَآلِيَّتَهُ، وَيُعِيدَ إِلَيْه تَمَاسُكَهُ دَاخِلَ البِنَاءِ الكُلِّيِّ للنَّصِّ، حَيْثُ أَنَّ بِنْيَةَ الإِيقَاعِ " تَقْبَلُ التَّجْزِئَةَ فِي شَكْلِهَا وَلَكِنَّهَا تَرْفُضُهُ فِي كُلِّيَّتِهَا. فَنَحْنُ نَتَأَثَّرُ بِالإِيقَاعِ جُمْلَةً وَلَيْسَ بِالوَحَدَاتِ مُجَزَّأَةً، فَاشْتِرَاطُ التَّوَازُنِ الكَمِّيِّ الهَنْدَسِيِّ المُنْتَظِمَ انْتِظَامًا حَرْفِيًا صَارِمًا لَا يُفَسِّرُ حَقِيقَةَ الإِيقَاعِ بِقَدْرِ مَا يُجَسِّدُهَا التَّقَابُلُ وَالتَّنَاظُرُ، المُعَاوَدَةُ وَالمخْتَلِفَةُ، الانْتِظَامُ وَالبَتْرُ، لِأَنَّ هَذِهِ التَّقَابُلَاتِ الثُّنَائِيَّةَ هِيَ التِّي تُسَاعِدُنَا عَلَى إِدْرَاكِ التَّخَلْخُلِ النَّفْسِيِّ وَالتَّوتُّرِ العَاطِفِيِّ لَدَى الشَّاعِرِ، وَتُوحِي بِالضَّغْطِ الدَّاخِلِيِّ لمَخْزُونِ التَّفَاعِلُ الحَيوِيُّ للمَشَاعِرِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالإِحْسَاسِ بِالتَّجَارِبِ الشُّعُورِيَّةِ "[3]. وَهَكَذَا تَتَكَشَّفُ جَمَالِيَّاتُ القَصِيدَةِ، وَتَشِي، مِنْ خِلَالِ حَيَوِيَّةِ الإِيقَاعِ، بِالظَّوَاهِرِ النَّفْسِيَّةِ، وَالانْفِعَالَاتِ المُرْتَبِطَةِ بِهَا، وَالتِّي لَا يُمْكِنُ تَحَسُّسُ إِسْهَامِهَا فِي انْسِجَامِ النَّصِّ وَتَبَلْوُرِ دَلَالَاتِهِ إِلَّا فِي وُجُودِهِ.

---

[1]- خطاب البيّاتي الشّعريّ دراسة في الإيقاع والدّلالة والتّناص، محمّد مصطفى علي حسانين، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، ط1، 2009م، ص137.

[2]- النُّثيرة والقصيدة المضّادة، محمّد ياسر شرف، يُنظر:القصيدة العربيّة الحديثة ...، محمّد صابر عُبيد، م.س، ص30.

[3]- أسلوبية جديدة لإيقاع الشّعر المعاصر، عمران الكبيسيّ، الأقلام،ع:1، س:25، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، العراق، كانون الثّاني 1990م، ص24.

إِنَّ الإِيقَاعُ يَقُولُ مَا تَعْجَزُ أَدَوَاتُ النَّصِّ الأُخْرَى عَنْ قَوْلِهِ، لِذَلِكَ فَهِيَ مُجْتَمِعَةً، تُشكِّلُ دَلَالَتَهُ، وتَفْتَحُ آفَاقَ المَعْنى لِيُحلِّقَ فِي فَضَاءاتٍ غَيْرِ التِّي اعْتادَ. فَهُوَ، كَمَا يَرَى كُوهِنْ " يَأْتِي لِدَعْمِ هَذَا الإِحْسَاسِ العَام بِالانْسِجَامِ "[1]. وهَذَا المَبْدَأُ مِنَ التَّوافُقِ وَالتَّنَاسُقِ " يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِطُرُقٍ عَدِيدَةٍ لَيْسَ الوَزْنُ إِلَّا وَاحِدًا مِنْهَا، فِيمَا يَظَلُّ لِلنَّصِّ الشِّعْرِيِّ فِي الأَبْنِيَةِ الأُخْرَى مَجَالٌ لِاسْتِجْلَاءِ صُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِلإِيقَاعِ، يُحَقِّقُهَا الشَّاعِرُ مِنْ خِلَالِ تَنْظِيمِ الأَفْكَارِ وَالمَعَانِي وَإِخْفَاءِ الدَّلَالَاتِ، كَمَا تُظْهِرُهَا القِرَاءَةُ وَاسْتِجَابَةُ القَارِئِ جَمَالِيًّا. أَيْ أَنَّ المهِمَّةَ الفَنِّيَّةَ لِلإِيقَاعِ يَتَوَلَّاهَا الشَّاعِرُ، فِيمَا يَسْتَكْمِلُهَا القَارِئُ جَمَالِيًّا "[2]، حِينَهَا لَيْسَ لِلْوَزْنِ إِلَّا أَنْ يَسْتَمِرَّ خَادِمًا طَيِّعًا، إِذْ يَقُومُ بِتَوْزِيعِ الأَنْظِمَةِ الإِيقَاعِيَّةِ التِّي تُظْهِرُ تَفَرُّدَ شَخْصِيَّةِ الشَّاعِرِ، مُحَافِظًا عَلَى التَّشْكِيلَاتِ الوَزْنِيَّةِ [3].

وَقِيمَةُ الإِيقَاعِ سَتَظْهَرُ فِيمَا يُوحِي بِهِ مِنْ " مَعَانِي تَفُوقُ المَعْنَى الظَّاهِرَ فَالإِيقَاعُ وَسِيلَةٌ هَامَّةٌ مِنْ وَسَائِلِ هَذَا التَّعْبِيرِ لِأَنَّهُ لُغَةُ التَّوَاتُرِ وَالانْفِعَالِ "[4]، وَهُمَا لَا يُقَاسَانِ بِالأَوْزَانِ المَعْرُوفَةِ كَوْنَهَا آلِيَّةً ثَابِتَةً، وَالمَشَاعِرُ مُتَلَوِّنَةٌ زِئْبَقِيَّةٌ كَمَا هِيَ حَالُ الإِيقَاعُ، فَهُوَ " حَرَكَةٌ زَمَانِيَّة مُرْتَبِطَةٌ بِالحَرَكَةِ وَالحَيَاةِ؛ لِذَلِكَ يَحْمِلُ تَأْثِيرًا نَفْسِيًّا، يُضْفِي عَلَى الصُّورَةِ قِيَمًا نَفْسِيَّةً وَجَمَالِيَّةً خَاصَّةً. وَلِلإِيقَاعِ عَلَاقَةٌ بِالمضْمُونِ مَعَ أَنَّهُ نَاتِجٌ مِنَ الشَّكْلِ. فَهُو تَشْكِيلٌ نَفْسِيٌّ بِالدَّرَجةِ الأُولَى "[5]، لِأَنَّهُ الأَقْدَرُ عَلَى مُلَامَسَةِ المَعْنَوِيِّ مُتَمَثِّلًا فِي المَشَاعِرِ التِّي يَتَعَذَّرُ قِيَاسُهَا أَوْ تَوْجِيهُهَا، فَهُوَ ذُو " دَلَالَةٍ عُضْوِيَّةٍ لِحَيَاةِ النَّصِّ تُكْسِبُهُ بِنْيَةً مُوسِيقِيَّةً فَتَصِيرُ عِمَارَتُهُ الدَّلَالِيَّةُ أَقْوَى، وَتُكَمِّلُ مَخْزُونَ ذَاكِرَةِ الكَلِمَاتِ فِي نَوَاةِ القَصِيدَةِ

[1]- بنية اللغة الشعرية، جون كوهن، م.س، ص86.

[2]- ما لا تؤدّيه الصُّدفة،حاتم الصّكر، بحث مقدّم إلى مهرجان المربد الشّعري العاشر،1989م، مُستلّ مطبوع بدار الحريّة للطّباعة، بغداد، ص12.

[3]- نقلا عن: القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلاليّة والبنية الإيقاعيّة، م.س، ص23.

[4]- تمهيد في النّقد الأدبيّ، روز غريب، م.س، ص110.

[5]- جماليّات التّصوير الفنيّ عند الشّعراء اللّصوص في صدر الإسلام والعصر الأمويّ، سَمَر الديّوب، مجلّة مُجمّع اللّغة العربيّة الأردنيّ، ع:73، 01 ديسمبر2007، ص35.

الإِيحَائِيَّةِ "[1]، وَلَعَلَّ فِي ذَلِكَ بَعْضَ أَسْرَارِ دَيْمُومَةِ الشِّعْرِ وَانْبِعَاثِهِ المُسْتَمِرِّ.

وَحَيْثُ إِنَّ النَّصَّ كُلٌّ مُرَكَّبٌ، جَمَالُهُ وَفَرَادَتُهُ كَامِنَةٌ فِي كَيْفِيَّةِ الرَّبْطِ بَيْنَ أَجْزَائِهِ لِيُرَى إِلَيْهِ كَمَجْمُوعٍ مُتَنَاسِقٍ، وَمُحَاوَلَةُ التَّوْفِيقِ، لَيْسَ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِهِ المُتَمَاثِلَةِ فَقَطْ، بَلْ وَالمُتَنَافِرَةِ أَيْضًا، فَإِنَّ الإِيقَاعَ " يَنْشَأُ غَالِبًا مِنْ تَفَاعُلِ عُنْصُرَيْنِ مُتَمَايِزَيْنِ "[2] مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى إِثْرَاءِ الدَّلَالَةِ وَتَفَجُّرِهَا، لِذَلِكَ كَانَ ج.س.فْرِيزَرْ يَرَى أَنَّهُ " مِنَ الأَهَمِّ رَبْطُ الأَنْمَاطِ الإِيقَاعِيَّةِ فِي الشِّعْرِ بِأَنْمَاطَ مِنَ المَعْنَى، مَعْنَى الكَلاَمِ أَوْ مَعْنَى الجُمْلَةِ " [3] لِخَلْقِ التَّجَانُسِ الذِّي يُسَهِّلُ عَلَى المُتَلَقِّي مَهَمَّةَ تَتَبُّعِ جَمَالِيَاتِ القَصِيدَةِ، إِذْ إِنَّ صُورَتَهَا المَخْطُوطَةَ عَلَى صَفَحَاتِ الكِتَابِ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ آثَارًا لِحَرَكَةِ الإِيقَاعِ: كَمَا يُؤَكِّدُ الشَّكْلَانِيُّونَ الرُّوسُ، فِي وَقْتِ أَنَّ " الذِّي يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَدَّ بِهِ إِيقَاعًا إِنَّمَا هُوَ الخِطَابُ الشِّعْرِيُّ لَا الآثَارُ الخَطِّيَّةُ الدَّالَةُ عَلَيْهِ "[4]، لِأَنَّهَا قَاصِرَةٌ عَنْ أَنْ تُوحِيَ بِحَرَارَةِ الحَرَكَةِ الإِيقَاعِيَّةِ فِي تَفَاعُلِهَا مَعَ غَيْرِهَا مِنْ عَنَاصِرِ البِنْيَةِ.

إِنَّ التَّقَاطُعَ بَيْنَ الأَوْزَانِ وَالإِيقَاعَاتِ وَالقَائِمَ عَلَى عَلَاقَاتٍ جَدَلِيَّةٍ دَاخِلَ النَّصِّ يَسْمَحُ لِجَمَالِيَاتِ الإِيقَاعِ بِالتَّجَلِّي وَالظُّهُورِ، فَالأَوزَانُ: تَرتِيبًا وَتَنَوُّعًا، حِينَ تَتَقَاطَعُ بِالإِيقَاعِ تُثْرِي النَّصَّ مِنْ أَوْجُهٍ عِدَّةٍ، فَهِيَ تُحَرِّكُ الصُّورَةَ وَتَنْقُلُهَا إِلَى طَوْرٍ جَدِيدٍ مِنَ الدَّلَالَةِ بِتَأْثِيرٍ مِنَ النَّغَمِيَّةِ وَالتَّرَدُّدِ المُتَوَاشِجِ مَعَ بَقِيَّةِ مُكَوِّناتِ النَّصِّ: الوَزْنِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ تَجْعَلُ المُتَلَقِّي أَكْثَرَ حُضُورًا وَتَجَاوُبًا، وَقَبْلَ هَذَا كُلِّهِ، تُعْطِي الأَوْزَانَ مَجَالًا لِلتَمَلُّصِ مِنْ رَتَابَةِ البُحُورِ وَتَسَطُّحِهَا.

---

[1]- من الصّورة إلى الفضاء الشّعريّ – العلائق والذّاكرة والمعجم والدّليل – قراءة بنيوية، ديزة سقال، دار الفكر العربيّ، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص60.

[2]- في الشّعرية، كمال أبو ديب، م.س، ص52.

[3]- الوزن والقافيّة والشّعر الحرّ، ج.س.فريزر، تر:عبد الواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النّقديّ، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام، الجمهوريّة العراقيّة، 1980م، ص15.

[4]- *Théorie de la littérature*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص61.

وَقَدْ ذَهَبَ جَمْعٌ مِنَ النُّقَّادِ إِلَى اعْتِبَارِ تِلْكَ الأَوْزَانِ عَائِقًا مُتَسَلِّطًا عَلَى الشَّاعِرِ، يَقِفُ فِي وَجْهِ الإِبْدَاعِ الحَقِيقيِّ إِذْ يَرَوْنَهَا شَيْئًا دَخِيلًا عَلَى الدَّلَالَةِ فَهِيَ لَا تُضِيفُ شَيْئًا أَوْ تَكَادُ! يَقُولُ الزَّهَاوِيُّ:" وَلَا أَرَى لِلشِّعْرِ قَوَاعِدَ فَهُوَ فَوْقَ القَوَاعِدِ، حُرٌّ لَا يَتَقَيَّدُ بِالسَّلَاسِلِ وَالأَغْلَالِ. وَهُوَ أَشْبَهُ بِالأَحْيَاءِ فِي اتِّبَاعِ سُنَّةِ الارْتِقَاءِ وَالنُّشُوءِ "[1]. ثُمَّ إِقْرَأْ إِنْ شِئْتَ، مَا قَالَهُ صَاحِبُ الغِرْبَالِ بِأَنَّهُ:" لَا الأَوْزَانُ وَلَا القَوَافِي مِنْ ضَرُورَاتِ الشِّعْرِ، كَمَا أَنَّ المَعَابِدَ وَالطُّقُوسَ لَيْسَتْ مِنْ ضَرُورَةِ الصَّلَاةِ وَالعِبَادَةِ. فَرُبَّ عِبَارَةٍ مَنْثُورَةٍ، جَمِيلَةِ التَّنْسِيقِ، مُوسِيقِيَّةِ الرَّنَّةِ كَانَ فِيهَا مِنَ الشِّعْرِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَصِيدَةٍ مِنْ مَائَةِ بَيْتٍ بِمَائَةِ قَافِيَةٍ "[2]، أَوْ قَوْلَهُ عَنِ القَافِيَةِ السَّائِدَةَ عِنْدَ العَرَبِ إِلَى اليَومِ بِأَنَّهَا: " لَيْسَتْ سِوَى قَيْدٍ مِنْ حَدِيدٍ نَرْبِطُ بِهِ قَرائِحَ شُعَرَائِنَا– وَقَدْ حَانَ تَحْطِيمُهُ مِنْ زَمانٍ "[3]، بَلْ إِنَّ عَبْدَ الجَبَّار دَاوُد يَرَاهَا " تَخْنُقُ أَحَاسِيسَ وَانْفِعَالاَتٍ كَثِيرَةٍ وَتُطْفِئُ شُعْلَةَ المشَّاعِرِ المتَوَهِّجَةِ حَيْثُ تَشْغَلُهُ بِالبَحْثِ عَنْهَا بَدَلًا مِنْ أَنْ يُعَبِّرَ بِحُرِّيَّةٍ عَنْ تِلْكَ الأَحَاسِيسِ المتَدَفِّقَةِ وَالشُّعْلَةِ المتَوَهِّجَةِ "[4].

وَكَانَتْ نَازِكُ المَلَائِكَةُ قَدْ أَعْلَنَتْهَا صَرِيحَةً فِي(شَظَايَا وَرَمَادْ):" إِنَّ هَذِهِ القَافِيَةَ تُضْفِي عَلَى القَصِيدَةِ لَوْنًا رَتِيبًا يُمِلَّ السَّامِعَ، فَضْلًا عَمَّا تُثِيرُهُ فِي نَفْسِه مِنْ شُعُورٍ بِتَكَلُّفِ الشَّاعِرِ، وَتَصَيُّدِهِ لِلْقَافِيَةِ. وَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنّ القَافِيَةَ المُوَحَّدَةَ قَدْ خَنَقَتْ أَحَاسِيسَ كَثِيرَةً، وَوَأَدَت مَعَانِيَ لَا حَصْرَ لَهَا فِي صُدُورِ شُعَرَاءَ أَخْلَصُوا لَهَا(...)وَالقَافِيَةُ المُوَحَّدَةُ كَانَتْ دَائِمًا هِيَ "العَائِقَ" فَمَا يَكَادُ الشَّاعِرُ يَنْفَعِلُ، وَتَعْتَرِيهِ الحَالَةُ الشِّعْرِيَّةُ(...) حَتَّى يَبْدَأَ مَحْصُولُهُ مِنَ القَوَافِي يَتَقَلَّصُ "[5]، وَهَذَا الاعْتِقَادُ، الذِّي انْتَهَتْ إِلَيْهِ الشَّاعِرَةُ مُنْذُ دَيْوانِهَا الثَّانِي، سَنَةَ 1949م، يَسْتَمِرُ بَارِزًا فِي كِتَابَاتِهَا اللَّاحِقَةِ وَإِنْ كَانَتْ أَقَلَّ حِدَّةً وَانْدِفَاعًا[6].

---

[1]– ديوان الزّهاوي، صدقي الزّهاوي، المطبعة العربيّة بمصر، د.ط، 1343هـ/1924م، ص" أ ".

[2]– الغربال، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط15، 1991م، ص116.

[3]– نفسه، ص85.

[4]– فضاء البيت الشّعريّ، عبد الجبّار داود البصريّ، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، د.ط، 1996م، ص129.

[5]– شظايا ورماد، نازك الملائكة، دار العودة، بيروت، لبنان، د.ط، 1997م، ص18.

[6]– ينظر مثلاً: قضايا الشّعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، لبنان، ط5، 2010م، ص163 وما بعدها، ويُنظر: سايكولوجيّة=

وَحَتَّى الذِّينَ عَابُوا عَلَى القَافِيَةِ حَدَّهَا الشِّعْرَ وَخَنْقَهُ بِإِيقَافِهَا تَسَلْسُلَ المَعْنَى وَانْسِيَابَهُ، لَمْ يَسْتَطِيعُوا إِلاَّ أَنْ يُبْقُوهَا مِنْ أَرْكَانِهِ التِّي تَصْنَعُ جَمَالَ وَقْعِ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ فِي الآنِ ذَاتِهِ. لِذَلِكَ لَمْ يُلاَحِظْ طَهَ حُسَيْنُ، وَهُوَ (مَعَ أَبِي العَلاَءَ فِي سِجْنِهِ) " أَنَّ القَافِيَةَ تَسَلَّطَتْ عَلَى الشِّعْرِ، فَحَكَمَتْهُ وَدَبَّرَتْ أَمْرَهُ، وَنَسَّقتْ لَفْظَهُ وَمَعْنَاهُ "[1] كَمَا فَعَلَتْ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِ المَعَرِّي التِّي يَسْتَشْهِدُ بِهَا، فَالشَّاعِرُ لَا يُعَابُ مَادَامَ لَمْ يُرْخِ العِنَانَ لِلقَوَافِي فَتَخْتَارُ لَهُ أَلْفَاظَهُ، وَتَتَحَكَّمُ فِي مَعَانِيهِ[2]. وَكَانَ بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ طَلَبَ، قَبْلَ هَذَا، أَلَّا يُكْرِهَ الشَّاعِرُ قَافِيَتَهُ عَلَى " اغْتِصَابِ الأَمَاكِنِ، وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا "[3] لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسْتَكْرَهُ فِي الأَحْوَالِ جَمِيعِهَا.

وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ عَنْ بَقِيَّةِ عَنَاصِرِ البِنْيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ لِلقَصِيدَةِ، فَهَذَا أَبُو هِلَالٍ العَسْكَرِيُّ يَرَى فِي تَخَيُّرِ الأَلْفَاظِ المُتَآلِفَةِ الأَصْوَاتِ سَبَبًا فِي حَثِّ النَّفْسِ عَلَى الطَّرَبِ وَالتَّلَذُّذِ، حَيْثُ يَقُولُ: " فَإِنْ أَمْكَنَ مَعَ ذَلِكَ مَنْظُومًا مِنْ حُرُوفٍ سَهْلَةِ المَخارِجِ كَانَ أَحْسَنَ لَهُ وَأَدْعَى لِلْقُلُوبِ إِلَيْهِ "[4]. وَيُشِيرُ هَذَا إِلَا أَنَّ النَّاقِدَ العَرَبِيَّ القَدِيمَ كَانَ فَطِنًا إِلَى أَنَّ مَبْعَثَ الجَمَالِ فِي النَّصِّ تَتَضَافَرُ عَنَاصِرُهُ مُجْتَمِعَةً لِإِقَامَتِهِ، وَفِي مُقَدَّمِهَا الإِيقَاعُ بِكُلِّ أَشْكَالِهِ. وَهُوَ ذَاتُ المَسْعَى الذِّي يَعْمَلُ شُعَرَاءُ الحَدَاثَةِ اليَومَ عَلَى تَكْرِيسِهِ رَاهِنًا وَحَقِيقَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَتَهَيَّأْ لِكُلِّ المُحَاوَلَاتِ التِّي سَبَقَتْهُمْ عَلَى امْتِدَادِ أَزْمِنَةِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، أَسْبَابُ إِنْجَازِهِ، مُسْتَفِيدِينَ فِي ذَلكَ مِنَ الدِّرَاسَات الغَرْبِيَّةِ المُتَعَدِّدَةِ فِي هَذَا المَجَالِ، وَالتِّي تُزَاوِجُ بَيْنَ التَّنْظِيرِ وَالتَّطْبِيقِ لِاسْتِخْلَاصِ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ جَمَالِيَاتٍ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ، وَبِإِجْرَاءَاتٍ وَأَدَوَاتٍ مَنْهَجِيَّةٍ وَاضِحَةِ المَعَالِمِ.

=الشّعر ومقالات أخرى، نازك الملائكة، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، مصر، د.ط، يناير2000م، صص97،96.

[1]- مَعَ أَبِي العَلاءَ فِي سِجنِهِ، طه حسين، القاهرة، د.ط، جوان1939م، ص96.

[2]- يُنظر: نفسه، ص136 وما بعدها، و نفسه، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، ط1، 2014، ص106 وما بعدها.

[3]- البيان والتّبيين، ج1، الجاحظ، م.س، ص138.

[4]- الصناعتين، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د.ط، 1419هـ، ص141.

فِي (مَبَادِئِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ)، يُقَرِّرُ رِيتْشارْدْز أَنَّ " الصَّوْتَ فِي مُعْظَمِ الحَالَاتِ هُوَ مِفْتَاحُ التَّأْثِيرَاتِ الأُخْرَى فِي الشِّعْرِ "[1]، إِذْ هُوَ أَوَّلُ أَثَرٍ يَسْتَقِرُّ عِنْدَ المُتَلَقِّي اسْتِقبَالًا وَتَمَثُّلًا، فَـ" التَّنوُّعُ الذِّي تُقَدِّمُهُ المتَغَيِّرَاتُ الإِيقَاعِيَّةُ لِلْوَزْنِ يُحَطِّمُ آلِيَّةَ الإِدْرَاكِ وَيَكُونُ مُقَوِّمًا أَسَاسِيًّا فِي التَّأْثِيرِ الجَمَالِيِّ العَامِّ لِلنَّصِّ، إِنَّ النِّظَامَ الوَزْنِيَّ يَتَفَاعَلُ لَيْسَ فَقَطْ مَعَ تَمْثِيلِهِ وَتَفْسِيرِهِ، بَلْ مَعَ عَنَاصِرَ مِنَ المسْتَوَيَاتِ الأُخْرَى مِثْلَ المسْتَوَى المعْجَمْيِّ أَيْضًا. فَالوَضْعُ الوَزْنِيِّ وَالشُّيُوعُ يُعَدِّلَانِ- دُونَ مَدْعَاةٍ لِلتَّسَاؤُلِ – المَعْنَى المعْجَمِيّ فِي الشِّعْرِ. وَالنُّظُمُ الوَزْنِيَّةُ لَا تُؤَثِّرُ فَقَطْ عَلَى المسْتَوَى المَعْجَمِيِّ، بَلْ إِنَّهَا تَمِيلُ حَتَّى إِلَى أَنْ تُحَمِّلَ نَفْسَهَا بِقِيمَةٍ دَلَالِيَّةٍ "[2].

وَالوَزْنَ الشِّعْرِيَّ عِنْدَ جَابِرْ عُصْفُورْ مَزِيجٌ مِنْ عَنَاصِرَ مُتَآلِفَةٍ تَدْخُلُ فِيهَا الكَلِمَاتُ فِي عَلَاقَاتٍ صَوْتِيَّةٍ، دَلَالِيَّةٍ وَنَحْوِيَّةٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَمِنْ ثَمَّ " فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِدَّ الوَزْنُ الشِّعْرِيُّ فَاعِلِيَّتَهُ مِنْ أَدَاةِ صِيَاغَتِهِ ذَاتِهَا أَيْ مِنَ اللُّغَةِ، وَلَيْسَ مِنْ مُجَرَّدِ مُحَاكَاةِ فَنٍّ آخَرَ كَالمُوسِيقَى"[3]. وَقَدْ أَشَارَ فَلَاسِفَتُنَا المُتَقَدِّمُونَ إِلَى جَوَانِبَ تَقَاطُعِ المُوسِيقَى بِالشِّعْرِ مُفَصِّلِينَ الحَدِيثَ فِيهَا، ذَاكِرِينَ خَصَائِصَ كُلِّ فَنٍّ، وَأَنَّ المُتَمَعِّنِ فِي المُوسِيقَى سَيَتَبَيَّنُ لَهُ " أَنَّهَا تُشَارِكُ أَصْحَابَ عِلْمِ اللُّغَةِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ وَصِنَاعَةَ البَلَاغَةِ وصِنَاعَةَ الشِّعْرِ اللَّتَيْنِ هُمَا جُزْءَانِ مِنْ صِنَاعَةِ المَنطِقِ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ "[4].

عَلَى أَنَّ المُوسِيقَى الشِّعرِيَّةَ، وإِنْ كانَتْ تَسْتَعِيرُ مِنَ الأَلحَانِ بَعْضَ خَصَائِصِهَا، فَإِنَّهَا تُدخِلُ علَيْها مِنْ إِمْلاءَاتِها الذَّاتِيَّةِ ما يَجْعلُها تَتَفَرَّدُ عَنْها، ويَسكُبُ الشَّاعِرُ فِيهِا مِنْ خَبَايَا الرُّوحِ مِمَّا لاَ يُفَسَّرُ مِن نَغَماتٍ ووَجدٍ، فَيَلجَأُ إِلَى مُزاوَجَةِ نَبْضِ المُوسيقَى بِنَبْضِ اللُّغَةِ

[1]- مبادئ النّقد الأدبيّ والعلم والشّعر، أ.أ.ريتشاردز، م.س، ص188.

[2]- بارتون جونسون، (دراسة يوري لوتمان البنيوية للشعر) تر: سيّد البحراوي، م.س، ص23.

[3]- مفهوم الشّعر – دراسة في التّراث النّقديّ، جابر عصفور، م.س، صص303،302.

[4]- المُوسيقى الكبير، أبو نصر محمد الفارابي، م.س، ص175. ويُنظر: هامش رقم:3، الصّفحة نفسها: " قولُه:(أنّها تُشارك أصحاب علم اللّغة...) يعني: أنّ صناعة الموسيقى النّظريّة تُشارك علم اللّغة، مِن أَهل كلّ لسانٍ فِي مناسباتِ التّلحين والإيقَاعِ وتقطِيعِ أجزاءِ اللَّحن والكلامِ أجناسًا مُلائمةً موزُونَةً ".

لِتَكتَمِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُورَةُ الإِبْداعِ الفَذِّ. لِذَلكَ نَقُولُ: إِنَّ " الإِيقَاعَ فِي الشِّعرِ ظاهِرَةٌ مِن نَوعٍ مُختَلِفٍ، فإِيقَاعِيَّةُ الشِّعْرِ قَدْ تَعْنِي التِّكرَارَ الدَّورِيَّ لِعَناصِرَ مُختَلِفَةٍ فِي ذَاتِها مُتشَابِهَةٍ فِي مَواقِعِها وَمَواضِعِها مِن العَملِ، بُغْيَةَ التَّسوِيَةِ بيْنَ ما لَيْسَ بِمُتَسَاوٍ، أَو بِهَدفِ الكَشْفِ عَنِ الوَحْدَةِ مِن خِلاَلِ التَّنوُّعِ، وقَدْ تَعنِي تِكرَارَ المُتشَابِهِ بُغيَةَ الكَشْفِ عَنِ الحَدِّ الأَدنَى لِهذَا التَّشَابُهِ، أَوِ حتَّى إِبْرَازِ الوَحدَةِ مِن خِلاَلِ التَّنوُّعِ "[1]، فالشَّاعِرُ يَسْتَغِلُّ كُلَّ ما يُتِيحُهُ لَهُ قَامُوسَا اللُّغَةِ والمُوسِيقَى لِيُنْتِجَ إِيقَاعَاتٍ نُصُوصَهِ، بَلْ إِنَّ النَّصَّ الواَحدَ مِنْهَا قَد يَحمِلُ مِن سِمَاتِ التَّمَيُّزِ التِّي تَجعَلُهُ يَفْرَقُ عَنِ الثَّانِي.

إِنَّ الإِيقَاعَ، فِيمَا نَرَى، يَنطَلِقُ، فِي المَقَامِ الأَوَّلِ، مِنَ اللُّغَةِ ذَاتِهَا، بِهَا يَبْنِي أَصْوَاتَهُ وَيُنَوِّعُ رَنَّاتِهِ، فَاللُّغَةُ وَإِنْ كَانَتْ تَلْتَقِي مَعَ المُوسِيقَى فِي خَاصِيَّةِ الإِيقَاعِ، فَإِنَّهَا تَفْرُقُ عَنْهَا فِي مَادَّةِ تَشْكِيلِهِ وَإِنْتَاجِهِ القَائِمَةِ عَلَى الأَلْفَاظِ وَحُرُوفِهَا، وَكَيْفِيَةِ رَصْفِهَا لِتَتَجَانَسَ فَيُحْدِثَ احْتِكَاكُ مَخَارِجِهَا، بِتَنوُّعِهِ وَاخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِ، تِلْكَ المُتعَةَ التِّي تَبْدأُ صَوْتًا " يَلْفِتُ انْتِبَاهَ القَارِئِ، وَيُمَثِّلُ جَانِبًا كَبِيرًا مِنَ التَّأْثِيرِ الجَمَالِيِّ لِلْفَنِّ، وَهَذَا التَّشْكِيلُ الصَّوْتِيُّ تَشْتَرِكُ فِيهِ كُلُّ الأَعْمَالِ الأَدَبِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ فِي الشِّعْرِ أَكثَرُ حُضُورًا وَخُضُوعًا لِلنِّظَامِ... فَالشِّعرُ بِنَاءٌ صَوْتِيٌّ إِيقَاعِيٌّ، يَتَأَلَّفُ مِنْ تَكْرارٍ مُنْتَظِمٍ لِأَنْسَاقٍ صَوْتِيَّةٍ – مَقَاطِعُ، نَبَرَاتٍ، صِيَغٌ وَزْنِيَّةٌ وَنَحْوِيَّةٌ، وَتَرَاكِيبُ لُغَوِيَّةٌ – مَعَ إِدْخَالِ تَنْوِيعَاتٍ عَلَى هَذَا النِّظَامِ تَحُولُ دُونَ رَتَابَتِهِ، فَوُجُودُ الإِيقَاعِ يُعْتَبَرُ مِنْ أَهَمِّ مَا يُمَيِّزُ لُغَةَ الشِّعْرِ؛ لِأَنَّ الشِّعْرَ يَكْتَسِب خُصُوصِيَّتَهُ بِتَشْكِيلِهِ الصَّوْتِيِّ، الأَمْرُ الذِّي يَمْنَحُ كُلَّ عَنَاصِرِهِ الصَّوْتِيَّةِ قِيمَةً خَاصَّةً وَذَاتِيَّةً "[2].

لِذَا يَجِبُ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي أَذْهَانِنَا الاخْتِلَافُ البَيِّنِ فِي كَيْفِيَّةِ انْبِنَاءِ الكَلَامِ الفَنِّيِّ وَغَيْرِ الفَنِّيِّ(العَادِيِّ)، إِنَّ عَلَاقَةَ الكَلِمَةِ بِالصَّوْتِ فِي الشِّعْرِ أَقْوَى وَأَخَصُّ، " وَيُمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ تِلْكَ العَلَاقَةَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي،(...)، فَفِي البِدَايَةِ تَنْقَسِمُ الكَلِمَاتُ إِلَى أَصْوَاتٍ، وَهُنَا

[1]– تحليل النّصّ الشّعريّ، يوري لوتمان، م.س، صص70،71.

[2]– في التّحليل العروضيّ لأبنيَةِ اللّغة وتركيبِها، ممدوح عبد الرّحمن الرّمالي، دار المعرفة الجامعيّة للطّبع والنّشر والتّوزيع، ص93 بتصرُّف يسير.

يَنْتَقِلُ المَعْنَى إِلَى أَصْغَرِ وَحْدَةٍ كَلَامِيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ وَمُمَيَّزَةٍ، نَعْنِي الفُونِيمَ *phonème*، وَذَلِكَ بِحُكْمِ أَنَّ تَقْسِيمَ الكَلِمَاتِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ لَا يُلْغِي وُجُودَهَا جَنْبًا إِلَى جَنْبِ مَا تَوزَّعتْ إِلَيْهِ مِن أَصْوَاتٍ "[1].

تَتَأَتَّى جَمَالِيَّةَ الشِّعْرِ، إِذَنْ، مِنْ هَذَا الزَّخَمِ الحَاصِلِ فِي القَصِيدةِ، وَالتَّدَاخُلِ الهَنْدَسِيِّ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِهَا مِن أَدَقِّ جُزَيْئاتِهَا(الحَرَكَةُ، وَالسُّكُونُ، وَالحَرْفُ) إِلَى أَكْبَرِهَا(اللَّفْظُ، وَالجُمْلَةُ، وَالنَّصُّ/الخِطَابُ)، إِذِ " الكَلِمَةُ فِي الشِّعْرِ تَنْشَطِرُ إِلَى أَجْزَاءَ، بَدْءًا مِنَ الصَّوتِ وَوُصُولًا إِلَى الصِّيغَةِ، وَلِكُلٍّ مِنْ هَذِهِ الأَجْزَاءِ قِيمَتُهُ المُسْتَقِلَّةُ، وَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ (الكَلِمَةَ) تتَجَزَّأُ وَلَا تَتجَزَّأُ فِي ذَاتِ الوَقْتِ، وَفِي هَذَا المَقَامِ تَلْعَبُ التَّرَدُّدَاتُ الوَزْنِيَّةُ دَوْرًا حَاسِمًا "[2]، وَكُلُّ هَذَا مُجْتَمِعًا، يُرَتِّبُ إِيقَاعَ القَصِيدَةِ، وَيُؤَثِّثُ فَضَاءَاتِهَا مَبْنًى وَمَعْنًى.

فَالمُوسِيقَى فِي الشِّعْرِ " تَزِيدُ مِنْ انْتِبَاهِنَا، وَتُضْفِي عَلَى الكَلِمَاتِ حَيَاةً فَوْقَ حَيَاتِهَا، وَتَجْعَلُنَا نُحِسُّ بِمَعَانِيهِ كَأَنَّهَا تُمَثَّلُ أَمَامَ أَعْيُنِنَا تَمْثِيلًا عَمَلِيًّا وَاقِعِيًّا. هَذَا إِلَى أَنَّهَا تَهَبُ الكَلَامَ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ العَظَمَةِ وَالجَلَالِ، وَتَجْعَلُهُ مَصْقُولًا مُهَذَّبًا تَصِلُ مَعَانِيهِ إِلَى القَلْبِ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِهِ "[3]، لِذَلِكَ ذَهبَ صَلَاحُ فَضْل إِلَى أَنَّهُ " عَلَى الصَّوْتِ أَنْ يَبْدُوَ كَمَا لَوْ كَانَ صَدًى لِلمَعْنَى "[4]، فَنَحْنُ لَا نَكْتَفِي بِسَمَاعِ أَصْوَاتِ القَصِيدِ وَحَسْبَ بَلْ نَتَمَثَّلُهَا صُورَةً مُفْعَمَةً بِالحَيَاةِ حِينًا، وَمُتَجَلِّلَةً بِرَهْبَةِ السُّكُونِ وَالصَّمْتِ حِينًا آخَرَ. نَقْرَأُ فِي تَشَكُّلِ حُرُوفِهَا صَرْخَةَ أَلَمٍ، أَو نَشْوَةَ فَرَحٍ، قَدْ مَضَى الزَّمنُ بِصَاحِبِها، فَطَوَى أَيَّامَهُ وأَعوَامَهُ، لكِنَّ صَدَى صَوتِهِ يَأْبَى أَنْ يُفَارِقَ مَوطِنَ مِيلَادِهِ:القَصِيدَةَ.

فَعَلَى النَّاظِرِ فِي وَقْعِ الحُرُوفِ وَالكَلِمَاتِ أَنْ تَتَّسِعَ رُؤْيَتُهُ إِلَى فَضَاءَاتِ أَشْمَلَ لِمَعنَى

[1]- تحلِيل النَّصَّ الشّعريّ، يُوري لَوتمان، م.س، ص82.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص14.

[4]- نظريّة البنائيّة في النّقد الأدبيّ، صلاح فضل، م.س، ص392.

الإِيقَاعِ وَأَثَرِهِ فِي الدَّلَالَةِ، لِيَكُونَ بِمَقْدُورِهِ الإِحَاطَةُ بِعَنَاصِرِ الإِبْدَاعِ كَامِلَةً وَهُوَ يُقَارِبُ خَبَايَاهَا، وَيَسْبُرُ أَسْرَارَهَا، كَوْنَ " هَذِهِ المُؤَثِّرَاتُ الصَّوْتِيَّةُ النَّوْعِيَّةُ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِّ التَّشْكِيلِ الإِيقَاعِيِّ للنَّصِّ وَحَسْبَ، لَكِنَّها تُسْهِمُ فِي تَشْكِيلِ المَعْنَى الدَّلالِيِّ الذِّي يَطرَحُهُ النَّصُّ الشِّعْرِيُّ.

وَلَا نَقِفُ عِنْدَ التَّطَوُّرِ التَّارِيخِيِّ لِهَذِهِ المُؤَشِّرَاتِ الصَّوتِيَّةِ النَّوعِيَّةِ، فَهَذَا يُعْنَى بِهِ الدَّرْسُ اللُّغَوِيُّ. لَكِنَّنَا نُعْنَى بِمَفْهُومِهَا وَوَظِيفَتِهَا الدَّلَالِيَّةِ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ "[1].

لِذَلِكَ فَإِنَّ " التَّسَاؤُلَ فِي الإِيقَاعِ اليَوْمَ هُوَ تَسَاؤُلٌ فِي كَيْنُونَةِ الخِطَابِ "[2]، إِذْ إِنَّ إِدْرَاكَهُ مُنْفَصِلًا عَنْهُ، دَخِيلًا عَلَيْهِ كَمَا كَانَ الأَمْرُ مَعَ الشُّعَرَاءِ قَدِيمًا، يُوَزِّعُونَ الكَلِماتِ وَأَنْغَامَهَا عَلَى البُحُورِ بِطَرِيقَةٍ آلِيَّةٍ، هِيَ إِلَى الجَفَافِ والجُمُودِ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى الحَرَكِيَّةِ وَالتَّفَاعُلِ، بَلْ صَارَ الإِيقَاعُ فِي صُلْبِ عَمَلِيَّةِ بِنَاءِ المَعْنَى " يَقُومُ جَمَالُهُ عَلَى لَذَّة انْتِظَارِ مَا نَسْتَبِقُ حُدُوثَهُ "[3]، وَلَيْسَ عَلَى آثَارِ وَقْعِ نَقَرَاتِ الأَوْزَانِ فِي السَّمْعِ مَفْصُولَةً عَنِ جَسَدِ القَصِيدَةِ، نَكَدُّ فِي الوُصُولِ إِلَيْهِ عَبْرَ اللُّغَةِ وَتَشَظِّيَاتِهَا الوَزْنِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ، وَسَواءً تَيَسَّرَ لَنَا ذَلِكَ أَمْ تَعَذَّرَ، فَإِنَّ المُتْعَةَ تَكونُ قَد تَحَقَّقَتْ بِمُجَرَّدِ أَنْ (ضَمِنَ) النَّصُّ اسْتِهْوَاءَهُ لَكَ، وَدَوَامَ ارْتِبَاطِكَ بِهِ.

هَكَذَا رَاحَ الإِيقَاعُ اليَوْمَ يَتَعدَّدُ وَيَتَنَوَّعُ " بِحَيْثُ أَخَذَ يُفِيدُ مِنْ أَقْصَى إِمْكَانَاتِهِ وَطَاقَاتِهِ التِّي أَتَاحَتْهَا لَهُ القَصِيدَةُ الحَدِيثَةُ، وَانْفَضَّتْ الشَّرَاكَةُ الارْتِهَانِيَّة التَّقْلِيدِيَّةُ بَيْنَه وَبَيْنَ الوَزْنِ الشِّعْرِيِّ، إِذْ تَجَاوَزَ الإِيقَاعُ الحدُودُ الآمِنَةَ لِلوَزْنِ وانْفتَحَ عَلَى فَضَاءَاتِ إِيقَاعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، مِثْلَ الإِيقَاعْ البَصَرِيِّ، الإِيقَاعِ السَّمْعِيِّ، إِيقَاعِ البَيَاضِ، إِيقَاعِ الفِكْرِة، إِيقَاعِ السَّرْدِ وَإِيقَاعِ الحِوَارِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ لَافِتَةِ الإِيقَاعِ الدَّاخِلِيِّ "[4]، وَهُوَ مَا سَنُحَاوِلُ

---

[1]- مِن الصّوتِ إِلَى النَّصّ، مراد عبد الرّحمن مبروك، م.س، ص27.

[2]- " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص60.

[3]- تمهيد في النّقد الأدبيّ، روز غريب، م.س، ص107.

[4]- شعريّة الإيقاع السّمعي ونبوءَة الرّؤية الشّعريّة، محمّد صابر عبيد، م.س، ص6.

تَبَيُّنَ وُجُودِهُ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَفِي أَيِّ شَكْلٍ مِنَ الأَشْكالِ تَبَدَّى وَظَهرَ.

6- عَلَى إِيقَاعِ القَدِيمِ وَالمُوَلَّدِ:

إِذَا نَحْنُ أَلْقَيْنَا نَظْرَةً عَجْلَى فِي شِعْرِ القُرُونِ الأُولَى، قُرُونِ مَا قَبْلَ الإِسْلَامِ، وَجَدْنَا " أَنَّ ظَاهِرَة المُوسِيقيَّة فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ تُعْزَى فِي أَغْلَبِ عَنَاصِرِهَا إِلَى تِلْكَ الأُمِّيَّةِ حِينَ كَانَ الأَدَبُ أَدَبَ الأُذُنِ لَا أَدَبَ العَيْنِ، وَحِينَ اعْتَمَدَ القَوْمُ عَلَى مَسَامِعِهِمْ فِي الحُكْمِ عَلَى النَّصِّ اللُّغَوِيِّ، فَاكْتَسَبَت تِلْكَ الآذَان المِرَانَ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الفُرُوقِ الصَّوْتِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، وَأَصْبحَتْ مُرْهَفَةً تَسْتَرِيحُ إِلَى كَلَامٍ لِحُسْنِ وَقْعِهِ أَوْ إِيقَاعِهِ، وَتَأْبَى آخَرَ لِنُبُوِّهِ، أَوْ لِأَنَّهُ كَمَا يُعَبِّرُ أَهْلُ المُوسِيقَى نَشَازٌ "[1]، تَمُجُّهَا الآذَانُ فَلَا تَسْتَسِيغُهَا.

وَقَدْ تَطَوَّرَتْ هَذِهِ الخَاصِّيَةُ عِنْدَ الإِنْسَانِ العَرَبِيِّ حَتَّى صَارَتْ سِمَةً اصْطَبَغَ بِهَا فَنُّهُ، فَاجْتَهَدَ المُبْدِعُونَ فِي طُرُقِ تَشْكِيلِهَا وَتَوْظِيفِهَا، إِذْ لَمْ يَكْتَفُوا بِالأَشْكَالِ الإِيقَاعِيَّةِ المَعهُودةِ فِي زَمَانِهِمْ، وَالمتَوَارَثَةُ عَمَّنْ قَبْلَهُمْ، فَاخْتَرَعُوا لَهُمْ مَا يُوَائِمَ مُتَطَلَّبَاتِ عَصْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَحْصُورَةً فِي صُورَةٍ صَوْتِيَّةٍ بَسِيطَةٍ " تَتَرَدَّدُ عَلَى الأَسْمَاعِ فَتُكْسِبُهَا المِرَانَ وَعَادَةَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الكَلَام المُشتَمِلِ عَلَى الإِيقَاعِ وَالنَّغَمِ "[2]، فَأَمْكَنَهَا ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَتَمَاشَى مَعَ الرِّقَةِ وَاللِّينِ اللَّذَيْنِ وَسَمَا الشِّعْرَ العَرَبِيَّ فِي عُمُومِهِ بِفِعْلِ مُؤَثِّرَاتِ الحَضَارَةِ وَالتَّمَدُّنِ. لِذَا، قَدْ يَكُونُ أَثَرُ العَصْرِ، وَطَبِيعَةُ الشِّعْرِ فِيه هِيَ الدَّافِعَ إِلَى الاهْتِمَامِ بِالجَانِبِ الصَّوْتِيِّ فِي القَوْلِ عُمُومًا، وَالشِّعْرِيِّ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ.

فَلَيْسَ بِدْعًا أَنْ نَجِدَ شُعَرَاءَ القَرْنِ الثَّانِي مُتَمَاهِينَ مَعَ هذَا النَّهْجِ، مُتَأَثِّرِينَ بِبَيْئَاتِهِمْ وَمُجْتَمَعَاتِهِمْ، مَيَّالِينَ إِلَى البُحُورِ القَصِيرَةِ، مُبْتَعِدِينَ عَنِ الأَوْزَانِ المعَقَّدَةِ الطَّوِيلَةِ، مِنْ غَيْرِ تَمَلُّصٍ تَامٍّ مِنَ القَدِيمِ، فَقَدْ أَحْيُوا أَوْزَانًا كَانَتْ نَادِرَةً فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ وَالإِسْلَامِيِّ بِحَيْثُ

[1]- دلَالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1976م، ص195.

[2]- نفسه، ص196.

يُعْتَبَرُ النَّظْمُ فِيهَا فِي هَذَا العَصْرِ ابْتِكَارًا فِي الوَزْنِ بِلَا جِدَالٍ. وَيَقُولُ أَبُو العَلَاءِ المعَرِّيُّ إِنَّ المُوَلَّدِينَ اسْتَحْدَثُوا فِي هَذَا العَصْرِ المُقْتَضَبَ وَالمُضَارَعَ، وَأَنَّ الخَلِيلَ سَجَّلَهُمَا وَلَيْسَ لَهُمَا أَصْلٌ فِي الشِّعْرِ القَدِيمِ[1].

يَرَى إِبْرَاهِيمُ أَنِيسٌ أَنَّ " الشَّاعِرُ العَرَبِيَّ لِرَغْبَتِهِ فِي إِطَالَةُ القَصِيدَةِ، وَشِدَّةِ اعْتِزَازِهِ بِمُوسِيقَاهَا قَدْ أَحَلَّ نَفْسَهُ مِنْ وِحْدَةِ المَعْنَى فِيهَا، مُكْتَفِيًا بِوِحْدَةِ الوَزْنِ وَالقَوَافِي، وَلَمْ تُسْعِفْهُ أَلْفَاظُ اللُّغَةِ وَكَلِمَاتُهَا فِي الجَمْعِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الوِحدَتَيْنِ "[2]. وَإِذْ لَا أَحَدَ يُنْكِرُ أَهَمِّيَّةَ المُوسِيقَى فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وَلَكِنَّ كَثِيرِينَ[3] يُخَالِفُونَ النَّاقِدَ هُنَا، وَيَرَوْنَ بِأَنَّ قَضِيَّةَ تَعَدُّدِ المَعْنَى فِي النَّصِّ الوَاحِدِ مُتَّصِلَةٌ بِأُمُورَ عِدَّةٍ، غَيْرَ الاعْتِدَادِ بِالنَّغَمِ وَالانْشِغَالِ بِجَمَالِيَاتِهِ، مِنْ ذَلِكَ: طَبِيعَةُ النَّصِّ الجَاهِلِيِّ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، إِضَافَةً إِلَى عَوَامِلَ مُرْتَبِطَةٍ بِالبِيئَةِ وَالمُجْتَمَعِ، وَشَكْلُ القَصِيدَةِ وَالمُشَافَهَةُ وَالسَّمَاعُ، وَغَيْرُهَا مِنَ الضَّوَابِطِ التِّي (حَتَّمَتْ) عَلَى الشَّاعِرِ العَرَبِيِّ هَذَا التَّعَدُّدَ.

عَلَى أَنَّ فِي اسْتِنْتَاجِ إِبْرَاهِيمِ أَنِيس هَذَا شَيْئًا مِنَ الصِّحَّةِ التِّي تَدْعَمُهَا تَجْرِبَةُ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ، إِذْ يَبْدُو أَنَّهُمْ وَاجَهُوا فِعْلًا صُعُوبَةً فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الاخْتِيَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالاخْتِيَارَاتِ الوَزْنِيَّةِ – حَتَّى لَا نَقُولَ الإِيقَاعِيَّةَ تَحَرُّزًا – فَالفَاعِلِيَّةُ الشِّعْرِيَّةُ تَتَحَدَّدُ بِدَرَجَةِ التَّوَتُّرِ وَالصِّرَاعِ النَّاتِجِ عَنْ هذَا التَّصَادُمِ وَالالْتِحَامِ، إِذْ " عِنْدَمَا يَتَعَارَضُ العَرُوضُ وَالتَّرْكِيبُ، يَكُونُ الفَوْزُ دَائِمًا لِلعَرُوضِ، وَيَجِبُ عَلَى الجُمْلَةِ أَنْ تَخْضَعَ لمقْتَضَيَاتِهِ "[4] عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ غْرَامُونْ، وَهُوَ الأَمْرُ الذِّي كَانتْ العَرَبُ كَثِيرًا مَا تُرَاعِيهِ فِي العُدُولِ بِالكَلِمَاتِ عَنْ مَوَازِينِهَا المَأْلُوفَةِ لِاقْتِرَانِهَا بِمَا يُنَاظِرُهَا فِي الوَزْن، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ اغْتُفِر فِيها مُخَالَفَةُ

[1]– يُنظر: اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرنِ الثّاني الهجريّ، محمّد مصطفَى هدَّارة، دار المعارف، مصر، دط، 1963م، ص540.

[2]– دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، م.س، ص200.

[3]– ينظر على سبِيلِ المِثال:ما يُسمِّيه طه حسين "الوحدَة المعنويّة":حديث الأربعاء، م.س، صص30،31، وما سمّاه يحيى الجبوري " وحدةُ الموضوع والتّجربَةُ الشّعوريَّة": الشّعر الجاهليّ خصائصهُ وفُنونُه، مؤسسة الرّسالة، بيرُوت، ط5، 1407هـ/1986م، صص241، 242.

[4]– بيتُ الشِّعرِ الفرنسِيُّ، مُورِيس غرامُون، يُنظر: بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، ص58. والنّصّ الأصليّ هو: «Quand il ya conflit entre le mètre et la syntaxe, c’est toujours le mètre qui l’emporte, et le mètre doit ce plier a ces exigences».

القِيَاسِ[1]، حَتَّى يَسْتَقِيمَ الإِيقَاعُ، وَتَرْتَاحَ الأُذُنُ لِسَمَاعِهِ.

وَيَبْدُو أَنَّ شَيْئًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا هُوَ الذِّي فَرَضَ عَلَى الشَّاعِرِ العَرَبِيِّ عُمُومًا، وَشَاعِرِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ عَلَى الخُصُوصِ تَكْرِيسَ مَسَارِ الأَمَوِيِّينَ فِي التَّجْدِيد، الذِّي شَهِد النُّضْجَ التَّامَّ فِي الأَوْزَانِ بَعِدَ أَنِ " اسْتَقَلَّ عَنِ المُوسِيقَى شَيْئًا فَشَيْئًا وَقَلَّ فِيهِ تَأْثِيرُ الغِنَاءِ حَتَّى صَارَ يُنْشَدُ إِنْشَادًا "[2]، فَمَضُوا يَنْظِمُونَ عَلَى هُدَاهُمْ فِي الأَوْزَانِ الخَفِيفَةِ، وَتَجْزِئَةِ الأَوْزَانِ الطَّوِيلَةِ المُعَقَّدَةِ، وَوَزْنِ المُجْتَثِّ، وَإِلَى جَانِبِهِ ثَلَاثَةَ أَوْزَانٍ جَدِيدَةٍ، هِيَ وَزْنُ المُضَارَعِ، وَالمُقْتَضَبِ، وَالمتَدَارَكِ أَوِ الخَبَبِ[3]، وَلَمْ يَلْبَثِ الشَّاعِرُ العَبَّاسِيُّ أَنْ حَاوَلَ النُّفُوذَ إِلَى تِلْكَ الأَوْزَانِ[4] بَحْثًا عَنِ التَّنْوِيعِ وَمُسَايَرَةً لِلعَصْرِ، وَالتَّمَيُّزِ عَنْ بَقِيَّةِ الشُّعَرَاءِ فِي شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ مُقَارَعَةِ التَّقْلِيدِ وَأَنْصَارِهِ. يَقَولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مِنَ المُضَارَعِ:

أَيَا عُتْبُ مَا يَضُـــــرُّ *** كْ أَنْ تُطْلِقِي صِفَـــادِي[5].

اسْتَمَرَّ الشُّعَرَاءُ فِي مُحَاوَلَاتِهِمْ اسْتِحْدَاثَ أَوْزَانٍ جَدِيدَةٍ، وَلَعَلَّ كَثِيرًا مِمَّا أَنْجَزُوهُ لَمْ تَحفظْهُ الذَّاكِرَةُ إِؤمَّا لِلتَّعَصُّبِ الشَّدِيدِ لِلقَدِيمِ، أَوْ خَوْفًا مِنْ ضَيَاعِ الحُظْوَةِ عِنْدَ أَوْلِيَاءِ الأَمْرِ، خُصُوصًا إِنْ كَانُوا تَقَدَّمُوا أَقْرَانَهُمْ، وَاكْتَسَبُوا المَكَانَةَ وَالجَاهَ الذِّي صَنَعَ جُزْءً مِنْهُ إِجَادَتُهُمْ الشِّعْرَ عَلَى طَرِيقَةِ المُتَقَدِّمِينَ، أَوْ لَعَلَّ مُحَاوَلَاتِهِمْ تِلْكَ مَاتَتْ فِي مَهْدِهَا لِافْتِقَارِهَا لِلْجِدَّةِ وَالجِدِّيَّةِ، لِذَا بَقِيَ عَمَلُهُمْ ذَاكَ يَدُورُ فِي فَلَكِ الأَوْزَانِ الخَلِيلِيَّةِ، وَالمُهْمَلَةِ مِنْهَا عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ. وَيُقَالُ " إِنَّ شُعَرَاءَ القَرْنِ الثَّانِي قَدِ اسْتَحْدَثُوا وَزْن الخبَبِ أَوِ المتَدَارَكِ أَوْ دَقِّ

[1]- ينظر:كشف المغطىّ من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ، الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور، نشر الشّركة التّونسية للتّوزيع والشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، 1976م، ص310.

[2]- في الأدب الجاهلي، طه حسين، م.س، ص320،321.

[3]- يُنظر: ملامح التّجدِيد في موسيقى الشعر العربي، عبد الهادي عبد الله عطية، بستان المعرفة لطبع ونشر وتوزيع الكتب، مصر، د.ط، 1422هـ /2002م، ص30، ويُنظر: العصر العبَّاسيُّ الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط8، د.ت، ص193، وَينظر: اتّجاهات الشّعر العربيّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، ص549.

[4]- العصر العبَّاسيُّ الأوَّلُ، شوقي ضيْف، م.س، ص194.

[5]- الدّيوان، قصيدة رقم:211، ص231.

النَّاقُوسِ – وَهُوَ عَلَى وَزْن فَعُلْ – كَقَوْل أَبِي العَتَاهِيَّةِ:

هَمُّ القَــاضِي بَيْتٌ يُطْرِبْ *** قَالَ القَــاضِي لَمَّا عُوتِبْ.
مَا فِي الدُّنْيَــا إِلَّا مُذْنِبْ *** هَذَا عُذْرُ القَــاضِي وَاقْلِبْ."[1]

سيَدْفَعُ خُضُوعُ الشُّعَرَاءِ لِلتَّقْلِيدِ العَرُوضِيِّ المُسَيْطِرِ، بَعْضَهُمْ إِلَى البَحْثِ عَنْ سُبُلِ الخَلَاصِ مِنْ "عِبْءٍ" يَرَوْنَهُ تَسَلَّطَ عَلَى رُوحِ المُبَادَرَةِ وَالاسْتِكْشَافِ فِيهِمْ، إِذْ " وَصَل الشَّكْلُ الشِّعْرِيُّ عِنْدَ البَعْضِ بِنَتِيجَة التَّكْرَارِ وَاسْتِخْدَامِ الكَلِمَاتِ آلِيًّا، إِلَى حَالَةٍ مِنَ الثَّبَاتِ صَارَ مَعَهَا نِظَامًا. وَهَذَا أَدَّى بِدَوْرِهِ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ الشَّاعِرُ أَسِيرًا يَتَحرَّكُ فِي قَفَصِ هَذَا النِّظَامِ. صَارَ النِّظامُ هُوَ الشَّاعِرَ – صَارَ هُوَ الذِّي يَكْتُبُ القَصِيدة لَا الشَّاعِرُ. فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَعُدْ إِلَّا صَدًى أَوْ رَجْعًا، أَوْ جِهَازَ اسْتِقْبَالٍ وَإِيصَالٍ "[2]، يَلْتَقِطُ المَعْنَى وَيَصُبُّهُ فِي القَوَالِبِ الجَاهِزَةِ لِيَخْرُجَ الشِّعْرُ، كُلُّ الشِّعْرِ، عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ وَفِي شَكْلٍ رَتِيبٍ.

لَكِنْ مِنْ غَيرِ المَنْطِقِيِّ الاعْتِقَادُ بِأَنَّ العَرَبِيَّ لَمْ يُفَكِّرْ، وَمِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالشِّعْرِ، فِي العَمَلِ عَلَى تَطْوِيرِ قَصِيدَتِهِ، وَالاشْتِغَالِ عَلَى جَوَانِبَ مُخْتَلِفَةٍ مِنهَا، شَكْلاً وَمَضْمُونًا. وَلَعَلَّ فِي الصُّورَةِ المُكْتَمِلَةَ النُّضْجِ التِّي وَصَلَ بِهَا الشِّعْرُ الجَاهِلِيُّ إِلَيْنَا، أَوْضَحُ مِثَالٍ عَلَى خُضُوعِ النُّصُوصِ الأُولَى لِأَزْمِنَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ مِنَ التَّجْرِيبِ وَالمُحَاوَلَةِ وَالمُحَاوَرَةِ حَتَّى أَفْضَتْ إِلَى (القَصِيدةِ المِثَالِ). فَإِذَنِ، تَوَاصُلُ العَمَلِ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ فِي العُصُورِ المُوَالِيَةِ، أَمْرٌ لَيْسَ عَادِيًّا فَقَطْ، بَلْ هُوَ، فِي مَجَالِ الإِبْدَاعِ، أَكْثَرُ مِنْ ضَرُورةٍ.

هَكَذَا مَالَ الشُّعَرَاءُ العَبَّاسِيُّونَ، كَمَا سَابِقِيهِمْ، إِلَى البَحْثِ فِي فَضَاءَاتِ الإِيقَاعِ المُمْكِنَةِ، لَا هَادِيَ لَهُمْ فِي شِعَابِهِ الوَعِرَةِ غَيْرُ المَوْهِبَةُ الفَرِدِيَّةُ، وَمَعَالِمُ السَّلِيقَةِ النَّقِيَّةِ، " فَابْتَكَرُوا أَوْزَانًا جَدِيدَةً ذَكَرَهَا الخَلِيلُ فِعْلًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّ العَرَبَ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَلَا

[1]– اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرنِ الثّاني الهجريّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، ص540، وينظر: العصر العباسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، ص195.

[2]– مقدّمة للشّعر العربيّ، أدونيس، م.س، صص94،95.

فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ قَدْ نَظَمُوا فِيهَا، وَقَدْ بَلَغَ تَحَرُّرُ شُعَرَاءِ هَذَا القَرْنِ فِي نَاحِيَةِ الوَزْنِ حَدًّا جَعَلَهُمْ يَبْتَكِرُونَ أَوْزَانًا أُخْرَى لَمْ يَعرِفْهَا العَرَبُ وَلَا أَثْبَتَهَا الخَلِيلُ فِي عَرُوضِهِ "[1].

وَقَدْ اجْتَهَدَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ فِي الابْتِكَارِ وَالتَّنْوِيعِ فِي الأَوْزَانِ إِمَّا مِنْ بَابِ المُغَامرَةِ وَالتَّجرِيبِ أَوْ هَرَبًا مِنَ الرَّتَابَةِ وَالجُمُودِ. يَقُولُ مُؤَرِّخُو الأَدَبِ " إِنَّ المُوَلَّدِينَ قَدْ تَمَلَّكَ بَعْضَهُمْ حُبُّ الابْتِكَارِ، وَالمِيْلُ إِلَى الجَمَالِ وَالتَّفنُّنِ حَتَّى فِي أَوْزَانِ الشِّعْرِ، فَمَزَجُوا بَيْنَ الأَوْزَان المخْتَلِفَةِ، وَرُبَّمَا أَلَّفُوا بَيْنَ وَزْنٍ مُخْتَرَعٍ وَوَزْنٍ مَعْرُوفٍ "[2]، لِكَيْ يَصِلَ الأَمْرُ مَعَ تَقَدُّمِ الزَّمَنِ إِلَى أَشْكَالَ وَأَوْزَانَ جَدِيدَةٍ مَهَّدَ لَهَا شُعَرَاءُ العَصْرِ الثَّانِي كَابْنِ الوَلِيدِ وابْنِ المُعتَزِّ.

وَالوَاقِعُ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصُرُوا جُهُودَهُم " عَلَى التَّجْدِيدِ فِي الصُّورَةِ العَامَّةِ لِلْوَزْنِ الشِّعْرِيِّ، وَلَكِنَّنَا رَأَيْنَاهُمْ يُحْدِثُونَ فِي الأَوْزَانِ القَدِيمَةِ تَجْدِيدَاتٍ مُوسِيقِيَّةً فِي دَاخِلِ الأَبْيَاتِ عَنْ طَرِيقِ تَسَاوِي العِبَارَاتِ أَوْ عَنْ طَرِيقِ وُجُودِ قَوَافٍ دَاخِلِيَّةٍ. ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يُحَاوِلُونَ نَزْع قُيُودِ القَافِيَةِ المُوَحَّدَةِ فَيَكْتُبُونَ فِي المُزْدَوِجَاتِ وَالمُخَمَّسَاتِ وَفِي أَنْوَاعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الشِّعرِ المُسَمَّطِ وَالرُّبَاعِيِّ أَوِ الدُّوبِيتِ فِي مُحَاوَلَاتٍ قَلِيلَةٍ "[3].

لَكِنَّ مُصْطَفَى هَدَارَةً يَعْتَقِدُ أَنَّ تَيَّارَ المُحَافِظِينَ عَرْقَلَ هَذِهِ الحَرَكَةَ التَّجْدِيدِيَّةَ، وَحَرَمَ الشِّعْرَ العَرَبِيَّ مِنْ طَفْرَةٍ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَحْدُثَ فِيهِ، فَـ " لَوْ أَنَّ الخُرُوجَ عَلَى تِلْكَ القَاعِدَةِ [التَّنْوِيعُ فِي القَوَافِي] وَجَدَ اسْتِجَابَةً كَامِلَةً مِنَ الشُّعَرَاءْ فِي القَرْنِ الثَّانِي لَحَدَثَ تَغَيُّرٌ ضَخْمٌ فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ كَانَ يُؤَدِّي إِلَى ظُهُورِ أَلْوَانٍ شِعْرِيَّةٍ أُخْرَى كَالمَلَاحِمِ وَالمَسْرَحِيَّاتِ، وَلَكِنْ يَبْدُو – لِلأَسَفِ – أَنَّ تَيَّارَ العُلَمَاءِ الجَارِفَ قَضَى عَلَى هَذِهِ المُحَاوَلَةِ فِي مَهْدِهَا فَلَمِ تَتَعَدَّ حُدُودَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَلَا حُدُودَ القَرْنِ الثَّانِي نَفْسِهُ "[4]. وَهُو مَا يَنْقُلُهُ بْرُوكلْمَانْ

[1]– اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ، محمّد مصطفى هدّارة، م.س، ص549.

[2]– الحاشية الكبرى، محمد الدّمنهوريّ، د.ط، د.ت، ص36. و باللّفظ نفسه في: موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص208.

[3]– اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ، محمّد مصطفى هدّارة، م.س، ص550.

[4]– نفسه، ص.ن.

فِي تَارِيخِ آدَابِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ حِينَ ذَكَرَ بِأَنَّ مُعَاصِرِي رُزَيْنٍ قَدْ "خَذَلُوهُ " وَلَمْ يتَّبِعُوهُ فِي مَنْهَجِهِ[1] الذِّي يَخْرُجُ فِيهِ عَنِ العَرُوضِ.

يُعِيدُنَا هَذَا الأَمْرُ إِلَى إِرْهَاصَاتِ التَّجْدِيدِ الأُولَى وَمَا صَاحَبَهَا مِنْ جِدَالٍ وَمُتَناقِضَاتٍ تُعْطِينَا مَلْمَحًا وَاضِحًا لِلْحَرَكَةِ التِّي كَانَتْ تَعْتَمِلُ فِي أَحْشَاءِ الأُمَّةِ العَرَبِيَّة، شِعْرِهَا وَآدَابِهَا خُصُوصًا. فَهَذَا الأَصْمَعِيُّ يُسْمِعُهُ إِسْحَاقُ المَوْصِلِيُّ بَعْضَ شِعْرِهِ دُونَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ لَهُ، فيُظْهِرُ إِعْجَابَهُ بِهِ، فَلَمَّا أَعْلَمهُ بِأَنَّ الأَبْيَاتَ لَهُ، عَابَ عَلَيْهِ إِفْسَادَهُ الشِّعْرَ إِذِ التَّوْلِيدَ فِيهِمَا بَيِّنٌ[2]. وَكَانَ أَبُو عَمْرُو بْنُ العَلَاءِ أَشَدَّهُمْ عَلَى المُحدَثِينَ لِأَنَّهُمْ "كَلٌّ عَلَى غَيْرِهِمْ، إِنْ قَالُوا حَسَنًا فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ، وَإِنْ قَالُوا قَبِيحًا فَمِنْ عِنْدِهِمْ "[3]. وَهَلْ بَعْدَ هَذَا التَّعَصُّبِ تَعَصُّبٌ؟!

وَلَعَلَّ فِي تِلْكَ الطُّرْفَةِ التِّي يَسْرُدُهَا صَاحِبُ الوَسَاطَةِ غِنًى عَنْ سَوْقِ أَيِّ مِثَالٍ، إِذْ يَقُولُ: " وَمَا أَكْثَرَ مَنْ تَرَى وَتَسْمَعُ مِنْ حُفَّاظِ اللُّغَةِ وَمِنْ جِلَّةِ الرُّوَّاةِ مَنْ يَلْهَجُ بِعَيْبِ المتَأَخِّرِينَ، فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يُنْشَدُ البَيْتَ فَيَسْتَحْسِنُهُ وَيَسْتَجِيدُهُ، وَيَعْجَبُ مِنْهُ وَيَخْتَارُهُ، فَإِذَا نُسِبَ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ عَصْرِهِ وَشُعَرَاءِ زَمَانِهِ كَذَّبَ نَفْسَهُ، وَنَقَضَ قَوْلَهُ، وَرَأَى تِلْكَ الغَضَاضَةَ أَهْوَنَ مَحْمَلًا وَأَقَلَّ مَرْزَأَةً مِنْ تَسْلِيمِ فَضِيلَةٍ لمُحْدَثٍ، وَالإِقْرَارَ بِالإِحْسَانِ لمُوَلَّدٍ "[4]، فَهَذِهِ صُورَةٌ كَافِيَةٌ لِفَهْمِ حِدَّةِ الصِّرَاعِ الذِّي اسْتَعَرَ أُوَارُهُ فِي سَاحَةِ الإِبْدَاعِ العَرَبِيِّ حِينَهَا.

وَيَبْدُو أَنَّ الخِشْيَةَ مِنْ رَدَّةِ فِعْلِ التَّقْلِيدِيِّينَ، أُمَرَاءَ وَعُلَمَاءَ، كَانَتْ كَبِيرَةً، وَأَنَّ التَّوَجُّسَ مِنْ كُلِّ جَدِيدٍ ثَبَّطَ الهِمَمَ، لِذَلِكَ " سَنَرَى أَنَّ كُلَّ جَدِيدٍ يُبْتَدَعُ تُحَاوِلُ المؤَسَّسَةُ المحَافِظَةُ

[1]- يُنظر: تاريخ الأدب العربيّ، ج2، كارل بِوكلمان، تر: عبد الحليم النجّار، دار المعارف، مصر، ط5، د.ت، ص11.

[2]- يُنظر: العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، م.س، ص140.

[3]- يُنظر: نفسه، ص.ن.

[4]- الوساطة، الجرجانيّ، م.س، ص50.

إِسْقَاطَهُ أَوْ إِرْجَاعَهُ إِلَى الجَاهِلِيِّينَ "[1]، فَهِيَ تَرَى مِثْلَ هَذَا تَجَاوُزًا عَلَى سُلْطَتِهَا، وَاخْتِبَارًا لِمَاهِيَةِ وُجُودِهَا. وَلَعَلَّ ذَاكَ مَا جَعَلَ المعَرِّي يُنْكِرُ " بِشِدَّةٍ عَلَى لِسَانِ امْرِئِ القَيْسِ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَتَبَ مِثْلَ هَذَا الشِّعْرِ الهَابِطِ عَنْ مُسْتَوَى شَاعِرِ الجَاهِلِيَّةِ الأَوَّلِ (لاَ وَاللهِ مَا سَمِعْتُ هَذَا قَطُّ، وَإِنَّهُ لَقِرَى لَمْ أَسْلُكهُ)"[2]. لَكِنَّ رَأْيَ أَبِي العَلَاءِ يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ هُنَا، مَادَامَ هُوَ ذَاتُهُ يَقُولُ فِي (الفُصُولِ وَالغَايَاتِ) كَلَامًا يُشِيرُ إِلَى تَقَبُّلِ الخَلِيلِ لِأَوْزَانِ المُوَلَّدِينِ، إِذَا مَا كَانَتْ دَوَائِرُهُ تَسْتَوْعِبُهُ، وَتَتَّسِعُ لَهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي (القِسْطَاسُ فِي عِلْمِ العَرُوضِ) أَنَّ:" بِنَاءَ الشِّعْرِ العَرَبِّي عَلَى الوَزْنِ المُخْتَرَعِ، الخَارِجِ عَنْ بُحُورِ شِعْرِ العَرَبِ، لَا يَقْدَحُ فِي كَوْنِهِ شِعْرًا عِنْدَ بَعْضِهِمْ. وَبَعْضُهُمْ أَبَى ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ شِعْرًا حَتَّى يُحَامَى فِيهِ وَزْنٌ مِنْ أَوْزَانِهِمْ"[3]. فَهُوَ يُورِدُ رَأْيَ الفَرِيقَيْنِ هُنَا دُونَمَا تَعْلِيقٍ أَوْ إِبْدَاءِ مَوْقِفٍ، مِمَّا يَعْكِسُ الحَيْرَةَ التِّي اعْتَرَتْ النُّقَّادَ وَالشُّعَرَاءَ حِيَالَ هَذَا المَوْضُوعِ الذِّي لَيْسَ جَدِيدًا بِالمَرَّةِ، وَلَكِنَّهُ شَغَلَ حَيِّزًا أَكْبَرَ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، وَاسْتَهْوَى النَّاسَ فَخَاضُوا فِيهِ.

أَمَّا قَوْلُ ابْنِ خَلْدُونَ مُتَحدِّثًا عَنِ الشِّعْرِ:" وَيُراعَى فِيهِ اتِّفَاقُ القَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي الوَزْنِ الوَاحِدِ حَذَرًا مِنْ أَنْ يَتَسَاهَلَ الطَّبْعُ فِي الخُرُوجِ مِنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ يُقَارِبُهُ، فَقَد يَخْفَى ذَلِكَ مِنْ أَجلِ المُقَارَبَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ "، فَقَدْ اعْتَبَرَهُ بَعْضُ الدَّارِسِينَ[4] تَقييدًا وجَبْرًا، يُضَيِّقُ عَلَى الشُّعَرَاءِ مَسَاحَةَ الإِبْدَاعِ، لَكِنَّنَا لَا نَجِدُ فِيهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، إِذْ إِنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ قَوَاعِدَ تُحْتَرَمُ " وَلِهَذِهِ المَوَازِينِ شُرُوطٌ وَأَحْكَامٌ تَضَمَّنَهَا عِلْمُ العَرُوضِ. وَلَيْسَ كُلُّ وَزْنٍ اتَّفَقَ فِي الطَّبْعِ اسْتَعْمَلَتْهُ العَرَبُ فِي هَذَا الفَنِّ. وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ تُسَمِّيهَا أَهْلُ تِلْكَ

---

[1]- السّلطة على الأوزان..الوزن الجاهليّ وعلم العروض، محمد تقي جون، صحيفة المثقف،ع:4043، بتاريخ: 2017/10/01م، تصدر عن= =مؤسّسة المثقّف العربيّ، *http://www.almothaqaf.com/qadaya2009/6939-2*. م.س.

[2]- رسالة الغفران، أبو العلاء المعرّي، ينظر: السّلطة على الأوزان..الوزن الجاهليّ وعلم العروض، محمد تقي جون، م.س.

[3]- القسطاس في علم العروض، الزّمخشريّ، م.س، ص21.

[4]- التّكرار الإيقاعيّ في اللّغة العربيّة، سيد خضر، دار الهدى للكتاب، كفر الشّيخ، مصر، ط1، 1418هـ/1998م، ص52.

الصِّنَاعَةِ البُحُورَ. وَقَد حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةَ عَشَرَ بَحْرًا، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ المَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا "[1].

وَلَيْسَ فِي هَذَا الكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْنَ خَلْدُونَ لَمْ يُجِزْ الخُرُوجَ عَلَى العَرُوضِ، بَلْ إِنَّ الخُرُوجَ قَدِ امْتَنعَ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ غَيْرُ هَذِهِ المَوَازِينِ حِينَهَا. فَبَتَرُ سَيِّدُ خِضْر لِلمَقُولَةِ أَخْرَجَ مَعْنَاهَا عَنْ سِيَاقِهِ، وَجَعَلَ كَلَامَ ابْنِ خَلْدُونَ مُطْلَقًا، فِي حِينَ رَبَطهُ هُوَ بِشُرُوطٍ وَضَوَابِطَ فِي غِيَابِهَا "وَ لِأَجْلِ الحِفَاظِ عَلَى المُوسِيقَى لَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ فِي القَصِيدةِ الوَاحِدَةِ الخُرُوجُ مِنْ وَزْنٍ إِلَى آخَرَ"[2].

يَعضُدُ هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ أَنَّ " مَنْ تَعَاطَى التَّصْنِيفَ فِي العَرُوضِ، مِنْ أَهْلِ هَذَا المَذْهَبِ، فَلَيْسَ غَرَضُهُ الذِّي يَؤُمُّهُ أَنْ يَحْصُرَ الأَوْزَانَ التِّي إِذَا بُنِيَ الشِّعْرُ عَلَى غَيْرِهَا لَمْ يَكُنْ شِعْرًا عَرَبِيًّا، وَأَنَّ مَا يَرجِعُ إِلَى حَدِيثِ الوَزْنِ مَقْصُورٌ عَلَى هَذِهِ البُحُورِ السِّتَّةَ عَشَرَ لَا يَتَجَاوَزُهَا. إِنَّمَا الغَرَضُ حَصْرُ الأَوْزَانِ التِّي قَالَتِ العَرَبُ عَلَيْهَا أَشْعَارَهَا. فَلَيْسَ تَجَاوُزُ مَقُولَاتِهَا بِمَحْظُورٍ فِي القِيَاسِ، عَلَى مَا ذَكَرْتُ "[3]، فَلَيْسَ إِذَنْ مِنْ مَانِعٍ يُرْغِمُ العَرَبِيَّ عَلَى الْتِزَامِ هَذِهِ الضَّوَابِطِ، إِذْ لَا ضَابِطَ إِلَّا قُدْرَةُ الشَّاعِرِ عَلَى الإِبْدَاعِ وَالإِقْنَاعِ.

فَقَوَانِينُ العَرُوضِ لَا تَغْصِبُ المُبدِعَ حَقَّهُ، وَلَا تُغْلِقُ أَمَامَهُ إِمْكَانِيَاتِ الانْطِلَاقِ، فَتِلْكَ لَمْ تَكُنْ غَايَةَ وَاضِعِهَا، فِيمَا نَعْتَقِدُ، بَلْ عَلَى العَكْسِ فَإِنَّ " الخَلِيلَ اكْتَشَفَ لِلْشُّعَرَاءِ أَوْزَانًا جَدِيدَةً كَثِيرَةً لَمْ يَسْتَخْدِمْهَا أَسْلَافُهُمْ، (...)، فَإِذَا هُوَ يُحْصِي الأَوْزَانَ التِّي اسْتَخْدَمَهَا العَرَبُ وَاضِعًا لَهَا أَلْقَابَهَا وَيُحْصِي أَوْ يَسْتَنبِطُ أَوْزَانًا أُخْرَى مُهْمَلَةً لَمْ يَسْتَخْدِمُوهَا فِي أَشْعَارِهِمْ، كَيْ يَنْفُذَ مِنْهَا الشَّاعِرُ العَبَّاسِيُّ إِلَى مَا يُرِيدُ مِنْ تَجْدِيدٍ فِي

[1]- المقدّمة، ج2، عبد الرّحمن بن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّرويش، دار البلخي، دمشق، ط1، 1425هـ/2004م، ص396.

[2]- المقدّمة، نفسه، ص.ن.

[3]- القسطاس في العروض، الزّمخشريّ، م.س، صص23،24.

أَوْزَانِ الشِّعْرِ وَبُحُورِهِ "[1]. وَبِهَذَا المَنْطِقُ، تَصِيرُ هَذِهِ المَوَازِينُ بَابًا مُشْرَعًا عَلَى آفَاقَ أَرْحَبَ عَلَى خِلَافِ مَا اسْتَقَرَّ فِي الأَذْهَانِ أَمَدًا طَوِيلًا.

ذَلِكَ مَا دَفَعَ كَمَال أَبُو دِيب إِلَى إِعْفَاءِ الفَرَاهِيدِيِّ مِنْ مَسْؤُولِيَّةِ الرَّتَابَةِ التِّي دَرَجَ عَلَيْهَا العَرُوضُ العَرَبِيُّ لِأَنَّ " نِظَامَ الخَلِيل أَشَارَ إِلَى مُسْتَقْبَلٍ:لَكِنَّ العَقْل العَرَبِيَّ، فِي تَيَّارِهِ الرَّئِيسِيِّ الذِّي شَكَّلَ التُّرَاثَ الرَّسْمِيَّ فِي الشِّعْرِ وَالحَيَاةِ، احْتَضَنَ المَاضِي، دَفَعَ نَفْسَهُ إِلَى قَوْقَعَةِ المَاضِي لِيَصُوغ ذَاتَهُ عَلَى صُورَتِهَا. إِنَّمَا ثَمَّةَ الذِّينَ احْتَضَنُوا المسْتَقْبَلَ، اتَّخَذُوا الإِشَارَةَ إِلَيْهِ وَجْهَ حَيَاةٍ وَخَلْقٍ. أَبُو العَتَاهِيَّةِ، فِي قَوْلِهِ:(أَنَا أَكْبَرُ مِنَ العَرُوضِ)، وَاحِدٌ مِنْهُمْ "[2]، فَمَسْؤُولِيَّةُ الجُمُودِ يَتَحَمَّلُهَا مَنْ أَوَّلَ مَجْهُودَ الخَلِيلِ عَلَى غَيْرِ مَا قَصَدَ، فَحَمَّلَهُ وِزْرًا هُوَ بَرِيءٌ مِنْ تَبِعَاتِهِ، وَفِي مُقَدَّمِ هَؤَلَاءِ الفَهْمُ الرَّسْمِيُّ مُمَثَّلًا فِي السُّلْطَةِ وَشُعَرَاءِ البِلَاطِ.

فَالخُروجُ عَلَى العَرُوضِ لَيْسَ دَائِمًا مُفْضِيًا إِلَى كَسْرٍ لِأَوْزَانِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ–كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُ بَعضُهُمْ– مَا دَامَ الذِّي يُقْبِلُ عَلَيْهِ عَالِمًا بِفُنُونِ القَوْلِ الشِّعْرِيِّ وَمَدَاخِلِهِ، فَـ" قَدِ اجْتَرَأَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ المُحْدَثِينَ فَبَذَلَ مُحَاوَلَاتٍ لِصِيَاغَةِ الشِّعْرِ فِي أَوْزَانَ جَدِيدَةٍ غَيْرِ أَوْزَانِ العَرُوضِ المتَوَارَثَةِ "[3]، مَدْفُوعًا بِرَغْبَةٍ شَخْصِيَّةٍ جَامِحَةٍ فِي الانْفِلَاتِ مِنَ الضَّوَابِطِ القَدِيمَةِ، أَوْ تَأَثُّرًا بِالأُمَمِ غَيْرِ العَرَبِيَّةِ التِّي دَخَلَتِ الإِسْلَامَ أَوِ انْدَمَجَتْ فِي أَوْسَاطِ العَرَبِ، عَجَمًا وَزُنُوجًا، وَخُصُوصًا مَعَ شُيُوعُ أَجْوَاءِ الغِنَاءِ وَالمُجُونِ.

فَهَا هُوَ عَبْدُ الله بْنُ هَارُونَ بْنُ السَّمَيْدَعِ يَفْتَحُ بَابًا، لَا بُدَّ أَنَّهُ لَيْسَ طَارِقَهُ الأَوَّلَ، غَيْرَ أَنَّهُ فَاقَ فِي المُحَاوَلَةِ مَنْ سَبَقَهُ، فَقَدْ " أَخَذَ العَرُوضَ عَنِ الخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، فَكَانَ مُقَدَّمًا فِيهِ(...)، وَكَانَ يَقُولُ أَوْزَانًا غَرِيبَةً فِي شِعْرِهِ، ثُمَّ أَخَذَ ذَلِكَ عَنْهُ وَنَحا نَحْوَهُ فِيهِ

[1]– العصرُ العبَّاسيُّ الأَوَّلُ، شوقي ضَيف، م.س، ص195.

[2]– في البنيّة الإيقاعيّة للشّعر العربيّ، أبو ديب، م.س، ص94.

[3]– تاريخ آداب اللّغة العربيّة، ج2، بروكلمان، م.س، ص10.

رُزَيْنٌ العَرُوضِيُّ، فَأَتَى فِيهِ بِبَدَائِعَ جَمَّةٍ، وَجَعلَ أَكْثَرَ شِعْرِهِ مِن هَذَا الجِنْسِ "[1] الذِّي أَكْثَرُهُ " يخرُجُ عَنِ العَرُوضِ "[2].

لَكِنَّ هَذِهِ المُحَاوَلَاتِ تَوَقَّفَتْ، كَمَا يَزْعُمُ مُصْطَفَى هَدَارَةُ، " فَلَمْ تَتَعَدَّ حُدُودَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَلَا حُدُودَ القَرْنِ الثَّانِي نَفْسِهُ "[3]، وَهُوَ يُعْزِي أَسْبَابَ هَذَا الانْقِطَاعِ وَعَدَمَ ذُيُوعِ هَذَا الاتِّجَاهِ وَانْتِشَارِهِ إِلَى أَنَّ " الأَوْزَانَ العَرَبِيَّةَ (...) مُتَنَوِّعَةُ المُوسِيقَى وَافِرَةُ الأَلْوَانِ، مَرِنَةٌ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ بِحَيْثُ اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَسْتَوْعِبَ كُلَّ تَجْدِيدَاتِ شُعَرَاءِ القَرْنِ الثَّانِي فِي المَوْضُوعِ وَفِي الوَزْنِ عَلَى السَّوَاءِ "[4]. وَهِيَ ذَاتُ الفِكْرَةِ التِّي سَبَقَ إِلَيْهَا شَوْقِي ضَيْفُ حِينَ قَالَ بَأَنَّ الخَلِيلَ " اسْتَضَاءَ بِفِكْرَةِ التَّبَادِيلِ وَالتَّوَافِيقِ الرِّيَاضِيَّةِ فِي وَضْعِ عَرُوضِ الشِّعْرِ"[5]. وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا التَّبْرِيرَ لَا يَبْتَعِدُ كَثِيرًا عَمَّا سَاقَتْهُ الأَوَائِلُ لِتَسوِيغِ الفَضْلِ وَالمَزِيَّةِ لِلمُتقَدِّمِينَ.

فَنَحْنُ نَجِدُ مُصْطَفَى هَدَارَة، بَعْدَ أَنْ رَأَى فِي مُحَاولَةُ رُزَينٍ مُجَرَّدَ رَغْبَةً فِي التَّحَرُّرِ مِنَ القَدِيمِ لَيْسَ إِلَّا، يَزْعُمُ أَنَّهَا فِي العُمْقِ مُفْرَغَةٌ مِنْ كُلِّ جَدِيدٍ، فَهِيَ بِحَسَبِهِ " لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ اسْتِبْدَالَ وَزْنٍ بِوَزْنٍ بِحَيْثُ لَا يَمْتَازُ هَذَا الوَزْنُ الجَدِيدُ بِأَيَّةِ رَنَّةٍ مُوسِيقِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، بَلْ أَجِدُهُ عَلَى العَكْسِ بَطِيئًا ثَقِيلًا عَلَى السَّمْعِ، بِعَكْسِ الأَوْزَانِ التِّي أَحْيَاهَا أَوْ حَوَّرَهَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي حُدُودِ دَوَائِرِ الخَلِيلِ الخَمْسِ فَإِنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ لَوْنٍ مُوسِيقِيٍّ جَدِيدٍ إِذْ حَاكَى صَوْتَ مِدَقِّ القَصَّارِ وَصَوتَ دَقِّ النَّاقُوسِ"[6]. وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ عَمَلُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، عَلَى خِلَافِ مَجْهُودِ رُزَيْنٍ، إِضَافَةً وَتَجْدِيدًا وَلَيسَ خُرُوجًا لَا يَبْرَحُ كَوْنَهُ تَكْرَارًا وَدَوَرَانًا فِي فَضَاءِ المُتَقَدِّمِينَ وَاتِّكَاءً عَلَى سَبَقُوهُ إِلَيْهِ.

---

[1]- الأغاني، الأصفهاني، ج6، م.س، ص169، ويُنظر: معجم الأدباء – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقُوت الحَمويُّ، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص1305.

[2]- معجم الأدباء – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، م.س، ص1305. وينظر: تاريخ الأدب العربيّ، ج2، كارلْ بروكلمان، م.س، ص11.

[3]- اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ، محمّد مصطفى هدّارة، م.س، ص550.

[4]- نفسه، ص549.

[5]- تاريخ الأدب العربيّ، العصر العباسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، ص195.

[6]- اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، صص549،550.

وَرُبَّمَا كَانَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ تَمَثَّلَ مَا رَوَاهُ ثُمَامَة عَنْ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَ حِينَ قَالَ لِكُتَّابِهِ:" إِنْ اسْتَطَعْتُم أَنْ يَكُونَ كَلَامُكُمْ كُلَّهُ مِثْلَ التَّوْقِيعِ فَافْعَلُوا "[1]، لِذَلِكَ كَانَ يُرَدِّدُ مَزْهُوًّا " لَوْ شِئْتُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثِي كُلُّهُ شِعْرًا مَوْزُونًا لَكَانَ "[2]. وَنَحْوُ هَذَا أَثْبَتَهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ أَيْضًا فِي مُقَدِّمَةِ الدِّيوَانِ، إِذْ قَالَ:" وَهُوَ أَحَدُ المَطْبُوعِينَ وَمِمَّنْ كَادَ أَنْ يَكُون كَلَامُهُ كُلُّهُ شِعْرًا "[3]. وَلَعَلَّ هَذِهِ الشَّاعِرِيَّةَ الطَّمُوحَةَ هِيَ الَّتِي هَيَّأَتْ أَسْبَابَ (ثَوْرَةٍ) قَادِمَةٍ عَلَى أَوْزَانِ الخَلِيلِ، الَّتِي رَغْمَ إِتَاحَتِهَا تَنَوُّعًا إِيقَاعِيًّا كَبِيرًا، إِلَّا أَنَّ البَاحِثَ فِي تَطَوُّرِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ يَجِدُ أَنَّ الشُّعَرَاء كَانُوا، وَمُنْذُ القَدِيمِ، يُحَاوِلُونَ الخُرُوجَ عَنِ المَأْلُوفِ مِنَ الأَوْزَانِ بَحْثًا عَنْ إِيقَاعَاتٍ جَدِيدَةٍ.

وَالنُّقّادُ أَمَامَ هَذِهِ المَسْأَلَةِ فَرِيقَانِ: يَرَى الأَوَّلُ أَنَّ مَا قَامَ بِهِ أَبُو العَتَاهِيَّةِ وَأَقْرَانُهُ لَا يَعْدُو كَوْنَهُ سِبَاحَةً فِي فَضَاءِ الخَلِيلِ، فَهُمْ لَمْ يَبْرَحُوهُ قَطُّ، وَالثَّانِي يَزْعُمُ أَنَّهَا كَانَتْ مُحَاوَلَاتٍ فَذَّةً، لَيْسَ لِتَجَاوُزِهِ، وَإِنَّمَا لِإِثْرَائِهِ وَالإِضَافَةِ إِلَيْهِ، وَلِمَ لَا تَعْزِيزِهِ مِنْ خَارِجِهِ، بِمَا يَسْمَحُ بِهِ الإِبْدَاعُ، وَتَتَقَبَّلُهُ الذَّائِقَةُ.

فَالفَرِيقُ الأَوَّلُ إِذَنْ، يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ " حَاولَ فِي بعْضِ أَشْعَارِهِ أَنْ ينْظِمَهَا مِنَ الأَوْزَانِ المُهْمَلَةِ التِّي نَصَّ عَلَيْهَا الخَلِيلُ "[4]. وَإِنْ كَانَ قَدْ خَرَجَ أَحْيَانًا عَلَى الأَبْحُرِ الخَلِيلِيَّةِ المعْرُوفَةِ إِلَّا أَنَّ خُرُوجَهُ كَانَ فِي إِطَارِ الدَّوَائِرِ الخَمْسِ التيِّ وِضعَها الخَلِيلُ حَيْثُ كَانَ يَسْتَعْمِلُ أَحْيَانًا البُحُورَ المهْمَلَةَ [5]. وَيُؤَكِّدُ شَوْقِي ضَيْف فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مَا كَانَ أَثْبَتَهُ فِي (فُصُولٌ فِي الشِّعْرِ وَنَقْدِهِ)، بِأَنَّ أَشْعَارَ هَؤُلَاءِ لَيْسَتْ خُرُوجًا حَقِيقِيًّا عَنِ العَرُوضِ التَّقْلِيدِيَّةِ، فَإِنْ نَحْنُ: " أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِيهَا وَجَدْنَاهَا تَجْرِي عَلَى وَزْنٍ مِنْ أَوْزَانِ الخَلِيل

[1]- البيان و التّبيين، ج1، الجاحظ، م.س، ص115.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- مقدّمة ابن عبد البرّ، يُنظر: هامش مقدّمة الدّيوان، ص23. وينظر: الشّعر والشّعراء، ابن قتيبة، م.س، ص779.

[4]- فصول في الشّعر ونقده، شوقي ضيف، دار المعارف، د.ط، د.ت، ص42.

[5]- العروض دراسة فنية وعروضية، حسن عبد الجليل يوسف، م.س، ص211.

المُهْمَلَةِ، (...)، وُرُبَّمَا كَانَ أَهَمُّ شَاعِرٍ نَابِهٍ عُنِيَ بِصُنْعِ أَشْعَارٍ عَلَى تِلْكَ الأَوْزَانِ المُهْمَلَةِ، هُوَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، فَقَدْ رَوَى لَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ قَوْلَهُ[1]:

لِلمَنُونِ دَائِرَاتٌ يَدُرْنَ صِرْفَــهَا *** هُنَّ يَنْتَقِيــنَنَا وَاحِدًا فَوَاحِــدَا.

وَقَوْلُهُ[2]:

عُتْبُ مَا لِلْخَيَالِ خَبِّرِينِي ومَالِي *** لاَ أَرَاهُ أَتَانِي زَائِرًا مُذْ لَيَـالِي"[3].

وَحِينَ تَتَرَدَّدُ كَلِمَةُ (حَاوَلَ) فِي قَضِيَّةٍ نَقديَّةٍ مُهمَّةٍ كَهَذِهِ مَرَّاتٍ عِدَّةٍ، تَتَسَرَّبُ إِلَى الأَذْهَانِ الصُّورَةُ التِّي كَانَ عَلَيْهِا أَنْصَارُ الفَرِيقِ الأَوَّلِ مِنْ تَرَدُّدٍ فِي الحَسْمِ، فَهُمْ لَا يَقْطَعُونَ بِفَشَلٍ أَوْ نَجَاحٍ، وَيَكْتَفُون بِمُلَاحَظَاتٍ بَسِيطَةٍ، تُفَضِّلُ القَدِيمَ فِي الغَالِبِ لِقِدَمِهِ لَيْسَ إِلَّا، وَتَرُدُّ الجَدِيدَ لِحَدَاثَتِهِ وَلِأَنَّهُ شِعْرُ مُوَلَّدٍ[4]. لَكِنَّ الشِّعْرَ المُسْتَحْدَثَ/المُوَلَّدَ صَارَ وَاقِعًا لَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهُ، فَانْبَرُوا إِلَى اسْتِهْجَانِهِ وَتَقْبِيحِهِ عِنْدَ العَامَّةِ، إِنْ هُمْ لَمْ يَسْكُتُوا عَنْهُ كُلِّيَّةً إِمَّا احْتِقَارًا وَتَتْفِيهًا، أَوْ خُضُوعًا لِلتَّيَّارِ وَاعْتِرَافًا ضِمْنِيًّا بِأَنَّهُ صَنَعَ مَكَانَتَهُ وَأَثْبَتَهَا، وَهُوَ مَا سَيَنْعَكِسُ بَعْدَ سِنِينَ قَلِيلَةٍ فِي أَشْكَالَ شِعْرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ مَبْنًى أَوْ مَعنًى، أَوْ هُمَا مَعًا.

لَقَدْ أَثْرَى احْتِدَامَ الصِّرَاعِ بَيْنَ تَيَّارَيْ المُحافِظِين وَالمُجَدِّدِينَ السَّاحَةَ الأَدَبِيَّةَ وَفَعَّلَهَا، إِذْ سَعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى إِثْبَاتِ جَدَارَةٍ لَا تُنَازَعُ، وَمَعَ هَذَا " فَكَثِيرا مَا الْتَقَى الأُسْلُوبَانِ: الفَصِيحُ وَالمُوَلَّدُ عِنْدَ شَاعِرٍ وَاحِدٍ كَأَبِي نَوَّاسَ، فَنَجِدُهُ يَسْتَخْدِمُ الفَصِيحَ فِي أَدَاءِ مَوْضُوعَاتٍ مُعَيَّنَةٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَوضُوعَاتٍ (رَسْمِيَّةٍ) تَضْمَنُ لَهُ رِضَا الخُلَفَاءِ وَثَنَاءَ

---

[1]- الدّيوان، رقم:68، ص522 وَيُنظر هامشها. ويُنظر أيضًا:الدّيوان، رقم:156، [من مجزوء الرّمل]، ص580.

[2]- الدّيوان، رقم:156، من مجزوء الرّمل، ص580، ويُنظر: الإحالة السّابقة.

[3]- العصر العباسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، صص196،195. **ملاحظة**: في الديوان هي أربعة أبياتٍ[من مجزوء الخفيف]، الشّطرُ الأوّل هنا هو شَطْرًا البيت هناك: " عتْبُ مَا للخيالِ *** خبِرِيني ومالِي "، الديوان، مقطوعة رقم: 205، ص618، ويُثبِت شوقي ضيف الأبيات على أنّها بيتٌ واحدٌ في الأوّل والثّاني. نقله صاحب ملامح التّجديد في موسيقى الشعر العربي، عبد الهادي عبد الله عطية، صص29،28، وأثبت البيت الأوّل هكذا في ص28، ثمّ في ص110 وص186 جعله بيتين حين أَعادَ الحديث عن الأوزان المهملة! وَجعلُه ابن قتيبة بيتين للأوّل والثّاني: الشّعر والشّعراء، م.س، ص780.

[4]- يُنظر مثلاً: الأغاني، ج17، م.س، ص12، والوساطة، م.س، ص49، الموشّح، م.س، ص384، والعمدة، ج1، م.س، ص91.

العُلَمَاءِ، كَمَا يَسْتَخْدِمُ المُوَلَّدَ فِي المَوْضُوعَاتِ التِّي تُعَبِّرُ عَنْ ذَاتِ نَفسِهِ وَمَشَاعِرِهِ، فيُرْضِي ذَاتَهُ وَيُرْضِي قُرَّاءَهُ أَوْ سَامِعِيهِ مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ عَلَى اخْتِلاَفِ طَبَقَاتِهِ "[1]، وَقَدْ فَتَحَ ذَلِكَ البَابَ أَمَامَ الفَرِيقِ الثَّانِي لِيُؤَكِّدَ جِدِّيَّةَ العَمَلِ الذِّي أَنْجَزَتْهُ هَذِهِ الطَّلِيعَةُ، وَالتِّي كَانَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ وَاحِدًا مِنْ مُحَرِّكِيهَا وَرُوَّادِهَا الأَوَائِلِ.

7- الظَّوَاهِرُ الأُسْلُوبِيَّةُ فِي إِيقَاعَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ:

يَتَبَيَّنُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ أَبَا العتَاهيَّةِ وَجَدَ نَفسَهُ، طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، وَسْطَ صِرَاعٍ مُحْتَدٍّ بَيْنَ جِيلَيْنِ وَفَهْمَيْنِ، بَيْنَ مَدْرَسَتَيْنِ مُتَنَاوِئَتَيْنِ حَدَّ القَطِيعَةِ، بَلْ إِنَّ الجِهَتَيْنِ المُتَعَارِضَتَيْنِ هَاتَيْنِ، وَضَعَتْهُ إِحْدَاهُمَا فِي رِيَادَةِ أُولَئِكَ المُشْتَغِلِينَ عَلَى كَسْرِ التُّرَاثِ وَقَوَاعِدِهِ الرَّاسِخَةِ مِنْ قُرُونٍ، وَوَضَعَتْهُ الثَّانِيَةُ إِمَامَهَا الذِّي يَتَقَدَّمُهَا، وَحَامِلَ لِوَائِهَا فِي التَّجْدِيدِ!

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ شَاعِرَنَا قَدْ أَعَانَ عَلَى إِذْكَاءِ هَذَا الصِّرَاعِ بِشَكْلٍ مِنَ الأَشْكَالِ، فَقَدْ كَانَ " لِسُرْعَتِهِ وَسُهُولَةِ الشِّعْرِ عَلَيْهِ رُبَّمَا قَالَ شِعْرًا مَوْزُونًا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ أَعَارِيضِ الشِّعْرِ وَأَوْزَانِ العَرَبِ"[2]، وَهُوَ لَا يَتَحَرَّجُ فِي فِعْلِ ذَلِكَ مَا اسْتَقَامَ لَهُ الوَزْنُ، أَوِ اسْتَرَاحَ لَهُ الخَاطِرُ. لَقَدْ انْدَفَعَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، وَغَيْرَهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّأْنِ فِي صِنَاعَةِ الشِّعْرِ، إِلَى تِلْكَ الجُرْأَةِ التِّي يَمْتَزِجُ فِيهَا الغُرُورُ بِالقُدْرَةِ، مُسْتَغِلِّينَ الأَجْوَاءَ المُعْتَمِلَةَ المَشْحُونَةَ لِاخْتِبَارِ إِبْدَاعَاتِهِمْ بِعَرْضِهَا لِلذَّائِقَةِ العَامَّةِ كَيْ تُصْدِرَ عَلَيْهَا أَحْكَامَهَا بِالقَبُولِ أَوِ الرَّدِّ.

حَكَى صَاحِبُ الأَغَانِي أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ سُئِلَ": هَلْ تَعْرِفُ العَرُوضَ؟ فقَالَ: أَنا أَكْبَرُ مِنَ العَرُوضِ. وَلَهُ أَوْزَانٌ لَا تَدْخُلُ فِي العَرُوضِ"[3]، وَمِن ذَلِكَ مَقْطُوعَتُهُ:

عُتْبُ مَا لِلخَيَالِ *** خَبِّرِينِي وَمَا لِـــــي.

---

[1]- اتِّجاهات الشّعر العربيّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، ص84.

[2]- مقدّمة ابن عبد البرّ، يُنظر:هامش مقدّمة الدّيوان، ص24. ويُنظر: الأغاني، ج4، الأصفهانِي، م.س، ص13، والشّعر والشّعراء، ابن قتيبَة، م.س، ص779.

[3]- الأغاني، ج4، الأَصفهَانيّ، م.س، ص269.

لَا أَرَاهُ أَتَـــــــانِي*** زَائِـــــرًا مُذْ لَيـــالِي.
لَوْ رَآنِـي صَدِيقِـي *** رَقَّ لِي أَوْ رَثَـــى لِي.
أَوْ يَـرَانِي عَـدُوِّي *** لَانَ مِنْ سُـوءِ حَـالِي.

لَـمْ يَكُن، إِذَن، شَاعِرُنا لِيَجِدَ حَرَجًا فِي اتِّبَاعِ إِمْلَاءَاتِ الخَاطِرِ، يَقْتَنِصُ سَانِحَاتِ اللَّحْظَةِ دُونَ عُقْدَةٍ، مَادَامَ ذَلِكَ يُلَبِّي حَاجَاتِ النَّفْسِ الشَّاعِرَةِ، المُتأَهِّبَةِ لِكلِّ فُرْصَةٍ، فَـ " الشَّاعِرُ، بِهَذَا، نَقِيضُ الخَلِيلِ: الشَّاعِرُ يَتَفَرَّغُ وَيَنْمُو وَيَكْتَنِهُ وَيُوَسِّعُ الأَبْعَادَ، وَالخَلِيلُ يُسَوِّي، يُسَطِّحُ، يَحْصُرُ، وَيُجْبِرُ عَلَى التَّقَوْلُبِ "[1]، وَذَاكَ كَان يُزْعِجُ طُمُوحَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِ فِكْرَهُ، لَكِنَّ الشَّاعِرَ فِيهِ يَتَغَلَّبُ دَوْمًا، فَيَخْرُجُ الشِّعْرُ كَمَا يُرِيدُ هُوَ، لَا كَما يُرِيدُ العَرُوضُ، أَوْ كَمَا يُرِيدُ شُيُوخُ العَرُوضِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ. وَهَا هُوَ " قَعَد يَومًا عِنْدَ قَصَّارٍ فَسَمِع صَوْت المِدَقَّةِ فَحَكَى ذَلِكَ فِي أَلْفَاظِ شِعْرِهِ "[2]، يَقُولُ:

لِلمَنُـــــونِ دَائِرَا *** تٌ يُدُرْنَ صِرْفَـــــهَا.

وَيَقُولُ:

هُنَّ يَنْتَقـــــــيِنَناَ *** وَاحِدًا فَوَاحِـــــدَا.

وَإِذْ نَرَى اضْطِّرَابَ النَّقَدَةِ حَوْلَ البَيْتَيْنِ، نَفْهمُ حَجْمَ الخَلْخَلَةِ التِّي أَحْدَثَهَا هَذَا التَّلْوِينُ الإِيقَاعِيُّ، وَمَثِيلُهُ كَثِيرٌ، فِي هَيْكَلِ النَّقْدِ القَدِيمِ، وعِنْدَ حُرَّاسِ مَعْبَدِهِ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، بَلْ وَالعُصُورِ التِّي تَلَتْهُ. مِن ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبِيْ (المِيزَان) يُعَلِّقَانِ عَلَى بَيْتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ السَّابِقِ (لِلمَنُونِ دَائِرَاتٌ يَدُرْنَ صِرْفَها) بِأَنَّهُ مِنْ مَشْطُورِ المَدِيدِ، أَوْ مِنَ المَدِيدِ التَّامِّ، أَوْ مِنْ مَجْزُوءِ الرَّمْلِ المَحْذُوفِ عَلَى رَأْيِ الزَّجَّاجِ،(...) وَذَلِكَ لَا يُخْرِجُ قَوْلَهُمَا [أَبُو العَتَاهِيَّةِ وَمُسْلِمُ]عَنْ أَنْ يَكُونَ خُرُوجًا عَنِ المَفْهُومِ مِنَ الأَوْزَانِ العَرَبِيَّةِ، وَيَجْعَلُهُ غَيْرُهُمَا مِنْ

[1]- البِنية الإِيقَاعيّة للشِّعر العربِيِّ، كمال أبو ديب، م.س، ص510.

[2]- مقدّمة ابن عبد البرّ، يُنظر: هامش مقدّمة الدّيوان، ص.ن. والأغاني، ج4، الأصفهانِي، م.س، ص13، والشّعر والشّعراء، ابن قتيبَة، م.س، ص779.

مَقْلُوبِ البَسِيطِ، فَأَجْزَاؤُهُ فَاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مُكَرَّرَةٌ. وَرُبَّمَا يَكُونُ وَزْنُهُ فَاعِلَاتُنْ فَاعِلُنْ مَرَّتَيْنِ[1]. فِي حِينِ يَزْعُمُ مُحَمَّدُ تَّقِي جُونْ أَنَّهُمَا " عَلَى وَزْنِ (فَاعِلَاتُ فَاعِلُنْ)، وَهُوَ وَزْنٌ لَا يَنْطَبِقُ عَلَى أَحَدِ بُحُورِ الدَّوَائِرِ أَوْ مَقْلُوبَاتِهَا، مُمْكِنٌ أَنْ يُقَطَّعَ عَلَى مِفْتَاحٍ آخَرَ هُوَ (فَاعِلُنْ مُتَفْعِلُنْ) فَيُرَدَّ قَسْرًا إِلَى مَقْلُوبِ البَسِيطِ كَمَا فَعَلَ شَوْقِي ضَيْفُ "[2]، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَمَاشَى مَعَ بُحُورِ الخَلِيلِ وَقَوانِينِ المَرْجِعِ، وَلَكِنَّهُ بِالنِّهَايَةِ، يَأْبَى الخُضُوعَ، فَيَتَفرَّدُ بِإِيقَاعِهِ.

يَجُرُّنَا هَذَا مَرَّةً أُخْرَى لِلْحَدِيثِ عَنْ أَسْبَقِيَّةِ المُبْدِعِ عَلَى النَّاقِدِ/المُقَنِّنِ، وَهِيَ قَضِيَّةٍ سَنَأْتِي عَلَى التَّفْصِيلِ فِي بَعْضِ جَوَانِبِهَا فِي مَا يَلِي مِنْ ثَنَايَا هَذَا البَحْثِ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ هُنَا، بِأَنَّهُ " لَمَّا كَانَتْ الأَنْظِمَةُ الإِيقَاعِيَّةُ المُبْتَدَعَةُ التيِّ يَتَكَوّنُ مِنْهَا الإِيقَاعُ المَمَيِّزُ لِلشَّاعِرِ أَنْظِمَةً اخْتِيَارِيَّةً، فَقَدْ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَلَّا يَخْضَعَ لِضَوَابِطَ دَقِيقَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَهِي اكْتِشَافَاتٌ لِعلَاقَاتٍ خَفِيَّةٍ فِي اللُّغَةِ، يَتَوَصَّلَ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ، ثُمَّ يَسْعَى إِلَى تَطْوِيرِهَا وَإِبْرَازِهَا فِي أَعْمَالِهِ"[3]. وَهُوَ مَا نَزْعُمُ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةَ كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ، وَيُنَافِحُ عَنْهُ بِقُوَّةٍ كُلَّمَا أُجْبِرَ عَلَى الصُّرَاخِ فِي وَجْهِ القَوَاعِدِ وَأَصْحَابِهَا:" أَنَا أَكْبَرُ مِنَ العَرُوضِ!".

إِنَّ هَؤُلَاءِ الذِّينَ نَصَّبُوا أَنْفُسَهُمْ سَدَنَةً لِلعَرُوضِ، يَرْضَوْنَ عَلَى مَنْ أَرَادُوا وَيَسْخَطُونَ مَتَى مَا أَرَادُوا، هُمُ الذِّينَ أَسْهَمُوا، بِطَرِيقَةٍ مَا، فِي هَذَا الحِرَاكِ الثَّقَافِيِّ وَالفِكْرِيِّ، فَنَحْنُ نَجِدُ الأَخْفَشَ مَثَلًا، يَرْفُضُ تَقَبُّلَ بَحْرَيْنِ لِأَنَّ شُعَرَاءَ العَرَبِ لَمَ يَسْتَعْمِلُوهُمَا بِنِسْبَةٍ تَسْمَحُ لَهُ بِذَلِكَ[4]، وَكَأَنَّ مِقْيَاسَ الإِبْدَاعِ هُوَ كَمِيَّةُ مَا يُنْتَجُ وَلَيْسَ نَوْعِيَّتُهُ. وَلَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ حَجْمَ مَا ضَاعَ مِنْ إِبْدَاعٍ عَلَى تِلْكَ الأَوْزَانِ، لَمْ يُدَوَّنْ وَلَمْ تَحْفَظْ مِنْهُ الذَّاكِرَةُ إِلاَّ أَقَلَّ القَلِيلِ، لِأَنَّ وَاضِعَ القَانُونِ وَمُكَرِّسَهُ لَمْ يَسْتَسِيغَا الخُرُوجَ علَيْهِ.

---

[1]- يُنظر: ملامح التّجديد في موسيقى الشعر العربي، عبد الهادي عبد الله عطية، م.س، صص28،29.

[2]- السّلطة على الأوزان..الوزن الجاهليّ وعلم العروض، محمد تقي جون، م.س.

[3]- الإيقاع في الشّعر العربي الحديث في العراق، ثائر عبد المجيد العذاري، ينظر: القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلالية والبنية الإيقاعيّة...، محمّد صابر عُبيد، م.س، ص12.

[4]- يُنظر: البِنية الإيقّاعيّة للشّعر العربِيّ، كمال أبو ديب، م.س، ص45.

لَكِنْ لَنَا بَعْضُ السَّلْوَى فِي أُولَئِكَ الشُّعَرَاءِ الذِّينَ، وَعَلَى مُسْتَوًى فَرْدِيٍّ، حَاوَلُوا المُقَاوَمَةَ، وَنَجَحُوا فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحَايِينِ فِي فَرْضِ مَنْطِقِ المَوْهِبَةِ وَإِمْلَاءَاتِهَا، مُتَحَمِّلِينَ ثِقْلَ السَّيْرِ ضِدَّ التِّيَارِ وَتَبِعَاتِهِ، فَمَثَّلُوا بِذَلِكَ الحَرَكِيَّةَ الشِّعْرِيَّةَ التِّي كَسَرَتْ جُمُودَ الضَّوَابِطِ وَتَحَجُّرَهَا، مِنْ هَؤُلَاءِ " نَجِدُ أَبَا العَتَاهِيَّةِ – أَيْ الفَاعِلِيَّةَ الشِّعْرِيَّةَ نَفْسَهَا – يَقُولُ مَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنَ العَرُوضِ، أَيْ أَنَّ الفَاعِلِيَّةَ الشِّعْرِيَّةَ هِيَ المَنْتِجَةُ لِلإِيقَاعِ وَعَلَى عُلَمَاءِ العَرُوضِ أَنْ يَصِفُوا مَا تُنْتِجُ "[1]، وَلَيْسَ العَكْسُ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يُرِيدُ أَنْ يُذَكِّرَ العَرُوضِيِّينَ أَنَّ الشِّعْرَ أَسْبَقُ مِنْ قَوَاعِدِهِمْ.

وَالجَدِيرُ بِالمُلَاحَظَةِ هُنَا، هُوَ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ كَانَ " يُدْرِكُ أَنَّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الأَوْزَانِ يَخْرُجُ عَلَى البُحُورِ التَقْلِيدِيَّةِ "[2]، فَالفِعْلُ هُنَا إِرَادِيٌّ مَقْصُودٌ، يَسْعَى الشَّاعِرِ إِلَى تَحْقِيقِهِ فِي وَاقِعِ الأَمْرِ مُمَارَسَةً وَتَطْبِيقًا، دُونَمَا الْتِفَاتٍ إِلَى الأَصْواتِ المُسْتَنْكِرَةِ مِنْ حَوْلِهِ، فَقَدْ " أَنْشَدَ (المسْعُودِيُّ) لَهُ[لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ] أَشْعَارًا كَثِيرةً، مِنْهَا مَا لَا يَدْخُلُ فِي العَرُوضِ، وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَنَا أَكْبَرُ مِنَ العَرُوضِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ نَظَمَ الشِّعْرَ قَبْلَ أَنْ يُصَنِّفَ الخَلِيلُ كِتَابَ (العَرُوضِ)"[3].

هَكذَا يُرَسِّخُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ أُسْلُوبَهُ فِي القَوْلِ، وَيَنْحِتُ طَرِيقَتَهُ عَلَى غَيْرِ سِمْتِ السَّابِقِينَ، إِذْ " لَهُ أَوْزَانٌ طَرِيفَةٌ قَالَهَا مِمَّا لَمْ يَتَقَدَّمْهُ بِهِ الأَوَائِلُ فِيهَا "[4]. وَنَعْتَقِدُ أَنَّ اللُّغَةَ السَّهْلَةِ التِّي تَنْزِعُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ إِلَى النَّثْرِيَّةِ وَالمُبَاشَرةِ قَدْ فَرَضَتْ عَلَى الشَّاعِرِ اخْتِيَارَ تِلْكَ الأَوْزَانِ الخَفِيفَةِ، بَلْ وَاخْتِيَارِ الخُرُوجِ عَنِ الوَزْنِ الخَلِيلِيِّ حَيْثُ يَتَّفِقُ لَهُ ذَلِكَ وَيَسُوغُ. فَاللُّغَةُ وَالإِيقَاعُ يَتَنَازَعَانِ الغَلَبَةَ فِي بِنَاءِ الخِطَابِ وَتَوْقِيعِهِ، لِذَا كَثِيرًا مَا تَتَحَمَّلُ اللُّغَةُ عِبْءَ نَقْلِ المُوسِيقَى وَبَثِّهَا فِي النَّصِّ، بَلْ إِنَّهَا تُنْشِئُهَا إِنْشَاءً فِي نُصُوصٍ عَدِيدةٍ.

---

[1]- البِنية الإِيقَاعيّة للشِّعر العربِيِّ، كمال أبو ديب، م.س، ص.ن. نفسه، ص.ن.

[2]- اتِّجاهات الشّعر العربيّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، ص541.

[3]- لسان الميزان، ج2، أحمد بن عليّ بن حجّر العسقلانيّ، دار البشائر الإسلاميّة، ط1، 1423هـ/2002م، ص158.

[4]- الأغاني، ج4، م.س، ص261.

فَالمُبْدِعُ الحَقُّ يَتَمَثَّلُ إِبْدَاعَهُ فَيُخْرِجُهُ لِلنَّاسِ مُزَاوِجًا بَيْنَ مَا تَرُومُهُ نَفْسُهُ الشَّاعِرَةُ وَمَا تَنْتَظِرُهُ مِنْهُ جَمَاهِيرُ المُتَلَقِّينَ، لِذَلِكَ يَسْعَى إِلَى ابْتِكَارِ الأَشْكَالِ الجَدِيدَةِ التِّي تَعْكِسُ النُّضْجِ الفَنِّيِّ الذِّي وَصَلَ إِلَيْهِ، وَتَنْقُلُ كَفَاءَاتِهِ مِنْ مَرْحَلَةِ التَّصَوُّرِ إِلَى مَرْحَلَةِ التَّطْبِيقِ وَالإِيجَادِ، فَيَكُونُ مِنْ مَظَاهِرِ " ذَلِكَ إِنْتَاجُ تَكْوِينَاتٍ كَلَامِيَّةٍ تَتَكِئُ عَلَى الصَّوْتِيَّةِ اتِّكَاءً مُطْلَقًا وَتَحْلِيلُ هَذِهِ التَّكْوِينَاتِ يَعْتَمِدُ عَلَى تَحَسُّسِ هَذِهِ الصَّوْتِيَّةِ فِي اللُّغَةِ عُمُومًا، وَاللُّغَةُ الأَدَبِيَّةُ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ ثُمَّ رَبْطِهَا بِالإِيقَاعِ الدَّلَالِيِّ المُلَازِمِ لَهَا "[1].

وَلمَّا كَانَ " الإِيقَاعُ هُوَ حَرَكَةُ التَلَفُّظِ "[2] عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ مِيتْشُونِيكْ، فَإِنَّهُ عَلَيْنَا تَتَبُّعِ لُغَةِ المُبْدِعِ لِفَهْمِ طَرِيقَتِهِ فِي الاشْتِغَالِ عَلَى اخْتِيَارَاتِهِ الإِيقَاعِيَّةَ، غَيْرَ أَنَّ المَهَمَّةَ لَيْسَتْ دَائِمًا بِالسُّهُولَةِ التِّي تَسْبِقُ إِلَى الذِّهْنِ، كَوْنَ الأَمْرِ مُعَقَّدًا مِنْ أَوْجُهٍ عَدِيدَةٍ، لَعَلَّ أَبْرَزَهَا، هُوَ أَنَّهُ فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي تَنْشُطُ فِيهِ اللُّغَةُ لِاخْتِيَارِ الإِيقَاعِ المُوَائِمِ لَهَا، يَكُونُ الإِيقَاعُ عَامِلًا ضَاغِطًا فِي ضَبْطِ، وَرُبَّمَا، فَرْضِ تِلْكَ الاخْتِيَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، إِنَّهَا عَمَلِيَّةٌ تَسْرِي فِي الاتِّجَاهَيْنِ بِنَفْسِ القُوَّةِ وَالسُّرْعَةِ، مَهَمَّةٌ مُتَوَازِيَةٌ مُتَنَاظِرَةٌ لَا يُمْكِنُ تَجْزِئَتُهَا إِلَّا لِمَا تَقْتَضِيهِ ضَرُورَةُ الدَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ، كَمَا هِيَ الحَالُ هُنَا، إِذْ أَتْبَعْنَا هَذَا الفَصْلَ بِآخَرَ خَصَّصْنَاهُ لِلُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ.

فَوَ نَحْنُ نَدْرُسُ عَلَاقَةِ الوَزْنِ بِالغَرَضِ الشِّعْرِيِّ، وَالعَرَبِيِّ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، يَجِبُ أَنْ نَنْتبِه – كَمَا كَانَتِ الحَالُ مَعَ المُتَقَدِّمِينَ – لِدَوْرِهَا فِي بِنْيَة القَصِيدَةِ فَـ " العَلَاقَةُ بَيْنَ البَحْرِ كَشَكْلٍ إِيقَاعِيٍّ وَالغَرَضِ الشِّعْرِيِّ كَعُنْصُرٍ دَلَالِيٍّ تَفْرِضُ نَفْسَهَا عِنْدَ التَّعَامُلِ مَعَ أَيِّ نَصٍّ شِعْرِيٍّ قَدِيمٍ، نَظَرًا لِعِدَّةِ عَوَامِلَ مِنْ أَهَمِّهَا بَعْضُ الأَحْكَامِ النَّقْدِيَّةِ الجَاهِزَةِ وَالشَّائِعَةِ حَوْلَ العَلَاقَةِ بَيْنَ الوَزْنِ وَالغَرَضِ الشِّعْرِيَّيْنِ "[3] لِنَتَفَادَى الوُقُوعَ فِي شَرَكِ التَّحْلِيلِ

---

[1]– نظريّة الإيقاع عِندَ المسْعدّي في ضَوء الأسلوبيّة المعاصرة، محمَّد عبد المطلب، مقَالَ عَلى النِّت، غَيرُ مُصنَّفٍ، مؤقع الجَسْرَة، السبت24 مارس 2012م، 21:53 – *aljasra.org/archive/cms/?p=1475*.

[2]– *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص70.

[3]– عزف على وتر النّصّ، دراسة في تحليل النّصوص الأدبيّة والشّعريّة، عمر محمّد عبد المطلب، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط،=

النَّمَطِيِّ المُسْتَهْلَكِ.

هَذَا يَجُرُّنَا لِلْقَوْلِ، مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الدَّارِسِينَ، بِأَنَّ القَصَائِدَ فِي كُلِّيَّتِهَا تَصِيرُ " مُدَوَّنَةً مُمْكِنَةً لِمَبْحَثِ الإِيقَاعِ. وَلَا نَعْنِي بِالقَصَائِدِ الكَلِمَةَ الدَّالَّةَ عَلَى الجِنْس وَإِنَّمَا كُلَّ النُّصُوصِ التيِّ تَحْمِلُ مَقْصِدَ صَاحِبِهَا وَلَهُ فِيهَا خُطَّةٌ لِبُلُوغِ المَقْصِدِ، وَلَهُ فِي هذِهِ الخُطَّةِ اخْتِيَارَاتٌ لُغَوِيَّةٌ صِرْفَةٌ أَوْ هَيْئَةٌ فِي إِخْرَاجِ تِلْكَ الاخْتِيَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الصِّرْفَةِ. هِيَ قُوَّةٌ نَظْمِيَّةٌ تُشَاكِلُ هَيْئَةَ انْتِظَامِ المَعَانِي وَحَدَثَانَهِا فِي صَدْرِهِ وَذَلِكَ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ كَوْنِهَا منَ المَنْظُومِ أَوْ مِنَ المَنْثُورِ، سَرْدِيَّةً أَوْ مَسْرَحِيَّةً.. إِنَّ خَصَائِصَ الخِطَابِ الرَّاجِعَةُ إِلَى الجِنْسِ تُمَثِّلُ الظَّرْفَ الذِّي يَتَشَكَّلُ فِيهِ الإِيقَاعُ. وَلَيْسَ يَعْنِي هَذَا أَنَّنَا نُشَاكِلُ بَيْنَ مَفْهُومِ الإِيقَاعِ وَإِسْتْرَاتِيجْيَا الخِطَابِ "[1]، وَإِنَّمَا نَتَّخِذُ ذَلِكَ وَسِيلَةً لِتَفْكِيكِ بِنْيَاتِهِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِفَهْمِهَا مِنْ جَمِيعِ عَنَاصِرِهَا مُنْفَصِلَةً حِينَ التَّحْلِيلِ، مُتَآزِرَةً كَوِحْدَةٍ دَالَّةٍ.

صَحِيحٌ أَنَّ الأُسْلُوبَ اعْتُبِرَ، فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ، انْزِيَاحًا فَرْدِيًّا، أَيْ طَرِيقَةً فِي الكِتَابَةِ خَاصَّةً بِوَاحِدٍ مِنَ الأُدبَاءِ [2]. وَلِأَجْلِ هَذِه المُغَايَرَةِ وَالتَّمَيُّزِ كَانَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ يَتَجَرَّأُ عَلَى مُنَاكَفَةِ العَرُوضِ، ويَسْبِقُ غَيْرَهُ، فَارِضًا عَلَيْهِمْ رِيتْمَهُ، فَإِمَّا اللَّحَاقُ أَوِ التَّخَلِّي. وَالحَقِيقَةُ، إِنْ هُوَ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، فَقَدَ خَاصِيَّةَ المُبْدِعِ الفَذِّ، وَاكْتَفَى بِأَنْ يَكُونَ نَاظِمًا، أَوْ (شَاعِرًا) وَحَسْبَ، عَلَى أَبْعَدِ تَقْدِيرٍ!... ذَلِكَ أَنَّ الشُّعَرَاءَ أَنْوَاعٌ كَمَا يَقُولُ أَبُو نَصْرٍ بنُ المُرْزُبَان:

الشُّعَــرَاءُ فَاعْلَــمَنَّ أَرْبعَــهْ
فَشَاعرٌ يَجَرِي وَلَا يُجْرَى مَــعَهْ
وَشَاعِرٌ يَجُولُ وَسْطَ المَعْمَعَهْ

=2000م، ص83.

[1]- *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص73.

[2]- بنيَة اللُّغةِ الشِّعريَّةِ، جون كوهن، م.س، ص15.

وَشَاعِرٌ لَا تَشْتَهِي أَنْ تَسْمَــعَهْ
وَشَاعِرٌ لَا تَسْتَحِي أَنْ تَصْفَعَهْ

إِنَّ شَاعِرًا يَتَسَامَى عَلَى العَرُوضِ، صَوْتٌ حَقِيقٌ أَنْ يُسْمَعَ، الشَّاعِرُ الذِّي " يَمْتَلِكُ حُرِّيَّةً مُطْلَقَةً لِأَنْ يُبْدِعُ إِيقَاعَهُ الذَّاتِيَّ الخَلَّاقَ عُنْصُرًا نَابِعًا مِنْ تَوَاشُجِ أَبْعَادِ تَجْرِبَتِهِ الفَنِّيَّةِ الكُلِّيَّةِ بِتَشْكِيلِ التَّتَابُعَاتِ التِّي تُرْضِيهِ هُوَ لَا أَيَّ مِقْيَاسٍ خَارِجِيٍّ. وَتَظَلُّ تَشْكِيلَاتُ إِيقَاعِهِ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ الإِيقَاعِ العَرَبِيِّ. كُلُّ تَشكِيلٍ جَدِيدٍ يُصْبِحُ، هَكَذَا، تَحَقُّقَ طَاقَةٍ كَامِنَةٍ عَلَى يَدِ شَاعِرٍ خَلَّاقٍ، لَا خُرُوجًا عَلَى أُسُسِ الإِيقَاعِ العَرَبِيِّ "[1]، إِذْ هُو لَا يَقْطَعُ حِبَالَ الصِّلَةِ مَعَ مَنْ سَبَقَهُ وَإِنَّمَا يَبْحَثُ عَنِ الإِضَافَةِ القَيِّمَةِ، وَالجَدِيدِ المُؤَثِّرِ.

وَمِمَّا اعْتُبِرَ مِنَ مُخَالَفَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ لِلْعَرُوضِ قَوْلُهُ [مِنَ المنْسَرِحِ][2]:

مَنْ لَمْ تَعِــــظْهُ الخُطُــــوبُ *** لَمْ تُثْنِــــــهِ الأَيَّامُ وَ الحِقَبُ.
يَا أَيُّـــهَا المُبْتَلَى بِهِمَّـــتِهِ *** أَلَمْ تَرَ الدَّهْرَ كَيْفَ يَنْقَـلِبُ.
مِنْ أَيِّ خَلْقِ الإِلَهِ يَعْجَبُ مَنْ *** يَعْجَبُ وَالخَلْقُ كُلُّه عَجَبُ.
وَبِالرِّضَـــى وَالتَّسْلِيمِ يَنْقَطِعُ الـ *** ـهَمُّ وَبِالكُفْرِ يَكْثُرُ العَــطَبُ.
وَعِنْدَ حُسْنِ التَّقْدِيرِ يَسْتَحْكِمُ الـ*** ـجَدُّ وَيَنْبَتُّ اللَّهْوُ وَاللَّـعِبُ.
وَفِي جَمِيلِ القُنُوعِ يَنْخَفِضُ الـ *** ـعَيْشُ وَبِالحِرْصِ يَعْظُم التَّعَبُ.
إِنَّ الغِنَى فِي النُّفُوسِ وَالعِزُّ تَقْـ *** ـوَى اللهُ لَا فِضَّـــةٌ وَلَا ذَهَبُ.
وَحَادِثَاتُ الأَقْـدَارِ تَجْرِي وَمَا *** تَجْـرِي بِشَـيْءٍ إِلَّا لَهُ سَبَبُ.

وَيُعَقِّبُ إِبْرَاهِيمُ أَنِيسُ، عَلَى هَذِهِ الأَبْيَاتِ، بِأَنَّهُ يَجِبُ التَّحَقُّقُ مِنْ صِحَّةِ هَذِهِ المُتَغَيِّرَاتِ " فَرُبَّمَا وَقَعَ فِي رِوَايَتِهَا تَحْرِيفٌ أَوْ تَصْحِيفٌ أَدَّى إِلَى تِلْكَ المُخَالَفَاتِ

[1]- البِنية الإِيقَاعيّة للشِّعر العربِيِّ، كمال أبو ديب، م.س، صص93،94.

[2]- الدّيوان، قصيدة رقم: 39، صص44،45. يُعلِّقُ إبرَاهِيم أَنِيس عَلى هذَا النَّصّ:"وهِي قِطعةٌ عِدَّتُها سَبعَةُ أبيَاتٍ"، يُنظر: موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص193، لكِنَّ مُحَقِّق الدّيوان يَجعلُها ثمانِيَةَ أَبيَاتٍ كَما أَثْبَتْناهُ فَوق.

العَرُوضِيَّةِ "[1]، فَهُوَ هُنَا يُشكِّكُ* فِي طَبِيعَةِ هذَا الخُرُوجِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ فِي حَقِيقَةِ وُقُوعِهِ أَصْلًا. غَيْرَ أَنَّ الرِّوَايَاتِ فِي كُتُبِ الأَخْبَارِ وَالأَدَبِ وَالنَّقدِ وَغَيْرِهَا قَدْ تَوَاتَرَتْ وَتَعَدَّدَتْ مُخْبِرَةً عَنْ مُحَاوَلَاتِ المُوَلَّدِينَ عُمُومًا، وَأَبِي العَتَاهِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ، لِتَجَاوُزِ قَوَاعِدِ الخَلِيلِ، وَالتِّي اتَّخَذَتْ أَشْكَالًا مُخْتَلِفَةً تُؤَكِّدُهَا الشَّوَاهِدُ المُتَعَدِّدَةُ التِّي أَثْبَتَهَا الرُّوَاةُ.

وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا الأَمْرَ كَانَ شَأْنَ غَالِبِيَّةِ الشُّعَرَاءِ العَبَّاسِيِّينَ، إِذِ " اتَّجَهُوا إِلَى التَّنْوِيعِ فِي قَوَافِي بَعْضِ قَصَائِدِهِمْ عَلَى أَسَاسِ صُورَتَيْ المُزْدَوِجِ وَالمُسَمَّطَاتِ، وَقَدْ شَاعَتِ الصُّورَةُ الأُولَى فِي الشِّعْرِ التَّعْلِيمِيّ (...)، وَنَفَذَتْ مِنْهَا أَسْرَابٌ إِلَى الشِّعْرِ الغِنَائِيِّ اسْتَطَاعَ الشُّعَرَاءُ بِهَا أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَى نَظْمِ شِعْرٍ مُزْدَوِجٍ "[2]. وَلَيْسَ لَنَا فِي كُتُبِ تَارِيخِ الأَدَبِ مَا يُؤَكِّدُ زَمَنَ نَشْأَةِ المُزْدَوِجِ، وَلَا هِيَ تَنْسِبُه إِلَى شَاعِرٍ بِعَيْنِهِ، غَيْرَ أَنَّهَا تَذْكُرُ أَنَّ " أَوَّلَ مَنْ نَظَمَ فِيهِ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَأَبُو العَتَاهِيَّةِ، ثُمَّ تَتَابَعَ عَلَيْه الشُّعَرَاءُ. وَقَدْ وَجَدُوهُ أَلْيَقَ بِنَظْمِ القَصَصِ الطَّوِيلَةِ وَالحِكَمِ وَالأَمْثَالِ، وَمَا أَرَادُوا نَظْمَهُ مِنْ مَسَائِلِ العُلُومِ "[3]، كَوْنَهُ يُسَاعِدُ فِي إِقَامَةِ الأَلْحَانِ فِي الغِنَاءِ، وَيُسَهِّلُ عَلَى طَالِبِ العِلْمِ الحِفْظَ وَالاسْتِذْكَارَ.

لَقَدْ تَنَافَسَ الشُّعَرَاءُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ، يَتَبَارُونَ فِي إِظْهَارِ المُكْنَةِ وَالاقْتِدَارِ عَلَى التَّلْوِينِ فِيهِ، وَعَلَى الخُرُوجِ عَنِ العَرُوضِ الخَلِيلِيَّةِ فِي آنٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُبْدِعِينَ قَدْ دَرَجُوا عَلَى هَذَا الأُسْلُوبِ، وَأَنَّ العَامَّةَ قَدِ اسْتَمْرَؤُوهُ وَاسْتَقْبَلُوهُ بِاسْتِحْسَانٍ، يُؤَكِّدُ أَنَّ الاشْتِغَالَ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ عَفْوِيًّا، بَلْ إِنَّهُ أَخَذَ زَمَنًا لِيَنْضُجَ، فيُخْرِجَهُ الشُّعَرَاءُ إِلَى النَّاسِ فِي صُورَتِهِ التِّي وَصَلَنَا عَلَيْهَا. فَقَدْ رَوَى الأَصْفَهَانِيُّ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ قَدْ عَارَضَ " المُزْدَوِجَةَ التِّي كَتَبَهَا أَبُو نَوَّاسَ فِي الزُّهدِ بِمُزْدَوِجَةٍ أُخْرَى قَالَ فِيهَا:

---

[1]- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص.ن.

* لعلَّ تَشكِيكَ إبرَاهِيم أَنِيس لَه ما يُبرِّرُهُ هُنا بِحكْمِ أَنّ كِتابَهُ طُبِعَ قَبلَ صُدُورِ الدّيوانِ مُحقَّقًا بالاعتِمادِ عَلى نُسختَيْنِ جدِيدتَيْنِ!

[2]- مُوسيقَى الشّعر العربيّ، النُّعمان القاضي، ووحيد عبد الحكيم الجَمل، دار الثّقافة، ص87، ويُنظر: العصر العبّاسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، صص196،197.

[3]- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص279.

إِنَّا لَفِـــي اغْتِرَارِ *** بِاللَّيْـلِ وَالنَّهَـــارِ.
حَتَّىَ مَتَىَ التَّـــوَانِي *** وَنَـحْنُ فِي التَّفَانِي.
مَا أَوْضَحَ السَّبِيـلَا *** وَأَسْرَعَ الرَّحِيـــلَا.
أَمَا تَـــرَى العُيُـونْ *** وَمَا تَصْنَعُ المَنُونْ.
أَيَنَ الذِّينَ كَـانُوا *** أَفْنَـاهُـمُ الزَّمَـــانُ.
رَأَيْتُ كُلَّ يَـــوْمٍ *** فِيهِ هَـلَاكُ قَـــوْمٍ. "[1]

ثُمَّ يَبْدُو أَنَّ الأَمْرَ رَاقَ لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ، خُصُوصًا وَقَدْ لَقِيَهُ جُمْهُورُهُ بِالاسْتِحْسَانِ، وَرَأَى أَنَّ لِهَذِه المُزْدَوِجَاتِ وَالمُسَمَّطَاتِ وَقْعًا فِي نُفُوسِ سَامِعِيهِ لمَا فِيهَا مِنْ مَلَامِحِ الغِنَائِيَّةِ وَالإِنْشَادِ المُحَبَّبَةِ عِنْدَهُمْ، فَكَانَ يُكْثِرُ مِنْهَا " سَوَاءً فِي الغَزَلِ أَوِ الزُّهْدِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي المَوْتِ الدَّائِرِ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ [مِنَ السَّرِيعِ] [2]:

المَوْتُ بَيْنَ الخَلْقِ مُشْـــتَرَكُ *** لَا سُـــوقَةٌ يَبْقَى وَلَا مَلِكُ.
مَا ضَرَّ أَصْحَابَ القَلِيلِ وَمَـا *** أَغْنَى عَنِ الأَمْلَاكِ مَا مَلَكُوا. "[3]

وَمِثْلُ هَذَا مُتَوَاتِرٌ فِي شِعْرِهِ حَتَّى عَادَ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً تتَرَبَّعُ عَلَى كُرْسِيِّ الصَّدَارَةِ فِي قَصَائِدِهِ كُلِّهَا، عَدَا اسْتِثْنَاءَاتٍ قَلِيلَةٍ. وَسَنَعْرِضُ لِهَذَا التَّلْوِينِ الإِيقَاعِيِّ الذِّي يُمَثِّلُ ظَاهِرَةً لَافِتَةً عِنْدَ شَاعِرِنَا حِينَ نَأْتِي إِلَى تَحْلِيلِ (الأُرْجُوزَةِ ذَاتِ الأَمْثَالِ).

وقَدْ ذَكَرَ عبْدُ الهَادِي عَبْدُ اللهِ عَطِيَّةُ أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ رَوَى " لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ شِعْرًا أَهمَلَ فِيهِ القَافِيَةَ يَقُولُ فِيهِ:

لِلْمَنـُونِ دَائِرَاتٌ *** يَدُرْنَ صِرْفَـــــــهَا.

[1]- ملامح التّجديد في موسيقى الشعر العربي، عبد الهادي عبد الله عطية، م.س، صص107،108.
[2]- الدّيوان، مقطوعة رقم:283.
[3]- العصر العبّاسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، ص198، ويُنظر بِاللّفظ نفسِه: ملامح التّجديد في موسيقى الشعر العربي، م.س، ص105.

هُنَّ يَنْتَقِـــينَنَا *** وَاحِدًا فَوَاحِـــــدَا. "[1]

عَلَى أَنَّنَا لَا نَجِدُ كِتَابَ " الشِّعْرُ وَالشُّعَرَاءُ " يَذْكُرُ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ أَهْمَلَ القَافِيَةَ فِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ، ثُمَّ إِنَّهُمَا فِي الدِّيْوَانِ لَمْ يُثْبَتَا ضِمْنَ نَصٍّ وَاحِدٍ! .. غَيرَ أَنَّ مُحَقِّق الدّيْوان ذَكَرَ فِي هَامِشِ الصّفْحَةِ 522 تَعْلِيقًا علَى البيْتِ الثَّانِي بأَنَّهُ " أَحَدُ بَيْتَيْنِ فِي (الشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ)"، عِلْمًا أَنَّ ابْنَ قُتَيْبَةَ يُشِيرُ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى أَنَّهُ " عِدَّةُ أَبْيَاتٍ "[2]. وَمِنْ هُنَا، وَفِي غِيَابِ النَّصِّ كَامِلًا، يَمْتَنِعُ عَلَيْنا إِثْبَاتُ الحُكْمِ السَّابِقِ أَوْ نَفْيُهُ، وَلَكِنْ قِيَاسًا عَلَى نُصُوصٍ أُخْرَى، سَنُورِدُ مِنْهَا بَعْضَ أَمْثِلَةٍ، فَإِنَّ تَجَاوُزَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ لِلْقَافِيَةِ بِمَعْنَاهَا التَّقْلِيدِيِّ، أَمْرٌ مَقْطُوعٌ بِجُدُوثِهِ!

أَكْثَرُ مِنْ هَذَا، إِنَّ تَجْدِيدَ الشُّعَرَاءِ العَبَّاسِيِّينَ لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ هَذَا الحَدِّ، " فَحَسْبَ بَلْ هُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى القَافِيةِ مِنْ نَاحِيةٍ أُخرَى وَهِي نَاحِيةُ وُقُوفِ مَعْنَى البَيْتِ عِنْدَهَا وَاسْتِقْلَالِهِ عَنْ بَقِيَّةِ القَصِيدَةِ. وَكَانَ الأَقْدَمُون يَرَوْنَ فِي هذَا الخُرُوجِ عَيْبًا كَبِيرًا يُسَمُّونَهُ التَّضْمِينَ، وَلَكِنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ لَمَ يُبَالِ كَثِيرًا بِقَوَاعِدِهِمْ وَخَرَجَ عَلَيْها فِي قَصِيدَتِه التِّي يَقُولُ فِيهَا[مِنَ السَّرِيعِ] [3]:

يَا ذَا الذِّي فِي الحُـبِّ يَلْـحَى*** وَاللهِ لَـوْ كَلِفْـتَ مِنْه كَـمَا.
كَلِفْتُ مِنْ حُبٍّ رَخِـــيمٍ لَـمَا *** لُمْتَ عَلَى الحُبِّ فَذَرْنِي وَمَا.
أَلْقَـــى فَإِنِّي لَسْتُ أَدْرِي بِـمَا *** بُلِـــيتُ إِلَّا أَنَّنِي بَيْنَـــمَا.
أَنَا بِبَابَ القَصْرِ فِي بَعْضِ مَا *** أَطُوفُ فِي قَصْـرِهِم إِذْ رَمَى.
قَلْبِي غَـــزَالٌ بِسِـــهَامٍ، فَمَا *** أَخْطَا بِـهَا قَلْبِي وَلَكِنَّـمَا.

[1]- ملامح التّجديد، م.س، ص110. نفسه، ص110.

[2]- يُنظر:الشّعر والشّعراء، م.س، صص780،779. وفي الدّيوان: البيتُ الأوَّل من مجزوء الرّمل، رقم:156، ص580، والثّاني رقم:68، ص522، يُنظر تفصيلُ ذلك في هامش الصفحة 95 من هذا المبحث.

[3]- الدّيوان، قصيدة رقم: 236، ص638.

سَهْمَاهُ عَيْنَـــانِ لَـــهُ كُلَّمَـا *** أَرَادَ قَتْـلِي بِهِمَا سَلَّـــمَا. "[1]

وَبَعْدَ أَنْ يُثْبِتَ هَذِهِ الأَبْيَاتَ، يُعَلِّقُ المُرْزُبَانِيُّ قَائِلًا:" مُضَمَّنٌ، وَالمُضمَّنُ عَيْبٌ شَدِيدٌ فِي الشِّعْرِ، وَخَيْرُ الشِّعْرِ مَا قَامَ بِنَفْسِهِ، وَخَيْرُ الأَبْيَاتِ عِنْدَهُمْ مَا كَفَى بَعْضُهُ دُونَ بَعْضٍ "[2]. وَهُوَ حُكْمٌ يَلْتَزِمُ مَا اخْتَطَّتْهُ قَوَانِينُ الخَلِيلِ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى اعْتِبَارَاتٍ أُخْرَى تَكُونُ دَفَعتْ أَبَا العَتَاهِيَّةِ إِلَى هَذَا (التَّعَدِّي) عَلَى (حُرْمَةِ) العَرُوضِ، مِنْ ذَلِكَ طَرِيقَتُهُ فِي بِنَاءِ شِعْرِهِ الذِّي كَثِيرًا مَا يُلَامِسُ النَّثْرَ وَيَمْتَحُ مِنْ خَصَائِصِهِ.

وَقَدْ ذَهَبَ مُصْطفَى هَدَارَة مَذْهَبًا آخَرَ فِي قِرَاءَتِهِ لِهَذِهِ الأَبْيَاتِ، إِذْ مِنَ الوَاضِحِ عِنْدَهُ " تَعَمُّدُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، إِنْ صَحَّتِ هَذِهِ القَصِيدَةُ*، الخُرُوجَ عَلَى قَاعِدَةِ القَافِيَةِ التِّي يَنْتَهِي عِنْدَها مَعْنَى البَيْتِ بِحَيْثُ يَبْعِدُ كُلُّ بَيْتٍ عَنِ الآخَرَ وَيَصِيرُ وَحْدَةً مُسْتَقِلَّةً. وَيَظْهَرُ هذَا التَّعَمُّدُ فِي لُزُومِه مَا لَا يَلْزَمُ بِتَصْرِيعِ جَمِيعِ الشُّطُورِ "[3]، وَقَدْ قَوِيَ الاتِّجَاهُ إِلَى مِثْلِ هَذَا التَّلْوِينِ الإِيقَاعِيِّ وَغَيْرِهِ، كَمَا أَسْلَفْنَا، فَلَيْسَ مُسْتَغْرَبًا، إِذَنْ، أَنْ يَجْنَحَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ إِلَى تَجْرِيبِهِ، بَلْ وَالتَّفَنُّنِ فِيهِ.

وَذَكَرَ ابْنُ رَشِيقٍ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي بِنَاءِ القَصَائِدِ تَحْتَ مُسَمَّى (المُخَمَّسِ وَالمُزْدَوجِ) " وَهُوَ: أَنْ يُؤْتَى بِخَمْسَةِ أَقْسِمَةٍ عَلَى قَافِيَةٍ، ثُمَّ بِخَمْسَة أُخْرَى فِي وَزْنِهَا عَلَى قَافِيَةٍ غَيْرِهَا كَذَلِكَ، إِلَى أَنْ يَفْرَغَ مِنَ القَصِيدَةِ، هَذَا هُو الأَصْلُ، وَأَكْثَرُوا مِنْ هَذَا الفَنِّ حَتَّى أَتَوْا بِهِ مِصْرَاعَيْنِ مِصْرَاعَيْنِ فَقَطْ، وَهُو المُزْدَوِجُ، إِلَّا أَنَّ وَزْنَهُ كُلَّه وَاحِدٌ وَإِنْ اخْتَلَفَتِ القَوَافِي، كَذَاتِ الأَمْثَالِ، وَذَاتِ الحُلَلِ، وَمَا شَاكَلَهُمَا، وَلَا يَكُونُ أَقَلَّ مِنْ مِصْرَاعَيْنِ، وَكُلُّ مَشْطُورٍ

---

[1]- اتِّجاهات الشّعر العربيّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، ص550.

[2]- الموشّح، المرزباني، م.س، ص301.

* لعلَّ تَشكِيكَ محمّد مصطفى هدّارة فِي هذَا النَّصِّ لَهُ ما يُبرِّرُهُ أيْضًا بِحكْمِ أَنّ كِتابَهُ طُبِعَ قَبلَ صُدُورِ الدّيوانِ مُحقَّقًا بالاعتِمادِ عَلى نُسختَيْنِ جدِيدتَيْنِ! يُنظر: هامش ص93 مِن هذا المبحث. ويُنظر فيما يخصّ التّشكيك فِي الأبيات: اتِّجاهات الشّعر العربيّ، مُصطفى هدَّارة، م.س، ص544 أيضًا.

[3]- اتِّجاهات الشّعر العربيِّ في القرن الثّاني الهجريّ، محمّد مصطفى هدّارة، م.س، ص550.

أَوْ مَنْهُوكٍ فَهُوَ بَيْتٌ، وَإِنْ قِيلَ مُصَرَّعٌ فَعَلَى المَجَازِ، وِمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَأْتِ مِثْلُهُ عَنِ العَرَبِ فَهُوَ مَصَارِيعُ لَيسَ بِبَيْتٍ "[1].

يَقُولُ أَبُو العتَاهيَّةِ فِي مَطْلَعِ (ذَاتِ الأَمْثَالِ وَالحِكَمِ)[2]:

الحَمْـــــدُ للهِ عَلى تَقْـــدِيرِهِ *** وَحُسْنِ مَا صَرَّفَ مِنْ أُمُـورِهِ.
الحَمْدُ للهِ بِحُسْنِ صُنْـــعِهِ *** شُكْرًا عَلَى إِعْطَائِهِ وَمَنْـــعِهِ.
يَخِيرُ لِلعبْدِ وَإِنْ لَمَ يَشْـــكُرْهُ *** ويَسْتُرُ الجَهْلَ عَلَى مَنْ يُظْهِرُهُ.
خَوَّفَ مَنْ يَجْهلُ مِنْ عِقَـــابِهِ *** وَأَطْمَعَ العَامِلَ فِي ثَـــوَابِهِ.
وَ أَنجَدَ الحُجَّةَ بِالإِرْسَـــالِ *** إِلَيْهِمْ فِي الأَزْمُنِ الخَـــوَالِي.
نَسْتَعْصِمُ اللهَ فَخيْـرُ عَاصِـــمِ *** قَدْ يُسْعِدُ المَظْلُومَ ظُلْمُ الظَّالِمِ.
فَضَّـــلَنَا بِالعَقْـــلِ وَالتَّدْبِيـــرِ*** وَعِلِمِ مَا يَأْتِـي مِنَ الأُمُـــورِ.
يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى لَدَى الشَّدَائِدِ *** وَمَنْ لَهُ الشُّكْرُ مَعَ المَحَامِدِ.
أَنْتَ إِلَـــهِي وَبِكَ التَّوْفِـــــيقُ *** وَالوَعْدُ يُبْدِي نُورَهُ التَّحْقِيقُ.

تَتَأَلَّفُ هَذِهِ الأُرْجُوزَةُ مِن320 بَيْتًا، وَتَزِيدُ بَعْضُ المَرَاجِعِ أَوْ تُنْقِصُ أَبْيَاتًا عِدَّةً، مَعَ اخْتِلَافٍ فِي تَرْتِيبِهَا[3]. وَعَلَى افْتِنَانِ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ بِهَا، وَاحْتِفَائِهِمْ بِمَا حَوَتْهُ مِنْ نَفَائِسَ، نَجِدُها مُثبَتَةً فِي كُتبِ القُدَمَاءِ بِاسْمِ "الأُرْجُوزَةِ" وَ"ذَاتِ الأَمْثَالِ" أَوْ "المُزْدَوِجَةِ" وَغيْرِهَا مِن التَّسْمِيَاتِ، إِذْ لَا يَرْفَعُهَا المُتَعَصِّبُونَ لِلمَرْجِعِ إِلَى مَصَافِّ "القَصِيدَةِ" لِأَسْبَابَ كَثِيرَةٍ، يَأْتِي فِي أَوَّلِهَا اتِّهَامُهُمْ أَبَا العَتَاهِيَّةِ بِالخُرُوجِ عَلَى ضَوَابِطِهِمُ التِّي قَعَّدُوهَا، إِذْ " فَرَضَ عِلْمُ العَرُوضِ سُلطَتَهُ عَلَى المزْدَوِجَةِ فَمَنَعَهَا أَنْ تُمْنَحَ شَرَفَ تَسْمِيتِهَا قَصِيدَةً مَهْمَا طَالَتْ "[4].

---

[1]- العمدة، ج1، ابن رشيق، م.س، ص162.

[2]- الدّيوان، الأُرجُوزَة ذاتُ الأَمثَالِ، صص444-465.

[3]- يُنوِّه المُحقِّق إلى بعضِ الأبيَاتِ المُتناثِرةِ فِي المَرَاجع المُختلِفَةِ، يُنظر: الدّيوان، هامش ص444، ثُمَّ يُثبت الأبيَات فِي هَامش كلِّ صَفحةٍ حسَبَ مُوافقَتِها لِما ذُكِرَ فِي المصَادرِ.

[4]- السّلطة على الأوزان..الوزن الجاهلي وعلم العروض، محمّد تقي جون، م.س.

وَانْظُرْ أَبَا العَلَاءِ المَعَرِّي يَقُولُ عَلَى لِسَانِ خَصْمِ رُؤْبَةَ " أَنَّ الرَّجْزَ لَمِنْ سَفْسَافِ القَرِيضِ، قَصَّرْتُمْ أَيُّهَا النَّفَرُ فَقُصِّرَ بِكُمْ "[1]، وَيُوَاصِلُ التَّعْرِيضَ بِه وَبِـ"شِعْرِهِ" فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّهُ حَتَّى " لَوْ سُبِكَ رَجْزُكَ ورَجْزُ أَبِيكَ، لَمْ تَخْرُج مِنْهُ قَصيدَةٌ مُسْتَحسَنَةٌ "[2]، وهَذَا إِمعَانٌ فِي تَحْقِيرِ هَذَا اللَّوْنِ الذِّي كانَتْ العرَبُ تُصنِّفُه خَارِجَ الشِّعْرِ، أَوْ عَلَى الأَقلِّ، نَوعًا مُفَارِقًا لِمَا يَقُولُهُ الشُّعَرَاءُ الخُلَّصُ، قَالَ الأَغْلَبُ العِجْلِيُّ الشَّاعِر المخَضْرَمُ:

أَرَجْــزًا تُرِيدُ أَمْ قَرِيضَا *** كِلَيْهِمَا أُجِيدُ مُسْتَـــــــرِيضَا[3].

وقَدْ جَاءَ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ لِلبَيهَقِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: " أَنَّ الْوَلِيدَ ابْنَ الْمُغِيرَةِ ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَأَنَّ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَذَكَرَ مَا جَرَى بَيْنَهُمَا، إِلَى أَنْ قَالَ الوَلِيدُ: وَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي..."[4]، فَفِي هَذِه الرِّوَايَةِ بَيَانٌ أَنَّ العَرَبَ كَانَتْ تَفْصِلُ بِوُضُوحٍ بَيْنَ الرَّجَزِ وَالقَصِيدِ، وَتَذْهَبُ فِيهِمَا مَذْهَبًا مُخْتَلِفًا. فلَعَلَّهُمَا قَسِيمٌ مِنَ الشِّعْرِ كَانَ الرَّجَزُ فِيهِ:" جِسْرًا بَيْنَ السَّجْعِ وَالشِّعْر المَنْظُومِ عَلَى أَوْزَانِ الأَبْحُرِ الأُخْرَى. وَهَذَا الرَّجَزُ أَسْهَلُ الأَوْزَان عَلَى القَرِيحَةِ وَأَخَفُّهَا عَلَى الطَّبْعِ، وَأَقْرَبُهَا مَأْخَذًا، حَتَّى يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ كُلَّ شَاعِرٍ تَبْدَأُ شَاعِرِيَّتُهُ بِالرَّجَزِ"[5]. وَالحَقُّ أَنَّ هَذَا الكَلَامَ لَا يَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَى بَسْطٍ وتَفْصِيلٍ.

يَقُولُ ابْنُ التِّينِ:" لَا يُطْلَقُ عَلَى الرَّجْزِ شِعْرًا إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مُرْجَزٌ مُسَجَّعٌ بِدَلِيلِ أَنَّهُ يُقَالُ لِصَانِعِهِ رَاجِزٌ وَلَا يُقَالُ شَاعِرٌ، وَيقَالُ أَنْشَدَ رَجْزًا وَلَا يُقَالُ أَنْشَدَ شِعْرًا، وَقِيلَ أَنَّ مَا

---

[1]- رسالة الغفران، لأبي العلاء المعريّ، تح: عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف، مصر، ط9، د.ت، ص374.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- يُنظر: لسان العرب، م.س، ص264.

[4]- الجامع لِشُعَبِ الإيمان،ج1، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، تح: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرُّشد للنّشر والتّوزيع، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1423هـ/ 2003م، حديث رقم: 133، ص287. ويُنظر: المستدرك على الصّحيحيْن، أبو عبد الله الحاكم النّيسابوريّ، دار الحرميْن للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1417هـ/1997م، حديث رقم 3872.

[5]- مُوسيقا الشّعر العربيّ، محمود فاخوري، منشورات جامعة حَلب، سوريا، د.ط، 1416هـ/1996م، ص164.

قَالَهُ الشَّاعِرُ لَيْسَ بِرَجْزٍ وَلَا مَوْزُونٍ "[1]. وَلَعَلَّ هَذَا التَّبَايُنَ هُوَ الذِّي جَعَلَ ابْنَ رَشِيقٍ يُحْجِمُ عَنِ الفَصْلِ فِي الأَمْرِ، فَيَقُولُ: " فَعَلَى كُلِّ حَالٍ تُسَمَّى الأُرْجُوزَةُ قَصِيدَةً طَالَتْ أَبْيَاتُهَا أَوْ قَصُرَتْ، وَلَا تُسَمَّى القَصِيدَةُ أُرْجُوزَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ أَحَدِ أَنْوَاعِ الرَّجْزِ التِّي ذَكَرْتُ، وَلَوْ كَانَتْ مُصَرَّعَةَ الشُّطُورِ كَالذِّي قَدَّمْتُهُ؛ فَالقَصِيدُ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ الرَّجْزِ، وَلَيْسَ الرَّجْزُ مُطلَقًا عَلَى كُلِّ قَصِيدٍ أَشْبَهَ الرَّجْزَ بِالشَّطْرِ"[2].

وَالوَاقِعُ أَنَّ إِمْسَاكَ العَصَا مِنَ الوَسَطِ كَمَا يَفْعلُ صَاحِبُ (العُمْدَةِ) هُنَا، لَا يُخَلِّصُنَا مِنْ حَيْرَتِنَا، وَلَيْسَتْ تَسْنَحُ طَبِيعَةُ هَذَا البَحْثِ أَنْ نُفَصِّلَ فِيهَا الآنَ، وَإِنَّمَا سُقْنَاهُ مِنْ بَابِ تَأْكِيدِ مُحَاوَلَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ التَّجْدِيدَ فِي الإِيقَاعِ مِنْ نَاحِيَةِ الخَوْضِ فِي لَوْنٍ (شِعْرِيٍّ) كَانَ مَثَارَ جَدَلَ حِينَها، وكَأَنَّ الشَّاعِرَ بِهَذا الصَّنِيعِ يُرِيدُ إِلَى أَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُما: تأْجِيجَ ذاكَ الصِّرَاعِ ثَوْرَةً عَلَى المَرْجِعِ وَإِغَاضَةً لَهُ، وهُوَ الذِّي يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِامْتِلاَكِ حَقِيقَةَ الشِّعْرِ، وَمِنْ ثَمَّ تَصْنِيفِ الشُّعَرَاءِ، وَالثَّانِي، وَهُوَ مُرتَبِطٌ بِسَابِقِهِ: إِظْهَارُ القُدْرَةِ وَالبَرَاعَةِ فِي النَّسْجِ عَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ دَحْضًا لِلمَنْزَعِ الأَوَّلِ وَهَدْمَا لَهُ، وَإِثْبَاتًا لِشَاعِرِيَّةٍ يُمْكِنُهَا أَنْ تَرْكَبَ كُلَّ المَخَاطِرِ، وَبِنَفَسٍ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ!

هَلْ لَنَا أَنْ نَقُولَ بَعِدَ هَذَا: إِنَّ صِرَاعَ الشُّعَرَاءِ مَعَ الآخَرِ، الذِّي يَسْعَى إِلَى فَرْضِ نَمَطٍ مُعَيَّنٍ لِلخِطَابِ هُوَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ مِنَ البَوَاعِثِ المُهِمَّةِ فِي الإِبْدَاعِ؟ مَا مِنْ شَكٍّ، بَعْدَ الذِّي مَرَّ بِنَا، أَنَّ ذَلِكَ حَقِيقِيٌّ فِي بَعْضِ وُجُوهِهِ، وَلَعَلَّ اخْتِلَافَ الخِطَابِ عِنْدَ الشَّاعِرِ الوَاحِدِ يَنْبُعُ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ (يَفْرِضُ) عَلَيْهِ جُمْلَةَ ضَوَابِطٍ تَظْهَرُ فِي نُصُوصِهِ بِأَشْكَالٍ وَفِي مُسْتَوَيَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، قَدْ يَكُونُ الإِيقَاعُ مِنْ أَجْلَى صُوَرِهَا التِّي تُسَاعِدُنَا فِي مُقَارَبَةِ أَيِّ شَاعِرٍ، إِذْ " لَمَّا كَانَ الإِيقَاعُ يَخْتَلِفُ مِنْ خِطَابٍ إِلَى آخرَ وَتَخْتَلِفُ مُكَوِّنَاتُهُ النَّمَطِيَّةُ مِنْ

[1]- عُمدَةُ القَارِي شَرْحُ صَحيح البُخارِي، ج4، بدر الدّين أبي محمّد محمود بن أحمد العينيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ /2001م، ص262.

[2]- العمدة، ج1، ابن رشيق القيروانيّ، م.س، ص342.

ثَقَافَةٍ إِلَى أُخْرَى وَمِنْ عَصْرٍ إِلَى عَصْرٍ فَإِنَّ الدَّارِسَ مَدْعوٌّ إِلَى أَنْ يُرَاعِيَ خَصَائِصَ الثَّقَافَةِ طَالَمَا كَانَتِ الذَّاتُ مُنْتَسِبَةً إِلَيْهَا "[1]، تَمَامًا كَمَا فَعَلَ الشَّاعِرُ حِينَ بَاشَرَ إِبْدَاعَهُ وَاضِعًا فِي الاعْتِبَارِ بَيْئَتَهُ وَمُحِيطَهُ.

وَنَتَسَاءَلُ مَرَّةً أُخْرَى: هَلْ عَلَى أَبِي العَتَاهِيّة وَأَقْرَانِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ أَنْ يَتَنَزَّلُوا عِنْدَ (مُكْرَهَاتِ) ظُرُوفِ الإِبْدَاعِ وَيَخْضَعُوا لَهُ؟ أَمْ أَنَّ التَّجْدِيدَ وَالتَّجَاوُزَ غَايَةُ كُلِّ مُبْدِعٍ وَمَقْصِدُ كُلِّ فَنَّانٍ؟! وَنُجِيبُ مَعَ أَحْمَدَ حِيزَم بِأَنَّ السُّنَّةَ الشِّعْرِيَّةَ المُتَّبَعَةَ لَيْسَتْ " قُوَّةً مُكَبِّلَةً...وَإِنَّمَا هِيَ قُوَّةٌ مُحَرِّرَةٌ لِلمُعْطَى، تُحَرِّرُهُ مِنْ وَضْعِ الثُّبُوتِ، وَتُجْرِيهِ فِي مجَارِي الحَيَاة، وَإِنْ ظَلَّتِ المَرْجِعَ الدَّائِمَ فِي التَّصْنِيف وَصِنَاعَةِ المَعْنَى"[2]، فَالثَّقَافَةُ السَّائِدَةُ "هِيَ القَدِيمُ وَالنَّصُّ هُوَ الحَادِثُ. لَهَا عَلَيْهِ أَسْبَقِيَّةُ الوُجُودِ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي وُجُودِهِ وَلَكِنْ لَهُ عَلَيْهَا حَاجَةُ التَّصْرِيفِ. فَهُو الذِّي يُصَرِّفُهَا تَصَارِيفَ جَدِيدَةً تُشَاكِلُ بَهَا الوَقْتَ "[3] وَتُسَايِرُ بِهَا مَا يَطْرَأُ فِي المُجْتَمَعَاتِ مِنْ طَفَرَاتٍ: فِكْرِيَّةٍ ، وَثَقَافِيَّةٍ، وَاجْتِمَاعِيَّةٍ.

نَعُودُ مَعَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي" أُرجُوزَتِهِ" لِنَقُولَ: إِنَّهُ نَصٌّ يَزْخَرُ بِالمُحَاوَلاتِ التَّجْدِيدِيَّةِ، مَعَ سُهُولَةٍ وَانْسِيَابِيَّةٍ لَافِتَتَيْنِ، مَا يَجْعَلُهَا تُمَثِّلُ بِصِدْقٍ ظَاهِرَةً أُسْلُوبِيَّةً مُتَمَيِّزَة عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ، تُؤَكِّدُ مَنْهَجَهُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ الإِيقَاعِيَّةِ، اللُّغَوِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ، وَالذِّي اشْتَغَلَ عَلَى إِنْضَاجِهِ مِنْ خِلَالِ تَجْرِبَتِهِ الطَّوِيلَةِ، وَحِسِّهِ الفَنِّيِّ عَبْرَ نُصُوصِهِ المُتَعَدِّدَةِ، وَهُوَ مَا سَنَعْمَلُ عَلَى جَلَائِهِ عَبْرَ قِرَاءَتِنَا هَاتِهِ.

فَعَلَى امْتِدَادِ هَذَا النَّصِّ الطَّوِيلِ لِشَاعِرٍ مُكْثِرٍ، شَغُوفٍ بِالقَصَائِدِ القَصِيرَةِ وَالمُقَطَّعَاتِ، كَمَا يَعْكِسُ ذَلِكَ دَيْوَانِهِ، يُمَارِسُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ (مُتْعَةَ) المُخَالَفَةِ وَالخُرُوجِ عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ، فَهُوَ يَلْعَبُ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ مُسْتَوَى لِإِحْدَاثِ الفَجْوَةِ، وَاسْتِقْطَابِ اهْتِمَامِ

[1]– *H.Meschonniic, Critique du rythme*، يُنظر: " نحو مقاربة إنشائية للإيقاع "، أحمد حيزم، م.س، ص76.

[2]– حدثُ الاتّباع، أحمد حيزم، مجلة موارد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، جامعة الوسط، تونس، ع:8، 2003م، ص75.

[3]– نفسه، ص.ن.

المُتَلَقِّي. وَتَتَكَوَّنُ هَذهِ الإِيقَاعِيَّةُ مِنْ مَجْمُوعَةِ عَنَاصِرَ مُتَلَاحِمَةٍ، تُشَكِّلُ نَسِيجًا مُتَمَاسِكًا، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَفْصِل بَيْنَ مُكَوِّنَاتِهِ إِلَّا بِقَصْدِ الإِحَاطَةِ بِجَمِيعِ خَصَائِصِهَا حِينَ الدَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ.

تَعْمَلُ هَذِهِ المُكَوِّنَاتُ الأُسْلُوبِيَّةُ، مُجتَمِعَةً، عَلَى تَكْثِيفِ الإِيقَاعِ الدَّاخِلِيِّ لِلنَّصِّ، وَتُشكِّلُ طَرَائِقَ تَمَظْهُرِهِ وَتُنَوِّعُهَا، فَتُسْهِمُ فِي تَفْعِيلِ التَّجْرِبَة الشِّعْرِيَّةِ وَتُبْرِزُ مُمَيِّزَاتِهَا، لِتَتَآزَرَ بِذَلِكَ الأَنْسَاقُ الصَّوْتِيّةُ وَالدَّلَالِيّةُ لِجَعْلِ النَّصِّ أَكْثَرَ انْسِجَامًا وَاتِّسَاقًا، وَتَتَلَاحَمُ بِنْيَتُهُ " لِتُحَقِّقَ أَغْرَاضًا صَوْتِيَّةً تَرْفعُ مُوسِيقَى القَصِيدَةِ نَحْوَ آفَاقَ فَنِّيَّةٍ مِنْ جِهَةٍ، وَأَغْرَاضٍ دَلَالِيَّةٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى "[1]. وَهَذَا الذِّي نَرَى أَبَا العَتَاهِيَّةِ قَدْ اخْتَارَهُ أُسْلُوبَا فَنِّيًّا يَنْسُجُ عَلَى مِنْوَالِهِ، وَيَبْنِي بِهِ نُصُوصَهُ، خُصُوصًا الزُّهْدِيِّ مِنْهَا، عَبْرَ:

1/ التَّنْوِيعُ فِي عَدَدِ الأَبْيَاتِ، التِّي تَأْتِي عَلَى شَكْلِ مُزْدَوِجَاتٍ، وَقَدْ تَتَحَوَّلُ فِي بَعْضِ مَحَطَّاتِ القَوْلِ إِلَى مُثَلَّثَاتٍ أَوْ مُرَبَّعَاتٍ.

2/ التَّنْوِيعُ فِي الأَوْزَانِ، بِاسْتِخْدَامِ بُحُورٍ أَوْ مَجْزُوءَاتِ بُحُورٍ مُخْتَلِفَةٍ.

3/ التَّنْوِيعُ فِي القَوَافِي، بَلْ وَالخُرُوجُ عَلَى مَا اعْتَادَتْهُ العَرَبُ فِيهَا.

4/ التَّنْوِيعُ فِي حَرْفِ الرَّوِيِّ.

5/ التَّنْوِيعُ فِي حَرَكَةِ الرَّوِيِّ.

6/ الحَرَكَاتُ وَالسَّوَاكِنُ وَالمُدُودُ.

7-1: إِيقَاعُ الصَّوْتِ المُفْرَدِ:

7-1-1: إِيقَاعُ الحُرُوفِ:

تَحَدَّثَ ابْنُ جِنِيٍّ، وَهُوَ يَعْرِضُ لِمَسْأَلَةِ الأَصْوَاتِ، عَنْ عَلَاقَتِهَا بِالمَعْنَى، وَإِنْ كَانَ كَلَامُهُ قَاصِرًا عَنْ بُلُوغِ مَاهِيَةِ تِلْكَ العَلَاقَةِ وَخُصُوصِيَّتِهَا فِي مُجْمَلِهَا، حَيْثُ اكْتَفَى

[1]- شِعرُ ابن الجوزي – دراسة أسلوبيّة، سامي شهاب أحمد الجُبُورِي، دار غَيدَاء للنّشر والتّوزيع، د.ط، 2011م، ص100.

بِالإِشَارَةِ إِلَى قُدْرَةِ الصَّوْتِ المفْرَدِ عَلَى الإِيحَاءِ بِالمَعْنَى " وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ المعْنَى العَامَّ لِلْكَلِمَةِ هُوَ خُلَاصَةُ الأَصْوَاتِ البَسِيطَةِ "[1]. وَكَانَ الفَرَاهِيدِيُّ قَدْ جَمَعَ مَا جَاءَ عَلَى أَلْسُنِ العَرَبِ مِنْ حُرُوفِ الهِجَاءِ، وَحَاوَلَ تَتَبُّعَ مَعَانِيهَا وَاسْتِقْرَاءَهَا مِنْ خِلَالِ مَا تُعَبِّرُ عَنْهُ فِي وَاقِعِهِمْ اللُّغَوِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، إِذْ يَقُولُ: "وَقَدْ جَمَعْتُ الحُرُوفَ كُلَّهَا مَعَ معَانِيهَا، التِّي وَرَدَتْ عَنِ العَرَبِ، وَقَدْ أَلَّفْتُهَا عَلَى حَسَبِ مَا سَنَحَ لِي "[2]، مُسْتَأْنِسًا فِي ذَلِكَ بِمَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ فَهْمٍ لِتَقَالِيدِهِمْ الكَلَامِيَّةِ المُتَوَارَثَةُ.

إِنَّ تَتَبُّعَ الأَصْوَاتِ دَاخِلَ النُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ، وَالبَحْثَ فِي هَنْدَسَتِهَا الخَاصَّةِ، هُوَ مِنْ أَهَمِّ طَرَائِقِ الكَشْفِ عَنْ خَصَائِصِهَا الأُسْلُوبِيَّةِ، وَفَهْمِ جَمَالِيَّةِ الحَرْفِ فِي تَفَاعُلِهِ مَعَ بَقِيَّةِ العَنَاصِرِ حَتَّى يَسْتَوِيَ النَّصُّ وَاقِعًا قَائِمًا بِذَاتِهِ، يُحِيلُ عَلَى فِكْرِ صَاحِبِهِ، وَيُلْهِمُ المُتَلَقِّي سُبُلَ اللَّذَّةِ المُضَاعَفَةِ، التِّي لَا تَكْتَفِي بِالقِرَاءةِ الأُولَى المُسْتَعْجِلَةِ. فَكَثَافَةُ الحُرُوفِ، وَطَرِيقَةُ اخْتِيَارِهَا وَتَوْزِيعِهَا تَفْتَحُ آفَاقًا غَيْرَ تِلْكَ التِّي تَعَوَّدَ القَارِئُ التَّعَامُلَ مَعَها بِنَمَطِيَّةٍ، فَـ " الوَظِيفَةُ الصَّوْتِيَّةُ لِلأَلْفَاظِ وَالصِّيَغِ الشِّعْرِيَّةِ تَتَحَدَّدُ دَاخِلَ إِطَارِ النَّصِّ بِقُدْرَتِهَا عَلَى الإِيحَاء وَخِدْمَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ انْفِعَالٍ مُعَيَّنٍ، فَإِنَّنا نَجِد أَنَّ النَّصَّ بِعَامَّةٍ يَخْدُمُ رَغْبَةً خَارِجَةً عَنْ إِطَارِ التَّعْبِيرِ الشِّعرِيِّ وَالفَهْمِ الصَّحِيحِ لِلْعَمَلِيَّةِ الشِّعرِيَّةِ، تَتَجَلَّى فِي إِظْهَارِ البَرَاعَةِ بِالإِكْثَارِ مِنَ الأَلْفَاظِ التِّي تَشْتَرِكُ فِي تَكَوُنها مِن حُرُوفٍ مُعَيَّنَةٍ "[3]، إِنْ كَانَ ذَلِكَ يَتِمُّ بِوَعْيٍ مُتَيَقِّظٍ وَلَيْسَ تَكْدِيسًا لِلكَلِمَاتِ التِّي تَتَشَابَهُ مَخَارِجُ حُرُوفِهَا، وَإِلَّا تَحَوَّلَتِ العَمَلِيَّةُ، ثِقَلاً وَسُخْفًا، إِلَى نَتَائِجَ عَكْسِيَّةٍ.

لَقَدْ كَانَ الجَاحِظُ مِنْ الذِّينَ تَعامَلُوا مَع هَذِه الفَنِّيةِ الأُسْلُوبِيَّةِ حَيْثُ أَدْرَجَهَا تَحْتَ

[1]- الخِطابُ الشّعريُّ العربيُّ الحديثُ، المصادر والآليات، جودة كسّاب، مؤسّسة حمادة للدّراسات و النّشر والتّوزيع، دار اليَازُوري، الأردن، ط1، 2011م، ص132.

[2]- الحُرُوف، الخليل بن أحمد، تح: رمضان عبد التّواب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ط1، 1969م، ص28 وما بعدها.

[3]- مدرسة الإحياء والتّراث دراسة في أثرِ الشِّعْر العَرَبِيّ القَديم علىَ مَدرسة الإحيَاءِ في مصر، إبراهيم السّعافين، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص422.

مُسَمَّى (الاقْتِرَانِ)، فَيَقُولُ: " أَمَّا فِي اقْتِرَانِ الحُرُوف فَإِنَّ الجِيمَ لَا تُقَارِنَ الظَّاءَ وَلَا القَافَ وَلَا الطَّاءَ وَلَا الغِينَ بِتَقْدِيمٍ وَلَا بِتَأْخِيرٍ. وَالزَّايُ لَا تُقَارِن الظَّاءَ وَلَا السِّينَ وَلَا الضَّادَ وَلَا الذَّالَّ، بِتَقْدِيمٍ وَلَا بِتَأْخِيرٍ. وَهَذَا بَابٌ كَبِيرٌ. وَقَد يُكْتَفَى بِذِكْر القَلِيلِ حَتَّى يُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الغَايَةِ التِّي إِلَيْهَا يُجْرَى"[1]. وَهُوَ بِهذَا يُشِيرُ إِلَى ضَرُورَةِ تَحْقِيقِ التَّجَانُسِ وَالتَّنَاغُمِ الصَّوْتِيِّ فِي بِنْيَة الكَلِمَةِ، بِحَيثُ تَكُونُ حُرُوفُهَا مُتَآلِفَةً مُتَنَاسِقَةً، لَيسَ بَيْنَها تَنَافُرٌ، لِيَكُونَ اللَّفْظُ " خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا " وَ"رَشِيقًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلاً "[2]، كَمَا نَصَحَ بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ.

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ الرُّمَّانِي كَانَ أَوَّلَ مَنْ نَبَّهَ إِلَى قَضِيَّةِ (التَّلَاؤُمِ والتَّنافُرِ)- الاقْتِرَان عِنْدَ الجَاحِظُ – حِينَ تَحَدَّثَ عَنِ الانْسِجَامِ بَيْنَ الحُرُوفِ فِي الأُسلُوبِ القُرْآنِيِّ، مُوَضِّحًا أَثَرَ ذَلِكَ فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ، إِذْ يَقُولُ أَنَّ " المُتَلَائِمَ فِي الطَبَقَةِ العُلْيَا القُرْآنُ كُلُّهُ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ "[3]. وَمِنَ المُعَاصِرِينَ الذِّين اهْتَمُّوا بِهَذَا الجَانِبِ مِنْ تَنَاسُقِ الحُرُوفِ وَتَوَافُقِهَا سَمِيرُ أَبُو حَمْدَانَ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا حَرْفَ مِنْ أَحْرُفِ الكَلِمَةِ يَخْلُو مِنْ صَوْتٍ وَمُوسِيقَى خَاصَّةٍ بِهِ، وَمِنْ ثَمَّ هُوَ يَأْتَلِفُ مَعَ أَصْوَاتٍ وَيَخْتَلِفُ مَعَ أُخْرَى، مِمَّا يُحَتِّمُ عَلَى المتَكَلِّمِ اخْتِيَارَ المُؤْتَلِفِ وَرَصْفُهُ إِلَى جَنْبِ بَعْضِهِ بَعْضًا لِيَقعَ مِنَ النَّفْسِ مَوْقِعًا حَسَنًا[4]، وَهِيَ ذَاتُ فِكْرَةِ الأَوَائِلِ مِمَّنْ ذَكَرْنَا كَالرُّمَّانِيِّ وَالجَاحِظِ، وَقَبْلَهُمَا بِشْرٌ فِي صَحِيفَتِهِ.

نَبْدَأُ تَحْلِيلَنَا، إِذَنْ، بِالحُرُوفِ وَدَوْرِهَا فِي نَمَاءِ النَّغَمِ وَتَنَوُّعِهِ، وَانْتِقَالِهِ بِسَامِعِهِ إِلَى فَضَاءَاتٍ أُخْرَى مِنَ التَّأْثِيرَاتِ التِّي لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِما تَبُثُّه تِلْكَ الاخْتِيَارَاتُ الصَّوْتِيَّةُ فِي الأَنْفُسِ وَتَسْتَدْعِيهِ مِنْ أَعمَاقِهَا ذَاتِهَا. وَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ الشَّاعِرِ القَدِيمَ قَدْ أَدْرَكَ فَاعِلِيَّةَ

[1]- البيان والتبيين، ج1، الجاحظ، م.س، ص69.

[2]- نفسه، ص136.

[3]- ثلاث رسائل في إعجاز القُرآن – النُّكت في إعجازِ القرآن، أبِي الحسن عليّ بن عيسى الرّماني، تح: محمّد خلَف الله ومحمّد زغلول سلاّم، ط3، دار المعارف، مصر، ص95.

[4]- ينظر: الإبلاغيّة في البلاغة العربيّة، سمير أبو حمدان، م.س، ص76.

التَّكْرَارِ الصَّوتِيِّ وَتَلْوِينَاتِهِ، وَعَمِلَ عَلَى تَحْقِيقِهَا فِي أَشْعَارِهِ، " فَيَنْبَغِي إِذَنْ أَنْ يُلْتَمَسُ التَّعْلِيلُ فِي القِيمَة الجَمَالِيَّةِ لِكُلِّ صَوْتٍ مِنَ هَذِهِ الأَصْوَاتِ. وَهَذِهِ القِيمَةُ الجَمَالِيَّةُ تَتَحَدَّدُ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا النَّغمَةُ المُمَيِّزَةُ لِكُلِّ صَوْتٍ مِنَ الأَصْوَاتِ، وَغِنَى الصَّوْتِ بِالنَّغَمَاتِ الثَّانَوِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ الموسِيقِيُّونَ (*timbre*)، أَوْ الإِحْسَاسَ الحَرَكِيَّ المُصَاحِبَ لِلنُّطْقِ بِالصَّوْتِ "[1].

إِنَّ " الإِيقَاعَ الشِّعْرِيَّ الذِّي تُسَيْطِرُ قَوَانِينُهُ الدَّاخِلِيَّةُ عَلَى النَّصِّ بِكُلِّ مُكَوِّنَاتِهِ هُوَ الذِّي يَنْتَقِي مَا يُلَائِمُهُ مِنْ أَصْوَاتٍ تُوحِي بِالمَشَاعِرِ التِّي تَرِقُدُ تَحْتَ ذَلِكَ البِنَاءِ، وَيُسْهِمُ الخَيَالُ بِدَوْرٍ كَبِيرٍ فِي عَمَلِيَاتِ الانْتِقَاءِ، وَالتَّأْلِيفِ، وَقَدْ وَعَى أَفْذَاذُ الشُّعَرَاءِ القِيَمَ الإِيحَائِيَّةَ لِلأَصْوَاتِ وَعْيًا لَا شُعُورِيًّا الأَمْرُ الذِّي جَعَلَ كَثِيرًا مِنَ النُّقَّادِ يُدْرِكُونَ أَنَّ تَرْجَمَةَ الشِّعْرِ أَمْرٌ مُتَعَذِّرٌ، لِأَنَّ الشِّعْرَ يَفْقِدُ خَصَائِصَهُ الإِيحَائِيَّةَ بِفُقْدَانِ القِيَمِ الصَّوتِيَّةِ التِّي يَتَمَتَّعُ بِهَا فِي لُغَتِهِ الأَصْلِيَّةِ "[2]، مِمَّا يُدَلِّلُ عَلَى أَهَمِيَّةِ اللُّغَةِ، بِكُلِّ مُكَوِّنَاتِهَا، فِي تَحْقِيقِ جَمَالِيَّةِ الإِيقَاعِ، وَإِثْرَاءِ النَّصِّ مُوسِيقِيًّا بِجَعْلِ جَمِيعِ عَنَاصِرِهِ طَرَفًا فِي المُعَادَلَةِ المُرَكَّبَةِ لِلدَّلَالَةِ.

إِنَّ تَرْدِيدُ حُرُوفٍ بِعَيْنِهَا فِي كُلِّ بَيْتٍ يُحدِثُ أَصْوَاتًا وَإِيقَاعَاتٍ مُوسِيقِيَّة مُحَدَّدَةً تُسْهِمُ، وَلَا شَكَّ، فِي تَشَكُّلِ المَعنَى العَامِّ لِلنَّصِّ، وَتَصْبَغُهُ بِطَابِعٍ يَستَغِلُّ الطَّاقَاتِ الجَمَالِيَّةَ لِلْصَّوْتِ وَدَرَجَاتِهِ المُختَلِفَةِ فِي تَمَاسُكِ الخِطَابِ. فَـ" مِنْ خِلَالِ التَّرْكِيبِ الصَّوْتِيِّ لِلكَلِمَةِ "[3]، أَيْ طَبِيعَةَ حُرُوفِهَا وَتَرْتِيبِهَا وَعَدَدِهَا وَنَوْعِهَا وَصِفَاتِهَا تُثِير المَعْنَى وَتَقْدَحُهُ فِي ذِهْنِ المُتَلَقِّي، مُسْتَدْعِيَةً، عَنْ طَرِيقِ المُحَاكَاةِ الصَّوْتِيَّةِ دَلَالَاتٍ احْتَجَبَتْ وَاسْتَعْصَتْ عَلَى التَّفْسِيرِ فِي صُورَتِهَا اللُّغَوِيَّةِ، وَتُفكِّكُ العَلَاقَاتِ وَتُعِيدُ نَسْجَهَا، إِذْ " مَعْنَى القَصِيدَةِ إِنَّمَا يُثِيرُهُ بِنَاءُ الكَلِمَاتِ كَأَصْوَاتٍ أَكْثَرَ مِمَّا يُثِيرُهُ بِنَاءُ الكَلِمَاتِ كَمَعَانٍ وَذَلِكَ التَّكْثِيفُ لِلمَعْنَى

---

[1]- موسيقى الشّعر العربيّ، محمّد شكري عيّاد، م.س، صص126،127.

[2]- الاتّجاه الأسلوبيّ البنيويّ في نقد الشّعر العربيّ، عدنان حسين قاسم، مؤسّسة علوم القرآن، عجمان الإمارات العربيّة المتّحدة، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 1412هـ/1992م، ص164.

[3]- البلاغَةُ والأُسلُوبيّةُ - نحْو نَموذجٍ سيميَائيٍّ لِتَحلِيل النُّصُوص، هنري بليث، إفريقيا الشّرق، المغْرِبُ- وَبيرُوت، لبنان، د.ط، 1999م، ص152.

الذَّي نَشْعُرُ بِهِ فِي أَيَّةِ قَصِيدَةٍ أَصْلِيَّةٍ إِنَّمَا هُوَ حَصِيلَةٌ لِبِنَاءِ الأَصْوَاتِ "[1]، لِذَا مِنَ المُهِمِّ جِدًّا الالْتِفَاتُ إِلَى هَذِهِ الخَاصِّيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي أَيَّةِ قِرَاءَةٍ جَادَّةٍ لِلنُّصُوصِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَظُرُوفِ إِنْتَاجِهَا، وَأَحْوَالِ مُبْدِعِهَا.

وَحَيْثُ إِنَّ طَبِيعَةَ البَحْثِ هُنَا لَا تَسْمَحُ بِإِيرَادِ كُلِّ الأَمْثِلَةِ عَلَى تَكْرَارِ الحُرُوفِ التِّي تَمْنَحُهَا أُرْجُوزَةُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، فَسَنَكْتَفِي بِبَعْضِ النَّمَاذِجِ المُتَفرِّقَةِ، وَالتِّي سَتُتِيحُ لَنَا، فِيمَا نَعْتَقِدُ، تَبَيُّنَ مَدَى مَيْلَ الشَّاعِرِ إِلَى هَذِهِ الخَاصِّيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، وَالتِّي هُوَ، حَتْمًا، يُدْرِكُ وَقْعَهَا فِي نُفُوسِ المُتَلَقِّينَ، فَلَا يَكَادُ يُخْلِي مِنْهَا بَيْتًا، مِن ذَلكَ قَولُهُ:

22- يُغْنِيكَ قَوْلٌ قَبِيـــــــحٌ تَرْكُهُ *** قَدْ يُوهِنُ الرَّأْيَ الأَصِيـــلَ شَكُّهُ.
23- لِكُلِّ قَلْبٍ أَمَلٌ يُقَـــــــلِّبُهُ *** يَصْدُقُه طَوْرًا وَطَـــــوْرًا يُكْـذِبُهُ.
24- المَكْرُ وَ الخِبُّ أَدَاةُ الغَـــادِرِ*** وَالكَذِبُ المَحْضُ سِلَاحُ الفَاجِرِ.
25- لَمْ يَصْفُ لِلمَرْءِ صَدِيقٌ يَمْذُقُهُ *** لَيْسَ صَدِيقُ المَرْءِ مَنْ لَا يَصْدُقُهُ.
26- مَعْرُوفُ مَنْ مَنَّ بِهِ خِـــدَاجُ *** مَا طَابَ عَذْبٌ شَـــابَهُ عَجَاجُ.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ يُكَرِّرُ " القَافَ " عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَ" الكَّافَ " ثَمَانِي مَرَّاتٍ فِي هذِهِ الأَبْيَاتِ، وَإِذَا عَلِمْنَا بِأَنَّهُمَا مِنَ الحُرُوفِ اللَّهَوِيَّةِ، وَاللَّهَاةُ مَوْقِعُهَا بَيْنَ أَوَّلِ الحَلْقِ وَالفَمِ، انْتَبَهْنَا إِلَى كَيْفِيَّةِ إِسْهَامِهِمَا فِي تَقْوِيَةِ المَعنَى المُتَضمَّنِ فِي البَيْتِ22: (يُغْنِيكَ " قَوْلٌ قَبِيحٌ تَرْكُهُ ")، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يَرْسُمُ صُورَةً لِمَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ رَدَّةُ الفِعْلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ، أَيْ مَنْعُ القَوْلِ القَبِيحِ مِنْ أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى عُمْقِ الذَّاتِ، إِذْ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَلْفُظَهُ وَيَمُجَّهُ مِنْ فِيهِ، فَيَجْعَلَ بِذَلِكَ هَذَا القَوْلَ مَحْصُورًا فِي مَسَارٍ ضَيِّقٍ مَحْدُودٍ. وَالقَافُ حَرْفُ قَلْقَلَةٍ، وَهِيَ تَرجِيعٌ وَمُعَاوَدَةٌ، صَوْتٌ يَدُلُّ علَى " الانْفِجَارِ وَالقُوَّةِ وَالقَسَاوَةِ وَالصَّلَابةِ وَالشِّدَّةِ "[2]، وَكَأَنَّ الرَّدْعَ وَالحَزْمَ هُوَ الطَّرِيقَةُ المُثْلَى لِلتَّعَامُلِ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ!

[1]- الشّعرُ والتّجربَةُ، أَرشيبالد مكليش، تر:سلمى خضراء الجيّوسي، مر: توفيق الصّايغ، دار اليقظة العربيّة، بيروت، د.ط، 1963م، ص23.
[2]- خصائصُ الحُروف في اللُّغةِ العَربيَّة- دراسة، حسن عباس، منشورات اتّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1998م، ص145.

وَيَسْتَمِرُّ إِيقَاعُ القَافِ هَذَا فِي البَيْتِ 23: " لِكُلِّ قَلْبٍ أَمَلٌ يُقَلِّبُهُ "، إِيقَاعٌ يُوَافِقُ تَقَلُّبَ أَحْوَالِ الإِنْسَانِ مَعَ تَعَاقُبِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَإِيقَاعُ الفِعْلِ المُضَارِعِ الدَّالِ عَلَى اسْتِمْرَارِ الصِّرَاعِ وَدَوَامِهِ مُتَقَلِّبًا بَيْنَ الصِّدْقِ وَالكَذِبِ، أَلَيْسَ تَسْمِيَّتُهَا بِالقُلُوبُ لِتَغيُّرِها وَعَدَمِ ثَبَاتِهَا؟! وَهُوَ حِينَ يُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ فِي قَوْلِهِ: " يَصْدُقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَكْذِبُهُ " يُعْطِينَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى الصُّورَةِ الذِّهْنِيَّةِ، صُورَةً سَمْعِيَّةً لِعَمَلِيَّةِ التَّقَلُّبِ، وَكَأَنَّ حَرْفَ العَطْفِ " الوَاوُ " مَعَ تَجَاوُرِ كَلِمَتَيْ طَوْرًا وَتَنْوِينِهُمَا، زِيَادَةً عَلَى حَرَكَةِ الضَّمِّ فِي " يَصْدُقُهُ-يَكْذِبُهُ " أَوْحَى بِإِيقَاعٍ مُتَتَابِعٍ مُتَوَاتِرٍ لَكِنْ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَعَاكِسَيْنِ نُقْطَةُ رَجْعِهِمَا وَاحِدَةٌ " الواوُ ".

وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ عَنِ "القَافَاتِ" الأَرْبَعِ فِي البَيْتِ25، وَالتِّي عَدَّلَ الشَّاعرُ بَعْضَ قُوَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا بِتِلْكَ "الصَّادَاتِ" الأَرْبَعِ أَيْضًا لِيُحْدِثَ تَوَازُنًا إِيقَاعِيًّا فِي الأُذُنِ، وَالصَّادُ " إِنَّمَا هُوَ تَفخِيمٌ لِحَرْفِ السِّينِ وَصَفِيرِيٌّ مِثْلُهُ، إِلَّا أَنَّهُ أَمْلَأُ مِنْهُ صَوْتًا، وَأَشَدُّ تَمَاسُكًا، فَهُو مِنْ أَصْوَاتِ الحُرُوفِ كَالرَّصَاصِ مِنَ المَعَادِنِ رَجَاحَةَ وَزْنٍ، وَكَالرُّخَامِ الصَّقِيلِ مِنَ الصُّخُورِ الصَّمَّاءِ صَلَابَةً وَنُعُومَةَ مَلْمَسٍ، وَكَالإِعْصَارِ مِنَ الرِّيَاحِ، صَرِيرَ صَوْتٍ يَقْدَحُ نَارًا "[1]، فَصُدُورُ هَذَيْنِ الحَرْفَيْنِ مِنْ مَخْرَجَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ نِسْبِيًّا، مَعَ تَمَاثُلِهِمَا، إِلَى دَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الصَّلَابَة وَالقُوَّة، بَيْنَ شِدَّةٍ وَحِدَّةٍ، يَجْعَلُ الصَّوْتَ الوَاقِعَ فِي الأُذُنِ مُتَنَاغِمًا، خُصُوصًا وَالشَّاعِرُ يُوَزِّعُهُمَا بِتَسَاوٍ فِي العَدَدِ وَالمَسَافَةِ عَلَى امْتِدَادِ البَيْتِ، وَإِذَا عَرَفْنَا أَنَّ " حَرْفَ القَافِ بِفَقَاعَتِه الصَّوْتِيَّة هُوَ فِي الحَقِيقَةِ مِنْ أَعْجَزِ الحُرُوف عَنْ إِثَارَةِ المَشَاعِرِ الإِنْسَانِيَّةِ "[2]، حَقَّ لَنَا أَنْ نَتَسَاءَلَ، فِي دَهْشَةٍ: هَلْ جَالَ هَذَا الأَمْرُ بِخَاطِرِ الشَّاعِرِ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَعِيضَ عَنْ هَذَا النَّقْصِ بِالاسْتِنْجَادِ بِحَرْفِ الصَّادِ هُنا؟!:

لَمْ يَصْفُ لِلْمَرْءِ صَدِيقٌ يَمْذُقُهُ *** لَيْسَ صَدِيقُ المَرْءِ مَنْ لَا يَصْدُقُهُ.

وَبِذَلِكَ يُحافِظُ عَلَى المُسْتَوَى الإِيقَاعِيِّ وَالدَّلَالِيِّ المُتَجَلِّي فِي البَيْتِ 22 النَّاشِئِ عَنْ

[1]- خصائصُ الحُروف في اللُّغةِ العَربيَّة- دراسة، حسن عباس، م.س، ص149. نفسه، ص149.

[2]- نفسه، ص145.

سَيْرِ "القَوْلِ القَبِيحِ" بَيْنَ الحَلْقِ وَالفَمِ، وَهِيَ بِالتَّقْرِيبِ، ذَاتُ المَسَافَةِ بَيْنَ مَخْرَجِ القَاف فِي الحَلْقِ وَالصَّادِ فِي أَوَّلِ اللِّسَانِ، إِضَافَةً إِلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي " لِلمَرْءِ صَدِيقٌ = صَدِيقُ المَرْءِ " الذِّي نَقَلَ حَرَكَةَ اللِّسَانِ وَحَوَّلَهَا إِيقَاعَ صُورَةٍ.

وَلَعَلَّ مَا عُرِفَ عَنْ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مِنْ مَيْلٍ إِلَى الإِنْشَادِ فِي الإِلْقَاءِ سَاعَدَهُ عَلَى إِدْرَاكِ القِيَمِ الجَمَالِيَةِ لِهَذَا التَّوْزِيعِ عَلَى سُلَّمِ الأَصْوَاتِ، إِذْ " لِكُلِّ صَوْتٍ مُجَرَّدٍ مَعْزُولٍ مِنْ غَيرِهِ مِنَ الأَصْوَاتِ خَصَائِصَهُ التيِّ تُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ "[1]، وَإِنَّ انْتِشَارَ الغِنَاءِ فِي العَصْرِ العبَّاسِيِّ، وَمَيْلَ النَّاسِ إِلَى الأَلْحَانِ البَسِيطَةِ المُطْرِبَةِ أَسْهَمَ وَلَا شَكَّ، فِي تَوْجِيهِ الشَّاعِرِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الفَاعِلِيَّةِ، وَالتِّي نَجِدُ أَنَّ كُتُبَ الأَدَبِ وَالنَّقْدِ قَدْ حَفِلَتْ بِذِكْرِهَا وَصْفًا وَتَنْظِيرًا.

وَحِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ الانْسِجَامِ، فَلَسْنَا نَقْصِدُ تَمَاثُلَ الحُرُوفِ فِي المخَارِجِ وَالصِّفَاتِ فَحَسْبَ، إِذْ قَدْ يَنْشَأُ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ مَا دَامَ اقْتِرَانُهَا بِبَعْضِهَا مُسْتَسَاغًا، بَلْ إِنَّ الشَّاعِرَ قَدْ يَلْجَأُ إِلَى اسْتِغْلَالِ الطَّاقَةِ الصَّوتِيَّةِ، التِّي تَبْدُو ثَقِيلَةً عَلَى اللِّسَانِ، خِدْمَةً لِلصُّورَةِ التِّي ارْتَسَمَتْ فِي فِكْرِهِ عَنِ المَوضُوعِ، فَيَنْشَأُ خِلَالَ السِّيَاقِ الْتِحَامٌ وَتَضَامٌّ نُسَمِّيهِ " الانْتِظَامَ الدَّاخِلِيَّ لِأَجْزَاءِ النَّصِّ "[2]، كَمَا فِي قَوْلِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ:

57/ مَا هِـــــيَ إِلَّا دُوَلٌ بَعْدَ دُوَلْ *** تَجْرِي بِأَسْبَــابٍ تَأَتَّى وَعِلَلْ.
58/ مَا قَلَبَ القَلْبَ كَتَقْلِيبِ الأَمَلْ *** لِلْقَلْبِ وَ الآمَالِ حَلٌّ وَرَحَلْ.
59/ وَكُلُّ خَيْـرٍ تَبَـــــعٌ لِلعَقْـــــلِ *** وَكُلُّ شَـرٍّ تَبَـــعٌ لِلجَـــــهْلِ.
60/ لِكُلِّ نَفْسٍ هِمَـــــمٌ وَ نَجْوَى *** لَا كَرَمٌ يُعْـرَفُ إِلَّا التَّقْـوى.

يُلْفِتُ انْتِبَاهَنَا بِشَكْلٍ جَلِيٍّ حَرْفُ "القافِ" فِي البَيْتِ58 وَالذِّي يَتَرَدَّدُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَهُوَ كَمَا أَشَرْنا سَابِقًا، حَرْفُ انْفِجَارٍ وَقُوَّةٍ وَقَسَاوَةٍ وَصَلَابَةٍ وَشِدَّةٍ، مَخْرَجُهُ فِي مُقَدِّمَةِ

[1]- التّفكير الصّوتيّ عند الخليل، حِلمي خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط1، 1988م، ص66.
[2]- نظريّة البنائيّة في النّقد الأدبيّ، صلاح فضل، م.س، ص392.

الحَلْقِ يَجْعَلُ نُطْقَهُ يَتَطَلَّبُ جُهْدًا، وَهُوَ مَا يَتَمَاشَى وَإِيقَاعِ الحَيَاةِ وَهُمُومِهَا، خُصُوصًا إِذَا مَا تَجَاوَرَ بِكَثَافَةٍ مُعَيَّنَةٍ كَمَا فِي:(قَلَبَ، القَلْبَ، كتَقْلِيبِ،...لِلقَلْبِ)، وَقَدْ عَمِدَ الشَّاعِرُ لِتَخْفِيفِ هَذِهِ الشِّدَّةِ وَالمُعَانَاة إِلَى تَوظِيفِ أَحَدَ عَشَرَ سَاكِنًا، يُوَازِنُ بِهَا حَرَكَةَ التَّقْلِيبِ المُنْهِكَةِ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلْ وَالعَكْسُ، لِتَكُونَ حَرَكَةُ "الفَتْحِ" فِي: "قَلَبَ القَلْبَ" مُعَادِلَةً لِحَرَكَةِ "الكَسْرِ" فِي: "كَتَقْلِيبِ...لِلْقَلبِ".

وَيَلْجَأُ الشَّاعِرُ إِلَى حَرْفِ " اللاَّمُ " 14 عَشَرَ مَرَّةً، وَهَذَا عَدَدٌ ضَخْمٌ بِالنِّسْبَةِ لِبَيْتٍ وَاحِدٍ، وَلِكِنَّهُ ضَرُورَةٌ لِكَسْرِ سُلْطَةَ القَافِ وَسَطْوَتِهَا بِحَرْفِ اللاَّمِ الذِّي تُوحِي صِفَتُهُ " بِمَزِيجٍ مِنَ اللُّيُونَةِ وَالمُرُونَةِ وَالتَّمَاسُك وَالالْتِصَاقِ "[1]. وَتِقْنِيَّةُ الانْسِجَامِ الصَّوتِيِّ لِلحُرُوفِ هَذِهِ، دَأَبَ عَلَيْهَا شُعَرَاءُ العَصْرِ الحَدِيثِ، وَجَعَلُوهَا أَحَدَ أَرْكَانِ الإِيقَاعِ الدَّاخِلِيِّ، وَقَدْ سَمَّتْهُ نَازِكْ المَلاَئِكَةُ (التَّنَاغُمَ الصَّوْتِيَّ)، إِنَّهُ " إِحْسَاسُ الشَّاعِرِ بِالحُرُوفِ إِحْسَاسًا خَاصًّا بِحَيْثُ تَأْتِي فِي شِعْرِهِ، مُتَنَاسِقَةً مُتَجَاوِبَةً "[2].

فَظَاهِرَةُ التَّكرَارِ الصَّوتِيِّ للحُرُوفِ فِي القَصِيدَةِ مِنْ وَسَائِلِ إِثْرَاءِ الإِيقَاعِ الدَّاخِلِيِّ عَنْ طَرِيقِ تَرْدِيدِ حَرْفٍ بِعَيْنِهِ فِي الشَّطْرِ الوَاحِدِ أَوِ البَيْتِ كَامِلًا، أَوْ المُزَاوَجَةِ بَيْنَ حَرْفَيْنِ أَو أَكْثَرَ فِي مَقْطَعٍ أَوْ نَصٍّ شِعْرِيٍّ، وَذَلِكَ يَعكِسُ قُدُرَاتِ المُبْدِعِ فِي تَطْوِيعِ الحُرُوفِ خِدْمَةً لِلإِيقَاعِ وَالدَّلاَلَةِ فِي آنٍ، حَيْثُ " أَنَّ لِصَوْتِيَّةِ الحُرُوفِ فَاعِلِيَّةً بِنَائِيَّةً تَخْضَعُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ لِانْطِبَاعَاتٍ فُجَائِيَّةٍ مَبعَثُهَا مَا يُسَمَّى بِإِيحَاءِ الأَصْوَاتِ أَوْ مَا يُصْطَلَحُ عَلَيْهِ بِتَدَاعِي مَعَانِي الحُرُوفِ حَيثُ يُشَكِّلُ الصَّوْتُ فِي النَّسَقِ اللُّغَوِيِّ مُنْطَلَقًا لِلوَعْيِ وَالتَّأْثِيرِ، فَالشَّاعِرُ يُكَرِّر حَرْفًا بِعَيْنِهِ أَوِ مَجْمُوعَةً مِنَ الحُرُوفُ فَيَكُونُ لِهَذَا مَغْزَى يَعْكِسُ شُعُورًا دَاخِلِيًّا لِلتَّعْبِيرِ عَنْ تَجْرِبَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ فَقَدْ يَتَفَوَّقُ الجَرْسُ الصَّوْتِيُّ عَلَى مَنْطِقِ اللُّغَةِ فَيَخْرُجُ عَنْ

[1]- خَصائصُ الحُرُوفِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيّةِ، حسن عباس، م.س، ص79.

[2]- الصّومعة والشّرفة الحمراء، دراسة نقديّة في شّعر عليّ محمود طه، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط2، 1399هـ/1989م، ص148.

قَيْدِ الصَّوْتِ المَحْضِ إِلَى دَلَالَةِ تُحَرِّكُ المعْنَى وَتُقَوِّيهِ "[1]. وَمُحَاوَلَةُ فَهْمِ هَذَا الاشْتِغَالِ اللُّغَوِيِّ وَتَحْلِيلِ بُنَاهُ يُفْصِحُ عَنِ القِيَمِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي يَعْمِدُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ لِيَبُثَّ خِطَابَهُ.

يَقُولُ مُحَمَّدُ عَبْدُ المُطَّلِبِ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ جَمَالِيَّةِ التَّكْرَارِ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ، بِأَنَّ شُيُوعَ التَّكْرَارَاتِ الصَّوْتِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ فِي ثَنَايَا التَّرَاكِيبِ " يُؤَدِّي إِلَى تَآلُفِ أَصْوَاتِ الحُرُوفِ فِي هَذِهِ التَّرَاكِيبِ مَعِ بِعْضِهَا البَعْضِ. كَمَا أَنَّ الاتِّكَاءَ عَلَى تَكْرَارِ حَرْفٍ مُعَيَّنٍ إِنَّمَا تَنْعقِدُ مَقْصِدِيَّتُهُ عَلَى سِيَاقَاتٍ دَلَالِيَّةٍ يُؤَدِّيهَا هَذَا الحَرْفُ فِيمَا يُسَمَّى التَّدَاعِي الصَّوْتِيَّ الذِّي يَتَمَثَّلُ فِي الاتِّكَاءِ عَلَى حَرْفٍ بِعَيْنِهِ، لِيَتَرَدَّدَ بِصِفَةٍ مُنْتَظَمَةٍ فِي مجْمُوعَةِ الدَّوَالِ المتُجَاوِرَةِ ، لِيُحْكِمَ عَلَاقَتَهَا صَوْتِيًّا "[2]، وَقَدْ فَطِنَ الشَّاعِرُ القَدِيمُ إِلَى هَذَا الدَّوْرِ المِحْوَرِيِّ الذِّي تُسْهِمُ بِهِ هَذِهِ الحُرُوفُ فِي صِنَاعَةِ الجَمَالِيَّةِ التِّي يَنْشُدُونَهَا، فَلَمْ يَغْفَلُوا عَنْ تَوْظِيفِهِ بِشَتَّى مَظَاهِرِهِ بُغْيَةِ التَّجْدِيدِ فِي النَّغَمِ وَالابْتِعَادِ عَنِ الأَشْكَالِ التَّقْلِيدِيَّةِ المتُاحَةِ وَقْتَهَا.

فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ نَجِدُ الشَّاعِرَ يُلِحُّ عَلَى حُرُوفٍ يُعِيدُهَا فِي البَيْتِ الوَاحِدِ، فَهُو مُدْرِكٌ تَمَامَ الإِدْرَاكِ لِمَا لِهَذَا الأُسْلُوبِ فِي تَوظِيفِ الأَصْوَاتِ مِنْ أَثَرٍ فِي النُّفُوسِ، وَتَقْرِيبٍ لِلصُّورَةِ، لِذَلِكَ لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ تَكْرَارِهِ بِشَكْلٍ يَجْعَلُهُ ظَاهِرَةً تَسِمُ شِعْرَهُ فِي كُلِّيَتِهِ، وَذَلِكَ " لِأَنَّ الأَصْوَاتُ التِّي تَتَكَرَّرُ فِي حَشْوِ البَيْتِ مُضَافَةً إِلَى مَا يَتَكَرَّرُ فِي القَافِيَةِ، تَجْعلُ البَيْتَ أَشْبَهَ بِفَاصِلَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةِ النَّغَمِ مُخْتَلِفَةِ الأَلْوَانِ، يَسْتَمْتِعُ بِهَا مَنْ لَهُ دِرَايَةٌ بِهَذَا الفَنِّ، وَيَرَى فِيهَا المَهَارَةَ وَالمقْدِرَةَ الفَنِّيَّةَ "[3]. يَقُولُ أَبُو العَتاهِيَّةِ:

69/ الحَقُّ مَا كَانَ أَحَقُّ مَا اتُّبِـعْ * ورُبَّمَا لَجَّ لَجُوجٌ فَرَجَـعْ.**

فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَبْدُو مُتَنَاغِمًا مَعَ تِقْنِيَّةِ تَكْثِيفِ الحُرُوفِ وَفَاعِلِيَّتِهَا، بَلْ إِنَّهُ يُعِيدُ الكَلِمةِ بِحُرُوفِها كَامِلَةً لِيُرسِّخَ وَقْعًا مُحَدَّدًا فِي الأُذُنِ، وَالذِّي يَعُودُ بِمَسَافَاتٍ مُتَنَاسِقَةٍ، طُولًا

[1]- الأُسلُوبِيَّةُ الصَّوتيّة في النّظرية والتّطبيق، ماهر مهدي هلال، مجلّة آفاق عربيّة،ع:12، س:17، كانون الأول1992م، ص73.

[2]- هكذا تكلّم النّصّ استنطاق الخطاب الشّعريّ لِرفعتْ سلام، محمّد عبد المطّلب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 1997م، ص40.

[3]- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، م.س، ص43.

وَقِصَرًا، تَجْعَلُ السَّمْعَ يَأْنَسُ لَهُ، بَلْ وَيَرْتَقِبُ حُصُولَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ، إِذِ المَسَافَةُ بَيْنَ الوَحَدَاتِ المُتَرَدِّدَةِ[1] لَهَا أَثَرُهَا فِي إِيقَاعِيَّةِ النَّصِّ، وَمِنْ ثَمَّ تَسِمُهُ كَوَاقِعَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ جَدِيرَةٍ بِالقِرَاءَةِ وَالتَّدَبُّرِ. فَجُمْلَةُ "الحَقُّ مَا كَانَ أَحَقُّ " أَطْوَلُ مِنْ جُمْلَةِ " لَجَّ لَجُوجٌ "، وَهُمَا مُتَسَاوِيَتَانِ فِي عَدَدِ الحُرُوفِ " أَرْبَعُ حَاءَاتٍ = أَرْبَعُ جِيمَاتٍ " لِيَكُونَ بِذَلِكَ مِقْدَارُ الصَّوْتِ النَّاتِجِ مُتَكَافِئًا.

إِذَنْ، فَإِنَّ " التَّوْزِيعَ الفُونِيمِيَّ دَاخِلَ الكَلِمَةِ بِصُورَةٍ مُخْتَلِفَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَ شَكْلًا ذَا قِيمَةٍ، يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِالجَمَالِيِّ، لَا تَبْتَعِدُ كَثِيرًا عَنْ الدَّلَالَةِ وَيَتَنَوَّعُ تَكْرَارُ الحَرْفِ فِي الكَلِمَةِ فَتَارَةً يَتَكَرَّرُ حَرْفٌ، وَتَارَةً حَرْفَانِ، وَرُبَّمَا اتَّصَلَ الحَرفُ بِلَفْظِهِ أَوْ انْفَصَلَ عَنْهُ "[2]، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

174/عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي *** وَخِبْتُ يَوْمِي وَأَضَعْتُ أَمْسِي.
175/وَلِي غَدٌ يُؤْخَـذُ مِنِّـــي لَهُمَا *** هُمَا الدَّلِيلَانِ عَلَى ذَاكَ هُمَا.

فَفِي البَيْتِ الأَوَّلِ يَتَكَرَّرُ حَرْفُ التَّاءِ مَضْمُومًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ (عَمِلْتُ، ظَلَمْتُ، خِبْتُ، أَضَعْتُ)، مَرَّتَانِ فِي كُلِّ شَطْرٍ، وَمَعَهُ السِّينُ مَرَّاتٍ ثَلَاثٍ، وَكَذَا المِيمُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَيْضًا، مَكْسُورًا مرَّتيْنِ وسَاكِنًا مِثْلَ ذَلكَ. يُسَمِّي هِنْرِيشْ بْلِيث هَذَا بِـ" التَّوَازُنُ عَنْ طَرِيقِ التَّفْرِيقِ حَسَبَ الحَجْمِ (فُونِيمٌ، أَوْ اثْنَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ..إلخ)، (...)، وَالتَّرَدُّدُ (مَرَّةٌ، أَوْ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثَة إلخ)"[3]. إِذْ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ إِيقَاعَ الحُرُوفِ مُتَنَاغِمٌ مِنْ جِهَةِ عَدَدِهَا وَحَرَكَتِهَا (عمِلْت = يوْمِي/ ظلمْت = أمْسِي)، فَإِنْ نَحْنُ أَضَفْنا إِلَى هَذَا، مَعَانِي تِلْكَ الحُرُوفِ، اكْتَمَلَتْ صُورَةُ المَشْهدِ النَّغَمِيِّ فِي الذِّهْنِ، إِذْ يَلْتَقِي الهَمْسُ فِي السِّينِ وَالتَّاءِ لِيُقَارِعَ جُهُورِيَّةَ المِيمِ، وَالذِّي يَعْمَلُ بِتَوَسُّطِهِ بَيْنَ الشِّدَّةِ وَالرَّخَاوَةَ عَلَى إِحْدَاثِ الانْسِجَامِ وَالتَّكَافُؤِ بَيْنَ رَخَاوَةَ

[1]- يُنظر: البلاغة والأسلوبيّة، هنريش بليث، م.س، ص71.

[2]- النّسق الأفقيّ للتّكرار في الشّعر الفاطميّ المصريّ، أحمد عليّ عبد العاطي، مقال على النّت./*scholar.mediu.edu.my/index.php/LITRE/article/viewFile/.../23547*

[3]- البلاغة والأسلوبيّة، هنريش بليث، م.س، ص70.

السِّينِ وَشِدَّةِ وَانْفِجَارِيَّةِ التَّاءِ[1]، خُصُوصًا حِينَ تَقتَرِنُ بالسِّينِ فِي الكَلِمةِ الواحِدَةِ أَو تُجاوِرُهُ فِي الكَلِمَةِ التِّي تَلِيهِ، فَيَتَدَرَّجُ النُّطْقُ/النَّفَسُ بَيْنَ رَخَاوَةٍ وَشِدَّةٍ، فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ إِيقَاعٌ مُتَوَاتِرٌ يُصَاحِبُ إِيقَاعَ المَعنَى وَيَعضُدُهُ.

وَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَسْتَغِلُّ وَسِيلَةَ التَّعْبِيرِ اللِّسَانِيَّةِ هَذِهِ فِي تَكْثِيفِ الدَّلَالَةِ، فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي يُشَكِّلُ خِطَابَهُ وَيَنْسُجُهُ فِي صُورَتَهُ النِّهَائِيَّةَ، لِيَتَأَكَّدَ اخْتِيَارُهُ لِلحُرُوفِ وَطَرِيقَةُ رَصْفِهَا مُقْتَرِنَةً إِلَى بَعْضِهَا، أُسْلُوبًا فَنِّيًّا، وَأَدَاةً لِنَقْلِ الدَّلَالَةِ عَبْرَ مُسْتَوَيَاتِ القَوْلِ المُخْتَلِفَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى تَآلفِ أَصْوَاتِ الحُرُوفِ فِي تَرَاكِيبِ الشَّاعِرِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ حَامِلَةً شُحْنَاتٍ ذَاتِ سِيَاقَاتٍ دَلَالِيَّةٍ تَتَّكِئُ عَلَى التَّدَاعِي الصَّوْتِيِّ وَتَنْتَظِمُ فِي مَجْمُوعَةِ دَوَالٍ تُحَقِّقُ الأَثَرَ الإِيقَاعِيَّ المَرْجُوَ عِنْدَ المُتَلَقِّي وَتُعَمِّقُ الدَّلَالَةَ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ[2]، وَهُوَ مَا يَتَبَيَّنُ مِنْ بِنْيَةِ البَيْتِ الثَّانِي الذِّي جَاءَ لِيُكَرِّسَ إِيقَاع الأَوَّلِ وَيَسْنُدَهُ (الشَّكْلُ**1**):

إِضَاعَةُ أَمْسِ + خَيْبَةُ يَومٍ = وَلِي غَدٌ
↓ ↓ ↓
عَمَلُ سُوءٍ + ظُلْمُ نَفْسٍ = يُؤْخَذُ مِنِّي
↓ ↓ ↓
هُـمَا ← هُـمَا ← لَهُـمَا

فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ جَعَلَ عَدَدَ الحُرُوفِ بِعَدَدِ الأَزْمِنَةِ وَالأَحْوَالِ التِّي تَعْتَرِي الإِنْسَانِ فِي تَقَلُّبِهَا، فَتَأْخُذُ مِنْهُ لِتَهَبَ غَيْرَهُ، وَانْظُرْ إِلَى اللَّامِ فِي: لِي/لَهُمَا، إِذْ جَعَلَ امْتِلاَكَ يَوْمِهِ(اللَّام +يَاءُ المتَكَلِّمِ)، يَنْفَرِطُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بِاللَّامِ ذَاتِهَا مُضَافَةً إِلَى غَيْرِهِ (هُمَا) فِي ثَلَاثِ تَوْقِيعَاتٍ

[1]- يُنظر فِي صفاتِ الحروف: خصائِصُ الحُرُوف فِي العرَبِيّةِ، حسن عباس، م.س: السّين:" مهموس رخو (...) هو أحد الحروف الصفيرية، صوته المتماسك النقي يوحي بإحساس لمسيٍّ بين النعومة والملاسة، وبإحساس بصري من الانزلاق والامتداد، وبإحساس سمعي هو أقرب للصفير "، ص110، "الميم: مجهور، متوسط الشدة أو الرخاوة. (...) ولذلك فإن صوته يوحي بذات الاحاسيس اللمسية التي تعانيها الشفتان لدى انطباقهما على بعضهما بعضا، من الليونة والمرونة والتماسك مع شيء من الحرارة"، ص72، التّاء:" مهموس انفجاري شديد. (...) وعلى الرغم مما أسند إلى هذا الحرف من الشدة والانفجار وما وصف بالقرع بقوة، فإن صوته المتماسك المرن يوحى بملمس بين الطراوة والليونة "، ص55.

[2]- ينظر: جماليات التّلوين الصّوتي في القرآن الكريم، أسامة عبد العزيز جاب الله، دار ومكتبة الإسراء للطّبع والتّوزيع والنّشر، طنطا، مصر، ط2، 2009م، ص382.

مُتَجَانِسَةِ النَّغَمِ:هُمَا،هُمَا،هُمَا، زِيَادَةً عَلَى أَنَّ وَاحِدَةً مِنْهَا يُمْكِنُنَا أَنْ نُحَمِّلَهَا، دُونَمَا تَعَسُّفٍ، مَعْنًى آخَرَ لِنَقْرَأَهَا بِصِيغَةِ التَّوْكِيدِ (لَهُمَا) فَنَسْتَدْعِيَ دَلَالَةَ التَّحَوُّلِ الحَتْمِيِّ مِنْ فُسْحَةِ الأَمَلِ إِلَى ضَيْقِ العَمَلِ، فِي تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَاتِهِ الذِّي تُصَوِّرُهُ الأَبْيَاتُ التِّي تَلِيهَا.

هَذَا وَيُقَدِّرُ النُّقَّادُ أَنَّ أَثَرَ الأَصْوَاتِ يَتَجَاوَزُ إِلَى فَضَاءَاتٍ أَوْسَع مِمَّا يَتَهَيَّأُ لَنَا أَوَّلَ الأَمْرِ، فَإِنَّ " وَقْعَ الصَّوْتِ فِي النَّفْسِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الصَّوْتِ نَفْسِهِ، بِقَدْرِ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَى ظُرُوفِهِ المحِيطَةِ بِه، أَيْ عَلَى مِقْدَارِ مَا بَينَهُ وَبَيْن مَا قَبْلَه وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الأَصْوَاتِ مِنْ انْسِجَامٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَصْوَاتَ تَتَآلَفُ وَتُكَوِّنُ شَبَكَةً مَحْبُوكَةً مِنَ النَّسْجِ، وَإِنَّ الكَلِمَةَ التِّي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقَعَ مَوْقِعَ الرِّضَا وَالقَبُولِ لَدَى هَذِهِ الأَصْوَاتِ جَمِيعِهَا، وَتَنسَجِمَ مَعَهَا كُلَّهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، لَهِي الكَلِمَةُ التِّي تَظْهرُ بِمَظْهَرِ الفَوْزِ المؤُسِيقِيِّ "[1]، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ رِيتْشَارْدزْ.

يَقُولُ أَبُو العتاهِيَّةِ:

223/ إِنَّ الجَدِيدَيْنِ **هُمَا هُمَا هُمَا** *** **هُمَا هُمَا** دَائِرَةٌ رَحَاهُمَا.

وَأَوَّلُ مَا يَشُدُّنَا فِي هَذَا البَيْتِ تَكْرَارُ الضَّمِيرِ "هُمَا" 6 مرَّاتٍ، فَإِذَا أَضَفْنَا إِلَيْهَا "الجَدِيدَيْنِ"، وَهُوَ الاسْمُ الذِّي تَعُودُ عَلَيْهِ تِلْكَ الضَّمَائِرُ، اكْتَمَلَتْ أَيَّامُ الأُسْبُوعِ سَبْعةً! بِشَكْلٍ لَا يُمْكِنُنَا مَعَهُ إِلَّا التَّسَاؤُلُ عَنْ هَذَا الوَعْيِ مِنَ الشَّاعِرِ بِحَقِيقَةِ خِطَابِهِ وَبِنْيَتِهِ فِي أَدَقِّ جُزْئِيَاتِهَا. يَنْقُلُ التَّرْتِيبُ المُتَلَاحِقُ تَعَاقُبَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اسْتِمْرَارِيَّتَهُمَا وَدَوَامَ إِيقَاعِهِمَا، صُورَةَ تِلْكَ الرَّحَى الدَّائِرَةُ مِنْ غَيْرِ مُبَالَاةٍ بِمَا يُلْقَى فِي جَوْفِهَا، إِشْرَاقَةُ شَمْسٍ فَغُرُوبُهَا، دَوَرَانُ الفُصُولِ التِّي تَمْضِي قُدُمًا وَتُخَلِّفُ وَرَاءَهَا طَحِينَ الأَيَّامِ، أَعْمَارَ البَشَرِ وَتُرَاثَهُمْ:(هُمَا هُمَا هُمَا هُمَا هُمَا)، صَوْتُ الحَيَاةِ، صَوْتُ المَوْتِ المُتَجَدِّدُ، إِيقَاعُ الرَّتَابَةِ وَالرَّهْبَةِ، إِيقَاعُ التَّوَجُّسِ وَالأَمَلِ، " إِنَّ صَوْتَ حَرْفِ الهَاءِ بِاهْتِزَازَاتِهِ العَمِيقَةِ فِي بَاطِنِ الحَلْقِ

[1]– مبَادئ النّقد الأدبِي والعِلم والشّعر، أ.أ.ريتشاردز، م.س، ص93.

يُوحِي أَوَّلَ مَا يُوحِي بِالاضْطِرَابَاتِ النَّفْسِيَّةِ "[1]، وَالتِّي قَدْ تَكُونُ إِيجَابِيَّةً أَوْ سِلْبِيَّةً، بِحَسَبِ مَا يَطْرَأُ فِي عَقِبِ هَذَا الدَّوَرَانِ، وَالذِّي غَالِبًا مَا يَكُونُ سَحْقًا وَتَفْتِيتًا.

عَلَى أَنَّ فِي تَكْرَارِ بَعْضِ الحُرُوفِ وَالكَلِمَاتِ وَقْعًا يَثْقُلُ عَلَى السَّمْعِ فَلَا يَسْتَسِيغُهُ، وَإِنْ كَانَ المَعْنَى سَلِيمًا، فَيَفْقِدُ بِذَلِكَ واحِدَةً مِنْ مُكَوِّنَاتِ جَمَالِهِ، إِذْ تَتَحَوَّلُ هَذِهِ الحُرُوفِ إِلَى مُعِيقٍ لانْسِيَابِيَّةِ الدَّلَالَةِ، تَشْغَلُ ذِهْنَ المُتَلَقِّي عَنِ الاسْتِرْسَالِ، وَتُبَطِّئُ الإِيقَاعَ بِشَكْلٍ يَجْعَلُ الأُذُنَ تَنْفُرُ مِنْهُ، مِمَّا قَدْ يُؤَثِّرُ عَلَى الخِطَابِ فِي كُلِّيَّتِهِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ:

120/أَصْلِحْ ومَن يُصْلِحْ فَمَاذَا يَرْبَحْ *** وَالشَّـيْءُ لَا يَصْلُحُ إِنْ لَـمْ يُصْلَحْ.

وَقَوْلِهِ:

127/كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ إِذَا انْقَضَى *** وَمَا مَضَى مِمَّا مَضَى فَقَدْ مَضَى.

أَوْ قَولِهِ:

210/ مَنْ ضَاقَ حَلَّتْ نَفْسُه فِي الضِّيقِ *** لَيْسَ امْرُؤٌ ضَاقَ عَلَى الطَّرِيقِ.

غَيْرَ أَنَّ هَذَا الثِّقَلَ، فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ أُخْرَى، يَلْعَبُ دَوْرًا مُهِمًّا فِي كَشْفِ الدَّلَالَةِ التِّي تَخْتَزِنُهَا تِلْكَ الحُرُوف، وَالتِّي قَصَدَ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ سَعْيًا لِنَقْلِ حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ اعْتَرَتْهُ، وَحَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ هَزَّتْهُ، فَلَمْ يَقْوَ عَلَى كَتْمِهَا وَقْتًا أَطْوَلَ، لِأَنَّ شُحْنَةَ شَرَارَتِهَا التِّي انْقَدَحَتْ فِي أَحْشَائِهِ شَغَلَتْهُ فَعَمَلَ عَلَى مُشَارَكَتِهَا مَعَ مَنْ يَسْمَعُهُ، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

226/ مَا **عَيْشُ** مَنْ ضَلَّ الرِّضَى بِ**عَيْشِ** *** السَّاخِطُ ال**عَيْشِ** كَثِيرُ الطَّيْشِ.

فَالضَّلَالَةُ ضَيَاعٌ نَفْسِيٌّ يَتَرَسَّخُ كُلَّمَا كَانَ عَدَمُ الرِّضَى مُسَيْطِرًا ضَاغِطًا، فَيَتَوَلَّدُ السَّخَطُ وَيَنْفَجِرُ مُنْتَشِرًا بَعْدَ أَنْ كَانَ تَجَمَّعَ فِي القَلْبِ وَارْتَكَزَ. إِنَّ حَرْفِ الشِّينِ الذِّي

[1]- خَصائِصُ الحُرُوف في العرَبِيّةِ، حسن عباس، م.س، ص191.

يَدُلُّ عَلَى " التَّفَشِي بِغَيْرِ نِظَامٍ "[1]، وَهُوَ يَتَرَدَّدُ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ هُنَا يُصَوِّرُ أَجْوَاءَ الضَّلَالِ وَالسَّخَطِ وَالطَّيْشِ، " حَيْثُ بَعْثَرَة النَّفَسِ أَثْنَاءَ خُرُوجِ صَوْتِ هَذَا الحَرْفِ يُمَاثِلُ الأَحْدَاثَ التيِّ تَتِمُّ فِيهَا البَعْثَرَةُ وَالانْتشَارُ وَالتَّخْلِيطُ "[2]، وَهَلْ هُنَاكَ إِيقَاعٌ أَكْثَرُ تَشَتُّتًا وَتَشَعُّبًا مِنْ نَفْسِ شَخْصٍ طَاشَتْ بِهِ دُنْيَاهُ؟!

وَلَيْسَ هُنَاكَ شَكٌّ فِي أَنَّ أُسْلُوبَ القُرْآنِ الكَرِيمِ كَانَ لَهُ بَالِغُ الأَثَرِ عَلَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا عُمُومًا، وَعَلَىَ شُعَرَاءِ العَصْرِ العَبَّاسيِّ خُصُوصًا، إِذْ تَمَثَّلُوا جَمَالِيَّتَهُ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ بَعْضَ أَسْرارِهَا كَامِنٌ فِي هَذِهِ الأَصْوَاتِ المُتَآلِفَةِ فِيهِ بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ، فَسَعَوْا إِلَى مُحَاكَاتِهَا، وَالنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِهَا، إِذِ " التِّكْرَارُ الحَرْفِيُّ فِي السِّيَاقِ القُرْآنِيِّ يَحْمِلُ شُحَنَاتٍ سِيَاقِيَّة نَصِّيَّةٍ يَتمِّ تَوْظِيفُهَا فِي الإِطَارِ الخَاصِّ وَالعَامِ مَعًا، وَفِي الوَقْتِ ذَاتِهِ لِتَحْقِيقِ المَلْحَظِ الإِيقَاعِيِّ لَدَى المتَلَقِّي مِنْ نَاحِيَةٍ، وتَعْمِيقِ دَلاَلَةِ الأَثَرِ النَّاشِئِ عَنْ هَذِهِ التِّكرَارَاتِ مِنْ نَاحِيةٍ أُخْرَى "[3]. وَلَعَلَّ طَبِيعَةَ غَرَضِ الزُّهْدِ الذِّي يَمْتَحُ مِنْ نُصُوصِ القُرْآنِ، مَبْنًى وَمَعنًى، جَعَلَهُ أَكْثَرَ الأَغْرَاضِ تَوْظِيفًا لِهَذِهِ الخَاصِّيَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، التِّي شَغَلَتْ حَيِّزًا كَبِيرًا مِنْ شِعْرِ هَؤُلَاءِ، وَالذِّي مِنْهُ حَظٌّ وَافِرٌ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ كَمَا يَتَبَيَّنُ مِنْ هَذِهِ النَّمَاذِجِ.

يَقُولُ الرَّافِعِيُّ عَنْ طَبِيعَةِ الحُرُوفِ وَأَصْوَاتِهَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَمَا تَخْتَصُّ بِهِ مِنْ حُسْنِ تَنْظِيمٍ وَتَوْزِيعٍ: " إِنَّمَا تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ النَّبَرَاتِ المُوسِيقِيَّةِ المُرْسَلَةِ فِي جُمْلَتِهَا كَيْفَ اتَّفَقَتْ، فَلَا بُدَّ لَهَا مَعَ ذَلِكَ مِنَ نَوْعٍ فِي التَّرْكِيبِ وَجِهَةٍ مِنَ التَّأْلِيفِ حَتَّى يُمَازِجَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيتَأَلَّفَ مِنْهَا شَيْءٌ مَعَ شَيْءٍ، فَتَتَدَاخَلَ خَوَّاصُهَا، وَتَجْتَمِعَ صِفَاتُهَا، وَيَكُونَ مِنْهَا اللَّحْنُ المُوسِيقِيُّ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ التَّرْتِيبِ الصَّوْتِيِّ الذِّي يُثِيرُ بَعْضُه بَعْضًا عَلَى نِسَبٍ مَعْلُومَةٍ تَرْجِعُ إِلَى دَرَجَاتِ الصَّوْتِ وَمَخَارِجِهِ وَأَبْعَادِهِ "[4]. وَذَاكَ الذِّي يَرْنُو إِلَيْهِ الشُّعَرَاءُ ويُحَاوِلُونَهُ،

---

[1]- تهذيب المقدّمة اللّغويّة للعلايلي، يُنظر: خصائص اللّغة العربيّة، حسن عبّاس، م.س، ص110.

[2]- نفسه، ص111.

[3]- إيقاع الشّعر العربيّ في ضوء نظرية العيّاشي، فضل بن عمّار العمّاري، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، د.ط، 1437هـ، ص283.

[4]- إعجازُ القُرآنِ والبَلاغَة النَّبويَّة، مُصطفَى صَادق الرَّافعيُّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ/1983م، صص214،213.

خُصُوصًا إِذَا مَا اسْتَشْعَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِم تِلْكَ المَقْدِرَةَ النَّاشِئَةَ عَنِ التَّشَبُّعِ مِنْ أَسَالِيبِ القُرْآنِ التِّي تَرَبَّتْ عَلَيْها حَوَاسُهُمْ كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، الذِّي تُوحِي لَنَا نُصُوصُهُ أَنَّهُ يَسْتَلْهِمُ مِنَ الآيِ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُ تَمَثُّلًا وَإِعْجَابًا، وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَحَوُّلِهِ إِلَى الاقْتِبَاسِ وَالتَّضْمِينِ المُبَاشِرِ لَهَا مِثْلَمَا سَنُبَيِّنُ فِي الفَصْلِ الأَخِيرِ مِنْ هَذا العَمَلِ فِي مَبْحَثِ (التَّنَاصِ) تَحْدِيدًا.

7-1-2: الحَرْفُ وَإِيقَاعُ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ:

لَا ضَيْرَ أَنْ نُعِيدَ التَّأْكِيدَ هُنَا لمَا أَثْبَتْناهُ سَابِقًا مِنْ أَنَّ الإِيقَاعَ عَمَلِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ، بَالِغَةُ التَّعْقِيدِ، وَلَعَلَّ مَنْشَأَ الجَمَالِ، بَعْضِهِ أَوْ كُلِّهِ، فِي هَذَا النَّسِيجِ مِنَ المُتآلِفَاتِ *Euphonies*، بَلْ وَالمُتَنَافِرَاتِ *Cacophonies* أَيْضًا، وَهُوَ مَا يَجْذِبُ إِلَيْهِ الأَنْفُسَ فَيَسْتَهْوِيهَا، وَهِيَ العَاجِزَةُ عَنْ تَفْسِيرِ كُنْهِهِ فِي الأَغْلَبِ، " وَالمَعْرُوفُ أَنَّ الشِّعْرَ العَرَبِيَّ تَتَدَاخَلُ فِي صِيَاغَتِهِ التَّفَاعِيلُ وَالقَافِيَة وَالوَزْنُ، وَتُلَاحَظُ هَذِهِ العَنَاصِرُ فِي بُحُورِهِ وَأَبْيَاتِهِ، وَهُو مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّة، فَأَصْبَح خَاصِّيَّةً مِنْ خَوَاصِّهَا، وَلَوْنًا مِنْ أَلْوَانِ قُدْرَتِهَا التَّعْبِيرِيَّةِ لارْتِبَاطِها بِالمُوسِيقَى اللَّفْظِيَّةِ التِّي تُؤَدِّيهَا مَخَارِجُ الحُرُوفِ وَالحَرَكَاتُ الإِعْرَابِيَّة التِّي تولِّدُهَا تَرَاكِيبُ الكَلِمَاتِ وَمَقَاطِعُ الجُمَلِ، وَأَشْكَالُ النِّهَايَاتِ "[1]. فَتَشْتَرِكُ هَذِهِ العَنَاصِرِ، كُلٌّ فِي مِضْمَارِهَا، زِيَادةً وَنَقْصًا، قُوَّةً وَضُعْفًا، فِي تَمَاسُكِ الخِطَابِ عَبْرَ خُطُوطِ الإِبْدَاعِ المُتَرَاصَّةِ فِي تَمَاثُلِهَا وَتَنافُرِهَا، وَالتِّي فِي مُقَدَّمِهَا: الحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ، الصَّوْتُ وَالصَّمْتُ.

لَقَدْ زعَمَ مَمْدُوحُ الرَّمَّالِي أَنَّ الأَخْفَشَ حَسَمَ قَضِيَّةً بَالِغَةَ الأَهَمِيَّةِ وَالمُتَمثِّلَةُ فِي كَوْنِ الإِيقَاعِ قَائِمًا عَلَى أُسُسٍ صَوْتِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ لَا غَيْرَ، عَلَى الأَقَلِّ فِي أُولَى مَرَاحِلِ وَضْعِ العَرُوضِ، " أَيْ: إِنَّ الأَسَاسَ كَانَ الوَاقِعَ اللُّغَوِيَّ الشِّعرِيَّ، وَتَرْتِيبَ الأَصْوَاتِ فِيهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ المُسَاعَدَاتُ مِنَ المُوسِيقَى وَالرِّيَاضَةِ عِنْدَ الخَلِيلِ....غَيْرَ أَنَّ الأَخْفَشَ

[1]- اللّغة والشّعر، نُوري حمّودي، ، مجلّة المجمّع العلميّ العراقيّ، ع:4، 01 أكتوبر1983م، ص119.

لَا يَكْتَفِي بِهذَا التَّحْدِيدِ، بَل يَجْعَلُ لهَذَا الأَسَاسِ الصَّوْتِيِّ مَعْنًى مُعَيَّنًا؛ إِذْ يَأْخُذُ مِنْهُ الجَانِبَ الكَمِّيَّ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ؛ يَقُولُ الأَخْفَشُ: (وَالحرُوفُ لَا تَخْلوُ مِنْ أَنْ تَكُونَ سَاكِنَة وَمُتَحَرِّكَةً؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ العَرَبِ وَلَا غَيْرِهَا شَيْءٌ يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ مَضْمُومًا أَوْ مَكْسُورًا، أَوْ مَفْتُوحًا أَوْ مَوْقُوفًا) "[1].

وَهَذَا يَضَعُنَا بِإِزاءِ تَفْكِيرِ العَرُوضِيِّ الأَوَّلِ وَمَا وَاجَهَهُ مِنْ صِعَابٍ، أَوْ قَابَلَهُ مِنْ اخْتِيَارَاتٍ، وَهُوَ يَخْلُقُ نَصَّهُ البِكْرَ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنا مِنْ أَنْ نَتَصَوَّرَ، فِي شَيْءٍ أَقْرَبَ إِلَى اليَقِينِ، إِيقَاعَاتِ الكَوْنِ التِّي كَانَتْ تَحُوطُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، قَدْ أَسَرَهُ بَعْضُهَا، فَاسْتَقْبَلَهُ بِإِيجَابٍ، بَلْ وَاسْتَأْثَرَ بِمَسَاحَةٍ غَيْرِ هَيِّنَةٍ مِنِ فِكْرِهِ وَوُجُودِهِ، فِي قَرِّهِ وَارْتِحَالِهِ، فِي قَرْحِه وَفَرَحِهِ، فِي حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ. أَوَلَيْسَتْ تَفَاعِيلُ الخَلِيلِ فِي جَوْهَرِها تَصْوِيرًا لِتِلْكَ الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ التِّي تَتَلَبَّسُ الإِنْسَانَ فِي كُلِّ آنٍ؟ أَوَلَيْسَ الإِيقَاعُ فِي بَعْضِ مَا يَعْنِيهِ: اسْتِطَالَةٌ وَقِصَرٌ وَتَوَقُّفٌ؟ صَوْتٌ وَصَمْتٌ؟

إِنَّ الإِيقَاعُ تَرَدُّدُ ظَاهِرَةٍ صَوْتِيَّةٍ عَلَى مَسَافاتٍ زَمَنِيَّة مَضْبُوطَةٍ، وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ قَدْ تَكُونُ ارْتِكَازًا (*Ictus*) وَالذِّي هُوَ " عُنْصُرٌ أَسَاسِيٌّ فِي الشِّعْرِ العرَبِيِّ بَلْ عُنْصُرٌ غَالِبٌ، وَمِنْ تَرَدُّدِهِ يَتَوَلَّدُ الإِيقَاعُ "[2]، كَمَا قَدْ تَكُونُ صَمْتًا وَفَقَطْ، أَيْ أَنَّهُ قَدْ يَنْتُجُ عَنْ تَوَالِي نَقَرَاتٍ بِعَدَدٍ مُعيَّنٍ، عَلَى مَسَافَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، كَمَا قَدْ يَنْشَأُ عَنِ الصَّمْتِ الذِّي يَلِي تِلْكَ النَّقَرَاتِ أَوْ يَتَخَلَّلُهَا.

لَكِنَّ الخَلِيلَ، بِاعْتِمَادِهِ الاسْتِقْصَاءَ الرِّيَاضِيَّ دُونَ غَيْرِهِ، أَغْفَلَ " بَعْضَ القِوَى الدَّاخِلَةَ فِي صَمِيمِ الإِيقَاعِ الشِّعْرِيِّ، وَيَعُدُّ الحرَكَاتِ لَوَاحِقَ مُكَمِّلَةً، مَعَ أَنَّهَا أَصْوَاتٌ مُسْتَقِلَّةٌ، وَإِنْ كَانَتْ دُونَ المُدُودِ طُولًا.... فَهِيَ مِنَ النَّاحِيّةِ النَّوْعِيَّةِ صَوْتٌ، وَلَكِنَّهَا

[1]- فِي التّحليل العَروضيّ لأبنِيَةِ اللّغة وتركِيبِها؛ ممدُوح الرّمالي، م.س، ص90.

[2]- الشّعر العربيّ، محمّد مندور، مجلّة الرّسالة، ع:543، 1ذو الحجّة 1362هـ/29 نوفمبر1943م، القاهرة، ص951، ويُنظَر: في الميزان الجديد، محمّد مندور، نشر و توزيع مؤسّسات ع.بن عبد الله، تونس، ط1، 1988م، ص257.

قَصِيرَة كَمًّا.."[1]، فَامْتَنَعَ عَلَيْهِ الوُصُولُ إِلَى نَتَائِجَ أَدَقَّ فِي تَحْدِيدِ طَبِيعَةِ الإِيقَاعِ وَالعَوَامِلِ النَّاهِضَةِ بِتَغَيُّرِ وَقْعِهِ فِي الأُذُنِ وَفِي النَّفْسِ مَعًا، عَلَى أَنَّهُ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوَالِ، يَتَمثَّلُ فِي ذَاتِ الهَيْئَةِ وَالبَحْرِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ عَلَى المُستَشْرِقِينَ[2] الذِّينَ تَنَاوَلُوا الإِيقَاعَ العَرَبِيَّ بِالدَّرسِ بَعْدَهُ بِقُرُونٍ " مِيزَةُ الإِحْسَاسِ بِهَذَا الإِيقَاعِ فَتَتَابُعُ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ عَلَى نِسَبٍ مُحَدَّدَةٍ يُوَضِّحُ ذَلِكَ الإِيقَاعَ وَلَا، كَذَلِكَ تَتَابُعُ المَقَاطِعِ المُخْتلِفَةِ الحُكْمِ "[3].

وعَلَى كُلٍّ، فَإِنَّ أَهَمَّ مَا يَشْغَلُنا فِي هَذا المَبْحَثِ، هُوَ إِدْرَاكُ مَا لِلْحرَكَةِ وَالسُّكُونِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ فِي جَعْلِ الإِيقَاعِ أَكْثَرَ دَلَالَةً، وَأَعْظَمَ أَثَرًا، وَكَيْفَ اسْتَثْمَرَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ هَذِهِ الخَصَائِصَ الصَّوْتِيَّةِ فِي شِعْرِهِ بِالشَّكْلِ الذِّي أَصْبَحَتْ مَعَهُ ظَوَاهِرَ أُسْلُوبِيَّةً لَا تَخْفَى عَلَى مُتَذَوِّقَةِ الشِّعْرِ فَضْلًا عَنْ نَقَدَتِهِ. وَهَاهُوَ العَقَّادُ يُنَبِّهُنا إِلَى:" أَنَّ هَذِهِ الحَرَكَاتِ وَالعَلَامَاتِ تَجْرِي مَجْرَى الأَصْوَاتِ المُوسِيقِيَّةِ، وَتَسْتَقِرُّ فِي مَوَاضِعِهَا المَقْدُورةِ عَلَى حَسَبِ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ فِي مِقْيَاسِ النَّغَمِ وَالإِيقَاعِ...وَلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَزِيَّةٌ تَجْعَلُهَا قَابِلَةً لِلتَّقدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ..لِأَنَّ عَلَامَاتِ الإِعْرَابِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَاهَا كَيْفَمَا كَانَ مَوْقِعُهَا مِنَ الجُمْلَةِ المَنْظُومَةِ "[4]. فَالنَّاظِرُ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَغْفَلَ عَنْ هَذَا الجَانِبِ الأَسَاسِ فِي بِنْيَتِهِ العَامَّةِ، وَالذِّي مِنْ دُونِهِ لَا يُمْكِنُ ادِّعَاءُ إِدْرَاكِ فَحْوَى الخِطَابِ الذِّي يَتَضَمَّنُهُ فِي شُمُولِيَّتِهِ وَخُصُوصِيَّتِهِ. وَهَذَا الأَمْرُ لَيْسَ جَدِيدًا، فَقَدْ عَرَضَ لَهُ المُتَقَدِّمُونَ وَخَاضُوا فِي مَسَالِكِهِ المُتَشَعِّبَةِ، وَخَلَصُوا إِلَى نَتَائِجَ ذَاتِ أَهَمِّيَّةٍ وَأَثَرٍ فِي الدَّرْسِ البَلَاغِي وَالدَّلَالِيِّ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

فَحَازِمُ يَذْهبُ إِلَى أَنَّ " التَّأْلِيفَ فِي المُتَنَاسِبَاتِ لَهُ حَلَاوَةٌ فِي المسْمُوعِ، وَمَا ائْتَلَفَ مِنْ غَيْرِ المُتَّنَاسِبَاتِ وَالمتَمَاثِلَاتِ فَغَيْرُ مُسْتَحْلَى وَلَا مُسْتَطَابٍ. وَيَجِبُ أَنْ يُقَالَ فِيمَا

---

[1]- الإيقاع في الشّعر العربيّ؛ عبد الرّحمن الوجّي، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، جوان 1989م، ص58.

[2]- كَ:إِوَالْدْ (*Ewald*)، رَايْتْ(*Wright*) وَجُويَارْ (*Guyard*) يُنظَر: في الميزان الجديد، محمّد مندور، م.س، ص257. ويُنظر: موسيقَى الشِّعر العربيِّ، محمّد شكري عيَّاد، م.س، ص68 وما بعدها.

[3]- الشّعر العربّي، محمّد مندور، م.س، ص935.

[4]- اللّغة الشّاعرة، العقاد، م.س، ص16.

ائْتَلَفَ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ شِعْرٌ، وَإِنْ كَانَ لَهُ نِظَامٌ مَحْفُوظٌ لِأَنَّا نَشْتَرِطُ فِي نِظَامِ الشِّعْرِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَطَابًا. وَمَا ائْتَلَفَ مِنْ أَجْزَاءَ تَكْثُرُ فِيهَا السَّوَاكِنُ فَإِنَّ فِيهِ كَزَازَةً وَتَوَعُّرًا. وَمَا ائْتَلَفَ مِنْ أَجْزَاءَ تَكْثُرُ فِيهَا المُتَحَرِّكَاتُ فَإِنَّ فِيهِ لَدُونَةً وَسَبَاطَةً. وَالكَثِيرُ السَّوَاكِنِ إِذَا حُذِفَ بَعْضُ سَوَاكِنِهِ وَلَمْ يَبْلُغ ذَلِكَ الحَذْفُ الإِجْحَافَ بِهِ اعْتَلَّ. وَهُمْ يَقْصِدُونَ أَبَدًا أَنْ تَكُون السَّوَاكِنُ حَائِمَةً حَوْلَ ثُلُثِ مَجْمُوعِ المتَحَرِّكَاتِ وَالسَّوَاكِنِ إِمَّا بِزِيَادَةٍ قَلِيلَةٍ أَوْ نَقْصٍ، وَلَأَنْ تَكُونَ أَقَلَّ مِنَ الثُّلُثِ أَشَدُّ مُلَاءَمَةً مِنْ أَنْ تَكُونَ فَوْقَهُ "[1]، وَفَهْمُ الإِيقَاعِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُنْبِئُ عَنْ دِقَّةِ نَظَرٍ عِنْدَ هَؤُلَاءِ المُتَقَدِّمِينِ، إِذْ كَثْرَةُ السَّوَاكِنِ تُحْدِثُ البُطْءَ الشَّدِيدَ فِي النَّصِّ فَتَزِيدُ بِذَلِكَ حِدَّةُ التَّوَعُّرِ، وَتَشْغَلُ المُتَلَقِّي عَنْ اسْتِرْسَالِ المَعَانِي وَانْسِيَابِهَا.

وَكَانَ الفَارَابِيُّ قَدْ ذَكَرَ قَبْلَ حَازِمٍ، وَلَعَلَّ هَذَا اسْتَقَاهَا مِنْ ذَاكَ، بِأَنَّ كَثْرَةَ السَّوَاكِنِ هِيَ التِّي تَدْفَعُ الشَّاعِرَ إِلَى البَحْثِ عَنْ سُبُلٍ لِتَخلِيصِ نُصُوصِهِ مِنَ الثِّقَلِ المُتَوَلِّدِ عَنْهَا، فَيَعْمِدُ إِمَّا إِلَى حَذْفِ بَعْضِها أَوْ تَحْرِيكِهِ لِيُحَافِظَ عَلَى جَمَالِ وَقْعِها وَتَنَاسُبِ نَقَرَاتِهَا، " فإِنَّ السَّوَاكِنَ إِذَا كَثُرَتْ ثَقُلَ مَسْمُوعُ القَوْلِ وَزَالَ بَعْضُ بَهَائِهِ، فَإِذَا حُذِفَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ كَانَ ذَلِكَ شِبْهَ رَاحَةٍ لِلنَّفْسِ عَمَّا ثَقُلَ عَلَيْهَا مَسْمُوعُهُ، فَلِذَلِكَ يُسْتَحْسَنُ الزِّحَافُ فِي بَعْضِ أَجْزاءِ الأَقَاوِيلِ المَوْزونَةِ "[2]. فَالشُّعَرَاءُ، إِذَنْ، يَلْجَأُونَ إِلَى عَمَلِيَّةِ اسْتِبْدالٍ تِقْنِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ تَقُومُ بِالأَخَصِّ عَلَى تَزْحِيفِ بَعْضِ أَجْزاءِ القَوْلِ عَنْ إِدْرَاكٍ وَوَعْيٍ لِمَا قَدْ يَعْتَرِي إِبْدَاعَهُمْ مِنِ اخْتِلَالٍ وَاضْطِّرابٍ وثِقَلٍ.

وهُوَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ حَازِمٌ أَيْضًا حِينَ يَقُولُ: " فَمَا حُذِفَ مِنْ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضِ الوُجُوهِ التِّي بَيَّنَّاهَا أَمْكَنَ أَنْ يَتَوَقَّرَ عَلَى مَا بُنِيَ مِنْهُ، وَأَنْ يَتَلَافَى لِتَمْكِينِ الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ المُكْتَنِفَةِ لَهُ قَدْرَ مَا فَاتَ مِنْ زَمَانِ النُّطْقِ بِهِ. فَيَعْتَدِلُ بِذَلِكَ المِقْدَارَانِ فَيَكُونَانِ مُتَوَازِيَيْنِ. وَالزِّيَادَةُ عَلَى المِقْدارِ المُسَاوِي لِسَائِرِ المَقَادِيرِ لَيْسَ فِيهَا حِيلَةٌ يُمْكِنُ

[1]- منهاج البُلغاء وسِراج الأدباء، أبي الحسن حازم القرطاجنّيّ، تح: محمّد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلاميّ، د.ط، د.ت، ص267.

[2]- الموسِيقَى الكَبِيرُ، الفَارابِي، م.س، صص1089،1090.

مَعَهَا تَسَاوِي المِقْدَارَيْنِ المَزِيدِ فِيهِ وَالبَاقِي عَلَى أَصْلِهِ. وَإِنَّمَا سَاغَ ذَلِكَ فِي السَّوَاكِنِ حَيْثُ كَانَتْ أَقْصَرَ الحُرُوفِ زَمَانًا، وَكَانَ لَهَا أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي أَبْنِيَةِ الأَوْزَانِ، فَوُجِدَتْ مَقْبُولَةً فِي الأَذْوَاقِ لِذَلِكَ "[1].

وَحِينَ حَدِيثِهِ عَنِ الحَرَكَاتِ، أَكَّدَ فَاضِلٌ السَّامُرَّائِيُّ بِأَنَّ النُّطْقَ بِالضَّمِّ يَحْتَاجُ إِلَى جُهْدٍ عَضَلِيٍّ أَكْثَرَ مِنَ الكَسْرَةِ وَالفَتْحةِ، كَوْنَهَا لَا تُنْطَقُ إِلَّا بِانْضِمَامِ الشَّفَتَيْنِ وَارتِفَاعِهِمَا، وَهَوَ مَا لَا تَتَطَلَّبُهُ الكَسْرَةُ وَلَا الفَتْحَةُ كَمَا نَعْلَمُ، وَهَذَا يُيَسِّرُ لَنَا فَهْمَ جُمْلَةٍ مِنَ الظَّواهِرِ اللُّغَوِيَّةِ فِي الأَبْنِيَةِ وَالتَّأْلِيفِ[2]. وَالمُدُودُ، بَعْدَ هَذَا، أَحْرَى بِأَنْ تُعْفَى مِنْ الاسْتِثْقَالِ الذِّي قَدْ يَعْتَرِي الكَلِمَاتِ بِسَبَبِ الحَرَكَةِ وتَعَدُّدِهَا.

يَتَبَيَّنُ لَنا مِنْ هَذَا الاشْتِغَالِ العَرُوضِيِّ الذِّي اسْتَأْنَسَ لَهُ الشُّعَرَاءُ، فَرَكِبُوا طَرَائِقَهُ المُتَعَدِّدَةَ بَحْثًا عَنْ صَدًى لَطِيفٍ فِي آذَانِ المُتَلقِّينَ، كَانَ مَبْعَثُهُ الأَهَمُّ رَغْبَةُ الشُّعَرَاءُ أَنْفُسُهُمْ فِي أَنْ يَسْمَعُوا أَشْعارَهُم تُؤَدَّى فِي أَعْذَبِ الأَلْحَانِ، وَتَجْرِي عَلَى أَرْخَمِ الحَنَاجِرِ وَأَرَقِّ الأَصْوَاتِ. لَقَدْ عَمِلَ الغِنَاءُ وَالإِنْشَادُ، وَلَا رَيْبٍ، كَوَاحِدٍ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ التَّبْسِيطِ وَالتَّسْهِيل، لُغَةً وَإِيقَاعًا، لِيَتَلَاءَمَ الشِّعْرُ مَعَ اللَّحْنِ وَيَصِيرَ أَقْرَبَ لِيسْتَعْمِلَهُ المغَنُّونَ.

وَيَرَى عَبْدُه بَدَوِي أَنَّ الشِّعرِ العَرَبِيِّ قَدْ اكْتَسَبَ سُهُولَتَهُ وغِنَائِيَّتَهُ مِنَ العَبِيدِ، السُّودِ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، فَهُوَ يَزْعُمَ أَنَّهُ " إِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ إِنَّ مَنْ شَقَّ الطَّرِيقَ بِوُضُوحٍ إِلَى شَعْبِيَّةِ الشِّعرِ هُوَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فَإِنِّي قَدْ ذَهَبتُ إِلَى أَنَّ الشُّعَرَاءَ السُّودَ كَانُوا هُمُ القَادَةَ الحَقِيقِيِّينَ لِهَذَا التَّيَّارِ الشَّعْبِيِّ، بَلْ لَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى أَنَّ السُّودَ كَانُوا وَرَاءَ التَّجْدِيدِ الذِّي أَحْدَثَهُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، فَقَدْ كَانَ فِي بَيْتِهِ، وَفِي مَصْنَعِهِ لِلفَخَّارِ عُمَّالٌ سُودٌ لَا يَكُفُّونَ عَنِ الغِنَاءِ، وَعَنِ الحَرَكَةِ، وَعَنْ تَشْقِيقِ الكَلِمَاتِ..وَلَقَدْ كَانَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مُلْتَصِقًا بِهَؤُلَاءِ

[1]- منهاجُ البُلَغاء، ج1، حازم القرطاجنيّ، م.س، ص263.

[2]- يُنظر: بلاغة الكَلمة في التّعبير القرآنيّ، فاضل صالح السّامرائي، شركةُ العاتك لِصناعة الكتاب، القاهرة، ط2، 1427هـ/2006م، ص103.

السُّودِ، وَعَاطِفًا عَلَيْهِم "[1].

وَإِذَا كَانَ هَذَا الزَّعمُ لَا يَخْلُو مِنْ صِحَّةٍ، فَإِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَحْتَاجُ الالْتِفَاتَ إِلَى أَمْرَيْنِ قَدْ غُفِلَ عَنْهُمَا، أَوَّلُهُمَا: أَنَّ الرَّقِيقَ السُّودَ كَانُوا الأَغْلَبَ فِي جَمِيعِ الأَزِمِنَةِ وَالعُهُودِ، مِنَ الجَاهِلِيَّةِ حَتَّى العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، فَلِمَ لَمْ تَعْرِفِ الأَشْعَارُ، إِذَنْ، تِلْكَ اللُّيُونَةَ وَالسُّهُولَةَ إِلَى أَنْ تَسَنَّتْ لِلْعَبَّاسِيِّينَ؟! وَعَبدُه بَدَوِي نَفْسُهُ يَرَى فِي جَاهِلِيٍّ أَسْوَدَ، هُوَ عَنْتَرَةُ، وَمَعَ أَنَّهُ امْتَهَنَ الرَّعْيَ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِنْ تَرَنُّمٍ وَدَنْدَنَةٍ، رَتِيبِ القَافِيَةِ فِي مُعَلَّقَتِهِ " عَكْسَ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ الذِّينَ يَصِلُونَ بِالقَافِيَةِ إِلَى حَدِّ الهَمْسِ كَنَصِيبٍ الأَكْبَرُ. فَالقَافِيَةُ فِي شِعْرِهِ لَا تَبْدُو مُتَحَذْلِقَةً. (...) وَتُشِيعُ فِي القَصِيدَةِ رُوحَ الغِنَاءِ، بَلْ تَدْعُونَا مَعَهُ إِلَى الغِنَاءِ "[2].

أَمَّا الأَمْرُ الثَّانِي، وَهُوَ مُرْتَدٌّ إِلَى الأَوَّلِ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ يُنْبِئُ عَنْ حِذْقِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَنَبَاهَتِهِ، إِذْ إِنَّهُ، عَلَى عَكْسِ كَثِيرِينَ مِمَّنْ عَاشَرُوا السُّودَ وَخَبِرُوا طِبَاعَهُمْ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ جَذَبَتْهُ خَاصِّيَةُ الطَرَبِ وَالغِنَاءِ الغَالِبِ عَلَى هَؤُلَاءِ فَوَظَّفَهَا فِي شِعْرِهِ، وَأَسْكَنَهُ مُوسِيقَاهَا، فَكَانَ بِحَقٍّ رَائِدَ القَصِيدَةِ الشَّعْبِيَّةِ، وَالنَّصِّ السَّهْلِ الآسِرِ.

وَلَعَلَّ وَسْمَ شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِأَنَّ طَابِعَ السُّهُولَةِ غَالِبٌ عَلَيْهِ لَيْسَ مُتَأَتِّيًا مِنْ جِهَةِ لُغَتِهِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا مِنْ جِهَةِ إِيقَاعَاتِهِ، وَالتِّي تُسْهِمُ فِيهَا بِنْيَةُ الكَلِمَةِ بِشَكْلٍ أَسَاسٍ، فَهُوَ يَتَخَيَّرُ أَسْهَلَ الأَوْزَانِ وَأَرَقَّها، وَيَزِيدُ فَوْقَ ذَلِكَ بِأَنْ يُسَكِّنَ المُتَحرِّكَات أَوْ يَحْذِفَ السَّوَاكِنَ الكَثِيرَةَ مَتَى مَا شَعَرَ أَنَّهَا لَا تَخْدُمُ خِفَّةَ أَوْزَانِهِ، وَانْسِيَابِيَّةَ أَلْحَانِهِ، وَمَتَى مَا رَأَى أَنَّهَا تَقِفُ دُونَ بُلُوغِ جَمَالِ المَعْنَى، وَتَكْبَحُ سَيْرَ الدَّلَالَةِ وَانْتِظَامَها فِي بِنِيَةِ الخِطَابِ، إِذْ " قَدْ يَعْرِضُ فِي بَعْضِ الأَقَاوِيلِ المَوْزُونَةِ أَنْ تَكْثُرَ سَوَاكِنُهَا، فيُنْقِصَ بَعْضَهَا، فَيَقُومَ ذَلِكَ مَقَامَ الحَثِّ فِي الإِيقَاعَاتِ "[3] التِّي يُصِيبُهَا الوَهَنُ، وَيَعُوقُها البُطْءُ.

---

[1]- الشّعراء السّود وخصائصهم في الشّعر العربيّ، عبدُه بدوِي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1988م، ص13، وَص351 وما بَعدَها.

[2]- نفسه، ص362.

[3]- الموسِيقَى الكَبيرُ، الفَارابِي، م.س، ص1089.

لِذَلِكَ، وَجَبَ أَلَّا يَغِيبَ عَنْ أَذْهَانِنَا، وَنَحنُ نَتَناوَلُ الإِيقَاعَ بِالدِّرَاسَةِ " أَنَّهُ يَتْبَعُ خَصَائِصَ اللُّغَةِ التِّي يُقَالُ فِيهَا الشِّعْرُ: وَقَدْ لَعِبَ طُولُ المَقَاطِعِ وَقِصَرُها دَوْرًا هَامًّا فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ فَاقَ أَهَمِّيَةَ النَّبْرِ – فِي الأَصْلِ– مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الطُّولِ. فَفِي مِثْلِ هَذِهِ اللُّغَاتِ يُصْبِحُ العَامِلُ الأَهَمُّ فِي الإِيقَاعِ هُوَ مُرَاعَاةُ النِّسَبِ العَدَدِيَّةِ بَيْنَ الأَصْوَاتِ "[1]، إِذْ هُوَ يُمَثِّلُها فِي أَدَقِّ جُزْئِيَاتِهَا، أَوْ لَعَلَّها تُمَثِّلُهُ فِي أَجْلَى صُوَرِهِ، عَلَى الأَقَلِّ مِنَ النَّاحِيَةِ الكَمِّيَّةِ، وَإِنْ كُنَّا نَجْزِمُ بِأَنَّها تَفْعَلُ ذَلِكَ وَتَزِيدُ.

فَوَعْيُ الشَّاعِرِ بِمَا تَمَلَّكَهُ مِنْ أَحْوَالٍ زَمَنَ القَوْلِ، وَتَمَثُّلُه لِصُلْبِ تَجْرِبَتِهِ الشُّعُورِيَّةِ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ شَاعِرٍ مَوْهُوبٍ أَنْ يَغْفَلَ عَنْهُ فتَخْرُجَ كَلِمَاتُهُ بَاهِتَةً عَمِيَّةً، عَاجِزَةً عَنْ أَنْ تُفْصِحَ عَنْ رُوحِهِ حَالَ انْكِسَارِهَا أَوْ انْتِشَائِهَا، وَتِلْكَ صُورَةٌ تَنْقُلُها إِلَيْنا مَجْمُوعَةُ عَوَامِلَ تَنْتَثِرُ فِي صَفْحَةِ النَّصِّ أَوْ أَعْمَاقِهِ بَلْ فِيهِمَا مَعًا، " إِنَّ ثَمَّةَ لَذَّةً شِعْرِيَّةً رَائِعَةً فِي الحَرَكَةِ النَّفْسِيَّةِ الإِيقَاعِيَّةِ لِلكَلِمَاتِ وَمَقَاطِعِهَا. لَكِنَّ هَذِهِ اللَّذَّةَ مَشْرُوطَةٌ بِكَوْنِهَا آتِيَّةً مِنْ مَدٍّ مِنْ تَفَجُّرَاتِ الأَعْمَاقِ. وَإِلَّا تَحَوَّلَتْ إِلَى رَنِينٍ بَارِدٍ صَنْعِيٍّ أَجْوَفَ "[2]. هُنَا يَصِيرُ اللَّعِبُ بِالكَلِمَاتِ تَرْوِيضًا لِنَفْسٍ جَمَحَتْ فَحَلَّقَتْ بَعِيدًا بِآمَالِهَا، أَوْ طَوَّحَتْ بِهَا الخُطُوبُ وَالرَّزَايَا فَذَهَبَتْ بَعِيدًا كَذَلِكَ، تَسْبِرُ أَغْوَارَ نَفْسِهَا وَتُوَاسِيهَا، وَهَذَا البُعْدُ أَوِ العُمْقُ، فِي الحَالَتَيْنْ يَسْتَدْعِي مَدًّا بَعْدَ انْكِمَاشٍ، وَحَرَكَةً بَعْدَ سُكُونٍ.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

32– يَا لِلشَّبَابِ المَرِحِ التَّصَابِي *** رَوَائِحُ الجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ.

/0/0//0///0/0//0// *** 0/0//0///0/0//0/0/.

فَفِي البَيْتِ 22 حَرَكَةً، بِمُعَدَّلِ11 فِي كُلِّ شَطْرٍ مُقَابِلَ 13 سَاكِنًا(7 ثُمَّ 6)، تُنْبِؤُنَا

[1]– موسيقى الشّعر العربيّ، شُكري عيَّاد، م.س، ص63.

[2]– مقدّمة للشّعر العربيّ، أدونيس، م.س، ص94.

غَلَبَةُ الحَرَكَةِ هُنَا عَمَّا يُصَاحِبُ الشَّبَابَ مِنْ حَرَارَةٍ وَفُتُوَّةٍ وَانْدِفَاعٍ، لَا يَكَادُ يَهْدَأُ حَتَّى يَسْتَأْنِفَ تَصَابِيهِ وَعُنْفُوَانَهُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْتَرِحْ إِلَّا مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبَاشِرَ ذَلِكَ النَّشَاطَ.

وَيَقُولُ:

42- مَنْ لَكَ بِالمَحْضِ وَكُلٌّ مُمْتَزِجْ *** وَسَاوِسٌ فِي الصَّدْرِ مِنْكَ تَعْتَلِجْ.

/0 ///0/0/ /0 ///0/0 *** 0//0/ 0/0// /0//0 /0 0//0// 0//0.

فِي البَيْتِ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ حَرَكَةً (12 فِي كُلِّ شَطْرٍ)، وَ14سَاكِنًا (7فِي كُلِّ شَطْرٍ)، فَبِعَشْرِ حَرَكَاتٍ كَامِلَةٍ يَتَجَاوَزُ الانْفِعَالُ السُّكُونَ وَالثَّبَاتَ، وَحِينَ نَقُولُ (الانْفِعَالَ) فَإِنَّنَا نُشِيرُ إِلَى مَا يُحِيلُ إِلَيْهِ البَيْتُ مِنْ اضْطِّرَابٍ وَحَرَكَةٍ تَخْتَلِجُ فِي الصَّدْرِ، فَتَعْلُو وَتَحْتَدُّ، وَإِنَّ مِنْ مَعَانِي الاعْتِلَاجِ: الْتِطَامُ الهَمِّ بِالصَّدْرِ وَشَغْلُهُ وَتَجَاذُبُهُ، فَكَيْفَ تَمْحَضُ الأَشْيَاءَ وَتُصَفِّيهَا وَقَدْ امْتَزَجَتْ فِي النَّفْسِ؟! هَذَا بَعْضُ الذِّي يُرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَيْنَا مِنْ خِلَالِ الإِيقَاعِ فِي حَرَكِيَّتِهِ وَسُكُونِهِ، هَذَا الصَّدُّ وَالرَّدُّ، هَدْأَةٌ فَانْتِفَاضَةٌ، يُحَاوِلُ الإِنْسَانُ دَفْعَ الهَمِّ وَقَدْ اسْتَوْطَنَ وَنَافَسَ فِي المَكَانِ/الجَنَانِ حَدَّ الاسْتِئْثَارِ وَالتَّفَرُّدِ.

وَيَقُولُ:

172- وَكُلُّ شَيْـــئٍ مُقْبِـلٌ مُـــوَلِّ *** وَكُلُّ ذِي شَيْئٍ لَهُ(و)مُخَلِّ.

//0/0/0/0//0/0/0//0 *** //0/0//0/0//0/0//0.

متفعلن مستفعلن متفعل *** متفعلن مستفعلن متفعل.

فَإِذَا نَحْنُ تَأَمَّلْنا البِنْيَةَ العَرُوضِيَّةَ لأَبْيَاتِ هَذِه الأُرْجُوزَةِ وَجَدْنَاهَا قَائِمَةً، فِي أَغْلَبِهَا، عَلَى وَزْنِ دَخَلَ الزِّحَافُ[1]، بِأَشْكَالٍ ثَلاَثَةٍ، تَفْعِيلَاتِهِ السِّتِّ، فَصَارَ أَقْصَرَ مَسَافَةً، وَأَخَفَّ

[1]- **الزّحاف**: حذفُ السّاكن، تسكين المتحرك أو حذفه. أَمَّا أَشكَالُه الثَّلاثَةُ فِي الأُرجُوزَةِ فَهِيَ: **الخَبْن**: حذف الثّاني السّاكن: مُسْتَفْعِ لُنْ = مُتَفْعِ لُنْ. **الطَّيّ**: حذفُ الرّابع السّاكن: مُسْتَفْعِلُنْ = مُسْتَعِلُنْ. **الشَّكْل**: حذف الثّاني والسّابع السّاكنين (الخَبْن + الْكَفّ): مُسْتَفْعِ لُنْ = مُتَفْعِ لُ.

وَقْعًا، وَذَلِكَ يَجْعلُهُ أَقْرَبَ لِلنَّفْسِ، وَأَطْرَبَ لِلسَّمْعِ. وَإِذْ نَعْلَمُ أَنَّ مِنْ مَعَانِي الزِّحَافَ فِي اللُّغَةِ: السُّرْعَةُ وَالاقْتِحَامُ دَفْعَةً وَاحِدَةً، تَبَادَرَ إِلَى الأَذْهَانِ بَعْضُ صُوَرِ إِيقَاعَاتِ الرَّجْزِ هُنَا فِي تَنَاسُبِهِ وَانْسِيَابِهِ مَعَ المَعْنى. فَانْظُرْ إِلَى الحَرَكِيَّةِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا فِي (مُقْبِلٌ- مُوَلٍّ- مُخَلٍّ) يُعَزِّزُ سُرْعَتَها التَّنْوِينُ فِي (مقبلٌ- شيءٍ - شيءٍ).

وَسَتَمنَحُ عَمَلِيَّةُ الإِنْشَادِ بُعْدًا آخَرَ لِلزِّحَافِ إِذْ سَيَسْتَطِيلُ الصَّوْتُ وَيَمْتَدُّ وَمَعَهُ تَأْخُذُ الحُرُوفُ كَامِلَ حَجْمِهَا الزَّمَنِيِّ اللَّازِمِ لإِحْدَاثِ اللَّذَّةِ وَالمَتَاعِ، لِهَذَا عَدَّ مَنْدُورٌ الزِّحَافَاتِ "عَمَلِيَّاتِ تَعْوِيضٍ[1] نَقُومُ بِهَا آلِيًّا، وَهَذَا التَّعْوِيضُ يَحْدُثُ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ " [2] كَإِطَالَةِ صَائِتٍ، أَوْ مَدِّ النُّطْقِ بِصَامِتٍ وَنَحْوِهِ، وَيَخْلُصُ إِلَى أَنَّ " الزِّحَافَاتِ وَالعِلَلَ لَا تُغَيِّرُ شَيْئًا فِي كَمِّ التَّفَاعِيلِ عِنْدَ النُّطْقِ وَهِيَ لِذَلِكَ لَا تُكَسِّرُ الوَزْنَ "[3]. وَهَذَا يُنَبِّهُ إِلَى أَنَّ التَّسَاوِي وَالانْتِظَامَ قَدْ يَخْلُقُ الرَّتَابَةَ فَيَنْجَرُّ عَنْهُ النُّفُورُ وَالاسْتِثْقَالُ، لِذَلِكَ تُصْبِحُ الزِّحَافَاتُ ضَرُورَةً لِكَسْرِ الاطِّرَادِ المُمِلِّ وَخَلْقِ التَّنَوُّعِ وَالنَّشَاطِ.

وَهَذِهِ الضَّرُورَةُ، عَلَى الأَرْجَحِ، هِيَ التِّي سَاقَتْ أَبَا العَتَاهِيَّةِ إِلَى هَذَا الاخْتِيَارِ العَرُوضِيِّ فِي الأُرجُوزَةِ، خُصُوصًا وَهِيَ التِّي تَتَجَاوَزُ 300 بَيْتٍ وَذَاكَ أَدْعَى لِلسَّأَمِ وَالاسْتِكْرَاهِ لَوْلَا هَذَا المَنْزَعَ الأُسْلُوبِيِّ الذِّي لَجَأَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ بِحِذْقٍ وَتَمَرُّسٍ، يَنِمُّ عَنْ امْتِلَاكٍ وَسَيْطَرَةٍ عَلَى أَدَوَاتِ الخِطَابِ. فَاخْتِيَارُهُ لِغَرَضِ الزُّهْدِ بَحْرَ الرَّجَزِ وَزْنًا يَتَوَاءَمُ هُنَا مُنْسَجِمًا مَعَ التَّحْوِيرِ الوَاقِعِ عَلَى تَفْعِيلَاتِهِ وَيُكْسِبُهَا تَنَاغُمًا وَاسْتِرْسَالًا لَمْ يَكُن لِيَحْدُثَ لَوْ أَنَّهَا جَاءَتْ تَامَّةً، فَالزِّحَافَاتُ عَادَتْ فِي هَذِهِ المَوَاطِنِ " إِحْدَى الوَسَائِلِ التِّي تَقْضِي عَلَى رَتَابَةِ الشَّكْلِ المُنْتَظِمِ لِتَعَاقُبِ الحَرَكَاتِ وَالسَّوَاكِنِ "[4].

---

[1]- استَقَى محمّد مندُور مَفهُوم التَّعوِيض مِن حَازِمٍ مِن مِثلِ قَوْله: " وإِذا تركَّب الضَعِيفُ مع القوِيِّ فرُبَّما غَطَّى عَلى ضَعفِه..." يُنظر: منهاج البُلغَاء، حَازِم القرطاجنِّيّ، م.س، ص260 وما بَعدها.

[2]- في الميزان الجديد، مندور، م.س، ص263.

[3]- نفسه، ص264.

[4]- مفهوم الشّعر – دراسة في التّراث النّقديّ، جابر عصفور، م.س، ص320.

بَلْ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَعَلَى العَكْسِ مِمَّا كَانَ مُتَدَاوَلًا فِي القَدِيم، وَلَا يَزَالُ عِنْدَ بَعْضِ أُدَبَاءِ وَنُقَّادِ[1] عَصْرِنَا أَيْضًا، فَإِنَّ الزِّحَافَاتِ لَمْ تَعُدْ ضَرُورَةً تُنْقِذُ الشَّاعِرَ مِنْ سَقَطَاتٍ مُحْتَملَةٍ لِانْتِظَامِ الوَزْنِ، إِنَّمَا هِيَ عَمَلٌ إِرَادِيٌّ وَاخْتِيَارٌ مَقْصُودٌ مِنْهُ كَسْرَ الرَّتَابَةِ التِّي قَدْ تَعْتَرِي النَّصَّ فِي مُسْتَوَى مِنْ مُسْتَوَيَاتِهِ، الإِيقَاعِيِّ مِنْها عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ، إِذْ " لَمْ يَخْطُر لِدَارِسٍ فِي التُّرَاثِ، بِسَبَبِ مَفْهُومِ النُّقَّاد لِلزِّحَافِ، أَنَّ التَّحَوُّلَاتِ الإِيقَاعِيَّةَ قَدْ تَأْتِي تَعْبِيرًا عَنْ حَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ فِي التَّجْرِبَةِ الفَنِّيَّةِ ذَاتِهَا، وَأَنَّ البَحْثَ يَجِبُ أَنْ يُرَكِّزَ عَلَى تَحْلِيلِ العَلَاقَةِ الحَيَوِيَّةِ بَيْنَ تَغَيُّرِ الوِحْدَةِ الإِيقَاعِيَّةِ عَنِ النَّمُوذَجِ وَبَيْنَ البِنْيَةِ الكَامِلَةِ لِلقَصِيدَةِ. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، لَمْ يَخْطُر لِلنَّاقِدِ فِي التُّرَاثِ أَنَّ الزِّحَافَ هُوَ فِي الوَاقِعِ – فِي عَمَلِ الفَنَّانِ الخَالِقِ – " زِيَادَةٌ " لَا نَقْصٌ، لِأَنَّهُ اسْتِجَابَةٌ لِلمُحَرِّكَاتِ الفَاعِلَةِ فِي الخَلْقِ الفَنِّيِّ فِي أَعْمَاقِ الفَنَّانِ "[2].

هَذَا التَّعَامُلُ الجَدِيدُ مَعَ مَاهِيَّةِ الزِّحَافَاتِ وَالعِلَلِ يَفْتَحُ آفَاقًا لَمْ تَكُنْ إِلَى حِينٍ مُتَيَسِّرَةً لِدَارِسِ الأَدَبِ. وَلَعَلَّ اسْتِصْغَارَ الشُّعَرَاءِ وَالنُّقَّادِ لِلرَّجزِ كَكُلٍّ، وَالوُقُوعَ فِي الزِّحَافَاتِ وَالعِلَلِ آتٍ مِنْ سُوءِ الفَهْمِ هَذَا، أَوْ مِنْ قلَّةِ التَّقْدِيرِ لِلرُّجَّازِ، أَوْ لَرُبَّمَا لِلأَمْرَيْنِ مَعًا. فَهُمْ رَؤُوا إِلَى الأَوْزَانِ الكَامِلَةِ وَجَعَلُوهَا مِعْيَارًا عَلَيْهِ يَقِيسُونَ سَلَامَةَ الإِيقَاعِ أَوِ اضْطِرَابَهُ، فَلَمْ يَلْتِفتُوا إِلَى الجَوانِبِ الجَمالِيَّةِ الكَامِنَةِ فِي (النَّاقِصِ) عَلَى أَنَّهَا تَلْوِينٌ وَتَنَوُّعٌ، مَعَ أَنَّ النُّبَهَاءَ مِنَ النُّقَّادِ المُتَقَدِّمِينَ كَانَتْ لَهُمْ إِضَاءَاتٌ مُهِمَّةٌ إِلَى تِلْكَ النَّوَاحِي. وَكَأَنِّي بِهَؤُلَاءِ (المُلْتَزِمِينَ الكَمَالَ) – وَلَيْسَ يُوجَدُ – يَتَمَثَّلُونَ بَيْتَ المُتَنَبِّي إِذْ يَقُولُ:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئًا *** كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ.

[1]– فنَازك الملائكة مثلًا، تَعتَبِرُ وُقُوع الشّعراء المعاصِرين فِيما تُسَمِّيه (شَرَكَ الزِّحافِ) كالمَرْضَى بالزُّكام، وهذَا تَحجُّرٌ فِي تفكِيرِها كَونَها تَرى حركَة الإِيقَاع ولِيدَة التَّفعِيلاتِ ذَاتِها، لاَ شيْئًا يَخصُّ الكلِماتِ و يَنبُعُ منها، يُنظر: فِي البنية الإِيقَاعيّة للشِّعر العربِيِّ، كمال أبو ديب، م.س، هامش رقم: 30، ص101.

[2]– فِي البنية الإِيقَاعيّة للشِّعر العربِيِّ، كمال أبو ديب، م.س، ص91.

غَيْرَ أَنَّ حَقِيقَةِ الشِّعْرِ أَعْمَقُ مِنْ هَذَا، وَأَذْهَبُ غَوْرًا، إِنَّهُ نَسِيجٌ مُتَشَابِكَةٌ عُرَاهُ، مُتَمَاسِكَةٌ بُنَاهُ. إِنَّ النَّصَّ وَهُوَ يَرْتَفِعُ يَحُثُّ خُطَاهُ نَحْوَ المَعْنى، وَيُشَكِّلُ دَلَالَاتِهِ فِي صُوَرِهِ المُتَعَدِّدَةِ. وَبِنْيَةُ الإِيقَاعِ تَسْتَأْثِرُ حِينَها بِالمقَامِ الأَسْمَى فِي اشْتِغَالِهِ تَفَاعُلًا وَانْبِنَاءً.

فَهذَا حَازِمٌ يَقُولُ أَنَّ " مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي اعْتِبَارِ مَجَارِي النَّظْمِ، مِنْ جِهَةِ مَا يُزَاحَفُ أَوْ يُعَلُّ مِنْ أَسْبَابِهِ وَأَوْتَادِهِ، (...) أَنْ تُوجَدَ الأَوْزَانُ جَارِيَةً مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ عَلَى مَا يَحْسُنُ فِي السَّمْعِ وَيُلَائِمُ الفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ الذَّوْقِ، (...). فَيَكُونَ حِينَئِذٍ مُوَافِقًا لِمَجَارِي كَلَامِ العَرَبِ الصَّحِيحَةِ مَعَ كَوْنِهِ وِفْقًا لِلنُّفُوسِ وَالأَسْمَاعِ "[1].

وَسَوَاءً أَكَانَ هَذَا الاخْتِلَافُ مِنْ جِهَةِ الزِّحَافَاتِ وَالعِلَلِ أَوِ الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، فَإِنَّ لِذَلِكَ أَثَرًا جَمَالِيًّا لَا يَخْفَى، وَإِيقَاعًا يَتَجَدَّدُ فِي حَرَكِيَّةٍ دَائِبَةٍ لَا مَحَالَةَ، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

230- إِرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَقُـــوتُكَا *** وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّزْقَ لَا يَفُـــوتُكَا.
233- لِيَسْلَمِ النَّـــاسُ جَمِيعًا مِنْـكَا *** وَارْضَ لَعَـلَّ اللهَ يَرْضَـى عَنْكَا.
259- مَا أَسْرَعَ المَوْتَ لِذِي طَرْفٍ طَمَحْ *** لَـمْ يَتْرُكِ المَوْتُ لِذِي لُبٍّ فَرَحْ.
/0//0/ 0/0///0/ 0//0/0/ *** 0//0/ 0/0///0/ 0//0/0/.

إِنَّنَا نُحِسُّ بِأَنَّ هَذِهِ الكَافَ قَدْ أُشبِعَتْ لِغَيْرِ دَاعٍ عَرُوضيٍّ، فَالوَزنُ يَسْتَقِيمُ مِنْ دُونِهَا، لِذَلِكَ سَتَكُونُ الأَلِفُ فِي (يَقُوتُكَا ويَفُوتُكَا) بِالأَسَاسِ، مُرْتَبِطَةً بِالحِسِّ الإِنْشَادِيِّ الغَالِبِ عِنْدَ الشَّاعِرِ، وَالذِّي ذَكَرْنَا آنْفًا أَنَّهُ بَعْضُ مَظَاهِرِ التَّأَثُّرِ بِالقُرْآنِ الكَرِيم وَصِيَغِ تَرْتِيلِهِ وَتَجْوِيدِهِ، زِيَادَةً عَلَى مَا يَنْشَأُ مِنْ مَطٍّ لِلْحُرُوفِ وَالحَرَكَاتِ تَمَاهِيًا مَعَ أَحْوَالِ النَّفْسِ، وَتَنْهِيدَاتِ الخَوَاطِرِ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ " هَذَا شِعْرٌ حَسَنٌ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا قُطِّعَ وَمُدَّ تَمْدِيدَ

[1]- منهاج البُلغاء وسِراج الأدباء، حازم القرطاجنّي، م.س، ص264.

الأَطْرِبَةِ "[1]. فَنَحْنُ بِإِزَاءِ إِيقَاعٌ سَمْعِيٌّ بِالدَّرجَةِ الأُولَى، وَلَيْسَ بَصَرِيًّا/خَطِّيًّا، وَهُوَ مَا يُوَافِقُ مَنْطِقَ (*Logique*) الشِّعرِ العَرِبِيِّ الذِّي يَقُومُ فِي جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنْهُ عَلَى مُخَاطَبَةِ الآخَرَ (مَدْحُ الخُلَفَاءِ أَوْ إِلْقَاءَ الشِّعْرِ فِي حَضْرَتِهِمْ)، أَوْ مُخَاطَبَةَ الذَّاتِ، حَتَّى فِي أَوْحَشِ الأَوْقَاتِ وَأَكْثَرِها عُزْلَةً، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ يَصِيرُ هُنَا أَوْلَى، كَمَا رَأَيْنا مَعَ الوُقُوفِ عَلَى الأَطْلَالِ.

وَلَمَّا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ شِعْرَ الزُّهْدِ المَبْنِيِّ عَلَى نَصَائِحَ وَمَوَاعِظَ تَسْتَهدِفُ طَبَقَاتٍ مِنَ المُجتَمعِ فَإِنَّ إِنْشَادَ الشِّعْرِ يُصْبِحُ مُلِحًّا، بَلْ إِنَّ " نُطْقَ الشِّعْرِ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ إِبْدَاعِهِ، بِاعْتِبَارِ النُّطْقِ ضَرُورَةً مَوْرُوثَةً فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، فَقَدْ عَاشَ الشِّعْرُ العَرَبِيُّ فِي مَنْظُومَةِ الرِّوَايَةِ وَالرُّوَاةِ، وَتَأَكَّدَ فِيمَا يُسَمَّى مَدْرَسَةَ الإِنْشَادِ، وَقَدْ كَانَ وَرَاءَ هَذَا طَبِيعَةُ اللُّغَةِ، وَطَبِيعَةُ الحَضَارَةِ، التِّي اهْتَمَّتْ بِالسَّمْعِ أَكْثَرَ مِنِ اهْتِمَامِهَا بِالبَصَرِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّوصِيلِ الأُولَى لِلشِّعْرِ "[2]. لِهَذا نَجِدُ أَبَا العَتَاهِيَّةِ يَسْتَغِلُّ طَاقَةَ هَذِهِ التِّقْنِيَةِ لِيُبَلِّغَ خِطَابَهُ بِأَكْبَرِ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ التَّأْثِيرِ، بِالصُّورَةِ، وَاللُّغَةِ وَالصَّوْتِ، أَوْ هُوَ يَفْعَلُهُ بِذَلِكَ جَمِيعًا.

وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنَّ المُتَلَقِّي يَحْتَاجُ إِلَى رَنِينِ الكَلِمَةِ وَحُرُوفِهَا فِي الأُذُنِ، وَمَعَهَا يَمِيلُ إِلَى السُّهُولَةِ وَاليُسْرِ الذِّي يَبْعَثُ الانْسِجَامَ فِي أَوْصَالِ البَيْتِ فَيَسْتَقِرُّ فِي النَّفْسِ، وَيَنْطَبِعُ أَثَرُهُ فِيهَا صَوْتًا ودَلَالَةً، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

268/ يَا عَيْنُ مَا لَكِ لَا تَبْكِينَا *** تَبَصَّرِي إِنْ كُنْتِ تُبْصِرِينَا.
316/مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يُخَيِّبُوهُ *** وَيُعْرِضُوا عَنْهُ وَيُصَغِّرُوهُ.
317/ مَنْ صَنَعَ النَّاسَ تَكَنَّفُوهُ *** وَاقْتَرَبُوا مِنْهُ وَكَرَّمُوهُ.

فَأَنْتَ أَمَامَ هَذِهِ الأَبْيَاتِ وَكَأَنَّكَ فِي مُوَاجَهَةِ خَطِيبٍ قَدْ مَدَّ صَوْتَهُ، ورَفَعَ عَقِيرَتَهُ، وَأَكْثَرَ النَّقْرَ عَلَى خَشَبٍ، مِنْبَرِهِ لِيَسْتَرْعِيَ الأَسْمَاعَ وَيَحْمِلَهَا عَلَى البَقَاءِ مُتَّجِهَةً نَحْوَهُ،

[1]- الأَغاني، ج8، أبُو الفرج الأصفهانِيُّ، دارُ الكتبِ المِصريَّةُ، القاهرة، د.ط، 1935م، ص377.

[2]- دور الشّعر وخدمته لعمليّة التّنمية الثّقافيّة في الحاضر والمستقبل، عبدُه بدَوِي، مجلّة عالم الفكر، مجلّة دورية ثقافيّة فكريّة محكّمة، ع:4، مج:16، يناير- فبراير- مارس1986م، وزارة الإعلام، الكويت، ص58.

فَيَضْغَطُ عَلَى الحُرُوفِ نَبْرًا وَشَدًّا (يُخَيِّبُوهُ-يُصَغِّرُوهُ-تَكَنَّفُوهُ-كَرَّمُوهُ)، أَرْبَعُ إِيقَاعَاتٍ/ نَقَرَاتٍ مُوَزَّعةٍ بِالتَّسَاوِي عَلَى أَجزَاءِ البَيْتَيْنِ، مُعَزَّزَةٍ بِتِلْكَ المَقَاطِعِ القَصِيرَةِ المُتَمَاثِلَةِ، الأَرْبَعِ أَيْضًا (مَنْ عَنْهُ ، مَنْ مِنْهُ).

مَنْ ⟵ النَّاسَ يُخَيِّبُوهُ، عَنْهُ ← وَيُصَغِّرُوهُ.

مَنْ ⟵ النَّاسَ تَكَنَّفُوهُ، مِنْهُ ← وَكَرَّمُــوهُ.

فَالمَسَافَةُ/المُدَّةُ الزَّمَنِيَّةُ لِلنَّقَراتِ الأَرْبَعِ تَتَسَاوَى طُولًا وَقِصَرًا - وَقَدْ مَثَّلْنا لَهَا هُنَا بِأَسْهُمٍ - بِالشَّكْلِ الذِّي يَمْنَحُ السَّمْعِ فُرْصَةً لِاسْتِيعَابِ جَمَالِيَاتٍ عِدَّةٍ مِنْهَا المُرَاوَحَةُ بَيْنَ الفَوَاصِلِ بِجَعْلِ الأُولَى أَطْوَلَ مِنَ الثَّانِيَةِ، وَمِثْلُهَا فِي البَيْتِ المُوَالِي، وَالتَّنْوِيعُ الذِّي يَطْرُدُ المَلَلَ، خُصُوصًا لَوْ أَنَّ الفَقَراتِ تَسَاوَتْ تَمَامًا (نُذَكِّر بِأَنَّ الأُرْجُوزَة فِي أَكثَرَ مِنْ300 بَيْتٍ).

هَذَا مِن جِهَةِ الصَّوتِ، أَمَّا مِن جِهَةِ اتِّحَادِهِ بِالدَّلَالَةِ المُعَزِّزَةِ لِلإِيقَاعِ، فَإِنَّ المُوسِيقِيَّةَ لَا تَنْشَأُ مِنْ تَمَاثُلِ المَعَانِي فَقَطْ، بَلْ إِنَّ أَكْثَرَها تَأْثِيرًا، وَلَعَلَّهَا الأَكْثَرُ جَمَالاً، يَأْتِي مِنْ جِهَةِ المُتَنَافِرِ مِنْهَا حِينَ يُحْدِثُ التَّوَازُنَ وَالانْسِجَامَ، فَانْظُرْ إِلَى ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الشَّكْلِ(**2**)، حَيْثُ يَجْتَمِعُ لِلبَيْتَيْنِ، إِضَافَةً إِلَى التَّوَافُقِ فِي البَحْرِ وَالقَافِيَةِ وَالرَّوِيِّ وَالتَّصْرِيعِ، تَوَافُقٌ إِيقَاعِيٌّ مُتَوَلِّدٌ عَنْ:

1- تَسَاوِي الجُمَلِ طُولًا. 2- التَّسَاوِي الصَّرْفِيُّ. 3- تَسَاوِي الكَلِمَاتِ سَلْبًا وَإِيجَابًا(تَسَاوِي فِي التَّضَادِّ): يُخَيِّبُوهُ = تَكَنَّفُوهُ، يُعْرِضُوا = تَكَنَّفُوهُ، يُصَغِّرُوه =كَرَّمُوهُ، عَنْهُ = مِنْهُ.

(الشَّكْلُ 2)

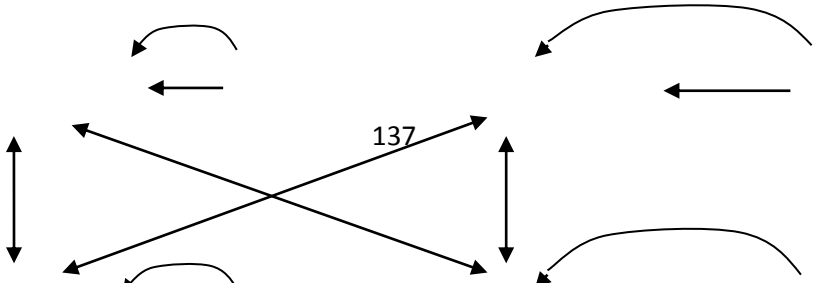

مَنْ النَّاسَ يُخَيِّبُوهُ ، يُعْرِضُوا عَنْهُ وَيُصَغِّرُوهُ.

مَنْ النَّاسَ تَكنَّفُوهُ ، اقْتَرَبُوا مِنْهُ وَكـرَّمُوهُ.

فَالزَّمَنُ الذِّي يَسْتَغْرِقُهُ سُؤَالُ النَّاسِ وَالتَّصَنُّعُ إِلَيْهِمْ لِنَيْلِ الحُضْوَةِ، وَمَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ صَدٍّ وَتَمَلُّقٍ، وَانْكِسَارِ آمَالٍ وَتَعَلُّقٍ، هُوَ فِي الغَالِبِ أَطْوَلُ مِنَ الزَّمَنِ الذِّي يَحْدُثُ فِيهِ الاسْتِصْغَارُ وَالخَيْبَةُ، التِّي تَكُونُ مُفَاجِأَةً صَادِمَةً، إِذْ بِمُجَرَّدِ أَنْ يُجِيدَ غَيْرُكَ السُّؤَالَ، وَيَتَفَنَّنَ فِي التَّصَنُّعِ تَفْقِدُ مَكَانَكَ لِصَالِحِهِ. وَنُضِيفُ إِلَى هَذَا التَّضَادُّ بَيْنَ: يُخَيِّبُوهُ وَتَكنَّفُوهُ، وَبَيْنَ: يُصَغِّرُوهُ وَكَرَّمُوهُ، تَضَمُّنَهُ إِيقَاعُهُ الخَاصُّ الذِّي يُحَرِّكُ الدَّلَالَةَ وَمَعَهَا يَهُزُّ النَّفْسَ وَيَسْتَثِيرُهَا، فَيَبْعثُ فِيهَا الاشْمِئْزَازَ مِنْ إِيقَاعِ الذُّلِّ وَالهَوَانِ الكَامِنَةَ فِي ذَاكَ السُؤَالِ وَذَاكَ التَّصَنُّعِ.

أَوَلَيْسَ " الوَزْنُ هُوَ أَنْ تَكُونَ المَقَادِيرُ المُقَفَّاةُ تَتَسَاوَى فِي أَزْمِنَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ لِاتِّفَاقِهَا فِي عَدَدِ الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَالتَّرْتِيبِ "[1]. وَعَلَى هَذَا يُعلِّقُ جَابِرُ عُصْفُورُ قَائِلًا: " هَذِهِ المُسَاوَاةُ فِي الزَّمَنِ تَرْجِعُ – فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ– إِلَى التَّنَاسُبِ، بَلِ الأَقْرَبُ إِلَى الدِّقَّةِ أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا صُورَةٌ مِن صُورِهِ، لِأَنَّ تَعَاقُبَ الحَرَكَةِ وَالسُّكونِ فِي الأَوْزَانِ المُتعَدِّدةِ لَيْسَ أَمْرًا عَشْوائِيًّا، بَلْ هُوَ عَمَلِيَّةُ تَنَاسُبٍ دَاخِلَ نِظَامٍ مُتَّحِدٍ لِحَرَكةٍ مُنْتَظِمةٍ فِي الزَّمَنِ، تَتَآلَفُ دَاخِلَهُ الأَجْزَاءُ فِي مَجمُوعَاتٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَمُتَشَابِهَةٍ فِي تَكْوِينِهَا، فيَتَشَكَّلُ – بِهَذَا التَّآلُفِ –كُلُّ وَزْنٍ عَلَى حِدَةٍ، وَيَتَمَيَّزُ – فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ – عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الأَوْزَانِ "[2] بِخَصَائِصَ هِيَ جَوْهَرُ مَا يَجْذِبُنَا إِلَى إِيقَاعِ نَصٍّ وَيَعْجَزِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَعَ غَيْرِهِ، حَتَّى إِنَّنَا نُحِسُّ الاخْتِلَافَ فِي الوَزْنِ الوَاحِدِ ذَاتِهِ كُلَّمَا أَجَادَ الشَّاعِرُ اللَّعِبَ بِمُكَوِّنَاتِ البَيْتِ، ثُمَّ القَصِيدَةِ كَكُلٍّ. يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

[1]– مِنهَاجُ البُلغاءِ، حازم القَرْطَاجَنِّيّ، م.س، ص263.

[2]– مفهوم الشّعر، جابر عصفور، م.س، ص296.

182- وَكُلُّ شَيْءٍ مُقْــبِلٌ مُــوَلِّ *** وَكُلُّ ذِي شَــيْءٍ لَهُ مُــخَلِّ.

//O/O/O//O/O// *** O//O// //O/O/

مُتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مُتَفْعِلْ *** مُتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُ مُتَـفْعِلْ.

فَإِضَافَةً إِلَى التَّوَافُقِ فِي الوَزْنِ العَرُوضِيِّ، نَجِدُ هَذَا البَيْتَ يَنْبَنِي، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ جُلِّ أَبْيَاتِ الأُرْجُوزَةِ، عَلَى التَّنَاسُبِ *Symétrie* القَائِمِ عَلَى تَوَالِي الحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ، وَالتَّآلُفِ وَالتَّخَالُفِ، والتَّكْرَارِ وَالمُغَايَرَةِ، وَطُولِ المَسَافَاتِ وَقِصَرِهَا، وَكُلُّهَا تُسْهِمُ بِقِسْطٍ فِي الانْسِجَامِ الدَّلَالِيِّ وَالإِيقَاعِيِّ لِلنَّصِّ.

1- وَكُلُّ شَيْءٍ + وَكُلُّ ذِي شَيْءٍ = تَآلُفٌ فِي الحَرَكَةِ وَاللَّفْظِ، مَعَ اخْتِلَافٍ فِي المَسَافَةِ الوَزْنِيَّةِ.

2- مُقْبِلٌ + مُوَلِّ = تَضَادٌّ (الاخْتِلَافُ فِي المَعْنَى وَفِي الحَرَكَةِ).

3- مُوَلِّ + مُخَلِّ = تَوَافُقٌ فِي المِيزَانِ الصَّرْفِيِّ (الحَرَكَةُ) + تَرَادُفٌ فِي المَعْنَى = تَآلُفٌ.

نُلَاحِظُ إِذَنْ، أَنَّهُ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ، المُتَآلِفَةِ وَالمُتَنَافِرَةِ مِنْهَا، فَإِنَّ الحَرَكَةَ حَاضِرَةٌ مُنْشِئَةٌ لِلانْسِجَامِ وَالتَّوَافُقِ، مُؤَسِّسَةٌ لِلتَّنَاظُرِ بَيْنَ عَنَاصِرِ البِنْيَةِ، وَهُوَ مَا سَيَنْعَكِسُ عَلَى المُتَلَقِّي، وَيُيَسِّرُ عَلَيْهِ فَهْمَ الرِّسَالَةِ مِنْ وِجْهَةٍ نَفْسِيَّةٍ تَعْجَزُ اللُّغَةُ عَنْ بُلُوغِهَا، فَيَكُونُ الإِيقَاعُ بِذَلِكَ مُكَمِّلًا وَمُفَعِّلًا لِأَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَى نَقْلِ خِطَابِ قَلْبٍ لِقَلْبٍ (شَاعِرٌ/مُتَلَقِّي). لِذَلِكَ رَأَى رِيتْشَارْدْز أَنَّ " الذِّي يُمْكِنُ فِعْلُهُ عَنْ طَرِيقِ الصَّوْتِ لَا يَجُوزُ فِعْلُهُ عَنْ طَرِيقِ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ الإِخْلَالُ بِالأَثَرِ الطَّبِيعِيِّ لِلصَّوْتِ "[1]، فَالصَّوْتُ بِكُلِّ أَبْعَادِهِ لَا يُمْكِنُ الاسْتِعَاضَةُ عَنْهُ أَوِ الاكْتِفَاءِ دُونَهُ إِنْ قَصَدْنَا إِلَى مُسْتَوًى أَعْلَى لِإِبْلَاغِيَّةِ أَيِّ خِطَابٍ، وَالأَدَبِيِّ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ مَا دَخَلَ الشِّعْرَ مِنْ بَابِ الغِنَاءِ وَآلَاتِهِ قَدْ أَحْدَثَ أَثَرًا غَيْرَ هَيِّنٍ فِي الشِّعْرِ

[1]- مَبادئ النَّقد الأَدبِيّ...، أ.أ.ريتشاردز، م.س، ص193.

العَرَبِيِّ، وَأَسْهَمَ بِذَلِكَ فِي فَرْضِ مَنْطِقِهِ، بِشَكْلٍ مَا، عَلَى بِنْيَةِ ذَلِكَ الشِّعرِ، لُغَةً وَدَلَالَةً وَإِيقَاعًا، " وَنَحْنُ لَا نَنْسَى أَنَّ الغِنَاءَ نَفْسُهُ مِنْ دَوَافِعِ التَّحْرِيكِ لِلشُّعَرَاءِ (وَيَأْتِي الوَزْنُ بَعْدَ اللُّغَةِ وَهُوَ الآخَرُ قَدْ طَرَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ التَّعْدِيلِ إِذْ كَانَ المُغَنُّونَ وَالمُغَنِّيَاتُ يَضْطَرُّونَ مَعَ أَلْحَانِهِمْ أَنْ يُطِيلُوا وَيَمُدُّوا فِي بَعْضِ حُرُوفِ تَفْعِيلَاتِ البَيْتِ، وَأَنْ يُقْصِرُوا أَوْ يَهْمِسُوا فِي حُرُوفٍ أُخْرَى مِنْ هَذِهِ التَّفْعِلَاتِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَجْعَلُنا نُؤْمِنُ بِأَنَّ مُوسِيقَى الشِّعْرِ القَدِيمِ نَفْسُهَا تَطَوَّرَتْ تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا المَدِّ وَالهَمسِ، فَطَالَتْ المَسَافَاتُ الزَّمَنِيَّةُ فِي بَعْضِ الحُرُوفِ وَقَصُرَتْ فِي أُخْرَى، وَقَدْ أَتَاحَتْ هَذِهِ الصُّورُ مِنَ الغِنَاءِ لِلشُّعَرَاءِ المُعَاصِرِينَ – أَوْ قُلْ هِيَ نَبَّهَتْهُمْ – أَنْ يُحْدِثُوا زِحَافَاتٍ وَعِلَلًا كَثِيرَةً فِي شِعْرِهِمْ) "[1]. وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا جَعَلَ بَعْضَ الآذَانِ المُوسِيقِيَّةِ(الأَصِيلَةِ) أَوْ لَعَلَّهَا المُتَعَصِّبَةُ لِلقَدِيمِ، تَسْتَهْجِنُ هَذَا الطَّارِئَ عَلَى الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَسَاغًا مِنْ جَوانِبَ فَنِّيَّةٍ عِدَّةٍ، فَتَرُدُّهُ وَتَسْتَقْبِحُهُ بِحُجَّةِ أَنَّهُ (دَخِيلٌ) عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ، مُفْسِدٌ لِهَذَا الشِّعْرِ.

لَكِنَّ واقِعَ الحَالِ أَثْبَتَ أَنَّ هؤُلَاءِ عَجَزُوا عَنِ الوُقُوفِ أَمَامَ هَذَا المَدِّ الحَدَاثِيِّ حِينِهَا، وَالذِّي اسْتَهْوَى كَثِيرًا مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَلَوْ مِنْ بَابِ التَّجْرِيبِ أَحْيَانًا. وَهَاهُوَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ يَرْكَبُ هَذِهِ المَوْجَةَ بِاقْتِدَارٍ وَتَفَنُّنٍ يَنُمُّ عَنْ تَشَرُّبِهِ خَصَائِصَ كُلِّ عَصْرٍ: السَّابِقَ واللاَّحِقَ، فَرَاحَ يُبْدِعُ بِمَا يُسَايِرُ أَذْوَاقَ زَمانِهِ، فَاسِحًا لِلُغَتِهِ وإِيقَاعَاتِهَا مَجَالَ التَّمَاهِي مَعَ أَصْواتِ المُغَنِّينَ وَأَلْحانِ المُلَحِّنِينَ، وَقَدْ أَدْرَكَ بِأَنَّ الرَّجَزَ وَزِحَافَتِهِ أَدْخَلُ لِشِعْرِهِ فِي هَيْكَلِيَّةِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الجَدِيدِ الذِّي بَدَأَتْ مَعَالِمُهُ وَإِرْهَاصَاتُهُ فِي البُرُوزِ يَوْمَهَا، وَإِنْ نَحْنُ تَأَمَّلْنَا شِعْرَهُ فِي عُمُومِهِ وَجَدْنَاهُ مُصْطَبِغًا بِمَسْحَةِ الغِنَائِيَّةِ هَذِهِ، وَالتِّي هِيَ، إِضَافَةً إِلَى مَا قُلْناهُ قَبْلًا، خَاصِّيَّةٌ مِنْ خَصَائِصِ غَرَضِ الزُّهْدِ كَوْنَهُ يَقُومُ عَلَى العِظَةِ وَالإِنْشَادِيَّةِ.

وَحَرَكِيَّةُ الإِنْشَادِ تِلْكَ واضِحَةٌ فِي ثَنَايَا الأُرْجُوزَةِ، تَتَخَلَّلُ مَقَاطِعَها الطَّوِيلَةَ، وَهِيَ فِي بَعْضِهَا أَخَفُّ وَأَسْرَعُ زَمَنًا مِنْ بَعْضِهَا الآخَرِ بِمَا يَنْسَجِمُ مَعَ لُغَتِهَا وَمَوْضُوعِهَا وَحَالَةِ

[1]– الشّعراء السّود وخصائصهم في الشّعر العربيّ، عبدُه بدوي، م.س، صص354،355.

الشَّاعِرِ النَّفْسِيَّةِ التِّي لَا بُدَّ وَأَنَّهَا مُتَغَيِّرَةٌ لِسَبَبَيْنِ: أَوَّلُهُمَا طُولُ النَّصِّ وَمَا يَسْتَدْعِيهِ ذَلِكَ مِنْ تَبَدُّلٍ فِي نَفَسِ القَصِيدَةِ وَتَرْكِيبَتِها، وَثَانِيهُمَا: انْتِقَالُ الشَّاعِرِ بَيْنَ سَخَطٍ وَرِضَى، وَفَرَحٍ وَغَضَبٍ، وَجَنَّةٍ وَنَارٍ... فَتَتَبَاطَؤُ الحَرَكَةُ وَتَثْقُلُ تَارَةً، وَتَتَسَارَعُ وَتَخِفُّ تَارَةً أُخْرَى.

12/ الفَقْرُ فِيمَا جَـــاوَزَ الكَفَـــافَا *** مَنْ عَرَفَ اللهَ رَجَـــا وَخَافَا.
13/ إِنَّ القَلِيلَ بِالقَـــلِيلِ يَكْـــثُرُ *** إِنَّ الصَّفَاءَ بِالقَذَى لَيَكْدُرُ.
14/ يَا رُبَّ مَنْ أَسْخَطَنَا بِجَـهْدِهِ *** قَدْ سَـرَّنَا اللهُ بِغَيْـرِ حَمْدِهِ.
15/مَنْ لَمْ يَصِلْ فَارْضَ إِذَا جَفَـاكَا *** لَا تَقْطَعَنَّ لِلْهَوَى أَخَاكَا.
16/ اللهُ حَسْـــبِي فِي جَمِيعِ أَمْرِي *** بِهِ غَنَـــائِي وَإِلَيْـهِ فَقْـــرِي.
17/ لَنْ تُصْلِحَ النَّاسَ وَأَنْتَ فَاسِدُ *** هَيْهَاتَ مَا أَبْعَدَ مَا تُكَابِدُ.

فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يُلَوِّنُ فِي إِيقَاعِ أَبْيَاتٍ مُتَلَاحِقَةٍ، إِذْ رُغْمَ أَنَّ الوَزْنَ وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّنَا نُحِسُّ نِسَبًا مِنَ التَّغَيُّرِ تَرْجِعُ إِلَى عَنَاصِرَ أُخْرَى مُشَكِّلَةٍ لِبِنْيَةِ الإِيقَاعِ، أَهَمُّها هُنَا اللُّغَةُ وَمَا يَطْرَأُ عَلَى الوَزْنِ مِنْ زِحَافَاتٍ، وَعَلَى الكَلِمَةِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

11/ إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَا *** فَكُلُّ مَا فِي الأَرْضِ لَا يُغْنِيكَا.

لَا يُغْنِيكَ **مَا**←— **مَا** فِي الأَرْضِ **لَا** يُغْنِيكَا= القَلْبُ المُتَنَاظِرُ فِي عَنَاصِرِ الجُمْلَةِ (النَّفْيُ فَاسْمُ الموْصُولُ/اسْمُ الموْصُولُ فَالنَّفْيُ).	وَهَذَا يَخْلُقُ تَنَاسُبًا إِيقَاعِيًّا يَنْشَأُ عَنْ تَقْلِيبِ أَجْزَاءِ الجُمْلَةِ زِيَادَةً عَلَى تَسَاوِيهَا فِي الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ.
لَا **يُغْنِيكَ** ←— لَا **يُغْنِيكَا** = التَّكْرَارُ لَفْظًا وَوَزْنًا صَرْفِيًّا.	
يَكْفِيكَا ←— **يُغْنِيكَا** = التَّوَافُقُ فِي المِيزَان + التَّصْرِيع.	

فَلِلصَّوْتِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، إِذَنْ، بَالِغُ الأَهَمِيَّةِ فِي أَدَاءِ المَعْنَى وَلَوْ فِي أَقْصَى حَالَاتِ انْعِزَالِهِ، وَتَلْعَبُ الحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ دَوْرًا أَكِيدًا هُوَ مِنْ صَمِيمِ المَعْنَى، فَالصَّوْتُ السَّاكِنُ مَثَلًا، وَإِنْ كَانَ ذَا " قِيمَةٍ ضَئِيلَةٍ إِذَا قُورِنَ بِأَصْوَاتِ اللِّينِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى مُنَبِّهٌ

قَوِيٌّ، فَهُوَ يَقُومُ فِي مُوسِيقَى الكَلَامِ بِوَظِيفَةٍ تُشْبِهُ وَظِيفَةَ قَرْعِ الطُّبُولِ فِي الأُرْكِسْتْرَا. إِنَّهُ أَسَاسِيٌّ فِي ضَبْطِ الإِيقَاعِ. وَبِمَا أَنَّ لِلقَافِيَةِ وَظِيفَةً مُزْدَوَجَةً، إِيقَاعِيَّةً وَهَارْمُونِيَّةً، فَإِنَّ الحَرْفَ السَّاكِنَ يُصْبِحُ لَازِمًا كَلُزُومِ اللِّينِ وَإِنْ اخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُمَا بِجَانِبٍ مِنْ هَذِهِ الوَظِيفَةِ "[1].

إِنَّ مَا يَطْرَأُ عَلَى الحُرُوفِ مِن مَدٍّ أَوْ لِينٍ لَهُ بَالِغُ الأَثَرِ فِي تَرْكِيبَةِ (الدَّلَالَةُ/الإِيقَاعُ) فِي اتِّصَالِهَا بِوَقْعِ حَرَكَتِهَا وَسُكُونِهَا، وَفِي تَنَوُّعِهَا مَخْرَجًا وَصِفَةً وَعَدَدًا، فَـ " اخْتِلَافُ حُرُوفُ الكَلِمَاتِ، الَّتِي تُقَابِلُ حُرُوفَ التَّفْعِيلَاتِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ، فِي البَيْتِ، مَا بَيْنَ حُرُوفٍ سَاكِنَةٍ، وَحُرُوفِ مَدٍّ طَوِيلَةٍ، وَحُرُوفِ لِينٍ. (...) لَا يَضُرُّ بِالوَزْنِ وَالإِيقَاعِ ..."[2]، بَلْ وَعَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا فَإِنَّ " هَذَا الاخْتِلَافُ الصَّوْتِيُّ يُنَوِّعُ المُوسِيقَا، وَيُنَوِّعُ مَعَانِي الإِيحَاءِ الموسِيقِيِّ فِي الوَزْنِ الوَاحِدِ. وَقَدْ أَفَادَ مِن ذَلِكَ كِبَارُ الشُّعَرَاءِ فِي العَرَبِيَّةِ إِفَادَةً إِيجَابِيَّةً، أَتَتْ مِنْ وَعِيهِمْ لِخَصَائِصِ أَصْوَاتِ الكَلِمَاتِ وَعْيًا يَكَادُ يَكُونُ لَا شُعُورِيًّا، لِعُمْقِ دِرَاسَتِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ، وَرَهافَةِ إِحسَاسِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَ هَذا الوَعْيُ لَا شُعُورِيًّا لِأَنَّ خَصَائِصِ الكَلِماتِ – مِن هَذِه النَّاحِيَةِ الجَمَالِيَّةِ– لَمْ تُدْرَسْ فِي العَرَبِيَّةِ دِرَاسَةً مَنْهَجِيَّةً يُعْتَدُّ بِهَا "[3].

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ ذَلِكَ يَحْتَاجُ مِنَّا جُهُودًا مُضَاعَفَةً، خُصُوصًا وَنَحنُ نَعْلَمُ صُعُوبَةَ دِرَاسَةِ الجَوَانِبِ النَّاظِمَةُ لِكَيْفِيَّةِ تَشَكُّلِ المَعْنَى وَاسْتِدْعَاءِ اللَّفْظَةِ المُوَائِمَة لَهُ مِنَ الذَّاكِرةِ، هَذَا إِنْ سَلَّمْنَا بِأَسْبَقِيَّةِ المَعْنَى عَلَى اللَّفْظِ، وَهُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مَحْسُومٍ إِلَى يَوْمِنَا فِي مَسْأَلَةِ النَّظْمِ. إِذَنْ، فَهَذِهِ أُمُورٌ يَعْسُرُ النَّظَرُ فِيهَا لِكَوْنِها غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلضَّبْطِ مِنْ جِهَة، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَة، لِأَنَّ الشُّعَرَاءَ يَتَفَاوَتُونَ فِيهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، بَلْ إِنَّ الشَّاعِرَ الوَاحِدَ مِنْهُم يَخْتَلِفُ حَالُهُ النَّفْسِيُّ وَالإِبْدَاعِيُّ مِنْ نَصٍّ إِلَى آخَرَ. وَنَحْنُ نُدْرِكُ أَنَّ شَيْئًا مَا يَتَلَبَّسُ المُبْدِعَ حِينَ القَوْلِ، وَلَكِنَّا نَجْهَلُ كَيْفِيَةَ حُدُوثِهِ، وَلَا نَسْتَطِيعُ قِيَاسَ دَرَجَاتِ قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ، وَلَا كَيْفَ تَتَجَانَسُ عَنَاصِرُ

[1]– مُوسِيقَى الشِّعرِ العَرَبِيِّ، محمّد شكري عيّاد، م.س، صص130،131.

[2]– موسيقا الشّعر العربيّ، محمود الفاخوريّ، م.س، ص168.

[3]– موسيقا الشّعر العربيّ، محمود الفاخوريّ، م.س، ص.ن. نفسه، ص،ن.

الجَمَالِ فِي خَلَدِهِ قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَ مَسَارَها نَحْوَ المُتلَقِّي.

لِذَلِكَ فَإِنَّنَا، فِي الغَالِبِ الأَعَمِّ، نَكْتَفِي بِوَصْفِ الظَّاهِرَةِ بَعْدَ حُدُوثِهَا، أَوْ عَلَى أَبْعَدِ تَقْدِيرٍ، نَبْحثُ فِي العَلَائِقِ المَنْطِقِيَّةُ التِّي يَنْسَاقُ فِيهَا الأَثَرُ، وَيَلْتَئِمُ النَّسِيجُ، وَنَزْعُمُ أَنَّ ذَاكَ سَيَكُونُ غَايَتَنا فِي هَذَا المَبْحَثِ المُتَعلِّقِ بِوَظِيفَةِ الحُرُوفِ وَحَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا عُمُومًا، وَحُرُوفِ المَدِّ وَاللِّينِ خُصُوصًا. وَقَدْ ذَكَرَ حَسَنُ عَبَّاس أَنَّ العَرَبِيَّ لَمْ يُعْطِ حُرُوفَ اللِّينِ كَبِيرَ اهْتِمَامٍ " مِنْ حَيْثُ عَدَمُ عِنَايَتِهِ بِالتَّلَفُّظِ بِهَا، لِتَكُونَ بِذَلِكَ أَقَلَّ وُضُوحًا فِي الجَرْسِ وَظُهُورًا فِي السَّمْعِ مِنْ أَصْوَاتِ الحُرُوفِ السَّاكِنَةِ "[1]، وَرُبَّمَا تَجَاوَزَ العَرَبِيُّ الأَمْرَ إِلَى " إِمَاتَةِ هَذِه الحرُوفِ فِي أَلفَاظِهِ. وَذَلِكَ بِتَحْوِيلِهَا إِلَى حَرَكَاتٍ مَدِّيَّةٍ تَارَةً، وَبِالاسْتِعَاضَةِ عَنْهَا بِحُرُوفٍ صَامِتَة تَارَاتٍ أُخَرَ، وَلَاسِيَمَا بِالهَمْزَةِ وَالحرُوفِ الحَلْقِيَّةِ، عَلَى مَا أَكَّدَهُ العَلَايْلِي فِي مُقَدِّمَتِهِ "[2].

وَيَبْدُو أَنَّ (إِمَاتَةَ الحُرُوفِ) تِلْكَ، كَانَتْ رَسْمًا وَلَيْسَ صَوْتًا، لِأَنَّ العَرَبَ، وَشَاعِرَهُم عَلَى وَجهٍ أَدَقَّ، أَوْجَدَ لِهَذِهِ الأَصْوَاتِ وَظِيفَةً تَلِيقُ بِخَوَاصِّهَا دَاخِلَ مَنْظُومَةِ اللُّغَة/الكَلَامِ، فَـ " هُنَاكَ وَظَائِفُ تُؤَدِّيهَا حُرُوفُ العِلَّةِ فِي اللُّغَةِ وَلَا تُؤَدِّيهَا الحُرُوفُ الصَّحِيحَةُ. (...) حُرُوفَ العِلَّةِ تُؤَدِّي مُهِمَّةً جَلِيلَةً فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ حَيْثُ تُعْتَبرُ أَسَاسًا لِقُوَّةِ الإِسْمَاعِ فِي هَذِه اللُّغَةِ الرَّاسِخَةِ القِدَمِ فِي تَارِيخِ المُشَافَهَةِ، وَهَذِه الخَاصِّيَةُ بِعَيْنِهَا هِيَ التِّي لَاحظَ الدُّكْتُورُ طَهَ حُسَيْنٌ بِحَقٍّ أَنَّهَا طَابِعُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ وَسَمَّاها الطَّابِعَ الإِنْشَادِيَّ *Sonority* فِي الأَدَبِ. وَنَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ طَابِعَ العِلْمِ العَرَبِيِّ أَيْضًا حَيْثُ تَوَاتَرَ بِوَاسِطَةِ الرِّوَايَةِ حَتَّى عَصْرِ التَّدْوِينِ أَوْ بَعْدَ هَذَا العَصْرِ بِقَلِيلٍ. وَلَقَدْ لَاحَظَ العَرُوضِيُونَ أَهَمِّيَّةَ حُرُوفِ العِلَّةِ لِلعَرُوضِ فَعُنُوا بِرَصْدِهَا فِي مَوَازِينِ الشِّعْرِ وَاعْتَبَرُوهَا عَلَى عَكْسِ مَا فَعَلَهُ الصَّرْفِيُّونَ أَهَمَّ

[1]- خصائص اللّغة العربيّة، حسن عبّاس، م.س، ص94.

[2]- نفسه، ص.ن.

مِنَ الحُرُوفِ الصَّحِيحَةِ "[1].

وَرُبَّمَا كَانَ لِعُلُومِ القُرْآنِ وَمَا يَتَّصِلُ بِتَجْوِيدِهِ وتَرْتِيلِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَمَا تَعَلَّقَ بِالطَّرَبِ وَدُورِ الغِنَاءِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، إِسْهَامٌ فِي صَبْغِ الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ بِسِمَةٍ حَضَارِيَّةٍ مُوَافِقَةٍ لِرُوحِ العَصْرِ، وَأَنَّ الشُّعَرَاءَ قَدْ وَظَّفُوا هَذَا أَوْ ذَاكَ، أَوْ لَعَلَّهُم وَظَّفُوا ذَلِكَ جَمِيعًا، فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ فِي صُورَتِهَا الجَدِيدَةِ. فَنَجِدُ الشَّاعِرَ مُسْتَرْسِلًا فِي تَصْرِيعِ الأَبْيَاتِ كُلِّهَا، يُسَكِّنُ حَرْفَ الرَّوِيِّ طَوْرًا، وَيُحَرِّكُهُ آخَرَ، وَيَمُدُّ ثَالِثًا، مُحْدِثًا فِي النَّفْسِ أَثَرًا مُتَنَاوِبًا بَيْنَ وُقُوفٍ وَانْطِلاقٍ تُنَاظِرُ بِهِ حَرَكَةُ الإِيقَاعِ حَرَكَةَ المَعْنَى، وَتُجَارِي نَفْسِيَّةَ الشَّاعِرِ، وَنَفَسَهُ أَيْضًا، فِي انْتِقَالِهِمَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ بِحَسَبِ كُلِّ مَقَالٍ. يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

49/ الجُودُ مِمَّا يُثْبِتُ المَحَبَّهْ *** وَالبُخْلُ مِمَّا يُثْبِتُ المَسَبَّهْ.
50/ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلٌ مَكْتُوبُ *** وَطَالِبُ الرِّزْقِ بِهِ مَطْلُوبُ.
51/ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبٌ وَ عَاقِبَهْ *** وَكُلُّهَا آتِيَةٌ وَذَاهِبَهْ.
52/ يَا عَجَبًا مِمَّنْ يُحِبُّ الدُّنْيَا *** وَلَيْسَ لِلدُّنْيَا عَلَيْهِ بُقْيَا.
53/ الصِّدْقُ والبِرُّ هُمَا الوِقَاءُ *** يَوْمَ تَقُومُ الأَرْضُ والسَّمَاءُ.
54/ وَكُلُّ قَرْنٍ فَلَهُ زَمَانُ *** وَلَمْ يَدُمْ مُلْكٌ وَلَا سُلْطَانُ.
55/ مَا أَسْرَعَ المَوْتَ وَإِنْ طَالَ العُمُرْ*** وَ رُبَّمَا كَانَ قَلِيلًا فَكَثُرْ.
56/ مَسَرَّةُ الدُّنْيَا إِلَى تَنْغِيصِ*** وَ رُبَّمَا أَكْدَتْ يَدُ الحَرِيصِ.
57/ مَا هِيَ إِلَّا دُوَلٌ بَعْدَ دُوَلْ*** تَجْرِي بِأَسْبَابٍ تَأْتِي وَعِلَلْ.

البيْتُ	المدُّ	التّنوينُ	هَاءُ الوقْفِ
49	الجُود – ممَّا – مِمَّا	/	المحبّهْ – المسبّهْ
50	مَكتُوب – طَالِب – مطلُوب	شيءٍ – أجلٌ	/

[1]– اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مَعْناها ومبناها، تَمَّام حَسَان، ، دار الثَّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، طبعة 1994م، صص71،72.

51	عاقبه – كلّها – آتية – ذاهبه	شيءٍ – سببٌ – آتيةٌ	عَاقِبَهْ – ذاهِبَهْ
52	يَا – الدّنيَا – للدُّنيَا – بُقيَا	عجبًا	/
53	همَا – الوِقَاء – تقُوم – السّمَاء	/	/
54	زمَان – لاَ – سلطَان	قرنٍ – مُلكٌ	/
55	مَا – طَال – ربّمَا – كَان	قليلاً	/
56	الدّنيَا–إلَى– تنغِيص–ربّمَا – الحرِيص	/	/
57	مَا – إلاَّ – تجرِي – أسبَاب – تأتِي	دُولٌ – أسبابٍ	/
المَجْمُوعُ	35	11	4

فَمِنَ الجَلِيِّ هُنَا ارْتِكَازُ الشَّاعِرِ عَلَى كَمٍّ مُعْتَبَرٍ مِنَ المُدُودِ وَالتَّنْوِينَاتِ التِّي تَزِيدُ الحَرَكَةَ اتِّسَاعًا، وَالإِيقَاعَ انْسِيَابِيَّةً، فَتَتَجَلَّى فِيهِ صُورَتُهُ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ، مَادًّا صَوْتَهُ لِيَجْعَلَ فَحْوَى الرِّسَالَةِ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وأَبْعَدَ صَدًى كَخَطِيبٍ ارْتَقَى مِنْبَرًا لِشَحْذِ الهِمَمِ وَجَذْبِ الأَسْمَاعِ. يَقُولُ أَيْضًا، وَعَلَى ذَاتِ الإِيقَاعِ وَالنَّفَسِ:

18/ التَّرْكُ لِلدُّنْيَا النَّجَـــــاةُ مِنْهَا *** لَمْ تَرَ أَنْهَى لَكَ مِنْهَا عَنْهَا.
60/ لِكُلِّ نَفْـــسٍ هِمَمٌ وَنَجْــوَى *** لَا كَرَمٌ يُعْرَفُ إِلَّا التَّقْوَى.
66/ تَحَرَّ فِيمَا تَطْلُبُ البَـــــــلَاغَا *** وَاغْتَنِـــمِ الصِّحَّةَ وَالفَرَاغَا.
94/ يَارُبَّ ذِي خَوْفٍ أَتَى مِنْ مَأْمَنَهْ *** كَمْ مُبْتَلَى مِنْ يَأْسِهِ بِأَمَنَهْ.
111/ يَارُبَّ حُلْوٍ سَيَعُـــــــودُ سُمّـَا *** وَرُبَّ حَـــمْدٍ سَيَعُودُ ذَمَّا.
112/ وَرُبَّ حَرْبٍ سَيَعُودُ سِلْـــــــمَا *** وَرُبَّ إِحْسَانٍ يَعُــودُ ذَنْبَا.
214/ النَّفْسُ إِنْ أَتْبَعْتَـــــــهَا هَـوَاهَا *** فَـــاغِرَةٌ نَحْوَ هَوَاهَا فَــاهَا.

فَانْظُر إِلَى عَدَد المُدُود فِي هَذِهِ الأَمْثِلَةِ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ، وَانْظُرْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دَرَجَةِ

اسْهَامِهَا فِي رَفْعِ وَتِيرَةِ الإِيقَاعَاتِ، وَأَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ فِي حَثِّ الذِّهْنِ لِمُصَاحَبَةِ الدَّلَالَةِ حِينَ النُّطْقِ بِهَا عَلى تِلْكَ الأَنْفَاسِ المُتَمَدِّدَةِ المُتَنَهِّدَةِ خَوْفًا مِنَ الاغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا، أَوْ حَسْرَةً عَلَى مَا فَاتَنَا مِنَ غَفْلَتِنَا فِيهَا (الدُّنْيَا- النَّجَاةُ- مِنْهَا- أَنْهَى- مِنْهَا- عَنْهَا=6 مَدَّاتٍ بِالأَلِفِ) وَفِي البَيْتِ66 خَمْسُ أَيْضًا، وَفِي البَيْتِ214 ثَمَانُ مَدَّاتٍ بِالأَلِفِ، وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ بَقِيَّةَ الأَبْيَاتِ. إِنَّ " ثَمَّةَ – إِذَنْ – قِيَمٌ مُوسِيقِيَّة لِحُرُوفِ المَدِّ، وَثَمَّةَ عَلَاقَاتٌ بَيْنَ هَذِهِ القِيَمِ تُحْدِثُ تَأْثِيرًا نَفْسِيًّا شَبِيهًا بِالتَّأْثِيرِ الذِّي يُحْدِثُهُ لَحْنٌ مُوسِيقِيٌّ "[1]، بَلْ إِنَّهَا تُضِيفُ إِلَيْهِ وَتَعْضُدُهُ.

وَلِأَنَّهُ مِنْ صَمِيمِ بِنْيَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فَإِنَّنَا نُلَاحِظُ ذَلِكَ التَّدَاخُلَ فِي نَسِيجِ الكَلِمَةِ وَهَنْدَسَتِهَا، وَالقَائِمِ عَلَى المُزَاوجَةِ بَيْنَ الحَرَكَاتِ/السَّكنَاتِ وَبَيْنَ الحُرُوفِ التِّي تَعْكِسُ أَيْضًا صَوْتًا أَوْ صَمْتًا، وَنَعْنِي بِهَا حُرُوفَ المَدِّ وَاللِّينِ وَالتَّنْوِينِ، فَلَيْسَ هَذَا فِي الأَصْلِ سِوَى إِطَالَةَ لِحَرَكَةٍ مُعَيَّنَةٍ(المَدُّ)، أَوْ تَكْرَارٌ لَهَا(التَّنْوِينُ)، وَحِينَ تَصِلُ إِلَى مُنْتَهَاهَا يَحْدُثُ السَّكْتُ أَوِ الانْقِطَاعُ، وَفِي الحَالَتَيْنِ نَحْنُ أَمَامَ حَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ، انْعِكَاسٍ لِصُورَةِ النَّفْسِ فِي انْقِبَاضِهَا وَانْبِسَاطِهَا، فِي هَدْأَتِهَا وَعُنْفُوَانِهَا، فِي تَسَارُعِهَا وَتَرَاخِيهَا. يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

190- يَا عَجَبًا مَا أَسْرَعَ الأَيّـــامَا *** عَجِبْتُ لِلنَّـــائِمِ كَيْفَ نَامَا.

.0/0// 0///0/ 0//0// *** 0/0/0/0//0/0/0///0/

فَانْظُرْ إِلَى تَسَارُعِ الحَرَكَةِ فِي تَكَافُئٍ وَتَوَازُنٍ وَهِيَ تَتَدَرَّجُ نَحْوَ نِهَايَةِ البَيْتِ، إِذْ نَجِدَ الشَّاعِرَ يَبْنِي الشَّطْرَ الأَوَّلَ عَلَى 11حَرَكَةً و8 سَوَاكِنَ، وَهُوَ رَقْمٌ مُتَقَارِب عَدَدِيًّا، لَكِنَّهُ فِي الشَّطرِ الثَّانِي يَجْعَلُ السُّكُون يَنْزِلُ إِلَى نِصْفِ عَدَدِ الحَرَكَاتِ:11 مُقَابِلَ 6، لِتَصِيرَ بِذَلِكَ حَرَكَةُ البَيْتِ أَسْرَعَ وَوَقْعُهَا أَخَفَّ، وَفِي هَذَا انْسِجَامٌ عَجِيبٌ مَعَ المَعْنَى الذِّي يَحْمِلُهُ البَيْتُ، وَكَأَنَّ الأَيَّامَ فِي سُرْعَةِ تَقَلُّبِهَا وَغَفْلَةِ الإِنْسَانِ فِيهَا لَيْسَتْ نَوْمَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. وَالشَّاعِرُ

[1]- موسيقى الشعر العربي، محمّد شكري عياد، م.س، ص123.

يَعْضُدُ هَذِهِ العَلَاقَةَ بَيْنَ إِيقَاعِ البَيْتِ وَإِيقَاعِ الحَيَاةِ مِنْ خِلَالِ تَكْرَارِ صِيَغِ التَّعَجُّبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ(عَجَبًا، مَا أَسْرَعَ، عَجِبْتُ) جَمَعَ إِلَيْهَا سَبْعَةَ مُدُودٍ (كُلُّهَا بِالأَلِفِ) إِمْعَانًا فِي تَصْوِيرِ حَالِ الذُّهُولِ أَمَامَ سُرْعَةِ انْقِضَاءِ الدَّهْرِ وَدَوَامِ الغَفْلَةِ فِيهِ، وَهَذَا كَمَا نُلَاحِظُ أَوْجَزُ تَمْثِيلٍ لِحَرَكَتَيْ الحَيَاةِ الأَسَاسِيَتَيْنِ، إِيقَاعُهُمَا فِي تَنَاوُبٍ أَبَدِيٍّ بَيْنَ طُولِ أَمَلٍ وَفَجْأَةِ رَحِيلٍ.

وَقَدْ أَكَّدَ شُكْرِي عَيَّاد أَنَّ " استِخْدَامُ الشَّاعِرِ لِأَصْوَاتِ اللِّينِ يُمْكِنُ أَنْ يُثِيرُ فِي نُفُوسِنَا مِثْلَ هَذِهِ الانْفِعَالَاتِ، وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ فِي الشِّعْرِ أَخْفَى مِنْهُ فِي المُوسِيقَى لِأَسبَابَ كَثِيرَةٍ، فِي مُقَدِّمَتِهَا أَنَّ اهْتِمَامَنَا مُنْصَرِفٌ أَوَّلًا إِلَى المَعْنَى، وَأَنَّنا (نُحِسُّ) النَّغَمَ المُمَيِّزَ لِحَرْفِ اللِّينِ وَلَكِنَّنَا لَا نَشْعُرُ بِوُجُودِهِ المُسْتَقِلِّ لِتَعَوُّدِنَا سَمَاعَهُ مُمْتَزِجًا بِسَائِرِ النَّغَماتِ المُؤتَلِفَةِ، التِّي تَجْمَعُ بَيْنَهَا عَلَاقَاتٌ هَارْمُونِيَّةٌ كَالعَلَاقَاتِ التِّي تَجْمَعُ بَيْنَ نَظِيرَتِهَا فِي الموسِيقَى. وَمِنْ هُنَا أَهَمِّيَةُ هَذَا البَحْثِ الطَّبِيعِيِّ فِي أَصْوَاتِ اللِّينِ لِإِدْرَاكِ مُوسِيقَى الشِّعْرِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عَلَاقَاتٍ طَبِيعِيَّةٍ بَيْنَ الأَصْوَاتِ تُحَسُّ إِحْسَاسًا غَامِضًا، وَلَكِنَّنَا نَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهَا بِالاسْتِبْطَانِ وَحْدَهُ "[1]، وَنُؤَكِّدُ هُنَا، مَرَّةً أُخْرَى، أَنَّ غِيَابَ دِرَاسَاتٍ مِخْبَرِيَّةٍ وَنَتَائِجَ أَبْحَاثٍ تَصِفَ مَا يَحْدُثُ مِنْ تَحَوُّلَاتٍ فِي الصَّوْتِ، ارْتِفَاعًا وَانْخِفَاضًا، رِقَّةً وَحِدَّةً، شِدَّةً وَضَعْفًا، يَحْرِمُنَا سَنَدًا عِلْمِيًّا يُمْكِنُ الاتِّكَاءُ عَلَيْهِ فِي تَحْلِيلٍ أَكْثَرَ عُمْقًا لِلْظَّاهِرَةِ.

وَفِي انْتِظَارِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَنَا ذَلِكَ، نَقُولُ إِنَّ شِعْرَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ ،كَكُلٍّ، يُقَدِّمُ عَيِّنَاتٍ جَيِّدَةٍ لِلدِّرَاسَةِ، وَهِيَ فِي الأُرْجُوزَةِ أَظْهَرُ، لِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ دَلَالَاتٍ تَرْتَبِطُ بِتَقْدِيمِ النُّصْحِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ خِدَاعِ الأَيَّامِ، وَالتَّنْبِيهِ مِنْ سَطْوَةِ الغُرُورِ وَسُلْطَانِهِ، وَكُلُّهَا تَدْفَعُ الشَّاعِرَ إِلَى مَدِّ الصَّوْتِ وَإِطَالَةِ الحُرُوفِ نُطْقًا، فَتَسْتَطِيلُ مَعَهُ النَّغَمَاتُ فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَحِرْصٍ. وَهَذِهِ بَعْضُ أَمْثِلَةٍ أُخْرَى عَنْ هَذَا التَّوَجُّهِ الأُسْلُوبِيِّ فِي إِقَامَةِ الخِطَابِ وَنَسْجِ الرِّسَالَةِ، إِذْ تَجْتَمِعُ سُهُولَةُ اللَّفْظِ، وَخِفَّةُ إِيقَاعِ الرَّجَزُ، إِلَى لِينِ الحُرُوفِ وَامْتِدَادِهَا لِتَزِيدَ النَّصَّ انْسِجَامًا وَانْسِيَابِيَّةً، لِيَتَأَكَّدَ هَذَا التَّوَجُّهُ فِي اخْتِيَارِ الحُرُوفِ

[1]- موسيقى الشّعر العربيّ، محمّد شكري عيّاد، م.س، ص124.

بِمَا يَتَمَاشَى مَعَ القَصِيدَةِ شَكْلاً وَمَوْضُوعًا فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

73/لَا تَتْرُكِ المَعْرُوفَ حَيْثُ كُنْـتَا*** وَاعْزِمْ عَلَى الخَيْرِ وَإِنْ جَبُـنْتَا.
15/مَنْ لَمْ يَصِلْ فَارْضَ إِذَا جَفَـاكَا *** لَا تَقْطَعَنَّ لِلْهَـوَى أَخَـاكَا.
12/الفَقْرُ فِيـمَا جَاوَزَ الكَفَـــافَا *** مَنْ عَرَفَ اللهَ رَجَـا وَخَـافَا.
10/حَسْبُكَ مِـمَّا تَبْتَـغِيهِ القُوتُ *** مَا أَكْثَرَ القُوتَ لِمَن يَـمُوتُ.
11/إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَا *** فَكُلُّ مَا فِي الأَرْضِ لَا يُغْنِيكَا.
268/يَا عيْنُ مالَكِ لَا تَبْكِـــــينَا *** تَبَصَّـــــري إِنْ كُنْتِ تُبْصِرِينَا.
299/ إِنَّا إِلَى اللهِ لَرَاجِـــــــــعُونَا *** حتَّى مَتَى نَـــحْنُ مُضَيِّعُونَا.

نَجِدُ أَنّ البَيْتَ 11 مَثَلًا، قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى 11 مَدًّا، وَالبَيْتُ 268 عَلَى 8 مُدُودٍ، وَالبَيْتُ 299 عَلَى 9 مَدَّاتٍ وَهَذَا عَدَدٌ مُعْتَبَرٌ قِيَاسًا إِلَى قِصَرِ البَحْرِ وَعَدَدِ الكَلِمَاتِ المُشَكِّلَةِ لِلأَبْيَاتِ، وَبَعِيدًا عَنْ قَوَاعِدِ العَرُوضِ التِّي تَفْرِضُ عَلَى الشَّاعِرِ امْتِلَاكَ الأُذُنِ اليَقِظَةِ لِسَلَامَةِ الوَزْنِ فَتَخْتَارُ، بِمَوْهِبَةٍ وَدُرْبَةٍ مَعًا، مَا يَتَلَاءَمُ مَعَهُ، فَإِنَّ أَمْرًا آخَرَ يَسْتَجِدُّ هُنَا، وَيَفْرِضُ هُوَ أَيْضًا (قَوَانِينَهُ)، إِنَّهُ وَعْيُ الشَّاعِرِ وَتَحَفُّزُهُ الفِطْرِيُّ لِإِلْبَاسِ كَلِمَاتِ نَصِّهِ وَحُرُوفَها كُلُّ العَنَاصِرِ المُمْكِنَةِ حَتَّى تَسْتَقِيمَ البِنْيَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا جَمِيعًا، إِذْ " هُنَاكَ ظَاهِرَةٌ أُخْرَى تَلْفِتُ النَّظَرَ فِي تَشْكِيلِ البِنْيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ وَهِيَ تَكْرَارُ حُرُوفِ المَدِّ التِّي تُشْبِهُ تَنَوُّعَ اللَّحْنِ المُوسِيقِيِّ فِي تَذَبْذُبِ إِيقَاعَاتِهَا وَتَعَدُّدِ نَغَمَاتِهَا، الأَمْرُ الذِّي يُحْدِثُ لُحُونًا مُتَنَوِّعَةً وَتَأْثِيرَاتٍ نَفْسِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، إِذْ أَنَّ الحَالَةَ الشُّعُورِيَّةَ للمُبْدِعِ لَا تَنْفَصِلُ عَنْ إِيقَاعِيَّةِ أَصْوَاتِهِ اللُّغوِيَّةِ المُتَشَكِّلَةِ "[1]، وَتِلْكَ، وَلَا شَكَّ، طَرِيقٌ أَقْصَرُ لِبُلُوغِ التَّأْثِيرِ المَرْغُوبِ فِي المُتَلَقِّي، خُصُوصًا حِينَ تَتَآزَرُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ مَعَ أَصْوَاتِهِ لِيَتَشَكَّلَ المَعْنَى صُورَةً مُكْتَمِلَةَ الأَثَرِ فِي نَفْسِهِ.

[1]- تشكيلُ البنية الإيقاعيّة في الشّعر الفلسطينيّ المقاوم، عبد الخالق محمّد العفّ، مجلّة الجامعة الإسلاميّة، غزّة، ع:2، مج:9، 2001م، ص9.

حِينَ نَقْرَأُ هَذِهِ الأَبْيَاتَ أَوْ نَسْتَمِعُ إِلَى مَثِيلَاتِهَا، فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَصِلُنا مِنْها هُوَ قَرْعُ أَصْواتِهَا آذَانَنَا بِكَيْفِيَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ يَنْتَقِلُ الخِطَابُ عَبْرَ جَرْسِهَا ويَتَكَثَّفُ، وَ" مَفْهُومُ الجَرْسِ أَوْسَعُ مِنْ مُجَرَّدِ تَآلُفِ الأَصْواتِ أَوْ حِكَايَتِهَا لِلْمَعْنَى. فَفِي الجَرْسِ فَوْقَ ذَلِكَ طَاقَةُ الإِسْمَاعِ فِي الكَلِمَةِ عِنْدَ إِرَادَةِ الإِسْمَاعِ، وَخَاصِّيَةُ الهَمْسِ عِنْدَ إِرَادَةِ النَّجْوَى، وَانْسِجَامِ اللَّفْظِ مَعَ بِيْئَتِهِ الصَّوْتِيَّةِ فِي النَّصِّ الأَدبِيِّ انْسِجامًا يَتَعَدَّى مُجَرَّدَ التَّآلُفِ بَيْنَ حَرْفٍ وَحَرْفٍ، إِلَى سُهُولَةِ جَرَيَانِ النَّصِّ عَلَى اللِّسَانِ سَلِسًا عَذْبًا فِي الأُذُنِ حَبِيبًا إِلَى النَّفْسِ ".[1]

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

217/ المَرْءُ دُنْيَاهُ لَهُ غَـــرَّارَهْ *** وَالنَّفْسُ بِالسُّوءِ لَهُ أَمَّـــارَهْ.
310/ إِنَّا مِنَ الدُّنْيَا لَفِي طَرِيقِ *** إِلَى الغَسَاقِ أَوْ إِلَى الزَّحِيقِ.

فَانْظُرْ إِلَى تَرَدُّدُ المَدِّ هُنَا وَإِلَى أَثَرِه فِي النَّفْسِ وَالأَذُنِ مَعًا، وَلاَحِظْ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ مَا تُضْفِيهِ الهَاءُ مِنْ أَجْوَاءَ أَكُوسْتِيكِيَّةٍ وَدَلَالِيَّةٍ أَيْضًا تُهَيِّئُ لَكَ اسْتِسَاغَةَ المَعْنَى وَتَذَوُّقَهُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ زَخَمِ المَوْقِفِ: دُنْيَاهُ – غَرَّارَهْ – أَمَّارَهْ.

وَفِي البَيْتِ المُوَالِي لَا يَخْرُجُ الشَّاعِرُ عَنْ ذَاتِ التِّقْنِيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ وَالمُتَمثِّلَةُ فِي المُوَازَنَةِ بَيْنَ عَدَدِ المُدُودِ مَعَ التَّنْوِيعِ فِيهَا(5أَلِفَاتٍ و3يَاءَاتٍ)، وَهِيَ مُوَزَّعَةٌ بِاعْتِدَالٍ عَلَى الشَّطْرَيْنِ مِمَّا يُكْسِبُهُمَا نَغْمًا مُتَجَدِّدًا وَيَقْدَحُ فِي الذِّهْنِ مَا يُوَائِمُهُ مِنْ دَلَالَاتٍ. يَقُولُ مَحْمُود فَاخُورِي وَهُوَ يَصِفُ مُوسِيقَى المَدِّ فِي قَصِيدَةِ وَحِيدِ المُغَنِّيَّةِ لِابْنِ الرُّومِيِّ: "...حتَّى تُصْبِحَ الحَاجَةُ مَاسَّةً إِلَى أَنْ تَمُدَّ صَوْتَكَ بِذَيْنِكَ الحَرْفَيْنِ [الأَلِفُ وَاليَاءُ] وَأَنْتَ تَقْرَأُ البَيْتَ، دُونَ أَنْ يُؤَثِّرَ ذَلِك فِي وَزْنِ البَيْتِ أَوْ يُسِيئَ إِلَى مُوسِيقَاهُ وَإِيقَاعِهِ، بَلْ يَزِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ جَمَالًا وَبَهَاءً وَحُسْنَ تَعْبِيرٍ "[2].

[1]- مقالات في اللّغة والأدب، تمّام حسان، م.س، ص236.

[2]- موسِيقَا الشِّعرِ العربيّ، محمود فَاخورِي، مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، منشورات جامعة حلب، سوريا، ط1، 1416هـ/1996م، ص172.

وَيُؤَكِّدُ شُكْرِي عَيَّاد هَذَا المَنْحَى حِينَ يَقُولُ:" أَنَّنا نَسْتَطِيعُ أَن نَفْتَرِضَ، مُطْمَئِنِّينَ، بِنَاءً عَلَى الدَّوْرِ الهَامِّ الذِّي تَلْعَبُهُ حُرُوفُ المَدِّ فِي الشِّعْرِ عَامَّةً، أَنَّ الشَّعْرِ فِي أَيِّ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ يُحِسُّ بِالعَلَاقَاتِ الهَرْمُونيَّةِ بَيْنَ الحرُوفِ وَيَسْتَغِلُّهَا فِي شِعْرِهِ "[1]، وَلَعَلَّ ذَاكَ مَا أَدْرَكَهُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ بِأُذُنِهِ المُوسِيقِيَّةِ الفَطِنَةِ، وَمِنْ مُنَادَمَتِهِ لِلقِيَانِ وَالمُغَنِّينَ قَبْلَ أَنْ يَتَزَهَّدَ، فَرَاحَ يُوَظِّفُهُ بِذَكَاءٍ فِي تَوْصِيلِ الفِكْرَةِ وَتَحْقِيقِ مَقْصِدِيَّةِ الخِطَابِ التِّي تُحَاوِرُ النَّصِّ لِاسْتِخْرَاجِ أَقْصَى طَاقَاتِهِ وَهُوَ لَايَزَالُ فِكْرَةً جَنِينِيَّةً فِي خَلَدِ الشَّاعِرِ.

7-2:إِيقَاعُ التَّكْرَارِ:

يُجْمِعُ النُّقَّادُ عَلَى الوَظِيفَةِ الإِيقَاعيَّةِ لِلأَوْزَانِ العَرُوضِيَّةِ فَلَا يَكَادُونَ يَخْتَلِفُونَ إِلاَّ فِي جُزْئِيَّاتٍ فِيهَا، وَلَكِنَّهُمْ حِينَ يَأْتُونَ لِلْحَدِيثِ عَنْ بَقِيَّةِ العَنَاصِرِ المُسْهِمَةِ فِي تَشْكِيلِ الإِيقَاعِ بِوَصْفِهِ نَسِيجًا بَالِغَ التَّعْقِيدِ تَتَعَدَدُ آرَاؤُهُمْ حِينَ النَّظَرِ فِي تَرْكِيبَتِهِ تِلْكَ، خُصُوصًا إِذَا وَاجَهَتْهُمْ الطَّبِيعَةُ الخَاصَّةُ لِلُّغَةِ مَحَلِّ الدِّرَاسَةِ.

وَإِذْ نَحْنُ بِصَدَدِ النَّظَرِ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وَفِي لُغَتِهِ كَمُوَلِّدٍ لِإِيقَاعِيَّتِهِ التِّي نَأْتِيهَا هُنَا مِنْ بَابِ التَّكْرَارِ، كَانَ لِزَامًا عَلَيْنَا الإِشَارَةُ إِلَى طَبِيعَةِ العَرَبِيَّةِ كَلُغَةٍ نَضَجَتْ فِي بِيئَةٍ أُمِّيَّةٍ حَيْثُ " تَتَعَاوَنُ الأُذُنُ مَعَ اللِّسَانِ فِي مِثْلِ تِلْكَ البِيئَةِ عَلَى إِيثَارِ العَنَاصِرِ المُوسِيقِيَّةِ مِنَ اللُّغَةِ، وَنَفْيِ العَنَاصِرِ النَّابِيَةِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَيُؤَدِّي هَذَا مَعَ مُرُورِ الأَيَّامِ (...) إِلَى انْسِجَامٍ فِي أَصْوَاتِ الكَلَامِ وَحَرَكَاتِهِ وَمَقَاطِعِهِ، وَيَقْتَرِبُ بِذَلِكَ إِلَى نَوعٍ مِنَ المُوسِيقَى أَوِ الغِنَاءِ "[2]، الذِّي يَلْعَبُ فِيهِ التَّكِرَارُ وَسُهُولَةُ اللَّفْظِ وَاحِدًا مِنَ الأَدْوَارِ الفَاعِلَةِ فِي اسْتِثْمَارِ الجَوَانِبِ النَّغَمِيَّةِ فِي اللُّغَةِ.

سَيَكُونَ حَدِيثُنا عَنِ التَّكْرَارِ إِذَنْ، مُتَعَلِّقًا بِإِسْهَامِهِ فِي حَرَكِيَّةِ الإِيقَاعِ وَجَمَالِيَّتِهِ، عَنْ

[1]- موسيقى الشّعر العربيّ، محمّد شكري عَيّاد، م.س، صص124،125.

[2]- دلالةُ الأَلفَاظِ، إبراهيم أَنيس، م.س، صص195،196.

* يُنظر: الفصل الثّالث مِن هَذا البحث بعنوان: شِعريَّة التّكرار.

طَرِيقِ إِعَادَةِ الكَلِمَةِ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى، أَوِ الاسْتِعَانَةِ بِالكَلِمَةِ وَنَقِيضَهَا فِي البَيْتِ الوَاحِدِ وَالأَبْيَاتِ المُتَتابِعَةِ كَشَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ التَّرْدِيدِ، أَوْ النَّظَرِ فِي النَّغَمِ المُتَولِّدُ عَنْ مِيزَانِهَا الصَّرْفِيِّ، أَمَّا الجَوَانِبُ الأُخْرَى المُتَرَتِّبَةُ عَنْ أُسْلُوبِيَّةِ التَّكْرَارِ فَقَد جِأْنَاهَا فِي فَصْلٍ خَاصٍّ* لِأَهَمِّيَّتِهَا وَتَشَعُّبِهَا.

إِذَنْ، فَغَايَتُنَا هُنَا اسْتِخْلَاصُ العَنَاصِرِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي أَنْتَجَ عَنْ طَرِيقِهَا التَّكْرَارُ إِيقَاعِيَّةَ القَصِيدَةِ العَتَاهِيَّةِ، وَلَمَّا كَانَتِ " الرِّسَالَةُ الشِّعْرِيَّةُ تَتَحَرَّكُ بَيْنَ مُبْدِعٍ وَمُتَلَقِّي، وَهَذِهِ الحَرَكَةُ قِوَامُهَا الغِنَائِيَّةُ التِّي تَسْتَمِدُّ جُذُورَهَا مِنْ مُبْدِعِهَا، ثُمَّ تَصِلُ بِالمُتَلَقِّي إِلَى حَالَةِ الشَّاعِرِ النَفْسَيَّةِ وَالذِّهْنِيَّةِ التِّي كَانَ عَلَيْهَا عِنْدَمَا أَبْدَعَ شِعْرَهُ، وَلَا يُمْكِنُ تَحَقُّقُ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا بِغَلَبَةِ الوَظِيفَةِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي يُمَثِّلُ التَّكْرَارُ أَعْلَى دَرَجَاتِهَا. فَإِنَّ تَحَقُّقَ التَّكْرَارِ الشِّعْرِيِّ فِي طَبِيعَتِهِ المَعْرُوفَةِ بِأَبْعَادِهَا الزَّمَانِيَّةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكْفِيهِ فِي بِنَاءِ الدَّلَالَةِ، وَمِنْ ثَمَّ نَجِدُ أَنَّ بَعْضَ المُبْدِعِينَ يَتَعَامَلُونَ مَعَ أَلْوَانٍ أُخْرَى مِنَ الإِيقَاعِ المُكَرَّرِ فَيُكَثِّفُونَ بِذَلِكَ الطَّبِيعَةَ الشِّعْرِيَّةَ "[1]، وَمِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ سَنَنْظُرُ فِي التَّكْرَارِ كَمُحَفِّزٍ لِلإِيقَاعِ وَبَاعِثٍ لَهُ فِي بِنْيَةِ الأُرْجُوزَةِ.

7-2-1:فِي إِيقَاعِ الكَلِمَةِ المُكَرَّرَةِ:

وَلَقَدْ آثَرْتُ أَنْ أَجْعَلَ هَذَا المَبْحَثَ تَالِيًا لِإِيقَاعِ الأَلْفَاظِ، وَحَقُّهُ أَنْ يَكُونَ جُزْءً مِنْهُ، أَوْ مُتَّصِلًا بِه، عَلَى أَبْعَدِ تَقْدِيرٍ، وَلَكَنَّ دَوَاعِيَ مَنْهَجِيَّةً فَرَضَتْ أَنْ أُخَصِّصَ لَهُ هَذَا المَوْضِعَ لِيَكُونَ مُكَمِّلًا لِسَابِقِهِ مِنْ جِهَةٍ، وَلِتَمْيِيزِ أَهَمِّيَّةِ التَّكْرَار بِكَونِهِ دَاخِلًا فِي صُلْبِ العَمَلِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ مِنْ جَانِبَيْهَا: الخَارِجِيِّ وَالدَّاخِلِيِّ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، إِذْ إِنَّهُ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُلَامِسُ جَمِيعَ عَنَاصِرِ الإِيقَاعِ: حَرْفًا، وَكَلِمَةً وَوَزْنًا.

" إِنَّ كُلَّ جَوَانِبِ اللُّغَةِ تُسْهِمُ فِيمَا يُحْدِثُهُ الكَلَامُ مِنْ تَأْثِيرٍ عَاطِفِيٍّ انْفِعَالِيٍّ، فَالنَّبْرُ

[1]- بناء الأُسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب، م.س، ص125.

وَالتَّنْغِيمُ وَاخْتِيَارُ الكَلِمَاتِ وَاللَّوَاحِقِ وَنِظَامُ تَرْتِيبِ الكَلِمَاتِ وَمَواقِعِهَا مِنَ الجُمَلِ وَالعِبَارَاتِ، هَذِهِ الأَشْيَاءُ كُلُّهَا قَدْ يَكُونُ لَهَا نَصِيبٌ مِنْ إِحْدَاثِ هَذَا التَّأْثِيرِ "[1]، وَالذِّي يُعَدُّ الإِيقَاعُ النَّاشِئُ عَنْ هَذْهِ العَنَاصِرِ، مُتَآلِفَةً أَوْ منْفَرِدَةً، وَاحِدًا مِنْ مَظَاهِرِهِ الأَبْرَزِ فِي تَشْكِيلِ الدَّلَالَةِ. " فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مِنَ اللُّغَاتِ التِّي عُنِيَتْ بِمُوسِيقَى أَلْفَاظِهَا وَعِبَارَاتِهَا فِي كُلِّ العُصُورِ، فَلَهَا مِمَّا يُسَمَّى بِالمُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ فُنُونٌ وَفُنُونٌ..(...) أَوْشَكَتْ أَنْ تُصْبِحَ عِلْمًا مُسْتَقِلًّا مِنْ عُلُومِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ هُوَ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ (البَدِيعُ) "[2] الذِّي أَوْلَاهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ وَالبَلَاغَةِ اهْتِمَامًا بَالِغًا لِمَا عَايَنُوهُ مِنْ شَغَفِ المُبْدِعِينَ بِهَذا التَّلْوِينِ الأُسْلُوبِيِّ، إِذْ حَفَلَتْ نُصُوصُهُمْ بِأَشْكَالَ عَدِيدَةٍ مُتَبَايِنَةٍ مِنْهُ.

وَحَيْثُ إِنَّ " لِكُلِّ كَلِمَةٍ لُغَوِيَّةٍ وَزْنًا عَرُوضيًّا، وَلَها وَزْنٌ صَرْفِيٌّ. كَمَا أَنَّ لَهَا نِظَامًا مَقْطَعِيًّا. وَفِيهَا نِظَامٌ نَبْرِيٌّ. وَهَذِهِ يَخْتَلِفُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ. وَكُلُّ كَلِمَةٍ تَخْتَلِفُ فِيهَا عَنْ أَيِّ كَلِمَةٍ مُشَابِهَةٍ لَهَا "[3]، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْفَعُنا لِإِمْعَانِ النَّظَرِ فِي طَرِيقَةِ عَمِلِ اللَّفْظَةِ حتَّى يَكُونَ لِبِنْيَتِهَا، مُنْفَرِدَةً أَوْ دَاخِلَ التَّرْكِيبِ، الأَثَرُ الإِيقَاعِيُّ الذِّي يُمَيِّزُهَا، أَوْ لَعَلَّهَا تُمَيِّزُهُ! فَالشَّاعِرُ يُكَرِّرُ كَلِمَاتٍ يَتَخَيَّرُهَا " تَخَيُّرًا مُوسِيقِيًّا خَاصًّا لِتُؤَدِّي بِجَانِبِ دَوْرِهَا فِي بِنَاءِ الصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ إِلَى تَوْفِيرِ إِيقَاعٍ مُوسِيقيٍّ خَاصٍّ بِكُلِّ بَيْتٍ عَلَى حِدَةٍ "[4]، فَتُثْرِي الخِطَابَ وَتُعَزِّزُ تَمَاسُكَهُ وَانْسِجَامَهُ.

إِنَّ تَكْرَارِ الكَلِمَاتِ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ ظَاهِرَةٌ لَافِتَةٌ مِنْ وُجُوهٍ عِدَّةٍ، يَحْتَاجُ تَأَمُّلُهَا مُجْتَمِعَةً عَمَلًا خَاصًّا، نَحْنُ هُنَا أَبْعَدُ مِنْ أَنْ نُحِيطَ بِكُلِّ تَفَرُّعَاتِهَا، لِذَا آثَرْنَا تَخْصِيصَ هَذَا المَبْحَثَ لِإِيقَاعِيَّةِ التَّكْرَار اللَّفْظِيِّ فِي النَّصِّ العَتَاهِيِّ الذِّي نَجِدُهُ حَافِلًا بِهَذَا المَنْزَعِ الأُسْلُوبِيِّ بِكُلِّ غَنَائِهِ وَجَمَالِيَّاتِهِ التِّي تَسِمُ قَصَائِدَهُ بِتَرَدُّدٍ نَغَمِيٍّ خَاصٍّ مُتَوَلِّدٍ عَنْ تَرَاكُمٍ

[1]- دور الكلمة في اللّغة، ستيفن أولمان، تر:كمال بمحمّد بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر، ط12، 1997م، ص279.

[2]- دلالةُ الألفَاظِ، إبراهيم أَنيس، م.س، ص172.

[3]- الخطيئة والتّكفير، الغذامي، م.س، ص314.

[4]- العروض دراسة فنية وعروضية، حسن عبدّ الجليل يوسف، م.س، ص167.

هَنْدَسِيٍّ لِلْكَلِمَاتِ فِي بِنْيَةٍ مُتَوَازِيَةٍ مُتَوَازِنَةٍ أُفُقِيًّا أَوْ عَمُودِيًّا، أَوْ هُمَا مَعًا، وَ" إِنَّ بِنْيَةً مَا لَنْ تُسَمَّى بِنْيَةً إِيقَاعِيَّةً إِلَّا إِذَا وَاجَهَنَا تِكْرَارُهَا وَلَوْ افْتِراضيًّا "[1] عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ بُولْ فْرِيسْ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ " اللَّفْظَةَ التِّي ذُكِرَتْ فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ مَا يَكَادُ صَدَاهَا يَنْدَاحُ حَتَّى يَتَرَدَّدَ مَرَّةً أُخْرَى فِي الشَّطْرِ الثَّانِي، وَمِنْ شَأْنِ هَذَا التَّرَدُّدِ أَنْ يَهَبَ النَّصَّ جَمالًا مُوسِيقِيًّا، وَهُوَ أَشْبَهُ بِوَثَاقٍ رَقِيقٍ أَوْ نَغْمَةٍ مُوَحَّدَةٍ تَرْبِطُ بَيْنَ شَطْرَيْ البَيْتِ بِحَيْثُ يُصْبِحُ عَجُزُهُ وَصَدْرُهُ كُلًّا لَا يَنْفَصِلُ وَنَغَمًا مُتَّصِلًا "[2] لَا يُشَوِّشُهُ إِلَّا تَعَسُّفٌ فِي التَّكْرَارِ مَمْجُوجٌ لَا يُضِيفُ لِلنَّصِّ شَيْئًا ذَا قِيمَةٍ فِي مُسْتَوَيَاتِهِ كُلِّهَا.

يَقُوْلُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

281/ مَا عِنْدَ يَوْمِي ثِقَةٌ لِي بِغَـدِ *** لَا بُدَّ مِنْ دَارِ خُلُودِ الأَبَـــدِ.
282/ يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي يَا حَـــزَنِي *** لَا بُدَّ أَنْ يَتْرُكَ رُوحِي بَدَنِـــي.
283/ يَـا غَدْرَةَ الأَيَّامِ مَا لِـي وَلَكِ *** لَمْ تُبْقِ لِي شَيْـــئًا وَلَمْ تَتَّـــرِكِ.
284/ قَرَّبَتِ الأَيَّـــامُ مِنِّي أَجَلِي *** بَرَّحَتِ الأَيَّـــامُ بِي فِي عِـلَلِي.
285/ زَادَتْنِي الأَيَّـــامُ فِي تَجْرِبَتِي *** بَاعَدَتِ الأَيَّـــامُ فِي تَقْرِيبِـــي.
286/ يَا يَوْمُ يَوْمَ البَيْـنِ وَالشُّـحُوطِ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ العُـــودِ وَالحُنُـــوطِ.
287/ يَا يَوْمُ يَوْمَ العَـــلَنِ الشَّـدِيدِ *** يَايَوْمُ يَوْمَ النَّفَـــسِ البَـــعِيدِ.
288/ يَا يَوْمُ يَوْمَ الأَجَـلِ الـمَعْدُودِ *** يَا يَوْمُ يَومَ المَنْهَلِ المَـــوْرُودِ.
289/ يَا يَوْمُ يَوْمَ السَّـدْرِ وَالكَـافُورِ*** يَا يَوْمُ يَوْمَ الكَفَـــنِ المَنْشُورِ.
290/ يَايَوْمُ يَوْمَ الخَتْمِ بالوَفَـــاةِ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ الهَجْـــرِ للحُمَـاةِ.

---

[1]- *Les structures rythmiques, Paul Fraisse* ، ينظر: بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، ص87. وقَدْ تَرجَمَ أَحمد درويش هذه العِبارة كما يأْتِي:" لاَ يُسَمَّى البِنَاءُ إِيقَاعيًّا إلاَّ إِذَا اشْتَمَلَ عَلَى تَرَدُّدٍ وَلَوْ بِالقُوَّةِ ". بناء لغة الشّعر، جون كوين، تر:درويش، كتابات نقدية تصدرها الهيئة العامّة لقصُور الثّقافة، القاهرة، 15 أكتوبر1990م، ص97.

[2]- أبو فراس الحمداني- الموقف والتّشكيل الجماليّ، النّعمان القاضي، دار الثّقافة للنّشر، القاهرة، د.ط، 1982م، ص510.

291/ يَا يَوْمُ يَوْمَ المَيِّتِ المُسَجَّى*** عَلَى سَرِيـــــرٍ لِلبِـلَى يُزَجَّـــى.
292/ يَا يَوْمُ يَوْمَ الرَّنَّةِ الطَّـــوِيلَهْ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ العَجْزِ عَنْ ذِي الحِيلَهْ.
293/ يَا يَوْمُ يَوْمَ لَيْسَ عَنْهُ مَدْفَعُ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ النَّفْسِ حِـــينَ تُرْفَعُ.
294/ صَـــارَ امْرُؤٌ فِيهِ إِلَى مَا فِيهِ *** يُسْـعِدُهُ ذَلِـكَ أَوْ يُشْـــــقِيهِ.[1]

يُقِيمُ الشَّاعِرِ الإِيقَاعَ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ مِنَ الأُرْجُوزَةِ، وَفِي أَبْيَاتَ أُخْرَى كَثِيرَةٍ مِنْهَا، بَلْ وَفِي أَغْلَبِ قَصَائِدِ دَيْوَانِهِ، عَلَى تَكْرَارِ الأَلْفَاظِ بِطَرِيقَةٍ تَشْغَلُ مَسَاحَةَ البَيْتِ كُلِّهِ، ثُمَّ تَتَوَزَّعُ نُزُولًا عَلَى بَقِيَّةِ النَّصِّ، وَهُوَ مَا يُعْطِيهِ طَابَعًا يَتَآزَرُ مَعَ الوَزْنِ العَرُوضِيِّ لِيُشَكِّلَ مَلْمَحًا أُسْلُوبِيًّا لَافِتًا. فَيَتَأَسَّسُ بِذَلِكَ نَسَقٌ إِيقَاعِيٌّ يَتَّخِذُ مِنَ تَجْمِيعِ الأَصْوَاتِ نِظَامًا يَسْتَغِلُّ التَّجَانُسَ الصَّوْتِيَّ فِي الأَبْيَاتِ/النَّصِّ لِلكَشْفِ عَنِ " الفِكْرَةِ المُسَيْطِرَةِ عَلَى الشَّاعِرِ فَضْلًا عَنْ الانْسِجَام الإِيقَاعِيِّ، وَقِيَامِهِ بِوَظِيفَةٍ دَلَالِيَّةٍ ثَرِيَّةٍ ضِمْنَ سِيَاقَاتِ النَّصِّ التِّي يَرِدُ فِيهَا كَمَا أَنَّ لَهُ مِنَ الأَهَمِيَّةِ فِي إِحْدَاثِ الإِيقَاعَاتِ الدَّاخِلِيَّة، فَهُو لَيْسَ سِمَةً سَطْحِيّةً بِقَدْرِ مَا يُشَكِّلُ مَلْمَحًا أُسْلُوبِيًّا يَزِيدُ مِنْ ثَرَاءِ النَّصِّ "[2]، فَيَصِلُ بِنَا، فِي النِّهَايَةِ، إِلَى نَقْلِ أَحْوَالِ النَّفْسِ المَبْثُوثَةِ فِيهِ عَبْرَ أَشْكَالِ الحَرَكَةِ وَالإِيقَاعِ التِّي يَتَضَمَّنُهَا، أَوْ بِالأَحْرَى، التِّي يُلِحُّ عَلَيْهَا.

تَنْهَضُ هَذِهِ الأَبْيَاتُ الأَرْبَعةَ عَشَر عَلَى تَرْدِيدِ " يَوْمِي، الأَيَّام، يَوْم " 36 مَرَّةً، دُونَ حِسَابِ الضَمَائِرِ العَائِدَةِ عَلَيْهَا، وَهُوَ رَقْمٌ كَبِيرٌ قِيَاسًا إِلَى عَدَدِ الأَبْيَاتِ التِّي لَا تَخْلُو سِوَى سِتَّةُ أَشْطُرٍ مِنْها مِنْ ذِكْرٍ صَرِيحٍ لِلكَلِمَةِ (6 أَشْطُرٍ مِنْ مَجْمُوعِ 28شَطْرًا)، فِي حِينْ لَا يَرِدُ ذِكْرُهَا سِوَى فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فَقَطْ (رقْم 282). وَلِنَتَبَيَّنَ صُورَةِ هَذا التَّكْرارِ المُوَقَّعِ نَنْقُلُ القَصِيدَةِ إِلَى الشَّكْلِ الآتِي:

[1]- الدّيوان، ص463.
[2]- شِعرُ الخوارِجِ دراسة أسلوبيّة، جاسم محمّد الصُّميدعي، دار دجلة للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2010م، ص177.

281/ مَا عِنْدَ **يَوْمِي** ثِقَةٌ لِي بِغَدِ *** لَا بُدَّ مِن دَارِ خُـــــلُودِ الأَبَدِ.

282/ **يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي يَا حَـزَنِي *** لَا بُدَّ** .....

283/ .....**الأَيَّـامِ** ..... *** .....

284/ **قَرَّبَتِ الأَيَّـامُ** ..... *** **بَرَّحَتِ الأَيَّامُ** .....

285/ .....**الأَيَّامُ** ..... *** **بَاعَدَتِ الأَيَّـــــامُ فِي تَقْرِيبِي**....

286/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** ..... *** **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....

287/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....*** **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....

288/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....*** **يَا يَوْمُ يَومَ** .....

289/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....*** **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....

290/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....*** **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....

291/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....*** .....

292/ **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....*** **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....

293/ **يَا يَومُ يَوْمَ** .....*** **يَا يَوْمُ يَوْمَ** .....

294/ صَـارَ امْرُؤٌ **فِيهِ** إِلَى مَا **فِيهِ** *** **يُسْعِـــــدُهُ** ذَلِكَ أَوْ **يُشْــقِيهِ**.[1]

يُسَمِّي جَمَالُ الدِّينِ بَنْ شِيخ هَذَا اللَّونَ مِنَ التَّكْرَارِ "تَرَاكُمِيًّا" حَيْثُ " يَتعَلَّقُ الأَمرُ بِتَكْرَارِ أَبْيَاتٍ تَبْدَأُ بِنَفْسِ الصِّيغَةِ، وَتَتَّخِذُ نَفْسَ البِنَاءِ النَّحْوِيِّ فِي غَالِبِ الأَحْيَانْ وَقَدْ سَبَقَ لِزُهَيْرٍ أَنِ اسْتَعْملَ هَذِهِ التِّقْنِيَةَ فِي مُعَلَّقَتِهِ، (...). نَحْنُ هُنَا أَمَامَ تَتَابُعِ أَمثَالٍ وَحِكَمٍ، فَضْلًا عَنْ أَنَّ صَرَامَتَها تُثِيرُ فِي أَغْلَبِهَا القَضِيَّةَ وَنَقِيضَهَا. (...) وَلَقَدْ ظَلَّ المَيْلُ إِلَى هَذَا الشَّكْلِ الخِطَابِيِّ ثَابِتًا حَتَّى حُدُودِ القَرْنِ الثَّانِي، وحِينَئذٍ تَتَحَوَّلُ الوَسِيلَةُ إِلَى طَرِيقَةٍ، وَتَسْتَنْفِذُ التِّقْنِيَّةُ وَسَائِلَهَا "[2]، وَلَعَلَّها بِذَلِكَ تَسْقُطُ أَحْيَانًا، غَيْرَ يَسِيرَةٍ، فِي الرَّتَابَةِ

[1]- الدّيوان، ص463.

[2]- الشّعرية العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م.س، ص195.

وَالجُمُودِ، إِذْ تَعْجَزُ عَنْ أَنْ تُضِيفَ شَيْئًا ذَا قِيمَةٍ لِلنَّصِّ، فَـ" يَسْتَنْفِدُ التَّرْدِيدُ هُنَا الإِبْدَاعَ، وَلَا يُؤَدِّي إِلَّا لِتَكْرَارٍ مُمِلٍّ مِنَ التَّسَطُّحَاتِ "[1]، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَخْلُو مِنْهُ دَيوَانُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ حَتْمًا.

وَلْنَبْقَ مَعَ الجَانِبِ الإِيجَابِيِّ فِي هَذَا التَّكْرَارِ التَّنْغِيمِيِّ الذِّي يَتَمَاهَى مَعَ إِحْسَاسِ الشَّاعِرِ وَيَسْعَى مِنْ خِلَالِ هَذِهِ التِّقْنِيَةِ إِلَى التَّأْثِيرِ فِي المُتَلَقِّي، لِتُصْبِحَ تِلْكَ التَّكْرَارَاتُ مِنَصَّةً عَلَيْهَا يَتِمُ تَبَادُلُ قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الانْفِعَالَاتِ بَيْنَهُمَا، فَـ " قَدْ يَأْخُذُ التَّكْرَارُ طَبِيعَةً تَرَاكُمِيَّةً تَعْمَلُ عَلَى تَكْثِيفِ الدَّلَالَةِ فَتُؤَثِّرُ فِي المُتَلَقِّي مِنْ خِلَالِ الإِلْحَاحِ عَلَيْهِ سَمْعِيًّا وَدَلَالِيًّا بِتَكْرَارِ الدَّالِّ وَالمَدْلُولِ "[2]. فَيَتَحَوَّلُ بِذَلِكَ إِلَى وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الكَشْفِ" عَنْ فَاعِلِيَّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى مَنْحِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ بِنْيَةً مُتَّسِقَةً، إِذْ إِنَّ كُلَّ تَكْرَارٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ قَادِرٌ عَلَى تَجْسِيدِ الإِحْسَاسِ بِالتَّسَلْسُلِ وَالتَّتَابُعِ "[3].

إِنَّهُ شَكْلٌ مِنَ التَّكْرَارِ يُوَفِّرُ فِي غَرَضِ الزُّهْدِ عُمُومًا، وَعِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ خُصُوصًا، دَفَقًا نَغَمِيًّا مُلَائِمًا لِلْخَطَابِيَّةِ التِّي تَطْبَعُ إِيقَاعَ النُّصْحِ وَالعِظَاتِ فِي هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ، وَيَخْلُقُ تَوَاتُرًا مُوسِيقِيًّا يَجْعَلُ الحَرَكَةَ تتَوَالَى بَيْنَ مُرَاوَحَةٍ وَمُعَاوَدَةٍ تُنْتِجُ تَبَاثًا مِنْ جِهَةٍ، وَتَدَفُّقٍ وَاسْتِرْسَالٍ يُنَوِّعُ الخِطَابَ وَيُلَوِّنُهُ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، وَكَأَنَّ الإِيقَاعَ يَسْرِي مُنْتَقِلًا مِنْ انْعِقَادٍ إِلَى انْفِرَاجٍ مَعَ كُلِّ بَيْتٍ تَضَمَّنَ هَذَا الشَّكْلَ مِنَ التَّرْدِيدِ.

هَكَذَا تَبْدُو " الاعْتِبَارَاتُ التِّي تَتَعَلَّقُ بِالمَوْتِ وَالثَّرْوَةِ وَنَوَائِبِ الدَّهْرِ الخ...قَرِيبَةً جِدًّا فِيمَا بَيْنَهَا، وَذَاتُ إِيحَاءٍ مُتَشَابِهٍ، إِلَى حَدِّ أَنَّ القَصِيدَةَ تَكْتَسِي مَظَاهِرَ مَوْعِظَةٍ يُلْقِيهَا خَطِيبٌ مِنْ أَعْلَى مِنْبَرٍ. (...) نَجِدُ أَنْفُسَنا أَمامَ لُغَةٍ تَقَعُ بَيْنَ فَنِّ القَصِّ وَالغِنَائِيَّةِ المُقَدَّسَةِ

[1]- نفسه، ص198.

[2]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب، م.س، ص136.

[3]- التّكرار في الشّعر الجاهليّ، دراسة أسلوبيّة، ربابعة موسى، م.س، ص15.

التِّي نَجِدُهَا فِي القُرْآنِ "[1]، تِلْكَ الغِنَائِيَّةُ التِّي يَتَدَخَّلُ التَّكْرَارُ، إِلَى جَانِبِ مُكَوِّنَاتٍ عَدِيدَةٍ غَيْرِهِ، لِيَدْعَمَ البَحْرَ فِي شَحْنِ الخِطَابِ بِالشِّعْرِيَّةِ التِّي يَرُومُهَا، وَالتِّي يَفْرِضُ المَوضُوعُ وَالغَرَضُ بَعْضًا مِنْهَا.

إِنَّ التَّكْرَارَ كَإِجْرَاءٍ أُسْلُوبِيٍّ يَجِدُ لَهُ أَهَمِّيَةً تَتَنَاسَبُ وَالأَجْوَاءَ الوَعْظِيَّةَ التِّي تَطْبَعُ سَيْرُورَةَ غَرَضِ الزُّهْدِ فِي عُمُومِهِ، وَالتِّي نَلْمَسُها بِوُضُوحٍ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ كَوْنَهُ يُلِحُّ بِشَكْلٍ لَافِتٍ عَلَى ذِكْرِ المَوتِ وَالقُبُورِ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى حَقْلَيْهِمَا المَعْجَمِيِّ وَالدَّلَالِيِّ. فَفِي مُطَوَّلَةِ كَالأُرْجُوزَةِ التِّي نَحْنُ بِصَدَدِ تَحْلِيلِ مَقَاطِعَ مِنْهَا هُنَا، يُكْسِبُ التَّكْرَارُ الإِيقَاعِيُّ، بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ وَأَشْكَالِهِ، زِيَادَةً عَلَى وُضُوحِ المَعَانِي وَتَوْكِيدِهَا، ائْتِلَافًا صَوْتِيًّا وَتَمَاسُكًا فِي بِنْيَتِهَا الإِيقَاعِيَّةِ، وَلَعَلَّ الأَدَاءَ الإِنْشَادِيَّ، الذِّي هُوَ سِمَةُ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، يَجْعَلُ ذَلِكَ أَوْضَحَ.

عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا إِعَادَةُ النَّظَرِ فِي الفِكْرَةِ القَائِلَةِ بِأَنَّ " التَّكْرَارَ التُّرَاثِيَّ يَهْدِفُ إِلَى إِيقَاعٍ خَطَابِيٍّ مُتَوَجِّهٍ إِلَى الخَارِجِ "[2] فَيُضِيعُ النَّصُّ أَثْنَاءَهَا كُلَّ قِيَمِهِ وَجَمَالِيَّاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ فِي غَمْرَةِ الأَدَاءِ وَالإِنْشَادِ، فَلَيْسَتْ تِلْكَ إِلَّا وَاحِدَةً مِنْ خَصَائِصِهِ، فَالتَّكْرَارُ الشِّعْرِيُّ لَمْ يَأْتِ لِمُجَرَّدِ الخَطَابَةِ وَإِنَّمَا " هُوَ تَكْرَارٌ مُسَايِرٌ لِلْوَزْنِ، مُقَوٍّ لِلنَّغْمَةِ، فِيهِ نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ أُسْلُوبٍ شَاعِرِيٍّ قَدِيمٍ كَانَ يَقَعُ فِيهِ التَّكْرَارُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا "[3]. إِذْ، إِضَافَةً إِلَى التَّقْرِيرِيَّةِ وَالتَّوْكِيدِ كَمَلْمَحٍ شَكْلِيٍّ رَئِيسٍ فَإِنَّهُ عَلَيْنَا اليَوْمَ أَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ جِهَةِ مَا يُضِيفُهُ لِلإِيقَاعِ وَالدَّلَالَةِ مِنْ ثَرَاءٍ وَغِنًى، وَهُوَ مَا نَسْعَى إِلَيْهِ مِن خِلَالِ المَقْطَعِ السَّابِقِ مِنَ الأُرْجُوزَةِ، الذِّي نُثْبِتُهُ هُنَا عَلَى هَيْئَةِ هَذِهِ المُشَجَّرَةِ :

(الشَّكل03)

[1]- الشّعرية العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م.س، ص196.

[2]- لغة الشّعر، قراءة في الشّعر العربيّ الحديث، رجاء عيد، مُنشأة المعارف، الإسكندريّة، ط1، 2000م، ص60.

[3]- المُرْشِدُ إِلَى فَهمِ أَشْعارِ العَرب وصناعتها، ج2(في الجرس اللّفظيّ)، عبد الله الطّيّب، دار الآثار الإسلاميّة، الكويت، د.ط، د.ت، ص68.

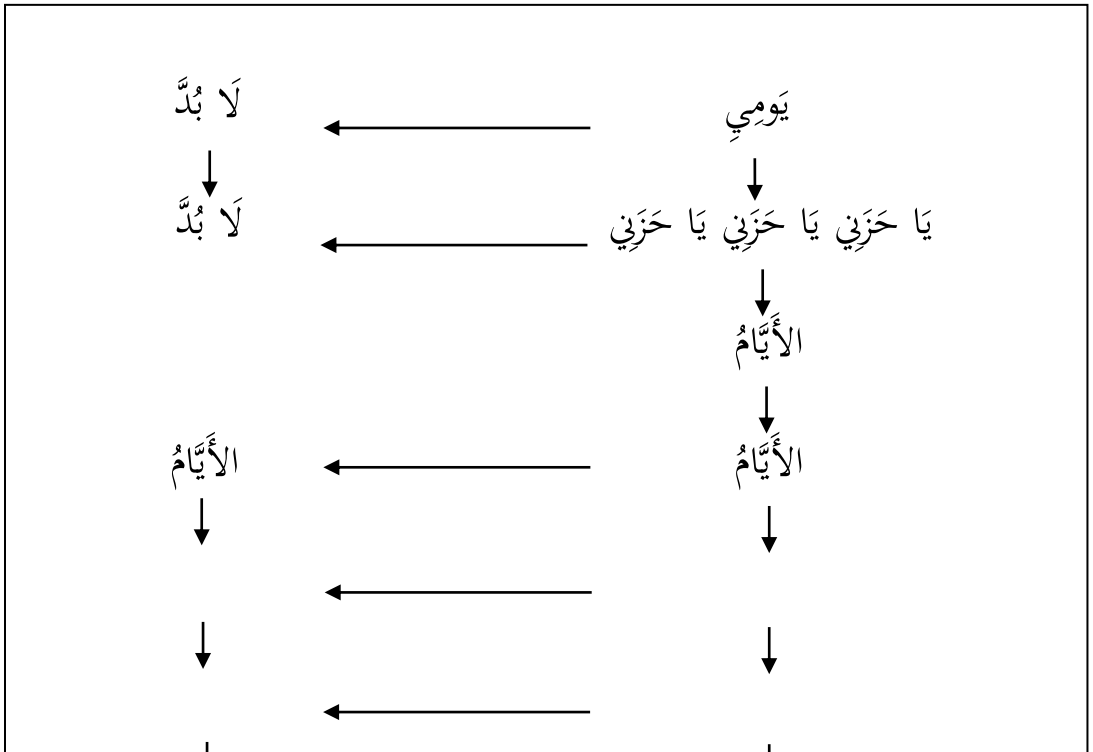
يَومِي
يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي
الأَيَّامُ
الأَيَّامُ
لَا بُدَّ
لَا بُدَّ
الأَيَّامُ

الأَيَّامُ	الأَيَّامُ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ
يَا يَوْمُ يَوْمَ	يَا يَوْمُ يَوْمَ

صَارَ امْرُؤٌ فِيهِ إِلَى مَا فِيهِ

يَرْفَعُ الشَّاعِرُ مِنَ البِدَايَةِ صَوْتَ "التِّيمَةِ" المُسَيْطِرَةِ عَلَيْهِ عَالِيًا، وَيَهَبُهَا السُّلْطَةَ المُطْلَقَةَ عَلَى هَذَا المَقْطَعِ الطَّوِيلِ، فَيَنْطَلِقُ مِنْ نُقْطَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ هِيَ "يَوْمِي" لِيَجْعَلَهَا بُؤْرَةَ الحَدَثِ وَمُكَثِّفَهُ، خُصُوصًا حِينَ يَضَعُنَا فِي مُوَاجَهَةٍ حَتْمِيَّةٍ، مَعْلُومَةِ النَّتِيجَةِ مُسْبَقًا " لَا بُدَّ "، فَيَبْنِي، بِدَايَةً مِنْ هُنَا، إِيقَاعَ الاسْتِغَاثَةِ المَمْزُوجِ بِالحَسْرَةِ وَالعَجْزِ، وَيُتَبِّثُهُ ثَلَاثًا:" يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي "، مُطْلِقًا العِنَانَ لِلمُنَاجَاةِ فِي نَغَمٍ مَهْمُومٍ فِكْرًا، مُنْخَنِقًا صَوْتًا، يَنُمُّ عَنْ حَيْرَةٍ وَتَرَدُّدٍ، يَعْكُسُهُمَا الدَّوَرَانُ وَالعَوْدُ إِلَى المُنْطَلَقِ فِي حَرَكَةٍ رَتِيبَةٍ كَئِيبَةٍ:"يَا يَومُ يَوْمَ ".

إِنَّهَا دَوْرَةُ حَيَاةِ الإِنْسَانِ، بَيْنَ " غَدْرَةِ الأَيَّامِ " فِي مُبَاعَدَتِهَا وَتَقْرِيبِهَا آمَالَهُ، إِلَى نِهَايَةٍ " لَا بُدَّ " إِلَيْهَا " يَصِيرُ سَعِيدًا أَوْ شَقِيًّا ". هُوَ المَسَارُ الذِّي تَمَثَّلَهُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لِحَرَكَةِ اليَوْمِ وَإِيقَاعِهِ المُتَكَرِّرِ فِي شَطْرَيْهِ المُتَجَدِّدَيْنِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، نَقَلَهَا إِلَى شَطْرَيْ بَيْتِهِ " يَا يَوْمُ يَوْمَ...../يَا يَوْمُ يَوْمَ....." لِيُصَوِّرَ لَنَا تَوَجُّسَ الإِنْسَانِ مِنْ مَصِيرِهِ فِي صِرَاعِهِ الأَبَدِيِّ مَعَ الدَّهْرِ الغَادِرِ " مَا عِنْدَ يَوْمِي ثِقَةٌ لِي بِغَدِ ". هَكَذَا خَلَقَ الشَّاعِرُ مِنْ تَكْرَارِ الكَلِمَاتِ وَتَرَدُّدِهَا انْسِجَامًا إِيقَاعِيًّا يَعْضُدُ إِيقَاعَ العَرُوضِ وَيُرَافِقُهُ فِي جَلَاءِ المَعْنَى، وَيَصْنَعُ " تَكْرَارًا ذِهْنِيًّا يُوَازِي التَّكْرَارَ الصَّوْتِيَّ المَنْطُوقَ بِهِ فِي النَّصِّ "[1]، بَلْ إِنَّهُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا اتَّكَأَ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الإِيقَاعِ لِيَجْعَلَ مِنْهُ " تَنْظِيمًا لِلمَعِيشِ فِي لَحْظَةِ حَرَكَتِهِ ذَاتِهَا، اشْتِغَالًا تَارِيخِيًّا لِلحَيَاةِ "[2] مِنْ خِلَالِ رَسْمِ إِيقَاعِهَا وَحَرَكِيَّةِ الفَرْدِ فِيهَا.

إِنَّ صَيْرُورَةَ الحَيَاةِ وَالوُجُودِ الإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ مَبْنِيٌّ عَلَى إِيقَاعِ هَذَا المَسَارِ(القَدَرِيِّ)، فَيَوْمٌ يَفْقِدُ ثِقَتَهُ فِيهِ لِصَالِحِ غَدٍ لَا يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ مَدْعَاةٌ إِلَى يَوْمِ حُزْنٍ يَتَكَرَّرُ فَيَتَقَرَّرُ:(يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي)، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ لِنِهَايَةِ يَوْمِهِ أَ(يُسْعِدُهُ ذَلِكَ أَوْ يُشْقِيهِ)؟! هِيَ حَرَكَةٌ تَنْطَلِقُ مِنْ نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ وُصُولًا إِلَى نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ لَكِنَّهَا مُخْتَلِفَةُ النَّتِيجَةِ أَيْضًا:

(الشّكل4)

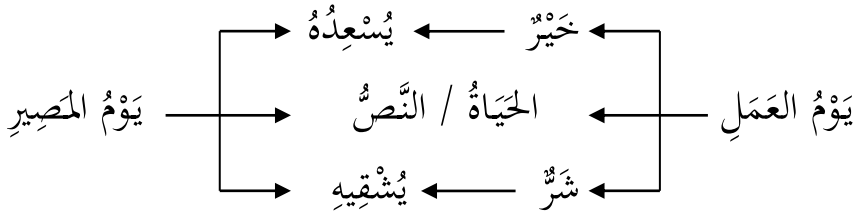

[1]– بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمّد عبد المطلب ، م.س، ص390.

[2]- *Maïté Snauwaert, « Le rythme critique d'Henri Meschonnic »,* Acta fabula, *vol.13, n°.6, « En rythme », Juillet-Août 2012, URL : http://www.fabula.org/acta/document7129.php, page consultée le 22 novembre 2017. " Tout est là pour faire du rythme l'organisation du vivant dans l'instant de son mouvement ; une mise en œuvre historique de la vie".*

هَذَا هُوَ الإِيقَاعُ الأَسَاسُ فِي النَّصِّ، إِنَّهُ يَتْبَعُ حَرَكَةَ الحَيَاةِ نُزُولًا وَصُعُودًا، سَلْبًا وَإِيجَابًا، يَتَمثَّلُ أَحَاسِيسَ الشَّاعِرِ، تَنَهُّدَاتِهِ الحَرَّى، يُرِيدُ أَنْ يُقَاسِمَهَا المُتَلَقِّي، فَـ " المُكَوِّنُ الصَّوْتِيُّ فِي الشِّعْرِ لَا يَشْتَغِلُ (تَرَاكُمًا) بَلْ (تَفَاعُلًا) دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا، حُضُورًا وَغِيَابًا "[1]، فَتَتَحوَّلُ الحَرَكَةُ الدَّاخِلِيَّةُ عِنْدَهَا إِلَى ذَبْذَبَاتٍ خَارِجِيَّةٍ فِي انْتِقَالِهَا نَحْوَهُ، لِيَجْنَحَ الإِيقَاعُ فِي تَوَتُّرَاتِهِ تِلْكَ، وَهُوَ يُحَاوِرُ القَارِئَ، إِلَى رُكُوبِ تَنْغِيمَاتِ اللُّغَةِ وَمَوَازِينَهَا لِبُلُوغِ أَهْدَافِهِ. فِي هَذَا المُسْتَوَى يَصْبِحُ التَّكْرَارُ مِحْوَرِيًّا فِي مُعَادَلَةِ الإِيقَاعَاتِ، وَضَبْطِ حَرَكِيَّتِهَا أُفُقِيًّا فِي اتِّجَاهِ نِهَايَةِ البَيْتِ، وَعَمُودِيًّا بَحْثًا عَنْ خَاتِمَةٍ لِلْقَصِيدَةِ.

ثُمَّ نُضِيفُ إِلَى هَذَا التَّنَاسُقِ الإِيقَاعِيِّ القَائِمِ عَلَى التَّكْرَارِ الذِّي يَقْرَعُ الأُذُنَ عَلَى مَسَافَاتٍ زَمَنِيَّةٍ تَتَسَاوَى طُولًا وَقِصَرًا (لَا بُدَّ، الأَيَّامُ، فِيهِ، يَا حَزَنِي، يَا يَوْمُ يَوْمَ)، تَنَاسُقًا نَاشِئًا عَنْ المِيزَانِ الصَّرْفِيِّ لِلْكَلِمَاتِ فِي اتِّفَاقِهَا،كَمَا فِي:(حَزَنِي، بَدَنِي)، (الشُّحُوطِ، الحُنُوطِ)، (المُسَجَّى، يُزَجَّى)، (البَعِيدِ، الشَّدِيدِ)، (المَعْدُودِ، المَوْرُودِ). أَوْ فِي اخْتِلَافِهَا كَمَا فِي:(يَومُ، يَوْمَ). " لَقَدْ ضُوعِفَ التَّوَازِي الصَّوْتِيُّ/الدَّلَالِيُّ الدَّاخِلِيُّ لِلأَبْيَاتِ بِالتَّوَازِي الصَّوْتِيِّ – النَّحْوِيِّ لِلْعَدِيدِ مِنْهَا. فَالحَتْمِيَّةُ التَّتْمِيمِيَّةُ للقَافِيَةِ تَجْعَلُ أَثَرَهَا بَارِزًا فِي الجَرْسِ الافْتِتَاحِيِّ لِلصِّيغَةِ الأَوَّلِيَّةِ "[2] المَبْنِيَّةِ عَلَى تَرْدِيدٍ مُتَكَافِئٍ لِصِيغَةِ (النِّدَاءِ + المُنَادَى = يَا يَوْمُ يَوْمَ).

لَقَدْ دَفَعَتْ حَاجَةُ الشَّاعِرِ المُلِحَّةِ لِتَوْظِيفِ التَّكْرَارِ كَسَنَدٍ إِيقَاعِيٍّ/دَلَالِيٍّ إِلَى البَحْثِ فِي التَّلْوِينَاتِ المُمْكِنَةِ لَهُ، إِذْ وَهُوَ يَتَمَدَّدُ فِي جَسَدِ القَصِيدَةِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى عِبْءٍ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ وَجَدْنَا أَبَا العَتَاهِيَّةِ مَعَ هَذَا، مَفْتُونًا بِالتَّكْرَارِ الذِّي يَشْغَلُ حَيِّزًا أَسَاسًا فِي نُصُوصِهِ جَمِيعِهَا، حَتَّى تَأَكَّدَ لِلقَارِئِ أَنَّهُ سِمَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ فَارِقَةٌ فِي طَرِيقَتِهِ الإِبْدَاعِيَّةِ. يَتَجَلَّى التَّكْرَارُ عِنْدَ شَاعِرِنَا إِذَنْ، فِي أَبْعَادَ ثَلَاثَةٍ: أُفُقِيًّا، عَمُودِيًّا، ثُمَّ يُوَلِّدُ هَذَانِ البُعْدَ الثَالِثَ

[1]– البنية الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، محمد العمري، م.س.

[2]– الشّعرية العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م.س، ص197.

مُتَمَثِّلًا فِي (العُمْقِ) وَهُوَ مَا تُحِيلُ إِلَيْهِ دَلَالَةُ البُعْدَيْنِ الأَوَّلَيْنِ فِي تَضَافُرِهِمَا.

فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَلْجَأُ هُنَا إِلَى بِنْيَةٍ تَكْرَارِيَّةٍ ذَائِعَةٍ فِي زَمَانِهِ وَهِيَ تَشَابُهُ الأَطْرَافِ، وَالتِّي يَقُومُ جُزْءٌ مِنْ عَمَلِهَا عَلَى ضَمَانِ شَكْلٍ إِيقَاعِيٍّ مُتَوازِنٍ فِي المُسْتَوَيَيْنِ: الأَكُوسْتِيكِي والذِّهْنِي، حَيْثُ يَنْتَضِمُ الإِيقَاعُ فِي السَّمْعِ فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي يَتَرَتَّبُ فِي الفِكْرِ ويَتَرَسَّخُ دَلاَلَةً ويُشَكِّلُهَا " بِالارْتِكَازِ عَلَى تَرْدِيدِ لفْظَةٍ مِنَ التَّرْكِيبِ الأَوَّلِ فِي الثَّانِي، وَمِنَ الثَّانِي فِي الثَّالِثِ، فَهِي عمَلِيّة تَوَالِي يَجْمَعُ بَيْنَ الحضُورِ والغِيَابِ، أَيْ حُضُورِ دَالٍ أَوْ أَكْثَرَ فِي الجُملَةِ الأُولَى، ثُمَّ غِيَابِهِ فِي الثَّانِيَةِ "[1]، وَقَدْ أَفَادَتْ هَذِهِ التِّقْنِيَةُ فِي إِغْنَاءِ النَّصِّ بِمُوسِيقَى دَاخِلِيَّةٍ عَزَّزتْ " جُمْلَةَ الوَظَائِفِ الشِّعرِيَّة التِّي أَصْبَحَت مُحَصِّلَةً لِلبِنْيَةِ المُوسِيقِيَّةِ وَالمِيكَانِزْمِ التّصْوِيرِيِّ وَالرَّمْزِيِّ مَعًا "[2].

فَفِي سَعْيٍ لِلإِحَاطَةِ بِتَشَعُّبَاتِ الدَّلَالَةِ لَا بُدَّ مِنْ تَحْلِيلِ بِنْيَةِ التَّكْرَارِ مِنْ جِهَتَيْ: الكَمِّ وَالكَيْفِ مَعًا[3] لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ تَيْسِيرَ نَتائِجَ أَكْثَرَ دِقَّةً وَفَائِدَةً، فَحِينَ تَتَرَدَّدُ كَلِمَاتٌ، بَلْ جُمَلٌ كَامِلَةٌ، وَتَتَجَاوَرُ بِطَرِيقَةٍ لَافِتَةٍ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُجَرَّدَ لَعِبٍ بِالأَلْفَاظِ لَا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ، وَإِلَّا، كَانَ رُوَّادُ الشِّعْرِ، مُتَقَدِّمِينَ وَمُتَأَخِّرِينَ، اجْتَنَبُوهُ وَاسْتَثْقَلُوهُ. لَكِنَّهُ، فِيمَا نَرَى، يَرْتَفِعُ أَحْيَانًا لِيَصِيرَ ضَرُورَةً إِبْدَاعِيَّةً تَفْرِضُ قَوانِينَهَا، فَتَتَجَلَّى ظَاهِرَةً أُسْلُوبِيَّةً تَسْتَرْعِي الانْتِبَاهَ، وَتَسْتَدْعِي الدَّرْسَ.

وَكَمَا مَثَّلْنَا لَهُ مِنْ خِلَالِ المَقْطَعِ السَّابِقِ فَإِنَّنَا نَرَى الصُّوَرَ التَّكْرَارِيَّةَ " تَأْخُذُ شَكْلًا أُفُقِيًّا أَحْيَانًا، وَشَكْلًا رَأْسِيًّا أَحْيَانًا أُخْرَى، وَلِكُلٍّ طَبِيعَتُهُ فِي إِفْرَازِ الدَّلَالَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَالتَّأْثِيرَ فِي المتَلَقِّي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى،كَمَا أَنَّ البُعْدَ المَكَانِيَّ لِلتَّكْرَارِ أَخذَ أَشْكَالًا مُتَغَايِرَةً

---

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب ، م.س، ص390.

[2]- ظواهر أسلوبيّة في شعر شوقي، صلاح فضل، مجلّة فصول، ع:4، مج:1، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، رمضان 1401هـ/1 يُوليُو 1981م، ص211.

[3]- يُنْظَر: بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب ، م.س، ص382.

بِحَيْثُ يَتَقَارَبُ المَكَرَّرَانِ أَحْيَانًا وَيَتَبَاعَدَانِ أَحْيَانًا أُخْرَى "[1]، وَهَذَا مَا نَجِدُهُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، حتَّى عَادَ كَاللَّازِمَةِ *Refrain* التِّي لَا يُسْتَغْنِي عَنْهَا فِي بِنَاءِ قَصِيدَةِ الزُّهْدِ عَلَى الخُصُوصِ، لِتَعَدُّدِ أَثَرِهَا عَلَى المُتَلَقِّي بَيْنَ سَمْعِيٍّ وَدَلَالِيٍّ وَنَفْسِيٍّ. وَمِنْ طَبِيعَةِ هَذِهِ البِنْيَةِ التِّي تَتَجَاوَرُ فِيهَا التَّكْرَارَاتُ وَتَتَعَدَّدُ " أَنَّ النُّطْقَ فِيهَا يَتَلَازَمُ مَعَ حَرَكَةِ الفِكْرِ فِي أَهْدَافِهِ التَّوْكِيدِيَّةِ أَوِ التَّقْرِيرِيَّةِ "[2]، فَيَعْمَلُ بِذَلِكَ عَلَى إِنْتَاجِ الدَّلَالَةِ وَتَنْوِيعِهَا بِالنِّهَايَةِ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ:

262/ **دَعْ عَنْكَ يَا هَذَا** بُنَيَّاتِ الطُّرُقْ *** إِنْ لَمْ تَصُنْ وَجْهَكَ **يَا هَذَا** خَلُقْ.

263/ **دَعْ عَنْكَ مَا** لَيْسَ بِهِ مُسْتَمْتَعُ *** **وَشَرُّ مَا** حَاوَلْتَ **مَا** لَا يَنْفَعُ.

264/ **وَخَيْرُ أَيَّامِكَ يَوْمَ** تُنْعِمُ *** **وَشَرُّ أَيَّامِكَ يَوْمَ** تَظْلِمُ.

265/ **وَخَيْرُ مَا** قُلْتَ بِهِ **مَا** يُعْرَفُ *** **وَشَرُّ مَنْ** صَاحَبْتَ **مَنْ لَا** يُنْصِف.

266/ **وَخَيْرُ مَنْ** قَارَنْتَ **مَنْ لَا** يَخْرُقُ *** **وَشَرُّ مَنْ** خَالَفْتَ **مَنْ لَا** يَرْفُقُ.

267/ **كُلٌّ** إِذَا **مَا** مَسَّهُ الضُّرُّ شَكَا *** **وَكُلٌّ مَنْ أَبْكَتْهُ** الدُّنْيَا **بَكَى**.[3]

يَبْنِي أَبُو العَتَاهِيَّةِ هَذَا المَقْطَعَ عَلَى عَدَدٍ مِنَ التَّكْرَارَاتِ المُتَبَايِنَةِ، وَهَذَا مَنْحَى أُسْلُوبِيٌّ رَأَيْنَا الشَّاعِرَ يَتَّخِذُهُ بِنْيَةً أَسَاسًا فِي خِطَابَاتِهِ جَمِيعِهَا، وَنَحْنُ هُنَا أَمَامَ تَرْدِيدٍ أَضْفَى مَسْحَةً إِيقَاعِيَّةً عَلَى الأَبْيَاتِ هَيَّأَتْ لِلتَّوَازُنِ وَالانْسِجَامِ اللَّفْظِيِّ أَنْ يَتَوَاشَجَ مَعَ الوَزْنِ العَرُوضِيِّ لِتَشْكِيلِ النَّسِيجِ النِّهَائِيِّ لِنَصٍّ بَالِغِ الطُّولِ الذِّي هُوَ الأُرْجُوزَةُ، وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ بِحَدْسِهِ الفَنِّيِّ قَدْ انْتَبَهَ إِلَى ضَرُورَةِ كَسْرِ رَتَابَةِ البَحْرِ الذِّي سَتَتَكَرَّرُ تَفْعِيلَاتُهُ بِنَمَطِيَّةٍ، قَدْ تَكُونُ مُمِلَّةً، عَلَى امْتِدَادٍ يَزِيدُ عَلَى 320 بَيْتًا فَعَالَجَ ذَلِكَ بِهَذَا التَّلْوِينِ الإِيقَاعِيِّ النَّاجِمِ عَنِ التَّكْرَارِ

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب، م.س، ص134.

[2]- نفسه، ص405.

[3]- الدّيوان، الأرجوزة، ص462.

الرَّأْسِيِّ وَالأُفُقِيِّ.

فَإِنْ جَمَعْنَا الأَبْيَاتَ المُتَشَاكِلَةَ التَّكْرَارِ اتَّضَحَ لَنَا مَدَى إِسْهَامِهِ فِي بَلْوَرَةِ إِيقَاعٍ خَاصٍّ يَقُومُ عَلَى تَمَاثُلِ المُكَرَّرِ، وَعَلَى مَوقِعِهِ فِي البَيْتِ مَعًا، فَحِينَ يَقُولُ:

262/ دَعْ عَنْكَ يَا هَذَا بُنَيَّاتِ الطُّرُقْ *** إِنْ لَمْ تَصُنْ وَجْهَكَ يَا هَذَا خَلُقْ.

263/ دَعْ عَنْكَ مَا لَيْسَ بِهِ مُسْتَمْتَعُ *** وَشَـــرُّ مَا حَاوَلْتَ مَا لَا يَنْفَعُ.

نُحِسُّ، زِيَادَةً عَلَى الاتِّسَاقَ الذِّي فِي تَرْتِيبِ الجُمْلِ، ذَلِكَ الاتِّسَاقَ فِي السَّمْعِ المُتَوَلِّدِ عَنْ حَرَكَةٍ دَائِرِيَّةٍ مِنْ بَدْءٍ فَعَوْدٍ إِلَى نُقْطَةِ المُنطَلَقِ، وَلْنُحَاوِل كِتَابَةَ هذَا عَلَى سَطْرٍ واحِدٍ لِنَسْتَبِينَ مَا يَحْدُثُ حَالَ القِرَاءَةِ مِنْ جَمَالِيَاتِ هَذَا التَّوْقِيعِ:

(الشّكلُ 5)

البيْتُ 262 البيْتُ 263

" دَعْ عَنْكَ يَا هَذَا ..... يَا هَذَا .....دَعْ عَنْكَ..... ".

وَيَسْرِي ذَلِكَ عَلَى بَقِيةِ المَقْطَعِ أُفُقِيًّا وَعَمُودِيًّا كَمَا يُمْكِنُ أَنْ نَرَاهُ مِن خِلَالِ:

(الشَّكلُ 6)

- **دَعْ عَنْكَ يَا هَذَا ..... *** ..... يَا هَـــذَا....**
- **دَعْ عَنْـكَ مَا..... *** وشَرُّ مَا ..... مَا.....**
- **وَخَيْـرُ أَيَّامِكَ يَوْمَ..... *** وشَـــرُّ أَيَّامِكَ يَوْمَ.....**
- **وَخَيْـرُ مَا.....مَا..... *** وشَرُّ مَنْ.....مَنْ لاَ.....**

- **وَخَيْـرُ مَنْ.....مَنْ لاَ ..... *** وَشَرُّ مَنْ.....مَـنْ لاَ.....**
- **كُـلٌّ...مَا..... *** وَكُلُّ مَنْ أَبْـــكَتْهُ.....بَكَى.**

إِنَّ الأَصْوَاتَ هُنَا تَتشَكَّلُ فِي هَيْكَلِيَّةٍ هَنْدَسِيَّةٍ تَتَأَلَّفُ وِفْقَهَا عَنَاصِرُ البِنْيَةِ وَتَتَمَاسَكُ أَجْزَاؤُهَا بِبَعْضٍ ثُمَّ يَتَعَلَّقُ البَعْضُ بِالكُلِّ، مُنْتَظِمَةً حَسَبَ نِسَبٍ وَمقَادِيرَ وَمَوَاضِعَ وَأَعْدَادَ وَأَوْصَالَ وَفَوَاصِلَ مُحْكَمَةِ الضَّبْطِ[1]، يَتَحَوَّلُ مَعَهَا " الشَّكْلُ التَّعْبِيرِيُّ إِلَى بِنيَةٍ مُغْلَقَةٌ بِدَايتُها تَلْتَحِمُ بِنِهَايتِهَا "[2]، وهُوَ مَا اسْتَثْمَرَهُ شُعَرَاءُ الحَدَاثَةِ وَ جَعَلُوهُ أُسْلُوبًا لِبَثِّ الرِّسَالَةِ التِّي يَحَمِّلُونَهَا نُصُوصَهُمْ، إِذْ تَتَرَدَّدُ فِيهَا لَفْظَةٌ أَوْ أَكْثَرَ " فِي مَطْلَعِ عِدَّةِ أَسْطُرٍ، لِتَكُونَ نُقْطَةَ الثِّقْلِ الذِّي يَنْطَلِقُ مِنْهَا المعْنَى فَيُغَطِّي امْتِدَادَ السَّطْرِ، ثُمَّ تَتَوَاصَلُ الدَّلاَلَةُ اعْتِمَادًا عَلَى هَذِه الرَّكِيزَةِ التَّعْبِيرِيّةِ[3]. وَهَذَا مَا لاَ يَخْلُو مِنْهُ نَصٌّ مِن التِّي نُسَمِّيهَا قَدِيمَةً، أَوْ هُوَ، عَلَى الأَقَل، مَا تَقُولُهُ هَذِهِ النَّمَاذِجُ مِنْ أُرجُوزَةِ أَبِي العَتاهِيَّةِ.

لَقَدْ ذَكَرْنا آنِفًا أَنَّ طَبِيعَةَ النَّصِّ العَتاهِيِّ المُرْتَبِطِ بالزُّهْدِ يَسْتَدْعِي، مِنْ بَيْنِ مَا يَسْتَدْعِيهِ مِنْ تِقْنِيَات، هَذَا التَّكْرَارَ الذِّي يَسْرِي فِي أَوْصَالِ القَصِيدَةِ، عُرُوقًا تَحْمِلُ دِمَاءَ الحَيَوِيَّةِ والحَرَكَةِ، فَتُجَدِّدُ أَنْفَاسَهَا، ومَعَهَا الإِيقَاعَ وتُلَوِّنُهُ. فَـ" عَلَى شَكْلِ دُعَاءٍ، تَتَجَزَّأُ القَصِيدَةُ فِي النَّسِيجِ المَعْقُودِ لِكُلِّ بَيْت، وَلَكِنَّهَا تَتَّصِلُ دَاخِلَ الحَرَكَةِ المُسْتَمِرَّةِ التِّي تَخْتَرِقُهَا. هَذِهِ الحَرَكَةُ، وَهِيَ لَحْظَةٌ مُعَلَّقَةٌ بِوَقْفَةِ القَافِيَةِ،سُرْعَانَ مَا تَنْطَلِقُ مِنْ جَدِيدٍ، مُتَوَثِّبَةً فِي صَدْرِ الصِّيغَةِ الافْتِتاحِيَّةِ. فَالتَّنْظِيمُ الأُفُقِيُّ أَوِ التَّزَامُنِيُّ لِكُلِّ بَيْتٍ يُضْمَنُ عَبْرَ تَكْرَارِ التَّنْظِيمِ العَمُودِيِّ التَّعَاقُبِيِّ لِكُلِّ القَصِيدَةِ "[4]، وَمَعَهُ يَضْمَنُ الشَّاعِرُ، زِيَادَةً إِلَى

---

[1]- يُنظر:الإيقاع في السّجع العربيّ- محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدّي، مؤسسات عبد الكريم بن عبدالله، تونس، ط1، 1996م، ص6.

[2]-التّشكيل المكانيّ البنائيّ لظاهرة التّكرار في شعر جرير، إسماعيل العالم، جرش للبحوث والدّراسات،ع1، مج3،31ديسمبر/كانون الأوّل 1998م، جامعة جرش، الأردن، ص84.

[3]- بناءُ الأسلوبِ في شِعْرِ الحَدَاثَةِ، محمّد عبْد المطَّلب ، م.س، ص421.

[4]- الشّعرية العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م.س، ص197.

تَماسُكِ النَّصِّ، كَثَافَةً إِيقَاعِيَّةً ودَلَالِيَّةً.

وَحِينَ يَصِلُ الخِطَابُ إِلَى ذِرْوَتِهِ، وَيُخْشَى أَنْ يَقَعِ فِي فَخِّ الرَّتَابَةِ وَالسِّلْبِيَّةِ التِّي تَنْزَعُ عَنْهُ جَمَالَهُ وَشِعْرِيَّتَهُ، يَحْسُنُ بِالشَّاعِرِ الفَطِنِ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي الوَقْتِ المُنَاسِبِ حِفَاظًا عَلَى التَّوَتُّرِ وَالفَاعِلِيَّةِ فِي مُسْتَوَيَاتِ النَّصِّ جَمِيعًا: الدَّاخِلِيِّ مِنْهَا وَالخَارِجِيِّ. وَفِي هَذَا الاتِّجَاهِ يُشِيرُ جَمَالُ الدِّينِ بْنُ الشَّيخِ إِلَى أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ كَانَ " يَعْلَمُ كَيْفَ يَقْطَعُ (...) الأَجْزَاءَ الحَمَاسِيَّةَ، وَيَكْسِرُ بِحِذْقٍ لَحْظَةً مِنَ الكَثَافَةِ الغِنَائِيَّةِ عَبْرَ تَتَابُعٍ مِنَ الأَمْثَالِ قَرِيبَةٍ مِنْ بَعْضِهَا البَعْضِ "[1] حِفَاظًا عَلَى انْسِيَابِيَّةِ خِطَابِهِ وَاتِّسَاقِهِ.

هَكَذَا نَجِدُ الشَّاعِرَ يَبْدَأُ، وَمِنْ أَوَّلِ نَصِّ الأُرْجُوزَةِ، سِلْسِلَةَ التَّكْرَارِ الذِّي تَتَنَوَّعُ مَسَافَتُهُ فَيَتَنَوَّعُ مَعَهَا الإِيقَاعُ وَحَرَكِيَّتُهُ، فَيَكْتَفِي مَرَّةً بِتَكْرَارِ الحَرْفِ وَالكَلِمَةِ، وَيَجْنَحُ فِي أُخْرَى إِلَى تَكْرَارِ جُمَلٍ كَامِلَةً، فِي مُسْتَوى البَيْتِ، أَيْ أُفُقِيًّا، وَنُزُولًا مَعَ القَصِيدَةِ، أَيْ عَمُودِيًّا، فِي مَقَادِيرَ تَتَبَايَنُ حَسَبَ عَدَدِ الأَبْيَاتِ، وَهُوَ مَا يُرَاوِحُ نَقَرَاتِ الإِيقَاعِ طُولًا وَقِصَرًا، قَاطِعًا تَمَاثُلَ غِنَائِيَّةٍ تُصْبِحُ مُمِلَّةً مَعَ الوَقْتِ، مُوَفِّرًا بِذَلِكَ التَجَدُّدَ وَالثَّرَاءَ، خُصُوصًا فِي المُطَوَّلاتِ مِنْ نُصُوصِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ شَكْلَ التَّكْرَارِ الأُفُقِيِّ حِينًا، وَالرَّأْسِيِّ حِينًا آخَرَ، يَجْعَلُ إِيقَاعِيَّةَ الأُرْجُوزَةِ تَتَرَكَّزُ وَتَتَكَثَّفُ فِي مُسْتَوَيَيْنِ مُتَسَاوِقَيْنِ يَسْمَحَانِ لَهَا بِمَزِيدٍ مِنَ الاتِّسَاقِ وَالانْسِجَامِ الذِّي، قَدْ يَعْمَلُ طُولُ النَّصِّ عَلَى كَسْرِهِ. فَالتَّكْرَارُ بِهَذَا يَخْلُقُ شَكْلًا مِنَ التَّوَقُّعِ الذِّي يَشُدُّ المُتَلَقِّي إِلَى النَّصِّ بِالقَرْعِ المُنْتَظِمِ لِلمُتَشَابِهَاتِ فِي الأُذُنِ، وَيُعَزِّزُ ذَلِكَ مَا يُنْشِئُهُ انْتِظَارُ الخَاتِمَةِ (الخَتْمِيَّةِ) لِلبَيْتِ مُتَمَثِّلًا فِي القَافِيَةِ.

لَقَدْ سَبَقَتِ الإِشَارَةُ إِلَى دَوْرِ الغَرَضِ فِي التَّوْظِيفِ المُكَثَّفِ لِلتَّكْرَارِ، وَنُضِيفُ هُنَا بِأَنَّ الحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ المُصَاحِبَةَ لِهَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ تَتَّخِذُ مِنَ التَّكْرَارِ وَسِيلَةً بِهَا يُخْرِجُ

[1]- نفسه، ص199.

الشَّاعِرُ إِلَى النَّصِّ صُورَةَ دَوَاخِلِهِ وَمَا يَعْتَمِلُ فِيهَا، فَتَنْعَكِسُ فِيهِ إِيقَاعَاتُ النَّفْسِ وَتَتَبَدَّى، " فَكَأَنَّ الشَّاعِرَ فِي حَاجَةٍ شُعُورِيَّةٍ مُتَأَكِّدَةٍ إِلَى ذَلِكَ التَّكْرَارِ حَتَّى يُرْضِيَ جَانِبًا مِنْ نَفْسِهِ "[1]، لِذَا يُمْكِنُنا اعْتِبَارُ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّكْرَارِ لَاشُعُورِيًّا غَايَتُهُ تَكْثِيفُ الحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ بِحَيْثُ تُصْبِحُ العِبَارَةُ المُكَرَّرَةُ مُعَادِلًا لِلحَدَثِ بِكَامِلِهِ[2]، فِي حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، وَاضْطِرَابِهِ وَهَدْأَتِهِ، فِي تَمَاهٍ لَا يَفْتُرُ بَيْنَ إِيقَاعِ الوُجُودِ وَالذَّاتِ.

هَكَذَا يُنْشِئُ التَّكْرَارُ تَوْقِيعًا نَغَمِيًّا يَنْقُلُ السَّامِعَ مِنَ الأَثَرِ الجَمَالِيِّ الخَارِجِيِّ المُرتَبِط بِالأُذُنِ وَالنَّغَمِ إِلَى تَوْقِيعَاتٍ أَعْمَقَ وَأَخْفَى هِيَ تِلْكَ المُتَوَلِّدَةُ فِي النَّفْسِ عَنْ تَفَاعُلِ العَنَاصِرِ الخَارِجِيَّةِ وَالدَّاخِلِيَّةِ لِتَتَحَقَّقَ الشِّعْرِيَّةُ مِنْ انْسِجَامِهِمَا وَتَضَامِّهِمَا الذِّي يَأْسَرُ المُتَلَقِّي وَيَسْتَثِيرُهُ.

وَنَأْتِي إِلَى لَوْنٍ آخَرَ مِنْ أَدَوَاتِ التَّلْوِينِ الإِيقَاعِيِّ، وَهُوَ التَّضَادُّ، وَالذِّي يَلْعَبُ فِيهِ التَّكْرَارِ أَيْضًا دَوْرًا مُهِمًّا فِي إِحْدَاثِ تَوَازُنٍ نَغَمِيٍّ بَارِزٍ، زِيَادَةً عَلَى إِسْهَامِهِ فِي إِثْرَاءِ الدَّلَالَةِ عَبْرَ التَّبَايُنِ وَالتَّوْكِيدِ.

7-2-2- إِيقَاعُ التَّضَادِّ:

يَرَى الغَذَامِيّ بِأَنَّ " الشِّعْرَ خَاصَّةً يَعْمَدُ إِلَى تَكْثِيفِ اللُّغَةِ مِن خِلَالِ التَّرْكِيزِ عَلَى تَوَازُنِهَا الصَّوْتِيِّ وَالإِيقَاعِيِّ، وَعَلَى اسْتِخْدَامِ الصُّوَرِ التِّي تَتَكَوَّنُ مِنْ دَاخِلِ سِيَاقِ النَّصِّ، مِمَّا يَصْرِفُ نَظَرَ المُتَلَقِّي بَعِيدًا عَنِ الدَّلَالَاتِ المَرْجِعِيَّةِ لِلكَلِمَاتِ، وَيُحَوِّلُهُ إِلَى مَا فِي لُغَةِ النَّصِّ مِنْ خَصَائِصَ فَنِّيَّةٍ "[3]. وَأَزْعُمُ أَنَّ هَذِهِ إِحْدَى أَهَمِّ مَقَاصِدِ الشَّاعِرِ وَهُوَ يَسْبُرُ أَغْوَارَ اللُّغَةِ وَيَعْقِدُ بَيْنَ مُكَوِّنَاتِهَا عَلَاقَاتٍ تَتَضَافَرُ، فِي كِيمْيَائِيَّةٍ خَاصَّةٍ، لِيَضْمَنَ لِنَصِّهِ شِعْرِيَّتَهُ وَتَمَيُّزَهُ

[1]- التّجديدُ في الشّعر العربيّ (بشّار-أبو نوّاس-أبو العتاهيّة)، هند الشّويّخ بن صالح، دار محمّد علي للنّشر، تونس، ط1، 2008م، ص138.

[2]- يُنظر: النّقد التّطبيقيّ التّحليليُّ- مقدّمة لدراسة الأدب وعناصره في ضوء المناهج النقديّة الحديثة، عدنان خالد عبد الله، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، ط1، 1986م، ص25.

[3]- الخطيئة والتّكفير، الغذامِيُّ، م.س، ص24.

بَعِيدًا عَمَّا تُحِيلُ إِلَيْهِ الكَلِمَاتُ فِي العَادَةِ.

إِنَّ رَصْفَ اللُّغةِ بِالطُّرُقِ المَأْلُوفَةِ، أَوْ عَدَمَ تَحْمِيلِهَا بِطَاقَاتٍ تَعْبِيرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، هُوَ فِي الحَقِيقَةِ ابتِعَادٌ عَنْ جَدْوَى الشِّعْرِ، إِضَاعَةٌ لِلْجُهْدِ، لِذَلِكَ عَلَى اللُّغَةِ أَنْ تَقُولَ مَا لَمْ يَقُلْهُ السَّابِقُونَ، أَنْ تُوَظِّفَ كُلَّ مَا تُتِيحُهُ لَهَا خَصَائِصُهَا. وَهُنَا سَيَكونُ التَّضَادُّ وَاحِدًا مِنْ فَاعِلِيَّاتِهَا الأَسَاسيَّةِ المُفَجِّرَةِ لِلدَّلَالَةِ، وَإِحْدَى الوَسَائِلِ التِّي بِهَا يَرْفُضُ المُبْدِعُ " الضَّوَابِطَ المِعْيَارِيَّةَ وَالثَّوَابِتَ الوَضْعِيَّةَ بِمَا فِيهَا مِنْ هَيْمَنَةِ اللُّغَةِ التيِّ تُمَجِّدُ الدَّلَالَةَ، وَتَرْبِطُهُا بِأُحَادِيَّةِ المَعْنَى الوَضْعِيِّ، الأَمْرُ الذِّي يَجْعَلُهَا احْتِمَالِيَّةً تَقْبَلُ التَّحَوُّلَ وَالمُرَاجَعَةَ فِي وُجُوهٍ تَتَبَايَنُ وَلَا تَنْتَهِي"[1]. وَتِلْكَ هِيَ المُغَايَرَةُ التِّي يَرْكَبُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ كُلَّ مَا سَمَحَتْ بِهِ تَقْلِيبَاتُ اللُّغَةِ عَبْرَ التَّكْرَارِ وَالتَّضَادِّ وَالتَّوَازِي وَغَيْرِهَا مِنَ الأَدَوَاتِ وَالوَسَائِطِ.

يَنْزَعُ جِيرَارْ مَانْلِي هُوبْكِينْزْ *Gerard Manley Hopkins* إِلَى اعْتِبَارِ "بِنْيَةَ الشِّعْرِ هِيَ بِنْيَةُ التَّوَازِي المُسْتَمَرِّ "[2]، وَالحَقِيقَةُ أَنَّ التَّوَازِي ظَاهِرَةٌ تَسِمُ العَمَلَ الأَدَبِيَّ فَتَتَجَلَّى فِي كُلِّ أَبْنِيَةِ الخِطَابِ الفَنِّيِّ المُنْجَزِ، وَالتِّي مِنْهَا التَّكْرَارُ وَالتَّقَابُلُ اللَّذَانِ يُسْهِمَانِ بِقُوَّةٍ فِي تَشْكِيلِ قِيَمِهِ الصَّوْتِيَّةِ وَالإِيقَاعِيَّةِ. وَقَدْ أَكَّدَ رُومَانْ جَاكُبْسُونْ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِه عَنْ التَّضَادِ وَالتَّوَازِي أَنَّ: " التَّرْتِيبَ فِي تَوَازِيَاتٍ وَمُشَابِهَاتٍ دَاخِلَ أَزْوَاجٍ مِنَ الأَبْيَاتِ يَجْعَلُنَا نَهْتَمُّ أَكْثَرَ بِأَيِّ مُشَابَهَةٍ وَبِأَيِ اخْتِلَافٍ يُدْرَجَانِ بَيْنَ الأَزْوَاجِ المُتَجَاوِرَةِ لِلأَبْيَاتِ وَبَيْنَ الأَشْطُرِ ضِمْنَ نَفْسِ البَيْتِ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ هَذَا التَّرْتِيبَ يُسْنِدُ إِلَى كُلِّ مُشَابَهَةٍ وَكُلِّ تَبَايُنٍ وَزْنًا خَاصًّا. إِنَّنَا نَرَى مُبَاشَرَةً العَلَاقَةَ بَيْنَ الشَّكْلِ الخَارِجِيِّ وَالدَّلَالَةِ. (...) فَبِمَاذَا يَتِمُّ رَبْطُ البَيْتَيْنِ المُتَوَازِيَيْنِ؟ هَلْ يَقُومُ الرَّبْطُ اعْتِمَادًا عَلَى المُشَابَهَةِ أَمْ عَلَى المُبَايَنَةِ؟ أَمْ أَنَّ الرَّبْطَ يَقُومُ عَلَى المُجَاوَرَةِ؟ "[3].

---

[1]- مسار التّحولات – قراءة فِي شعر أَدونيس، أُسَيمة درويش، دار الآداب، بيروت، ط1، 1992م، ص258.

[2]- ينظر: قضايا الشّعريّة، رومان جاكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنّنون، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988م، صص105،106.

[3]- قضايا الشّعريّة، رومان جاكبسون، م.س، ص106.

وَلَمَّا كَانَ الإِيقَاعُ عَمَلِيَّةً يَتِمُّ فِيهَا مَزْجُ الثَّوَابِتِ بِالمُتَّغَيِّرَاتِ فَـ" إِنَّ كُلَّ مُشَابَهَةٍ ظَاهِرَةٍ فِي الصَّوْتِ، فِي الشِّعْرِ، تَقُومُ بِمَنْطِقِ المشَابَهَةِ وَ/أَوْ المغَايَرَةِ فِي المعْنَى"[1]، كَمَا يُعَبِّرُ جَاكُبْسُون، إِذْ إِنَّ المُتَنَافِرَاتِ إِذَا مَا تَهَيَّأَ لَهَا تَرَدُّدٌ بِضَوَابِطَ مُعَيَّنةٍ وَتَعَاقُبٍ مُتَوَاتِرٍ تَصِيرُ فَاعِلًا إِيقَاعِيًّا مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، أَيْ أَنَّ تَكْرَارُ المُتَمَاثِلِ وَغَيْرِ المُتَمَاثِلِ يُحَقِّقُ المُوسِيقِيَّةُ عَلَى نَحْوٍ مَا، وَإِنْ كَانَ التَّمَاثُلُ وَالتَّسَاوِي الصِّفَةَ الأَسَاسِيَّةَ لِلإِيقَاعِ الكَمِّيِّ [2]. فَالتَّبَايُنُ يَخْلُقُ غِنَائِيَّتَهُ أَيْضًا، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ حِينَ تَتَقَاطَعُ أَوْ تَتَوازَى كَلِمَةٌ أَوْ أَكْثَرَ مَعَ مَا يُقَابِلُهَا.

وَنَقُولُ إِنَّ الإِيقَاعَ فِي النَّصِّ يَصْنَعُهُ كُلُّ ذَلِكَ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. تَصْنَعُهُ المجَاورَةُ وَالمُشَابَهَةُ وَالمبَايَنَةُ تَمَامًا كَمَا يَصْنَعُهُ الوَزْنُ العَرُوضِيِّ وَقَوَافِيهِ. فَمُوسِيقَى القَصِيدَةِ لَا تَتَمَفْصَلُ إِلَّا لِتُعْلِنَ شِعْرِيَّتَهَا مِنْ تَرْكِيبِهَا وَتَدَاخُلِ جُزْئِيَّاتِهَا، وَتَفَاعُلِهَا فِي اتِّجَاهَاتِ الخِطَابِ المُمْكِنَةِ. لِذَا حِينَ تَتَجَاوَرُ الأَضْدَادُ أُفُقِيًّا أَوْ عَمُودِيًّا فَإِنَّ ذَلِكَ، لَا مَحَالَةَ، يُفَعِّلُ الإِيقَاعَ وَيُكْسِبُهُ التَّنَوُّعُ اللَّازِمَ مَعَ كُلِّ نَصٍّ، إِنْ لَمْ نَقُلْ مَعَ كُلِّ بَيْتٍ أَوْ مَقْطَعٍ.

تَشْتَغِلُ بِنْيَةُ القَصَائِدِ، إِذَنْ، كَكُلٍّ مُتَفَاعِلٍ، وَتَمْنَحُهَا عَنَاصْرُهَا المُخْتَلِفَةُ تِلْكَ، وَالتِّي مِنْهَا الثُّنَائِيَاتُ الضِّدِّيَّةُ، أَسْبَابَ تَمَاسُكِهَا وَمُقَوِّمَاتِ جَمَالِهَا. فَالمُتلقِّي، وَهُوَ يَنْتَقِلُ بينَ مُتَنَاقِضَيْنِ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ، أَوْ بَيْنَ الأَبْيَاتِ المتَوَالِيَةِ، يَجِدُ نَفْسَهُ يَنْتَقِلُ مِن حَالٍ إِلَى حَالٍ بِمَا يُحَاكِي اهْتِزَازَاتِ نَفْسِ الشَّاعِرِ وَتَقَلُّبَهَا بَيْنَ الرِّضَى والسَّخَطِ، وَبَيْنَ الفَرَحِ وَالأَسَى، بَيْنَ الآمَالِ وَالخَيْبَاتِ، فَيَجِدُ القَارِئُ نَفْسَهُ مُنْسَاقًا يَتْبَعُ صَاحِبَ النَّصِّ فِي إِيقَاعَاتِ ذَاتِهِ انْكِسَارًا وَانْتِصَارًا، سِلْبًا وَإِيجَابًا. لِذَلِكَ فَإِنَّ حَرَكَةَ المُتَضَادَّاتِ فِي ثَنَايَا النُّصُوصِ تُشَكِّلُ أَدَاةً إِيقَاعِيَّةً مُهِمَّةً تَكْشِفُ عَنْ التَّوتُّرِ الذِّي يَدْفَعُ الشَّاعِرَ وَيُحَرِّكُ دَوَافِعَ القَوْلِ عِنْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَهُ عَبْرَ الخِطَابِ فِي اتِّجَاهِ المُتَلَقِّي.

---

[1]- نفسه، ص54.

[2]- يُنظر: الإعجاز الصّرفيّ في القرآن الكريم، عبد الحميد أحمد يوسف الهنداويّ، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، ط1، 1429هـ/2008م، ص196.

وَإِذْ " تَنْطَلِقُ بِنْيَة التَّكْرَارِ لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا الدَّلَالِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةٍ ثُنَائِيَّةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الذَّاتِ وَالمَوْضُوعِ عَلَى صَعِيدِ التَّقَابُلِ"[1]، فَمِنَ البَدِيهِيِّ أَنْ تَنْشأَ عَلَى مَدَارِ النَّصِّ جُمْلَةٌ غَيْرُ يَسِيرَةٍ مِنَ البِنْيَاتِ المُتَقَابِلَةِ، تُقِيمُ حِوَارًا مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ بَيْنَ رَغْبَاتِ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا، وَضَوَابِطِ العَقْلِ وَإِلْزَامَاتِ الدَّهْرِ وَقَهْرِهِ. فَتَكْرَارُ التَّضَادِ يُعَزِّزُ، لَا مَحَالَةَ، البِنْيَةَ الإِقَاعِيَّةَ لِنُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَيُنَمِّي حَرَكَةَ التَّوَتُّرَاتِ بَيْنَ تِلْكَ الثُّنَائِيَاتِ الضِّدِيَّةِ، إِذْ بِهَذَا التَّبَايُنِ تَتَعَيَّنُ كَثِيرٌ مِنَ الخَصَائِصِ المُمَيِّزَةِ لِلْخِطَابِ، وَمَا قَدْ يَعْتَرِيهِ مِنْ تَوَتُّرٍ وَانْزِيَاحٍ.

وَيُمكِنُ لِلْمَقَاطِعِ فِي المَبْحَثِ السَّابِقِ، وَالتِّي نُثْبِتُهَا هُنَا مَرَّةً أُخْرَى، أَنْ تُقَدِّمَ عَيِّنَاتٍ وَاضِحَةٍ لِإِسْهَامِ التَّضَادِّ فِي صِنَاعَةِ إِيقَاعِ قَصِيدَةِ الزُّهْدِ العَتَاهِيَّةِ التِّي تَقُومُ عَلَى التَّجَاذُبِ الذِّي يَطْبَعُ الدَّهْرَ/الإِنْسَانَ، الحَيَاة/المَوتَ، الفَنَاءَ/البَقَاءَ، الخَيْرَ/الشَّرَّ، الغِنَى/الفَقْرَ، ...حَرَكَتَانِ فِي تَضَادِّهِمَا وَقُودُ الوُجُودِ وَإِيقَاعَاتُ الكَوْنِ وَتَجَلِّي حَقَائِقِهِ. وَكَأَنِّي بِالشَّاعِرِ وَهُوَ يَنْسُجُ نَصَّهُ، صَاعِدًا بِهِ نَحْوَ نِهَايَتِهِ، يُحَاوِلُ أَنْ يُعَاكِسَ سَيْرُورَةَ الحَيَاةِ وَنَتَائِجَهَا، أَوْ لِنَقُلْ، وَهُوَ الأَصَحُّ فِي اعْتِقَادِنَا، إِنَّهُ يَسْعَى إِلَى تَرْسِيخِ حَقِيقَةِ الوُجُودِ فِي الأَذْهَانِ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ وَيُمَارَسَ، وَلَيْسَ كَمَا هُوَ مَعِيشٌ فِي وَاقِعِ الحَالِ.

(الشّكلُ 7)

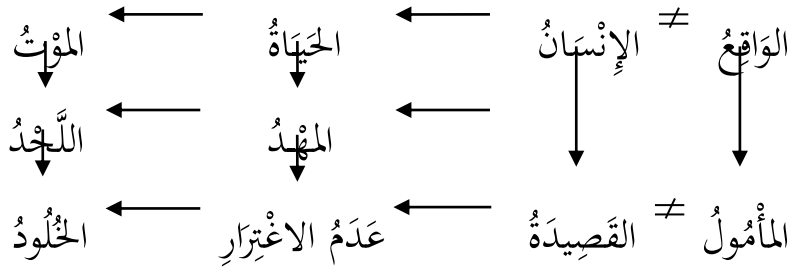

281/ مَا عِنْدَ يَوْمِي ثِقَةٌ لِي بِغَدِ *** لَا بُدَّ مِنْ دَارِ خُلُودِ الأَبَدِ.

282/ يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي يَا حَزَنِي*** لَا بُدَّ أَنْ يَتْرُكَ رُوحِي بَدَنِي.

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب ، م.س، ص421.

283/ يَا غَدْرَةَ الأَيَّامِ مَا لِي وَلَكِ *** لَمْ تُبْقِ لِي شَيْئًا وَلَمْ تَتَّـــــرِكِ.
284/ قَرَّبَتِ الأَيَّامُ مِنِّـــــي أَجَلِي*** بَرَّحَتِ الأَيَّـــامُ بِي فِي عِلَلِي.
285/ زَادَتْنِي الأَيَّامُ فِي تَجْرِبَتِـــي *** بَاعَدَتِ الأَيَّـــامُ فِي تَقْرِيبِـــي.
286/ يَا يَوْمُ يَوْمَ البَيْنِ والشُّحُوطِ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ العُــودِ والـــحُنُوطِ.
287/ يَا يَوْمُ يَوْمَ العَلَنِ الشَّـدِيدِ *** يَايَوْمُ يَوْمَ النَّـــفَسِ البَعِيـــــدِ.
288/ يَا يَوْمُ يَوْمَ الأَجَلِ المَعْدُودِ *** يَا يَوْمُ يومَ المَنْهَلِ المَـــــوْرُودِ.
289/ يَا يَوْمُ يَوْمَ السَّدْرِ والكَـافُورِ*** يَا يَوْمُ يَوْمَ الكَفَـــــنِ المَنْشُورِ.
290/ يَايَوْمُ يَوْمَ الخَتْمِ بالوَفَـــاةِ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ الهَجْـــــرِ للحُمَـاةِ.
291/ يَا يَوْمُ يَوْمَ المَيِّتِ المُسَجَّى *** عَلَى سَـــرِيرٍ لِلبِـلَى يُزَجَّـــى.
292/ يَا يَومُ يَوْمَ الرَّنَّـــةِ الطَّوِيلَهْ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ العَجْزِ عَنْ ذِي الحِيلَهْ.
293/ يَا يَومُ يَوْمَ لَيْسَ عَنْهُ مَدْفَعُ *** يَا يَوْمُ يَوْمَ النَّفْسِ حِينَ تُرْفَـــعُ.
294/ صَـــارَ امْرُؤٌ فِيهِ إِلَى مَا فِيهِ *** يُسْعِدُهُ ذَلِكَ أَوْ يُشْقِـــــــيهِ. [1]

يَعْمَلُ التَّضَادُّ عَلَى مُسْتَوَيَيْنِ هَامَّيْنِ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ عُمُومًا، وَالشِّعْرِيِّ خُصُوصًا، فَالمُستَوَى الأَوَّلُ هُوَ الحَيِّزُ الذِّي يَنْشَأُ عَنْ التَّبَايُنِ وَالتَّقَابُلِ، أَمَّا المُسْتَوى الثَّانِي فَمَجَالُهُ التَّوَاشُجُ وَالتَّفَاعُلُ، وَمِنْ الْتِقَائِهِمَا تَنْفَتِحُ أَبْوَابُ أُخْرَى أَمَامَ مُوسِيقِيَّةِ القَصِيدَةِ وَتَتَوسَّعُ مُتَّكِئَةً عَلَى البِنْيَةِ فِي كُلِّيَّتِهَا، فَـ " قِيمَةُ التَّضَادِّ الأُسْلُوبِيَّةُ تَكْمُنُ فِي نِظَامِ العَلاَقَاتِ، الذِّي يُقِيمُهُ بَيْنَ العُنْصُرَيْنِ المتَقَابِلَيْنِ وَعَلَى هَذَا فَلَنْ يَكُونَ لَهُ أَيُّ تَأْثِيرٍ مَا لَمْ يَتَدَاعَ فِي تَوَالٍ لُغَوِيٍّ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى: فَإِنَّ عَمَلِيَّاتِ التَّضَادِ الأُسْلُوبِيَّةِ تَخْلُقُ بِنْيَةً، مِثْلَهَا فِي ذَلِكَ مِثْلَ بَقِيَّةِ التَّقَابُلَاتِ المثْمِرَةِ فِي اللُّغَةِ "[2] فِيمَا يَعْتَقِدُهُ صَلاَحُ فَضْل.

فَالتَّضَادُّ يعْنِي " اعْتِمَادَ الكِتَابَةِ عَلَى وَصْفِ المَشَاهِدِ وَالصُّورِ وَالحَرَكَاتِ المُتَضَادَّةِ

[1]- الدّيوان، ص463.
[2]- علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دارُ الشّروق، مصر- لبنان، ط1، 1419هـ/1998م، ص256.

وِفْقَ نَسَقٍ بِمُوجَبِهِ تُصْبِحُ تَحَوُّلَاتُ النَّصِّ قَائِمَةً عَلَى اسْتِدْعَاءِ النَّقِيضِ لِضِدِّهِ وَاعْتِمَالِهِ مَعَهُ. وهَذَا أَيْضًا ثَابتٌ مِنْ الثَّوَابِتِ التِّي عَلَيْهَا جَرَيَانُ شِعْرِيَّةِ العَدِيدِ مِنَ النُّصُوصِ"[1]، فَلَا يُمكِنُهُ أَنْ يَكُونَ كَسْرًا لانْسِيَابِيَّةِ الإِيقَاعِ وَحَرَكِيَّتِهِ، بَلْ هُوَ وَسِيلَةٌ يَتَّخِذُهَا الشَّاعِرِ لِخَلْقِ شَبَكَةٍ مُتَوازِنَةٍ دَلَالِيًّا وَنَغَمِيًّا فِي الآنِ ذَاتِهِ مِن خِلَالِ التَّنَاظُرِ القَائِمِ بَيْنَ الكَلِمَةِ وَمُقَابِلِهَا، يُوَزِّعُهَا بِنِسَبٍ وَعَلَى مَسَافَاتٍ وَمَقَادِيرِ مُتَبَايِنَةٍ، قَدْ تَشْتَغِلُ، أَحْيَانَا، عَلَى امْتِدَادِ نَصِّهِ كُلِّهِ، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي جُلِّ إِبْدَاعِهِ. وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَزُهْدِيَاتُهُ تَقُومُ عَلَى المُتَنَاقِضَيْنِ الأَكْبَرَ: الحَيَاةُ وَالمَوتُ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمَا فِيهِمَا مِنْ تَنَافُرٍ عَلَى الدَّوَامِ.

عَلَى أَنَّهُ تَنَافُرٌ لَا يُوَلِّدُ تَضَادًّا يُلْغِي فِيهِ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، فِي الشِّعْرِ عَلَى الأَقَلِّ، وَإِنَّمَا يَتَآزَرَانِ فَيَتَوَلَّدُ عَنْ ذَلِكَ، كَثَافَةٌ فِي المَعْنَى، وَتَسَاوُقٌ فِي الإِيقَاعِ يَجْعَلُ القَصِيدَةَ العَتَاهِيَّةَ بِنْيَةً مُتَمَاسِكَةً تُصَوِّرُ التَّمَزُّقَ الذِّي يَحْكُمُ الإِنْسَانَ رُوحًا وَجَسَدًا، وَهَذَا عَبْرَ التَّضَادِّ، أَوْ لِنَقُلْ مِنْ خِلَالِ التَّقَابُلِ، الذِّي مَعَهُ " يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ تَفَاعُلٌ وَامتِزَاجٌ(...)، أَمَّا المَوَاقِفُ المتَضَادَّةُ فَمِنَ النَّادِرِ أَنْ تُكَوِّنَ مَوَاقِفَ شِعْرِيَّةً صَالِحَةً لِلنُّمُوِّ. وَذَلِكَ لِمَا يَتَضِّحُ لِلمُتَأَمِّلِ مِن أَنَّ جُذُورَ (المَوْقِفَين المُتَقَابِلَيْنِ) وَاحِدَةٌ فِي العُمْقِ. عَلَى حِينَ أَنَّ (التَّضَادَّ) تَرْفُضُ فِيهِ العَنَاصِرُ بَعْضَهَا بَعْضًا، كَمَا يَرْفُضُ الجَسَدُ الأَعْضَاءَ الغَرِيبَةَ عَنْهُ "[2].

إِنَّهُ تَقَابُلُ يَنْطَلِقُ مِنْ نُقْطَةٍ وَاحِدَةٍ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَعَاكِسَيْنِ لِيُصَوِّرَ حَرَكَةً تَحْكُمُ بِانْتِظَامِ إِيقَاعِهَا الكَوْنَ وَالإِنْسَانَ وَالنَّصَّ. وَلَعَلَّ هَذَا بَعْضُ مَا جَعَلَ لِيفِي شَتْرَاوْس يَبْحَثُ " فِي كُلِّ مَنَاحِي الحَيَاةِ، بِهَدَفِ الوُصُولِ إِلَى بِنَاءِ فِكْرٍ الإِنْسَانِ، مِنْ خِلَالِ تَعَامُلِهِ مَعَ الأَشْيَاءِ وَالكَوْنِ وَالحَيَاةِ، وُصُولًا إِلَى أَنَّ التَّعَارُضَاتِ الثُّنَائِيَّةِ، هِيَ التِّي تَدْفَعُ الإِنْسَانَ

---

[1]- الشّعر وتحرير الكائن – قراءة في اللّغة والمتخيّل، محمّد لطفي اليوسفي، مجلّة نزوى، فصليّة ثقافيّة، ع:16، جمادى الآخرة1419هـ/أكتوبر 1998، مؤسّسة عُمان للصّحافة والأنباء والنّشر والإعلان، سلطنة عُمان، ص45.

[2]- لُغةُ الشِّعرِ نمَوذَج تَطبِيقيٌّ، محمُود الرَّبيعيُّ، فصول مجلة النَّقد الأدبيّ،ع4، مج1، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، رمضان 1401هـ/= =01جويلية1981م، ص71 هامش رقم 13.

إِلَى إِيجَادِ حَلٍّ مُتَوَازِنٍ بَيْنَهُمَا "[1].

159/**لَا عَيْشَ** إِلَّا **عَيْشُ** أَهْلِ الآخِرَهْ *** إِنَّا لَ**نَعْمَى** وَالعُيُونُ **نَاظِرَهْ**.
160/المَوْتُ **حَقٌّ** لَيْسَ فِيهِ **شَكُّ** *** تَفْنَى المُلُوكُ وَيَبِيدُ المُلْكُ.
161/اللهُ رَبِّي وهُوَ المَلِيكُ *** لَيْسَ لَهُ فِي مُلْكِهِ شَرِيكُ.
162/اللهُ **يُفْنِينَا وَلَيْسَ يَفْنَى** *** لَهُ الجَلالُ وَالصِّفَاتُ الحُسْنَى.
163/اللهُ مَوْلَانَا وَنِعْمَ المَوْلَى *** فَقُلْ لِمَنْ يَعْصِيهِ أَوْلَى أَوْلَى.
164/مَا هُوَ إِلَّا عَفْوُهُ وَحِلْمُهُ *** سُبْحَانَ مَنْ **لَا حُكْمَ** إِلَّا **حُكْمُهُ**.
165/نَتَائجُ الأَحْوَالِ مِنْ **لَا وَنَعَمْ** *** وَالنَّفْسُ مِنْ بَيْنِ **صُمُوتٍ وَعَدَمْ**.
166/**يَذْهَبُ** شَيْءٌ **وَيَجِيءُ** شَيٌّ *** مَا هُوَ إِلَّا **رَشَدٌ وَغَيٌّ**.
167/وَ إِنَّمَا العِلْمُ بِعَيْنٍ وَ أَثَرْ *** وَإِنَّمَا التَّعْلِيمُ عِلْمٌ وَخَبَرْ.
168/نَحْنُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وِفَازِ*** طُوبَى لِمَنْ أَسْرَعَ فِي الجِهَازِ.
169/وَكُلُّ **مَأْخُوذٍ** فَسَوْفَ **يُتْرَكُ** *** وَالمُلْكُ لَا يَبْقَى وَلَا المُمَلَّكُ.

فَهَذَا التَّلْوِينُ الإِيقَاعِيُّ يُحْدِثُهُ التَّضَادُّ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ أَوِ الأَبْيَاتِ المُتَتَابِعَةِ، وَهُوَ نَاتِجٌ عَنْ تَكْرَارٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ يَحْدُثُ أَثَرُهُ فِي الذِّهْنِ بِالأَسَاسِ. وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ وَقَفَ كَالمُرْشِدِ فِي المُنْتَصَفِ، فِي نُقْطَةِ الانْطِلَاقِ نَحْوَ أَحَدِ القُطْبَيْنِ المُتَضَادَّيْنِ/المُتَقَابِلَيْنِ، يَسْأَلُ العَابِرِينَ إِمْعَانَ النَّظَرِ وَحُسْنَ الاخْتِيَارِ، وَقَدْ أَحْدَثَ هَذَا المَوْقِفُ " الانْسِجَامَ وَالتَّنَوُّعَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ "[2]، لَيْسَ عَلَى المُسْتَوَى الدَّلَالِيِّ وَحَسْبَ، وَإِنَّمَا مِنَ النَّاحِيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ أَيْضًا، إِذْ عَمَلَ تَوَازِي المُتَقَابِلَاتِ فِي النَّصِّ عَلَى جَعْلِ الحَرَكَةِ فِي الاتِّجَاهَيْنِ مُتَسَاوِيَةً وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي النَّتِيجَةِ، أَوَلَيْسَ التَّضَادُ عِنْدَ بَعْضِهِم " عِبَارَةٌ عَنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ذَاتِ مَعْنَيَيْنِ،

[1]- المدخل اللّغويّ في نقد الشّعر "قراءة بنيويّة"، مصطفى السّعدي، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1987م، ص41.
[2]- قضايا الشّعرية، رومان جاكبسون، م.س، ص106.

يَصِلُ الخِلَافُ بَيْنَهُمَا إِلَى حَدِّ التَّنَاقُضِ "[1]، فَهِيَ مِنَ المُشْتَرَكِ الذِّي يَأْتِي إِمَّا تَبَايُنًا أَوْ تَوَاصُلًا [2]، فَيَلْتَقِي مِنْ حَيْثُ أَرادَ الافْتِرَاقَ وَالتَّقَابُلَ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ هُوَ الذِّي جَعَلَ قُدَامَةَ ابنَ جَعْفَرٍ يَعْتَرِضُ عَلَى مَنْ سَمَّى المُقَابَلَةَ مُطَابَقَةً عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ المُطَابَقَةَ تَعْنِي المُسَاوَاةَ وَالمُمَاثَلَةَ[3]!

وَبَعِيدًا عَنْ هَذَا الإِشْكَالِ البَلَاغِيِّ نَقُولُ:" إِنَّ التَّضَادَّ تِقْنِيَّةٌ جَمَالِيَّةٌ فَنِّيَّةٌ يَتَحَوَّلُ النَّصُّ بِمُوجَبِهَا إِلَى حَرَكَةٍ تَسْتَوعِبُ فِي صُلْبِهَا مُفَارَقَاتِ الحَيَاةِ، وَكُلُّ مَا فِيهِ يُوحِي بِحَرَكَةِ الجَدَلِ التِّي تَعْمَلُ فِي الوَاقِعِ "[4]. فَظَاهِرَةُ التَّقَابُلِ مِنْ هَذَا المَنْظُورِ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِجِنْسَيْنِ رَئِيسَيْنِ مِنَ الجَمَالِ هُمَا الانْسِجَامُ وَالاخْتِلَافُ، فَيَتَّضِحُ لَنَا " هَكَذَا أَنَّ لِحضُورِ الثُّنَائِيَاتِ الضِّدِّيَةِ، التَّضَادِّ عَامَّةً (...) بُعْدًا وَظِيفِيًّا ذَا فَاعِلِيَّةٍ فِي إِثَارَةِ الحَرَكَةِ المُتَبَادَلَةِ بَيْنَ وَحَداتِ النَّصِّ، وَمِنْ ثَمَّ، فِي التَّحْرِيضِ عَلَى تَأْسِيسِ الدَّلَالَةِ النَّصِّيَّةِ "[5] وَالتِّي يُعْتَبَرُ الإِيقَاعُ طَرَفًا بَارِزًا فِيهَا، إِذْ هِيَ تُنْتِجُهُ وَتُؤَسِّسُهُ فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي يُنْتِجُهَا فِيهِ وَيُعَمِّقُهَا عَلَى حَدٍّ مِنَ التَّفَاعُلِ وَالمُسَاوَاةِ.

يُمْكِنُنَا مِنْ خِلَالِ النَّمَاذِجِ المُقْتَرَحَةِ [يُنْظَرُ الشَّكْلَانِ: 04،05] أَنْ نَسْتَشِفَّ مِقْدَارَ التَّوَازِنِ الحَادِثِ فِي النَّفْسِ وَالأُذُنِ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ مِنْ خِلَالِ حَرَكَتَيْ التَّضَادِّ وَالتَّوَازِي فِي النَّصِّ، سَوَاءً بَيْنَ الكَلِمَةِ وَنَظِيرِهَا، أَوْ بَيْنَ الجُمْلَةِ وَالجُمْلَةِ، وَالأَمْثِلَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ فِي ثَنَايَا الدِّيْوانِ، إِذْ لَا يَكَادُ نَصٌّ مِنْ نُصُوصِهِ يَخْلُو مِنْ هَذَا التَّلْوِينِ الإِيقَاعِيِّ، وَإِنْ شِئْتَ فَاقْرَأْ قَوْلَهُ:

---

[1]- لُغة تميم دِراسة تاريخيّة وصفيّة، ضَاحي عبد الباقي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، د.ط،1985م، ص596.

[2]- يُنظر:المزهر،ج1، عبد الرّحمن جلال الدّين السّيّوطيّ، شر وتع: محمّد أحمد جاد المؤلى، محمّد أبو الفضلِ إبراهيم، عليّ محمّد البجاويّ،د.ط، منشورات الكتب العصريّة، صيْدا، بيرُوت، د.ط، 1406هـ/1986م، ص387.

[3]- نقد الشّعر، قدامه بن جعفر، تح:كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص133.

[4]- في بنية الشّعر العربيّ المعاصر، محمد لطفي اليوسفيّ، م.س، ص37.

[5]- مسار التّحولات – قراءة فِي شعر أَدونيس، أُسَيمة درويش، م.س، ص 264.

111/ يَا رُبَّ حُلْوٍ سَيَعُودُ سُمـــًّا *** وَرُبَّ حَمْدٍ سَيَـــــــعُودُ ذَمًّا.
112/ وَرُبَّ سِلْمٍ سَيَعُودُ حَـــرْبًا *** وَرُبَّ إِحْسَانٍ يَعُودُ ذَنْـــــبًا.
150/ يَا رَبِّ إِنِّـي بِكَ أَنْتَ رَبِّـي *** وَمِنْكَ إِحْسَانٌ وَمِنِّي ذَنْبـــِي.
193/ نَرَى افْتِـرَاقًا ونَرَى اجْتِمَاعًا *** نَرَى اتِّصَـالاً وَنَرَى انْقِـــطَاعًا.
196/ مَا أَقْرَبَ النَّقْصَ مِنَ النَّمَاءِ *** وَكُلُّ مَنْ تَـــمَّ إِلَى فَـــــنَاءِ.
218/ مَا النَّفْسُ إِلَّا كَدَرٌ وَصَـفْوُ *** طَعْمٌ لَهُ مُـــرٌّ وَطَعْمٌ حُـــلْوٌ.
227/ جَدَّ بِنَا الأَمْرُ وَنَحْنُ نَلْعَبُ *** وَكُـــلُّ آتٍ فَكَـــذَاكَ يَذْهَبُ.
231/ القُوتُ مِن حِلٍّ كَثِيرٌ طَيِّبُ *** وَالحَـــــظْرُ بِكْرٌ تَـــارَةً وَثَيِّبُ.
312/ كَاسَ امْرُؤٌ مُتَّعِـــظٌ بِغَيْـرِهِ *** دَعْ شَرَّ مَا تَأْتِي وَخُذْ مِنْ خَيْرِهْ.
151/ أَسْتَغْفِرُ اللهَ فَنِـــعْمَ القَـادِرُ *** اللهُ لِي مِنْ شَـــــرِّ مَا أُحَاذِرُ.

فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ بَنَى الشَّاعِرُ نَصَّهُ عَلَى تَوَازٍ ظَاهِرٍ بَيْنَ فِكْرَتَيْنِ جَسَّدَهُ التَّضَادُّ بَيْنَ قُطْبَيْنِ يَتَجَاذَبَانِ الإِنْسَانَ: الحَيَاةُ/المَوتُ – الذَّنْبُ/الغُفْرَانُ – النَّقْصُ/النَّمَاءُ – الصَّفْوُ/الكَدَرُ....إِذْ ذَاكَ يَصِيرُ الحُلْوُ سُمًّا وَيَعُودُ الحَمْدُ ذَمًّا، وَيَصِيرُ السِّلْمُ حَرْبًا وَيَعُودُ الإِحْسَانُ ذَنْبًا. فَتَوْظِيفُ التَّضَادُّ هُنَا مُثِيرٌ أُسْلُوبِيّ بِاعْتِبَارِهِ خُرُوجًا عَنِ مَأْلُوفِ اللُّغَةِ وَهَذَا الخُرُوجُ يُشَكِّلُ إِثَارَةً لِوَعْيِ المُتَلَقِّي وَإِدْرَاكِهِ، فَتَدْفَعُهُ لِلبَحْثِ عَنْ أَسْرَارِ اللُّغَةِ وَمَعَانِيهَا. وَالتَّضَادُّ الذِّي يَقُومُ عَلَى عَلَاقَاتِ الكَلِمَةِ ضِمْنَ النَّصِّ عُنْصُرٌ مِنْ عَناصِرِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي تَجْمَعُ بَيْنَ المُبْدِعِ وَالكَلِمَةِ الحَمَّالَةِ لِلمَشَاعِرِ وَالأَحَاسِيسِ، وَالمُتَلَقِّي المَصْدُومِ بِمَكْنُونَاتِ الكَلِمَةِ وَالبَاحِثِ عَنْ جَمَالِيَاتِهَا، لِكَوْنِ لُغَةِ التَّضَادِّ مُمَثِّلَةٌ لِأَحَدِ مَنَابِعِ الفَجْوَةِ [1]، " ذَلِكَ أَنَّنَا حِينَمَا نَكْتُبُ كَلِمَةً أَوْ نَنْطِقُهَا أَوْ نَقْرَؤُهَا نَتَوَقَّع أَنْ تَتْلُوهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى مِمَّا يُكَوِّنُ مُتَتَالِيَةً كَلَامِيَّة تَحْتَوِي عَلَى لَفْظَيْنِ أَوْ أَلْفَاظٍ مُتَقَابِلَةٍ "[2].

[1]- يُنْظَر: في الشِّعرِيَّةِ، كَمال أَبو ديب، م.س، ص45.
[2]- تحليل الخطاب الشّعريّ، محمد مفتاح، م.س، ص61.

فَالتَّضَادُّ، بِهَذَا المَفْهُومِ، يُفَعِّلُ الحَرَكَةَ الدَّاخِلِيَّةَ لِلنَّصِّ وَيَرْفَعُ دَرَجَةَ إِيقَاعِيَّتِهِ عَلَى المُستَوَيَاتِ جَمِيعِهَا، وَبِالأَخَصِّ مُسْتَوَيَيْ:الصُّورَةِ وَالحَرَكَةِ، أَوِ الدَّلَالَةِ وَالإِيقَاعِ. وَتَغْلِيبُ أَحَدِهِمَا " يُصَعِّدُ الأَثَرَ وَيُعَمِّقُهُ. إِذْ يَسُوقُ الشَّاعِرُ مُعَانَاتِهِ الذَّاتِيَّةَ، وَمُعَانَاةِ الجَمَاعَةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ بِنَفَسٍ مَسْحُوقَةٍ وَصَوْتٍ خَفِيضٍ. هَذَا الإِيقَاعُ الحَزِينُ، الصَّاعِدُ مِنَ الأَعْمَاقِ المُنْفَطِرَةِ تَحْتَ مَنْطِقَةِ الأَحْزَانِ يُثِيرُ فِي القَارِئِ الأَلَمَ الطَّرُوبَ. فَيَنْتَشِي بِتَمَاوُجِ أَحَاسِيسِهِ وَتَنَاغُمِهَا مَعَ أَصْدَاءِ اللَّوْعَةِ الدَّفِينَةِ فِي أَعْمَاقِ الشَّاعِرِ "[1]، فَنَسْمَعَ رُوحَهُ مُنَاجِيَةً مُسْتَعْطِفَةً:

يَا رَبِّ إِنِّـي بِكَ أَنْتَ رَبِّـي *** وَمِنْكَ إِحْسَانٌ وَمِنِّي ذَنْبـــــي.

تِلْكَ الرُّوحُ التِّي تُنْصِتُ لِصَدَى صَاعِدٍ مِنَ الأَعْمَاقِ يُخَاطِبُ فِيهَا صَلَاحَهَا وَيَرْجُو أَوْبَتَها لِتَنْجُوَ فِي الدَّارَيْنِ:

جَدَّ بِنَا الأَمْرُ وَنَحْنُ نَلْعَبُ *** وَكُـــلُّ آتٍ فَكَـــذَاكَ يَذْهَبُ.
كاسَ امْرُؤٌ مُتَّعِـــظٌ بِغَيْـرِه *** دَعْ شَرَّ مَا تَأْتِي وخُذْ مِنْ خَيْرِهْ.

فَهَكَذَا يَعْمَلُ هَذَا النِّظَامُ مِنَ التَّوْفِيقَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ عَلَى ضَمَانِ التَّنَاسُقِ وَالانْسِجَامِ بَيْنَ الحَرَكَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَزَفَرَاتِهَا المُتَصَاعِدَةِ، وَبَيْنَ الآمَالِ المَعْقُودةِ عَلَى قَبُولِ المُخَاطَبِ/ الآخَرِ نِدَاءَ الضَّمِيرِ، لِيَنْتَصِرَ فِي صِرَاعِهِ المُسْتَمِرِّ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلِيَتَّعِظَ مِنْ دُرُوسِ الحَيَاةِ. إِنَّ هَذِهِ الحَرَكِيَّةَ وَهَذَا الإِيقَاعَ يُسْهِمَانِ فِي تَفَاعُلِ الإِيحَاءَاتِ وَتَوَالُدِهَا، وَمِنْ ثَمَّ ثَرَاءَ النَّصِّ وَفَاعِلِيَّةِ خِطَابِهِ.

وَإِنْ تَكُـنِ الحُظـوَةَ فِي العَمَليَّـةُ الشِّعْـرِيَّةُ " لِلمُسْـتَوى الدَّلَالِـيِّ "[2] كَمَـا يَـرَى جُـونْ كُـوهِنْ، فَـإِنَّ هَـذَا المُـستَوَى لَا يُمْكِنُـهُ أَنْ يَتَحَقَّـقَ إِلَّا فِي تَفَاعُـلٍ مَـعَ المُـسْتَوَى الأَوَّلِ

[1]- مَسَارُ التّحَوُّلاتِ، أُسَيْمَة دِرْوِيش، م.س، ص283.
[2]- بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، صص51،52.

(الصَّوتِيِّ) إِذْ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّ أَوَّلُ مَا يَأَتِي إِلَيْنَا مِنْ أَيِّ نَصٍّ هُو مَا نَسْمَعُه مِنْ أَصْواتِهِ، فَإِنَّ الصَّوْتَ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ جُزْءٌ لَا يَنْفَصِمُ مِنْ حَقِيقَةِ البِنْيَةِ وَدَلَالَاتِهَا، وَفِي غِيَابِهِ تَفْقِدُ بَعْضَ إِشْعَاعِ رِسَالَتِهَا وَتَوَهُّجِهِ، فَـ " الإِيقَاعُ هُوَ المَعْنَى، لِأَنَّ اللُّغَةَ لَا تُنْتِجُ المَعْنَى خَارِجَ تَرْكِيبِ إِيقَاعِهَا الدَّلَالِيِّ "[1].

يُوَلِّدُ التَّضَادُّ دِينَامِيكِيَّةً هِيَ نِتَاجُ الصِّرَاعِ وَالتَّوَتُّرِ الذِّي يَعْتَمِلُ فِي صَدْرِ الشَّاعِرِ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى نَصِّهِ مُتَجَلِّيًا فِي صُوَرٍ عَدِيدَةٍ، تَشْحَنُهُ بِالقُوَّةِ وَالحَرَكِيَّةِ، مِنْهَا: الكَلِمَةُ وَضِدُّهَا، فَيَنْهَضُ النَّصُّ بِذَلِكَ عَلَى قُطْبَيْنِ مُتَنَافِرَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا، فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، مُتَلَازِمَانِ يَمُدُّ أَحَدُهُمَا الآخَرَ بِالطَّاقَةِ، وَيُكَثِّفُ صَوْتِيَّتَهُ وَإِيقَاعَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةَ.

[1]- الإيقاع ودلالته في الشّعر، أحمد سليمان الأحمد، مجلة المنهل، السّعوديّة، ع:183، 1995م، ص32.

الفَصْلُ الثَّانِي

السِّمَاتُ الأُسْلُوبِيَّةُ فِي لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ

1- فِي اللُّغَةِ.
2- حَرَكِيَّةُ اللُّغَةِ ورُوحُ العَصْرِ.
3- المُعْجَمُ الشِّعْرِيُّ.
4- فِي ثُنائِيَات التَّضَـادِّ وعَـلاَقاتِهِ.
5- المُعْجَمُ والمَرْجِعُ.

1- في اللُّغَة:

- الكَلِمَاتُ الشِّعْرِيَّةُ [اللُّغَةُ] "إِنَّهَا صَوْتُ الكَيْنُونَةِ نَفْسِهَا"[1].

يَصِفُ هَايْدْجَرْ اللُّغَةَ " بِأَنَّهَا آلِيَّةُ الوُجُودِ الإِنْسَانِيِّ التِّي تُمَكِّنُ الإِنْسَانَ مِنْ أَنْ يَصِيرَ تَارِيخِيًّا، بَلْ أَنْ يُؤَسِّسَ التَّارِيخَ فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ. وَكَانَ قَدْ وَصَفَ الفَهْمَ وَالكَلاَمَ بِأَنَّهُمَا فِعْلاَنِ تَارِيخِيَّانِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ يَدْخُلُ مِنْ خِلاَلِهِمَا الوُجُودُ إِلَى الزَّمَنِ وَيَحْدُثُ "[2]. فَحَقِيقَةُ هَذَا الإِنْسَانِ المَوْصُوفِ بِأَنَّهُ "كَائِنٌ اجْتِمَاعِيٌّ" تَفْرِضُ عَلَيْهِ طَبِيعَةُ العَلاَقَاتِ مَعَ الآخَرِ أَنْ يَتَوَاصَلَ وَيَتَبَادَلَ أَشْكَالًا مِنَ المَوَاقِفِ وَالأَفْكَارِ وَالعَوَاطِفِ، فَكَانَتِ اللُّغَةُ أَقْدَرَ الوَسَائِطِ التِّي تَهَيَّأَتْ لَهُ كَيْ يُبَلِّغَ مُرَادَهُ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ يُقَرِّبَ الرَّسَائِلَ إِلَى أَذْهَانِ المُتَلَقِّينَ، إِذْ" بِدُونِ اللُّغَةِ لَمَا أَمْكَنَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ، وَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ بِأَيِّ أُسْلُوبٍ يُمْكِنُ أَنْ نَتَخَيَّلَهُ "[3]. فَاللُّغَةُ لَيْسَتْ تَعْبِيرًا يَسْتَخْدِمُهُ الإِنْسَانُ، أَوْ مُجَرَّدَ أَدَاةِ اتِّصَالٍ، إِنَّمَا هِيَ إِظْهَارٌ لِلوُجُودِ يَتْرُكُهُ الإِنْسَانُ يَحْدُثُ بِوَصْفِهِ وَاقِعَةً لُغَوِيَّةً[4].

فَاللُّغَةُ، إِذَنْ، بِنْتُ هَذِهِ العَلاَقَاتِ التِّي وَهَبَتْهَا مَكَانَتَهَا، وَتُوَاظِبُ عَلَى إِعْطَائِهَا جَدْوَى البَقَاءِ وَمَشْرُوعِيَّتَهُ، وَحَيَوِيَّةَ التَّفَاعُلِ المُسْتَمِرِّ المُنْتِجِ، حَيْثُ " فِي أَحْضَانِ المُجْتَمَعِ تَكَوَّنَتِ اللُّغَةُ. وُجِدَتْ اللُّغَةُ يَوْمَ أَحَسَّ النَّاسُ بِالحَاجَةِ إِلَى التَّفَاهُمِ فِيمَا بَيْنَهُمْ(...) فَاللُّغَةُ، وَهِيَ الوَاقِعُ الاجْتِمَاعِيُّ بِمَعْنَاهُ الأَوْفَى، تَنْتُجُ مِنَ الاحْتِكَاكِ الاجْتِمَاعِيِّ. وَصَارَتْ وَاحِدَةً مِنْ أَقْوَى العُرَى التِيّ تَرْبِطُ الجَمَاعَاتِ "[5]. وَلَعَلَّنَا، مَعَ هَايْدْجَرْ، نَقْلِبُ هَذِهِ المُعَادَلَةَ، أَوْ قُلْ إِنَّنَا سَنَجْعَلُهَا مُتَنَاظِرَةً، يَتَقَاسَمُ طَرَفَاهَا جُهْدَ وَفَاعِلِيَّةَ التَّأْثِيرِ وَالتَّأَثُّرِ، إِذْ إِنَّ الوُجُودَ فِي

[1]- يُنظر: الشّعر والوجود دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس، عادل ضاهر، دار المدَى للثّقافة والنشر دمشق سوريا، ط1، 2000م، ص99.

[2]- مدخل إلى الميتافيزيقا، هايدجر، يُنظر: فهم الفهم - مدخل إلى الميتافيزيقا - نظريّة التّأويل من أفلاطون إلى جادامير، عادل مصطفى، رؤية للنّشر و التّوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ص259.

[3]- فهم الفهم، م.س، ص258.

[4]- يُنظر: فهم الفهم، م.س، ص290.

[5]- اللّغة، جوزيف فندريس، تر:عبد الحميد الدّواخلي ومحمّد القصّاص، مكتبة الإنجلو المصريّة، د.ط، د.ت، ص35.

العَالَمِ مُصَمَّمٌ فِي أَصْلِهِ لِيَكُونَ وُجُودًا لُغَوِيًّا[1]، كَوْنَهُ " يُنَادِي وَيَسْأَلُ مِنْ خِلاَلِ اللُّغَةِ "[2].

لَا يُمكِنُ لِلوُجُودِ وَاللُّغَةِ أَنْ يَكُونَا مُتَنَافِرَيْنِ، يُقْصِي أَحَدُهُمَا الآخَرَ فِي المَكَانِ وَالزَّمَانِ، لَا يُمْكِنُ لِأَحَدِهِمَا أَنْ يُؤَسِّسَ مَاهِيَتَهُ بِإِقْصَاءِ الثَّانِي، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا، تَتَأَكَّدُ حَقِيقَتُهُمَا وَتَتَثَبَّتُ فِي حُضُورِهِمَا مَعًا،" فَاللُّغَةُ لَيْسَتْ هُنَا وَالوُجُودُ هُنَاكَ "[3]، فَتَجْرِبَتُنَا لَيْسَتْ مُسْتَقِلَّةً عَنِ اللُّغَةِ كَمَا المِرْآةُ تَعْكِسُ المُتَنَاظِرَ، ذَلِكَ أَنَّ مَوْضُوعَاتِ الوَاقِعِ وَأَشْيَاءَهُ مَوْجُودَةٌ دَاخِلَ اللُّغَةِ، وَمَا يَتَجَلَّى فِيهَا " لَيْسَ شَيْئًا إِنْسَانِيًّا بَلْ... عَالَمَ الوُجُودِ نَفْسَهُ "[4].

وَالكَلِمَةُ/اللُّغَةُ لَصِيقَةٌ بِالإِنْسَانِ، لِبَاسٌ يَتَمَاهَى مَعَ كَيْنُونَتِهِ فَيُفْصِحُ عَنْ أَدَقِّ أَحْوَالِهِ عَلَى اخْتِلاَفِهَا، وَحِينَ يَعْجَزُ عَنْ ذَلِكَ يَرْكَنُ إِلَى الصَّمْتِ، وَهُوَ حِينَهَا، مُتَكَلِّمٌ أَيْضًا كَوْنَ السُّكُوتِ شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ التَّعْبِيرِ، غَيْرَ أَنَّ اللُّغَةَ تَبْقَى أَسْمَى تَجَلِّيَاتِ الحُضُورِ فَهِيَ " التِّي تَخْلُقُ لِلإِنْسَانِ ذَلِكَ العَالَمَ الأَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ أَيِّ عَالَمِ مَوْضُوعَاتٍ طَبِيعِيَّةٍ، وَتُلاَمِسُ رَخَاءَهُ وَكَرْبَهُ عَلَى نَحْوٍ مُبَاشِرٍ أَكْثَرَ مِنَ الطَّبِيعَةِ المَادِّيَّةِ، لِأَنَّ اللُّغَةَ هِيَ التِّي تَجْعَلُ وُجُودَهُ فِي جَمَاعَةٍ مَا مُمْكِنًا، وَفِي المُجْتَمَعِ وَحْدَهُ، فِي عَلاَقَةٍ لَهُ بِـ (أَنْتَ)، تُؤَكِّدُ ذَاتِيَتُهُ نَفْسَهَا كَـ (أَنَا) "[5].

هَكَذَا بَنَى الفَلاَسِفَةُ، غَالِبِيَّتُهُمْ، مَقُولاَتِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ هَذِهِ العَلاَقَةِ القَائِمَةِ عَلَى التَّمَاهِي حَدَّ الانْصِهَارِ، فَلاَ يَكُونُ الشَّيْءُ إِلاَّ وَمَعَهُ صُورَةٌ فِي الذِّهْنِ، وَخِصِّيصَةٌ فِي التَّلَفُّظِ، وَقَدْ عَبَّرَ ابْنُ سِينَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:" الأَلْفَاظُ إِذَا سُمِعَتْ أُدْرِكَ مَعَ سَمَاعِهَا مَعْنًى، فَارْتَسَمَ فِي النَّفْسِ المَعْنَى وَاللَّفْظُ مَعًا، فَكُلَّمَا خَطَرَ بِالبَالِ ذَلِكَ المَعْنَى أُدْرِكَ اللَّفْظُ، وَكُلَّمَا

---

[1]- يُنظر، نَقد العَقل التَّأويلي أوْ فَلسفَةُ الإله الأَخِير، فَتحِي المَسكِيني، مَركز الإنماء العربيّ، بَيْروت، ط1، 2005م، ص22.

[2]- هيدجر والميتافيزيقا مُقاربة تُربة التّأويل التّقني للفكر، محمد طوّاع، أفريقيا الشرق، ط1، 2002م، ص53.

[3]- في ماهيّة اللّغة وفلسفة التّأويل، سعيد توفيق، المؤسسة الجامعيّة للدّراسَات والنّشر وَالتّوزِيع، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م، ص61.

[4]- فهم الفهم، م.س، ص260.

[5]- اللّغة والأسطورة، إرنست كاسيرر، تر: سعيد الغانمي، هيئة أبُو ظبيّ للثّقافة والتّراث، ط1، 1430هـ/2009م، ص114.

سُمِعَ ذَلِكَ اللَّفْظُ أُدْرِكَ المَعْنَى"[1]، وَبِهَذَا لاَ يَكُونُ فِعْلٌ وَقَصْدٌ يَتَهَيَّأُ فِي النَّفْسِ إِلاَّ وَيُقَابِلُهُ لَفْظٌ، فَمِنَ " المُتَعَذِّرِ عَلَى الرُّؤْيَةِ أَنْ تُرَتِّبَ المَعَانِي مِنْ غَيْرِ أَنْ تُتَخَيَّلَ مَعَهَا أَلْفَاظُهَا، بَلْ تَكَادُ تَكُونُ الرُّؤْيَةُ مُنَاجَاةً مِنَ الإِنْسَانِ ذِهْنَهُ بِأَلْفَاظٍ مُتَخَيَّلَةٍ "[2].

فَاللُّغَةُ، إِذَنْ، حَاجَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مِنْ آكَدِ الحَاجَاتِ، وَالتِّي تُعَزِّزُ مَكَانَتَهَا فِي مُوَاكَبَةٍ لِتَعَقُّدَاتِ الحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَشَعُّبَاتِهَا، حَتَّى صَارَتْ " أَلْفَاظًا يُعَبِّرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ عَنْ مَشاعِرِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ. وَإِذَا كَانَتْ اللُّغَاتُ قَدِ اخْتَلَفَتْ مِنْ جِهَةِ التَّلَفُّظِ بِالكَلِمَاتِ فَإِنَّهَا ظَلَّتْ مُتَشَابِهَةً مِنْ جِهَةِ المَعْنَى...إِنْ لَمْ نَقُلْ مُتَّحِدَةً فِيهِ "[3]، عَلَى أَنَّنَا بَعْدَ هَذَا نُؤَكِّدُ أَنَّ " دَلاَلَةَ الكَلِمَاتِ إِذَنْ لَيْسَتْ كَلاًّ مُبَاحًا. الكَلِمَاتُ أَنْظِمَةٌ مَفْتُوحَةٌ. الكَلِمَاتُ حُرِّيَّةٌ. وَلِكُلِّ حُرِّيَّةٍ قُيُودٌ. بَعْضُ التَّعَامُلِ مَعَ الكَلِمَاتِ أَشْبَهُ بِالثَّغْرَةِ وَبَعْضُ حُرِّيَّةِ الكَلِمَاتِ أَقْرَبُ إِلَى الإِضَافَةِ "[4].

فَلِلُّغَةِ ضَوَابِطُ وَسَنَنٌ تَوَثَّقَتْ مَعَ مَرِّ العُصُورِ، وَخَطَّتْ لِنَفْسِهَا مَسَارَاتٍ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ عَلَى الهَيْئَةِ التِّي هِيَ عَلَيْهَا الآنَ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا وَالوُجُودُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، عَلَى عَكْسَ مَا يَتَصَوَّرُهُ البَعْضُ مِنْ أَنَّهَا مُجَرَّدُ وَسِيلَةِ تَبْلِيغٍ وَوَاسِطَةٌ تَفْقِدُ مَاهِيَّتَهَا وَقِيمَتَهَا بِمُجَرَّدِ اسْتِنْفَاذِ رِسَالَتِهَا الآنِيَّةِ، فَـ " لَيْسَتِ الكَلِمَاتُ وَاللُّغَةُ قَوَاقِعَ تُخْتَزَنُ فِيهَا الأَشْيَاءُ بِبَسَاطَةٍ مِنْ أَجْلِ تِجَارَةِ الحَدِيثِ وَالكِتَابَةِ. فِي الكَلِمَةِ وَحْدَهَا، فِي اللُّغَةِ وَحْدَهَا، تُصْبِحُ الأَشْيَاءُ وَتَكُونُ "[5] كَمَا يَعْتَقِدُ هَايْدْجَرْ.

وَهَا نَحْنُ بَعْدُ، أَمَامَ مَسْأَلَةٍ أُخْرَى، هِيَ اسْتِيعَابُ اللُّغَةِ وَتَوْظِيفُهَا، كَيْفَ يَتَشَرَّبُهَا الفَرْدُ

---

[1]- التّعليقات، ابن سينا، تح:عبد الرّحمن بدوي، الدّار الإسلاميّة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص162.

[2]- المدخل من كتاب الشّفاء، ابن سينا، تح: الأب قنواتي ومحمود الخضيري وفُؤاد الأهواني، وزارة المعارف العمومية، الإدارة العامّة للثّقافة، القاهرة، د.ط، 1952م، ص23.

[3]- في جماليّةِ الكلمة(دراسة جماليّة بلاغيّة نقديّة)، حُسين جمعة، منشورات اتّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2002م، صص18،17.

[4]- اللّغة والتّفسير والتّواصل، مصطفى ناصف، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت،ع:193، رجب 1415هـ/ يناير1995م، ص77.

[5]- هيدجر، ماركوري جرين، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، د.ط، 1973م، ص110.

وَيتَقَبَّلُهَا لِيُعِيدَ بَثَّهَا بِدَوْرِهِ؟..إِنَّ " اللُّغَةَ لاَ تَعْنِي شَيْئًا خَارِجَ حُرِّيَّةِ الاخْتِيَارِ لَدَى الإِنْسَانِ، وَفِي هَذِهِ النُّقْطَةِ بِالذَّاتِ يَبْدَأُ التَّنَاقضُ بَيْنَ إِسْكَانِ اللُّغَةِ فِي قَوَالِبَ ضِمْنَ بِنْيَةٍ هِيَ– فِي الوَاقِعِ– فِكْرَةٌ مُسْبَقَةٌ لِنِظَامٍ عَلاَمَاتِيٍّ قِيَاسِيٍّ مُبَسَّطٍ إِلَى حَدِّ المِثَالِيَّةِ، وَبَيْنَ لُغَةِ الوُجُودِ، يُمَارِسُ بِهَا الإِنْسَانُ الحِوَارَ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، وَيُنْطِقُ العَالَمَ، وَيَنْطِقُ فِيهِ لِيُؤَسِّسَ الوُجُودَ الوَاعِيَ أَيْ التَّارِيخَ "[1]. فَاللُّغَةُ بِهَذَا المَفْهُومِ، هِيَ صُورَةُ الإِنْسَانِ فِي الوُجُودِ، لِأَنَّهُ وَهُوَ يُمَارِسُهَا قَوْلاً وَكِتَابَةً يُبَرْهِنُ عَلَى كَيْنُونَتِهِ فِي الحَاضِرِ، بَلْ وَفِي المُسْتَقْبَلِ أَيْضًا كَوْنَهَا الأَثَرَ الذِّي يَبْقَى – بَعْدَ فَنَاءِ الإِنْسَانِ – شَاخِصًا مُنْبِئًا عَلَى الذِّي مَرَّ مِنْ هُنَا ذَاتَ يَوْمٍ، أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، سَيَسْتَمِرُّ حِوَارُنَا مَعَ هَذَا الغَائِبِ/الفَانِي مِنْ خِلاَلِ اللُّغَةِ وَبِهَا عَبْرَ مَا خَطَّتْهُ يَدَاهُ، وَجَادَتْ بِهِ قَرِيحَتُهُ.

هَكَذَا، شَيْئًا فَشَيْئًا، سَتَنْتَقِلُ اللُّغَةُ مَعَ الإِنْسَانِ " مِنْ دَائِرَةِ العَفْوِيَّةِ إِلَى مَرْحَلَةِ الوَعْيِ الإِبْدَاعِيِّ "[2]، يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ حَالَمَا يَسْتَوْعِبُ أَنَّ " المَنْطِقَ عَلَى المُتَكَلِّمِ أَوْسَعُ مِنْهُ عَلَى الشَّاعِرِ وَالشِّعْرُ يَحْتَاجُ إِلَى البِنَاءِ وَالعَرُوضِ وَالقَوَافِي، وَالمتَكَلِّمُ مُطْلَقٌ يَتَخَيَّرُ الكَلاَمَ"[3]. هِيَ، إِذَنْ، مَرَاحِلُ عِدَّةٌ مُتَدَاخِلَةٌ سَمَحَتْ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُطَوِّرَ– خِلاَلَ أَزْمِنَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ – إِدْرَاكَهُ لِلُّغَةِ وَوَعْيَهُ بِخُصُوصِيَّاتِهَا كَوْنَهَا " مَجْمُوعَةٌ مِنَ العَلاَقَاتِ الحَيَّةِ المُتَنَامِيَةِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ رَصْفٍ لِلأَلْفَاظِ بِلَا تَعَلُّقٍ فِيمَا بَيْنَهَا، وَأَنَّ هَذِهِ العَلاَقَاتِ تَبْرُزُ عَنْ طَرِيقِ الصَّنْعَةِ التِّي يُسْتَعَانُ عَلَيْهَا بِالفِكْرَةِ وَالرَّوِيَّةِ وَالذَّوْقِ "[4].

فَلَيْسَ اسْتِخْدَامُ اللُّغَةِ بِالسُّهُولَةِ التِّي يَتَصَوَّرُهَا كَثِيرُونَ، إِذْ هِيَ وَسِيلَةُ تَعَامُلِنَا اليَوْمِيَّةُ، بِهَا نَبْلُغُ غَايَاتِنَا وَنُبَلِّغُهَا، لَكِنَّ " اللُّغَةَ فِي العَمَلِ الأَدَبِيِّ تَخْتَلِفُ عَنْ هَذَا، وَمَهْمَا بَلَغَتِ

[1]– وُجود النّصّ الأدبيّ/نصّ الوُجود، مصطفى الكيلاني، مجلّة الفكر العربيّ المعاصر، بيروت، لبنان – باريس، فرنسا، ع: 54-55، 1988م، ص27.

[2]– البلاغة العربيّة– قراءة أخرى ، محمّد عبد المطّلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشّركة المصريّة العلميّة للنّشر– لونجمان، ط1، 1997م، ص98.

[3]– طبقات فحول الشّعراء، ابن سلاّم الجُمحيّ، تح: محمُود محمَّد شاكر، مطبعة المدني، د.ط، 1974م، ص56.

[4]– الصّورة البلاغيّة عند عبد القاهر الجرجانيّ، منهجاً وتطبيقاً، ج1، أحمد عليّ دهمان، دار طلاس، دمشق، سوريا، ط1، 1986م، ص89.

اللُّغَةُ مِنْ وَفْرَةِ المُفْرَدَاتِ التِّي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْقُلَ أَدَقَّ المَعَانِي، وَأَدَقَّ ظِلاَلِ لِهَذِهِ المَعَانِي، فَإِنَّهُ تَبْقَى هُنَاكَ صُعُوبَةٌ تُوَاجِهُ الأَدِيبَ فِي اسْتِخْدَامِهِ اللُّغَةَ فِي عَمَلِهِ الأَدَبِيِّ. وَالذِّينَ يُمَارِسُونَ الإِنْتَاجَ مِنَّا يُلَاحِظُونَ فِي يُسْرٍ أَنَّ اللُّغَةَ لاَ تَكُونُ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ تِلْكَ الأَدَاةَ الطَّيِّعَةَ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ المَعْنَى أَوِ الفِكْرَةِ أَوِ الشُّعُورِ، فَهَذِهِ الأَشْيَاءُ لاَ يَتِمُّ نَقْلُهَا خِلاَلَ الأَلْفَاظِ إِلاَّ بَعْدَ جُهْدٍ كَبِيرٍ،(...)، فَإِذَا أَدْرَكْنَا ذَلِكَ كَانَ تَقْرِيرُنَا لِلصُّعُوبَاتِ التِّي يُوَاجِهُهَا الأَدِيبُ فِي اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ أَمْرًا بَدْهِيًّا "[1].

وَهَذَا عَيْنُ مَا يَذْهَبُ إِلَيهِ لُطْفِي عَبدُ البَدِيعِ حِينَ يُقَرِّرُ أَنَّ الشَّاعِرَ لَيْسَ " فِي عَمَلِهِ اسْتِعْمَالٌ لِلُّغَةِ، إِذِ الشِّعْرُ لَيْسَ بِسَبِيلِ الأُمُورِ العَمَلِيَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَظَرِيَّةٌ وَرُؤْيَةٌ، فَوَامُهُ مِنَ اللُّغَةِ لِذَاتِهَا، فَالشَّاعِرُ –كَمَا يَقُولُ سَارْتَرْ– لاَ يَسْتَخْدِمُ الكَلِمَاتِ بِحَالٍ وَلَكِنَّهُ يَخْدُمُهَا، وَهُوَ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ أَدَاةً، وَقَدِ اخْتَارَ طَرِيقَهُ اخْتِيَارًا لاَ رَجْعَةَ فِيهِ، وَهُوَ طَرِيقٌ فَرَضَهُ عَلَيْهِ مَسْلَكُهُ الشِّعْرِيُّ فِي اعْتِبَارِ الكَلِمَاتِ أَشْيَاءَ فِي ذَاتِهَا، وَلَيْسَتْ بِعَلاَمَاتٍ لِمَعَانٍ... وَالكَلِمَاتُ لِلمُتَحَدِّثِ خَادِمَةٌ طَيِّعَةٌ، وَلِلشَّاعِرِ عَصِيَّةٌ أَبِيَّةُ المِرَاسِ، لَمْ تُسْتَأْنَسْ بَعْدُ، فَهِيَ عَلَى حَالَتِهَا الوَحْشِيَّةِ، وَالكَلِمَاتُ لِلمُتَحَدِّثِ اصْطِلاَحَاتٌ ذَاتُ جَدْوَى، وَأَدَوَاتٌ تَبْلَى قَلِيلًا بِاسْتِخْدَامِهَا، يَطْرَحُهَا حِينَ لَا تَعُودُ صَالِحَةً لِلاسْتِعْمَالِ، وَهِيَ لِلشَّاعِرِ أَشْيَاءُ طَبِيعِيَّةٌ، تَنْمُو طَبِيعِيَّةً فِي مَهْدِهَا كَالعُشْبِ وَالأَشْجَارِ"[2].

وَيَجْعَلُنَا هَذَا نَعْتَقِدُ أَنَّ نَازِكْ المَلاَئِكَةُ لَا تُجَانِبُ الصَّوَابَ حِينَ تَقُولُ بِأَنَّهُ " لَا مَفَرَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَسْتَعْمِلُ اللُّغَةَ وَإِنَّمَا تَسْتَعْمِلُهُ هِيَ، أَيْ أَنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ ذَاتِهَا عَلَى لِسَانِهِ وَتَحْيَا وَتَتَّسِعُ وَتَكْشِفُ أَسْرَارَهَا "[3]. وَلَعَلَّ مِثْلَ هَذَا الفَهْمِ لِمَاهِيَّةِ اللُّغَةِ وَأَهَمِّيَّتِهَا هُوَ الذِّي دَفَعَ كُوهِنْ إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ " الشَّاعِرَ خَالِقُ كَلِمَاتٍ وَلَيْسَ خَالِقَ أَفْكَارٍ، وَتَرْجِعُ

[1]– الأدب وفنونه – دراسة ونقد، عزّ الدّين إسماعيل، دار الفكر العربيّ، القاهِرَة، ط9، 1425هـ/2004م، ص19.

[2]– التّركيب اللّغويّ للأدب(بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا)، لطفي عبد البديع، دار المرّيخ للنّشر، الرّياض، د.ط، 1409هـ/1989م، صص 81،82.

[3]– الشّاعر واللّغة، نازك الملائكة، مجلة الآداب، ع:10، س:19، بيروت، لبنان، 01 أكتوبر/تشرين الأوّل1971م، ص12.

عَبْقَرِيَّتُهُ كُلُّهَا إِلَى الإِبْدَاعِ اللُّغَوِيِّ "[1]، أَيْ أَنَّ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ اسْتِعْمَالُهُ لِلُّغَةِ مِنْ مُفَارَقَةٍ تَهَبُهَا مَشْرُوعِيَّةَ وُجُودِهَا وَتَمَيُّزِهَا هُوَ الذِّي يَجْعَلُهَا لُغَةً شِعْرِيَّةً.

لِلُّغة سُلْطَتُها وَسَطْوَتُهَا التِّي تَسِمُ بِهَا الدَّلاَلَةَ وَتَرْسُمُ خَاصِّيَتَهَا، وَلَكِنَّ الشِّعْرَ هُوَ الذِّي يُتِيحُ لَهَا أَقْصَى دَرَجَاتِ ذَاكَ التَّمَيُّزِ وَتِلْكَ الكَثَافَةَ، فَهُوَ " لاَ يَتَلَقَّى اللُّغَةَ قَطُّ مَادَّةً يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَأَنَهَّا مُعْطَاةٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ، بَلِ الشِّعْرُ هُوَ الذِّي يَبْدَأُ بِجَعْلِ اللُّغَةِ مُمْكِنَةً، الشِّعْرُ هُوَ اللُّغَةُ البِدَائِيَّةُ لِلشّعُوبِ وَالأَقْوَامِ، وَإِذَنْ فَيَجبُ أَنْ نَفْهَمَ مَاهِيَّةَ اللُّغَةِ مِنْ خِلاَلِ مَاهِيَّةِ الشِّعْرِ "[2]، إِذْ لُغَةُ الشِّعْرِ هِيَ الوُجُودُ الشِّعْرِيُّ الذِّي يَتَحَقَّقُ فِي اللُّغَةِ انْفِعَالًا وَصَوْتًا مُوسِيقِيًّا وَفِكْرًا [3]، حَيْثُ " الكَلاَمُ وَاللُّغَةُ مِنْ جِهَةِ الوَظِيفَةِ كَالوَعْيِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاللُّغَةُ مَجَالٌ يَعْمَلُ الشِّعْرُ فِيهِ عَمَلَهُ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُهَا مَأْخَذَ المَادَّةِ المَصْنُوعَةِ بَلْ يُدْخِلُ اللُّغَةَ فِي حَيِّزِ الإِمْكَانِ "[4] لِتَصِيرَ حَامِلَةً لِتِلْكَ القُدْرَةِ الخَالِقَةِ، مُتَفَلِّتَةً مِنْ عِقَالِ المَعْنَى المُبْتَذَلِ المُسْتَهْلَكِ، مُتَجَدِّدَةً مِنْ ذَاتِهَا وَبِذَاتِهَا.

نَقِفُ مِنْ هُنَا عَلَى أَنَّ لُغَةَ الشِّعْرِ عُمُومًا، وَالشِّعْرُ العَرَبِيُّ جُزْءٌ أَصِيلٌ فِيهِ، " مِنْ أَصْعَبِ مَسَائِلِهِ، وَأَهَمِّ خَصَائِصِ نُشُوئِهِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الشِّعْرُ يَقْتَضِي اسْتِخْدَامَ لُغَةٍ خَاصَّةٍ لِإِقَامَةِ هَيْكَلِ بِنْيَتِهِ التِّي تَشْتَرِكُ البِنْيَةُ البَلاَغِيَّةُ وَالنَّحْوِيَّةُ فِي تَشْكِيلِهَا إِلَى جَانِبِ غَيْرِهَا مِنَ البِنْيَاتِ الأُخْرَى "[5]. وَذَلِكَ الذِّي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ نُقَّادِنَا حِينَ مَيَّزُوا بَيْنَ مُسْتَوَيَيْ لُغَةٍ " مُسْتَوَى يَجْرِي فِيهِ المُسْتَعْمَلُ عَلَى العَادَةِ وَالعُرْفِ...(الاحْتِذَاءُ) وَمُسْتَوَى يَتَصَرَّفُ فِيهِ المُسْتَعْمَلُ فِي المُوَاضَعَاتِ وَيُجْرِي اللُّغَةَ عَلَى مَا يَسْتَجِيبُ لِمَقَاصِدِهِ فِي العِبَارَةِ وَجَمَعُوا كُلَّ ذَلِكَ تَحْتَ مُصْطَلَحِ (الإِنْشَاءِ) بِالمَعْنَى الوَاسِعِ الذِّي يَدُلُّ عَلَيْهِ الأَصْلُ اليُونَانِيُّ لِكَلِمَةِ

---

[1]- بنية اللّغة الشّعريّة، م.س، ص40.

[2]- يُنظر:التّركيب اللّغويّ للأدب (بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا)، م.س، ص199.

[3]- يُنظر:لغة الشّعر العربيّ الحديث - مقوّماتها الفنيّة وطاقاتها الإبداعيّة، السّعيد الورقي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1983م، ص8.

[4]- التّركيب اللّغويّ للأدب (بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا)، م.س، ص.ن.

[5]- يُنظر: اللّغة في شعر أبي إسحاق الإلبيري، نافع محمود خلف، مجلّة كليّة الآداب، بغداد، العراق، ع:56، 1422هـ/2001م، ص235.

(*Poétique*) الفَرَنْسِيَّةِ "[1].

إِذَنْ، فَالكَلاَمُ الشِّعْرِيُّ مُخْتَلِفٌ عَنِ الكَلاَمِ العَادِيِّ، بَلْ إِنَّهُ مُفَارِقٌ حَتَّى لِغَيْرِهِ مِنْ أَلْوَانِ الإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ، " مُنْفَرِدٌ بِبِنْيَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُتَمَيِّزٌ بِلُغَةٍ لَا تَخْضَعُ لِنَفْسِ القَوَانِينِ التِّي تَتَرَتَّبُ حَسْبَهَا اللُّغَةُ وَالأَشْيَاءُ فِي النَّثْرِ"[2]، فـ " النَّثْرُ وَالشِّعْرُ يَتَمَيَّزَانِ دَاخِلَ لُغَةٍ مُعَيَّنَةٍ بِوَصْفِهِمَا نَمَطَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مِنَ الرَّسَائِلِ"[3]، إِذِ الشِّعْرُ فِي عُرْفِ كُوهِن مُنْزَاحٌ عَنِ النَّثْرِ بِصُورَةٍ كُلِّيَّةٍ، كَوْنَ النَّثْرِ هُوَ كُلُّ اسْتِعْمَالٍ غَيْرِ شِعْرِيٍّ لِلُّغَةِ، بِمَا فِي ذَلِكَ الأَدَبِيَّ مِنْهُ، لِذَلِكَ قِيلَ " الشِّعْرُ اسْتِعْمَالٌ خَاصٌّ لِلُّغَةِ "[4].

وَقد سُئِلَ أَبُو حَيَّانٍ التَّوْحِيدِيُّ مَرَّةً عَمَّا بَيْنَ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ مِنْ اخْتِلاَفٍ أَوِ ائْتِلاَفٍ فَقَالَ:" إِنَّ الكَلاَمَ عَلَى الكَلاَمِ صَعْبٌ. قَالَ: وَلِمْ؟، قُلْتُ: لِأَنَّ الكَلاَمَ عَلَى الأُمُورِ المُعْتَمَدِ فِيهَا عَلَى صُوَرِ الأُمُورِ وَشُكُولِهَا التِّي تَنْقَسِمُ بَيْنَ المَعْقُولِ وَبَيْنَ مَا يَكُونُ بِالحِسِّ مُمْكِنٌ، وَفَضَاءُ هَذَا مُتَّسِعٌ وَالمَجَالُ فِيهِ مُخْتَلِفٌ. فَأَمَّا الكَلاَمُ عَلَى الكَلاَمْ فَإِنَّهُ يَدُورُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَلْتَبِسُ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ "[5]. لَيْسَتْ لُغَةُ الشِّعْرِ، إِذَنْ، هِيَ ذَاتُهَا اللُّغَةُ الجَارِيَةُ عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَالكَلاَمُ الذِّي يَسْتَطِيعُهُ كُلُّ فَرْدٍ، وَلَكِنَّهَا لُغَةٌ صَنَعَتْ فَرَادَتَهَا مِنْ طَرِيقَةِ الصِّيَاغَةِ، وَأَسَالِيبِ التَّفَنُّنِ فِيهَا.

هُنَا يَصِيرُ إِدْرَاكُ مُسْتَخْدِمِ اللُّغَةِ لِاخْتِلاَفِ الوَظِيفَةِ التِّي أُنِيطَتْ بِهَا فِي كُلِّ مَجَالَاتِ اسْتِعْمَالَاتِهَا هُوَ الفَيْصَلَ فِي تَأْوِيلِهَا، وَقَبْلَ ذَلِكَ فِي اخْتِيَارِهَا وَتَرْتِيبِهَا، إِذْ طَبِيعَةُ الفَنِّ بِوَصْفِهَا

---

[1]- التّفكير البلاغيّ عند العرب – أُسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، حمّادي صمّود، منشورات الجامعة التّونسيّة، السّلسلة السّادسة، الفلسفة والآداب، مج عدد21، تونس، 1981م، ص617.

[2]- ملاحظات حول مفهوم الشّعر عند العرب، ضمن قضايا الأدب العربيّ، حمّادي صمّود، مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، د.ط، 1978م، ص236.

[3]- ينظر: بنيةُ اللُّغةِ الشّعريَّة، م.س، ص28.

[4]- الشّعر كيف نفهمه ونتذوّقه، إليزابت درو، تر:محمّد إبراهيم الشّوش، منشورات مكتبة منيمنه، بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطّباعة والنشر، بيروت/نيويورك، مطبعة عيتاني الجديدة، بيروت، لبنان، د.ط، 1961م، ص125.

[5]- الإمتاع والمؤانسة،ج2، أبو حيان التّوحيدي، المكتبة العصريّة، صيدا- بيروت، د.ط، 1432هـ/2011م، ص249.

كَامِنَةً فِي مَاهِيَّةِ اللُّغَةِ، هِيَ كَشْفٌ لِلمُتَحَجِّبِ، وَإِظْهَارٌ لَهُ مِنَ الخفَاءِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الأَشْيَاءَ تَكْشِفُ ذَاتَهَا مِنْ خِلاَلِ اللُّغَةِ التِّي تُقِيمُ فِيهَا المَوْجُودَاتُ، وَيَسْطَعُ مِنْهَا الوُجُودُ بِمَا يُشْبِهُ الشَّظَايَا أَوِ الأَشِعَّةَ المَنْشُورِيَّةَ[1]. فَيَكُونُ قِوَامُ الشِّعْرِيَّةِ الأَوَّلَ إِدْرَاكَ الشَّاعِرِ قِيمَةَ اللُّغَةِ وَوَظِيفَتَهَا وَطُرُقَ إِتْيَانِهَا وَمُبَاغتَتِهَا مِنْ حَيْثُ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، فَيُخْرِجَهَا لِلنَّاسِ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلِهِ فِي الاسْتِعْمَالِ، وَلاَ جرَتْ عَلَى لِسَانٍ.

يَقُولُ سَعْدُ الدِّينِ كُلَيْب: إِنَّ " الإِحْسَاسَ الجَمَالِيَّ بِالمفْرَدَةِ اللُّغَوِيَّةِ، هُوَ الذِّي يُحَوِّلُهَا إِلَى مُفرَدَةٍ شِعْرِيَّةٍ، وَتَبْقَى المفْرَدَةُ، فِي إِطَارِهَا القَامُوسِيِّ، مَادَامَتْ لَمْ تَتَلَقَّحْ بِالإِحْسَاسِ الجَمَالِيِّ أَيْ: مَا دَامَتْ مُسْتَقِلَّةً عَنِ الدَّفَقِ الجَمَالِيِّ الذِّي تُغَذِّيهَا بِهِ الذَّاتُ الشِّعْرِيَّةُ "[2]، وَيُضِيفُ بِأَنَّ:" التَّعَامُلَ الانْفِعَالِيَّ – الجَمَالِيَّ مَعَ المفْرَدَةِ القَامُوسِيَّةِ، هُوَ البُرْهَةُ الأُولَى فِي تَحَوُّلِهَا إِلَى مُفْرَدَةٍ شِعْرِيَّةٍ، تَشِعُّ إِيحَائِيًّا وَجَمَالِيًّا، عَلاَوَةً عَلَى إِشْعَاعِهَا العَاطِفِيِّ "[3]. وَمِنْ ثَمَّ يَجْتَهِدُ المبْدِعُ فِي ضَخِّ الطَّاقَةِ الانْفِعَالِيَّةِ الجَمَالِيَّةِ فِي لُغَتِهِ كَيْ يَجْعَلَهَا شِعْرِيَّةً تَمُدُّ جُسُورَهَا نَحْوَ المتَلَقِّي وَتُبْقِيهِ مَشْدُودًا إِلَيْهَا مَا دَامَتْ تِلْكَ الطَّاقَةُ لَمْ تَنْضَبْ بَعْدُ.

وَقَدِ انْتَبَهَ نُقّادُنَا الأَوَائِلُ إِلَى هَذِهِ المسْأَلَةِ، فَأَعَارُوهَا اهْتِمَامَهُمْ مُذْ عَرَفُوا مَا لِلُّغَةِ مِنْ خَصَائِصَ وَمَزِيَّةٍ فِي الخِطَابِ، فَهَاهُوَ ابْنُ رَشِيقٍ يُؤَكِّدُ بِأَنَّنَا لَا نَجِدُ " مَعْنىً يَخْتَلُّ إِلَّا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ، وَجَرْيِهِ فِيهِ عَلَى غَيْرِ الوَاجِبِ، قِيَاسًا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ أَدْوَاءِ الجُسُومِ وَالأَرْوَاحِ، فَإِنْ اخْتَلَّ المعْنَى كُلُّهُ وَفَسَدَ بَقِيَ اللَّفْظُ مَوَاتًا لاَ فَائِدَةَ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ حَسَنَ الطَّلاَوةِ فِي السَّمْعِ، كَمَا أَنَّ المَيِّتَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْ شَخْصِهِ شَيْءٌ فِي رَأْيِ العَيْنِ، إِلاَّ أَنَّه لَا يُنْتَفَعُ بِهِ وَلاَ يُفِيدُ فَائِدَةً "[4].

---

[1]– يُنظر: الخبرة الجمالية دراسة في فلسفة الجمال الظّاهراتيّة (هيرجر– سارتر– ميرلو بونتي– دوفرين– انجاردن) ، سعيد توفيق، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 1992م، ص122.

[2]– القيم الجماليّة في الشّعر العربيّ الحديث (1950م– 1975م)، كليب سعد الدّين، رسالة دكتوراه، جامعة حلب، 1409هـ/1989م، ص304.

[3]– نفسه، ص.ن.

[4]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تح: محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ/1981م، ص124.

وَيَذْهَبُ العَقَّادُ مَذْهَبًا قَرِيبًا مِنْ هَذَا وهُوَ يَتَنَاوَلُ (غِرْبَالَ) نُعَيْمَةَ إِذْ يَقُولُ أَنَّ اللُّغَةَ فِي الشِّعْرِ " غَايَةٌ فِي ذَاتِهَا لاَ يُكْتَفَى فِيهَا بِالإِفَادَةِ، وَلاَ يُعْنَى فِيهَا بِمُجَرَّدِ الإِفْهَامِ "[1]. وَقَدْ رَأَى حُسَيْنُ خُمْرِي فِي (الظَّاهِرَةِ الشِّعْرِيّةِ العَرَبِيَّةِ) أَنَّ " فَهْمَ قَصِيدَةٍ مُعيَّنَةٍ أَوْ أَيَّةَ قِطْعَةٍ أَدَبيَّةٍ أُخْرَى يَتَوَقَّفُ عَلَى فَهْمِنَا لِكُلِّ مُفْرَدَاتِهَا دُونَ إِغْفَالِ أَيَّةٍ مِنْهَا "[2]، وَاقْتَرَحَ لِبُلُوغِ ذَلِكَ جُمْلَةً مِنَ الخَطَوَاتِ العَمَلِيَّةِ نَذْكُرُ مِنْهَا: جَرْدَ الأَلْفَاظِ الغَرِيبَةِ، إِحْصَاءَ الكَلِمَاتِ المتَكَرِّرَةِ، التَّعَرُّفُ عَلَى خُصُوصِيَّةِ القَصِيدَةِ، عَلاَقَةُ اللُّغَةِ بِالوَاقِعِ، ...[3].

يَسُوقُنَا هذَا الحَدِيثُ عَنِ اللُّغَةِ وَتَشَعُّبَاتِهَا إِلَى تَفْصِيلِ الكَلاَمِ فِي المَعْجَمِ عِنْدَ الشُّعَرَاءِ، وَطَرَائِقَهُمْ فِي تَوْظِيفِهِ لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ بِيَدِ البَاحِثِ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَنْهَجِ إِبْدَاعٍ وَآخَرَ، وَبَيْنَ طَرِيقَةٍ وَأُخْرَى، فَهُوَ وَلاَ شَكَّ " أَبْرَزُ الخَوَاصِّ الأُسْلُوبِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ وَالمُبِينَةِ عَنْ سِرِّ صِنَاعَةِ الإِنْشَاءِ عِنْدَهُ، لِذَلِكَ يُؤَدِّي فَحْصُ الثَّرْوَةِ اللَّفْظِيَّةِ كَمَا تَظْهَرُ فِي النُّصُوصِ إِلَى اسْتِبَانَةِ وَاحِدٍ مِنْ أَهَمِّ الملاَمِحِ المُمَيِّزَةِ لِلأُسْلُوبِ"[4]، فَالأَلْفَاظُ لَبِنَةٌ أَسَاسٌ فِي الخِطَابِ، وَفِي دِرَاسَتِها وَتَحْلِيلِ بِنْيَاتِهَا كَشْفٌ عَنْ جُمْلَةُ المِيزَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي يَقُومُ عَلَيْهَا خِطَابٌ مَا، لِأَنَّ المُبْدِعَ يَعْتَمِدُ فِيهَا " عَلَى مَخْزُونِهِ الثَّقَافِيِّ وَسِعَةِ اطِّلَاعِهِ، تِلْكَ الثَّقَافَةُ التِّي تَمْنَحُ الشَّاعِرَ رُكَامًا لُغَوِيًّا يَخْتَزِنُهُ فِي ذَاكِرَتِهِ، وَيَسْتَدْعِي مِنْهُ مَا يُنَاسِبُ عَاطِفَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ الشِّعْرِيَّةَ وَقْتَ وِلَادَةِ القَصِيدَةِ "[5].

إِنَّ الكَلِمَةَ تَشِي بِكَثِيرٍ مِنَ الخَبَايَا التِّي يُسْكِنُهَا الشَّاعِرُ خِطَابَاتِهِ، فَقَدْ تَخْرُجُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ، وَتَتَرَتَّبُ فِي نَصِّهِ بِطَرِيقَةٍ قَدْ تَفْضَحُ – لِلْعَيْنِ النَّاقِدَةِ – مَكْنُونَاتِ النَّفْسِ التِّي رَاحَتْ "تَقْهَرُ" المَعْنَى الصَّرِيحَ وَتَمْنَعُهُ التَّجَلِّيَ. فَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ أَهَمِّ الوَسَائِلِ التِّي تَلْجَأُ إِلَيْهَا اللُّغَةُ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ المَعَانِي فَيَجِبُ النَّظَرُ فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ جُمَلًا مُتَآلِفَةً يَنْشَأُ عَنْهَا الأُسْلُوبُ[6]،

---

[1]– نقد القَصيدة العربيّة– مدخل إلى نقد ميراث الرّواد، السّيّد فضل، مُنشأة المعارف، الإسكندريّة، د.ط، د.ت، ص37.

[2]– الظّاهرة الشّعريّة العربيّة – الحضور والغياب– دراسة، حسين خمري، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م، ص36.

[3]– نفسه، ص.ن وما بعدها.

[4]– في النّصّ الأدبيّ دراسة أسلوبيّة إحصائيّة، عبدُ العَزيز سَعد مَصلُوح، عالم الكُتب للنّشر والتّوزيع والطّباعة، ط3، 2002م، ص89.

[5]– شعر إبراهيم ناجي– دراسة أُسْلوبيّة بنائيّة، شريف سعد الجيار، الهيئة المصريّة العامّة للكِتاب، ط1، 2008م، ص184.

[6]– يُنظر: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتّراث، أحمد درويش، م.س، ص127.

عَلَى أَنَّ زَوَايَا النَّظَرِ إِلَيْهَا تَخْتَلِفُ تَبَعًا لِلنَّظَرِيَّةِ أَوِ المَنْهَجِ الذِّي يُعَالِجُ ذَاكَ النَّسِيجَ [1]. وَتِلْكَ عَمَلِيَّةٌ شَاقَّةٌ عَوِيصَةٌ، تَسْتَدْعِي نَاقِدًا حَصِيفًا، وَعَيْنًا بَصِيرَةً بِحَقَائِقِ اللُّغَةِ حَتَّى يُسْتَخْرَجَ مَا يَحْمِلُهُ اللَّفْظُ مِنْ دَلاَلاَتٍ وَرَسَائِلَ، حَيْثُ " عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُغْرِقَ نَفْسَهُ فِي الأَلْفَاظِ وَأَنْ يَغُوصَ فِيهَا حَقِيقَةً لاَ مَجَازًا حَتىَّ يُشَكِّلَ اللاَّئِقَ المُنَاسِبَ مِنْهَا فِي الصُّورَةِ المَنْشُودَةِ فِي الوَقْتِ المَنَاسِبِ "[2]، وَتِلْكَ غَايَةُ كُلِّ نَاقِدٍ مَوْضُوعِيٍّ مُتَمَرِّسٍ.

هَكَذَا يَسْتَقِرُّ فِي أَذْهَانِنَا أَنَّ التَّعَرُّفَ عَلَى نَصٍّ مَا يَبْدَأُ مِنْ لُغَتِهِ، فَسَتَكُونُ " البَوَّابَةُ الأُولَى لِلوُلُوجِ إِلَى فَضَاءِ القَصِيدَةِ هِيَ اللُّغَةُ، لِأَنَّهُ عَنْ طَرِيقِ اللُّغَةِ يُمْكِنُ التَّعَرُّفُ عَلَى الدَّلاَلاَتِ وَالأَبْعَادِ التِّي تَرْمِي إِلَيْهَا القَصِيدَةُ، فَاللُّغَةُ إِذَا كَانَتْ فِي العُلُومِ البَحْتَةِ وَسِيلَةَ نَقْلِ الفِكْرَةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا بِتَجْرِيدِيَّةٍ تَامَّةٍ دُونَ إِقْحَامِ مَوْقِفِهِ أَوْ أَحَاسِيسِهِ أَوْ رُؤْيَتِهِ، فَالكَلِمَاتُ لَدَيْهِ تُسَاوِي مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي الأَصْلِ أَيْ إِنَّ الدَّوَالَّ تَتَسَاوَى وَالمَدْلُولَاتِ "[3]. مِنْ هُنَا يَبْدَأُ المُبْدِعُ فِي التَّأْسِيسِ لِفَرَادَتِهِ، وَيَشُقُّ طَرِيقَهُ أَوَّلَ مَا يَشُقُّهَا فِي اللُّغَةِ وَبِاللُّغَةِ، فَيَنْسَلِخُ عَنْ لُغَةِ مُحِيطِهِ وَهُوَ فِيهَا وَبِهَا يُبْدِعُ! عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ " اللُّغَةَ الشِّعْرِيَّةَ تَشْغَلُ مَنْزِلَةً وَسَطًا، تَتَأَرْجَحُ بَيْنَ قُطْبَيْنِ: الأَوَّلُ هُوَ قُطْبُ اللُّغَةِ الخَالِصَةِ الصِّحَّةِ (أَيْ الخَالِيَةِ مِنَ الانْزِيَاحِ وَغَيْرِ المَعْقُولِ)،...، وَالثَّانِي هُوَ قُطْبُ اللُّغَةِ غَيْرِ المَعْقُولَةِ "[4] كَمَا يَقُولُ جُونْ كُوهِينْ، الذِّي يُؤَكِّدُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِأَنَّ:" الخِطَابَ الشِّعْرِيَّ يُعَاكِسُ النَّسَقَ. وَفِي هَذَا النِّزَاعِ يَخْضَعُ النَّسَقُ وَيَسْتَجِيبُ لِلتَّحَوُّلِ. الشِّعْرُ، حَسَبَ عِبَارَةٍ عَمِيقَةٍ لِفَالِيرِي، **لُغَةٌ دَاخِلَ اللُّغَةِ**، نِظَامٌ لُغَوِيٌّ جَدِيدٌ يَتَأَسَّسُ عَلَى أَنْقَاضِ القَدِيمِ، وَبِوَاسِطَتِهِ يَتَشَكَّلُ (...) نَمَطٌ جَدِيدٌ مِنَ الدَّلاَلَةِ. لاَ مَعْقُولِيَّةُ الشِّعْرِ لَيْسَتْ مَوْقِفًا مُسْبَقًا. إِنَّهَا الطَّرِيقُ الحَتْمِيَّةُ التِّي يَنْبَغِي لِلْشَّاعِرِ عُبُورُهَا إِذَا كَانَ يَرْغَبُ فِي جَعْلِ اللُّغَةِ تَقُولُ مَا لَا تَقُولُهُ أَبَدًا بِشَكْلٍ طَبِيعِيٍّ "[5].

---

[1]- يُنظر: نفسه، ص150.

[2]- الشّعر كيف نفهمه ونتذوّقه، إليزابت درو، م.س، ص24.

[3]- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة - الحضور والغياب، م.س، ص48.

[4]- بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهين، م.س، ص6.

[5]- بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهين، م.س، ص129.

وَالشُّعَرَاءُ عَلَى رَأْيِ الخَلِيلِ " أُمَرَاءُ الكَلاَمِ يُصَرِّفُونَهُ أَنَّى شَاءُوا. وَيَجُوزُ لَهُمْ مَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِمْ مِنْ إِطْلاَقِ المعْنَى وَتَقْيِيدِهِ، وَمِنْ تَصْرِيفِ اللَّفْظِ وَتَعْقِيدِهِ، وَمَدِّ المقْصُورِ وَقَصْرِ الممْدُودِ، وَالجَمْعِ بَيْنَ لُغَاتِهِ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ صِفَاتِهِ، وَاسْتِخْرَاجِ مَا كَلَّتِ الأَلْسُنُ عَنْ وَصْفِهِ وَنَعْتِهِ، وَالأَذْهَانُ عَنْ فَهْمِهِ وَإِيضَاحِهِ. فَيُقَرِّبُونَ البَعِيدَ وَيُبَعِّدُونَ القَرِيبَ وَيُحْتَجُّ بِهِمْ وَلَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ، وَيُصَوِّرُونَ البَاطِلَ فِي صُورَةِ الحَقِّ وَالحَقَّ فِي صُورَةِ البَاطِلِ "[1]، وَذَلِكَ لِـ" أَنَّهُمْ لَيْسُوا فَقَطْ أَكْثَرَ حُضُورًا مِنْ مُعْظَمِ البَشَرِ، بَلْ إِنَّهُمْ أَيْضًا أَكْثَرُ حَسَاسِيَّةً لِإِمْكَانِيَاتِ اللُّغَةِ بِاعْتِبَارِهَا وَاسِطَةً لِكَشْفِ الإِنْسَانِ عَنْ ذَاتِهِ وَلِتَوْكِيدِ انْتِمَائِهِ إِلَى الوَاقِعِ الطَّبِيعِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ.

" إِضَافَةً إِلَى كُلِّ هَذَا، فَإِنَّ الشُّعَرَاءَ وَحْدَهُمْ يُلَقِّنُونَنَا دَرْسًا بِخُصُوصِ مَحْدُودِيَّتِنَا. الشِّعْرُ الأَصِيلُ فِي اعْتِقَادِ هَايْدْجَرْ،لَا مَكَانَ فِيهِ لِلاخْتِيَارِ العَشْوَائِيِّ لِلكَلِمَاتِ. وَالكَلِمَاتُ الشِّعْرِيَّةُ بِالمعْنَى الحَقِّ لَا هِيَ ذَاتِيَّةٌ وَلَا هِيَ مَوْضُوعِيَّةٌ، وَإِنَّمَا هِيَ مِعْيَارٌ حَقِيقِيٌّ لِوَضْعِ الإِنْسَانِ فِي سِيَاقِ الزَّمَنِ وَوَسَطَ عَالَمِ الجَمَادَاتِ وَالعَجْمَاوَاتِ "[2]، وَفَهْمُ هَذَا المِعيَارِ وَطُرُقِ اشْتِغَالِهِ وَسِيلَتُنَا إِلَى فَهْمِ هَذَا الكَائِنَ المُنْتِجَ لَهَا وَبِهَا، أَوْ هُوَ، فِي أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، وَاسِطَتُنا التِّي تُؤَهِّلُنَا لِوُلُوجِ هَذَا العَالَمِ بِكُلِّ تنَاقَضَاتِهِ.

2- حَرَكِيَّةُ اللُّغَةِ وَرُوحُ العَصْرِ:

بِهَذَا تَتَوَضَّحُ لَنَا خُطُورَةُ الكَلِمَةِ، خُصُوصًا حِينَ يَتَمَلَّكُهَا المُقْتَدِرُ عَلَيْهَا، النَّافِذُ بِبَصِيرَتِهِ إِلَى أَعْمَاقِهَا، فَهِيَ تَصِيرُ " فِي يَدِ الفَنَّانِ أَدَاةَ التَّشْكِيلِ التِّي يُنَفِّذُ بِهَا الفَنَّانُ عَمَلَهُ الفَنِّيَّ كَاللَّوْنِ فِي يَدِ الرَّسَّامِ وَالنَّغَمِ فِي يَدِ الموسِيقِيِّ وَالصَّلْصَالِ فِي يَدِ النَّحَّاتِ...الخ"[3]. وَالشَّاعِرُ المُتَقَدِّمُ كَمَا المُعَاصِرُ- فِي رَأْيِنَا- صَارَ " عَلَى وَعْيٍ كَافٍ بِتِلْكَ الوَظِيفَةِ [وَظِيفَةُ اللُّغَةِ]، حَيْثُ أَدْرَكُوا أَنَّ الكَشْفَ عَنِ الجَوَانِبِ الجَدِيدَةِ فِي الحَيَاةِ يَسْتَتْبِعُ بِالضَّرُورَةِ الكَشْفَ

[1]- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، م.س، ص143.

[2]- يُنظر:الشّعر والوجود - دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس، عادل ضاهر، دار المدى للثّقافة والنّشر، دمشق، سوريا، ط1، 2000م، ص99.

[3]- بديع التّراكيب في شعر أبي تمّام، منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندريّة، مصر، ط3، 1997م، ص115.

عَنْ لُغَةٍ جَدِيدَةٍ، فَلَيْسَ مِنَ المَعْقُولِ فِي شَيْءٍ، بَلْ كَانَ مِنْ غَيْرِ المَنْطِقِيِّ، أَنْ تُعَبِّرَ اللُّغَةُ القَدِيمَةُ عَنْ تَجْرِبَةٍ جَدِيدَةٍ.

لَقَدْ أَيْقَنَ هَؤُلَاءِ أَنَّ كُلَّ تَجْرِبَةٍ لَهَا لُغَتُهَا، وَأَنَّ التَّجْرِبَةَ الجَدِيدَةَ لَيْسَتْ إِلاَّ لُغَةً جَدِيدَةً، أَوْ مَنْهَجًا جدِيدًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ اللُّغَةِ "[1]، وَذَاكَ مَا أَدْرَكَهُ شُعَرَاءُ العَصْرِ العَبَاسِيِّ أَيْضًا، فَرَاحُوا، كُلٌّ حَسَب مَوْهِبَتِهِ وَقُدُرَاتِهِ، يَلْتَمِسُونَ الجَدِيدَ الذِّي يَمْتَازُ عَمَّا أَلِفَهُ الذِّينَ قَبْلَهُمْ حَتَّى أَنَّهُمْ كَثِيرًا مَا يَصْطَدِمُونَ بِأَهْلِ اللُّغَةِ، أَوِ المُتَعَصِّبِين لِعَمُودِ الشِّعْرِ التَّقْلِيدِيِّ فَيَنَالُهُمْ مِنْهُمْ العَنَتُ وَالخُصُومَةُ*، لَكِنَّ ذَلِكَ قَلِيلًا مَا يَفُتُّ فِي عَزَائِمِهِمْ، أَوْ يَرُدُّهُمْ عَنِ اخْتِيَارَاتِهِمْ، بَلْ إِنَّهُمْ بَعْدَ زَمَنٍ، اكْتَسَبُوا إِلَى جَانِبِهِمْ مُنَاصِرِينَ وَمُدَافِعِينَ يَتَذَوَّقُونَ شِعْرَهُمْ، وَيَرُدُّونَ عَنْهُمْ أَعْدَاءَهُمْ.

فَـ " لَيْسَ غَرِيبًا أَنْ تَتَمَيَّزَ لُغَةُ الشِّعْرِ المُعَاصِرِ عَنْ لُغَةِ الشِّعْرِ القَدِيمِ، بَلِ الغَرِيبُ أَلَّا تَتَمَيَّزَ عَنْهَا. وَلَوْ أَنَّنَا نَظَرْنَا نَظْرَةً وَاقِعِيَّةً مُحَدَّدَةً إِلَى تَطَوُّرِ اللُّغَةِ مَعَ تَطَوُّرِ الحَيَاةِ وَاخْتِلَافِ التَّجْرِبَةِ أَيْقَنَّا مِنْ سَلَامَةِ مَنْطِقِ الشَّاعِرِ المعَاصِرِ فِي بَحْثِهِ الدَّائِبِ عَنِ اللُّغَةِ الجَدِيدَةِ "[2]، حَيْثُ إِنَّ رُكُودَ اللُّغَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَفَافِهَا وَنُضُوبِ مَعِينِ مُسْتَعْمِلِيهَا، وَفِي حَرَكِيَّتِهِمَا اسْتِمْرَارٌ وَتَجَدُّدٌ يُنْبِئَانِ عَنِ الإِبْدَاعِ فِي المجْتَمَعِ، وَعَنِ التَّفَاعُلِ الحَادِثِ عَلَى أَلْسِنَة أَهْلِهِ.

وَمِنْ ثَمَّ تَصِيرُ اللُّغَةُ فِي الأَدَبِ العَامِلَ الرَّئِيسَ الذِّي يَقَعُ عَلَيْهِ العِبْءُ الأَكْبَرُ فِي نَقْلِ السِّمَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ وَالفِكْرِيَّةِ لمجْتَمعٍ مَا، فَهِيَ " تَحْمِلُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَدْلُولِهَا الأَصْلِيِّ الذِّي وُضِعَتْ لَهُ دَلَالَاتٍ أُخْرَى نَسْتَشِفُّهَا مِنَ السِّيَاقِ الحَضَارِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الذِّي أُنْتِجَ فِيهِ النَّصُّ الأَدَبِيُّ وَاللُّغَةُ الأَدَبِيَّةُ لُغَةٌ مَشْحُونَةٌ بِدَلَالَاتٍ إِضَافِيَّةٍ، وَهِيَ تَطْمَحُ إِلَى تَجَاوُزِ المَدْلُولِ الوَاحِدِ إِلَى المَدْلُولِ المتَعَدِّدِ، وَلِهَذَا نُلَاحِظُ أَنَّ النَّصَّ الأَدَبِيَّ يَقْبَلُ القِرَاءَاتِ العَدِيدَةِ

[1]- الشّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، عزّ الدّين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط3، 1981م، ص174.

* إِشَارَةٌ إِلَى الصّراع الذّي نشب بين شعراء العصر العبّاسيّ (المجدّدون والمحافظون/عمود الشّعر...).

[2]- الشّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص.ن.

دُونَ أَنْ نَسْقُطَ فِي التَّضَارُبِ أَوِ التَّنَاقُضِ شَرِيطَةَ أَنْ لَا (نَقْصِفَ) النَّصَّ بِمَعَارِفَ خَارِجَةٍ عَنْ سِيَاقِهِ أَوْ إِسْقَاطٍ قَسْرِيٍّ لمفَاهِيمَ تُنَاقِضُ طَبِيعَتَهُ "[1].

لِذَلِكَ خَلُصَ مُحَمَّدُ مَفْتَاح إِلَى أَنَّ " المعْجَمَ لِهَذَا وَسِيلَةٌ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ أَنْوَاعِ الخِطَابَاتِ وَبَيْنَ لُغَاتِ الشُّعَرَاءِ وَالعُصُورِ"[2]، فَالكَلِمَاتُ الشِّعْرِيَّةُ مِعْيَارٌ تُقَاسُ بِهِ قُدْرَةُ الإِنْسَانِ عَلَى التَّعَامُلِ مَع الظُّرُوفِ المُخْتَلِفَةِ عَبْرَ الأَزْمِنَةِ المُتَعَاقِبَةِ، إِذْ هِيَ، بِشَكْلٍ مِنَ الأَشْكَالِ، عَلاَمَةٌ عَلَى الحُضُورِ الإِنْسَانِيِّ، بَلْ وَعَلَى دَوَامِ أَثَرِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَهِيَ كَيَانٌ يَسِمُ مَاهِيَّتَهُ وَيُعَزِّزُهَا. حَتَّى أَنَّ بَعْضَهُمْ رَأَى مَاهِيَةَ الشِّعْرِ " تَأْسِيسًا لِلوُجُودِ بِوَاسِطَةِ الكَلاَم "[3]، وَ(لُغَةُ الشِّعْرِ هِيَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ تَفْسِيرٌ لِـ"صَوْتِ الشَّعْب ")[4] يَحْمِلُ مِنْ خِلاَلِهَا إِلَى الآخَرِ رِسَالَةَ كَيْنُونَتِهِ فِي أَجْلَى صُوَرِهَا المُمْكِنَةِ.

فَاللُّغَةُ صُورَةٌ لِحِرَاكٍ دَؤُوبٍ غَيْرِ مُنْقَطِعٍ، يَعْتَرِي المُجْتَمَعَاتِ الحَيَّةَ فِي المُسْتَوَيَاتِ جَمِيعِهَا، لِأَنَّ " الكَلِمَةَ وُجُودٌ وَضَرُورَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ، تُعَبِّرُ عَنْ قِيمَتِهَا وَأَهَمِّيَّتِهَا بِذَاتِهَا مِنْ دُونِ تَبَاطُؤٍ، أَوِ انْحِرَافٍ، وَهِيَ بِهَذَا المفْهُومِ الصُّورَةُ المُثْلَى لِمَقَاصِدِ القَوْمِ وَمَشَاعِرِهِمْ مِنْ أَجْلِ إِثْبَاتِ الحَقِّ...وَبِهَا تَحْفَظُ مَجْمُوعَةَ القِيَمِ التِّي يَتَوَاضَعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، وَمِنْ ثَمَّ تُقَيِّدُ القَوَانِينَ التِّي قَدْ تُوَافِقُ النَّشْأَةَ الأُولَى وَالحَقَّ أَوْ تُخَالِفُهُ "[5]. وَقَدْ رَأَتْ نَازِكْ الملاَئِكَةُ وَهِيَ تُقَارِبُ هذَا المعْنَى بِـ " أَنَّ اللُّغَةَ تَقُومُ عَلَى أُسُسَ صَلْدَةٍ ثَابِتَةٍ مِنَ المنْطِقِ وَالفِكْرِ. وَقَدِ ارْتَبَطَ كُلُّ حَرْفٍ فِيهَا بِحَيَاةِ العَرَبِ الأَقْدَمِينَ وَحَاجَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ وَمَخَاوِفِهِمْ وَتَطَلُّعَاتِهِمْ. وَيُغْرِينَا هَذَا التَّرَابُطُ العَجِيبُ بِأَنْ نَظُنَّ أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الكَلِمَاتِ إِنَّمَا وُجِدَ فِي مَكَانِهِ لِسَبَبٍ مَكِينٍ

[1]- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة – الحضور و الغياب–، م.س، ص36.

[2]- تحليل الخطاب الشّعري(إستراتيجيّة التّناص)، محمّد مفتاح، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء/بيروت، ط3، جويلية 1992م، ص158.

[3]- ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشّعر، مارتن هايدجر، تر: فؤاد كامل عبد العزيز ومحمود رجب السّيّد، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د.ط، 1964م، ص155.

[4]- نفسه، ص162.

[5]- في جماليّة الكلمةُ، حُسين جمعة، م.س، ص17.

مِنَ الأَسْبَابِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالجُغْرَافِيَّةِ "[1]، وَذَلِكَ بَعْضُ مَا تَسْعَى إِلَى كَشْفَهُ عُلُومُ اللُّغَةِ وَاللِّسَانِ الحَدِيثَةُ وَالأَبْحَاثُ المرْتَبِطَةُ بِهَا، بَلْ وَتُثْبِتُهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ.

وَنَازِكْ بِهَذَا، إِنَّمَا تُرَسِّخُ فِكْرَةً دَرَجَتْ عِنْدَ الأَقْدَمِينَ، فَهَاهُوَ صَاحِبُ (الوَسَاطَةِ) يُؤَكِّدُ عَلاَقَةَ اللُّغَةِ بِمُجْتَمَعِهَا حِينَ يَقُولُ: " إِنَّ سَلاَمَةَ اللَّفْظِ تَتْبَعُ سَلاَمَةَ الطَّبْعِ، وَدَمَاثَةَ الكَلاَمِ بِقَدْرِ دَمَاثَةِ الخِلْقَةِ، وَأَنْتَ تَجِدُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ عَصْرِكَ وَأَبْنَاءِ زَمَانِكَ، وَتَرَى الجَافِيَ الجِلْفَ مِنْهُمْ كَزَّ الأَلْفَاظِ، مُعَقَّدَ الكَلاَمِ، وَعْرَ الخِطَابِ، حَتَّى إِنَّكَ رُبَّمَا وَجَدْتَ ذَلِكَ فِي صَوْتِهِ وَنَغْمَتِهِ، وَفِي جَرْسِهِ وَلَهْجَتِهِ. وَمِنْ شَأْنِ البَدَاوَةِ أَنْ تُحْدِثَ بَعْضَ ذَلِكَ، وَلِأَجْلِهِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(مَنْ بَدَا جَفَا). وَلِذَلِكَ تَجِدُ شِعْرَ عَدِيٍّ – وَهُوَ جَاهِلِيٌّ – أَسْلَسَ مِنْ شِعْرِ الفَرَزْدَقِ وَرَجْزِ رُؤْبَةَ وَهُمَا آهِلاَنِ، لمُلاَزَمَةِ عَدِيٍّ الحَاضِرَةَ وَإِيطَانِهِ الرِّيفَ، وَبُعْدِهِ عَنْ جَلاَفَةِ البَدْوِ وَجَفَاءِ الأَعْرَابِ، وَتَرَى رِقَّةَ الشِّعْرِ أَكْثَرَ مَا تَأْتِيكَ مِنْ قِبَلِ العَاشِقِ المتَيَّمِ، وَالغَزِلِ المتَهَالِكِ، فَإِنِ اتَّفَقَتْ لَكَ الدَّمَاثَةُ وَالصَّبَابَةُ، وَانْضَافَ الطَّبْعُ إِلَى الغَزَلِ، فَقَدْ جُمِعَتْ لَكَ الرِّقَّةُ مِنْ أَطْرَافِهَا "[2].

وَلِذَلِكَ، فَـ " إِنَّ التَّعَرُّضَ لِقَضِيَّةِ اللُّغَةِ بِصَدَدِ الحَدِيثِ عَنِ الشِّعْرِ يَتَطَلَّبُ مِنَّا البَحْثَ عَنْ عَلاَقَةِ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ بِالوَاقِعِ الذِّي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَالوَاقِعِ الذِّي تَصْدُرُ عَنْهُ، وَعَلاَقَةُ اللُّغَةِ بِالوَاقِعِ تَقْتَضِي مَعًا البَحْثَ فِي كُلٍّ مِنَ الوَاقِعِ وَاللُّغَةِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءَ، هَلِ اللُّغَةُ فِي نَفْسِ المُسْتَوَى الذِّي هُوَ عَلَيهِ الوَاقِعُ، أَيْ هَلْ هُنَاكَ عَلاَقَةُ تَسَاوِي بَيْنَ اللُّغَةِ وَالوَاقِعِ؟ أَمْ أَنّ اللُّغَةَ تَتَعَالَى عَلَى الوَاقِعِ وَتَتَجَاهَلُهُ؟ مَا هِيَ الكَلِمَاتُ التِّي تُعَبِّرُ بِهَا عَنْ هَذَا الوَاقِعِ؟ "[3]. تِلْكَ مَجْمُوعَةُ أَسْئِلَةٍ مِحْوَرِيَّةٍ يَضَعُنَا أَمَامَهَا حُسَيْنُ خُمْرِي، بِكُلِّ مَا تَسْتَدْعِيهِ مِنِ احْتِمَالاَتٍ وَقِرَاءَاتٍ لِلوَاقِعِ وَاللُّغَةِ التِّي بِهَا وَفِيهَا يُعَبِّرُ وَيَتَفَاعَلُ.

[1]– الشّاعر و اللّغة، نازك الملائكة، م.س، ص58.

[2]– الوَسَاطةُ بينَ المتنبّي وخُصُومِه، القاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ، م.س، ص18.

[3]– الظّاهرة الشّعريّة العربيّة – الحضور و الغياب– دراسة، م.س، ص40.

فَلِلبِيئَةِ تَأْثِيرُهَا عَلَى طَبِيعَةِ اللُّغَةِ التِّي يُنْتِجُهَا المجْتَمَعُ مِنْ حَيْثُ سَلاَسَتُهَا وَلِينُهَا أَوْ خُشُونَتُهَا وَجَفَاؤُهَا. وَهَا هُوَ الجُرْجَانِيُّ يُعَزِّزُ مَذْهَبَهُ ذَاكَ قَائِلاً بِأَنَّهُ " لَمَّا ضَرَبَ الإِسْلاَمُ بِجِرَانِهِ، وَاتَّسَعَت مَمَالِكُ العَرَبِ، وَكَثُرَتِ الحَوَاضِرُ، وَنَزَعَتِ البَوَادِي إِلَى القُرَى، وَفَشَا التَّأَدُّبُ وَالتَّظَرُّفُ اخْتَارَ النَّاسُ مِنَ الكَلاَمِ أَلْيَنَهُ وَأَسْهَلَهُ، وَعَمِدُوا إِلَى كُلِّ شَيْءٍ ذِي أَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ اخْتَارُوا أَحْسَنَهَا سَمْعًا، وَأَلْطَفَهَا مِنَ القَلْبِ مَوْقِعًا، وَإِلَى مَا لِلعَرَبِ فِيهِ مِنْ لُغَاتٍ فَاقْتَصَرُوا عَلَى أَسْلَسِهَا وَأَشْرَفِهَا، كَمَا رَأَيْتَهُمْ يَخْتَصِرُونَ [أَلْفَاظَ] الطَّوِيلِ، فَإِنَّهُمْ وَجَدُوا لِلعَرَبِ فِيهِ نَحْوًا مِنْ سِتِّينَ لَفْظَةً، أَكْثَرُهَا بَشِعٌ شَنِعٌ،[...]، فَنَبَذُوا جَمِيعَ ذَلِكَ وَتَرَكُوهُ، وَاكْتَفُوا بِالطَّوِيلِ لِخِفَّتِهِ عَلَى اللِّسَانِ، وَقِلَّةِ نُبُوِّ السَّمْعِ عَنْهُ. وَتَجَاوَزُوا الحَدَّ فِي طَلَبِ التَّسْهِيلِ حَتَّى تَسَمَّحُوا بِبَعْضِ اللَّحْنِ، وَحَتَّى خَالَطَتْهُمْ الرَّكَاكَةُ وَالعُجْمَةُ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِينُ الحَضَارَةِ وَسُهُولَةُ طِبَاعِ الأَخْلاَقِ "[1]، فَمَا مَجَّتْهُ الأَسْمَاعُ، وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ الأَذْوَاقُ فَقَدَ أَسْبَابَ اسْتِمْرَارِهِ، وَانْتَفَتْ أَوْجُهُ اسْتِمرَائِهِ، كَوْنَ " لُغَةِ النَّصِّ لُغَةٌ مُتَفَاعِلَةٌ، لَيْسَتْ خَامِدَةً، ولَا تَكُفُّ عَنِ الحَرَكَةِ:لاَ تَكُفُّ عَنْ اسْتِيعَابِ دَلاَلاَتٍ وَمَضَامِينَ جَدِيدَةً، وَإِفْرَازِ أَبْنِيَةٍ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ، تَتَطَلَّبُ وَصْفًا دِينَامِيًّا يُوَاكِبُ تِلْكَ القُدْرَةَ وَلاَ يَحُدُّهَا "[2]. فَمِنْ أُصُولِ الشِّعْرِيَّةِ أَنَّ النَّصَّ عَالَمٌ مُنْفَتِحٌ " يَقْبَلُ التَّمَاهِي مَع العَوالِمِ المُختَلِفَة لِلمُتَلَقِّينَ فِي البَيْئَاتِ وَالعُصُورِ المتَتَالِيَةِ، بِحَيْثُ يُصْبِحُ (خُلُودُ النَّصِّ) تَرْجَمَةً لانْفِتَاحِهِ وَإِنْسَانِيَّتِهِ وَخُصُوبَتِهِ الجَمَالِيَّةِ "[3]، التِّي يُطَعِّمُهَا بِهَذَا التَّلاَقُحِ وَالدِّينَامِيكِيَّةِ.

وَإِذْ عَلَى لُغَةِ الأَدِيبِ أَنْ تَكُون شَخْصِيَّةً لِأَنَّ أُسْلُوبَهُ صِفَةٌ عَقْلِيَّةٌ مُتَحَقِّقَةٌ فِيهَا، فَإِنَّنَا نَجِدُهُ مَعَ ذَلِكَ " يَسْتَخْدِمُ اللُّغَةَ السَّائِدَةَ فِي مُجْتَمَعِهِ، وَهُوَ لِكَيْ يُوصِلَ فِكْرَتَهُ أَوْ شُعُورَهُ إِلَى الآخَرِينَ مُضْطَرٌّ لِأَنْ يَسْتَخْدِمَ هَذِهِ (العُمْلَةَ) التِّي يَتَعَامَلُ بِهَا النَّاسُ. فَكَيْفَ يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ

[1]– الوساطة بين المتنبّي وخصومه، م س، ص18.

[2]– عِلمُ لغَةِ النَّصّ – المفاهيم والاتّجاهات، سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشّركة العالميّة للنّشر– لونجمان، ط1، 1997م، ص50.

[3]– أشكال التّخييل – من فتات الأدب والنّقد، صلاح فضل، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، دار نوبار للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1997م، ص112.

نَقُولَ أَنَّ لُغَةَ الأَدِيبِ لُغَةٌ شَخْصِيَّةٌ صِرْفٌ، وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ يَسْتَخْدِمُ لُغَةَ الآخَرِينَ كَذَلِكَ، أَوْ – عَلَى الأَقَلِّ – مَا يَفْهَمُهُ الآخَرُونَ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ؟

أَمَّا أَنَّ الأَدِيبَ يَسْتَخْدِمُ اللُّغَةَ السَّائِدَةَ فَهَذَا لاَ شَكَّ فِيهِ، بِدَلِيلِ أَنَّنَا لاَ نَجِدُ أَدِيبًا فِي القَرْنِ العِشْرِينَ يَسْتَخْدِمُ لُغَةَ القُرُونِ الوُسْطَى. وَأَمَّا أَنَّ لُغَةَ الأَدِيبِ شَخْصِيَّةٌ فَهَذَا لاَ شَكَّ فِيهِ كَذَلكَ، بِدَلِيلِ أَنَّنَا نَجِدُ لِكُلِّ أَدِيبٍ أُسْلُوبَهُ الخَاصَّ الذِّي تُمَيِّزُهُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الأُدَبَاءِ، وَيَبْقَى أَنْ يَلْتَقِي هَذَانِ الطَّرَفَانِ، فَيَتَمَثَّلُ فِي الأُسْلُوبِ العَظِيمِ الجَانِبَانِ الشَّخِصِيَّ وَاللاَّشَخْصِيَّ "[1]، الذِّي نُسَمِّيهِ بِالنِّهَايَة:اللُّغَةَ أَوِ الأُسْلُوبَ الأَدَبِيَّ، المُتَجَدِّدَ مَعَ كُلِّ أَدِيبٍ وَكُلِّ بِيئَةٍ.

وقَدْ لاَ نَسْتَوْعِبُ هَذِهِ المُعَادَلَةَ القَائِمَةَ عَلَى العَلاَقَةِ التَّبَادُلِيَّةِ بَيْنَ اللُّغَةِ فِي مُسْتَوَيَيْهَا: الشَّخْصِيِّ وَالجَمْعِيِّ نَتِيجَةً لِرَوَاسِبِ تَفْكِيرِنَا القَدِيمِ فَنَسْتَنْكِرُ " أَنْ تَكُونَ اللُّغةُ نَابضَةً بِرُوحِ العَصْرِ وَشِعْرِيَّةً فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ. وَلَكِنَّنَا الآنَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ أَنَّهَا لَا تَكُونُ لُغَةً شِعْرِيَّةً بِحَقٍّ إِلاَّ عِنْدَمَا تَكُونُ نَابِضَةً بِرُوحِ العَصْرِ. وَلَيْسَ مِنَ اليَسِيرِ عَلَى الشَّاعِرِ الذِّي تَرَبَّى ذَوْقُهُ عَلَى شِعْرِ عَصْرٍ آخَرَ لَهُ لُغَتُهُ الخَاصَّةُ وَنَبْضُهُ الخَاصُّ أَنْ يَقُولَ الشِّعْرَ بِلُغَةِ عَصْرِهِ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ فِي البِدَايَةِ إِلَى عَمَلِيَّة تَخَلٍّ عَنِ القَوَالِبِ وَالصِّيَغِ التَّعْبِيرِيَّةِ القَدِيمةِ لِكَيْ يَسْتَكشِفَ القَوَالِبَ وَالصِّيَغَ الجَدِيدَةَ التِّي تَحْمِلُ نَبْضَ العَصْرِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا. وَلَيْسَتْ هَذِهِ بِالعَمَلِيَّةِ الهَيِّنَةِ، لِأَنَّ اسْتِكْشَافَ لُغَةٍ جَدِيدَةِ العَصْرِ هِيَ بِمَثَابَةِ خَلْقٍ لِهَذِه اللُّغَةِ.."[2]، يُمَارِسُه المُبدِعُ بِوَعْيٍ، وَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ تَتَمَيَّزَ لُغَتُهُ دَاخِلَ اللُّغَةِ المُسْتَعملَةِ فِي زَمَنِهِ دُونَمَا أَنْ يَعْنِي ذَلِكَ انْفِصَالَهُ وَتَخَلِّيهِ عَنْهَا، أَوْ أَنْ تَعْكِسَ طَرِيقَتُهُ تَنَاقُضًا بَيْنَ (اللُّغتَيْنِ)، إِنْ جَازَ لنَا التَّعْبِيرُ، فَـ " ذَلِكَ كُلُّهُ يَكَادُ يَجْرِي فِي مَيْدَانٍ لُغَوِيٍّ وَاحِدٍ يَتَمَسَّكُ بِمُقَوِّمَاتِ اللُّغَة الأُمِّ وَلَا يُفرِّطُ بِهَا مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى بَقَاء بَصَمَاتِ التُّرَاثِ اللُّغويِّ شَاخِصَةً فِيمَا يَلِي مِن أَجْيالٍ وبِظُهُورٍ مِنْ

[1]– الأدب و فنونه، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص24.

[2]– الشّعر العربيّ المعاصر، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص178.

أَسَالِيبِ الكَلاَمِ "[1]، التِّي تَعُودُ إِلَى السَّطْحِ بِصِيغَةٍ خَفِيَّةٍ مَبْثُوثَةٍ فِي لُغَةِ الشَّاعِرِ الفَذِّ، الذِّي يَخْلُقُ بِهَا عَالَمَهُ اللُّغوِيَّ المُسْتَجِدَّ وَيَتَمَيَّزُ فِيهِ وَبِهِ.

فَعَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَبذُلَ قُصَارَى جُهْدِهِ فِي تَحْقِيقِ تَمَيُّزِهِ وَإِثْبَاتِ ذَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِمَقدُورِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مِنْ خَارِجِ لُغَةِ مُجتَمَعِهِ، بِهَا يَبْعَثُ مَا فِيهَا مِنْ طَاقَةٍ وَتَكْثِيفٍ لِيَجْعَلَهَا لُغَةَ إِبْدَاعٍ، " وَمِنْ هُنَا يَبْدُو أَنَّنَا نَتَطلَّبُ فِي لُغَةِ الشِّعْرِ أَلاَّ تَكُونَ هِيَ لُغَةَ النَّاسِ وَأَنْ تَكُونَ لُغَتَهُمْ فِي آنٍ وَاحِدٍ. وَفِي هَذَا تَنَاقُضٌ ظَاهِرٌ، وَلَكِنَّ الحَقِيقَة أَنَّ لُغَةَ الشِّعْرِ هِيَ دَائِمًا كَذَلِكَ، وَهَذَا التَّنَاقُضُ الظَّاهِرُ هُوَ سِرُّ الشِّعْرِ فِيهَا..

عَلَى أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ بِشَيءٍ مِنْ إِمْعَانِ النَّظَرِ أَنْ نَحُلَّ هَذَا التَّنَاقُضَ الظَّاهِرِيَّ حِينَ نَعُودُ إِلَى فِكْرَةِ نَبْضِ العَصْرِ، فَلُغَةُ الشِّعْرِ تُخَاطِبُ النَّاسَ بِمَا تَحْمِلُ مِنْ هَذَا النَّبْضِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ مِنْ حَيْثُ هِيَ لُغَةٌ عَنْ لُغَةِ النَّاسِ اليَوْمِيَّة.. "[2]، إِذْ هِي جُهْدٌ فَرْدِيٌّ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ يَتَأَسَّسُ لاَ عَلَى أَنْقَاضِ لُغَةِ الجَمَاعَةِ بَلْ فِي أَحْضَانِهَا يَشْتَغِلُ وَيَنْهَضُ. فَالكَلامُ كَعَمَلِيَّةٍ فَرِدِيَّةٍ لَيْسَ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ عَنْ مُحِيطِهِ، أَخْذًا وَعَطَاءً، يَخْضَعُ حِينًا وَ(يَتَنَازَلُ) لَهُ، وَيُقَاوِمُهُ حِينًا آخَرَ فَيَرُدُّ إِمْلاَءَاتِهِ، بَلْ وَيَذهَبُ إِلَى فَرْضِ الكَلِمَةِ وَالكَلِمَاتِ المبْتَكَرَةِ عَلَى جَمَاعَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ، التِّي تَسْتَسِيغُهَا مِنْ خِلاَلِ الإِبْدَاع فَتُنْزِلُهَا مَنَازِلَهَا.

فَالشِّعْرُ لَيْسَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُجَدِّدَ خِطَابَهُ إِلاَّ بِتَجْدِيدِ لُغَتِهِ، وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ إِلاَّ فِي أَحْضَانِ اللُّغَةِ التِّي دَرَجَتْ عَلَى أَلْسِنَة قَوْمِه، لِأَنّ الحَرَكَةَ الشِّعْرِيَّةَ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْطَعَ أَشْوَاطَ الصِّلَةِ بِجُذُورِ التُّرَاثِ الأَدَبِيِّ، فَهُوَ يُمَثِّلُ الأَصَالَةَ التِّي تُعْطِي لِلْقَصِيدَةِ هُوِيَّتَهَا. لِذَلِكَ نَجِدُ رُوحَ الحَضَارَةِ أَثَرًا مُنعَكِسًا بِجَلاَءٍ عَلَى اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ لِكُلِّ عَصْرٍ، فَلَقَدْ كَانَ لِلُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيم أَثَرٌ فِي لُغَةِ شُعَرَاءِ صَدْرِ الإِسْلاَمِ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، انْعَكَسَ عَلَى الأَلْفَاظِ وَدَلاَلاَتِ تِلْكَ اللُّغَةِ إِذْ بَدَأَ الشَّاعِرُ يَسْتَعْمِلُ مُفْرَدَاتِهَا وَدَلالاَتِهَا فِي رَسْمِ صُوَرِهِ

[1]- اللّغة في شعر أبي إسحاق إبراهيم الألبيري، م.س، ص236.

[2]- الشّعر العربيّ المعاصر...، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص179.

الشِّعْرِيَّةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا[1]. وَهَذَا مُنْطَبِقٌ أَيْضًا عَلَى العُصُورِ التِّي تَلِيهِ كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ لُغَةِ الشِّعْرِ العَبَّاسِيّ بِجَوانِبَ ثَقَافِيّةٍ وَبَيْئِيّةٍ وَحَيَوِيَّةٍ تَفَاعَلتْ فِي هَذَا العَصْرِ خَالِقَةً تِلْكَ اللُّغَةَ الجَدِيدَةَ المَوْسُومَةَ بِخَصَائِصِ مُحِيطِهَا. وَلمَّا كَانَ " لِلُغَةِ الشِّعْرِ فِي كُلِّ عَصْرٍ دَلَالَةٌ عَلَى حَيَاتِهِ العَقْلِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيّةِ "[2]، كَانَ اسْتقْرَاؤُهَا اسْتِنْبَاطًا لِصُورَةِ العَصْرِ بِجُزْئِيَاتِهَا وَمَلاَمِحِهَا كَافَّةٍ.

نَتَّفِقُ إِذَنْ، أَنَّ لِكُلِّ مُبْدِعٍ طَرِيقَتُهُ فِي اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ وَتَطْوِيعِهَا خِدْمَةً لِفِكْرَتِهِ، وَإِلاَّ كَانَ كُلُّ مَا يُكْتَبُ مُتَشَابِهًا مُكَرَّرًا، وَاقِعًا فِي التَّقْلِيدِ، لاَ رُوحَ إِبْدَاعٍ فِيهِ، إِنْ لَمْ نَقُلْ إِنَّهُ قَاتِلٌ لَهُ فَـ" الأَدِيبُ لَا يُرَكِّبُ الجُمْلَةَ لِيُعَبِّرَ بِهَا عَنْ مَعْنًى تَقْرِيرِيٍّ مَأْلُوفٍ. وَإِنَّمَا يَتَعَامَلُ مَعَ اللُّغَةِ بِطَرِيقةٍ تُفَجِّرُ فِيهَا خَوَاصَّ التَّعْبِيرِ الأَدَبِيِّ، وَتَجْعَلُ لِلْعِبَارَاتِ وَالأَنْسَاقِ وَالجُمَلِ قُوَّةً، تتعدَّى الدَّلاَلَةَ المبَاشِرَةَ، وَتَنقُلُ الأَصْلَ إِلَى المجَازِ، لِتَفِيَ بِحَاجَةِ الفَنِّ فِي التَّعبِيرِ وَالتَّصْوِيرِ"[3].

إِذْ ذَاكَ، يَكُونُ لِزَامًا عَلَى كُلِّ دَارِسٍ لِنِتَاجٍ أَدَبِيٍّ مَا أَنْ يُعِيرَ اللُّغَةَ اهْتِمَامًا خَاصًّا عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهَا المُكَوِّنُ الذِّي عَلَى أَسَاسِهِ يَرْتَفِعُ العَمَلُ، وَعَلَى قَوَاعِدِهِ تَتَهَيَّأُ أُولَى إِرْهَاصَاتِهِ وَمَبَانِيهِ، وَقَدْ يَتَأَتَّى لَهُ ذَلِكَ بِأَشْكَالَ وَوَسَائِطَ مُخْتَلِفَةٍ كَـ " أَنْ يَقُومَ بِدِرَاسَةِ المَعْجَمِ الشِّعْرِيِّ فِي إِبْدَاعِ مُبْدِعٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الأَعَمُّ وَالأَشْمَلُ، وَقَدْ تَتَوَسَّعُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ لِتَشْمَلَ إِبْدَاعَاتِ عِدَّةَ مُبْدِعِينَ مُخْتَلِفِينَ يَنْتَمُونَ إِلَى عَصْرٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ وَاحِدٌ وَيَعِيشُونَ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ، كَمَا يَجُوزُ دِرَاسَتُهُ فِي إِبْدَاعَاتِ مُبْدِعِينَ يَنتَمُونَ إِلَى أَجْيَالَ مُخْتَلِفَةٍ وَلَكِنْ يَجْمَعُهُمْ أَمْرٌ فَنِيٌّ وَاحِدٌ كَمَطَالِعِ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ، التِّي اتَّخَذَتْ لَهَا مَعْجَمًا فَنِيًّا وَاحِدًا ظَلَّ سَائِدًا قُرُونًا مُتَطَاوِلَةً "[4]. وَبَعْضُ هَذَا هُوَ مَا سَنَعْمَلُ عَلَى تِبْيَانِهِ وَتَحْلِيلِهِ مِنْ خِلاَلِ دِرَاسَةِ المعْجَمِ الشِّعْرِيِّ لَدَى أَبِي العَتَاهِيَّةِ.

---

[1]- يُنظر:اللّغة في شعر أبي إسحاق إبراهيم الألبيري، م.س، ص235.

[2]- اتّجاهات الشّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ، محمد مصطفى هدارة، مكتبة الدّراسات الأدبيّة ،دار المعارف، مصر، دت، دط، ص583.

[3]- جماليّات القصيدة المعاصرة، وادي طه، مطبعة دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1989م، ص25.

[4]- بنية الخطاب الشّعريّ – دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية، عبد المالك مرتاض، دار الحداثة للطّبع والنّشر والتّوزيع، لبنان، ط1، 1986م، ص246.

3- المعْجَمُ الشِّعْرِيُّ:

وَحَيْثُ تَأَكَّدَ لَنَا مِـمَّا سَبَقَ مَا لِلُّغَةِ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ فِي بِنَاءِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ، فَلاَ يُمْكِنُ، إِذَنْ، بِأَيَّةِ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ، الوُلُوجُ إِلَيْهِ فِي مَعْزِلٍ عَنْ هَذِهِ اللُّغَةِ، إِذْ " إِنَّ كُلَّ مُفْرَدَةٍ – فِي اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ – هِيَ عَامِلٌ شِعْرِيٌّ. يَتَضَمَّنُ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَعْنَاهُ، قِيمَةً تَعْبِيرِيَّةً تَتَجَاوَزُهُ، بِوَصْفِهَا نَاجِمَةً عَنِ العَلاَقَاتِ القَائِمَةِ بَيْنَ الأَلْفَاظِ المُـــفْرَدَةِ، وَمَظْهَرِهَا، وَمَعْنَاهَا وَحَرَكَتِهَا، وَعِنْدَمَا نَقُولُ بِالاغْتِصَابِ الوَاعِي لِلُّغَةِ، فَنَحْنُ نَعْنِي المَعْرِفَةَ المُـــرَكَّبَةَ لِقَوَانِينِهَا، بِوَصْفِهَا أَدَاةَ تَعْبِيرٍ خَالِصٍ، وَطَاقَةً مُحَرِّكَةً لِلتَّعْبِيرِ، تُحِيلُ اللُّغَةُ المُفْرَدَةَ فِعْلًا فِي نِطَاقِ الصُّـــورَةِ الشِّـــعْرِيَّةِ "[1]. فَالكَلِمَاتُ قَبْلَ التَّرْكِيبِ " لَا يَخْتَصُّ بِهَا أَحَدٌ دُونَ آخَرَ، وَإِنَّمَا تَأْتِي الخُصُوصِيَّةُ دُونَ دُخُولِ المُفْرَدَةِ فِي تَرْكِيبٍ أَوَّلًا ثُمَّ دُخُولُ التَّرْكِيبِ فِي سِيَاقٍ ثَانِيًا "[2]، وَهُوَ مَا يُؤَكِّدُ عَلَى دَوْرِ المُبْدِعِ فِي انْتِقَاءِ مَعْجَمِهِ لِيُمَثِّلَ تَمَيُّزَهُ وَالطَّاقَةَ الإِبْدَاعِيَّةَ التِّي بِاسْتِطَاعَتِهِ تَوْلِيدَهَا مِنْهُ.

عَلَى أَنَّنَا مُطَالَبُونَ قَبْلَ ذَلِكَ بِتَوَخِّي الحَذَرِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ اللُّغَةِ لِأَنَّ مُعْظَمَ الدِّرَاسَاتِ التِّي اهْتَمَّتْ بِهَا طَبَّقَتْ عَلَيْهَا مَنَاهِجَ مَنْطِقِيَّةً صَارِمَةً بِدَاعِي الالْتِزَامِ بِالعِلْمِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ إِلَى حَصْرِهَا فِي بُعْدٍ مَنْهَجِيٍّ أُحَادِيِّ النَّظَرِ، لَمْ يُنْتِجْ سِوَى لُغَةٍ وَاصِفَةٍ لِلُّغَةِ، الأَمْرُ الذِّي اخْتَزَلَ مَاهِيَّتَهَا، وَحَوَّلَهَا إِلَى مُجَرَّدِ تَصَامِيمَ وَرُسُومٍ وَمُخَطَّطَاتٍ حِسَابِيَّةٍ قَاصِرَةٍ[3]، سَنَبْذُلُ قُصَارَى جَهْدِنَا فِي هَذَا العَمَلِ كَيْ لاَ نَقَعَ فِي مَحَاذِيرِهَا.

هَكَذَا إِذَنْ ستَكُونُ الغَايَةُ مِن دِرَاسَةِ المعْجَمِ الشِّعْرِيِّ مُسَاعَدَةُ القَارِئِ عَلَى " فَهْمِ عَالَمِ الشَّاعِرِ وَتَحْدِيدِ ثَقَافَتِهِ وَإِيدْيُولُوجِيَّتِهِ ورُؤْيَتِهِ لِمَا حَوْلَهُ وَيتَجَلَّى هَذَا فِي قُدْرَةِ المبْدِعِ عَلَى تَشْعِيرِ الكَلِمَاتِ وَشَحْنِهَا بِطَاقَاتٍ جَدِيدَةٍ قَادِرَةٍ عَلَى انْعِكَاسِ عَالَمِهِ لَدَى القَارِئِ "[4].

---

[1]- الاتّجاهات الجديدة في الشّعر العربيّ المعاصر، عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط1، 1980م، ص336.

[2]- قراءات أسلوبية في الشّعر الحديث، محمّد عبد المطّلب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1995م، ص170.

[3]- ينظر: هيدجر والميتافيزيقا مقاربة تُربة التّأويل التّقنيّ للفكر، محمّد طوّاع، م.س، صص61،62.

[4]- شِعرُ إبراهيم ناجِي- دراسة أسلوبيّة بنائيّة، شريف سعد الجيّار، م.س، ص187.

فَالإِحَاطَةُ بِهَذِهِ الجَوَانِبِ مَعًا، تُعْطِينَا صُورَةً أَكْثَرَ وُضُوحًا عَنْ إِمْكَانِيَاتِ الشَّاعِرِ اللُّغَوِيَّةِ، وَكَيْفِيَّةِ صِيَاغَةِ مَعْجَمِهِ خِدْمَةً لِلْخِطَابِ الذِّي سيَكْتَنِزُهُ وَيَحْتَوِيهِ. وَمِنْ ثَمَّ مَعْرِفَةُ حَجْمِ الثَّرْوَةِ اللَّفْظِيَّةِ لَدَى المُبْدِعِ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ فِيهَا حَتَّى تَصِيرَ عِنْدَهُ، بَعْدَ طُولِ مِرَاسٍ، ذَاتَ خُصُوصِيَّةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ، وَبِيَدِ النَّاقِدِ وَسِيلَةَ تَمِيزٍ لِأَلْوَانِ الخِطَابَاتِ.

وَإِذَا كَانَ الثَّرَاءُ المعْجَمِيُّ لِيَكُونَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ المبْدِعِينَ عَلَى نَحْوٍ مُتَقَارِبٍ، فَإِنَّ كَيْفِيَّةَ اسْتِخْدَامِه هِي التِّي تَمْنَحُ المعْجَمَ الشِّعْرِيَّ ذَاتِيَّتَهُ وَاسْتِقْلاَلِيَّتَهُ التيِّ تَتَحَقَّقُ مِنْ خِلاَلِ قُدْرَةِ المُبْدِعِ عَلَى تَفْجِيرِ الطَّاقَاتِ الكَامِنَةِ فِي اللَّفْظَةِ، فَتَتَحَوَّلُ هَذِهِ الأَلْفَاظُ المُشْبَعَةُ بِالدَّلاَلاَتِ الجَدِيدَةِ إِلَى خِصِّيصَةٍ مِنَ خَوَاصِّ أُسْلُوبِهِ الشِّعْرِيِّ، وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يَقُولُ مُحَمَّدُ مَفْتَاحْ: " فَإِذَا مَا وَجَدْنَا نَصًّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَلَمْ نَسْتَطِعْ تَحْدِيدَ هُوِيَّتِهِ بَادِئَ الأَمْرِ فَإِنَّ مُرْشِدَنَا إِلَى تِلْكَ الهُوِيَّةِ هُوَ المعْجَمُ بِنَاءً عَلَى التَّسْلِيمِ بِأَنَّ لِكُلِّ خِطَابٍ مَعْجَمَهُ الخَاصَّ بِهِ، إِذْ لِلشِّعْرِ الصُّوفِيِّ مَعْجَمَهُ، وَلِلمَدْحِيِّ مَعْجَمَهُ وَلِلْخَمْرِيِّ مَعْجَمَهُ... فَالمعْجَمُ، لِهَذَا، وَسِيلَةٌ لِلتَّمْيِّيزِ بَيْنَ أَنْوَاعِ الخِطَابَات وَبَيْنَ لُغَاتِ الشُّعَرَاءِ وَالعُصُورِ، وَلَكِنَّ هَذَا المعْجَمَ يَكُونُ مُنْتَقًى مِنْ كَلِمَاتٍ يَرَى الدَّارِسُ أَنَّهَا هِيَ مَفَاتِيحُ النَّصِّ أَوْ مَحَاوِرُهُ التِّي يَدُورُ عَلَيْهَا "[1]، بِهَا يَسْتَرْشِدُ فِي تَحْدِيدِ كَثِيرٍ مِنَ المَسَائِلِ المُتَعَلِّقَةِ بِخِطَابِ شَاعِرٍ مَا، وَخِطَابِ عَصْرِهِ مِنْ بَابٍ أَعَمَّ.

لِذَلِكَ لَيْسَ غَرِيبًا أَنْ نَجِدَ طَهَ حُسَيْن وَهُوَ يَقْرَأُ أَبْيَاتًا لِأَبِي نَوَّاسٍ يُنَبِّهُ إِلَى مَا لِدَلاَلَةِ اللَّفْظِ عَلَى العَصْرِ الذِّي وُلِدَتْ فِيهِ، وِلاَدَةً حَقِيقِيَّةً أَوْ عَنْ طَرِيقِ التَّدْوِيرِ وَإِعَادَةِ الاسْتِخْدَامِ، فَيُعَلِّقُ عَلَيْهَا قَائِلاً:" أَتُرِيدُ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الشِّعْرِ دَلاَلَةً عَلَى مَا كَانَ يَمْتَازُ بِهِ هَذَا العَصْرُ فِي حَيَاتِهِ المَادِيَّةِ وَالمعْنَوِيَّةِ، بَلْ فِي تَصَوُّرِهْ وَشُعُورِهِ، وَتَعْبِيرِهِ عَنْ هَذَا التَّصَوُّرِ وَالشُّعُورِ! عَوَاطِفُ حُرَّةٌ يَصِفُهَا كَلاَمٌ حُرٌّ، وَمَعَانٍ سَهْلَةٌ مَأْلُوفَةٌ لَمْ يَبْحَثْ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَلَمْ يُطِلِ البَحْثَ، وَإِنَّمَا وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ، فَأَظْهَرَهَا فِي لَفْظٍ لَمْ يَتَكَلَّفْ تَخَيُّرَهُ وَلاَ نَظْمَهُ وَلاَ تَنْسِيقَهُ.

[1]- تحليل الخطاب الشّعري، م.س، ص58.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ هَذَا العَصْرَ إِنَّمَا كَانَ يَمْتَازُ فِي حَيَاتِهِ الأَدَبِيَّةِ بِخِلاَلٍ أَرْبَعٍ:الشَّكُّ، وَالمُجُونُ وَحُرِّيَّةُ العَوَاطِفِ، وَسُهُولَةُ اللَّفْظِ "[1]، وَالخُلَّةُ الرَّابِعَةُ هَذِهِ هِيَ التِّي وَقَفَ عِنْدَهَا نُقَّادُ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ مُطَوَّلاً مُحَاوِلِينَ إِثْبَاتَ مَا لِلَّفْظِ السَّمْحِ مِنْ أَثَرٍ فِي الصِّيَاغَةِ، وَمِنْ هَؤُلاَءِ بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ الذِّي يَقُولُ فِي صَحِيفَتِهِ نَاصِحًا بَعْضَ طَلَبَةِ العِلْمِ بِاللَّفْظِ الذِّي: " مَهْمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَن يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا، وَخَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا، وَكَمَا خَرَجَ مِن يَنْبُوعِهِ، وَنَجَمَ مِنْ مَعْدَنِهِ. وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ، فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ، وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ، وَيُشِينُ أَلْفَاظَكَ. وَمَنْ أَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا، فَلْيَلتَمِسْ لَهُ لَفظًا كَرِيمًا "[2]. فَإِنْ كَانَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ آثَرُوا الغُمُوضَ وَالتَّعْقِيدَ، فَإِنَّ كَثِيرِينَ غَيْرُهُمْ كَانَ دَيْدَنُهُمْ السُّهُولَةُ وَمُسَايَرَةِ الطَّبْعِ، وَالحَيَاةَ العَامَّةَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، وَقَدْ كَانَ ذَاكَ عَصَبَ الإِبْدَاعِ وَمَدَارَهُ وَقْتَهَا. " بَيْدَ أَنّ السُّهُولَةَ لاَ تَجِدُ لَهَا نَصِيرًا أَسْوَأَ مِنْ أُولَئِكَ الذِّينَ يَجْعَلُونَهَا وَحْدَهَا أَسَاسَ البَلاَغَةِ وَمِحْوَرَهَا، وَيَقُولُونَ إِنَّهَا هِيَ دُونَ المَعْنَى كُلُّ مَا يُطْلَبُ مِنَ الشِّعْرِ الرَّائِقِ وَالنَّثْرِ المُسْتَعْذَبِ"[3]، فَيَجِبُ أَلاَّ تُغْرِقَنا السُّهُولَةُ فِي الابْتِذَالِ، أَوْ تَرْهَنَ العَمَلَ الأَدَبِيَّ لِلَّفْظِ المُسْتَهلَكِ.

وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَنْسَى، حِينَ نَضَعُ أَنْفُسَنَا فِي أَجْوَاءِ العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، عَصْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، أَنَّنَا فِي زَمَنٍ صَارَتْ قَضِيَّةُ اللَّفْظِ وَالمَعْنَى مَدَارَ الصِّرَاعِ عِنْدَ المُتَكَلِّمَةِ وَالشُّعَرَاءِ وَالنُّقَّادِ، وَيَكْفِي أَنْ نَذْكُرَ (المُوَازَنَةَ) وَ(الأَسْرَارَ) وَ(الإِعْجَازَ) وَ(البَدِيعَ) وَ(البَيَانَ وَالتَّبْيِيِّنَ) وَ(الوَسَاطَةَ)، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ، لِنَعْلَمَ التَّشَعُّبَاتِ التِّي سَارَتْ فِيهَا، وَالمَنَاحِي التِّي افْتَرَقَتْ إِلَيْهَا، وَالتِّي كَانَتْ أَبْرَزُهَا مُمَثَّلَةً فِي النَّقِيضَيْنِ: اليُسْرُ وَالتَّعْقِيدِ، بَيْنَ الذِّينَ سَارُوا عَلَى (طَرِيقَةِ العَرَبِ) وَأُولَئِكِ الذِّينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ النَّزْعَةُ العَقْلِيَّةُ فَأَغْرَقُوا فِي الغُمُوضِ، وَأَشْكَلُوا فِي المَعَانِي. فِي خِضَمِّ هَذِهِ الأَجْوَاءِ "قَالَ" أَبُو العَتَاهِيَّةِ، وَكَانَ عَلَيْه حِينَهَا أَنْ يَخْتَطَّ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا، وَيَنْهَجَ أُسْلُوبًا يُؤَسِّسُ بِهِ لِخُصُوصِيَّتِهِ، التِّي لَا يُمْكِنُهَا- فِي الأَحْوَالِ جَمِيعِهَا – أَنْ تَتَشَكَّلَ وَتَأْخُذَ

[1]- حديث الأربعاء، ج2، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط14، د.ت، ص40.

[2]- البيان والتبيين، ج1، م.س، ص129.

[3]- مراجعات في الآداب و الفنون، عَبّاس مَحمُود العقاد، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، د.ط، 2013م، ص58.

هَيْئَتَهَا النِّهَائِيَّةَ فِي مَعْزِلٍ عَنْ مُؤَثِّرَاتِ المُجْتَمَعِ وَإِنْ اجْتَهَدَ مَا أَمْكَنَهُ الاجْتِهَادُ!

وَهَاهُوَ الجَاحِظُ يُدْلِي بِرأْيِهِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ التِّي شَغَلَتْ مُبْدِعِي زَمَنِهِ وَنُقَّادَهُ فَيَقُولُ: " وَمَتَى شَاكَلَ – أَبْقَاكَ اللهُ – ذَلِكَ اللَّفْظُ مَعْنَاهُ، وَأَعْرَبَ عَنْ فَحْوَاهُ، وكَانَ لِتِلْكَ الحَالِ وَفْقًا، وَلِذَلِكَ القَدْرِ لِفْقًا، وَخَرَجَ عَنْ سَمَاجَةِ الاسْتِكْرَاهِ، وَسَلِمَ مِنْ فَسَادِ التَّكَلُّفِ، كَانَ قَمِينًا بِحُسْنِ المَوْقِعِ، وَبِانْتِفَاعِ المُسْتَمِعِ..وَأَلَّا تَزَالُ القُلُوبُ بِهِ مَعْمُورَةٌ، وَالصُّدُورُ مَأْهُولَةٌ. وَمَتَى كَانَ اللَّفْظُ أَيْضًا كَرِيمًا فِي نَفْسِهِ، مُتَخَيَّرًا مِنْ جِنْسِهِ، وَكَانَ سَلِيمًا مِنَ الفُضُولِ، وَبَرِيئًا مِنَ التَّعْقِيدِ، حُبِّبَ إِلَى النُّفُوسِ، وَاتَّصَلَ بِالأَذْهَانِ، وَالْتَحَمَ بِالعُقُولِ، وَهَشَّتْ إِلَيْهِ الأَسْمَاعُ، وَارْتَاحَتْ لَهُ القُلُوبُ، وَخَفَّ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّوَّاةِ، وَشَاعَ فِي الآفَاقِ ذِكْرُهُ "[1].

وَيُضِيفُ صَاحِبُ الوَسَاطَةِ مُبَيِّنًا بَعْضَ طَرَائِقِ اخْتِيَارِ اللَّفْظِ لِيُشاكِلَ مَعْناهُ وَيُوافِقَ مُبْتَغَاهُ، فَيَقُولُ: " بَلْ أَرَى لَكَ أَنْ تُقَسِّمَ الأَلْفَاظَ عَلَى رُتَبِ المَعَانِي، فَلَا يَكُنْ غَزَلُكَ كَافْتِخَارِك، وَلَا مَدِيحُك كَوَعِيدِكِ، وَلَا هِجَاؤُك كَاسْتِبْطَانِكَ، وَلَا هَزْلُكَ بِمَنْزِلَةِ جِدِّكَ، وَلَا تَعْرِيضُكَ مِثْلَ تَصْرِيحِكَ بَلْ تُرَتِّبُ كُلًّا مَرْتَبَتِهِ وَتُوَفِّيهِ حَقَّهُ "[2]، وَنَفْهَمُ مِنْ هَذَا دَعْوَةَ الجُرْجانِيّ كُلَّ مُبْدِعٍ إِلَى تَبَيُّنِ عَلاقَةِ اللَّفْظِ بِالمَوضُوعِ المَطْرُوقِ كَيْ مَا يَكُونَ مُقْحَمًا عَلَيْهِ، لاَ يَرْتَبِطُ مَعَهُ بِصِلَةٍ. وَقَدْ " حَكَى أَبُو مَنْصُورٍ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الثَّعَالِبِيُّ قَالَ: البَلِيغُ مَنْ يَحُوكُ الكَلاَمَ عَلَى حَسَبِ الأَمَانِي، وَيَخِيطُ الأَلْفَاظَ عَلَى قُدُودِ المَعَانِي "[3]، فَلَا يَكُونُ أَحَدُهُمَا أَوْسَعَ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَا أَضْيَقَ، فَلاَ يَحْتَمِلُهُ وَلَا يَتَحَمَّلُهُ، إِذِ " اللَّفْظُ لِلْمَعنَى بَدَنٌ وَالمَعنَى لِلَّفْظِ رُوحٌ "[4]، كَمَا يُعَبِّرُ الجَاحِظُ.

وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقِ الدَّارِسُونَ عَلَى ضَوَابِطَ ثَابِتَةٍ لِاخْتِيَارِ الأَلْفَاظِ، وَطُرُقِ تَوْظِيفِهَا، فَإِنَّهُمْ

[1]– البيان وَالتّبيّين، الجاحظ، ج2، م.س، ص7.

[2]– الوساطة بين المتنبّي وخصومه، م.س، ص24.

[3]– العمدة، ج1، م.س، ص115.

[4]– رسائل الجاحظ، ج1، م.س، ص187.

حَدَّدُوا بَعْضَ مَا يُمَكِّنُ المُبْدعَ مِنَ الاسْتِهْدَاءِ بِهِ فِي مَسَارَاتِ القَوْلِ، فَذَكَرُوا مِنْ مَقَايِيسِ الجَمَالِ فِي " اخْتِيَارِ الكَلِمَةِ أَنْ تَكُونَ مُعَبِّرَةً تَعْبِيرًا صَادِقًا عَنْ قَائِلِهَا، تَظْهَرُ فِيهِ ثَقَافَتُهُ وَاتِّجَاهَاتُ فِكْرِهِ وَبِيئَتُهُ التِّي يَعِيشُ فِيهَا، وَمَذْهَبُهُ الفَنِّيُّ – أَيْ أَنْ تَكُونَ جُزْءًا مِنْ مَعْجَمِ أَلْفَاظِهِ التِّي تَعوَّدَ أَنْ يَسْتَعمِلَهُ "[1]. فَالمُتَكَلِّمُ – وَهُوَ يَخْتارُ مَا أَعَدَّتْهُ اللُّغَةُ مِنْ مَادَّةِ " يَتَأَثَّرُ بِالحَسَاسِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ لِجَمَاعَتِهِ وَعَصْرِهِ. وَهُوَ بِمِقْدَارِ مَا يَعْكِسُ مِنْ هَذِهِ الحَسَاسِيَّةِ يُسَاعِدُ عَلَى تَوْطِيدِ الصُّوَرِ الأُسْلُوبِيَّةِ. وَلَكِنَّ حَسَاسِيَّتَهُ الشَّخْصِيَّةَ تَقُومُ كَذَلِكَ بِدَوْرٍ فَعَّالٍ، فَهُوَ ذَاتُهُ يَسْتَطِيعُ فِي هَذِهِ الحَالِ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي جَمَاعَتِهِ التِّي سَتُؤَثِّر بِدَوْرِهَا فِي مَجَالاَتٍ وَاسِعَةٍ، فَنَحْنُ لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُنْكِرَ أَنَّهُ وُجِدَ أُسْلُوبٌ رُومَانْتِيكِيٌّ مَثَلًا، لَهُ خَصَائِصُ أُسْلُوبِيَّةٌ فَرْدِيَّةٌ، وَلَكِنَّهُ كَذَلِكَ قَدْ خَلَقَ حَسَاسِيَّةً لُغَوِيَّةً جَدِيدَةً وَعَامَّةً "[2].

وَحَيْثُ أَنَّ المَعَانِي (مَطْرُوحَةٌ فِي الطَّرِيقِ) يَعْرِفُهَا جَمِيعُ أَصْنَافِ النَّاسِ، فَإِنَّ الذِّي يَهُمُّنَا مِنْهَا هُوَ كَيْفَ اسْتَطَاعَ " مُلْتَقِطُهَا مِنْ عَلَى الجَادَّةِ " أَنْ يُعْطِيَهَا ذَاكَ الزَّخَمَ وَالتَّفَرُّدَ. هُنَا تَتَدَخَّلُ الأَلْفَاظُ لِلكَشْفِ عَنِ الخُصُوصِيَّةِ التِّي وَهَبَتْهَا حَيَاتَهَا الجَدِيدةَ، فَإِنَّ الكَلِمَةَ تَكْتَسِبُ " (وَضْعًا) خَاصًّا بِاسْتِخْدَامِ الأَدِيبِ لَهَا فِي ذَلِكَ المَكَانِ[الذِّي اخْتَارَهُ لَهَا]. وَهَذَا جُزْءٌ مِنْ عَمَلِيَّةِ التَّطْوِيعِ التِّي يَتَنَاوَل بِهَا الأَدِيبُ اللُّغَةَ لِيُخْضِعَهَا لِغَرَضِهِ، وَيَسْتَخْدِمَهَا اسْتِخْدَامًا خَاصًّا.

" وَيُلاَحِظُ (نْيُومَانْ) أَنَّهُ بَيْنَمَا تَسْتَخْدِمُ الأَغْلَبِيَّةُ مِنَ النَّاسِ لُغَةَ زَمَانِهِمْ (كَمَا يَجِدُونَهَا) فَإِنَّ العَبْقَرِيَّ يَسْتَخْدِمُ اللُّغَةَ لِأَغْرَاضِهِ الخَاصَّةِ، وَيُشَكِّلُهَا تَبَعًا لِاسْتِعْدَادَاتِهِ الخَاصَّةِ. وَيُعَلِّقُ (هِدْسُونْ) بِقَوْلِهِ: وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللُّغَةَ تَسْتَقْبِلُ دَائِمًا أَثَرًا جَدِيدًا خَاصًّا عَلَى يَدَيْ كُلِّ كَاتِبٍ لَهُ شَخْصِيَّةٌ قَوِيَّةُ التَّمَيُّزِ.

فَالكَلِمَةُ قَدْ تَكْتَسِبُ قُوَّتَهَا مِنَ الشَّخْصِيَّةِ التِّي اسْتَخْدَمَتْهَا. وَكَمْ مِنْ عِبَارَاتٍ كَانَ

[1]– بديع التّراكيب في شعر أبي تمّام ، مُنير سلطان، م.س، ص114.

[2]– الأسلوب وتقنياته، مارسال كريسو، يُنظر: الأدب و فنونه، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص25.

لَهَا أَثَرُهَا فِي النُّفُوسِ لَمْ تَكُنْ لِتُحْدِثَ هَذَا الأَثَرَ لَوْ لَمْ تَصْدُرْ عَنْ شَخْصِيَّةٍ بِذَاتِهَا "[1]، كَانَ لَهَا الاقْتِدَارُ عَلَى فَهْمِ خَصَائِصِ الكَلِمَةِ وَدَفَائِنِهَا، فَعَرَفَ كَيْفَ يَتَخَيَّرُهَا قَبْلَ أَنْ يَضُمَّهَا إِلَى أَخَوَاتِهَا فِي نَصٍّ مِنْ نُصُوصِهِ.

وَمِنْ هُنَا يَسْتَطِيعُ الشَّاعِرُ أَنْ يَتَحَكَّمَ بِكُلِّ حُرِيَّةٍ وَسَلاَسَةٍ فِي الشِّعْرِ فَيَمْنَحَ تِلْكَ اللُّغَةَ قِيمَتَهَا الشِّعْرِيَّةَ بَعِيدًا عَنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، كَوْنَهَا تَسْتَمِدُّ قِيمَتَهَا وَفَاعِلِيَّتَهَا مِنْ خِلاَلِ ارْتِبَاطِهَا بِبَعْضِهَا فِي البِنْيَةِ الجَدِيدَةِ. عَلَى أَنَّ خُرُوجَهَا عَنْ تِلْكَ القَوَاعِدِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ارْتِجَالِيًّا مُبْتَذَلًا، بَلْ تَسْتَوجِبُ مُسَوِّغًا يَقْتَضِيهِ المَنْطِقُ اللُّغَوِيُّ القَائِلُ بِاخْتِلاَفِ طَرَائِقِ اخْتِيَارِ المُفْرَدَاتِ وَضَمِّهَا إِلَى بَعْضٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ المَعَانِي عَبْرَ قَوَانِينَ مُنَظَّمَةٍ قَائِمَةٍ عَلَى مَنْطِقٍ عَقْلِيٍّ وَجِيهٍ.

فَوَاحِدٌ مِنْ أَوْضَحِ المَدَاخِلِ التِّي تُمَكِّنُ القَارِئَ مِنَ " التَّعَرُّفِ عَلَى شَكْلِ القَصِيدَةِ هُوَ التَّعرُّفُ عَلَى لُغَتِهَا. فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ نَتَعَامَلُ مَعَ المُفْرَدَاتِ، هَلْ هِيَ مُفْرَدَاتٌ غَرِيبَةٌ أَمْ سَهْلَةٌ، هَلْ هُنَاكَ كَلِمَاتٌ مِنَ الفُصْحَى أَوْ مِنَ العَامِيَّةِ، مَا هِيَ دَلاَلاَت اللُّغَةِ، هَلْ تَنْتَمِي إِلَى القَامُوسِ السِّيَاسِيِّ أَوْ الاقْتِصَادِيِّ أَمْ هِيَ كَلِمَاتٌ غِنَائِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى ذَاتِ الشَّاعِرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ القَضَايَا التِّي تَتَّصِلُ بِحَيَاةِ اللُّغَةِ دَاخِلِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ كَمُفرَدَاتٍ وَلَيْسَتْ سِيَاقَاتٍ أَوْ رُمُوزٍ مَصْبُوبَةٍ بِكَيْفِيَّةٍ مُعَيّنَةٍ "[2]، فَتَصِيرُ قَوالِبَ جَاهِزَةً لِتُفْرَغَ فِيهَا حُمُولَةُ الإِبْدَاعِ كَمَا تَهَيَّأَ وَاتَّفَقَ.

فَفِي اعْتِقَادِ النُّقَّادِ، الشَّاعِرُ الجَيِّدُ هُوَ الذِّي يَسْتَطِيعُ أَنْ " يَخْتَارَ مَعْجَمَهُ الشِّعْرِيَّ بِحَاسَّتِهِ الفَنِّيَّةِ اخْتِيَارًا يَتَجَاوَبُ وَمَا تَضْطَرِبُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ حَمِيَّا الشِّعْرِ، أَوْ مِنْ تَمَوُّجَاتٍ نَفْسِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ، وَمِنْ هُنَا يَجِيءُ الأُسْلُوبُ ذَا دَلاَلَةٍ خَاصَّةٍ عَلَى صَاحِبِهِ، لِأَنَّهُ قَدْ مَرَّ مِنْ

[1]- الأدب و فنونه، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص19.

[2]- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة، حسين خمري، م.س، ص36.

خِلَالِ ذَاتِيَّتِهِ هُوَ، وَحَمَلَ بَصَمَاتِ رُوحِهِ وَفِكْرِهِ "[1]، وَذَلِكَ مَا يَصْبَغُ لُغَتَهُ بِالخُصُوصِيَّةِ التِّي يَنْشُدُها كُلُّ مَنْ رَامَ التَّمَيُّزَ. فَالشَّاعِرُ الحَقُّ فِي نَظَرِ العَقَّادِ هُوَ مَنْ يَصْنَعَ مَعْجَمَهُ، فَنَعْرِفُ مِن خِلَالِهِ " نَفْسَهُ مَا هِيَ، وَمِزَاجَهُ مَا هُوَ، وَالدُّنْيَا التِّي كَانَ يَرَاهَا وَيَعِيشُ فِيهَا، كَيْفَ كَانَتْ تَلُوحُ لِعَيْنَيْهِ، وَتَقَعُ فِي رَوْعِهِ، وَتَتَمَثَّلُ فِي خَيَالِهِ "[2]. فَاللُّغَةُ التِّي بِمِثْلِ هَذِهِ القُوَّةِ لَيْسَتْ تَعْجَزُ عَنْ تَأْدِيَةِ المُرادِ، وَلاَ تَقْصُرُ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةَ المَنُوطَةِ بِهَا.

وَإِنَّمَا يَبْقَى عَلَى عَاتِقِ المُبْدِعِ إِعْمَالُ المَهَارَةِ وَالفِطْنَةِ، وَوَضْعُ الأَشْيَاءِ فِي مَرَاتِبَها حَتَّى لَا تَبْدُوَ مُرْتَبِكَةً مَضْطَرِبَةً. فَلِلَّفْظِ حِينَ يُصِيبُ غَايَتَهُ أَثَرٌ لَا يُنْكَرُ فِي النُّفُوسِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَطْرُقُ الأَسْمَاعَ، لِذَلِكَ حَرِصَ النُّقَادُ مِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِمْ عَلَى نُصْحِ المُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّعَرَاءِ بِمُرَاعَاةِ هَذَا الجَانِبِ، وَإِيلاَئِهُ الأَهَمِّيَّةَ التِّي يَقْتَضِيهَا كَمَا فَعلَ الجُرْجَانِيُّ فِي الوَسَاطَةِ حِينَ قَالَ: " وَلاَ آمُرُكَ بِإِجْرَاءِ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ كُلِّهِ مَجْرًى وَاحِدًا، وَلاَ أَنْ تَذْهَبَ بِجَمِيعِهِ مَذْهَبَ بَعْضِهِ، بَلْ أَرَى لَكَ أَنْ تُقَسِّمَ الأَلْفَاظَ عَلَى رُتَبِ المَعَانِي، فَلاَ يَكُونُ غَزَلُكَ كافْتِخَارِكَ، وَلاَ مَدِيحُكَ كَوَعِيدِكَ، وَلاَ هِجَاؤُكَ كَاسْتِبْطَائِكَ،...، بَلْ تُرَتِّبُ كُلاًّ مَرْتَبَتَهُ وَتُوَفِّيهِ حَقَّهُ "[3]. وَفِي هذَا تَأْكِيدٌ مِنَ الجُرْجَانِي عَلَى خُصُوصِيَّةِ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي تَقْتَضِي فَهْمَ طَبِيعَتِها، وطَرَائِق تَشْكِيلِها لِتُحَقِّقَ الغَايَةَ، وَتَنْسَجِمَ معَ بَاقِي عَنَاصِرِ النَّصِّ.

هُنَا تَتَدَخَّلُ مَجْمُوعَةُ عَوَامِلَ تَتَضَافَرُ مُجْتَمِعَةً لِتُعْطِيَ لِلْمَادَّةِ الأُولَى لِلإِبْدَاعِ، التِّي هِيَ اللُّغَةُ، كُلَّ طَاقَتِهَا وَجَمَالِيَّتِهَا، وَبِالأَخَصِّ تَفَرُّدَهَا الذِّي اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الاسْتِعْمَالِ الجَدِيدِ لَهَا، فَاللُّغَةُ " رُمُوزٌ لِحَالاَتٍ نَفْسِيَّةٍ، هِيَ مَادَّةٌ لِلفِكْرِ، فَالصَّوْتُ اللُّغَوِيُّ وَظِيفَةٌ عَقْلِيَّةٌ، لَهَا دَلاَلَتُهَا عَلَى الكَلاَمِ النَّفْسِيِّ الدَّاخِلِيّ "[4]، وَمِنْ ثَمَّ لَا يُمْكِنُنَا وَصْفُ تِلْكَ اللُّغَةِ بِالشِّعْرِيَّةِ " إِلاَّ إِذَا

[1]- أحمد رامِي، السَّعيد شوارب، سلسلة أعلام العرب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1985م، ص278.

[2]-شعراءُ مصر و بيئاتهم في الجيل الماضي، عبّاس محمود العقّاد، دار نهضة مصر، د.ط، 1981م، ص158.

[3]- الوساطة بين المتنبّي وخصومه، م.س، ص24.

[4]- النّقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، م.س، ص39.

خَضَعَتْ لِلتَّجْرِبَةِ الشِّعْرِيَّةِ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ"[1]، فَلُغَتُهُ " فِي أَلْفَاظِهَا وَعِبَارَاتِهَا، لَا تَنْهَضُ وَحْدَهَا دَلِيلًا عَلَى تَوَتُّرِهِ وَانْفِعَالِهِ وَتَحَمُّسِهِ، مَا لَمَ يَنْدَمِجْ فِيهَا، فَتَصْدُرَ عَنْ ذَاتِهِ أَصِيلَةً صَادِقَةً "[2]. فَلُغَةُ الشِّعْرِ شَفَّافَةٌ نَقِيَّةٌ تُمَكِّنُ الشَّاعِرَ مِنْ أَنْ يَشِيَ بِمَا يَجِيشُ فِي دَوَاخِلِهِ مِنْ أَفْكَارَ وَمَا يَعْتَلِجُ فِيهَا مِنْ أَحَاسِيسَ " وَهَلِ الشِّعْرُ، فِي وَاقِعِهِ، إِلاَّ مَقْدِرَةُ الشَّاعِرِ عَلَى اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ بِحَيْثُ تَشِعُّ أَلفَاظُهَا المَعَانِيَ وَالظِّلاَلَ وَالانْفِعَالاَتِ؟"[3] فَيَتَلَقَّفُهَا القَارِئُ مُحَاوِلًا تَمَثُّلَهَا وَاسْتِجْلاَءَ غَوَامِضِهَا وَمَكْنُونَاتِهَا.

فَأَحْوَالُ الشُّعَرَاءِ النَّفْسَيَّةُ وَنَوْعِيَّةُ تَجَارِبِهِمْ، وَقُدُرَاتُهُمْ الفَنِّيَّةُ هِيَ التِّي تَتَحَكَّمُ فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْ إِبْدَاعَاتِهِمْ، فَالشِّعرُ " اسْتِكْشَافٌ دَائِمٌ لِعَالَمِ الكَلِمَةِ، وَاسِتِكْشَافٌ دَائِمٌ لِلوُجُودِ عَنْ طَرِيقِ الكَلِمَةِ. وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الشِّعْرُ هُوَ الوَسِيلَةَ الوَحِيدَةَ لِغِنَى اللُّغَةِ وَغِنَى الحَيَاةِ عَلَى السَّوَاءِ. وَالشِّعْرُ الذِّي لاَ يُحَقِّقُ هَذِهِ الغَايَةَ الحَيوِيَّةَ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِحَقٍّ.."[4]. فَاللَّفْظُ الشِّعْرِيُّ مُتَمَيِّزٌ بِالسِّيَاقِ الذِّي انْدَمَجَ فِيهِ " وَبِمَا يَحْمِلُهُ فِي طَيَّاتِهِ مِنْ شَحَنَاتٍ صَوْتِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِذَلِكَ السِّيَاقِ، وَمُتَلاَئِمَةٍ مَعَ الحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ لِصَاحِبِهِ الذِّي اخْتَارَهُ "[5] لِيَكُونَ حِينَهَا، نَاقِلَ الفِكْرَةِ مِنْ دُونِ سِوَاهُ.

إِذَنْ مِنْ غَيْرِ المَنْطِقِيِّ تَجَاوُزُ تَأْثِيرِ طَبِيعَةِ اللَّحْظَةِ النَّفْسِيَّةِ التِّي يَكُونُ عَلَيْهَا المُبْدِعُ زَمَنَ القَوْلِ لِأَنَّ ذَلِكَ سَيُعْوِزُنَا إِلَى أَدَاةٍ ضَرُورِيَّةٍ لِفَهْمِ طَرِيقَتِهِ وَخُصُوصِيَّاتِهَا مِنْ خِلاَلِ صَوْتِهِ " وَهُوَ يُخْرِجُ الأَلْفَاظَ مَخْرَجًا يَجْعَلُ اللُّغَةَ مُعَبِّرَةً عَنْ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ فِي اللَّحْظَةِ التِّي يَكْتُبُ فِيهَا "[6]. فَاللُّغَةُ لَمْ تُوضَعْ لِنَقْلِ المَعْنَى وَحَسْبَ، بَلْ إِنَّهَا تَحْمِلُ صُورَةً " عَنْ شَخْصِيَّةِ الإِنْسَانِ

---

[1]- الأدب وفنونه، محمد مندور، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط5، أوت 2006 م، ص112.

[2]- الحماسة في شعر الشّريف الرّضيّ، محمّد جميل شلش، المكتبة العالميّة، مطبعة وأوفسيت المشرق، بغداد، ط2، 1985م، ص213.

[3]- الصّومعة والشُّرفة الحمراء، دراسة نقديّة في شعر علي محمود طه، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1399هـ/1979م، ص221.

[4]- الشّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، عزّ الدّين إسماعيل، م.س، ص 174.

[5]- التّسلسل الإيحائيّ – تطبيق على قصيدة لأبي الطّيب المتنبّي، عمر بن سالم، ضمن: المتنبّي مالئ الدّنيا وشاغل النّاس، دار الرّشيد للنّشر، وزارة الثّقافة والإعلام، دار الحريّة للطّباعة، بغداد، العراق، 1979م، ص281.

[6]- الشّعر كيف نفهمه ونتذّوقه، إليزابيث درُو، م.س، ص91.

الذِّي يَسْتَخْدِمُهَا وَمِزَاجِهِ وَمَقَاصِدِهِ "[1] فِي الآنِ ذَاتِهِ، لِأَنَّ الشِّعْرَ لَا يُبْنىَ عَلَى مَعَانِي الأَلْفَاظِ كَمَا تَرَتَّبَتْ فِي القَامُوسِ فَقَطْ " وَإِنَّمَا يَسْتَغِلُّ مَعَانِيَ أُخْرَى خَلْفَهَا، وَيَزِيدُ فَيُحَمِّل الأَلْفَاظَ أَحَاسِيسَ تَجَارِبَ خَاصَّةٍ "[2]، لَعَلَّ الدَّوْرَ الأَسَاسَ فِي خُرُوجِهَا إِلَى الوُجُودِ مُنْعَقِدٌ عَلَى مَجْمُوعِ تِلْكَ الأَحْوَالِ وَالتَّجَارِبِ." فَالكَلِمَةُ المُوحِيَةُ أَشْبَهُ بِالصَّدَى الذِّي يَنْبَعِثُ مِنْ صَوْتٍ آخَرَ يَخْتَفِي وَرَاءَهُ، وَهِي – بِهَذَا القَدْرِ– تُسَاعِدُ الشَّاعِرَ عَلَى سَكْبِ مَا يَجُولُ فِي نَفْسِهِ المتَدَفِّقَةِ بِالحَرَكَةِ وَالتَّعَاطُفِ، وَالنَّفَاذِ إِلَى قَلْبِ القَارِئِ أَوِ المُسْتَمِعِ، فَتُحَرِّكُ لَدَيْهِمَا الإِحْسَاسَاتِ وَالصُّوَرَ التِّي تُؤَلِّفُ الغَايَةَ الفَنِّيَةَ مِنَ الأَدَبِ الرَّمْزِيِّ "[3]، وَتَجْعَلُ خَبَايَا النَّفْسِ أَوْضَحَ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ يَتِمُّ بِعَمَلٍ فَنِّيٍّ لاَ يُؤَرِّخُ لِلَّحْظَةِ كَمَا يَفْعَلُ المُصَوِّرُ الفُوتُوغْرَافِيُّ وَإِنَّمَا يُنَاوِشُ الذَّائِقَةَ وَيَسْتَفِزُّهَا لِتَتَجَلَّى عَبْرَ اللُّغَةِ وَفِيهَا.

إِنَّ الشِّعْرَ نِظَامٌ مِنَ الرُّمُوزِ يَتَفَرَّعُ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَآزِرَيْنِ، يَرْتَبِطُ الأَوَّلُ، وَالذِّي هُوَ نِظَامُ الرُّمُوزِ اللُّغَوِيَّةِ، كَقَوَاعِدَ تَرْكِيبِيَّةٍ وَدَلاَلِيَّةٍ، وَهِيَ التِّي تَتَحَكَّمُ فِي لُغَةٍ طَبِيعِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأَمَّا النِّظَامُ الثَّانِي فَيَعْتَبِرُ اللُّغَةَ الشِّعْرِيَّةَ مَجْمُوعَةَ رُمُوزٍ ذَاتِ دَلالَةٍ جَمَالِيَّةٍ، تَنْهَضُ بِالنَّصِّ كَبَاقِي القَوَاعِدِ الشَّكْلِيَّةِ لِكُلِّ جِنْسٍ أَدَبِيٍّ، وَالتِّي مِنْهَا الوَزْنُ وَالقَافِيةُ وَالمُوسِيقَى. وَلَيْسَتِ الرَّمْزِيَّةُ " زِينَةً لُغَوِيَّةً. فَتَعَدُّدِيَّةُ المَعْنىَ وَالرَّمْزِيَّةُ تَنْتَمِيَانِ إِلَى تَكْوِينِ اللُّغَةِ وَعَمَلِهَا كَمَا هُوَ الأَمْرُ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ "[4]، وَلَا يَبْقَى أَمَامَنَا، إِذَنْ غَيْرُ الاشْتِغَالِ عَلَى كَيْفِيَةِ عَمَلِ هَذِهِ الأَلْفَاظِ دَاخِلَ النِّظَامِ لِفَهْمِ إِشَارِيَّتِهَا، وَدَقَائِقِ دَلَالَاتِهَا " لِأَنَّ اللُّغَةَ تَجْرِي مَجْرَى العَلاَمَاتِ وَالسِّمَاتِ، ولاَ مَعْنىَ لِلعَلاَمَةِ وَالسِّمَةِ حَتَّى يَحْتَمِلَ الشَّيْءُ مَا جُعِلَتْ العَلاَمَةُ دَلِيلًا عَلَيْهِ وَخِلاَفَهُ "[5]. وَإِدْرَاكُ

---

[1]– النّظريّة الرّومانتيكيّة – سيرة أدبيّة، صَاموئيل تِيلر كولردج، تر: عبد الحكيم حسّان، دار المعارف، مصر، د.ط، 1971م، ص388.

[2]– رباعيّات الخيّام، جميل الملائكة، بغداد، د.ط، 1957 م، المقدمة، ص "ط".

[3]– مذاهب الأدب– معالم وانعكاسات، ج2، الرّمزية، ياسين النُّصير، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1982م، ص36.

[4]– صراع التّأويلات – دراسات هيرمينوطيقيّة، بُول ريكور، تر: منذر عيّاشي، مر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، ط1، يناير 2005م، ص108.

[5]– أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمد، الجرجانيّ، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، النّاشر مطبعة المدنيّ بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ط، د.ت، ص376.

دَلاَلِيَّةِ لَفْظَةٍ مَا تَبْدَأُ مِنْ لَحْظَةِ اخْتِيَارِهَا، أَيْ قَبْلَ انْدِمَاجِهَا فِي سِيَاقٍ مُعَيَّنٍ، كَوْنَهَا " التَّرْجَمَةَ اللُّغَوِيَّةَ لِلمَعْنَى، وَالمَادَّةَ الأَوَلِيَّةَ لِلتَّعْبِيرِ، وَالجُزْءَ الأَصْغَرَ الذِّي يَتَأَلَّفُ مِنْهُ الأُسْلُوبُ "[1].

إِنَّ اللُّغَةَ الفَنِّيَّةَ مُفَارِقَةٌ لِلُغَةِ العِلْمِ، فَهَذِهِ الأَخِيرَةُ تَمْتَازُ بِالصَّرَامَةِ وَالدِّقَّةِ، وَتَجْتَنِبُ مَا أَمْكَنَ التَّأْوِيلِ المُتَعَدِّدَ، كَوْنَهَا " تَتَضَمَّنُ عَمَلًا هَادِفًا لِغَايَةٍ. وَهَذِهِ الغَايَةُ يُحَدِّدُهَا الفِكْرُ وَتَشِفُّ عَنْهَا اللُّغَةُ "[2]، عَلَى العَكْسِ مِنْ لُغَةِ الإِبْدَاعِ التِّي تَتَخَفَّى وَرَاءَ جِدَارٍ سَمِيكٍ مِنَ الاحْتِمَالاَتِ التِّي تَسْمَحُ بِتَعَدُّدِ القِرَاءَةِ فَتُفْضِي مِنْ ثَمَّ إِلَى تَعَدُّدِ الدَّلاَلَةِ. فَالشِّعْرُ، عَلَى رَأْيِ جَاكُبْسُون " فَنٌّ لَفظِيٌّ، وَإِذَنْ فَهُو يَسْتَلْزِم، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، اسْتِعْمَالًا خَاصًّا لِلُّغَةِ "[3]، وَهُوَ مَا يَنْعَكِسُ غَالِبًا فِي تَبَايُنِ طُرُقِ الكِتَابَةِ وَأَسَالِيبِهَا بَيْنَ مُبْدِعٍ وَآخَرَ.

فَالمُبْدِعُ لاَ يَتَوَانَى عَنِ اسْتِخْدَامِ كُلِّ مَا تُتِيحُهُ لَهُ اللُّغَةُ مِنْ وَسَائِلَ" لَكِنَّهُ يَسْتَخْدِمُهَا بِطَرِيقَةٍ تَجْعَلُ كُلَّ كَلِمَةٍ تَكْتَسِبُ مَعْنًى جَدِيدًا وَتَنْشَأُ هَذِهِ الجِدَّةُ مِن جَدَلِيَّةِ اللُّغَةِ أَيْ مِنَ التَّفَاعُلِ بَيْنَ الكَلِمَاتِ دَاخِلِ القَصِيدَةِ، وَمِنْ أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ لاَ تَنْقُلُ مُحْتَوًى فَحَسْب، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا مُحْتَوًى فِي ذَاتِهَا، إِنَّهَا حَقِيقَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا "[4]، عَنْهَا تَنْبَثِقُ عَدِيدُ الدَّلاَلاَتِ، وَبِهَا تَتَكَثَّفُ المَعَانِي وَتَخْصُبُ فِي ذِهْنِ المُتَلَقِّي، مَا يَجْعَلُنَا لاَ نَشُكُّ فِي أَنَّ لُغَةَ أَيِّ نَصٍّ " هِيَ الطَّاقَةُ المُبْدِعَةُ التِّي تَخْلُقُ الصُّورَةَ "[5]، أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ، تَجْعَلُهَا مُتَمَيِّزَةً عَلَى أَكْثَرَ مِنْ مُسْتَوَى، " فَقُدْرَةُ الشَّاعِرِ هِيَ التِّي تُعْطِي اللُّغَةَ قِيمَةً، وَهُنَا تَتَجَلَّى مَهَارَتُهُ الفَنِّيَّةُ فِي اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ لِلوُصُولِ إِلَى شِعْرِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ، وَإِبْدَاعٍ مُتَفَرِّدٍ "[6].

---

[1]– الكامل في النّقد الأدبيّ، كمال أبو مصلح، المكتبة الحديثة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط5، 1983م، ص87.

[2]– النّقد الأدبيّ الحديث، محمد غنيمي هلال، م.س، ص42.

[3]– قضايا الشّعريّة، رومان جاكبسون، تر: محمد الوليّ ومبارك حنّون، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 1988م، ص77.

[4]– ضرورة الفنّ، آرنست فشر، تر: أسعد حليم، الهيئة المصريّة العامّة للتّأليف والنّشر، طبعة النّهضة المصريّة، د.ط، 1971م، ص222.

[5]– الشّريف الرّضيّ – دراسات في ذكراه الألفيّة ، مجموعة مؤلفين، دار آفاق عربيّة، بغداد، د.ط، 1985م، ص203.

[6]– في المصطلح النّقديّ، أحمد مطلوب، منشورات المجمّع العلميّ، مطبعة المجمّع العلميّ، د.ط، 1423هـ/2002م، ص162.

لَيْسَتِ اللُّغَةُ أَدَاةً مُنْهَكَةً بِالاسْتِعْمَالِ، مُخْلَقَةً بِاللُّبُوسِ المُتَوَاصِلِ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي حِوَارِيَّةٍ دَائِمَةِ التَّجَدُّدِ، لاَ تَنْقَطِعُ الأَوَاصِرُ بَيْنَها وَبَيْنَ مُنْتِجِهَا، فَـ " لِلأَلْفَاظِ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي الشَّاعِرِ، فَهِيَ تَنْفَجِرُ فِي نَفْسِهِ كَأَنَّهَا القُنْبُلَةُ المَشْحُونَةُ، فَتُخْرِجُ كُلَّ مَا تَحْتَوِيهِ فِي جَوْفِهَا مِنْ صُوَرٍ وَمَشَاعِرَ وَتَجَارِبَ، فَكُلُّ لَفْظَةٍ عِنْدَ الشَّاعِرِ مُسْتَقِلَّةٌ بِوُجُودِهَا، مُتَمَيِّزَةٌ بِشَخْصِيَتِهَا تَخْتَلِفُ عَنْ كُلِّ لَفْظَةٍ أُخْرَى فِي خَصَائِصِهَا وَسِمَاتِهَا "[1]، وَلَكِنَّهَا بِتَفَاعُلِهَا مَعَ غَيْرِهَا تَمْنَحُ بَعْضَهَا بَعْضًا دَلاَلاَتٍ جَدِيدَةً فَتَغْدُو قَادِرَةً عَلَى اكْتِسَابِ فَعَّالِيَاتٍ خَاصَّةٍ دَاخِلَ سِيَاقٍ لُغَوِيٍّ مُعَيَّنٍ[2].

لِهَذَا كَانَ مُسْتَسَاغًا " لِكَيْ نَكْشِفَ عَنْ رُوحِ شَاعِرٍ مَا، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ عَنْ شَوَاغِلِهِ العُظْمَى،...أَنْ نَبْحَثَ فِي أَعْمَالِهِ عَنْ أَكْثَرِ الكَلِمَاتِ دَوَرَانًا فِي أَدَبِهِ، فَهَذِهِ الكَلِمَاتُ هِيَ التِّي تَبُوحُ بِهَوَاجِسِهِ المُلِحَّةَ "[3]، وَتَشِي بِمَكْنُونَاتِ نَفْسِهِ، وَتَرْفَعُ إِلَى السَّطْحِ مَا اجْتَهَدَ لِيُخْفِيَهُ وَرَاءَ جِدَارِ اللُّغَةِ. وَهَذَا يُلْزِمُنَا تَتَبُّعَ وَمَعْرِفَةَ الجَوَانِبِ المُتَحَوِّلَةِ عَنِ اللُّغَةِ كَتِقْنِيَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ تَكْشِفُ عَنْ بَعْضِ جَمَالِيَاتِ الإِبْدَاعِ فِي عَمَلٍ مَا " وَالمُتَحَوِّلُ عَنِ اللُّغَةِ فِي الكَلاَمِ عَدِيدُ الأَشْكَالِ. فَقَدْ يَكُونُ تَحَوُّلًا عَنْ قَاعِدَةٍ نَحْوِيَّةٍ أَوْ بِنْيَةٍ صَرْفِيَّةٍ أَوْ وِجْهَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ أَوْ فِي تَرْكِيبِ جُمْلَةٍ، كَمَا قَدْ يَكُونُ التَّحَوُّلُ عَنْ نِسْبَةٍ عَامَّةٍ فِي اسْتِعْمَالِ الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي عَصْرٍ مِنَ العُصُورِ، أَوْ يَكُونُ بِشُحْنَةٍ دَلاَلِيَّةٍ خَاصَّةٍ أَوْ بِفَقْرٍ خَاصٍّ يَلْحَقُ الظَّاهِرَةَ اللُّغَوِيَّةَ فِي نَوْعٍ مِنَ النُّصُوصِ دُونَ آخَرَ أَوْ فِي نَوْعٍ مِنَ الأَغْرَاضِ دُونَ آخَرَ"[4]. وَحَيْثُ إِنَّ اللُّغَةَ شَكْلٌ، وَلَيْسَتْ مَادَّةً كَمَا يَرَى دِي سُوسِيرْ[5]، فَسَيَكُونُ مِنَ المَنْطِقِيِّ إِخْضَاعُهَا لِلبَحْثِ سَعْيًا لِكَشْفِ طَرَائِقِ عَمَلِهَا وَتَبَنْيُنِهَا حَتَّى صَارَتْ "شِعْرِيَّةً " دَاخِلَ نَصٍّ مَا.

---

[1]- فنون الأدب، هـ.ب.تشارلتن، تر: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، من سلسلة الفكر الحديث، د.ط، 1945م، ص8.

[2]- يُنظَر: قضايا النّقد الأدبيّ بين القديم والحديث، محمّد زكي عشماوي، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د.ط، 1979م، ص541.

[3]- التّحليل اللّسانيّ للأدب، محمّد عزام، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1994م، ص154.

[4]- خصائص الأسلوب في الشّوقيات، محمّد الهادي الطّرابلسيّ، منشورات الجامعة التّونسيّة، د.ط، 1981م، ص11.

[5]- يُنظر: بنية اللّغة الشّعريّة، جون كوهن، م.س، ص28.

وَهَذِهِ لَيْسَت مَسْأَلَةً جَدِيدَةً أَبَدًا، إِذْ إِنَّهَا لَفَتَتْ إِلَيْهَا نَظَرَ المُتَقَدِّمِينَ حِينَ أَدْرَكُوا، بِوَعْيٍ مُتَقَدِّمٍ، عَلاَقَةَ اللُّغَةِ بِالبِيْئَةِ وَالمتُلَقِّينَ لَهَا، وَمُتَطَلَّبَاتِ كُلِّ مَوْضُوعٍ وَغَرَضٍ مِنْ لُغَةِ المُبدِعِ ذَاتِهَا " فَإِنَّ المَدْحَ بِالشَّجَاعَةِ وَالبَأْسِ يَتَمَيَّزُ عَنِ المَدْحِ بِاللَّبَاقَةِ وَالظُّرْفِ، ووَصْفُ الحَرْبِ وَالسِّلاَحِ لَيْسَ كَوَصْفِ المَجْلِسِ وَالمُدَام، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَمْرَيْنِ نَهْجٌ هُوَ أَمْلَكُ بِهِ، وَطَرِيقٌ لاَ يُشَارِكُهُ الآخَرُ بِهِ "[1]، وَيُفَصِّلُ الجُرْجَانِيُّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَهُوَ يُقَرِّبُ لِلشَّاعِرِ المُبْتَدِئِ مَسْأَلَةَ تَمَثُّلِ أَدَوَاتِ الإِبْدَاعِ، وَتَبَيُّنِ أَسَالِيبِ القَوْلِ المُخْتَلِفَةِ فَيَقُولُ:" وَإِنَّمَا أَحَلْتُك عَلَى البُحْتُرِيِّ، لأَنَّهُ أَقْرَبُ بِنَا عَهْدًا، وَنَحنُ بِهِ أَشَدُّ أُنْسًا، وَكَلاَمُهُ أَلْيَقُ بِطِبَاعِنَا، وَأَشْبَهُ بِعَادَاتِنَا، وَإِنَّما تَأْلَفُ النَّفْسُ مَا جَانَسَهَا، وَتَقْبَلُ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ إِلَيْهَا "[2].

فَنَحْنُ نَرى، بِهَذَا، كَيْفَ رَاعَى هَؤُلاَءِ المُبدِعُونَ طَبِيعَةَ الخِطَابِ وَطَبِيعَة الطّبَقَةِ المُتَوَجَّهِ إِلَيْهِا فَرَاعُوا المُلاَبَسَاتِ المُحِيطَةِ بِهِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا اللُّغَةُ المُتَخَيَّرَةُ لِكُلِّ مَوْضُوعٍ وَمَوقِفٍ، فَالتَّوَجُّهُ إِلَى العَامَّةِ لَيْسَ كَالتَّوجُّهِ إِلَى عِلْيَةِ القَوْمِ وَسَادَتِهِمْ، فَإِنْ نَحْنُ رُحْنَا " نَبْحَثُ فِي العَلاَقَةِ بَيْنَ الحَيَاةِ الشَّعْبِيَّةِ لِلنَّاسِ وَمَوْضُوعَاتِ الشِّعْرِ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّل خُيِّلَ إِلَيْنَا أَنَّ المَدِيحَ كَانَ بَعِيدًا عَنِ الشَّعْبِ لاتِّصَالِهِ غَالِبًا بِالطَّبَقَةِ العُلْيَا مِنَ الخُلَفَاءِ وَالوُزَرَاءِ، وَلَكِنْ لِنَحْذَرِ التَّعْمِيمَ لأَسْبَابَ كَثِيرَةٍ، فَإِنَّ مَنْ كَانُوا يَمْدَحُونَ الوُزَرَاءَ وَالخُلَفَاءَ كَانُوا يَرْسُمُونَ لَهُمْ فِي مَدَائِحِهِمْ مِثَالِيَّةَ الحَاكِمَ كَمَا يُرِيدُهَا الشَّعْبُ، وَبِذَلِكَ كَانُوا يَصْدُرُونَ عَنْ رُوحِهِ فِي مَدَائِحِهِمْ، فَمَثَلاً هَارُونُ الرَّشِيدُ حِينَ يَمدَحُهُ أَبُو نَوَّاسٍ أَوْ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لاَ يَمْدَحُ شَخْصَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ، وَإِنَّمَا يَمْدَحُ فِيهِ المَثَلَ الأَعْلَى لِلْخَلِيفَةِ الكَامِلِ كَمَا يَتَرَاءَى فِي مُخَيِّلَةِ الجَمَاعَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ "[3]. هَكَذا هِيَ حَالُ الشَّاعِرِ مَعَ كُلَّ أَغْرَاضِ الشِّعْرِ وَفُنُونِهِ، يَنْتَقِي لِكُلِّ مَوْقِفٍ مَا يُوَائِمُهُ مِنْ لُغَةٍ، وَيُرَتِّبُهَا بِحَسَبِ مَا يَسْتَدْعِيهِ المَقَامُ.

[1]- الوساطة بين المتنبّي وخصومه، م.س، ص24.

[2]- نفسه، ص29.

[3]- الشّعر وطوابِعه الشَّعبيّة على مَرِّ العُصور، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت، ص62.

فَالكَلِمَاتُ لَيْسَت مَادَّةً جَامِدَةً، وَلَا هِيَ نَمَاذِجُ جَاهِزَةٌ، وَإِنَّمَا هِيَ وَسَائِطُ طَيِّعَةٌ فِي يَدِ المُبدِعِ، وَكِيمْيَاءُ حَيَّةٌ لَا تَتَوَقَّفُ عَنْ مَدِّهِ بِالمُبْتَكَرِ فِي كُلِّ حِينٍ، حَتَّى لَتَبْدُوَ جَدِيدَةً مُسْتَحْدَثَةً وَكُنَّا نَرَاهَا مِنْ قَبْلُ قَدِيمَةً مُسْتَهْلَكَةً، فَهِيَ لَا تَحْمِلُ مَعْنَاهَا المعْجَمِيّ فَقَطْ بَلْ تَحْمِلُ طَاقَةً إِيحَائِيَّةً تَشِعُّ مَعَ غَيْرِهَا لِخَلْقِ الإِبْدَاعِ الفَنِّيِّ. فَالشَّاعِرُ الحَذِقُ هُوَ الذِّي يَبْعثُ فِيهَا الرُّوحَ، وَيَأْخُذُ بِنَاصِيَتِهَا إِلَى عَوَالِمَ جَدِيدَةٍ، وَكُنَّا نَحْسَبُهَا فَقَدَتْ بَرِيقَهَا وَقُدْرَتَهَا عَلَى حَمْلِ مَعَانِي غَيْرَ التِّي حَمَلَتْهَا مِنْ فِرْطِ مَا اسْتُعْمِلَتْ.

وَهَذَا يَحْسِمُ مَرَّةً أُخْرَى، أَمْرَيْنِ عَلَى الأَقلِّ: رُوحُ الشَّاعِرِ وَرُوحُ العَصْرِ فِي تَجْدِيدِ أَنْفَاسِ اللُّغَةِ التِّي كَانَتْ تَبْدُو خَلِقَةً مُهَلْهَلَةً، فَـ" الشَّاعِر يَنْتَقِي رُمُوزَهُ وَمَوْضُوعَاتِهِ مِنْ مَسَاحَاتٍ كَوْنِيَّةٍ وَاسِعَةٍ وَمَبْذُولَةٍ لِلْجَمِيعِ، لِخُرُوجِهَا عَنْ دَائِرَةِ الذَّاكِرَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ المحْدُودَةِ وَارْتِبَاطِهَا بِمَا هُو شَامِلٌ وَكُلِّيٌّ، فَالدِّمَاءُ وَالغِنَاءُ، وَالأَشْجَارُ وَالأَمْطَارُ، وَالنُّجُومُ وَالغُيُومُ، وَالأَرْوَاحُ وَالعَصَافِيرُ، هِيَ مَوْضُوعَاتٌ تَكَادُ لاَ تَخْلُو مِنْهَا، أَوْ مِنْ أَحَدِهَا قَصِيدَةٌ فِي العَالَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا. لَكِنَّ نَسَقَ العَلاَقَاتِ التِّي تَرْبِطُ هَذِهِ المَوْضُوعَاتِ بِالرَّمْزِ، وَتَرْبِطُ الرَّمْزَ بِالعَالَمِ، هُوَ مَا يُحَقِّقُ لِلشَّاعِرِ خُصُوصِيَّتَهُ، وَيَخْلُقُ لَهُ لُغَةً تُمَيِّزُهُ، وَتَخُصُّ عَالَمَهُ الشِّعْرِيَّ دُونَ سِوَاهُ "[1]، وَتَسِمُ بِالفَرَادَةِ مَعْجَمَهُ حَتَّى يَعُودَ مَعْلَمًا مِنْ مَعَالِمِ أُسْلُوبِهِ، وَوَسِيلَةَ بِهَا تُدْرَكُ طُرُقُ وَأَفَانِينُ القَوْلِ عِنْدَهُ.

فَبَعْضُ الكَلِمَاتِ ذَاتُ الدَّلاَلاَتِ الثَّقَافِيَّةِ كَمَا هِيَ الحَالُ هُنَا مَعَ شِعْرِ الزُّهْدِ " تُطْلِعُنَا عَلَى عَالَمِ القَصِيدَةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّرْكِيبَةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلشَّاعِرِ وَهَذِهِ مُهِمَّةٌ جِدًّا فِي ضَبْطِ بَعْضِ الأُمُورِ التِّي تَتَعَلَّقُ بِدِرَاسَةِ الجَانِبِ الرَّمْزِيِّ فِي المسْتَوَى العَمِيقِ لِلقَصِيدَةِ "[2]، فَهِي تَكْشِفُ مُيُولاَتٍ، وَتَعْكِسُ نَزَعَاتٍ، وَتُرَتِّبُ دَلاَلاَتٍ خَلْفَ المَعْنَى الظَّاهِرِ لِتُكْسِبَهُ شَفَافِيَّةً

[1]- الرّمز الشّعريّ عند الصّوفيّة، نصر عاطف جودة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع ودار الكندي للطّباعة والنّشر والتّوزيع – بيروت، ط3، 1983م، ص57.

[2]- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة، م.س، ص55.

أَكْثَرَ، وَلَكِنَّهَا شَفَافِيَّةٌ غَيْرُ مُتَهَتِّكَةٍ، وَإِنَّمَا تَحْرِصُ عَلَى خُصُوصِيَّةِ اللَّفْظِ فِي الوَقْتِ الذِّي تَفْتَحُهُ عَلَى تَعَدُّدِيَّةِ التَّأْوِيلِ وَالقِرَاءَةِ. وَالسُّؤَالُ الأَبْرَزُ هُنَا: كَيْفَ نَسْتَوعِبُ اسْتِمْرَارِيَّةَ النَّصِّ فِي البَوْحِ وَقُدْرَتَهُ عَلَى تَجَاوُزِ عَقَبَاتِ الأَزْمِنَةِ بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ مُتَنَاقِضَاتٍ وَخُصُوصِيَّاتٍ لِيَبْقَى مُشِعًّا بِرُوحِ الشَّاعِرِ وَعَصْرِهِ؟

إِنَّ قِرَاءَةً مُتَأَنِّيَةً فِي التَّارِيخِ الأَدَبِيِّ عَبْرَ عُصُورِهِ المُخْتَلِفَةِ تَسْمَحُ لَنَا بِاسْتِخْلاَصِ مَا يُقِيمُهُ الشِّعْرُ مِنْ عَلاَقَةٍ مَعَ عَصْرِهِ، وَبِالتَّالِي معَ الشَّعْبِ فِي تِلْكَ الفِتْرَةِ، لِأَنَّهُ بِالنِّهَايَةِ لَيْسَ إِلاَّ ابْنَ تِلْكَ البِيئَةِ وَعُنْوَانَهَا الأَبْرَزَ، وَهَذَا " هُوَ الذِّي جَعَلَ أَكْثَرَ شُعَرَاءِ الشَّعْبِ مِنْ أَبْنَاءِ الطَّبَقَةِ العَامَّةِ العَامِلَةِ، وَيَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ أَعْلاَمَهُمْ النَّابِهِينَ وَهُمْ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَأَبُو نَوَّاسٍ وَأَبُو العَتَاهِيَّةِ وَمُسْلِمُ بْنَ الوَلِيدِ وَأَبُو تَمَّامٍ نَبَتُوا جَمِيعًا فِي الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا مِنْ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ "[1]، لِنَفْهَمَ طَبِيعَةَ الصِّلَةِ التِّي نُسِجَتْ بَينَهُمْ وَبَيْنَ مُجتَمَعَاتِهِمْ مِنْ خِلاَلِ اللُّغَةِ وَبِهَا مِمَّا انْعَكَسَ عَلَى إِبْدَاعِهِمْ فِي كُلِّيَّتِهِ، إِذْ لِكُلِّ مُبْدِعٍ " مِزَاجُهُ النَّفْسِيُّ وَثَقَافَتُهُ المتَمَيِّزَةُ، كَمَا أَنَّ لِكُلِّ عَصْرٍ سِمَاتُهُ الثَّقَافِيَّةُ، وَمِزَاجُهُ الفِكْرِيُّ، وَمِنْ ثَمَّ يَخْتَلِفُ أُسْلُوبُ كَاتِبٍ عَنْ كَاتِبٍ، كَمَا يَخْتَلِفُ أُسْلُوبُ عَصْرٍ عَنْ عَصْرٍ، إِنَّ المَوْقِفَ وَطَبِيعَةَ القَوْلِ وَمَوْضُوعَهُ، كُلُّ ذَلِكَ سَوْفَ يَفْرِضُ بِالضَّرُورَةِ أَدَاءً يَخْتَلِفُ عَنْ أَدَاءٍ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ لَدَى كَاتِبٍ وَاحِدٍ "[2] فِي مَوْضُوعَيْنِ أَوْ عَمَلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، أَوْ لِأَنَّهُ عَايَشَ فِتْرَتَيْنِ زَمَنِيَّتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ.

وَعَلَى افْتِرَاضِ " أَنَّ كُلَّ نَصٍّ يُعْتَبَرُ مُكَوِّنًا مِنْ مُكَوِّنَاتِ سِيَاقِ ظَرْفٍ مُعَيَّنٍ "[3] كَمَا يَقُولُ جِي آرْ فَرْثْ، فَإِنَّنَا سَنَقُولُ أَيْضًا بِأَثَرِ التَّطوُّرِ الحَاصِلِ فِي لُغَةِ الأُمَّةِ بِازْدِيَادِ ثَقَافَتِهَا، حِينَ تَتَخَلَّصُ، شَيْئًا فَشَيْئًا، مِنَ الغَرِيبِ وَالمهْجُورِ وَالمعَقَّدِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ وَاحِدًا مِنْ أَبْرَزِ مَقَايِيسِ الجَمَال فِي اخْتِيَارِ الكَلَمَةِ أَنْ تُفْصِحَ عَنْ ثَقَافَةِ المُبْدِعِ وَسِعَةِ مَعْجَمَهُ وَعَصْرِهِ الذِّي

[1]– الشّعر و طوابِعه الشَّعبيّة على مَرِّ العُصور، م.س، ص62.

[2]– البحثُ الأسلوبيّ– معاصرة وتراث، رجاء عيد، دار المعارف، الإسكندرية، ط1، 1993م، ص49.

[3]– اللُّغة والمعنى والسِّياق، جون لاينز، تر: عبّاس صادق الوهّاب، مُرَ: يُوئيل عزيز، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، وزارة الثّقافة والإعلام، ط1، 1987م، ص215.

يُشَكِّلُ، بِنِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ، مَعْجَمَهُ حَتَّى أَنَّهُ قَدْ يُمَثِّلُ ظَاهِرَةً تَسْتَرْعِي الانْتِبَاهَ، وَتَسْتَدْعِي الدِّرَاسَةَ.

وَهُوَ مَا سَنَقِفُ عِنْدَهُ، فِي حِينِهْ، مَعَ نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي سَعْيٍ لِفَهْمِ قُدْرَةِ الإِبْدَاعِ عَلَى مُجَارَاةِ الحَيَاةِ، وَلِمَ لَا، تَطْوِيعَهَا خِدْمَةً لِرِسَالَةِ الفَنَّانِ مَادَامَتِ القَصِيدَةُ تَكْشِفُ بِذَاتِهَا عَنِ الوُجُودِ[1]، الذِّي تَمَاهَى مَعَ ذَاتِهِ وَانْصَهَرَ فِيهَا، وَلَعَلَّ ذَلِكَ بَعْضُ حَقِيقَةِ الفَنِّ وَوَظِيفَتِهِ، إِذَا مَا اعْتَبَرْنَا أَنَّ " تَأْوِيلَ النَّصِّ هُوَ فِي الوَقتِ نَفْسِهِ تَأْوِيلٌ لِلذَّاتِ وَتَطْوِيرٌ لِجُهْدِهَا مِنْ أَجْل الانْتِمَاءِ إِلَى الوُجُودِ "[2]، وَهَذَا العَمَلُ المُتَبَادَلُ *Réciproque*، أَوْ لِنَقُلْ الفَهْمُ المُتَنَاظِرُ *Sémitrique*نَتِيجَةُ عَمَلِيَّةِ تَفَاعُلِ وَالْتِحَامِ أُفُقَيْنِ:أُفُقِ المُؤَوِّلِ وَأُفُق النَّصِّ تَسْمَحُ " لِلمُؤَوِّلِ أَنْ يَسْمَعَ السُّؤَالَ الذِّي كَانَ يَشْغَلُ النَّصَّ، وَالذِّي دَعَا النَّصَّ نَفْسَهُ إِلَى الوُجُودِ "[3]، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا جَعَلَ غْرِيش *Grisch* يُعْلِنُ أَنَّ " الكَلاَمَ الشِّعْرِيَّ، هُوَ الأَصْلُ وَالمَكَانُ الأَوَّلُ لِلتَّأْوِيلِ "[4].

سَيَقُودُنَا العَمَلُ فِي هَذَا الاتِّجَاهِ إِلَى البَحْثِ فِي الأَلْفَاظِ بِوَصْفِهَا رُمُوزًا ثَقَافِيَّةً مَبْثُوثَةً فِي ثَنَايَا النُّصُوصِ لِفَهْمِ مُكَوِّنَاتِهَا وَأَبْعَادِهَا الدَّلاَلِيَّةِ، مَا يَجْعَلُنَا نَتَرَدَّدُ جِيئَةً وَذَهَابًا بَيْنَ المُخَطَّطَيْنِ:(المَعْجَمِيِّ وَالتَّأْوِيلِيِّ) لِإِعَادَةَ رَسْمِ المَسَارِ الذِّي (يَتَسَرَّبُ) عَبْرَهُ المَعْنى إِلَى الخِطَابِ، وَهِيَ عَمَلِيَّةٌ لَهَا مَحَاذِيرُهَا، بِالتَّأْكِيدِ، لَكِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ، إِذْ تَجْعَلُ مَعْرِفَتَنَا " بِالرَّمْزِيَّةِ أَكْثَرَ دِقَّةً، فَالرَّمْزِيَّةُ تَبْدُو لَنَا الآنَ بِوَصْفِهَا أَثَرًا مِنْ آثَارِ المَعْنَى، وَإِنَّهُ لَأَثَرٌ يُمْكِنُ مُلاَحَظَتُهُ فِي مُخَطَّطِ الخِطَابِ، وَلَكِنَّهُ مُشَيَّدٌ عَلَى قَاعِدَةِ عَمَلٍ لِلإِشَارَاتِ أَكْثَرَ بِدَائِيَّةً. وَلَقَدْ أَمْكَنَ لِهَذَا العَمَلِ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى وُجُودِ مِحْوَرٍ لِلُّغَةِ غَيْرِ المِحْوَرِ الخَطِّيِّ، أَيْ إِلَى مِحْوَرٍ تَقُومُ عَلَيْهِ فَقَطْ

---

[1]- ينظر: الخبرة الجماليّة، سعيد توفيق، م.س، ص121.

[2]- اللّغة والتّأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربيّة والتّأويل العربيّ الإسلاميّ، عمارة ناصر، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، دار الفارابي، منشورات الاختلاف، ط1، 1428هـ/2007م، ص22.

[3]- فهم الفهم – مدخل إلى الميتافيزيقا – نظريّة التّأويل من أفلاطون إلى جادامير، عادل مصطفى، م.س، ص317.

[4]- نَقْلاً عَن: اللّغة والتّأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربيّة والتّأويل العربيّ الإسلاميّ، عمارة ناصر، م.س، ص22.

السَّلاَسِلُ المتَعَاقِبَةُ وَالمتَجَاوِرَةُ التِّي تَصْدُرُ عَنِ النَّحْوِ" [1]. وَالمَسْأَلَةُ الأَخِيرَةُ هَذِهِ، سَنَتْرُكُ التَّفْصِيلَ فِيهَا حِينَمَا نَعْرِضُ لِلتَّرَاكِيبِ.

وَلْنَعُدْ الآنَ إِلَى لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَالتِّي هِيَ صُورَةٌ لِعَصْرِهِ وَثَقَافَةِ عَصْرِهِ، قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً مِنْ خَصَائِصِ شِعْرِهِ، وَمِيزَةً لَصِيقَةً بِه، وَنَقْصِدُ بِهَا السُّهُولَةَ التِّي اعْتَرَتْ أَلْفَاظَهُ، وَالعَفْوِيَّةَ التِّي رَافَقَتْ اسْتِعْمَالَهَا. وَهِيَ سُهُولَةٌ غَلَبَتْ عَلَى شِعْرِ العَبَّاسِيِّينَ فِي المُجْمَلِ، حَتَّى صَارَتْ ظَاهِرَةً أَوْ كَالظَّاهِرَةِ حِينَ مَالَ الشُّعَرَاءُ إِلَى الكَلِمَةِ البَسِيطَةِ، سَهْلَةِ المَخْرَجِ، خَفِيفَةِ الوَقْعِ، وَإِنْ كَانُوا ذَوِي مُكْنَةٍ تُؤَهِّلُهُمْ لِمُدَاعَبَةِ اللُّغَةِ بِاقْتِدَارٍ. فَهَاهُوَ أَبُو نُوَّاسٍ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، يَسْتَحْدِثُ " أُسْلُوبًا جَدِيدًا عَمِدَ إِلَيْهِ فِي بَعْضَ الأَحْيَانِ، وَهُوَ الأُسْلُوبُ الشِّعْرِيُّ السَّهْلُ القَرِيبُ مِنَ الكَلاَمِ اليَوْمِيّ المُعْتَادِ، فِي الوَقْتِ الذِّي يَحْتَفِلُ فِيهِ أَكْثَرُ الشُّعَرَاءِ الخَمْرِيِّينَ بِالأُسْلُوبِ الجَزْلِ وَالدِّيبَاجَةِ المُشْرِقَةِ والبُحُورِ الطَّوِيلَةِ مِثْلَمَا لاَحَظْنَا عِنْدَ مُسْلِمٍ وَأَبِي الهِنْدِيِّ وَأَبِي الشِّيصِ وَأَبِي نَوَّاسٍ نَفْسِهِ "[2].

لَقَدْ صَارَتْ السُّهُولَةُ أُسْلُوبًا شِعْرِيًّا مُشْتَرَكًا حَتَّى فِي غَرَضَيْنِ مُتَنَاقِضَيْ المَسْلَكِ، مُتَضَارِبَيْ المَضَامِينِ، كَالمُجُون وَالزُّهدِ، بَلْ إِنَّها قَدْ تَجْتَمِعُ فِي شِعْرَ الشَّاعِرِ الوَاحِدِ. فَهَاهُو ذَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ حِينَ سُئِل: مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ؟، يُجِيبُ أَنَّهُ ذَاكَ " الذِّي يَقُولُ فِي المَدِيحِ [مِنَ الطَّوِيلِ]:

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْـنَا عَلَيْك بِصَالِحٍ *** فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ الذِّي نُثْنِي.
وَإِنْ جَرَتِ الأَقْدَارُ مِنَّا بِمَدْحَةٍ *** لِغَيْـرِكِ إِنْسَـانًا فَأَنْتَ الذِّي نَعْنِي.

وَالذِّي يَقُولُ فِي الزُّهْدِ [مِنَ الطَّوِيلِ]:

وَمَا النَّـاسُ إِلاَّ هَالِكٌ وَابْنُ هَـالِكٍ *** وَذُو نَسَبٍ فِي الهَالِكِينَ عَرِيقِ.

[1]- صراع التّأويلات، بول ريكور، م.س، ص108.

[2]- الشّعر والشّعراء في العصر العباسيّ، مصطفى الشّكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، جانفي 1986م، ص207.

فَقُــلْ لِغَرِيــبِ الــدَّارِ إِنَّكَ ظـَاعِنٌ *** إِلَى مَنْزِلٍ نَائِي المَحَلِّ سَحِيقِ.
وَإِذا امْتَحَنَ الدُّنيــا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ *** لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِ. "[1]

وَهُو يَقْصِدُ أَبَا نُوَّاسٍ، فَأَنْتَ تَرَى أَنّ وَاحِدًا مِنَ العَوَامِلِ الأَسَاسِ التِّي بِهَا حَكَمَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لِهَذا الشَّعْرِ بِالسَّبْقِ إِنَّمَا هِيَ فِي هَذَا اللَّفْظِ الذِّي أَدْرَكَ المَعْنَى وَأَحَاطَ بِهِ عَلَى سُهُولَتِهِ.

فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ إِذَنْ أَنَّ نَجِدَ أَصْدَاءَ المعْجَمِ الشِّعْرِيِّ القَدِيمِ فِي الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ عُمُومًا، وَفِي شِعْرِ الزُّهْدِ مَوْضُوعِ دِرَاسَتِنَا هَذِهِ، كَوْنَهُ المصْدَرَ الأَوَّلَ لِثَقَافَةِ الشَّاعِرِ وَقْتَهَا، لَكِنَّنا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، لاَ نَسْتَطِيعُ إِنْكَارَ خُضُوعِ لُغَتِهِ لِقَوَانِينِ التَّطَوُّرِ الحَضَارِيِّ التِّي تَفْرِضُ عَلَيْهِمَا (اللُّغَةُ وَالشَّاعِرُ) التَّعَامُلَ مَعَ مَا يَسْتَجِدُّ مِنْ أَسَالِيبِ الكَلاَمِ وَصِيَغِهِ وَذَلِكَ أَنَّ " اللُّغَةَ تَابِعَةٌ فِي أَطْوَارِهَا إِلَى أَطْوَارَ أَهْمَلَهَا المتَكَلِّمُونَ "[2]. يُرَاعُونَ العَوَامِلَ التِّي تَفْرِضُهَا البِيئَةُ، وَيَسْتَجِيبُونَ لِلمُؤَثِّرَاتِ التِّي تَصْبِغُ الحَيَاةُ بِهَا كَلاَمَهُمْ كَمَا هِيَ حَالُهُمْ فِي هَذَا العَصْرِ.

يَدْفَعُنَا هَذَا الأَمْرُ إِلَى الحَدِيثِ عَنْ ظَاهِرَتَيْنِ اجْتِمَاعِيَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْنِ حَدَّ التَّضَارُبِ، سَيَكُونُ لَهُمَا انْعِكَاسٌ شَدِيدُ الأَثَرِ، لَيْسَ عَلَى مَوْضُوعَاتِ الشِّعْرِ فَحَسْبَ، وَإِنَّمَا سَيَمْتَدُّ إِلَى لُغَتِهِ، فِي طَرِيقَةِ اخْتِيَارِهَا وَمَا يَتَرَتَّبُ عَنْهَا مِنْ دَلاَلَةٍ. وَنَعْنِي بِالظَّاهِرَتَيْنِ التَّطَرُّفُ الذِّي تَنَاوَشَ الإِنْسَانَ العَبَّاسِيَّ وَاجْتَذَبَهُ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، فَكُلُّ غُلُوٍّ سَيُنْتِج حَتْمًا ثَوْرَةً مُعَاكِسَةً، فَقَدْ " غَلاَ القَوْمُ فِي تِلْكَ الفِتْرَةِ البَاكِرَةِ العَبَّاسِيَّةِ وَاشْتَطُّوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَبَالَغُوا فِي طَلَبِ المَلَذَّاتِ وَأَسْرَفُوا فِي الرَّكْضِ وَرَاءَ الشَّهَوَاتِ وَلَمْ يَقِفْ بِهِمُ الأَمْرُ عِنْدَ ذَلِكَ بَلْ انْدَفَعُوا إِلَى الزَّنْدَقَةِ وَالخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الإِيمَانِ (...)، فَكَانَ مِنَ البَدَاهَةِ أَنْ يَظْهَرَ تَيَّارٌ آخَرُ

[1]– تاريخ بغداد، ج8، أبُو بكر أحمَد بن عليٍّ بن ثابت الشّهير بالخَطيب البغداديّ، تح و تع بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م، ص484.

[2]– الآلة والأداة وَما يتبعهُما مِنَ الملابِسِ وَالمرَافِقِ وَالهَنَاتِ، معرُوف الرّصافي، تح: عبد الحميد الرشودي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، د.ط، د.ت، ص5.

عَلَى نَقِيضِ تَيَّارِ اللَّذَّةِ وَطَلَبِ المُتْعَةِ وَالإِقْبَالِ عَلَى الحَيَاةِ، إِنَّهُ تَيَّارُ الزُّهْدِ وَالابْتِعَادِ عَنْ مَبَاهِجِ الحَيَاةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى التُّقَى وَالإِيمَانِ "[1]. فَهَذَانِ التَّيَّارَانِ سَيَطْبَعَانِ الحَيَاةَ العَبَّاسِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ، لَعَلَّ أَبْرَزَهَا سَيَكُونُ المُسْتَوَى الفَنِّيَّ الأَدَبِيَّ.

ثُمَّ إِنَّ ظَاهِرَةً أُخْرَى تَوَلَّدَتْ عَنْ هَاتَيْنِ، تَمَثَّلَتْ فِي حَدِيثِ الشَّاعِرِ الوَاحِدِ بِلِسَانَيْ حَالٍ مُتَنَافِرَيْنِ مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ وَالمَضْمُونِ، حَيْثُ إِنَّ قِسْمًا غَيْرَ يَسِيرٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ " الذِّينَ أَقْبَلُوا عَلَى الزُّهْدِ وَسَعُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا فِيهِ شِعْرَهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ الذِّينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى مُجْتَمَعِهِمْ إِثْمًا وَمَعْصِيَةً وَانْحِرَافًا، أَوْ عَلَى وَجْهٍ أَدَقَّ هُمْ بَعْضُ أُولَئِكَ الذِّينَ انْغَمَسُوا فِي طَلَبِ اللَّذَّةِ المحَرَّمَةِ حَتَّى جَرَفَهُمْ تَيَّارُهَا وَغَمَرَهُمْ عُبَابُهَا، إِنَّ مِنْهُمْ أَبَا نُوَاسٍ، وَمُسْلِمَ بْنَ الوَلِيدِ، وَصَالِحَ بْنَ عَبْدِ القُدُّوسِ، وَأَبَا العَتَاهِيَّةِ "[2]. لِذَلِكَ لاَ نَعْجَبُ حِينَ نَفْتَحُ دَيوَانَ أَحَدِهِمْ فَنَجِدُهُ جَمَعَ بَيْنَ دَفَّتَيْهِ النَّقِيضَيْنِ، بِمُسْتَوَيَاتٍ تَخْتَلِفُ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَالآخَرَ، وَبَينَ عَهْدٍ وَعَهْدٍ: زَمَنِ التَّصَابِي وَالشَّبَابِ، وَزَمَنَ الشَّيْبِ وَالخُضَابِ، وَهِيَ حَالُ شَاعِرِنَا لَمَّا تَرَكَ المُجُونَ وَاللَّهْوَ وَمَالَ إِلَى تَنْزِيهِ نَفْسِهِ وَشِعْرِهِ عَنْ ذَلِكَ التَّوَجُّهِ.

لَقَدْ أَتَانَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ مِنْ وَاقِعٍ يَكَادُ يَنْطِقُ بِحَجْمِ البُؤْسِ الذِّي يَلُفُّهُ، إِذْ عَمِلَ أَبُوهُ حَجَّامًا، ضَيِّقَ الحِيلَةِ، لِذَا اضْطُرَّ الشَّاعِرُ وَأَخُوهُ زَيْدٌ لاحْتِرَافِ بَيْعِ الجِرَارِ، يُنَادِي عَلَيْهَا فِي أَزِقَّةِ الكُوفَةِ لِيَسُدَّ العَجْزَ، وَيَرُدَّ الفَاقَةَ [3] إِلَى أَنْ تَفَجَّرَ يَنْبُوعُ الشِّعْرِ عِنْدَهُ، فَخَالَطَ الشُّعَرَاءَ، وَنَادَمَ الخُلَفَاءَ وَالأُمَرَاءَ عَهْدًا طَوِيلاً، يَلْهُو فِي مَسَارِبِ الحَيَاةِ، وَيَطلُبُ لَذِيذَ العَيْشِ فِيهَا، وَقَدْ تَنَعَّمُ فِيهِ فِعْلاً، " ثُمَّ نَسَكَ وَعَدَلَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى الشِّعْرِ فِي الزُّهْدِ وَطَرِيقَةِ الوَعْظِ، فَأَحْسَن القَوْلَ فِيهِ، وَجَوَّدَ، وَأَرْبَى عَلَى كُلِّ مَنْ ذَهَبَ ذَلِكَ المَذْهَبَ. وَأَكْثَرُ شِعْرِهِ حِكَمٌ وَأَمْثَالٌ "[4]. وَهِيَ ذِي الفَتْرَةُ التِّي سَيَنْكَبُّ هَذَا البَحثُ عَلَى دَرْسِهَا وَتَمْحِيصِ لُغَةِ الشَّاعِرِ

---

[1]- الشّعر و الشّعراء في العصر العباسيّ، مصطفى الشّكعة، م.س، ص210.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- يُنظرُ: الشّعر و طوابِعه الشَّعبيّة على مَرِّ العُصور، شوقي ضيف، م.س، ص62.

[4]- تاريخُ بغداد، ج7، م.س، ص.ن.

وَخَصَائِصَهَا إِبَّانَهَا.

وَلَيسَ يَعْنِينَا كَثِيرًا هُنَا الحَدِيثُ عَنْ تَشْكِيكِ العَدِيدِ مِنَ النُّقَّادِ وَالمُؤَرِّخِينَ، مُتَقَدِّمِينَ وَمُتَأَخِّرِينَ، فِي حَقِيقَةِ زُهْدِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِقَدْرِ مَا يَهُمُّنَا اسْتِخْلاَصُ طَرِيقَتِهِ فِي مُقَارَبَةِ هَذَا الغَرَضِ وَالأَدَوَاتِ الفَنِّيَّةِ المُخْتَلِفَةِ التِّي وَظَّفَهَا لِبُلُوغِ الصِّدْقِ الفَنِّيِّ الذِّي هَيَّأَ لَهُ التَّرَبُّعَ عَلَى عَرْشِ شُعَرَاءِ هَذَا اللَّوْنِ فِي زَمَنِهِ وَمِنْ بَعْدِهِ، وَلَرُبَّمَا إِلَى عَهْدِنَا هَذَا بِغَيْرِ مُنَافِسٍ. إِذَنْ، يَهُمُّنَا بِالأَسَاسِ فِي هَذَا البَحْثِ الوُصُولُ إِلَى تَفْكِيكِ مَاهِيَةِ القَوْلِ عِنْدَ الشَّاعِرِ مِنْ خِلاَلِ الوُقُوفِ عَلَى المَعْجَمِ الذِّي كَرَّسَهُ " لُغَةً فَارِقَةً " فِي عَالَمِ الشِّعْرِ عُمُومًا، وَغَرَضِ الزُّهْدِ بِوَجْهٍ أَخَصَّ. وَإِنَّهُ لاَ يَخْفَى عَلَى دَارِسِ نِتَاجِ الشَّاعِرِ أَنَّ لُغَتَهُ كَانَتْ مِنَ المُنْطَلَقَاتِ التِّي بَنَى عَلَيْهَا المُشَكِّكُونَ فِي صَفَاءِ زُهْدِهِ حُكْمَهُمْ ذَاكَ، فَهَاهُو مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ يَرْمِيهِ بِالزَّنْدَقَةِ كَوْنَهُ " يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فِي شِعْرِهِ وَلاَ يَذْكُرُ الجَنَّة وَالنَّارَ "[1] عَلَى عَادَةُ المَانَوِيَّةِ وَالمَارِقِينَ فِي زَمَانِهِ!

لَقَدْ ذَكَرْنَا، مِنْ قَبْلُ، أَنَّ العَصْرَ العَبّاسِيَّ بِكُلِّ مَا أَحَاطَ بِهِ مِنْ تَنَاقُضَاتٍ، سَوَاءً عَلَى الصَّعِيدِ الخَاصِّ أَوِ العَامِّ، كَانَ لَهُ شَدِيدُ الأَثَرِ عَلَى المَوْرُوثِ الشِّعْرِيِّ لِهَذِهِ المَرْحَلَةِ، إِذْ عَكَسَ جَانِبًا كَبِيرَ الأَهَمِيَّةِ مِنَ الشِّعْرِ فِيهَا لِمُطَابَقَتِهِ نَزْعَتَيْ المُجُونُ وَالنُّسْكِ اللَّتَيْنِ شَاعَتَا آنَذَاكَ. فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ، وَالحَالُ هَذِهِ، أَنْ تُسَايِرَ اللُّغَةُ تِلْكَ التَّقَلُّبَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةَ إِيجَابًا وَسَلبًا، فَهِيَ تُجَدِّدُ ثَوْبَهَا كُلَّمَا اقْتَضَتِ الضَّرُورَةُ وَتَهَيَّأَ الظَّرْفُ، فَحَيَوِيَّةُ اللُّغَةِ انْعِكَاسٌ لِحَيَوِيَّةِ المُجْتَمَعِ، وَعَكْسُهُ صَحِيحٌ تَمَامًا.

كَانَ لِلْحَضَارَةِ وَالتَّنَوُّعِ الذِّي عَرَفَتْهُ العَرَبُ فِي العَهْدِ العَبَّاسِيِّ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَشَكُّلِ قَامُوسٍ جَدِيدٍ مُسْتَلْهَمٍ مِنْ أَجْوَاءِ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ المُزْدَحِمَةِ بِالأَجْنَاسِ وَالثَّقَافَاتِ وَالعَادَاتِ الوَافِدَةِ إِلَيْهِمْ، بَلْ إِنَّ القَامُوسَ القَدِيمَ ذَاتَهُ اكْتَسَبَ بِالاسْتِعْمَالِ الجَدِيدِ دَلاَلَةً جَدِيدَةً

[1]- الأغاني، ج4، الأصفهَانِيّ، م.س، ص34.

تتَمَاشَى وَأَحْوَالَ النَّاسِ، التِّي مَعَ رَغْدِ العَيْشِ، وَالهُدُوءِ السِّيَاسِيِّ، وَانْقِضَاءِ عَصْرِ الفُتُوحَاتِ وَعَدَمِ الاسْتِقرَارِ جَعَلَهُمْ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ سَعْيًا وَرَاءِ مَلَذَّاتِ الحَيَاةِ وَطِيبِهَا، وَ" إِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ تَنْزِعُ فِي تَطَوُّرِهَا كَسَائِرِ اللُّغَاتِ إِلَى السُّهُولَةِ وَالتَّيْسِيرِ، وَلِذَلِكَ نَرَاهَا فِي ابْتِغَاءِ التَّوْفِيرِ لِلْجُهْدَيْنِ: الذِّهْنِيِّ وَالعَضَلِيِّ لِلإِنْسَانِ، تَتَخَلَّى عَنْ كَثِيرٍ مِنَ التَّفْرِيعَاتِ المُعَقَّدَةِ، وَالأَنْظِمَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ، وَالصِّيَغِ الشَّكْلِيَّةِ المُجْهِدَةِ، وَالأَصْوَاتِ العَسِيرَةِ النُّطْقِ "[1]، خُصُوصًا، وَالأَسْوَاقُ وَالحَانَاتُ، وَغَيْرُهَا مِنَ التَّجَمُّعَاتِ قَدْ عَجَّتْ بِالدَّخِيلِ الذِّي يَلْحَنُ فِي الكَلاَم، فَيَطلُبُ السَّهْلَ المَقْدُورَ عَلَيْهِ.

وَبَعْدَ أَنْ سَرَى هَذَا الأَمْرُ فِي أَوْصَالِ العَامَّةِ وَصَلَ إِلَى خَاصَّتِهِمْ، وَدَبَّ فِي كَلاَمِهِمْ وَامْتَزَجَ بِهِ، مُرْغَمِينَ أَوْ مُخَيَّرِينَ، تِبَاعًا لِأَذْوَاقِ الأَغْلَبِيَّةِ، أَوْ نُزُولاً عِنْدَ مُسْتَوَى أُولَئِكَ المُستَعْرِبِينَ الذِّينَ صَعُبَ عَلَيْهِمْ فَهْمُ مَنْطِقِ العَرَبِ وَالعَرَبِيَّةِ، بَلْ إِنَّ الشُّعَرَاءَ أَنْفُسَهُمْ، مَا لَبِثُوا أَنْ اسْتَمْرَؤُوا هَذِهِ السُّهُولَةَ التِّي هِيَ، بِشَكْلٍ مِنَ الأَشْكَالِ، صُورَةٌ عَنْ لَطِيفِ العَيْشِ وَسَعَتِهِ. فَاللُّغَةُ بِوَصْفِهَا ظَاهِرَةً فَنِّيَةً، تَتَأَثَّرُ كَمَا عَلِمْنَا، بِحَرَكَاتِ التَّطَوُّرِ وَالتَّجْدِيدِ التِّي تَطْرَأُ عَلَى الشَّكْلِ العَامِّ لِلقَصِيدَةِ فِي رِحْلَةِ انْتِقَالِهَا مِنْ مَرْحَلَةٍ حَضَارِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ إِلَى غَيْرِهَا، وَعَبْرَ العُصُورِ المُتَبَايِنَةِ الأَمْزِجَة وَالأَهْوَاءِ وَالثَّقَافَاتِ، فَتَخْتَفِي أَلْفَاظٌ لِتَظْهَرَ أُخْرَى جَدِيدَةٌ اقْتَضَتْهَا الظُّرُوفُ، وَاسْتَدْعَتْهَا المَرْحَلَةُ.

ثُمَّ إِنَّ الذِّي يَجِبُ أَلاَّ نَغْفَلَ عَنْهُ فِي مُعَادَلَةِ: الشِّعْرِ/الخِطَابِ، هُوَ المُتَلَقِّي الذِّي لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَغِيبَ عَنْ ذِهْنِ المُبْدِعِ لَحْظَةَ البَوْحِ، فَاللُّغَةُ مِنْهُ وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي، فَرْدًا كَانَ أَوْ جَمَاعَةً، لِذَلِكَ نَأْخُذُ فِي الحُسْبَانِ مُسْتَوَاهُ الثَّقَافِيَّ وَمُحِيطَهُ الاجْتِمَاعِيَّ، وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ، مَا يُرِيدُ سَمَاعَهُ وَيَطْرَبَ لَهُ، لِذَا كَثِيرًا مَا يَتَجَاوَزُ الشَّاعِرُ " الخِطَابَ الشِّعْرِيَّ المؤَسَّسَ عَلَى رُؤْيَةٍ جَمَالِيَّةٍ إِلَى خِطَابٍ تَحْرِيضِيٍّ مُبَاشِرٍ. وَوَظِيفِيَّةُ الشِّعْرِ جَعَلَتْنَا نَسْتَنْتِجُ أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ يُفَكِّرُ فِي

[1]- الاقتصادُ اللّغويُّ في صياغة المفردِ، قَباوة فخر الدّينِ، مكتبة لبنان ناشرون- الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، لونجمان- دار نوبار، القاهرة، ط1،2001م، صص32،31.

الجُمْهُورِ الذِّي يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ وَكَذَا نَوْعِيَّتِهِ "[1]. فَمِنَ الضَرُورَةِ أَنْ يَلْتَفِتَ المُبْدِعُ إِلَى أَنَّ تَنَافُرَ الأَلْفَاظِ فِي نَصٍّ أَدَبِيٍّ مَا تَجْعَلُ قِرَاءَتَهُ ثَقِيلَةً مُسْتَكْرَهَةً، يَتَلَقاهُ المُخَاطَبُ بِالنُّفُورِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُتَاحَ لَهُ وُلُوجَهُ الفِعْلِيَّ، فَيَكَدَّ اللِّسَانُ وَتَسْتَغْلِقَ المعَانِي وَتَتَقَاصَى الأَغْرَاضُ، مِمَّا يُبْعِدُهُ عَنْ مَقْصِدِهِ فِي الإِخْبَارِ وَإِفَادةِ المُتَلَقِّي[2]، فَيَفْقِدُ شَرْعِيَّةَ وُجُودِهِ، وَمَشْرُوعِيَّةَ اسْتِمْرارِيَّتِهِ وَخُلُودِهِ.

تَبَعًا لِهَذَا، فَإِنَّ لِينَ الحَضَارَةِ التِّي انْغَمَسَ فِيهَا العَرَبُ بَعْدَ أَنْ خَرَجَتْ مِنْ عَهْدِ الخُشُونَةِ وَالقُوَّةِ التِّي أَجْبَرَتْهُمْ عَلَيْهَا طَبِيعَةُ حَيَاةِ البَدَاوَةِ، وَشَظَفُ العَيْشِ فِي الصَّحَارَى، جَعَلَ لُغَتَهُمْ أَيْضًا تُرَافِقُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ التِّي لاَ مَنَاصَّ مِنْها، لِأَنَّ غَرَابَةَ اللَّفْظِ وَتَعْقِيدَهُ لَمْ يَعُدْ مُتَطابِقًا مَعَ الأَجْوَاءِ الجَدِيدَةِ، وَلاَ هُوَ يُوَافِقُ مُيُولاَتِهِمْ وَتَوَجُّهَاتِهِمْ عَامِّهَا وَخَاصِّهَا. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنْ نَحْنُ جِئْنا إِلَى الشِّعْرِ، شِعْرِ الزُّهدِ بِالتَّحْدِيدِ، وَجَدْنَا النَّاسَ تَرَكَتْ مَا أَلِفَتْهُ إِلَى عَهْدٍ قَرِيبٍ مِنْ جَزَالَةِ لَفْظٍ، وَرَصَانَةِ كَلِمَةٍ، وَاتَّجَهَتْ إِلَى اليُسْرِ الذِّي قَارَبَ السُّوقِيَّ مِنَ الكَلاَمِ فِي غَالِبِ المَقَامَاتِ.

ذَلِكَ أَنَّ " العَامَّةَ رُبَمَّا اسْتَخَفَّتْ أَقَلَّ اللُّغَتَيْنِ أَوْ أَضْعَفَهُمَا، وَتَسْتَعْمِلُ مَا هُوَ أَقلُّ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ اسْتِعْمَالاً وَتَدَعُ مَا هُوَ أَظْهَرُ وَأَكْثَرُ "[3]، لِذَا لاَ يُمْكِنُ أَنْ نَعُدَّ قُوَّةَ الأَلْفَاظِ سِمَةً مِنْ سِمَاتِ هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ، إِذْ مَالَ الشُّعَرَاءُ إِلَى سُهُولَةِ الأَلْفَاظِ وَسَلاَسَتِهَا وَوُضُوحِهَا. عَلَى أَنَّ الجَّاحِظَ يَعُودُ فَيُنَبِّهُ إِلَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ يَسْتَخِفُّونَ " أَلْفَاظًا وَيَسْتَعْمِلُونَهَا وَغَيْرُهَا أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهَا.(...) وَالجَارِي عَلَى أَفْوَاهِ العَامَّةِ غَيْرُ ذَلِكَ، لاَ يَتَفَقَّدُونَ مِنَ الأَلْفَاظِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِالذِّكْرِ وَأَوْلَى بِالاسْتِعْمَالِ "[4]، وَبَعْضُ ذَلِكَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ العَقَّادُ وَهُوَ يَعْرِضُ لأَبْيَاتِ كُثَيِّرٍ الشَّهِيرَةَ[5]، مُبَيِّنًا أَنَّ النَّصَّ الأَدَبِيَّ يَقُومُ عَلَى عَنَاصِرَ

---

[1]- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة، حسين خمري، م.س، ص144.

[2]- ينظر: علمُ أساليبِ البيانِ، غَازي يمُوت، دار الفكر اللّبنانيّ، ط2، 1995م، صص34،35.

[3]- البيان والتّبيين، ج1، الجاحظ، م.س، ص41.

[4]- البيان والتبيين، نفسه، ص.ن.

[5]- والأبيات هي: ولمَّا قضـــينا من منًى كُلّ حـاجةٍ *** ومسّح بالأركـــان مَن هُو ماسحُ.
وشُدّت على حدب المَطايا رحالُنا *** ولم يُنظر الغـادي الذي هو رائحُ.

عَدِيدَةٍ مُتَدَاخِلَةٍ " غَيْرَ اللَّفْظِ السَّهْلِ الذِّي يَحْسَبُ قَوْمٌ مِنَ النُّقَّادِ أَنَّهُ كُلُّ مَا فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ مِنْ فَضِيلَةِ الجَوْدَةِ وَمَزِيَّة الإِعْجَابِ "[1].

فَوَجَبَ علَى المُبْدِعِ المُتَمَرِّسِ الفَطِنِ إِدْرَاكُ مَوَاقِعِ تِلْكَ الخُيُوطِ الرَّفِيعَةِ عَلَى رُقْعَةِ الكَلاَمِ، وَالوَاقِعَةِ فِي المَسَاحَةِ بَيْنَ قُطْبَيْ السَّخِيفِ السُّوقِيِّ الصَّادِر عَنْ طَبَقَةِ العَامَّةِ، وَالمَلِيحِ الحَسَنِ الذِّي يَكُونُ مُحَصِّلَةَ الصَّنْعَةِ وَالاعْتِنَاءِ عِنْدَ أَهْلِ البَلاَغَةِ، وَالتِّي تَتَحَدَّدُ بِخَوَاصَّ فِي ثَنَايَا الكَلاَمِ ذَاتِهِ. فَعَلَى الشَّاعِرِ وَهُوَ يَخْتَارُ هَذِهِ اللُّغَةَ البَسِيطَةَ السَّهْلَةَ التِّي تَكَادُ تُلاَمِسُ – فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ– لُغَةَ اليَوْمِيِّ، اللُّغَةَ العَادِيَّةَ بَلْ إِنَّها تُلاَمِسُهَا فِعْلاً، أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْ أَنْ تَفْقِدَ دَفَقَهَا وَشَاعِرِيَّتَها، وَهُوَ مَا يُؤشِّرُ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى اللَّعِبِ بِاللُّغَةِ فيُنْزِلُهُا مَنَازِلَهَا التِّي مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ تَهَبَهَا الحَيَوِيَّةَ وَالدَّيْمُومَةَ، حَتَّى لَكَأَنَّ شَاعِرَ الزُّهْدِ وَهُوَ يَتَوَسَّلُ بِهَذِهِ اللُّغَةِ الشَّفَّافَةِ يَسْعَى إِلَى مَحْوِ الحَوَاجِزِ بَيْنَهُ وَبيْنَ المُتلَقِّي، وَكَسْرِ عَائِقِ الغَرِيبِ وَالمُسْتَعْصِي الذِّي قَدْ يَشْغَلُ المُخَاطَبَ عَنْ حَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ التِّي يَحْمِلُهَا النَّصُّ.

وَلَعَلَّ بَعْضَ أَسْرَارِ هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ تَحْتَوِيهَا لُغَتُهُ وَتُخْرِجُهَا إِلَى الوُجُودِ فِي سَلاَسَةٍ وَيُسْرٍ، لِذَلَكَ اشْتَرَطَ الجَاحِظُ فِي بَعْضِ مَقَامَاتِ القَوْلِ مِنَ الأَلْفَاظِ " مَا رَقَّ وَعَذُبَ وَخَفَّ وسَهُل وَكَانَ مَوْقُوفًا عَلَى مَعْنَاهُ وَمَقْصُورًا عَلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ "[2]، كَمَا هِي الحَالُ مَعَ الزُّهْدِ وَالتَّصوُّفُ الذِّي يَرَى كَاسِرَرْ أَنَّهُ يَتَّجِهُ " بِأَسْرِهِ نَحْوَ عَالَمٍ يَتَخَطَّى اللُّغَةَ، عَالَمٍ يُشَارِفُ عَلَى الصَّمْتِ "[3]، وَكَأَنَّ المُبْدِعَ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ مِنْ غَيْرِ كَلاَمٍ، وَيَنْطِقَ بِلاَ صَوْتٍ لَمَّا كَانَتْ لُغَتُهُ مُنْسَابَةً مُتَسَلِّلَةً!

وَهَذَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ لَمَّا تَنَسَّكَ أَيَّامَ الرَّشِيدِ، وَخَالَطَ العُلَمَاءَ وَالصَّالِحِينَ، زَاهِدًا فِي

أخذنا بأطـــرافِ الأحاديث بيننا *** وسالت بأعنـاق المَطيِّ الأباطحُ.

[1]– مراجعات في الآداب و الفنون، عَبّاس مَحمُود العقاد، م.س، ص59.

[2]– كِتابُ التّربيعِ والتّدوْيرِ، الجاحظ، تح: شارْل بْلاَّثْ، دمشق، د.ط، 1955م، ص20.

[3]– اللّغةُ والأُسطورَةُ، إرنست كَاسِرَرْ، م.س، ص136.

الدُّنْيَا، رَاجِيًا العَفْوَ وَالنَّجَاةَ، سَلَكَ السُّهُولَةَ أُسْلُوبًا، وَاتَّخَذَ الوَاضِحَ مِنَ اللُّغَةِ أَدَاةً. فَيَنْظِمُ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ مِنْ حَيَاتِهِ الشِّعْرَ الوَافِرَ فِي الزُّهْدِ وَالمَوَاعِظِ مَا لاَ مَثِيلَ لَهُ، يَسْتَقِي أَغْلَبَهُ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، حَتَّى طَارَ ذِكْرُهُ عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَأَقْبَلَ عَلَيْه خَاصَّةُ الجُمْهُورِ وَعَامَّتُهُ، حَتَّى أَنَّ الرَّشِيدَ لَيَتَعَصَّبُ لَهُ وَيُقَدِّمُهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ فُحُولِ مُعَاصِرِيهِ، وَأَمَّا العَامَّةُ فَازْدَحَمُوا مِنْ حَوْلِهِ يَسْمَعُونَ شِعْرَهُ وَيَطْرَبُونَ لَهُ وَيَتَجَاوَبُونَ مَعَهُ؛ لِإِحْسَاسِهِمْ بِأَنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرِهِمْ الدِّينِيَّةِ، وَمُيُولِهِمْ الرُّوحِيَّةِ[1].

لَقَدْ كَانَ لِهَذَا الوُضُوحِ، وَلاَ رَيْبَ، أَثَرٌ فِي تَقْرِيبِ شِعْرِ الزُّهْدِ إِلَى نُفُوسِ المسْتَمِعِينَ وَتَحْبِيبِهِ لِقُلُوبِهِمْ، حَتَّى عَادَ أَقْرَبَ مِنْهُ لِلُغَةِ النَّثْرِ مِنْ لُغَةِ الشِّعْرِ، يَحْمِلُ سِمَاتٍ كَثِيرةٍ مِنْهُ، كَاسْتِعْمَالِ أَسَالِيبِ النِّدَاءِ وَالاسْتِفْهَام وَالتَّحْذِيرِ، مُعَزَّزَةً بِالحِكَمِ وَالعِبَرِ وَالأَمْثَالِ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّزْعَةِ الوَعْظِيَّةِ وَالتَّوْجِيهِيَّةِ التِّي تَطْبَعُ شِعْرَ الزُّهْدِ، وَالتِّي وَلَّدَتْهَا– كَمَا أَسْلَفْنَا القَوْلَ– مُعْطَيَاتٌ سِيَاسِيَّةٌ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ وَاقْتِصَادِيَّةٌ سَادَتِ المجْتَمَعَ العَبَاسِيَّ حِينَهَا، إِذْ إِنَّ لِكُلِّ إِنْجَازٍ شِعْرِيٍّ بِنَاؤَهُ اللُّغَوِيَّ المُتَمَيِّزَ الذِّي يُوَظِّفُ الأَلْفَاظَ تَوْظِيفًا خَاصًّا يُبْرِزُ التَّجْرِبَةَ الرُّوحِيَّةَ وَيُكَثِّفُهَا، فَلُغَةُ الشِّعْرِ الحَقَّةُ " هِيَ التِّي يَسْتَطِيعُ بِهَا المُؤَلِّفُ أَنْ يُوصِلَ تَجَارِبَهُ الخَاصَّةَ بِمُنْتَهَى القُوَّةِ النَّافِذَةِ، وَبِغَايَةِ الدِّقَّةِ وَالوُضُوحِ، مَعَ تَصْوِيرٍ دَقِيقٍ لِلتَّفَاصِيلِ الخَفِيَّةِ، فَهِيَ اللُّغَةُ فِي أَسْمَى مَنَازِلِهَا، وَفِي كَامِلِ قُوَّتِهَا "[2]، لِأَنَّ التَّجْرِبَةَ الشُّعُورِيَّةَ، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، " تَطْلُبُ مِنَ المُؤَلِّفِ عَدِيلَهَا اللَّفْظِيَّ "[3] كَمَا يَقُولُ آبَرْكَرُومْبِي.

فَهَلِ اسْتَطَاعَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ أَنْ يَخْتَطَّ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا وَسَطَ هَذَا كُلِّهِ، وَهُوَ الذِّي يَتَجَاذَبُ لُغَتَهُ نَقِيضَانِ: لُغَةُ فَطَاحِلِ الشُّعَرَاءِ الذِّينَ يَتَنَافَسُونَ الحُظْوَةَ عِنْدَ الأُمَرَاءِ، وَلُغَةُ العَامَّةِ التِّي

---

[1]– يُنظر:الأمالي،ج1، أبي عليٍّ إسماعيل بن القاسم القاليّ البغداديّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1975م، صص292،291. وينظر:سمط اللآلي، اللآلي في شرح أمالي القالي،ج2، أبو عبيدٍ عبد الله بنُ عبد العزيز بن محمد البكريّ الأندلسيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د.ت، د.ط، ص551.

[2]– قواعد النّقد الأدبيّ، لاسل آبركرومبي، تر: محمّد عوض محمد، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط2، 1986م، ص45.

[3]– نفسه، ص48.

تَكْفُلُ لَهُ جَرَيَانَ شِعْرِهِ عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَانْتِشَارَهُ بَيْنَ النَّاسِ؟!

إِنَّ مَنْ يَقْرَأُ شِعْرَهُ عُمُومًا، وَفِي الزُّهْدَ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَاجِدٌ، لاَ مَحَالَةَ، كَثِيرًا مِنْ عنَاصِرِ الفَرَادَةِ فِي اخْتِيَارِ الكَلِمَاتِ بِمَا يَجْعَلُهَا سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً لاَ تُخْطِئُهَا عَيْنُ القَارِئِ العَادِيِّ، فَضْلاً عَنْ عَيْنِ النَّاقِدِ المتَفَحِّصِ، فَهُوَ لا يَتَكَلَّفُ الصَّعْبَ الذِّي يُرْهِقُ الأَفْهَامَ، وَلاَ يَنْزِلُ إِلَى حَضِيضِ السُّوقِيِّ الذِّي يُخْرِجُهُ عَنْ جَادَّةِ الشِّعْرِ، وَإِنْ كَانَ يَحْدُثُ لَهُ ذَلِكَ أَحْيَانًا! وَكَأَنِّي بِهِ فِي هَذَا أَمْيَلُ إِلَى اخْتِيَارِ الجَاحِظِ الذِّي يَقُولُ أَنَّهُ لَمْ يَرَ أَبَدًا " أَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي البَلاغَةِ مِنَ الكُتَّابِ، فَإِنَّهُمْ الْتَمَسُوا مِنَ الأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحْشِيًّا، وَلاَ سَاقِطًا سُوقِيًّا "[1]. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ قَدِ الْتَزَمَ أَسْلَمِ مَنْهَجٍ تَمَثَّلَهُ العَارِفُونَ بِخَصَائِصِ اللُّغَةِ وَحَقَائِقِهَا.

وقَدْ أَشَارَ رِيفَاتِيرْ، فِي (دَلاَئِلِيَّاتُ الشِّعْرِ) وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ لُغَةِ الشِّعْرِ، إِلَى أَنَّ هَذِهِ الأَخِيرَةَ تَخْتَلِفُ:" عَنِ الاسْتِعْمَالِ اللُّغَوِيِّ المُشْتَرَكِ وَهَذِهِ وَاقِعَةٌ يُحِسُّ بِهَا القَارِئُ الأَكْثرُ سَذَاجَةً إِحْسَاسًا غَرِيزِيًّا. صَحِيحٌ أَنَّ الشِّعْرَ كَثِيرًا مَا يَسْتَخْدِمُ كَلِمَاتٍ بَعِيدَةً عَنِ الاسْتِعْمَالِ المُشْتَرَكِ، وَأَنَّ لَهُ نَحْوَهُ الخَاصَّ، وَأَيْضًا نَحْوًا غَيْرَ صَالِحٍ وَرَاءَ النِّطَاق الضَّيِّقِ لِقَصِيدَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَد يَتَّفِق أَيْضًا أَنْ يَسْتَعْمِلَ الشِّعْرُ كَلِمَاتِ اللُّغَةِ اليَوْمِيَّةِ وَنَحْوَهَا.."[2] لِأَنَّهُ لاَ كَلِمَةَ غَيْرُهَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَسُدَّ مَسَدَّهَا فَتَفِيَ بِالتَّعْبِيرِ عَنِ المَعْنَى كَمَا يَخْتَلِجُ فِي أَعْمَاقِ الشُّعَرَاءِ.

فَعَلَى هَذَا، لَيْسَ يَعِيبُ أَبَا العَتَاهِيَّةِ كَثْرَةُ تَوْظِيفِهِ السَّهْلَ مِنَ الأَلْفَاظِ الذِّي يُلاَمِسُ لُغَةَ الشَّارِعِ فِي مَوَاطِنَ عِدَّةٍ، وَلاَ هُوَ يَتَحَرَّجُ مِنْهُ، بَلْ وَيَبْدُو حَرِيصًا علَى أَنْ يُحَقِّقَ لِشِعْرِهِ فِي الزُّهْدِ هَذِهِ الشَّعْبِيَّةَ، وَإِنْ آثَرَ بَعْضُ نُقَّادِهِ خِلاَفَ ذَلِكَ فَقَالُوا:" لَوْ أَنَّ طَبْعَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِجزَالَةِ لَفْظٍ لَكَانَ أَشْعَرَ النَّاسِ "[3]، وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ مَوْقِفِ سَلَمٍ الخَاسِرِ الذِّي قَالَ حِينَ سَمِعَ

[1]- البيان و التبيين، ج1، م.س، الجاحظ، م.ن، ص137، ويُنظر: نفسُه، ص144.

[2]- دلائليّات الشّعر، مايكل ريفاتير، تر: محمّد مُعتصم، منشورات كليّة الآداب، جامعة محمّد الخامس، المملكة المغربيّة، ط1، 1999م، ص7.

[3]- الدّيوان، هامش ص210.

بَعْضَ شِعْرِهِ فِي الزُّهْدِ:" لَقَدْ جَوَّدْتَهَا، لَوْ لَمْ تَكُنْ أَلْفَاظُهَا سُوقِيَّةً "، فَيَرُدُّ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:" وَاللهِ مَا يُرَغِّبُنِي فِيهَا إِلاَّ الذِّي زَهَّدَكَ فِيهَا "[1]، وَكَأَنَّهُ يُقَرِّرُ أَنّ غَايَةَ الشِّعْرِ عِنْدَهُ الْتِزَامُ مَعْجَمٍ وَاسْتِثْمارُ أُسْلُوبٍ مَادَامَ يُحَقِّقُ الرِّسَالَةَ. أَوَلَيْسَ فِي عِبَارَةِ سَلَمٍ ذَاتُهَا اعْتِرَافٌ بِقِيمَةِ القَصِيدَةِ (لَقَدْ جَوَّدتَهَا)؟!...أَوَلَيْستْ "رَغْبَةُ " الشَّاعِرِ فِي تِلْكَ الأَلْفَاظِ التِّي قَامَ عَلَيْهَا نَصُّهُ مَدَارُ الخِطَابِ وَمَكْمَنُ شِعْرِيَّتِهِ؟! فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ تِلْكَ الجَوْدَةُ إِلَى سُهُولَةِ اللَّفْظِ فَعَضَّدَتْهُ؟!

وَلَعَلَّ الإِجَابَةَ عَنْ بَعْضَ هَذِهِ التَّسَاؤُلاَتِ فِي مَا أُثِرُ عَنْهُ أَنَّهُ اسْتَضْعَفَ شِعْرَهُ، وَاسْتَقَلَّ قِيمَتَهُ، حِينَ طَلَبَ ابْنُ أَبِي الأَبْيَض الاسْتِزَادَةَ مِنْهُ بُغْيَةَ التَّعَلُّمِ، فَقَالَ:" اعْلَمْ أَنَّ مَا قُلْتُهُ رَدِيءٌ. قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ:لِأَنَّ الشِّعْرَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَشْعَارِ الفُحُولِ المُتَقَدِّمِينَ أَوْ مِثْلَ شِعْرِ بَشَّارٍ وَابْنِ هِرْمَةَ، فَإِنْ لَمَ يَكُنْ كَذلِكَ فَالصَّوَابُ لِقَائِلِهِ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ مِمَّا لاَ تَخْفَى عَلَى جُمْهُورِ النَّاسِ مِثْلَ شِعْرِي، وَلاَسِيَمَا الأَشْعَارُ التِّي فِي الزُّهْدِ، فَإِنَّ الزُّهْدَ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ المُلُوك وَلاَ مِنْ مَذَاهِبِ رُوَاةِ الشِّعْرِ وَلاَ طُلاَّبِ الغَرِيبِ، وَهُوَ مَذْهَبٌ أَشْغَفُ النَّاسِ بِهِ الزُّهَّادُ وَأَصْحَابُ الحَدِيثِ وَالفُقَهَاءُ، وَأَصْحَابُ الرِّيَاء وَالعَامَّةُ، وَأَعْجَبُ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِمْ مَا فَهِمُوهُ "[2].

فَالشَّاعِرُ وَاعٍ كُلَّ الوَعْيِ، أَنَّ الشِّعْرَ فِي زَمَانِهِ عَلَى أُسْلُوبَيْنِ يَسِيرَانِ فِي تَوَازٍ فَلاَ يَلْتَقِيَانِ، وَأَنَّهُ اخْتَارَ طَرِيقَهُ، وَتَمَثَّلَ نَهْجَهُ، بَلْ وَإِنَّ جُمْهُورَ المُتَلَقِّينَ لَهُ عَلَى ضِرْبَيْنِ مُتَنَاكِفَيْنِ فِي كِلَيْهِمَا طَبَقَتَانِ:خَاصَّةٌ وَعَامَّةٌ، يُبْهِرُ الغَرِيبُ بَعْضَهُمْ، وَيَشُدُّ السَّهْلُ المَفْهُومُ نَظَرَ غَيْرِهِمْ فَيُشْغَفُونَ بِهِ، " فَإِذَا كَانَ الكَلاَمُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ وَأُلِّفَ عَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ، لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ أَسْرَعَ إِلَى السَّمْعِ مِنَ المَعْنَى إِلَى القَلْبِ "[3]. وَهَذِهِ الطَّبَقةُ الأَخِيرَةُ هِيَ التِّي يَخُصُّهَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ بِخِطَابِهِ حِينَ يُبْدِعُ فِي الزُّهْدِيَاتِ، فَإِذَا هِيَ تُشْغَفُ بِأُسْلُوبِهِ، وَإِذَا هُوَ يَتَفَنَّنُ فِي امْتِلاَكِ تِلْكَ القُلُوبِ

[1]- الأَغَانِي، ج4، أَبُو الفَرج الأصفهانِي، م.س، صص323،324.

[2]- الأَغَانِي، ج4، أَبُو الفَرج الأصفهانِي، م.س، ص307.

[3]- كِتابُ التّرْبِيعِ والتّدوْيرِ، الجاحظ، م.س، 20، ويُنظر: البيان وَالتّبيّين، الجاحظ، ج2، م.س، صص8،7.

وَالأَسْمَاعِ.

وَلَرُبَّمَا سَمِعَ بَعْضُ المَفْتُونِينَ بِالغَرِيبِ، وَالجَزِلِ الرَّصِينِ مِنَ الفَرِيقِ الأَوَّلِ شِعْرًا لأَبِي العَتَاهِيَّةِ فَخَلَعَ عَنْهُ رِدَاءَ الشَّاعِرِيَّةِ بِالمَرَّةِ، وَاسْتَقْبَحَ مَا يَقُولُ، لِأَنَّهُ فِي نَظَرِهِ "شِعْرٌ ضَعِيفٌ"، فَاسْتَشَاطَ أَحَدُ المُقَدِّمِينَ طَرِيقَةَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ عَلَيْهِ فَيَرُدُّ بِحِدَّةِ الوَاثِقِ " الضَّعِيفُ وَاللهِ عَقْلُكَ لاَ شِعْرُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، أَلِأَبِي العَتَاهِيَّةِ تَقُولُ: إِنَّهُ ضَعِيفُ الشِّعْرِ! فَوَ اللهِ مَا رَأَيْتُ شَاعِرًا قَطُّ أَطْبَعَ وَلاَ أَقْدَرَ عَلَى بَيْتِ مِنْهُ، وَمَا أَحْسَبُ مَذْهَبَهُ إِلاَّ ضَرْبًا مِنَ السِّحْرِ، ثُمَّ أَنْشَدَ لَهُ [مِنَ الكَامِلِ][1]:

قَطَّعْتُ مِنْكَ حَبَائِلَ الآمَالِ*** وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ المَطِيِّ رِحَالِي.
وَوَجَدْتُ بَرْدَ اليَأْسِ بَيْنَ جَوَانِحِي*** فَأَرَحْتُ مِنْ حِلٍّ وتِرْحَالِ.
يَأَيُّهَا البَطِرُ الذِّي هُوَ مِنْ غَدٍ *** فِي قَبْرِهِ مُتَمَزِّقُ الأَوْصَالِ. "[2]

وَفِيمَا يَرْوِيهِ ابْنُ أَبِي شَيْخٍ شَهَادَةٌ أُخْرَى عَلَى هَذَا التَّجْوِيدِ الذِّي لاَ يَتَكَلَّفُ الوَعْرَ مِنَ الأَلْفَاظِ، إِذْ مَرَّ أَبُو العَتَاهِيَّةِ يَوْمًا بِأَبِي نَوَّاسٍ جَالِسًا فِي السِّكَّةِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ[مِنَ الكَامِلِ]:

لاَ تَرْقُدَنَّ لِعَيْنِكَ السَّهَرُ*** وَانْظُر إِلَى مَا تَصْنَعُ الغِيَرُ.
انْظُرْ إِلَى غِيَرٍ مُصَرَّفَةٍ *** إِنْ كَانَ يَنْفَعُ عَيْنَكَ النَّظَرُ.
وَإِذَا سَأَلْتَ فَلَم تَجِدْ أَحَدًا *** فَسَلِ الزَّمَانَ فَعِنْدَهُ الخَبَرُ.
أَنْتَ الذِّي لاَ شَيْءَ تَمْلِكُهُ *** وَأَحَقُّ مِنْكَ بِمَالِكَ القَدَرُ. [3]

فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو نَوَّاسٍ كَتْمَ إِعْجَابِهِ بِمَا سَمِعَ، فَالْتَفَتَ إِلَى مَنْ مَعَهُ وَقَالَ:(أَفَسِحْرٌ هَذَا

[1]- الدّيوان، قصيدة رقم:259، ص ص280- 284.
[2]- الأَغانِي، ج4، نفسه، ص269.
[3]- المقطوعة91، صص536،537.

أَمْ أَنْتُم لاَ تُبْصِرُونَ) "[1]. فَبِمِثْلِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ المَأْلُوفَةِ عَلَى الأَسْمَاعِ أَمْكَنَ لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ أَنْ يَأْسِرَ ذَائِقَةَ شَاعِرٍ مُفَوَّهٍ بِقَامَةِ أَبِي نَوَّاسٍ.

وَمِمَّا زَادَ مِنْ شَغَفِ النَّاسِ بِهَذَا الشِّعْرِ وَتَعَهُّدِهُمْ تَرْدِيدَهُ، حَتَّى جَرَى عَلَى الأَلْسِنَةِ، وَأَلِفَتْهُ هُوَ الْتِصَاقُهُ بِهَذِهِ الطَّبَقَةِ البَسِيطَةِ مِنَ المُجْتَمَعِ وَتَعْبِيرِهِ عَنْ هُمُومِهَا بِلُغَةٍ مِثْلَهَا فِي البَسَاطَةِ وَالتِّلقَائِيَّةِ، فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَجِدُ نَفسَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَوَاقِفِ مُدَافِعًا عَنْها، وَنَاطِقًا بِلِسَانِ حَالِهَا، أَرَادَ ذَلِكَ أَمْ لَمْ يُرِدْهُ! فَهَاهُوَ يَرْفَعُ، نِيَابَةً عَنْ هَؤُلاَءِ، رِسَالَةً إِلَى الخَلِيفَةِ عَلَّهُ يَنْظُرُ فِي شَأْنِ مَا أَصَابَها جَرَّاءَ غَلاَءِ الأَسْعَارِ الذِّي أَعْنَتَهَا، فَيَقُولُ[مِنْ مَجْزُوءِ الكَامِلِ]:

إِنِّي أَرَى الأَسْـعَارَ أَسْـ *** ـعَارَ الرَّعِـيَّةِ غَـــالِيَهْ.
وَأَرَى المَكَاسِـبَ نَـزْرَةً *** وَأَرَى الضَّـــرُورَةَ فَـاشِيَهْ.
وَأَرَى غُمُـــومَ الدَّهْـرِ رَا *** ئِحَـــةً تَمُـــرُّ وَغَـــادِيَهْ.
وَأَرَى المَرَاضِـعَ فـــيهِ *** عَنْ أَوْلادِهَا مُتَـــجَافِيَهْ.
وَأَرَى اليَتَـــامَى وَ الأَرَا *** مِلَ فِي البُيُوتِ الخَـالِيَهْ.
..... *** .....
..... *** .....
يا ابْنَ الخَلائفِ لاَ فُقِدْ *** تَ وَلاَ عَدِمْتَ العَـــافِيَهْ.
إِنَّ الأُصُـــول الطَّيِّبَـــا *** تِ لَهَا فُـــرُوعٌ زَاكِـــيَهْ.
أَلْقَيْتُ أَخبَـــــارًا إِلَيْ *** كَ مِنَ الرَّعِـــيَّةِ شَـافِيَهْ.
وَنَصِيحَتِي لَكَ مَحْـضَةٌ *** وَ مَوَدَّتِـي لَكَ صَـــافِيَهْ.[2]

وَالسُّهُولَةُ هَذِهِ، إِنْ تَكُ ظَاهِرَةً عَامَّةً فِي شِعْرِ العَبَّاسِيِّينَ، فَإِنَّهَا فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ صَارَتْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهَا مِيزَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ وَسَمَتْ مُعْجَمَهُ، وَجَعَلَتْ مُعَاصِرِيهِ وَمَنْ تَلاَهُمْ

[1]- تاريخ بغداد، ج7، البغدادي، م.س، ص236. والآية: الطُّور/15. ويُنظر: الأغاني، ج4، م.س، ص269.
[2]- الدّيوان، قصيدة رقم:452، صص441،440. ومطلَعُها: أَيْنَ القُرُونُ المَاضِيَهْ *** تَرَكُوا المَنازِلَ خَاوِيَهْ.

مِنْ النُّقَّادِ يُكْثِرُونَ الحَدِيثَ فِيهَا، يَسْتَلْطِفُونهَا حِينًا وَيَرُدُّونَهَا آخَرَ. فَهَذَا ابْنُ رَشِيقٍ يَقُولُ:" وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى سُهُولَةِ اللَّفْظِ فَعُنِيَ بِهَا وَاغْتُفِرَ لَهُ فِيهَا الرَّكَاكَةُ وَاللِّينُ المُفْرِطَ: كَأَبِي العَتَاهِيَّةِ وَعَبَّاسِ بْنِ الأَحْنَفَ – وَمَنْ تَابَعَهُمَا – وَهُمْ يَرَوْنَ الغَايَةَ قَوْلَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ[مِنَ السَّرِيعِ]:

يَا إِخْوَتِي إِنَّ الهَوَى قَاتِلِي*** فَسَيِّرُوا الأَكْفَانَ مِنْ عَاجِلِ(الأَبْيَاتُ)"[1].

وَهُوَ ذَاتُ الحُكْمِ الذِّي انْتَهَى إِلَيهِ البَغْدَادِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّقَدَةِ المُتقدِّمِينَ، إِذْ حَكَمُوا بِأَنَّهُ "كَانَ سَهْلَ القَوْلِ، قَرِيبَ المَأْخَذِ، بَعِيدًا عَنِ التَّكَلُّفِ، مُقَدَّمًا فِي الطَّبْعِ "[2]. وَقَدْ حَدَثَ، فِيمَا يَرْوِيهِ ابْنُ رَشِيقٍ أَيْضًا، أَنَّ أَبَا نَوَّاسٍ وَالحُسَيْنَ بْنَ الضَّحَّاكِ امْتَنَعَا عَنِ الإِنْشَادِ بَعدَ أَنْ سَمِعَا بَعْضَ شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَقَالاَ:" أَمَّا مَعَ سُهُولَةِ هَذِهِ الأَلْفَاظِ وَمَلاَحَةِ هَذَا القَصْدِ وَحُسْنِ هَذِهِ الإِشَارَاتِ فَلاَ نُنْشِدُ شَيْئًا "[3]، وَهُوَ إِقْرَارٌ مِنْ شَاعِرَيْنِ كَبِيرَيْنِ بِقُدْرَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ عَلَى إِلْبَاسِ المَعْنَى الجَيِّدِ اللَّفْظَ السَهْلَ فَيَجْعَلُهُ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا، وأَلْطفَ وَقْعًا.

وَيَسُوقُ شَوْقِي ضَيْف أَبْيَاتًا لِلشَّاعِرِ، ثُمَّ يُعَلِّقُ: " وَالأُسْلُوبُ هُنَا جَزْلٌ رَصِينٌ، وَلَكِنَّهُ لاَ يُبْعِدُ فِي جَزَالَتِهِ ورَصَانَتِهِ، إِذْ كَانَ يُعْتَنَى فِي اخْتِيَارِ أَلْفَاظِهِ مِنَ المعْجَمِ اليَوْمِيِّ أَوْ بِعِبَارَةٍ أَدَقَّ مِمَّا يُقَارِبُ سُهُولَتَهُ، وَقَدْ نَظَمَ اسْتِعْطَافَاتٍ كَثِيرَةٍ لِلرَّشِيدِ حِينَ حَبَسَهُ، وَهِيَ لاَ تَمْتَازُ بِالأُسْلُوبِ السَّهْلِ اليَسِيرِ فَحَسْب، بَلْ تَمْتَازُ أَيْضًا بِشِدَّةِ التَّضَرُّعِ، حَتَّى لَيُبَادِرَ الرَّشِيدُ بِالعَفْوِ عَنْهِ "[4]. وَهَذِهِ السُّهُولَةُ لَمْ تَكُنْ غَايَةَ الشُّعَرَاء أَوْ بِنْتَ رَغْبَةٍ تُسَايِرُ طَرِيقَتَهُمْ فِي القَوْلِ الشِّعْرِيِّ، وَإِنَّمَا هِيَ، زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، فَهْمٌ لِطَبِيعَةِ الإِبْدَاعِ، وَإِدْرَاكٌ لِطَبِيعَةِ العَصْرِ

---

[1]- العمدة، ابن رشيق، ج1، م.س، صص113،114. والقصيدة رقم:204، ص ص616-618.

[2]- تاريخُ بغداد، ج7، م.س، ص226.

[3]- العمدة،ج1، م.س، ص114.

[4]- العصر العبّاسيّ الأوّل، شوقي ضيف، ط16، دار المعارف، ص246، والأبيات هي: =

= وزحْفٍ لَه تحكِي البُـرُوْقَ سُيُـوفُه *** وتحكِي الرُّعُودَ القَواصِفَ حَوافِرُه.

إِذَا نُكِـبَ الإِسْـلامُ يـوْمًا بِنَـكْبَةٍ *** فَهَـرُوْنُ مِن بَيـنِ البَرِيَّةِ ثَـائِرُه.

ومَن ذَا يَفُوتُ الموتَ و الموتُ مُدْرِكٌ *** كذَا لَم يَفُتْ هَرُونَ ضِدٌّ يُنَـافِرُه.

وَأَهْلِهِ فَاللُّغَةُ تَظَلُّ " دَائِمًا أَوْضَحَ وَأَقْوَى وَأَدَلَّ ظَاهِرَةٍ تَتَجَمَّعُ فِيهَا كُلُّ سِمَاتِ الوَجْه الحَضَارِيِّ الذِّي تَعِيشُهُ الأُمَّةُ، وَلَيْسَ مُبَالَغَةً أَنْ يُقَالَ: إِذَا أَرَدْتَ مَعْرِفَةَ الإِطَارِ الحَضَارِيِّ لِشَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ فَادْرُسْ لُغَتَهُ، وَفِي عُرُوقِ اللُّغَةِ – إِذَا صَحَّ هَذَا المَجَازُ– يَعِيشُ العَصْرُ"[1].

وَلَعَلَّنَا نَجْزِمُ حِينَ نَسْبِرُ أَغْوَارَ النَّصِّ العَتَاهِيِّ أَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ فَطِنًا إِلَى هَذِهِ الخَاصِّيَّةِ التِّي تَقْتَضِيهَا اللُّغَةُ وَتَسِمُهَا، وَالمُتَمَثِّلَةُ فِي ضَرُورَةِ " مُوَاكَبَةِ حَيَوِيَّةِ اللُّغَةِ لِحَيوِيَّةِ حَاجَاتِ الإِنْسَانِ "[2]، فَكَانَ مُسَايِرًا لِنُضْجِهَا وَتَقَلُّبَاتِهَا، عَارِفًا بِدَقَائِقِهَا، مُتَفَنِّنًا فِي طُرُقِ اسْتِعَارَتِهَا مِنْ المَعْجَمِ اليَوْمِيِّ، فَيَزِيدُهَا بِذَلِكَ الْتِصَاقًا بِالوَاقِعِ وَتَأْثِيرًا فِي السَّامِعِ، كَيْفَ لاَ وَالشَّاعِرُ الحَاذِقُ رُكْنٌ أَسَاسٌ فِي ثُلاثِيَّةِ:

اللُّغَةُ ⟷ المُجْتَمعُ ⟷ الشَّاعِرُ/الإِنْسَانُ.

وَلاَ بَأْسَ أَنْ نُثْبِتَ هُنَا تَحْلِيلاً – عَلَى طُولِهِ – لِشَوقِي ضَيْف يُقَدِّمُ فِيهِ المُسَوِّغَاتِ التِّي جَعَلَتْ السُّهُولَةَ سِمَةً رَئِيسِيَّةً فِي لُغَةِ شَاعِرِنَا، إِذْ يَقُولُ: " وَلَمْ يَكُن أَبُو العَتَاهِيَّةِ يَقْتَرِبُ مِنْ العَامَّةِ بِزُهْدِهِ وَمَا صَوَّرَ فِيهِ مِنْ بُؤْسِهَا وَ أَوْصَابِهَا فَحَسْبَ، بَلْ كَانَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا أَيْضًا بِأُسْلُوبِهِ الذِّي كَانَ يَشْتَقُّهُ اشْتِقَاقًا مِنَ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ بِبَغْدَادَ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ ابْتَعَدَ فِيهِ عَنِ الغَرَابَةِ وَالتَّعْقِيدِ كَمَا ابْتَعَدَ عَنِ العُجْمَةِ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَجْرَاهُ فِي مُسْتَوَى أَفْرَادِ الشَّعْبِ، بِحَيْثُ لاَ يَعِزُّ عَلَى أَحَدٍ مِنهُمْ أَنْ يَفْهَمَهُ، (..)، وَمِنَ الحَقِّ أَنَّهُ ظَلَّتْ فِي أُسْلُوبِ شِعْرِهِ مُنْذُ فَاتِحَةِ حَيَاتِهِ السُّهُولَةُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَ فِي الزُّهْدِ ضَاعَفَهَا وَأَكَّدَهَا تَأْكِيدًا شَدِيدًا حَتَّى لَتَكَادُ تَسْقُطُ مِنْهُ بَعْضُ مَقْطُوعَاتِه، لِما يَجْرِي فِيهَا مِنْ ضَعْفٍ، وَحَتَّى لَيَقُولُ صَاحِبُ الأَغَانِي إِنَّهُ كَثِيرُ السَّاقِطِ المَرْذُولِ "[3]، وَرَأْيُ أَبِي الفَرَجِ الأَصْفَهَانِي هَذَا لاَ يَرْتَاحُ إِلَيْهِ شَوْقِي وَيَعْتَبِرُهُ حُكْمًا

[1]– الشِّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، م.س، ص175.

[2]– التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدّي، الدّار العربيّة للكتاب، ط2، 1986م، صص94،95.

[3]– العصر العبّاسيّ الأوّل، م.س، صص252،253.

مُبَالَغًا فِيهِ، لِأَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ يَصْدُرُ عَنْ طَبْعٍ أَوْ هُوَ كَالطَّبْعِ[1] فِي أَغْلَبِ حَالاَتِ إِبْدَاعِهِ وَانْتِشَائِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الشَّاعِرَ أَضَافَ إِلَى هَذِهِ السُّهُولَةِ شَيْئًا آخَرَ يُلاَزِمُهَا وَيَجْعَلُ هَذِهِ السَّلاَسَةَ وَالتَّدَفُّقَ أَسْرَعَ إِلَى النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ فِيهَا أَثَرًا، وَنَعْنِي بِهِ ارْتِكَازَهُ إِلَى مَرْجِعِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ ثَقَافِيَّةٍ: وَالتِّي هِيَ الدِّينُ، وَقَدْ أَقَامَ عَلَيْهَا نُصُوصَهُ الزُّهْدِيَّةَ كُلَّهَا، فَإِنْ نَحْنُ تَفَحَّصْنَاهَا وَجَدْنَاهَا تَعْكِسُهَا بِجَلاَءٍ، فَهُوَ يَسْتَخْدِمُهَا كَأَدَوَاتٍ مُكْتَمِلَةٍ جَاهِزَةٍ، لاَ يَخْلُقُ فِيهَا لُغَةً جَدِيدَةً وَلاَ هُوَ يُطوِّرُ القَدِيمَةَ إِلاَّ مِنْ جِهَةِ (طَرِيقَةِ) التَّوْظِيفِ وَأُسْلُوبِ الاخْتِيَارِ وَالتَّرْكِيبِ، حَتَّى لَكَأَنَّ بَعْضَ قَصَائِدِهِ صُورَةٌ تَكَادُ تُطَابِقُ أَخَوَاتِهَا مِنْ حَيْثُ الحَامِلُ(اللُّغَةُ) وَالمَحْمُولُ(الخِطَابُ)، وَكَأَنَّهَا إِعَادَةُ إِنْتَاجٍ!

وَهَذَا يَجْرِي عَلَى أَغْلَبِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، فَكُلُّ لاَحِقٍ يَأْخُذُ مِنَ السَّابِقِ سِمَاتٍ عَدِيدَةً صَارَتْ مُشْتَرَكًا أَوْ كَالمُشْتَرَكِ الذِّي لاَ يَسْلَمُ أَيُّ شَاعِرٍ مِنَ الوُقُوعِ فِيهِ، وَالنَّهْلِ مِنْ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَهُوَ خِطَابٌ مَكْرُورٌ مُعَادٌ عَلَى رَأْيِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلاَّ رَجِيعاً *** وَمُعَاداً مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورَا. [2]

فَالشَّاعِرُ لاَ يُمْكِنُهُ القَوْلُ فِي مَعْزِلٍ عَنْ بَاقِي الشُّعَرَاءِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغيِّبَ إِبْدَاعَهُمْ عَنْ ذِهْنِهِ سَاعَةً، لِذَا فَإِنَّ قُدْرَتَهُ سَتُقَاسُ بِمَوَازِينِ التَّفَرُّدِ دَاخِلَ القَدِيمِ ذَاتِهِ، فَيَكُونُ " الفِعْلُ الإِبْدَاعِيُّ فِي الشِّعْرِ فِي الإِخْرَاجِ المتَجَدِّدِ لِلمَأْلُوفِ، وَفِي هَذَا الإِخْرَاجِ مُفَارَقَةٌ إِذْ إِنَّهُ إِذْ يَظَلُّ أَمِيناً لِلْخُطُوطِ العَرِيضَةِ لِمسَارَاتِ المعْنَى فِي كُلِّ تَفَرُّعَاتِهِ يَنْحِتُ الشَّاعِرُ لِنَفْسِهِ التَّفَرُّدَ وَالتَّمَيُّزَ فِي الصُّورَةِ المُخْرِجَةِ لِلْمَعْنَى المتَمَيِّزَةِ بِخُصُوصِيَّةِ العِبَارَةِ، أَوْ الاخْتِرَاعِ الجُزْئِيّ المتَمَثِّلِ فِي التَّفْرِيعِ وَالتَّوْلِيدِ، مِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ المتَلَقِّي يَبْحَثُ عَنِ الجَدِيدِ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى بِقَدْرِ مَا كَانَ يَسْتَهْدِفُ

[1]- يُنظر: نفسه، ص253.

[2]- شرح ديوان كعب بن زهير بن أبي سُلمى، للإمام أبي سعيد بن الحسن بن الحسين بن عُبيد الله السُّكّريّ، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط3، 1422هـ/2002م، ص154، ومطلعها: إنَّ عِرْسي قَد آذنَتْنِي أَخِيرَا *** لَم تُعَرِّجْ وَلَمْ تُؤَامِرْ أَمِيرَا.

اللَّذَّةَ الحَاصِلَةَ مِنَ التَّجَدُّدِ الطَّارِئِ عَلَى المَعْرُوفِ "[1].

إِذَنْ، لَيْسَ تَكْرَارُ الأَلْفَاظِ، فِي القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ أَوِ القَصَائِدِ المُتَعَدِّدَةِ يَعِيبُ رِسَالَةَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي شَيْءٍ، بَلْ إِنَّهُ يَنِمُّ عَنِ اقْتِدَارٍ بَالِغٍ مِنْ شَاعِرٍ يُكَرِّرُ مَوْضُوعَاتِهِ وَمَعْجَمَهُ أَيْضًا – لِأَسْبَابَ فَنِّيَّةٍ سَنَأْتِي عَلَى ذِكْرِهَا فِي مَوْضِعِهَا مِنْ هَذَا البَحْثِ– وَلاَ يَسْقُطُ مَعَ ذَلِكَ فِي الجَفَافِ وَالرَّتَابَةِ، وَلاَ تَجْعَلُ القَارِئَ يَمِيلُ إِلَى الجَفَاءِ وَالنُّفُورِ، إِذْ هُوَ يُرِيدُ تَبْلِيغَهَا بِأَيْسَرِ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ أَدَوَاتِ اللُّغَةِ، وَهُوَ يَنْجَحُ فِي ذَلِكَ نَجَاحًا يَحْسُدُهُ فِيهِ كِبَارُ مُعَاصِرِيهِ. فَهَا هُوَ المَهْدِيُّ يَأْمُرُهُ فَيُنْشِدُ " مِنَ المتَقَارِبِ: أَلاَ مَا لِسَيِّدَتِي مَالَهَا " وَبَشَّارُ جَالِسُ، فَنَخَسَ أَشْجَعَ بِمِرْفَقِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: " وَيْحَكَ، رَأَيْتَ أَجْسَرَ مِنْ هَذَا يُنْشِدُ مِثْلَ هَذَا الشِّعْرِ فِي هَذَا المَوْضِعِ؟ حَتَّى بَلَغَ إِلَى هَذَا المَوْضِعِ:

أَتَتْهُ الخِــلاَفَةُ مُنْقَــادَةً *** إِلَيْــهِ تُجَــرِّرُ أَذْيَالَــهَا.
فَلَم تَكُ تَصْــلُحُ إِلاَّ لَهُ *** وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلاَّ لَهَا.
وَلَوْ رَامَــهَا أَحَــدٌ غَيْرُهُ *** لَزُلْزِلَــتِ الأَرْضُ زِلْزَالَــهَا.
وَلَوْ لَمْ تُطِعْهُ بَنَاتُ النُّفُو *** سِ لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا. [2]

قَالَ: فَقَالَ بَشَّارُ: انْظُرْ وَيْحَكَ يَا أَشْجَعُ، هَلْ طَارَ الخَلِيفَةُ عَنْ فُرُشِهِ! قَالَ: لاَ، وَاللهِ مَا انْصَرَفَ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ المَجْلِسِ بِجَائِزَةٍ غَيْرُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ "[3].

فَكَلِمَاتُ الشَّاعِرِ مِنَ البَسَاطَةِ، وَلُغَتُهُ مِنَ اليُسْرِ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ " يَتَنَاوَلُ شِعْرَهُ مِنْ كُمِّهِ "[4] لِقُرْبِهِ وَسُهُولَةِ مَخْرَجِهِ، حَتَّى لَيَتَهَيَّأُ لِكَثِيرِينَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى النَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِهَا،

[1]– اللّفظ والمعنى في التّفكير النّقديّ و البلاغيّ عند العرب– دراسة، الأخضر جمعي، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م، ص41.

[2]– الدّيوان، قصيدة رقم: 197، ص– ص609–613، ومطلعُها: ألا مَا لِسَيِّدَتِي مالَها *** أَدَلاً فَأَحْمِلَ إِدلاَلَهَا.

[3]– تاريخ بغداد، ج7، م.س، ص234، ويُنظر: الدّيوان، هامش ص609، والأغاني، ج4، م.س، ص282.

[4]– الأغاني، ج4، م.س، ص299.

لَكِنَّهُمْ إِذْ مَا حَاوَلُوهَا أَدْرَكُوا امْتِنَاعَهَا عَلَيْهِمْ وَاسْتِعْصَاءَ البِنَاءِ عَلَى شَاكِلَتِهَا، حَتَّى إِنَّا نَرَاهُ يَتَحَدَّى الشُّعَرَاءَ الأَفْذَاذَ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فَهَلْ يَسْتَطِيعُ العَامَّةُ مُجَارَاتَهِ؟! فَهَذَا مُسْلِمُ بْنُ الوَلِيدِ الأَنْصَارِيُّ يَسْتَصْغِرُ بَيْتَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ (الحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ لَكْ *** وَالمُلْكُ لاَ شَرِيكَ لَكْ)[1]، وَيَقُولُ بِأَنَّهُ لاَ يَرْتَضِي لِنَفْسِهِ مِثْلَ هَذَا الشِّعْرِ، وَلَوْ شَاءَ لَقَالَ عَشْرَةَ آلاَفِ بَيْتٍ مِنْ مِثْلِهِ فِي اليَوْمِ! فَيَرُدُّ أَبُو العَتَاهِيَّةِ: قُلْ كَقَوْلِي ذَاكَ، أَقُلْ مِثْلَ قَوْلِكَ (كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ)، وَفِي هَذَا المَوقِفِ وَصْفٌ لاعْتِدَادِ الشَّاعِرِ بِطَرِيقَتِهِ وَقِيَامِهِ عَلَيْهَا[2].

وتِلْكَ، وَلاَ شَكَّ، وَاحِدَةٌ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ التِّي أَوْرَثَتْ النَّاسَ مَحَبَّةَ شِعرِهِ، واشْتِغالِهِم بِهِ عَنْ كَثِيرٍ سِوَاهُ، كَيْفَ لاَ وَ" إِنَّ الأَعْنَاقَ لَتُقْطَعُ دُونَ هَذَا الطَّبْعِ "[3] الذِّي هُوَ غَايَةُ كُلِّ شَاعِرٍ، وَمَطلَبُ كُلِّ فَنَّانٍ؟! فَقَدْ فَتَحَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الصَّنِيعِ – فِي الزُّهْدِ عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ – بَابًا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ، وَاتِّجَاهًا كَانَ فِيهِ مُجَدِّدًا مُتَّبَعًا، أَعْفَى فِيهِ نَفْسَهُ عَنْ مُجَارَاة الشِّعْرِ التَّقْلِيدِيِّ، وَجَنَحَ إِلَى شَعْبِيَّةٍ أَسَّسَتْ (لِفَنِّيَّةِ اللُّغَةِ اليَوْمِيَّةِ)– إِنْ جَازَ لَنَا التَّعْبِيرُ– وَالتِّي مَلأَتْ عَلَيْهِ حَيَاتَهُ الأَدَبِيَّةَ وَزَهَّدَتْهُ فِيمَا دُونَهَا. فَالفِعْلُ الإِبْدَاعِيُّ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ هُوَ، فِي بَعضِ وُجُوهِهِ، فِعْلُ صُنْعِ اللُّغَة لِلتَّعبِيرِ عَنِ هَذَا العَالَمِ وَمَوْقِفِهِ مِنْهُ مَا دَامَ أَنَّ الشِّعْرُ لاَ يتَحَقَّقُ " إِلاَّ بِقَدْرِ تَأَمُّل اللُّغَةِ وَإِعَادَةِ خَلْقِ اللُّغَةِ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ. وَهَذَا يَفْتَرِضُ تَكْسِير الهَيَاكِلِ الثَّابِتَةِ لِلُّغَة وَقَوَاعِد النَحْوِ، وَقَوَانِين الخِطَابِ "[4]، وَلَعلَّ ذَلكَ شَيْءٌ مِمَّا سَعَى الشَّاعِرُ إِلَى إِنْجَازِهِ عَبْرَ خُرُوجِهِ عَنْ طَرِيقَةِ مُعَاصِرِيهِ وَأَنْمَاطِهَا المَأْلُوفَةِ.

وَأَبُو العَتَاهِيَّةِ الذِّي وُسِمَ شِعْرُهُ فِي الغَزَلِ بِالضُّعْفِ لِمُشَاكَلَتِهِ طِبَاعَ النِّسَاءِ[5]، صَارَ " وَاسِعَ الحِيلَة حَسَنَ التَّصَرُّفِ فِي طَرَائِقِ صَوْغِ زُهْدِيَاتِهِ، (...)، مَعَ أُسْلُوبٍ شِعْرِيٍّ سَرِيعِ

[1]– الدّيوان، رقم:203، ص615، وتَتِمّتُه: لبَّيْكَ إنَّ المُلكَ لَكْ.

[2]– يُنظر: الأغاني، ج4، م.س، ص278، والدّيوان، هامش صص616،615.

[3]– نفسه، ص306.

[4]– غُيُون إِلْزَا، المقدّمَةُ، لِوِيس أَرَاغُون، يُنظر: في بنية اللّغة الشّعريّة، م.س، ص176.

[5]– يُنظر: هامش مقدّمة الدّيوان، صص24،23، والشّعر والشّعراء، ابن قُتيبة، م.س، ص779.

التَّقَبُّلِ غَيْرِ مُغْرِبٍ فِي اللَّفْظِ أَوْ مُغْلِقٍ فِي المَعْنَى، الأَمْرُ الذِّي جَعَلَ قَصَائِدَهُ تَذِيعُ بَيْنَ العَامَّة قَبْلَ الخَاصَّةَ وَتَجِدُ حُسْنَ اسْتِجَابةٍ وَجَمِيلَ صَدَى "[1]. فَهَذِهِ القُدْرَةُ الفَائِقَةُ عَلَى تَصْرِيفِ الأَلْفَاظِ وَتنْسِيقِهَا، أَخْرَجَتْ لُغَتَهُ فِي حُلَّةٍ غَيْرِ التِّي أَلِفْنَاهَا، فَعَادَتْ وَكَأَنَّهَا لُغَةٌ جَدِيدَةٌ، فِيهَا تَحَوُّل وَحَرَكِيَّةٌ يُكَثِّفُ المَعَانِي وَيُصْبَغُ عَلَيْهَا أَلْوَانًا مِنَ الإِيحَاءِ المُتَجَدِّدِ مُتَخَطِّيًا إِطَارَهَا المَعْجَمِيَّ، ويَسْكُبُ فِي جَنَبَاتِهَا عَدِيدَ الانْفِعَالاَتِ وَالأَفْكَارِ التِّي تُكْسِبُهَا الحَيَوِيَّةَ وَالتَّدَفُّقَ، عَبْرَ الاسْتِخْدَامِ الفَنِّيِّ لِلصِّيَغ وَالأَسَالِيبِ المُتَنوِّعَةِ فِي مُتَوَالِيَاتٍ تَحْفَظُ لِلنَّصِّ تَوَازُنَهُ وَتَصُونُهُ عَنْ أَنْ يَقَعَ فِي الرَّتَابَةِ وَالوَهَنِ.

فَهُوَ يَنْزِعُ أَحْيَانًا كَثِيرَةً إِلَى تَوْظِيفِ الإِنْشَاءِ مِنْ نِدَاءٍ وَأَمْرٍ وَتَعَجُّبٍ وَاسْتِفْهَامٍ...، ثُمَّ يَقْطَعُ ذَلِكَ فَجْأَةً – بَعْدَ أَنْ يَسْتَدرِجَنَا مَسَافةً غَيْرَ قَصِيرَةٍ مِنِ قَصِيدَتِهِ – بِالعَوْدَةِ إِلَى أَسَالِيبِ الخبَرِ، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيُكَرِّرُهُ بِاطِّرَادٍ، يُزَاوِجُ بَيْنَ الأُسْلُوبَيْنِ وَيُنَوِّعُ فِيهِمَا، مَا يَدْفَعُهُ إِلَى التَّنْوِيعِ فِي لُغَتِهِ تَبَعًا لِهَذَا التَّبَايُنِ وَالتَّلَوُّنِ حَتَّى يَصِيرَ نَصُّهُ، عَلَى سُهُولَةِ كِلِمَاتِهِ وَتَرَدُّدِ كَثِيرٍ مِنْهَا فِي مَسَاحَةٍ غَيْرِ يَسِيرَةٍ مِنْهُ، خُصُوصًا فِي مُقَطَّعَاتِهِ، شَبَكَةً مِنَ العَلاَقَاتِ تُسْهِمُ كُلُّ عُقْدَةٍ مِنْهَا فِي تَمَاسُكِهِ وَتَفَتُّقِ دَلاَلاَتِهِ.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي مَقْطُوعةٍ لَهُ:

مَنْ سَابَــقَ الدّهْرَ كَبَا كَــبْوةً *** لَمْ يَسْتَقِلْهَا مِنْ خُطَى الدَّهْرِ.
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى مَا خَطَا *** وَاجْرِ مَعَ الدَّهْــرِ كَمَا يَجْرِي.
لَيْسَ لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ حِــيلَةٌ *** مَوْجُودَةٌ خَيْــرٌ مِنَ الصَّبْــرِ.
مَا أَسْرَعَ الأَيَّـــــامَ فِي الشَّهْرِ *** وَأَسْرَعَ الأَشْهُــرَ فِي العُــمْرِ. [2]

فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ اللُّغَةِ المُرَاوِغَةِ، وَهَذِهِ الأَلْفَاظِ التِّي – عَلَى سُهُولَتِهَا – تَنْقُلُ إِلَيْنَا

[1]– الشّعر والشّعراء في العصر العباسيّ، م.س، ص222.
[2]– الدّيوان، مقطوعة رقم:148[من السَّريع]، ص144.

دَلاَلاَتٍ عَمِيقَةً، فهُوَ يُكَرِّرُ الكَلِمَةَ لَيْسَ فِي البَيْتِ وَحَسْبَ، بَلْ فِي الشَّطْرِ الوَاحِدِ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ مُحَاكَاةَ جَرَيَانِ الدَّهْرِ وَتَعَاقُبِ سَاعَاتِه بِكَبَوَاتِهِ وَنَهَضَاتِه، مِثْلَ لَحَظَاتِ العُمْرِ التِّي تَتَصَرَّمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا فَلاَ نُحِسُّ انْقِضَاءَهَا، وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الشَّاعِرَ اخْتَارَ، بِفِطْنَةِ طَبْعِهِ، لِنَصِّه هَذَا وَزْنَ " السَّرِيعِ " لِيُسَايِرَ اللَّفْظُ وَالمَعنَى إيقَاعَاتِ الحَيَاةِ، مُتَثَاقِلَةً حِيناً(فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ علَى مَا خَطَا)، وَمُسْرِعَةً آخَرَ (وَاجْرِ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا جَرَى)، ثُمَّ يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ تَنَاسُقًا مُتَوَلِّدًا مِنْ انْتِقَالِهِ بَيْنَ الخَبَرِ (البَيْتَان:1و3) وَالإِنْشَاءِ (البَيْتَانِ:2 و4) كَمَا يَخْتَلِفُ لَيْلُ الدَّهْرِ وَنَهَارُهُ فِي تَتَابُعِ حَرَكَةٍ.

وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى هَذَا المَنْهَجِ فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ، مَا جَعَلَ هَذِه الخَّاصِّيَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ تَتَأَكَّدُ وَتَثْبُتُ، يَقُولُ فِي قَصِيدةٍ أُخرَى:

نَمُوتُ جَمِيعًا كُلُّنا غَيْرَ مَا شَكٍّ *** وَلاَ أَحَدٌ يَبْقَى سِوَى مَالِكِ المُلْكِ.
أَيَا نَفْسُ أَنْتِ الدَّهْرَ فِي حَالِ غَفْلَةٍ *** وَلَيْسَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ غَافِلَةً عَنْكِ.
أَيَا نَفْسُ كَمْ لِي مِنْ يَوْمٍ صَرْعَةٍ *** إِلَى اللهِ أَشْكُو مَا أُعَالِجُهُ مِنْكِ.
أَيَا نَفْسُ إِنْ لَمْ أَبْكِ مِمَّا أَخَافُه *** عَلَيْكِ غَدًا يَومَ الحِسَابِ فَمَنْ يَبْكِي.
أَيَا نَفْسُ هَذِي الدَّارُ لاَ دَارَ قُلْعَةٍ *** فَلاَ تَجْعَلَنَّ القَصْدَ إِلاَّ إِلَى تِلْكِ.
أَيَا نَفْسُ لاَ تَنْسَيْ عَنِ اللهِ فَضْلَهُ *** فَتَأْيِيدُهُ مُلْكِي وَخِذْلاَنُهُ هُلْكِي.
وَلَيْسَ دَبِيبُ الذَّرِّ فَوْقَ الصَّفَاةِ فِي الظَّلاَمِ بِأَخْفَى مِنْ رِيَاءٍ وَشِرْكِ. [1]

هَكَذَا، يُمْكِنُ لِدَارِسِ لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ أَنْ يُعَاينَ بِيُسْرٍ طَبِيعَةَ المَعْجَمِ الذِّي يَنْهَضُ عَلَيْهِ، وَيَحْصُرَ الحُقُولَ التِّي عَلَيْهاَ مَدَارُ القَوْلِ عِنْدَهُ، وَهِيَ فِي العُمُومِ تِلْكَ اللُّغَةُ التِّي تُوَائِمُ مَوْضُوعَةَ الزُّهْدِ وَاسْتِصْغَارَ الدُّنْيَا وَالتَّخْوِيفَ مِنَ المَوْتِ، وَالتَّزْهِيدَ فِي مَلَذَّاتِ العَيْشِ الفَانِيَةِ.

[1]- الدّيوان، قصيدة رقم: 269 [مِن الطَّوِيلِ]، ص258.

وَإِذِ إِنَّ فِعْلَ اللُّغَةِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَاحِدٌ مِنْ أَشْكَالِ الحيَاةِ العَدِيدَةِ التِّي يَتَرَبَّصُ بِهَا المَوْتُ، فَإِنَّ امْتِلاَكَ الشَّاعِرِ لُغَتَهُ هُوَ امْتِلاَكٌ لِحَيَاتِهِ وَضَمَانٌ لِدَيْمُومَةِ إِبْدَاعِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى التَّوَاصُلِ شِعْرًا.

لِذَلِكَ، كُلَّمَا اسْتَطَاعَ الشَّاعِرُ خَلْقَ لُغَتِهِ الخَاصَّةِ، وَاخْتَطَّ لِنَفْسِهِ بِهَا مَسَارًا ذَا فَاعِلِيَّةٍ وَتَأْثِيرٍ، كَانَ أَكْثَرَ تَمَيُّزًا وَسْطَ الجُمُوعِ العَدِيدَةِ مِنَ المُبْدِعِينَ الذِّينَ لاَ يَخْلُو مِنْ تَنَافُسِيَّتِهِمْ عَصْرٌ، وَإِحْرَازُ قَصَبِ السَّبْقِ، يَكُونُ فِيمَا يَكُونُ مِنَ اللُّغَةِ وَبِهَا لأَنَّهَا أَدَاةٌ مَشَاعٌ بَيْنَهُمْ، فَلاَ يَتَفَاضَلُونَ فِيهَا إِلاَّ بِجَوْدَةِ الاخْتِيَارِ وَجَمَالِ السَّبكِ اللَّذَانِ يُوَلِّدَانِ الدَّلاَلاَتِ المُخْتَرَعَةِ التِّي لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلاَّ المُتَفَنِّنُونَ مِنَ الشُّعَرَاءِ الذِّينَ لاَ تُعْجِزُهُمْ الحِيَلُ فِي إِدْرَاكِ السَّبِيلِ إِلَى جَيِّدِ القَوْلِ وَجَدِيدِهِ، إِذْ " مِنْ خَوَاصِّ اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ قِيَامُهَا عَلَى الوَحْيِ وَالإِشَارَةِ وَالتَّكْثِيفِ "[1].

لَقَدْ سَبقَتِ الإِشَارَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ مِنْ هَذَا الفَصْلِ إِلَى صِلَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ الوَثِيقَةِ بِمُجْتَمَعِهِ، وَالذِّي مِنْهُ اسْتقَى مَعْجَمَهُ، وَاسْتَوحَى مَوْضُوعَاتِهِ، مَا انْعَكَسَ بِجَلاَءٍ فِي قَصَائِدِهِ وَجَعَلَ الوَاقِعَ الحَيَاتِيَّ، بِكُلِّ مَظَاهِرِهِ، جُزْءً لاَ يَتَجَزَّأُ مِنَ النَّصِّ العَتَاهِيِّ، وَكَأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الخُضُوعِ – إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ– لِلمَرْجِعِ الاجْتِمَاعِيِّ/الدِّينِيِّ الذِّي تُحِيلُ إِلَيْهِ. وَحَتَّى نَكُونَ أَكْثَرَ إِنْصَافًا سَنَقُولُ إِنَّهُ خُضُوعٌ مُتَبَادَلٌ، يُسَخِّرُ فِيهِ كُلٌّ مِنْهُمَا طَاقَتَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، وَإِنْفَاذِ عَزِيمَتِهِ. وَلَعَلَّ مِنَ الإِشَارَاتِ القَوِيَّةِ لِحُضُورِ الوَاقِعِ وَتَغَلْغُلِهِ فِي القَصِيدَةِ، وَفِي لُغَتِهَا عَلَى وَجْهِ الدِّقَّةِ هَذَا المَعْجَمُ الدَّائِرُ حَوْلَ فِكْرَةِ المَوْتِ وَالحَيَاةِ، وَالنَّعِيمِ وَالشَّقَاءِ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالشَّبَابِ وَالشَيْبِ، وَغَيْرِهَا مِنَ المَوْضُوعَاتِ التِّي رَفَعَتْهَا طَبِيعَةُ الحَيَاةِ فِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ إِلَى سَطْحِ الأَحْدَاثِ، وَأَعَادَت الحَضَارَةُ بِكُلِّ تَعْقِيدَاتِهَا وَتَجَاذُبَاتِهَا إِنْتَاجَهَا وتَدْوِيرَهَا بِكَامِلِ تَفَاصِيلِهَا.

وَلَعَلَّ أَهَمَّ شَيْءٍ يَشْغَلُ النَّاسَ وَيَقُضُّ مَضَاجِعَهُمْ، وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِمْ صَفْوَ الحَيَاةِ وَبَهَاءَهَا وُقُوفُهَمْ عَاجِزِينَ أَمَامَ المَوْتِ الذِّي يَتَرَبَّصُ بِهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ لَهُ دَافِعًا يَرُدُّهُ، لِذَا اتَّخَذُوا الفِرَارَ

[1]– اللّفظ والمعنى في التّراث البلاغيّ عند العرب، الأخضر جمعي، م.س، ص46.

وَسِيلَةً لِلْخَلاَصِ، فِرَارٌ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَعَاكِسَيْنِ تَمَامًا فِي المَقْصِدِ وَالنَّتِيجَةِ: إِلَى الخَمْرَةِ وَالمُجُون، أَوْ إِلَى الزُّهْدِ وَالتُّقَى. لَقَدْ صَارَ المَوْتُ إِيقَاعًا يَتَحَكَّمُ فِي انْسِيَابِيَّةِ الحَيَاةِ فَيُشَكِّلُهَا، وَبُؤْرَةً فِي نِطَاقِهَا تَتَجَسَّدُ كَثِيرٌ مِنَ الأَحْدَاثِ، وَعَلَيْهَا تَتَكَسَّرُ عَدِيدُ الآمَالِ. وَحَيْثُ إِنَّهُ مَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الحَدِيثَ عَنِ المَوْتِ يَقْهَرُ النُّفُوسَ القَاسِيَةَ المُتَسَلِّطَةَ وَيُخْضِعُهَا وَيَجْعَلُهَا أَقْرَبَ إِلَى الصِّدْقِ وَأَلْصَقَ بِالوَاقِعِ، رَاحَ الشَّاعِرَ يَجْعَلُهُ مَطِيَّةً إِلَى تأْدِيبِ النُّفُوسِ وَلَجْمِ عُنْفُوَانِهَا، عَلَّهَا تَرْعَوِي وَتَعُودُ كَمَا كَانَ الهُذَلِيُّ بَيَّنَ ذَلِكَ حِينَ قَالَ:

فَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتها *** وَإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ[1].

وَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَذْكُرُ المَوْتَ وَيُلِحُّ فِي ذَلِكَ، ويُكَرِّرُ الحَدِيثَ، لَكِنَّهُ لاَ يَذْكُرُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ حتَّى عَدَّهُ كَثِيرُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَانَوِيًّا زِنْدِيقًا، وَإِنْ اسْتَشْهدَ بِالذِّكرِ الحَكِيمِ وَالحَدِيثِ الشَّرِيفِ، فَـ " إِنَّ مَنْ يَتَعَمَّقُ فِي هَذِهِ الأَشْعَارِ يَجِدُ أَبَا العَتَاهِيَّةِ مَشْغُولاً بِمَا كَانَ يَرَاهُ المَانَوِيَّةُ مِنْ أَنَّ العَالَمَ نَشَأَ عَنْ أَصْلَيْنِ هُمَا النُّورُ وَالظُّلْمَةُ، وَمِنَ النُّورِ نَشَأَ كُلُّ خَيْرٍ وَمِنَ الظُّلْمَةِ نَشَأَ كُلُّ شَرٍّ..."[2]، غَيْرَ أَنَّنَا لاَ نَطْمَئِنُّ لِرَأْيِ شَوْقِي ضَيْف هَذَا، فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَرُدُّ بِنَفْسِهِ التُّهْمَةَ وَيُفَنِّدُهَا حِينَ يَقُولُ:" زَعَمَ النَّاسُ أَنِّي زِنْدِيقٌ وَاللهِ مَا دِينِي إِلاَّ التَّوْحِيدُ، فَقُلْنَا: فَقُل شَيْئًا نَتَحَدَّثُ بِهِ عَنْكَ، فَقَالَ:[3]

أَلاَ إِنَّنَـــا كُـــلُّنَا بَـــائِدُ *** وَأَيُّ بَنِـي آدَمَ خَـــالِدُ.
وَ بَدْؤُهُمْ كَـــانَ مِنْ رَبِّهِم *** وَكُلٌّ إِلَى رَبِّـــهِمْ عَـــائِدُ.
فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الإِلَهَ *** أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ.
وَللهُ فِي كُـــلِّ تَحْرِيكَـــةٍ *** عَلَيْنَا وَتَسْكِـــينَةٍ شَـاهِدُ.

[1]- ديوان الهذليّين، القسم الأوّل- شعرُ أبي ذؤيبٍ وساعِدةَ بن جؤيَّةَ، تح: أحمد الزّين ومحمود أبو الوفا، دار الكتب المصريّة، د.ط، 1385هـ/ 1965م، ص3.

[2]- الشّعر في العصر االعباسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، ص241.

[3]- الدّيوان، أبُو العتاهيّة، قصِيدة رقم:103[مِن المتَقَّاربِ]، ص ص102- 104.

وَفِي كُلِّ شَـيْءٍ لَهُ شَاهِـــدٌ *** يَـــدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِـــدُ. "[1]

وَيَعْضُدُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ (لِسَانِ المِيزَانِ) مِنْ أَنَّ الرَّشِيدَ قَالَ لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ: " يَقُولُونَ إِنَّكَ زِنْدِيقٌ، قَالَ: يَا سَيِّدِي كَيْفَ أَكُونُ زِنْدِيقًا، وَأَنَا الذِّي أَقُولُ:

يَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الإِلَهَ *** أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ؟!".[2]

وبَعِيدًا عَنْ هَذِهِ التُّهْمَةِ التِّي لاَ نَرَاهَا ذَاتَ مَزِيَّةٍ فِي بَحْثِنَا، نَعُودُ لِنَقُولَ بِأَنَّ مَنْ اتَّخَذَ المَوَاعِظَ وَالزُّهدَ مَوْضُوعًا رَئِيسًا، عَلَيْهِ مَدَارُ أَشْعَارِهِ كُلِّهَا حِينَ تَنَسَّكَ، لا يُمْكِنُ لِلُغَتِهِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ مُسْتَوْحَاةً مِنَ الحَدِيثِ عَنِ المَوْتِ وَالفَنَاءِ، وَشُرُورِ الحَيَاةِ وَمَفَاتِنِهَا، وَالاغْتِرَارِ بِطُولِ الأَمَلِ وَرَغْدِ المَعِيشَةِ. وَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَسْتَخْدِمُ وَسَائِلَ مُخْتَلِفَةً وَأَسَالِيبَ شَتَّى لِتَرْسِيخِ هَذَا الخِطَابِ فِي ذِهْنِ المُتَلَقِّي " فَهُوَ يَدْعُو إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرِهَا حِينًا، ويَدْعُو إِلَى التُّقَى وَصَالِحِ الأَعْمَالِ حِينًا آخَرَ، ويَذْكُر المَوْتَ ومُلاَحَقَتَهُ لِلخَلْقِ ويُلِحُّ فِي ذَلكَ إِلَى الحَدِّ الذِّي يَصُدُّ النَّاسَ فِيهِ عَنْ تَرْكِ أَيَّةِ مُتْعَةٍ وَلَوْ كَانَتْ حَلاَلاً، وَيَقِفُ عَلَى القُبُورِ وَيُنَاجِيهَا آنًا وَيُسَائِلُ سَاكِنِيهَا آوِنَةً أُخْرَى، وَيَقْرِن بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَوْ بِالأَحْرَى بَيْنَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ ثُمَّ النُّشُورِ وَالحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَيَرجُو الثَّوَابَ وَيَخْشَى العِقَابَ، وَفِي مَوَاقِفَ أُخْرَى يُظْهِرُ النَّدَمَ وَيُبْدِي الضَّرَاعَةَ، وَيَطْمَعُ فِي الغُفْرَان، (...)،[وَ] يَدْعُو إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا وَالتَّصَبُّرِ عَنْهَا وَالابْتِعَادِ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَاحْتِمَالِ المَكَارِهِ "[3].

إِنَّ الانْقِلاَبَ الذِّي حَدَثَ فِي حَيَاةِ الشَّاعِرِ مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ[4]، مِنْ حَيَاةِ مُجُونٍ وَعَبَثٍ، وَمُخَالَطَةِ المُلُوكِ وَالنُّدَمَاءِ، إِلَى حَيَاةِ الكَفَافِ وَالزُّهْدِ لَمْ يَكُنْ هَيِّنًا تَصَوُّرُ

[1]- شذراتُ الذَّهَب فِي أَخبارِ مَنْ ذَهَب، ج2، عبد الحيّ بن أحمد بن محمّد بن العماد العكري الحنبليّ، أبو الفلاح، تح:عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1406هـ/1986م، ص25.

[2]- لِسانُ الميزَانِ، أحمد بن عليّ بن حجَرٍ العسقلانيُّ، ج2، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ/2002م، ص159.

[3]- الشّعر والشّعراء في العصر العباسيّ، م.س، ص216.

[4]- العصر العباسيّ الأوّل، م.س، ص249.

نَتَائِجِهِ، لَيْسَ عَلَى المُسْتَوَى النَّفْسِي إِذْ صَارَ مَدْعَاةً للسُّخْرِيَةِ عِنْدَ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ، وَإِنَّمَا عَلَى مُسْتَوَى الفِكْرَةِ وَالمَعْجَمِ أَيْضًا، بَلْ إِنَّ هَذَا صُورَةٌ مَحْسُوسَةٌ ظَاهِرَةٌ لِذَاكَ التَّحَوُّلِ الدَّاخِلِيِّ المُتَنَاقِضِ الاتِّجَاهِ، غَيْرَ أَنَّنَا نَجْزِمُ، عَلَى قُوَّةِ هَذَا الانْقِلاَبِ، بِعَدَمِ تَأْثِيرِهِ عَلَى سَلاَسَةِ طَرِيقَتِهِ، وَانْسِيَابِيَّةِ لُغَتِهِ التِّي اسْتَمَرَّتْ تَمْتَحُ مِنْ طَبْعِهِ وَتَوَقُّدِ قَرِيحَتِهِ، وَهُوَ يَعْبُرُ بِيُسْرٍ مِنَ الحَدِيثِ عَنْ الفَنَاءِ سُكْرًا إِلَى سَكْرَةِ الفَنَاءِ!

وَيُمْكِنُنَا بِعَمَلِيَّةٍ إِحْصَائِيَّةٍ بَسِيطَةٍ أَنْ نَتَبَيَّنَ طَبِيعَةَ المَعْجَمِ المُنَاسِبِ الذِّي اخْتَارَهُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، مَعْجَمٌ تَتَصَارَعُ فِيهِ اللُّغَةُ تَمَامًا كَمَا هِيَ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الوَاقِعِ، بَيْنَ لَهْوٍ وَمُجُونٍ، وَاتِّعَاظٍ وَتَنَسُّكٍ، يَسْتَمِدُّ كُلُّ وَاحِدٍ منْهُمْ أَلْفَاظَهُ مِنْ تِلْكَ البِيئَةِ التِّي سَكَنَتْهُ، فَصَبغَتْهَا بِخُصُوصِيَّاتِهَا، بَلْ وَلاَ يُمْسِكَ أَكْثَرُهُمْ لِسَانَهُ أَنْ يَسْتَعِيرَ مِنْ قَامُوسِ الآخَرِ مَا يَخْدُمُ مَوْضُوعَهُ، وَيُوَافِقُ طَرْحَهُ، يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَرْسِيخُ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي أَذْهَانِ سَامِعِيهِ، أَوَلَيْسَتْ بِالأَضْدَادِ تُعْرَفُ الأَشْيَاءُ وَتَتَأَكَّدِ؟!

4- فِي ثُنَائِيَاتِ التَّضَادِّ وَعَلاَقَاتِهِ:

فِي حَدِيثِهِ عَنِ "التَّنْسِيقَ بِالمعْجَمِ" يَضَعُ مُحَمَّدُ مَفْتَاح التَّضَادَّ فِي جُمْلَةَ المَقُولاَتِ التِّي يُمْكِنُهَا ضَمَانَ التَّرَابُطِ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ المعْجَمِ، مَعَ أَخْذِ الحِيطَةِ اللاَّزِمةِ أَثْنَاءَ تَجْسِيدِ العَمَلِيَّةِ لأَنَّهَا لَيْسَتْ بِالسُّهُولَةِ التِّي تُتَصَوَّرُ فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ[1]. فَالتَّضَادُّ يَخْلُقُ جَمَالِيَّتَهُ الخَاصَّةَ، وَيُكْسِبُ النَّصَّ إِمْكَانِيَّةَ اللَّعِبِ فِي مَسَاحَتَيْنِ مُخْتَلِفتيْنِ فِي الآنِ ذَاتِهِ، فَتَنْشَأُ بَيْنَهُمَا مَسَافَةٌ ثَالِثَةٌ، فَتَكُونُ سَاحَةً لِلتَّوَتُّرِ وَالتَّجَاذُبِ، تَزْدَادُ حِدَّتُهَا كُلَّمَا قَوِيَتْ دَرَجَةُ التَّضَادِّ فَتَتَحَرَّرُ بِذَلِكَ كَوَامِنُ الشِّعْرِيَّةِ وَتَبْلُغُ مَدَاهَا. فَهُوَ مِنْ أَبْرَزِ الأَسَالِيبِ وَالأَنْسَاقِ اللُّغَوِيَّةِ التِّي يَسْتَعِينُ بِهَا الشَّاعِرُ لإِنْتَاجِ دَلاَلَتِهِ الخَاصَّة، فَرُؤْيَتُهُ لِلْحَيَاة وَانْفِعَالاَتُهُ وَتَكْوِينُهُ النَّفْسِيُّ وَالفِكْرِيُّ، تُبَلْوِرُ أَسَالِيبَهُ وَتُشَكِّلُهَا، وَتَجْعَلُهَا تَسِيرُ فِي تَوَازٍ وَانْسِجَامٍ مُتَنَقِّلَةً بَيْنَ الوَاقِعِيِّ وَالشِّعْرِيِّ،

[1]- يُنظَرُ: التّشابه والاختلاف(نحْوَ مِنهاجيّة شموليّة)، محمّد مفتاح، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1996م، ص130.

مُتَّكِئًا عَلَى مَعْجَمِهِ اللُّغَوِيِّ المُتَمَيِّزِ، يَنْتَقِي مِنْهُ لُغَةً أَقْرَبَ لِلُّغَةِ المِعْيَارِيَّةِ فِي بَسَاطَتِهَا ثُمَّ يُلْبِسُهَا إِيحَاءً ورَمزِيَّةً.

وَعلَينَا فِي البَدْءِ أَنْ نُفَكِّكَ نِظَامَ النَّصِّ لِنُعِيدَ بِنَاءَهُ بَعْدَ أَنْ نَفُكَّ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنْ شِفْرَاتِهِ. وَبِالتَّالِي، عَلَيْنَا النَّظَرُ فِي مَجْمُوعَةِ القِيَمِ التِّي يَشْتَغِلُ عَلَيْهَا المُبْدِعُ ويَنْهَضُ عَلَيْهَا النَّصُّ، وَالتِّي مِنْهَا قِيمَةُ التَّضَادِ الأُسْلُوبِيِّ الكَامِنَةُ " فِي نِظَامِ العَلاَقَاتِ، الذِّي يُقِيمُهُ بَيْنَ العُنْصرَيْنِ المتَقَابِلَيْنِ. فَلَنْ يَكُون لَهُ أَيُّ تَأْثِيرٍ مَا لَمْ يَتَدَاعَ فِي تَوَالٍ لُغَوِيٍّ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى فَإِنَّ عَمَلِيَاتِ التَّضَادِّ الأُسْلُوبِيَّةِ تَخْلُقُ بِنْيَةً، مِثْلَهَا فِي ذَلْكَ مِثْلَ بَقِيَّةِ التَّقَابُلاَتِ المُثْمِرةِ فِي اللُّغَةِ "[1]، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ طُرُق اسْتِخْدَامِ الشَّاعِرِ لِهَذِهِ القِيمَةِ، وَالمَسَاحَةِ التِّي تَشْغَلُهَا فِي نُصُوصِهِ بِإِمْكَانِهَا أَنْ تُعِينَ فِي الوُلُوجِ إِلَى دَوَاخِلِهَا.

فَفَحْصُ هَذَا الجَانِبِ الأُسْلُوبِيِّ مِنْ شَأْنِهِ إِضَاءَةُ عَوَالِمَ كَانَتْ إِلَى حِينٍ مُبْهَمَةً مُنْغَلِقَةً وَرَاءَ جِدَارِ البِنْيَةِ، خُصُوصًا وَأَنَّ مَوْضُوعَةَ الزُّهْدِ تَسْتَلْزِمُ إِقَامَةَ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ عَالَمَيْنِ مُتَنَافِرَيْنِ، فَضَاءَيْنِ مُتَدَافِعَيْنِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ مُسْتَوًى لِأَنَّهُمَا، بِكُلِّ بَسَاطَةٍ، يَصْدُرَانِ عَنْ وَاقِعَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ تَمَامًا، وَذَلِكَ حَتْمًا، يَنْعَكِسُ عَلَى النَّصِّ وَلُغَتِهِ، وَيُشَكِّلُهَا فِي حَقْلَيْنِ كَبِيرَيْنِ يَتَنَازَعَانِ مَسَاحَةَ القَصِيدَةِ كَمَا يَتَنَازَعَانِ مِضْمَارَ الحَيَاةِ وَالوَاقِعِ.

يَتَجَلَّى التَّضَادُ فِي نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً لاَ يُمْكِنُ إِغْفَالُهَا، إِذْ لاَ تَخْلُو مِنْهُ قَصِيدَةٌ، وَلاَ حَتَّى المَقْطُوعَاتُ القَصِيرَةُ جِدًّا، فَهُوَ يَجْمَعُ بَينَ النَّقِيضَيْنِ فِي البَيتِ الوَاحِدِ أَو فِي الأَبْيَاتِ المتَتَالِيَةِ، وَيَقْلِبُ وَيَخْلُقُ المُنَافَرَةَ التِّي تَشْرَخُ نُصُوصَهُ نِصْفَينِ وَلَكِنَّهَا لاَ تُحْدِثُ القَطِيعةَ بَيْنَ المُتَضَادَّيْنِ، وَإِنَّمَا عَلَى العَكْسِ تَمَامًا، تُهَيِّئُ لِنِقَاطِ التَّلاَقِي وَالصِّدَامِ التِّي تُغْنِي جَمَالِيَّتَهَا، وَتُمَتِّنُ عُرَاهَا. فَبِتَحَقُّقِ مَبْدَإِ المُفَارَقَةِ هُنَا تَتَكَثَّفُ حَالاَتُ التَّوَتُّرِ الوِجْدَانِيُّ وَالشُّعُورِيُّ، ويَكْتَسِبُ النَّصُّ قُدْرَةً أَكْبَرَ عَلَى التَّبْلِيغِ وَالتَّأْثِيرِ، وَيسْتَطِيعُ، بِانْسِيَابِيَّتِهِ وَتَدَفُّقِهِ

[1]– علم الأسلوب – مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، م.س، ص225.

المُتَجَدِّدِ، مُفَاجَأَةَ مَشَاعِرِ المتَلَقِّي فَيُدْخِلُهُ بِسَلاَسَةٍ فَضَاءَاتِ كَيْنُونَتِهِ المتَفَرِّدَةِ عَبْرَ هَذَا التَّضَادِّ المُتَنَاسِقِ بِتَفَاعُلٍ وَحَرَكِيَّةٍ مُتَعَاقِبَيْنِ.

إِنَّ التَّضَادُّ، فِي مِثْلِ هذِهِ الحَالِ أَدَاةُ كَشْفٍ وَاسْتِنْبَاطٍ، وَتَحْلِيلٍ وَفَهْمٍ لمَسَالِكِ الاخْتِيَارَاتِ الوَاعِيَةِ قَبْلَ وَبَعْدَ انْسِجَامِهَا فِي التَّرَاكِيبِ التِّي تَسْمَحُ بِهَا سُبُلُ التَّصَرُّفِ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ " يَكْتَسِبُ شِعْرِيَّتَهُ مِنْ خِلاَلِ طَبِيعَتِهِ البَنَوِيَّةِ لاَ مِنْ خِلاَلِ كَلِمَةٍ وَكَلِمَةٍ، أَوْ جُمْلَةٍ وَجُمْلَةٍ، إِنَّهُ كَامِنٌ فِي مُسْتَوَى التَّعْبِيرِ وَفِي بِنْيَةِ النَّصِّ. إِنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ هُنَا تَشِعُّ بِاتِّجَاهَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ مُتَعَاكِسَةٍ "[1]، تَعْمَلُ مُنْفَرِدَةً وَمُرَكَّبَةً عَلَى تَفَتُّقِ الدَّلاَلاَتِ وَفْقًا لِطَبِيعَةِ كُلِّ قِرَاءَةٍ، وَمُسْتَوَى كُلِّ مُتَلَقٍّ. يَقُول أَبُو العَتَاهِيَّةِ: [2]

أَلاَ إِنَّ لِي يَوْمًا **أُدَانُ** كَـــمَا **دِنْتُ** *** سَيُحْصِي كِتَابِي مَا **أَسَأْتُ** وَ**أَحْسَنْتُ**.
أَمَا وَالذِّي أَرْجُـــوهُ لِلْعَفْـــوِ إِنَّهُ *** لَيَعْـــلَمُ مَا **أَسْرَرْتُ** مِنِّـــي وَ**أَعْلَنْتُ**.
كَفَى حَزَنًا أَنِّـــي **أُحَسِّنُ** وَالبِلَـى *** **يُقَبِّـــحُ** مَـــا **زَيَّنْتُ** مِنِّـــي وَ**حَسَّنْتُ**.
وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا هَـنَاتٌ تَغُرُّنِي *** تَيَقَّـــنْتُ مِنْـــهُنَّ الـــذِّي تَيَـــقَّنْتُ.
تَصَعَّدْتُ مُغْتَرًّا وَصَوَّبْتُ فِي المُنَى *** وَ**حَرَّكْتُ** مِنْ نَفْسِـي إِلَيْـهَا وَ**سَكَّنْتُ**.
وَكَمْ قَدْ **دَعَتْنِي** هِمَّتِي **فَأَجَبْتُـهَا** *** وَكَـــمْ لَوَّثَـتْنِـــي هِمَّتِـــي فَتَـــلَوَّثْتُ.
مُعَاشَرَةُ الإِنْسَـانِ عِنْـدِي **أَمَـانَةٌ** *** فَإِنْ **خُنْتُ** إِنْسَانًا فَنَفْسِي الذِّي خُنْتُ.
وَلِي سَاعَةٌ لاَ شَكَّ فِيهَا وَشِيكَةٌ *** كَـأَنِّي قَدْ حُنِّطْتُ فِيـــهَا وَكُـــفِّنْتُ.
أَلَـمْ تَرَ أَنَّ الأَرْضَ مَنْـزِلُ **قُـلْعَةٍ** *** وَإِنْ طَـالَ تَعْمِيـرِي عَلَيْـهَا وَ**أَزْمَنْـــتُ**.
وَإِنِّي لَرَهْنٌ بِالخُطُوبِ مُصَـرَّفٌ *** وَمُنْتَـــظِرٌ كَـأْسَ الرَّدَى حَيْثُـــمَا كُنْتُ.

فأَنْتَ تَرَى مِنْ أَوَّلِ بَيْتٍ شَـغَفَ الشَّـاعِرِ بِالتَّضَـادِّ يُقِيمُهُ بَيْنَ:(أَسَـأْتُ/أَحْسَـنْتُ)،

1- Maria Corti, An introduction to literary semiotics (Advances in semiotics series), Hardcover, 1978, P:79.

[2]- قصيدة رقم: [مِن الطَّويل]75، صص76،77.

(أَسْـــرَرْتُ/أَعْلَنْتُ)، (أُحَسِّـــنُ/يُقَبِّحُ)، (حَرَّكْتُ/سَـــكَّنْتُ)، (دَعتْنِي/أَجَبْتُهَا)، (أَمَانَةٌ/ خُنْتُ)، (قُلْعَةٍ/أَزْمَنْتُ).

إِنَّ هَذِهِ الأَدَاةَ الأُسْلُوبِيَّةَ تُسْهِمُ فِي تَأْكِيدِ المَعْنَى بِحَيْثُ تَدْفَعُ السَّامِعَ إِلَى إِقَامَةِ مُقَارَنَةٍ بَيْنَ مُتَنَاقِضَيْنِ فَتَتَكَشَّفُ لَهُ خَبَايَا أَحْوَالِهِمَا مِنْ خِلاَلِ "الفَاعِلِيَّةِ التَّحْوِيلِيَّةِ لِلتَّضَادِ الفِعْلِيِّ، حَيْثُ يَتَحَوَّلُ السِّلْبِيُّ إِلَى إِيجَابِيٍّ وَالذَّاتِيُّ إِلَى كَوْنِيٍّ فِي مُعَادَلَةِ الهَدْمِ/البِنَاءِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. فَالفِعْلُ إِذًا، لاَ يَسْتَدْعِي الأَضْدَادَ لِتَكْوِينِ سِيَاقٍ لِلمَقْطَعِ أَوْ لِلقَصِيدَةِ، فَحَسْبْ بَلْ لِتَكْوِينِ حَرَكَةٍ دَاخِلِيَّةٍ، تُفَجِّرُ الدَّلاَلاَتِ الضِّدِّيَّةِ، التِّي سَتَقُومُ بِنَقْضِ الدَّلاَلاَت الصَّرِيحَةِ لِهَذِهِ السِّيَاقَاتِ فِي سَطْحِ النَّصِّ بِأَزْمَانِهَا المُخْتَلِفَةِ "[1]، وَلاَ يَخْتَلِفُ الأَمْرُ إِلاَّ فِي بَعْضِ الجُزْئِيَاتِ حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنِ التَّضَادِّ بَيْنَ الأَسْمَاءِ وَمَا يُفْرِزُهُ مِنْ دَلاَلاَتٍ وَتَفَاعُلٍ فِي ذِهْنِ المُتَلَقِّي وَهُوَ يُؤْخَذُ فِي مَسَارَيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ، يُحَاوِلُ أَنْ يُفَكِّكَ شِفْرَاتِهِمَا، وَيُعِيدَ صِيَاغَةَ وَتَرْكِيبَ مَوَاضِعِ التَّلاَقِي، بِالأَدَوَاتِ التِّي يُتِيحُهَا لَهَا المَعْجَمُ، مَا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ.

لَقَدْ دَرَجَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ عَلَى تَوْظِيفِ هَذِهِ الخَّاصِّيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، وَلَعَلَّهُ مَعَ المَمَارَسَةِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ، غَلَبَةِ الطَّبْعِ، قَدْ عَرَفَ، يَقِينًا، مَفْعُولَهَا فِي لَفْتِ انْتِبَاهِ السَّامِعِينَ، فَجَعَلَهَا وَاسِطَتَهُ لِمُخَاطَبَةِ عَوَاطِفِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، مِنْ ذَلِكَ هَذِهِ القَصِيدَةُ التِّي يَبْنِيهَا عَلَى التَّضَادِّ فِي أَغْلَبِ أَبْيَاتِهَا كَمَا هِيَ عَادَتُهُ(13تضَادًّا فِي17 بيْتًا)، يَقُولُ:[2]

خَانَكَ الطَّـــرْفُ الطَّمُـــوحُ *** أَيُّهَا القَلْبُ الجَـــمُوحُ.
لِدَوَاعِـــي الخَيْـــرِ وَالشَّـــ *** ـرِّ دُنُـــوٌّ وَنُـــزُوحُ.
هَـلْ لِمَطْلُـــوبٍ بِذَنْـــبٍ *** تَـــوْبَةٌ مِنْـــهُ نَصُـــوحُ.
كَيْـفَ إِصْـــلاَحُ قُلُـــوبٍ *** إِنَّمَـــا هُـــنَّ قُـــرُوحُ.
أَحْسَـــنَ اللهُ بِنَـــا أَنَّ الخَطَـــايَا لاَ تَفُـــوحُ.

[1]- مَسَار التَّحَوُّلاتِ، قراءة في شِعْرِ أَدُونِيس، أُسيمة درويش، م.س، ص278.
[2]- قصيدة رقم: 98[من مجزوء الرّمل]، ص ص97-99.

فَإِذَا الـمَسْتُـــــورُ مِنَّـــا *** بَيْنَ ثَوْبَيْـهِ فُضُـــــوحُ.
كَـمْ، رَأَيْنَـــا مِنْ عَـــزِيزٍ *** طُـوِيَتْ عَنْهُ الكُشُوحُ.
صَـــاحَ مِنْـــهُ بِرَحِـــيلٍ *** صَائِحُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ.
مَوْتُ بَعْضِ النَّـاسِ فِي الأَرْ *** ضِ عَلَـى بَعْضٍ فُتُـوحُ.
سَيَصِـــيرُ الـــمَرْءُ يَوْمًـــا *** جَسَـدًا مَـا فِيـــهِ رُوحُ.
بَيْنَ عَيْنَـيْ كُـــلِّ حَـــيٍّ *** عَلَمُ المَوْتِ يَلُـــــوحُ.
كُلُّنَـــا فِـــي غَفْـــلَةٍ وَالـ *** ـمَوْتُ يَغْـدُو وَيَـرُوحُ.
لِبَنِـــي الدُّنْيَـــا مِنَ الـــدُّنْ *** يَا غَبُـــوقٌ وَصَبُـوحٌ.
رُحْنَ فِي الوَشْـــيِ وَأَصْبَحْـ *** ـنَ عَلَيْـهِنَّ الـــمُسُوحُ.
كُـــلُّ نَطَّـــاحٍ فِي الدَّهْـــ *** ـرِ لَهُ يَـــوْمٌ نَطُـــوحُ.
نُـــحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مِسْـ *** ـكِينُ إِنْ كُنْتَ تَنُـــوحُ.
لَتَمُوتَـــــنَّ وَإِنْ عُـــــمِّـ *** ـرْتَ مَا عُمِّرَ نُـــوحُ.

هَكَذَا تَتَحَرَّكُ القَصِيدَةُ فِي خَطَّيْن أَسَاسِيَيْنِ: خَطٌّ سِلْبِيٌّ مُتَمَثِّلٌ فِي الدُّنْيَا وَغُرُورِهَا، وَخَطٌّ إِيجَابِيٌّ يُحَذِّرُ مِنْ فِتْنَتِهَا وَيَدْعُو إِلَى الإِعْرَاضِ عَنْهَا، وَهَذَا يَجْرِي عَلَى مُعْظَمِ نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي الزُّهْدِ، إِذْ تَنْهَضُ فِي بِنْيَاتٍ مُتَلاَحِمَةٍ مُتَكَامِلَةٍ، عَبْرَ فَاعِلِيَّةِ الأَضْدَادِ وَحَرَكَاتِهَا المُتَنَاقِضَةِ، المُنْتَقِلَةِ فِي البَيْتِ، بَلْ وفِي الشَّطْرِ مِنْهُ فِي أَكْثَرِ الأَحْوَالِ مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ، كَمَا هِيَ حَرَكَةُ النِّهَايَةِ فِي الوَاقِعِ إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ أَوْ إِلَى نَارٍ! فَتَتَوَلَّدُ بِذَلِكَ حَرَكَةُ النَّصِّ، جِيئَةً وَذَهَابًا، بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يُحَدِّدُ مَصِيرَانِ مَسَارَهَا وَقُوَّتَهَا، وَيَضْبِطُ تَبَايُنُهُمَا دِينَامِيكِيَّةَ القَصِيدَةِ وَكِيمْيَاءَ تَفَاعُلِهَا بَيْنَ:

(الخَيْرِ/الشَّرِّ)، (دُنُوٍّ/نُزُوحٍ)، (ذَنْبِ/تَوْبَةٍ)، (إِصْلاَحٍ/قُرُوحٍ)، (المسْتُورِ/فُضُوحٍ)، (جَسَدًا/رُوحٍ)، (حَيٍّ/المَوْتِ)، (يَغْدُو/يَرُوحُ)، (غَبُوقٍ/صَبُوحٍ)، (رُحْنَ،أَصْبَحْنَ)، (الوَشْيِ /المُسُوحِ)، (نَطَّاحٍ/نَطُوحٍ)، (تَمُوتَنَّ/عُمِّرْتَ).

وَمِثْلُ هَذَا لاَ يَكَادُ يُحْصَى فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، مِمَّا يُدَلِّلُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى أَنَّهَا عَمَلِيَّةٌ تَتَوَاتَرُ بِوَعْيٍ وَإِرَادَةٍ مِنَ الشَّاعِرِ، فَهُو يَجِدُ فِيهَا حَامِلاً أُسْلُوبِيًّا لِلخِطَابِ الذِّي انْبَرَى لَهُ لِمَا يَزِيدُ عَنْ ثَلاَثِينَ سَنَةٍ، إِذْ لاَ يُمْكِنُ، وَالآخِرَةُ تُقَارِعُ الدُّنْيَا، وَاللَّيْلُ يُسَابِقُ النَّهَارَ، وَالحَقُّ يَدْمَغُ البَاطِلَ، وَالشَّرُّ يَتَوَعَّدُ الخَيْرَ...إِلاَّ أَنْ يَكُونَ شِعْرُهُ مِرْآةً تَعْكِسُ صَفْحَتُهَا كَثِيرًا مِنْ أَوْجُهِ هَذَا الصِّرَاعِ وَأَدَوَاتِهِ، يَقُولُ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ:

نُرِيدُ بَقَـــاءً والخُطُـــــوب تَكِـــيدُ *** ولَيْس المُنَى لِلفَـــرْدِ كَيْـفَ يُرِيدُ.
وَمَنْ يَأْمَنُ الأَيَّـــــامَ، أَمَّا اتِّسَـاعُهَا *** فَخَبْـلٌ، وَأَمَّـا ضَيْقُـــهَا فَشَـدِيدُ.
وَأَيُّ بَنِـــي الأَيَّـــامِ إِلاَّ وَعِنْـــدَهُ *** مِنَ الدَّهْـرِ عِلْـمٌ طَارِفٌ وَ تَلِيـدُ.
يَرَى مَا يَزِيــدُ وَالزِّيَـــادَةُ نَقْـــصُهُ *** أَلاَ إِنَّ نَقْصَ الشَّـيْءِ حِيـنَ يَزِيدُ.
وَ مِنْ عَجَبِ الدُّنْيَا يَقِينُكَ بِالفَـــنَا *** وَأَنَّـكَ فِيـــهَا لِلبَقَـــــاءِ مُـــرِيدُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحَـــرْثَ وَالنَّسْـلَ كُلَّـــهُ *** يَبِيـــدُ وَمِـنْهُ قَائِـــمٌ وَحَـــصِيدُ.
لَعَمْرِي لَقَدْ بَـادَتْ قُـــــرُونٌ كَـثِيرَةٌ *** وَأَنْـتَ كَـمَا بَـادَ القُـرُونُ تَبِيـدُ.
وَكَمْ صَارَ تَحْتَ الأَرْضِ مِنْ خَامِدٍ بِهَا *** وَقَدْ كَانَ يَبْنِي فَوْقَـهَا وَيَشِـيدُ.
وَكَمْ مِنْ عَدِيدٍ قَدْ مَحَا الدَّهْرُ ذِكْرَهُمْ *** كَذَا الدَّهْرُ لاَ يَبْقَى عَلَيْهِ عَدِيدُ.
وَلِلمَوْتِ عِـــلاَّتٌ تَجَلَّى وَتَخْتَفِـــي *** وَلِلدَّهْـرِ وَعْـدٌ مَـــرَّةً وَوَعِـــيدُ.
وَرَبِّ البِـــلَى إِنَّ الجَـــدِيدَ إِلَى البِـــلَى *** وَإِنَّ الذِّي يُبْلِي الجَدِيدَ جَدِيدُ.[1]

فَهَا هِيَ أَلْوَانُ التَّضَادِّ نَفْسُهاَ تَتَرَدَّدُ، وَذَاتُ السِّمَةِ الأُسلُوبِيَّةِ يَصْطَبِغُ بِهَا نَصُّهُ، فَيَرْسُمُ بِمُتَنَاقِضَاتِ الحَيَاةِ وَجْهَ قَصِيدَتِه، لِتَأْخُذَ شَكْلَهَا المُعْتَادَ، وَتَنسَجِمُ مَع مَعجَمِهَا القَدِيمِ الجَدِيدِ، فَضَيْقُ الأَيَّامِ وَمُصَارَعَةُ الإِنْسَانِ لِلْبَقَاءِ مَعَ يَقِينِهِ بِزَيْفِهَا ومَكْرِهَا، إِذْ عِنْدَهُ " مِنَ الدَّهْرِ عِلْمٌ طَارِفٌ وَتَلِيدُ "، يَرَى:(اتِّسَاعِهَا/ضَيْقَهَا)، (الزِّيَادَة/نَقْصُهُ)، (الفَنَا/ البَقَاءِ)، (قَائِمٌ/حَصِيدُ)، (تَحْتَ/فَوقَ)، (خَامِدٍ/يَبْنِي)، (تَجَلَّى/تَخْتَفِي)، (وَعْدٌ/وَعِيدُ)،

[1]- قصيدة رقم: 130[من الطَّوِيل]، صص126،127.

(الجَدِيدَ/البِلَى)، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ يَخْتَارُ مَا لاَ يُسْعِدُهُ فِي النِّهَايَةِ مَادَامَ أَنَّ " نَقْصَ الشَّيْءِ حِينَ يَزِيدُ "، إِذْ كُلَّمَا زَادَ عُمْرُ الإِنْسَانِ نَقُصَ، حَبْلُ أَجَلٍ يَتَجَاذبُ طَرَفَيْهِ أَمَلُ عَيْشٍ ويَقِينُ نِهَايَةٍ! يَسُوقُنَا هَذَا إِلَى الحَدِيثِ عَن "الحَيَاةِ وَالمَوْتِ" فِي لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ.

يُشكِّلُ التَّضَادُّ كَوْناً مُتَنَاقِضًا يُبْرِزُ حَرَكِيَّةِ النَّصِّ وَتَفَاعُلاَتِهِ، وَيَنْقُلُ جَدَلَ الوَاقِعِ وَالذَّاتِ فِي صِرَاعِهَا مَعَ الحَيَاةِ إِلَى ثَنَايَا القَصِيدَةِ، فَيُسْهِمُ فِي خَلْقِ دَلاَلاَتِهِ وَأَبْعَادِهَا الجَمَالِيَّةِ، وَيَفْتَحُ آفَاقَ الشِّعْرِيَّةِ وَاسِعَةً عَبْرَ الإِثَارَةِ وَالصِّرَاعِ بَيْنَ المُتَنَاقِضَاتِ فِي مَحَاوِرِ النَّصِّ العَدِيدَةِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ الانْسِجَامِ وَالتَّلاَحُمِ التِّي تُبْرِزُ بِاللُّغَةِ مَا يَجِيشُ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ مِنْ صِدَامٍ. فَتَوَارُدُ الأَضْدَاد فِي قَصَائِدِهِ بِهَذَا الكَمِّ، يُدَلِّلُ عَلَى التَّوَتُّرِ الذِّي يَعِيشُهُ، وَيُصُوِّرُ مَوْقِفَهُ إِزَاءَ الحَيَاةِ وَالوُجُودِ. مَوْقِفٌ يَنْبَنِي عَلَى حَتْمِيَّةِ الفَنَاءِ التِّي تَقْهَرُ الإِنْسَانَ، وَتَمْلأُ عَلَيْهِ تَفْكِيرَهُ فَيَشْتَغِلُ بِالسَّعْيِ فِي الحَيَاةِ، أَوْ بِالأَحْرَى، وَرَاءَهَا طَلَبًا لِنِسْيَانِ هَذَا المَصِيرِ الرَّابِضِ عِنْدَ بَابِهِ، وَهَيْهَاتَ لَهُ ذَلِكَ، يَقُولُ: [1]

إِنَّ ذَا المَوْتَ مَـــا عَلَيْـهِ مُجِـــيرُ *** يَهْلِكُ المُسْتَجَارُ وَالمُسْتَجِيرُ.
إِنْ تَكُنْ لَسْتَ خَابِـــرًا بِاللَّيَـــالِي *** وَبِأَحْدَاثِـــهَا، فَإِنِّـــي خَبِـــيرُ.
هُنَّ يُدْنِينَـــــنَا مِنَ المَوْتِ قِدْمًـــا *** فَسَـــوَاءٌ صَغِـــيرُنَا وَالكَبِـــيرُ.
أَيُّهَـــا الطَّـــالِبُ الكَثِيـــــرَ لِيَغْنَـــى *** كُلُّ مَنْ يَطْـلُبُ الكَثِيرَ فَقِـيرُ.
وَأَقَـــــلُّ القَلِيـــلِ يُغْنِـي وَيَكْـفِي *** لَيْسَ يُغْنِي وَلَيْسَ يَكْفِي الكَثِيرُ.
كَيْفَ تَعْمَى عَنِ الهُدَى كَيْفَ تَعْمَى *** عَجَبًـا وَالهُدَى سِرَاجٌ مُنِـــيرُ.
قَدْ أَتَـــاكَ الهُـــدَى مِنَ اللهِ نُصْـحًا *** وَبِهِ جَـــاءَكَ البَشِـــيرُ النَّـــذِيرُ.
وَمَـعَ اللهِ أَنْتَ مَـــــا دُمْتَ حَيًّـــا *** وَإِلَـــى اللهِ بَعْـدَ ذَاكَ تَصِـــيرُ.
وَالمَنَـــــايَا رَوَائِـــحٌ وَغَـــــوَادٍ *** كُلَّ يَـوْمٍ لَهَا سَحَـابٌ مَطِـيرُ.
لاَ تَغُرَّنَّـــــكَ العُيُـــــونُ فَكَـــمْ أَعْمَـــى تَـــرَاهُ وَإِنَّـــهُ لَبَصِـــيرُ.

[1]- قصيدة رقم: 139[مِن الخفِيف]، صص137،138.

أَنَا أَغْنَـى العِبَـادِ مَا كَـــانَ لِي كِـ ***ـنٌّ وَمَا كَـانَ لِي مَعَـاشٌ يَسِيرُ.

فَالمَوْتُ هُنَا هُوَ قُطْبُ الرَّحَى التِّي حَوْلَهَا تَدُورُ المَعَانِي المُتَنَاقِضَةُ، وَهِيَ فِي تَنَافُرِهَا ذَاكَ تَزْدَادُ تَنَاسُقًا عَكْسَ المُتَوَقَّعِ، اللَّفْظُ يَطْلُبُ ضِدَّهُ لِيَتَجَلَّى أَكْثَرَ وَيَرْسَخَ فِي الأَذْهَانِ، وَيَجْعَلُهُ ذَلِكَ الدَّوَرَانُ يَلْتَفُّ فِي مَدَارِهِ كَمَا الجَدِيدَيْنِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، يَتَنَازَعَانِ البَقَاءَ، وَيَبْغِيَانِ الخُلُودَ، لَكِنَّهُمَا فِي النِّهَايَةِ يَتَسَاوَيَانِ، يَتَعَاقَبَانِ فِي سَيْرِهِما الحَثِيثِ إِلَى المُسْتَوْدَعِ الأَخِيرِ. هِيَ إِذَنْ، ثَلاَثَةَ عَشَرَ حَرَكَةً وَضِدُّهَا يَتَوَالَى صِدَامُهَا مَعَ بَعْضٍ، وَفِي احْتِذَامِهِا تَتَشَكَّلُ دَلاَلاَتُ القَصِيدَةِ وَتَتَنَامَى مُشَكِّلَةً شَبَكَةَ المَعْنَى، فَالمَنَايَا رَوَائِحٌ وَغَوَادٍ، أَوْ لَرُبَّمَا هِيَ فِي الحَقِيقَةِ ثَابِتَةٌ وَالنَّاسُ عَلَى جَرْعَةٍ مِنْ كَأْسِهَا تَتَخَاصَمُ فِي غُدُوٍّ وَرَوَاحٍ لاَ يَفْتُرَانِ:

(الشّكلُ8)

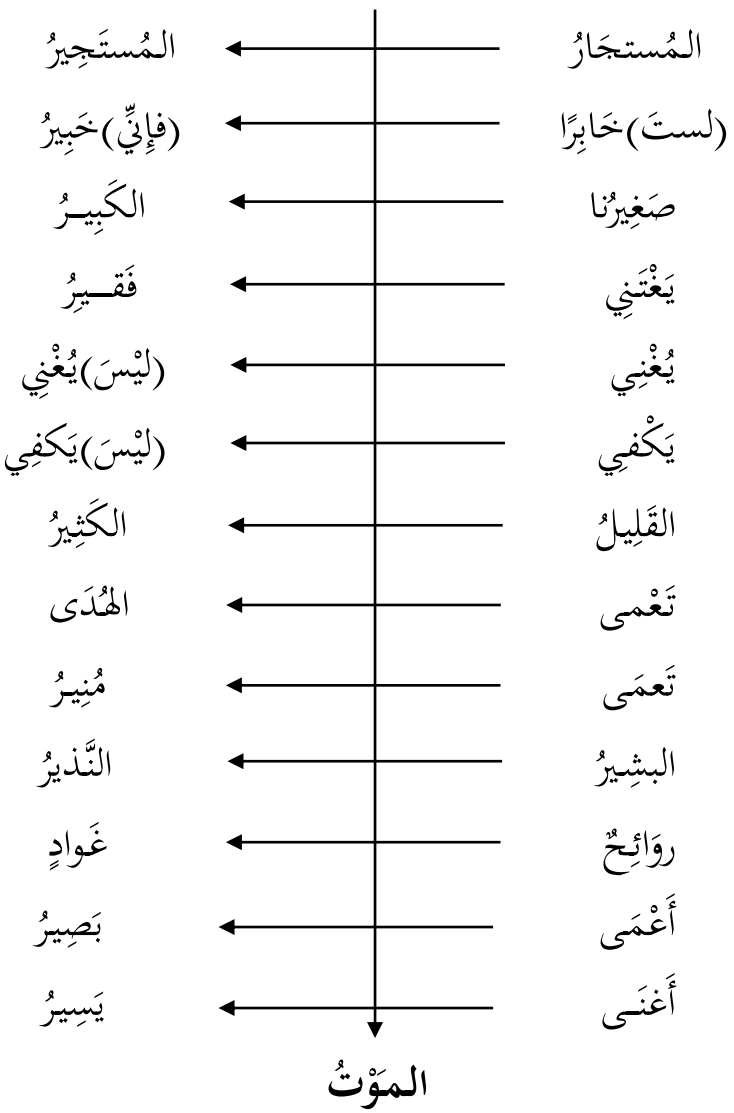

إِنَّ ظَاهِرةَ التَّضَادِّ فِي نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ تَتَجَاوَزُ مُهِمَّةَ إِقَامَةِ النَّسِيجِ الشَّكْلِيِّ لِلقَصِيدَةِ وَدَعْمِ عَنَاصِرِهِ البِنْيَوِيَّةِ إِلَى المُشَارَكَةِ الفَاعِلَةِ فِي إِثْرَاءِ المَعْنَى، وَكَشْفِ عَوَالِمِهِ المُختَلِفَةِ عَلَى صَعِيدِ التَّجْرِبَتَيْنِ:الشِّعْرِيَّةِ فِي بُعْدِهَا الفَنِّيِّ، وَالإِنْسَانِيَّةِ فِي بُعْدِهَا الشُّعُورِيِّ وَالرُّوحِيِّ. فَالتَّضَادُ يُحَوِّلُ قَصَائِدَهُ إِلَى فَضَاءٍ مَفْتُوحٍ يَسْتَقْطِبُ الرُّؤَى المُتَبَايِنَةَ، ويَشْحَنُهَا بِالحَيَوِيَّةِ وَالتَّوَهُّجِ فِي حَرَكَتَيْنِ مُتَوَازِنَتَيْنِ، هُمَا فِي الوَاقِعِ، حَرَكَتَانِ مُتَدَاخِلَتَانِ، لاَ يُمْكِنُ فَصْلُهُمَا

حَذَرَ اخْتِلاَلِ الدَّلالَةِ: حَرَكَةٌ أُفُقِيَّةٌ تَجْمَعُ الضِّدَّيْنَ عَلَى مُسْتَوَى البَيْتِ الوَاحِدِ، وَأُخْرَى عَمُودِيَّةٌ تَجْمَعُ، نَازِلَةً، مُجْمَلَ الحَرَكَاتِ الجُزْئِيَّةِ حولَ المَعْنَى الأَسَاسِ فِي النَّصِّ، وَالذِّي غَالِبًا مَا نَجِدُهُ عِنْدَ شَاعِرِنَا مُعَبِّرًا عَنْ خُطُوطِهِ الكُبْرَى بِالكَلِمَةِ المِفْتَاحِيَّةِ الوَاقِعَةِ فِي الحَقْلِ الدَّلاَلِيِّ لِلَفْظَةِ (مَوْتٌ) وَمُرَادِفَاتِهَا.

لَيْسَ بِدْعًا القَوْلُ أَنَّ هذَا الحَقْلَ يَشْغَلُ أَكْبَرَ مَسَاحةٍ فِي نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَيُغَطِّي عَلَى غَيْرِه مِنَ الأَلْفَاظِ، فَشَاعِرُ الزُّهْدِ فَنَّانٌ وَاعِظٌ، يَسْتَلْهِمُ مِنْ قَامُوسِ النُّسَاكِ وَالزُّهَّادِ لِيَصُوغَ فِكْرَتَهُ، وَيَبْنِيَ نَصَّهُ، لِذَا سَتَشِيعُ هَذِهِ الأَلْفَاظُ وَمَثِيلاَتُهَا فِي ثَنَايَا قَصَائِدِهِ، وَتَتَوَزَّعُ فِي دَيْوَانِهِ بِطَرِيقَةٍ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْطِئَهَا عَيْنُ النَّاقِدِ المتَتَبِّعِ لأَسَالِيب الشُّعَرَاءِ فِي إِبْدَاعِهِمْ، حَتَّى أَنَّا نَكَادُ نَجْزِمُ بِأَنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ قَصِيدَةٍ، بَلْ وَتَأْشِيرَةُ مُرُورٍ إِلَى شَوَاغِلِ فِكْرِهِ، وَزَوَايَا رُؤَاهُ وَتَجَارِبِهِ، عِلْمًا أَنَّ الكَلِمَاتِ المِفْتَاحِيَّةَ هِيَ التِّي يُكَرِّرُهَا المُبْدِعُ " بِشَكْلٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهَا رَنِينًا خَاصًّا عِنْدَهُ، وَلَهَا بِالتَّالِي قُوَّةً خَلاَّقَةً أَشَدَّ فَاعِلِيَّةً مِنَ الاسْتِعْمَالِ العَادِيِّ "[1]، إِذْ تُكَثِّفُ حَرَكِيَّةَ القَصِيدَةِ، وَتُفَجِّرُ دَلاَلاتِهَا. كَاشِفَةً عَنِ " التَّحَوُّلاتِ المُفَاجِئَةِ التِّي تَطْرَأُ عَلَى المَحَاوِرِ لَحْظَةَ تَقَاطُعِهَا، وَالعَنَاصِرِ لَحْظَةِ تَفَاعُلِهَا، وَالأَزْمِنَةِ لَحْظَةَ تَوَالُجِهَا "[2].

لاَ نَجْزِمُ بِالضَّبْطِ فِي الذِّي سَاقَ أَبَا العَتَاهِيَّةِ إِلَى الزُّهدِ، فَقَدْ كَثُرَتْ الرِّوَايَاتُ وَتَنَاقَضَتِ الأَسْبَابُ المُفَسِّرَةُ لِذَلِكَ، وَلَكِنَّنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ طَفْرَةً مُفَاجِئَةً، فَفِي شِعْرِهِ زَمَنَ مُجُونِهِ بَعْضُ إِرْهَاصَاتٍ مِنَ القَوْلِ الحَكِيمِ المُسِتَنِدِ إِلَى مَبَادِئِ الدِّينِ، ولَكِنَّهُ مَا يَفْتَأُ أَنْ تُطْفِئَهُ صَبْوَةُ الشَّبَابِ، وَمَجَالِسُ اللَّهْوِ وَالمُنَادَمَةِ فِي بَغدادَ.

فَالتَّحَوُّلُ، إِذَنْ، طَرَأَ فِي سِنِي عُمْرِهِ التِّي اعْتَزَلَ فِيهَا المُجُونَ وَتَفَرَّغَ لِلزُّهْدِيَاتِ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ انْقَطَعَ عَنْ قَوْلِ الغَزَلِ فَأَدْخَلَهُ الخَلِيفَةُ الرَّشِيدُ السِّجْنَ حِينَ أَبَى أَنْ يُجِيبَ

[1]- التّحليل الألسنيّ للأدب، محمّد عزام، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1994م، ص145.

[2]- مسار التّحولات، قراءة في شعر أدونيس، أُسيمة دَرويش، م.س، ص144.

طَلَبَهُ فِي العَوْدَةِ إِلَى مَجَالِسِ مُسَامَرَاتِهِ[1]. لكِنَّهُ هَذِهِ المرَّةَ، نَهَجَ طَرِيقَ النُّسَّاكِ فَلَبِسَ الصُّوفَ، وَعكَفَ عَلَى هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ مُكْثِرًا " مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ وَالوُقُوفِ عَلَى القُبُورِ وَالانْتِفَاعِ بِالمَعَانِي القُرْآنِيَّةِ "[2]، التِّي أَجَادَ فِي مَزْجِهَا بِشِعْرِهِ فَكَوَّنَتْ لُحْمَةً وَاحِدةً تَدُورُ حَوْلَ فِكْرَةِ المَوْتِ وَالفَنَاءِ التِّي هِيَ مِفْتَاحُ كُلِّ نَصٍّ عَتَاهِيٍّ فِي الزُّهْدِ تَكْشِفُ شَوَاغِلَهُ العُظْمَى، وَتَبُوحُ بِهَوَاجِسِهِ المُلِحَّةِ. وَ" الكَلِمَةُ المِفْتَاحُ تَعْمَلُ عَلَى تَنْظِيمِ النَّسَقِ بِتَمَازُجِهَا بِفَاعِلِيَّةِ التَّعْبِيرِ، وَتَآزُرِهَا مَعَ حَرَكِيَّةِ التَّصْوِيرِ، ثُمَّ تَشَابُكِهَا بِفِكْرِ القَصِيدَةِ، بِحُسْبَانِهَا رَكِيزةَ تَشْكِيلِهَا وَجَوْهَرَ قَوْلِهَا "[3].

وَلَعَلَّ القَصِيدَةَ الآتِيَةَ تُقَرِّبُ إِلَيْنَا تِلْكَ النَّقْلَةَ التِّي حَدَثَتْ فِي حَيَاةِ الشَّاعِرِ، إِذْ يَصِفُ فِيهَا طَبِيعَةَ حَيَاةٍ فِي وَجْهَيْهَا المُخْتَلِفَيْنِ، هِيَ فِي الحَقِيقَةِ رِحْلَةُ عُمْرِ كُلِّ إِنْسَانٍ، هِيَ الوُجُودُ فِي تَحَوُّلِهِ وَفِي صِرَاعِهِ الأَزَلِيِّ مَعَ (المَوْتِ) مِحْوَرِ الكَيْنُونَةِ البَشَرِيَّةِ وَالشِّعْرِيَّةِ فِي آنٍ، يَقُولُ:

23/ كَبِـــرْنا أَيُّـــهَا الأَتْـــرَابُ حَتَّى *** كَأَنَّـا لَـمْ نَكُنْ حِـينًا شَبَـابَا.
وَكُنَّـــا كَالغُصُـــونِ إِذَا تَثَنَّـــتْ *** مِنَ الرَّيْحَانِ مُونِـقَةً رِطَـابَا.
إِلَى كَـمْ طُولُ صَبْـوَتِنَا بِـــدَارٍ *** رَأَيْتُ لَهَا اغْتِصَابًا وَاسْتِلاَبَا.
أَلاَ مَـا لِلكُـهُـــولِ وَالتَّصَابِـي *** إِذَا مَا اغْتَرَّ مُكْتَهِلٌ تَصَابَى.
فَزِعْتُ إِلَى خِضَابِ الشَّيْبِ مِنْهُ *** وَإِنَّ نُصُولَهُ فَضَحَ الخِضَـابَا.
مَضَى عَنِّي الشَّبَـابُ بِغَيْرِ وُدِّي*** فَعِنْـدَ اللهِ أَحْتَسِـبُ الشَّبَـابَا.
وَمَـا مِـنْ غَـــايَةٍ إِلاَّ المَنَـــايَا *** لِمَنْ خَلِقَتْ شَبِيبَتُهُ وَشَـابَا.
وَمَا مِنْكَ الشَّبَـابُ وَلَسْتَ مِنْهُ *** إِذَا سَأَلَتْكَ لِحْيَتُكَ الخِضَابَا.[4]

---

[1]- العصر العباسيّ الأوّل، شوقي ضيف، م.س، صص240،241.

[2]- الشّعر و الشّعراء في العصر العباسيّ، م.س، ص222.

[3]- القولُ الشّعريُّ – منظورات معاصرة، رجاء عيد، مُؤسّسة المعارف للطّباعة والنّشر، ط1، 1995م، ص158. وانظر: تذوّقُ النّصّ الأدبيّ (جمالياتُ الأداءِ الفنّيّ)، رجاء عيد، دار قطري بن الفجاءة، للنّشر والتّوزيع، قطر، ط1، 1994م، ص15.

[4]- قصيدة رقم: 15 [من الوافر]، صص20،21.

إِنَّ ظُهُورَ عَلاَمَاتِ الكِبَرِ إِيذَانٌ بِالرَّحِيلِ، تَذْكِيرٌ بِالمُتَنَاقِضَيْنِ: الشَّبَابُ وَالشَّيْبُ، وَحَوْلَ فِكْرَةِ الفَنَاءِ يَبْنِي الشَّاعِرُ نَصَّهُ الذِّي يَمْتَحُ مِنْ مَعْجَمِ الزُّهْدِ المَأْلُوفِ، بَادِئًا بِالكَلِمَةِ المِفْتَاحِ التِّي فِي فَضَائِهَا سَتَسْبَحُ بَاقِي الدَّلاَلاتِ تَمَامًا كَمَا تَدُورُ الجُسُومُ حَوْلَ النَّوَاةِ، فَبَيْنَ (كَبِرْنَا) بِصِيغَةِ الحَاضِرِ وَ(كُنَّا) بِصِيغَةِ المَاضِي يَتَأَسَّسُ المَعْجَمُ وَتَتَبَدَّى اللُّغَةُ التِّي سَتَحْمِلُ الخِطَابَ المَشْغُولَ بِالزَّوَالِ وَالانْدِثَارِ:

وَمَا مِنْ غَايَةٍ إِلاَّ المَنَايَا *** لِمَنْ خَلِقَتْ شَبِيبَتُهُ وَشَابَا.

الحَقْلُ الدَّلاَلِيُّ لِلكَلِمَةِ المِفْتَاحِيَّةِ فِي صِرَاعِ المَوْتِ وَالحَيَاةِ	
الشَّبَابُ	**الشَّيْبُ**
كُنَّا مُونِقَةً رِطَابَا، الشَّبَابُ، الشَّبَابُ، شَبِيبَتُهُ، الشَّبَابَا، شَبَابَا.	كَبِرْنا، لِلكُهُولِ، مُكْتَهِلٌ، الشَّيْبِ، شَابَا.
تَصَابَى، التَّصَابِي، صَبْوَتِنَا.	خِضَابِ، الخِضَابَا، الخِضَابَا.

فَبَعْدَ غَمْرَةِ الانْتِشَاءِ بِالصِّبَا وَمَلَذَّاتِهِ يَسْتَفِيقُ الشَّاعِرُ عَلَى نَذِيرٍ مَا كَانَ يَحْسَبُ قُدُومَهُ قَرِيبًا، فَتُنْطِقُهُ الحَسْرَةُ بِصَوْتِ المَهْمُومِ:(كَبِرْنَا أَيُّهَا الأَتْرَابُ)، فَيُذَكِّرُهُ ذَلِكَ تَصَابِيهِ أَيَّامَ الشَّبَابِ المُونِقَةِ الهَنِيَّةِ، وَهَا إِنَّ الشَّيْبَ قَدْ حَلَّ حَتَّى إِنَّهُ مِنْ شِدَّةِ المُفَاجَأَةِ قَامَ فَزِعًا يُخَضِّبُ شَعْرَهُ عَلَّهُ يُدَارِي الذِّي أَصَابَهُ، وَلَيْسَ يَخْدَعُ إِلاَّ نَفْسَهُ إِذْ سَيَزُولُ الخِضَابُ وَيَرَى حَقِيقَتَهُ الفَاضِحَةَ التِّي يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَرَاهَا (وَإِنَّ نُصُولَهُ فَضَحَ الخِضَابَا).

المَوْتُ إِذَنْ هِيَ مُحَرِّكَةُ نَصِّ الزُّهْدِ وَمُنْتِجَةُ مَعْجَمِهِ، تَتَشَابَهُ كَلِمَتُهُ وَتَعُودُ مَعَ كُلِّ نَصٍّ، فَيَتَأَكَّدُ مَعَهَا أُسْلُوبُ الشَّاعِرِ وَيَسْتَحْكِمُ مَعَ كُلِّ قَصِيدَةٍ:

يَا رَاكِبَ **الغَيِّ** غَيْرَ مُتَّئِدِ *** شَتَّان بَيْنَ **الضَّلاَلِ وَالرَّشَدِ**.

حَسْبُكَ مَا قَدْ أَتَيْـــتَ مُعْـــتَمِدًا *** فَاسْتَغْـــفِرِ اللهَ ثُـــمَّ لاَ تَعُـــدِ.
يَا ذَا الذِّي نَقْـــصُهُ زِيَـــــادَتُهُ *** إِنْ كُنْتَ لَمْ تَنْتَقِصْ فَلَمْ تَـزِدِ.
عَجِبْـــتُ مِنْ آمِـــلٍ وَوَاعِضُـــهُ **المَـــوْتُ** فَلَمْ يَتَّعِـــظْ وَ لَـــمْ يَكدِ.
مَا أَسْرَعَ اللَّيْـــلَ وَالنَّـــهَارَ بِسَـــا *** عَاتٍ قِصَارٍ تَأْتِي عَلَى الأَمَدِ.
لَيَجْـــرِيَنَّ عَلَيْـــنَا **البِـــلَى** بِمَا *** كَانَ جَـرَى قَبْلَـنَا عَلَى لُبَدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ كَمْ أَخِي ثِقَـــةٍ *** كَلَّفْتَنِـي غَمْضَ عَيْنَيْهِ بِيَدِي.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ كَمْ أَضَفْتَ إِلَى الـ *** ـقِـــلَّةِ مِنْ ثَـــرْوَةٍ وَمِـنْ عَـدَدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ كَمْ لِوَخْـزِكَ مِنْ *** قَلْبٍ جَرِيحٍ يَدْمَى وَمِنْ كَـبِدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ صَبَّحَتْنَا بِكَ الشَّـ *** ـمْسُ وَمَسَّتْ كَوَاكِبُ الأَسَدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ لاَ أَرَاكَ مِـــنَ الـ *** ـخَلْقِ جَمِيعًا تُبْقِي عَلَى أَحَدِ.
الـحَمْدُ للهِ دَائِـــمًا أَبَـــدَا ***قَدْ يَصِفُ القَصْدَ غَيْرُ مُقْتَصِدِ.
مَنْ يَسْتَـنِرْ بِالهُـدَى يُنِـــرْهُ وَمَنْ *** يَبْـغِ إِلَى اللهِ مَطْـلَبًا يَـجِدِ. [1]

تَسْتَحْوِذُ فِكْرَةُ الفَنَاءِ عَلَى الشَّاعِرِ فَتَشْغَلُ المَسَاحَةَ الأَكْبَرَ مِنْ هَذَا النَّصِّ، إِلَى دَرَجَةٍ لاَ يَجِدُ سَبِيلاً إِلَى اسْتِبْدَالِ لَفْظَةِ (مَوْتُ) بِغَيْرِهَا، وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ وَهِيَ تَسْتَبِدُّ بِهِ إِلَى الحَدِّ الذِّي يَرْفَعُ فِيه صَوْتَهُ صَارِخًا عَاتِبَا مُسْتَجْدِيًا عَشْرَ مَرَّاتٍ فِي خَمْسَةِ أَبْيَاتٍ فَقَطْ (يَا مَوْتُ)! وَحِينَ عَجْزِهِ يَفِرُّ لاَئِذًا بِرَبِّه، مُسْتَجِيرًا بِجَنَابِهِ كَمَا يَفْعَلُ فِي البَيتَيْنِ الأَخِيرَيْنِ. فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ وَهُوَ يُكَرِّرُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي مُسْتَهَلِّ كُلِّ بَيْتٍ وَكَأَنَّهُ يَرْبِطُ عُقَدَ نَسِيجِ النَّصِّ، لِيَضْمَنَ بِهَذِهِ "الفَوَاصِلِ/الرَّوَابِطِ " اسْتِمْرَارَ تَدُفُّقِ المَعْنَى فِي وَعْيِ السَّامِعِ. وَتَكْرَارُ الكَلِمَةِ المِفْتَاحِ هُنَا لَيْسَ حَشْوًا لاَ طَائِلَ مِنْهُ، بَلْ هُوَ تَرْدِيدٌ يُرَاكِمُ المَعْنَى، وَيَرْسُمُ صُورَةً لِلمَوْتِ غَيْرَ التِّي أَلِفْنَاهَا، صُورَةُ المُسْتَجْدَى الذِّي تَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ وَهُوَ يُمْعِنُ فِي الإِعْرَاضِ، وَالشَّاعِرُ يُلِحُّ فِي الطَّلَبِ، فَتَتَحَوَّلُ مَعَهُ الكَلِمَةُ " – تَصْوِيراً وَتَخْيِيلاً – (...) إِلَى تَشْكِيلٍ تَصْوِيرِيٍّ مُفَارِقٍ

[1]– قصيدة رقم: 105[مِن المُنسَرِحِ]، صص104،105.

لِمَحَدُودِيَّةِ التَّجْرِيدِ اللَّفْظِيِّ "[1] الذِّي قَدْ يَنْطَبِعُ فِي الأَذهَانِ لَوْ لَمْ يُوَقِّعِ الشَّاعِرُ عَلَى ذَلِكَ اللَّفْظِ بِطَرِيقَتِهِ الأُسْلُوبِيَّةِ تِلْكَ المُتَمَثِّلَةُ فِي التَّكْرَارِ وَالتَّوَالِي، أَيْ الإِعَادَةُ أُفُقِيًّا وَعَمُودِيًّا.

وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى، يَقُولُ:

مَا يَدْفَعُ **المَوْتَ** أَرْصَادٌ وَلاَ حَرَسُ *** مَا يَغْلِبُ **المَوْتَ** جِنٌّ وَلاَ أَنَسُ.
مَا إِنْ دَعَا **المَوْتُ** أَمْلاَكًا وَلاَ سُوقًا *** إِلاَّ ثَنَاهُمْ إِلَيْهِ الصَّرْعُ وَالخُلَسُ.
لِلمَوْتِ مَا تَلِدُ الأَقْوَامُ كُلُّهُمْ *** وَ**لِلْبِلَى** كُلُّ مَا بَنَوْا وَغَرَسُوا.
هَلاَّ أُبَادِرُ هَذَا **المَوْتَ** فِي مَهَلٍ *** هَلاَّ أُبَادِرُهُ مَا دَامَ بِي نَفَسُ.
يَا خَائِفَ **المَوْتِ** لَوْ أَمْسَيْتَ خَائِفَهُ *** كَانَتْ دُمُوعُكَ طُولَ الدَّهْرِ تَنْبَجِسُ.
أَمَا يَهُولُكَ يَوْمٌ لاَ دِفَاعَ لَهُ *** إِذْ أَنْتَ فِي غَمَرَاتِ **المَوْتِ** مُنْغَمْسُ.
أَمَا تَهُولُكَ كَأْسٌ أَنْتَ شَارِبُهَا *** وَالعَقْلُ مِنْكَ لِكُوبِ **المَوْتِ** مُلْتَبِسُ.
إِيَّاكَ إِيَّاكَ وَالدُّنْيَا وَلَذَّتَهَا *** **فَالمَوْتُ** فِيهَا لِخَلْقِ اللهِ مُفْتَرِسُ.
إِنَّ الخَلاَئِقَ فِي الدُّنْيَا لَوْ اجْتَهَدُوا *** أَنْ يَحْبِسُوا هَذَا **المَوْتَ** مَا حَبَسُوا.
إِنَّ **المَنِيَّةَ** حَوْضٌ أَنْتَ تَكْرَهُهُ *** وَأَنْتَ عَمَّا قَلِيلٍ فِيهِ تَنْغَمِسُ.
مَا لِي رَأَيْتُ بَنِي **الدُّنْيَا** قَدْ افْتَتَنُوا *** كَأَنَّمَا هَذِهِ **الدُّنْيَا** لَهُمْ عُرُسُ.
إِذَا وَصَفْتَ لَهُمْ **دُنْيَاهُمْ** ضَحِكُوا *** وَإِنْ وَصَفْتَ لَهُمْ أُخْرَاهُمْ عَبَسُوا.
مَا لِي رَأَيْتُ بَنِي **الدُّنْيَا** وَإِخْوَتَهَا *** كَأَنَّهُمْ لِكِتَابِ اللهِ مَا دَرَسُوا.[2]

تَعُودُ كَلِمَةُ (مَوْتٌ) كَكُلِّ مَرَّةٍ، بِالقُوَّةِ والتَّرَدُّدِ ذَاتِه، حَتَّى أَنَّ سَامِعَ القَصِيدةِ لَنْ يُغَادِرَ إِلاَّ وَأَصدَاؤُهَا فِي أُذُنِهِ، وَصُوَرُ النِّهَايَةِ الحَتْمِيَّةِ تَعْتَمِلُ فِي فِكْرِهِ، يَرَى خَاتِمَتَهُ دَانِيَةً، قَرَّبَهَا ذَاكَ الإِلْحَاحُ الذِّي يَمْلأُ فَضَاءَ النَّصِّ (مَا يَدفَعُ المَوْتَ، مَا يَغْلِبُ المَوْتَ، لِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ

[1]- القول الشّعريّ- منظورات معاصرة، رجاء عيد، م.س، ص152.
[2]- القصِيدة رقم:192[مِن البَسيطِ]، ص188.

الأَقْوَامُ، فِي غَمَرَاتِ المَوْتِ مُنْغَمِسُ، فَالمَوْتُ... مُفْتَرِسُ، أَنْ يَحبِسُوا عَنْكَ هَذَا المَوْتَ مَا حَبَسُوا، إِنَّ المَنِيَّةَ حَوْضٌ...فِيهِ تَنْغَمِسُ).

ثُمَّ هُوَ يُضيفُهَا إِلَى غَيْرِهَا فِي مَوَاضِعَ عِدَّةٍ مِنْ شِعْرِهِ دُونَ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ دَلاَلَتِهَا القُرْآنِيَّةِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ يَزِيدُهَا قُرْبًا مِنْهَا، فَيُعْطِيهَا تِلْكَ النَّفْحَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ الخَالِصَةَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

1/ تَخَفَّفْ مِنَ الدُّنْيَا لَعَلَّكَ تُفْلِتُ *** وَإِلاَّ فَإِنِّي أَظُنُّكَ لاَ تَثْبُتُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحِلْمَ لِلْجَهْلِ قَاطِعٌ *** وَأَنَّ لِسَانَ **الرُّشْدِ لِلْغَيِّ** مُسْكِتُ.
لِكُلِّ امْرِئٍ مِن **سَكْرَةِ الموْتِ** سَكْرَةٌ *** وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْ **سَكْرةِ المَوْتِ** يُفْلِتُ.
عَجِبْتُ لِمَنْ قَرَّتْ مَعَ **المَوْتِ** عَيْنُهُ *** لِحَصْدِ **الرَّدَى** مَا ظَلَّتِ الأَرْضُ تُنْبِتُ.[1]

هُنَا، كَمَا فِي قَصَائِدَ كَثِيرَةٍ غَيْرِهَا، يَرْبِطُ الشَّاعِرُ لَفْظَةَ (مَوْتُ) بِكَلِمَاتٍ أُخْرَى سَتَتَرَدَّدُ وَتَعُودُ كَمَا لَوْ أَنَّهَا جُزْءٌ لاَ يَنْفَصِلُ عَنِ الخِطَابِ الزُّهْدِيِّ وَيُلاَزِمُهُ، كَالتَّعَجُّبِ مِنَ الغَفْلَةِ وَأَهْلِهَا، وَالتَّحَسُّرِ عَلَى انْفِرَاطِ الأَيَّامِ وَمَرِّهَا، وَخِدَاعِ الدَّهْرِ، وَالاشْتِغَالِ بِالدُّنْيَا، وَقُصُورِ الحِيلَةِ عَنْ رَدِّ القَادِمِ، وَاسْتِغْفَارِ النَّادِمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَنَذْكُرُ بَعْضَهُ فِي مَا يَأْتِي.

يقُولُ:

وَكُلُّ **ذِي سَكْـرَةٍ** فَأَعْمَى *** حَتَّى إِذَا مَا أَفَـاقَ أَبْصَرْ.[2]

ويَقُولُ:

1/ **أَفْنَى** شَبَابَكَ كَـرُّ الطَّرْفِ وَالنَّفَسِ *** **فَالمَوْتُ** مُقْتَرِبٌ وَالدَّهْرُ ذُو خُلُسِ.
لاَ تَأْمَنِ **المَوْتَ** فِي طَرْفٍ وَلاَ نَفَسٍ *** وَإِنْ تَمَنَّعْتَ بِالحُجَّابِ وَالحَرَسِ.

[1]- قصيدة رقم:72[من الطّويل]، ص74.
[2]- قصيدة رقم:177[من المنسرح]، ص173.

فَلاَ تَــزَالُ سِهَــامُ **المَــوْتِ** نَــافِذَةً *** فِـي جَنْــبِ مُـدَرَّعٍ مِنْـهَا وَمُتَــرِّسِ.

6/ أَنِّي لَكَ الصَّحْوُ مِنْ **سُكْرٍ** وَأَنْتَ مَتَى *** تَصِحَّ **مِنْ سَكْرَةٍ تَغْشَاكَ** فِي نَكْسِ.[1]

وَيقُولُ أَيْضًا:

يَا سَكرَةَ المَوتِ قَدْ نَصَبْتِ لِهَـ *** ـذَا الخَلْقُ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ شَرَكَا.

يَا سَكْـرَةَ المَوْتِ أَنْــتِ وَاقِــفَةٌ *** لِلْمَــرْءِ فِي أَيِّ آيَــةٍ سَــلَكَا.[2]

ويَقُولُ:

تَعَجَّبْتُ إِذْ أَهْوُ وَلَمْ أَرَ طَرْفَةً *** لِعَيْنِ امْرِئٍ مِنْ **سَكْرَةِ المَوْتِ** تُدْنِي.[3]

وَيَقُولُ:

يَوْمًا أُقَلِّبُ فِيهِ شَاخِصًا بَصَرِي *** تَمِيدُ بِي فِي حِيَاضِ **المَوْتِ سَكْرَتِيَهْ**.[4]

وَيقُولُ أَيْضًا:

كَأَنَّ حَيًّا وَقَدْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ *** قَد صَارَ فِي **سَكَرَاتِ المَوْتِ** تَغْشَاهُ.[5]

يَقْرِنُ الشَّـاعِرُ فِي هَذِهِ الأَبْيَـاتِ لَفْـظَةَ (مَـوْتٌ) بِلَفْظَةِ (سَـكْرَةُ) التِّي اسْتَمَـدَّها مِن قَولِه تَعَالَى: (وَجَآءَتْ **سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ** بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ١٩)[6]، لِيَعْضُدَ المَعْنَى وَيُلْبِسَهُ مَسْحَةً دِينِيَّةً إِذْ يَرْبِطُهُ فِي الأَذْهَانِ بِالهَوْلِ وَالفَزَعِ الذِّي يَغْشَى الإِنْسَانَ حِينَ مَمَاتِهِ.

---

[1]- قصيدة رقم:199[من البسيط]، صص194،193.

[2]- قصيدة رقم:283[من المنسرح]، ص260.

[3]- قصيدة رقم:403[من الطويل]، ص392.

[4]- قصيدة رقم:451[من البسيط]، ص435.

[5]- قصيدة رقم:437[من البسيط]، ص420.

[6]- سورة ق/19.

فَحَوْلَ هَذِهِ الكَلِمَةِ تَدُورُ القَصِيدَةُ، أَوْ بِالأَحْرَى الرُّهْدِيَاتُ فِي مُجْمَلِهَا، وَبِهَا تَتَشَكَّلُ بِنْيَاتُ عَلاَقَاتِهَا وَتَتَشَابَكُ. هَكَذَا هِيَ الكَلِمَةُ المِفْتَاحُ " تَخْلُقُ النَّصَّ، وَبِمَعْنَى أَدَقَّ: إِنَّ النَّصَّ يَتَخَلَّقُ فِي رَحِمِهَا، وَيَتَشَكَّلُ فِي إِطَارِهَا، وَهَكَذَا فَإِنَّ الكَلِمَةَ المِفْتَاحَ تُوَلِّدُ القَصِيدَةَ، وَتُجَسِّدُ الرُّؤْيَا الجَوْهَرِيَّةَ لِلوَاقِعِ"[1]. فَمِثْلُ هَذِهِ الأَدَوَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ إِنْ لَمْ تُعْطِنَا صُورَةً مُكْتَمِلَةً عَنْ إِبْدَاعِ شَاعِرٍ مَا فَهِيَ، فِي الأَقَلِّ، تَكْشِفُ لَنَا عَنْ رُوحِهِ، وَدَوافِعِ القَوْلِ عِنْدَهُ، وَالتَّوَجُّهِ العَامِّ لِفَلْسَفَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وَالخَصَائِصِ المُمَيِّزَةِ لِأُسْلُوبِهِ، يَقُولُ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ:

المَوْتُ بَيْنَ الخَلْقِ مُشْتَرَكُ *** لاَ سُوقَةٌ يَبْقَى وَلاَ مَلِكُ.
المَوْتُ حَقٌّ لاَ مَحَالَةَ دُونَهُ *** وَلِكُلِّ **مَوْتٍ** عِلَّةٌ لاَ تُدْفَعُ.
المَوْتُ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ شَكُّ *** تَفْنَى المُلُوكُ وَيَبِيدُ المُلْكُ.
المَوْتُ حَقٌّ وَالدَّارُ فَانِيَةٌ *** وَكُلُّ نَفْسٍ تَجْرِي بِمَا كَسَبَتْ.
المَوْتُ حَقٌّ وَلَكِنْ لَمْ أَزَلْ مَرِحًا *** كَأَنَّ مَعْرِفَتِي **بِالمَوْتِ** إِنْكَارُ.
المَوْتُ حَوْضٌ لاَ مَحَالَةَ دُونَهُ *** مُرٌّ مَذَاقُهُ كَرِيهٌ مَشْرَبُهُ.
المَوْتُ شَيْءٌ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ *** **حَقٌّ** وَأَنْتَ بِذِكْرِهِ مُتَهَاوِنُ.
المَوْتُ لاَ وَالِدًا يُبْقِي وَلاَ وَلَدَا *** وَلاَ صَغِيرًا وَلاَ شَيْخًا وَلاَ أَحَدَا.
المَوْتُ لاَ يُفْلِتُ حَيٌّ مِنْهُ *** كَمْ ذَائِقٍ **لِلمَوْتِ** لاَهٍ عَنْهُ.
المَوْتُ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ عَلَى*** احْتِرَازِكَ مِنْهُ جَهْدَكْ.
النَّاسُ فِي زَرْعِ نَسْلِهِمْ وَيَدُ *** **المَوْتِ** حَصْدُ كُلِّ مَا زَرَعُوا.
أَلَيْسَ **المَوْتُ** غَايَةَ كُلِّ حَيٍّ *** فَمَا لِي لاَ أُبَادِرُ مَا يَفُوتُ.
أَلَيْسَ **المَوْتُ** غَايَتُنَا *** فَأَيْنَ الخَوْفُ وَالحَذَرُ.
أَمَّا بُيُوتُكَ فِي الدُّنْيَا فَوَاسِعَةٌ *** فَلَيْتَ **قَبْرَكَ** بَعْدَ **المَوْتِ** يَتَّسِعُ.
أَمَا تَهُولُكَ **كَأْسٌ أَنْتَ شَارِبُهَا** *** وَالعَقْلُ مِنْكَ لِكُوبِ **المَوْتِ** مُلْتَبِسُ.

[1]- القول الشّعريّ، رجاء عيد، م.س، ص188.

أَمَا مِـنَ **المَـــوْتِ** لِحَـــيٍّ نَـــجَا *** كُلُّ امْـــرِئٍ آتٍ عَـــــلَيْهِ **الفَـــــنَا**.
أَمَا يَهُـــولُكَ يَـــــوْمٌ لاَ دِفَاعَ لَهُ *** إِذَ أَنْـتَ فِي **غَمَـرَاتِ المَوْتِ** مُنْغَمِسُ.
إِنَّ الخَـلاَئِقَ فِي الدُّنْـيَا لَوْ اجْتَـهَدُوا*** أَنْ يَحْبِسُوا عَنْكَ هَذَا **الموْتَ** مَـا حَبَسُوا.
إِنَّ ذَا **المَـوْتَ** مَا عَـــــلَيْهِ مُـــجِيرُ *** يَهْـلَكُ المُسْتَجَـارُ وَالمُسْتَـــجِيرُ.
إِنَّـــــا **لَنَفْنـــَى** نَفْـسًا وَطَرْفَـــــا *** لَـمْ يَتْـــرُكِ **المَوْتُ** لِإِلْـفٍ إِلْـــفَا.
أَأَمِنْـتَ **المَـوْتَ** وَ**المَـــوْتُ** يَأْبَـــى *** بِـكَ وَالأَيَّـــــــامُ إِلاَّ انْتِقَـــــالاَبَا.
أَبَنَيْـــتَ دُونَ **المَـــــوْتِ** حِصْـــنَا *** فَأَخَـــــذْتَ مِنْـهُ بِـــذَاكَ أَمْـــنَا.
أَبَى **المَوْتُ** إِلاَّ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ ثَـــوَى *** مِنَ الخَلْقِ طُـرًّا حَيْثُـــمَا كَانَ لاَقَا.
أَتَبْكِي لِهَذَا **المَـــوْتِ** أَمْ أَنْتَ عَـارِفُ *** بِمَنْـزِلَةٍ تَبْقَـى وَفِيـــهَا المُتَـــآلِفُ.
أَتُطَـــالِعُ الآمَـــــالَ مُنْتَـــظِرًا وَلاَ *** تَدْرِي لَعَلَّ **المَوْتَ** أَوَّلُ طَـــــالِعِ.
أَجَابَتْ نُفُـــوسٌ دَاعِيَ اللهِ فَانْقَضَتْ *** وَأُخْرَى لِدَاعِـي **المَوْتِ** مُنْتَـظِرَاتٌ.
أَخْرَجَـــهُ **المَـــوْتُ** عَـــنْ دَسَـــاكِرِهْ *** وَعَنْ فَسَـــاطِيطِهِ وَعَـنْ حُـــــجَرِهْ.
أَخِـــــي إِنَّ **المَـــوْتَ** قَـدْ أَظَـــلَّكَا *** هَـلْ لَـكَ أَنْ تُعْنَـــــى بِهِ لَعَلَّـــكَا.
أَخِـــي لاَ تَذْهَـــبْ بِكَ المَـذَاهِبُ *** أَظَـــلَّكَ **المَـوْتُ** وَأَنْـتَ لاَعِـبُ.
إِذْ حَثَّ بِـي عَـلَقٌ عَـالٍ وَحَـشْرَجٌ *** فِي صَدْرِي وَدَارَتْ لِكُرَبِ **المَوْتِ** مُقْلَتِيَهْ.
إِذَا عَنْ ذِكْـــرِ **المَوْتِ** أَوْجَـعَ قَـــلْبَهُ *** وَهَيَّجَ أَحْزَانًـــا ذُنُـــوبٌ سَـــوَالِفُ.
إِذَا لَـــمْ تَتَّخِـــــذْ **لِلمَـــــوْتِ** زَادَا *** وَلَـمْ تَـــجْعَلْ **بِالمَـــوْتِ** شُـــغْلَكْ.
أَرَى **المَـــوْتَ** دَيْنًـــــا لَـهُ عِـــلَّةٌ *** فَتِـلْكَ التِـّي كُنْتَ مِنْـهَا تَـحِيدُ.
أَرَى **الموْتَ** قَدْ **أَفْنَى** القُرُونَ التِّي مَضَتْ *** **فَلَمْ يَبْـقَ** ذُو إِلْـفٍ وَ**لَمْ يَبْـقَ** إِلْـفُ.
أَرَى **المَوْتَ** لِي حَيْثُ اعْتَمَدْتُ كَمِينًا *** فَأَصْبَـحْتُ مَهْمُـومًا هُنَـاكَ حَـزِينًا.
أَلاَ كُلُّ نَفْسٍ طَـالَ فِي الغَـيِّ عُمْـرُهَا***تَمُوتُ وَإِنْ كَانَتْ عَنِ **المَوْتِ** حَادَتْ.

أَلاَ هَلْ إِلَى طُـولِ الحَيَـاةِ سَـبِيلُ *** وَأَنَّى وَهَـذَا **المَوْتُ** لَيْـسَ يُـقِيلُ.
أَلاَ يَـا أَيُّـهَا البَـشَرُ *** لَكُـمْ فِـي **المَوْتِ** مُعْتَـبَرُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ **المَـوْتَ** يَهْـتَزُّ سَيْـفُهُ *** وَأَنَّ رِمَـاحَ **المَوْتِ** نَحْـوَكَ تُشْـرَعُ.
أَلَمْ تَرَ هَذَا **المَوْتَ** يَسْتَـعْرِضُ الخَلْقَا *** تَرَى أَحَدًا يَبْـقَى فَتَطْـمَعُ أَنْ تَبْـقَى.

فَأَنْتَ تَرَى مِنْ خِلاَلِ نَمَاذِجِ الأَبْيَاتِ التِّي جِئْتُ بِهَا هُنَا، كَيْفَ أَنَّ لَفْظَةَ (مَوْتٌ) تَتَسَيَّدُ مَقَامَاتِ المَعْجَمِ وَتَطْغَى عَلَيْهِ صَرِيحَةً، فَتَطْبَعُ شِعْرَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِمَسْحَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ هِيَ سِمَةُ شِعْرِ الزُّهْدِ وَشُعَرَائِهِ عُمُومًا، وَهِيَ عِنْدَ شَاعِرِنَا خِصِّيصَةٌ مِنْ خَصَائِصِهِ، وَصُورَةٌ تَقْتَرِنُ بِإِبْدَاعِهِ وَتَطْبَعُهُ. هَذَا، دُونَ أَنْ نُغْفِلَ مُرَادِفَاتِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ ومُشْتَقَّاتِهَا، وَكُلِّ مَا يُقَارِبُهَا أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهَا مِمَّا أَشَرْنَا لِمَثِيلِهِ آنِفًا، أَوْ مِمَّا سَنَأْتِي عَلَى ذِكْرِهِ لاَحِقًا.

5- المَعْجَمُ وَالمَرْجِعُ:

يَقِفُ شُعَرَاءُ الزُّهْدِ مَفْتُونِينَ أَمَامَ لُغَةِ القُرآنِ الكَرِيم لِاعْتِبَاراتٍ كَثِيرَةٍ ذَكَرْنَا بَعْضَهَا فِي مَوَاطِنَ سَابِقَةٍ مِنْ هَذَا العَمَلِ، مِنْ ذَلِكَ قُوَّةُ أَلفَاظِهِ، وَجَمَالُ أَسَالِيبِهِ. وَيَأْتِي أَبُو العَتَاهِيَّةِ عَلَى رَأْسِ أُولَئِكَ الذِّينَ شُغِفُوا بِهِ، وَأَسْعَفهُمْ طَبْعُهُمْ وَمَوْهِبَتُهُمْ فِي تَمَثُّلِ الآيِ وَتَشَرُّبِ مَعَانِيهَا، فَوُفِّقَ إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ لِيَخْتَارَ مِنْهَا مَا يَعْضُدُ لُغَتَهُ، ويُزَيِّنُ طَرِيقَتَهُ، فَاعْتَرَفَ لَهُ الجَمِيعُ بِتِلْكَ القُدْرَةِ وَذَاكَ التَّفَنُّنِ.

وَحَيْثُ أَنَّنَا أَفَضْنَا فِي الحَدِيثِ عَنِ الحَقْلِ المَعْجَمِيِّ لِكَلِمَةِ (مَوْتُ) فِي المَبْحَثِ السَّابِقِ، وَإِذْ يَتَعَذَّرُ إِحْصَاءُ لُغَةِ الشَّاعِرِ كُلِّهَا، لِطَبِيعَةِ البَحْثِ مِنْ جِهَةٍ، وَضَخَامَةُ دَيْوَانِهِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَّةٍ، مِمَّا قَدْ يَشْغَلُنا عَنْ تَفَحُّصِ جَوَانِبَ أُخْرَى، لَعَلَّهَا تَكُونُ ذَاتَ أَهَمِيَّةٍ أَكْبَرَ فِي عَمَلِنَا، سَنَسُوقُ هُنَا بَعْضَ النَّمَاذِجِ التِّي تُعَلِّلُ مَا نَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَتُؤَشِّرُ عَلَيْهِ مِن ارْتِبَاطٍ لَصِيقٍ بِلُغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، نُخَصِّصُهَا، مَنْهَجِيًّا، لِحُقُولٍ مُتَفَرِّعَةٍ عَنِ الحَقْلِ الأَكْبَرِ الذِّي هُوَ (المَوْتُ).

فَمُذْ عَرَفَ الإِنْسَانُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، يُهِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ بِيَدَيْهِ، وَجَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ فَاجِعَةِ الفِرَاقِ، وَصَدْمَةِ الغِيَابِ الأَبَدِيِّ، وَهُوَ الذِّي كَانَ يُمَنِّي النَّفْسَ بِالخُلُودِ، حَتَّى أَفْقَدَهُ ذَلِكَ جَنَّةَ الخُلْدِ! مُذْ ذَاكَ أَفزَعَتْهُ الرُّسُومُ وَآلَمَهُ حَالُهُ، فَرَاحَ يَبْكِي وَيَسْتَبْكِي، وَيَقِفُ وَيَسْتَوْقِفُ، وَيُعَرِّجُ وَيَمِيلُ، لَعَلَّهُ يَنَالُ الرَّجَا وَالآمَالَ، وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ وَكُلٌّ إِلَى زَوَالٍ.

هَكَذَا هُو القَبْرُ، طَلَلٌ شَاخِصٌ يُذَكِّرُ الشَّاعِرَ بِحَتْمِيَّةِ النِّهَايَةِ، وَيَقْلِبُ شَجْوَهُ شَجَنًا " إِنَّ الأَطْلَالَ هُنَا تُعْتَبَرُ رَمْزًا لِشَيْءٍ كَانَ قَائِمًا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ بَقَايَا ضَئِيلَةٌ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ الشَّاعِرُ هَذَا الرَّمْزَ اسْتِعْمَالاً بِدَائِيًّا "[1]، لاَ يَنْأَى بِهِ عَنِ المَعْنَى الدَّلاَلِيِّ الذِّي عُرِفَ لَهُ مُنْذُ بَدَأَ الشَّاعِرُ الجَاهِلِيُّ تَوْظِيفَهُ، بَلْ قُلْ، مُنْذُ بَدَأَ الإِنْسَانُ اسْتِعْمالَ (**قَبَرَ**) فِعْلاً يَطْوِي

[1]- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة، حسين خمري، م.س، صص96،97.

بِهِ رِحْلَةَ عُمْرٍ أَتَتْ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

هَذِهِ اللَّفظَةُ، إِذَنْ، كَثِيرَةُ الوُرُودِ فِي دَيْوَانِ الشَّاعِرِ فَهِيَ تُدَلِّلُ عَلَى أَوَّلِ "مَنَازِلِ الآخِرَةِ"، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يَلِجُهُ الإِنْسَانُ بَعْدَ المَوْتِ، لِذَا مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونُ تَرْتِيبُ الكَلِمَةِ وَمُرَادِفَاتُهَا ثَانِيًا، بَعْدَ لَفْظَةِ "المَوْتِ" مِنْ حَيْثُ الكَمِّ فِي ثَنَايَا قَصَائِدِهِ، يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْ أَهْوَالِ ظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ وَيَقِينِ الانْتِهَاءِ إِلَيْهِ.

وَإِلَيْكَ هُنَا بَعْضَ نَمَاذِجَ مِنْ قَصَائِدَ مُخْتَلِفَةٍ، عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، لِصِيَغِ التَّوْظِيفِ المُتَشَاهِةِ فِي بِنْيَةِ العِبَارَةِ، وَتَنْسِيقِ الأَلْفَاظِ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَهِيَ تَعْكِسُ السِّمَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ الطَّاغِيَةَ عَلَى زُهْدِيَاتِهِ، يَقُولُ*:

1/ كَأَنَّك قَدْ جَاوَرْتَ **أَهْلَ المَقَابِرْ** *** هُوَ **المَوْتُ يَا ابْنَ المَوْتِ** إِنْ لَمْ تُبَادِرْ.[1]

7/ **أَهْلَ القُبُورِ** أَحِبَّتِي *** بَعْدَ الجَزَالَةِ وَالسُّرُورِ.

13/ **أَهْلَ القُبُورِ** إِلَيْكُمُ *** لاَ بُدَّ عَاقِبَةُ المَصِيرِ.[2]

34/ **أَهْلَ القُبُورِ** مَحَا التُّرَابُ وُجُوهَكُمْ *** **أَهْلَ القُبُورِ** تَغَيَّرَتْ تِلْكَ الحُلَى.

35/ **أَهْلَ القُبُورِ** كَفَى بِنَأْيِ دِيَارِكُمْ *** إِنَّ الدِّيَارَ بِكُمْ لَشَاحِطَةُ النَّوَى.

36/ **أَهْلَ القُبُورِ** لاَ تَوَاصُلَ بَيْنَكُمْ *** مَنْ مَاتَ أَصْبَحَ حَبْلُهُ رَثَّ القِوَى.[3]

22/ **أَهْلَ القُبُورِ** نَسِيتُكُمْ وَكَذَاكُمُ الـ *** إِنْسَانُ مِنْهُ السَّهْوُ وَالنِّسْيَانُ.[4]

---

* الرّقم قبلَ البيتِ يُشيرُ إلى تَرتيبِهِ في القصيدةِ.

[1]- قصيدة رقم:151 [من الطويل]، ص148.

[2]- قصيدة رقم:146[من مجزوء الكامل]، صص143،142.

[3]- قصيدة رقم: 12[من الكامل]، ص16، والبيت باللّفظِ نفسهِ نجِدُه في المقطوعة 13[من الكامل]، ص17.

[4]- قصيدة رقم:379[من الكامل]، ص371.

6/أَقُولُ لِنَفْسِي إِذْ شَكَتْ ضِيقَ بَيْتِهَا *** كَأَنِّي بِهَا فِي **القَبْرِ** قَدْ ضَاقَ بَيْتُهَا.[1]

ثُمَّ هَاهُو، فِي كُلِّ حِينٍ، يَتَذَكَّرُ أَهْلَ القُبُورِ فَيُقْبِلُ عَلَيْهِم مُسَلِّمًا، بَاكِيًا حَالَهُ، مُسْتَيْقِنًا مَصِيرَهُ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ:

15/ذكَرْتُ **أَهلَ القُبُورِ** مِن ثِقَتـــــي *** فَانْهلَّ دَمْعِـي كَـوَابِلِ المَـطَرِ.[2]

1/ **أَهلَ القبُوُرِ** أَتَيْتُـكم أَتَحَسَّـسُ *** فَإِذَا جَمَاعَتُكُمْ أَصَـــمُّ وَأَخرَسُ.[3]

8/ذَوِي الوُدِّ مِن **أَهْلِ القُبُورِ** علَيْكُم *** سَلاَمٌ أَمَا مِنْ دَعْوَةٍ تَسْمَـعُونَهَا.[4]

4/سَلامٌ عَلَى **أَهْلِ القُبُورِ** أَحِبَّتـــي *** وَإِنْ خَلِقَتْ أَسْبَابُهُم وتَقَطَّعتْ.[5]

1/سَلاَمٌ **أَهْلَ القُبُـــورِ** الـــــدَّوَارِسِ *** كَأَنَّهُمْ لَمْ يَجْلِسُوا فِي المَجَالِسِ.[6]

1/**أَهْلَ القُبُور** عَلَيْكُمْ مِنّي السّـلاَمُ *** إِنّي أُكَلِّمُكُمْ وَلَيْسَ بِكُمْ كَلاَمُ.[7]

هَكَذَا يُنَادِي الشَّاعِرُ أَهْلِ القُبُورِ ويُسَائِلُهُمْ عَنِ الحَيَاةِ وَغُرُورِهَا، وَالمَآلِ وَالمَصِيرِ. فَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ وَهُوَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ زَائِرًا مُتَذَكِّرًا أَوْ نَاصِحًا مُعْتَبِرًا، وَكَأَنِّي بِهِ – لَوْلاَ المَسْحَةُ الدِّينِيَّةُ الإِسْلاَمِيّةُ – يَسْتَعِيرُ مِنَ الشَّاعِرِ القَدِيمِ وَقْفَتَهُ عِنْدَ الأَطْلاَلِ، يَبْكِي الأَحِبَّةَ وَيَسْتَذْكِرُ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ:

[1]– قصيدة رقم:85[من الطويل]، ص85.
[2]– قصيدة رقم:140[من المنسرح]، ص139.
[3]– قصيدة رقم:134، (تَكملة الديوان)، ص566.
[4]– قصيدة رقم:419[من الطويل]، ص405.
[5]– قصيدة رقم: 68[من الطويل]، ص70.
[6]– قصيدة رقم:193[من الطويل]، ص198.
[7]– قصيدة رقم:350[من الكامل]، ص341.

5/ أَلاَ تَـأْتِي **القُبُورَ** صَبَـاحَ يَـوْمٍ *** فَتَسْـمَعَ مَا تُخَبِّـرُكَ **القُبُـورُ**.[1]

1/ إِيتِ **القُبُـورَ** فَنَـادِهَا أَصْـوَاتَا *** فَإِذَا أَجَبْـنَ فَسَـائِلِ الأَمْـوَاتَا.[2]

10/ زُرْتُ **القُبُورَ قُبُورَ أَهْلِ** المُلْكِ فِي*** الدُّنْـيَا وأَهْلِ الرَّتْـعِ فِي الشَّهَـوَاتِ.[3]

1/ مَنْ أَحَسَّ لِي **أَهْلَ القُبُورِ** وَمَنْ رَأَى*** مَنْ أَحَسَّهُمْ لِي بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى.[4]

1/ هَلْ عِنْدَ **أَهْـلِ القُبُـورِ** مِنْ خَبَـرٍ*** هَيْهَـاتَ مَا مِنْ عَيْـنٍ وَلاَ أَثَـرِ.[5]

13/ أَزُورُ **قُبُـورَ** المُتْرَفِيـنَ فَـلاَ أَرَى *** بَهَـاءً، وَكَانُوا قَبْـلُ أَهْلَ بَهَـاءِ.[6]

وَلاَ يُغَـادِرُ الشَّاعِرُ القُبُورَ وَأَهْلَهَا إِلاَّ وَفِي القَلْبِ شَجَـنٌ وَشَـوْقٌ لِمَنْ غَادَرُوا، وَعَلَى اللِّسَان مَوَاعِظُ وَنَصَـائِحُ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَعْتَـبِرَ، فَيَتْرُكَ المَلَذَّاتِ، وَيَشْتَغِلَ بِمَا يُنْجِي فِي الآخِرَةِ:

12/ وَخَلَّى القُصُورَ التِّي شَـادَهَا *** وَحَـلَّ مِـنَ **القَبْـرِ** فِي قَعْـرِهِ.[7]

2/كَأَنَّ **أَهْلَ القُبُورِ** لَمْ يَسْكُنُوا الـ***ـدُّورَ وَلَمْ يَحْـيَ مِنْـهُمْ أَحَـدٌ.[8]

3/كَفَى عِبْرَةً أَنَّ الحَوَادِثَ لَمْ تَزَلْ*** تُصَيِّرُ أَهْلَ المُلْكِ **أَهْلَ قُبُـورِ**.[9]

---

[1]- قصيدة رقم:162[من الوافر]، ص157.

[2]- قصيدة رقم:60[من الكامل]، ص63.

[3]- قصيدة رقم:53[من الكامل]، ص57.

[4]- قصيدة رقم:12[من الكامل]، ص13.

[5]- قصيدة رقم:169[من المنسرح]، ص167.

[6]- قصيدة رقم:2 [من الطّويل]، ص3.

[7]- قصيدة رقم:186[من المتقارب]، ص183.

[8]- قصيدة رقم:126[من المنسرح]، ص124.

[9]- قصيدة رقم:173 [من الطويل]، ص170.

12/ أَمَـا تَعْجَبُـونَ **لِأَهْــلِ القُبُـورِ***** كَأَنَّـهُمْ لَــمْ يَكُونُـــوا بَشَـــرْ.[1]

1/ قُلْ **لِأَهْلِ القُبُورِ** كَيْفَ وَجَدْتُمْ *** طَعْمَ مُرِّ البِلَى وَثِقْلَ التُّرَابِ.[2]

3/ مَنَـايَا يُقَرِّبْنَ البَعِيدَ مِنَ البِلَىَ*** وَيُدْنِينَ أَشْلاَءَ الكِـرَامِ مِنَ **القَبْـرِ**.[3]

8/للهِ **أَهْلَ قُبُورٍ** كُنْتُ أَعْهَـدُهُمْ *** **أَهْلَ القْبَابِ** الرُّخَامِيَاتِ وَالغُرَفِ.[4]

وَهُوَ يُرَاكِمُ هَذِهِ الاخْتِيَارَاتِ عَنْ وَعْيٍ وَتَمَثُّلٍ لِأَدَوَاتِهِ المعْجَمِيَّةِ، يُؤَسِّسُ الشَّاعِرُ لِتَمَيُّزِ خِطَابِهِ، ويُحْدِثُ الطَّفْرَةَ، التِّي يُرِيدُ بِإِصْرَارٍ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَسَالِيبِ مُعَاصِرِيهِ وَطَرَائِقِهِمْ فِي القَوْلِ، ومِثْلُ هَذِهِ المُرَاكَمَةِ المَقْصُودَةِ " لِلْكَلِمَاتِ تُعَدُّ يَنْبُوعًا خِصْبًا لِلالْتِبَاسِ، وَلَكِنَّهَا تُعَدُّ أَيْضًا يَنْبُوعًا لِلتَّنَبُّؤِ القِيَاسِيِّ، وَالذِّي بِفَضْلِهِ تَدْخُلُ القُدْرَةُ الرَّمْزِيَّةُ لِلُّغَةِ حَيِّزَ التَّنْفِيذِ "[5] كَمَا يَقُولُ أُولْمَانْ.

فَهَذَا الاخْتِيَارُ لاَ يَصْنَعُ مَعْجَمَ الشَّاعِرِ عَبْرَ القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ فَحَسْب، بَلْ هُوَ يَنْهَضُ وَيَتَمَظْهَرُ كَمَشْرُوعٍ، يَغْدُو مَعَ الزَّمَنِ وَامْتِدَادِ التَّجْرِبَةِ الشِّعْرِيَّةِ، خِطَابًا مُكْتَمِلاً فِي جَوَانِبِهِ المُتَعَدِّدَةِ، بِالأَخَصِّ جَانِبَيْ الدَّلالَةِ وَالشَّكْلِ القَائِمَانِ حَتْمًا عَلَى فَاعِلِيَّةِ اللُّغَةِ فِي تَأْثِيثِهَا لِلْبِنْيَةِ. وَالنَّصُّ الزُّهْدِيُّ عُمُومًا، وَالعَتَاهِيُّ مِنْهُ تَحْدِيدًا، يَكْشِفُ، مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ عَنْ خُصُوصِيَّةِ اللُّغَةِ وَفَرَادَتِهَا فِي مُحَاوَرَةِ الكَوْنِ وَفَهْمِهِ، وَفِي سَعْيِهَا لِفَكِّ شِيفْرَةِ صِرَاعِ الإِنْسَانِ الأَزَلِيِّ مَعَ الدَّهْرِ، حِينَ تَتَجَاذَبُهُ ثُنَائِيَاتٌ مُتَعَاكِسَةُ الاتِّجَاهِ يَنْبَرِي جَاهِدًا لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَهَا، غَيْرَ أَنَّه يَقِفُ دَوْمًا مَوْقِفَ العَاجِزِ المُنْقَادِ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالمَوتِ، وَالخَيْرِ وَالشَّرِ، وَالحَقِّ

---

[1]- قصيدة رقم:164 [من المتقارب]، ص161.

[2]- قصيدة رقم: 34 [من الخفيف]، ص498.

[3]- قصيدة رقم:113[من الطويل]، (تكملة الديوان) ص553.

[4]- قصيدة رقم:246 [من البسيط]، ص239.

[5]- يُنظر: صراع التّأويلات – دراسات هيرمينوطيقيّة، بول ريكور، تر: منذر عيّاشي، مُر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، يناير 2005م، بيروت، لبنان، ص106.

والبَاطِلِ، وَالشَّبابِ وَالشَّيْبِ، ...وَهَلُمَّ جَرًّا.

تَعُودُ تِلْكَ الكَلِمَاتُ، إِذَن، لِتَفْضَحَ بَعْضَ الذِّي كَتَمَتْهُ الأَنْفَاسُ، فَانْكَفَأَ إِلَى دَوَاخِلِهِ نَارًا تَتَأَجَّجُ بَاحِثَةً عَنْ مَنْفَذٍ. تَقُولُ الكَلِمَاتُ شَيْئًا مِمَّا انْفَلَتَ مِنْ ثَنَايَا سِجْنِ الرَّغْبَةِ أَوِ الرَّهْبَةِ، تَفْضَحُ الأَسْرَارَ، أَوْ عَلَى الأَقلِّ، بَعْضًا مِنْهَا، تَصْرِيحًا مَرَّةً وَتَلْمِيحًا أُخْرَى، وَإِنْ كَانَ الزُّهْدُ، فِي الغَالِبِ، يَسْتَعْمِلُ خِطَابًا مُبَاشِرًا يَسْهُلُ القَبْضُ عَلَى رَسَائِلِهِ.

فَنَقْرَأُ إِذْ ذَاكَ فِي مَعْجَمِ شَاعِرِنَا مَا يَقُودُنَا، بِانْتِظَامٍ، خِلاَلَ مَسَارَاتِ خِطَابِهِ مَهْمَا تَعَدَّدَتْ وَتَكَثَّفَتْ، فَنَنْتَقِلُ مَعَهُ مِنَ الحَدِيثِ عَنِ الدُّنْيَا وَمَفَاتِنِهَا إِلَى المَوْتِ وَحَتْمِيَّتِهِ، فَالقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ، ثُمَّ البَعْثِ وَالنُّشُور، فَالمَصِيرِ: جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ...

نَجِدُ الشَّاعِرَ إِذَنْ، يُرَدِّدُ دُونَ كَلَلٍ وَبِإِصْرَارٍ مَا يَعْتَقِدُهُ حَادِثًا لاَ مَحَالَةَ، فَيَبُثُّ فِي نُصُوصِهِ تِلْكَ الكَلِمَاتِ المَفَاتِيحَ المُؤَشِّرَةَ، بِتَعَدُّدِهَا وَتَرَدُّدِهَا، عَلَى انْتِظَامِ خِطَابِهِ وَانْسِجَامِهِ، وَكُلُّهَا تَرْتَبِطُ بِسَبَبٍ مُبَاشِرٍ بِقَضِيَّتِهِ الكُبْرَى: صِرَاعُ الإِنْسَانِ مَعَ الفَنَاءِ وَالخُلُودِ، وَأُولَى تَمَظْهُرَاتِهَا تَتَجَلَّى فِي إِصْرَارِهِ "الغَرِيبِ"، رُغْمَ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ يَقِينُهُ بِأَنَّهُ لاَ انْفِلاَتَ مِنَ يَدِ المَنُونِ، عَلَى جَمْعِ المَالِ وَالحِرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى البَقَاءِ، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

6/ وَفِي جَمِيلِ القُنُوعِ يَنْخَفِضُ الـ *** عَيْشُ **وَبِالحِرْصِ** يَعْظُمُ التَّعَبُ.[1]

وَيَقُولُ:

1/ لَقَدْ لَعِبْتُ وَجَدَّ المَوْتُ فِي طَلَبِي *** وَإِنَّ فِي المَوْتِ لِي شُغْلاً عَنِ اللَّعِبِ.
لَوْ شَمَّرَتْ فِكْرَتِي فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ *** مَا اشْتَدَّ **حِرْصِي** عَلَى الدُّنْيَا وَلاَ طَلَبِي.
سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ مِنْ شَيْءَ يُعَادِلُهُ *** إِنَّ **الحِرْصَ** عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ.[2]

[1]- قصيدة رقم:39[من المنسرح]، ص45.
[2]- قصيدة رقم:25[من البسيط]، ص31.

بَلْ إِنَّهُ فِي القَصِيدَةِ 19 وَالتِّي يَقُولُ فِيهَا:

1/ مَا اسْتَعْبَدَ **الحِرْصُ** مَنْ لَهُ أَدَبُ*** لِلمَرْءِ فِي **الحِرْصِ** هِمَّةٌ عَجَبُ.
للهِ عَقْلُ **الحَرِيصِ** كَيْفَ لَهُ *** فِي كُلِّ مَا لاَ يَنَالُهُ أَرَبُ.
مَا زَالَ **حِرْصُ الحَرِيصِ** يُطِمِعُهُ *** فِي دَرْكِهِ الشَّيْءَ دُونَهُ العَطَبُ.
مَا طَابَ عَيْشُ **الحَرِيصِ** قَطُّ وَلاَ *** فَارَقَهُ التَّعْسُ مِنْهُ وَلاَ النَّصَبُ.
البَغْيُ **وَالحِرْصُ** وَالهَوَى فِتَنٌ *** لَمْ يَنْجُ مِنْهَا عُجْمٌ وَلاَ عَرَبُ.
لَيْسَ عَلَى المَرْءِ فِي قَنَاعَتِهِ *** إِنْ هِي صَحَّتْ أَذًى وَلاَ نَصَبُ.
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِالكَفَافِ مُقْتَنِعًا *** لَمْ تَكْفِهِ الأَرْضُ كُلُّهَا ذَهَبُ.
مَنْ أَمْكَنَ الشَّكَّ مِنْ عَزِيمَتِهِ *** لَمْ يَزَلِ الرَّأْيُ مِنْهُ يَضْطَرِبُ.[1]

يُكَرِّرُ كَلِمَةَ (**حِرْصُ**) سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي مُقَابِلِ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ لِكَلِمَةِ(**كَفَافُ**)، وَكَأَنَّهُ يَتَمَثَّلُ وَاقِعَ النَّاسِ مِنْ خِلاَلِ هَذَا العَدَدِ، فَأَهْلُ القَنَاعَةِ دَوْمًا أَقَلُّ مِنْ أَهْلِ الطَّمَعِ، فَالحِرْصُ، مَعَ مَا يَصْحَبُهُ مِنْ فِتْنَةٍ وَنَصَبٍ، مَرْغُوبٌ مَطْلُوبٌ، يَسْتَهْوِي المَرْءَ وَيَسْتَدْرِجُهُ إِلَى المَزَالِقِ، إِذْ فِي غَمْرَةِ الحَيَاةِ وَلَذَّتِهَا يَنْسَى الإِنْسَانُ أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَيَثِقُ بِهَا وَبِأَمَانِيهَا الزَّائِفَاتِ:

1/ أَنْسَاكَ **مَحْيَاكَ المَمَاتَا** *** فَطَلَبْتَ فِي **الدُّنِيَا** الثَّبَاتَا.
أَوَثِقْتَ **بِالدُّنْيَا** وَأَنْـ *** ـتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَاتَا.
وَعَزَمْتَ مِنْكَ عَلَى **الحَيَا** *** **ةِ** وَطُولِهَا عَزْمًا بَتَاتَا.
يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِيـ *** ـمَا قَدْ رَأَى كَانَا **فَمَاتَا**.
هَلْ فِيهِمَ لَكَ **عِبْرَةٌ** *** أَمْ خِلْتَ أَنَّ لَكَ انْفِلاتَا.
وَمَنِ الذِّي طَلَبَ التَّفَلَّـ *** ـتَ مِنْ **مَنِيَّتِهِ** فَفَاتَا.

[1]- قصيدة رقم:19[من المنسرح]، ص24.

كُـلٌّ تُصَبِّـحُهُ **المَنِيَّـــ** *** **ـــةُ** أَوْ تُبَيِّـــتُهُ بَيَـــاتَا.[1]

هِيَ ذَاتُ الكَلِمَاتِ تُشَكِّلُ المَعْجَمَ وَتُؤَثِّثُهُ لِيَتَآلَفَ أُسْلُوبِيًّا فِي إِطَارِ خِطَابِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ الزُّهْدِيِّ بِرُمَّتِهِ: المَوْتُ، الفَناءُ، الدَّهْرُ، السَّاعَةُ، الأَيَّامُ، الرَّجَاءُ، الغِنَى، الفَقْرُ، الكَفَنُ وَالحَنُوطُ، ...فَالدَّهْرُ يَجْمَعُ وَيُفَرِّقُ، وَالأَيَّامُ تَغْدُو بِالمَسَرَّاتِ وَتَرُوحُ بِالمَآسِي، وَآمَالُ المَرْءِ فِيهَا لاَ تَنْقَضِي رُغْمَ أَنَّ سَاعَتَهُ وَشِيكَةٌ، وَالعِبَرُ مِنَ الأَقْوَامِ المَاضِينَ ظَاهِرَةٌ مَهْمَا عَلَتْ مَقَامَاتُهُمْ وَسَمَتْ مَرَاتِبُهُمْ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

7/ وَمَا **الدَّهْرُ يَوْمًا** وَاحِدًا فِي اخْتِلاَفِهِ *** وَمَا كُلُّ **أَيَّـامِ** الفَتَـى بِسَـوَاءِ.
وَمَا هُـوَ إِلاَّ **يَـوْمُ بُـؤْسٍ وَشِـدَّةٍ** *** وَيَـومُ **سُـرُورٍ مَـرَّةً وَرَخَـاءِ**.
وَمَا كُـلَّ مَا لَـمْ **أَرْجُ** أُحْـرِمُ نَفْـعَهُ *** وَمَا كُلُّ مَا **أَرْجُـوهُ** أَهْلَ **رَجَاءِ**.
أَيَا عَجَـبًا **لِلدَّهْـرِ** لاَ بَلْ **لِرَيْبِـهِ** *** تَخَرَّمَ **رَيْبُ الدَّهْرِ** كُلَّ إِخَـاءِ.
وَمَـزَّقَ **رَيْـبُ الدَّهْـرِ** كُلَّ جَمَـاعَةٍ *** وَكَدَّرَ **رَيْبُ الدَّهْرِ** كُلَّ صَفَـاءِ.[2]

وَيَقُولُ أَيْضًا:

4/ إِنَّ الذِّي خُلِقَـتْ لَهُ **الدُّنْـيَا** وَمَـا *** فِيـهَا **لَنَـازِلَةٌ** تَجِلُّ عَنِ الصِّـفَاتِ.
فَلْيَنْـظُرِ الرَّجُـلُ اللَّبِيـبُ لِنَفْـسِهِ *** فَجَمِـيعُ مَا هُـوَ كَـائِنٌ لاَ بُـدَّ آتِ.
عِشْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ **تَعِيشَ** بِغِبْطَةٍ *** مَا أَقْرَبَ **المَحْيَا** الطَّوِيلَ مِنَ **المَمَاتِ**.
فَتَجَافَ عَنْ **دَارِ الغُرُورِ** وَعَنْ دَوَا *** عِيـهَا وَكُـنْ مُتَوَقِّـعًا لِلحَـادِثَاتِ.
أَيْنَ المُلُوكُ ذَوُو المَنَابِرِ وَالدَّسَـا *** كِرِ وَالعَسَاكِرِ وَالقُصُورِ المُشْـرِفَاتِ.[3]

فِي القَصَائِدِ التِّي رَأَيْنَا أَوْ تِلْكَ التِّي سَتَأْتِي، نَجِدُ شَبَحَ المَوْتِ مُخَيِّمًا، يَأْسَرُ الشَّاعِرَ

[1]- قصيدة رقم:73[من مجزوء الكامل]، صص74،75.
[2]- قصيدة رقم:2 [من الطويل]، ص3.
[3]- قصيدة رقم:70[من الكامل]، ص72.

وَيَشُدُّهُ إِلَيْهِ، يَخْشَى وَحْشَتَهُ وَسَطْوَتَهُ، يَدْعُو نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ إِلَى الارْتِيَابِ مِنْهُ والاسْتِعْدَادِ لَهُ، وَعَدَمِ الاغْتِرَارِ بِالعَيْشِ وَإِنْ طَالَ، فَإِنَّهُ لاَ خُلُودَ فِي هَذِهِ الحَيَاةَ :

8/ وَلِي **سَاعَةٌ** لاَ شَكَّ فِيهَا **وَشِيكَةٌ** *** كَأَنِّي قَدْ **حُنِّطْتُ** فِيهَا **وَكُفِنْتُ**.
أَلَمْ تَرَ أَنَ الأَرْضَ **مَنْزِلُ قُلْعَةٍ** *** وَإِنْ طَالَ تَعْمِيرِي عَلَيْهَا وَأَزْمَنْتُ.
وَإِنِّي لَرَهْنٌ بِالخُطُوبِ مُصَرَّفٌ *** وَمُنْتَظِرٌ **كَأْسَ الرَّدَى** حَيْثُمَا كُنْتُ.[1]

هَذِهِ هِيَ رِسَالَةُ الشَّاعِرِ التِّي نَدَبَ نَفْسَهُ لِيُبَلِّغَهَا لِلنَّاسِ بِأُسْلُوبٍ بَسِيطٍ يُوَافِقُ أَفْهَامَهُمْ، وَيُلاَمِسُ عَوَاطِفَهُمْ بِطَرِيقَةٍ تَتَّخِذُ مِنْ مَعْجَمٍ مَكْرُورٍ وَلُغَةٍ مُتَدَاوَلَةً، فِي غَيْرِ ابْتِذَالٍ، آلِيَّةً لِتَحْقِيقِ الاتِّسَاقِ لِلأُسْلُوبِ وَمِنْ ثَمَّ تَيْسِيرِ عُبُورِ الخِطَابِ بَيْنَ طَرَفَيْهِ: المُخَاطَبِ وَالمُخَاطِبِ، أَسَاسُهُ حَقِيقَةٌ تَتَأَكَّدُ وفِكْرَةٌ تَتَرَدَّدُ: المَوْتُ يَتَرَصَّدُ مَنْ يَظُنُّ نَفْسَهُ يَخْلُدُ.

1/ **أَلاَ إِنَّنَا كُلُّنَا بَائِدُ *** وَأَيُّ بَنِي آدَمَ خَالِدُ**.[2]

يَسْتَمِرُّ صِرَاعُ الفَنَاءِ وَالبَقَاءِ فِي قَصَائِدِ الشَّاعِرِ، وَمَعَهُ يَسْتَمِرُّ المَعْجَمُ مُتَّكِئًا عَلَى ذَاتِ اللُّغَةِ التِّي اخْتَارَهَا مِنْ أَوَّلِ زُهْدِيَاتِهِ، لُغَةٌ شَعْبِيَّةٌ بَسِيطَةٌ، تَمْتَحُ مِنَ الخِطَابِ الإِسْلاَمِيِّ – قُرْآنٌ كَرِيمٌ، حَدِيثٌ شَرِيفٌ– عَدِيدَ مُكَوِّنَاتِهَا لِتَتَوَزَّعَ عَلَى نَسِيجِ القَصِيدَةِ مُسْتَوِيَةً رَائِقَةً مُشَكِّلَةً طَرِيقَةَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي اخْتِيَارِ تَرَاكِيبِهِ وَمُفْرَدَاتِهِ:

1/ إِيتِ **القُبُورَ** فَنَادِهَا أَصْوَاتَا *** فَإِذَا أَجَبْنَ فَسَائِلِ **الأَمْوَاتَا**.
2/ أَيْنَ المُلُوكُ بَنِي المُلُوكِ فَكُلُّهُمْ *** أَمْسَى وَأَصْبَحَ **فِي التُّرَابِ رُفَاتَا**.
3/ كَمْ مِنْ أَبٍ وَأَبِي أَبٍ لَكَ بَيْنَ **أَطْ** *** **ـبَاقِ الثَّرَى** قَدْ قِيلَ كَانَ **فَمَاتَا**.
4/ **وَالدَّهْرُ** يَوْمٌ أَنْتَ فِيهِ وَآخَرُ *** **تَرْجُوهُ** أَوْ يَوْمٌ مَضَى لَكَ فَاتَا.
5/ هَيْهَاتَ إِنَّكَ **لِلْخُلُودِ** لَمُرْتَجٍ *** هَيْهَاتَ مِمَّا تَرْتَجِي هَيْهَاتَا.

[1]- قصيدة رقم:75[من الطّويل]، صص76،77.
[2]- قصيدة رقم:103[من المتقارب]، ص102.

6/ **مَا أَسْـرَعَ الأَمْـرَ الذِّي هُـوَ كَـائِنٌ *** لاَ بُـدَّ مِنْـهُ وَأَقْــرَبَ المِيقَــاتَا.**[1]

هُوَ صِرَاعٌ يَرُومُ الخُلُودَ وَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَتَزْدَادُ غُرْبَةُ الإِنْسَانِ- الشَّاعِرِ فَلاَ هُوَ أَدْرَكَهُ فِي دُنْيَاهُ، فَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ، وَلاَ هُوَ يَعْرِفُ، بَعْدَ أَنْ تَنْقَضِي مُدَّتُهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، أَإِلَى نَارٍ أَمْ جَنَّةٍ سَيَصِيرُ، وَفِي أَيِّهِمَا سَيَخْلُدُ:

2/ نُرَجِّي **خُلُودَ** العَيْشِ حَيْنًا وَضِلَّةً *** وَلَمْ نَرَ مِنْ آبَائِنَا مِنْ **مُخَلَّدِ.**[2]

1/ أُؤَمِّلُ أَنْ **أُخَلَّدَ** وَالمَنَايَا *** يَثِبْنَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ النَّوَاحِي.[3]

2/ كَانَ النَّبِيُّ فَلَمْ **يَخْلُدْ** لِأُمَّتِهِ *** لَوْ **خَلَّدَ** اللهُ حَيًّا قَبْلَهُ **خَلَدَا.**[4]

11/ تَرُومُ **الخُلْدَ** فِي دَارِ المَنَايَا *** وَكَمْ قَدْ رَامَ غَيْرُكَ مَا تَرُومُ.[5]

وَمِنَ الكَلِمَاتِ المَرْجِعِيَّةِ أَيْضًا، فِي دَيْوَانِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَهِيَ مَا تَنْفَكُّ مُرْتَبِطَةً بِالحَقْلِ الكَبِيرِ (المَوْتُ)، نُلْفِي لَفْظَةَ (**نَعْيٌ**)، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

7/ فَلَقَدْ **نَعَاكَ** الشَّيْبُ يَوْ *** مَ رَأَيْتَ رَأْسَكَ أَشْيَبَا.[6]

4/ إِنَّمَا الشَّيْبُ لِابْنِ آدَمَ **نَاعٍ** *** قَامَ فِي عَارِضَيْهِ ثُمَّ **نَعَاهُ.**[7]

7/ إِنْ أَقْبَــلَتْ بِغَضَــارَةٍ *** سَــحَّ **النَّعِــيُّ** بِجَنْبِــهَا.[8]

14/ أَرَاكَ تُؤَمِّلُ وَالشَّيْبُ قَدْ *** أَتَاكَ **بِنَعْيِـكَ** مِنْهُ بَرِيدُ.[9]

---

[1]- مقطوعة رقم:60[من الكامل]، ص63.

[2]- قصيدة رقم:129[من الطويل]، ص125.

[3]- قصيدة رقم:99[من الوافر]، ص99.

[4]- مقطوعة رقم:112[من البسيط]، ص111.

[5]- قصيدة رقم:361[من الوافر]، ص355.

[6]- قصِيدة رقم:41[من مجزوء الكامل]، ص46

[7]- قصيدة رقم:431[من الخفيف]، ص415.

[8]- قصِيدة رقم:49[من مجزوء الكامل]، ص51

[9]- قصيدة رقم:107[من المتقارب]، ص107.

1/ كَأَنَّـكَ مِنْ أُهَيْـلِكَ قَدْ أُتِيــتَا *** وَفِي الجِيرَانِ وَيْحَكَ قَدْ **نُعِيتَا**.[1]

9/ فَلَوْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا بَصِيرًا وَقَدْ **نَعَتْ** *** إِلَى سَاكِنِيهَا نَفْسَـهَا **لَنَعَيْتُهَا**.[2]

1/ **نَعَتْ** الدُّنْيَا نَفْسَهَا إِلَيْكَ فَأَسْمَعَتْ *** وَنَادَتْ أَلاَ جَدَّ الرَّحِيلُ وَوَدَّعَتْ.[3]

13/ كَمْ قَدْ **نَعَتْ** لَهُمُ الدُّنْيَا الحُلُولَ بِهَا *** لَوْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا مِنْهَا بِأَفْهَامِ.[4]

هَكَذَا هِيَ حَالُ البَشَرِ مَعَ الدُّنْيَا إِذَا حَانَتْ سَاعَتُهُمْ هُنَاكَ فَقَطْ يُدْرِكُونَ حَقِيقَةَ خِدَاعِهَا واغْتِرَارِهِمْ بِهَا:

6/ ستُسْلِمُكَ **السَّاعَاتُ** فِي بَعْضِ مَرِّهَا *** إِلَى **سَاعَةٍ** لاَ **سَاعَةٌ** لَكَ بَعْدَهَا.[5]

2/ أَبَتِ **السَّاعَاتُ** إِلاَّ سُرْعَةً *** فِي بِلَى جِسْمِي بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارْ.[6]

8/ يَا ذَا الذِّي يَوْمُهُ آتٍ **بِسَاعَتِهِ** *** وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْ عَامٍ إِلَى عَامِ.[7]

وَلاَ تُفَارِقُ لُغَةُ الشَّاعِرِ أَسَاسِيَّاتِ المَعْجَمِ الذِّي تَنْهَضُ عَلَيْهِ كُلُّ زُهْدِيَاتِهِ، فَالسَّاعَةُ، بِدَلاَلَتِهَا القُرْآنِيَّةِ التِّي تُؤَشِّرُ عَلَى قُرْبِ الفَنَاءِ وَدُنُوِّهِ، فَهِيَ سَاعَةٌ قَصِيرَةٌ مُدَّتُهَا وَإِنْ بَدَتْ أَزَلِيَّةً مُسْتَمِرَّةً، تَسْتَوْجِبُ مِنَّا الارْتِيَابَ وَالاحِتِيَاطَ وَالقَنَاعَةَ بِقَلِيلِهَا:

10/تَبَلَّغْ مِنَ الدُّنْيَا وَنَلْ مِنْ كَفَافِهَا *** وَلاَ تَعْتَقِدْهَا فِي ضَمِيرٍ وَلاَ يَدِ.

11/وَكُنْ دَاخِلاً فِيهَا كَأَنَّكَ خَـارِجٌ *** إِلَى غَيْرِهَا مِنْهَا مِنَ اليَوْمِ أَوْ غَدِ.[8]

---

[1]- قصِيدة رقم:57[من الوافر]، ص60.

[2]- قصِيدة رقم:85[من الطّويل]، ص86.

[3]- مقطوعة رقم:68[من الطويل]، ص70.

[4]- قصيدة رقم:354[من السريع]، ص346.

[5]- قصيدة رقم:133[من الطويل]، ص130.

[6]- مقطوعة رقم:158[من الرمل]، ص155.

[7]- قصيدة رقم:354[من البسيط]،ص345.

[8]- قصيدة رقم:116[من الطويل]، ص116.

وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ لِلإِنْسَانِ بِاتِّقَاءِ شُرُورِهَا وَمَهَالِكِهَا، ويَعْمِدُ الشَّاعِرُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الكَلِمَةِ بِاصْطِلاَحِهَا القُرْآنِيِّ لِيَبْنِيَ بِهَا أُسْلُوبَهُ وَيَصُوغَ بِهَا لُغَتَهُ، فَيَقُولُ:

1/ تَخَفَّفْ مِنَ الدُّنْيَا لَعَلَّكَ تَنْجُو *** فَفِي البِرِّ **وَالتَّقْوَى** لَكَ المَسْلَكُ النَّهْجُ.[1]

3/ وَإِذَا امْرُؤٌ كَمَلَتْ لَهُ شُعَبُ *** **التَّقْوَى** فَقَدْ كَمَلَتْ مَكَارِمُهُ.[2]

12/ كَرَمُ الفَتَى **التَّقْوَى** وَقُرَّتُهُ *** مَحْضُ اليَقِينِ وَدِينُهُ حَسَبُهْ.[3]

1/ **إِتَّقِ** اللهَ بِجُهْدِكْ *** قَاصِدًا أَوْ بَعْضَ جَهْدِكْ.[4]

3/ وَأَخْلاَقُ ذِي **التَّقْوَى** وَذِي البِرِّ فِي الدُّجَى *** لَهُنَّ سِرَاجٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُسْرَجُ.[5]

1/ تَمَسَّكْ **بِالتُّقَى** حَتَّى تَمُوتَا *** وَلاَ تَدَعِ الكَلاَمَ أَوِ السُّكُوتَا.[6]

9/ طُوبَى لِعَبْدٍ **تَقِيٍّ** *** لَمْ يَأْلُ فِي الخَيْرِ جُهْدَا.[7]

3/ وَيَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ عَزْمًا عَلَى **التُّقَى*** أُقِيمُ بِهِ مَا عِشْتُ حَيْثُ أُقِيمُ.

أَلاَ إِنَّ **تَقْوَى** اللهِ أَكْرَمُ نِسْبَةٍ *** تَسَامَى بِهَا عِنْدَ الفَخَارِ كَرِيمُ.

إِذَا مَا اجْتَنَبْتَ النَّاسَ إِلاَّ عَلَى **التُّقَى*** خَرَجْتَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ سَلِيمُ.[8]

7/ إِنّ الغِنَى فِي النُّفُوسِ وَالعِزَّ*** **تَقْوَى** اللهِ لاَ فِضَّةٌ وَلاَ ذَهَبُ.[9]

1/ لَنِعْمَ **التُّقَى تَقْوَى** فَتًى ضَامِرِ الحَشَا *** خَمِيصٍ مِنَ الدُّنْيَا نَقِيِّ المَسَالِكِ.[10]

20/ فَإِنِ **اتَّقَيْتَ** فَإِنَّ **تَقْوَى** *** اللهِ مِن خَيْرِ النَّفَلْ.[11]

---

[1]- قصِيدة رقم: 95[من الطويل]، ص93.

[2]- قصِيدة رقم:366[من الكامل]، ص359.

[3]- قصِيدة رقم:44[من الكامل]، ص49.

[4]- قصِيدة رقم:131[من مجزوء الرمل]، ص128.

[5]- قصِيدة رقم:94[من الطويل]، ص92.

[6]- قصِيدة رقم:63[من الوافر]، ص66.

[7]- قصِيدة رقم:128[من المجتث]، ص125.

[8]- قصيدة رقم:356[من الطويل]، ص347.

[9]- قصيدة رقم:39[من المنسرح]، ص44.

[10]- مقطوعة رقم:289[من الطويل]، ص273.

[11]- قصيدة رقم: 324[من مجزوء الكامل]، ص316.

9/ وَمَـــالَكَ غَيْرُ **تَقْوَى** اللهِ مَـالٌ *** وَغَيْـرٌ فِعَـالِكَ الحَسَنِ الجَمِيلِ.[1]

19/ كَمْ مِنْ فَتًى قَدْ دَنَتْ لِلْمَوْتِ رِحْلَتُهُ *** وَخَيرٌ زَادِ الفَتَى لِلْمَوتِ **تَقْوَاهُ**.[2]

3/ مَن طَلَبَ العِـــزَّ لِيَبْـــقَى بِهِ *** فَإِنَّ عِـــزَّ المَـــرْءِ **تَقْـوَاهُ**.[3]

وَبَعْدَهَا تَدْخُلُ كَلِمَةٌ أُخْرَى قَامُوسَ الشَّاعِرِ فَيُحَمِّلُهَا دَلاَلَتَهَا المُرْتَبِطَةَ بِالإِدْرَاكِ الإِسْلاَمِي لِمَا يَتْبَعُ المَوْتَ وَالنَّعْيَ وَالقَبْرَ، وَنَعْنِي بِهَا كَلِمَةَ (**بَرْزَخُ**) التِّي جَاءَتْ فِي القُرْآنِ بِمَعْنَى السَّدِّ المَنِيعِ وَالحَاجِزِ الصَّلْدِ الذِّي لاَ يَسْمَحُ بِالنَّفَاذِ وَلاَ بِالتَّرَاجُعِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:(لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ١٠٠)[4]، أَوْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:(بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ٢)[5]، وَهُوَ يُوَظِّفُهَا بِالمَعْنَى ذَاتِهِ حِينَ يَقُولُ:

5/ فَيُـوشِكُ عَمَّـا قَلِيـلٍ أَكُـو *** نُ مِنْـهُنَّ فِـي **البَـرْزَخِ** الأَبْـعَدِ.[6]

6/ يَا **بَـرْزَخَ** المَوْتَى الذِّي نَزَلُوا بِهِ *** فَهُـمْ رُقُـودٌ فِي ثَـرَاهُ خُفُـوتُ.[7]

12/ إِذَا مَا خَلِيلٌ حَلَّ فِي **بَرْزَخِ** البِلَى *** فَحَسْبِي بِهِ نَأْيًـا وَبُعْدَ لِقَـاءِ.[8]

8/أَيَـا صَـاحِ إِنَّ الـدَّارَ دَارُ تَبَلُّـغٍ *** إِلَى **بَرْزَخِ** المَوْتَـى وَدَارِ تَـزَوُّدِ.[9]

فَبَعْدَ تَصْوِيرِهِ أَحْوَالَ النَّاسِ مَعَ القَبْرِ وَالمَوْتِ، وَالخَوْفِ مِنْهُ والتَّخْوِيفِ بِهِ، وَذِكْرِ الشَّوْقِ إِلَى الرَّاحِلِين وَمُسَاءَلَتِهِمْ عَنْ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا هُنَا، مُقَارَنَةً بِمَا وَجَدُوهُ هُنَاكَ تَحْتَ الثَّرَى

[1]- قصيدة رقم:305[من الوافر]، ص294.

[2]- قصيدة رقم:437[من البسيط]، ص420.

[3]- مقطوعة رقم:430[من السريع]، ص413.

[4]- المؤمنون/100.

[5]- الرحمن/20.

[6]- مقطوعة رقم:113[من المتقارب]، ص112.

[7]- قصيدة رقم:49[من الكامل]، ص53.

[8]- قصيدة رقم:2[من الطويل]، ص3.

[9]- قصيدة رقم:116[من الطويل]، ص116.

فِي دَارِ البِلَى، يُحَدِّثُنَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ عَنِ البَعْثِ وَالنُّشُورِ، فِي تَرْتِيبٍ لِلوُجُودِ الإِنْسَانِيِّ بَيْنَ الدَّارَيْنِ، فَيَصِفُ القِيَامَةَ وَأَهْوَالَهَا كَمَرْحَلَةٍ تَعْقُبُ دَارَ الغُرُورِ وَالقَبْرَ وَالبَرْزَخَ:

9/ وَهَذِي **القِيَامَةُ** قَدْ أَشْرَفَتْ *** عَلَى العَالَمِينَ لِمِيقَاتِهَا.
وَقَدْ أَقْبَلَتْ بِمَوَازِينِهَا *** وَأَهْوَالِهَا وَبِرَوْعَاتِهَا.
وَإِنَّا لَفِي بَعْضِ أَشْرَاطِهَا *** وَأَيَّامِهَا وَعَلاَمَاتِهَا.
رَكَنَّا إِلَى الدَّارِ دَارِ الغُرُو*** رِ إِذْ سَحَرَتْنَا بِلَذَّاتِهَا.[1]

هُوَ يَومٌ مُفْزِعٌ لاَ مَفَرَّ لِلإِنْسَانِ مِنْهُ وَلاَ خَلاَصَ، يَفْضَحُهُ وَيَكْشِفُ صُورَتَهُ عَلَى حَقِيقَتِهَا:

10/ وَللهِ يَوْمٌ أَيُّ **يَوْمٍ فَظَاعَةٍ** *** **وَأَفْظَعُ** مِنْهُ بَعْدُ **يَوْمُ قِيَامَتِي**.[2]

فَلَيْسَ لَكَ أَيُّهَا المَرْءُ غَيْرُ اليَقَظَةِ والانْتِبَاهُ، وَلاَ تَكُونُ هَذِهِ إِلاَّ بِالإِيمَانِ بِالبَعْثِ وَالخَوْفِ مِمَّا يَعْقُبُهُ أَنْ يَكُونَ شَرًّا وَسُوءَ عَاقِبَةٍ. وَهُنَا أَيْضًا، يَلْجَأُ الشَّاعِرُ إِلَى المَفْهُومِ القُرْآنِيِّ لِكَلِمَةِ (**قِيَامَةٌ**) لِيُوَظِّفَهَا فِي قَصَائِدِهِ، كَمَا فِي النَّمَاذِجِ الآتِيَةِ:

16/ **وَخَفِ القِيَامَةَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا *** يَومُ القِيَامَةِ يَوْمُ كَشْفِ المُخْبَآتِ**.[3]
3/ أَلاَ أَيُّهَا المَغْرُورُ هَلْ لَكَ حُجَّةٌ *** فَأَنْتَ بِهَا **يَوْمَ القِيَامَةِ مُحْتَجُّ**.[4]
1/ نَعْمُرُ الدُّنْيَا وَمَا الدُّنْـ *** ـيَا لَنَا دَارُ إِقَامَهْ.
إِنَّما الغِبْطَةُ وَالحَسْـ *** ـرَةُ فِي **يَوْمِ القِيَامَهْ**.[5]

[1]- قصيدة رقم:83[من المتقارب]، ص83.
[2]- قصيدة رقم:59[من الطويل]، ص62 .
[3]- قصيدة رقم:70[من الكامل]، ص73.
[4]- قصيدة رقم:95[من الطويل]، ص93.
[5]- مقطوعة رقم:367[من مجزوء الرمل]، ص360.

8/ تَمُوتُ فَرْدًا وَتَأْتِي *** **يَوْمَ القِيَامةِ** فَرْدًا.[1]

2/ عَدْلُ **القِيَامَةِ** غَيرُ مُختَلِفٍ *** وَالمَوْتُ أَوَّلُ ذَلِكَ العَدْلِ.[2]

19/ **يَوْمُ القِيَامَةِ** يَوْمٌ يُظلَمُ فِيهِ *** ظُلْمُ الظَّالِمِينَ وَيُشْرِقُ الإِحْسَانُ.[3]

وَيَوْمُ القِيَامَةِ، الذِّي يَأْتِي عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِأَلْفَاظَ أُخْرَى كَمَا أَسْلَفْنَا، تَتَشَرَّبُ كُلُّهَا الدَّلاَلَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ لِلكَلِمَةِ وَتَسْتَدْعِي، فِي اسْتِعْمَالاَتِهَا المُخْتَلِفَةِ مَا يَسْبِقُهَا مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ وَمَا يَتْبَعُهَا مِن حَشْرٍ فَجَنَّةٌ أَوْ نَارٌ، وَهَذِهِ مَرْحَلَةٌ أُخْرَى يَتَرَقَّبُهَا الزَّاهِدُ، فَيَبْذُلُ جَهْدَهُ لِيَتَجَنَّبَ عَاقِبَةَ مَا أُنْذِرَ بِهِ المُقَصِّرُونَ (**الوَعِيدُ**)، وَطَمَعًا فِي الخَلاَصِ وَالفَوْزِ يَوْمَ القِيَامَةِ (**الوَعْدُ**)، إِذْ:

2/ فَلاَ بُدَّ مِنْ مَوتٍ ولاَ بُدَّ مِنْ بِلَى *** وَلاَ بُدَّ مِنْ ولاَ بُدَّ مِنِ **حَشْرِ**.[4]

11/ بِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّاسِ فَاعْنَ فَإِنَّهَا تَمُوتُ إِذَا مَاتَتْ وَتُبْعَثُ وَحْدَهَا.[5]

لِذَا يَنْصَحُ الشَّاعِرُ الإِنْسَانَ بِأَنْ يَحْتَاطَ لِرِحْلَةِ الآخِرَةِ وَمَوْقِفِ يَوْمِ الحَشْرِ:

20/ وَإِنَّ امْرِءًا يَبْتَاعُ **دُنْيَا** بِدِينِهِ *** لَمُنْقَلِبٌ مِنْهَا بِصَفْقَةِ خَاسِرِ.

21/ وَكُلُّ امْرِئٍ لَمْ يَرْتَحِلْ بِتِجَارَةٍ *** إِلَى **دَارِهِ الأُخْرَى** فَلَيْسَ بِتَاجِرِ.[6]

وَمِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ، سَنَجْنَحُ لِلاخْتِيَارِ مَرَّةً أُخْرَى، لَعَلَّهُ يُسْهِمُ فِي نَقْلِ صُورَةٍ تَقْرِيبِيَّةٍ، عَلَى الأَقَلِّ، لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَالمَدَى الذِّي بَلَغَتْهُ فِي نُصُوصِ الشَّاعِرِ، وَسَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ قَصَائِدَ مُتَفَرِّقَةٍ، لِنَعْرِضَ جُمْلَةً مِنَ الأَبْيَاتِ التِّي يُرَدِّدُ فِيهَا كَلِمَةَ **الحَشْرِ** وَ**البَعْثِ**

[1]- قصيدة رقم:128[من المجتث]، ص125.

[2]- مقطوعة رقم:302[من الكامل]، ص292.

[3]- قصيدة رقم: 379[من الكامل]، ص371.

[4]- قصيدة رقم:150[من الطويل]، ص147.

[5]- قصيدة رقم:133[من الطويل]، ص131.

[6]- قصيدة رقم:151[من الكامل]، ص150.

وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا، يَقُولُ:

1/ اذْكُرْ **مَعَادَكَ** أَفْضَلَ الذِّكْرِ *** لاَ تَنْسَ يَوْمَ صَبِيحَةِ **الحَشْرِ**.[1]

4/ وَ**المَوْرِدُ المَوْتُ**، وَمَا بَعْدَهُ **الـ** *** **حَشْرُ** فَذَاكَ **المَوْرِدُ الأَكْبَرُ**.[2]

10/ وَمَا هِيَ إِلاَّ **رَقْدَةٌ** غَيْرَ أَنَّهَا *** تَطُولُ عَلَى مَنْ كَانَ فِيهَا إِلَى **الحَشْرِ**.[3]

8/ وَمَسْؤُولَةٌ أَنْتِ يَا نَفْسُ فَيَسِّرِي *** جَوَابًا لِيَومِ **الحَشْرِ** قَبْلَ سُؤَالِكِ.[4]

15/ هُوَ **المَوْتُ** يَا **ابْنَ المَوْتِ** وَ**البَعْثُ** بَعْدَهُ *** فَمِنْ بَيْنِ **مَبْعُوثٍ** مُخِفًّا وَمُثْقَلاَ.[5]

2/ لَهَجْتَ بِدَارِ **المَوْتِ** مُسْتَحْسِنًا لَهَا *** وَحَسْبِي **لِدَارِ المَوْتِ بِالمَوْتِ** مِنْ عَيْبِ.

4/ لَعَمْرُكَ مَا عَيْنُ **المَوْتِ** فِي عَمَى*** وَمَا عَقْلُ ذِي عَقْلٍ مِنَ **البَعْثِ** فِي رَيْبِ.[6]

8/ وَمَا مَنْ يَخَافُ **البَعْثَ وَالنَّارَ** آمِنٌ *** وَلَكِنْ حَزِينٌ مُوجَعُ القَلْبِ خَائِفُ.[7]

وَقَدْ كَانَتْ كَلِمَاتٌ مِثْلُ: مَوْت، حَشْر، وَبَعْث، وَمَا يَدُورُ فِي فَلَكِهَا مِنْ دَلاَلاَتٍ قَدْ دَرَجَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ، إِلاَّ أَنَّهَا اكْتَسَبَتْ، مَعَ الإِسْلاَمِ، دَلاَلاَتٍ جَدِيدةً مُفَارِقَةً لِمَا أَلِفْنَاهُ هُنَاكَ، خُصُوصًا وَأَنَّهَا تَقْتَرِنُ هُنَا بِمَا يُسْبِغُ عَلَيْهَا المَسْحَةَ الدِّينِيَّةَ الإِسْلاَمِيَّةَ الخَالِصَةَ، مِنْ ذَلِكَ إِضَافَتُهَا إِلَى أَلْفَاظٍ كَالحَشْرِ وَالحِسَابِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَالدَّارِ... وَهُوَ مَا لَمْ نَعْهَدْهُ عِنْدَ الشُّعَرَاءِ الجَاهِلِيِّينَ وَالمُخَضْرَمِينَ عَلَى تَفَاوُتٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ السَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ الأَزْدِيِّ:

11/ وَأَتَتْنِي الأَنْبَاءُ أَنِّي إِذَا مَا *** **مِتُّ** أَوْ **رَمَّ** أَعْظُمِي **مَبْعُوثُ**.[8]

---

[1]- قصيدة رقم: 175[من الكامل]، ص172.

[2]- قصيدة رقم: 145 [من السريع]، ص151.

[3]- قصيدة رقم: 150 [من الطويل]، ص147.

[4]- قصيدة رقم: 288 [من الطويل]، ص272.

[5]- قصيدة رقم: 315[من الطويل]، ص304.

[6]- قصيدة رقم: 34 [من الطويل]، ص42.

[7]- قصيدة رقم: 250[من الطويل]، ص244.

[8]- الأصمعيّات، اختيار الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السّلام هارون، بيروت، لبنان، ط5،

وَقَوْلُ حُمَيدِ بْنِ ثَوْرٍ الهِلاَلِيِّ يَصِفُ رَجُلاً يَسْتَيْقِظُ بِمَشَقَّةٍ:

36/ تَهْوِي بِأَشْعَثَ قَدْ وَهَى سِرْبَالُهُ *** **بَعْثٌ** تُؤَرِّقُهُ الهُمُومُ فَيَسْهَرُ.[1]

وَمِنَ الأَلْفَاظِ التِّي فَارَقَتْ دَلاَلَتَهَا القَدِيمَةَ لِتَسْتَقِرَّ عِنْدَ مَفَاهِيمَ جَدِيدَةٍ بِفِعْلِ تَأْثِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ لِتَرْتَبِطَ بِالحَشْرِ وَالنُّشُورِ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَذْكُرَ كَلِمَة **"يَوْمُ الوَعِيدِ"** وَالتِّي، زِيَادَةً عَلَى مَعْنَاهَا الأَصْلِيِّ الذِّي هُوَ التَّهْدِيدُ، اكْتَسَبَتْ دَلاَلَةً إِضَافِيَّةً هِيَ يَوْمُ القِيَامَةِ وأَهْوَالِهَا وَالحِسَابِ وَمَآلاَتِهِ.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

7/ كُلُّنَا صَائِرٌ إِلَى المَلِكِ الدَّيَّا *** نِ رَبِّ الأَرْبَابِ **يَوْمِ الوَعِيدِ**.[2]

5/ وَلِلزَّمَــانِ **وَعِيــدٌ** فِي تَصَـرُّفِهِ *** إِنَّ الزَّمَانَ لَذُو نَقْصٍ وَإِبْرَامِ.[3]

7/ وَمَا زَالَتِ الأَيَّامُ بِالسُّخْطِ وَالرِّضَا *** لَهُنَّ **وَعِيدٌ** مَـرَّةً وَعِــدَاتُ.[4]

13/ وَمَنْ يَأْمَنِ الدَّهْـرَ فِي **وَعْدِهِ** *** وَلِلدَّهْـرُ فِي كُلِّ **وَعْــدٍ وَعِيــدُ**.[5]

3/ فَيَا نَفْسُ خَافِي اللهَ وَاجْتَهِدِي لَهُ *** فَقَدْ فَاتَتِ الأَيَّامُ وَاقْتَرَبَ **الوَعْدُ**.[6]

10/ وَلِلمَوْتِ عِلاَّتٌ تَجَلَّى وَتَخْتَفِي *** وَلِلدَّهْرِ **وَعْدٌ وَوَعِيدُ**.[7]

د.ت، ص86.

[1]- ديوان حُميد بن ثور الهلالي، تح: محمّد شفيق البيطار، دار الكتب الوطنية، أبو ظبيّ، ط1، 1431هـ/2010م، ص296.

[2]- قصيدة رقم:125[من الخفيف]، ص124.

[3]- قصيدة رقم:354[من البسيط]، ص345.

[4] - قصيدة رقم:66[من الطّويل]، ص69.

[5]- قصيدة رقم:107[من المتقارب]، ص107.

[6]- قصيدة رقم:110[من الطويل]، ص110.

[7]- قصيدة رقم:130[من الطويل]، ص127.

أَمَّا كَلِمَةُ (**حِسَابُ**) فَتَأْتِي مُفْرَدَةً حِينًا، وَمُقْتَرِنَةً بِكَلِمَةِ (**يَوْمُ**) أَحْيَانًا أُخْرَى، وهِيَ كَمَا سَابِقَتِهَا، حَمَلَتْ دَلاَلَةً مُغَايِرَةً لِمَا أَلِفْنَاهُ فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ، فَحَمُولَتُهَا الإِسْلاَمِيَّةُ لاَ تَخْفَى عَلَى النَّاظِرِ فِي زُهْدِيَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، يَقُولُ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِهِ:

1/ إنَّ **يَومَ الحِسَابِ** يَومٌ عَسيرٌ *** ليْسَ لِلظَّالِمِين فِيهِ نَصِيرُ.[1]

23/ أَيُّ **يَوْمٍ يَوْمُ الوُقُوفِ** إِلَى اللّـ*** ـهِ وَ**يَوْمَ الحِسَابِ** وَ**الأَشْهَادِ**.[2]

4/ أَيَا نَفْسُ إِنْ لَمْ أَبْكِ مِمَّا أَخَافُهُ *** عَلَيْكِ غَدًا **يَوْمَ الحِسَابِ** فَمَنْ يَبْكِي.[3]

17/ بِأَيِّ حُجَّةٍ أَحْتَجُّ **يَوْمَ الـ*** **حِسَابِ** إِذَا دُعِيتُ إِلَى **الحِسَابِ**.[4]

4/ سَتَعْلَمُ فِي **الحِسَابِ** إِذَا الْتَقَيْنَا *** غَدًا عِنْدَ الإِلَهِ مَنِ المَلُومُ.[5]

3/ فَخَفِ اللهَ وَاتْرُكِ الزَّهْوَ وَاذْكُرْ*** مَوْقِفَ الخَاطِئِينَ **يَوْمَ الحِسَابِ**.[6]

2/ لَوْ أَنَّ عَيْنَا وَهَّمَتْهَا نَفْسُهَا *** **يَوْمَ الحِسَابِ** مُمَثَّلاً لَمْ تَطْرَفِ.[7]

5/ وَاللَّيلُ أَطْوَلُ مِنْ **يَوْمِ الحِسَابِ** عَلَى *** عَيْنِ الشَّجِيِّ إِذَا مَا نَوْمُه نَفَرَا.[8]

12/ و**حِسَابٌ** وكِتَابٌ حَافِظٌ *** **وَمَوَازِينُ وَنَارٌ تَلْتَهِبْ**.[9]

وَيَسْتَعْمِلُ الشَّاعِرُ أَوْصَافًا أُخْرَى لِيَوْمِ القِيَامَةِ كُلَّهَا ذُاتُ دَلاَلَةٍ إِسْلاَمِيَّةٍ كَقَوْلِهِ:

22/ أَيُّ يَوْمٍ نَسِيتَ **يَوْمُ التَّلاَقِي** *** أَيُّ يَوْمٍ نَسِيتَ **يَوْمُ التَّنَادِ**.

أَيُ يَوْمٍ يَوْمُ الوُقُوفِ إِلَى الـ *** ـلَّهِ **وَيَوْمُ الحِسَابِ وَالإِشْهَادِ**.

---

[1]- قصيدة رقم:93[من الخفيف]، تكملةُ الدّيوان، ص537.

[2]- قصيدة رقم:113[من الخفيف]، ص113.

[3]- قصيدة رقم:269[من الطويل]، ص258.

[4] - قصيدة رقم:28[من الوافر]، ص34.

[5]- قصيدة رقم:361[من الوافر]، ص355.

[6]- قصيدة رقم:37[من الخفيف]، ص43.

[7]- مقطوعة رقم:235[من الكامل]، ص238.

[8]- مقطوعة رقم:98[من البسيط]، تكملة الدّيوان، ص542.

[9]- قصيدة رقم:22[من الرّمل]، ص30.

أَيُّ يَوْمٍ **يَوْمُ المَـمَرِّ** عَلَى النَّا *** رِ وَأَهْـوَالِهَا العِـظَامِ الشِّـدَادِ.

أَيُّ يَوْمٍ **يَومُ الخَلاَصِ** مِنَ النَّا *** رِ وَهَوْلِ العَـذَابِ وَالأَصْفَـادِ.[1]

9/ أَأُخَـــيِّ مَـا لَــكَ نَاسِــياً *** **يَوْمَ التَّغَـــابُنِ** فِــي الأُمُــورِ.[2]

29/ **يَوْمُ التَّغَـابُنِ وَالتَّبَـايُنِ وَالتَّــوَا *** زُنِ وَالأُمُورِ عَظِيــمَةِ الأَهْوَالِ.**[3]

يَصِلُ بِنَا الشَّاعِرُ مِنْ خِلاَلِ الحَدِيثِ عَنْ القِيَامَةِ وَيَوْمِ الحِسَابِ إِلَى آخِرِ مَحَطَّةٍ لِلإِنْسَانِ فِي هَذَا المَسْلَكِ الحَتْمِيِّ وَهِيَ المَصِيرُ الأَبَدِيُّ، فَخُلُودٌ فِي جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، فَلاَ يُمْكِنُ بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ أَنْ يَغْفَلَ شَاعِرُ الزُّهْدِ عَنْ هَذَا المَوْقِفِ المُزْعِزِعِ لِلكَيَانِ، فَيُقَدِّمُهُ لَنَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ مُرَهِّبًا وَمُرَغِّبًا، وَاصِفًا نَعِيمَ الجَنَّةِ وَأَهْوَالَ النَّارِ فِي كَثِيرٍ مِنْ قَصَائِدِهِ، مِنْهَا قَوْلُهُ:

11/ أُسْلُ عَنِ الدُّنْيَا وَعَنْ ظِلِّهَا *** فَإِنَّ فِي **الجَنَّــةِ** ظِلاًّ ظَلِيلْ.

وَإِنَّ فِي **الجَنَّةِ** لَلـرَّوْحَ وَالــرَّ *** يْحَانَ وَالرَّاحَةَ وَالسَّلْسَبِيلْ.

مَنَ دَخَلَ **الجَنَّةَ** نَالَ الرِّضَى *** مِمَّا تَمَنىَّ وَاسْتَطَابَ المَقِيلْ.[4]

1/ عَجِبْــتُ لِلنَّــارِ نَــامَ رَاهِبُــهَا *** وَجَنَّةِ الخُلْدِ نَامَ رَاغِبُهَا.

عَجِبْتُ لِلجَنَّةِ التِّي شَوَّقَ اللّـَ*** ـهُ إِلَيْــهَا نَــامَ طَــالِبُهَا.[5]

1/ المَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ *** فَلَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ البَابِ مَا الدَّارُ.

الدَّارُ جَنَّةُ خُلْدٍ إِنْ عَمِلْتَ بِمَا *** يُرْضِي الإِلَـهَ وَإِنْ قَصَّـرْتَ فَالنَّـارُ.[6]

---

[1]- قصيدة رقم: 114[من الخفيف]، صص114،113.

[2]- قصيدة رقم:168[من مجزوء الكامل]، ص166.

[3]- قصيدة رقم:295[من الكامل]، ص283.

[4]- قصيدة رقم: 301[من السريع]، ص291.

[5]- قصيدة رقم:45[من المنسرح]، ص50.

[6]- قصيدة رقم:143[من البسيط]، ص141.

5/ وَالمَصْدَرُ النَّارُ أَوِ المَصْدَرُ الـ*** ـجَنَّةُ مَا دُونَهَا مَصْدَرُ.[1]

14/ وَلِلّهِ عَيْنٌ أَيْقَنَتْ أَنَّ جَنَّةً *** وَنَارًا يَقِينٌ صَادِقٌ ثُمَّ نَامَتِ.[2]

10/ مَنْ جَاوَرَ الرَّحْمانَ فِي دَارِهِ *** تَمَّتْ لَهُ النِّعْمَةُ كُلَّ التَّمَامْ.[3]

2/ لِأَمْرٍ مَا بَنِي حوَّا *** ءَ مَا نُصِبَتْ لَكُمْ سَقَرْ.[4]

13/ وَمَوْعِدُ كُلِّ ذِي عَمَلٍ وَسَعْيٍ *** بِمَا أَسْدَى غَدًا **دَارُ الثَّوَابِ**.

19/ فَإِمَّـا أَنْ أُخَـلَّدَ **فـي نَعِيـمٍ** *** وَإِمَّـا أَنْ أُخَـلَّدَ **فِي عَذَابِ**.[5]

فَلُغَةُ الشَّاعِرِ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ نِهَايَةِ الإِنْسَانِ إِلَى نَعِيمٍ أَوْ شَقَاءٍ، لاَ تَنْزَاحُ عَنِ الخِطَابِ الإِسْلامِيِّ، تَغْرِفُ مِنْ مَعْجَمِهِ وَتَصُوغُ بِهِ بِنْيَتَهُ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الدَّلاَلاَتِ المَأْلُوفَةِ عِنْدَ شُعَرَاءِ الزُّهْدِ عُمُومًا مُتَمَثِّلَةً فِي النَّجَاةِ أَوِ الخُسْرَانِ يَوْمَ العَرْضِ:

1/ خَيْـرُ الرِّجَـالِ رَفِيقُـهَـا *** وَنَصِيحُـهَا وَشَقِيقُهَـا.
وَالخَيْرُ مَوْعِدُهُ **الجِنَـا *** نُ وَظِلُّـهَا وَرَحِيقُـهَـا**.
وَالشَّـرُّ مَوْعِـدُهُ **لَظًـى *** وَزَفِيـرُهَا وَشَهِـيقُـهَـا**.
مَا حُبُّ **دَارٍ لَيْـسَ يُؤْ *** مَنُ سَيْلُـهَا وَحَـرِيقُهَا**.
أَشْقَى بَنِي الدُّنْـيَا بِهَـا *** للهِ أَنْـتَ صَدِيقُـهَـا.
إِنِّي أُعِيـذُكَ أَنْ يَغُـرَّ *** كَ زَهْـرُهَا وَبَرِيقُـهَـا.
وَهِيَ المُنَغِّصَةُ السّـرُو*** رِ وَإِنْ زَهَـاكَ أَنِيقُـهَـا.

[1]- 154[من السريع]، ص151.
[2]- قصيدة رقم:59[من الطويل]، ص63.
[3]- قصيدة رقم:351[من السريع]، ص343.
[4]- قصيدة رقم:167[من مجزوء الوافر]، ص164.
[5]- قصيدة رقم:28[من الوافر]، ص34.

ارْغَبْ فَأَنْتَ أَسِيـرُهَـا *** وَازْهَـدْ فَأَنْتَ طَلِيقُـهَـا.[1]

وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ حَصَرَ فِي الأَبْيَاتِ الآتِيَةِ كُلَّ الذِّي دَرَجَ عَلَى تَصْوِيرِهِ، مُجْتَمِعًا أَوْ مُنْفَرِدًا، مِنْ مَنَازِلِ الإِنْسَانِ بَيْنَ الدَّارَيْنِ حِينَ قَالَ:

8/ يَهْرُبُ المَرْءُ مِنَ المَوْتِ وَهَلْ *** يَنْفَعُ المَرْءَ مِنَ المَوْتِ الهَرَبْ.
كُـلُّ نَفْـسٍ سَتُقَـاسِي مَـرَّةً *** كُرَبَ المَوْتِ فَلِلـمَوْتِ كُرَبْ.
أَيُّـهَا ذَا النَّـاسُ مَا حَـلَّ بِـكُمْ *** عَجَبًا مِنْ سَهْوِكُمْ كُلَّ العَجَبْ.
أَسْقَـامٌ ثُـمَّ مَـوْتٌ نَـازِلٌ *** ثُـمَّ قَبْـرٌ وَنُشُـورٌ وَجَـلَبْ.
وَحِسَـابٌ وَكِتَـابٌ حَـافِظٌ *** وَمَوَازِيـنُ وَنَـارٌ تَلْـتَهِبْ.
وَصِـرَاطٌ مَنْ يَـزُلْ عَنْ حَـدِّهِ *** فَإِلَى خِـزْيٍ طَوِيـلٍ وَنَصَـبْ.[2]

وَلاَ يُغَادِرُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ عَمُودَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، يَمْشِي عَلَى هَدْيِهِ، وَيَنْسُجُ عَلَى مِنْوَالِهِ فِي أَدَقِّ تَفَاصِيلِهِ، وَحِينَ يُفَارِقُهُ، بِأَيِّ شَكْلٍ مِنَ الأَشْكَالِ، تَجِدُ النَّقَدَةَ مِنْ حَوْلِهِ قِيَامًا مُسْتَنْكِيرِينَ ثَائِرِينَ، وَهُوَ لَيْسَ يُعِيرُهُم كَثِيرَ اهْتِمَامٍ، وَيَمْضِي فِيمَا يَرَاهُ نَهْجًا يَخْدُمُ مَذْهَبَهُ الشِّعْرِيَّ وَيُؤَسِّسُ لأُسْلُوبٍ سَيَكُونُ رَائِدَهُ، يَتْبَعُهُ فِيهِ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ. غَيْرَ أَنَّنَا نَعُودُ لِنَقُولَ أَنَّ دَيْوَانَهُ يَعْكِسُ، فِيمَا يَعْكِسُهُ، رُوحَ القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ المُحَافِظَةِ التِّي تَتَّخِذُ المَطْلَعَ الطَّلَلِيَّ مَدْخَلاً لاَ مَنَاصَ مِنْهُ إِلَى النَّصِّ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

1/ لِمَنْ طَلَلٌ أُسَـائِلُهُ *** مُعَطَّـلَةٌ مَنَـازِلُهُ.[3]

هَذَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالإِمْكَانَ الجَزْمُ بِصِدْقِ التَّوَجُّهِ إِلَى الزُّهْدِ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مِنْ خِلاَلِ المَعْجَمِ الشِّعْرِيِّ الذِّي حَفَلَ بِالأَلْفَاظِ القُرآنِيَّةِ وَالإِسْلاَمِيَّةِ عُمُومًا فَقَطْ، لِاعْتِبَارَاتٍ

[1]- قصيدة رقم:267[من مجزوء الكامل]، ص256.
[2]- قصيدة رقم:22[من الرمل]، ص30.
[3]- قصِيدَةِ رَقَمُ 334[من مجزوء الوافر]، صص327.

أُخْرَى لَيْسَ هَذَا مَقَامُ تَفْصِيلِهَا، فَإِنَّهُ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، يَضَعُ بَيْنَ أَيْدِينَا أَدَواتٍ فَاعِلَةٍ لِفَهْمِ الظَّاهِرَةِ الاجتِمَاعِيَّةِ–الدِّينِيَّةِ انْطِلاَقًا مِنَ اللُّغَةِ التِّي أَثَّثَت تِلْكَ النُّصُوصِ، ثُمَّ سَمَحَتْ ظُرُوفٌ مُتَظَافِرَةٌ بِتَحْوِيلِهَا إِلَى ظَاهِرَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ شَغَلَتِ النَّصَّ وَصَاحِبَهُ وَمُتَلَقِّيهِ.

هَلْ دَعْوَةُ الشَّاعِرِ إِلَى الزُّهْدِ والتَّقْوَى نَابِعَةٌ عَن الْتِزَامٍ وَاقْتِنَاعٍ؟ فِي الحَقِيقَةِ لاَ تَهُمُّهَا الإِجَابَةُ كَثِيرًا، عَلَى الأَقَلِّ فِي هَذِهِ المَسَاحَةِ مِنَ البَحْثِ. مَا يَهُمُّنَا أَكْثَرَ، هُوَ تَدَبُّرُ المَسَارَاتِ التِّي اتَّخَذَهَا خِطَابُ الزُّهْدِ العَتَاهِيُّ لِيُشَكِّلَ ذَاتَهُ عَلى صَعِيدِ اللُّغَةِ، والسَّعْيُ، مَا أَمْكَنَ، إِلَى حَصْرِ خَصَائِصِهَا وَتَجَلِّيَاتِهَا. وَحَيْثُ أَنَّ العَرَبَ تَنَادَتْ مِنْ عُهُودٍ، بِأَنَّ " أَصْدَقَ الشِّعْرِ أَكْذَبُهُ " فَإِنَّ تَوَجُّهَنَا سَيَنْصَبُّ عَلَى مَعْرِفَةِ مَدَى تَحَقُّقِ إِبْلاَغِيَّةِ الخِطَابِ وَتَأْثِيرِهِ عَبْرَ هَذَا الاخْتِيَارِ الذِّي قَصَدَ إِلَيْهِ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لِيَصِيرَ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً لاَ تُفَارِقُ قَوْلَهُ.

لَقَدْ أَدْرَكَ الشَّاعِرُ، بِفِطْنَةٍ وَذَكَاءٍ، أَنَّ الرِّسَالَةَ لاَ يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَحَقَّقَ فِي غِيَابِ أَحَدِ أَطْرَافِهَا الثَّلاثَةِ، لِذَلِكَ عَمِدَ إِلَى لُغَتِهِ يُطَوِّعُهَا خِدْمَةً لَهَا (لِلرِّسَالَةِ) دُونَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلْوَاقِعِ اللُّغَوِيُّ الذِّي يَفْرِضُهُ المُجْتَمَعُ وَيُحَاوِلُ أَنْ يُلْزِمَ المُبْدِعَ اتِّبَاعَهُ، فَـ" اللُّغَةُ لَيْسَتْ بَيْئَةً مُحَايِدَةً. إِنَّهَا لاَ تُصْبِحُ بِسُهُولَةٍ وَبِحُرِّيَّةٍ، مِلْكِيَّةً لِلمُتَكَلِّمِ. إِنَّهَا مَسْكُونَةٌ وَمُكْتَظَّةٌ بِالنَّوَايَا الأَجْنَبِيَّةِ، وَالسَّيْطَرَةُ عَلَى تِلْكَ النَّوَايَا وَإِخْضَاعُهَا لِنَوَايَانَا وَنَبَرَاتِنَا هِيَ سَيْرُورَةٌ وَعْرَةٌ وَمُعَقَّدَةٌ " [1]كَمَا يَقُولُ بَاخْتِينْ.

هَكَذَا اسْتَطَاعَ الشَّاعِرِ، عَبْرَ مِرَاسٍ مُسْتَدِيمٍ، أَنْ يَبْلُغَ غَايَتَهُ التِّي اشْتَغَلَ عَلَيْهَا زَمَنًا حَتَّى عَادَتْ اللُّغَةُ لُغَتَهُ، والطَّرِيقَةُ طَرِيقَتَهُ، إِذْ " عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَمْتَلِكَ امْتِلاَكًا تَامًّا وَشَخْصِيًّا لُغَتَهُ، وأَنْ يَقْبَلَ مَسْؤُولِيَّتَهُ الكَامِلَةَ عَنْ جَمِيعِ مَظَاهِرِهَا، وَأَنْ يُخْضِعَ تِلْكَ المَظَاهِرَ اللُّغَوِيَةَ لمَقَاصِدِهِ الخَاصَّةِ لاَ لِشَيْءٍ آخَرَ غَيْرِهَا. يَتَحَتَّمُ عَلَى كُلِّ كَلِمَةٍ أَنْ تُعَبِّرَ تِلْقَائِيًّا ومُبَاشَرَةً عَنْ قَصْدِ الشَّاعِرِ، وَلاَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ مَسَافَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِمَاتِهِ "[2]، فَإِنْ كَانَتِ الحَالُ هِيَ

[1]– الخِطَابُ الرِّوَائِي، ميخَائيل باختين، تر: محمد برادة، م.س، ص64.

[2]– نفسه، صص65،66.

هَذِهِ، أَمْكَنَ لِلشَّاعِرِ، حِينَهَا، أَنْ يَمْحُوَ المَسَافَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُتَلَقِّي بِكُلِّ يُسْرٍ، وَمِنْ ثَمَّ جَعْلِ الرِّسَالَةِ مُنْسَابَةً بِفَضْلِ اتِّسَاقِ الأُسْلُوبِ وَانْسِجَامِهِ.

فَوَاقِعُ النَّاسِ المُتَنَاقِضِ بِتَجَاذُبَاتِهِ بَيْنَ الزُّهْدِ وَالمُجُونِ، بَيْنَ الرِّضَا وَالسَّخَطِ، يَتَحَوَّلُ عِنْدَ الشَّاعِرِ المُقْتَدِرِ مَادَّةَ إِبْدَاعٍ أَوَّلِيَّةً دُونَمَا وُقُوعٍ فِي الشُّعْبَوِيَّةِ وَالابتِذَالِ. بَلْ إِنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ، وَقَدْ جَرَّبَ النَّقِيضَيْنِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، صَارَ مُتَمَلِّكًا لِلأَدَاةِ الَّتِي تُطَوِّعُ المَادَّةَ الخَامَّ، نَفْسِيًّا وَعاطِفِيًّا وَلُغَوِيًّا، فَتُخْرِجُهَا لِلنَّاسِ بِالأُسْلُوبِ الذِّي تَرَاهُ أَنْسَبَ لِبُلُوغِ الغَايَةِ.

وَإِذْ بَحَثَ النَّاسُ فِي غَمْرَةِ هَذَا الصِّرَاعِ عَنْ مَلْجَإٍ يَقِي الزَّلَلَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَكُونَ غَيْرَ الرُّكُونِ إِلَى الدِّينِ فِي مُجْتَمَعٍ مُسْلِمٍ بِالأَسَاسِ، وَمِنْ هُنَا سَتَتَشَكَّلُ الإِرْهَاصَاتُ الأَوَّلِيَّةُ لِلُغَةٍ تَمْتَحُ مِنَ النَّصِّ المُقَدَّسِ (قُرْآنًا وَسُنَّةً) لِتَصْنَعَ مَعْجَمَهَا وَتَفَرُّدَهَا بِهِ وَمِنْ خِلاَلِهِ. وَقَدْ يَكُونُ الاتِّكَاءُ عَلَى المَعْجَمِ الإِسْلاَمِيِّ زَائِفًا مُنَافِقًا، لِمَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا، يُدَارِيهِ بِشَاعِرِيَّةٍ وَحِذْقٍ فَنِّيٍ، فَيَنْقُلُ بَعِيدًا عَنِ التَّصَنُّعِ وَالتَّجْمِيلِ، عَوَاطِفَ النَّاسِ وَأَحْوَالَهُمْ وَمُيُولاَتِهِمْ فِي أُسْلُوبٍ يَمْتَزِجُ بِالقُرْآنِ وَلُغَتِهِ وَيَسْتَدْعِيهَا كُلَّمَا طَلَبَتِ التَّجْرِبَةُ وَالمَوْقِفُ ذَلِكَ لِيُشَكِّلَ بِهَا خُصُوصِيَّتَهُ وَتَمَيُّزَهُ.

يَقُولُ بَاخْتِينْ فِي هَذَا المَقَامِ بِأَنَّ " لُغَةَ الشَّاعِرِ هِيَ لُغَتُهُ هُوَ. إِنَّهُ يَجِدُ نَفْسَهُ دَاخِلَهَا بِرُمَّتِهِ، وَبِدُونِ شَرِيكٍ يُقَاسِمُهُ إِيَاهَا. إِنَّهُ يَسْتَعْمِلُ كُلَّ شَكْلٍ وَكُلَّ كَلِمَةٍ وَتَعْبِيرٍ فِي مَعَانِيهَا المُبَاشِرَةِ(...)، أَيْ أَنَّهُ يَسْتَعْمِلُهَا وَكَأَنَّهَا التَّعْبِيرُ الخَالِصُ وَالتِّلْقَائِيُّ عَنْ قَصْدِهِ. وَمَهْمَا تَكُنِ "الآلاَمُ اللَّفْظِيَّةُ" التِّي يُعَانِي مِنْهَا الشَّاعِرُ أَثْنَاءَ الإِبْدَاعِ، فَإِنَّ لُغَةَ العَمَلِ المُبْدَعِ أَدَاةٌ طَيِّعَةٌ مُلاَئِمَةٌ تَمَامًا لِمَشْرُوعِهِ الشِّعْرِيِّ "[1]، حِينَ " يُسَيْطِرُ " عَلَيْهَا الشَّاعِرُ تَتَحَوَّلُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَهَمَّ وَسِيلَةٍ لِلتَّأْثِيرِ والاسْتِقْطَابِ.

فَعَبْرَ وِعَاءِ اللُّغَةِ، الذِّي يَجْتَهِدُ فِي نَحْتِهِ مِنْ مَصَادِرِهِ المُخْتَلِفَةِ، يَصْنَعُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مَعْجَمَهُ لِيَسْتَوْعِبَ فِكْرَهُ وَدَوَاخِلَهُ، بَلْ وَأَفْكَارَ وَدَوَاخِلَ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ، فَيَجِدُونَ صُوَرَهُمْ

[1]- الخِطَابُ الرِّوَائِي، ميخَائيل باختين، م.س، ص58.

وَأَحْوَالَهُم فِي نُصُوصِهِ، وَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ بِلِسَانِهِمْ، وَيَقُولُ مَا عَجِزَتْ عَنْهُ لُغَتُهُمْ، رُغْمَ أَنَّهُ يَرْكَنُ إِلَى مَصْدَرٍ يَعْرِفونَهُ جَمِيعًا، ثُمَّ هُمْ لاَ يَقْدِرُونَ عَلى تَمَثُّلِهِ وَتَطْوِيعِهِ لِيُعَبِّرَ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ مِنَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالقِيَامَةِ وَالقَضَاءِ وَالقَدَرِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَالصَّبْرِ وَالقَنَاعَةِ كَمَا يَفْعَلُ هُوَ حِينَ يُمَتِّنُ اللُّحْمَةَ بَيْنَ وُجْدَانِهِ وَوُجْدَانِ الجَمَاعَةِ بِلُغَةٍ وَرُمُوزٍ بَسِيطَةٍ مُتَشَبِّعَةٍ بِالمَعْجَمِ القُرْآنِيِّ المُتَرَسِّخِ فِي الذَّاكِرَةِ وَالمُتَجَلِّي فِي المُمَارَسَةِ، فَتَتَوَافَقُ وَالذَّوْقَ العَامَّ وَتَسْتَجْلِبُ اهْتِمَامَهُ.

لَقَدْ أَدْرَكَ الشَّاعِرُ خَطَرَ اللُّغَةِ وَضَرُورَةَ تَمَلُّكِ خَصَائِصِهَا فِي بِنَاءِ أُسْلُوبِهِ وتَشْكِيلِ طَرِيقَتِهِ بِوَعْيٍ يَتَمَاهَى وَوَاقِعَ المُجْتَمَعِ العَبَّاسِيِّ الذِّي كَانَ يَعِيشُ فَوْرَةَ الحَضَارَةِ بِسِلْبِيَاتِهَا وَإِيجَابِيَّاتِهَا، فَسَعَى إِلَى تَوظِيفِهَا بِشَكْلٍ سَلِسٍ يَخْدُمُ غَرَضَ الزُّهْدِ وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ وَعْظٍ وَإِرْشَادٍ وَيَضْمَنُ، فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، مَسْحَةَ اللُّغَةِ الشَّاعِرِيَّةِ المُنْمَازَةِ عَنْ لُغَةِ المَسَاجِدِ وَالوُعَّاظِ، وَإِنْ كَانَتْ تُرَدِّدُ، فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، بَعْضَ صُوَرِ القَوْلِ لَدَى هَؤُلاَءِ، وَهَذَا مِنَ المُشْتَرَكِ الذِّي لاَ يَزْعُمُ أَحَدٌ أَنَّهُ خَاصَّتُهُ وَابْنُ فِكْرَتِهِ دُونَ سِوَاهُ مِنَ النَّاسِ.

تَمَيَّزَ مَعْجَمُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِالشَّفَافِيَّةِ التِّي تَسْمَحُ بِرُؤْيَةِ مَا وَرَاءَ اللُّغَةِ مِنْ صِرَاعِ طَبَقَاتِ المُجْتَمَعِ فَضْلاً عَنْ وَظِيفَتِهَا الأَسَاسِ الدَّلاَلِيَّةِ وَالجَمَالِيَّةِ، فَهِيَ تَحْمِلُ فِي بِنْيَاتِهَا أَثَرَ التَّارِيخِ الذِّي تَشَكَّلَتْ فِيهِ وَبِهِ. فَـ " فِي كُلِّ فَتْرَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مِنَ الحَيَاةِ الإِيدِيُولُوجِيَّةِ وَاللَّفْظِيَّةِ، يَمْتَلِكُ كُلُّ جِيلٍ، دَاخِلَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ فِئَاتِ المُجْتَمَعِ، لُغَتَهُ "[1]، لِذَا قَالَ بَارْتْ بِأَنَّ " لُغَةَ الكَاتِبِ هِيَ شَيْءٌ يَرِثُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَ" أُسْلُوبُهُ " أَمْرٌ شَخْصِيٌّ، يَتَأَلَّفُ رُبَّمَا مِنْ شَبَكَةٍ لاَ وَاعِيَةٍ مِنَ العَادَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالهَوَاجِسِ، بَيْدَ أَنَّ نَمَطَ كِتَابَتِهِ هُوَ شَيْءٌ يَخْتَارُهُ بِنَفْسِهِ مِنَ الإِمْكَانَاتِ المُتَاحَةِ لَهُ تَارِيخِيًّا. إِنَّهُ "طَرِيقَةٌ لِتَصَوُّرِ الأَدَبِ"، وَ" اسْتِخْدَامٌ اجْتِمَاعِيٌّ لِلشَّكْلِ الأَدَبِيِّ ".[2]

[1]- الخِطَابُ الرِّوَائِي، ميخَائيل باختين، م.س، ص61.

[2]- رولان بارت، جوناثان كولر، تر: سامح سمير فرج، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثقافة، مصر، ط1، 2016م، ص26.

وَنَحْسَبُ، فِي نِهَايَةِ هَذَا الـــمَبْحَثِ، أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ قَدْ أَمْكَنَهُ اخِتِيَارُهُ لِلُغَتِهِ، وَانتِقَاءُهُ لمَعْجَمِهَا، مِنْ جَعْلِ التَّنَاسُقِ وَالتَّرَابُطِ سِمَةً مُلاَصِقَةً لأُسْلُوبِهِ، وصُورَةً صَادِقَةً لِذَاتِهِ الشَّاعِرَةِ المُنْسَجِمَةِ مَعَ مُحِيطِهِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِ، فَانْعَكَسَ أَثَـــرُهَا مِنْ خِلاَلِ القَبُولِ الذِّي حَظِيَتْ بِهِ فِي زَمَانِهِ، واسْتِمْرَارِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مَعَ اخْتِلاَفِ الأَحْوَالِ وَالظُّرُوفِ، فَعادَتِ سُهُولَةُ اللُّغَةِ مِيزَةً لاَ قَدْحًا، وَتَكْرَارُ مَعْجَمِهَا بِنَاءً لاَ هَدْمًا، كَمَا سَنُحَاوِلُ تَبَيُّنَهُ فِي المَطْلَبِ المُوَالِي المَوْسُومِ بِـ" شِعْرِيَّةُ التَّكْرَارِ ".

الفَصْلُ الثّالِثُ

شِعْرِيَّةُ التَّكْرَارِ فِي النَّصِّ العَتَاهِيِّ

" أَنْ نَزْعُمَ أَنَّ التَّكْرَارَ بَدَأَ فِي (المرَّةِ الأُولَى) هُوَ أَنْ نَحُدَّ التَّكْرَارَ بِأَنَّهُ هُوَ ذَاتُهُ الأَصْلُ ".

مَارِي لُورْ بَارْدِيشْ

- تَمْهِيـدٌ.
1- فِي التَّكْــرَارِ.
2- تَكْرَارُ الحَرْفِ وَالكَـلِمَةِ.
3- تَكْرَارُ العِبَارَةِ[الصِّيـغَةِ].

تَمهِيدٌ:

"كَيْفُ يُلْهِمُ المَوْتُ اللُّغَةَ بِمَا أَنَّهُ حَاضِرٌ دَوْمًا عِنْدَمَا يُؤَكِّدُ التَّكْرَارُ نَفْسَهُ؟ "[1]. أَيُّ حَيْرَةٍ هَذِهِ يَضَعُنَا أَمَامَهَا "دُولُوزْ" *Gilles Deleuze* وَهُوَ يَطْرَحُ هَذَا السُّؤَالَ المسْتَفِزَّ لِوَعْيِنَا؟ كَيْفَ لِلتَّكْرَارِ أَنْ يَفْرِضَ وُجُودَهُ وَهَيْمَنَتَهُ حَتَّى فِي هَذِهِ المَوَاقِفِ؟ هَلْ قَدَرُ اللُّغَةِ/الإِنْسَانِ أَنْ يُكَرِّرَ حَدَّ وَضْعِ الحَافِرِ عَلَى الحَافِرِ، وَاتِّفَاقِ الخَوَاطِرِ؟ هِيَ أَسْئِلَةٌ وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ تَتَدَاعَى إِلَى الذِّهْنِ وَنَحْنُ نَقْرَأُهَا، فَيَرْتَجُّ وَيتَخَبَّطُ فِي مَسَالِكِ الإِجَابَاتِ المُمْكِنَةِ، وَالتِّي نَأْمَلُ مِنْ هَذَا المَبْحَثِ أَنْ يُضِيءَ بَعْضَهَا، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ، أَنْ يَضَعَ مَعَالِمَهَا عَلَى الطَّرِيقِ.

1- فِي التَّكْرَارِ:

يُعَدُّ التَّكْرَارُ مِنْ الأَسَالِيبِ الشَّائِعَةِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ تَعْبِيرِيٌّ قَدِيمٌ قِدَمَ العَرَبِيَّةِ، كَثِيرُ الجَرَيَانِ فِي أَسَالِيبِهِم وَعَلَى أَلْسِنَتِهِم. وَقَدْ تَعَزَّزَ هَذَا الدَّوْرُ الذِّي يَلْعَبُهُ التَّكْرَارُ فِي الخِطَابِ بِفَضْلِ مَا حَفَلَ بِهِ النَّصُّ القُرْآنِيُّ مِنْ أَنْوَاعِهِ المُخْتَلِفَةِ. وَتَحَدَّثَ البَلاَغِيُّونَ – قُدَمَاؤُهُمْ وَمُحْدَثُوهُمْ– فِي أَشْكَالِهِ وَحُدُودِهِ، وَاسْتَنْبَطُوا طَرَائِقَهُ وَأَوْجُهَ اسْتِعْمَالِهِ، مِنْ تَكْرَارِ صَـــدَارَةٍ *Anaphora*، وَتَكْرَارِ نِهَايَةٍ *Epistrophe*، وَتَكْرَارِ مُغَايَرَةٍ *Antanaclasis*، وَتَكْرَارٍ مَعَ زِيَادَةٍ *Repetition Incremental*، أَوْ تَكْرَارِ صَـوْتٍ *Echo* وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَنْمَاطِ التِّي امْتَلأَتْ بِهَا كُتُبُ البَلاَغَةِ عَلَى مَرِّ العُصُورِ[2].

يَسْتَمِرُّ التَّكْرَارُ أَحَدَ الظَّوَاهِرِ الهَامَّةِ التِّي تَسِمُ الأَدَبَ عُمُومًا وَالعَرَبِيَّ مِنْهُ عَلَى وَجِهِ الخُصُوصِ، مِنْ أَوَّلِ عَهْدِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، شُغِفَ بِهِ الأُدَبَاءُ عَلَى اخِتِلاَفِ المشَارِبِ وَالأَهْوَاءِ، مُشَكِّلاً بِهَذَا ظَاهِرَةً أُسْلُوبِيَّةً تَسْتَحِقُّ الدَّرْسَ، وَتَسْتَدْعِي الانْتِبَاهَ لِاسْتِكْنَاهِ خَوَاصِّهَا وَأَحْوَالِهَا فِي مُحَاوَلَةٍ لاسْتِنْبَاطِ مَا تُضِيفُهُ لِلخِطَابِ الشِّعْرِيِّ، فَـ " التَّكْرَارُ – كَمَا

[1]– الاختلاف وَالتّكرار، جيل دولوز، تر: وفاء شعبان، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ط1، أبريل2009م، ص83.

[2]– يُنظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها،ج1، صص236،237. ويُنظر: ن.م، ج2، ص338.

هُوَ مَعْرُوفٌ – خَاصِّيَةٌ مُلاَزِمَةٌ لِلشِّعْرِ عُمُومًا، قَدْ يَأْتِي لِغَايَةٍ جَمَالِيَّةٍ (فَنِّيَّةٍ) إِذَا اسْتَطَاعَ الشَّاعِرُ تَوْظِيفَهُ فِي بَلْوَرَةِ رُؤْيَتِهِ وَتَأْكِيدِ مَوْقِفِهِ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ فَيَكُونُ التَّكْرَارُ إِطْنَابًا أَوْ حَشْوًا يُرْهِقُ النَّصَّ الشِّعْرِيَّ عَلَى مُسْتَوَيَيْه: الدَّلاَلِيِّ وَاللَّفْظِيِّ مَعًا "[1]، فَيَفْقِدُ النَّصُّ حِينَهَا وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ مُقَوِّمَاتِهِ الجَمَالِيَّةِ، لِيَبدُوَ رُقْعَةً مِنَ البِنْيَاتِ المُكَرَّرَةِ مِنْ دُونِ غَايَةٍ وَاضِحَةٍ أَوْ هَدَفٍ أَكِيدٍ.

لِذَا، يُنْصَحُ بِتَجَنُّبِ تِلْكَ المَوَارِدِ التيِّ تَقُودُنَا إِلَى التَّكْرَارِ المَمْجُوجِ الذِّي لاَ طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ، إِذِ " الكَثَافَةُ فِي اسْتِخْدَامِ ظَاهِرَةِ التَّكْرَارِ تُؤَدِّي إِلَى تَوْلِيدِ الرَّتَابَةِ المِملَّةِ مِمَّا يُوحِي بِفَقْرِ المَخْزُونِ الانْفِعَالِيِّ عِنْدَ الشَّاعِرِ، وَبِأَنَّ الشُّحْنَةَ العَاطِفِيَّةَ قَدِ اسْتُنْفِدَتْ أَوْ خَضَعَتْ لِسَيْطَرَةِ العَقْلِ الذِّي يَدْفَعُ الأُسْلُوبَ نَحْوَ الإِسْرَافِ فِي اسْتِخدَامِ الحِيَلِ البَلاَغِيَّةِ مِمَّا يُوقِعُ فِي مُسْتَنْقَعِ التَّكَلُّفِ وَالصَّنْعَةِ "[2].

وقَدْ تَتَبَّعَ القُدَمَاءُ مَوَاطِنَ التَّكْرَارِ، يَسْتَقْبِحُونَ بَعْضَهُ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَهُ الآخَرَ، فَكَانَ مَدْعَاةً لِلجَدَلِ وَالتَّبَايُنِ، يُسْخِطُ حِينًا وَيُرْضِي أَحَايِينَ كَثِيرَةً، خُصُوصًا عِنْدَمَا تَخْتَلِفُ زَوَايَا النَّظَرِ إِلَى مَوْقِعِهِ أَوْ وَظِيفَةٍ فِي البِنَاءِ، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ صَاحِبُ (العُمْدَةِ) عَنْ أَنَّ الحَاتِمِيَّ عَابَ عَلَى الأَعْشَى الحَشْوَ الذِّي لاَ فَائِدَةَ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ:

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ قَلْبِهِ عَنْ شَاتِهِ *** فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالَهَا.

فَيُعَلِّقُ ابْنُ رَشِيقٍ قَائِلاً " وَهَذَا تَعَسُّفٌ مِنَ الحَاتِمِيِّ لِأَنَّ قَلْبَهُ غَيْرُ قَلْبِهَا، فَإِنَّمَا كَرَّرَ اللَّفْظَ دُونَ المَعْنَى "[3].

وَيَعِيبُ صَاحِبُ (العُمْدَةِ) تَكْرَارَ " النَّفْسُ " فِي بَيْتِ جَمِيلٍ:

---

[1]– ظواهر أسلوبية في شعر بدويّ الجبل– دراسة، عِصام شرتح، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2005م، ص44.

[2]–الأسس الجماليّة للإيقاع البلاغيّ في العصر العباسيّ، ابتسام أحمد حمدان، دار القلم، حلب، سوريا، ط1، 1418هـ/1997م، ص145.

[3]– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1401 هـ/1981م، ص72.

وَمَا ذَكَرَتْكِ النَّفْسُ يَا بُثْنَ مَرَّةً *** مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ كَادَتِ النَّفْسُ تَتْلَفُ.

وَيَرَى بِأَنَّهُ "لَيْسَ لَهُ وَجْهٌ هَهُنَا"، إِذْ لِلتَّكْرِيرِ مَوْضُعٌ يُسْتَحْسَنُ فِيهِ[1]، وَآخَرُ يُسْتَقْبَحُ.

وَمِنَ اللاَّفِتِ أَنَّ هَذِهِ المحَاوِرَ الدَّلاَلِيَّةَ التِّي رَصَدَهَا ابْنُ رَشِيقٍ تَكَادُ تَسْتَجْمِعُ مَجَالاَتِ القَوْلِ الشِّعْرِيِّ فِي عُمُومِهِ " وَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ يُرِيدُ القَوْلَ بِأَنَّ التَّكْرَارَ يَرِدُ فِي كُلِّ رِسَالَةٍ تَعْبِيرِيّةٍ ذَاتِ هَدَفٍ بَلاَغِيٍّ مُحَدَّدٍ"[2]، مَعَ أَنَّ بَابَ التَّكْرَارِ عِنْدَهُ لاَ يَتَجَاوَزُ عُشُرَ صُوَرِ الظَّاهِرَةِ إِذَا مَا قِيسَ بِمَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ الدِّرَاسَاتُ الأُسْلُوبِيَّةُ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ[3].

إِنَّ إِعَادَةَ الكَلاَمِ بِصَيَغٍ مُعَيَّنَةٍ، تَخْتَلِفُ مَرَّةً وَتَأْتَلِفُ أُخْرَى، كَانَ مِنْ طَرَائِقِ العَرَبِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ مُقْتَضَيَاتِ أَحْوَالِهِمْ، لِذَلِكَ وَجَدُوا المُسَوِّغَاتِ التِّي تَجْعَلُ هَذَا التَّلْوِينَ الكَلاَمِيَّ مُقَدَّمًا عَلَى غَيْرِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المَوَاقِعِ، فَقَدْ رَأَى ابْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ " تَكْرَارَ الكَلاَمِ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَبَعْضُهُ يُجْزِأُ عَنْ بَعْضٍ كَتَكْرَارِهِ فِي:(قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ) وَفِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ بِقَوْلِهِ:(فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) فَقَدْ أَعْلَمْتُكَ أَنَّ القُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ القَوْمِ، وَعَلَى مَذَاهِبِهِمْ، وَمِنْ مَذَاهِبِهِمُ التَّكْرَارُ: إِرَادَةَ التَّوْكِيدِ وَالإِفْهَامِ "[4].

وَلِهَذَا أَكَّدَ صَاحِبُ (البَيَانِ وَالتَّبْيِينِ) أَنَّ " جُمْلَة القَوْلِ فِي التِّرْدَادِ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَدٌّ يُنْتَهَى إِلَيْهِ وَيُؤْتَى عَلَى وَضْعِهِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ المُسْتَمِعِينَ وَمَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ العَوامِّ وَالخَوَاصِّ "[5]، فيُراعَى هُنَا عَامِلاَنِ فِي بِنَاءِ الخِطَابِ وَخِدْمَةِ مَرَامِيهِ يَتعَلَّقُ الأَوَّلُ بِأَحْوَالِ المُتلقِّي ونَوْعِيَّتِهِ، وَالنَّظَرِ فِي مَدَى قُدْرَتِهِ علَى اسْتِقْبَالِ الرِّسَالَةِ وَاسْتِيعَابِهَا، أَمَّا الثَّانِي، وَهُوَ فِي غَايَةِ الخُطُورةِ، وَمَبْعَثُهُ اسْتِعْدَادُ المُخَاطِبِ الفِطْرِيِّ فِي إِدْرَاكِ طَبِيعَةِ المُخَاطَبِ وَتَفَاعُلِهَا

[1]- يُنظر: العمدة، م.س، ص.ن.

[2]- بناءُ الأُسلوبِ في شِعرِ الحَدَاثَة - التّكْوين البديعيّ، محمّد عبد المطلب، ، دار المعارف، ط2، 1995م، ص134. و ينظر تلك المحاور الثّمانيّة في صص 134،133من الكتاب ذاته.

[3]- يُنظر: العمدة، ابن رشيق، م.س، هامش ص92.

[4]- تأويل مُشكِل القُرآنِ، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تح: السّيد أحمد صقر، مكتبة دار التّراث، ط2، 1393هـ/1973م، ص235.

[5]- البيان والتّبيّين، الجاحظ، ج1، م.س، ص105.

مَعَ هَذَا الخِطَابِ أَوْ ذَاكَ.

فَالتَّكْرَارُ إِذَنْ هُوَ " الإِتْيَانُ بِعَنَاصِرَ مُتَمَاثِلَةٍ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ العَمَلِ الفَنِيِّ "[1]، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لاَ يَتِمُّ بِطَرِيقَةٍ اعْتِبَاطِيَّةٍ غَيْرِ مُنْتَظِمَةٍ وَبِلاَ غَايَةٍ، وَإِلاَّ فَقَدَتْ العَمَلِيَّةُ الإِبْدَاعِيَّةُ جَوْهَرَهَا، وَالذِّي مِنْهُ الصُّورَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلمُبْدِعِ التِّي يَعْكِسُ بَعْضَ أَوْجُهِهَا هَذَا التَّكْرَارُ أَوْ ذَاكَ، مُجَسِّدًا جَانِبًا خَفِيًّا مِنَ المَشَاعِرِ التِّي يَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا القَبْضُ عَلَيْهَا فِي غِيَابِ مِثْلِ هَذِهِ الإِشَارَاتِ المُتَرَدِّدَةِ. فَالتَّكْرَارُ بِهَذَا مِنْ أَعْقَدِ الأَسَالِيبِ دَلاَلَةً وَوَظِيفَةً، فَهُوَ لَيْسَ مُجَرَّدَ حَشْوٍ يَمْلأُ فَرَاغَاتِ نَصٍّ مَا حِينَ تَعُوزُه الكَلِمَاتُ وَالتَّعَابِيرُ، بَلْ إِنَّهُ يَدْخُلُ فِي حَرَكِيَّةٍ مُتَبَادَلَةٍ مِنَ التَّأَثُّرِ وَالتَّأْثِيرِ فِي خُضُوعِهِ لِقَوَانِينَ خَفِيَّةٍ تَحْكُمُ العَمَلَ الفَنِيَّ، وَفِي مُقَدَّمِهَا نِظَامُ التَّنَاسُقِ والانْسِجَامِ الذِّي يَضْبِطُ سَيْرُورَةَ النَّصِّ.

إِنَّ هَذِهِ (القَوَانِينَ) وَالتِّي يَعْسُرُ وَصْفُهَا، لاخْتِلاَفِهَا مِنْ مُبْدِعٍ لآخَرَ، وَكَذَا لِأَنَّ الفَنَّ يَصْنَعُ قَوَاعِدَهُ الخَاصَّةَ، تَخْضَعُ لِنَوْعٍ مِنَ الهَنْدَسَةِ اللَّفظِيَّةِ التيِّ لاَ بُدَّ لِلشَّاعِرِ أَنْ يَعِيَهَا وَهُوَ يُوَزِّعُ التَّكرَارَ عَلَى مَسَاحَةِ نَصِّهِ[2]. عَلَى أَنَّه لاَ يَخْضَعُ لِضَوَابِطِ اللُّغَةِ وَالنَّظْمِ فَحَسْبَ، بَلْ هُوَ مَشْدُودٌ إِلَى مَا (تُمْلِيهِ) الذَّاتُ الشَّاعِرَةُ وَتَجْرِبَتُهَا النَّفْسِيَّةُ لِضَبْطِ التَّوَازُنِ وَالتَّنَاسُقِ الفَنِيِّ، فَمِمَّا لاَشَكَّ فِيهِ أَنَّ " طَبِيعَةَ التَّجْرِبَةِ الفَنِّيَّةِ – وَلاَسِيّمَا الشِّعْرِيَّةِ مِنْها – هِيَ التيِّ تَفْرِضُ وُجُوداً مُعَيَّنًا وَمُحَدَّدًا لِلتَّكْرارِ، وَهِيَ التِّي تُسْهِمُ فِي تَوْجِيهِ تَأْثِيرِهِ وَأَدَائِه بِالقَدْرِ الذِّي يَجْعَلُ مِنَ القَصِيدَةِ كَياناً فَنِّياً لِنِظَامٍ تَكْرَارِيٍّ مُعَيَّنٍ "[3].

وَعَلَى مِثْلِ هَذَا قَاسَ القُدَمَاءُ وَالمُحْدَثُونَ أَقْوَالَ الشُّعَرَاءِ، فَأَجْمَعُوا عَلَى خُصُوصِيَّةِ التَّكْرَارِ وَتَفَرُّدِهِ فِي الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ، فَاتِّكَاءُ المُبْدِعِ عَلَيْهِ يَهْدِفُ لِتَحْقِيقِ فَاعِلِيَّةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ قَدْ تَنْتُجُ مِنْ تَكْرَارِ الحَرْفِ أَوِ الكَلِمَةِ أَوِ الصِّيغَةِ أَوْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. فَالأَنْمَاطُ

[1]– معجم المصطلحات العربيّة في اللّغة والأدب، م.س، ص117.

[2]– يُنْظر:قضايا الشعر المعاصر، نازك صادق الملائكة، م.س، ص277 ومَا بَعدَها.

[3]– القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلاليّة وَالبنية الايقاعيّة – حساسية الانبثاقة الشعرية الأولى جيل الرواد والستينات، محمّد صابر عبيد، من منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م، ص134.

التَّعْبِيرِيَّةُ، فِي نَظَرِ عَبْدِ المطَّلِبِ لاَ تَعْتَمِدُ " بِالضَّرُورَةِ عَلَى خَاصِّيَّةِ الخَرْقِ المحَدَّدِ، بَلْ أَنَّهُ قَدْ يَبْتَعِدُ تَمَامًا عَنِ الخَرْقِ وَالانْتِهَاكِ إِلَى الأَدَاءِ المأْلُوفِ الذِّي تَتَوَفَّرُ فِيهِ المنَبِّهَاتُ التَّعْبِيرِيّةُ، التِّي تُتِيحُ إِبْرَازَ النِّيَّةِ الجَمَالِيَّةِ فِي الصِّيَاغَةِ، بَلْ إِنَّ التَّكْرَارِيَّةَ نَفْسُهَا قَدْ تُمَثِّلُ جَانِبًا إِبْدَاعِيًّا فِي الأَدَاءِ لاَ يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنِ (الخَرْقِ) إِنْ لَمْ يَتَجَاوَزْهُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ "[1]، أَكْثَرُ مِنْ هَذَا، يَجْزِمُ جِيلْ دُلُوزْ بِأَنَّ التَّكْرَارَ فِي ذَاتِهِ خَرْقٌ، فَهُوَ حَيْثُ وُجِدَ " يُعَبِّرُ فِي وَقْتٍ وَاحْدٍ عَنِ الفَرَادَةِ ضِدَّ العَامِّ، وَعَنِ الكُلِّيَّةِ ضِدَّ الخَاصِّ، وَعَنِ البَارِزِ ضِدَّ العَادِيِّ، وَعَنِ الفَوْرِيَّةِ ضِدَّ التَّغْيِيرِ، وَعَنِ الأَبَدِيَّةِ ضِدَّ الدَّوَامِ. وَمِنْ كُلِّ الأَوْجُهِ التَّكْرَارُ هُوَ الخَرْقُ. لِأَنَّهُ يُنَدِّدُ بِالطَّابَعِ الاسْمِيِّ أَوِ العَامِّ، لِصَالِحِ وَاقِعٍ أَعْمَقَ وَأَكْثَرَ فَنِيَّةً "[2].

لِذَلِكَ وَجَدْنَا الغَذَامِيَّ وَهُوَ يَقْرَأُ بَيْتَ المعَرِّي:

يُكَرِّرُنِي لِيُفْهِمَنِي رِجَالٌ *** كَمَا كَرَّرْتَ مَعْنىً مُسْتَعَادًا.

يُؤَكِّدُ بِأَنَّ " البَيْتَ يَحْمِلُ لأَلْفِ قَارْئٍ مِن قُرَّائِهِ أَلْفَ مَعْنىً؛ أَيْ أَنَّهُ بَيْتٌ بِلاَ مَعْنًى مُحَدَّدٍ، والقَارِئُ فَقَط هُو الذِّي يُفسِّره حَسْبما تُمليه عَلَيْه نَفسُهُ، وهَذَا حَقٌّ للقَارِئ مِثلمَا هُو مَهَارَةٌ لِلكَاتِبِ، وَفِيه تَنَاغُمٌ مَعَ حَرَكَة الكَوْن الدَّائِرِيَّةِ فِي العَوْدَةِ الدَّائِبَةِ إِلَى الأَصْلِ "[3]، فَحَتَّى وَإِنْ اتَّفَقَتِ اللُّغَةُ وَتَشَابَهَتْ لَفْظًا وَعِبَارَةً فَإِنَّ المعْنَى لَيْسَ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مُتَعَدِّدًا مُتَجَدِّدًا، عِنْدَ هَذَا الحَدِّ "يتَحَوَّلُ البِنَاءُ اللُّغَوِيُّ إِلَى جَسَدٍ هَلاَمِيٍّ، تَكْتَسِبُ (الكَلِمَةُ) فِيهِ مَوْقِعَهَا الدَّلاَلِيَّ مِمَّا تُمْلِيهِ رُؤْيَةُ القَارِئِ مِنْ تَرْجِيحٍ لِإِحْدَى الصِّيَغِ المُحْتَمَلةِ عَلَى سِوَاهَا "[4]، لِتَبْقَى الكَلِمَةُ سَيِّدَةَ مَعْنَاهَا، وَإِنْ تَكَرَّرَ، تَهَبُهُ الحَيَاةَ مَعَ كُلِّ قِرَاءَةٍ.

وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ رَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّكْرَارَ فِي الشِّعْرِ يَنْهَضُ بِوَظِيفَةِ الإِشْعَارِ وَالتَّأْثِيرِ

[1]- البلاغةُ والأسلوبيَّةُ، محمّد عبد المطّلب، مكتبة لبنان ناشرون – الشركة المصريّة العالميّة للنّشر/لُونجمان، ط1، 1994م، ص364.

[2]- الاختلاف والتّكرار، جيل دولوز، م.س، ص48.

[3]- الخَطِيئَةُ والتَّكْفِيرُ "مِن البِنيوِيَّةِ إلى التَّشْرِيحِيَّةِ، عبدُ الله الغذامي، م.س، ص270.

[4]- مسار التّحولات – قراءة في شعر أدونيس، أسيمة درويش، م.س، ص125.

وَالتَّعْبِيرِ بَدَلَ الإِخْبَارِ وَالتَّقْوِيمِ، كَوْنَ " الشِّعْرْ يَتَوَجَّهُ إِلَى قَلْبِ القَارِئِ، وَلاَ يَتَوَجَّهُ إِلَى عَقْلِهِ، وَلِذَلِكَ فَمِن مُمَيِّزَاتِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ التَّكْرَارُ. فَالتَّكْرارُ مُنْكَرٌ فِي النَّثْرِ بَيْنَمَا هُوَ القَاعِدَةُ فِي الكِتَابَةِ الشِّعْرِيَّةِ. فَالتَّكْرارُ لاَ يُخْبِرُ بَلْ يُعبِّرُ، وَيَزِيدُ فِي حِدَّةِ التَّعْبِيرِ، فَهُو لِذَلكَ لُغَةُ الوِجْدَانِ فَأَنْتَ تَقُولُ الشَّيْءَ وَتُعِيدُهُ وَلاَ تَرْمِي مِنْ ذَلِكَ التَّجْدِيدَ بَلْ تَرمِي إِلَى السُّمُوِّ بِالكَلِمَةِ وَتَحْسِينِهَا "[1]، والحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ المَقُولَةَ تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ! إِذْ إِنَّهَا بِحَصْرِهَا وَظِيفَةَ الشِّعْرِ فِي التَّعْبِيرِ وَالتَّأْثِيرِ تُفْقِدُهُ وَاحِدًا مِنْ أَوْجُهِهِ فِي العَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِيَّةِ.

وَيَجْزِمُ كَثِيرٌ مِنَ الأُسْلُوبِيِّينَ بِأَنَّ " أُسْلُوبَ النَّصِّ يَتَوَقَّفُ عَلَى العَلاَقةِ بَيْنَ مُعَدَّلاَتِ تَكْرَارِ العَنَاصِرِ الصَّوْتِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ، وَالدَّلاَلِيَّةِ، وَمُعَدَّلاَتِ تَكْرَارِ نَفْسِ هَذِهِ العَنَاصِرِ طِبْقًا لِمَنْظُورٍ مُتَّصِلٍ بِالسِّيَاقِ "[2] كَوْنَ التَّكْرَارِ عَمَلِيَّةً مُرَكَّبَةً لاَ تَقْتَصِرُ عَلَى الجَوَانِبِ الظَّاهِرَةِ مِنْ بِنْيَةِ النَّصِّ، بَلْ تَمْضِي فِي القَصِيدَةِ أَعمَقَ تَأْثِيرًا مِمَّا يَبْدُو فِي الظَّاهِرِ، هَذَا فَضْلاً عَلَى مَّا دَأَبَ عَلَيْهِ نَقْدُنَا القَدِيمُ مِنْ اعْتِبَارِ أَنَّ " هَذِهِ الوَحَدَاتِ لَيْسَتْ زَائِدَةً، لِكَوْنِهَا تَلْعَبُ دَوْرًا دَلاَلِيًّا، سَمَّاهُ القُدَمَاءُ التَّوْكِيدَ، وَلَكِنَّهُ بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ يَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ مِنَ الأَبْيَاتِ"[3]، لِذَا يَجِبُ أَنْ نَكُونَ فَطِنِينَ إِلَى هَذَا الدَّوْرِ وَكَيْفِيَةِ اسْتِثْمَارِهِ فِي اسْتِخْلاَصِ الخَصَائِصِ الأُسْلُوبِيَّةِ لِنَصٍّ مَا.

فَالتَّكْرَارُ كَظَاهِرَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ، وَالذِّي لاَ يَكَادُ يَخْلُو مِنْهُ نَصٌّ قَدِيمٌ أَوْ حَدِيثٌ، تَسْتَدْعِي تَتَبُّعَ خَصَائِصِهَا وَطَرَائِقِهَا العَدِيدَةِ فِي سَعْيٍ لِلإِلْمَامِ بِحَيْثِيَاتِهَا وَمَكَامِنِ الجَمالِ فِيهَا، وَكَيْفِيَّةَ اشْتِغَالِهَا فِي ثَنَايَا البِنْيَةِ، إِنَّهُ " سِمَةٌ مِنْ أَهَمِّ سِمَاتِ الشِّعْرِيَّةِ، وهُوَ يَجْعلُ تَكْرَارِ المتَوَالِيَاتِ المكَوِّنَةِ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَمْراً مُمْكِنًا، وَيَجْعَل تَكْرَارَ الرِّسَالَةِ فِي شُمُولِيَّتِهَا شَيْئاً مُمْكِنًا، إِمْكَانَ التَّكْرَارِ المُبَاشِرِ أَوْ غَيْرِ المُبَاشِرِ، وَالتَّهَيُّؤُ لِلرِّسَالَةِ الشِّعْرِيَّةِ وَعَنَاصِرِهَا المكَوِّنَةِ، وَالتَّحْوِيلِ

[1]- مَدخَلٌ إِلَى الأسلوبيّةِ تَنظِيراً وتَطبِيقًا، الهادِي الجَطْلاَوِي، مَنشُورَاتُ عُيُونْ، الدَّارُ البَيْضَاءُ، المغرب، ط1، 1992م، ص80.

[2]- بلاَغةُ الخِطَابِ وعِلمُ النَّصِّ، صَلاَح فَضل، عالم المعرفة، أُوت1992م، ص247 .

[3]- ظاهرة الشّعر المعاصر في المغرب – مقاربة بنيوية تكوينية، محمّد بنّيس، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان والمركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط2، 1985م، ص61.

لِلرّسَالة إِلَى شَيءٍ دَائِمٍ، وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالفِعْلِ خَاصِّيَّةً دَاخِلِيَّةً وَفَعَّالَةً لِلشِّعْرِ "[1].

فَالكَلِمَاتُ خَارِجَ السِّيَاقِ الشِّعْرِيِّ عَرَائِسُ شَمْعِيَّةٌ، بِحَسَبِ تَعْبِيرِ غْيُورْغِي، حَتىَّ إِذَا اكْتَسَبَتْ إِيحَاءَاتِهَا بِالمُجَاوِرَةَ وَالعَلاَقَاتِ النَّحْوِيَّةَ وَالدَّلاَلِيَّة وَالمجَازِيَّة وَدَبَّت فِيهَا الحَيَاةُ، وَإِذَا تَكَرَّرَتْ فِي إِطَارٍ سِيَاقِيٍّ شُعُورِيٍّ مُحْكَمٍ؛ تَلَوَّنَتْ حَيَاةُ النَّصِّ بِأَلْوَانِ الطَّيْفِ الشِّعْرِيِّ[2]. فَفِي اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ " تَكُونُ الوَحَدَاتُ غَيْرَ قابِلَةٍ لِلْتَّكْرَارِ، أَوْ بِصِيغَةٍ أُخْرَى، لاَ تَظَلُّ الوِحْدَةُ المُكَرَّرَةُ هِيَ هِيَ.[فَنَحْنُ] نَقْـرَأُ فِي المَقْطَعِ (المُكَرَّرِ) المَقْطَعَ نَفْسَهُ وَشَيْئًا آخَرَ "[3]، فَكُلَّ كَلِمَةٍ تَتَرَدَّدُ تُبَارِحُ الدَّلاَلَةَ الأُولَى، أَوْ جُزْءً مِنْهَا عَلَى الأَقَلِّ، لِتَكْتَسِبَ دَلاَلَةً جَدِيدَةٍ فِي سِيَاقِ المُكَرَّرِ وَبِهِ، وَمِنْ ثَمَّ فَـ" الوِحْدَةُ المُكَرَّرَةُ تُضِيفُ مَعْنًى آخَرَ إِلَى القَوْلِ "[4]. وَبِهَذَا يُمْكِنُنَا القَوْلُ بِأَنَّ كْرِيسْتِيفَا تَسْتَحْسِنُ التَّكْرَارَ مَا لَمْ يَكُنْ أَمْرًا دَخِيلاً عَلَى النَّصِّ، وَعَالَةً تَتَطَفَّلُ عَلىَ خُصُوصِيَّاتِهِ، تُرْهِقُ القَارِئَ بِمَا لاَ فَائِدَةَ فِيهِ، وَتَشْغَلُهُ عَنْ أَسَاسِيَّاتِهِ وَمَعَانِيهِ.

وَقَدْ ذَهَبَ مُحَمَّد مَفْتَاحْ إِلَى أَنَّ " تَكْرَارَ الأَصْوَاتِ وَالكَلِمَاتِ وَالتَّرَاكِيبِ، لَيْسَ ضَرُورِيًّا لِتُؤَدِّي الجُمَلُ وَظِيفَتَهَا المَعْنَوِيَّةَ وَالتَّدَاوُلِيَّةَ، وَلَكِنَّهُ (شَرْطُ كَمَالٍ) أَو(مُحَسِّنٌ) أَوْ (لَعِبٌ لُغَوِيٌّ) وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ التَّكْرَارَ يَقُومُ بِدَوْرٍ كَبِيرٍ فِي الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ أَوْ مَا يُشْبِهُهُ مِنْ أَنْوَاعِ الخِطَابِ الأُخْرَى الإِقْنَاعِيَّةِ "[5]، فَالنَّاقِدُ بَعْدَ أَنْ أَكَدَّ أَنَّ الفِعْلَ التَّوَاصُلِيَّ يَكْتَمِلُ وَلَوْ فِي غِيَابِ التَّكْرَارِ رَاحَ يَسْتَدْرِكُ، مُنَبِّهًا عَلَى أَهَمِيَّتِهِ فِي عَمَلِيَّةِ الإِقْنَاعِ وَالإِفْهَامِ. إِنَّ وَظِيفَةَ التَّكْرَارِ أَكِيدَةٌ فِي العَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ ذَاتِهَا، إِذْ إِنَّهُ وَسِيلَةٌ مُهِمَّةٌ مِنَ الوَسَائِلِ السِّحْرِيَّةِ التِّي تَعْتَمِدُ عَلَى تَأْثِيرِ الكَلِمَةِ المُكَرَّرَةِ فِي إِحْدَاثِ نَتِيجَةٍ إِيجَابِيَّةٍ فِي العَمَلِ الفَنِّيِّ المَمَيَّزِ[6].

---

[1]- Jakobson, Roman, Essais de linguistique général, Minuit, 1963, Paris, P:239. نقلًا عن: عصام شرتح، جماليّة التّكرار في الشّعر السّوريّ المعاصر، دار رند للطّباعة والنشر والتّوزيع، مُؤتة، الأردن، ط1، 2009م، ص38.

[2]- حياة الوعي الفني، غيورغي غانشف، تر: نوفل نيوف، عالم المعرفة، ع: 146، ص67.

[3]- علم النّصّ، كريستيفا جوليا، تر:فريد الزاهي، مر:عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م، صص81،80.

[4]- نفسه، ص80.

[5]- الخطاب الشّعريّ – استراتيجية التّناص، محمّد مفتاح، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط3، 1992م، ص39.

[6]- للاستزادة، يُنظر: الفصل الثّاني: توْظيف التّكرار– الأثرُ السّحريُّ الخَالِصُ(*The Use of Repetition - Pure Magical Effect*) مِنْ

وَهَذَا الذِّي خَلُصَ إِلَيْهِ مَفْتَاح هُنَا، هُوَ بَعْضُ مَا كَانَ قَرَّرَهُ الجَاحِظُ فِي حَدِيثِهِ الذِّي سُقْنَاهُ آنِفًا عَنِ التَّكْرَارِ وَوَظِيفَتِهِ فِي الكَلاَمِ، إِذْ عَلَى المُتَكَلِّمِ مُرَاعَاةَ أَمْرَيْنِ عَلَى الأَقَلِّ، يَتَعَلَّقُ كِلاَهُمَا بِالمُتَلَقِّي، الأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ الرِّسَالَةُ عَلَى قَدْرِ حَاجَةِ السَّامِعِ فَلاَ تَتَجَاوَزُ إِلَى التَّطْوِيلِ المُمِلِّ، وَلاَ تَقْصُرُ عَنْ أَدَاءِ المَعْنَى المُخِلِّ، وَالثَّانِي:أَنْ يُؤْخَذَ فِي الاعْتِبَارِ مُسْتَوَيَاتُ المُسْتَمِعِينَ الإِدْرَاكِيَّةُ وَقُدْرَتُهُمْ عَلَى الاسْتِيعَابِ.

وَفِي مُلاَحَظَاتِهِم لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ حَاوَلَ النُّقَّادُ تَمْيِيزَ الفُرُوقِ بَيْنَ تَوْظِيفِ التَّكْرَارِ فِي شِعْرِنَا اليَوْمَ عَنْهُ فِي الشِّعْرِ التُّرَاثِيِّ فَوَجَدُوا بِأَنَّهُ " يَهْدِفُ بِصُورةٍ عَامَّة إِلَى اكْتشَافِ المشَاعر الدَّفِينَةِ، وَإِلَى الإِبَانَةِ عَنْ دَلاَلاَتٍ دَاخِلِيَّةٍ فِيمَا يُشْبِهُ البَثَّ الإِيحَائِيَّ، وَإِنْ كَانَ التِّكْرَارُ التُّرَاثِيُّ يَهْدِفُ إِلى إِيقَاعٍ خِطَابِيٍّ مُتَوَجِّهٍ إِلَى الخَارِجِ، فَإِنَّ التَّكْرَارَ الحَدِيثَ يَنْزَعُ إِلَى إِبْرَازِ إِيقَاعٍ دْرَامِيٍّ"[1]، وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنْ شَأْنَ القَصِيدَةِ القَدِيمَةِ.

وَفِي ذَاتِ المَنْحَى ذَهَبَ صَامْوَالْ مُورِيهِ وَهُوَ يُقَرِّرُ أَنَّ " التَّكْرَارَ التَّقْلِيدِيَّ القَدِيمَ تَكْرَارٌ خَطَابِيٌّ، غَايَتُهُ تَوْلِيدُ إِيقَاعٍ حَمَاسِيٍّ رَنَّانٍ، وَلِذَا كَانَتِ الكَلِمةُ المُكَرَّرَةُ بِعَامَّةٍ اسْمًا لِشَخْصٍ أَوْ قَبِيلَةٍ، وَلَيْسَ الحَالُ كَذَلِكَ فِي أَحْدَثِ اسْتِخْدَامٍ لِلتَّكْرَارِ. إِنَّهُ تَكْرَارٌ دْرَامِيٌّ وَنَفْسِيٌّ يَسْتَهْدِفُ أَصْلاً البَوْحَ بِأَحَاسِيسِ الشَّاعِرِ البَاطِنَةِ، أَوْ حَالَتِهِ الذِّهْنِيَّةِ، وَالإِيحَاءِ بِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ "[2]. فَالنَّبْرَةُ الخَطَابِيَّةُ كَانَتْ هِيَ الطَّاغِيَةَ عَلَى صَوْتِ الشَّاعِرِ لاعْتِبَارَاتٍ مُرْتَبِطَةٍ أَسَاسًا بِالبِيئَةِ العَرَبِيَّةِ وَمَا أَحَاطَ بِهَا آنَذَاكَ.

فَصُورَةُ التَّكْرَارِ القَدِيمَةُ مَا عَادَتْ تَفِي بِحَاجَاتِ الشُّعَرَاءِ بِحَسَبِ المُحْدَثِينَ مَعَ التَّطَوُّرِ

كتاب:

"The Anatomy of poetry, Boulton.Marjorie, Routledge & Kegan Paul, Lodon, 2nd edition, 1982, Pp: 83-88. Magic makes great use of repetitions; we are all familiar with stories in which some thing has to be done or said three or seven times; religious rituals, which are more or less akin to primitive magic, depending on the degree of intellectual development ".

[1]- لغة الشّعر- قراءة في الشّعر العربيّ الحديث، رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1، 1998م، ص60.

[2]- الشّعر العربيّ الحديث 1800-1970- تطوّر أشكاله، وموضوعاته بتأثير الأدب الغربيّ، سامْوَال موريه(*Modern Arabic Poetry* 1800-1970)، تر: شفيع السّيّد وسعد مصلُوح، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د.ط، 2003م، ص341.

الحَاصِلِ عَلَى المُسْتَوَى الفَنِّيِّ أَوِ الاجْتِمَاعِيِّ، لِذَا اكْتَسَبَ التَّكْرَارُ خَصَائِصَ جَدِيدَةً، فَهُوَ " إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِإِدْخَالِ تَنَوُّعٍ صَوْتِيٍّ يُخْرِجُ القَوْلَ عَنْ نَمَطِيَّةِ الوَزْنِ المَأْلُوفِ لِيُحْدِثَ فِيه إِيقَاعاً خَاصّاً يُؤَكِّدُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِشَدِّ الانْتِبَاهِ إِلَى كَلِمَةٍ أَوْ كَلِمَاتٍ بِعَيْنِهَا عَنْ طَرِيقِ تَآلُفِ الأَصْوَاتِ بَيْنَهَا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ لِأَمْرٍ اقْتَضَاهُ القَصْدُ فَتَسَاوَتْ الحرُوفُ المتَكَرِّرَةُ فِي نُطْقِهَا لَهُ مَعَ الدَّلاَلَةُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ "[1].

وَلَيْسَتْ وَظِيفَةُ التَّكْرَارِ بِأَنْوَاعِهِ جَمِيعِهَا تَقْتَصِرُ عَلَى النَّاحِيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ الصَّوْتِيَّةِ فَحَسْبَ، بَلْ إِنَّ لَهُ دَوْرًا دَلاَلِيًّا أَيْضًا، وَقَدْ يَكُونُ غَيْرَ مُبَالَغٍ فِيهِ القَوْلُ: إِنَّ الدَّلاَلَةَ الشِّعْرِيَّةَ تَخْلُقُ أَسَالِيبَ التَّكْرَارِ فِي النَّصِّ، وَمِنْ هُنَا يَكْتَسِبُ وَظِيفَتَهُ الدَّلاَلِيَّةَ، فَهُوَ لاَ يَسُدُّ نَقْصًا فِي الكَمِّيَةِ الصَّوْتِيَّةِ لِلْبَيْتِ أَوِ الشَّطْرِ، وَإِنَّمَا يُولَدُ مِنْ خِلاَلِ المُمَاحكَةِ أَوِ المُزَاوَجَةِ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالنَّفْسِ، لِيَكُونَ مُنْتَمِيًا إِلَيْهَا، وَقَادِراً عَلَى تَلَمُّسِ الأُسْلُوبِ الأَمْثَلِ لِتَرجَمَةِ الصِّدْقِ الفَنِّيِّ لِلتَّجْرِبَةِ[2].

وَمِنْ وَظَائِفِ التَّكْرَارِ الدَّلاَلِيَّةِ أَنَّهُ يَأْتِي لِتَأْكِيدِ أَغْرَاضِ الكَلاَمِ، أَوِ المُبَالَغَةِ فِيهِ مُبَالَغَةً تَرْتَبِطُ بِمَوقِفِ المنْشِئِ مِنَ المُكَرَّرِ، إِذْ يَؤُولُ لَدَيْهِ إِلَى مَرْكَزْ ثِقَلٍ لِلحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ التِّي يَعِيشُهَا الشَّاعِرُ، يُوَازِنُ عَبْرَهُ الاخْتِلاَلَ فِي دَوَاخِلِ النَّفْسِ وَيُخَفِّفُ وَقْعَ الضَّغْطِ الذِّي يَعْتَرِيهِ[3]. وَهُنَا يُنَبِّهُنَا التَّكْرَارُ إِلَى قِيمَةِ المُكَرَّرِ فِي نَفْسِ المبْدِعِ وَعَلاَقَتِهِ بِالمَوْقِفِ الشُّعُورِيِّ لَدَيْهِ، إِذْ هُوَ يَجِدُ فِي تَرْدِيدِهِ نَوْعاً مِنَ اللَّذَّةِ النَّفْسِيَّةِ، كَمَا هِيَ الحَالُ فِي سِيَاقَاتْ الغَزَلِ وَالمَدِيحِ وَالرِّثَاءِ.

ولَعلَّ هذَا مَا جَعَلَ دَوَاوِينَ شِعْرِنَا العَرَبِيِّ المُعَاصِرِ تَكَادُ لا تَخْلُو مِنْ بنِيَةِ التَّكْرَارِ هَذِهِ،

---

[1]- الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، م.س، ص78.

[2]- يُنْظَر:تكرار التّراكم وتكرار التّلاشي- ظاهرة أسلوبيّة، تطبيق على الشّعر العراقيّ الحديث، عبد الكريم راضي جعفر، مهرجان المربد الشّعْرِيّ الرّابع، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط1، 2000م، صص9،10.

[3]- ينظر: وهج العنقاء – دراسة فنية في شعر خليل الخوري، ثامر خلف السُوداني، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، جُرُوس بُرَس، 2001م، 60،61، ويُنظر:دلالات لُغة التّكرار في القصيدة المعاصرة- أديب ناصر نموذجا، رحمن غركان، مجلّة الموقف الثقافي، دار الشّؤون الثقافيّة العامّة، ع:32، السّنة5، آذار/نيسان (مارس/ أفريل)2001م، ص79.

لأَنَّهُ يُعَدُّ " مِنَ الظَّوَاهِرِ الأُسلُوبِيَّةِ المُحْدِثَةِ لِفَاعِلِيَّةِ الأَثَرِ الشِّعْرِيِّ، وَتُحَقِّقُ عَبْرَ التَّكْرَارِ جُمْلَةٍ مِنَ الوَظَائِفِ أَهَمُّهَا: إِثَارَةُ انْتِبَاهِ المتَلَقِّي، وَتَكْثِيفُ الإِيقَاعِ المُوسِيقِيِّ فِي النَّصِّ الشِّعْرِيِّ، وَتَوْكِيدُ الظَّاهِرَةِ المُكَرَّرَةِ وَالتَّعْبِيرُ عَنْ مَدَى أَهَمِّيَتِهَا بِالنِّسَبَةِ لِلسَّارِدِ الشِّعْرِيِّ "[1]، إِذْ بِهَا يَتَوَلَّدُ جَانِبٌ مُهِمٌّ مِنَ الإِيقَاعِ مُتَدَاخِلاً مَعَ بَقِيَّةِ العَنَاصِرِ.

وَأَكْثَرُ أَشْكَالِ التَّكْرَارِ تَمَثُّلاً لِلْعَيَانِ، وَجَرَيَانًا فِي شِعْرِ الأَوَائِلِ وَالمُتَأَخِّرِينَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءَ، الرَّأْسِيُّ وَيُسَمَّى الاستِهْلاَلِيَّ أَوِ الابْتدَائِيَّ، وَالذِّي مِن وَظَائِفِهِ "التَّأْكِيدُ وَالتَّنْبِيهُ وَإِثَارَةُ التُّوَقُّع لَدَى السَّامِعِ لِلمَوقِفِ الجَدِيدِ، لمشَارَكَةِ الشَّاعِرِ إِحْسَاسَهُ وَنَبْضَهُ الشِّعْرِيَّ "[2]، وَقَدْ رَتَّبَهُ جَمَالُ الدِّين بْنُ الشِّيخِ تَحْتَ مُصْطَلَحِ "التَّرَاكُمُ"[3] لِمَا يَخْلُقُهُ مِنْ تَكْثِيفٍ وَظِلاَلٍ تَتَشَعَّبُ انْطِلاَقًا مِنَ النَّمُوذَجِ المُعَادِ، " وَلاَ شَكَّ أَنَّ هَذَا الشَّكْلَ الرَّأْسِيَّ لِلتَّكْرَارِ يَجْعَلُ مِنْ نُقْطَةِ الارْتِكَازِ شَيْئًا ذَا كَثَافَةٍ عَالِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ الإِيقَاعُ، أَوْ مِنْ حَيْثُ الإِلْحَاحِ عَلَى دَالٍّ بِعَيْنِهِ يَشُدُّ المُتَلَقِّي إِلَيْهِ، وَيُقَوِّي عِنْدَهُ حَاسَّةَ التَّوَقُّعِ، أَوْ بِمَعْنَى أَصَحَّ يُشْبِعُهَا عَلَى المُسْتَوَى الشَّكْلِيِّ أَوْ عَلَى المُسْتَوَى المَضْمُونِيِّ "[4].

وَعَلَيْنَا الاتِّفَاقُ بَدْءً عَلَى أَنَّ بَعْضَ الأَشْعَارِ يَأْلَفُ أَصْحَابُهَا صِيَغًا مِنَ الكَلاَمِ فَيَعْكُفُونَ عَلَى تَوْظِيفِهَا، فَيُعْرَفُونَ بِهَا، وَيَرُوقُ لَهُمْ التَّلْوِينُ فِيهَا وَالتَّجْدِيدُ حَتَّى يَنْطَبِعَ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِمْ وَيَخْتَصَّ بِه كَمَا هِي الحَالُ مَعَ أَشْعَارِ الزُّهْدِ التِّي تَحْتَاجُ إِلَى التَّكْرَارِ سَوَاءً اللَّفْظِيِّ أَوِ المعْنَوِيِّ، وَذَلِكَ لِتَأْكِيدِ مَعَانٍ قَدْ تَكُونُ غَائِبَةً عَنْ البَعْضِ، إِلاَّ أَنَّهُ يَنْبغِي أَنْ لاَ يَجِيءَ بِه لِغَيْرِ هَدَفٍ، لِأَنَّهُ حِينَهَا يَضُرُّ البَيْتَ وَيَعِيبُهُ.

أَيُمْكِنُنَا، بَعْدَ هَذَا، القَوْلُ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ، وَهُوَ يَشْتَغِلُ بِالتَّكرَارِ، إِنَّمَا يَفْعَلُهُ عَنْ وَعْيٍ؟

---

[1]- المكوّنات الشّعريّة في يائيّة مالك بن الرّيب، نور الدّين السّدّ، مجلّة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، ع:14، 1999م، ص38.

[2]- في شعر بدوبي الجيل، ص10.

[3]- الشّعريّة العربيّة، جمال الدّين بن شيخ، م.س، ص195.

[4]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص423.

وَلِغَايَةٍ هِيَ- حَتْمًا- عَكْسُ مَا قَد يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ أَوَّلَ الأَمْرِ، مِنْ أَنَّ الشَّاعِرَ مُحَاصَرٌ دَاخِلَ سِجْنِ الدَّهْرِ/المَوْتِ فَيَنْعَكِسُ ذَلِكَ فِي سِجْنِ الكَلِمَةِ/النَّصِّ، وَأَنَّ الوَاقِعَ يَفْرِضُ عَلَيْهِ البَقَاءَ يَقِظًا أَمَامَ هَوْلِ الحَقِيقَةِ المُؤْرِقَةِ، حَقِيقَةِ المَوْتِ وَالفَناءِ؟! قَدْ يَبْدُو الأَمْرُ كَذَلِكَ، لَكِنَّهُ، فِي جَانِبٍ مِنْهُ، هُوَ عَلَى نَقِيضِهِ تَمَامًا، حَيْثُ يَصِيرُ التَّكْرَارُ مَلاَذًا وَمَفَرًا، فَـ" فِي التَّكرَار وَبِالتَّكْرَارِ يُصبِحُ النِّسْيَانُ قُدْرَةً إِيجَابِيَّةً، وَيُصْبِحُ اللاَّوَعْيُ لاَوَعْيًا أَعْلَى إِيجَابِيًّا "[1]، كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ دُولُوزْ.

ذَاكَ بَعْضُ (ذَكَاءِ) الشَّاعِرِ فِي قَلْبِ المَوَاقِفِ لِصَالِحِهِ، وَلَوْ فِي الظَّاهِرِ، يُخْفِي آلاَمَهُ وَمُعَانَاتِهِ، وَيُدَارِي خَوْفَهُ وَقَلَقَهُ بِأَقْنِعَةٍ يَجْتَهِدُ فِي اخْتِيَارِهَا مُسْتَعِينًا بِالطَّاقَةِ الكَامِنَةِ فِي التَّكْرَارِ الذِّي وَظِيفَتُهُ " لَيْسَتِ التَّعَرُّفَ إِلَى الأَحْدَاثِ وَالأَشْخَاصِ وَالأَهْوَاءِ بِقَدْرِ مَا هِيَ تَأْصِيلُ الأَدْوَارِ وَانْتِقَاءُ الأَقْنِعَةِ "[2]، وَتِلْكَ هِيَ بَعْضُ غَايَاتِ الشِّعْرِ وَمَرَامِيهِ، بَلْ هِي كُلُّهَا الغَايَةُ جَمِيعًا!...أَلَيْسَ الشِّعْرُ تَخْيِيلاً وَمُدَارَاةً وَتَرَصُّدًا وَرَاءَ حُجُبِ المَجَازِ الشَّفَّافَةِ؟!

ثُمَّ إِنَّهُ عَلَينَا، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنْ نتَعَاملَ مَعَ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ بِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ تَقَلُّبٍ وَتَضَارُبٍ، فِي مُحَاوَلَةٍ لمُقَارَبَةِ هَذِهِ الذَّاتِ التيِّ تَنْعَطِفُ، دُونَمَا اسْتِئْذَانٍ، مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ، فَنَحْتَاجُ فِي ذَلِكَ إِلَى اسْتِغْلاَلِ كُلِّ مَا قَدْ يَشِي بِهِ النَّصُّ الشِّعْرِيُّ لإِضَاءَةِ الزَّوَايَا الدَّاكِنةِ فِيه، وَلَعَلَّ وَاحِدَةً مِنَ الوَسَائِلِ الأَقْدَرِ عَلَى تَهْيِئَةِ ذَلِكَ لِلقَارِئِ أَنْ يَتَتَبَّعَ لَفْظَهُ فَيَنْظُرَ أَيَّهُ كَانَتْ لَهُ الغَلَبَةُ، فَالتَّكْرَارُ " إِلْحَاحٌ عَلَى جِهَةٍ هَامَّةٍ مِنَ العِبَارَةِ، يُعْنَى بِهَا الشَّاعِرُ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِسِوَاهَا، وَهُوَ بِذَلِكَ ذُو دَلاَلَةٍ نَفْسِيَّةٍ قَيِّمَةٍ، تُفِيدُ النَّاقِدَ الأَدَبيَّ الذِّي يَدْرُسُ النَّصَّ، وَيُحَلِّلُ نَفْسِيَّةَ كَاتِبِهِ، إِذْ يَضَعُ فِي أَيْدِينَا مِفْتَاحَ الفِكْرَةِ المُتَسَلِّطَةِ عَلَى الشَّاعِرِ "[3].

[1]- الاختلاف والتّكرار ، جيل دولوز، م.س، ص56.

[2]- نفسه، ص77.

[3]- ظواهر أسلوبية في شعر بدويّ الجبل- دراسة، عِصام شرتح، م.س، ص9.

فَبِالتَّكرَارِ يُمَارِسُ الشَّاعِرُ المُرَاوَغَةَ، يُخَاتِلُ العَادِيَّ المأْلُوفَ، يَسْتَقِلُّ سَنَنَ المِعْيَارِ وَيَسْتَصْغِرُهُ بَحْثًا عَنِ الخَلاَصِ، هِيَ مُرَاوَغَةٌ لِلذَّاتِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِهِ، وَمِنْ ثَمَّ، يَقَعُ عَلَى القَارِئِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، عَنَاءُ وَلَذَّةُ البَحْثِ عَمَّا يُخْفِيهِ المُكَرَّرُ، وَمَا يُرِيدُ الحَاضِرُ قَوْلَهُ نِيَابَةً عَنِ المُغَيَّبِ. مِنْ هَذِهِ المفَارَقَةِ انْتَهَى جِيلْ دُولُوزْ إِلَى " أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُنَا الكَلاَمُ عَنِ التَّكْرَارِ إِلاَّ بِوَاسِطَةِ الاخْتِلاَفِ أَوِ التَّغْيِيرِ الذِّي يُدْخِلُهُ فِي الرُّوحِ الذِّي يَتَأَمَّلُهُ؟ بِوَاسِطَةِ اخْتِلاَفٍ يَنْتَزِعُهُ الرُّوحُ مِنَ التَّكْرَارِ؟ "[1].

لَقَدْ لَجَأَ شُعَرَاءُ الزُّهْدِ وَالمُتَصَوِّفَةُ عُمُوماً، وَالعَبَّاسِيّونَ مِنْهُم عَلَى الأَخَصّ، إِلَى هَذهِ الصِّيغَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ تَدْفَعُهُمْ فِي ذَلِكَ أَسْبَابٌ عَدِيدَةٌ، يَرتَبِطُ بَعْضُهَا بِطَبِيعَةِ المَوْضُوعِ، وَبعْضُهَا بِالبَيئَةِ وَأَحْوَالِ أَهْلِهَا، وَبعْضُهَا الآخَرُ فَرَضَتْهُ رُؤْيَةُ الشَّاعِرِ وَمُنْطلَقَاتُهُ الفِكْرِيَّةُ، وَقَدْ تَفْرِضُ اللُّغَةُ نَفْسُهَا، عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَأْنِسَ بِالتَّكْرَارِ حِينَ لاَ يَكُونُ هُنَاكَ كَلاَمٌ أَوْضَحَ مِنْهُ وَأَبْلَغَ، إِذْ " يَحِقُّ لَنَا الكَلاَمُ عَنِ التَّكرَارِ حِينَ نَجِدُ أَمَامَنَا عَنَاصِرَ مُتَطَابِقَةً تَمْتَلِكُ المفْهُومَ عَيْنَهُ بِالتَّأْكِيدِ. وَلَكِنْ فِي هَذِهِ العَنَاصِرِ المنْفَصِلَةِ مِنَ المَوْضُوعَاتِ المكَرَّرَةِ، عَلَيْنَا أَنْ نُمَيِّز ذَاتًا سِرِّيَّةً تَتَكَرَّرُ مِنْ خِلاَلِهَا، ذَاتُ التَّكْرَارِ الحَقِيقِيَّةُ "[2] فِي سَعْيٍ لِإِدرَاكِ غَايَةِ الشّاعِرِ مِنْ تَرْدِيدِ كَلِمةٍ أَو عِبَارَةٍ مَا، وَمَا يُخْفِيهِ ذَلِكَ مِنْ رَسَائِلَ وَجَمالِيَاتٍ.

وَالتَّكْرَارُ وَسِيلَةُ الشُّعَرَاءِ لِلإِبْقَاءِ عَلَى انْسِجَامِ خِطَابِهِمْ لِكَي لاَ يَصِيرَ إِلَى التَّهَافُتِ وَالتَّفَكُّكِ، فَلاَ يَنْقطِعُ تَوَالُدُ المعَانِي وَتَسَلْسُلُهَا فِي ذِهْنِ المتَلَقِّي فَتَفْقِدَ نُصُوصُهُمْ وَاحِدَةً مِنْ أَهَمِّ أَدَوَاتِ التَّأْثِيرِ وَالجَذْبِ، لِأَنَّ " اللَّفْظَ المكَرَّرَ – بِوَجْهٍ عَامٍّ – مَصْدَرُهُ الثَّوْرَةُ وَهَدَفُهُ الإِثَارَةُ، حُبًّا أَوْ بُغْضًا، فِي أَيِّ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ الكَلاَمِ، وَالتَّكْرَارُ مُرْتَبِطٌ بِقَانُونِ التَّرَدُّدِ، مِنْ قَوَانِينِ تَدَاعِي المعَانِي"[3]، ولِكَوْنِ " العَنَاصِرِ المكَرَّرَةِ تُحَافِظُ عَلَى بِنْيَةِ النَّصِّ وَتَمَاسُكِهِ

[1]- الاختلاف وَالتّكرار، جيل دولوز، م.س، ص166.

[2]- نفسه، ص84.

[3]- التّكرير بين المثير والتّأثير، عليّ السّيد عزّ الدّين، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1407هـ/1986م، ص136.

وَتَخْدُمُ الجَانِبَ الدَّلاَلِيَّ وَالانْفِعَالِيَّ فِي سِيَاقِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ "[1] .

يَسْـرِي هَذَا عَلَى عَدَدٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ قَصَـائِدِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، لَكِنْ، وَقَبْلَ أَنْ نَأْتِي إِلَى ذَلِكَ بِالدَّرْسِ وَالتَّحْلِيلِ، وَجَبَتِ الإِشَارَةُ أَنَّ نِسْبَةً غَيْرُ يَسِيرةٍ مِنْ هَذَا التِّكْرَارِ مَا أَضَافَتْ لِلَّفْظِ أَوِ المَعْنَى شَيْئًا ذَا بَالٍ، لِذَا سَنَتَجَاوَزُهُ هُنَا لِأَسْبَابٍ مَنْهَجِيَّةٍ نَرَاهَا وَجِيهةً، لَعَلَّ مِنْهَا: سُـهُولَةُ إِدْرَاكِهِ مِن قِرَاءَةٍ بَسِـيطَةٍ، وَأَنَّ التَّعَرُّضَ لَهُ لَنْ يُثْرِيَ البَحْثَ أَوْ يُفِيدَهُ، وَكَثِيرٌ مِنْهُ مَبْثُوثٌ فِي بُطُونِ الكُتُبِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، ثُمَّ وَهُوَ الأَهَمُّ، فَإِنَّ دِرَاسَـةَ نَقِيضِـهِ تُغْنِي عَنْهُ، أَوَلَيْسَـتِ الأَشْـيَاء بِأَضْـدَادِهَا تُدْرَكُ؟!...ثُمَّ قَبْلَ أَنْ نَنْصَـرِفَ عَنْهُ، لاَ يَضِـيرُنا التَّمْثِيلُ لَهُ بِبَعْضِ مَا عَجَّت بِهِ الكُتُبُ مِنْ هَنَاتٍ وَسُوءِ تَوْظِيفٍ لِـــهَذِهِ الخَاصِّيَّة الأُسْلُوبِيَّةِ، وَنَعتَقِدُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ الصِّنَاعَتَيْنِ يُجْزِئُ فِي هَذَا المَقَامِ وَيَفِي الغَرَضَ، فَقَدْ دَوَّنَ تَحْتَ بَابِ " فِي تَمِيزِ الكَلاَمِ " يَقُولُ: " وَإِذَا كَانَ المَعْنَى صَـوَابًا، وَاللَّفْظُ فَاتِرًا، وَالفَاتِرُ شَـرٌّ مِنَ البَارِدِ، كَانَ مُسْـتَهْجَنًا مَلْفُوظًا، وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا "[2]، وَبَعْدَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْضَ الأَشْـعَارِ وَأَصْـحَابَهَا يَسُوقُ بَيْتَيْ أَبِي العَتَاهِيَّةِ:

مَاتَ وَاللهِ سَعِـيدُ بْنُ وَهْبِ *** رَحِـــمَ اللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ.
يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيتَ عَيْنِـي *** يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي.

ثُمَّ يُعَلِّقُ قَائِلاً:" وَالبَارِدُ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ كَثِيرٌ "[3]، فَأَنْتَ تَرَى مَعَنَا بِأَنّ التَّكْرارَ هُنَا كَانَ سَخِيفًا هَجِينًا، لاَ تُرْجَى مِنْ وَرائِهِ فَائِدَةٌ، فَلاَ لَفْظَ يَجْمُلُ، وَلاَ إِيقَاعَ يُطْرِبُ، وَلاَ دَلاَلَةَ – مِنْ بَابِ أَوْلَى– تَخْصُبُ. وَكَانَ الجَاحِظُ أَشَارَ فِي (البَيَانِ وَالتَّبْيِينِ) إِلَى فَائِدَةِ التَّكْرَارِ وَتِرْدَادَ الأَلْفَاظِ فِي تَنْبِيهِ الغَبِيِّ وَالسَّاهِي، إِذْ " مَا سَمِعْنَا بِأَحَدٍ مِنَ الخُطَبَاءِ كَانَ يَرَى إِعَادَةَ

[1]– تحليل الخطاب الشّعريّ ثنائيّة الاتّساق والانسجام في ديوان أحد عشر كوكبا لمحمود درويش، فتحي رزق الخوالدة، دار أزمنة للنّشر، عمان، الأُردن، ط1، 2006م, ص94.

[2]– الصّناعتيْنِ، أبُو هلال العسكريُّ، م.س، ص59.

[3]– نفسه، ص60.

بَعْضِ الأَلْفَاظِ وَتَرْدَادَ المعَانِي عَيًّا "[1]، كمَا يَتَّضِحُ مِن بَيْتَيْ أَبِي العَتَاهِيَّةِ السَّالِفَيْنِ.

فَالإِبْدَاعُ، إِذَنْ، يَفْتَرِضُ أَنْ تُتَّخَذَ جُمْلَةٌ مِنَ الضَّـوابِطِ الفَنِّيَّةِ وَسِـيلَةً لِيُحَقِّقَ التَّكْرَارُ مُرَادَهُ، فَـ " مِنَ البَدِيهِيِّ أَنَّ هُنَاكَ غَايَةً مُعَيَّنَةً يَرْمِي إِلَى تَحْقِيقِهَا ذَلِكَ الشَّاعِرُ الذِّي يُكَرِّرُ تَرَاكِيبَ مُعَيَّنَةً، وَقَدْ تَكُونُ تِلْكَ الغَايَةُ مُوسِيقِيَّةً بِحَيْثُ يَجْعَلُ قَصِيدَتَهُ تَعْتَمِدُ تَكْرَارَ نَغَمَاتٍ مُوسِيقِيَّةٍ تَمْنَحُهَا بُعْداً مُوسِيقِيًّا مُؤَثِّرًا. وَقَدْ تَأْتِي اسْتِجَابَةً لِوَازِعٍ نَفْسِيٍّ أَوْ لِتَأْكِيدِ مَعْنىً يُرَادُ تَحْقِيقُهُ فِي بَدِيلٍ عَنْهُ ... وَلِظَاهِرَةِ التَّكْرَارِ إِيجَابِيَّاتٍ أَحْيَاناً وَسِـلْبِيَّاتٍ أَحْيَاناً أُخْرَى حَيْثُ أَنَّ نَجَاحَ الشَّاعِرِ أَوْ فَشَلَهُ فِي عَمَلِيَّةِ التَّكْرَارِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَدَى عُمْقِ تَجْرِبَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ وَمَدَى قُدْرَتِهِ عَلَى تَوْظِيفِ التَّرَاكِيبِ الدَّالَّةِ عَلَى الغَايَةِ التِّي يَصْبُو إِلَى تَحْقِيقِهَا مِنْ خِلاَلِ التَّكْرَارِ وَمِنْ هُنَا فَهُو سِلاَحٌ ذُو حَدَّيْنِ قَدْ تَمْنَحُ القَصِيدَةَ دَلاَلاَتٍ عَمِيقَةٍ بِمَا تَشْمَلُهُ مِنْ قُوَّةِ تأْثِيرٍ وإِيحَاءٍ وَقَدْ تُسْقِطُهَا فِي مُسْتوَى مِنَ السَّطْحِيَّةِ وَالابْتِذَالِ "[2].

لِنَدَعْ هذَا الآنَ وَنَمْضِي لِمَا نَرَاهُ أَهَمَّ، إِنَّنَا لَوْ قُمْنَا بِعَمَلِيَّةٍ إِحْصَائِيّةٍ[3] فِي دِيوَانِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ لَوَجَدْنَا أَنَّ التَّكْرَارَ ظَاهِرَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ فِي شِعْرِهِ يُمْكِنُنَا تَفْسِيرُهَا مِنْ جَوَانِبَ عِدَّةٍ، قَدْ نُرْجِعُ بَعْضَهَا لِطَبِيعَةِ العَصْرِ وَأَحْوَالِ المجْتَمَعِ العَبَّاسِيِّ المضْطَرِبِ بَيْنِ الانْحِلاَلِ البَارِزِ لِلعَيَانِ بِفِعْلِ الحَضَارَةِ وَالوَازِعِ الدِّينِيِّ الذِّي يَسْتَمِرُّ عَامِلَ تَوَازُنٍ وَتَمَاسُكٍ فِيهِ، وَذَلِك فَرَضَ عَلَى الشُّعَرَاءِ جُمْلَةً مِنَ الضَّوابِط فِي اللُّغَةِ وَالمَوْضُوعِ عَلَى حَدٍّ سَواءَ، فَعَمِدُوا إِلَى صِيَاغَةِ قَوَامِيسِهِمْ وَدَلاَلاَتِ مَعَانِيهِمْ بِمَا يَتَوَافَقُ وَالأَوْضَاعَ المُسْتَجِدَّةَ. وَلَيْسَ يَخْفَى، هُنا، مَا لِطبِيعَةِ بَعْضِ المَوْضُوعَاتِ مِنْ سُلْطَانٍ عَلَى المبْدِعِ، فَمَا لَهُ إِلاَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَاعِيهَا، وَيُقِرَّ بِفَاعِلِيَّتِهَا فِي إِنْتَاجِ النَّصِّ، لِذَا عُدَّ " التَّكْرَارُ فِي شِعْرِ المتَصَوِّفَةِ وَالزُّهَّادِ أَحَدَ أَهَمِّ العَنَاصِرِ التِّي تَقُومُ عَلَيهَا التَّجْرِبَةُ الشِّعْرِيَّةُ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ النُّصُوصِ "[4]. ثُمَّ نُرْجِعُ بَعْضَ العَوَامِلِ الأُخَرِ

---

[1]- الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، م.س، ص106.

[2]- دراسة في الشّعر العربيّ الحديث والمعاصر، جمعة بوبعير، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 1998م، ص 123.

[3]- يُنظر مَثَلاً: الشّعريّة، جمال الدين بن الشّيخ، م.س، ص228 وَمَا بَعْدَها.

[4]- فاعلية التّكرار في بنية الخطاب الشّعري للنّقائض – نمط خاصّ من الوعي بالآخر، عبد الفتاح يوسف، مجلّة فصول، ع:62، ربيع/صيف 2003م،

لِدَوَاخِلِ الشَّاعِرِ ومُيُولاَتِهِ التّي لاَ دَخْلَ لِلمُجْتَمَعِ فِيهَا، بَلْ إِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْوَالِ قَدْ تَتَجَاوَزُ الشَّاعِرَ ذَاتَهُ، وَهُوَ مُنْتِجُهَا وَالمعْنِيُّ الأَوَّلُ بِهَا!

ذَلِكَ كُلُّهُ مُجتَمِعًا، يُشَكِّلُ أَهَمَّ أَسْبَابِ تَفَشِّي التَّكْرَارِ فِي أَشْعَارِ هَؤُلاَءِ، حَتَّى اتَّخَذَ أَشْكَالاً مُخْتَلِفَةً كَانَ ابْنُ رَشِيقٍ قَدْ أَجْمَلَ الحَدِيثَ عَنْهَا فِي " العُمْدَةِ "[1]، وَأَشَارَ المُحقِّقُ فِي الهَامِشِ أَنَّ التَّكْرَارَ ذَاكَ، لاَ يَعْدُو أَنْ يَكُونَ عُشُرَ صُوَرِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ إِذَا مَا عُولِجَتْ فِي إِطَارِ الدِّرَاسَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ الحَدِيثَةِ[2]. وَكَانَ ابْنُ الأَثِيرِ قَدْ خَصَّ هَذَا المَوْضُوعَ بِمَا يُقَارِبُ الأَرْبَعِينَ صَفْحَةً مُفَصِّلاً وَمُمَثِّلاً لِأَنْوَاعِهِ وَأَشْكَالِهِ، مَا كَانَ مِنْهُ فِي اللَّفْظِ وَمَا كَانَ فِي المعْنَى، وَالمفِيدِ مِنْهُ وَغَيْرِ المفِيدِ[3]. لِذَا سَنَعْمَلُ عَلَى تِبْيَانِ أَلْصَقِهَا بِالدَّرْسِ الحَدِيثِ، مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ عَنْ خُصُوصِيَّاتِهَا فِي التُّرَاثِ النَّقْدِيِّ، وَحَظِّ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ إِنْ هُنَا أَوْ هُنَاكَ.

وَلَنَا أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ شَكْلَيْنِ أَسَاسَيْنِ مِنَ التَّكْرَارِ: عَلَى مُسْتَوَى البَيْتِ الوَاحِدِ أَيْ أُفُقِيًّا، وَعَلَى مُسْتَوَى القَصِيدَةِ كُلِّهَا أَيْ عَمُودِيًّا، لِيَتَهَيَّأَ لَنَا فِي النِّهَايَةِ الحَدِيثُ عَنِ الشَّكْلَيْنِ مَعًا فِي آنٍ وَكَأَنَّهُمَا- بَلْ هُمَا حَتْمًا- شَكْلٌ وَاحِدٌ فِي حَقِيقَةِ الإِبْدَاعِ التِّي لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَجَزَّأَ، بِحَيْثُ يُسْهِمَانِ- مُتَظَافِرَيْنِ- فِي الكَشْفِ عَنْ بِنْيَةِ الخِطَابِ فِيهَا.

لَاحَظَ مُحَمَّدُ عَبْدُ المطَّلِبِ وَهُوَ يَدْرُسُ شِعْرَ الحَدَاثَةِ أَنَّ " غَالِبِيَّةَ أَشْكَالِ التَّكْرَارِ جَاءَتْ فِي صُورَةٍ رَأْسِيَّةٍ بِحَيْثُ تَتَرَدَّدُ لَفْظَةٌ مُعَيَّنَةٌ، أَوْ جُمْلَةٌ مُعَيَّنَةٌ، فِي مَطْلَعِ عِدَّةِ أَسْطُرٍ، لِتَكُونَ نُقْطَةَ الثِّقَلِ الذِّي يَنْطَلِقُ مِنْهَا المعْنَى فَيُغَطِّي امْتِدَادَ السَّطْرِ، ثُمَّ تَتَوَاصَلُ الدَّلاَلَةُ اعْتِمَادًا عَلَى هَذِهِ الرَّكِيزَةِ التَّعْبِيرِيَّةِ "[4]. وَأَزْعُمُ أَنَّ هَذَا الحُكْمَ يَسْرِي عَلَى الشِّعْرِ القَدِيمِ أَيْضًا، أَوْ

ص30.

[1]- ينظر: العمدة، ابن رشيق، م.س، " باب التّكرار " ص92 وما بعدها.

[2]- ينظر: نفسه، هامش ص.ن.

[3]- يُنظر: المثل السّائر في أدب الشّاعر وَالنّاثر، ج3، ضياء الدّين بن الأثير، تح وَتع: أحمد الحُوفي وَبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّبع وَالنّشر، الفُجالة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص3 وما بعدها.

[4]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص421.

عَلَى الأَقَلِّ، كَيْمَا نُعَمِّمَ دُونَ ضَوَابِطَ، هُوَ يَنْطَبِقُ عَلَى شِعْرِ أَبِي العَتَاهيَّةِ فِي الزُّهْدِيَاتِ إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ، كَمَا سَنُبَيِّنُ بَعْدَ حِينٍ.

وَقَدْ زَعَمَ جِيل دُلُوز أَنَّ العَادَةَ تَنْتَزِعُ " مِنَ التَّكْرَارِ شَيْئًا جَدِيداً هُوَ الاخْتِلاَفُ "[1]، وَنَسأَلُ حِينَهَا: مَاذَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَنْتَزِعَ مِنْ هذَا التَّكْرَارِ المُطَّرِد فِي زُهْدِيَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ الذِّي تَشِي بِهِ أَوَّلُ نَظْرَةٍ فِي دَيْوَانِهِ؟ وَالحَقِيقَةُ أَنَّ كَثْرَةَ هَذَا التَّكْرَارِ واطِّرَادَهُ هُوَ أَوَّلُ عَقَبَةٍ تُوَاجِهُنَا فِي هَذَا البَحْثِ، إِذْ هُوَ يَجْعَلُنَا أَمَامَ كَمٍّ نَعْجِزُ عَنْ أَنْ نُحِيطَ بِهِ فِي عُجَالَةٍ، لِذَا سَنَلْجَأُ إِلَى اخْتِيَارَاتٍ مَنْهَجِيَّةٍ تَمْسَحُ جُزْءً دَالاًّ مِنَ الدِّيْوَانِ لِتُعْطِيَ نَتِيجَةً أَوْثَقَ مِنْ خِلاَلِ النَّمَاذِجِ المُخْتَلِفَةِ التِّي سَنَأْتِي عَلَيْهَا، دُونَمَا اعْتِبَارٍ لِتَسَلْسُلِ القَصَائِدِ وَمَوَاضِعِهَا، لأَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْهَا يَحْوِي أَنْوَاعَ تَكْرَارٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ (تَكْرَارُ: مُفْرَدَاتٍ"حُرُوفٌ، أَفْعَالٌ، أَسْمَاءٌ"، تَرَاكِيبٍ).

يُزَاوِجُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ بَيْنَ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ التَّكْرَارِ مِنْ نَصٍّ إِلَى آخَرَ، بَلْ وَكَثِيرًا مَا يُوَظِّفُ الصِيَّغَ مُجْتَمِعَةً فِي النَّصِّ الوَاحِدِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَعِيبُهُ، فَإِنَّ التَّرْكِيبَ القُرْآنِيَّ ذَاتَهُ " يُوَظِّفُ الخَاصِّيَّةَ الجَمَالِيَّةَ فِي تَكْرَارِ (الصِّيغَةِ أَوِ الكَلِمة نَفْسِهَا أَوْ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ) فَذَلِكَ مِنْ فَصَاحَةِ العَرَبِ، وَهُوَ يُحَقِّقُ فِي بِنْيَتِهِ أَثَرًا أُسْلُوبِيًّا يُثِيرُ انْتِبَاهَ المتَلَقِّي مِمَّا يَجْعَلُ التَّكْرَارَ مِنْ وَسَائِلِ الإِبَانَةِ عَنِ المَعْنى المَقْصُودِ، فَـ" لِكَيْ نَكْشِفَ عَنْ رُوحِ شَاعِرٍ مَا، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ عَنْ شَوَاغِلِهِ العُظْمَى، عَلَيْنَا أَنْ نَبْحَثَ فِي أَعْمَالِهِ عَن أَكْثَرِ الكَلِمَاتِ دَوَرَانًا فِي أَدَبِهِ، فَهَذِه الكَلِمَاتُ هِيَ التِّي تَبُوحُ بِهَوَاجِسِهِ المُلِحَّةِ "[2] عَلَى حَدِّ قَوْلِ بُودْلِيرِ.

يَصُبُّ شَاعِرُنَا التَّكْرَارَ فِي قَوَالِبَ مُخْتَلِفَةٍ، مِنْهَا إِعَادَةُ الحَرْفِ أَوِ الكَلِمَةِ أَوِ العِبَارَةِ، وَيتَطَوَّرُ الأَمْرُ أَحْيَانًا فَنَجِدُهُ يُعِيدُ البَيْتَ كَامِلاً، أَوِ الأَبْيَاتَ لاَ يُغَيِّرُ مِنْهَا إِلاَّ الكَلِمَةَ أَوِ الكَلِمَتَيْنِ! وَيُمْكِنُنَا أَنْ نُضِيفَ، أَنَّهُ قَدْ يَسْتَعِيضُ عَنْ تَكْرَارِ اللَّفْظِ بِجَلْبِ نَقِيضِهِ، إِذْ أَنَّ المَعْنَى الحَاضِرَ يَسْتَوْجِبُ حَتْمًا تَمَثُّلَ المَعْنَى الغَائِبَ فِي الذِّهْنِ، " مِمَّا يُعْطِي لِلتَّقَابُلِ طَبِيعَةً

[1]- الاختلاف والتّكرار، جيل دولوز، م.س، ص171.

[2]- نَقْلاً عن:التّحليل الألسنيّ للأدب، محمّد عَزَّام، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1994م، ص145.

تَكْرَارِيَّةً مُزْدَوِجَةً مِنْ خِلاَلِ حَرَكَةِ الذِّهْنِ بَيْنَ المتَنَاقِضَاتِ، وَبِرَغْمِ أَنَّ النِّظَامَ اللُّغَوِيَّ لاَ يَعْرِفُ الأَنْسِقَةَ الخَاصَّةَ وَإِنَّمَا يَخْضَعُ لِقَوَاعِدَ تَتَحَكَّمُ فِي عَلاَقَاتِهِ، بِرَغْمِ ذَلِكَ تَظَلُّ عَلاَقَةُ التَّضَادِّ نَسَقًا تَعْبِيرِيًّا يُقَدِّمُهُ المعْجَمُ لِلمُتَكَلِّمِ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ اسْتِحْضَارُ مَعْنىً مِنَ المعَانِي مُؤَدِّيًا بِالضَّرُورَةِ إِلَى اسْتِحْضَارِ مُقَابِلِهِ "[1]، إِذْ يَكْفِي أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرُ الخَيْرَ لِيَقْفِزَ الشَّرُ إِلَى الذِّهْنِ، أَوِ الجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا حَتَّى تَتَمَثَّلَ النَّارُ بِأَهْوَالِهَا أَمَامَنَا، وَقِسْ عَلَى هَذَا مَا لاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَغِيبَ عَنْ كُلِّ فِكْرٍ.

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص111.

2- تَكْرَارُ الحَرْفِ وَالكَلِمَةِ:

وَأَقُولُ فِي البَدْءِ، إِنَّمَا جَمَعْتُ بَيْنَ التَّكْرَارَيْنِ فِي الدِّرَاسَةِ وَحَقُّهُمَا أَنْ يُفْصَلاَ وَيُفَصَّلاَ لِيَمَّازَا عَنْ بَعْضِهِمَا بَعْضٍ، غَيْر أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلَى الإِطْلاَقِ النَّظَرُ فِي أَنْوَاعِ التَّكْرَارِ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ كُلاًّ عَلَى حِدَةٍ، فَنَتَنَاوَلُ مَثَلاً: تَكْرَارَ الحُرُوفِ، فَالكَلِمَاتِ فَالعِبَارَاتِ، وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى أَسْبَابَ مَنْهَجِيَّةٍ أَرَاهَا وَجِيهَةً، تَجْعَلُ الأَمْرَ مُتَعَذِّرًا دُونَمَا الوُقُوعِ فِي الإِعَادَةِ المُمِلَّةِ، وَالاسْتِشْهَادَاتِ المتَمَاثِلَةِ، وَلَعَلَّ أَهَمَّ سَبَبَيْنِ أَسُوقُهُمَا هُنَا:

أ- أَنْ لاَ قَصِيدَةَ أَوْ مَقْطُوعَةً تَخْلُو مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْرَارِ المَذْكُورَةِ بِشَكْلٍ يَمْتَنِعُ مَعَهُ دِرَاسَةُ أَحَدِهَا فِي مَعْزِلٍ عَنِ الآخَرِ.

ب- صُعُوبَةُ التَّمْثِيلِ لِلتَّكْرَارِ بِبَتْرِهِ عَنْ سِيَاقَاتِ النَّوْعِ/الأَنْوَاعِ التِّي يَتَضَمَّنُهَا نَصٌّ مِنْ نُصُوصِهِ، إِذْ يَجِبُ، وَالحَالُ هَذِهِ، النَّظَرُ فِي الظَّاهِرَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي كُلِّيَتِهَا.

لِهَذَا حَصَرْنَا هَذِهِ الأَنْوَاعِ، فَخَصَّصْنَا لَهَا عُنْوَانَيْنِ مُنْفَرِدَيْنِ عِوَضًا عَنْ ثَلاَثَةٍ لِغَايَةِ الدَّرْسِ لِتَمْكِينِ القَارِئِ مِنْ تَبَيُّنِ الأَشْكَالِ المُخْتَلِفَةِ التِّي يَتَّخِذُهَا التَّكْرَارُ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، ومَعْرِفَةِ قِيمَتِهَا الأُسْلُوبِيَّةِ، خُصُوصًا مِنْ جِهَةِ انْسِجَامِ النَّصِّ وَاتِّسَاقِهِ فِي مُسْتَوَيَاتِهِ المُتَعَدِّدةِ، وَبِالأَخَصِّ الصَّوْتِيَّةِ وَالدَّلاَلِيَّةِ مِنْهَا.

وَأَعُودُ لِلْقَوْلِ، بِأَنَّ مِنْ أَبْرَزِ طَوَابِعِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ عَبْرَ أَزْمِنَتِهِ المُتَعَاقِبَةِ، يَعْكِسُ، فِيمَا يَعْكِسُهُ مِنْ مَلاَمِحَ، ذَاكَ التَّوَاتُرَ فِي اسْتِخْدَامِ الحُرُوفِ عَلى تَنَوُّعِهَا، وَلَيْسَ هَذَا إِلاَّ تَأْكِيدًا لِخَاصِّيَةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي تَرَاكِيبِهَا وَدَلاَلاَتِهَا، فَـ" ظَاهِرَةُ تَكْرَارِ الحَرْفِ مَوْجُودَةٌ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وَلَهَا أَثَرُهَا الخَاصُّ فِي إِحْدَاثِ التَّأْثِيرَاتِ النَّفْسِيَّةِ لِلمُتَلَقِّي، فَهِيَ قَدْ تُمَثِّلُ الصَّوْتَ الأَخِيرَ فِي نَفَسِ الشَّاعِرِ أَوْ الصَّوْتَ الذِّي يُمْكِنُ أَنْ يَصُبَّ فِيهِ أَحَاسِيسَهُ وَمَشَاعِرَهُ عِنْدَ اخْتِيَارِ القَافِيَةِ مَثَلاً، أَوْ قَدْ يَرْتَبِطُ ذَلِكَ بِتَكْرَارِ حَرْفٍ دَاخِلَ القَصِيدَةِ الشِّعْرِيَّةِ يَكُونُ لَهُ نَغْمَتُهُ التِّي تَطْغَى عَلَى النَّصِّ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الذِّي لاَ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ اثْنَانِ، أَنَّ لاَ وُجُودَ لِشِعْرٍ

مُوسِيقِيٍّ دُونَ شَيْءٍ مِنَ الإِدْرَاكِ العَامِّ لمَعْنَاهُ أَوْ عَلَى الأَقَلِّ لِنَغْمَتِهِ الانْفِعَالِيَّةِ "، فَالتَّكْرَارُ أُسْلُوبٌ تَعْبِيرِيٌّ يُصَوِّرُ اضْطِرَابَ النَّفْسِ وَيَدُلُّ عَلَى تَصَاعُدِ انْفِعَالاَتِ الشَّاعِرِ[1].

تَبْدُو الحُرُوفُ فِي شِعْرِ الزُّهْدِ بَالِغَةَ الأَهَمِّيَّةِ، لَعَلَّ الشُّعَرَاءَ يَتَقَصَّدُونَ تَوْظِيفَهَا لِغَايَاتٍ مُرْتَبِطَةِ بِهَذَا الغَرَضِ، سَنَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى أَمْثِلَةٍ مِنْهَا، فِي غَيْرِ تَجَنٍّ، نَرَاهَا تَخْدُمُ البَحْثَ، وَلاَ تُكَرِّرُ النَّتَائِجَ. وَلَعَلَّ أَكْثَرَ مَا تَرَدَّدَ مِنْهَا (الوَاوُ) فِي أَوَّلِ كُلِّ شَطْرٍ، فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْهَا نَصٌّ، حَيْثُ نَجِدُهَا تَتَوَالَى مَعَ تَصَاعُدِ بِنَاءِ القَصِيدَةِ فَتَسِمُهَا جَمِيعًا فِي غَالِبِ الأَحْيَانِ إِنْ فِي بِدَايَةِ الصَّدْرِ أَوِ العَجُزِ، بَلْ إِنَّهَا قَدْ تَعُودُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِتُشَكِّلَ البِنْيَةَ الدَّاخِلِيَّةَ لِلبَيْتِ الوَاحِدِ فَتُسْهِمُ بِذَلِكَ فِي تَمَاسُكِهِ وَتَعَاضُدِهِ تَرْكِيبًا وَدَلاَلَةً، فَالمُبْدِعُ يَتَوَفَّرُ " عَلَى أَدَاةٍ فَعَّالَةٍ لِلحِفَاظِ عَلَى خِطَابِهِ فِي نَفْسِ الوَتِيرَةِ، وَتُسَجِّلُ أَدَاةُ الرَّبْطِ انْطِلاَقَ فِكْرَةٍ تَتَقَدَّمُ عَلَى شَكْلِ دَفَعَاتٍ، إِذْ يَجِبُ الاتِّفَاقُ عَلَى أَنَّ الشِّعْرَ يَتَخَطَّى المَنْطِقَ، وَأَنَّ تَمَفْصُلاَتِ الفِكْرَةِ تُوحِي بِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَكْشِفُ عَنْهُ، وَأَنَّ بِنْيَتَهُ العَمِيقَةَ تَسُدُّ مَسَدَّ البِنْيَةِ السَّطْحِيَّةِ المُحَقَّقَةِ بِوَاسِطَةِ اللُّغَةِ "[2]، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَقْدُورِنا القَفْزُ عَلَى اللُّغةِ، بِكُلِّ حَمُولَتِهَا، وَالمُرُورُ إِلَى خَبَايَا النَّصِّ لاَ يَكُونُ إِلَّا عَلَى هَذَا الجِسْرِ، الَّذِي هُوَ الكلِمَاتُ، وَالتِّي تُتِيحُ لَنَا بِبِنْيَاتِهَا المُخْتلِفَةِ الوُلُوجَ السَّلِسَ إِلَى أَعْمَاقِهَا دُونَ إِرْغَامٍ أَوْ تَقَوُّلٍ.

مَعَ ذَلِكَ يَجِبُ الانْتِبَاهُ إِلَى أَنَّ الرَّوَابِطَ عَلَى اخْتِلاَفِ أَنْوَاعِهَا لَيْسَتْ دَوْماً بِمِثْلِ هَذِهِ الإِيجَابِيَّةِ فِي تَشْكِيلِ بِنْيَةِ النَّصِّ وَمَدِّ الخِطَابِ بِوَسَائِلِ الاسْتِمْرَارِ وَالتَّمَاسُكِ، " فَالرَّوَابِطُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ عِبَارَةٌ عَنْ مُجَرَّدِ أَوْتَادٍ أَوْ أَدَوَاتٍ تَفْقِدُ قِيمَتَهَا بِسَبَبِ كَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ. إِنَّ تَوَاتُرَ بُرُوزِهَا وَاقِعٌ يَجِبُ أَخْذُهُ بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ "[3]، دُونَمَا وُقُوعٍ تَحْتَ سُلْطَانِ هَذَا الشَّغَفِ فِي تَوْظِيفِهَا وَالاسْتِعَانَةِ بِقُدْرَتِهَا فِي تَوْلِيفِ الكَلاَمِ الذِّي قَدْ يُؤَدِّي رِسَالَةً عَكْسِيَّة فِي قَصِيدةٍ

[1]- ظاهرة التّكرار في شعر أبي القاسم الشّابيّ- دراسة أسلوبيّة، زهير أحمد منصور، ص7. *https://www.ahlalhdeeth.com/vb/ attachment. php?attachmentid=63828&d=1234716573*

[2]- الشّعريّة العربيّة، جمال الدّين بن الشيخ، م.س، ص202.

[3]- نفسه، ص.ن.

مَا حِينَ يُبِينُ عَنْ هَلْهَلَةٍ وَتَفَكُّكٍ بِمُجَرَّدِ إِزَاحَةِ رَابِطٍ عَنْ جُمْلَةٍ فِيهَا، فَتَنْكَشِفُ بِذَلِكَ بَهْرَجَةُ المَعْنَى الذِّي يَتَكَرَّرُ عَقِيمًا، وَقَدْ قَصَدَ أَنْ يَكُونَ خِصْبًا.

يُوَظِّفُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ هَذِهِ الرَّوَابِطَ بِشَكْلٍ لاَفِتٍ، تَتَوَزَّعُ عَلَى قَصَائِدِهِ وَتَتَنَوَّعُ سَلْبًا حِينًا وَإِيجَابًا حِينًا آخَرَ، تَتَدَخَّلُ فِي صِنَاعَةِ ذَلِكَ أُمُورٌ كَثِيرةٌ، مِنْهَا طَبِيعَةُ المَوْضُوعِ وَغَرَضُهُ وَسِيَاقُهُ، وَحَالَةُ الشَّاعِرِ وَاسْتِعْدَادُهُ لِلانْسِجَامِ مَعَ وَفِي ذَلِكَ جَمِيعًا، وَنُشِيرُ فِي هَذَا المَقَامِ أَنَّ " اسْتِعْمَالَ أَدَوَاتِ الرَّبطِ مُنْتَشِرٌ جِدًّا، وَثَابِتٌ، إِلَى دَرَجَةٍ أَصْبَحَ مَعَهَا غَيْرَ لاَفِتٍ لِلنَّظَرِ. وَلإِبْرَازِ هَذَا الانْتِشَارِ يَنْبَغِي تَنَاوُلُ كُلِّ الإِنْتَاجِ الذِّي نَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ. إِنَّهُ ظَاهِرَةٌ عَامَّةٌ لاَ تَخْتَصُّ بِأَيِّ حِقْبَةٍ مِنْ تَارِيخِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ "[1]، وَإِذْ ذَاكَ لَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي الرَّوَابِطِ التِّي اسْتَعْمَلَهَا شَاعِرُنَا مُفِيدًا كَوْنَهُ يَسِيرُ عَلَى سِمْتِ الأَوَّلِينَ، وَالأَجْدَرُ بِنَا، وَالحَالُ هَذِهِ، أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الطَّرِيقَةِ التِّي وُظِّفَتْ بِهَا تِلْكَ الرَّوَابِطُ، وَالسِّمَاتُ الأُسْلُوبِيَّةُ التِّي تَوَلَّدَتْ عَنْ هَذَا التَّكْثِيفِ. يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّة [الوَافِرُ][2]:

وَكَمْ مِنْ عِبْرَةٍ أَصْبَحَتَ فِيهَا*** يَلِينُ لَهَا الحَدِيدُ وَأَنْتَ قَـــاسِ.
بِأَيِّ قُوًى تَظُنُّكَ لَيْسَ **تَبْلَى** *** وَقَدْ **بَلِيَتْ** عَلَى الزَّمَـنِ الرَّوَاسِي.
وَمَا **كُـلُّ** الظُّنُونِ تَكُونُ حَقًّا*** **وَكُلُّ** الصَّـوَابِ عَلَى القِيَـــاسِ.
وَكُلُّ مَـخْيَلَةٍ رُفِعَتْ لِعَيْـــنٍ *** لَهَا وَجْهَـانِ مِنْ طَمَـعٍ وَيَـاسِ.
وَفِي حُسْنِ **السَّرِيرَةِ** كُلُّ أُنْـسٍ*** **وَفِي** خُبْثِ **السَّـــرِيرَةِ** كُلُّ بَـــاسِ.
وَ لَمْ يَكُ مُضْمِرٌ حَسَدًا وَبَغْيًا*** لِيَنْـجُو مِنْهُمَـا رَأْسًـــا بِـرَاسِ.
وَمَا شَـيْءٌ بِأَخْـلَقَ أَنْ تَـرَاهُ *** قَلِيـلاً **مِنْ** أَخِـي ثِقَـةٍ مُـؤَاسِ.
وَمَا تَنْفَـكُّ مِنْ دُولٍ تَرَاهَـا *** تَنَقَّـلُ **مِـنْ أُنَـاسٍ** فِي **أُنَـــاسِ**.

[1]- نفسه، ص201.

[2]- القصيدة رقم:195، ص191، ومطلعها: ألا للموتِ كاسٌ أيُّ كاسِ *** وأنتَ لكأسه لابُدَّ حاسِ.

فَانْظُرْ كَيْفَ أَنَّ الشَّاعِرَ اتَّخَذَ مِنَ " الوَاوِ" وَسِيلَتَهُ الأَسَاسَ فِي هَذَا النَّصِّ لِيَرْبِطَ الأَبْيَاتَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَلِيَضْمَنَ تَسَلْسُلَ المَعْنَى، وَكَأَنِّي بِهِ يَكْتُبُ نَصًّا نَثْرِيًّا. وَهَذِهِ الصِّيغَةُ يَجْعَلُ مِنْهَا أَبُو العَتاهِيَّةِ أَدَاةً أُسْلُوبِيّةً تُوَفِّرُ عَلَيْهِ جُهْدًا فِي بِنَاءِ الدَّلالَةِ، وَقَدْ عَلِمْنَا فِيمَا مَا سَبَقَ مِنْ هَذَا المَبْحَثِ، أَنَّهُ يَسْعَىْ وَرَاءَ التَّسْهِيلِ فِي أَقْصَى حَالاَتِهِ لأَسْبَابَ عِدَّةٍ، مِنْهَا أَنَّ خِطَابَ الزُّهْدِ يَتَوَجَّهُ إِلَى طَبَقَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ مِنَ الجُمْهُورِ.

وَلْنَبْدَأْ بِقَصِيدَتِهِ التِّي يَقُولُ فِيهَا:

1/ قَطَّعْتُ مِنْكَ حَبـــَائِلَ الآمَـالِ *** وَحَطَطْتُ عَـن ظَهْر المَطِيِّ رِحَالِي.

وَيَئِسْتُ أَنْ أَبْقَى لِشَيْءٍ نِلْتُ مِـ*** ـمَّا فِيـكِ يَا دُنْيَـا وَأَنْ يَبْقَـى لِـي.

وَوَجَدْتُ بَرْدَ اليَأْسِ بَيْنَ جَوَانِحِي*** وَأَرَحْتُ مِـنْ حَلِّي وَ مِنْ تِرْحَالِي.

وَلَئِنْ طَمِعْتُ لَرُبَّ بَرْقَـةِ خُـلَّبٍ*** بَرَقَـتْ لِـذِي طَمَـعٍ وَلَمْـعَةِ آلِ.

مَا كَانَ أَشْأَمَ إِذْ رَجَـاؤُكَ قَاتِلِـي*** وَبَنَـاتُ وَعْـدِكِ يَعْتَلِجْنَ بِبَـالِي.

الآنَ يَا دُنْيَـا عَرَفْتُـكِ فَاذْهَبِي*** يَـا دارَ كُـــلِّ تَشَتُّـــتٍ وَزَوَالِ.

وَالآنَ صَارَ لِيَ الزَّمَانُ مُـؤَدِّبًا *** فَغَـــدَا علَـــيَّ وَرَاحَ بِالأَمْـــثَالِ.

وَالآنَ أَبْصَرْتُ السَّبِيلَ إِلَى الهُدَى*** وَتَفَرَّغَتْ هِمَمِي عَنِ الأَشْـــغَالِ.

9/ **وَلَقَدْ** أَقَامَ لِيَ المَشِيبُ نُعَاتَهُ *** يُفْضِـي إِلَـيَّ بِمَفـرَقٍ وقَـــذَالِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ المَوْتَ يَبْـرُقُ سَيْـفُهُ *** بِيَـدِ المَـنِيَّةِ حَيْثُ كُنْتُ حِيَالِي.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ عُرَى الحَيَاةِ تَحَمَّرَتْ *** **وَلَقَـدْ** تَصَـدَّى الوَارِثُـونَ لِمَالِـي.

وَلَقَـدْ رَأَيْتُ عَلَى الفَنَـاءِ أَدِلَّـةً *** فِيمَا تَنَـكَّرَ مِنْ تَصَرُّفِ حَالِـي.

13/ **وإِذَا** اعْتَبَرْتُ **رَأَيْتُ** حَطَّ حَوَادِثٍ *** يَجْـرِينَ بِـالأَرْزَاقِ وَالآجَـــالِ.

وإِذَا تَنَـاسَبَتِ الرِّجَـالُ فَمَا أَرَى *** نَسَـبًا يُقَـاسُ بِصَالِحِ الأَعْمَـالِ.

وإِذَا بَحَثْتُ عَنِ التَّقِـيِّ وَجَدْتُه *** رَجُـلاً يُصَـدِّقُ قَـوْلَهُ بِفِعَـالِ.

وإِذَا اتَّقَـى اللهَ امْـــرُؤٌ وَأَطَـاعَهُ *** فَتَـرَاهُ بَيْـنَ مَكَـارِمٍ وَمَعَـــالِ.

وَعَلَى التَّقِيِّ **إِذَا** تَرَسَّخَ فِي التُّقَى*** تَاجَانِ تَاجُ سَكِينَةٍ وَجَلاَلِ.

27/ للهِ **يَـــومٌ** تَقْشَـــعِرُّ جُلُـــودُهمْ *** وَتَشِيبُ مِنهُ ذَوَائِـبُ الأَطْفَـــالِ.

يَوْمُ النَّـــوازِلِ وَالـــزَّلازِلِ وَالحَـوَا *** مِـلِ فِيهِ إِذْ يَقْذِفْـنَ بْالأَحْمَالِ.

يَوْمُ التَّغَـــابُنِ وَالتَّبَـــايُنِ وَالتَّـــوَا *** زُنِ وَالأُمُـــورِ عَظِيـمَةِ الأَهْـوَالِ.

يَوْمٌ يُنَـــادَى فِيـــهِ كُـلُّ مُضَـــلِّلٍ *** بِمُقَطَّعَـاتِ النَّـــارِ والأَغْـلاَلِ.

43/ **وَإِذَا** امْرُؤٌ لَبِسَ الشُّكُـــوكَ بِعَزْمِـــهِ *** سَلَكَ الطَّرِيقَ عَلَى قَعُـودِ ضَلاَلِ.

وَإِذَا دَعَتْ خُدَعُ الحَوَادِثِ دَعْوَةً *** شَهِدَتْ لَهُـنَّ مَصَـارِعُ الأَبْطَـالِ.

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذْلِ وَجْـهِكَ سَائِلاً *** فَابْذُلْـــهُ لِلمُتَـكَرِّمِ المِفْضَـــالِ.

وَإِذَا خَشِيتَ تَعَـــذُّرًا فِي بَلْـدَةٍ *** فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِـلِ التَّرْحـالِ.[1]

فَهُوَ يُوَظِّفُ فِي الأَبْيَاتِ الخَمْسِ الأُولَى صِيَغَ أَفْعَالٍ مَاضِيَةٍ يَرْبِطُ ثَلاَثًا مِنْهَا بِالوَاوِ، لِيَخْرُجَ بِنَا فَجْأَةً إِلَى صِيغَةٍ أُخْرَى تُحِيلُنَا إِلَى وَاقِعِهِ الجَدِيدِ "الآن" يُكَرِّرُهَا ثَلاَثًا (الأَبْيَاتُ 6،7،8)، ثُمَّ يَكْسِرُ هَذَا التَّوَالِي بِتَكْرَارٍ آخَرَ مُسْتَعْمِلاً هَذِهِ المَرَّةَ " الوَاوَ + لَقَدْ " (الأَبْيَاتُ 9 إِلَى 12)، وَ" الوَاوَ + إِذَا " (الأَبْيَاتُ 13 إِلَى 16)، وَيَأْتِي فِي البَيْتِ 27 لِيَبْدَأَ تَكْرَارًا يَقُومُ عَلَى كَلِمَةِ " يَوْمَ " أَرْبَعَ مَرَّاتٍ (الأَبْيَاتُ 27 إِلَى30)، ثُمَّ مَا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ لِصِيغَةِ " الوَاوِ + إِذَا " (الأَبْيَاتُ 42 إِلَى 46).

نَخْلُصُ مِنَ الإِحْصَاءِ البَسِيطِ هُنَا إِلَى أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ فِي نَصِّهِ هَذَا يَسْتَعِينُ بِخَاصِيَّةِ التَّكْرَارِ لِيُحَقِّقَ جُمْلَةَ أَهْدَافٍ، لَعَلَّ أَهَمَّهَا:

* تَمَاسُكُ النَّصِّ شَكْلاً وَمَضْمُوناً، إِذْ " يُمْكِنُ أَنْ نَلْحَظَ الأَثَرَ التَّكْرَارِيَّ عَلَى نَحْوٍ آخَرَ، حَيْثُ تَأْخُذُ اللَّفْظَةُ المكَرَّرَةُ أَبْعَادًا مَكَانِيَّةً تَعْمَلُ عَلَى تَنْسِيقِ الدَّلاَلَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ هُنَاكَ اتِّفَاقٌ بَيْنَ حَرَكَةِ الذِّهْنِ وَحَرَكَةِ الصِّيَاغَةِ، فَيَكُونُ النَّاتِجُ بَعِيدَ الأَثَرِ فِي أَدَبِيَّةِ الصِّيَاغَةِ

[1]- قصيدة رقم 295 [من الكامل]، صص280- 284.

أَوْ شَاعِرِيَّتِهَا "[1].

* شَدُّ القَارِئِ بِهَذَا التَّوَالِي إِلَى نَصِّهِ بِحَيْثُ يَجْعَلُهُ يَطْلُبُ نِهَايَةَ القَوْلِ وَيَسْتَحِثُّ مَقْصَدَهُ، فَـ" إِنَّ غَايَةَ التَّكْرَارِ الأَسَاسِيَّةَ – عُمُومًا– هِيَ تَمْتِينُ التَّوَاصُلِ وَالعَلاَقَةِ بَيْنَ النَّصِّ وَالمتَلَقِّي، هَذَا التَّوَاصُلُ هُوَ غَايَةُ الفُنُونِ جَمِيعًا، لِأَنَّهُ يُعِيدُ خَلْقَ العَمَلِ الفَنِّيِّ وَيُخَلِّدُهُ، وَهَذَا لَا يَتَأَتَّى إِلَّا بِانْسِجَامِ بُنَى النَّصِّ النَّحْوِيَّةِ وَالموسِيقِيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ وَتَفَاعُلِ وَحَدَاتِهِ المفْصَلِيَّةِ المشَكِّلَةِ لَهُ "[2].

* خَلْقُ مَسَاحَةٍ أَوْسَعَ لِلخِطَابِ المتَقَارِبِ–المتَشَابِهِ، " بِهَذِهِ الآلِيَّةِ يَتَشَكَّلُ النَّصُّ، حَيْثُ تَتَنَامَى الأَفْكَارُ مِنْ خِلاَلِ تَرَابُطِ مَعَانِيهَا عَنْ طَرِيقِ التَّكْرَارِ الذِّي تُؤَدِّي فِيهِ المفْرَدَةُ اللُّغَوِيَّةُ دَلاَلَتَهَا دَاخِلَ البَيْتِ، ثُمَّ تَؤُولُ هَذِهِ المفْرَدَاتُ دَاخِلَ النَّصِّ بِأَسْرِهِ لِتَتَحَوَّلَ إِلَى عَلاَمَةٍ جَدِيدَةٍ لِتُصْبِحَ مَدْلُولاً وَدَالاً فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ"[3].

* وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ يُمْكِنُ أَنْ نَجْعَلَ التَّكْرَارَ مُنْطَلَقًا لِإِعَادَةِ قِرَاءَةِ بَعْضِ النُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي ارْتَبَطَ فِيهَا المعْنَى بِالتَّكْرَارِ عَلَى أَسَاسِ المقَاطِعِ المكَرَّرَةِ وَعَلاَقَةِ ذَلِكَ بِالمعْنَى العَامِّ لِلقَصِيدَةِ، كَوْنَهُ " يَمْتَلِكُ فِي ذَاتِهِ كُلَّ مَصَادِرِ العَلاَمَةِ وَالرَّمْزِ وَالغَيْرِيَّةِ "[4].

يُمْكِنُنَا تَتَبُّعُ هَذَا فِي نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِكُلِّ يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ إِنْ نَحْنُ تَغَاضَيْنَا عَنِ التَّعْقِيدَاتِ المنْهَجِيَّةِ المرْتَبِطَةِ بِبِنْيَةِ البَيْتِ أَوِ القَصِيدَةِ كُلِّهَا، إِذْ كَثِيرًا مَا يَمْتَنِعِ التَّمْثِيلُ لِظَاهِرَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ عَلَى حِدَةٍ كَوْنَهَا مُرْتَبِطَةً "جِذْرِيًّا" بِأُخْتِهَا تَمَاثُلاً وَتَشَاكُلاً، فَانْظُرْ مَثَلاً إِلَى الأَبْيَاتِ مِنْ 6 إِلَى14 مِنَ القَصِيدَةِ: 30 [الطَّوِيلُ][5]، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ بَعْضَ الذِّي قُلْتُ:

[1]– بناء الأسلوب في شعر الحداثة، محمد عبد المطلب، م.س، ص115.

[2]– ظواهر أسلوبية في شعر بدويّ الجبل– دراسة، عِصام شرتح، م.س، ص44.

[3]– فاعلية التكرار في بنية الخطاب الشعري للنقائض، عبد الفتاح يوسف، م.س، ص40.

[4]– الاختلاف والتكرار، جيل دولوز، م.س، ص86.

[5]– الدّيوان، صص35،36. ومطلعُ القصِيدة: طَلَبْتُكِ يَا دنْيَا فأَعْذَرتُ فِي الطَّلَبِ*** فَمَا نِلْتُ إِلاَّ الهَمَّ وَالغَمَّ وَالنَّصَبْ.

وَإِنِّي لَمِمَّـنْ خَيَّبَ اللهُ سَعْيَـــهُ *** **إِذَا** كُنْتُ أَرْعَى لَقْحَـــةً مُرَّةَ الحَلَبْ.
أَرَى لَكَ أَنْ لاَ تَسْتَطِيـــبَ لِخِلَّةٍ *** كَأَنَّكَ فِيهَا قَدْ أَمِنْتَ مِنَ العَـــطَبْ.
أَلَمْ تَـرَهَا دَارَ افْتِـــرَاقٍ وَفَجْـعَةٍ *** **إِذَا ذَهَبَ** الإِنْسَانُ فِيـهَا فَقَدْ **ذَهَبْ**.
أُقَلِّبُ طَرْفِـــي **مَرَّةً** بَعْـــدَ **مَرَّةٍ** *** لِأَعْلَمَ مَا فِي **النَّفْسِ وَالقَلْبُ يَنْقَلِبْ**.
وَسَرْبَلْتُ **أَخْلاَقِي قُنُـــوعًا** وَعِـفَّةً *** فَعِنْدِي **بِأَخْلاَقِـــي** كُنُوزٌ مِنَ الذَّهَبْ.
فَلَمْ أَرَ خُلْـقًا **كَالقُنُـــوعِ** لأَهْـلِهِ *** **وَ**أَنْ يُجْمِلَ الإِنْسَانُ مَا عَاشَ فِي الطَّلَبْ.
وَلَمْ أَرَ فَضْـــلاً **تَـــمَّ** إِلاَّ بِشِيـــمَةٍ *** **وَلَمْ أَرَ عَقْـلاً تَـــــمَّ** إِلاَّ عَلَـى أَدَبْ.
وَلَمْ أَرَ فِي **الأَعْدَاء** حِيـنَ خَبَرْتُـــهُمْ *** **عَدُوًّا لِعَقْـلِ** المَرْءِ **أَعْدَى** مِنَ الغَضَبْ.
وَلَمْ أَرَ بَيْنَ اليُسْرِ وَالعُسْـرِ خُلْـطَةً *** **وَلَمْ أَرَ** بَيْنَ الحَـيِّ وَالمَـيْتِ مِنْ سَبَـبْ.

فَهُوَ يُكَرِّرُ الحُرُوفَ كَـ: (الوَاوِ وإِذَا)، وَالمُفرَدَاتِ كَـ: (قَنُوع، إِنْسَان، ذَهَبْ)، وَالصِّيَغ كَـ: (وَلَمْ أَرَ) فِي تَوَالٍ وَتَقَابُلٍ يَعْضُدُ وَيُؤَكِّدُ مَا فِي الذِّهْنِ مِنْ فِكْرَةٍ عنِ الصِّرَاعِ بَيْنَ: اليُسْرِ وَالعُسْرِ، الحَيَاةِ وَالمَوْتِ...

وَإِلَيْكَ مِثَالاً آخَرَ مِمَّا دَرَجَ عَلَيْهِ شَاعِرُنَا فِي دَيْوَانِهِ، يَقُولُ فِي الأَبْيَاتِ 8 -21 مِنَ القَصِيدَةُ رَقَمِ: 62 [مِنَ الطَّوِيلُ][1]:

إِذَا مَا غُبِنْتَ الفَضْلَ فِي الدِّينِ **لَمْ تُبْلِ*** **وَإِنْ كَانَ** فِي الدُّنْيَا قَطَبْتَ **وَبَالِيتَا**.
وَ إِنْ كَـانَ شَـيْءٌ **تَشْتَـهِيهِ** رَأَيْـــتَهُ *** **وَ إِنْ كَانَ** مَا لاَ **تَشْتَـهِيهِ** تَعَامَيْتَا.
لَهِـــجْتَ بِأَنْـــوَاعِ الأَبَـــاطِيلِ غِـــرَّةً *** وَأَدْنَيْتَ أَقْـوَامًا عَـلَيْهَا **وَ**أَقْـصَيْتَا.
وَجَمَّعْتَ مَا لاَ **يَنْبَـغِي** لَكَ جَـمْعُهُ *** **وَقَصَّـرْتَ** عَمَّـا **يَنْبَـغِي وَتَوَانَـــيْنَا**.
وَصَغَّرْتَ فِي الدُّنْيَا مَسَـاكِنَ أَهْـلِهَا *** فَبَـاهَيْتَ فِيـهَا بِالبِنَاءِ **وَعَـــالَيْتَا**.
وَ أَلْقَيْتَ جِلْبَابَ **الحَيَا** عَنْـكَ ضِلَّةً *** **فَأَصْبَحْتَ مُخْتَالاً فَخُورًا وَأَمْسَـيْتَا**.

[1]- الديوان، ص ص64-66. ومَطلَعُهَا: جَمَعْتَ فِي الدُّنْيَا وَحُزْتَ وَمُنِّيَتَا *** وَمَا لَكَ إِلاَّ مَا وَهَبْتَ وَأَمْضَيْتَا.

وَجَاهَرْتَ حَتَّى لَمْ تَرَعْ عَنْ مُحَرَّمٍ *** وَ لَمْ تَقْتَصِدْ فِيمَا **أَخَذْتَ** وَ**أَعْطَيْتَا**.
وَنَافَسْتَ فِي الأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا *** **وَأَسْرَفْتَ** فِي إِنْفَاقَهَا وَ**تَعَدَّيْتَا**.
أَيَا صَاحِبَ الأَبْيَاتِ قَدْ نُجِّدَتْ لَهُ *** سَتُبْدَلُ مِنْهَا عَاجِلاً غَيْرَهَا بَيْتَا.
لَكَ الحَمْدُ يَا ذَا المَنِّ شُكْرًا **خَلَقْتَنَا***** **فَسَوَّيْتَنَا** فِيمَنْ **خَلَقْتَ** وَ**سَوَّيْتَا**.
وَكَمْ مِنْ بَلاَيَا نَازِلاَتٍ بِغَيْرِنَا *** **فَسَلَّمْتَنَا يَا رَبِّ** مِنْهَا وَ**عَافَيْتَا**.
أَيَا رَبِّ مِنَّا **الضَّعْفُ** إِنْ لَمْ **تُقَوِّنَا** *** عَلَى شُكْرِ مَا أَبْلَيْتَ مِنْكَ وَأَوْلَيْتَا.
أَيَا رَبِّ نَحْنُ الفَائِزُونَ غَدًا لَئِنْ *** **تَوَلَّيْتَنَا يَا رَبِّ** فِيمَنْ **تَوَلَّيْتَا**.
أَيَا مَنْ هُوَ المَعْرُوفُ مِنْ **غَيْرِ رُؤْيَةٍ** *** تَبَارَكْتَ **يَا** مَنْ لاَ يُرَى وَتَعَالَيْتَا.

كَمَا يُؤَدِّي تَكْرَارُ الحَرْفِ أَحْيَاناً إِلَى عَدَدٍ مِن الدَّلاَلاَتِ وَالمعَانِي مِنْهَا " تَوْسِعَةُ حَيِّزِ الشَّيْءِ المقْتَرِنِ بِهِ ضِمْنَ السِّيَاقِ الذِّي وَرَدَ فِيهِ، وَهَذَا يُفْضِي إِلى تَوْسِعَةٍ فِي حَيِّزِ الحَدَثِ الكُلِّيِّ لِلقَصِيدَةِ وَبِشَكْلٍ تَدَرُّجِيٍّ تَزْدَادُ التَّوْسِعَةُ فِيهِ اطِّرَادًا بِزِيَادَةِ التَّكْرَارِ"[1]، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يَحْتَالُ بِهِ عَنْ عَجْزٍ يَجِدُهُ فِي رَبْطِ المعَانِي التِّي تَتَكَثَّفُ فِي الذِّهْنِ وَتَزْدَحِمُ فَلاَ يَرَى طَرِيقَةً لِلتَّمَلُّصِ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَ هَذِهِ الوَسِيلَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ التِّي تُتِيحُ لَهُ اللَّعِبَ عَلَى المُتَشَابِهِ وَالمُتناقِضِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءَ: جَمَّعْتَ/قَصَّرْتَ، لاَ يَنْبَغِي/يَنْبَغِي، أَخَذْتَ/أَعْطَيْتَ، أَصْبَحْتَ /أَمْسَيْتَ... وَكَذَا تَكْرَارُ حَرْفِ العَطْفِ: الوَاوُ، وَحَرْفِ النِّدَاءِ: أَيَا، وَاللَّذَيْنِ وَظَّفهُمَا لِزِيَادَةِ التَّرَابُطِ وَالتَّنَاسُقِ بَيْنَ الأَبْيَاتِ.

وَهَكَذَا يَظَلُّ لِتَكْرَارِ الحَرْفِ دَوْرٌ تَعْبِيرِيٌّ وَإِيحَائِيٌّ، إِضَافَةً إِلَى دَوْرِهِ فِي خَلْقِ بِنْيَةِ النَّصِّ وَتَلاَحُمِهَا، كَمَا يُسْهِمُ التَّنَوُّعُ الصَّوْتِيُّ بِإِخْرَاجِ القَوْلِ عَنْ نَمَطِيَّةِ الوَزْنِ المَأْلُوفِ لِيُحْدِثَ فِيهِ إِيقَاعًا خَاصًّا يُؤَكِّدُهُ التَّكْرَارُ، وَيَشُدَّ انْتِبَاهَ المتَلَقِّي إِلَيْهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخَصِّبَ شِعْرِيَّةَ النَّصِّ، وَيَفْتَحَ أَمَامَهُ آفَاقاً جَدِيدَةً لِلتَّلَقِّي وَالاسْتِقْبَالِ[2].

[1]- التّكرار في شعر محمود درويش، فهد ناصر عاشور، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 54.
[2]- شعر أمل دنقل – دراسة أسلوبيّة، فتحي محمود يوسف أبو مراد، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، ط1، 2004م، ص116.

وَهَاهُو شَاعِرُنا يَسْتَنِدُ إِلَى التِّقْنِيَةِ ذَاتِهَا فَيُقِيمُ عَلَيْهَا قَصِيدَتَهُ رَقْم:266 [الطَّوِيلُ][1] وَالتِّي أَخْتَارُ مِنْهَا الأَبْيَاتَ مِنْ 1 إِلى 9، فَهِيَ تُؤَدِّي الغَرَضَ فِي تَبَيُّنِ طَرِيقَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي بِنَاءِ أُسْلُوبِ زُهْدِيَّاتِهِ، يَقُولُ:

أَلاَ رُبَّ **أَحْزَانٍ** شَجَانِي طُرُوقُهَا *** فَسَكَّنَتْ **نَفْسِي** حِينَ هَمَّ خُفُوقُهَا.
وَلَنْ يَسْتَتِمَّ الصَّبْرَ مَنْ لاَ يَرُبُّهُ *** **وَلَنْ** يَعْرِفَ **الأَحْزَانَ** مَنْ لاَ يَذُوقُهَا.
وَلِلنَّاسِ خَوْضٌ فِي الكَلاَمِ وَ أَلْسُنٌ *** **وَأَقْرَبُهَا** مِنْ كُلِّ خَيْرٍ صَدُوقُهَا.
وَمَا **صَحَّ** إِلاَّ شَاهِدٌ **صَحَّ** غَيْبُهُ *** **وَمَا** تُنْبِتُ الأَغْصَانَ إِلاَّ عُرُوقُهَا.
أَرَانِي بِأَعْبَاثِ المَلاَعِبِ لاَهِيًا *** **مَا** بِاللَّهْوِ لَوْلاَ جَهْلُ **نَفْسِي** وَمُوقُهَا.
أُرَقِّعُ مِنْ **دُنْيَايَ دُنْيَا دَنِيَّةً** *** وَدَارًا كَثِيرًا وَهْيُهَا وَخَرُوقُهَا.
فَإِنْ كَانَ لِي **سَمْعٌ** فَقَدْ **أَسْمَعُ** النَّدَا *** يُنَادِي غُرُوبُ الشَّمْسِ لِي وَشُرُوقُهَا.
وَتَجْرَةِ صِدْقٍ لِلمَعَادِ أَضَعْتُهَا *** وَقَدْ أَمْكَنَتْنِي مِنْ يَدِ الرِّبْحِ سُوقُهَا.
وَلَمْ تَخْلُ **نَفْسِي** مِنْ نَهَارٍ يَقُودُهَا *** إِلَى الغَايَةِ القُصْوَى وَلَيْلٍ يَسُوقُهَا.

فَإِضَافَةً إِلَى تَكْرَارِ حَرْفِ العَطْفِ الوَاوِ الذِّي يَطَّرِدُ فِي جُلِّ قَصَائِدِهِ بِنِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ، نَلْحَظُ الذِّي يَشْتَغِلُ عَلَى الكَلِمَةِ المُعادَةِ كَ: أَحْزَان، نَفْسِي، صَحَّ، دُنْيَا،....أَوِ الكَلِمَةِ وَضِدِّهَا كَ: سَكَنَت/خُفُوق، شَاهِد/غَيْب، غُرُوب/شُرُوق...

وَنَأْتِي إِلَى القَصِيدَةِ رَقَمِ:325[الطَّوِيلُ][2] وَفِيهَا تَتَكَرَّرُ كَلِمَتَا: حَيَاة/مَوْت أَوْ إِحْدَى مُرَادِفَاتِهِمَا: يَقِين- دُنْيَا- عَيْش- الدَّهْر- رَحِيل... بِحَيْثُ يَعْقِدُ الشَّاعِرُ بَيْنَهُمَا شَكْلاً مِنْ أَشْكَالِ المُوَازَنَةِ التِّي تَرُومُ تَقْرِيبَ الرِّسَالَةِ إِلَى المُخَاطَبِ عَلَّهُ يُدْرِكُ عَنْ طَرِيقِهَا أَصْلَحَ الأَحْوَالِ وَأَسْلَمَهَا لِيَسْلَمَ فِي أُخْرَاهُ، فَاسْمَعْ إِلَيْهِ يَقُولُ:

[1]- الدّيوان، صص256،255. وَمَطْلَعُهَا: أَلاَ رُبَّ أَحْزَانٍ شَجَانِي طُرُوقُهَا *** فَسَكَّنْتُ نَفْسِي حِينَ هَمَّ خُفُوقُهَا.
[2]- الدّيوان، صص316-318.

أَلاَ هَلْ إِلَى طُولِ **الحَيَاةِ** سَبِيـــلُ *** وَأَنَّى **وَهَذَا المَوْتُ** لَيْسَ يُقِيـلُ.
وَإِنِّي وَ إِنْ أَصْبَحْتُ **بِالمَوْتِ** مُوقِنًا *** فَلِـي أَمَـلٌ دُونَ **يَقِيـــنٍ** طَوِيـلُ.
وَلِلدَّهْـرِ أَلْـــوَانٌ **تَـرُوحُ وَتَغْتَـــدِي** *** **وَ** إِنَّ نُفُوسًـــا بَيْنَـهُنَّ تَسِيـلُ.
وَمَنْـزِلِ حَـقٍّ لَا مُعَـــرَّجَ دُونَـــهُ *** لِكُلِّ **امْرِئٍ** يَوْمًـــا إِلَيْهِ رَحِيلُ.
أَرَى **عِـلَلَ الدُّنْيَـــا** عَلَـيَّ كَثِيـــرَةً *** وَصَاحِبُهَا حَتَّى **المَمَـاتِ عَلِيـلُ**.
إِذَا انْقَطَـعَتْ عَنِّي مِنَ **العَيْشِ مُـدَّتِي*** فَإِنَّ غَنَـــاءَ البَـاكِيَاتِ قَلِيـلُ.
سَيُـعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي **وَتُنْـسَى** مَوَدَّتِي *** وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلخَلِيلِ **خَلِيـلُ**.
وَفِي الحَـقِّ أَحْيَـانًا لَعَمْـرِي مَـرَارَةٌ *** **وَ ثِقَلٌ** عَلَى بَعْضِ الرِّجَالِ **ثَقِيلُ**.
وَلَـمْ **أَرَ** إِنْسَـانًا **يَـرَى** عَيْـبَ نَفْسِـــهِ *** **وَإِنْ** كَانَ لاَ يَخْفَـى عَلَيْهِ جَمِيلُ.
وَمَنْ ذَا الذِّي **يَنْجُو** مِنَ **النَّاسِ سَالِمًا** *** **وَلِلنَّاسِ** قَـالٌ بِالظُّنُـونِ وَ قِـيلُ.
أَجَـلَّكَ قَـوْمٌ حِيـنَ صِـرْتَ إِلَى **الغِنَـى*** وَكُلُّ **غَنِـيٍّ** فِي العُيُـونِ جَـلِيلُ.
وَلَيْـسَ **الغِنَـى** إِلاَّ **غِنَـى** زَيَّـنَ الفَتَـى*** **عَشِيَّـةَ** يَقْـرِي أَوْ **غَـدَاةَ** يُنِيـلُ.
وَلَـمْ **يَفْتَـقِرْ** يَوْمًـا وَإِنْ كَـانَ **مُعْدَمًـــا** *** **جَوَادٌ وَلَمْ يَسْتَغْـنِ** قَـطُّ **بَخِـيلُ**.
إِذَا **مَـالَتِ الدُّنْيَـــا** إِلَى **المَرْءِ** رَغَّبَـتْ *** إِلَيْهِ **وَمَالَ النَّـاسُ** حَيْثُ **يَمِـيلُ**.

وَفِي القَصِيدَةِ رَقَمِ:372[الطَّوِيلُ][1] نَجِدُهُ، وَفِي أَرْبَعةِ أَبْيَاتٍ مِنْهَا فَقَطْ (مِنْ 4 إِلَى 8) يُعِيدُ حَرْفَ العَطْفِ " الوَاوَ" وَ" إِنْ" مُقْتَرِنَيْنِ ثَمَانِي مَرَّاتٍ:

4/ فَيَا رَبِّ إِنَّ النَّـــاسَ لاَ يُنْصِفُونَنِي*** وَكَيْفَ **وَ** لَوْ أَنْصَفْتُهُمْ ظَلَمُـونِي.
وَإِنْ كَانَ لِي شَيْءٌ تَصَدَّوْا لأَخْذِهِ *** **وَإِنْ** جِئْتُ أَبْغِي شَيْئَهُمْ مَنَعُونِي.
وَإِنْ نَالَهُمْ رِفْدِي فَلاَ شُكْرَ عِنْدَهُمْ *** **وَإِنْ** أَنَا لَمْ أَبْذُلْ لَهُمْ شَتَمُـــونِي.
وَإِنْ وَجَدُوا عِنْدِي رَخَـــاءً تَقَرَّبُوا *** **وَإِنْ** نَزَلَتْ بِي شِدَّةٌ خَذَلُـــونِي.

[1]- الدّيوان، صص364،365. وَمَطلعُهَا:لَقَدْ طَالَ يَا دُنْيَا إِلَيْكِ رُكُونِي *** وَدَامَ لُزُومِي ضِلَّتِي وَفُتُونِي.

8/ **وَإِنْ** طَرَقَتْنِي نَكْبَـــةٌ فَكِهُوا بِهَـــا *** **وَإِنْ** صَحِبَتْنِي نِعْمَةٌ حَسَـدُونِي.

تَفْرِضُ طَبِيعةُ خِطَابِ الزُّهْدِ، فِيمَا يَبْدُو، أَشْكَالاً أُخْرَى مِن هَذَا التَّكْرَار الابْتِدَائِيِّ، وَمِنْهَا الشَّرْطُ، حَيْثُ أَنَّ الحَدِيثَ عَنِ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ، الخَلاَصِ وَالحِسَابِ، الدَّهْرِ وَالصَّبْرِ، ... وَغَيْرِهَا مِنَ المَوْضُوعَاتِ يَسْتَجْلِبُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الأَسَالِيبِ.

هَكَذَا نَجِدُ أَبَا العَتَاهِيَّةِ فِي القَصِيدَةِ رَقَـمِ:299[1]، عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ، يَلْجَأُ إِلى هَذهِ الصِّيغَةِ فِي ثَلاَثَةِ مَوَاضِعَ مُتَفَرِّقَةٍ بِانْتِظَامٍ فِي نَصٍّ يَمْتَدُّ إِلَى47 بَيْتًا، حَيْثُ كَانَتِ البِدَايَةُ مِنَ البَيْتِ17 حَتَّى21(خَمْسَ مَرَّاتٍ)، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الشَّرْطَ فِي البَيْتِ 29 إلى35 (سَبْعَ مَرَّاتٍ)، وَانْتَهَى فِي البَيْتِ38 بِتَوْظِيفِهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، لِيَكُونَ مَجْمُوعُ ذَلِكَ13 مَرَّةً كُلُّهَا " **إِذَا** " وَهِيَ " أَدَاةٌ ذَاتُ فَائِدَةٍ بِنَائِيَّةٍ، تَقُومُ بِحِفْظِ بِنَائِيَّةِ الأَبْيَاتِ، وَتَشْكِيلِ رَابِطٍ يَعْمَلُ عَلَى تَلاَحُمِهَا وَتَوَاشُجِهَا، كَمَا أَنَّهَا تُقَدِّمُ نَصَائِحَ، تَعْكِسُ تَجْرِبَةَ الشَّاعِرِ العَامَّةَ فِي الحَيَاةِ "[2]، فَيَرْبِطُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِمَا اعْتَرَاهُ مِنْ صَبْوةِ الشَّبَابِ وَانْطِلاَقَتِهِ، مُمْتَزِجًا بِنَصَائِحِهِ إِلَى المُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا وَفِتْنِهَا، فِي سَعْيٍ لإِقْنَاعِهِمْ بِحِكْمَةِ المُجَرِّبِ العَارِفِ، فَيَقُولُ:

17/ **وَإِذَا ابْنُ آدَمَ** نَـــالَ رِفْعَةَ مَنْـــزِلٍ *** قُرِنَ **ابْنُ آدَمَ** عِنْدَهَا بِسِفَـــالِ.
وَإِذَا الفَتَى حَجَبَ **الهَوَى** عَنْ عَقْلِهِ ***رَشُدَ **الفَتَى** وَصَفَا مِنَ الأَوْجَالِ.
وَإِذَا الفَتَى خَبَطَ الأُمُورَ تَعَسُّفًـــا *** حَمِدَ الحَرَامَ وَ ذَمَّ كُلَّ حَـــلاَلِ.
وَإِذَا الفَتَى لَزِمَ التَّلَـوُّنَ لَـمْ تَجِـــدْ *** أَبَـدًا فِـي **الوَصْلِ** طَـعْمَ **وِصَـالِ**.
21/ **وَإِذَا** تَوَازَنَـتِ الأُمُـــورُ لِفَضْـلِهَا *** فَالدِّينُ مِنْهَا أَرْجَـحُ المِثْقَـــالِ.
29/ **وَإِذَا عَقَلْتَ هَـــوَاكَ** عَنْ هَفَوَاتِـــهِ *** أَطْلَقْتَهُ مِنَ شَـيْنِ كُلِّ **عِقَـــالِ**.
وَإِذَا سَكَنْتَ إِلَى **الهُدَى** وَأَطَعْتَـهُ *** أُلْبِسْتَ حُـلَّةَ صَالِـحِ الأَعْمَـالِ.

[1]- أَثْبَتناهَا كَامِلَةً فِي الصَّفحة57 وما بعدها مِنْ هَذَا المَبْحَثِ، فتُراجعُ هُناكَ.

[2]- التّكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، ربابعة موسى، مؤتة للبحوث والدراسات، ع:1، مج:5, 1990م، ص31.

وَإِذَا طَمِعْتَ لَبِسْتَ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ *** إِنَّ **المَطَامِعَ** مَعْدِنُ الإِذْلاَلِ.
وَإِذَا سَحَبْتَ إِلَى **الهَوَى أَذْيَالَهُ** *** كَسَبَتْ يَدَاكَ مَوَدَّةَ الجُهَّالِ.
وَإِذَا حَلَلْتَ عَنِ **اللِّسَانِ عِقَالَهُ** *** أَلْقَاكَ فِي قِيلٍ عَنْكَ وَقَالِ.
وَإِذَا ظَمِئْتَ إِلَى التُّقَى أُسْقِيتَهُ *** مِنْ مَشْرَبٍ عَذْبِ المَذَاقِ زُلاَلِ.
35/ **وَإِذَا** ابْتُلِيتَ بِبَذْلِ **وَجْهِكَ** سَائِلاً *** فَابِذُلْهُ **لِلْمُتَكَرِّمِ** المِفْضَالِ.
38/ **وَإِذَا السُّؤَالَ** مَعَ النَّوَالِ قَرَنْتَهُ *** رَجَحَ **السُّؤَالُ** وَخَفَّ كُلُّ **نَوَالِ**.

وَيَسْتَمِرُّ الشَّاعِرُ فِي تَوْظِيفِ هَذِهِ الخَاصِّيَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ مُسْتَثْمِرًا إِيَاهَا فِي "الضَّغْطِ" عَلَى المَعْنَى الذِّي يُرِيدُهُ أَنْ يَتْرُكَ أَثَرًا فِي نَفْسِيَّةِ المُتَلَقِّي بِحَيْثُ يَجْعلُهُ مَشْدُودًا إِلَى الخِطَابِ بِذَلِكَ التَّسَلْسُلِ فِي إِعَادَةِ المُتَرَادِفَاتِ، وَالتِّي قَدْ تَكُونُ ضَرُورَةً لُغَوِيَّةً إِذْ بِدُونِ تَكْرَارِهَا فِي النَّصِّ " تَخْتَلُّ بِنْيَتُهُ أَوْ يُعَمَّى مَدْلُولُهُ "[1] ، أَوْ يُؤْتَى بِهَا لِـ" خَلْقِ تَوَازُنٍ فِي البَيْتِ وَانْسِجَامٍ بَيْنَ الصَّدْرِ وَالعَجُزِ "[2]، هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنِ " التَّكْرَارُ مَظْهَرًا مِن مَظَاهِرِ مَلْءِ البَيْتِ وَحَشْوِهِ لِغَايَةِ الوُصُولِ بِهِ إِلَى مُنْتَهَاهُ "[3] فَحَسْب، وحِينَذَاكَ يُبْتَذَلُ المَعْنَى وَيضِيعُ فِي مَتَاهَاتِ اللاَّجَدْوَى والفَرَاغِ.

غَيْرَ أَنَّ تَوَاتُرَ هَذِهِ التِّقْنِيَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي قَصَائِدَ عَدِيدَةٍ، إِلَى دَرَجَةِ أَنْ لاَ وَاحِدَةَ مِنْ زُهْدِيَاتِهِ تَخْلُو مِنْ هَذِهِ الصِّيغَةِ، عَلَى وَجْهِ الإِجْمَالِ، يَنُمُّ عَنِ اخْتِيَارٍ مَقْصُودٍ، خُصُوصًا حِينَ يُرَتِّبُ تِلْكَ الصِّيغَةَ فِي بِدَايَةِ كُلِّ بَيْتٍ، بَلْ، وَأَحَايِينَ كَثِيرَةً، فِي كُلِّ شَطْرٍ، وَيُؤَشِّرُ تَارَةً أُخْرَى عَلَى أَنَّهَا ضَرُورَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ وَلَيْسَتْ اخْتِيَارًا وَفَقَطْ، فَانْظُرْ إِنْ شِئْتَ إِلَى هَذَا النَّصِّ لِتَتَبَيَّنَ بَعْضَ ذَلِكَ:

9/ **إِذَا** أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرْءِ دِينَهُ *** فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا **فَلَيْسَ** بِضَائِرِ.

[1]- خصائص الأسلوب في الشوقيات، م.س، ص63.
[2]- نفسه، ص64.
[3]- نفسه، ص.ن.

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَـزْدَدْ عَلَـى كُـلِّ نِعْـمَةٍ *** خُصِّصْتَ بِهَا شُكْرًا **فَلَسْتَ** بِشَاكِرِ.
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُؤْثِـرْ رِضَـى اللهِ وَحْـدَهُ *** عَلَـى كُـلِّ مَا تَهْوَى **فَلَسْتَ** بِصَـابِرِ.
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُطَهَّرْ مِنَ الجَهْلِ وَالخَنَا *** **فَلَسْتَ عَلَى** عَـوْمِ الفُـرَاتِ بِطَاهِرِ.
إِذَا لَمْ تَكُـنْ لِلْمَـرْءِ عِنْـدَكَ رَغْـبَةٌ *** **فَلَسْتَ عَلَى** مَا فِي يَدَيْـهِ بِقَـــادِرِ.
إِذَا كُنْـتَ بِالدُّنْيَـا بَصِيـــرًا فَإِنَّـمَا *** بَلاَغُـكَ مِنْـهَا مِثْـلُ زَادِ المُسَـــافِرِ.[1]

فَالشَّاعِرُ فِي الأَبْيَاتِ السِّتَّةِ هَذِهِ يَذْكُرُ أَحْوَالَ الإِنْسَانِ مَعَ الحَيَاةِ، وهِيَ فِي الحَقِيقَةِ لاَ تَعْدُو حَالَيْنِ: خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ، نَجَاةٌ أَوْ خَيْبَةٌ، ...، فَالمَوْقِفُ فَرَضَ عَلَيْهِ اسْتِدْعَاءَ أُسْلُوبِ الشَّرْطِ أَدَاةً لِتَوْكِيدِ تَلازُمِ طَرَفَيْ مُعَادَلَةِ الوُجُودِ تِلْكَ، حُضُورُ أَحَدِهِمَا يَنْفِي الآخَرَ وَيُلْغِيهِ:(إِذَا – لَسْتَ)، فَأَنتَ تَرَى كَيْفَ عَرَضَ عَلَى المُتَلَقِّي الشَّرْطَ وَجَوَابَهُ، إِذْ لَمْ يَكْتَفِ بِتَكْرَارِ " إِذَا " سِتَّ مَرَّاتٍ فَزَادَ أَنْ كَرَّرَ النَّفْيَ بِـ" لَيْسَ" خَمْسَ مَرَّاتٍ أَيْضًا، وَعَوَّضَ السَّادِسَةَ النَّاقِصَةَ فَاسْتَبْدَلَهَا بِمَا يَتَوافَقُ وَتَغَيُّرَ المَعْنَى الذِّي سَاقَهُ فِي شَكْلِ اسْتِنْتَاجٍ لِمَا سَبَقَ :

إِذَا كُنْـتَ بِالدُّنْيَـا بَصِيـرًا **فَإِنَّـمَا** *** بَلاَغُـكَ مِنْـهَا مِثْـلُ زَادِ المُسَـافِرِ.

فَكَانَتْ "**إِنَّمَا**" رَابِطًا بَيْنَ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ إِذْ هِيَ هُنَا أَنْسَبُ لِتَنَاسُقِ الخِطَابِ كَوْنَهَا تَتَضَمَّنُ، إِضَافَةً لِمَعْنَى الحَصْرِ، التَّوْكِيدَ وَالنَّفْيَ (إِنَّ + مَا).

وَنُنَبِّهُ بَعَدَ هَذَا، إِلَى التَّحْوِيرِ الذِّي أَجْرَاهُ الشَّاعِرُ فِي تَوْظِيفِ صِيغَةِ الشَّرْطِ تِلْكَ فِي الأَبْيَاتِ السِّتَّةِ والذِّي نُبَسِّطُهُ فِي الرَّسْمَةِ الآتِيَةِ:

[1]– قصيدة رقم 151،[من الطويل]، ص149.

إِذَا ..... *** ..... **فَلَيْسَ بِـ**.....

إِذَا أَنْتَ لَمْ ..... *** ..... **فَلَسْتَ بِـ**.....

إِذَا أَنْتَ لَمْ ..... *** ..... **فَلَسْتَ بِـ**.....

إِذَا أَنْتَ لَمْ ..... *** **فَلَسْتَ عَلَى**.....**بِـ**.....

إِذَا لَمْ ..... *** **فَلَسْتَ عَلَى** .....**بِـ**.....

إِذَا ..... **فَإِنَّمَا** *** .....

يَتَبَيَّنَ لَنَا التَّكْرَارُ هُنَا عَمُودِيًّا بِإِعَادَتِه لِـ: إِذَا + لَيْسَ، مَعَ إِدْخَالِهِ تَغْيِيراتٍ تَبَعًا لِلْحَاجَةِ حِينًا وَدَفْعًا لِلمَلَلِ مِنَ الصِّيغَةِ الوَاحِدَةِ حِينًا آخَرَ، فَهُو يَجْعَلُ (إِذَا) مُنْفَرِدَةً فِي البَيْتَيْنِ: الأَوَّلِ والسَّادِسِ وَفِي الثَّانِي والثَّالِثِ والرَّابِعِ يُضِيفُ إِلَيْها (أَنتَ لَمْ)، ثُمَّ يُجَرِّدُهَا مِنْ ضَمِيرِ المُخَاطَبِ (أَنْتَ) مُكْتَفِيًا بِـ(لَمْ) فِي البَيْتِ الخَامِسِ، وفِي الأَشْطُرِ الثَّانِيَةِ، يُكَرِّرُ، نُزُولاً، الصِّيغَةَ (لَيْسَ....بِـ) عَدَا الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الأَخِيرِ الذِّي خَلاَ مِنْهَا لِتُعَوِّضَهَا (فَإِنَّمَا) فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنْهُ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ.

ثُمّ يُمْكِنُنَا، عَلَى المُسْتَوَى الأُفُقِيِّ، أَنْ نُلاَحِظَ، وَبِيُسْرٍ، الصِّيَغَ التَّكْرَارِيَّةَ التِّي اصْطَنَعَهَا الشَّاعِرُ لِتَجَاوُزِ الإِشْكَالاَتِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي قَدْ تَجْعَلُ النَّصَّ يُكَرِّرُ ذَاتَهُ شَكْلاً وَمَعْنًى، فَيَقَعَ فِي أَسْرِ المُرَاوَحَةِ المَعِيبَةِ وَالنَّمَطِيَّةِ الرَّتِيبَةِ.

يَقُول أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي القَصِيدَةُ رَقَمُ:59[مِنَ الطَّوِيلُ][1]:

1/ إِلَى كَمْ إِذَا مَا غِبْتُ تُرْجَى سَلاَمَتِي*** وَقَدْ **قَعَدَتْ** بِي الحَادِثَاتُ وَ**قَامَتِ**.
وَ**عُمِّمْتُ** مِنْ نَسْجِ القَتِيرِ **عِمَامَةً** *** رُقُومُ البِلَى مَرْقُومَةٌ فِي **عِمَامَتِي**.
وَكُنتُ أَرَى لِي فِي الشَّبَابِ **عَلاَمَةً** *** فَصِرْتُ وَإِنِّي مُنْكِرٌ **لِعَلاَمَتِي**.
وَمَا هِي إِلاَّ أَوْبَةٌ بَعْدَ **غَيْبَةٍ** *** إِلاَّ **الغَيْبَةُ** القُصْوَى فَثَمَّ **قِيَامَتِي**.

[1]- الدّيوان، صص62،63. ومطلعها:إِلَى كَمْ إِذَا مَا غِبْتُ تُرجَى سَلاَمَتِي*** وَقَدْ قَعَدَتْ بِي الحَادثَاتُ وَقَامَتِ.

5/ كَأَنِّـــي **بِنَفْسِـــي** حَسْـرَةً وَنَـــدَامَةً *** تَقَطَّعُ إِذْ لَـمْ تُغْنِ عَنِّـي **نَدَامَتِـي**.
مُنَى **النَّفْسِ** مِمَّا **يُوطِيءُ** المَرْءَ عَشْوَةً *** إِذَا **النَّفْسُ جَالَتْ** حَوْلَهُنَّ وَ**حَامَتِ**.
وَمَنْ **أَوْطَـأَتْهُ نَفْـسُهُ** حَـاجَةً فَـقَدْ *** أَسَـاءَتْ إِلَيْـهِ **نَفْسُـهُ** وَأَلاَمَـتِ.
أَمَـا وَالذِّي **نَفْسِي** لَهُ لَوْ صَـدَقْتُهَا *** لَرَدَّدْتُ **تَوْبِيـخِي** لَـهَا وَ**مَلاَمَتِـي**.
9/ **فَلِلَّهِ نَفْسٌ أَوْطَـأَتْنِـي** مِنَ العَـشَا *** حُزُونًا، وَلَوْ **قَوَّمْتُـهَا لَاسْتَـقَامَتِ**.
وَلِلّهِ يَـــوْمٌ أَيُّ يَـــوْمٍ **فَـــظَاعَةٍ** *** **وَأَفْظَـعُ** مِنْـهُ بَـعْدُ **يَـوْمُ قِيَامَتِـــي**.
وَلِلّهِ أَهْلِـي إِذْ حَبَـوْنِـي بِحُـفْرَةٍ *** **وَهُـمْ** بِهَوَانِـي يَطْلُبُـونَ كَـرَامَـتِي.
وَلِلّهِ دُنْـــيَا لاَ تَـــزَالُ تَرُدُّنِـــي*** أَبَاطِيـلُهَا فِي الجَهْلِ بَعْدَ **اسْتَقَامَتِي**.
وَلِلّهِ أَصْحَابُ المَلاَعِبِ لَوْ صَفَتْ *** لَهُـمْ لَـذَّةُ **الدُّنْـيَا** بِهِـنَّ وَدَامَـتِ.
14/ **وَلِلّهِ** عَيْـنٌ **أَيْقَنَـــتْ** أَنَّ **جَـــنَّةً** *** **وَنَـارًا يَقِيـنٌ** صَـادِقٌ ثُـمَّ نَـامَتِ.

فَانْظُرْ إِلَى الشَّاعِرِ كَيْفَ " يُرَتِّبُ " هَذِهِ التَّكْرَارَاتِ وَهُوَ يَنُصُّ قَصِيدَتَهُ، فَمُنْذُ البَيْتِ الأَوَّلِ عَمِدَ إِلَى تَكْرَارٍ بِالتَّضَادِّ بَيْنَ (قَعَدَت/قَامَت) لِيَشْحَنَ الدَّلاَلَةَ وَيُكَثِّفَهَا، لَيْسَ بِالشَّيْءِ وَقَرِينِهِ فِي المُتَمَاثِلاَتِ بَلْ بِقَرِينِهِ فِي المُتَضَادَّاتِ! وَمِنْ ثَمَّ أَمْكَنَنا أَنْ نَعْتَبِرَهُ تَكْرَرًا يَقُومُ عَلَى بُعْدٍ دَلاَلِيٍّ وَاحِدٍ وَإِنْ اخْتَلَفَ فِي الاتِّجَاهِ فَإِنَّهُ يَتَسَاوَى فِي قُدْرَتِهِ عَلَى التَّبْلِيغِ، إِذْ يَجْعَلُ نُمُوَّ المَعْنَى مُتَوَازِنًا مُنْسَجِمًا، لِيَتَدَرَّجَ بِنَا مَعَ تِكْرَارٍ بَسِيطٍ فِي الأَبْيَاتِ: 1-3 (عُمِّمْتُ- عِمَامَةً- عِمَامَتِي، عَلاَمَةً- عَلاَمَتِي، غَيْبَةٍ - الغَيْبَةِ)، وَكَأَنَّهُ يُهَيِّئُنَا لِتَكْرَارٍ أَكْثَرَ حُضُورًا وَأَشَدَّ إِلْحَاحًا، فَهُوَ يُعِيدُ اللَّفْظَةَ فِي البَيْتِ مَرَّةً أَو مَرَّتَيْنِ أَوْ يُكَرِّرُهَا فِي الأَبْيَاتِ التِّي تَلِيهِ، بِاللَّفْظِ أَوِ المَعْنَى كَمَا هِي الحَالُ مَعَ (نَدَامَةً - نَدَامَتِي، قَوَّمْتُهَا - اسْتَقَامَتِ، اسْتِقَامَتِي، قِيَامَتِي- قِيَامَتِي، جَالَتْ- حَامَتِ، فَظَاعَةٍ- أَفْظَعُ، أَيْقَنتُ- يَقِينٌ، يُوطِئُ - أَوْطَأَتْهُ- أَوْطَأَتْنِي، تَوْبِيخِي- مَلاَمَتِي).

غَيْرَ أَنَّ التَّكْرَارَ الأَكْثَرَ لَفْتًا لِلانْتِبَاهِ فِي النَّصِّ هُوَ الذِّي سَيَلْجَأُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ بَدْءً مِنَ

البَيْتِ الخَامِسِ حِينَ يَسْتَعْمِلُ لَفْظَةَ: **نَفْسُ**، ثُمَّ يُعِيدُهَا مَرَّتَيْنِ عَلَى التَّوَالِي فِي البَيْتَيْنِ السَّادِسِ والسَّابِعِ، وَأُخْرَى فِي البَيْتِ الثَّامِنِ، لِيَقْرِنَهَا بِلَفْظِ الجَلاَلَةِ فِي البَيْتِ التَّاسِعِ(**فَلِلَّهِ نَفْسٌ**) تَمْهِيدًا لِاسْتِبْدَالِ هَذَا التَّرْدِيدِ بِلَفْظَةِ " **للهِ** " لِيَسْتَهِلَّ بِهَا الأَبْيَاتَ الخَمْسَةَ المُتَبَقِّيَةَ مُغَيِّرًا بِذَلِكَ إِيقَاعَ التَّكْرَارِ وَإِيحَاءَاتِهِ، وَمُبْتَعِدًا بِهِ عَنِ الرَّتَابَةِ فِي الآنِ ذَاتِهِ، دُونَ أَنْ نُغْفِلَ ذَاكَ اللَّعِبَ الذِّي يُجِيدُهُ الشَّاعِرُ وَيَمْتَازُ بِهِ حَيْثُ افْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ بِالتَّضَادِّ بَيْنَ:

قَعَدَتْ ← قَامَتِ وَخَتَمَهَا بِتَضَادٍّ آخَرَ بَيْنَ: **جَنَّةً ← نَارًا**

وَكَأَنَّهُ يُغْلِقُ " الدَّارَةَ " الدَّلاَلِيَّةَ لِقَصِيدَتِهِ لِيَجْعَلَ التَّكْرَارَ مُسْتَمِرًّا مُتَنَاوِبًا دَاخِلَ النَّصِّ تَمَامًا كَمَا هِي دَوْرَةُ الحَيَاةِ/المَوْتِ فِي غَيْبَتِهَا وَأَوْبَتِهَا.

وَاسْتِخْدَامُ الشَّاعِرِ لاسْمِ الجَلاَلَةِ وَتَكْرَارُهُ لَهُ أَمْرٌ شَائِعٌ فِي مُسْتَهَلِّ قَصَائِدِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُمْكِنُنَا دِرَاسَتُهُ كَظَاهِرَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ عَلَى حِدَةٍ لِاطِّرَادِهَا وَإِلْحَاحِهِ عَلَيْهَا فِي جُلِّ مَا يَقُولُهُ مِنْ زُهْدِيَاتٍ، فَيَأْتِي بِهِ إِمَّا مَسْبُوقًا بِوَاوٍ مِنْ ذَلِكَ:

6/ **وللهِ** نَعْمَـاءٌ عَلَيْـنَا عَظِيمَةٌ *** **وللهِ** إِحْسَانٌ وَفَضْلٌ وَعَطَاءُ.[1]

وَقَوْلُهُ:

1/ **للهِ** أَنْتَ عَلَى جَفَائِكْ *** مَاذَا أُؤَمِّلُ مِنْ وَفَائِكْ.[2]

وَقَدْ يَرْفَعُ الشَّاعِرُ مِنْ وَتِيرَةِ هَذَا التَّكْرَارِ فِي القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ فَيُرَدِّدُها فِي بِدَايَةِ أَبْيَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ كَمَا هِي الحَالُ فِي قَوْلِهِ:

11/ **وَللهِ** فِي الدُّنْيَا أَعَاجِيبُ جَمَّةٌ *** تَدُلُّ عَلَـى تَدْبِيـرِهِ وبَدَائِـعُ.
وَللهِ أَسْرَارُ الأُمُورِ وَإِنْ جَرَتْ *** بِهَا ظَاهِرًا بَيْنَ العِبَـادِ المَنَافِعُ.

[1]- قصيدة رقم2، [من الطويل]، ص3.
[2]- مقطوعة رقم6، [من مجزوء الكامل]، ص6.

وَللهِ أَحْكَامُ القَضَاءِ بِعِلْمِهِ *** أَلاَ فَهُوَ مُعْطٍ مَنْ يَشَاءُ وَمَانِعُ.[1]

أَوْ يَجْعَلُهَا مَبْدَأَ كُلِّ شَطْرٍ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ:

38/ **وَاللهُ** أَكْرَمُ مَنْ رَجَوْتَ نَوَالَهُ *** **وَاللهُ** أَعْظَمُ مَنْ يُنِيلُ نَوَالاَ.[2]

وَلَعَلَّهُ يَسْتَهِلُّ البَيْتَ بِهَا ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى مَا يُفِيدُهَا فِي الدَّلاَلَةُ وَيَسُدُّ مَسَدَّهَا، وَذَلِكَ دَرْءً لِلتَّكْرَارِ المَمْجُوجِ، وبَحْثًا عَنِ التَّنْوِيعِ فِي الأَسَالِيبِ، إِذْ كُلُّ تَغْيِيرٍ، نُقْصَانًا أَوْ زِيَادَةً، يَحْمِلُ جُمْلَةً مِن الدَّلاَلاَتِ، مِنهَا مَا يُثْرِي المَعْنَى أَوْ يُحَوِّرُهُ، أَوْ يَكُونُ سَبِيلاً إِلَى تَنْبِيهِ القَارِئِ إِلَى النُّقْلَةِ فِي القَصِيدَةِ أَوْ لَعَلَّها تَكُونُ وَسِيلَةً أُسْلُوبِيَّةً لإِبْقَائِهِ مَشْدُودًا إِلَى النَّصِّ وَحَسْب.

فَهَاهُو، بَعْدَ أَنْ بَدَأَ بِاسْمِ الجَلاَلَةِ المَجْرُورِ (للهِ) يَعْدِلُ عَنْهُ فِي البَيْتَيْنِ المُوالِيَيْنِ إِلَى صِيغَةٍ مُقَارِبَةٍ يَفْتَتِحُ بِهَا شَطْرَيْ البَيْتِ الثَّانِي وصَدْرَ البَيْتِ الثَّالِثِ، فَيَقُولُ:

1/ **للهِ** دَرُّ ذَوِي العُقُولِ المُشْعِبَاتِ *** أَخَذُوا جَمِيعًا فِي حَدِيثِ التُّرَّهَاتِ.
وَأَمَا وَرَبِّ المَسْجِدَيْنِ كِلَيْهِمَا *** **وَأَما وَرَبِّ** مِنًى ورَبِّ الرّاقِصَاتِ.
وَأَمَا وَرَبِّ البَيْتِ ذِي الأَسْتَارِ والـ *** ـمَسْعَى وزَمْزَمَ والهَدَايَا المُشْعَرَاتِ.[3]

ثُمَّ، بَعْدَ هَذَا، وَلِتَرَى كَيْفَ يُنَوِّعُ أَسَالِيبَهُ ويَتَصَرّفُ فِيهَا لِيَجْعَلَها تَتَبَايَنُ، عَلَى مَا فِي دَلاَلاَتِهَا مِنْ تَقَارُبٍ، إِقْرَأْ قَوْلَهُ:

1/ **أَلاَ للهِ أَنْتَ** مَتَى تَتُوبُ *** وَقَدْ صَبَغَتْ ذَوَائِبَكَ الخُطُوبُ.
5/ **أَلاَ للهِ أَنْتَ** فَتًى وَكَهْلاً *** تَلُوحُ عَلَى مَفَارِقِهِ الذُّنُوبُ.[4]

[1]- قصيدة رقم 224، [من الطويل]، ص217.
[2]- قصيدة رقم 317، [من الكامل]، ص309.
[3]- قصيدة رقم 70، [من الكامل]، ص72.
[4]- قصيدة رقم 18، [من الوافر]، ص22.

وَقَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ عَنِ البَيْتَيْنِ، انْظُرْ إِلَى ذَاكَ التَّجَانُسِ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (مَتَى- فَتَى)، وَالذِّي، إِضَافَةً لِأَثَرِهِ الإِيقَاعِيِّ، فَإِنَّهُ صَنْعَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ يُتْقِنُهَا أَمْثَالُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَيَشْتَغِلُونَ عَلَيْهَا بِوَعِيٍ وَلاَ شَكَّ، حَتَّى لَكَأَنَّكَ تَقْرَأُ شَطْرَ بَيْتٍ مَرَّ بِكَ قَبْلَ أَبْيَاتَ قَلِيلَةٍ، وَهَذَا بَعْضُ مَا يَبْلُغُ الغَايَةَ فِي التَّكْرَارِ وَفَائِدَتِهِ، لِأَنَّهُ يَضْمَنُ حُضُورَ الذِّهْنِ وَمَعَهُ التَّرَابُطَ وَالانْسِجَامَ بَيْنَ مَفَاصِلِ القَصِيدِ:

أَلاَ لِلَّهِ أَنْتَ مَتَـى = أَلاَ لِلَّهِ أَنْتَ فَتَـى

وَمرَّاتٍ أُخْرَى يُغَيِّرُ الشَّاعِرُ تَرْتِيبَ لَفْظِ الجَلاَلَةِ سَعْيًا وَرَاءَ التَّجْدِيدِ أَوْ إِثْباتًا لِنَقْلَةٍ ذَاتِ دَوَاعٍ دَلاَلِيَّةٍ أَوْ نَفْسِيَّةٍ كَمَا فِي الأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ:

26/ **فَالحَمْدُ للهِ حَمْدًا** لاَ انْقِطاَعَ لَهُ *** مَا إِنْ يُعَـظَّمُ إِلاَّ مَـنْ لَهُ وَرِقُ.
وَالحَمْدُ للهِ حَمْدًا دَائِمًـا أَبَدًا *** فَازَ الذِّينَ إِلَى مَا عِنْدَهُ سَبَقُوا.
وَالحَمْدُ للهِ شُكْرًا لاَ نَفَـادَ لَهُ *** النَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا لَهُ خُلِقُوا.[1]

وَهُوَ يُمْعِنُ فِي هَذَا التَّكْرَارِ، بَلْ وَيَذْهَبُ فِيهِ مَذْهَبًا يُرَسِّمُ مِنْ خِلاَلِهِ طَرِيقَتَهُ، وَيُؤَكِّدُ أُسْلُوبَهُ، حَتَّى يَصِيرَ الشَّطْرُ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْهُ قَلِيلاً، هُوَ هُوَ فِي البَيْتَيْنِ أَوِ الأَبْيَاتِ المُتَتَابِعَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

للهِ مَا وَارَى التُّرَابُ مِنَ الأُلَى* **كَانُوا الكِرَامَ** هُمُ إِذَا ذُكِرَ **الكِرَامْ**.
للهِ مَا وَارَى التُّرَابُ مِنَ الأُلَى* **كَانُوا** وَجَـارُهُم مَنِيـعٌ لاَ يُضَـامْ.[2]

ثُمَّ انظُر إِلَى هَذَا التَّكْرَارِ فِي مَقْطُوعَتِهِ رَقَمِ:292[مِنَ الكَامِلُ][3]، فَهُوَ يَلْعَبُ بِطَرِيقَةٍ فَنِّيَّةٍ عَلَى عَدَدٍ مِنَ التَّكْرَاراتِ يَنْقُلُ مَرَاتِبَهَا فِي الجُمْلَةِ وَفِي الشَّطْرِ، ثُمَّ فِي البَيْتِ، وَيُثَبِّتُ

[1]- قصيدة رقم 317، [من الكامل]، ص309.
[2]- قصيدة رقم 350، [من الكامل]، ص342.
[3]- الدّيوان، صص276،277.

أُخْرَى فِي مَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ يَجْعَلُهَا وَسِيلَةَ رَبْطٍ، وَوَاسِطَةَ عِقْدٍ تَشُدُّ مَفَاصِلَ القَوْلِ لِيَبْقَى مُنْسَجْمًا مُتَسَلْسِلاً، فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ لَفْظَةُ " لَرُبَّمَا " أَوَّلَ الشَّطْرِ الثَّانِي جَعَلَهَا تَتَكَرَّرُ فِي أَوَّلِ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ اللاَّحِقَةِ مَسْبُوقَةً بِحَرْفِ العَطْفِ " الوَاوِ "، وَجَعَلَ بَعْدَ ذَلِكَ الكَلِمَةَ المِفْتَاحَ لِلنَّصِّ تَتَكَرَّرُ فِي الأَشْطُرِ الأَرْبَعَةِ الأُولَى: كَذَبَ، كَذِبِ، الكَذُوب(3مرَّات):

1/ إِيَّاكَ مِنْ **كَذِبِ الكَذُوبِ** وَ إِفْكِهِ *** **فَلَرُبَّـــمَا** مَــزَجَ اليَقِيـــنَ بِشَــكِّهِ.
وَلَرُبَّمَا ضَحِــكَ **الكَـذُوبُ** تَكَـلُّفًا *** **وَبَكَـى مِنَ الشَّــيْءِ الذِي لَمْ يُبْـكِهِ.**
وَلَرُبَّمَا صَمَـتَ **الكَــذُوبُ** تَخَـلُّقًا *** **وَشَكَى مِنَ الشَّـيْءِ الذِّي لَمْ يُشْكِهِ.**
4/ **وَلَرُبَّمَا كَـــــذَبَ** امْــرُؤٌ بِكَــلاَمِهِ *** وَبِصَمْتِـــهِ وَبُكَـــائِهِ وَبِضِحْــكِهِ.

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ التَّكْرَارِيَّ دَارِجٌ فِي أَغْلَبِ نُصُوصِهِ، إِنْ لَمْ نَقُلْ كُلِّهَا، يَتَّخِذُهُ أَدَاةً أُسْلُوبِيَّةً تَنْهَضُ عَلَيْهَا طَرِيقَتُهُ فِي القَوْلِ، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا المَعْنَى وَيَتَوَالَى.

وَلِتَأْكِيدِ هَذَا التَّوَجُّهِ نَسْتَدِلُّ بِالقَصِيدَةِ رَقَمِ:423[مِنَ الكَامِلُ][1]، وَالتِّي يَقُولُ فِيهَا:

6/ لاَ تَنْسَ حِلْمَكَ حِينَ يَقْرَعُكَ **الأَذَى*** مِنْ كُلِّ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَيَجْبُهُ.
فَلَرُبَّمَا صَبَــرَ **الحَلِيمُ** عَــلَى **الأَذَى*** **حَتَّــى** يُــرَى وَكَــأَنَّهُ يَتَــدَلَّهُ.
وَلَرُبَّمَا حَجَـبَ **الحَــــلِيمُ** جَــوَابَهُ *** **بِالصَّمْــتِ** مِــنْهُ وَإِنَّــهُ لَمُــفَوَّهُ.
وَلَرُبَّمَا جَمَحَ **السِّفَاهُ** بِذِي الحِــجَا *** **حَتَّــى** يُذَلِّلَهُ الدَّنِــيُّ **الأَسْــفَهُ.**
وَلَرُبَّمَا نَسِـــيَ **الوَقُـــورُ وَقَـــارَهُ** *** **حَتَّى** تَــرَاهُ جَــاهِلاً يَتَدَهْــدَهُ.
وَلَرُبَّمَا نَهْنَهْتَ عَنْكَ ذَوِي **الخَـنَا** *** **بِالصَّمْتِ** إِلاَّ أَحْـجَمُوا وَ**تَنَهْنَهُوا.**
إِنَّ **الحَلِيــمَ** عَنِ الأَذَى مُتَحَجِّــبٌ *** وَعَــنِ **الخَنَــا** مُتَــوَفِّرٌ مُتَــــنَزِّهُ.
13/ وَالبَغْـيُ **يَصْـرَعُ** أَهْــلَهُ وَيُرِيــكَهُمْ *** وَجَمِيــعُهُمْ مِنَ **صَــرْعِهِ** يَتَــأَوَّهُ.

[1]- الدّيوان، صص 408- 410. وَمَطْلَعُهَا: إِكْرَهْ لِغَيْرِكَ مَا لِنَفْسِكَ تَكْرَهْ *** وَافْعَلْ بِنَفْسِكَ فِعْلَ مَنْ يَتَنَزَّهْ.

فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ عَادَ إِلَى هَذِهِ الصِّيغَةِ ثَانِيَةٍ يُعَزِّزُ بِهَا نَسِيجَ نَصِّهِ وَيَعْقِدُ الوَصَلاَتِ بَيْنَ البَيْتِ وَالبَيْتِ، فَيَبْدَأُ بِـ" لَرُبَّمَا " مُقْتَرِنَةً بِفَاءِ العَطْفِ فِي البَيْتِ السَّابِعِ لِيُكَرِّرَهَا فِي الأَبْيَاتِ الأَرْبَعَةِ المُوالِيَةِ مَسْبُوقَةً بِوَاوِ العَطْفِ، تَمَاما كَمَا هِيَ الحَالُ فِي المَقْطوعَةِ السَّابِقَةِ.

وَإِذَا نَحْنُ عَايَنَّا دَيْوانَ الشَّاعِرِ، فَإِنَّ وَاحِدَةً مِنَ المُلاَحَظَاتِ التِّي سَتَنْطَبِعُ فِي الذِّهنِ، إِنْ لَمَ تَكُنْ أُولاَهَا، هِيَ هَذَا الشَّكْلُ التَّكْرَارِيُّ الذِّي يَنْزَعُ إِلَيْهِ أَبُو العَتَاهِيَّةِ نَزْعًا، وَكَأَنَّهُ مُطْمئِنٌّ إِلَى أَثَرِهِ الأُسْلُوبِيِّ الذِّي سيَسْتَقِرُّ فِي ذِهْنِ القَارِئِ، بَلْ وَلَعَلَّهُ يُوَجِهُ قِرَاءَتَهُ وَاضِعًا المَعَالِمَ الأَوَّلِيَّةَ المُهَيِّئَةَ لاسْتِيعَابِ المَعْنَى. يَقُولُ عِزُّ الدِّينِ عَليّ السَّيِّدْ فِي هَذَا الإِطَارِ: " التَّكْرِيرُ أُسْلُوبٌ تَعْبِيرِيٌّ يُصَوِّرُ انْفِعَالَ النَّفْسِ بِمُثِيرٍ(...)، وَاللَّفْظُ المُكَرَّرُ فِيهِ هُوَ المِفْتَاحُ الذِّي يَنْشُرُ الضَّوْءَ عَلَى الصُّورَةِ لاتِّصَالِهِ الوَثِيقِ بِالوِجْدَانِ، فَالمُتَكَلِّمُ إِنَّمَا يُكَرِّرُ مَا يُثِيرُ اهْتِمَامًا عِنْدَهُ، وَهُوَ يُحِبُّ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَى نُفُوسِ مُخَاطَبِيهِ، أَوْ مَن هُمْ فِي حُكْمِ المُخَاطَبِينَ، مِمَّنْ يَصِلُ إِلَيْهِ القَوْلُ عَلَى بُعْدِ الزَّمانِ وَالدِّيَارِ ".[1]

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 305 [منَ الوَافِرُ]:[2]

6/ **وَلِلدُّنْـــيَا دَوَائِـــرُ دَائِـــرَاتٌ** *** لِتَذْهَبَ بِالعَـــزِيزِ وَبِالذَّلِـــيلِ.
وَلِلدُّنْـيَا يَـدٌ تَهَـبُ المنَـــــايَا*** وَتَسْتَلِبُ **الخَلِيلَ** مِنَ **الخَلِيلِ**.
وَمَا لَكَ غَيْرُ عَقْلِكَ مِنْ نَصِيحٍ *** **وَمَا لَكَ غَيْرُ عَقْلِكَ** مِنْ دَلِيلِ.
وَمَا لَكَ غَيْـرُ تَقْـوَى اللهِ مَـــالٌ*** **وَغَيْرُ** فَعَالِكَ الحَسَنِ الجَمِيلِ.
10/ **وَقَارُ** الحِلْمِ يَقْـرَعُ كُـلَّ جَـهْلٍ*** وَعَزْمُ الصَّبْرِ يَنْهَضُ بِالجَلِيلِ.

فَالشَّاعِرُ، كمَا يَتَبَيَّنُ مِنْ هَذا النَّمُوذَجِ، لاَ يَخْرُجُ مِن تَكْرَارٍ إِلاَّ اتَّخَذَ غَيْرَهُ مَطِيَّةٍ إِلَى بُلُوغِ المُرَادِ بِهَذَا التَّلْوِينِ الأُسْلُوبِيِّ، أَوَلَيْسَ الأُسْلُوبُ فِي اللُّغَةِ الطَّرِيقُ والنَّهْجُ؟ إِنَّ التَّكْرَارَ،

[1]- التّكرير بين المثير والتّأثير، عزّ الدِّين عليّ السّيّد، م.س، ص136.

[2]- الدّيوان، صص294،295. وَمَطْلَعُهَا: شَهْرْتُ فَلَسْتُ أَرْضَى بِالقَلِيلِ *** وَمَا أَنْفَكُّ مِنْ حَدَثٍ جَلِيلِ.

ولاَ رَيْبَ، طَرِيقٌ، أَوِ لِنَقُلْ، هُوَ بَعْضُ مَسَالِكِ تِلْكَ الطَّرِيقِ التِّي ابْتَغَاهَا شَاعِرُنا لِبِنَاءِ نُصُوصِهِ، بَلْ وَلِيَمِيزَهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنْ نُصُوصِ أَقْرَانِهِ، إِذْ " لاَ تَرْتَفِعُ نَمَاذِجُ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ التَّكْرَارِ إِلَى مَرْتَبَةِ الأَصَالَةِ وَالجَمَالِ إِلاَّ عَلَى يَدَيْ شَاعِرٍ مَوْهُوبٍ يُدْرِكُ أَنَّ المُعَوَّلَ فِي مِثْلِهِ، لاَ عَلَى التَّكْرَارِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا عَلَى مَا بَعْدَ الكَلِمَةِ المُكَرَّرَةِ، فَإِنْ كَانَ مُبْتَذَلاً، رَدِيئًا، سَقَطَتِ القَصِيدَةُ "[1].

وَنَأْتِي إِلَى النِّدَاءِ وَهُوَ مِنَ الصِّيَغِ التِّي لاَ يَخْلُو مِنْهَا نَصٌّ لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ، فِيمَا رَأَيْنَاهُ، وَلاَ تَقْرَأُ لَهُ قَصِيدةً إِلاَّ شَدَّكَ الكَمُّ الهَائِلُ مِنْ هَذِهِ الأَسَالِيبِ التِّي يُلَوِّنُ فِيهَا بَيْنَ مَقْطَعٍ وَآخَرَ، وَفِكْرَةٍ وَأُخْتِهَا، وَأَكْثَرُ مَا نَجِدُهُ فِي مُسْتَهَلِّ الأَبْيَاتِ، وَمِنْ مَطْلَعِهَا فِي الغَالِبِ، وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الشِّعْرِ عُمُومًا، وطَبِيعَةُ هَذَا اللَّوْنِ مِنْهُ عَلَى الأَخَصِّ، وقَدْ بَيَّنَّاهَا فِيمَا سَبَقَ.

وَالـ(**يَا**) أَكْثَرُ أَدَوَاتِ النِّدَاءِ اسْتِعْمَالاً لِخُصُوصِيَّتِهَا فِي الدَّلاَلَةِ عَلَى القَرِيبِ وَالبَعِيدِ فِي آنٍ، وَلِإِمْكَانِيَّةِ حَذْفِهَا مَعَ بَقَائِهَا عُنْصُرًا بِنَائِيًّا أَسَاسًا فِي السِّيَاقِ، لِذَا، تَبْقَى الأَدَاةَ الأَبْرَزَ فِي تَشْكِيلِ الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ. وَقَدْ لاَحَظَ مُحَمَّدُ عَبْدُ المطَّلِبِ أَنَّهَا: " مِنْ أَكْثَرِ الأَدَوَاتِ التِّي تَعَامَلَت مَعَهَا شُعَرَاءُ الحَدَاثَةِ فِي بِنْيَةِ التَّكْرَارِ، سَوَاءً بِاعْتِبَارِ دَلاَلَتِهَا عَلَى بُعْدِ المُنَادَى، أَوْ بِتَفْرِيغِهَا فِي هَذِهِ الدَّلاَلَةِ وَتَوْسِيعِ دَوْرِهَا لِلدَّلاَلَةِ أَحْيَانًا عَلَى القَرِيبِ"[2].

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 354 [من البسيط][3]:

1/ **يَا نَفْسُ** مَا هُوَ إِلاَّ صَبْـــرُ أَيَّـــامِ *** كَأَنَّ لَذَّتَـهَا أَضْـغَاثُ أَحْـــلاَمِ.
يَا نَفْسُ مَـالِي لاَ أَنْفَكُّ مِنْ طَمَعٍ *** طَرْفِي إِلَيْهِ سَرِيعٌ طَامِـحٌ سَـــامِ.
يَا نَفْسُ كُونِي عَنِ الدُّنْيَا مُبَـــاعِدَةً *** وَخَلِّفِيهَا فَإِنَّ الحَـــقَّ قُـــدَّامِي.

[1]- قضايا الشّعر المُعاصر، نازك الملائكة، م.س، ص264.
[2]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص426.
[3]- الدّيوان، صص 345،346.

4/ **يَا نَفْسُ** مَا الذُّخْرُ إِلاَّ مَا انْتَفَعْتُ بِهِ *** فِي القَبْرِ يَوْمَ يَكُونُ الدَّفْنُ إِكْرَامِي.

يَقُومُ النَّصُّ مِنْ أَوَّلِهِ حَامِلاً تِلْكَ النَّبْرَةَ الخِطَابِيّةَ، يَتَوَجَّهُ بِهَا الشَّاعِرُ إِلَى نَفْسِهِ فِي نَوْعٍ مِنَ التَّوَسُّلِ وَالرَّجَاءِ عَلَّهَا تَؤُوبُ إِلَى الحَقِّ وَتَثْبُتُ عَلَيْهِ، أَوَلَيسَتْ هِيَ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، الوَاجِبُ تَذْكِيرُهَا وَلَجْمُهَا كُلَّ حِينٍ؟! وَلاَ أَرَى أَفْضَلَ مِنَ التَّكرَارِ إِلْحَاحًا عَلَيْهَا لِتُبْصِرَ الطَّرِيقَ. لَقَدْ فَضَّلَ الشَّاعِرُ اسْتِعْمَالَ حَرْفِ الـ(يَا)، وَهُوَ الذِّي يَغْلُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ لِلْبَعِيدِ، لِنِدَاءِ نَفْسِهِ القَرِيبَةِ إِلَيْهِ المُلْتَصِقَةِ بِهِ، لِلدَّلاَلَةِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ النَّفْسَ حِينَ تَزِيغُ تَذْهَبُ بَعِيدًا فِي الضّلاَلَةِ حَتَّى أَنَّهَا تُرْهِقُ صَاحِبَهَا كَيْمَا تَعُودَ، وَلَيْسَتْ دَائِمًا تَرْجِعُ!

فَتَكْرَارُ النِّـدَاءِ (يَا نَفْسُ) بِالصّيـغَةِ وَاللَّفْظِ ذَاتِهِ يَعْمَلُ عَلَى شَدِّ أَوْصَالِ الخِطَابِ إِلَى طَرَفٍ وَاحِدٍ، لاَ تَنْزَاحُ عَنْهُ إِلاَّ لِتَعُودَ إِلَيْهِ، إِنَّ " التَّكْرَارِيَّةَ هُنَا مَلْحُوظَةٌ علَى مُسْتوَى البِنَاءِ الشَّكلِيِّ،كَمَا هِيَ مَلْحُوظَةٌ عَلَى مُسْتَوَى البِنْيَةِ العَمِيقَةِ(...) فَكَأَنَّ التَّكْرَارَ هُنَا لاَ بُدَّ أَنْ تَتَوَفَّرَ، فِيهِ ذِهْنِيًّا، مَسَافَةٌ فِي الدَّلاَلَةِ تَسْمَحُ لِلَّفْظَةِ التَّالِيَةِ أَنْ تَسْتَقِرَّ بَعْدَهَا مُحَقِّقَةً نَوْعًا مِنْ اكْتِمَالِ المَعْنَى أَوْ بَيَانِهِ أَوْ تَحْقِيقِهِ "[1]. فَإِعَادَةُ النِّدَاءِ (يَا نَفْسُ) فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّذَلُّلِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَرْغِيبِ النَّفْسِ وَقَدْ طَاشَتْ بِهَا الغِوَايَةُ بَعِيدًا فَأَبَتِ الأَوْبَةِ وَالانْصِيَاعَ لِنِدَاءِ العَقْلِ مَرَّةً وَمَرَّةً، فَوَجَبَ حِينَهَا، تَكْرَارُ النِّدَاءِ وَالإِلْحَاحُ فِيهِ طَمَعًا فِي أَنْ يُثْمِرَ. يُذَكِّرُنا هَذَا بِمُنَادَاةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَبَاهُ رَجَاءَ أَنْ يَعُودَ[2]، شَفَقةً عَلَيْهِ وَحِرْصًا عَلَى نَجَاتِهِ مِنْ مَآلٍ أَكِيدٍ.

وَنَجِدُ هَذِهِ الصِّيغَةَ مِنَ النِّدَاءِ تَتَكَرَّرُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ:408[مِنْ مَجْزُوءُ الكَامِلِ][3] حِينَ يَقُولُ فِي الأَبْيَاتِ مِنْ 1 إِلَى 6:

يَا نَفْسُ إِنَّ الحَقَّ دِينِـــي*** فَتَذَلَّلِـي ثُـمَّ اسْتَكِينِـي.

---

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص113.

[2]- سورة مريم/42- 45. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا٤٥].

[3]- الدّيوان: صص396،395.

فَإِلَى مَتَى أَنَا غَـــــافِلٌ * يَا نَفْسُ** وَيْحَكِ خَبِّرِينِي.
وَإِلَى مَتَى أَنَا مُمْسِـــــكٌ *** بُخْلاً بِمَــا مَلَكَتْ يَمِينِي.
يَا نَفْسُ لاَ تتَضَـــايَقِي *** وَثِقِـي بِرَبِّـكِ وَاسْتَعِيــنِي.
يَا نَفْسُ أَنْتِ شَحِيحَةٌ *** وَالشُّحُّ مِنْ ضُعْفِ اليَقِينِ.
يَا نَفْسُ تُوبِي مِنْ مُــؤَا *** خَاةِ الأَخِ البَــطِرِ البَطِينِ.

يَسْتَمِرُّ نِدَاءُ النَّفْسِ مَتْبُوعًا بِنَهْرِهَا عَنِ الوُقُوعِ فِي المَهَالِكِ، والتَّمَسُّكِ بِالحقِّ سَبِيلِ النَّجَاةِ الوَحِيدِ. وَالشَّاعِرُ لاَ يُعَنِّفُهَا وَلاَ يُغْلِظُ لَهَا القَوْلَ طَمَعًا فِي عَوْدَتِهَا إِلَى الجَادَّةِ، فَهُوَ يَسْتَلْطِفُهَا ويُعَاتِبُهَا فِي رِفْقٍ (فَإِلَى مَتَى- وَإِلَى مَتَى) بَاثًّا بَيْنَ ثَنَايَا هَذَهْ الرِّسَالَةِ خِطَابَ التَّوْجِيهِ وَالتَّذْكِيرِ(تَذَلَّلِي، اسْتَكِينِي، لاَ تتَضَايَقِي، ثِقِي، اسْتَعِينِي، أَنْتِ شَحِيحَةٌ، تُوبِي).

وَإِنَّهُ خِطَابٌ لاَ يَخْتَصُّ بِنَفْسِ الشَّاعِرِ وَحَسْب، وَلَكِنَّهُ مِنْ خِلاَلِهَا يُحَذِّرُ كُلَّ نَفْسٍ وَيَدْعُوهَا لِلعَفَافِ وَالكَفَافِ لِتَسْلَمَ، فَنَرَاهُ بَعْدَ أَبْيَاتٍ يَلْتَفِتُ بِهِ مِنَ المُتَكَلِّمِ إِلَى المُخَاطَبِ، يُبْرِقُ إِلَيْهِ بِبَعْضِ الإِشَارَاتِ المُنَبِّهَةِ لِلخَاتِمَةِ المَحْتُومَةِ:

يَا ذَا الذِّي يَـوْمُهُ آتٍ بِسَـاعَتِهِ *** وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْ **عَامٍ** إِلَى **عَامِ**.

.....

يَا سَاكِنَ الدَّارِ تَبْنِيهَا وَتَعْمُرُهَا *** وَ**الدَّارُ دَارُ** مَنِيَّـاتٍ وَأَسْقَــامِ.

.....

يَا رُبَّ مُقْتَصِدٍ عَنْ غَيْـرِ **تَجْرِبَةٍ** *** وَمُعْتَـدٍ بَعْدَ **تَجْرِيبٍ** وَإِحْكَـامِ.[1]

وَمِثْلُ هَذَا نَجِدُهُ فِي جُلِّ القَصَائِدِ، فِي البَيْتِ الوَاحِدِ مِنْهَا أَوْ فِي أَبْيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُتَلاَحِقَةٍ، مُتَّصِلَةٍ أَوْ مُتَبَاعِدَةٍ مُنْفَصِلَةٍ، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ:105[مِنَ المَنْسَرِحِ][2]:

---

[1]- الدّيوان، قصيدة رقم 354، الأبيات: 17،15،08، صص346،345 .

[2]- الدّيْوان، صص105،104. الأَبْيَاتُ 7-11. ومطلعها: يَا رَاكِبَ الغَيِّ غَيْرَ مُتَّئِدٍ *** شَتَّانَ بَيْنَ الضَّلاَلِ وَالرَّشَدِ.

7/ **يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ كَمْ** أَخِـي ثِقَـــةٍ *** كَلَّفْتَـــنِي غَمْضَ عَينيْه بِيَدِي.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ كَمْ أَضَفْتَ إِلَى الـ *** ـقِلَّةِ **مِنْ** ثَـــرْوةٍ **وَ مِنْ** عَـــدَدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ كَمْ لِوَخْـــزِكَ **مِنْ** *** قَلْبِ جَرِيـحٍ يَدْمَى **وَ مِنْ** كَبِدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ صَبَّحَـتْنَا بِكَ الـ *** ـشَمْسُ وَمَسَّتْ كَوَاكِبُ الأَسَدِ.
يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ لاَ أَرَاكَ مِـــنَ الـ *** ـخَلْقِ جَمِيعًـــا تُبْقِي عَلَى أَحَدِ.

وَهُوَ كَمَا نَرَاهُ يُوَظِّفُ النِّدَاءَ بِـ" يَا " وَيَجْعَلُ المُنَادَى مَا لاَ يَجُوزُ نِدَاؤُهُ (المَوْتُ)، يَسْتَصْرِخُهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَهُوَ كَمٌّ كَبِيرٌ قِيَاسًا بِعَدَدِ الأَبْيَاتِ(5)، يُظْهِرُ عَجْزَ الشَّاعِرِ وَضَعْفَهُ أَمَامَ هَذَا القَّادِمِ الذِّي لاَ يُصَدُّ، وَلاَ يُعْلَمُ أَوَانُهُ فَيُسْتَعَدُّ لَهُ. كُلُّ هَوَانِ الإِنْسَانِ يَتَمَثَّلُ أَمَامَ أَعْيُنْنَا فِي ذَلِكَ الصَّوْتِ الأَجَشِّ، يَبْدَأُ بِالخُفُوتِ مُتَدَرِّجًا مِنَ القُّوَّةِ إِلَى الاتِّحَاءِ، كَرَجْعِ صَدًى لاَ يُجِيبُ فَرَاغُهُ بِمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ:" **يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ يَا مَوْتُ**...لاَ أَرَاكَ فِي الخَلْقِ جَمِيعًا تُبْقِي عَلَى أَحَدِ "، ثُمَّ يَنْكَفِئُ الصَّوْتُ عَلَى نَفْسِهِ بَاحِثًا فِي دَوَاخِلِهِ عَنْ مُخَلِّصٍ:

الحَمْـــدُ للهِ دَائِـــمًا أَبَـــدًا *** قَدْ يَصِفُ القَصْدَ غَيرُ مُقْتَصِدِ.
مَنْ يَسْتَنِرْ بِالهُدَى يُنِرْهُ وَ مَنْ *** يَبْـــغِ إِلَى اللهِ مَطْـلَبًا يَجِـــدِ.[1]

وَهَذِهِ نِهَايَةٌ تَبْدُو جَيِّدةً لِيَخْتِمَ بِهَا نَصَّهُ، وَهُوَ حُسْنُ تَخَلُّصٍ أَبَانَ عَنْ قُدْرَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي النَّفَاذِ مِنْ خِطَابٍ بَدَا وَكَأَنَّهُ يَسِيرُ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّشَابُكِ، خُصُوصًا حِينَ ارْتَكَزَ عَلَى التِّكْرَارِ المُتَوَالِي فِي (**يَا مَوْتُ**) مَرَّتَيْنِ فِي الشّطْرِ الوَاحِدِ عَلَى امْتِدَادِ خَمْسِ مَسَافَاتٍ، حَتَّى خُيِّلَ إِلَيْنَا وَكَأَنَّهُ يُرَاوِحُ مَكَانَهُ، يَعُودُ كَمَا تَعُودُ المَوْتُ، ويَسْتَمِرُّ وَيَتَثَبَّتُ كَمَا تَتَشَبَّثُ هِيَ! فَمِنْ مُمَيِّزَاتِ النِّدَاءِ بِـ (**يَا**) أَنَّهُ يُؤَدِّي " إِلَى خَلْقِ ظِلاَلٍ وَإِيحَاءَاتٍ جَدِيدَةٍ، تَتَشَكَّلُ فِي تَتَابُعٍ وَتَنَاسُقٍ مِنْ خِلاَلِ تَكْرَارِ الأَدَاةِ نَفْسِهَا فِي بِدَايَةِ الأَبْيَاتِ "[2].

[1]- الدّيوان، ص105: الأبيات12،13.

[2]- ظواهر أسلوبية في شعر بدويّ الجبل- دراسة، عِصام شرتح، م.س، ص15.

إِنَّ هَذَا الشَّكْلَ مِنَ التَّكْرَارِ، وَالذِّي يَسْتَحْوِذُ أَحْيَانًا كَثِيرَةً عَلَى مَجْمُوعَةِ أَبْيَاتٍ مُتَتَالِيَاتٍ يُسَمَّى التَّكْرَارَ المَقْطَعِيَّ، وَهُوَ أَطْوَلُ أَنْوَاعِ التَّكْرَارِ وَ"...يَحْتَاجُ إِلَى عِنَايَةٍ بَالِغَةٍ، وَدِقَّةٍ فِي تَقْدِيرِ طُولِ المَقْطَعِ الذِّي يُكَرَّرُ وَنَوْعِيَّتَهُ، وَمَدَى ارْتِبَاطِهِ بِالقَصِيدَةِ بِشَكْلٍ عَامٍ، وَاحْتِيَاجِ المَعْنَى إِلَى هَذَا التَّكْرَارِ، حَيْثُ أَنَّ تَكْرَارَ المَقَاطِعِ تَكْرَارٌ طَوِيلٌ فِي النَّغَمَاتِ، وَالإِيقَاعِ، وَالمَعْنَى، وَكَثِيراً مَا يُفْضِي إِلَى المَلَلِ فَتَكُونُ نَتَائِجُهُ عَكْسِيَّةً "[1] إِذَا مَا افْتَقَدَ الشَّاعِرُ إِلَى الآلِيَاتِ التِّي تَضْمَنُ انْسِيَابِيةَ النَّصِّ وَتَمَاسُكَهُ، وَنَحْسَبُ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ قَدْ وُفِّقَ إِلَى حدٍّ بَعِيدٍ فِي هَذَا المَنْحَى الأُسْلُوبِيِّ.

وَلْنَبْقَ مَعَ النِّدَاءِ، وَمَعَ (**أَيَا**) هَذِهِ المَرَّةَ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الحُرُوفِ التِّي تَتَرَدَّدُ كَثِيرًا عِنْدَ الشَّاعِرِ بِمَا لَهُ مِنْ خَاصِّيَةِ تَجَاوُرِ حَرْفَيْنِ بَيْنَهُمَا بَوْنٌ فِي مَخَارِجِ الصَّوْتِ، وَكَأَنَّ انْتِقَالَهُ مِنْ أَقْصَى الحَلْقِ مَعَ الهَمْزَةِ إِلَى تَجْوِيفِ الفَمِ مَعَ اليَاءِ، يُقَارِبُ تِلْكَ الحَالَةَ الشُّعُورِيَّةَ التِّي تَعْتَرِي الشَّاعِرَ هُنَا وَهُوَ يَرَى تِلْكَ الفَجْوَةَ تَزْدَادُ اتِّسَاعًا، وَذَاكَ الإِيقَاعَ الحَزِينَ المُتَسَارِعَ يَزْدَادُ حُضُورًا، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم269 [الطّويل][2]:

نَمُوت جَمِيعًا كُلُّنَـا غَيْـرَ مَا شَـكٍّ *** وَلاَ أَحَدٌ يَبْقَى سِوَى مَلِكُ المُـلْكِ.
أَيَا نَفْسُ أَنْتِ **الدَّهْرَ** فِي حَـالِ غَفْلَةٍ *** وَلَيْسَتْ صُـرُوفُ **الدَّهْرِ** غَـافِلَةً عَنْـكِ.
أَيَا نَفْسُ كَمْ لِي **مِنْكِ** مِنْ يَوْمِ صَرْعَةٍ *** إِلَى اللهِ أَشْكُو مَـا أُعَـالِجُهُ **مِـنْكِ**.
أَيَا نَفْسُ إِنْ لَـمْ **أَبْكِ** مِمَّـــا أَخَـافُهُ *** عَلَيْكِ غَدًا يَوْمَ الحِسَابِ فَمَنْ **يَبْكِي**.
أَيَا نَفْسُ هَذِهِ الدَّارُ لاَ دَارُ قُلْعَـــــةٍ *** فَـلاَ تَجْعَـلِ القَصْـدَ إِلاَّ إِلَى تِـلْكِ.
أَيَا نَفْسُ لاَ تَنْسَيْ عَنِ اللهِ فَضْـــــلَهُ *** فَتَأْيِـدُهُ مُلْـكِي وَخُـذْلاَنُهُ هُلْـكِي.
وَلَيْسَ دَبِيبُ الذَّرِّ فَوْقَ الصَّفَـاةِ فِي الظَّـــلاَمِ بِأَخْفَـى مِـنْ رِيَـاءٍ وَلاَ شِـــرْكِ.

[1]- لغة الشّعر العراقيّ المعاصر، عمران خضير حميد الكبيسيّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1982م، ص167.
[2]- الدّيوان، ص258.

هِيَ الدُّنْيَا الغَادِرَةُ، المُستَجْلِبَةُ لِشَفَقَةِ اللَّبِيبِ وَقَدْ أَدْرَكَ خَطَرَهَا فَاعْتَزَلَهَا لِيَنْجُوَ، يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ بِهَذاَ النِّدَاءِ المُتَكَرِّرِ مِنْ وَصْفٍ إِلَى وَصْفٍ، تَمَامًا كَمَا تَنْتَقِلُ الدُّنْيَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَتَتَقَلَّبُ مِنْ كَفٍّ إِلَى كَفٍّ تَخْتَبِرُ صَاحِبَهَا فَلاَ تُفْلِتُهُ، فَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ مَعَهَا غَيْرُ الخُضُوعِ وَالمَسْكَنَةِ، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 288[مِنَ الطَّوِيلِ][1]:

أَلَمْ نَرَ **يَا دُنْيَا** تَصَرُّفَ حَالِكِ *** وَغَدْرِكِ **يَا دُنْيَا** بِنَا وَانْتِقَالِكِ.
فَلَسْتِ بِدَارٍ يَسْتَتِمُّ بِهَا الرِّضَا*** وَلَوْ كُنْتِ فِي كَفِّ امْرِئٍ بِكَمَالِكِ.
حَرَامُكِ **يَا دُنْيَا** يَعُودُ إِلَى الضَّنَا *** وَذُو اللُّبِّ فِينَا مُشْفِقٌ مِنْ حَلاَلِكِ.
أَلِيفُكِ **يَا دُنْيَا** كَثِيرٌ غُمُومُهُ *** فَلَيْسَ النَّجَاةُ مِنْكِ غَيْرَ اعْتِزَالِكِ.
أَيَا نَفْسُ لاَ تَسْتَوْطِنِي دَارَ قُلْعَةٍ *** وَلَكِنْ خُذِي الزَّادَ قَبْلَ ارْتِحَالِكِ.
أَيَا نَفْسُ لاَ تَنْسَيْ كِتَابَكِ وَاذْكُرِي*** لَكِ الوَيْلُ إِنْ أُعْطِيتِهِ بِشِمَالِكِ.
أَيَا نَفْسُ إِنَّ اليَوْمَ يَوْمُ تَفَرُّغٍ *** فَدُونَكِ مِنْ قَبْلِ يَوْمِ اشْتِغَالِكِ.
وَمَسْؤُولَةٌ **أَنْتِ يَا نَفْسُ** فَيَسِّرِي *** جَوَابًا لِيَوْمِ الحَشْرِ قَبْلَ سُؤَالِكِ.
وَمِسْكِينَةٌ **أَنْتِ يَا نَفْسُ** فَقِيرَةٌ *** إِلَى خَيْرِ مَا قَدَّمْتِهِ مِنْ فِعَالِكِ.
هُوَ المَوْتُ فَاحْتَاطِي لَهُ وَأَبْشِرِي*** إِذَا نَجَوْتِ كَفَافًا لاَ عَلَيْكِ وَلاَ لَكِ.

يُنَادِي الشَّاعِرُ الدُّنْيَا أَرْبَعَ مرَّاتٍ فِي ثَلاَثَةِ أَبِيَاتٍ(يَا دُنْيَا) مُعَدِّدًا أَوْصَافَهَا وَأَحْوَالَهَا، بَلْ وَأَحْوَالَ النَّفْسِ مَعَهَا، لِذَا يَلْتَفِتُ فِي الأَبْيَاتِ الخَمْسَةِ اللاَّحِقَةِ إِلَى تِلْكَ النَّفْسِ فَيُنَادِيهَا، بَعْدَ أَنْ عَجَزَ عَنِ اسْتِعْطَافِ الدُّنْيَا كَيْ تُخَفِّفَ وَطْأَتَهَا عَلَى الإِنْسَانِ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ:وَاحِدَةٌ مِنْهَا(أَيَا نَفْسُ) وَ مَرَّتَانِ(أَنْتِ يَا نَفْسُ)، يَطْلُبُهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ عَلَّهَا تَسْمَعُ وَتَعُودُ (لاَ تَسْتَوْطِنِي، خُذِي، لاَ تَنْسِي، لَكِ الوَيْلُ، مَسْؤُولَةٌ، يَسِّرِي، مِسْكِينَةٌ، فَقِيرَةٌ، ...). إِنَّهُ أَسْلُوبُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ الذِّي دَرَجَ عَلَى تَوْظِيفِهِ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، يَقْرَعُ بِهِ آذَانَ الغَافِلِ، ويُكَرِّرُ

[1]- الدّيوان، ص272.

عَلَيْهِ صُوَرَ الدُّنْيَا ومَلَذَّاتِهَا وَمَا يَعْقُبُ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ الحَسْرَةِ وَالنَّدَمِ عَلَى انْقِضَاءِ العُمْرِ بِلاَ زَادٍ لِيَومِ الحِسَابِ:

هُوَ المَوْتُ فَاحْتَاطِي لَهُ وَأَبْشِـرِي*** إِذَا نَجَوْتِ كَفَافًا لاَ عَلَيْكِ وَلاَ لَكِ.

وَمِنْ صِيَغِ النِّدَاءِ التِّي ارْتَكَزَ عَلَيْهَا خِطَابُ الشَّاعِرُ، لَفْظَةُ (أَأُخِيَّ) فَهِيَ تَجْمَعُ دَلاَلَتَيْنِ عَلَى القَرِيبِ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، وَاحِدَةٌ بِهَمْزَةِ نِدَاءِ القَرِيبِ وَالأُخْرَى بِلَفْظِ أُخَيِّ لِمَا فِيهِ مِنْ تَحَبُّبٍ وَتَوَدُّدٍ. وَنَعْتَقِدُ بِأَنَّ مَوْضُوعَةَ الزُّهْدِ التِّي أَسَاسُهَا تَقْدِيمُ النَّصَائِحِ وَالعِظَاتِ، وَتَوْجِيهُ القَارِئِ وَتَنْبِيهُهُ لِمَطَبَّاتِ الحَيَاةِ وَطُرُقِ الخَلاَصِ مِنْهَا، تَجِدُ فِي هَذَا النِّدَاءِ وَسِيلَتَهَا إِلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، فَـ" مَعَ تَكرَارِ أَدَاةِ النِّدَاءِ تَتَجَاوَرُ المَسَافَةُ المَكَانِيَّةُ مَعَ لاَزِمٍ دَلاَلِيٍّ آخَرَ نَابِعٍ مِنْ الأَدَاةِ هُوَ(التَّنْبِيهُ)"[1]، بَلْ وَتَعْمَلُ فِي جَانِبٍ مُتَّصِلٍ بِهَذَا عَلَى تَحْرِيكِ وَعْيِ المُتَلَقِّي، الذِّي قَدْ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَى خِطَابِ تَعْنِيفٍ بَلْ إِنَّهُ سَيَزِيدُهُ غَرَقًا فِي مَا هُوَ فِيهِ، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ280 [مِنَ الطَّوِيلِ][2]:

أَخُوكَ الذِّي مِنْ نَفْسِهِ لَكَ مُنْصِفٌ *** إِذَا المَرْءُ لَمْ يُنْصِفْكَ لَيْسَ أَخَاكَا.

فَهُوَ يَقِفُ مَوْقِفَ الأَخِّ الأَكْبَرِ، الرَّاعِي الأَمِينَ (لِأُخِيِّ) يُوشِكُ أَنْ تَلْتَهِمَهُ مَتَاهَاتُ الدَّهْرِ وَتُلْوِي بِهِ انْعِطَافَاتُ الأَيَّامِ المُتَوَالِيَةِ، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ117[مَجْزُوءُ الكَامِلِ][3]:

أَأُخَيَّ كُنْ مُتَمَسِّـكًا *** بِجَمِيـعِ مَا لَكَ فِيهِ رُشْدُ.

وَفِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 164 [مِنَ المتَقَارِبِ][4] يَقُولُ:

أُخَيَّ أَضَعْتَ أُمُـورًا أَرَاكَ *** لِنَفْسِكَ فِيـهَا قَلِيلَ النَّظَرِ.

---

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص427.

[2]- الدّيوان، صص266،265. ومطلعُها: بَليتَ وما تبلى ثيابُ صِباكا***كفاك من اللّهو المُضرّ كفاكا.

[3]- نفسه، ص117، و مطلعُها: جِدُّوا فَإِنَّ الأَمْرَ جِدُّ***وَلَهُ أعدُّوا وَ اسْتَعِدُّوا.

[4]- نفسه، ص161، و مطلعُها: ألا رُبَّ ذي أجلٍ قد حضرْ***كثير التّمنّي قليل الحذرْ.

وَيقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقمِ 237 [مِنَ الوَافِرِ][1]:

أُخِيَّ إِذَا الجَدِيدَانِ اسْتَدَارَا *** أَرَتْكَ يَدَاهُمَا حَصْدًا وَزَرْعًا.

وَمِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ:257 [مِنَ البَسِيطِ] قَوْلُهُ[2]:

أُخِيَّ إِنَّا لَنَحْنُ الفَائِزُونَ غَدَا *** إِنْ سَلَّمَ اللهُ مِنْ دَارٍ لَهَا عَلَقْ.

وَفِي القَصِيدَةِ رَقَمِ:273 [مِنَ المْنسَرِحِ] يَقُولُ[3]:

أُخِيَّ إِنَّ الخُطُوبَ مُرْصِدَةٌ *** بِالمَوْتِ لاَ بُدَّ مِنْهُ لِي وَلَكَا.

فَزِيَادةً عَلَى الوَظِيفَةِ الافْتِتَاحِيَّةِ التِّي يُؤَدِّيهَا التَّكْرَارُ المَقْطَعِيُّ هُنَا إِذْ " يَدُقُّ الجَرَسَ مُؤْذِنًا بِتَفْرِيغِ جَدِيدٍ لِلمَعْنِى الأَسَاسِيِّ، الذِّي تَقُومُ عَلَيْهِ القَصِيدَةُ "[4]، فَإِنَّ لَهُ "خِفَّةً وَجَمَالًا لاَ يَخْفَيَانِ وَلاَ يُغْفَلُ أَثَرُهُمَا فِي النَّفْسِ، حَيْثُ أَنَّ القَفَزَاتِ الإِيقَاعِيَّةَ المُتَنَاسِقَةَ تُشِيعُ فِي القَصِيدَةِ لمَسَاتٍ عَاطِفِيَّةً وُجْدَانِيَّةً، يُفْرِغُهَا إِيقَاعُ المفْرَدَاتِ المكَرَّرَةِ بِشَكْلٍ تَصْحَبُهُ الدَّهْشَةُ وَالمفَاجَأَةُ "[5].

فَمَعَ التَّتَابُعِ الذِّي يَفْرِضُهُ هَذَا النَّمَطُ التَّكْرَارِيُّ، وَقَبْلَ أَنْ يُسَارِعَ المَلَلُ إِلَى القَارِئِ، يُفَاجِئُهُ الشَّاعِرُ بِكَسْرِ تِلْكَ الوَتِيرَةِ مِن التَّـرْدِيدِ وَالخُرُوجِ عَنْهَا إِلَى صِيغَةٍ جِدِيدَةٍ، أَوْ هُوَ يَكْتَفِي بِتَجَاوُزِ التَّكْرار عَلَى امْتِـدَادِ بَيْتٍ أَوْ أَكْثَرَ ثُـمَّ يَعُودُ إِلْيهِ تَارَةً أُخْرَى، لِيَكْـتَشِفَ القَارِئُ أَنَّ هذَا المَقْطَعَ مَرَّ بِهِ، فَـ" يَتَذَكَّرُهُ حِينَ يَعُودُ إِلَيْهِ مُكَرَّرًا فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنَ القَصِيدَةِ، وَهُوَ بِطَبِيعَةِ الحَالِ، يَتَوَقَعُ تَوَقُّعًا غَيْرَ وَاعٍ أَنْ يَجِدَهُ كَمَا مَرَّ بِهِ تَمَامًا. وَلِذَلِكَ يُحِسُّ بِرَعْشَةٍ مِنَ

---

[1]- نفسه، ص229، ومطلعها: ألمْ ترَ أنّ للأيّام وقْعًا***وأنّ لِوقعها عقرًا وجدعًا.

[2]- نفسه، ص250، ومطلعُها: الرِّفقُ يبلُغُ ما لا يبلُغ الخَرَقُ***وقلّ في النّاس من يصفو لهُ خُلُقُ.

[3]- نفسه، ص260، ومطلعها: المرءُ مُستأثِرٌ بما ملكا***ومن تعامى عن قدْرِهِ هلكا.

[4]- قَضايا الشّعر المعاصر، نازك الملائكة، م.س، ص284.

[5]- التّكرار في شعر محمود درويش، فهد ناصر عاشور، م.س، ص112. و ينظر:التكرار بين المثير والتأثير، م.س، ص282.

السُّرُورِ حِينَ يُلاَحِظُ فَجْأَةً أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ اخْتَلَفَ، وَأَنَّ الشَّاعِرَ يُقَدِّمُ لَهُ، فِي حُدُودِ مَا سَبَقَ أَنْ قَرَأَهُ، لَوْنًا جَدِيدًا "[1] مِنْ خِلاَلِ اللَّعِبِ عَلَى المُعْتَادِ الذِّي يَعْرِضُهُ فِي صُورَةِ المُسْتَحْدَثِ المُبْتَدَعِ فَيَكْسِرُ بِذَلِكَ الرَّتَابَةَ المُتَوَلِّدَةَ عَنْ إِعَادَةِ المُتَمَاثِلِ الذِّي قَدْ يَكُونُ بَدَأَ دُخُولَ حَظِيرَةِ المُسْتَهْلَكِ المُمِلِّ غَيْرَ أَنَّهُ بِهَذِهِ الطَّفْرَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ لاَ يَنْتَشِلُهُ مِنْ تِلْكَ السَّقْطَةِ الفَنِّيَّةِ وَفَقَطْ، بَلْ إِنَّهُ يَبْعَثُ فِيهِ رُوحَ الجِدَّةِ وَالإِبْدَاعِ عَبْرَ كَسْرِ أُفُقِ انْتِظَارِهِ الذِّي كَانَ يَسِيرُ حَتْمًا نَحْوَ نِهَايَةٍ رَسَمَهَا تَسَلْسُلُ التَّكْرَارِ، وَهُوَ ذَاتُهُ خَاتَلَنَا لِيُرَاوِغَنَا وَيَقْفِزَ بِنَا إِلَى أُفُقٍ جَدِيدٍ رَاحَ يَصْطَنِعُ مَسَارَهُ.

تِلْكَ بَعْضُ نَمَاذِجٍ اجْتَزَأْنَاهَا مِنْ أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ فِي الدِّيْوَانِ، لاَ لِغَايَةِ الإِحْصَاءِ وَالحَصْرِ وَحَسْب، وَإِنَّمَا لِإِثْبَاتِ تَوَاتُرِ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ لِضَرُورَةٍ فَرَضَهَا السِّيَاقُ، وَاسْتَدْعَاهَا المَوْضُوعُ. وَيَتَصَاعَدُ هَذَا الإِيقَاعُ وَيَتَكَثَّفُ مِنْ نَصٍّ إِلَى آخَرَ حَتَّى يَبْلُغَ مَدَاهُ مَعَ بَعْضِ النُّصُوصِ كَمَا هِيَ الحَالُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ:317 [منَ الكَامِلِ]، حَيْثُ يَسْعَى أَبُو العَتَاهِيَّةِ مِنْ مَطْلَعِهَا إِلَى إِقَامَةِ تَوَازُنٍ فِي الخِطَابِ يَبْنِيهِ علَى هَيْئَةٍ مُتَنَاغِمَةٍ مُكَوَّنَةٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ، جَعَلَ أُسْلُوبَ الأَوَّلِ وَالرَّابِعِ خَبَرِيًّا تَقْرِيرِيًّا مُؤَكِّدًا (الدَّهْرُ يُوعِدُ...+ إِنَّا لَفِي...)، وَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ البَيْتَانِ الأَوْسَطَانِ (الثَّانِي وَالثَّالِثُ) فِي صِيغَةِ الإِنْشَاءِ، وَبِالنِّدَاءِ تَحْدِيدًا (يَا رُبَّ عَيْشٍ...+ يَا طَالِبَ الدُّنْيَا...) فَمَهَّدَ بِذَلِك لِمَا سَيَأْتِي مُنْتَقِلاً مِنَ المُنَادَى غَيْرِ المُعَيَّنِ (يَا طَالِبَ) كَيْ يَتَسَنَّى لَهُ بَعْدَهَا تَحْوِيلَ الخِطَابِ بِسَلاَسَةٍ وَتَدَرُّجٍ يُوحِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ بِأَنَّهُ المَعْنِيُّ بِرِسَالَةِ الأَخِ القَرِيبِ المُحِبِّ (أَ= نِدَاءُ القَرِيبِ + أُخَيَّ= وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الحُنُوِّ وَالاهْتِمَامِ):

2/**يَا رُبَّ** عَيْشٍ كَانَ يُغْبَطُ أَهْـــلُهُ *** بِنَعِيمِهِ قَدْ قِيلَ كَانَ فَـــــزَالاَ.

3/**يَا طَالِبَ** الدُّنْيَا لِيُثْقِـــــلَ نَفْسَهُ *** إِنَّ المُخِفَّ غَدًا لأَحْسَنُ حَالاَ.

..... *** .....

5/**أَأُخَيَّ** إِنَّ المَـــــــالَ إِنْ قَدَّمْتَهُ *** لَكَ لَيْسَ إِنْ خَـلَّفْتَهُ لَكَ مَالاً.

[1]- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، م.س، ص270.

أَأُخِيَّ كُلٌّ لاَ محَـــالَةَ زَائِـــلُ *** فَلِمنْ أَرَاكَ تُشَمِّرُ الأَمْـــوَالاَ.
7/**أَأُخِيَّ** شَأْنَكَ بِالكَفَافِ وَخَلِّ مَنْ *** أَثْرَى وَنَافَسَ فِي الحُطَامِ وَغَالَى.

ثُمَّ تَنْتَهِي الدَّفْقَةُ الأُولَى لِهَذِهِ الصِّيغَةِ، لِيَأْخُذَ الشَّاعِرُ مَسَارًا مُخْتَلِفًا مِنَ القَوْلِ يَمْتَدُّ خَمْسَةَ عَشَرَ بَيْتًا يَقْطَعُهَا بِوَقْفَةٍ وَاحِدَةٍ تُعِيدُنَا لِلنِّدَاءِ بِـ (أَأُخَيَّ) وَكَأَنَّهَا هَزَّةٌ خَفِيفَةٌ تُحَاوِلُ أَنْ تُبْقِيَ الأَخَ/الإِنْسَانَ حَاضِرَ الذِّهْنِ، مُنْسَجِمًا معَ الحَدِيثِ:

23/**أَأُخِيَّ** إِنَّ المرْءَ حَيْثُ فِعَـــــالُهُ *** فَتَوَلَّ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ فِعَـالاَ.
29/**أَأُخِيَّ** مَنْ عَشِقَ الرِّئَاسَةَ خِفْتُ أَنْ *** يَطْغَى وَيُحْدِثَ بِدْعَةً وَضَلاَلاَ.
أَأُخِيَّ إِنَّ أَمَامَنَا كُرَبَـــا لَهَـــــا *** شَغْبٌ وَإِنَّ أَمَامَنَـــا أَهْـوَالاَ.
أَأُخِيَّ إِنَّ الدَّارَ مُدْبِرَةٌ وَ إِنْ كُنَّـــا *** نَـرَى إِدْبَـــارَهَا إِقْبَـــالاَ.
32/**أَأُخِيَّ** لاَ تَجْعَلْ عَلَيْكَ لِطَـــالِبٍ *** تَتَتَبَّعُ العَثَـرَاتِ مِنْكَ مَقَالاَ.
..... ***.....

37/**أَأُخِيَّ** إِنَّ الخَـلْقَ فـي طَبَقَـاتِهِ *** يُمْسِي وَ يُصْبِحُ لِلإِلَهِ عِيَالاَ.[1]

تَتَكَرَّرُ صِيغَةُ النِّدَاءِ هَذِهِ فِي مُسْتَهَلِّ تِسْعَةِ أَبْيَاتٍ، وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ قُرَابَةَ رُبُعِ القَصِيدَةِ يَشْغَلُهَا هَذَا الخِطَابُ الوَاعِظُ، وَحِينَ يَكُونُ لِلقَرِيبِ إِلَيْنَا فَإِنَّ تِكْرَارَهُ مِنْ غَيرِ كَلَلٍ يُبِينُ عَنِ الإِخْلاَصِ فِي النُّصْحِ وَالحِرْصِ عَلَى الاسْتِجَابَةِ لَهُ. (أَأُخيِّ)، أَيُّهَا الغِرُّ المقْبِلُ عَلَى الحَيَاةِ خُذْ حِذْرَكَ وَتَزَوَّدْ لَهَا لِتَخْرُجَ مِنْهَا مُعَافَى.

فَالارْتِبَاطُ وَثِيقٌ هُنَا بَيْنَ أَغْرَاضِ التَّكْرَارِ وَمَقَامَاتِهِ، بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ الفَصْلُ بَينَهُمَا، وَلَنْ نُجَانِبَ الصَّوَابَ إِذَا قُلْنَا بِأَنَّ الغَرَضَ هُوَ عُنْصُرٌ مِنْ عَنَاصِرِ المَقَامِ [2]، يَفْرِضُ المَوْقِفُ تَرْدِيدَ صِيَغٍ مُعَيَّنَةٍ بِكَمٍّ مُحَدَّدٍ تُدْرِكُهُ ذَائِقَةُ المُبْدِعِ وَتَتَحَكَّمُ بِهِ.

[1]- الدّيوان، القصيدة رقم317، صص306-309، عددُ أبياتها40، ومطلعُها: الدّهر يُوعد فُرقةً وزوالا *** وخُطُوبُه لكَ تضرِبُ الأمثالاَ.
[2]- التّكرَارُ بَلاغَةٌ، إبراهيم محمّد عبد الله الخولي، دار الأدب الإسلامي للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 2004م، ص100.

فَالتَّكْرَارُ هُنَا لَمْ يَكُن ثَقِيلًا عَلَى الخِّطَابِ، أَوْ (عَيًّا) عَلَى رَأْيِ الجَاحِظِ[1]، رُغْمَ تَرَدُّدِهِ الكَثِيفِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِك عَمِلَ عَلَى تَمَاسُكِهِ وَحُسْنِ تَسَلْسُلِهِ، حَتَّى لَيَبْدُوَ لِلقَارِئِ أَنَّ هَذَا الـ (أُخِيَّ) قَدْ أَلْقَى السَّمْعَ مُفْسِحًا المَجَالَ لِلشَّاعِرِ كَيْ يَسْتَرْسِلَ فِي تَبْلِيغِ المُرَادِ.

هَكَذَا تَصِيرُ هَذِهِ البِنْيةُ خَاصِيَّةً أُسْلُوبيّةً تُعمِّقُ جُذُورَهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ القَصَائِدِ، فَلاَ تَضْمَنُ انْسِجَامَ الخِطَابِ فِي النَّصِّ الوَاحِدِ وَفَقَطْ بَلْ تَجْعَلُهُ يَمْتَدُّ إِلَى إِنْتَاجِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي كُلِيَّتِهِ، لاَ لِيَتَشَابَهَ وَإِنَّمَا لِيَكْتَسِبَ فَرَادَتَهُ وَجِدَّتَهُ مِنْ هَذَا التَّرْدِيدِ، إِذْ لاَ يحِقُّ لَنَا، حَسَبَ رَأْيِ جِيلْ دُلُوزْ الذِّي سُقْنَاهُ آنِفًا الكَلاَمُ عَنِ التَّكْرَارِ إِلاَّ حِينَ تَسْمَحُ لَنَا العَنَاصِرُ المُكَرَّرَةُ المُتَطَابِقَةُ بِتَمْيِيزِ سِرٍّ جَدِيدٍ مِنْ خِلاَلِهَا، حِينَ ذَاكَ تَسْتَدْعِي النُّصُوصُ وَمَا فِيهَا مِنْ تَكْرَارٍ بَدِيهَةَ القَارِئِ اليَقِظِ لِيَكْشِفَ خُصُوصِيَّةَ كُلِّ خِطَابٍ يَقُولُ ظَاهِرُهُ بِأَنَّهُ نُسْخَةٌ عَنْ سَابِقِهِ، فِي الوَقْتِ الذِّي يَسْتَمِرُّ نُمُوُّهُ وَانْبِثَاقُهُ مِنَ الدَّاخِلِ، فَـ " أَنْ يُنْتَزَعَ مِنَ التَّكْرَارِ شَيْءٌ جَدِيدٌ، أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْه الاخْتِلاَفُ، هَذَا دَوْرُ المخَيِّلَةِ أَوِ الرُّوحِ الذِّي يَتَأَمَّلُ فِي أَحْوَالِهِ المُتَكَثِّرَةِ وَالمقَطَّعَةِ "[2]، وَهَذَا الذِّي يَكْشِفُ عَنْ مَوْهِبَةِ المُتَلَقِّي وَقُدُرَاتِهِ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ الذِّي يَعْمَلُ عَلى سَبْرِ أَغْوَارِ النَّصِّ وَهَتْكِ أَسْوَارِهِ وَأَسْرَارِهِ.

وَقَدْ نَجِيءُ إِلَى قَصِيدةٍ أُخْرَى مِنْ بَابِ التَّعَرُّفِ عَلَى أَلْوَانٍ مُغَايِرَةٍ مِنْ أَثَرِ صِيَغِ النِّدَاءِ، وَكَيْفَ يُسْهِمُ فِي تَلاَقُحِ المَعَانِي، وَتَوْتِيرِ الخِطَابِ، لِيُؤَسِّسَ بِذَلِكَ لُحْمَتَهُ وَيَضْبِطَ اتِّسَاقَهُ، " وَبِمَا أَنَّ أَدَاةَ النِّدَاءِ تَحْتَمِلُ فِي بِنْيَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ وُجُودَ الفِعْلِ (أَدْعُو) فَإِنَّ ذَلِكَ يَجْعَلُ اخْتِيَارَ الأَدَاةِ وَسِيلَةً لِتَقْرِيبِ الذَّاتِ مِنَ المَوْضُوعِ إِدْرَاكًا مِنْهَا لِطَبِيعَةِ الوَظِيفَةِ التيِّ تُؤَدِّيهَا، وَإِدْرَاكًا مِنْهَا لِدَوَاعِي قِيَامِهِ بِهَا، فَمُحَاوَلَةُ التَّقَرُّبِ مِنْهُ، أَوْ دَعْوَتُهُ لِلْقُرْبِ، هِيَ فِي نَفْسِ الوَقْتِ

[1]- يُنظر قولُ الجاحظ في الصفحة 17 من هذا البحث.

[2]- الاختلاف والتّكرار، م.س، ص175.

دَعْوَةٌ لِتَعْدِيلِ خَوَاصِّ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ وَشَدِّهَا إِلَى جَانِبِ المُجْتَمَعِ وَطَيِّهَا ضِمْنَ مُفْرَدَاتِهِ "[1].

هَكَذَا يَسْتَمِرُّ إِيقَاعُ النَّحِيبِ المُتَوَلِّدِ عَنْ هَوْلِ المُصِيبَةِ، فَيَنْتَقِلُ نِدَاءُ المُسْتَغِيثِ إِلَى أَجْوَاءِ الحَسْرَةِ وَالخَوْفِ مِنْ خَاتِمَةٍ يُخْشَى أَنْ تَكُونَ قَاصِمَةً، يَقُولُ فِي الأَبْيَاتِ 9-12 مِنَ القَصِيدَةِ ذَاتِهَا:

9/ **يَا نَأْيَ** مُنْتَجَعِي **يَا هَــوْلَ** مُطَّلَعِي *** **يَا ضَيْقَ** مُضْطَجَعِي **يَا بُعْدَ** شُقَّتِيَهْ.
يَا عَيْنُ كَمْ عَبْرَةً لِي غَيْرَ مُشْكِــلَةٍ *** إِنْ كُنْـتُ مُنْتَفِــعًا يَوْمًـا بِعَبْــرَتِيَهْ.
يَا عَيْنُ فَانْهَمِلِي إِنْ شِئْتِ أَوْ فَدَعِي*** أَمَّـا الزَّمَـانُ فَقَـدْ أَوْدَى بِجِـدَّتِيَهْ.
12/ **يَا كُرْبَتِي** يَـوْمَ لاَ جَــارَ يَبَــرُّ وَلاَ *** مَوْلَــى يُنَفِّــسُ إِلاَّ اللهُ **كُــرْبَتِيَهْ**.[2]

ثُمَّ مَا يَفْتَأُ يَعُودُ، بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَبْيَاتٍ، فِيهَا مِنْ تَصْوِيرِ حَالِهِ تَائِهًا ضَعِيفًا أَمَامَ مُغْرِيَاتِ الدُّنْيَا مَا يَعْكِسُ تَرَدُّدَهُ وَتَخَبُّطَهُ بَيْنَ الاسْتِجَابَةِ وَالخُضُوعِ، وَمُحَاوَلاَتٍ تَبْدُو يَائِسَةً لِقَهْرِ النَّفْسِ، يَنْهَاهَا وَلاَ تَنْتَهِي، فَلاَ يَمْلِكُ إِلاَّ الاسْتِمْرَارَ فِي نِدَائِهَا:

21/ **يَا نَفْسُ** ضَيَّعْتِ أَيَّامَ الشَّبَــــــابِ وَهَذَا الشَّـيْبُ فَاعْتَبِرِي بِالشَّيْبِ عِبْرَتِيَهْ.
22/ **يَا نَفْسُ** وَيْحَكِ مَا الدُّنيَا بَــاقِيَةٌ *** فَشَمِّرِي وَاجْعَلِي مِنَ المَوْتِ فِكْرَتِيَهْ.[3]

إِذَنْ يُؤَكِّدُ تَوَاتُرُ تَكْرَارِ صِيغَةِ النِّدَاءِ وَتَرَدُّدُهُ بِشَكْلٍ مُلِحٍّ فِي بِدَايَةِ هَذَا العَدَدِ الكَبِيرِ مِنَ الأَبْيَاتِ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ وَاعٍ بِمَا تَلْعَبُهُ هَذِهِ الصِّيغَةُ فِي تَوْصِيفِ الرِّسَالَةِ وَخِدْمَةِ الخِطَابِ وَعِمَارَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ مَا لَهَا مِنْ فَاعِلِيَّةٍ وَتَأْثِيرٍ فِي المُتَلَقِّي. يَسْتَغِلُّ الشَّاعِرُ تِلْكَ الخَاصِيّة الأُسْلُوبِيَّةَ لِإِبْقَائِهِ مَشْدُودًا إِلَى بُؤْرَةِ القَضِيَّةِ الأَسَاسِ، يَدُورُ فِي فَلَكِهَا دَانِيًّا حِينًا وَقَاصِيًّا آخَرَ، وَلَكِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ مِنْ مَجَالِهَا (المِغْنَاطِيسِيِّ): (النَّفْسُ/المَوْتُ). إِنَّ هَذَا الكَمَّ مِنْ تَكْرَارِ

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص427.
[2]- الدّيوان، ص436.
[3]- القصيدة رقم451 [من البسيط]، ص437.

النِّدَاءِ " يُؤَدِّي إِلَى خَلْقِ نَوْعٍ مِنَ التَّوَازُنِ وَالانْسِجَامِ فِي صَدْرِ الأَبْيَاتِ، مِنْ نَاحِيَةٍ، وَيُؤَدِّي أَيْضًا إِلَى لَفْتِ انْتِبَاهِ القَارِئِ إِلَى المَدْلُولِ عَنْ طَرِيقِ الإِيقَاعِ الصَّوْتِيِّ الذِّي يُحْدِثُهُ تَكْرَارُ الكَلِمَةِ "[1].

إِنَّ إِيقَاعَ تَكْرَارِ الابْتِدَاءِ بِالنِّدَاءِ فِي هَذَا النَّصِّ، وَفِي غَيْرِهِ أَيْضًا، يَصْلُبُ ظَهْرَهُ وَيُقِيمُ بِنَاءَهُ عَلَى ثَلاَثَةِ أَعْمِدَةٍ/مُسْتَوَيَاتٍ، اثْنَانِ مِنْهَا يَتَجَلَّيَانِ فِي الشَّكْلِ بِوُضُوحٍ، يَشْتَغِلُ الأَوَّلُ عَلَى المُسْتَوَى الأُفُقِيِّ أَيْ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ ذَاتِهِ، وَالثَّانِي عَمُودِيًّا نُزُولاً مَعَ بَقِيَّةِ الأَبْيَاتِ، أَوْ قُلْ صُعُودًا! إِذْ إِنَّ بِنَاءَ القَصِيدَةِ وَتَمَامَهُ لَهُ هَذَا التَّجَلِّي الخَاصُّ، وَالذِّي لاَ تُنَافِسُهُ فِيه غَيْرُ خَلِيَّةِ النَّحْلِ- فِيمَا أَزْعُمُ- أَوَلَيسَ مِنْ مَعَانِي النَّصِّ الرَّفْعُ وَالإِظْهَارُ[2] ؟! أَمَّا المسْتَوَى الثَّالِثُ فَهُوَ المُؤَطَّرُ بَيْنَ المُسْتَوَيَيْنِ، فِي فَضَائِهِمَا يَخْتَمِرُ، وَمِنْ أَعْمَاقِهِمَا يَتَمَخَّضُ فَيُولَدُ.

فَتَقَاطُعَ هَاتَيْنِ المسَافَتَيْنِ الزَّمَنِيَتَيْنِ المتَنَاظِرَتَيْنِ (أُفُقِيًّا): أُولاَهُمَا تَنْطَلِقُ مِنْ يَاءِ النِّدَاءِ لِتَسْتَقِرَّ عِنْدَ أَوَاخِرِ حُرُوفِ القَافِيَةِ، وَثَانِيَتُهُمَا تَرْدِيدُ النِّدَاءِ نُزُولاً، يُسْهِمُ بِشَكْلٍ بَيِّنٍ، عَنْ طَرِيقِ هَذِهِ المُتَوَالِيَاتِ، فِي شَحْنِ الأَبْيَاتِ بِطَاقَةٍ دَلاَلِيَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ تُرَاكِمُ المَعْنَى وَتُوَجِّهُهُ مُكَثَّفًا (عَمُودِيًّا) إِلَى ذِهْنِ القَارِئِ الذِّي تَسْتَحِثُّ مِثْلُ هَذِهِ الوَقَفَاتِ مُخَيِّلَتَهُ، وَتَشْحَذُ آلِيَاتِ الفَهْمِ وَالتَّأْوِيلِ لَدَيْهِ، " فَالتَّرْدِيدُ إِذَنْ، يَكْتَسِبُ مِيزَةَ التَّشْكِيلِ البِنَائِيِّ لِلنَّسَقِ اللُّغَوِيِّ مِنْ خِلاَلِ رَبْطِ المُكَرَّرِ بِدَالاَّتٍ سِيَاقِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى المُسْتَوَى الأُفُقِيِّ لِلْبِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ، أَيْ لِلْبَيْتِ الشِّعْرِيِّ "[3]، تَمَامًا كَما هِيَ الحَالُ عَلى المُستَوَى العَمُودِيِّ:

[1]- فاعليّة التّكرار في بنية الخطاب الشّعريّ، عبد الفتاح يوسف، م.س، ص40.

[2]- لسان العرب، ج7، ابن منظور، مادّة: نَ- صَ- صَ، م.س، ص97.

[3]- في بلاغة الضّمير والتّكرار، دراسات في النّصّ العذريّ، فايز عارف القرعان، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010م، ص122.

(شكل 9)

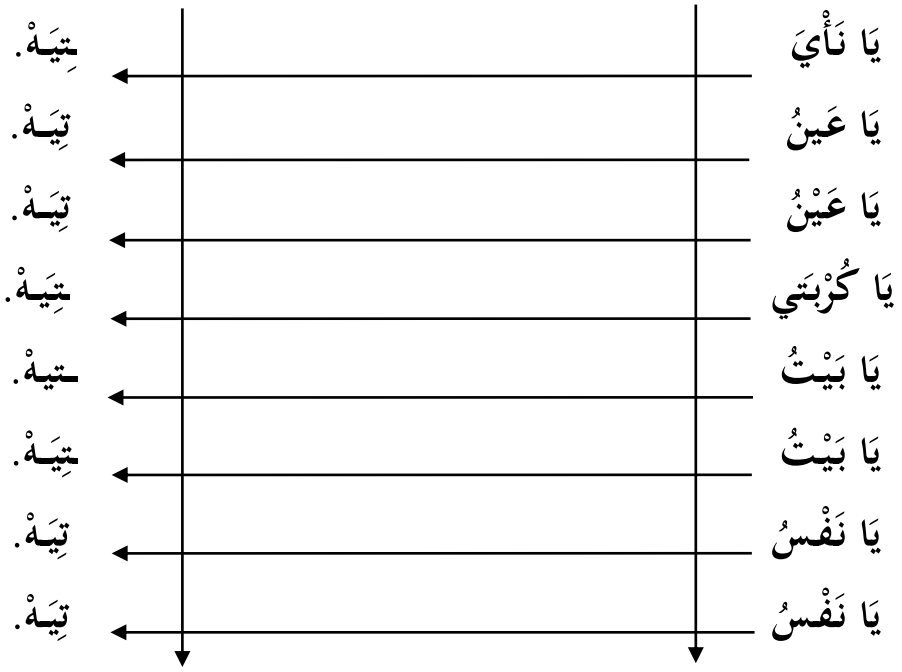

يَتَعَاضَدُ فِي النَّصِّ مَعَ تَكْرَارِ النِّدَاءِ، كَمَا نَرَى، صِيَغٌ أُخْرَى مِنْهُ، تَجْعَلُ نَسِيجَ القَصِيدَةِ أَكْثَرَ تَمَاسُكًا وَحَبْكًا، وَهُوَ مَا يَسْمَحُ بِإِنْتَاجِ الدَّلاَلَةِ وَتَصَاعُدِهَا عَنْ طَرِيقِ دُخُولِ هَذِهِ العَنَاصِرِ الأُسْلُوبِيَّةِ المخْتَلِفَةِ فِي تَفَاعُلٍ مُسْتَمِرٍ، يَتَسَاوَى تَرْكِيبِيًّا وَنَحْوِيًّا حِينَ يَقْطَعُ المسَافَةَ بَيْنَ أَدَاةِ النِّدَاءِ المُكَرَّرَةِ التِّي تَعْمَلُ كَنُقْطَةِ ارْتِكَازٍ وَمِنَصَّةً لِإِعَادَةِ صِيَاغَةِ المعْنَى وَتَدْوِيرِهِ، يُغَيِّرُ الشَّاعِرُ المُنَادَى لِيُحَمِّلَهُ دَلاَلَةً جَدِيدَةً تَتَوَزَّعُ فِي ثَنَايَا البَيْتِ/النَّصِّ.

لِهَذَا لَسْنَا نَرَى أَنَّ جُمْلَةَ النِّدَاءِ مَا هِيَ إِلاَّ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ تَنْبِيهِ المُخَاطَبِ، وَأَنَّ الكَلاَمَ لاَ يَتِمُّ فِي غِيَابِ جُمْلَةِ جَوَابِ النِّدَاءِ[1]، إِذْ سَلاَمَةُ هَذَا الطَّرْحِ مِنَ الوِجْهَةِ النَّحْوِيَّةِ لاَ تَعْنِي بِالضَّرُورَةِ صِحَّتَهُ مِنَ الوِجْهَةِ الدَّلاَلِيَّةِ وَالبَلاَغِيَّةِ، فَإِضَافَةً إِلَى خَاصِّيَّةِ التَّنْبِيهِ التِّي يَنْهَضُ بِهَا النِّدَاءُ فَهُوَ يُفَعِّلُ المعْنَى وَيُحَرِّكُهُ فِي الاتِّجَاهِ الذِّي يَعْتَقِدُهُ الشَّاعِرُ أَجْدَى لِلْحَرَكَةِ الكُلِّيَّةِ لِلْخِطَابِ، فَقَدْ يَنْكَفِئُ النِّدَاءُ مَرَّةً وَاحِدَةً عَلَى نَفسِهِ وَيَتَقَوَّضُ مَدْلُولُهُ كَمُنَبِّهٍ

[1]- فِي النّحو العربيّ نقد وتوجيه، مهدي المخزُوميّ، دار الرّائد العربي، بيروت ط1، 1986م، صص302-306 وَمَا بَعْدَهَا.

وَحَسْب، وَلَكِنَّهُ مُكَرَّرًا، كَمَا فِي القَصِيدَةِ السَّابِقَةِ، يَسْتَوعِبُ مَدْلُولَهُ الأَسَاسَ ثُمَّ يَشْرَعُ فِي اسْتِقْطَابِ غَيْرِهِ دَاخِلَ البِنْيَةِ فِي عَمَلِيَّةِ تَبَادُلٍ وَإِثْرَاءٍ، "وَلاَ شكَّ فِي أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الدَّالاَّتِ تُؤَوَّلُ لِصَالِحِ الدَّالِ الثَّانِي مِنْ دَالَّيْ بِنْيَةِ التَّكْرَارِ، وَلاَ شكَّ فِي أَنَّ مِثْلَ هَذَا الاتِّسَاعَ فِي العَلاَقَاتِ البِنَائِيَّةِ لِأَحَدِ الدَّالَّيْنِ يَصْنَعُ فَاعِلِيَّةً خَاصَّةً فِي السِّيَاقِ، بِحَيْثُ يَجْعَلُهَا بِنْيَةً مُتَنَامِيَةً بِدَالاَّتِهَا "[1]، وَهَذَا كَثِيرٌ عِنْدَ شَاعِرِنَا، وَمِنْهُ قَصِيدَتُهُ التِّي مطْلَعُهَا:

لِمَنْ طَلَلٌ أُسَـــــائِلُهْ *** مُعطّلةٌ مَنَـــــــازِلُهْ.[2]

يَصِفُ الشَّاعِرُ اعْتِسَافَ الدَّهْرِ وَتَقَلُّبَ أَحْوَالِهِ، وَانْعِكَاسَ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِهِ العَاجِزِينَ عَنْ رَدِّ صُرُوفِهِ، عَلَى امْتِدَادِ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ بَيْتًا...ثُمَّ يَنْقَلِبُ إِلَى صِيغَةٍ أُخْرَى يَضْمَنُ بِهَا اتِّصَالَ مَعَانِيهِ، وَتَوَاشُجَ بِنْيَتِهِ، وَيَرْبِطُ النِّصْفَ الأَوَّلَ مِنَ القَصِيدَةِ بِالثَّانِي، مُهَـيِّئًا لِذَلِكَ بِنِدَاءٍ لِلْقَرِيبِ (أَأَيَّتُهَا المَقَـابِرُ)، وَحَيْثُ أَشَرْنَا سَالِفًا إِلَى اشْتِمَالِ النِّدَاءِ عَلَى التَّنْبِيهِ، فَإِنَّنَا نَلْتَفِتُ، هُنَا، إِلَى تَلاَزُمِهِ وَتَعْزِيزِهِ بِأَدَاةٍ أُخْرَى تُشَارِكُهُ الدَّلاَلَةَ ذَاتَهَا(هَا)، وَفِي هَذَا التَّوْظِيفِ الأُسْلُوبِيِّ لِلتَّنْبِيهِ إِيمَاءَةٌ جَمِيلَةٌ مِنْ أَبِي العَتَاهِيَّةِ إِلَى اسْتِحَالَةِ اسْتِجَابَةِ المُنَادَى (المَقَابِر) وَمَنْ حَلَّ بِهَا لِلنِّدَاءِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ قُرْبٍ. وَمِنْ جَمِيلِ المفَارَقَةِ أَنَّ هَذَا القَرِيبَ صَارَ بَعِيدًا مُمْتَنِعاً عَبَّرَ عَنْهُ بِالفِعْلِ المَاضِي(كُنَّا)، فَكَانَ هَذَا النِّدَاءُ بِمَثَابَةِ الحَلَقَةِ التِّي ضَمِنَتْ انْسِجَامَ الجُزْأَيْنِ.

وَمِنْ نَبَاهَةِ الشَّاعِرِ وَتَمَلُّكِهِ لِأَدَوَاتِهِ الفَنِّيَّةِ تَحَوُّلُهُ إِلَى (**مَنْ**) المَوْصُولِيَّةِ، وَكَانَ اسْتَهَلَّ المَطْلَعَ بِـ(**مَنْ**) الاسْتِفْهَامِيَّةِ، وَهُوَ تَخَلُّصٌ سَلِسٌ حَقَّقَ لَهُ تَمَاسُكًا فِي النَّصِّ، وَمُرُونَةً فِي الخِطَابِ، واسْتِمْرَارِيَّةً لِلتَّدَفُّقِ الشِّعرِيِّ، خُصُوصًا وَهُوَ يُكَرِّرُهَا خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، بَلْ وَيَبْنِي أَبْيَاتَهُ الثَّمَانِيَّةَ التِّي تَلَتْ الاسْتِفْهَامَ عَلَى نَفْسِ الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ وَالصَّوْتِيَّةِ وَالدَّلاَلِيَّةِ (**مَنْ كُنَّا نُعَاشِرُهُ**)[3]. وَكَانَ أَبُو هِلاَلٍ العَسْكَرِيُّ رَأَى، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ المُؤْتَلِفِ وَالمُخْتَلِفِ،

[1]- في بلاغة الضّمير والتّكرار، دراسات في النّصّ العذريّ، م.س، ص132.

[2]- الدّيوان، القَصيدة رقم:334[مَجْزُوءُ الوَافِرِ]، صص327-329.

[3]- سبق الإشارة إلى بعض هذا في الفصل " 1 "، فَلْيُراجع هناك.

أَنَّهُ يَحْسُنُ حِينَ " يُجْمَعُ فِي كَلاَمٍ قَصِيرٍ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ أَوْ مُتَّفِقَةٌ "[1]، كَمَا فِي قَوْلُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ:

25- أَأَيَّتُهَا المقَــابِرُ فِيـ *** ـكِ **مَنْ كُنَّا** نُنَـازِلُهُ.
مَنْ كُنّا نُتَــاجِرُهُ *** **وَ مَنْ كُنَّـا** نُعَامِلُهُ.
وَ مَنْ كُنَّا نُعَاشِرُهُ *** **وَ مَنْ كُنَّا** نُدَاخِـلُهُ.
وَ مَنْ كُنَّا نُفَاخِرُهُ *** **وَ مَنْ كُنَّـا** نُطَـاوِلُهُ.
وَ مَنْ كُنَّا نُشَارِبُهُ *** **وَ مَنْ كُنَّـا** نُؤَاكِـلُهُ.
وَمَنْ كُنَّا نُرَافِقُــهُ *** **وَمَنْ كُنَّـا** نُنَــــازِلُهُ.
وَ مَنْ كُنَّا نُكَارِمُهُ *** **وَ مَنْ كُنَّا** نُجَامِلُهُ.
وَمَنْ كُنّا لَهُ إِلْفًـا *** قَـلِيـلاً مَـا نُزَايِـــلُهُ.
33- **وَ مَنْ كُنّا** بِلاَ مَيْنٍ *** أَحَايِـينًا نُوَاصِـلُهُ.[2]

فَأَنْتَ تَرَى كَيْفَ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ عَهِدَ إِلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَسْتَبْدِلُهَا فِي الشَّطْرَيْنِ كُلَّ مَرَّةٍ لِيَنْصَرِفَ عَنِ الدَّلاَلَةِ الأُولَى إِلَى أُخْرَى جَدِيدَةٍ دُونَمَا تَغْيِيرٍ جِذْرِيٍّ فِي بِنْيَةِ البَيْتِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ عُمُومًا، وَلَكِنَّهُ وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، جَمَعَ كُلَّ مَا يُمْكِنُ مِنْ صِفَاتٍ وَأَحْدَاثٍ وَعَلاَقَاتٍ تَمُسُّ حَيَاةَ الفَرْدِ فِي عَلاَقَتِهِ بِالآخَرِ، فَإِذَا نَحْنُ رَصَفْنَا هَذِهِ الأَلْفَاظَ المُسْتَبْدَلَةَ عَلَى التَّوَالِي إِلَى جَنْبِ بَعْضِهَا، رَأَيْنَا التَّكْثِيفَ الدَّلاَلِيَّ الذِّي تُثِيرُهُ بِدَوَرَانِهَا حَوْلَ دَالٍ وَاحِدٍ هُوَ (الميِّتُ) هُنَا، فَكُلُّ لَفْظٍّ مَشْدُودٌ إِلَيْهِ بِخَيْطِ المَعْنَى الرَّفِيعِ علَى مَسَافَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَكَرَّرُ فِي ثَبَاتٍ، حَدُّهَا بَيْنَ (مَنْ ←——كُنَّا)، يَزِيدُهَا الفِعْلُ المَاضِي النَّاقِصُ (كُنَّا) عُمْقًا وَاتِّسَاقًا بِتَرَدُّدِهِ اللاَّفِتِ لِلانْتِبَاهِ(15مَرَّةً)، وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنْ النَّقْصِ وَالفَقْدِ المُرَادِ تَأْكِيدُهُ بِهَذَا الانْسِيَابِ وَالتَّسَلْسُلِ، وَقَدْ عَمِلَتْ (هَاءُ السَّكْتِ) التِّي غَطَّتْ نِهَايَاتِ الأَشْطُرِ كُلِّهَا

[1]- الصّناعتين، أبو هلال العسكري، م.س، ص401.
[2]- الدّيوان، صص 328،329.

عَدَا ثَلاَثٍ (3مِنْ18)، عَلَى تَوْفِيرِ جَوِّ السُّكُونِ الجَارِحِ الذِّي يَمْلأُ المَكَانَ بَعْدَ كُلِّ حَرَكَةِ عَوِيلٍ وَصُرَاخٍ عِنْدَ الجُثَّةِ أَوْ بِالأَحْرَى أَمَامَ القَبْرِ مَدَارِ المَعْنَى فِي القَصِيدَةِ: (**الشَّكْلُ 10**)

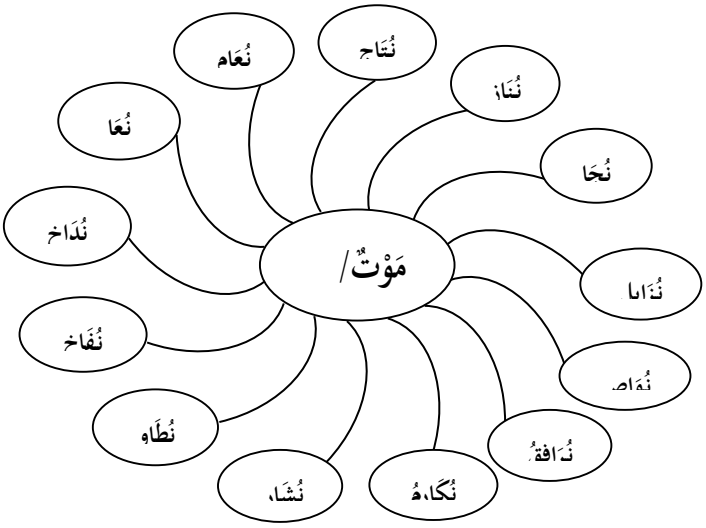

فَطَبِيعَةُ هَذَا التَّكْرَارِ المشَجَّرِ هُنَا قَائِمَةٌ عَلَى مُحَاوَرَةِ جَمِيعِ العَنَاصِرِ البِنَائِيَّةِ فِي النَّصِّ، بِحَيْثُ تَنْفَرِدُ كُلٌّ بِخَصَائِصِهَا ثُمَّ تَعُودُ فَتَجْتَمِعُ لِتُبْرِزَ القِيمَةَ الخِطَابِيَّةَ لِهَذَا التَّكْوِينِ المتَعَدِّدِ الأَطْرَافِ: تَكْرَارُ عِبَارَةٍ مَعَ تَغْيِيرِ عُنْصُرِهَا الأَخِيرِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْ شَطْرٍ إِلَى شَطْرٍ، مَعَ جَعْلِ حَرْفِ الرَّوِيِّ يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ المَقَاطِعِ مُشَكِّلاً تَصْرِيعًا دَاخِلِيًّا يَزِيدُ مِنْ لُحْمَتِهِ، وَيُفْضِي إِلَى انْجِلاَءِ الرُّؤْيَةِ الشِّعْرِيَّةِ كَكُلٍّ فِي تَكَامُلٍ يُهَيِّئُ لِإِدْرَاكِ " التَّحَوُّلاَتِ المفَاجِئَةِ التِّي تَطْرَأُ عَلَى المَحَاوِرِ لَحْظَةَ تَقَاطُعِهَا، وَالعَنَاصِرِ لَحْظَةَ تَفَاعُلِهَا، وَالأَزْمِنَة لَحْظَة تَوَاجُهِهَا "[1].

وَهذَا مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ صَلاَحْ فَضْل، حَيْثُ يَرَى أَنَّ " قِيمَةَ كُلِّ عُنْصُرٍ (مُكَرَّرٍ) بِنَائِيًا تَكْمُنُ عَلَى وجْهِ التَّحْدِيدِ فِي كَيْفِيَّةِ انْدِمَاجِهِ وَتَصَاعُدِهِ إِلَى مَا يَلِيهِ مِنْ هُنَا تَكْتَسِبُ بَعْضُ الصِّيَغِ أَهَمِّيَةً خَاصَّةً وَيُصْبِحُ تَكْرَارُهَا لَيْسَ مُجَّرَدَ تَوْقِيعٍ مُوسِيقيٍّ رَتِيبٍ، بَلْ هُوَ إِمْعَانٌ فِي تَكْوِينِ التَّشْكِيلِ التَّصْوِيرِيِّ لِلْقَصِيدَةِ وَإِدْغَامٌ لِمُسْتَوَيَاتِهَا العَدِيدَةِ فِي هَيْكَلٍ مُتَرَاكِبٍ "[2]، وَلَعَلَّ أَبْرَزَ تِلْكَ المُسْتَوَيَاتِ هُنَا، المُسْتَوَيَانِ: الصَّوْتِيُّ/الإِيقَاعِيُّ، وَالتَّرْكِيبِيُّ.

[1]- تحريرُ المعنى – دراسة نقديّة في ديوان أدونيس، أسيمة درويش، دارُ الآداب، بيروت، ط1، 1997م، ص144.

[2]- إنتاج الدّلالة الأدبيّة، صلاح فضل، مؤسّسة مختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، د.ت، ص275.

يَقُولُ جَمَالُ الدِّينِ بَنُ الشِّيخْ، وَهُوَ يتَنَاوَلُ مِثْلَ هذَا التَّكْرَارِ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ: " وَالاعْتِبَارَاتُ التِّي تَتَعلَّقُ بِالمَوْتِ وَالثَّرْوَةِ وَنَوَائِبِ الدَّهْرِ إِلَخ...قَرِيبَةٌ جِدًّا فِيمَا بَيْنَهَا، وَذَاتُ إِيحَاءٍ مُتَشَابِهٍ، إِلَى حَدِّ أَنَّ القَصِيدَةَ تَكْتَسِي مَظَاهِرَ مَوْعِظَةٍ يُلْقِيهَا خَطِيبٌ مِنْ عَلَى المِنْبَرِ. وَالعِنَايَةُ المُوَجَّهَةُ لِتَهْذِيبِ كُلِّ بَيْتٍ لاَ تَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا البَيْتُ مَحْمُولاً بِنَفْسِ مَوْجَةِ الخِطَابِ. نَجِدُ أَنْفُسَنَا أَمَامَ لُغَةٍ تَقَعُ بَيْنَ القَصِّ وَالغِنَائِيَّةِ المُقَدَّسَةِ التِّي نَجِدُهَا فِي القُرْآنِ "[1].

ونُضِيفُ إِلَى هَذَا مَا تُوحِي بِهِ هَذِهِ المَقَاطِعُ الصَّوْتِيَّةُ/الأَشْطُرُ المُكَرَّرَةُ فِي تَسَاوٍ وَتَنَاظُرٍ بَيْنَ الصَّدْرِ وَالعَجُزِ مِنْ هَيْئَاتِ التَّذَكُّرِ لِلمَوْتَى وَالتَّوَجُّعِ حَالَ فُقْدَانِهِمْ، وَالمُتَجَلِّيَةِ هُنَا فِي نَفَسِ النُّدْبَةِ الحَارِّ مِنْ آخِرِ القَافِيَةِ (**لَهْ**)، فَيَسْتَلْزِمُ تَكْرَارُ التَّرْكِيبِ وَالصَّوْتِ تَكْرَارَ وَقْعِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي نَفْسِ المُتَلَقِّي. عَلَى أَنَّ (**مَنْ**) هُنَا، وَمَعَ تَرَدُّدِهَا لِخَمْسَ عَشَرَةَ مَرَّةً لاَ تَعُودُ عَلَى الصُّورَةِ ذَاتِهَا لِأَنَّ هَذَا (**الذِّي**)، هُوَ مَرَّةً الرَّفِيقُ وَالعَشِيرُ الذِّي نُنَازِلُهُ ونُسَاكِنُهُ وَأُخْرَى هُوَ الخَصْمُ الذِّي نُطَاوِلُهُ وَنُفَاخِرُهُ.

غَيْرَ أَنَّ لِابْنِ الشِّيخِ رَأْيًا مُخَالِفًا لِهَذَا الطَّرْحِ، إِذْ يَرَى بِأَنَّ التَّكْرَارَ لاَ يُقَدِّمُ إِضَافَةَ ذَاتَ شَأْنٍ لِلْقَصِيدَةِ بَلْ إِنَّهُ يَخْنُقُهَا وَيُفْقِدُهَا تَلاَحُمَهَا حِينَ تَحَكَّمَ البَيْتُ فِي الدَّلاَلَةِ وَتَفَرَّدَ بِهَا " يَسْتَنْفِدُ التَّرْدِيدُ هُنَا الإِبْدَاعَ، وَلاَ يُؤَدِّي إِلاَّ لِتَكْرَارٍ مُمِلٍّ مِنَ التَّسَطُّحَاتِ. هَا هُوَ إِذَنْ نَمَطٌ مِنَ الأَبْيَاتِ تَسْتَقِلُّ فِيهِ الأَشْطُرُ بِنَفْسِهَا. وَهُوَ بِالذَّاتِ يَكْشِفُ عَنْ حُدُودِ قَاعِدَةٍ، وَيُثْبِتُ أَنَّ البَيْتَ فِي الحَقِيقَةِ لاَ يَنْتَعِشُ مِنْ اسْتِقْلاَلِيَّتِهِ. وَلِأَنَّ القَصِيدَةَ تَتَنَاثَرُ إِلَى وَحَدَاتٍ مُتَجَاوِرَةٍ، فَإِنَّ التَمَاثُلَ التَّرْكِيبِيَّ وَالتَّقَارُبَ الدَّلاَلِيَّ لاَ يُنْقِذَانِهَا مِنَ التَّفَتُّتِ "[2].

يَصْدُقُ هَذَا الاسْتِنْتَاجُ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، بَلْ وَيَجْرِي عَلَى كَثِيرٍ غَيْرِهِ مِنْ إِبْدَاعِ المتَقَدِّمِينَ، وَإِنَّمَا وَجَبَ التَّذْكِيرُ أَنَّ الإِبْدَاعَ عَمَلِيَّةٌ مُعَقَّدَةٌ، تَتَدَاخَلُ العَدِيدُ مِنَ العَنَاصِرِ، المُتَبَاعِدَةِ

[1]- الشّعريّة العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م.س، ص196.

[2]- الشّعريّة العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م.س، ص198.

المُتَنَافِرَةِ، وَالقَرِيبَةِ المُتَلاَحِمَةِ، فِي تَشْكِيلِ حَيْثِيَاتِهِ وَإِقَامَةِ مَعَالِمِهِ، إِذْ ذَاكَ، يَصِيرُ مِنَ الإِجْحَافِ البَيِّنِ أَنْ نَحْكُمَ عَلَى قِيمَةِ نَصٍّ مَا مِنْ خِلاَلِ عُنْصُرَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ فِي مَعْزِلٍ عَنْ أَكْثَرِهَا إِلاَّ فِي حُدُودِ مَا تَسْمَحُ بِهِ خُصُوصِيَّةُ كُلِّ إِبْدَاعٍ وَصَاحِبِهِ!

وَمِنْ أَنْمَاطِ التَّكْرَارِ التِّي تُعَدُّ ظَاهِرَةً أُسْلُوبِيَّةً بِحَقٍّ فِي زُهْدِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مَا يُسَمَّى تَكْرَارًا نَسَقِيًّا مُشَجَّرًا[1]، وَفِيهِ يُعَاينُ الشَّاعِرُ " العَلاَقَاتِ التَّرَاتُبِيَةَ وَالعَنَاصِرَ السِّيمْيَائِيَّةَ، وَمُسْتَوَيَاتِ العَلاَقَاتِ المُتَمَفْصِلَةَ، التِّي يُوَلِّدُهَا التَّكْرَارُ عَلَى المسْتَوَيَاتِ كَافَّةٍ، صَرْفِيَّةٍ وَنَحْوِيَّةٍ وَصَوْتِيَّةٍ وَدَلاَلِيَّةٍ "[2]، إِذْ يُكَرِّرُ أَبْيَاتًا تتَرَدَّدُ بِشَكْلٍ يَكَادُ يَكُونُ حَرْفِيًّا، وَيَعْمِدُ خِلاَلَ ذَلِكَ إِلَى تَغْيِيرِ كَلِمَة أَوْ أَكْثَرَ بِحَيْثُ تَنْتَقِلُ الدَّلاَلَةُ إِلَيْهَا وَتَتَرَكَّزُ فِيهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ تَوَالِي التَّكْرَارِ قَدْ سَيْطَرَ عَلَى الفِكْرِ ووَجَّهَ السِّيَاقَ لِفَتْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ نَحْوَ العِبَارَةِ المُكَرَّرَةِ إِذْ يَفْرِضُ حُضُورُهَا المسْتَمِرُّ ذَلِكَ.

إِنَّ " اللَّفْظَ المُتَغَيِّرَ أَشْبَهُ بِمُؤَشِّرٍ رمْزِيٍّ، يُؤَدِّي إِلَى تَكْثِيفِ الطَّاقَاتِ الكَامِنَةِ فِي النَّصِّ، إِذْ يَتَحَوَّلُ – اللَّفْظُ المتَغَيِّرُ– إِلَى شُحْنَةٍ تَتَآزَرُ وَمَا سَبَقَهَا وَتَتَآلَفُ وَمَا لَحِقَهَا مَشْدُودَةً إِلَى وَتَرِ السِّيَاقِ العَامِّ، وَذَلِكَ بِتَشْكِيلِهَا فَيْضًا مِنَ الإِيحَاءَاتِ المتَتَالِيَةِ، التِّي تَخْتَزِلُ أَفْكَاراً مُتَعَدِّدَةً، تُسْهِمُ فِي تَعْمِيقِ رُؤْيَةِ النَّصِّ، وَتَعَدُّدِ إِمْكَانَاتِهِ وَطَاقَاتِهِ الدَّلاَلِيَّةِ "[3]، وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ لاَ يَسَعُهَا المقَامُ هُنَا، قَوْلُ الشَّاعِرِ:

1/ مَنْ سَالَمَ النَّاسَ سَلِمْ * مَنْ شَاتَمَ النَّاسَ شُتِمْ.**
مَنْ ظَلَمَ النَّاسَ أَسَا * مَنْ رَحِمَ النَّاسَ رُحِمْ.**
مَنْ طَلَبَ الفَضْلَ إِلَى * غَيْرِ ذَوِي الفَضْلِ حُرِمْ.**

[1]– معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصِرة، سعيد علّوش، دار الكتاب اللّبناني، بيروت– سوشبريس، الدّار البيضاء، ط1، 1405هـ/1985م، ص125. "التّشجير: يدخل في التّمثيل الخطّيّ، لنتائج التّحليل أو الوصف البنيويّ، لموضوع سيميائي، حيث يُعَاين العلاقات التّراتبيّة ومستويات المتفصل أو الاشتقاق(...) وبحكم أنّ (التّشجير) ليس أكثرَ مِن تمثيلٍ، فهو يُعادل ما تعادله النّظريّة، التيّ يرتكز عليها الوصف".

[2]– ظواهر أسلوبية في شعر بدويّ الجبل– دراسة، م.س، ص37.

[3]– نفسه، ص.ن.

مَنْ طَلَبَ العَهْدَ وَفَى *** **مَنْ** أَحْسَنَ السَّمْعَ فَهِمْ.
مَنْ صَـــدَقَ اللهَ عَــلاَ *** **مَنْ** طَلَبَ العِلْمَ عَـلِمْ.
مَنْ خَالَفَ الرُّشْدَ **غَوَى** *** **مَنْ** تَبِــعَ **الغَــيَّ** نَــدَمْ.
مَنْ لَـزِمَ الصَّمْـتَ نَجَا *** **مَنْ** قَالَ بِالخَـيْرِ غَنِـمْ.
مَنْ عَفَّ وَاكْتَــفَّ زَكَا *** **مَنْ** جَحَدَ الحَقَّ أَثِــمْ.
مَنْ مَسَّـهُ الضُّرُّ شَكَا *** **مَنْ** عَضَّهُ الدَّهْـرُ نَـدِمْ.
لَـمْ يَعُــدْ حَيًّــا **رِزْقُــهُ** *** **رِزْقُ** امْرِئٍ حَيْثُ قُسِمْ.[1]

(الشَّكلُ 11)

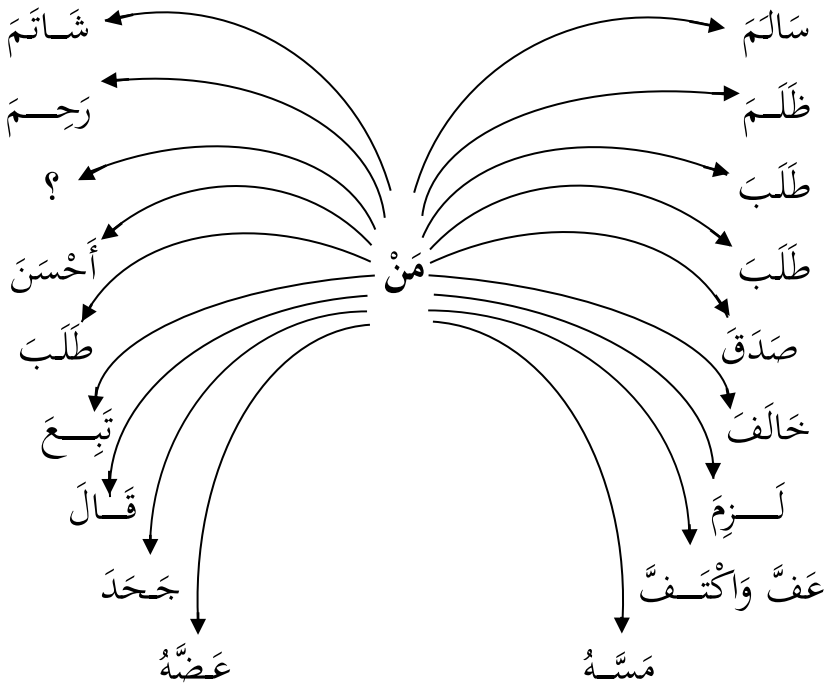

يَقُومُ النَّصُّ عَلَى ثُنائِيَّةِ الخَيْرِ/الشَّرِّ وَالتِّي مِحْوَرُهَا الأَسَاسُ: (**مَنْ**) أَيْ الإِنْسَانُ فِي صِرَاعِهِ مَعَ الدُّنْيَا وَمُتَناقِضَاتِهَا، وَهُوَ اسِمُ مَوْصُولٍ يَتَكَرَّرُ 17 مَرَّةً، وَهَذَا كَمٌّ هَائِلٌ إِنْ مَا

[1]- قصيدة رقم 358 [من مجزوء الكامل]، صص350،349.

قَارَنَّاهُ بِالأَبْيَات التِّسْعَةِ التِّي حَوَتْهُ فِي بِنْيَةٍ تتَشَابَكُ سَوَاءً عَمُودِيًّا أَوْ أُفُقِيًّا فِي كُلِّ الأَشْطُرِ عَدَا الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الثَّالِثِ أَوِ البَيْتِ الأَخِيرِ بِشَطْرَيْهِ مُكَوِّنَةً هَذَا النَّسِيجَ المُشَجَّرَ بِفَضْلِ التَّكْرَارِيَّةِ التِّي سَيْطَرَتْ عَلَى خِطَابِهِ فِي سَعْيٍ إِلَى عَقْدِ مُوَازَنَةٍ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ ونَتائِجِهِمَا كَمَا يَتَبَيَّنُ مِنَ البَيْتِ الأَوَّلِ:

مَنْ سَالَمَ النَّــاسَ سَـلِمْ * مَنْ شَاتَمَ النَّــاسَ شُـتِمْ.**

وَقِسْ عَلَى ذَلِكَ بَقِيَّةَ النَّصِّ وَأَمْثَالِهُ مِنْ زُهْدِيَاتِهِ. وَقَبْلَ أَنْ نُفَارِقَ القَصِيدَةَ لَزِمَ أَنْ نُشِيرَ إِلَى الأَنْمَاطِ الأُخْرَى مِنَ التَّكْرَارِ التِّي احْتَوَاهَا، فَفِي البَيْتَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي يُعِيدُ كَلِمَةَ(النَّاسَ) بِالرُّتْبَةِ والحَرَكَةِ ذَاتِهَا(العُنْصُرُ الثَالِثُ مِنَ الجُمْلَةِ = مَنْصُوبٌ عَلَى المَفْعُولِيَّةِ) وَبِالعَدَدِ نَفْسِهِ فِي كُلِّ شَطْرٍ وَكَأَنَّهُ يَعْرِضُ ثُنَائِيَّةَ الصِّرَاعِ تِلْكَ بِوَضْعِهَا فِي كَفَّتَيْ مِيزَانٍ مُتَقَابِلَتَيْنِ تَارِكَا الحُكْمَ ورَجَحَانَهُ لاخْتِيَارِ الإِنْسَانِ (**مَنْ**):

مَنْ سَالَمَ **النَّــاسَ** سَـلِمْ *** مَنْ شَاتَمَ **النَّــاسَ** شُـتِمْ.
مَنْ ظَلَـمَ **النّــاسَ** أَسَـا *** مَنْ رَحِـمَ **النَّــاسَ** رُحِــمْ.

وَكَرَّرَ كَلِمَةَ(طلَبَ) ثَلاثَ مَرَّاتٍ فِي ثَلاثَةِ أَبْيَاتٍ، أَمَّا كَلِمَةُ (الفَضْلَ) فَوَظَّفَهَا مَرَّتَيْنِ فِي البَيْتِ الثَّالِثِ. وَقَدْ عَزَّزَ هَذَا التَّكْرَارُ تَرَابُطَ الخِطَابِ وَشَكَّلَ وَسِيلَةً أُسْلُوبِيَّةً فَاعِلَةً فِي تَنَاسُقِ أَجْزَائِهِ المُؤَسَّسَةِ عَلَى التَّنَاقُضِ بَيْنَ الثُّنَائِيَةِ المُشَارِ إِلَيْهَا آنِفًا. إِنَّهُ تَكْرَارٌ يَنْطَلِقُ لِيَلْتَفَّ وَيَعُودَ لمَهْدِهِ، يَنْطَلِقُ مِنْ فِكْرَةِ الحَيَاةِ فِي اتِّجَاهِ المَوْتِ، يُغَادِرُ دَارَ الدُّنْيَا إِلَى دَارِ الآخِرَةِ، يَنْفِرُ مِنَ القَصْرِ إِلَى القَبْرِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى دَوْرَةِ الحَيَاةِ التِّي لاَ تَتَوَقَّفُ، وَلاَ يَتَوقَّفُ مَعَهَا الاغْتِرَارُ بِهَا والإِصْرَارُ عَلَى الوُقُوعِ فِي مَلَذَّاتِهَا.

وَنَأْتِي إِلَى القَصِيدَةِ رَقَمِ 299[1] وَالتِّي تَفْرِضُ عَلَيْنَا طَبِيعَةُ بِنْيَتِهَا الأُسْلُوبِيَّةِ تَنَاوُلَهَا فِي

[1]- الدّيوان، [من الكَامِل]، صص287- 290.

كُلِّيَتِهَا، عَلَى الأَقَلِّ، وَنَحْنُ نَدْرُسُ خَاصِّيَةَ التَّكْرَارِ فِيهَا، وَنُؤَكِّدُ قَبْلَ أَنْ نُبَاشِرَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا الوَضْعِ يَكَادُ يَنْسَحِبُ عَلَى جُلِّ الدَّيْوَانِ إِلاَّ فِيمَا نَدُرَ، وَلَيْسَ يَتِمُّ اخْتِيَارُ النُّصُوصِ مَوْضُوعَ الدِّرَاسَةِ إِلاَّ اعْتِبَاطًا، وَفِي إِطَارِ مَا يَسْمَحُ بِهِ البَحْثُ كَمًّا وَكَيْفًا، لِذَا فَإِنَّ التَّأْكِيدَ السَّابِقَ لاَ يُعَدُّ مِنْ بَابِ التَّعْمِيمِ وَالتَّعْوِيمِ، وَإِنَّمَا مِنْ بَابِ مُلاَحَظَةِ الظَّاهِرَةِ، وَهُوَ أَمْرٌ يَحْتَاجُ تَثْبِيتُهُ إِلَى مَجْهُودٍ أَكْبَرَ يَتَجَاوَزُ غَايَاتِ هَذَا العَمَلِ. مِنْ هُنَا سَنُفْرِغ، دُونَ اعْتِسَافٍ، بَعْضَ النَّتَائِجِ عَلَى قصَائِدَ أُخْرَى تَحْمِلُ السِّمَاتِ الأُسْلُوبِيَّةَ ذَاتَهَا أَوْ مَا يُمَاثِلُهَا مِنْ بَابِ الاسْتِئْنَاسِ وَالاخْتِصَارِ لَيْسَ إِلاَّ.

لَقَدْ أَقَامَ المُتَقَدِّمُونَ تَتَبُّعَهُمْ لِأَشْكَالِ التَّكْرِارِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الضَّوَابِطِ، فَبَدَؤُوا بِالتَّجَاوُرِ وَالتَّبَاعُدِ لِيَكُونَ مُنْطَلَقًا لِمُعَايَنَةِ العَلاَقَاتِ وَالرَّوَابِطِ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ التَّكْرَارِ، " وَيُمْكِنُ مِنْ خِلاَلِ تَوْظِيفِ هَذَا الكَشْفِ القَدِيمِ تَوْظِيفًا جَدِيدًا، رَصْدُ البُنَى التَّكْرَارِيَّةِ وَبَيَانُ نِسْبَةِ النَّاتِجِ الدَّلاَلِيِّ فِيهَا، لِأَنَّ بَيْنَ الشِّعْرِيَّةِ وَبَيْنَ هَذَا النَّاتِجِ صِلَةً مُؤَكَّدَةً، بِحَيْثُ يَكُونُ التَّجْرِيدُ وَسِيلَةً لِلتَّطْبِيقِ، فَيَتِمُّ التَّلاَحُمُ بَيْنَ المادَّةِ وَالصُّورَةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، كَمَا يَتِمُ التَّلاَحُمُ بَيْنَ نِسَبِ الأَشْيَاءِ وَالأَشْيَاءِ ذَاتِهَا عَنْ طَرِيقِ عَمَلِيَّةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ تَخْضَعُ لِلرَّصْدِ الشَّكْلِيِّ وَالاسْتِبْطَانِ الدَّاخِلِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَحْلِيلُ بِنْيَةِ التَّكْرَارِ مُعْتَمِدًا عَلَى النَّاحِيَةِ الكَمِّيَّةِ، كَمَا يَكُونُ مُعْتَمِدًا عَلَى النَّاحِيَةِ الكَيْفِيَّةِ، وَالتَّزَاوُجُ بَيْنَهُمَا يُؤَدِّي إِلَى الإِمْسَاكِ بِالنَّاتِجِ الدَّلاَلِيِّ فِي مُسْتَوَيَاتِهِ المخْتَلِفَةِ "[1].

هَكَذَا وَبِعَمَلِيَّةٍ حِسَابِيَّةٍ بَسِيطَةٍ، نَجِدُ أَنْفُسَنَا أَمَامَ زَخَمٍ مِنَ التَّكْرَارِ يَفْرِضُ نَفْسَهُ، وَيُوَجِّهُ حَرَكَةَ القِرَاءَةِ فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي يَنْسُجُ فِيهِ عَلاَقَاتِ التَّفَاعُلِ مَعَ عَنَاصِرِ النَّصِّ الأُخْرَى، وَلِكَيْ يَتَسَنَّى لَنَا مُلاَحَظَةَ ذَلِكَ فِي كُلِّيَّتِهِ سَنَسْتَعِينُ بِمَا يُتِيحُهُ لَنَا الإِحْصَاءُ مِنْ

[1]- بناء الأسلوب في شعر الحداثة، م.س، ص 382.

الكَلِمَةُ:	مَرَّاتُ تِكْرَارِهَا:	مُلاَحَظَاتٌ:
الوَاوُ	37	21 فِي بِدَايَةِ الشَّطْرِ الأَوَّلِ، 16 فِي أَوَّلِ الشَّطْرِ الثَّانِي.
العَقْلُ/عَقْلُكَ وَمُرَادِفَاتُهُ	17	النُّهَى، فَهِمْتُ، أَبْصَرْتُ...
إِذَا	16	5 مَرَّاتٍ مُتَتَابِعَةٍ(مِنَ البَيْتِ 17إِلَى21)/ثُمَّ 6 مَرَّاتٍ مُتَتَابِعَةٍ(مِنَ البَيْتِ 29إِلَى35)/مَرَّةٌ أَوَّلَ البَيْتِ:38-3 مَرَّاتٍ وسَطَ الشَطْرِ1 (الأَبْيَاتُ26، 36،27)/مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ أَوَّلَ عَجُزِ البَيْتِ 42. دَخَلَتْ 5 مَرَّاتٍ عَلَى اسْمٍ(ابْنُ،الفَتَى،السُّؤَالُ)، 9 مَرَّاتٍ عَلَى فِعْلٍ- مُقْتَرِنَةً بِالوَاوِ 14 مَرَّةً.
الهَوَى/هَوَاكَ	10	
الدُّنْيَا	9	مَقْرُونَةٌ فِي ثَمَانٍ مِنْهَا بِيَاءِ النِّدَاءِ.
يَاءُ النِّدَاءِ	8	

أَدَوَاتٍ، نَبْسُطُها عَبْرَ الجَدْوَلِ التَّالِي :

وَهُنَاكَ كَلِمَاتٌ تَرَدَّدَتْ بِعَددٍ أَقَلَّ وَلَكِنَّهَا فَاعِلَةٌ فِي النَّصِّ مِنْهَا: الزَّمَانُ- الهُدَى/ هُدَاكَ - الفَتَى - القَنَاعُةُ (4)، وَاحْذَرْ عَلَيْكَ - كَمْ - سُؤَالُ (3).

يَتَبَيَّنُ لَنَا مِنْ خِلاَلِ الجَدْوَلِ أَنَّ اشْتِغَالَ الشَّاعِرِ عَلَى التَّكْرَارِ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ ذَاتِ الأَبْيَاتِ الـ47 كَانَ نُقْطَةَ ارْتِكَازٍ تَبَنَّاهَا لِيُعَوِّضَ مَا قَدْ يَعْتَرِي نَصَّهُ مِنْ تَجْزِئَةٍ وَتَفَكُّكٍ، إِذْ لَوْلاَ هَذِهِ الأَدَاةِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي أَسْعَفَتْهُ لِيُبْقَيَ شَبَكَةُ المَعْنَى مُتَآزِرَةً لَرَأَيْنَاهُ يَقَعُ فِي الخِطَابِيَّةِ

المُبَاشِرَةِ التِّي يَفْرِضُهَا غَرَضُ الزُّهْدِ، وَالذِّي مِنْ طَبِيعَتِهِ تَوْجِيهُ النَّصَائِحِ وَالحِكَمِ فِي تَتَابُعٍ أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِالمَوَاعِظِ، مِمَّا يُنْهِكُ انْسِيَابِيَّةَ الخِطَابِ فَتَنْفَضِحُ تَقْرِيرِيَّتُهُ الوَاعِظَةُ... فَالتَّكْرَارُ يَتَوَاءَمُ مَعَ مِثْلِ هَذِهِ الحَالاَتِ إِذْ يُكْسِبُ القَصَائِدَ " طَاقَةً جَدِيدَةً (إِضَافِيَّةً) فِي الأَدَاءِ، وَيَزِيدُ أَصْوَاتَهَا ائْتِلاَفًا وَانْسِجَامًا، وَمَضْمُونَهَا وُضُوحًا وَجَلاَءً "[1].

وَأَنْ يُوَزِّعَ التَّكْرَارَ فِي ثَنَايَا النَّصِّ وَيَجْعَلَهُ مُتَتَابِعًا حِينًا، مُتَبَاعِدًا آخَرَ، هُوَ خَاصِّيَّةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ يُوَظِّفُهَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ بِإِلْحَاحٍ وَاقْتِدَارٍ فَفِيهِ يَتَحَقَّقُ " المُسْتَوَى الصَّوْتِيُّ وَالدَّلاَلِيُّ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ "[2]، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَخْدُمُ رِسَالَةَ الشَّاعِرِ خُصُوصًا مَعَ القَصَائِدِ الطَّوِيلَةِ نِسْبِيًّاكَمَا هِيَ الحَالُ هُنَا، وَالتِّي تَتَطَلَّبُ وَعْيًا بِصُعُوبَةِ الحِفَاظِ علَى انْسِجَامِ القَوْلِ وإِبْلاَغِيَّتِهِ، " فَالنَّمَطُ التَّكْرَارِيُّ يَتَحَقَّقُ مَعَهُ دَفْعُ المَعْنَى إِلَى النُّمُوِّ تَدْرِيجِيًّا وُصُولاً إِلَى الحَدِّ الذِّي يَحْسُنُ الوُقُوفُ عِنْدَهُ، حَتَّى يُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَ اطِّرَادَ المَعْنَى تَدَاخَلَ مَعَ وُجُوهِ الحَالِ المُنَاسِبَةِ فِيهِ "[3]، فَتَتَشَكَّلُ الدَّلاَلَةُ وَتَأْخُذُ هَيْأَتَهَا النِّهَائِيَّةَ فِي نَسِيجِ النَّصِّ بِكُلِّ عَنَاصِرِهِ.

فَالتَّكْرَارُ الذِّي " يَمْنَحُنَا عَوَامِلَ إِيقَاعِيَّةً تَتَوَلَّدُ عِنْدَ الانْتِشَارِ كَالتَّوَازِي، وَالتَّعَامُدِ وَالتَّنَاظُرِ، وَالتَّوَازُنِ وَالامْتِدَادِ، وَالمَوْقِعِيَّةِ، وَالتَّمَاثُلِ، فَتَمْنَحَ الصُّورَةَ الشِّعْرِيَّةَ إِيقَاعًا مُمَيَّزًا يَعْمَلُ عَلَى الإِثَارَةِ وَشَدِّ الانْتِبَاهِ " [4]، سَاعِيًا إِلَى تَحْقِيقِ هَنْدَسِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَيْسَ فِي فَضَاءِ النَّصِّ وَفَقَطْ، بَلْ فِي فِكْرِ المُتَلَقِّي أَيْضًا، وَأَحْسَبُ هَذَا أَهَمَّ وَأَبْعَدَ مَدًى، إِذْ تُحَافِظُ العَنَاصِرُ المُكَرَّرَةُ " عَلَى بِنْيَةِ النَّصِّ وَتَمَاسُكِهِ وَتَخْدُمُ الجَانِبَ الدَّلاَلِيَّ وَالانْفِعَالِيَّ فِي سِيَاقِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ ".[5]

يُمَوْضِعُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ كُتْلَتَيْ التَّكْرَارِ الأَكْبَرَ عَلَى مَسَافَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَيْنِ تَقْرِيبًا، فِي الحَجْمِ

---

[1]- ظواهرُ أسلوبيّة في شعر بدويّ الجبل، م.س، ص44.

[2]- البلاغة والأسلوبيّة، محمّد عبد المطّلب، م.س، ص302.

[3]- نفسه، صص301،300.

[4]- البنية الإيقاعيّة للقصيدة المعاصرة، عبد الرّحمان تيرماسين، دار الفجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2003م، ص386، ويُنْظر: قضايا الشّعر المعاصر، نازك صادق الملائكة، م.س، ص277 ومَا بَعدَها.

[5]- ينظر: الظّواهر الأسلوبيّة في جداريّة محمود درويش، م.س، ص266.

وَالزَّمَنِ، وَهُما اللَّتَانِ يَسْتَهِلُّ بِنَاءَهُمَا بِـ (**إِذَا**) مَقْرُونَةً بِالوَاوِ، خَمْسَةُ أَبْيَاتٍ فِي نِهَايَةِ الثُّلُثِ الأَوَّلِ مِنَ النَّصِّ، وَسَبْعَةٌ أُخَرُ فِي بِدَايَةِ الثُّلُثِ الأَخِيرِ مِنْهُ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهَا " أَدَاةٌ ذَاتُ فَائِدَةٍ بِنَائِيَّةٍ، تَقُومُ بِحِفْظِ بِنَائِيَّةِ الأَبْيَاتِ، وَتَشْكِيلِ رَابِطٍ يَعْمَلُ عَلَى تَلاَحُمِهَا وَتَوَاشُجِهَا، كَمَا أَنَّهَا تُقَدِّمُ نَصَائِحَ، تَعْكِسُ تَجْرِبَةَ الشَّاعِرِ العَامَّةَ فِي الحَيَاةِ "[1] وَهُوَ مَا يُوَافِقُ رُوحَ الحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ التِّي تَطْبَعُ النَّصَّ، بَلْ أَغْلَبَ نُصُوصِ الزُّهْدِيَاتِ.

وَكَمَا تَرْبِطُ (**إِذَا**) فِي تَلاَزُمٍ بَيْنَ شَطْرَيْ جُمْلَتَيْهَا: الشَّرْطُ وَجَوَابُهِ، تَعْمَلُ عَلَى شَدِّ قُطْبَيْ النَّصِّ إِلَى الوَسَطِ الذِّي يَتَلَمَّسُ فِيهِ الخِطَابُ طَرِيقَهُ إِلَى التَّشَكُّلِ وَالظُّهُورِ لِيُكَوِّنَ بُؤْرَةَ إِشْعَاعِهِ عَلَى بَاقِي ثَنَايَا القَصِيدَةِ، دَافِعًا بِذَلِكَ مَلاَمِحَ المَوْقِفَ الشِّعْرِيِّ إِلَى التَّجَلِّي، إِذْ " هُوَ الذِّي يَفْرِضُ عَلَى المَرْءِ أَنْ يَخْتَارَ الأُسْلُوبَ، وَالأُسْلُوبُ بِحَدِّ ذَاتِهِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُبَلْوِرَ المَوْقِفَ"[2]، فَتَنْهَضُ القَصِيدَة عَلَى صِيغَةِ مِنَ الانْسِجَامِ بَيْنَ الجُملَةِ الشَّرْطِيَّة، ومِنْ ثَمَّ بَيْنَ طَرَفَيْ الرِّسَالَةِ.

فَإِذَا زِدْنَا إِلَى هَذَا كُتْلَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ، تَتَجَلَّى الأُولَى فِي تَرْدِيدِ النِّدَاءِ (يَا دُنْيَا) سِتَّ مَرَّاتٍ فِي أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ (4 إلى7)، مَعَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ يُكَرِّرُ (الدُّنْيَا) مَرَّتَيْن قَبْلَ هَـذَا فِي البَيْتَيْنِ (1و3)، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَخَتَمَ بِهَا، إِذْ أَعَادَ صِيغَةَ (كَمْ + ...) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، وَجَدَنَا النَّصَّ يَأْخُذُ شَكْلَهُ النِّهَائِيِّ وَلاَ يَحْتَاجُ إِلاَّ تَوْزِيعِ بَاقِي التَّكْرَارَاتِ الأَقَلِّ عَدَدًا لِتَسْتَوِيَ رُقعَتُه[يُنْظَرُ الجَدْوَلُ فَوْقَ].

وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ نَخْلُصَ، وَجَبَ أَنْ نُنَبِّهَ إِلَى تِقْنِيَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ كَثِيرًا مَا يَلْجَأُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ لِيُنَوِّعَ أَشْكَالَ التَّكْرَارِ، وَهُوَ يَجِدُ فِيهَا أَدَاةً مُهِمَّةً لانْتِظَامِ الخِطَابِ وَانْسِجَامِهِ، لَعَلَّ طُولَ القَصِيدَةِ – كَمَا أَسْلَفْنَا – قَدْ فَرَضَهُ، فَهَا هُوَ يُعِيدُ صِيَاغَةَ المَعْنَى ذَاتَهُ بَعْدَ أَبْيَاتٍ قَلِيلَةٍ، بَلْ وَيُعِيدُ جُزْءً غَيْرَ يَسِيرٍ مِنْ المُفْرَدَاتِ فِي كُلٍّ مِنْهَا، فَيَقُولُ:

[1]– التّكرار في الشّعر الجاهليّ، دراسة أسلوبيّة، ربابعة موسى، م.س، ص31.

[2]– نفسه، ص.ن.

2- شُغِلَ الأُلَى **كَنَزُوا الكُنُوزُ** عَنِ التُّقَى*** وَسَهَوْا بِبَاطِلِهِم عَنِ الآجَـالِ.

41- رُجِّ العُقُــولَ الصَّافِيَــاتِ فَإِنَّــهَا*** **كَنْزُ الكُنُوزِ** وَمَعْدِنُ الإِفْضَالِ.

وَمِنْ مِثْلِهِ قَوْلُهُ:

6- قَدْ كُنْتِ يَا دُنْيَا **مَلَكْتِ مَقَــادَتِي** *** فَقَرَّبْتِنِي بِوَسَاوِسٍ وَخَبَــــالِ.

12- **ومَلَكْتُ قَوَدَ** عِنَانِ نَفْسِي بِالهُدَى*** **وَطَوَيْتُ عَنْ** تَبَعِ الهَوَى **أَذْيَالِي**.

وَفِي المَسَافَةِ بَيْنَ البَيْتَيْنِ، يَبُثُّ فِي السِّيَاقِ تَكْرَارًا مِنْ الصِّيغَةِ ذَاتِهَا لِيَكْتَمِلَ خَيْطُ الدَّلاَلَةِ وَيَسْتَقِيمَ:

10- **وَطَوَيْتُ عَنْكِ ذُيُولَ** بُرْدَيْ صَبْوَتِي*** وَقَطَعْتُ حَبْلَكِ مِنْ وِصَالِ حْبَالِي.

هَذَا عَنِ التَّكْوِينِ التَّكْرَارِيِّ فِيمَا بَيْنَ البَيْتِ وَمَثِيلِهِ، أَمَّا دَاخِلَ البَيْتِ ذَاتِهِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ:

17- **وَإِذَا ابْنُ آدَمَ** نَــالَ رِفْعَــةَ مَنْــزِلٍ*** قُـرِنَ **ابْنُ آدَمَ** عِنْـدَهَا بِفَــــالِ.

18- **وَإِذَا الفَتَى** حَجَبَ الهَوَى عَنْ عَقْلِهِ*** رُشِدَ **الفَتَى** وَصَفَا مِنَ الأَوْجَـالِ.

22- أَمْسَتْ **رِيَاضُ** هُدَاكَ **مِنْكَ خَوَالِيًا** *** **وَرِيَاضُ** غَيِّكَ **مِنْكَ** غَيْـرَ **خَوَالِي**.

26- **قَاتِلْ هَوَاكَ** إِذَا دَعَــاكَ لِفِــتْنَةٍ *** **قَاتِلْ هَوَاكَ** هُنَـاكَ كُـلَّ **قِتَــالِ**.

38- **وَإِذَا السُّــؤَالُ** مَعَ **النَّــوَالِ** قَرَنْتَهُ *** رَجَحَ **السُّؤَالُ** وَخَفَّ كُـلُّ **نَـوَالِ**.

لِيَبْلُغَ هَذَا التَّكْرَارُ مُنْتَهَاهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنْحَصِرُ فِي الشَّطْرِ الوَاحِدِ مِنَ البَيْتِ:

08- غَرَسَ التَّخَلُّصُ مِنْكِ بَيْنَ جَوَانِحِي*** شَجَرَ **القَنَاعَةِ وَالقَنَـاعَةُ** مَـالِي.

13- وَتَنَاوَلَتْ فِكَـرِي عَجَـائِبُ جَمَّةٌ *** بِتَصَرُّفِي فِي **الحَـالِ** بَعْدَ **الحَـالِ**.

15- إِنَّ **القَنَاعَةَ** بِالكَفَـافِ هِـيَ الغِنَـى*** وَ**الفَقْرُ** عَيْنُ **الفَقْـرِ** فِي الأَمْوَالِ.

20- **وَإِذَا** الفَتَى لَـزِمَ التَّلَـوُّنَ لَمْ تَجِــدْ *** أَبَدًا لَهُ فِي **الوَصْلِ** طَعْمَ **وِصَالِ**.
45-كَمْ عِبْرَةٍ لِذَوِي التَّفَكّرِ وَالنُّـــهَى*** فِي **ذَا الزَّمَانِ وَذَا الزَّمَانِ** الحَالِي.

يَعُودُ التَّكْرَارُ فِي هَذَا النَّصِّ، وَفِي أَغْلَبِ الدَّيْوَانِ كَمَا مَرَّ بِنَا، بِشَكْلٍ لاَ يُمْكِنُ صَرْفُ النَّظَرِ عَنْهُ أَوْ تَجَاوُزُهُ وَلَوْ إِلَى حِينٍ، فَالظَّاهِرَةُ مُتَمَكِّنَةٌ فِي ثَنَايَا القَصَائِدِ، وَهِيَ بِذَلِكَ تَعْكِسُ بِوُضُوحٍ جَانِبًا مِنَ التَّجْرِبَةِ الشِّعْرِيَّةِ لِأَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَتُمَثِّلُ عَلَامَةً فَارِقَةً فِي تَشْكِيلِ خِطَابِهِ، أَلَيْسَ (الأُسْلُوبُ هُوَ الإِنْسَانُ نَفْسُهُ)كَمَا صَدَحَ بُوفُونْ مِنْ عُقُودٍ؟ فَتَوْظِيفُ التَّكْرَارِ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ طَرِيقًا فَرَضَتْهُ طَبِيعَةُ المَوْضُوعِ (الزُّهْدُ هُنَا)، بَلْ هُوَ إِلَى ذَلِكَ اخْتِيَارٌ وَاعٍ، وَإِيثَارٌ لَهُ عَلَى طَرَائِقَ وَبَدَائِلَ أُخْرَى يَضَعُهَا فِي مُتَنَاوَلِ الشَّاعِرِ، إِنَّهَا أُسْلُوبُهُ فِي تَمَثُّلِ قَضَايَاهُ وَطَرْحِهَا، هِيَ عَادَتُهُ وَلَـ" رُبَّمَا تَتَوَصَّلُ العَادَةُ إِلَى (أَخْذِ) شَيْءٍ جَدِيدٍ مِنَ التَّكْرَارِ الذِّي يَجْرِي تَأَمُّلُهُ مِنَ الخَارِجِ "[1] عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ دُولُوزْ.

فَالعَادَةُ، وَإِنْ كَانَتْ مُخَادِعَةً فِي أَغْلَبِ أَحْوَالِهَا، لِأَنَّهَا تَجْعَلُنا نَحْكُمُ بِالمَأْلُوفِ دُونَمَا انْتِبَاهٍ لِلتَّغَيُّرَاتِ التِّي طَرَأَتْ فِي غَفْلَةٍ مِنَّا، غَيْرَ أَنَّهَا تَسْمَحُ لِلْفَطِنِ بِتَمْيِيزِ الجَدِيدِ مِنْ خِلاَلِ المُعْتَادِ المُكَرَّرِ المُتَخَفِّي وَرَاءَ الكَلِمَةِ/المَعْنَى المُتَرَدِّدِ، فَـ" أَنْ نُكَرِّرَ يَعْنِي أَنْ نَتَصَرَّفَ، وَلَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى شَيْءٍ وَحِيدٍ أَوْ فَرِيدٍ، لاَ شَبِيهَ لَهُ أَوْ مُعَادِلَ "[2]، وَهُنَا تَصِيرُ مَهَمَّةُ القَارِئِ الأُولَى هِيَ اسْتِجْلاءُ الفَرَادَةِ الكَامِنَةِ فِي هَذَا المُكَرَّرِ.

إِنَّ الإِعَادَةَ، بِهَذِهِ الصِّيغَةِ، لاَ يُمْكِنُهَا أَنْ تَكُونَ دَوَرَانًا فِي فَرَاغٍ، بَلْ عَمَلاً مَدْرُوسًا وَطَرِيقَةً مُتَمَلَّكَةً تَسِمُ الخِطَابَ وَتَمِيزُهُ. فَانْظُرْ إِلَيْهِ فِي نِهَايَةِ القَصِيدَةِ ثَابِتًا عَلَى هَذِهِ الصِّيغَةِ فِي الإِعَادَةِ، لاَ يَكْسِرُهَا إِلاَّ باتِّخَاذِ لَفْظَةٍ/جُمْلَةٍ تَكْرَارِيَّةٍ مُغَايِرَةٍ، دَفْعًا لِما قَدْ يَتَوَلَّدُ عَنْ سَابِقَاتِهَا مِنْ مَلَلٍ أَوْ نُفُورٍ إِنْ هِيَ تَجَاوَزَتْ الحَدَّ الذِّي اسْتَقَرَ فِي خَلَدِ الشَّاعِرِ فَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَبَثًّا لِدِمَاءٍ جَدِيدَةٍ فِي أَوْصَالِ النَّصِّ لِيَحْمِلَهَا إِلَى مُنْتَهَاها، أَوْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُتَطَلَّبًا

[1]- الاختلاف و التّكرار، جيل دولوز، م.س، ص56.
[2]- نفسه، ص46.

أُسْلُوبِيًّا اسْتَدْعَاهُ الخِطَابُ فِي تِلْكَ المَرْحَلَةِ مِن القَوْلِ:

44/ **وَلَرُبَّمَا ارْتَفَـعَ** الوَضِيـعُ بِفِعْـلِهِ *** **وَ لَرُبَّـمَا** سَفَـلَ **الرَّفِيـعُ** العَـالِـي.
كَمْ عِبْرَةٍ لِذَوِي التَّفَـكُّرِ وَالنُّهَـى*** فِي **ذَا الزَّمَانِ وَذَا الزَّمَانِ** الخَالِـي.
كَمْ ضَعِيفِ **العَقْـلِ** زَيَّـنَ **عَقْـلَهُ** *** مَا قَدْ **رَعَـى** وَ **وَعَى** مِنَ الأَمْثَالِ.
كَمْ مِنْ **رِجَالٍ** فِي العُيُونِ وَمَا هُمْ *** فِي **العَقْـلِ** إِنْ كَشَّفْتَـهُمْ **بِرِجَـالِ**.

فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ بَعْدَ أَن بَدَأَ نَصَّهُ، الطَّوِيلَ نِسْبِيًّا (47بَيْتًا)، بِسِلْسِلَةٍ أُولَى مِنَ التَّكْرَارِ القَائِمِ عَلى الابْتِدَاءِ بِـ(حَرْفِ الوَاوِ يَلِيهِ فِعْلٌ) عَلَى امْتِدَادِ 4 أَبْيَاتٍ، كَسَرَ هَذَا التَّوالِي لِيَبْدَأَ تَرْدِيدًا جَدِيدًا بَعْدَ انْقِطَاعٍ فِي الأَبْيَاتِ الثَّلاثَةِ اللاَّحِقَةِ، فَجَعَلَ (إِذَا) تَتَكَرَّرُ 5 مَرَّاتٍ فِي مُبْتَدَى الأَبْيَاتِ المُوَالِيَةِ، لِيَكْسِرَهُ ثَانِيَةً بِاسْتِهْلاَلِ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ بَعْدَهُ، بِأَفْعَالِ أَمْرٍ (قَيِّدْ، بَرِّدْ، قَاتِلْ، اخْزُنْ)، لِيَعُودَ إِلَى سِلْسِلَةٍ أَطْوَلَ هُنَا بِاسْتِعْمَالِ (إِذَا) 7 مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَنْقَطِعُ عَنْهَا إِلَى فِعْلِ الأَمْرِ ثَانِيَةً فِي 3أَبْيَاتٍ(رَجِّ، صَافِ، صِلْ) ، لِيُنْهِيَ هَذِهِ القَصِيدَةَ بِسِلْسِلَةٍ وَظَّفَ فِيهَا (كَمْ الخَبَرِيَّةَ) 3 مَرَّاتٍ.

فَحِينَ نَقُولُ (كَسَرَ)هُنَا، فَإِنَّنَا لاَ نُرِيدُ أَنْ يَقْفِزَ إِلَى فِكْرِ المُتَلَقِّي بِأَنَّهُ خَلَلٌ وَانْقِطَاعٌ فِي اتِّسَاقِ الخِطَابِ وَتَدَفُّقِهِ، إِنَّهُ كَسْرٌ (ضَرُورِيٌّ) بَلْ إِنَّهُ كَسْرٌ جَمَالِيٌّ يَسْتَجْمِعُ فِيهِ الشَّاعِرُ قُدُرَاتِهِ لِيَجْبِرَهُ وَيَضْمَنَ تَمَاسُكَ القَصِيدَةِ ووَحْدَتَهَا الدَّلالِيَّةَ فَضْلاً عَنْ وَحْدَتِهَا النَّغَمِيَّةِ/ الصَّوْتِيَّةِ. إِنَّهُ عَمَلُ الفَنَّانِ المُبْدِعِ، تَمَامًا كَمَا يَفْعَلُ الصَّائِغُ حِينَ يَعْمِدُ إِلَى بَعْضِ مَفَاصِلِ العِقْدِ، يَخْتَارُهَا بِعِنَايَةٍ، فَيَكْسِرُهَا ثُمَّ يَجْبِرُهَا بَعَدَ أَنْ يَنْضُدَ فِي ذَلِكَ المَوْضِعِ بِلَّوْرَةً أَوْ مَا شَابَهَهَا، تُنَاسِبُهُ وتُمَيِّزُهُ عَنْ بَاقِي أَجْزَائِهِ التِّي تَأْتَلِفُ فِي الأَخِيرِ مُشَكِّلَةً وَحْدَةً فَنِّيَّةً بَالِغَةَ الجَمَالِ والانْسِجَامِ.

وَيَنْسَحِبُ هَذَا الذِّي قُلْنَاهَا عَلى جَمِيعِ القَصَائِدِ التِّي فِيهَا هَذا الشَّكْلُ مِنَ التَّكْرَارِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي ثَنَايَا الدِّيوَانِ كَمَا ذَكَرْنَا، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

وَكَمْ مِنْ مُلُوكٍ رَأَيْنَـا **تَحَصَّـنَتْ** *** فَعَطَّلَتِ الأَيَّامُ مِنْهَا **حُصُـونَهَا**.
وَكَمْ مِنْ ظُنُونٍ لِلنُّفُوسِ كَثِيـرةٍ *** فَكَذَّبَتِ الأَحْدَاثُ مِنْهَا **ظُنُونَهَا**.[1]

أَوْ قَوْلُهُ:

4/ **فَكَمْ** مِنْ عَزِيزٍ قَدْ رَأَيْنَا امْتِنَاعَهُ *** فَـدَارَتْ عَلَيْـهِ بَعْـدُ إِحْدَى الدَّوَائِرِ.
وَكَمْ مَلِكٍ قَدْ رُكِّـمَ التُّرْبُ فَوْقَهُ *** وَعَهْدِي بِهِ فِي الأَمْسِ فَوْقَ المَنَابِرِ.
وَكَمْ دَائِبٍ يُعْنَى بِمَا لَيْسَ مُدْرِكًا *** **وَكَـمْ** وَارِدٍ لَيْـسَ عَـنْهُ بِصَـادِرِ.

فَالتَّكْرَارُ مُلاَحَظٌ عَلَى مُسْـتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ، كُلُّهَا أَسْـهَمَتْ فِي تَوْلِيدِ دَلاَلاَتٍ جَدِيدَةٍ، وَتَكْثِيفِ السَّـابِقِ مِنْهَا، إِذِ " العِبَارَةُ المكَرَّرَةُ تُؤَدِّي إِلَى رَفْعِ مُسْـتَوَى الشُّـعُورِ فِي القَصِـيدَةِ إِلَى دَرَجَةٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ. وَبِاسْتِنَادِ الشَّاعِرِ إِلَى هَذَا التَّكْرَارِ يَسْتَغْنِي عَنْ عَنَاءِ الإِفْصَاحِ المبَاشِرِ وَإِخْبَارِ القَارِئِ بِالأَلْفَاظِ عَنْ مَدَى كَثَافَةِ الذِّرْوَةِ العَاطِفِيَّةِ "[2]. وَلَعَلَّ هَذَا الذِّي دَفَعَ أَبَا العَتَاهْيَّةِ إِلَى عَدَمِ الاكْتِفَاءِ بِتَكْرَارِ لَفْظٍ وَاحِدٍ فِي البَيْتَيْنِ، وَإِنَّمَا يَذْهَبُ إِلَى جَعْلِ أَوَّلِهِمَا مُتَطَابِقًا مِنْ خِلاَلِ إِعَادَةِ (كَمْ) الخَبَرِيَّةِ مَقْرُونَةً بِالوَاوِ، ثُمَّ يُقِيمُ تَنَاغُمًا بَيْنَ الفِعْلِ وَالاسْـمِ مَرَّةً (تَحَصَّنَتْ/حُصُونُهَا)، وَبِتَكْرَارِ الاسْمِ مَرَّةً أُخْرَى (ظُنُونُ/ظُنُونُـــهَا)، مُعَزِّزًا ذَلِكَ بِجَعْلِ البَيْتَيْنِ عَلَى نَفْسِ البِنْيَةِ نَحْوِيًّا وَصَرْفِيًّا، خُصُوصًا فِي الشَّطْرِ الثَّانِي وَالرَّابِعِ (وَكَمْ مِنْ مُلُوكٍ/ وَكَمْ مِنْ ظُنُونٍ)، (فَعَطَّلَتِ الأَيَّامُ مِنْهَا حُصُونَـها/فَكَذَّبَتِ الأَحْدَاثُ مِنْهَا ظُنُونَـهَا)، وَفِي هَذَا مِنْ تَلْوِينَاتِ الشَّاعِرِ البَدِيعَةِ، إِذْ يَجْعَلُ الكَلِمَاتِ تَطْرُقُ الأَسْـمَاعَ وَتَسْتَحِثُّ الأَذْهَانَ فِي تَوَالٍ وَتَتَابُعٍ يُشَقِّقُ المَعَانِي وَيُوَلِّدُهَا مِنْ حَيْثُ حَسِبْنَاهَا تُعِيدُ ذَاتَهَا فَتَضْمُرُ وَتَتَلاَشَى، وَهُوَ بِهَذَا يَجْعَلُ التَّكْرَارَ وَالإِعَادَةَ أَدَاةً فَاعِلَةً لِإِنْتَاجِ الدَّلاَلَةِ فَفِيهِ كُلُّ الاخْتِلاَفِ وَالتَّمَيُّزِ.

[1]- القصيدة رَقَمُ419 [من الطَّوِيل]، ص405. وَمَطْلَعُهَا:أَيَا جَامِعِي الدُّنْيَا لِمَنْ تَجْمَعُونَهَا *** وَتَبْنُونَ فِيهَا الدُّورَ لاَ تَسْكُنُونَهَا.
[2]- قضايا الشّعر المعاصر، نازك الملائكة، م.س، ص287.

وَنَجِيءُ إِلَى القَصِيدَةِ رَقَمِ225[1]:

1/ **خَيْـــرُ أَيَّـــامِ الفَتـــى يَـــوْمَ** نَفَـــعْ *** **وَاصْطِنَاعُ الخَيْرِ** أَبْقَى مَا **صَنَعْ**.

وَنَظِيـــرُ المَـــرْءِ فـــي مَعْـــرُوفِهِ *** **شَـــافِعٌ** مَـــتَّ إِلَيْـــهِ **فَشَـــفَعْ**.

مَـا يُنَـــالُ **الخَيْـــرُ** بِالشَّـــرِّ وَلاَ *** يَحْصِـــدُ **الـزَّارِعُ** إِلاَّ مَـا **زَرَعْ**.

لَيْسَ كُـلُّ الدَّهْـرِ **يَـــوْمًا** وَاحِـدًا *** رُبَّمَا ضَـاقَ **الفَتَـى** ثُـمَّ اتَّسَعْ.

خُـذْ مِنَ **الدُّنْيَـــا** الذِّي دَرَّتْ بِـهِ *** **واسْلُ عَمَّا فَاتَ مِنْهَا وانْقَطَعْ**.

إِنَّـــــمَا **الدُّنْيَـــا** مَتَـــاعٌ زَائِـــلٌ *** فَاقْتَـصِدْ فِيـهِ وَخُـذْ مِنْـهُ وَدَعْ.

وَارْضَ لِلنَّـــاسِ بِـــمَا **تَرْضَـــى** بِـهِ *** **وَاتْبَـــعِ** الحَقَّ فَنِـعْمَ **المُتَّـــبَعْ**.

وَابْغِ مَا اسْطَعْتَ عَنِ **النَّاسِ** الغِنَى *** فَمَنْ احْتَاجَ إِلَى **النَّـاسِ** ضَرَعْ.

أَبْلِـغْ **الجَـــامِعَ** أَنْ لَـوْ قَـــدْ أَتَـى*** يَومُهُ لَـمْ يُغْـنِ عَنْـهُ مَـا **جَـــمَعْ**.

إِنَّ لِلخَيـــرِ لَرَسْـــمًا بَيِّـــــنًا *** **طَبَـــعَ** اللهُ عَلَيْـهِ مَـــنْ **طَبَـــعْ**.

قَـدْ بَلَـوْنَا **النَّـاسَ** فِـي أَخْلاَقِـهِمْ *** فَرَأَيْنَـاهُمْ لِذِي المَـالِ تَبَـعْ.

وَحَبِيـبُ **النَّـاسِ** مَـنْ **أَطْـــمَعَهُمْ** *** إِنَّمَا **النَّاسُ** جَمِيعًا **بِالطَّمَعْ**.

احْمَـــدِ اللهَ عَلَـــى **تَقْـــدِيرِهِ** *** **قَدَّرَ** الـرِّزقَ فَأَعْـطَى وَمَنَـــعْ.

سُمْـــتُ **نَفْسِـي وَرَعًـا** تَصْـدُقُهُ *** فَنَهَاهَا النَّقْصُ عَنْ ذَاكَ **الوَرَعْ**.

فَلِنَفْـــــسِي عِـــلَلٌ لاَ تَنْقَضِـي *** **وَلَـهَا** مَـكْرٌ لَطِيـفٌ وَخُـدَعْ.

وَلِنَفْسِـــي غَفَـــلاَتٌ لَـمْ تَـــزَلْ *** **وَلَـهَا** بِالشَّـيْءِ أَحْيَـانًا وَلَـعْ.

وَلِنَفْـسِـي حِيـنَ تُعْـطَى فَـرَحٌ *** وَاضْـطِرَابٌ عِنْدَ مَنْـعٍ وَجَـزَعْ.

عَجَـــبًا مِـنْ مُطْمَـــئِنٍ آمِـــنٍ *** إِنَّمَا يُغْـذَى بِأَلْـــوَانِ الفَـــزَعْ.

عَجَـــبًا لِلنَّـــاسِ مَـــا أَغْفَـــلَهُمْ *** مِنْ **وُقُـوعِ** المَوْتِ عَمَّا **سَيَقَعْ**.

[1]- الدّيوان، [من الرّمْلُ]، صص217-219. وَمَطْلَعُهَا: خَيْرُ أَيَّامِ الفَتَى يَوْمَ نَفَعْ***وَاصْطِنَاعُ الخَيْرِ أَبْقَى مَا صَنَعْ.

عَجَـــبًا إِنَّـــا لَنَلْقَـــى **مَرْتَـــعًا** *** كُلُّـنَا قَـدْ عَـاثَ فِيـهِ **وَرَتَـــعْ**.

..... *** .....

فَنَجِدُهُ يُلِحُّ عَلَى أَلْفَاظٍ بِعَيْنِهَا، يُرِيدُ مِنْ خِلاَلِهَا أَنْ تَقَرَّ الرِّسَالَةُ وَتَتَوَكَّدَ، وَلَيْسَ لِبُلُوغِ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةٍ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُكَرِّرَ كَلِمَاتٍ هِيَ فِي الحَقِيقَةِ مَدَارُ النَّصِّ كُلِّهِ، [الفَتَى، النَّاسُ، الخَيْرُ، الدُّنْيَا، نَفْسِي، عَجَبًا،...+ وُقُوعُ/سَيَقَعُ، شَافِعُ/فَشَفَعْ الزَّارِعُ/مَا زَرَعْ، أَيَرْضَى/بِمَا تَرْضَى، اتَّبِعْ/المُتَّبَع، الجَامْعُ/مَا جَمَعْ، طَبْعُ/مَنْ طَبَعْ، أَطْمَعَهُم/ بِالطَّمَعْ، تَقْدِيرُه/ قَدَّر، مَرْتَعًا/رَتَعْ، تَزَوَّدَتَ/الزَّادَ] + التَّكْرَارَ بِالضِّدِّ....أَعْطَى/مَنَعْ، تُعْطَى/مَنْعٍ، ضَاقَ/اتَّسَعْ، خُذْ/دَعْ، فَرَحْ/اضْطِرَابٌ، مُطْمَئِنٌّ آمِنٌ/الفَزَعْ.

يَصِيرُ التَّكْرَارُ عِنْدَ هَذَا المُسْتَوَى عَلاَمَةً وَأَدَاةَ تَبْلِيغٍ، ضَرُورَةً وَحَاجَةً أُسْلُوبِيَّةً مُلِحَّةً، وَالاحْتِيَاجُ هُنَا " دَلاَلَةٌ عَلَى أَنَّ التَّكْرَارَ لَا يَرِدُ مَا لَم تَطْلُبْهُ الحَاجَةُ، وَمِنَ المُقَرَّرِ فِي الطَّبْعِ الإِنْسَانِيِّ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا تَكَرَّرَ طَلَبُهُ بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَعَنَاءٍ ازْدَادَ الاشْتِيَاقُ وَالتَّعَلُّقُ النَّفْسِيُّ بِهِ"[1]، وَلَعَلَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ يَسْتَثْمِرُ ذَلِكَ لِيُمَتِّنَ العَلاَقَةَ بَيْنِ جِهَتَيْ الإِبْدَاعِ الأَسَاسِيَتَيْنِ: المُرْسِلُ وَالمُرْسَلُ إِلَيْهِ، يَضْمَنُ لَهُ التَّنْفِيسَ عَمَّا يَجِيشُ فِي أَعْمَاقِهِ مِنْ مَشَاعِرَ، فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي يَضْمَنُ بِهِ اسْتِمْرَارَ تَعَلُّقِ المتَلَقِّي بِخُيُوطِ الرِّسَالَةِ.

فَالشَّاعِرُ عِنْدَمَا يُكَرِّرُ كَلِمَةً أَوْ صِيغَةً مُعَيَّنَةً، يَجْعَلُهَا نُقْطَةً مَرْكَزِيَّةً تَتَمَحْوَرُ حَوْلَهَا القَصِيدَةُ كُلُّهَا، إِذْ رَغْمَ ثَبَاتِهَا وتَشَابُهِ بِنْيَاتِهَا مِنَ الوِجْهَةِ المِعْيَارِيَّةِ فَإِنَّ بَعْضَ التَّرَاكِيبِ النَّحْوِيَّةِ " تَكْتَسِبُ الأَثَرَ الأُسْلُوبِيَّ مِنْ تَكْرَارِ الكَلِمَةِ نَفْسِهَا فِي بِنْيَةِ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ الثَّابِتَةِ فَتَمْنَحُهُ تَجْدِيدًا دَلاَلِيًّا، وَيُحَقِّقُ فِيهِ التَّكْرَارُ مَلاَمِحَ أُسْلُوبِيَّةً لاَ نَجِدُهَا فِي التَّرْكِيبِ نَفْسِهِ عِنْدَمَا لاَ

[1]– نحو رؤية جديدة للدّلالة النّفسيّة لأسلوب التّكرار في القرآن الكريم– بديع الزّمان سعيد النّورسيّ أنموذجا، عزيز محمد عدمان، مجلّة النُّور للدّراسات الحضاريّة والفكريّة، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، تركيا، س:4، ع:8، جويلية2013م، ص95.

تَتَكَرَّرُ تِلْكَ الكَلِمَةُ فِيهِ أَوْ لاَ تَتَكَرَّرُ بِنْيَتُهُ كُلُّهَا فِي العِبَارَةِ "[1].

يَرَى عَبْدُ الفَتَّاحِ يُوسُفُ أَنَّ طَبِيعَةَ شِعْرِ النَّقَائِضِ تَقْتَضِي تَرْدِيدَ كَلِمَاتٍ مُعَيَّنَةٍ " عِدَّةَ مَرَّاتٍ دَاخِلَ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ، عَلَى نَحْوٍ مُنْتَظِمٍ وَثَابِتٍ"[2]، وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا يَسْرِي عَلَى مَوْضُوعِ الزُّهْدِ أَيْضًا، فَعَلَيْهِ تَدُورُ أَغْلَبُ تَرْكِيبَاتِ شُعَرَائِهِ، وَبِهَا يُحَقِّقُونَ أَهَمَّ رَسَائِلِهِمْ، يَنْزِعُونَ إِلَى تَكْرَارِهَا بِطَرِيقَةٍ لاَفِتَةٍ وَكَأَنَّهُمْ يَطْرُقُونَ عَلَى جِهَةٍ يُرِيدُونَهَا أَنْ تَكُونَ حَامِلَةَ الخِطَابِ، وَمِحْوَرَ دَوَرَانِهِ، فَيُجْرُونَهَا فِي القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ وَيزْرَعُونَهَا فِي مَوَاضِعَ لاَ يُمْكِنُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ عَنْ قَصْدٍ أَمْلاَهُ الحَالُ وَالغَرَضُ لاسْتِثَارَةِ القَارِئِ وَضَمَانِ انْتِبَاهِهِ المُسْتَمِرِّ لِمَا يُمْلِيهِ المَجْرَى العَامُّ لِلدَّلاَلَةِ، وَكَأَنَّنَا أَمَامَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ إِزَاءَ ضَرُورَةٌ لُغَوِيَّةٍ، " وَالمَقْصُودُ بِالضَّرُورَةِ اللُّغَوِيَّةِ أَنَّ تَرْكِيبَ الجُمْلَةِ فِي البَيْتِ قَدْ يَتَطَلَّبُ تَكْرَارَ لَفْظٍ سَبَقَ ذِكْرُهُ فِي نَفْسِ البَيْتِ، بِدُونِ هَذَا التَّكْرَارِ تَخْتَلُ بِنْيَتُهُ أَوْ يُعَمَّى مَدْلُولُهُ "[3].

وَتَكْرَارُ الكَلِمَةِ أَبْسَطُ أَلْوَانِ التَّكْرَارِ وَأَكْثَرُهَا انْتِشَارًا عِنْدَ القُدَمَاءِ، حَيْثُ أَفَاضَ النُّقَّادُ الحَدِيثَ فِيهِ لَمَّا كَانَ ظَاهِرَةً تَسِمُ الشِّعْرِ وَتُمَيِّزُهُ بِطُغْيَانِها فِيهِ " وَلَعَلَّ القَاعِدَةَ الأَوَّلِيَّةَ لِمِثْلِ هَذَا التَّكْرَارِ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ المُكَرَّرُ وَثِيقَ الصِّلَةِ بِالمَعْنَى العَامِّ لِلسِّيَاقِ الذِّي يَرِدُ فِيهِ، وَإِلاَّ كَانَ لَفْظِيَّةً مُتَكَلَّفَةً لاَ فَائِدَةَ مِنْهَا وَلاَ سَبِيلَ إِلَى قَبُولِهَا "[4] إِذْ هِيَ فِي هَذِهِ الحَالَةِ لاَ تُغْنِي الخِطَابَ وَلاَ تُضِيفُ إِلَيْهِ شَيْئًا ذَا بَالٍ، هَذَا إِنْ لَمْ تَعُدْ زَائِدًا لاَ طَائِلَ مِنْ وَرَائِهِ، فَوَجَبَ التَّخَلُّصُ مِنْهُ لأَنَّهُ سَيُرْبِكُ المَعْنَى وَيُثْقِلُ الأُسْلُوبَ.

وَحِينَ نَنْظُرُ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ الزُّهْدِيِّ نَجِدُ أَبْرَزَ الكَلِمَاتِ التِّي تَحُوزُ الغَلَبَةَ عَلَى مَسَاحَةِ الدِّيْوَانِ كُلِّهِ فِي تَرَدُّدِهَا كَمًّا وَكَيْفًا مُتَمَثِّلَةً فِي: المَوْتِ، الحَيَاةِ، القَبْرِ، الدَّهْرِ، الدُّنْيَا،

[1]- البنية الأسلوبيّة في التّراكيب النّحويّة، مهدي حمد مصطفى عبد الله آل سيد علي العاني، أطروحة دكتوراه فلسفة في اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب، جامعة بغداد، رمضان 1424هـ/تشرين الثاني2003م، ص45.

[2]- فاعلية التّكرار في بنية الخطاب الشّعريّ للنّقائض، عبد الفتاح يوسف، م.س، ص39.

[3]- خصائص الأسلوب في الشّوقيات، محمّد الهادي الطّرابُلسيّ، م.س، ص63.

[4]- التِّكْرَارُ فِي شِعر محمُود دَرْوِيش، فَهْد نَاصر عَاشُوْر، م.س، ص60.

الإِنْسَانِ، الشَّبَابِ، الشَّيْبِ، الفُتُوَّةِ، العَجْزِ، الغِنَى، الفَقْرِ، الصَّبْرِ، البِرِّ، الأَمَلِ، العَمَلِ، الشَّهَوَاتِ، النَّفْسِ، الغَفْلَةِ، الجَنَّةِ، النَّارِ، الدَّارِ، ....وَغَيْرِهَا مِنَ الكَلِمَاتِ التِّي لَسْنَا نَرُومُ جَمْعَهَا فِي هَذَا المَقَامِ، لِذَا نَكْتَفِي فِيهِ بِمَا يَلِي تَمْثِيلاً لاَ حَصْرًا:

يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم241:[1]

لاَ عَيْشَ إِلاَّ **المَوْتُ** يَقْطَعُهُ *** **لاَ** شَيْءَ دُونَ **المَوْتِ** يَمْنَعُهُ.
وَالمَرْءُ فِي الشَّهَوَاتِ غَفْلَتُهُ *** **وَالدَّهْرُ** يَخْفِضُهُ وَيَرْفَعُهُ.
وَمُدَافِعٍ لِلشَّيْبِ يُخَضِّبُهُ *** **وَالشَّيْبُ** نَحْوَ **المَوْتِ يَدْفَعُهُ.**
وَالعيشُ كُلُّ جَدِيدِهِ خَلِقٌ *** كُلٌّ لَهُ **عَيْشٌ** يُرَقِّعُهُ.
وَلَقَلَّ مَا جَرَتِ الخُطُوبُ فَلَمْ *** تَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ تُرَوِّعُهُ.
وَلَخَيْرُ قَوْلِ **المَرْءِ** أَصْدَقُهُ *** **وَلَخَيْرُ** فِعْلِ **المَرْءِ** أَنْفَعُهُ.
وَالمَوْتُ لاَ **يُبْقِي** عَلَى أَحَدٍ*** وَلِكُلِّ جَنْبٍ مِنْهُ **مَصْرَعُهُ.**
وَجَمِيعُ مَا **لِلْمَرْءِ** مِنْ عَمَلٍ *** **فَالمَرْءُ** يَحْصُدُهُ وَيَزْرَعُهُ.
عَجَبًا لِذِي **عَيْشٍ** تَيَقَّنَ أَ *** نَّ **المَوْتَ** حَقٌّ كَيْفَ يَنْفَعُهُ.

– تَتَرَدَّدُ كَلِمَةُ (**المَوْتِ وَمُرَادِفَاتِهَا**) فِي القَصِيدَةِ القَصِيرَةِ، ذَاتِ الأَبْيَاتِ التِّسْعَةِ هَذِهِ: 6 مرّات (المَوْتُ، مَصْرَعُهُ)، كَمَا تَتَكَرَّرُ كَلِمَاتُ: (المَرْءُ) 5 + (عَيْشُ) 4 + (الشَّيْبُ) 2 + (الخَيْرُ) 2.

وَهِيَ تَعُودُ فِي دَيْوَانِهِ جَمِيعِهِ بِعَدَدِ مَرَّاتٍ وَصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ، إِذْ هِيَ تُشَكِّلُ المُعْجَمَ الأَسَاسَ الذِّي يَبْنِي عَلَيْهِ شَاعِرُنا نُصُوصَهُ الزُّهْدِيَّةَ، فَالتَّكْرَارُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ مَوْقِفٌ مِنَ الخِطَابِ يَتَأَصَّلُ مَعَ كُلِّ قَصِيدَةٍ حَتَّى صَارَ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً فَارِقَةً، " فَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَى التَّكْرَارِ علَى أَنَّهُ تَكْرَارُ أَلْفَاظٍ بِصُوَرةٍ مُبَعْثَرَةٍ غَيْرِ مُتَّصِلَةٍ بِالمَعْنَى، أَوْ بِالجَوِّ العَامِّ لِلنَّصِّ

[1]– الدّيوان، [من الكَامِلُ]، ص242.

الشِّعْرِيِّ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ وَثِيقُ الصِّلَةِ بِالمَعْنَى العَامِّ "[1].

فَالشَّاعِرُ يُلِحُّ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الأَلْفَاظِ والعِبَارَاتِ حَتَّى لَكَأَنَّكَ تَقْرَأُ نَصًّا وَاحِدًا اتَّخَذَ إِيقَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَالمَعْنَى ذَاتُهُ يَعُودُ، وإِنَّمَا تُرِكَتْ مَهَمَّةُ التَّنْوِيعِ والتَّصَرُّفِ لِلأُسْلُوبِ، وهِيَ لَيْسَتْ بِاليَسِيرَةِ الهَيِّنَةِ، لِذَا فَإِنَّ نَجَاحَ الشَّاعِرِ فِي دَفْعِ شُبْهَةِ نُضُوبِ الزَّادِ المَعْرِفِيِّ وَاللُّغَوِيِّ أَمْرٌ بَالِغُ التَّعْقِيدِ، وَتَمَكُّنُهُ مِنْ بُلُوغِ ذَلِكَ يَعْكِسُ مَا قَدْ أَثْبَتْنَاهُ فِي مَواضِعَ عِدَّةَ مِنْ هَذَا العَمَلِ، مِنْ أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَةِ بِإِصْرَارِهِ وَاخْتِيَارِهِ لِهَذَا المَوقِفِ الإِبْدَاعِيِّ يُبْرِقُ لِلقَارِئِ بِرِسَالَةٍ مَفَادُهَا أَنَّ الاقْتِدَارَ لَيْسَ دَائِمًا فِي خَرْقِ اللُّغَةِ وَالإِتْيَانِ بِالجَدِيدِ، بَلْ فِي تَمْحِيصِ المُسْتَهْلَكِ/المُكَرَّرَ لِتَسْتَخْلِصَ مِنْهُ الجَدِيدَ، وَهَذَا هُوَ بَيَانُ القُدْرَةِ الأَكْبَرُ، وَعُنْوَانُ الإِبْدَاعِ الأَبْرَزُ الذِّي يَسْتَعْصِي عَلَى كَثِيرِينَ، وَاقْتِحَامُهُ مُخَاطَرَةٌ لَمْ يَهَبْهَا شَاعِرُنَا هُنَا.

فَالشَّاعِرُ هُوَ الذِّي يَتَحَكَّمُ فِي البُنَى التَّكْرَارِيَّةِ فِي قَصِيدَتِهِ فيَخْتَارُ مَا يَخْدُمُهَا فِي كُلِّيَّتِهَا لَفْظًا وَفِكْرَةً، إِذْ هُنَاكَ نَظَرِيَّةٌ تُرَجِّحُ " تَطَابُقَ الأُسْلُوبِ وَصَاحِبِهِ فِكْرًا وَشَخْصِيَّةً لِتُنَظِّرَ الأُسْلُوبَ عَلَى أَنَّهُ اخْتِيَارٌ وَاعٍ يُسَلِّطُهُ المُؤَلِّفُ عَلَى مَا تُوَفِّرُهُ اللُّغَةُ مِنْ سَعَةٍ وَطَاقَاتٍ"[2]. وإِذَنْ، نُعِيدُ التَّأْكِيدَ عَلَى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا مِنْ أَنَّ شَاعِرِنَا يَلْتَزِمُ هَذَا النَّهْجَ فِي الاخْتِيَارَاتِ التِّي يُقْدِمُ عَلَيْهَا حِينَ يُنْشِىءُ قَصَائِدُهُ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ عَلَى المُسْتَوَى الصَّوْتِي*، المَعْجَمِي**، أَوِ الدَّلاَلِيِّ. فَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ فِي النَّصِّ المُوالِي كَيْفَ يُكَرِّرُ ذَاتَ الكَلِمَاتِ وَالصِّيَغِ فَيُوَزِّعُهَا فِي ثَنَايَا نَصِّهِ فِي تَوَازُنٍ وتَنَاسُقٍ، قَائِلاً:

1/ أَلاَ هَلْ إِلَى طُولِ الحَيَاةِ سَبِيلُ *** وَأَنَّى وَهَذَا المَوْتُ لَيْسَ يُقِيلُ.
وَإِنِّي وَإِنْ أَصْبَحْتُ بِالمَوْتِ مُوقِنًا *** فَلِي أَمَلٌ دُونَ اليَقِينِ طَوِيلُ.

[1]- التّكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، م.س، ص170.

[2]- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، م.س، صص74،75.

* يُنظر بَسْطُ هَذه المسألة في الفصل الأوّل من هَذَا البحث.

** يُنْظَر تَفصيلُ ذلك في الفصلِ الثّاني من هذا البحث.

ولِلدَّهْـــرِ أَلْـــوانٌ تَـــرُوحُ وَتَغْتَـــدِي*** وإِنَّ نُفُـــوسًا بَيْنَـــهُنَّ تَسِيـــلُ.
وَمَنْـــزِلِ حَـــقٍّ لاَ مُعَـــرَّجَ دُونَـــهُ *** لِكُـلِّ امْـرِئٍ يَـــوْمًا إِلَـيْهِ رَحِـيلُ.
أَرَى عِلَـــلَ الدُّنْـــيَا عَلَـيَّ كَثِيـــرَةً *** وَصَاحِبُهَا حَتَّـــى المَمَـاتِ عَـلِيلُ.
إِذَا انْقَطَـعَتْ عَنّي فِي العَيْـشِ مُدَّتِي *** فَـإِنَّ غَنَـــاءَ البَـاكِيَاتِ قَـلِـيلُ.
سَيُـعْرَضُ عَنْ ذِكْـرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي *** وَيَحْـدُثُ بَعْـدِي لِلخَلِـيلِ خَلِـيلُ.
وَفِي الحَـــقِّ أَحْيَـانًا لَعَمْـرِي مَـرَارَةٌ *** وَثِقْـلٌ عَلَـى بَعْضِ الرِّجَـالِ ثَقِيلُ.
وَلَمْ أَرَ إِنْسَـانًا يَـرَى عَيْـبَ نَفْـسِهِ *** وَإِنْ كَـانَ لاَ يَخْفَـى عَلَـيْهِ جَمِيلُ.
وَمَنْ ذَا الذِّي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سَالِمًا *** وَلِلنَّـــاسِ قَـالٌ بِالظُّنُـونِ وقِيـــلُ.
أَجَلَّكَ يَـوْمٌ حِيـنَ صِـرْتَ إِلَى الغِنَى *** وَكُـلُّ غَنِـــيٍّ فِـي العُيُـونِ جَـلِيلُ.
وَلَيْـسَ الغِنَـى إِلاَّ غِنَـى زَيَّـنَ الفَتَـى *** عَشِيَّـــةَ يَقْـرِي أَوْ غَـدَاةَ يُنِيـــلُ.
وَلَـمْ يَفْتَقِـرْ يَوْمًـا وَإِنْ كَانَ مُعْـدَمًا *** جَـوَادٌ وَلَـمْ يَسْتَـغْنِ قَـطُّ بَخِيـلُ.
إِذَا مَالَتِ الدُّنْـيَا إِلَـى المَـرْءِ رَغَّبَـتْ *** إِلَيْهِ وَمـالَ النَّـاسُ إِلَيْهِ حَيْثُ يَمِيـلُ.[1]

تَتَكَرَّرُ فِي النَّصِّ الكَلِمَاتُ الآتِيَةُ وَما فِي مَعْنَاهَا أَوْ مَا يُقَابِلُهَا:

1/ **الغِنَى 8 مرَّاتٍ**: الغِنَى – غَنِيٍّ – جَوادٌ – غِنًى – الغِنَى – لَمْ يَفْتَقِرْ – بَخِيلُ – لَـمْ يَسْتَغْنِ.

2/ **المَوْتُ 7 مَرَّاتٍ**: الموتُ – انْقَطَعَتْ – تَسِيلُ – رَحِيلُ – المَمَاتِ – بِالمَوْتِ – مَنْزِلِ حَقٍّ.

3/ **الحَيَاةُ 4 مرَّاتٍ**: الحَيَاةِ – الدُّنْيَا – العَيْشِ– الدُّنْيَا.

4/ **النَّاسُ 3 مرَّاتٍ**: النَّاسِ لِلنَّاسِ النَّاسُ.

5/ **مَـالَ 3 مَرَّاتٍ فِي بَيْتٍ واحِدٍ**: مَالَتِ مالَ يَمِيلُ.

[1]– قصيدة رقم:325 [من الطّويل]، صص316 – 318.

فَأَنْتَ تَرَى حَجْمَ التَّكْرَارِ الذِّي بَلَغَ مَا مَجْمُوعُهُ 25 كلِمَةً فِي نَصٍّ مِنْ 14 بَيْتًا فَقَطْ، وَالدَّافِعُ إِلَى ذَلِكَ قَدْ يَخْتَلِفُ، فَمَرَّةً هُوَ مُجَرَّدُ إِعَادَةٍ يَفْرِضُهَا غَرَضُ الزُّهْدِ، وَأُخْرَى هُوَ قَصْدٌ وَغَايَةٌ كَوْنَهُ يُؤَدِّي " وَظِيفَةً هَامَّةً، تَخْدُمُ النِّظَامَ الدَّاخِلِيَّ لِلنَّصِّ وَتُشَارِكُ فِيهِ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَسْتَطِيعُ، بِتَكْرَارِ بَعْضِ الكَلِمَاتِ أَنْ يُعِيدَ صِيَاغَةَ بَعْضِ الصُّوَرِ مِنْ جِهَةٍ، كَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكَثِّفَ الدَّلاَلَةَ الإِيحَائِيَّةَ لِلنَّصِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى"[1]، وَهُوَ مَا يَسْعَى أَبُو العَتَاهِيَّةِ إِلَيْهِ حِينَ يَسْتَعِينُ بِهَذِهِ التِّقْنِيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ المُؤَثِّرَةِ فِي الخِطَابِ وَنَسِيجِهِ. فَلاَ يَكُونُ التَّكْرَارُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ " إِلْغَاءً لِلأَفْكَارِ السَّابِقَةِ، وَلاَ دَفْعًا لَهَا، وَإِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ تَوَالُدِيٌّ تَدَاوُلِيٌّ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى تَفَاعُلٌ، فَانْفِعَالٌ، فَفِعْلٌ "[2].

وَمَعَ قَصِيدَةٍ أُخْرى بِعَدَدِ 15 بَيْتًا يُكَرِّرُ الشَّاعِرُ، وَبِنَفْسِ الوَتِيرَةِ، ذَاتَ الكَلِمَاتِ التِّي مَرَّتْ بِنَا، إِذْ يَشْغَلُ المَوْتُ وَمُرَادِفَاتُهُ الحَيِّزَ الأَكْبَرَ بِتَرَدُّدِهِ 11 مَرَّةً [هَدَمَ (عُمْرِي)، آجَالٍ، غَيْبَتِهِ، مَوْتِكَ، المَوْتُ، أَظْعَنَنَّ (إِلَى دَارٍ...)، تَرْحَالٍ، مُفَارَقَةً، المَنْزِلُ الخَالِي].

1/ **مَا لِي** أُفَــرِّطُ فِيمَـا يَنْبَغِي **مَا لِي** *** إِنِّـي لأُغْبَــنُ إِدْبَــارِي وَإِقْبَــالِي.
اليَـوْمَ أَلْعَـبُ وَ**الأَيَّــامُ مُسْـرِعَةٌ** فِـي *** **هَـدْمِ عُمْـرِي** وَتَصْـرِيفِ أَحْـوَالِـي.
يَجْرِي الجَدِيدَانِ وَالأَقْـدَارُ بَيْنَهُمَا *** **تَغْــدُو** وَ**تَسْــرِي** بِـأَرْزَاقٍ وَ**آجَــالِ**.
يَا مَنْ **سَلاَ** عَنْ حَبِيبٍ بَعْدَ غَيْبَـتِهِ ***كَمْ بَعْدَ **مَوْتِكَ** مِنْ نَاسٍ وَمِنْ **سَالِ**.
كَـأَنَّ كُـلَّ نَعِيــمٍ أَنْـتَ ذَائِـقُهُ مِـنْ *** لَـذَّةِ العَيْـشِ يَحْـكِي لَمْــعَةَ الآلِ.
لاَ تَلْعَبَــنَّ بِـكَ **الدُّنْيَا** وَأَنْـتَ تَـرَى*** مَـا شِئْـتَ مِنْ عِبَـرٍ فِيـهَا وَأَمْثَـالِ.
الغَـيُّ فِي ظُلْـمَةٍ وَالرُّشْــدُ فِـي صُوَرٍ*** مُسَرْبَـلاَتٍ بِإِحْسَــانٍ وَإِجْمَــالِ.
وَالقَــوْلُ أَبْلَـغُهُ مَــا كَـانَ **أَصْـدَقَهُ***** وَ**الصِّدْقُ** فِي مَوْقِفٍ مُسْتَسْهَلٍ عَالِ.
لَنْ يُصْلِحَ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُصَرَّفَةً *** إِلاَّ **التَّنَقُّــلُ** مِـنْ **حَــالٍ** إِلَـى **حَـالِ**.

[1]- مقالات في الأسلوبية، منذر عياشي، م.س، ص83.
[2]- فاعلية التّكرار في بنية الخطاب الشّعري للنّقائض، م.س، ص33.

فَنَحْمَــدُ اللهَ مَـا نَنْفَــكُّ مِنْ **نُقَــلٍ** *** كُلُّ إِلَى **المَوْتِ** فِي **حَلٍّ وَتَرْحَالِ**.
وَالشَّيْبُ **يَنْعَى** إِلَى **المَرْءِ** الشَّبَابَ كَمَا*** **يَنْعَى** الأَنِيسَ إِلَيْهِ **المَنْزِلُ الخَـالِي**.
لأَظْعَنَــــنَّ إِلَى **دَارٍ خُلِــقْتُ لَــهَا** *** وَ**خَيْـرُ** زَادِي إِلَيْهَا **خَيْـرُ** أَعْمَالِـي.
مَا **حِيلَةُ المَـوْتِ** إِلاَّ كُـلُّ صَالِـحَةٍ *** أَوْ لاَ، فَلاَ **حِيــلَةٌ** فِيــهِ لِمُحْتَــالِ.
وَ**المَرْءُ** مَا عَاشَ **يَجْرِي** لَيْسَ غَايَتُهُ *** إِلاَّ **مُفَــــارَقَةً** لِلأَهْــلِ وَالمَــالِ.
إِنِّــي لآمُــلُ وَالأَحْــدَاثُ **دَائِبَــةٌ** *** فِي نَشْرِ يَـأْسٍ وَفِي تَقْـرِيبِ آمَـالِ.[1]

هَذَا، دُونَ أَنْ نَقِفَ، اجْتِنَابًا لِلاجْتِرَارِ، عِنْدَ كَلِمَاتٍ أُخَرَ تَكَرَّرَتْ بِأَعْدَادَ مُتَبَايِنَةٍ يُمْكِنُ اسْتِخْلاصُهَا مِنَ القَصِيدَةِ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ. فَـ" التَّكْرَارُ يَضَعُ فِي أَيْدِينَا مِفْتَاحًا لِلْفِكْرَةِ المُتَسَلِّطَةِ عَلَى الشَّاعِرِ، وَهُوَ بِذَلِكَ أَحَدُ الأَضْوَاءِ اللاَّشُعُورِيَّةِ التِّي يُسَلِّطُهَا الشِّعْرُ عَلَى أَعْمَاقِ الشَّاعِرِ فَيُضِيئُهَا بِحَيْثُ نَطَّلِعُ عَلَيْهَا. أَوْ لِنَقُلْ إِنَّهُ جُزْءٌ مِنَ الهَنْدَسَةِ العَاطِفِيَّةِ لِلْعِبَارَةِ يُحَاوِلُ الشَّاعِرُ فِيهِ أَنْ يُنَظِّمَ كَلِمَاتِهِ بِحَيْثُ يُقِيمُ أَسَاسًا عَاطِفِيًّا مِنْ نَوْعٍ مَا "[2]، هُوَ هُنَا فِي شِعْرِ الزُّهْدِ يَسْعَى إِلَى تَلَمُّسِ أَحَاسِيسِ المُتَلَقِّي/الإِنْسَانِ المغْتَرِّ بِفِتْنَةِ الدُّنْيَا لَعَلَّهُ يُفِيقُ مِنَ غَفْلَتِهِ تِلْكَ، وَيَنْتَبِهَ إِلَى أَنَّ الأَيَّامَ تَجْرِي وَالمَصِيرَ مَحْتُومٌ.

نَقِفُ عِنْدَ هَذِهِ النَّمَاذِجِ مِنْ بَابِ التَّمْثِيلِ وَحَسْب، مُكْتَفِينَ بِمَا سُقْنَاهُ لِأَنَّ إِدْرَاكَ ذَلِكَ مِنَ الدَّيْوَانِ شَيْءٌ مُتَيَسِّرٌ لِكُلِّ قَارِئٍ أَوَّلاً، ثَانِيًا غَايَتُنَا لَيْسَتْ إِحْصَاءَ كُلِّ مَا حَوَتْهُ أَشْعَارُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مِنْ هَذَا اللَّوْنِ (تَكْرَارُ الأَلْفَاظِ)، وَثَالِثًا لِأَنَّهُ مَرَّ بِنَا بَعْضُهُ الآخَرُ حِينَ دَرَسْنَا المَعْجَمَ فَلْيُرَاجَعْ هُنَالِكَ اخْتِصَارًا. مُؤَكِّدِينَ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ مُوسَى رَبَابْعَةُ فِي أَنَّهُ يَجِبُ النَّظَرُ إِلَى التَّكْرَارِ فِي عَلاَقَتِهِ الكُلِّيَّةِ مَعَ النَّصِّ، " فَهُوَ تَكْرَارٌ يُكَثِّفُ الدَّلاَلَةَ فَتَتَعَدَّدُ وَتَتَنَوَّعُ وَتَتَنَاسَبُ لِتَجَاوُزِ "مَحْدُودِيَّةِ المَعْنَى"[3] لِتَدلَّ عَلَى مَعَانٍ جَدِيدةٍ مُتّصِلَةٍ بِالمَعْنَى الأَوَّلِ مُثْرِيَةٌ

[1]- قصيدة رقم:327[من البسيطُ]، صص320،321.
[2]- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، م.س، صص276،277.
[3]- القول الشّعريّ - منظورات معاصرة، رجاء عيد، م.س، ص188.

لِدَلاَلاَتِهِ.

وَهَذَا اللَّوْنُ يَكَادُ يَكُونُ (قَانُونًا) فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهيَّةِ، إِذْ لاَ تَخْلُو مِنْهُ قَصِيدَةٌ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهَا يَتَعَدَّدُ فِيهَا وَيَتَنَوَّعُ، وَيَأْتِي فِي أَحَايِينَ كَثِيرةٍ بَعْدَ جُمْلَةٍ مِنَ الأَبْيَاتِ تَخْلُو مِنَ التَّكْرَارِ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ بِذَلِكَ يُعِيدُنَا إِلَى المَوْضُوعِ بِطَرِيقَةِ المُرَاوَحَةِ وَالتَّأْكِيدِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، يَعْقِدُ لِنَصِّهِ أَسْبَابَ التَّوَاصُلِ وَالانْسِجَامِ، وَتِلْكَ بِدْعَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ تُحْسَبُ لَهُ، حَيْثُ يُبْقِي القَارِئَ مَشْدُودًا إِلَى المَعْنَى بَعْدَ أَنْ يَهَبَهُ فُرْصَةً لِلانْفِلاَتِ مِنْ رَتَابَةِ تَكْرَارِ اللَّفْظِ حِينًا وَالدَّوَرَانِ فِي فَضَاءَاتِ المَعْنَى المُتَشَابِهِ حِينًا آخر، مِنْ ذَلِكَ قَصِيدَتُهُ التِّي نَقْتَطِعُ مِنْهَا هَذِهِ الأَبْيَاتَ[1]:

1/ سَلِ القَصْرَ أَوْدَى أَهْلُهُ أَيْنَ أَهْلُهُ *** **أَكُلُّهُمْ** عَنْهُ تَبَدَّدَ شَمْلُهُ.
أَكُلُّهُمْ حَالَتْ بِهِ الحَالُ وَانْقَضَتْ*** وَزَلَّتْ بِهِ عَنْ حَوْمَةِ العِزِّ نَعْلُهُ.
أَكُلُّهُمْ فَضَّتْ يَدُ **الدَّهْرِ** جَمْعَهُ *** وَأَفْنَاهُ نَقْضُ **الدَّهْرِ** يَوْماً وَفَتْلُهُ.
أَكُلُّهُمْ مُسْتَبْدَلٌ بَعْدَهُ بِهِ *** سِوَاهُ وَمَبْثُوثٌ مِنَ النَّاسِ حَبْلُهُ.
أَكُلُّهُمْ لاَ وَصْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ *** إِذَا مَاتَ أَوْ وَلَّى امْرُؤٌ بَانَ وَصْلُهُ.
وَمَا صَحَّ فَرْعٌ أَصْلهُ **الدَّهْرَ** فَاسِدٌ *** وَلَكِنْ يَصِحُّ الفَرْعُ مَا صَحَّ أَصْلُهُ.
أُخَيَّ أَرَى **لِلدَّهْرِ** نَبْلاً مُصِيبَةً *** إِذَا مَا رَمَانَا **الدَّهْرُ** لَمْ تُخْطِ نَبْلُهُ.
فَلَمْ أَرَ مِثْلَ المَرْءِ فِي طُولِ سَهْوِهِ*** وَلاَ مِثْلَ رَيْبِ **الدَّهْرِ** يُؤْمَنُ خَتْلُهُ.

وَتَتَكَرَّرُ فِيهَا كَلِمَةُ الدَّهْرِ 5 مَرَّاتٍ، كَمَا نَرَى.

فَبَعْدَ أَنْ مَهَّدَ بِفِعْلِ الأَمْرِ (سَلْ) لِوُلُوجِ عَالَمِ النَّصِّ رَاحَ يُعَدِّدُ دَوَاعِي هَذَا الطَّلَبِ بِتَكْرَارِ السُّؤَالِ بِـ (أَكُلُّهُمْ 5 مَرَّاتٍ)، وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ غَايَتُهُ التَّحَسُّرُ... ثُمَّ قَطَعَ ذَلِكَ التَّسَلْسُلَ بِالعَوْدَةِ لِلنِّدَاءِ ثَانِيَةً (حُذِفَتْ أَدَاتُهُ)=(خَلِيلَيَّ) أَرْدَفَهُ عَلَى امْتِدَادِ 6 أَبْيَاتٍ

[1]- القصيدة رقم: 344 [من الطويل]، صص336،337.

تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا مَا يُشْبِهُ الإِجَابَةَ عَنِ الاسْتِفْهَامَاتِ السَّابِقَةِ، لِنَجِدَ أَنْفُسَنَا ثَانِيَةً مَعَ التَّكْرَارِ فِي (وَمَا= 3مَرَّاتٍ)، وَ(أَلاَ كُلُّ = 7 مَرَّاتٍ):

16/ **ألا كُلّ شـيءٍ** زالَ فـاللهُ بعـدَهُ *** كما **كلُّ شيءٍ** كانَ فاللهُ قبْلَهُ.
أَلاَ كُلُّ شَـيْءٍ مَا سِوَى اللهِ زَائِلُ *** **أَلاَ كُلُّ** ذِي نَسْلٍ يَمُوتُ وَنَسْلُهُ.
أَلاَ كُلُّ مَـخْلُوقٍ يَصِيرُ إِلَى البِلَى*** **أَلاَ يَـوْمَ** المَيْـتِ لِلْحَـيِّ مِثْـلُهُ.
19/ **أَلاَ** مَـا عَلاَمَـاتُ البِلَى بِخَـفِيَّةٍ *** وَلَكِنَّـمَا غَـرَّ ابْنَ آدَمَ جَـهْلُهُ.

فَنَحْنُ، إِذَنْ، فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ القَصِيرَةِ نِسْبِيًّا(22 بَيْتًا) أَمَامَ تَكْرَارِ صِيَغٍ ثَلاَثِيَّةٍ (15عَشَرَةَ مَرَّةً) وَهُوَ أَمْرٌ مُلْفِتٌ مِنَ الوِجْهَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ، إِذْ " يَكْشِفُ عَنْ فَاعِلِيَّةٍ قَادِرَةٍ علَى مَنْحِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ بِنْيَةً مُتَّسِقَةً، إِذْ إِنَّ كُلَّ تَكْرَارٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ قَادِرٌ عَلَى تَجْسِيدِ الإِحْسَاسِ بِالتَّسَلْسُلِ وَالتَّتَابُعِ، وَهَذَا التَّتَابُعُ الشَّكْلِيُّ يُعِينُ فِي إِثَارَةِ التَّوَقُّعِ لَدَى السَّامِعِ، وَهَذَا التَّوَقُّعُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ السَّامِعَ أَكْثَرَ تَحَفُّزًا لِسَمَاعِ الشَّاعِرِ وَالانْتِبَاهِ إِلَيْهِ "[1].

وَتَسْتَمِرُّ مِثْلُ هَذِهِ المُنَاوَبَةِ بَيْنَ الأَبْيَاتِ التِّي تَحْوِي تَكْرَارًا وَتِلْكَ التِّي تَخْلُو مِنْهُ فِي قَصَائِدَ كَثِيرَةٍ مِنَ الدِّيْوَانِ، كَمَا فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 379:

1/ كُلُّ امْـرِئٍ فَكَـمَا يَدِيـنُ يُـدَانُ*** **سُبْحَانَ** مَنْ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ.
سُبْحَانَ مَنْ يُعْطِي المُنَى بِخَـوَاطِرَ*** فِي النَّفْسِ لَمْ يَنْطِقْ بِهِنَّ لِسَانُ.
سُبْحَانَ مَنْ لَا شَيْءَ يَحْجُبُ عِلْمَهُ *** فَالسِّـرُ أَجْـمَعُ عِنْـدَهُ إِعْـلاَنُ.
سُبْحَانَ مَنْ هُـوَ لاَ يَـزَالُ **مُسَبَّـحًا** *** أَبَـدًا وَلَيْـسَ لِغَيْـرِهِ **السُّبْحَـانُ**.
سُبْحَانَ مَـنْ تَجْرِي قَضَـايَاهُ عَـلَى *** مَـا شَـاءَ مِنْـهَا غَـائِبٌ وَعَيَـانُ.
سُبْحَانَ مَـنْ هُـوَ لاَ يَـزَالُ وَرِزْقُـهُ *** لِلْعَـالَمِـينَ بِـهِ عَلَـيْهِ ضَمَـانُ.

[1]- التّكرار في الشّعر الجاهليّ، دراسة أسلوبية، ربابعة موسى، م.س، ص 15.

سُبْحَانَ مَنْ فِي ذِكْرِهِ طُـرُقُ الرِّضَى*** مِنْـهُ وَفِيــهِ الــرُّوحُ وَالرَّيْحَــانُ.[1]

فَبَعْدَ هَذِهِ التَّسْبِيحَاتِ السَّبْعِ، وَالتَّسْبِيحُ فِي كُنْهِهِ إِعَادَةٌ وَتَكْرَارٌ، يَحْمِلُنَا الشَّاعِرُ إِلَى إِيقَاعٍ آخَرَ مَعَ لَفْظِ (مَلِكٌ) الذِّي تَرَدَّدَ فِي مُسْتَهَلِّ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ اللاَّحِقَةِ:

8/ **مَلِكٌ** عَزِيــزٌ لاَ يُفَــارِقُ عِــزَّهُ *** يُعْصَى وَ يُرْجَى عِنْدَهُ الغُفْرَانُ.
مَلِكٌ لَهُ ظَهْــرٌ الفَضَــاءَ وَبَطْنَهُ *** لَمْ تُبْـلِ جِـدَّةَ مُلْكِهِ الأَزْمَــانُ.
مَلِكٌ هُوَ المِلِكُ الذِّي مَنْ حِلْمُهُ *** يُعْصَى بِحُسْنِ بَلاَئِهِ وَيُـخَانُ.

وعَلَى بُعْدِ خَمْسَةِ أَبْياتٍ تَخْلُو مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الصِّيَغِ يَعُودُ إِلَيْهَا بِغَيْرِهَا:

18/ **يَوْمَ** انْشِقَاقِ الأَرْضِ عَنْ أَهْلِ البِلَى *** فِيهَا وَيَبْدُو السَّخَـطُ وَالرِّضْـوَانُ.
يَوْمَ القِيَــامَةِ **يَـوْمٌ يُــظْلِمُ** فِيـهِ **ظُلْــ** *** **ــمُ الظَّالِمِينَ** وَيُشْرِقُ الإِحْسَانُ.

وَبَعدَ انْقِطَاعٍ بِبَيْتَيْنِ يُنْتِجُ صِيغَةً أُخْرَى يُمَهِّدُ بِهَا لِإِنْهَاءِ نَصَّهِ:

22/ **أَهْلَ القُبُورِ** نَسِيتُكُمْ وَكَذَاكُمُ الـ *** إِنْسَانُ مِنْهُ السَّـهْوُ وَالنِّسْـيَانُ.
أَهْلَ البِلَى أَنْتُـمْ مُعَسْكَرُ وَحْشَةٍ *** حَيْثُ اسْتَقَرَّ البُعْدُ وَالهِجْرَانُ.

هَكَذَا نَرَى الشَّاعِرَ فِي قَصِيدَةٍ مِنْ 24 بَيْتًا يُكَرِّرُ بِالتَّنَاوُبِ صِيَغًا مُخْتَلِفَةً سِتَّ عَشَرَةَ مَرَّةً فِي بِدَايَاتِ أَبْيَاتِهِ، وَهَذَا التَّكْرَارِ الاسْتِهْلاَلِيِّ، وَإِنْ كَانَ الشَّاعِرُ يُلَوِّنُ فِيهِ وَيَتَحَكَّمُ فِي سَيْرُورَتِهِ عَبْرَ القَصِيدَةِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَرْتَقِي لِيَبْلُغَ الوَظِيفَةَ التِّي رَامَهَا شُعَرَاءُ الحَدَاثَةِ وَهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ بِدُرْبَةٍ وتَفَنُّنٍ إِذْ " يُمْكِنُ اعْتِبَارُ التَّكْرَارِ الاسْتِهْلاَلِيِّ التَّصَاعُدِيِّ مُنْجَزًا جَمَالِيًّا مِنْ مُنْجَزَاتِ القَصِيدَةِ الحَدِيثَةِ عَلَى نَحْوٍ يُتِيحُ لِلشَّاعِرِ التَّصَاعُدَ بِتَوَتُّرِهِ بِشَكْلٍ مُؤَثِّرٍ وَمُعَبِّرٍ جَمَالِيًّا فِي بِنْيَةِ القَصِيدَةِ "[2].

[1]- الدّيوان، [من الكامل]، ص370.

[2]- جماليّة التّكرار في الشّعر السّوريّ المعاصر، عصام شرتح، دار رند للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الأُردُن، ط1، 2010م، ص157.

بَيْدَ أَنَّ هَذَا الحُكْمَ لاَ يَمْنَعُ القَوْلَ بِأَنَّ طَرِيقَةَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ لاَ تَنْفَكُّ حَامِلَةً لِوَظَائِفَ أُسْلُوبِيَّةٍ خَادِمَةٍ للمُبْدِعِ بِشَكْلٍ مِنَ الأَشْكَالِ، فَتَوْزِيعُهُ لِلتَّكْرَارِ فِي ثَنَايَا نُصُوصِهِ مَحَطَّاتٌ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا الشَّاعِرُ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ، مِنْهَا: اسْتِجْمَاعُ نَفَسِهِ الشِّعْرِيِّ خُصُوصًا فِي القَصَائِدِ الطَّوِيلَةِ نِسْبِيًّا، وَهِيَ تَضَعُ القَارِئَ أَمَامَ مَعَالِمِ النَّصِّ الكُبْرَى، ثُمَّ تَشُدُّهُ إِلَى بُؤْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِيهِ قَبْلَ أَنْ تُسْلِمَه لِغَيْرِهَا، كَمَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ الشَّاعِرُ فِي التَّلْوِينَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي تُخْرِجُهُ عَنِ النَّمَطِيَّةِ التِّي قَدْ تَسِمُ نَصًّا حَتَّى نِهَايَتِهِ فَتَجْعَلُهُ مَسَارًا مُتَشَابِهَ الجَنَبَاتِ، مَأْلُوفًا، تَقْتُلُ الأُحَادِيَّةُ وَالمُعَاوَدَةُ مَا فِيهِ مِنْ إِبْدَاعٍ.

وَهَذَا أَيْضًا، لاَ يَمْنَعُ، مِنْ تَلَمُّسِ الدَّوَاعِي النَّفْسِيَّة التِّي لاَ يَعْدَمُهَا شَاعِرٌ، قَدِيمًا أَو حَدِيثًا، بِهَا يَسْتَحِثُّ نَصَّهُ لِيَخْرُجَ لِلنَّاسِ، وبِهَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ وَيُبَادِلُهُم شَيْئًا مِمَّا فِي دَوَاخِلِهِ التِّي قَدْ يَكُونُ التَّكْرَارُ الأَدَاةَ الأَنْسَبَ لِتَنْبِيهِهِمْ إِلَيْهَا. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ تِلْكَ الدَّوَافِعَ النَّفْسِيَّةَ " ذَاتُ وَظِيفَةٍ مُزْدَوَجَةٍ، تَجْمَعُ الشَّاعِرَ وَالمُتَلَقِّي عَلَى السَّوَاءِ، فَمِنْ نَاحِيَةِ الشَّاعِرِ يَعْنِي التَّكْرَارُ الإِلْحَاحَ فِي العِبَارَةِ عَلَى مَعْنًى شُعُورِيٍّ، يَبْرُزُ مِنْ بَيْنِ عَنَاصِرِ المَوْقِفِ الشِّعْرِيِّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ... وَمِنْ نَاحِيَةِ المُتَلَقِّي يُصْبِحُ ذَا تَجَاوُبٍ يَقِظًا مَعَ البُعْدِ النَّفْسِي لِلتَّكْرَارِ مِنْ حَيْثُ إِشْبَاعُ تَوَقُّعِهِ، وَعَدَمِ إِشْبَاعِهِ، فَتَثْرَى تَجْرِبَتُهُ بِثَرَاءِ التَّجْرِبَةِ الشِّعْرِيَّةِ المُتَفَاعَلِ مَعَهَا"[1]. ولَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ مِمَّا هَيَّأَ لِشَاعِرِنَا أَسْبَابَ القَبُولِ لَدَى النَّاسِ وَالافْتِتَانِ بِطَرِيقَتِهِ.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

1/ أَيَا **لِلمَنَـــايَا** وَيْحَـهَا مَـا أَجَـــدَّهَا *** كَأَنَّـــكَ يَـوْمًا قَـدْ تَـوَرَّدْتَ وِرْدَهَـا.
وَيَا **لِلمَنَـــــايَا** مَـا لَهَـــا مِـنْ إِقَـــالَةٍ *** إِذَا بَلَغَتْ فِـي مُـدَّةِ الحَـيِّ حَـــدَّهَا.
أَلاَ يَـا أَخَـانَا إِنَّ **لِلمَـوْتِ** طَـــلْعَةً *** وَإِنَّـكَ مُذْ صُـوِّرْتَ تَقْصِـدُ قَصْـدَهَا.
وَلِلمَـرْءِ عِنْـدَ **المَوْتِ** كَـرْبٌ وَغُـصَّةٌ *** إِذَا مَـرَّتِ **السَّاعَـاتُ** قَرَّبْـنَ بُعْـدَهَا.

[1]- البنيات الأسلوبيّة في لغة الشّعر العربيّ الحديث، مصطفى السّعدني، مُنشأة المعارف، مصر، ط1، 1998م، صص172،173.

لَكَ الخَيْرُ أَمَّا كُلُّ نَفْسٍ فَإِنَّهَا *** **تَمُوتُ** وَإِنْ حَدَثْ عَنِ **المَوْتِ** جَهْدَهَا.
سَتُسْلِمُكَ السَّاعَاتُ فِي بَعْضِ مَرِّهَا *** إِلَى **سَاعَةٍ** لاَ **سَاعَةَ** لَكَ بَعْدَهَا.[1]

فَهُوَ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ السِّتَّةِ يُكَرِّرُ كَلِمَةَ (مَوْتٌ، مَنَايَا، تُسْلِمُكَ...) سَبْعَ مَرَّاتٍ وَكَلِمَةَ (السَّاعَات، سَاعَةَ) أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، ثَلاَثٌ مِنْهَا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ. كَيْفَ لِمَنْ يَقْرَأُ مِثْلَ هَذَا النَّصِّ ثُمَّ لاَ يُحِسُّ مِنْ خِلاَلِ التَّكْرَارِ الذِّي تَسَلَّطَ عَلَيْهِ أَجْوَاءَ نَشْأَتِهِ وَظُرُوفَهَا المُهَيْمِنَةِ؟! إِنَّ التَّجْرِبَةُ الشِّعْرِيَّةُ تُبِينُ عَبْرَ التَّرْدِيدِ هُنَا عَمَّا تَسَلَّطَ عَلَى فِكْرِ الشَّاعِرِ حِينَهَا وَأَقَضَّ مَضْجَعَهُ، وَهُوَ يَسْعَى إِلَى نَقْلِ تِلْكَ الحَقِيقَةِ الشَّخْصِيَّةِ بِالطَّرِيقَةِ التِّي وَعَاهَا إِلَى وَعْيِ القَارِئِ والمُسْتَمِعِ، فَـ " لِكَيْ نَكْشِفَ عَقْلِيَّةَ شَاعِرٍ مَا، أَوْ – عَلَى الأَقَلِّ– نَكْشِفَ مَا يَشْغَلُ بَالَهُ أَسَاسًا، دَعْنَا نُفَتِّشُ عَنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ التِّي تَتَرَدَّدُ عِنْدَهُ كَثِيرًا، فَسَوْفَ تُعَبِّرُ هَذِهِ الكَلِمَاتُ عَمَّا يَسْتَحْوِذُ عَلَى تَفْكِيرِهِ "[2]، هَذَا مَا اعْتَقَدَهُ بُوْدْلِير، وَهُوَ، فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، وَسِيلَتُنَا كَقُرَّاءَ إِلَى الانْدِمَاجِ وَالتَّمَاهِي مَعَ طَبِيعَةِ الشِّعْرِ وَقَائِلِهِ.

إِنَّ " البَاعِثَ النَّفْسِيَّ مِنْ أَهَمِّ العَوَامِلِ المُسَبِّبَةِ لِلتَّكْرَارِ، وَيَمْتَازُ مِنْ غَيْرِهِ بِأَنَّهُ الأَكْثَرُ ظُهُوراً بَيْنَهَا لِمَا يُمَثِّلُهُ مِنْ إِعَادَةٍ لِمَا وَقَعَ فِي القَلْبِ، وَاسْتَقَرَّ فِي النَّفْسِ، فَانْشَغَلَتْ بِهِ عَنْ سِوَاهُ "[3]، وَمِثْلُ هَذَا الأَمْرِ يَسْرِي عَلَى كَثِيرٍ مِنْ قَصَائِدِ الزُّهْدِيَاتِ، مِمَّا يَكْشِفُ بِشَكْلٍ يَتَأَكَّدُ مَعَهُ كُلَّ حِينٍ أُسْلُوبُ الشَّاعِرِ فِي التَّعَاطِي مَع مَوْضُوعَاتِهَا، وَطَرِيقَتَهُ فِي بِنَائِهَا القَائِمَةِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الأَدَوَاتِ، لَيْسَ التَّكْرَارُ أَهَمَّهَا، وَلَكِنَّهُ مُقَوِّمٌ أَسَاسٌ لاَ تَغِيبُ فَاعِلِيَّتُهُ عَنْ ذِهْنِ القَارِئِ العَادِيِّ فَضْلاً عَنِ المُتَمَرِّسِ. وَلَعَلَّ التَمْثِيلَ بِنَصٍّ آخَرَ يُقَرِّبُ المَسْأَلَةَ أَفْضَلَ، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 114:

---

[1]- قصيدة رقم:133 [من الطويل]، ص130.

[2]- يُنظر: الاتجّاه الأسلوبيّ في النّقد الأدبيّ، محمّد شفيع السيّد، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر، ط2، 2009م، ص169.

[3]- التّكرار في شعر محمود درويش، فهد ناصر عاشور، م.س، ص33.

1/ **المَنَـــايَا** تَجُـوسُ كُلَّ **البِـــلاَدِ** *** **وَالمَنَـــايَا** تُفْنِي جَمِيـعَ **البـلاَدِ**.
لَتَنَالَـــنَّ مِـــنْ قُـــرُونٍ أَرَاهَـــا *** مِثْلَ مَـا **نِلْـنَ مِنْ** ثَـمُودٍ وَعَـادِ.
هُنَّ أَفْنَـيْنَ مَنْ مَضَـــى مِنْ نِـزَارٍ *** **هُـنَّ أَفْنَيْـنَ مَنْ مَضَـى مِنْ** إِيَـادِ.
هَلْ تَذَكَّرْتَ مَنْ خَلاَ مِنْ بَنِي سَا *** سَـانَ أَرْبَـابِ فَـارِسٍ والسَّـوادِ.
هَلْ تَذَكَّرْتَ مَنْ مَضَى مِنْ بَنِي الأَصْـ *** ـفَرِ أَهْلِ القِبَـابِ كَالأَطْـوَادِ.
أَيْـنَ أَيْـنَ النَّبِـيُّ صَلَّـى اللّـــــهُ عَلَـيْهِ مِنْ مُهْـتَدٍ رَشِيـدٍ وَهَـادِ.
أَيْـنَ دَاوُدُ **أَيْـنَ أَيْـنَ** سُلَيْمَـا *** نُ المَنِيـعُ الأَعْـرَاضِ وَالأَجْنَـادِ.
رَاكِبُ الرِّيحِ قَاهِرُ الجِنِّ وَالإِنْـ *** ـسِ بِسُلْطَانِهِ مُـذِلِّ الأَعَـادِي.
أَيْـنَ نُـمْرُودُ وَابْنُـهُ **أَيْـنَ** قَـارُو *** نُ وَهَامَـــــانُ ذُو الأَوْتَـــادِ.
إِنَّ فِـي ذِكْـرِنَا لَـهُمْ لاعْتِبَـارَا *** وَدَلِيـلاً عَلَـى سَبِيـلِ الرَّشَـادِ.
وَرَدُوا كُلُّـهُمْ حِيَـاضَ **المَنَـايَا** *** ثُـمَّ لَـمْ يَصْـدِرُوا عَـنِ الإِيـرَادِ.
أَيُّـهَا المُزْمِعُ الرَّحِيـلَ عَنِ الدُّنْيَـ *** ـا **تَـزَوَّدْ** لِـذَاكَ مِنْ خَيْـرِ **زَادِ**.
لَتَنَـــالَنَّكَ اللَّيَالِـــي وَشِيـــكًا *** **بِالمَنَـايَا** فَكُـنْ عَلَـى اسْتِعْـدَادِ.
أَتَنَـاسَيْتَ أَمْ **نَسِيـــتَ المَنَـايَا** *** **أَنَسِيـــتَ** الفِـــرَاقَ لِـــلأَوْلاَدِ.
نَسِيـتَ القُبُـورَ إِذْ أَنْـتَ فِيـهَا *** بَيْـنَ ذُلٍّ وَوَحْـشَةٍ وَانْفِـرَادِ.
16/ **أَيُّ يَوْمٍ يَـــوْمُ** السِّـبَاقِ **وَإِذْ** أَنْـ *** ـتَ **تُنَادَى** فَمَا تُجِيبُ **المُنَـادِي**.
أَيُّ يَوْمٍ يَـوْمُ الفِـرَاقِ وَإِذْ نَفْسُـ *** ـكَ تَرْقَى عَنِ الحَشَـا وَالفُـؤَادِ.
أَيُّ يَـوْمٍ يَـــوْمُ الفِـــرَاقِ وَإِذْ أَنْـــ *** ـتَ مِنَ النَّزْعِ فِي أَشَـدِّ الجِـهَادِ.
19/ **أَيُّ يَوْمٍ يَـــوْمُ** الصُّـــرَاخِ **وَإِذْ** يَلْـــ *** ـطِمْنَ حُـرَّ الوُجُـوهِ وَالأَجْيَـادِ.
22/ **أَيُّ يَـوْمٍ نَسِيـــتَ يَـــوْمُ** التَّـــلاَقِي *** **أَيُّ يَـوْمٍ نَسِيـــتَ يَـــوْمُ** التَّنَـــادِ.
أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ الوُقُـــوفِ إِلَـــى اللَّـ *** ـهِ **وَيَوْمُ** الحِسَـــابِ وَالأَشْهَـادِ.
أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ المَمَـــرِّ عَلَـى **النَّـــا** *** رِ وَأَهْوَالِـــهَا العِظَـامِ الشِّـــدَادِ.

أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ الخَلاَصِ مِنَ **النَّـــا** *** **رِ** وَهَــوْلِ العَــذَابِ وَالأَصْفَــادِ.

26/ **كَمْ وَكَمْ فِي القُبُـورِ مِنْ أَهْـلِ** مُلْكٍ *** **كَمْ وَكَمْ فِي القُبُـورِ مِـنْ** قُــوَّادِ.

كَمْ وَكَمْ فِي القُبُــورِ مِنْ أَهْلِ دُنْيَـا *** **كَمْ وَكَمْ فِي القُبُــورِ مِــنْ** زُهَّــادِ.

لَوْ بَذَلْتُ النُّصْحَ الصَّحِيحَ لِنَفْسِي*** لَمْ تَـذُقْ مُقْلَتَـايَ طَعْـمَ الرُّقَـادِ.

لَوْ بَذَلْتُ النُّصْحَ الصَّحِيحَ لِنَفْسِي*** هِمْتُ أُخْرَى الزَّمَانِ فِي كُلِّ وَادِ.[1]

يَنْهَضُ النَّصُّ مَعَ أَوَّلِ بَيْتٍ فِيهِ عَلَى تَكْرَارٍ يُؤَشِّرُ عَلَى الكَثَافَةِ التِّي سَيَصْطَبِغُ بِهَا مِنْ أَنَوَاعِ التَّرْدِيدِ المُخْتَلِفَةِ، فَيَبْدَأُ بِتَوَازُنٍ بَيْنَ دَفَّتَيْ مِصْرَاعَيْ البَيْتِ الأَوَّلِ، جَاعِلاً كَلِمَةَ وُلُوجِ القَصِيدَةِ وَمِفْتَاحَهَا:(**المَنَايَا**) مَدْخَلاً لِلْصَّدْرِ وَالعَجُزِ فِي آنٍ، وَ(**البِلاَدِ**) خَتْمًا لَهُمَا، وَبَيْنَهُمَا تَكْرَارٌ عَبْرَ المُرَادِفِ (**كُلُّ**) فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ وَ(**جَمِيعُ**) فِي الشَّطْرِ الثَّانِي:

1/ **المَنَـــايَا** ..... **كُلَّ البِـــلاَدِ** *** **وَالمَنَـــايَا** ..... **جَمِيــعَ البــلاَدِ.**

ثُمَّ يُخَفِّضُ وَتِيرَةَ التَّكْرَارِ فِي البَيْتِ الثَّانِي فَيَكْتَفِي بِإِعَادَةِ لَفْظَتَيْنِ تَمْهِيدًا لِرَفْعِهَا إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى بَعْدَ ذَلِكَ، مَعَ تَغْيِيرٍ فِي بِنْيَةِ الكَلِمَةِ وَتَرْتِيبِهَا فِي الشَّطْرِ، إِذْ يَقُولُ:

2/ **لَتَنَالَــنَّ مِـــنْ** ..... *** ..... **نِلْـنَ مِنْ** .....

وَبَدْءً مِنَ البَيْتِ الثَّالِثِ، كَمَا أَشَرْنَا، تَحْتَدُّ قُوَّةُ التَّكْرَارِ لِتَبْلُغَ ذِرْوَتَهَا، إِذْ يَشْغَلُ أَرْبَعَةَ أَشْطُرٍ فِي ثَلاَثَةِ أَبْيَاتٍ، يُوظِّفُهُ بِتَنَاسُقٍ أُسْلُوبِيٍّ جَمِيلٍ، أُفُقِيًّا بَيْنَ شَطْرَيْ البَيْتِ الثَّالِثِ، وَعُمُودِيًّا بَيْنَ صَدْرَيْ البَيْتَيْنِ الرَّابِعِ وَالخَامِسِ:

3/ **هُنَّ أَفْنَـــيْنَ مَنْ مَضَـــى مِتنْ** ..... *** **هُـنَّ أَفْنَيْـنَ مَـنْ مَضَـى مِنْ** ...

هَلْ تَذَكَّرْتَ مَنْ خَـــلاَ مِنْ بَنِـــي ... *** .....

هَلْ تَذَكَّرْتَ مَنْ مَضَى مِنْ بَنِي ..... *** .....

[1]- الدّيوان، [من الخفيف]، صص112- 114.

ثُمَّ، وَقَبْلَ أَنْ يَتَسَرَّبَ المَلَلُ إِلَى نُفُوسِ السَّامِعِينَ، يَنْتَقِلُ إِلَى شَكْلٍ آخَرَ مِنَ التَّكْرَارِ فَيُعِيدُ كَلِمَةً وَاحِدَةً هِيَ(**أَيْنَ**) سَبْعَ مَرَّاتٍ مَعَ التَّغْيِيرِ فِي مَوْقِعِهَا تَمَاشِيًا وَمُتَطَلَّبَاتِ الخِطَابِ الأُسْلُوبِيَّةِ:

6/ **أَيْــنَ أَيْــنَ** .....*** .....

أَيْــنَ ... أَيْــنَ أَيْــنَ ..... *** .....

..... *** .....

9/ **أَيْنَ** ..... **أَيْــنَ** .... *** .....

وَبَعْدَ أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ خَبَتْ فِيهَا جُذْوَةُ التَّكْرَارِ، وَكَأَنَّهَا اسْتِرَاحَةٌ سَيَشْحَنُ خِلاَلَهَا نَفَسَهُ الشِّعْرِيَّ اسْتِعْدَادًا لِانْطِلاَقَةٍ جَدِيدَةٍ مَهَّدَ لَهَا بِإِعَادَةِ مُشْتَقَّاتِ (نَسَى) أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي بَيْتَيْنِ فَقَطْ:

14/ **أَتَنَــاسَيْتَ .. نَسِيــــتَ** ..... *** **أَنَسِيــــتَ** .....

نَسِيــتَ ..... *** .....

لِيَنْطَلِقَ بِدَايَةً مِنَ البَيْتِ 16 مَعَ تَكْرَارٍ مِحْوَرُهُ الرَّئِيسُ هَذِهِ المَرَّةَ كَلِمَةُ (**يَوْمُ**)، يَصِلُ بِهِ الحَالُ إِلَى إِعَادَتِهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ هُوَ رَقَمُ:22، وَالذِّي تَعُودُ فِيهِ كَلِمَةُ(**نَسِيتُ**) مَرَّتَيْنِ. فَفِي الأَبْيَاتِ الثَّمَانِيَّةِ هَذِهِ يُكَرِّرُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ كَلِمَةَ (**يَومٍ/يَومُ**) 19 مَرَّةً مَسْبُوقَةً بِـ (**أَيُّ**) تْسْعَ مَرَّاتٍ، وَمَتبُوعَةً بِـ (**وَإِذْ**) أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَهَذَا مَجْمُوعُ تَكْرَارٍ هَائِلٍ فِي مَقْطَعٍ قَصِيرٍ كَهَذَا يُفْصِحُ عَنْ شَغَفٍ بِهَذِهِ الآلِيَّةِ الأُسْلُوبِيَّةِ حَدَّ " الإِدْمَانِ "!

16/ **أَيُّ يَوْمٍ يَــوْمُ** السِّــبَاقِ **وَإِذْ** أَنْـ ***ـتَ **تُنَادَى** فَمَا تُجِيبُ **المُنَــادِي**.

أَيُّ يَوْمٍ يَــوْمُ الفِــرَاقِ وَإِذْ نَفْسُــ ***ـكَ تَرْقَى عَنِ الحَشَــا وَالفُــؤَادِ.

أَيُّ يَــوْمٍ يَــوْمُ الفِــرَاقِ وَإِذْ أَنْــ ***ـتَ مِنَ النَّزْعِ فِي أَشَــدِّ الجِــهَادِ.

19/ **أَيُّ يَوْمٍ يَــوْمُ** الصُّــرَاخِ **وَإِذْ** يَلْــ *** ـطِمْنَ حُــرَّ الوُجُــوهِ وَالأَجْيَــادِ.
22/ **أَيُّ يَــوْمٍ نَسِيــتَ يَــوْمُ** التَّــلاَقِي *** **أَيُّ يَــوْمٍ نَسِيــتَ يَــوْمُ** التَّنَــادِ.
أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ الوُقُــوفِ إِلَــى اللَّـ *** ـهِ **وَيَوْمُ** الحِسَــابِ وَالأَشْهَــادِ.
أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ المَمَــرِّ عَلَى **النَّــا** *** رِ وَأَهْوَالِــهَا العِظَــامِ الشِّــدَادِ.
25/ **أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُ** الخَلاَصِ مِنَ **النَّــا** *** رِ وَهَــوْلِ العَــذَابِ وَالأَصْفَــادِ.

وَلاَ يَقِفُ الأَمْرُ هُنَا، إِذْ يُصَعِّدُ الشَّاعِرُ فِي نِهَايَةِ القَصِيدَةِ مِنْ هَذِهِ " الحَالِ" بِالعَوْدَةِ إِلَى مُوَازَنَةِ الأَشْطُرِ تَكْرَارِيًّا، بِجَعْلِهِ صَدْرَيْ البَيْتَيْنِ 26 و27 مُتَسَاوِيَيْنِ تَمَامًا لِعَجُزَيْهِمَا عَدَا كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي كُلِّ شَطْرٍ، وَجَعْلِهِ صَدْرَيْ البَيْتَيْنِ 28 و29 جُمْلَةً وَاحِدَةً هِيَ هِيَ فِي كِلْتَيْهِمَا!

26/ **كَمْ وكَمْ فِي القُبُــورِ مِنْ أَهْــلِ** ..... *** **كَمْ وَكَــمْ فِــي القُبُــورِ مِــنْ** .....
كَمْ وكَمْ فِي القُبُــورِ مِنْ أَهْــلِ ..... *** **كَمْ وكَمْ فِي القُبُــورِ مِــنْ** .....
لَوْ بَذَلْتُ النُّصْحَ الصَّحِيحَ لِنَفْسِي*.....
لَوْ بَذَلْتُ النُّصْحَ الصَّحِيحَ لِنَفْسِي*.....

وَفِي العُمُومِ، إِذَا مَا تَأَمَّلْنَا القَصِيدَةَ وَجَدْنَا أَنَّ غِيَابَ التَّكْرَارِ عَنِ بَيْتٍ مِنْهَا هُوَ الشُّذُوذُ وَلَيْسَ العَكْسُ، إِذْ لاَ يَخْلُو، إِلاَّ قَلِيلُهَا، مِنْ تَكْرَارِ حَرْفٍ أَوْ لَفْظٍ أَوْ عِبَارَةٍ، وَذَاكَ مَا يُرَسِّخُ، مَرَّةً أُخْرَى، فِكْرَةَ الاخْتِيَارِ الأُسْلُوبِيِّ الذِّي يَنْهَجُهُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي إِقَامَةِ نُصُوصِهِ، وَالذِّي تُمَثِّلُ لَهُ النَّمَاذِجُ السَّابِقِ ذِكْرُهَا أَوْ هَذِهِ التِّي سَتَأْتِي.

فَفِي مَقْطُوعَةٍ مِنْ أَرْبَعَة أَبْيَاتٍ لاَ يَجِدُ الشَّاعِرُ حَرَجًا فِي أَنْ يَبْدَأَ جَمِيعَ أَشْطُرِهَا الأُولَى بِفِعْلٍ مُضَارِعٍ وَاحِدٍ (**سَتَرَى**) قَرَنَهُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ بِحَرْفِ السِّينِ الدَّالِّ عَلَى المُسْتَقْبَلِ القَرِيبِ الذِّي يَغْفَلُ عَنْهُ المَرْءُ فِي حِينِ هُوَ يُخَبِّئُ لَهُ مَا يُنَغِّصُ العَيْشَ وَيُذْهِبُ النُّعَاسَ عَنِ الجُفُونِ. إِنَّهُ لَيْسَ تَكْرَارًا وَفَقَطْ، بَلْ هُوَ إِصْرَارٌ عَلَى أَنْ يَسْمَعَ الإِنْسَانُ الرِّسَالَةَ

وَيَسْتَعِدَّ لِلقَادِمِ، هكَذَا يَتَرَدَّدُ الفِعْلُ سِتَّ مَرَّاتٍ فِي أَبْيَاتٍ أَرْبَعَةٍ، ثَلاَثٌ مِنْهَا فِي البَيْتِ الأَوَّلِ، مُؤْذِنًا بِجَلاَلَةِ المَوْقِفِ وَفَدَاحَةِ الخَسَارَةِ لِلغَافِلِينَ:

1/ **سَتَـرَى** بَعْدَ مَـا **تَرَى** *** غَيْـرَ هَـذَا الذِّي **تَـرَى**.
سَتَـرَى مَا بَقِيتَ مَا *** يَمْنَـعُ النَّـائِمَ الكَـرَى.
سَتَرَى مَنْ يَصِيرُ بَعْـ *** ـدَ نَعِيـمٍ إِلَـى الثَّـرَى.
سَتَـرَى كُلَّ حَـادِثٍ *** كَيْفَ **يَجْرِي** إِذَا **جَرَى**.[1]

وَمِنْ جَمَالِيَّةِ التَّكْرَارِ هُنَا، مَا كُنَّا أَشَرْنَا لِمَثِيلِهِ فِي الفَصْلِ الأَوَّلِ مِنْ هَذَا العَمَلِ حِينَ تَنَاوَلْنَا مَسْأَلَةَ الإِيقَاعِ، تَكْرَارُ الشَّاعِرِ لِمَقْطَعٍ صَوْتِيٍّ وَاحِدٍ فِي الأَبْيَاتِ كُلِّهَا، وَهُوَ، أَيْضًا، يُنَبِّهُ إِلَى وَعْيِهِ بِطَرِيقَتِهِ وَمُضَيِّهِ عَلى نَهْجِهَا فِي جُلِّ مَا أَتَاهُ. وَلِكَيْ نَتَجَنَّبَ العَوْدَةَ إِلَى التَّكْرَار الإِيقَاعِيِّ، سَنَبْقَى مَع هَذِهِ الإِشَارَةِ السَّرِيعَةِ إِلَى فَاعِلِيَّةِ تَكْرَارِ تِلْكَ المَقَاطِعِ اللُّغَوِيَّةِ، خُصُوصًا فِي الجَانِبِ النَّفْسِيِّ عِنْدَ المُتَلَقِّي:

1/ **سَتَـرَى** ..... **تَرَى** *** ..... **تَـرَى**.
سَتَـرَى ..... *** .....**ـرَى**.
سَتَرَى ..... *** ..... **ـرَى**.
سَتَـرَى ..... *** ..... **جَرَى**.

فَتَأَمَّلْ مَا يُحْدِثُهُ تَمَاثُلِ بِدَايَاتِ الأَبْيَاتِ وَنِهَايَاتُهَا مِنْ تَوَازٍ بَيْنَ الأَشْطُرِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ أَثَرٍ فِي النَّفْسِ مُتَولِّدٍ بِالأَسَاسِ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ مِنَ التَّكْرَارِ.

وَعَلَى هَذَا المِنْوَالِ يَسِيرُ فِي قَصِيدَتِهِ رَقَمِ 164، إِذْ مَعَ البَيْتِ السَّابِعِ يَسْتَهِلُّ

[1]- مقطوعة رقم: 152[من مجزوء الخفيف]، ص150.

تَكْرَارًا بِالفِعْلِ (**يَنْسَى**) المَسْبُوقِ بِوَاوِ العَطْفِ (**وَيَنْسَى**) يُعِيدُهُ سِتَّ مَرَّاتٍ، ثَلاثٌ مِنْهَا فِي البَيْتِ الثَّانِي، وَهُوَ يُرَكِّبُهُ فِي الأَشْطُرِ السِّتَّةِ تَرْكِيبًا مُمَيَّزًا يَجْعَلُهَا مُتَنَاسِقَةً مُتَسَاوِيَةَ الأَطْرَافِ، مَرَّتَانِ فِي عَجُزِ البَيْتِ السَّابِعِ وَمِثْلَهُمَا فِي عَجُزِ البَيْتِ الثَّامِنِ، لَكِنَّهُ يُضِيفُ إِلَيْهِمَا ثَالِثًا فِي أَوَّلِ البَيْتِ، أَمَّا البَيْتُ التَّاسِعُ فَاكْتَفَى بِصِيغَةٍ وَاحِدَةٍ أَوَّلَ الصَّدْرِ. لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ اعْتِبَاطًا كَمَا أَسْلَفْنَا، فَالشَّاعِرُ يَصِفُ حَالِ الإِنْسَانِ المُنْشَغِلِ بِالمَلَذَّاتِ، اللاَّهِثِ وَرَاءَهَا (**وَيَنْسَى**) وَيَغْفَلُ، لِذَا، يَعُودُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، بَعْدَ هَذَا الإِلْحَاحِ، لِيَنْصَحَهُ وَيُحَذِّرَهُ النِّهَايَةَ المُؤَكَّدَةَ وَمَا يَعْقُبُهَا مِنْ جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، مُكَرِّرًا الفِعْلَ ذَاتَهُ، وَلَكِنْ فِي صِيغَةِ النَّهْيِ هَذِهِ المَرَّةِ (فَلاَ **تَنْسَ**):

7/ يَعُدُّ الغُــرُورَ وَيَبْـنِي القُصُــورَ*** **وَيَنْسَــى** الفَنَاءَ **وَيَنْسَــى** القَدَرْ.
وَيَنْسَى القُرُونَ وَرَيْبَ المَنُونِ *** **وَيَنْسَى** الخُطُوبَ **وَيَنْسَى** الغِيَرْ.
وَيَنْسَى شُهُورًا تُحِيلُ الأُمُورَ *** فَإِمَّــا بِخَــــيْرٍ وَإِمَّــــا بِشَــــرْ.
24/ فَلاَ **تَنْسَ** يَوْمًا تُسَجَّى عَلَى *** سَرِيــرِكَ فَــوْقَ رِقَــابِ البَــشَرْ.[1]

وَفِي القَصِيدَةِ رَقَمِ:33 مِثْلُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ، يَخْتَارُ الشَّاعِرُ كَلِمَةً مُعَيَّنَةً يُحَمِّلُهَا ثِقْلَ الدَّلاَلَةِ التِّي يَبْقَى سِيَاقُهَا العَامُّ حَدِيثًا فِي المَوْتِ وَالحَيَاةِ، والشَّبَابِ وَالشَّيْبِ، وَالقَبْرِ وَالنُّشُورِ، ...لِيُؤَثِّثَ نَصَّهُ بِتَكْرَارَاتٍ أُخْرَى يُوَزِّعُهَا عَبْرَهُ بِطُرُقٍ وَأَشْكَالٍ تُوَافِقُ مُرَادَهُ، وَتَخْدُمُ نَمَاءَ رِسَالَتِهِ، فَيَقُولُ:

1/ **طَالَمَا** احْلَوْلَى مَعَاشِي وَطَابَا *** **طَالَمَا** سَحَّبْتُ خَلْفِي الثِّيَابَا.
طَالَمَا طَاوَعْتُ جَهْلِي وَلَهْوِي *** **طَالَمَا** نَازَعْتُ صَحْبِي الشَّرَابَا.
طَالَمَا كُنْتُ أُحِبُّ التَّصَابِي *** فَرَمَــانِي سَهْــمُهُ وَأَصَــابَا.
4/ **أَيُّــهَا البَــانِي** قُصُــورًا طِــوَالاً *** أَيْنَ تَبْغِي هَلْ تُرِيدُ السَّحَابَا.

[1]- قصيدة رقم:164 [من المتقارب]، ص ص160- 162.

5/ إِنَّـمَا أَنْتَ بِــوَادِي **المَنَــايَا** *** إِنْ رَمَـاكَ **المَوْتُ** فِيهِ أَصَـابَا.
أَيُّــهَا البَــانِي لِهَــدْمِ اللَّيَــالِي*** ابْنِ مَا شِئْتَ سَتَلْقَى خَـرَابَا.
أَأَمِنْتَ **المَوْتَ** وَ**المَوْتُ** يَأْبَى*** بِــكَ وَالأَيَّــامُ إِلاَّ انْقِــلاَبَا.
هَلْ تَرَى **الدُّنْيَا** بِعَيْنَيْ بَصِيرٍ*** **إِنَّمَا الدُّنْـيَا** تُحَاكِي السَّـرَابَا.
9/ **إِنَّــما الدُّنْــيَا** كَفَــيْءٍ تَوَلَّــى*** أَوْ كَمَا عَايَنْتَ فِيهِ الضَّـبَابَا.[1]

يُعِيدُ الشَّاعِرُ كَلِمَةَ(**طَالَمَا**) 5 مَرَّاتٍ فِي الأَبْيَاتِ الثَلاَثَةِ الأُولَى، فَيَجْعَلُهَا مَطْلَعَ كُلِّ شَطْرٍ عَدَا السَّادِسِ مِنْهَا، ثُمَّ يذْهَبُ إِلَى تَكْرَارٍ مُخْتَلِفٍ: فَيُعِيدُ (**أَيُّــهَا البَــانِي**) مَرَّتَيْنِ وَاحِدَةٌ فِي البَيْتِ الرَّابِعِ والأُخْرَى فِي السَّادِسِ، وَيُعِيدُ (**المَنَايَا – المَوْتُ**) مَرَّتَيْنِ كَذَلِكَ، أُولاَهُمَا فِي البَيْتِ الخَامِسِ والثَّانِيَةُ فِي السَّابِعِ، وَيُنْهِي البَيْتَيْنِ الثَّامِنَ والتَّاسِعَ بِتَكْرَارِ كَلِمَةَ (**الدُّنْيَا**) ثَلاَثَ مَرَّاتٍ اثْنَتَانِ مِنْهَا مَقْرُونَةٌ بِـ (**إِنَّمَا**).

وَبِهَذِهِ المرُاوَحَةُ بَيْنَ الصِّيغَتَيْنِ لاَ يَسْمَحُ بِتَنَوُّعِ الدَّلاَلَةِ وَتَجَدُّدِ الخِطَابِ عَبْرَ التَّلْوِينَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ يُنَوِّعُ الأَثَرَ العَاطِفِيَّ/النَّفْسِيَّ لَدَى طَرَفَيْ الرِّسَالَةِ (المُخَاطِبُ/ المُخَاطَبُ) أَيْضًا، مُعْطِيًا بِذَلِكَ دَفْقًا جَدِيدًا لِلنَّصِّ فِي إِطَارٍ مِنَ التَّنَاسُقِ وَالانْسِجَامِ المُسْتَمِرَّيْنِ.

وَهَاهُوَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لَمَّا غَلَتِ الأَسْعَارُ وَنَضَبَتِ البِضَاعَةُ مِنْ أَسْوَاقِ البَلَدِ هَاجَتِ النَّاسُ وَمَاجَتْ، وَضَجِرَتْ وَضَجَّتْ، فَكَتَبَ إِلَى الخَلِيفَةِ النَّصَّ الآتِي ذِكْرُهُ ضَمَّنَهُ مَا رَآهُ مِنْ تِلْكَ الحَالِ، يَدْعُوهُ إِلَى الإِشْفَاقِ عَلَى الرَّعِيَّةِ والتَّخْفِيفَ مِنْ أَوْزَارِهَا، فَقَالَ:

32/ **إِنِّي أَرَى** الأَسْـعَارَ أَسْعَـ *** ـــارَ الرَّعِــيَّةِ غَــالِيَهْ.
وَأَرَى المَكَــاسِبَ نَــزْرَةً *** **وَأَرَى** الضَّـرُورَةَ فَــاشِيَهْ.

[1]- الدّيوان [المَدِيدُ]، صص39-41.

وَأَرَى غُمُـومَ الدَّهْـــرِ رَا *** ئِـحَةً تَمُـــرُّ وَغَـــادِيَهْ.
وَأَرَى المَرَاضِـعَ فِيهِ عَـنْ *** أَوْلاَدِهَا جَـــــــــافِيَهْ.
وَأَرَى اليَتَـــــامَى وَالأَرَا *** مِلَ فِي البُيُوتِ الـخَالِيَهْ.
مِـــنْ بَيـْنِ **رَاجٍ** لَـمْ يَـزَلْ *** يَسْـــمُو إِلَيْـكَ **وَرَاجِـيَهْ**.
يَشْكُونَ مَجْهَدَةً بِأَصْـــ *** ـواتٍ ضِعَـافٍ عَـــالِيَهْ.
يَرْجُـونَ رِفْدَكَ كَـيْ يَـرَوْا *** مِـمَّا لَقُـــوهُ العَـــافِيَهْ.
مَنْ يُرْتَجَى فِي النَّاسِ غَيْـ *** ـرُكَ لِلعُيُـــونِ البَـــاكِيَهْ.
مِنْ مُصْبِـــيَاتٍ جُـــوَّعٍ *** تُمْسِي وَتُصْبِـحُ طَـاوِيَهْ.
مَنْ يُرْتَـــجَى لِدِفَـاعِ كُـرَ*** بٍ مُلِـمَّةٍ هِـيَ مَـــاهِيَهْ.
مَنْ لِلبُطُـــونِ الجَـــائِعَا *** تِ وَلِلجُسُـــومِ العَـــارْيَهْ.
مَنْ لارْتِيَـــاعِ المُسْلِمِيـــ *** ـنَ إِذَا سَمِـعْنَا الوَاعِـــيَهْ.[1]

فَبَعْدَ ثَلاَثِينَ بَيْتًا اشْتَمَلَتْ، كَمَا هِي العَادَةُ، عَلى ذِكْرِ المَوْتِ وَحَوَادِثِ الدَّهْرِ، يَخْلُصُ الشَّاعِرُ إِلَى مَا يَشْغَلُ دُنْيَا النَّاسِ وَقْتَهَا مِنْ ضَيْقِ الحَالِ وَتَفَشِّي الغَلاَءِ والفَقْرِ، مُحَاوِلاً حَمْلَ جُزءٍ مِنْ هَمِّ الرَّعِيَّةِ لِيَنْقُلَهُ إِلَى المَسْؤُولِينَ عَنْهَا. وَلَيْسَ غَرِيبًا هُنَا أَنْ يَغْلُبَ التَّكْرَارُ عَلَى النَّصِّ فَطَبِيعَةُ الرِّسَالَةِ وَمَوضُوعُهَا يَفْرِضَانِهِ، إِذْ الأَزْمَةُ مُشْتَدَّةٌ، وَصَبْرُ النَّاسِ يَنْفَدُ، وَوَقْتُ الخَلِيفَةِ، أَيْضًا، لاَ يَسْمحُ بِتَفْصيلِ القَضِيَّةِ وَتَطْوِيلِهَا، لِذَا رَتَّبَهَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ كَمَا تُرْفَعُ التَّقَارِيرُ إِلَى السُّلُطَاتِ، نِقَاطٌ مُخْتَصَرَةٌ مُوجَزَةٌ مُكَرَّرَةُ الأَسَالِيبِ:

32/ **إِنِّي أَرَى** ..... *** .....
وأَرَى ..... *** **وَأَرَى** .....
وَأَرَى ..... *** .....

[1]- القَصِيدَةُ رَقَمُ:452[من مجْزُوءُ الكَامِلِ]، ص ص437-441. وَمَطْلَعُهَا: أَيْنَ القُرُونُ المَاضِيَهْ *** تَرَكُوا المَنَازِلَ خَالِيَهْ.

وَأَرَى ..... *** .....

وَأَرَى ..... *** .....

ثُمَّ بَعْدَ وَصْفِ الحَالِ، يُمَهِّدُ لاسْتِرْضَاءِ الخَلِيفَةِ واسْتِعْطَافِهِ، فَيَبْدَأُ تَكْرَارًا بِصِيغَةٍ جَدِيدَةٍ مَع البَيْتِ الأَرْبَعِينَ حَتَّى الرَّابِعِ وَالأَرْبَعِينَ:

40/ **مَنْ يُرْتَجَى** ..... *** .....

مِنْ ..... *** .....

مَنْ يُرْتَـجَى ..... *** .....

مَنْ لِـ..... *** .....

مَنْ لِـ..... *** .....

هَكَذَا يَبْقَى التَّكْرَارُ " دَائِرًا فِي فَلَكِ النَّبْضِ النَّفْسِيِّ لِلشَّاعِرِ، فِي كُلِّ مَا يَجْلِبُهُ مِنْ أَلْفَاظَ يَكُونُ الإِلْحَاحُ عَلَيْهَا، أَوْ عَلَى جُمْلَةٍ مُهِمَّةٍ مِنَ العِبَارَةِ، لاتِّصَالِ الحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ بِالحَالَةِ التيِّ تَسْكُنُ الشَّاعِرَ"[1]، فَتُوَجِّهُهُ، أَوْ لِنَقُلْ، هُمَا يَتَرَافَقَانِ مُتَصَارِعَيْنِ فِي فَضَاءِ النَّصِّ سَعْيًا لِتَمَلُّكِ المَسَاحَةِ الأَكْبَرَ مِنْ لُغَتِهِ وَعَاطِفَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ.

فَالتَّكْرَارُ يَحْمِلُ فِي ثَنَايَاهُ دَلاَلاَتٍ نَفْسِيَّةٍ وَانْفِعَالِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، يَفْرِضُهَا سِيَاقُ النَّصِّ وَهُو أَدَاةٌ تُسَاعِدُ الشَّاعِرَ عَلَى تَشْكِيلِ مَوْقِفِهِ وَتصْوِيرِهِ، كَمَا تَكْشِفُ مَوْقِفَهُ مِنَ القَضَايَا التيِّ يُعَالِجُهَا، وَالإِيقَاعِ مَا هُوَ إِلاَّ أَصْواتٌ مَكَرَّرَةٌ تُثِيرُ فِي النَّفْسِ انْفِعَالاً مَا، وَالتَّكْرَارُ ظَاهِرَةٌ لاَ تَكادُ تخْلُو مِنْهَا الحياة، بَلْ لاَ تَكَادُ تَسْتَقِيمُ إِلاّ بهَا، إِذْ تَنتَشِرُ فِي كُلِّ مَجَالاَتِهَا، والتَّكْرَارُ فِي الشِّعْرِ يَشْتَغِلُ فِي مُسْتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَصِيرُ " علَى المُسْتَوَى اللُّغَوِيِّ ذَا فَائِدَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ، إِذْ أَنَّ إِعَادَةَ أَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ يُوحِي بِأَهَمِّيَةِ مَا تَكْسِبُهُ تِلْكَ الأَلْفَاظُ مِنْ دَلاَلاَتٍ، مِمَّا يَجْعَلُ ذَلِكَ التَّكْرَارَ مِفْتَاحَا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ

[1]- تكرار التّراكم وتكرار التّلاشي- ظاهرة أسلوبيّة، عبد الكريم راضي جعفر، م.س، ص10.

لِفَهْمِ القَصِيدَةِ "[1].

تَدْفَعُنَا كَثَافَةُ الظَّاهِرَةِ فِي زُهْدِيَاتِ شَاعِرِنَا إِلَى تَتَبُّعِهَا فِي مُسْتَوَيَاتٍ أُخْرَى مِنْ بِنْيَتِهَا اللُّغَوِيَّةِ لِإِدْرَاكِ مَدَى تَوْظِيفِهَا هُنَاكَ، وَذَاكَ هُوَ الذِّي سَنَعْمَلُ عَلَى اسْتِجْلَاءِ خَوَاصِّهِ وَأَحْوَالِهِ مِنْ خِلاَلِ النَّظَرِ فِي تَكْرَارِ العِبَارَاتِ والصِّيَغِ فِي هَذَا النِّتَاجِ.

3- تَكْرَارُ العِبَارَةِ[الصِّيغَةِ]:

لَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَكَّدْنَا عَلَى صُعُوبَةِ دِرَاسَةِ أَنْوَاعِ التَّكْرَارِ عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ كُلاًّ علَى حِدَةٍ لأَسْبَابَ ذَكَرْنَاهَا فِي أَوَانِهَا، وَأَنَّ الذِّي نَأْتِيهِ هُنَا تَسْهِيلٌ لِإِدْرَاكِهَا وَتَرْتِيبٌ فَحَسْبَ. لِذَا يُمْكِنُ أَنْ نُلاحِظَ تَدَاخُلَ بَعْضِ الشَّواهِدِ وَتَكْرَارَهَا، جُزْئِيًّا أَوْ كُلِّيًّا لِلأَمْرِ ذَاتِهِ، مَعَ حِرْصِنَا عَلَى تَجَاوُزِ هَذَا الإِشْكَالِ المَنْهَجِيِّ مَا سَمَحَتْ بِذَلِكَ النُّصُوصُ وَأَيَّدَتْهُ الأَمْثِلَةُ، وَالتِّي يُمْكِنُ الاسْتِئْنَاسُ بِبَعْضِ مَا وَرَدَ مِنْهَا فِي المَبْحَثِ السَّابِقِ.

وَلْنَبْدَأْ هُنَا مَعَ القَصِيدَةِ رَقَم221 وَالتِّي يَقُولُ فِيهَا:

1/ لَعَمْرِي لَقَدْ نُودِيتَ لَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ *** **أَلَمْ تَرَ أَنَّ** المَوْتَ مَا لَيْسَ يُدْفَعُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّاسَ فِي غَفَلاَتِهِمْ *** **وَأَنَّ** المَنَايَا بَيْنَهُمْ تَتَقَعْقَعُ.
أَلَمْ تَرَ لَذَّاتِ الجَدِيدِ إِلَى البِلَى*** **أَلَمْ تَرَ** أَسْبَابَ الأُمُورِ تَقَطَّعُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يَعْقُبُهُ الغِنَى *** **أَلَمْ تَرَ أَنَّ** الضَّيْقَ قَدْ يَتَوَسَّعُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَوْتَ يَهْتَزُّ سَيْفُهُ *** **وَأَنَّ** رِمَاحَ المَوْتِ نَحْوَكَ تُشْرَعُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ *** لَهُ عَارِضٌ فِيهِ المَنِيَّةُ تَلْمَعُ.
أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ يَشْبَعُ بَطْنُهُ *** وَنَاظِرَاهُ فِيمَا تَرَى لَيْسَ يَشْبَعُ.
أَيَا بَانِيَ الدُّنْيَا لِغَيْرِكَ تَبْتَنِي * وَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ.**

[1]- الحركة الشّعرية في فلسطين المحتلّة منذ عام 1948 حتّى 1975، دراسة نقديّة، صالح أبو الأصبع، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص 338.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَـرْءَ يَحْبِـــسُ مَـــالَهُ *** وَوَارِثُـــهُ فِيـــهِ غَـــدًا يَتَمَـــتَّعُ.
كَأَنَّ الحُمَـاةَ المُشْفِقِينَ عَلَيْـكَ قَدْ *** غَـدَوْا بِـكَ أَوْ رَاحُـوا فَأَسْـرَعُوا.
وَمَا هُوَ إِلاَّ النَّعْـشُ لَوْ قَدْ دَعُـوا بِهِ *** تُقَـلُّ فَتُلْقَـى فَـوْقَهُ ثُـمَّ تُرْفَـعُ.
وَمَا هُوَ إِلاَّ حَـادِثٌ بَعْـدَ **حَـادِثٍ** *** عَلَيْـكَ فَمِـنْ أَيِّ **الحَوَادِثِ** تَجْزَعُ.
وَمَا هُوَ إِلاَّ المَوْتُ يَأْتِـي لِوقْـتِهِ *** فَمَا لَكَ فِي تَأْخِيـرِهِ عَنْكَ مَدْفَعُ.
أَلاَ وَإِذَا **وُدِّعْـــتَ تَوْدِيـــعَ** هَـالِكٍ *** فَآخِـرُ **يَـــوْمٍ** مِنْكَ **يَـــوْمَ تُـــوَدَّعُ**.[1]

فَنُلاَحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ، وَمِنَ البَيْتِ الأَوَّلِ، اخْتَارَ صِيغَةً يُكَرِّرُهَا 12 مَرَّةً سَتَكُونُ وَسِيلَتَهُ إِلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَبَثِّ صَدَاهَا فِي أَكْبَرِ عَدَدٍ مِنْ سَامِعِيهِ، يُسَائِلُهُمْ مِنْ خِلاَلِ المُفْرَدِ/الإِنْسَانِ (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ**) فِي خِطَابٍ مُبَاشِرٍ يَسْتَحِثُّ النُّفُوسَ لِتَنْظُرَ فِيمَا يَجْرِي حَوْلَهَا وَهِيَ الجَارِيَةُ إِلَى مَصَائِرِهَا فِي غَفْلَةٍ وَلَعِبٍ. وَكَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ قَصَائِدِ الزُّهْدِ دَوْمًا، تَأْتِي كَلِمَةُ (**مَوْتٌ**) عَلَى رَأْسِ قَائِمَةِ الكَلِمَاتِ المفْتَاحِيَّةِ المِحْوَرِيَّةِ فِيهَا، حَوْلَهَا تَدُورُ الدَّلاَلَةُ وَتَتَكَثَّفُ فِي تَرَدُّدِهَا بَيْنَ المُرْسِلِ وَالمُرْسَلِ إِلَيْهِ.

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَعْمَلَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ هَذِهِ الصِّيغَةَ مرَّةً وَاحِدَةً فِي الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الأَوَّلِ، رَاحَ يُكَرِّرُهَا فِي كُلِّ أَشْطُرِ الأَبْيَاتِ الأَرْبَعَةِ المُوَالِيَةِ مَعَ تَغْيِيرٍ طَفِيفٍ يُنَوِّعُ بِهِ الخِطَابَ لِحَاجَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِمُتَطَلَّبَاتِ بِنْيَةِ البَيْتِ وَتَرْكِيبَتِهِ، أَوْ ابْتِعَادًا عَنِ المُبَالَغَةِ فِي الإِعَادَةِ وَالتِي قَدْ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا مَلَلٌ وَنُفُورٌ:

2/ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ** ..... *** **وَأَنَّ** .....
أَلَمْ تَرَ ..... *** **أَلَمْ تَرَ** .....
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ..... *** **أَلَمْ تَرَ أَنَّ** .....

[1]- قصيدة رقم 221 [من الطويل]، صص 210،211.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ..... * وَأَنَّ .....**

ثُمَّ يَسْتَغْنِي كُلِّيَّةً عَنْ تَكْرَارِ تِلْكَ الصِّيغَةِ فِي أَعْجَازِ الأَبْيَاتِ اللاَّحِقَةِ وَيَكْتَفِي بِإِثْباتِهَا فِي صُدُورِهَا، فَيَقُولُ:

6/ **أَلَم تَرَ أَنَّ ..... *** .....**

أَلَم تَرَ أَنَّ ..... * وَ.....**

8/ **أَيَا بَانِـــي الدُّنْيَـــا لِغَـــيْرِكَ تَبْتَنِـــي *** وَيَا جَـامِعَ الدُّنْـيَـا لِغَـيْـرِكَ تَجْـمَعُ.**

9/ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ..... *** وَ.....**

فَنَرَى الشَّاعِرِ يَتَخَلَّى عَنْهَا تَمَامًا مُعَوِّضًا إِيَاهَا بِأُخْرَى تَشْغَلُ فَضَاءَ البَيْتِ الثَّامِنِ كَامِلاً، لِيَعُودَ إِلَيْهَا فِي البَيْتِ التَّاسِعِ تَمْهِيدًا لِتَحَوُّلِهِ إِلَى صِيغَةٍ جَدِيدَةٍ يُرَتِّبُهَا عَمُودِيًّا فِي صُدُورِ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ اللاَّحِقَةِ:

11/ **وَمَا هُوَ إِلاَّ ..... *** .....**

وَمَا هُوَ إِلاَّ ..... * .....**

وَمَا هُوَ إِلاَّ ..... * .....**

..... وُدِّعْـــــتَ تَوْدِيـــعَ ..... * ..... يَـــوْمٍ .... يَـــوْمَ تُـــوَدَّعُ.**

وَكَمَا بَدَأَ حَدِيثَهُ الذِّي أَجْرَاهُ عَلَى الكَلِمَة المِفْتَاحِ (**مَوْتُ**) خَتَمَهُ بِهَا، وَكَأَنَّهُ يُغْلِقُ دَارَةَ الحَيَاةِ وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَى نِهَايَتِهَا، فَمِنْ تَحْذِيرٍ مِنْ نِدَاءِ المَوْتِ إِلَى هَلاَكٍ وَتَوْدِيعٍ:

1/ لَعَمْرِي لَقَدْ **نُودِيتَ** لَوْ كُنْتَ **تَسْمَعُ** *** أَلَمْ تَرَ أَنَّ **المَوْتَ** مَا **لَيْسَ يُدْفَعُ.**

14/ أَلاَ وَإِذَا **وُدِّعْـــــتَ تَوْدِيـــعَ هَـالِكٍ** *** **فَآخِـرُ يَـــوْمٍ** مِنْكَ **يَـــوْمَ تُـــوَدَّعُ.**

وَمِنْ جَمِيلِ التَّكْرَارِ الذِّي يُحْسِنُهُ الشَّاعِرُ ويُحمِّلُهُ دَرَجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ مِنَ الدَّلاَلَةِ عَبْرَ

صِيَغٍ أُسْلُوبِيَّةٍ بَسِيطَةٍ فِي تَرْكِيبَتِهَا لَكِنَّهَا عَمِيقَةٌ فِيمَا تُومِئُ إِلَيْهِ ومَا تُرْسِلُهُ، عَبْرَ بِنْيَتِـهَا، مِنْ إِشَاراتٍ نَحْوَ المُتَلَقِّي، تَجْعَلُهُ أَكْثَرَ تَنَاغُمًا مَعَ النَّصِّ، ذَاكَ الذِّي نَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ:

1/ **أَمِنْتَ الزَّمَانَ وَالزَّمَانُ** خَـؤُونُ *** لَهُ حَرَكَـاتٌ بِالبِــلَى وَسُـكُونُ.
رُوَيْدَكَ لاَ **تَسْتَبْطِ** مَا هُوَ كَائِنٌ *** أَلاَ كُلُّ مَقْـدُورٍ **فَسَـوفَ** يَكُـونُ.
سَتَذْهَبُ أَيَّـامٌ **سَتَخْـلُقُ** جِـدَّةٌ *** **سَتَمْضِـي** قُـرُونٌ بَـعْدَهُـنَّ قُـرُونُ.
سَتَدْرُسُ آثَـارٌ وَتَعْقُبُ حَسْرَةٌ *** **سَتَخْلُو** قُصُورٌ شُيِّدَتْ وَحُصُونُ.
سَتُقطعُ آمَـالٌ وَتَذْهَبُ جِـدَّةٌ *** **سَيُغْـلَقُ** بِالمُسْتَكْثِـرِينَ رُهُــونُ.
سَتَنْقَطِعُ الدُّنْيَا جَمِيعًا بِأَهْلِـهَا *** **سَيَبْدُو** مِنَ الشَّأْنِ الحَقِيرِ شُؤُونُ.[1]

فَهُوَ يَبْدَأُ قَصِيدَتَهُ بِالفِعْلِ المَاضِي (**أَمِنْتَ**) لِلدَّلاَلَةِ عَلَى اطْمِئْنَانِ الإِنْسَانِ لِلزَّمَانِ الذِّي لاَ تُؤْمَنُ ضَرَبَاتُهُ، فَقَدْ وَصَفَهُ بِـ (**الخَؤُونِ**)، وَهِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ مُلاَزِمَةٌ لَهُ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ، لِذَلِكَ يَنْصَحُ الشَّاعِرُ بِالتَّرَيُّثِ وَعَدَمِ الانْخِدَاعِ بِمَا سَاقَهُ الحَاضِرُ إِلَيْنَا، يَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ خِلاَلِ الفِعْلِ المُضَارِعِ (**تَسْتَبْطِ**)، فَكُلُّ ما قَدَرَهُ اللهُ سَيَأْتِي لاَ مَحَالَةَ وَإِنْ بَعُدَ فَاسْتَبْطَأْنَاهُ (**فَسَوْفَ**) يَحْدُثُ. وَلِيُوَفِّقَ أَبُو العَتَاهِيَّةِ بَيْنَ الأَزْمِنَةِ الثَّلاثَةِ المُتَبَاعِدَةِ: المَاضِي= أَمِنْتَ، الحَاضِرُ = تَسْتَبْطِ، المُسْتَقْبَلُ البَعِيدُ = سَوْفَ)، ولِكَيْ لاَ يَسْتَقِرَّ المُتَلَقِّي فِي أَجْوَاءِ الغَفْلَةِ والغُرُورِ، يَلْجَأُ شَاعِرُنَا إِلَى التَّكْرَارِ كَأَدَاةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ تَسْتَحِثُّ القَارِئَ وَتُنَبِّهُهُ إِلَى الحَقِيقَةِ التِّي لاَ فِرَارَ مِنْهَا، فَيُوَظِّفُ حَرْفَ السِّينِ المُتَّصِلِ بِالمُضَارِعِ تِسْعَ مَرَّاتٍ فِي أَرْبَعَةِ أَبِيَاتٍ لِيُرَسِّخَ فِي ذِهْنِهِ أَنَّ مَا يَرَاهُ بَعِيدًا قَرِيبٌ جِدًّا(**سَتَذْهَبُ، سَتَخْـلُقُ، سَتَمْضِـي، سَتَدْرُسُ، سَتَخْلُو، سَتُقْطَعُ، سَيُغْـلَقُ، سَتَنْقَطِعُ، سَيَبْدُو**)، وَزِيَادَةً عَلَى هَذَا، فَإِنَّ هَذِهِ الأَفْعَالَ تَحْمِلُ كُلُّهَا دَلاَلَةَ الزَّوَالِ وَالانْدِثَارِ، وَمِنْ ثَـمَّ، فَهِيَ أَيْضًا تُشَكِّلُ تَكْرَارًا لِمَعْنًى تَرَدَّدَ تِسْعَ مَرَّاتٍ.

[1]- قصيدة رقم 387 [من الطويل]، صص378،379.

تَتَعَزَّزُ مَكَانَةُ التَّكْرَارِ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ وَيتَرَسَّخُ طَرِيقَةً أَسَاسًا إِلَى تَبْلِيغِ الخِطَابِ، يُبَسِّطُ اللُّغَةَ حَتَّى لَكَأَنَّهَا إِلَى العَامِّيَّةِ أَقْرَبُ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، وَيَزِيدُ الاعْتِمَادُ عَلَى التَّكْرَارِ مِنْ تَأْكِيدِ هَذَا المَنْحَى الأُسْلُوبِيِّ الذِّي يَسْتَمِدُّ مِنْ وَاقِعِ المُجْتَمعِ العَبَّاسِيِّ أَيَامَهَا جُزْءً مِنْ خُصُوصِيَّاتِهِ، وَجُزْءً آخَرَ، لَعَلَّهُ يَكُونُ الأَكْبَرَ يَسْتَمِدُّهُ مِنْ أَحْوَالِ الشَّاعِرِ ذَاتِهِ فِي تَقَلُّبِهَا أَوِ اسْتِقْرَارِهَا.

لَقَدْ رَأَتْ نَازِكْ المَلاَئِكَةُ، وَهِيَ تُحَلِّلُ التَّكْرَارَ فِي بَعْضِ قَصَائِدِ الجَاهِلِيِّينَ، أَنَّ لَهُ " فِي هَذِهِ المَوَاضِعِ كُلِّهَا عَلاَقَةً كَبِيرَةً بِظُرُوفِ الشَّاعِرِ النَّفْسِيَّةِ، وَطَبِيعَةِ حَيَاتِهِ البَدَوِيَّةِ. وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّهُ كَانَ يُلاَحِظُ أَنَّ التَّكْرَارَ يُثِيرُ الحَمَاسَةَ فِي صُدُورِ المُحِيطِينَ بِهِ وَيَسْتَفِزُّهُمْ لِلْقِتَالِ "[1]، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ هَذِهِ الحَال يُبْدِعُ جُلُّ الشُّعَرَاءِ عَلَى اخْتِلاَفِ عُصُورِهِم وَمَذَاهِبِهِمْ، يَسْتَثِيرُهُم، سَلْبًا أَوْ إِيجَابًا، كُلُّ مَا يُحِيطُ بِهِمْ، فَنَجِدُهُ بَعْدَهَا مَبْثُوثًا فِي نُصُوصِهِمْ يَشِي بِبَعْضِ تِلْكَ الظُّرُوفِ وَيُؤَرِخُ لَهَا بِصَوْتِ الشَّاعِرِ.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

1/**لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي** وَحُقَّ لِيَهْ *** يَا **عَيْنُ** لاَ تَبْخَلِي عَنِّي بِعَبْرَتِيَهْ.
لأَبْكِيَنَّ لِفِقْدَانِ الشَّبَابِ وَقَدْ *** نَادَى المَشِيبُ عَنِ **الدُّنْيَا** بِرِحْلَتِيَهْ.
لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي فَتُسعِدُنِي *** **عَيْنٌ** مُؤَرَّقَةٌ تَبْكِي لِفُرْقَتِيَهْ.
لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي فَيُسْعِدُنِي *** أَهْلِي وَمَنْ كَانَ حَوْلِي مِنْ أَحِبَّتِيَهْ.
لأَبْكِيَنَّ وَيَبْكِينِي ذَوُو ثِقَتِي *** حَتَّى المَمَاتِ أَخِلاَّئِي وَإِخْوَتِيَهْ.
6/**لأَبْكِيَنَّ** فَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ إِلَىَ *** بَيْتِ انْقِطَاعِي عَنِ **الدُّنْيَا** وَوَحْدَتِيَهْ.[2]

يَسْعَى الشَّاعِرُ، وَمِنْ أَوَّلِ لَفْظَةٍ فِي النَّصِّ لِيَضَعَنَا فِي جَوِّهِ العَامِّ المُحِيطِ بِهِ، الضَّاغِطِ

[1]- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، م.س، ص267.
[2]- القصيدة رقم451[من البَسِيطُ]، ص436.

عَلَيْهِ، جَوِّ النَّدَامَةِ وَالأَسَى عَلَى مَا ضَيَّعَ، وَهُوَ لاَ يَكْتَفِي بذِكْرِ البُكَاءِ، يَبْدَأُ بِهِ أَبْيَاتَ قَصِيدَتِهِ السِّتَّةِ الأُولَى، بَلْ يَأْمُرُ العَيْنَ لِتُسْعِفَهُ بِهِ (يَا عَيْنُ لاَ تَبْخَـلِي):

1/ **لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي** ..... *** .....

لأَبْكِيَنَّ ..... *** .....

لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي فَتُسعِدُنِي *** .....

لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي فَيُسْعِدُنِي *** .....

لأَبْكِيـنَّ وَيَبْكِينِي ..... *** .....

6/ **لأَبْكِيَنَّ** ..... *** .....

وَانْظُرْ كَيْفَ يُغَيِّر أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي تَرْكِيبَةِ الصِّيغَةِ التِّي اخْتَارَهَا لِبِدَايَاتِ هَذِهِ الأَبْيَاتِ لِتُوَافِقَ التَّصَاعُدَ الحَادِثَ فِي النَّفْسِ مِنْ أَثَرِ النَّدَمِ وَالحَسْرَةِ، يَتَأَكَّدُ البُكَاءُ وَتَزْدَادُ حِدَّتُهُ، فَيَقْطَعُ الأَنْفَاسَ وَيَمْنَعُ الكَلامَ، فَيَكْتَفِي الشَّاعِرُ بِالكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ (**لأَبْكِيَنَّ**)، ثُمَّ تَنْفَرِجُ الأَحوالُ حِينًا، فَيَطُولُ النَّفَسُ وَمَعَهُ الجُمْلَةُ (**لأَبْكِيَنَّ عَلَى نَفْسِي فَتُسعِدُنِي**). يَنْزِلُ التَّكْرَارُ عَمُودِيًّا وَالنَّصُّ يَنْمُو وَمَعَهُ يَشْتَدُّ البُكَاءُ وَيَتَصَاعَدُ لِيَصِلَ مَعَ نِهَايَةِ كُلِّ بَيْتٍ إِلَى دَرَجَةِ الاخْتِنَاقِ وَالحَشْرَجَةِ بِتَنْهِيدَةٍ حَرَّى (**تِـيَهْ**).

تَصِيرُ كَلِمَةُ (**بَيْتُ**) مِحْوَرَ الخِطَابِ وَعَمُودَهُ فِي البَيْتَيْنِ اللاَّحِقيْنِ، مُزِيحًا (أَجْوَاءَ البُكَاءَ) التِّي جَعَلَ بِهَا القَارِئَ مَشْدُودًا إِلَى حَالٍ مِنَ التَّفجُّعِ وَالكَرْبِ المُقِيمِ، إِلَى المرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَيَنْقُلُهُ إِلَى حَالٍ لَيْسَتْ مُفَارِقَةً لِلسَّابِقَةِ، وَإِنَّمَا تَعْضُدُهَا وَتَكْشِفُ مُلاَبَسَاتِهَا، وَهُوَ يُنَادِي، غَرِيبًا بَيْنَ أَحِبَّةٍ خَلَّفُوهُ فِي دَارِ وَحْشَةٍ لاَ يَطْمَعُ فِي أَنْ يُسْمَعُ صَوْتُهُ، فَيَرْفَعُهُ وَيُكَرِّرُهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ(**يَا بَيْتُ**) دَاخِلَ صِيغَةٍ تَحْتَلُّ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِ البَيْتَيْنِ 7و8:

7/**يَا بَيْتُ بَيْتَ الرَّدَى يَا بَيْتَ** مُنْقَطَعِي*** **يَا بَيْتُ بَيْتَ الرَّدَى يَا بَيْتَ** غُرْبَتِـيَهْ.

8/**يَا بَيْتُ بَيْتَ النَّوَى** عَنْ كُلِّ ذِي ثِقَةٍ *** **يَا بَيْتُ بَيْتَ الرَّدَى يَا بَيْتَ** وَحْشَتِيَهْ.[1]

إِنَّهُ بَيْتُ المَوْتِ، بَيْتُ الرَّدَى، بَيْتُ الانْقِطَاعِ وَالغُربَة وَالوَحْشَةِ وَالنَّوَى، فَهَلْ لَهُ مِنْ (ذِي ثِقَةٍ) يُسْرِعُ فَيَسْتَجِيبُ لِصُرَاخِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ البُكَاءُ أَوَّلَ الأَمْرِ؟! إِنَّ مَلْجَأَ الشَّاعِرِ الأَخِيرَ، ومَلاَذَهُ الحَصِينَ هُوَ اللهُ، لِذَلِكَ يَأْتِي نِهَايَةَ القَصِيدَةِ فيُكَرِّرُ شَكْوَاهُ إِلَيْهِ وَتَضَرُّعَهُ، وَمَنْ سِوَاهُ يُنْجِدُهُ؟!

24/ **أَشْكُو إِلَى اللهِ** تَضْيِيعِي وَمَسْكَنَتِي *** **أَشْكُو إِلَى اللهِ** تَقْصِيرِي وَقَسْوَتِيَهْ.
25/ **وَاللهُ وَاللهُ ربِّـــي** المُستَغَـاثُ بِـهِ *** **وَاللهُ رَبِّـي** حَوْلِـــي وَ قُوَّتِـــيَهْ.

يُقِيمُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ قَصِيدَتَهُ هَذِهِ عَلَى هَنْدَسَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ التَّكْرَارِ وَالإِعَادَةِ، وَهُوَ أَمرٌ، فِي الحَقِيقَةِ، يَسْرِي عَلَى أَغْلَبِ دَيْوَانِهِ، حِينَ يَتَّخِذُ مِنْ كَلِمَةٍ أَوْ عِبَارَةٍ مَا، عُدَّتَهِ التِّي يُشَكِّلُ بِهَا الدَّلاَلَةَ حَوْلَ رُوحِ نُصُوصِهِ وَمِفْتَاحِهَا (المَوْتُ وَالبِلَى) حَتَّى تَأْخُذَ صُورَتَهَا النِّهَائِيَّةَ مُتَرَابِطَةً أُسْلُوبِيًّا فِي هَنْدَسَةٍ خَاصَّةٍ تَسْمَحُ لَهُ التَوْفِيقَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ، فَتَسْتَقِيمُ تَجْرِبَتُهُ الشِّعْرِيَّةُ وَتَتَّسِقَ عَنَاصِرُهَا لِتُؤَدِّيَ رِسَالَتَهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ يُرِيدُهُ.

تَقُولُ نَازِكْ المَلاَئِكَةُ " إِنَّ تَكْرَارَ جُزْءٍ مِنْ عِبَارَةٍ لاَ تُحَتِّمُ تَكْرَارَهُ ضَرُورَةٌ نَفْسِيَّةٌ يَقْتَضِيهَا المَعْنَى لاَ بُدَّ أَنْ يَمِيلَ بِالعِبَارَةِ، وَهَذَا يَعُودُ بِنَا إِلَى الهَنْدَسَتَيْنِ العَاطِفِيَّةِ وَاللَّفْظِيَّةِ لِلعِبَارَةِ. هَذَانِ القَانُونَانِ القَائِمَانِ عَلَى الأَسَاسِ العَاطِفِيِّ وَالهَنْدَسِيِّ لِلعِبَارَةِ هُمَا الشَّرْطَانِ الرَّئِيسِيَّانِ فِي كُلِّ تَكْرَارٍ مَقْبُولٍ، فَإِذَا تَوَافَرَا صَحَّ أَنْ نَبْدَأَ فَنَبْحَثَ فِي الدَّلاَلاَتِ المُخْتَلِفَةِ التِّي يُقَدِّمُهَا التَّكْرَارُ فَيُغْنِي بِهَا المَعْنَى وَيَمْنَحُهُ امْتِدَادَاتٍ مِنَ الظِّلاَلِ وَالأَلْوَانِ وَالإِيحَاءَاتِ".[2] وَإِنْ كَانَ كَلاَمُ النَّاقِدَةِ يَتَوَجَّهُ بِالأَسَاسِ، فِي دِرَاسَتِهَا لِظَاهِرَةِ التَّكْرَارِ، صَوْبَ الشِّعْرِ الحَدِيثِ، فَإِنَّهُ لاَ يَبْتَعِدُ فِي أَحْكَامِهِ، وَإِنْ جُزْئِيًّا، عَنْ أَنْ يُوَافِقَ النَّصَّ الشِّعْرِيَّ القَدِيمَ

[1]- الدّيوان، ص.ن.
[2]- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، م.س، صص280،279.

فِي أَشْكَالٍ مِنَ التَّكْرَارِ شَاعَتْ فِيهِ كَمَا هِيَ الحَالُ هُنَا مَع الزُّهْدِيَاتِ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ:

1/ **يَا سَاكِنَ الدُّنْـــيَا** لَقَـدْ أَوْطَنْتَـهَا *** وَ**أَمِنْتَها** عَجَبًا وَكَيْفَ **أَمِنْتَـهَا**.

6/ **يَا سَاكِنَ الدُّنْـيَا** كَأَنَّكَ خِـلْتَ أَ *** نَّكَ خَالِدٌ **فَجَمَعْتَـهَا وَخَزَنْتَهَا**.

7/ **يا سَاكِنَ الدُّنْيَا** طَفِقْتَ تُزَيِّنُ **الدُ** *** **نْـــيَا** بِمَا لاَ يَسْتَقِيـمُ فَشِنِـتَهَا.[1]

إِنَّ تَكْرَارَ الأَلْفَاظِ وَالعِبَارَاتِ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ يَفْرِضُهُ تَكْرَارُ الخِطَابِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، إِذْ تَمِيلُ بِهِ طَبِيعَةُ الزُّهْدِ إِلَى تِلْكَ الاخْتِيَارَاتِ، وَتُشَكِّلُ فِي وَعْيِهِ، بَدْءً، ذَاكَ القَالَبَ الذِّي سَيَصُبُّ فِيهِ إِبْدَاعَهُ. وَهُنَا تَتَبَدَّى نُقْطَةٌ مِفْصَلِيَّةٌ تُوجِبُ سُؤَالاً جَوْهَرِيًّا: إِنْ كَانَ هُنَاكَ، فِعْلاً، قَالَبٌ يُسْكَبُ فِيهِ القَوْلُ فَإِنَّهُ سَيَأْتِي نُسْخَةً وَاحِدَةً مَكْرُورَةً مُمِلَّةً، فَمَا الجَدِيدُ الذِّي يُضِيفُهُ شَاعِرُ الزُّهْدِ إِذَنْ؟ وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا، وَقَدْ مَرَّ بِنَا فِيمَا مَضَى مِنَ البَحْثِ، هُوَ مَوْطِنُ الإِبَانَةِ عَنِ القُدْرَةِ، وَمَبْعَثُ التَّفَنُّنِ فِي تَخْرِيجِ المَأْلُوفِ فِي صُورَةِ الجَدِيدِ المُبْتَكَرِ، وَهُو الذِّي، بِالنِّهَايَةِ، يَصْنَعُ الفَرَادَةَ حِينَ يَطْغَى المُتَشَابِهُ.

فَهَاهُوَ الشَّاعِرُ يَبْدَأُ قَصِيدَتَهُ[2] مُتَسَائِلاً عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَمَصِيرِ مَنْ سَبَقُونَا فِيهَا، وَاصِفًا مَا آلُوا إِلَيْهِ وَمَا خَلَّفُوهُ وَرَاءَهُم مِنْ مَلَذَّاتِهَا وَفِتْنَتِهَا، فَانْقَطَعُوا عَنْهَا وَقَدْ كَانَتْ تُؤَمِّلُهُم بِطُولِ بَقَاءٍ حَتَّى صَارُوا، فِي غَفْلَةٍ، تَحْتَ اللُّحُودِ، ثُمَّ يَقْطَعُ الشَّاعِرُ مَسَارَ الوَصْفِ وَالإِخْبَارِ الذِّي اسْتَمَرَ عَلَى طُولِ خَمْسَةِ أَبْيَاتٍ لِيُحَوِّلَ الرِّسَالَةَ مِنَ الغَائِبِ إِلَى المُخَاطَبِ فِي البَيْتَيْنِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ:

6/ تَمُـرُّ بِعَسْـكَرِ المَوْتَى *** وَقَلْبُـكَ مِنْـهُ لاَ يَجِـفُ.

7/ كَـأَنَّ مُشَيِّعِيـكَ وَقَـدْ *** رَمَوْا بِكَ ثَـمَّ وَانْصَـرَفُوا.

[1]- قصيدة رقم:87 [من الكامل]، ص87.

[2]- قصيدة رقم:249 [من مجزوء الوافر]، ص242.

فَقَدْ مَهَّدَ بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ لِصِيغَةِ تَكْرَارٍ سَتَعْمُرُ فَضَاءَ سِتَّةِ أَبْيَاتٍ لاَحِقَةٍ يَتَحَوَّلُ فِيهَا الخِطَابُ مِنَ الإِنْسَانِ (تَمُرُّ، قَلْبُكَ، مُشَيِّعِيكَ، رَمَوْا بِكَ) إِلَى الدُّنْيَا الذِّي يَجِبُ أَنْ يَحْذَرَهَا كُلُّ عَاقِلٍ لَبِيبٍ، لِأَنَّهَا دَارُ سَرَفٍ وَعُدْوَانٍ وَأَحْزَانٍ وَبَغْضَاءَ:

8/ فُنُــونُ رَدَاكِ يَا دُنْــيَا *** لَعَمْرِي فَوْقَ مَا أَصِفُ.
فَأَنْتِ الدَّارُ فِيكِ الظُّلْـ *** ـمُ وَالعُدْوانُ **وَ**السَّـرَفُ.
وَأَنْتِ الدَّارُ فِيكِ البَغْـ *** ـيُ وَالبَغْضاءُ **وَ**الشَّنَفُ.
وأَنْتِ الدَّارُ فِيكِ الهَـمُّ *** **وَ**الأَحْــزانُ **وَ**الأَسَــفُ.
وَأَنْتِ الدَّارُ فِيكِ الغَـدْ *** رُ **وَ**التَّنْغِيصُ **وَ**الكُـلَفُ.

يُكَرِّرُ الشَّاعِرُ عِبَارَةَ (**فَأَنْتِ الدَّارُ فِيكِ**) أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوَّل الأَبْيَاتِ مِنْ 9 إِلَى 12 وَلاَ يُتْبِعُهَا إِلاَّ بِعَطْفِ ثَلاَثِ كَلِمَاتٍ بِالوَاوِ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الأَشْطُرِ عَلَى التَّوَالِي فِي شَكْلٍ مِنَ التَّقْسِيمِ والتَّرْتِيبِ وَالإِجْمَالِ، ثُمَّ يَجْتَزِئُ العِبَارَةَ المُكَرَّرَةَ تِلْكَ، مُكْتَفِيًا مِنْهَا بِشِبْهِ الجُمْلَةِ (**فِيكِ**) فِي البَيْتَيْنِ 13 وَ14:

وَفِيكِ الحَبْلُ مُضْطَرِبٌ *** **وَفِيكِ** البَـالُ مُنْكَسِفُ.
وَفِيكِ لِسَاكِنِيكِ الحَيْـ *** ـنُ **وَ**الآفَـاتُ **وَ**التَّـلَفُ.

وَكَأَنَّهُ يُمَهِّدُ بِهَذَا لِلتَّخَلُّصِ مِنْ التَّكْرَارِ الذِّي إِذَا مَا هُوَ طَالَ أَكْثَرَ مَالَ إِلَى الرَّتَابَةِ وَالجُمُودِ، فَـ " التَّكْرَارُ يَجْنَحُ بِطَبِيعَتِهِ إِلَى أَنْ يُفْقِدَ الأَلْفَاظَ أَصَالَتَهَا وَجِدَّتَهَا وَيَبْهَتَ لَوْنَهَا وَيُضْفِي عَلَيْهَا رَتَابَةً مُمِلَّةً، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ العِبَارَةَ المُكَرَّرَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مِنْ قُوَّةِ التَّعْبِيرِ وَجَمَالِهِ وَمِنْ الرُّسُوخِ وَالارتِبَاطِ بِمَا حَوْلَهَا بِحَيْثُ تَصْمُدُ أَمَامَ هَذِهِ الرَّتَابَةِ. وَالحَقُّ أَنَّ التَّكْرَارَ عَدُوُّ البَيْتِ الرَّدِيءِ فَهُوَ يَفْضَحُ ضَعْفَهُ وَيُشِيرُ إِلَيْهِ صَائِحًا "[1].

[1]- قضايا الشّعر المعاصر، نازك الملائكة، م.س، ص286.

إِذَنْ، بَعْدَ هَذِهِ التَّكْرَارَاتِ الثَّلاَثِ فِي البَيْتَيْنِ يُعِيدُ الشَّاعِرُ رَبْطَ طَرَفَيْ الخِطَابِ الذِّي كَانَ اسْتَهَلَّهُ بِوَصْفِ مَا فَعَلَهُ المَوتُ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ الأَقْوَامِ لِيُنْهِيَهُ بِالتَّذْكِيرِ بِذَاتِ المَآلِ وَضَرُورَةِ الاسْتِعْدَادِ لَهُ، فَالأَيَّامُ لاَ تُنْظِرُ وَالسَّاعَاتُ مَاضِيَةٌ وَالأَنْفَاسُ تُخْتَطَفُ:

01/ أَلاَ أَيْنَ الأُلَى سَلَفُوا *** دُعُوا **لِلْمَوْتِ** وَاخْتُطِفُوا.
20/ وَأَيُّ النَّـــاسِ إِلاَّ مُـو*** قِـنٌ **بِالمَوْتِ** مُعْتَـرِفُ.

بِهَذَا الأُسْلُوبِ يُغْلِقُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ قَصِيدَتَهُ التِّي افْتَتَحَهَا بِحَدِيثِ (**المَوْتِ**) الدَّارِجِ فِي نُصُوصِ الزُّهْدِ، يَتَسَاءَلُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ عَنْ الذِّينَ مَرُّوا بِهَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَنَا ثُمَّ لَمْ يَعُودُوا مِنْ سَاكِنِيهَا، لِيَخْتِمَ، مُؤَكِّدًا، بِأَنَّ الفَنَاءَ يَقِينُ كُلِّ حَيٍّ. بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَلُفُّ الشَّاعِرُ أَوَّلَ الخِطَابِ عَلَى مُنْتَهَاهُ لِيُحَقِّقَ لَهُ التَّكَامُلَ وَالانْسِجَامَ عَلَى مُسْتَوَى البِنْيَتَيْنِ: السَّطْحِيَّةِ وَالعَمِيقَةِ، حَاصِرًا بِذَلِكَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ دَفَّتَيْ المَطْلَعِ وَالخِتَامِ، بَيْنَ: أَلاَ أَيْنَ الأُلَى؟ وَأَيُّ النَّاسِ، بَيْنَهُمْ وَقَدْ: دُعُوا إِلَى المَوْتِ وَمُوقِنٌ بِهَا، بَيْنَ مَنْ سَلَفُوا وَمَنْ اعْتَرَفُوا.

وَلاَ يَكْتَفِي الشَّاعِرُ بِتَكْرَارِ اللَّفْظِ تَارةً وَالعِبَارَةِ طَوْرًا أَوِ المُزَاوَجَةِ بَيْنَهُمَا فِي النَّصِّ الوَاحِدِ بَلْ إِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي البَيْتِ وَالبَيْتَيْنِ، فَيَذْهَبُ إِلَى شَكْلٍ مِنَ التَّدْوِيرِ الذِّي يَجْعَلُ الكَلِمَةَ تَتَرَدَّدُ وَتَجَدَّدُ عَلَى مُسْتَوَى البَيْتِ بِتَغْيِيرٍ طَفِيفٍ عَلَى بِنْيَتِهَا أَوْ مِنْ دُونِهِ، فَيَقُولُ مَثَلاً:

1/تَنَكَّبْتُ **جَهْلِي** فَاسْتَرَاحَ ذَوُو **عَذْلِـي*****وَأَحْمَدْتُ غِبَّ **العَذْلِ** حِينَ انْقَضَى **جَهْلِي**.
وَأَصْبَحَ لِي **فِي المَوْتِ شُغْلٌ** عَنِ الصِّبَا***وَفِـي **المَـوْتِ شُغْـلٌ شَاغِـلٌ** لِـذَوِي العَقْـلِ.
إِذَا أَنَا لَـمْ **أُشْغَـلْ بِنَفْسِـي فَنَفْسُ مَنْ*****مِنَ** النَّـــاسِ أَرْجُـو أَنْ يَكُـونَ بِـهَا **شُغْلِـــي**.[1]

[1]- قصيدة رقم:304 [من الطويل]، ص293.

فَهُوَ يُرَتِّبُ كَلِمَتَيْ:(**جَهْل** x **2**، **عَذْل** x 2) فِي شَطْرَيْ البَيْتِ الأَوَّلِ بِشَكْلٍ مُتَسَاوٍ بِحَيْثُ يَضْمَنُ نُطْقُهُمَا صَدًى مُتَقَارِبًا مُتَوَازِنًا فِي الأُذُنِ، مَعَ تَوْكِيدِ الدَّلاَلَةِ فِي الذِّهْنِ، لِيَنْتَقِلَ إِلَى تَكْرَارِ عِبَارَةِ (**فِي المَوْتِ شُغْلٌ**) فِي وَسَطِ صَدْرِ البَيْتِ الثَّانِي وَأَوَّلِ العَجُزِ وَيُتْبِعُهَا بِـ (**شَاغِلٌ**)، التِّي سَيُعِيدُ شَبِيهَهَا فِي البَيْتِ الثَّالِثِ مَرَّتَيْنِ (**أُشْغِلُ، شُغْلِي**) مَعَ تَكْرَارِ(**نَفْسِي، نَفْسُ**) فِي صَدْرِ البَيْتِ ذَاتِهِ، لِيُصْبِحَ عَدَدُ التَّكْرَارَاتِ خَمْسًا فِي أَبْيَاتٍ ثَلاثٍ.

وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ فِي عَدِيدٍ مِنْ قَصَائِدِهِ، يَعْمِدُ إِلَى الكَلِمَةِ وَالكَلِمَتَيْنِ (يَلْعَبُ) بِتَرْكِيبَتِهِمَا وَتَرْتِيبِهِمَا دَاخِلَ البَيْتِ لِيُحْدِثَ نَوْعًا مِنَ المُفَارَقَةِ الأُسْلُوبِيَّةِ التِّي تَجْعَلُ القَارِئَ مَشْدُودًا إِلَى النَّصِّ، حَتّى إِذَا مَا اسْتَهْوَاهُ القَوْلُ وَمَضَى مَعَهُ وَصَلَ مَوْضِعًا فِي الجُمْلَةِ فَوَجَدَ نَفْسَهُ يُكَرِّرُ مَا قَرَأَ، وَيَسْتَعِيدُ مَا سَمِعَ. إِنَّ ذَلِكَ يَعْمَلُ عِنْدَهُ كَمُنَبِّهٍ فِي مَرْحَلَةٍ أُولَى، وَكَمُكَثِّفٍ لِلدَّلاَلَةِ وَمُؤَكِّدٍ لَهَا فِي مَقَامٍ ثَانٍ.

لَقَدْ كَانَ لاَوْتْمَانْ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّكْرَارِ الفَنِّيِّ، أَشَارَ إِلَى فَاعِلِيَّةِ المُزَاوَجَةِ بَيْنَ احْتِرَامِ نِظَامِ عَنَاصِرِ الخِطَابِ أَوْ خَرْقِهِ "بِحَيْثُ تُوَلِّدُ فِي المُتَلَقِّي شُعُورًا بِأَنَّ النَّصَّ عَلَى حَظٍّ مِنَ التَّرْتِيبِ، ومِنْ عَدَمِ التَّنْظِيمِ بِحَيْثُ لاَ تُطْفِئُ فِي نَفْسِهِ الشُّعُورَ بِعَدَمِ اكْتِمَالِ ذَلِكَ التَّرْتِيبِ.

إِنَّ تَوَاكُبَ هَاتَيْنِ القَاعِدَتَيْنِ – النِّظَامُ وَصَدْعُ النِّظَامِ – يُشَكِّلُ سِمَةً عُضْوِيَّةً فِي كُلِّ عَمَلٍ فَنِّيٍّ إِلَى حَدٍّ يُمْكِنُ مَعَهُ القَوْلُ بِأَنَّ هَذَا التَّوَاكُبَ يُعْتَبَرُ القَانُونَ الأَسَاسِيَّ فِي بِنْيَةِ كُلِّ نَصٍّ أَدَبِيٍّ "[1]. ومِنْ هُنَا نَقُولُ بِأَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ اتَّخَذَ التَّكْرَارَ، بِأَشْكَالِهِ المُتَبَايِنَةِ، وَسِيلَةً أُسْلُوبِيَّةً يُجَدِّدُ بِهَا تَرْكِيبَةَ خِطَابِهِ عَنْ طَرِيقِ انْتِظَامِهِ حِينًا أَوْ كَسْرَ ذَلِكَ الانْتِظَامِ حِينًا آخَرَ، فَهُوَ حِينَ يَقُولُ:

[1]– تحليل النّصّ الشّعريّ "بنية القصيدة "، يوري لوتمان، م.س، ص66.

5/ **وَعَصَيْتَ رَبَّكَ يَا بْنَ آدَمَ** جَاهِدًا *** **فَوَجَدْتَ رَبَّكَ إِذْ عَصَيْتَ** حَلِيمَا.
وَسَـأَلْتَ رَبَّــكَ يَا بْنَ آدَمَ رَغْبَـةً *** **فَوَجَدْتَ رَبَّكَ إِذْ سَـأَلْتَ** كَرِيـمَا.
وَدَعَـوْتَ رَبَّــكَ يَا بْنَ آدَمَ رَهْبَـةً *** **فَوَجَدْتَ رَبَّكَ إِذْ دَعَوْتَ** رَحِـيمَا.
فَلَئِـنْ شَكَـرْتَ لَتَشْـكُرَنَّ لِمُنْـعِمٍ *** **وَلَئِــنْ كَفَـرْتَ لَتَكْــفُرَنَّ** عَظِــيمَا.
فَتَبَــارَكَ الـذِّي هُـوَ لَــمْ يَــزَلْ *** مَلِكًا بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ عَـلِيمَا.[1]

يُعِيدُ الجُمَلَ كَمَا هِيَ فِي كُلِّ شَطْرٍ ثُمَّ حِينَ نَكَادُ نَسْتَيْقِنُ بِأَنَّ الخِطَابَ قَدْ أَخَذَ شَكْلَهُ النَّمُوذَجِيَّ النَّمَطِيَّ، يَقْصِدُ الشَّاعِرُ إِلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي تِلْكَ الجُمَلِ يُغَيِّرُهَا لِيُحْدِثَ الصَّدْعَ الذِّي يَكْسِرُ تَوَالِي النِّظَامَ، وَلَكِنَّهُ يَجْبُرُ، بِأُسْلُوبٍ مُتَّسِقٍ مُتَوافِقٍ، ذَاكَ الصَّدْعَ قَبْلَ أَنْ يَتَعَاظَمَ، وَيُؤَلِّفُ أَجْزَاءَهُ مَعَ كُلِّ بَيْتٍ، فَيُكَرِّرُ بَعْضَهَا أُفُقِيًّا (عَصَيْتَ= عَصَيْتَ، سَأَلْتَ = سَأَلْتَ، دَعَوْتَ = دَعَوْتَ) وبَعْضَهَا الآخَرَ عَمُودِيًّا (صُدُورُ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ = رَبَّكَ يَا بْنَ آدَمَ) و(أَعْجَازُ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ = فَوَجَدْتَ رَبَّكَ إِذْ):

صُدُورُ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ

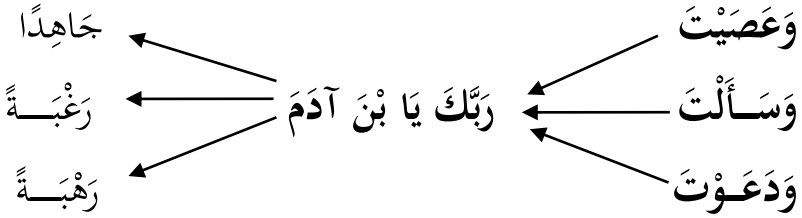

أَعْجَازُ الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ

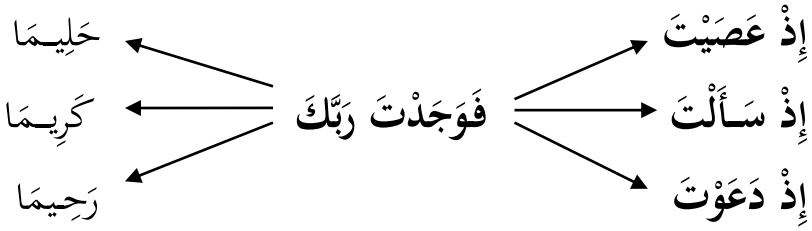

ثُمَّ يَخْتِمُ هَذَا بِتَكْرَارِ المُتَشَابِهَاتِ والأَضْدَادِ الذِّي فَرَضَتْهُ طَبِيعَةُ الخِطَابِ المُتَأَرْجِحِ بَيْنَ

[1]- قصيدة رقم:353 من الكامل، ص344.

المَعْصْيَةِ وَالشُّكْرِ، إِذْ " مِنْ دَاخِلِ هَذِهِ العَنَاصِرِ التِّي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا السِّيَاقُ النَّصِّيُّ لاَ بُدَّ أَنْ يَتَواكَبَ التَّمَاثُلُ والتَّنَوُّعُ مَعًا، الأَمْرُ الذِّي يَعْنِي أَلاَّ يَقْتَصِرَ نَظَرُنَا فِيهَا عَلَى مَا يَتَكَرَّرُ بِبَسَاطَةٍ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى نِظَامِ البَدَائِلِ وَالمُتَغَيِّرَاتِ المُتَجَمِّعَةِ حَوْلَ مِحْوَرٍ ثَابِتٍ، رَغْمَ تَمَيُّزِهَا فِيمَا بَيْنَهَا وَاحِدًا عَنِ الآخَرِ "[1]. ومِحْوَرُ شِعْرِ الزُّهْدِ عُمُومًا، وَشِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِالأَخَصِّ، كَمَا رَدَّدْنَا مِرَارًا، هُوَ صِرَاعُ الإِنْسَانِ مَعَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ وَفِتْنَتِهِمَا التِّي لَنْ تَنْتَهِيَ بِالإِنْسَانِ إِلاَّ شَاكِرًا أَوْ كَافِرًا:

فَلَئِنْ شَكَرْتَ لَتَشْكُرَنَّ لِمُنْعِمٍ *** **وَلَئِنْ كَفَرْتَ لَتَكْفُرَنَّ** عَظِيمَا.

تَتَرَدَّدُ هَذِهِ الصِّيَغُ التَّكْرَارِيَّةُ بِشَكْلٍ مُطَّرِدٍ فِي قَصَائِدِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، وَتَأْخُذُ بِذَلِكَ صِفَةَ "القَانُونِ الأُسْلُوبِيِّ" الذِّي يُلاَزِمُهُ، فَيَسْتَسْلِمُ لَهُ بِعَفْوِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ يُطَوِّعُهُ بِالكَيْفِيَّةِ التِّي تَخْدُمُ إِمْكَانَاتِهِ فَتَجْعَلُ البُنَى الأُسْلُوبِيَّةَ أَجْلَى وَأَوْضَحَ مَعَ كُلِّ قَصِيدَةٍ أَوْ مَقْطُوعَةٍ. فَهَاهُوَ يَجْعَلُ صَدْرَيْ البَيْتَيْنِ السَّابِعِ والثَّامِنِ مِنَ القَصِيدة رَقَمِ: 350، وَجُزْءً مِنْ عَجُزَيْهِمَا نُسْخَةً طِبْقَ الأَصْلِ إِذْ يَقُولُ:

لِلّهِ مَا وَارَى التُّرَابُ مِنَ الأُلَى *** **كَانُوا** هُمُ **الكِرَامَ** إِذَا ذُكِرَ **الكِرَامْ**.
لِلّهِ مَا وَارَى التُّرَابُ مِنَ الأُلَى *** **كَانُوا** وَجَارُهُمْ مَنِيعٌ لاَ يُضَامْ.[2]

وَيَقُولُ أَيْضًا[3]:

1/ **أَيَا رَبِّ** يَا ذَا العَرْشِ **أَنْتَ** رَحِيمُ *** **وَأَنْتَ** بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ عَلِيمُ.
فَيَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ حِلْمًا فَإِنَّنِي *** أَرَى **الحِلْمَ** لَمْ يَنْدَمْ عَلَيْهِ **حَلِيمُ**.
وَيَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ عَزْمًا عَلَى التُّقَى*** **أُقِيمُ** بِهِ مَا عِشْتُ حَيْثُ **أُقِيمُ**.

[1]- تحليل النّصّ الشّعريّ "بنية القصيدة "، يوري لوتمان، م.س، ص.ن.
[2]- قصيدة رقم 350 [من الكامل]، ص342.
[3]- قصيدة رقم:356 [من الطّويل]، ص347.

يَنْتَظِمُ التَّكْرَارُ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِالهَيْئَةِ التِّي يَضْمَنُ مَعَهَا التَّوَازُنَ فِي البِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَيَكْفُلَ فِي الآنِ ذَاتِهِ تَجَدُّدَ الدَّلاَلَةِ وَيَعْضُدَ انْسِجَامَهَا، إِذْ" يَتَجَلَّى التَّكرِارُ فِي النَّصِّ الأَدَبِيِّ بِاعْتِبَارِهِ إِحْدَاثًا لِمَبْدَإِ التَّنْظِيمِ عَلَى المُسْتَوَى المَوْقِعِيِّ، نَعْنِي التَّنْظِيمَ عَنْ طَرِيقِ التَّكَافُؤِ الذِّي يُبْعِدُهُ عَنِ الاخْتِلاَلِ وَالاضْطِرَابِ الذِّي سَيُوقِعُهُ، حَتْمًا، فِي التَّرْدِيدِ المُمِلِّ.[1]

لِهَذَا السَّبَبِ يَسْتَعِينُ الشَّاعِرُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى تَطْوِيعِ اللُّغَةِ لِكَيْ يُجَنِّبَ نَصَّهُ الاجْتِرَارَ أَوِ الجَعْجَعَةَ فِي الفَرَاغِ، فَنَرَاهُ، مِنْ خِلاَلِ عَدِيدِ النُّصُوصِ، حَرِيصًا عَلَى التّنْوِيعِ فِي الصِّيَغِ التِّي تُتِيحُ لَهُ سُهُولَةَ التَّمَلُّصِ مِنْ تِلْكَ المَزَالِقِ، وتُشْرِعُ أَمَامَهُ أَبْوَابَ التَّفَرُّدِ وَالتَّجْدِيدِ فِي إِطَارٍ مِنَ التَّلاَحُمِ وَالانْسِجَامِ لِيَكُونَ التَّكْرَارُ بِذَلِكَ أَكْثَرَ مَلْمَحٍ أُسْلُوبِيٍّ يُلِحُّ فِي الزُّهْدِيَاتِ، بِهِ يَنْتَظِمُ نَسِيجُ نُصُوصِهَا وَيَتَمَاسَكُ.

فَانْظُرْ، لِتَتَأَكَّدَ مِنْ فَاعِلِيَّةِ هَذِهِ الصِّيَغِ، إِلَى النُّموذَجَيْنِ الآتِيَيْنِ، ثُمَ عَدِّدْ أَشْكَالَ وَأَنْوَاعَ التَّكْرَارِ التِّي احْتَوَيَا عَلَيْهَا، يَقُولُ فِي القَصِيدَة رَقَم 312:

كَمْ تَـرَكَ **الدَّهْرُ مِنْ أُنَـاسٍ** *** يَدْعُونَ بِالوَيْـلِ وَالعَـوِيلِ.
كَمْ نَغَّصَ **الدَّهْرُ مِنْ** مَبِيتٍ *** عَلَى سَـرِيرٍ **وَمِنْ** مَقِـيلِ.
كَمَ قَتَـلَ **الدَّهْرُ مِنْ أُنَــاسٍ** *** مَضُوا **وَكَمْ** غَالَ **مِنْ** قَبِيلِ.[2]

أَوْ قَوْلِهِ:

18/ أَبَى **المَوتُ** إِلاَّ أَنْ يَكُـونَ لِمَـنْ ثَـوَى *** مِنَ الخَلْقِ طُـرًّا حَيْثُما كَانَ لاَقِيَا.
حَسَمْتَ المُنَى **يَا مَوْتُ** حَسْمًا مُبَرِّحًا *** وَعَلَّمْـتَ **يَا مَوتُ** البُكَاءَ البَوَاكِيَا.
وَمَزَّقْـــتَـــــنا **يَا مَوْتُ** كُلَّ مُمَـــزَّقٍ *** وَعَرَّفْتَـنا **يَا مَوْتُ** مِنْـكَ الدَّواهِيَا.
أَلا يَا طَوِيــلَ السَّهْوِ **أَصْبَحْتَ** سَـاهِيَا *** **وَأَصْبَحْتَ** مُغْتَرًّا وَأَصْبَحْتَ لاَهِيَا.

[1]- تحليل النّصّ الشّعريّ " بنية القصيدة"، يُوري لاوتمان، م.س، ص63.
[2]- قصيدة رقم:312 [من المنسرح]، صص301،300.

أَفِي كُـــلِّ يَـومٍ نَحْـنُ نَلْقَــى جَنَــازَةً *** **وَفِي كُلِّ يَوْمٍ نَحْنُ** نَسْمَعُ نَـاعيَا.
وَفِي كُـلِّ يَـومٍ مِنْـكَ نَرْثِـي لِمُـعْوِلٍ *** **وَفِي كُلِّ يَومٍ** نَحْنُ نُسْـعِدُ بَـاكِيَا.
أَلاَ أَيُّـــهَا البَانِـي لِغَيْـرِ بَلاَغِـــهِ *** **أَلاَ** لِخَرَابِ الدَّهْرِ **أَصْبَحْتَ** بَانِيَا.
أَلاَ لِـزَوَالِ العُمْــرِ **أَصْبَـــحْتَ** جَـامِعَا *** **وَأَصْبَحْتَ** مُخْتَالاً فَخُورًا مُبَـاهِيَا.
كَأَنَّـــكَ قَدْ وَلَّيْـتَ عَـنْ كُـلِّ مَا تَـرَى *** وَخَلَّفْتَ مَنْ خَلَّفْتَهُ عَنْكَ سَـالِيَا.[1]

فَأَنْتَ تَرَى تَكْرَارَ الحَرْفِ وَاللَّفْظِ إِلَى جَنْبِ تَكْرَارِ العِبَارَةِ، وَالتَّكْرَارَ الأُفُقِيَّ مُسَايِرًا لِلعَمُودِيِّ وَمُرَافِقًا لَهُ، مَعَ التَّغْيِيرِ فِي تَرْتِيبِ المُكَرَّرِ فِي البَيْتِ الوَاحِدِ أَوِ الأَبيَاتِ مُجْتَمِعَةً، والتَّنْوِيعَ فِي بِنْيَتِهَا الصَّرْفِيَّةِ حِينًا عَلَى حِينٍ.

وَعَلَى العُمُومِ، فَإِنَّ التَّكْرَارَ بِأَنْمَاطِهِ المُتَبَايِنَةِ قَدْ تَأَكَّدَ كَظَاهِرَةٍ أُسْلُوبِيَّةٍ لاَ يُمْكِنُ تَجَاوُزُهَا فِي نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ حُضُورًا وَدَلاَلَةً تُضْفِي مِنَ الدِّينَامِيكِيَّةِ مَا يُفَعِّلُ القَصِيدَةَ عَلَى المُسْتَوَيَاتِ جَمِيعِهَا، خُصُوصًا الإِيقَاعِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ، نَاقِلَةً تَجْرِبَةَ الشَّاعِرِ إِلَى المُتَلَقِّي بِعَفْوِيَّةٍ وَصِدْقٍ، لاَ تَسْتَنْكِفُ أَحَايِينَ كَثِيرَةً عَلى أَنْ تُكَرِّرَ نَفْسَهَا، وَتُعِيدَ صِيَاغَةَ ذَاتِهَا، بَلْ وَتَنْقُلَ هَذَا التَّكْرَارَ إِلَى دَرَجَاتٍ أَعْلَى تَبْلُغُ حَدَّ التَّمَاهِي مَعَ نُصُوصِ الآخَرِ، وَذَاكَ مَا سَنَعْمَلُ عَلَى دِرَاسَتِهِ فِي الفَصْلِ المُوالِي المَوْسُومِ بِـ " فِي التَّنَاصِّ ".

[1]- قصيدة رقم 450 [من الطويل]، صص 434،435.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

التَّنَاصِّ فِي النَّصِّ العَتَاهِيِّ بَيْنَ الإِبْدَاعِ وَالمرُاوَحَةِ

1- تَمْهِيد.

2- التَّناصُّ عِنْدَ الغَرْبِيِّين.

3- التَّنَاصُّ عِنْدَ العَرَبِ.

4- التَّنَاصُّ الدِّينِيُّ.

4/1- التَّنَاصُّ مَعَ القُرْآنِ الكَرِيمِ.

أ- التَّنَاصُّ فِي الأُرْجُوزَةِ.

ب- نَمَاذِجُ مِنَ التَّناصِّ فِي الزُّهْدِيَاتِ.

4/2- التَّنَاصُّ مَعَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ.

5- التَّنَاصُّ مَعَ الآخَرِ.

6- التَّنَاصُّ الذَّاتِيُّ.

1- تَمْهِيد:

لِلتَّكْرَارِ إِذَنْ سِحْرُهُ وَجَاذِبِيَّتُهُ عَلَى عَكْسِ مَا قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى الأَذْهَانِ مِنْ أَنَّهُ دَوَرَانٌ فِي الفَرَاغِ، عَجْزٌ عَنِ التَّجَاوُزِ وتَقْدِيمِ الجَدِيدِ. إِنَّنَا وَنَحْنُ نُكَرِّرُ أَنْفُسَنا أَوْ غَيْرَنَا، نُضِيفُ حَتْمًا قِيَمًا أُخْرَى لِما نَكْتُبُ وَنَقُولُ لَمْ تَكُن مِنْ قَبْلُ مَحْمُولَةً فِي النَّصِّ، أَوْ فِي أَيِّ عَمَلٍ مُكَرَّرٍ عَلَى وَجْهِ العُمُومِ، إِنَّ " التِّكْرَارَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ وَسِيلَةٌ مُهِمَّةٌ مِنَ الوَسَائِلِ السِّحْرِيَّةِ التِيِّ تَعْتَمِدُ عَلَىَ تَأْثِيرِ الكَلِمَةِ المُكَرَّرَةِ فِي إِحْدَاثِ نَتِيجَةٍ إِيجَابِيَّةٍ فِي العَمَلِ الفَنِّيِّ المَمَيَّزِ "[1].

2- التَّناصُّ عِنْدَ الغَرْبِيِّينَ:

فَالتَّكْرَارُ كَظَاهِرَةٍ فَنِّيَّةٍ، فِي حَقِيقَتِهِ، لَيْسَ وَسِيلَةَ مَلْءِ فَرَاغٍ فِي البَيْتِ تَسْتَدْعِيهِ مُهِمَّةُ بُلُوغِ النِّهَايَةِ، كَضَرُورَةٍ لُغَوِيَّةٍ مُرْتَبِطَةٍ بِالدَّلاَلَةِ أَوِ الإِيقَاعِ الذِّي يَجِبُ أَنْ يَصِيرَ إِلَى مُنْتَهَاهُ، بَلْ هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ عَمَلِيَّةٌ تَتَلاقَحُ فِيهَا المَعَانِي وَتَتَعَدَّدُ، وَتَتَكَثَّفُ كُلَّمَا تَهَيَّأَ لَهَا الدُّخُولُ فِي تَفَاعُلٍ مَعَ المُكَرَّرِ فِي سِيَاقَاتِهِ الجَدِيدَةِ. وإِذْ لاَ يُمْكِنُنَا نَفْيُ التَّكْرَارِ عَنِ النُّصُوصِ الأَدَبِيَّةِ، لاَ لِكَوْنِهِ وَاقِعًا مَشْهُودًا فِيهَا، وإِنَّمَا لأَنَّهُ حَتْمِيَّةٌ جَمَالِيَّةٌ، وَمَنْحًى فَنِيٌّ، إِذْ "كُلُّ الكُتُبِ تَحْوِي إِدْمَاجًا لِتَكْرَارَاتٍ بِالإِمْكَانِ عَدُّهَا "[2] وَإِنْ بِنِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ.

بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النُّقَّادِ يَجْزِمُونَ بِأَنَّ الجِدَّةَ لاَ يُمْكِنُهَا أَنْ تَتَأَتَّى مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ المُعَادِ المَكْرُورِ، فَهَذَا لِوِيسْ دُبُوسْتْ *Louis Dubost* يَقُولُ: " كُلُّ كِتَابٍ يَنْهَضُ عَلَى كُتُبٍ أُخْرَى... إِقْرَأُوهَا! حِينَهَا فَقَط، يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَأْمَلُوا إِنْجَازَ الجَدِيدِ "[3]. وَهَذَا عَيْنُ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ابْنُ خَلْدُونَ لإِتْقَانِ عَمَلِ الشِّعْرِ وَإِحْكَامِ صِنَاعَتِهِ، فَإِنَّ لِذَلِكَ " شُرُوطًا أَوَّلُهَا: الحِفْظُ مِنْ جِنْسِهِ:أَيْ مِنْ جِنْسِ شِعْرِ العَرَبِ حَتَّى تَنْشَأَ فِي النَّفْسِ مَلَكَةٌ يَنْسُجُ عَلَى

---

[1]- استِعْمال التّكْرَار(*The Use of Repetition*) يُنظر: فاعلية التّكرار في الخطاب الشّعريّ للنّقائض، م.س، ص31.

[2]- *Variations sur un sujet, Stéphane Mallarmé, Ed:La Revue Blanche, Bruxelles, 1895-1896, P:231. «que, plus ou moins, tous les livres contiennent la fusion de quelques redites comptées » .*

[3]- *Lettre d'un éditeur de poésie à un poète en quête d'éditeur, Louis Dubost, Éd:GINKGO,2006, P:23. «Tout livre pousse sur d'autres livres…Lisez-les! Et alors, seulement, vous pouvez espérer faire du neuf ».*

مِنْوَالَهَا "[1]، وَيَسْتَهْدِي بِهَا فِي مَسَالِكِ الإِبْدَاعِ الوَعِرَةِ.

ثُمَّ إِنَّ مَسْأَلَةَ التَّكْرَارِ هَذِهِ اسْتَعْصَتْ عَلَى الدَّارِسِينَ حِينَ تَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ وَضْعَ حُدُودٍ قَارَّةٍ لِمَاهِيَّةِ الخَلْقِ الأَدَبِيِّ، خُصُوصًا وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الكِتَابَاتِ تَكَادُ تَكُونُ صُورَةً لِغَيْرِهَا بِشَكْلٍ مَا، إِلَى الحَدِّ الذِّي وُصِفَتْ مَعَهُ بِأَنَّهَا إِعَادَةٌ لاَ تُثْرِي الإِبْدَاعَ، وتَنُمُّ عَنْ ضَيْقِ أُفُقٍ فَنِيٍّ، أَوْ أَنَّهَا سَرِقَةٌ مَحْضَةٌ، وتِلْكَ أَسْوَأُ حَالاَتِ "الأَدَبِيَّةِ". وَهُنَا اسْتَجَدَّتْ وُجُهَاتُ نَظَرٍ سَعَتْ إِلَى تَفْسِيرِ الظَّاهِرَةِ مِنْ بَابٍ مُخْتَلِفٍ، فَكَانَ التَّنَاصُّ المَدْخَلَ الذِّي قُرِأَتْ بِهِ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ، وَعُلِّلَتْ عَدِيدُ أَشْكَالِ التَّلاقِي والتَّعَالُقِ.

لَعَلَّ قِرَاءَاتِ بَاخْتِين المُتَعَدِّدَةُ هِيَ التِّي أَلْهَمَتْهُ فِكْرَةَ الحِوَارِيَّةِ التِّي بَنَى عَلَيْهَا مَفْهُومَهُ لِتَدَاخُلِ النُّصُوصِ بِشَكْلٍ مِنَ الأَشْكَالِ، وفَتَحَتْ، فِيمَا بَعْدُ، المَجَالَ وَاسِعًا أَمَامَ كْرِيسْتِيفَا ومَنْ تَبِعَهَا لِتَعْمِيقِ فِكْرَةِ تَلاقُحِ النِّتَاجَاتِ الأَدَبِيَّةِ جَمِيعِهَا، إِذْ " لاَ يُوجَدُ تَعْبِيرٌ لاَ تَرْبِطُهُ عَلاَقَاتٌ بِتَعْبِيرَاتٍ أُخْرَى، وهَذِهِ العَلاَقَاتُ جَوْهَرِيَّةٌ تَمَامًا(...). وَالمُصْطَلَحُ الذِّي يَسْتَخْدِمُهُ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى العَلاَقَةِ بَيْنَ أَيِّ تَعْبِيرٍ وَالتَّعْبِيرَاتِ الأُخْرَى هُوَ مُصْطَلَحُ الحِوَارِيَّةِ *Dialogism*، وَلَكِنَّ هَذَا المُصْطَلَحَ المِفْتَاحِيَّ، كَمَا يُمْكِنُ لِلمَرْءِ أَنْ يَتَوَقَّعَ، مُثْقَلٌ بِتَعَدُّدِيَّةٍ مُرْبِكَةٍ فِي المَعْنَى "[2]، سَتَجْعَلُ تُودُورُوف يُفَضِّلُ مُصْطَلَحَ (التَّنَاصِّ) الكْرِيسْتِيفِيِّ حِينَ يَقْصِدُ إِلَى مَعْنًى أَكْثَرَ شُمُولِيَّةً مِنْ مَفْهُومِ الحِوَارِيَّةِ الذِّي يَتَوَافَقُ مَع أَشْكَالَ خَاصَّةٍ مِنَ التَّناصِّ وَلَيْسَ كُلِّهَا.

فَفِي اعْتِقَادِ بَاخْتِين، كُلُّ الخِطَابَاتِ تَعُودُ إِلَى فَاعِلَيْنِ فِي أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ حِوَارًا مُحْتَمَلاً يَقُومُ بَيْنَهُمَا، فَـ" (الأُسْلُوبُ هُوَ الرَّجُلُ)، وَلَكِنْ بِاسْتِطَاعَتِنَا القَوْلَ:إِنَّ الأُسْلُوبَ هُوَ رَجُلاَنِ، عَلَى الأَقَلِّ، أَوْ بِدِقَّةٍ أَكْثَرَ، الرَّجُلُ وَمَجْمُوعَتُهُ الاجْتِمَاعِيَّةُ مُجَسَّدَيْنَ عَبْرَ المُمَثِّلِ المُفَوَّضِ، المُسْتَمِعِ، الذِّي يُشَارِكُ بِفَعَّالِيَّةٍ، فِي الكَلاَمِ الدَّاخِلِيِّ والخَارِجِيِّ لِلأَوَّلِ

[1]- المقدّمة، ابن خلدون، تح:عبد الله محمّد الدّرويش، دار البلَخِي، دمشق، ط1، 1425هـ/2001م، صص400،401.

[2]- مِيخَائِيل باخْتِين- المبدأ الحواريُّ، تْزفِيتان تودوروف، تر: فخري صالح، المؤسّسة العربيّة للدِّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 1996م، ص121.

"[1]. فَالحِوَارِيَّةُ هِيَ" الخَاصِّيَةَ التِّي يَمْتَلِكُهَا نَصٌّ مَلْفُوظٌ لِلدُّخُولِ فِي عَلاَقَةٍ مَعَ مَلْفُوظَاتٍ أُخْرَى"[2]، فَتَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ صُورَةُ الخِطَابِ الجَدِيدِ الذِّي هُوَ، فِي حَقِيقَتِهِ، مَزِيجٌ مِنَ النُّصُوصِ وَالقِرَاءَاتِ السَّابِقَةِ، وَالحِوَارُ هُنَا بِمَثَابَةِ " وَسِيط اجْتِمَاعِيّ وَكُلُّ الكَلِمَاتِ تَحْمِلُ آثَارَ، رَغَبَاتِ، وَتَوْكِيدَاتِ*، المُتَلَفِّظِينَ الذِّينَ اسْتَعْمَلُوهَا مِنْ قَبْلُ "[3].

فَـ " اللُّغَةُ بِالنِّسبَةِ لِلشَّاعِرِ، مُشْبَعَةٌ تَمَامًا، وَبِحَقٍّ، بِالتَّنْغِيمَاتِ الحَيَّةِ. إِنَّهَا مُلَوَّثَةٌ، بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ، بِبَقَايَا التَّقْيِيمَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَآثَارِهَا وَتَوْجِيهَاتِهَا، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ صِرَاعَ عَمَلِيَّةِ خَلْقٍ، بِالضَّبْطِ، مَعَ هَذِهِ الآثَارِ وَالتَّوجِيهَاتِ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارَ المَرْءُ، بِدِقَّةٍ، هَذَا الشَّكْلَ اللُّغَوِيَّ أَوْ ذَاكَ، أَوْ هَذَا التَّعْبِيرَ أَوْ ذَاكَ. لاَ يَسْتَقْبِلُ الفَنَّانُ أَيَّةَ كَلِمَةٍ فِي شَكْلٍ لُغَوِيٍّ غَيْرِ مُفْتَرَضٍ. إِنَّ الكَلِمَةَ مُخَصَّبَةٌ مِنْ قَبْلُ، بِالأَوْضَاعِ العَمَلِيَّةِ وَالسِّيَاقَاتِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي يَصْطَدِمُ بِهَا الشَّاعِرُ... وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الذِّي يَجْعَلُ عَمَلَ الشّاعِرَ، مِثْلَهُ مِثْلَ أَيِّ فَنَّانٍ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَثِّرُ فَقَطْ عَلَى القَلِيلِ مِنَ عَمَلِيَّاتِ إِعَادَةِ التَّقْيِيمِ، وَعَلَى عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الانْزِيَاحَاتِ فِي التَّنْغِيمَاتِ، وَمَا يَجْعَلُ الشَّاعِرَ وَجُمْهُورَهُ يَعُونَ وَيُدْرِكُونَ بِإِزَاءِ خَلْفِيَّةٍ مُضَادَّةٍ مِنَ التَّقْيِيمَاتِ وَالتَّنْغِيمَاتِ السَّابِقَةِ "[4]. هَكَذَا إِذَنْ، لاَ يُمْكِنُ لِلكَلِماتِ أَنْ تَصِلَ إِلَى الاسْتِعْمَالِ مُتَجَرِّدَةً مِنْ مَفْهُومٍ، أَوْ مَفَاهِيمَ سَابِقَةٍ، ولاَ يُمكِنُ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، أَنْ يَكُونَ مُسْتَعْمِلُهَا خَالِيَ الذِّهْنِ مِنْ أَيِّ تَشَبُّعٍ أَوْ إِدرَاكٍ قَدْ تَسَلَّلَ إِلَيْهِ عَبْرَ اسْتِعْمَالِ غَيْرِهِ لِتِلْكَ الكَلِمَاتِ عَيْنِهَا؟

فَلَيْسَ مِنْ شَاعِرٍ، إِذَنْ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزْعُمَ بَرَاءَةَ الكَلِمَاتِ التِّي يَخْتَارُهَا مِنْ آثَارِ مَنْ سَبَقَهُ، لأَنَّهَا جَمِيعُهَا، قَدْ مَرَّتْ بِفِكْرِ أَوْ لِسَانِ فَرْدٍ مَا مِنَ الجَمَاعَةِ التِّي يَنْتَمِي إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ، إِذَنْ " لاَ يَجِدُ أَيُّ عُضْوٍ مِنَ جَمَاعَةِ المُتَكَلِّمِينَ، إِطْلاَقًا، كَلِمَاتٍ مِنَ اللُّغَةِ

---

[1]- يُنْظَر: مِيخَائِيل باخْتِين- المبدأ الحواريُّ، تْزفِيتان تودوروف، م.س، ص124.

[2]- *Voir: (Introduction) Les mots des autres -La poétique intertextuelle des oeuvres romanesques de Hubert Aquin, André Lamontagne, Ed: Les presses de l'Université Laval, Saint-Foy, Québec, Canada, 1992, P: 5 . « (Le dialogisme), c'est-a-dire la propriété que possède un énoncé d'entrer en relation avec d'autres énoncés».*

[3]- *Voir:«Dialogisme», Le dictionnaire du littéraire, Paul Aron, Denis Saint-Jacques, Alain Viala, Paris, PUF, 2002, P:146.*

* *Accentuations*

[4]- يُنْظَر: مِيخَائِيل باخْتِين – المبدأ الحواري، تْزفِيتان تودوروف، م.ن، ص101.

تَكُونِ مُحَايِدَةً، مُسْتَثْنَاةً مِنْ تَطَلُّعَاتِ وَتَقييمَاتِ الآخَرِ، غَيْرَ مَسْكُونَةٍ بِصَوتِ الآخَرِ. لاَ، إِنَّهُ يَتَلَقَّى الكَلِمَةَ عَبْرَ صَوْتِ الآخَرِ، وَهَذِهِ الكَلِمَةُ تَبْقَى مُمْتَلِئَةً بِهِ. إِنَّهُ يَتَدَخَّلُ فِي سِيَاقِهِ الخَاصِّ انْطِلاَقاً مِنْ سِيَاقٍ آخَرَ، مُخْتَرَقٍ بِمَقَاصِدِ الغَيْرِ. مَقْصَدُهُ الخَاصُّ يَجِدُ كَلِمةٍ مَسْكُونَةٍ سَلَفاً "[1].

هَذَا مَا دَعا بَاخْتِينْ فِي كِتَابَاتِهِ المُتَأَخِّرَةِ إِلَى التَّأْكِيدِ، بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ، عَلَى حَقِيقَةٍ جَلِيَّةٍ أُخْرَى، وَهِيَ أَنَّهُ " مَهْمَا كَانَ مَوْضُوعُ الكَلاَمِ، فَإِنَّ هَذَا المَوْضُوعَ قَدْ قِيلَ مِنْ قَبْلُ، بِصُورَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، وَمِنَ المُسْتَحِيلِ تَجَنُّبُ الالْتِقَاءِ بِالخِطَابِ الذِّي تَعَلَّقَ سَابِقًا بِهَذَا المَوْضُوعِ "[2]، لِتَكُونَ بِذَلِكَ حِوَارِيَّةُ النُّصُوصِ وتَلاقِيهَا حَتْمِيَّةً أَكِيدَةً مَا دَامَ " كُلُّ نَصٍّ يَقَعُ عِنْدَ مُلْتَقَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ النُّصُوصِ الأُخْرَى، يُعِيدُ قِراءَتَهَا، وَيُؤَكِّدُهَا وَيُكَثِّفُهَا وُيُحَوِّلُهَا، وَيُعَمِّقُهَا فِي نَفْسِ الوَقْتِ "[3].

ثُمَّ تَلَقَّفَتْ جُولْيَا كْرِيسْتِيفَا هَذَا المَفْهُومَ البَاخْتِينِيَّ وعَمِلَتْ عَلَى تَطْوِيرِهِ وَالاشْتِغَالِ عَلَيْهِ مَانِحَةً إِيَّاهُ دَلاَلاتٍ وَأَبْعَادًا أَشْمَلَ وَأَعْمَقَ، وَقَدْ بَدَأَتْ بِالإِشَارَةِ إِلَى مَفْهُوم (الإِنْتَاجِيَّةِ) عِنْدَ مَارْكْس، الذِّي تَنَاوَلَ " بِالدِّرَاسَةِ أَنْمَاطَ الإِنْتَاجِ وَعَلاَقَاتِهِ وِقِوَاهُ وَوَسَائِلَهُ "[4]، وَكَيْفَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَن الْتَفَتَ إِلَى العَمَلِ المُنْتِجِ كَرَابِطٍ بَيْنَ أَطْرَافِ العَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ الثَّلاثَةِ، أَيْ: المُؤَلِّفُ، النَّصُّ، القَارِئُ، وَمَا لِذَلِكَ مِنْ أَثَرٍ فِي عَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ التِّي تَنْشَأُ مِنْ صِرَاعٍ تَفَاعُلِيٍّ لِلنَّصِّ

[1]- *Mikhail Bakhtine, le principe dialogique, Tzvetan Todorov, Seuil, Paris, 1981, P:77. « Aucun membre de la communauté verbale ne trouve jamais des mots de la langue qui soient neutres, exempts des aspirations et des évaluations d'autrui, inhabités par la voix d'autrui. Non, il reçoit le mot par la voix d'autrui, et ce mot en reste rempli. Il intervient dans son propre contexte à partir d'un autre contexte, pénétré des intentions d'autrui. Sa propre intention trouve un mot déjà habité ».*

[2]- مِيخَائِيل باخْتِين–المبدأ الحواري، تْرْفِيتان تودوروف، تر: فخري صالح، المؤسّسة العربيّة للدِّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 1996م، صص124، 125.

[3]- نظرية التّناص، المختار حسني، مقال، علامات في النّقد، ع:34، مج:9، شعبان1420هـ/ديسمبر1999م، ص243. وَيُنظَر تَرجَمَة هَذه الفِقْرَة فِي:آفاق التّناصيّة:المفهوم والمنظور، تأليف مجموعة من المؤلفين، تر: محمد خير البقاعي، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص318:" عند التقاء مجموعة نصوص، ويكون في الوقت نفسه إعادة لقرائتها، وتكثيفا وتحريكا وانزياحا وتعميقا لها ".

[4]- مَدْخَلٌ لِدرَاسَةِ النَّصِّ وَالسُّلطَةِ، عُمَر أُوكَانْ، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، ط2، 1994م، ص55.

مَعَ نُصُوصٍ أُخْرَى[1].

مُلْهَمَةً مِنْ فِكْرَةِ (الإِنْتَاجِيَّةِ) هَذِه، رَاحَتْ كْرِيستِيفَا تُعَرِّفُ " النَّصَّ عَلَى أَنَّهُ جِهَازٌ عَبْرُ–لِسَانِيٌّ وَالذِّي يُعِيدُ تَوْزِيعَ نِظَامِ اللُّغَةِ وَاضِعًا فِي عَلاَقَةٍ كَلاَمًا تَوَاصُلِيًّا بِهَدَفِ الإِعْلاَمِ المُبَاشِرِ، مَعَ مُخْتَلَفِ المَلْفُوظَاتِ السَّابِقَةِ أَوِ المُتَزامِنَةِ. النَّصُّ إِذَن، إِنْتَاجِيَّةٌ، مَا يَعْنِي:1) عَلاَقَتُهُ بِاللُّغَةِ التِّي يَتَمَوْضَعُ فِيهَا تَوْزِيعِيَّةٌ (هَادِمَةٌ–بَانِيَةٌ)، وَبِالتَّالِي فَهُوَ يُبَاشَرُ مِنْ خِلاَلِ أَنْمَاطٍ مَنْطِقِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنْهَا لِسَانِيَّةً مَحْضَةً؛ 2) إِنَّهُ تَبَادُلُ نُصُوصٍ، تَدَاخُلٌ نَصِّيٌّ: فِي فَضَاءِ نَصٍّ عَدِيدُ المَلْفُوظَاتِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَى، تَتَقَاطَعُ وَتُحَيِّدُ بَعْضَهَا بَعْضًا "[2].

فَالنَّصُّ الذِّي عِنْدَ كْرِيسْتِيفَا " نِظَامٌ اتِّصَالِيٌّ مُتَعَدِّدٌ، وَالذِّي بِالإِمْكَانِ وَصْفُهُ كَبِنْيَةٍ مِنَ شَبَكَاتِ الكَلِمَاتِ المِحْوَرِيَّةِ [البَارَاغْرَامِيَّةِ]"[3]، تَسْتَدْعِي بِنْيَتُهُ تَرَاكُمَ جُمْلَةٍ مِنَ العَمَلِيَّاتِ المُتَدَاخِلَةِ المُعَقَّدَةِ التِّي تَسْمَحُ لِنَصٍّ مَا بِالنُّهُوضِ وَاكْتِسَابِ خُصُوصِيَّتِهِ مِنْ خِلاَلِ اتِّصَالِهِ وَتَفَاعُلِهِ مَعَ غَيْرِهِ.

---

[1]– التّناص بين الرّؤية والإجراء في النّقد الأدبيّ (مقاربة محايِثَة للسّرقات الأدبيّة عند العرب، محمود المصفار، مطبعة التّسفير الفنيّ، تونس، 2000م، ص33.

[2]- *Le Texte Clos, Julia Kristeva, Langages, (Linguistique et littérature), 3eme Année, N°12, Décembre 1968, Didier/Larousse, P :103. « Dans cette perspective nous définissons le texte comme un appareil translinguistique qui redistribue l'ordre de la langue, en mettant en relation une parole communicative visant l'information directe, avec différents types d'énoncés antérieurs ou synchroniques. Le texte est donc une productivité, ce qui Veut dire :(1) son rapport à la langue dans laquelle il se situe est redistributif (destructivo-constructif), par conséquent il est abordable à travers des catégories logiques plutôt que purement linguistiques; (2) il est une permutation de textes, une inter-textualité : dans l'espace d'un texte plusieurs énoncés, pris à d'autres textes, se croisent et se neutralisent ». Voir aussi : Julia Kristeva, (Introduction) Le texte du roman: approche sémiologique d'une structure discursive, Mouton Publishers, The Hague-Paris-New York, 3eme Ed:1979, P:12.*

ويُنظر: التّناصّ والتّناصّيّة، تر:خَير البقَاعِي لِجُزءٍ من هَذا النَّصّ، ص33:" نُعَرِّفُ النَّصَّ بِأَنَّهُ جِهَازُ نَقْلٍ لِسَانِيٌّ يُعِيدُ تَوزِيعَ نِظَامِ اللُّغَةِ واضِعًا الحَدِيثَ التَّواصُلِيَّ، نَقْصِدُ المَعْلُوماتِ المُبَاشِرَةَ، فِي عَلاقَةٍ مُبَاشِرَةٍ مَعَ مَلْفُوظاتٍ مُخْتَلِفَةٍ سَابِقَةٍ أَوْ مُتَزامِنةٍ "، وأَيضًا: عِلمُ النُّصِّ، م.س، ص21:" مِنْ هَذَا المَنْظُورِ، نُحَدِّدُ النَّصَّ كَجِهَازُ عَبْرِ لِسَانِيٌّ يُعِيدُ تَوْزِيعَ نِظَامِ اللِّسَان بِوَاسِطَةِ الرَّبْطِ بَيْنَ كَلاَمٍ تَواصُلِيٍّ يَهَدِفُ إِلَى الإِخْبَارِ المُبَاشِرِ وَبَيْنَ أَنْماطٍ عَدِيدَةٍ مِنَ المَلْفُوظَاتِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ أَوالمُتَزامِنَةِ مَعَهُ. فالنَّصُّ إِذَنْ إِنْتَاجِيَّةٌ، وهُوَ مَا يَعْنِي:

أ– أَنَّ عَلاقَتَهُ باللِّسَانِ الذِّي يَتَمَوْقَعُ دَاخِلَهُ هِيَ عَلاَقَةُ إِعَادَةِ تَوْزِيعٍ(هَادِمَةٍ بَنَّاءَةٍ)؛ ولِذَلِكَ فَهُوَ قَابِلٌ لِلتَّنَاوُلِ عَبْرَ المَقُولاتِ المَنْطِقِيَّةِ لاَ عَبْرَ المَقُولاَتِ اللِّسَانِيَّةِ الخَالِصَةِ.

ب– أَنَّهُ تِرْحَالٌ لِلنُّصُوصِ وَتَدَاخُلٌ نَصِّيٌّ، فَفِي فَضَاءِ نَصٍّ مُعَيَّنٍ تَتَقَاطَعُ وَتَتَنَافَى مَلْفُوظَاتٌ عَدِيدَةٌ مُقْتَطَعَةٌ مِن نُصُوصٍ أُخْرَى ".

[3]- *«Pour une sémiologie des paragrammes », Julia Kristeva, Semeiotike :recherches pour une sémanalyse, Paris, Seuil, 1969, P: 123. le texte se présente comme un « système de connexions multiples qu'on pourrait décrire comme une structure de réseaux paragrammatiques ».*

كَانَتْ كْرِيسْتِيفَا تُوَظِّفُ المُصْطَلَحَ البَاخْتِينِيَّ (الحِوَارِيَّةَ *Idéologème*) عَلَى أَنَّهُ " عَيِّنَةٌ تَرْكِيبِيَّةٌ تَدْخُلُ فِي تَنْظِيمٍ نَصِّيٍّ مُعْطىً بِالتَّعْبِيرِ المتَضَمَّنِ فِيهِ أَوْ الذِّي يُحِيل إِلَيْهِ "[1] قَبْلَ أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَى مُصْطَلَحٍ تَرَاهُ أَشْمَلَ، وَفِي ذَاتِ الوَقْتِ أَكْثَرَ دِقَّةً وَهُوَ التَّنَاصُّ، وَ" الذِّي أَعْطَتْهُ مَعْنىً أَكْثَرَ عُمُومِيَّةً عَنِ الذِّي أُعْطِيَ لِلْحِوَارِيَّة التيِّ لاَ تَخُصُّ سِوَى بَعْضِ الحَالاَتِ المُعَيَّنَةِ مِنَ التَّنَاصِّ "[2]، فَاكْتَسَبَ التَّنَاصُّ مَعْنَى " التَّقَاطُعَ دَاخِلَ نَصٍّ لِتَعْبِيرٍ مَأْخُوذٍ مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَى "[3].

وَمِنْ هُنَا اعْتَبَرَتْ كْرِيسْتِيفَا أَنَّ " كُلَّ نَصٍّ يَنْبَنِي كَفُسَيْفِسَاءٍ مِنَ الاقْتِبَاسَاتِ، كُلُّ نَصٍّ هُو امْتِصَاصٌ وَتَحْوِيلٌ لِنَصٍّ آخَرَ "[4]. ثُمَّ مُقْتَفِيَةً آثَارَ بِينفِينسْتْ وَ لاَكَانْ أَمْكَنَهَا " أَنْ تُطَوِّرَ تَصَوُّرَهَا لِلنَّصِّ بِاعْتِبَارِهِ(مَوْضُوعًا دِينَامِيكِيًّا)، سَلِيلَ عَمَلِ (اخْتِلاَفٍ وَتَرَاكُمٍ وَتَفَاوُضٍ)، لاَ يَنْقطِعُ البَتَّةَ. هَذَا العَمَلُ الذِّي يَحْدُثُ فِي اللُّغَةِ "[5] يُقِيمُ مِنْ خِلاَلِهَا، وَفِيهَا، شَبَكَةً لاَ نِهَائِيَّةً مِنَ العَلاَقَاتِ التيِّ تُجَدِّدُ لَهَا دَلاَلاتِهَا وتُكْسِبُهَا القُدْرَةَ عَلَى التَّمَيُّزِ فِي كُلِّ حِينٍ وَإِنْ بَدَتْ فِي وَاقِعِ الأَمْرِ مُسْتَهْلَكَةً مُسْتَنْفَذَةَ المَعْنَى.

لِذَلِكَ تَخْلُصُ كْرِيسْتِيفَا، وَهِيَ تَتَحدَّثُ عَنِ التَّصْحِيفَاتِ، " إِلَى أَنَّ (النَّصَّ يَحْمِلُ فِي نَسِيجِهِ ذَاتِهِ نُتَفًا مَبْثُوثَةً مِنْ نَصٍّ آخَرَ أَوْ كَلِمَةً أُخْرَى يُعِيدُ تَشْكِيلَهَا فِي مَعْنًى مُخْتَلِفٍ). إِنَّهَا تَعْتَبِرُ التَّنَاصَّ كَمَسَارٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ، دِينَامِيكِيَّةً نَصِّيَّةً. يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بِاقْتِرَاضٍ أَقَلَّ، بِتَبَنِّي،

---

[1]- إِنتَاجُ مَعرِفَة بِالنَّصِّ، حُسَين خُمُري، مقال، مجلة دراسات عربيّة، العدد:11-12، السّنة:23، أيلول-تشرين أوّل/ سبتمبر-أكتوبر 1987م، بيروت، ص102.

[2]-*"L'intertextualitè", Pierre Marillaud, Colloque d'Albi (annuel), du 7 au 10 Juillet, 2003.*

[3]- إنتاج معرفة بالنّصّ، م.س، ص.ن.

[4]-*« Le mot, le dialogue et le roman », Julia Kristeva, Semeiotike : recherches pour une sémanalyse, Seuil, Paris, 1969, P:85.« Tout texte se construit comme mosaïque de citations, tout texte est absorption et transformation d'un autre texte ».*

وينظر: النّصّ الغَائب - تجَلِّيَاتُ التَّناصِ في الشِّعر العربيّ، دراسة، محمّد عزّام، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م، ص22." إنّ كلّ نصّ هو عبارة عن لوحة فسيفسائيّة من الاقتباسات، وكلّ نصّ هو تشرب، وتحويل نصوص أخرى"، ويُنظر:البنيويّة الشّعريّة، جوناتان كُلَر، تر: السيّد إِمَام، دار شَرقيّات للنّشر والتّوزيع، ط1، 2001م، ص139، وَكَذَا: الخَطِيئة والتّكْفِير، الغَذَاميّ، ص326.

[5]- التَّكرَار(*Le Principe de Répétition, Littérature et modernité*)، مَارِي لُور بَرْدِيش،*Marie Laure Bardéche*، تر: أحمد حيزم، مجلّة نوافذ، ع:35، النّادِي الثّقافي الأدبيّ، جَدّة، السّعوديّة، صفر1427هـ/ مارس 2006م،ص30.

بِتَقْلِيدٍ أَكْثَرَ مِنْهُ آثَارًا عَفْوِيَّةً، فِي الغَالِبِ، صَعْبَةَ العَزْلِ. النَّصُّ لاَ يَتَّخِذُ كُلَّ المَكْتُوبِ مَرْجِعًا وَحَسْبَ، بَلْ أَيْضًا، مُجْمَلَ الخِطَابَاتِ المُحِيطَةِ بِهِ، وَاللُّغَةَ التِّي تُؤَطِّرُهَا"[1].

وَالحَالُ هَذِهِ، صَارَ تَوَلُّدُ المَعْنَى مُرْتَبِطًا، ضَرُورَةً، بِالحِوَارِ القَائِمِ بَيْنَ النُّصُوصِ المُخْتَلِفَةِ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ الأَدَبِيِّ، وَيَحْدُثُ أَنَّ أُسْلُوبَ الحِوَارِ يَتَّخِذُ فِي الغَالِبِ شَكْلاً يَسْتَحِيلُ مَعَهُ تَبَيُّنُ أَوْ فَصْلُ النُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي انْدَمَجَتْ إِلَى دَرَجَةٍ امَّحَتْ مَعَهَا الحُدُودُ، وَمَا عَادَتْ الخُطُوطُ الكُبْرَى لِلنَّصِّ الأَوَّلِ بَادِيَةً. " أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلنُّصُوصِ الشِّعْرِيَّةِ الحَدَاثِيَّةِ فَإِنَّنا نَسْتَطِيعُ القَوْلَ، بِدُونِ مُبَالَغَةٍ، بِأَنَّهُ قَانُونٌ جَوْهَرِيٌّ، إِذْ هِيَ نُصُوصٌ يَتِمُّ صِنَاعَتُهَا عَبْرَ امْتِصَاصٍ، وَفِي نَفْسِ الآنِ عَبْرَ هَدْمِ النُّصُوصِ الأُخْرَى لِلفَضَاءِ المُتَدَاخِلِ نَصِّيًّا؛ وَيُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهَا تَرَابُطَاتٌ مُتَنَاظِرَةٌ *Alter Jonction* ذَاتُ طَابَعٍ خِطَابِيٍّ. إِنَّ المُمَارَسَةَ الشِّعْرِيَّةَ التِّي تَقْرَأُ إِدْغَارْ أَلاَن بُو وبُودْلِير وَمَالاَرْمِي، تُوَفِّرُ لَنا مِثَالاً مِنَ الأَمْثِلَةِ الأَكْثَرِ حَدَاثَةً وَتَمَيُّزًا عَلَى هَذِهِ التَّرَابُطَاتِ المُتَنَاظِرَةِ "[2]. وبِذَا لاَ يَصِيرُ الحِوَارُ نَتِيجَةً يَخْلُصُ إِلَيْهَا القَارِئُ أَوِ المُؤَلِّفُ فَقَطْ، بَلْ يُصْبِحُ مِيكَانِيزْمًا أَسَاسِيًّا لِتَدَبُّرِ دَلاَئِلِيَّةِ النَّصِّ وَكَيْفِيَّةَ انْبِنَائِهِ.

وَلَقَد عَمِدَ هَؤُلاَءِ الشُّعَرَاء إِلَى نُصُوصِ سَابِقِيهِمْ فَتَرْجَمُوهَا، وَقَدَّمُوهَا لِلْجُمْهُورِ وَكَأَنَّهُمْ كُلِّفُوا العِنَايَةَ بِإِرْثِهِمْ، بَلْ إِنَّهُمْ مَا اكْتَفَوا بِذَلِكَ فَحَذُوا حَذْوَهُمْ. وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا الاتِّجَاهَ يَكَادُ يَكُونُ عَامًّا فِيَ مَسَارِ الشِّعْرِيَّةِ وَإِثْبَاتِ الوُجُودِ الفَنِّيِّ وَالأَدَبِيِّ، فَبِنَاءُ الشَّخْصِيَّةِ يَتَيَسَّرُ بِطَرِيقَيْنِ: إِمَّا التَّقْلِيدُ أَوْ السَّعْيُ لِتَجَاوُزِ الآخَرِ، وَهُنَا نُلْفِي شَبَكَةَ الاسْتِعَارَةِ وَالاقْتِرَاضِ تَتَمَدَّدُ وَتَتَضَاعَفُ " إِلَى مَا لاَنِهَايَةٍ، فَهِيَ سَتُعَبِّرُ دَائِمًا عَنْ نَفْسِ القَانُونِ، عِلْمًا بِأَنَّ النَّصَّ الشِّعْرِيَّ يُنْتَجُ دَاخِلَ الحَرَكَةِ المُعَقَّدَةِ لإِثْبَاتٍ وَنَفْيٍ مُتَزَامِنَيْنِ لِنَصٍّ آخَرَ "[3]، أَسَاسُهُ مَحْوٌ

[1]-*Voir: L'intertextualité, Sophie Rabau, op.cit, Paris, Flammarion, 2002 ,P:54. Sur l'anagramme, Kristeva conclut que « le texte porte disséminés dans son tissu même des lambeaux d'un autre texte ou d'un autre mot qu'il recompose en un sens différent.», Elle considère l'intertextualité comme un processus indéfini, une dynamique textuelle. Il s'agit moins d'emprunts, de filiation et d'imitation que de traces souvent inconscientes, difficilement isolables. Le texte se réfère non seulement à l'ensemble des écrits, mais aussi à la totalité des discours qui l'environnent, au langage ambient.*

[2]- عِلْمُ النَّصِّ، جُولِيَا كرِيستِيفَا، م.س، ص79.

[3]- عِلْمُ النَّصِّ، جُولِيَا كرِيستِيفَا، م.س، ص.ن.

وَإِعَادَةُ كِتَابَةٍ يُفْضِي إِلَى الجِدَّةِ أَوْ سُقُوطٌ فِي المُحَاكَاةِ الحَرْفِيَّةِ المَرْفُوضَةِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ قِرَاءَةَ الآخَرِ وَالاتِّكَاءُ عَلَيْهِ بِشَكْلٍ مَا ضَرُورَةٌ لاَ مَنَاصَّ مِنْهَا، طَرِيقٌ لاَ يُمْكِنُ تَجَنُّبُهُ فِي مَسَارِ الإِبْدَاعِ وَالتَّمَيُّزِ، يَأْخُذُ اللاَّحِقُ عَنِ السَّابِقِ، يُضِيفُ وَيُنْقِصُ، يُدْمِجُ نِظَامًا كِتَابِيًّا فِي نِظَامٍ، فِي تَجَدُّدٍ وَاسْتِمْرَارِيَّةٍ.

فَلَيْسَتِ الإِحَالَةُ عَلَى نُصُوصٍ سَابِقَةٍ أَوِ مُعَاصِرَةٍ وَسِيلَةً تَنْهَضُ عَلَيْها الكِتَابَاتُ الجَدِيدَةُ، وتَسْتَلْهِمُ مِنْهَا طَرِيقَةً لِتُجَدِّدَ خِطَابَهَا، أَوْ لِتُعِيدَهُ إِلَى الوَاجِهَةِ، أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الكِتَابَ وهُوَ يُحِيلُ عَلَى كُتُبٍ أُخْرَى يُعْطِيهَا " طَرِيقَةً جَدِيدَةً لِتَكُونَ، مُبَلْوِرَةً بِذَلِكَ دَلاَلَتَهَا الخَاصَّةَ "[1]، وَالتِّي تَكْتَسِبُهَا مَعَ كُلِّ قِرَاءَةٍ وَكُلِّ اسْتِخْدَامٍ.

وَهِيَ تُحَدِّدُ مَفْهُومَ الـ(سيميَائِيَّةِ التَّصْحِيفِيَّةِ) اتَّكَأَتْ كْرِيسْتِيفَا عَلَى كُلٍّ مِنْ دِي سُوسِير وَبَاخْتِين " لِتُؤَكِّدَ الطَّابِعَ الاسْتِشْهَادِيَ لِلنَّصِّ الأَدَبِيِّ: كُلُّ خِطَابٍ يُكَرِّرُ آخَرَ، وَكُلُّ قِرَاءَةٍ تَنْبَنِي هِيَ ذَاتُهَا كَخِطَابٍ. الفِعْلُ المُتَنَاسِقُ لِهَذِهِ العَوَامِلِ الثَلاَثَةِ:الفَاعِلُ–الكَاتِبُ[المُرْسِلُ]، الفَاعِلُ–المُرْسَلُ إِلَيْهِ وَالنُّصُوصُ التِّي سَبَقَ جَمْعُهَا كَمُدَوَّنَةٍ تُحَدِّدُ، مِثْلَ أَبْعَادَ عَدِيدَةٍ غَيْرِهَا، الفَضَاءَ الذِّي يَنْتَمِي إِلَيْهِ نَصٌّ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ "[2]. فَالتَّصْحِيفِيَّةِ (*paragrammatisme*)، وَالتِّي هِيَ اشْتِغَالٌ خَاصٌّ وَجَوْهَرِيٌّ لِلُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ تَقُومُ عَلَى " امْتِصَاصِ نُصُوصٍ (مَعَانِي) مُتَعَدِّدَةٍ دَاخِلَ الرِّسَالَةِ الشِّعْرِيَّةِ التِّي تُقَدِّمُ نَفْسَهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بِاعْتِبَارِهَا مُوَجَّهَةً مِنْ طَرَفِ مَعْنًى مُعَيَّنٍ "[3] يَنْهَضُ مِنْ دَاخِلِ الخِطَابِ الأَوَّلِ لِيُشَكِّلَ مُنْطَلَقًا لِفَهْمِ خِطَابَاتٍ مِنْ حَوْلِهِ، أَوْ بِالأَحْرَى هِيَ مُتَضَمَّنَةٌ فِيهِ.

---

[1]-*« Pour une sémiologie des paragrammes », Julia Kristeva, Semeiotike : recherches pour une sémanalyse, Seuil, Paris, 1969, P: 121.« Le livre renvoie à d'autres livres […] et donne à ces livres une nouvelle façon d'être, élaborant ainsi sa propre signification ».*

[2]-*Voir: Méthodes du texte - introductions aux études littéraires, Maurice Delcroix et autres, Duculot Paris - Bruxelles, 1ère édition, 1995, P:114. « Dans son principe, la (sémiotique paragrammatique) se réclame de Saussure comme de Bakhtine pour affirmer le caractère citationnel du texte littéraire:tout discours en répète un autre et toute lecture se construit elle-même comme discours. L'action conjuguée de ces trois facteurs: le sujet-écrivant, le sujet-destinataire et les textes déjà constitués en corpus détermine comme autant de dimensions l'espace auquel appartient tel texte en particulier ».*

[3]– عِلْمُ النَّصِّ، جوليا كريستيفا، م.س، ص.ن.

وَقَدْ انْتَهَتْ جُولْيَا إِلَى كَوْنِ القَوْلِ الشِّعْرِيِّ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ عَدِيدَ الخِطَابَاتِ المُغَايِرَةِ، وَالتِّي سَمَحَ المَدْلُولُ الشِّعْرِيِّ بِتَجَلِّيهَا، فَأَتَاحَ خَلْقَ فَضَاءٍ نَصِّيٍّ مُتَعَدِّدٍ مِنْ حَوْلِهِ سَمَّتْهُ النَّاقِدَةُ (فَضَاءً مُتَدَاخِلاً نَصِّيًّا)، " بِهَذَا المَنْظُورِ، يَكُونُ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ اعْتِبَارُ المَدْلُولِ الشِّعْرِيِّ نَابِعًا مِنْ سَنَنٍ مُحَدَّدٍ. إِنَّهُ مَجَالٌ لِتَقَاطُعِ عِدَّةِ شِفْرَاتٍ(عَلَى الأَقَلِّ اثْنَتَيْنِ) تَجِدُ نَفْسَهَا فِي عَلاَقَةٍ مُتَبَادَلَةٍ "[1]. وَهِيَ تَسْتَعِيدُ هُنَا مَا كَانَ ذَهَبَ إِلَيْهِ بَاخِتِينْ قَبْلَهَا مِنْ أَنَّ الأُسْلُوبَ هُوَ رَجُلاَنِ عَلَى الأَقَلِّ، أَوْ أَنَّهُ الرَّجُلُ وَمَجْمُوعَتُهُ الاجْتِمَاعِيَّةُ، إِذْ هُوَ لاَ يَنْتُجُ عَنْ فَاعِلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا وَإِنَّمَا مِنْ حِوَارٍ، قَدْ يَكُونُ خَفِيًّا، وَلكِنَّهُ حَاضِرٌ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَكِيدَةٍ.

فَالوُجُودُ الأَدَبِيُّ يَسْتَلْزِمُ، تَمَامًا كَمَا هُوَ الوُجُودُ الاجْتِمَاعِيُّ، أَنْ تَنْبَنِيَ النُّصُوصُ عَلَى مُسْتَوَيَيْنِ لاَ يَنْفَصِمَانِ، غِيَابُ أَحَدِهِمَا يَنْفِي حَتْمًا وُجُودَ الثَّانِي، تَقْتَضِي النُّصُوصُ لِزَامًا أَنْ تُحَاوِرَ بَعْضَهَا بِشَكْلٍ مَا لِتُثْبِتَ كَيْنُونَتَهَا،" يَجِبُ أَنْ نَكُونَ اثْنَيْنِ عَلَى الأَقَلِّ. اللُّغَةُ بِالضَّرُورَةِ مُسْتَشْمَرَةٌ مِنَ الآخَرِ. ذَاكَ واحِدٌ مِنَ الأَبْعَادِ المُتَزامِنَةِ الخَاصَّةِ بِالأَدَبِ، هَذِهِ الأَداةُ المُتَعلِّقَةُ بِاللُّغَةِ، وَهَذَا الزَّمنُ الوُجُودِيُّ (الأُنْطُلُوجِيُّ) الذِّي يُحَدِّثُنا عَنْهُ لُوفِينَاسْ *Levinas* كَعَلاقَةٍ بِالآخَرِ. فِي الحَقِيقَةِ، إِذَا كَانَ فِي الآثَارِ[الأَدَبِيَّةِ] نَوْعٌ مِنَ الحَاجَةِ إِلَى الاسْتِئْنافِ، إِلَى التَّكْرَارِ، إِلَى اسْتِحَالَةِ النَّجَاحِ مُنْفَرِدِينَ، وَالتِّي يَكْشِفُ عَنْهَا مَا دُوِّنَ فِي أَزْمِنَةِ التَّارِيخِ الأَدَبِيِّ، فَلِأَنَّهُ فِيهَا، هِيَ ذَاتُهَا، تَنْعَقِدُ عَلاَقَةٌ أَسَاسِيَّةٌ بِالآخَرِ، وَالتِّي يُمْكِنُنَا هُنَا تَسْمِيَتُهَا، مَرَّةً أُخْرَى، تَنَاصًّا *Intertextualité* "[2].

يُؤَكِّدُ غَايْ غُوفَاتْ *Guy Goffette* وَهُوَ يُقَدِّمُ لِكِتَابِ جَاكْ بُورَالْ *Jacques Borel*

[1]- نفسه، ص78.

[2]-*« Penser le roman comme un dispositif narratif Vers une subjectivation du lecteur », Hélène Crombet,= =Cahiers de Narratologie [En ligne], 30 | 2016, mis en ligne le 28 juillet 2016, consulté le 17 novembre 2016,URL: http://narratologie.revues.org/7535. "Il faut être deux au moins. Le langage est essentiellement investi par l'autre. Et l'une des dimensions temporelles propre à la littérature, cet objet particulier de langage, est ce temps « ontologique » dont parle Levinas comme relation à autrui. En effet, s'il y a dans les œuvres une sorte d'exigence de la reprise, de la répétition, d'impossibilité à advenir seules, et que révèle leur inscription dans le temps de l'histoire littéraire, c'est parce qu'en elle se joue une relation fondamentale à l'autre, qu'on pourrait encore nommer ici intertextualité et dont la critique serait le visage privilégié, en donnant à inter, la préposition latine du mot, son sens temporel : entre-temps ".*

بِأَنَّ: " الأَعْمَالَ [الأَدَبِيَّةَ] لاَ تُولَدُ أَبَدًا مِنْ تَمَاسٍّ بِالوَاقِعِ، وَإِنَّمَا مِنْ أُفُقِ الكِتَابَاتِ جَمِيعِهَا "[1]، وَالتِّي تَطْفُو إِلَى السَّطْحِ عِنْدَ كُلِّ عَمَلِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ حَتَّى عَادَ "كُلُّ نَصٍّ لَيْسَ إِلاَّ بَصْمَةً مِنْ نَصٍّ آخَرَ "[2]، بَلْ وَأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ " فَإِنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ نَكْتُبُهَا، (...)، هِيَ بَيْنَ عَلاَمَتَيْ تَنْصِيصٍ "[3]. مِنْ هُنَا ذَهَبَ أُنْطْوَان كُومْبَانْيُون *Compagnon Antoine* إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ " الكِتَابَةَ، كَوْنَهَا دَوْمًا إِعَادَةَ كِتَابَةٍ، لاَ تَخْتَلِفُ عَنِ الاسْتِشْهَادِ "[4]، وَهُوَ مَا يَجْعَلُنَا أَمَامَ مَفْهُومٍ مُخْتَلِفٍ لِلكِتَابَةِ، يَضَعُ الإِبْدَاعَ بِإِزَاءِ التَّقْلِيدِ المُسْتَمِرِّ وَيُعَرِّفُهُ مِنْ خِلاَلِهِ.

وَبِذَا يَكُونُ " البَحْثُ عَنْ (يَنَابِيعِ) عَمَلٍ مَا أَوْ (عَمَّا أَثَّرَ فِيهِ) هُوَ اسْتِجَابَةٌ لأُسْطُورَةِ النَّسَبِ، فَالاقْتِبَاسَاتُ التِّي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا نَصٌّ مَا مَجْهُولَةٌ، عَدِيمَةُ السِّمَةِ وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مَقْرُوءَةٌ مِنْ قَبْلُ: إِنَّهَا اقْتِبَاسَاتٌ بِلاَ قَوْسَيْنِ "[5]، وَلَوْ اسْتَعْصَى إِثْبَاتُ مَرْجِعِيَّتِهَا، وَتَعَذَّرَ رَدُّهَا إِلَى مَصَادِرِهَا الأَصْلِ، فَالنَّصُّ يَنْطِقُ بِجِينَاتِهَا المُسْتَتِرَةِ فِيهِ، أَوْ هُوَ يَكَادُ يَفْعَلُ. مِنْ هَذَا المَنْظُورِ، لاَ يَسْتَطِيعُ النَّصُّ " أَنْ يُحَقِّقَ نَفْسَهُ إِلاَّ بِتَمَيُّزِهِ (وهَذَا لاَ يَعْنِي فَرْدِيَّتَهُ)، قِرَاءَتُهُ فَذَّةٌ[مُتَفَرِّدَةٌ]، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّصُّ مَنْسُوجٌ تَمَامًا مِنْ عَدَدٍ مِنَ الاقْتِبَاسَاتِ وَمِنَ المَرَاجِعِ وَمِنَ الأَصْدَاءِ: لُغَاتٌ ثَقَافِيَّةٌ (وَأَيُّ لُغَةٍ لَيْسَتْ كَذَلِكَ) سَابِقَةٌ أَوْ مُعَاصِرَةٌ، تَتَجَاوَزُ النَّصَّ مِنْ جَانِبٍ إِلَى آخَرَ فِي تَجْسِيمَةٍ وَاسِعَةٍ "[6] تُحَاوِلُ أَنْ تَرْسُمَ مُخَطَّطًا لِلعَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ، وَتَسْعَى إِلَى تَفْسِيرِ بَعْضِ مِيكَانِيزْمَاتِهَا.

وَفِي اعْتِقَادِ بَارتْ فَإِنَّ " الكَلاَمَ كُلَّهُ: سَالِفُهُ وحَاضِرُهُ يَصُبُّ فِي النَّصِّ، وَلَكِنْ لَيْسَ

---

[1]-*Pour une cuisine de province, Poèmes, Guy Goffette Éloge, Préface de Jacques Borel, Ed: Champ Vallon, 1988, P:164. «les œuvres ne naissent pas, jamais d'un contact avec le réel, mais de l'horizon de toutes les œuvres».*

[2]- *Apologie du plagiat, Jean-Luc Hennig, Collection L'Infini, Gallimard, 1997. « Tout texte n'est jamais que l'empreinte d'un autre». Voir: http://www.cercle-enseignement.com/ College/ Sixieme / Dossiers thematiques/Les-reecritures.*

[3]-*Ibid:« Ainsi chaque mot qu'on écrit est, pour ainsi dire, entre guillemets».*

[4]- *La seconde main, ou le travail de la citation , Antoine Compagnon, Seuil, Paris, 1979, P:34.« Ecrire, car c'est toujours réécrire, ne diffère pas de citer ».*

[5]– دراسات في النّصّ والتّناصّيّة، من العمل إلى النّصّ، رولان بارت، تر:محمّد خير البقّاعِيّ، مركز الإنماء الحضاريّ، حلب، سوريا، ط1، 1998م، ص16.

[6]– دراسات في النّصّ والتّناصّيّة، من العمل إلى النّصّ، رولان بارت، تر:محمّد خير البقّاعِيّ، م.س، ص.ن.

وِفْقَ طَرِيقَةٍ مُتَدرِّجَةٍ مَعْلُومَةٍ، وَلاَ بِمُحَاكَاةٍ إِرَادِيَّةٍ، وَإِنَّمَا بِطَرِيقَةٍ مُتَشَعِّبَةٍ – صُورَةٌ تَمْنَحُ النَّصَّ وَضْعَ الإِنْتَاجِيَّةِ وَلَيْسَ إِعَادَةَ الإِنْتاجِ "[1]، فَيَكُونُ بِذَلِكَ فِي مَقَامِ الكَلاَمِ الأَوَّلِ دَوْمًا، وَإِنْ كَانَ مَكْرُورًا مُعَادًا، إِذْ إِنَّهُ يَسْتَوْعِبُ الكَلامَ السَّابِقَ وَالحَاضِرَ وَيَعْمَلُ عَلَى إِكْسَابِهِ صُورَةَ التَّجَدُّدِ الدَّائِمِ، وَالخَلْقِ الذِّي يُدَارِي اتِّكَاءَهُ عَلَى النُّصُوصِ المُحِيطَةِ بِهِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا.

لَقَدْ اسْتَقَرَّ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ، وَهُوَ اعْتِقَادٌ لاَ يُجَانِبُ الحَقِيقَةَ كَثِيرًا، أَنَّ "كَلاَمَ الفَرْدِ لَيْسَ إِلاَّ أُسْلُوبًا أَوْ مَثَلاً مِنْ كَلاَمِ الجَمَاعَةِ، وَكَلاَمُ الجَمَاعَةِ لَيْسَ إِلاَّ حَصِيلَةَ كَلاَمِ الأَفْرَادِ "[2]، فَهُوَ تُراثٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ أَفْرَادِ الجَمَاعَةِ المُتَكَلِّمَةِ لاَ يَسْتَطِيعُ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْهَا ادِّعَاءَ أَحَقِّيَّتِهِ وَأَسْبَقِيَّتِهِ إِلَى مَعْنًى مَا، وَمِنْ ثَمَّ، فَمَا يُؤَلِّفُهُ أَحَدُهُمْ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِيلاً، عَزْلُهِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الكَلاَمِ، زَاعِمِينَ بِأَنَّهُ مِلْكُهُ وَخَاصَّتُهُ، فَـ" هُنَاكَ كُتُبٌ كَالنَّارِ فِي بُيُوتِنَا، نَسْتَعِيرُهَا مِن عِنْدِ الجَارِ، وَنُوقِدُهَا فِي بَيْتِنَا، نُعْطِيهَا غَيْرَنَا فَتُصْبِحُ مِلْكًا لِلْجَمِيعِ "[3]، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تَحْمِلُ فِي الآنِ ذَاتِهِ، صِبْغَةَ الفَرْدِ وَالجَماعَةِ التِّي يَنْتَمِي إِلَيْهَا.

لِهَذَا انْتَقَدَ فِيلِيبْ سُولَرْزْ ***Philippe Sollers*** الاتِّجَاه اللاَّهُوتِي فِي تَصْنِيفِ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالحَقِيقَةِ وَالمَوْضُوعِ والمَعْنَى وَالفَنِّ عُمُومًا، لأَنَّهُ يَحُدُّ مِنْ قُدْرَةِ الإِنْسَانِ عَلَى الإِبْدَاعِ وَالتَّفَرُّدِ، وَيُعْطِي النَّصَّ الدِّينِيَّ السُّلْطَةَ المُطْلَقَةَ عَلَى التَّوْجِيهِ وَالتَّأْوِيلِ، لِذَا رَاحَ يَقْتَرِحُ مِنْ خِلاَلِ نَظَرِيَّةِ الجَمَاعَةِ " مُقَابِلَ النَّصِّ الكَامِلِ الجَامِدِ المُسَيَّجِ بِقُدْسِيَّةِ شَكْلِهِ وَفَرَادَتِه، فَرَضِيَّةَ التَّنَاصِّ المُسْتَعَارَةِ مِنَ النَّاقِدِ الرُّوسِيِّ مِيخَائِيل بَاخْتِين ***Mikhael Bakhtine*** القَائِلَةُ بِأَنَّ (كُلَّ نَصٍّ يَقَعُ عِنْدَ مُلْتَقَى مجْمُوعَةٍ مِنَ النُّصُوصِ الأُخْرَى؛ يُعِيدُ قِرَاءَتَهَا وَيُؤَكِّدُهَا وَيُكَثِّفُهَا وَيُحَوِّلُهَا وَيُعَمِّقُهَا فِي نَفْسِ الوَقْتِ) "[4]. هَكَذَا تَحَرَّرَتْ الدَّلاَلَةُ مِنْ سَطْوَةِ القِرَاءَةِ الوَاحِدَةِ،

---

[1]- نفسه، صص38،39.

[2]- دور الكلمة في اللّغة، ستيفن أُولمان، تر:كمال محمّد بشر، مكتبة الشّباب، د.ط، 1975م، ص34، حاشية المترجم.

[3]-*Oeuvres complètes de Voltaire, Voltaire, Vol: 35, T: 42, "Lettres philosophiques", Imprimerie Jean-Jack Tourniesen, 1785, P:417. « Il en est des livres comme du feu dans nos foyers : on va prendre ce feu chez son voisin, on l'allume chez soi, on le communique à d'autres et il appartient à tous ».*

[4]- نظرية التّناصّ، بيَار مَارك دُوبْيَازي (*Pierre Marc de Biazi*)، تر: المختار حسني، مجلّة فكر ونقد، العدد:28. *http://www.Fikrwanakad.com*

وَالتَّأْوِيلِ المُوَجَّهِ، مِمَّا جَعَلَ الإِشَارَاتِ وَالرُّمُوزَ، وَالمَوْضُوعَاتِ وَالأَفْكَارَ، بَلْ وَالأَسَالِيبَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ تَنْتَقِلُ عَبْرَ النُّصُوصِ وَالأَزْمِنَةِ بِاقْتِرَاضٍ وَتَجَدُّدٍ دَائِمَيْنِ.

لِذَلِكَ صَارَ مِنَ البَدِيهِيِّ أَنَّهُ " لاَ يَجِبُ الحُكْمُ عَلَى الكُتُبِ كُلاًّ عَلَى حِدَةٍ. (...) لاَ يَجِبُ النَّظَرُ إِلَيْهَا كَأَشْيَاءَ مُسْتَقِلَّةٍ. إِنَّ كِتَابًا مَا لَيْسَ أَبَدًا كَامِلاً بِذَاتِهِ، فَإِنْ أَرَدْنَا فَهْمَهُ، وَجَبَ وَضْعُهُ فِي عَلاَقَةٍ مَعَ كُتُبٍ أُخْرَى، لاَ مَعَ كُتُبِ الأَدِيبِ الوَاحِدِ وَحَسْبَ، وَلَكِنْ مَعَ كُتُبٍ أَلَّفَهَا أَشْخَاصٌ غَيْرُهُ "[1]. فَالنَّصُّ إِنَّمَا يَكْتَسِبُ أَدَبِيَّتَهُ مِنْ حَجْمِ التَّفَاعُلِ الذِّي يُدْخِلُهُ فِي عَلاَقَاتِ تَوْلِيدٍ وَتَكْثِيفٍ لِلدَّلاَلَةِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّصُوصِ، وَهَذَا لِكَوْنِ " التَّنَاصِّ لاَ يُشِيرُ إِلَى زِيَادَةٍ مُلْتَبِسَةٍ وَغَامِضَةٍ مِنَ التَّأْثِيرَاتِ، وَلَكِنْ إِلَى عَمَلِيَّةِ التَّحْوِيلِ وَالتَّمَثُّلِ لِعِدَّةِ نُصُوصٍ يَقُومُ بِهَا نَصٌّ مُمَرْكِزٌ مُحْتَفِظًا بِرِيَادَةِ المَعْنَى [*leadership*] "[2]، زِيَادَةٌ تَهَبُ النَّصَّ مَعَ كُلِّ قِرَاءَةٍ مَعْنًى جَدِيدًا، حَيَاةً أَبَدِيَّةً.

فَالتَّنَاصَّاتُ " تُثِيرُ (أَوْ تَسْتَلْزِمُ) وُجُودَ تَرْكِيبَاتٍ دَالَّةٍ، مَنْطُوقَةٍ بِطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ (فِي الغَالِبِ غَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ) بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، ومُؤَسِّسَةٌ لِتَعَدُّدٍ دَاخِلِيٍّ لِهَذَا النَّصِّ. إِنَّهَا تَقْتَرِحُ فِكْرَةَ تَكْوِينٍ لاَنِهَائِيٍّ لِلدَّلاَلَةِ. النَّصُّ، تَمَامًا كَمَا هُوَ الخِطَابُ، لَيْسَ مُغْلَقًا. إِذْ تَشْتَغِلُ عَلَيْهِ نُصُوصٌ أُخْرَى، مِثْلَمَا هِيَ الحَالُ بَيْنَ الخِطَابِ وَغَيْرِهِ مِنَ الخِطَابَاتِ "[3] التِّي تَتَشَارَكُ، فِي تَعَاقُبٍ وَتَكْرَارٍ، عَلَى تَشْكِيلِ الدَّلاَلَةِ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمَعَ كُلِّ قِرَاءَةٍ لِتَجْعَلَهَا مُسْتَمِرَّةً إِلَى مَا لاَ نِهَايَةٍ،

---

[1]- *Volkswagen Blues, Poulin Jacques, Montréal, Leméac, coll: Babel ,1988, P:186. « Il ne faut pas juger les livres un par un. Je veux dire : il ne faut pas les voir comme des choses indépendantes. Un livre n'est jamais complet en lui-même ; si on veut le comprendre, il faut le mettre en rapport avec d'autres livres, non seulement avec les livres du même auteur, mais aussi avec des livres écrits par d'autres personnes ».*

[2]- *« La stratégie de la forme » in Poétique, Laurent Jenny, N°:27, Éd:du Seuil, Paris, 1976, P: 257. « l'intertextualité désigne non pas une addition confuse et mystérieuse d'influences, mais le travail de transformation et d'assimilation de plusieurs textes opéré par un texte centreur qui garde le leadership du sens ».*

[3]- *Intertextuatité et mouvance (Article), Paul Zumthor, Revue: Littérature, N°:41, 1981, Ed: Larousse, P:8.= =« Ils évoquent (ou impliquent) l'existence de complexes signifiants, articulés, de façon diverse (souvent imprévisible), les uns sur les autres, et fondateurs d'une pluralité interne de ce texte. Ils suggèrent l'idée d'une genèse illimitée de la signification. Le texte, pas plus que le discours, n'est clos. Il est travaillé par d'autres textes, comme le discours par d'autres discours ».*

تَتَّكِئُ عَلى السَّابِقِ والمُعَاصِرِ دُونَ أَنْ تَكُونَهُ هُوَ ذَاتَهُ، تَطْرَحُ جَدِيدًا فِي الوَقْتِ الذِّي تَبْنِي نَفْسِهَا مِنْ عَلاَقَتِهَا الأَكِيدَةِ مَعَ غَيْرِهَا.

وَهَذَا تْزِيفِيتَانْ تُودُرُوفْ *Tzvetan Todorov*، وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ المُنَادِينَ بِرَفْضِ كُلُّ حُضُورٍ خَارِجِيٍّ عَنْ ذَاتِيَّةِ المُبْدِعِ فِي العَمَلِ الأَدَبِيِّ المَوْسُومِ، فِي أَغْلَبِهِ، بِالمُحَايِثِ، يُؤَكِّدُ " أَنَّهُ مِنَ الوَهْمِ الاعْتِقَادُ أَنَّ العَمَلَ الأَدَبِيَّ لَهُ وُجُودٌ مُسْتَقِلٌّ. إِنَّهُ يَبْرُزُ فِي فَضَاءٍ أَدَبِيٍّ حَافِلٍ بِأَعْمَالٍ مَوجُودَةٍ سَلَفًا، وَفِيهَا سَيَنْدَمِجُ. كُلُّ عَمَلٍ فَنِّيٍّ يَدْخُلُ فِي عَلاَقَاتٍ مُعَقَّدَةٍ مَعَ أَعْمَالِ المَاضِي التِّي تُكَوِّنُ، تَبَعًا لِلعُصُورِ، تَرَاتُبِيَّاتٍ [*hiérarchies*] مُخْتَلِفَةً "[1].

وَعَلَيْنَا هُنَا أَنْ نَكُونَ مُتَيَقِّظِينَ لِنَوْعِيَّةِ وَأَبْعَادِ هَذا التَّدَاخُلِ الذِّي قَدْ يُسِيئُ لِجِينِيَّةِ العَمَلِ الأَدبِيِّ، فَيُزِيحُهُ عَنْ أَدَبِيَّتِهِ وَيَقْذِفُ بِهِ إِلَى حُدُودٍ أُخْرَى تُفْقِدُهُ خَصَائِصَهُ، وَهُوَ مَا جَعَلَ نَاقِدًا كَـ "فْرَايْ" يَجْتَهِدُ فِي نَفْيِ كُلِّ عَلاَقَةٍ لِلأَدَبِ بِمَا لَيْسَ أَدَبًا إِذْ إِنَّ " الأَعْمَالَ الأَدَبِيَّةَ مَصْنُوعَةٌ مِنْ أَعْمَالٍ أَدبِيَّةٍ أُخْرَى، وَلَيْسَتْ مَصْنُوعَةً مِنَ أَيِّ مَادَّةٍ خَارِجَةٍ عَنِ النَّسَقِ الأَدَبِيِّ ذَاتِهِ. إِنَّ مِيزَةَ نَظَرِيَّةِ فْرَايْ، إِذَنْ، هِيَ أَنَّهَا تَحْفَظُ الأَدَبَ دُونَ أَنْ يُلَوِّثَهُ التَّارِيخُ عَلَى طَرِيقَةِ النَّقْدِ الجَدِيدِ، وَتَعْتَبِرُهُ إِعَادَةَ تَدْوِيرٍ *recycling* إِيكُولُوجِيَّةً مُغْلَقَةً لِلنُّصُوصِ "[2]، تَنْطَلِقُ مِنَ الأَدَبِ وَإِلَيْهِ تَعُودُ، وَلَيْسَ يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ سَيَكُونُ طِبْقَ أَصْلٍ لِمَا تَمَّ إِنْتَاجُهُ.

وَفِي ذَاتِ المَنْحَى يَسِيرُ فْرَانْسْوَا رِيكَارْدْ *François Ricard* حِينَ يُقَرِّرُ اسْتِحَالَةَ تَقْيِيمِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ " مَعْزُولاً وَبِكُلِّ بَرَاءَةٍ، لِأَنَّنَا نَبْحَثُ فِيهِ عَنِ المَزِيدِ، وَرُبَّمَا أَكْثَرَ مِنَ مُجَرَّدِ الجِدَّةِ، التَّذْكِيرَ بِالأَعْمَالِ السَّابِقَةِ، أَيْ الإِثْبَاتَ، وَالنَّفْيَ، أَوْ تَعْمِيقَ المَعْرِفَةِ التِّي نَمْتَلِكُهَا عَنِ الكَاتِبِ. قِرَاءَتُنَا كِتَابَهُ الأَخِيرَ، هِيَ، عَلَى نَحْوٍ مَا، إِعَادَةُ قِرَاءَةٍ لِكُتُبِهُ السَّابِقَةَ، مَا دَامَتْ

[1]- *Les Cathègories du rècit littèaire, article, Tzvetan Todorov, Communication, N°:8, Année:1966, Seuil, P:126. «Mais c'est une illusion, de croire que l'œuvre a une existence indépendante. Elle apparaît dans un univers littéraire peuplé par les œuvres déjà existantes et c'est là qu'elle s'intègre. Chaque œuvre d'art entre dans des rapports complexes avec les œuvres du passé qui forment, suivant les époques, différentes hierarchies ».*

[2]– مقدّمة في نظريّة الأدب، تيري إيجلْتون، تر: أحمد حسَان، الهيئة العامّة لِقصور الثّقافة، مصر، د.ط، سبتمبر1991م، ص116.

غَايَتُنَا، زِيَادَةً عَلَى عَمَلٍ مُتَفَرِّدٍ لِلكَاتِبِ، مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى عَالمِهِ الكُلِّيِّ"[1]، الذِّي يُشَكِّلُ مُجْتَمِعًا رَصِيدَ الكِتَابَةِ وَمَخْزُونَهَا، وَحِينَ ذَاكَ فَقَطْ، يُمْنَحُ القَارِئُ أَدَوَاتٍ كَافِيَةً لِفَهْمِ وَتَأْوِيلِ كُلِّ عَمَلٍ.

فَالإِحَالَةُ عَلَى الإِبْدَاعِ السَّابِقِ أَوِ المُعَاصِرِ لأَدِيبٍ مَا تُسَاهِمُ فِي نَسْجِ شَبَكَةٍ قِرَائِيَّةٍ تَفْسَحُ أَمَامَ المُتَلَقِّي المَجَالَ لِتَقْدِيرٍ وَاسْتِيعَابٍ أَفْضَلَ بِـ" بِنَاءِ نَوْعٍ مِنَ الجُسُورِ بَيْنَ كُتُبِهِ جَمِيعِهَا(...) لَهَا كَمَفْعُولٍ، جَعْلُ إِنْتَاجِ الكَاتِبِ يَبْدُو كَكُلٍّ مُتَّحِدٍ، يَمْتَلِكُ فِي صُلْبِهِ خُصُوبَتَهُ الخَاصَّةَ، قُدْرَتَهُ الذَّاتِيَّةَ عَلى التَّجَدُّدِ، وَيَتَطَوَّرُ بِطَرِيقَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ، وَكَأَنَّهُ مُوَجَّهٌ بِرَسْمَةٍ أُعِدَّتْ فِي سِرِّيَّةٍ مُنْذُ البَدْءِ. هَذِهِ التَّرَاسُلاَتُ الدَّاخِلِيَّةُ تُعْطِي فِعْلِيًّا، لمَجْمُوعِ العَمَلِ مَظْهَرَ نِظَامٍ مُتَجَانِسٍ، وَالذِّي كُلُّ جُزْءٍ مِنْهُ مُرْتَبِطٌ بِقُوَّةٍ بِالأَعْمَالِ الأُخْرَى، وَحَاضِرٌ فِي كُلٍّ مِنْهَا دُونَ انْقِطَاعٍ "[2].

إِنَّ الكِتَابَةُ بِهَذَا المَفْهُومِ إِعَادَةُ كِتَابَةٍ دَوْمًا، اتِّكَاءُ، بِوَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ، عَلَى الآخَرِ، بَلْ أَبْعَدَ مِنْ هَذَا، إِنَّ " المُقَلِّدُ يَتَمَتَّعُ بِحُرِّيَّةٍ أَكبَرَ حِينَ يَعْرِفُ مِنْ لِسَانٍ غَيْرِ ذَاكَ الذِّي يَكْتُبُ بِهِ. إِنَّهُ تَأْدِيَةُ وَاجِبٍ لِلأُمَّةِ بَدَلاً عَنْ إِثْرَاءِ أَدَبِ الغَنَائِمِ الأَجْنَبِيَّةِ. وَلَكِنْ، لِتُمْتَدَحَ هَذه الاخْتِلاَسَاتِ، [...]، يَجِبُ أَنْ تَمْزِجَهَا بِقَدْرٍ مُتَكَافِئٍ مِنَ الدَّهَاءِ والسَّلاَسَةِ "[3] لِكَيْ تَتَجَنَّبَ جَفَافَ تَرْجَمَةٍ حَرْفِيَّةٍ بَارِدَةٍ تُشَوِّهُ النَّمُوذَجَ وَتُضَخِّمُ قَطِيعَ السُّرَّاقِ الخَانِعَ (*seroum*

---

[1]- *« Jacques Poulin:de la douceur à la mort » , François Ricard, Liberté, vol:16, Nº :54, 1974, Pp: 97-98 . « Impossible, face à cette œuvre, de la considérer isolément et en toute innocence, car nous y cherchons, autant sinon plus que de la nouveauté, le rappel des œuvres antérieures, c'est-à-dire la confirmation, la négation ou l'approfondissement de la connaissance que nous avions de l'écrivain. Lisant son dernier livre, c'est un peu comme si nous relisions aussi ses livres précédents, puisque notre attention, par-delà l'œuvre particulière, se porte vers l'univers global de l'écrivain ».*

[2]- *Ibid, Pp:98-99. «Or cette façon de se référer à ses propres créations et de construire ainsi des sortes de ponts entre tous ses livres (...) a pour effet de faire apparaître la production de l'écrivain comme un tout unifié, possédant en lui-même sa propre fécondité, son propre pouvoir de renouv-ellement, et se développant de manière ininterrompue, comme guidé par un dessein conçu secrètement dès l'origine. Ces correspondances internes donnent en effet à l'ensemble de l'œuvre l'aspect d'un système cohérent, dont chaque partie est fortement liée aux autres et sans cesse présente en chacune d'elles.» .*

[3]-*Guide des humanistes ou premiers principes du gout, Abbé Jean Charles François Tuet, Librerie N.S.P Le Pape, Lyon, France, 1845, Pp:173-174.«L'imitateur a bien plus de libèrté quand il puise dans un autre idiome que celui dans lequel il écrit. C'est rendre service a sa nation que d'en enrichir la littérature des dépouilles étrangères. Mais pour que ces larcins soient applaudis, il faut y mettre, [...], autant de finesse que d'aisance ».*

pecus)[1]. فَكَيْفَ، إِذَنْ، بِالإِمْكَانِ أَنْ نُوَفِّقَ بَيْنَ هَذَيْنِ المَنْظُورَيْنِ اللَّذَيْنِ يَبْدُوَانِ مُتَضَارِبَيْنِ حَدَّ التَّنَاقُضِ؟!

يَزْعُمُ كُلٌّ مِنْ أُنْدْرِي فُوسْيُون وَجُونْ-بُولْ لُورَانْ، *André Fossion et Jean-Paul Laurent* فِي كِتَابِهِمَا المُشْتَرَكِ (لِكَيْ نَفْهَمَ الكِتَابَاتِ المُعَاصِرَةَ، اللِّسَانِيَاتُ وَالتَّطْبِيقَاتُ النَّصِّيَّةُ) بِأَنَّهُ عَنْ طَرِيقِ عَمَلِيَّةِ الهَدْمِ وَالبِنَاءِ التِّي يُمَارِسُهَا الكَاتِبُ " تَظْهَرُ إِلَى حَدٍّ مَا الحُرِّيَّةُ وَلَيْسَ الإِجْبَارُ. وَإِنْ كَانَ، فِي الوَاقِعِ، لَيْسَ مَسْمُوحًا أَنْ نَكْتُبَ إِلاَّ انْطِلاَقًا مِنَ القِرَاءَاتِ السَّابِقَةِ، فَإِنَّهُ بِفَضْلِ تَوَفُّرِ إِمْكَانِيَّةِ فِعْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَيرِ إِعَادَةِ هَاتِهِ القِرَاءَاتِ، تُصْبِحُ الكِتَابَةُ حَقِيقَةً، ...إِنَّهَا إِمْكَانِيَّةُ وَضْعِ النُّصُوصِ المَقْرُوءَةِ فِي حَالَةِ عَمَلٍ، وَالبَحْثُ لَهَا عَنْ مَعْنىً (قَبْلِيٍّ) وَإِعْطَاؤُهَا عَمَلاً مِنْ جَدِيدٍ "[2]. أَنَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ النُّصُوصَ تَمُوتَ إِنْ هِيَ فَقَدَتِ القَارِئَ، وَبِالأَسَاسِ قَارِئًا فَطِنًا مُتَمَيِّزًا يُعِيدُ لَهَا حَيَوِيَّتَهَا وَبَرِيقَها حِينَ يُوَظِّفُهَا، أَوْ يُوَظِّفُ نُتَفًا مِنْهَا؟! ذَاكَ سُؤَالٌ يَسْتَدْعِي تَفْصِيلاً فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا المَبْحَثِ.

إِنَّ مَبْدَأَ جَمَالِيَّةَ الكَاتِبِ، كَمَا يَرَاهَا مِيشَال فُوكُو *Michel Foucault*، مُنْطَلَقُهَا انْصِهَارُ المُتَشَابِهِ وَالمُخْتَلِفِ، الدَّائِرِيَّةِ وَالخَطِّيَّةِ، لِتُحْدِثُ صَدَاهَا الحَقْلِيَّ المُتَناهِي الصِّغَرِ (*microcosmique*) مِنَ التَّغْيِيرِ الكَوْنِيِّ العَمِيقِ (*macrocosmique*) وَالذِّي مِنْ خِلاَلِهِ، وَبَدْءً مِن القَرْنِ 17م، أَخَذَ المُجْتَمَعُ وَالأَدَبُ فِي رَفْضِ المُحَاكَاةِ الصِّرْفَةُ وَالخَانِعَةُ، لِصَالِحِ عَلاَقَةٍ لاَ تَنْفِي، فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، كُلَّ مَبْدَإِ انْتِسَابٍ[3].

هَكَذَا، وَعَلَى عَكْسِ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ العَادَةُ مِنْ قُرُونٍ عِدَّةٍ، كَانَ الأَدَبُ يَقُومُ فِيهَا عَلَى التَّقْلِيدِ المُطْلَقِ لِمُنْجَزَاتِ السَّابِقِينَ، انْطَلَقَ الأُدَبَاءُ نَحْوَ آفَاقَ إِبْدَاعِيَّةٍ تَرُومُ الخَلاَصَ مِنْ

[1]-*Voir :op.cit, P :174. « [...]s'il a la sécheresse d'un traducteur froid et littéral, il défigure son modèle, il grossit le troupeau des plagiaires qu'un ancien appelle seroum pecus ».*

[2]- *Pour comprendre les lectures nouvelles: linguistique et pratique textuelle, André Fossion et Jean-Paul Laurent, Ed: A.de Boeck, Bruxelles, 1981, P:158.*

[3]-*Voir:Les Mots et les choses: une archéologie des sciences humaines, Michel Foucault, Gallimard, Paris, 1966, Pp:32 et suite.*

ضَوَابِطِ الكِتَابَةِ التِّي تَفْرِضُ نَوْعًا مِنَ الخُضُوعِ لِلآخَرِ شَكْلاً وَمَضْمُونًا لمُجَرَّدِ أَنَّهُ الأَوَّلُ، لَكِنَّ هَذَا لاَ يَجْعَلُنَا نَجْزِمُ بِانْتِفَاءِ كُلِّ عَلاَقَةٍ بَيْنَ السَّابِقِ وَاللاَّحِقِ، إِذْ هُمَا لاَ يَنْفَكَّانِ مُرْتَبِطَانِ بِطَرِيقَةٍ مَا، وَهُنَا مَكْمَنُ سُؤَالِ الأَدَبِيَّةِ الذِّي يَسْتَعْصِي عَلَى الإِجَابَةِ المُلْزِمَةِ.

فَكُلَّ كِتَابٍ، فِي مُطْلَقِ اعْتِقَادِ جُولْيَان غْرَاكْ *Julien Gracq*، إِنَّمَا " يَنْشَأُ عَنْ كُتُبٍ أُخْرَى، وَلَرُبَّمَا، لَمْ تَكُنِ العَبْقَرِيَّةُ غَيْرَ إِضَافةٍ لِبِكْتِيرْيَا خَاصَّةٍ، كِمْيَاءً فَرْدِيَّةً دَقِيقَةً، بِوَاسِطَتِهَا تَقُومُ رُوحٌ جَدِيدَةٌ بِامْتِصَاصِ، تَحْوِيلِ، وَبِالنِّهَايَةِ، إِعَادَةَ تَهْيِئَةٍ فِي شَكْلٍ مُبْتَكَرٍ لَيْسَ لِلعَالَمِ الخَامِّ، بَلْ لِلمَادَّةِ الأَدَبِيَّةِ الضَّخْمَةِ التِّي وُجِدَتْ قَبْلَهُ "[1]، فَالكِتَابَةُ الآنِيَّةُ لاَ تَمْحِي مَا قَبْلَهَا أَوْ تُلْغِيهِ، وَإِنَّمَا تُضِيفُ إِلَيْهِ مِنْ رُوحِ صَاحِبِهَا لِتَتْرُكَ أَثَرَهَا الذِّي يَجْعَلُهَا تَتَمَيَّزُ فِي خِضَمِّ المُتَشَابِهِ، وَلِتَكُونَ جُزْءً مِنْهُ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ.

وَقَدْ ذَهَبَ رُونِي دُو شَاطُوبْرَايَانْ *François René de Chateaubriand* إِلَى أَنَّ " الكَاتِبَ المُبْدِعَ لَيْسَ هُو الذِّي لاَ يُقَلِّدُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا هُو ذَاكَ الذِّي لاَ يَسْتَطِيعُ أَحدٌ تَقْلِيدَهُ "[2]، وَهَذَا أَمْرٌ عَسِيرُ الإِدْرَاكِ مِنْ أَوْجُهٍ عِدَّةٍ، لَعَلَّ أَوْضَحَهَا هُوَ كَيْفِيَّةُ تَحْقِيقِ الفَرَادَةِ وَأَنْتَ فِي الأَصْلِ، تَبْنِيهَا عَلَى مُحَاكَاةِ الآخَرِ؟! وَهُوَ مَا دَفَعَ لِوِيس أَرَاغُون *Louis Aragon* إِلَى أَنْ يُرَدِّدُ تَرْدِيدِ الوَاثِقِ:" لِأَنِّي أُقَلِّدُ. كَثِيرُونَ صَرَخُوا: يَا لَلْعارِ! عَدَمُ التَّقْلِيدِ ادِّعَاءٌ لاَ يَخْلُو مِنْ نِفَاقٍ، وَهُوَ يُدَارِي بِشَكْلٍ رَدِيءٍ العَامِلَ السَيِّءَ. كُلُّ النَّاسِ يُقَلِّدُونَ، وَكُلُّهُم لاَ يُصَرِّحُ بِذَلِكَ "[3]. وَهَذَا التَّصَوُّرُ يُنَاكِفُ كُلَّ مَا أَلِفْنَاهُ عَنْ مَعْنَى الأَدَبِيَّةِ، فَلِكَيْ تُبْدِعَ لاَ بُدَّ أَنْ تُحَاكِي، بَعْدَ ذَلِكَ فَقَطْ، بِمَقْدُورِكَ العَمَلُ عَلى تَجاوُزِ هَذَا الشَّكْل الفَجِّ مِن التَّقْلِيدِ!

[1]- *Pourquoi la littérature respire mal, Julien Gracq, Préférences, Ed:Corti, Pp:864-865. « Tout livre pousse sur d'autres livres, et peut-être que le génie n'est pas autre chose qu'un apport de bactéries particulières, une chimie individuelle délicate, au moyen de laquelle un esprit neuf absorbe, transforme, et finalement restitue sous une forme inédite non pas le monde brut, mais plutôt l'énorme matière littéraire qui préexiste à lui ».*

[2]- *Génie du christianisme, Furne, François-René vicomte de Chateaubriand, Juvet et C^ie Editeurs, Paris, 1826, P:162. «L'écrivain original n'est pas celui qui n'imite personne, mais celui que personne ne peut imiter ».*

[3]- *Les Yeux d'Elsa (Préface), Louis Aragon, Seghers, 1942, P:13. « Car, j'imite. Plusieurs personnes s'en sont scandaliées. La pretention de ne pas imiter ne va pas sans tartuferie, et camoufle mal le mauvais ouvrier. Tout le monde imite. Tout le monde ne le dit pas ».*

فَهَذَا جُورْج بْرَاكْ *Georges Braque* يَدْعُو إِلَى تَجَنُّبِ " مُحَاكَاةُ مَا نُرِيدُ ابْتِكَارَهُ "[1]. وَهُوَ مَا لاَ يَتَّفِقُ مَعَ آرَاءِ كُتَّابٍ كَثِيرِينَ غَيْرِهِ، لِذَلِكَ، نَعَمْ لإِعَادَةِ الكِتَابَةِ، يَقُولُ أَرَاغُون *Aragon*، أَمَّا " النَّقْلُ فَيُنْظَرُ إِلَيْهِ بِطَرِيقَةٍ سَلْبِيَّة، لاَحِظُوا، الجَمِيعُ يَنْقُلُ، غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ هُمْ أَذْكِيَاء، يُغَيِّرُونَ الأَسْمَاءَ مَثَلاً، أَوْ هُمْ بِالنِّهَايَةِ، يَجِدُونَ طَرِيقَةً مَا لِلاسْتِحْوَاذِ عَلَى مُؤَلَّفَاتٍ مُسْتَهْلَكَةٍ "[2] مَادَامَ أَنَّ " مُحَاكَاةً جَيِّدَةً هِيَ إِبْدَاعٌ جَدِيدٌ "[3] عَلَى حَدِّ قَوْلِ كْزَافْيِي دُومَاسْتْر *Xavier de Maistre* . أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّ " الابْتِكَارَ فِي جَوْهَرِهِ لَيْسَ سِوَى إِعَادَةَ تَذَكُّرٍ "[4]. بِهَذَا المَفْهُومِ، لاَ يَكُونَ الإِبْدَاعُ، غَيْرَ اسْتِدْعَاءٍ، عَنْ وَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ، لِمَا تَخَزَّنَ، ثُمَّ تَوَارَى فِي غَيَابَاتِ الذَّاكِرَةِ.

وَلَمَّا كَانَ التَّقْلِيدُ بِمِثْلِ هَذَا الحُضُورِ الذِّي يَجْعَلُ مِنْهُ حَتْمِيَّةً إِبْدَاعِيَّةً لاَ تَنْفَكُّ تتَأَكَّدُ عَبْرَ الزَّمَنِ، ومَعَ تَعدُّدِ المُبْدِعِينَ وَاخْتِلاَفِ مَشَارِبِهِم حَيْثُ " لاَ وُجُودَ لِتَعْبِيرٍ لاَ يَفْتَرِضُ تَعْبِيرًا آخَرَ، وَلاَ وُجُودَ لِمَا يتَوَلَّدُ مِن ذَاتِه، بَلْ مِن تَوَاجُدِ أَحْدَاثٍ مُتَسَلْسِلَةٍ وَمُتَتَابِعَةٍ، وَمِنْ تَوْزِيعٍ لِلوَظَائِفِ وَالأَدْوَارِ "[5]، فَإِنَّ المُبْدِعِينَ لاَ يَسْتَشْعِرُونَ حَرَجًا فِي التَّأْكِيدِ عَلَى اللُّجُوءِ إِلَيْهِ كَمَا هِي حَالُ لاَفُونْتِين *La Fontaine* الذِّي لاَ يَرَى فِي مُحَاكَاتِهِ شَكْلاً مِنَ العُبُودِيَّةِ وَالخُنُوعِ، فَيُصَرِّحُ قَائِلاً: " أَنَا لاَ آخُذُ غَيْرَ الفِكْرَةِ، وَالأَدْوَارَ وَالقَوَانِينَ التِّي كَانَ أَسَاتِذَتُنَا أَنْفُسُهُم يَتَّبِعُونَهَا فِي مَا مَضَى "[6]. إِنَّ التَّقْلِيدُ، عِنْدَ هَذَا الشَّاعِرِ عَلَى الأَقَلِّ، لَهُ مَا يُبَرِّرُهُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرٍ ذَاتِيَّةٍ، لَقَدْ كَانَ أَسَاتِذَتُهُ قَبْلَهُ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ!

---

[1]- *Le Jour et la nuit (1988), Georges Braque, : « Il ne faut pas imiter ce qu'on veut créer ». http://la-plume-dilettante.over-blog.com/article-le-jour-et-la-nuit-de-georges-braque-46012910.html*

[2]- *" La seconde main", Louis Aragon, cité par Compagnon Antoine (dans), P:34.« Récrire, oui. Mais copier, dit Aragon, alors c'est mal vu, remarquez tout le monde copie, seulement il y a ceux qui sont malins, ils changent les noms par exemple, ou enfin ils s'arrangent pour prendre des bouquins épuisés».*

[3]-*« Une bonne imitation est une nouvelle invention », Xavier de Maistre : https://fr.wikipedia.org/ wiki/Xavier de_Maistre#Citations.*

[4]- *Œuvres complètes, T:5, Gérard de Nerval," les Filles du Feu", dédicace à Alexandre Dumas, Ed:A. Béguin et J. Richer, Paris, Bibl. de la Pléiade, 2'éd, 1956, Pp:174-175. « Inventer, au fond, c'est se ressouvenir ».*

[5]- يُنْظر: معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، سعيد علّوش، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لُبنان/سُوشْبِريس، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1405هـ/1985م، ص215.

[6]- *Oeuvres complètes, Jean de La Fontaine, Epître à Huet, Firmin Didot frères, Libraires-Editeurs, Imptimerie de l'Institut de France, Paris, P:553. « Mon imitation n'est point un esclavage : Je ne prends que l'idée, et les tours et les lois, Que nos maîtres suivaient eux-mêmes autrefois ».*

لَيْسَ هَذَا وَحَسْب، بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ المُبْدِعِينَ يَجِدُونَ فِي المُحَاكَاةِ مَظْهَرًا إِبْدَاعِيًّا مُتَكَامِلَ الأَرْكَانِ يَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ السَّرِقَةِ (المُلْهِمَةِ)، فَهَذَا مِيشَال تُورْنْيِيMichel Tournier يَعْتَرِفُ، غَيْرَ مُتَحَرِّجٍ، أَنْ لَيْسَ لَهُ خَيَالٌ وَأَنَّ الجُزْءَ الخَالِصَ الابْتِكَارِ فِي رِوَايَاتِهِ يَسِيرٌ جِدًّا " لَقَدْ اخْتَلَسْتُ [...] اسْتَلْهَمْتُ [...] بَلْ ذَهَبْتُ إِلَى التَّوْلِيفِ. أَنَا طَائِرُ عَقْعَقٍ مُتَلَصِّصٌ، أَجْمَعُ يَمِينًا وَشِمَالاً، كُلَّ مَا يَرُوقُ لِي[...] لأُرَاكِمَهُ فِي عُشِّي "[1]، عَلَيْكَ فَقَطْ، أَنْ تُنْجِزَ المَهَمَّةَ بِحُبٍّ وَاقْتِدَارٍ، مُسْتَمْتِعًا بِلُصُوصِيَّتِكَ وَمُغْرَمًا بِمَا غَنِمْتَهُ مِنْهَا[2]، كَيْفَ لاَ يَكُونُ هَذَا، وَ"العَمَلُ الأَدَبِيُّ الأَصِيلُ لَيْسَ إِلاَّ سَرِقَةً لَمْ تُكْشَفْ بَعْدُ "[3] كَمَا يَزْعُمُ وِيلْيَام آنْجْWilliam Inge.

يُنْبِئُنَا بَارْتْ بِأَنَّ النَّصَّ المُتَمَلِّصَ، النَّصَّ المُسْتَحِيلَ يَبْدَأُ مَعَ كَاتِبِ المُتْعَةِ (وَقَارِئِهِ) إِذْ " لاَ يُمْكِنُكَ الحَدِيثُ (عَنْ) نَصٍّ كَهَذا، يُمْكِنُكَ فَقَط الحَدِيثُ (فِيهِ)، عَلَى طَرِيقَتِهِ، الدُّخُولُ فِي سَرِقَةٍ مُسْتَهَامَةٍ "[4]، لَيْسَ لَكَ عَنْهَا مَحِيدٌ وَلاَ مَهْرَبٌ، فَالسَّرِقَةُ مَعَ مِثْلِ هَذِهِ النُّصُوصِ تَسْتَحِيلُ قَانُونًا تَفْرِضُهُ طَبِيعَةُ النَّصِّ وَخُصُوصِيَّتُهُ، لِذَا صَارَتْ عِنْدَ بَعْضِهِم – وَهُمْ كُثُرٌ– أَسَاسَ كُلِّ إِبْدَاعٍ، وَ" قَاعِدَةَ كُلِّ الآدَابِ، بِاسْتِثْنَاءِ آدَابِ البِدَايَاتِ، وَالتِّي هِي بِالمُنَاسَبَةِ، مَجْهُولَةٌ "[5] لاَ يُمْكِنُ رَدُّهَا إِلَى قَائِلِهَا الأَوَّلِ، خُصُوصًا وَقَدْ تَمَرَّسْنَا عَلَيْهَا وَأَلِفْنَاهَا، وَانْدَمَجَتْ فِي يَوْمِيَّاتِنَا حَتَّى عَادَتْ تَجْرِبَةُ الكِتَابَةِ كَمَا يُصَوِّرُهَا جَانْ كُوكْطُو Jean Cocteau" مِثْلَ أَدَاةٍ لِجَعْلِ الآثَارِ الفَذَّةِ تَحْيَا. لِطُولِ سَكَنِنَا بِهَا فَإِنَّنَا نَرْقُبُهَا خِلْسَةً، وَإِذْ أَقْرَأُ نَصًّا بِشَكْلٍ سَرِيعٍ وَسَطْحِيٍّ، يَعْتَقِدُ كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّهُ يَسْمَعُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ "[6]، وَإِذْ ذَاكَ لاَ

[1]-*Voir: "Comment travaillent les écrivains", Jean-Luis de Rambures, Flammarion, Paris, 1978, P:163. «La part proprement inventée est minime dans mes romans. J'ai pillé [...] (je me suis) inspiré [...] j'ai été jusqu'à pasticher [...] comme une pie voleuse [...] pour l'entasser dans mon nid ».*

[2]-*Préface de la pièce Œdipe ou le roi boiteux , Jean Anouilh, 2'Ed, la Table ronde, 1996, " Et je me suis glissé dans la tragédie de Sophocle comme un voleur mais un voleur scrupuleux et amoureux de son butin ».*

[3]-*Voir :Ivon Laurier Ngonbé, Rumbissimo, https://books.google.dz/books?isbn=2322025704, P:100. William Inge : « Qu'est-ce qu'une œuvre originale ? Un plagiat pas encore détecté ».*

[4]- *Le Plaisir du texte, Roland Barthes, Éd:Seuil, Nov2002, Pp:37,38. « Vous ne pouvez parler « sur » un tel texte, vous pouvez seulement parler «en» lui, à sa manière, entrer dans un plagiat éperdu, affirmer hystériquement le vide de jouissance (et non plus répéter obsessionnellement la lettre du plaisir) ».*

[5]- *Siegfried et le Limousin, Jean Giraudoux, acte:I, scène:6, J.Ferrenczi et Fils Editeurs, Paris, (1922), P:43. « Le plagiat est la base de toutes les littératures, excepté de la première, qui d'ailleurs est inconnue ».*

[6]- *Antigone, Jean Cocteau, Gallimard, Paris, P:9.« Peut-etre mon experience est-telle un moyen de faire vivre*

تَنْفَصِلُ التَّجْرِبَةُ الشَّخْصِيَّةُ إِلاَّ بِمِقْدَارِ مَا يَسْمَحُ لَهَا بِالتَّمَيُّزِ وَالخُصُوصِيَّةِ فِي إِطَارِ (الجَمْعِيِّ) الذِّي انْطَلَقَتْ مِنْهُ.

فَـ" الخِطَابُ يُلاَقِي خِطَابَ الآخَرِ فِي جَمِيعِ الطُّرُقُ التِّي تُؤَدِّي نَحْوَ مَوْضُوعِهِ، وَلاَ يُمكِنُهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ الدُّخولَ مَعَهُ فِي تَفَاعُلٍ حَيَوِيٍّ وَمُكَثَّفٍ. فَقَطْ، آدَمُ الأُسطُورِيُّ [الإِنْسَانُ الأَوَّلُ]، وَهُوَ يَتَناوَلُ بِخِطَابِه الأَوَّلِ عَالمًا بِكْرًا وَلَمْ يُقَلْ بَعْدُ، آدَمُ الوَحِيدُ ذَاكَ، كَانَ بِإِمكَانِهِ حَقًّا تَجَنُّبَ إِعَادَةَ التَّوْجِيهِ المُتَبَادَلةِ، بِشَكْلٍ أَكِيدٍ، بِالنَّظَرِ إِلَى عَلاَقَتِهِ بِخِطَابِ الآخَرِ "[1]. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ تَلَى "آدَمَ" لاَ يُمْكِنُهُ إِلاَّ أَنْ يَسْتَعِيرَ مِنْ كَلاَمِهِ وَيَبْنِيَ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَهُنَا كَانَ مَبْدَأُ التَّدَاخُلِ الذِّي اسْتَمَرَّ إِلَى يَوْمِنَا، مَعَ تَعَدُّدِ أَوْجُهِهِ وَطَرَائِقِهِ.

إِذَنْ " لَنْ تَتَوَاجَدَ كِتَابَةٌ شَخْصِيَّةٌ مَا لَمَ تَكُنْ هُنَاكَ (سَرِقَةٌ) لِلْقِرَاءَةِ [...] وَكُلُّ نَصٍّ، مَعَ ذَلِكَ، يَحْتَفِظُ قَلِيلاً أَوْ كَثِيرًا بِأَثَرِ مُلْحَقَاتِهِ النَّصِّيَّةِ (*Annexions textuelle*) التيِّ أَجَازَتْهُ "[2]. وَسَيَكُونُ مِنَ الخَطَإِ الاعْتِقَادُ أَنَّنَا هُنَا بِصَدَدِ إِعَادَةِ إِنْتَاجِ النَّصِّ المُسْتَهْدَفِ، أَوْ أَنَّنَا أَمَامَ عَمَلِيَّةُ جَمْعٍ بَسِيطَةٍ لِلنُّصُوصِ[3]، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ السَّرِقَةَ تُشَكِّلُ، بِطَرِيقَةٍ جَلِيَّةٍ أَوْ خَفِيَّةٍ –وَلَكِنْ لاَ مَحِيدَ عَنْهَا– النَّصَّ الجَدِيدَ، وَتُعِيرُهُ مِنْ سِمَاتِهَا، فَيَهْضِمُهَا وَيَتَمَلَّكُ خُصُوصِيَّاتِهَا، حَتَّى تَصِيرَ لَهُ، بِهِ تُعْرَفُ وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ.

إِنَّهُ إِبْدَاعٌ وَاحِدٌ، أَوْ لِنَقُلْ، هُوَ يَمْتَحُ مِنْ مَعِينٍ وَاحِدٍ، يَنْطَلِقُ مِنْهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يَعُودُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَكَأَنَّنا نَسْمَعُ الأُغْنِيَّةَ ذَاتَهَا بِأَصْوَاتَ مُتَعَدِّدَةٍ. يَقُولُ مَارسِيل بْرُوسْت ***Marcel***

---

les vieux chefs-d'oeuvre. A force d'y habiter nous les contemplons distraitement, mais parce que je survole un texte célèbre, chacun croit l'entendre pour la première fois ».

[1]*- Mikhaïl Bakhtine, Le principe dialogique, Tzvetan Todorov, Seuil, Paris, 1983, P:98. « Le discours rencontre le discours d'autrui sur tous les chemins qui mènent vers son objet, et il ne peut ne pas entrer avec lui en interaction vive et intense. Seul l'Adam mythique, abordant avec le premier discours un monde vierge et encore non dit, le solitaire Adam, pouvait vraiment éviter absolument cette réorientation mutuelle par rapport au discours d'autrui ».* يُنظر أَيْضًا: ترجمة النّصّ في: المبدأ الحِواريّ، تودوروف، تر:فخري صالح، ص125.

[2]*- Pour comprendre les lectures nouvelles, A.Fossion et J.P.Laurent, Ed: A. de Boeck, Bruxelles, 1981, P:157.*

[3]*- «L'intertextualité critique», Perrone-Moisés Leyla, Poétique, N: 27, Sep1976, P: 373. Mais il serait faux de croire qu'il ne s'agit là que d'une simple reproduction du texte cible ou, comme le mentionne Perrone-Moisés, que d'une «simple addition de textes».*

Proust: " مَا إِنْ أَقْرَأُ كَاتِبًا، أَتَبَيَّنُ سَرِيعًا، بَيْنَ ثَنَايَا الكَلِمَاتِ، أَجْوَاءَ الأُغْنِيَةِ التِّي هِيَ مُخْتَلِفَةٌ عِنْدَ كُلِّ كَاتِبٍ عَنِ تِلْكَ التِّي عِنْدَ غَيْرِهِ "[1]، فَهِيَ أُغْنِيَةٌ وَاحِدَةٌ، أَوْ لَعَلَّهَا، إِيقَاعٌ، نُوتَاتٌ مُوسِيقِيَّةٌ عَلَى قِلَّتِهَا تَحْمِلُ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمَعَ كُلِّ لَحْنٍ جَدِيدٍ، رُوحًا يُعِيدُ ابْتِكَارَهَا، ويُلْبِسُهَا دَوَامَ الحُضُورِ وَأَبَدِيَّةَ الإِبْهَارِ.

فَالنُّصُوصُ، كَمَا يَقُولُ شُولْتِزْ " تَنْبَثِقُ مِن نُصُوصٍ أُخَرَ مُتدَاخِلَةٍ (*intertexts*)، أَوْ مِنْ قَوَالِبَ (*matrices*) يُقدِّمُهَا المَوْرُوثُ المُتَوَاتِرُ "[2] وَعَلَى أَسَاسِهَا يُقَيَّمُ كُلَّ إِبْدَاعٍ جَدِيدٍ. إِنَّ تِلْكَ النُّصُوصَ لاَ تَنْبَثِقُ مِنْ نُصُوصٍ سَابِقَةٍ فَحَسْب، بَلْ إِنَّ هَذَا الانْبِثَاقَ هُوَ الصُّورَةُ الوَحِيدَةُ لأَصْلِ الشِّعْرِ فِي نَظَرِ رِيفَاتِيرْ[3]، الذِّي يُؤَكِّدُ بِأَنَّ " مَعْرِفَةُ المُتَنَاصِّ السَّابِق مُرتَبِطَةٌ بِتَارِيخِ التَّأْثِيرَاتِ، بِشَجَرَةِ النَّسَبِ الأَدَبِيِّ، وَبِالبَحْثِ التَّقْلِيدِيِّ عَنِ اليَنَابِيعِ، وَهِيَ تَقَالِيدُ قَلِيلاً مَا تُؤْخَذُ بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ. مَعْرِفَةُ المُتَنَاصِّ اللاَّحِقِ مُرْتَبِطَةٌ بِتَارِيخِ دَيْمُومَةِ عَمَلٍ [أَدَبِيٍّ]مَا "[4]، وَالسَّرِقَةُ، وَالمُحَاكَاةُ وَالاسْتِعَارَةُ مِنَ أَكْثَرِ الأَدَوَاتِ المُوَظَّفَةِ لِتَحْقِيقَ هَذِهِ الاسْتِمْرَارِيَّةَ، وَإِعْطَاءِ النُّصُوصِ فُرْصَتَهَا لِلبَقَاءِ (قَيْدَ) الفَاعِلِيَّةِ وَالحُضُورِ.

لِذَا رَأَى فَانْسُونْ لِيتْشْ ***Leitch Vincent*** بِأَنَّ " النَّصَّ لَيْسَ ذَاتًا مُسْتَقِلَّةً، أَوْ مَادَّةً مُوَحَّدَةً، وَلَكِنَّهُ سِلْسِلَةٌ مِنَ العَلاَقَاتِ مَعَ نُصُوصٍ أُخْرَى. وَنِظَامُهُ اللُّغوِيُّ، مَعَ قَوَاعِدِهِ وَمَعْجَمِهِ، جَمِيعُهَا تُسْحَبُ إِلَيْهَا كَمَا مِنَ الآثَارِ وَالمُقْتَطَفَاتُ مِنَ التَّارِيخِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ النَّصَّ يُشْبِهُ فِي مُعْطَاهُ جَيْشَ خَلاصٍ ثَقَافِيٍّ بِمَجْمُوعَاتٍ لاَ تُحْصَى مِنَ الأَفْكَار وَالمُعْتَقَدَاتِ وَالإِرْجَاعَاتِ التِّي لاَ تَتَآلَفُ. إِنَّ شَجَرَةَ نَسَبِ النَّصِّ شَبَكَةٌ غَيْرُ تَامَّةٍ مِنَ المُقْتَطَفَاتِ

---

[1]-*Contre Sainte-Beuve, Marcel Proust, Gallimard, « Pléiade », Paris, 1971, P:303.« Dès que je lisais un auteur, je distinguais bien vite sous les paroles l'air de la chanson qui en chaque auteur est différent de ce qu'il est chez tous les autres ».*

[2]-السّيمياء والتّأويل، روبرت شولتز، تر: سعيد الغانميّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص79.

[3]- يُنظر:نفسه، ص89.

[4]- *L'intertexte Inconnu (Liminaire), Michael Riffaterre, Revue:Littérature, N°:41, 1981, Ed:Larousse, P:5. « La connaissance de l'intertexte antérieur relèverait de l'histoire des influences, des filiations littéraires, de la recherche traditionnelle des sources, tradition à l'heure actuelle assez déconsidérée. La connaissance de l'intertexte postérieur relèverait de l'histoire de la survie d'une œuvre».*

المُسْتَعَارَةِ شُعُورِيًّا أَوْ لاَ شُعُورِيًّا. وَالمَوْرُوثُ يَبْرُزُ فِي حَالَةِ تَهَيُّجٍ. وَكُلُّ نَصٍّ حَتْمًا: نَصٌّ مُتَدَاخِلٌ "[1]. هَذِهِ الحَتْمِيَّةُ هِيَ التِّي دَفَعَتْ إِلَى إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي مَفهُومِ السَّرِقَةِ مَادَامَ النَّصُّ، بِالضَّرُورَةِ، مُرْتَبِطًا بِغَيْرِهِ إِلَى دَرَجَةٍ تَتَطَلَّبُ مِنَّا صِيَاغَةً جَديدَةً، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ، قِرَاءَةً تُرَاجِعُ حُدُودَ مُصْطَلَحَاتٍ تَرَسَّخَتْ فِي أَذْهَانِنَا بِشَكْلٍ لَمْ يَعُدْ يَسْتَوْعِبُ المَفَاهِيمَ المُسْتَجِدَّةَ.

لَقَدْ انْتَهَى جِيفْرِي هَارتْمَانْ *Geoffrey Hartman*، وَهُوَ يُنَاقِشُ بَحْثًا لِدِرِيدَا بِعُنْوَان (*Glas*)، إِلَى أَنَّ غْلاَسْ هَذَا " هُوَ (يَوْمِيَاتُ اللِّصِّ) التِّي كَتَبَهَا دِرِيدَا نَفْسُهُ، فَهُوَ كِتَابٌ عَنْ لاَهُوتِ السَّرِقَةِ الوُجُودِيِّ لِلكِتَابَةِ. فَالكِتَابَةُ دَائِمًا سَرِقَةٌ لِلُّوجُوسْ أَوْ تَلْفِيقُهُ. وَتُعِيدُ السَّرِقَةُ تَوْزِيعَ اللُّوجُوسِ بِوَاسِطَةِ مَبْدَإٍ جَدِيدٍ مِنَ العَدْلِ...كَمَا تَتَوَزَّعُ البُذُورُ المُتَطَايِرَةُ لِلأَزْهَارِ. وَالمِلْكِيَّةُ، حَتَّى فِي شَكْلِ اسْمِ العَلَمِ، لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً. وَالكِتَابَةُ هِيَ فِعْلُ اجْتِيَازِ حُدُودِ النَّصِّ، أَوْ جَعْلُهُ غَيْرَ مُتَعَيِّنٍ أَوْ إِلْقَاءُ الظِّلاَلِ عَلَى مَا هُوَ وَاضِحٌ كَالظَّهِيرَةِ "[2]. تَتَخَطَّى الكِتَابَةُ إِذَنْ الحُدُودُ، وَتَعْبُرُ إِلَى مَنْطِقَةِ الآخَرِ وَحُدُودِهِ، إِنَّهَا لاَ تَكْتَفِي بِذَلِكَ إِذْ تَجْرُأُ عَلَى تَمَلُّكِ نِتَاجٍ مِنْ طَرِيقِ السَّرِقَةِ التِّي تَجْعَلُ المَعْرِفَةَ مَشَاعًا، وَالكِتَابَةَ حَقًّا مُشْتَرَكًا يَتَوَزَّعُ المَكْتُوبُ فِيهَا بَيْنَ النَّاسِ بِطَرِيقَةٍ تَمَّحِي مَعَهَا حُقُوقُ المِلْكِيَّةِ وَالنَّسَبِ.

لَقَدْ أَكَّد مَارْكْ أَنْجِينُو *Marc Angenot* فِي هَذَا المَنْحَى أَنَّ " كُلَّ نَصٍّ يَتَعَايَشُ بِطَرِيقَةٍ، مِنَ الطُّرُقِ مَعَ نُصُوصٍ أُخْرَى، وَبِذَا يُصْبِحُ نَصًّا فِي نَصٍّ تَنَاصًّا، وَبِذَا تَنْتَمِي أَيْضًا الكَلِمَةُ إِلَى الجَمِيعِ لِكَوْنِهَا تُؤَشِّرُ عَلَى فِكْرَةٍ مَبْذُولَةٍ، فِي كُلِّ دِرَاسَةٍ ثَقَافِيَّةٍ "[3]. فَلِلْكَلِمَةِ خُصُوصِيَّةُ (الشُّيُوعِ) التِّي تَجْعَلُ مِنْهَا شِفْرَةً مُتَدَاوَلَةً مُنْبَثَّةً فِي الفِكْرِ الجَمْعِيِّ إِلَى الحَدِّ الذِّي

[1]- البنيويّة التّفكيكيّة، لِيتش، يُنظر: الخطيئة والتّكفير، الغذامي، م.س، ص321.

[2]- غْلاسْ(*Glas*)، جِيفْرِي هَارْتمان، يُنْظر:النّظريّة الأدبيّة المعَاصِرةُ، رَامَان سَالْدَن، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د.ط، 1998م، ص149.

[3]- في أصول الخطاب النّقديّ الجديد، تودوروف- بارتن – اكسو – إنجينو: تر: أحمد المديني، منشورات دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1987م، ص102.

تَصِيرُ مَعَهُ مِلْكًا لِكُلِّ الجَماعَةِ النَّاطِقَةِ، وَجُزْءً مِنْ كَيَانِهَا، فَـ" تُشكِّلُ إِحَالاَتِ النَّصِّ لأَشْيَاءَ (مَعرُوفَةٍ) سَلَفًا وَقَدْ شَفَّرَتْهَا الثَّقَافَةُ "[1] عَبْرَ مَسَارَاتِهَا المُتَشَعِّبَةِ وَأَزْمِنَتِهَا المُتَوالِيَةِ.

حِينَهَا لاَ يُلاَمُ الكَاتِبُ لَمَّا تَتَسَلَّلُ مِثْلُ هَاتِهِ الشِّفْرَاتُ وَالقَوَالِبُ الجَاهِزَةُ، مِنْ لاَوَعْيِهِ المُتَشَكِّلِ عَبْرَ تَجْرِبَتِهِ القِرَائِيَّةِ المُمْتَدَّةِ فِي المَاضِي وَالحَاضِرِ، ورُبَّمَا عَنْ وَعْيٍ وَاخْتِيَارٍ، نَحْوَ نَصِّهِ الذِّي يَتَحَوَّلُ إِلَىَ " نَسِيجِ آثَارٍ صَافِيةٍ مِنَ الاخْتِلاَفَاتِ يَأْتَلِفُ فِيهَا المَعْنَىَ إِلَى القُوَّةِ، نَصٌّ غَيْرِ ذِي ظَرْفٍ وَإِنَّمَا هُوَ جِمَاعُ أَرْشِيفٍ دَائِمِ النَّقَلَةِ "[2]، مُدَوَّنَةٍ تُرَاكِمُهَا ثَقَافَةُ الأُمَّةِ وَتُشَكِّلُهَا مَادَّةً خَامًّا يُمْكِنُ اسْتِعَارَتُهَا وَاسْتِخْدَامُهَا فِي كُلِّ حِينٍ، وَمِنْ أَيٍّ كَانَ. وَهُنَا يَتَحَوَّلُ الثِّقَلُ الأَكْبَرُ إِلَى كَاهِلِ القَارِئِ الذِّي يُحَمَّلُ عِبْءَ اكْتِشَافِ تِلْكَ النَّصُوصِ المُقْتَبَسَةُ بِلاَ إِحَالَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ شِفْرَاتٌ عَلَيْهِ فَكُّ طَلاَسِمِهَا، فَـ" تَكُونُ مُهِمَّةُ القِرَاءَةِ بِصِفَتِهَا تَفْسِيرًا مُتَمَثِّلَةً بِإِحْدَاثِ الإِحَالَةِ بِالضَّبْطِ "[3] كَمَا يُؤَكِّدُ دِرِيدَا.

مِنَ المُنطَلَقِ ذَاتِهِ، يَرَى أُمْبِرْطُو إِيكُو *Eco Umberto* فِي (الاشْتِرَاكِ التَّأْوِيلِيِّ فِي النُّصُوصِ السَّرْدِيَّةِ) أَنَّهُ مِنَ المُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ كُلِّ قَارِئٍ عَلَى مَعْرِفَةٍ بِالنُّصُوصِ الأُخْرَى المَوْجُودَةِ وَالتِّي تُغَذِّي النُّصُوصَ الجَدِيدَةَ، مُؤَكِّدًا بِهَذَا، أَنَّهُ لاَ نَصَّ تَتِمُّ قِرَاءَتُهُ بِمَعْزِلٍ عَنْ التَّجْرِبَةِ التِّي لِلقَارِئِ مَعَ نُصُوصٍ أُخْرَى. وَهَذِهِ هِي الفِكْرَةُ التِّي تَتَبَنَّاهَا كَارِين مَارْتَالْ، وَتُضِيفُ بِأَنَّ القَارِئَ دَائِمًا مَا يُبَاشِرُ قِرَاءَةَ نَصٍّ مِنْ خِلاَلِ التَّجْرِبَةِ القِرَائِيَّةِ التِّي رَاكَمَها[4] لِتَكُونَ وَاحِدَةً مِنْ أَدَواتِ تَفْسِير الخِطَابِ وَالإِلْمَامِ بِجُزَيْئَاتِهِ المُتَعَدِّدَةِ المَشَارِبِ وَاليَنَابِيعِ.

مِنْ هُنَا تَبَدَّتْ لِرِيفَاتِير *Michaël Riffatèrre* ضَرُورَةُ تَفْعِيلِ دَوْرِ القَارِئِ فِي تَشْكِيلِ

---

[1]- السّيمياء والتّأويل، روبرت شولتز، ص169.

[2]- يُنظر: التّكرارِ، مَارِي لُور بَارِدِيش، تـر: أحمد حيزم، م.س، ص41.

[3]- يُنظر: ماهية التّناص: قراءة في إشكاليّته النّقديّة، عبد السّتّار جبر الأسديّ، فكر ونقد،العدد:28، 15أفريل2000، *http://*= *www.aljabriabed.net*=.

[4]-*Voir:«Les notions d'intertextualité et d'intratextualité dans les théories de la réception», Kareen Martel, Protée, Vol:33, N°:1, printemps 2005, Pp: 93-102. http://id.erudit.org/iderudit/ 012270ar .*

جَمَالِيَاتِ الأَدَبِ، وَالتِّي تَنْهَضُ عِنْدَهُ عَلَى " إِدْرَاكِ القَارِئِ لِلعَلاَقَاتِ بَيْنَ عَمَلٍ [أَدَبِيٍّ] مَا وَغَيْرِهِ مِنَ الأَعْمَالِ، التِّي سَبَقَتْهُ أَوْ تَلَتْهُ. فَالنُّصُوصُ الأُخْرَى تِلْكَ، تُشَكِّلُ تَنَاصَّ النُّصُوصِ الأُولَى "[1]، وَاسْتِيعَابُ القَارِئِ لَهَا يُعْطِيهِ القُدْرَةَ عَلَى الرَّبْطِ بَيْنَهَا ومِنْ ثَمَّ تَسْهِيلِ عَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِ، وَ" التَّناصُّ، إِنْ فُهِمَ بِهَذَا الشَّكْلِ، سَيَتَنَوَّعُ بِحَسَبِ القَارِئِ: المَقَاطِعُ التِّي يُجَمِّعُهَا فِي ذَاكِرَتِهِ، المُقَارَبَات التِّي يَقُومُ بِهَا، سَتُمْلَى عَلَيْهِ بِصُدْفَةِ ثَقَافَةٍ مُتَبَايِنَةِ العُمْقِ أَكْثَرَ مِنْهَا بِحَرْفِيَّةِ النَّصِّ "[2]، فَيَكُونُ اشْتِغَالُ الذَّاكِرَةِ المُحَفِّزَ الذِّي يَسْبِقُ الأُسْلُوبَ وَاللُّغَةَ قَبْلَ أَنْ تَتَبَلْوَرَ مَكْتُوبَةً.

وَقَدْ ذَهَبَتْ صُوفِي رَابُو *Sophie Rabau* إِلَى أَنَّ " التَّنَاصُّ تَأْثِيرٌ مَقْصُودٌ مِنَ الكَاتِبِ وَهُوَ يَسْتَدْعِي اسْتِكْشَافًا وَإِدْرَاكًا مِن طَرَفِ القَارِئِ "[3]، وَهَذَا تَأْكِيدٌ لمَا سَبَقَ إِلَيْهِ رِيفَاتِيرْ مِنْ كَوْنِ التَّنَاصِّيَّةِ هِيَ " إِدْرَاكُ القَارِئِ لِلعَلاقَاتِ بَيْنَ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الأَعْمَالِ [...]"[4]، أَيْ أَنَّهُ عَمَلِيَّةٌ واعِيَةٌ يَسْتَدْرِجُ بِهَا المبْدِعُ قَارِئَهُ إِلَى مَتَاهَاتِ النَّصِّ، بَلْ إِنَّ " التَّنَاصَّ لِكَيْ يَكُونَ، يَجِبُ أَنْ يُعْتَرَفَ بِهِ كَمَا هُو مِنْ طَرَفِ القَارِئِ "[5] بِحَسَبِ اعْتِقَادِ رِيفَاتِير دَائِمًا، وَالذِّي يُشِيرُ إِلَى " أَنَّ التَّنَاصَّ يَتْرُكُ فِي النَّصِّ أَثَرًا يَسْتَعْصِي عَلَى المَحْوِ، ثَابِتَةً شَكْلِيَّةً تَلْعَبُ دَوْرَ اقْتِضَاءِ قِرَاءَةٍ، وتَحْكُمُ فَكِّ شِفْرَةِ الرِّسَالَةِ فِيمَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَدَبِيَّةٍ "[6]، تَصِيرُ القِرَاءَةُ مَعَهَا مَشْدُودَةً بِأَوَاصِرَ ظَاهِرَةٍ أَوْ خَفِيَّةٍ تُوَجِّهُهَا وتُؤَثِّرُ فِي عُمُومِ دَلاَلَةِ النَّصِّ بِنِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ اعْتِبَارًا لِلزَّمَنِ ولِلقَارِئِ.

---

[1]- *«La trace de l'intertexte», Michaël Riffaterre, Article, La Pensée, N°:215, oct 1980, Paris, France, P:4. «L'intertextualité est la perception , par le lecteur, de rapports entre une œuvre et d'autres, qui l'ont précédée ou suivie. Ces autres œuvres constituent l'intertexte de la première ».*

[2]- *Ibid, P: 5. «Ainsi compris, l'intertexte varie selon le lecteur : les passages que celui-ci réunit dans sa mémoire, les rapprochements qu'il fait, lui sont dictés par l'accident d'une culture plus ou moins profonde plutôt que par la lettre du texte» .*

[3]- *L'intertextualité, Sophie Rabau, Coll:« Corpus », Flammarion, Paris, 2002, P: 34. «elle [L'intertextualité] est un effet voulu par l'auteur et appelle une reconnaissance et une compréhension par le lecteur.»*

[4]- *La trace de l'intèrtexte , Michaël Riffaterre, op. cit, P: 4. « L'intertextualité est la perception, par le lecteur, de rapports entre une œuvre et d'autres [...] ».*

[5]-*Voir: L'Intertextualité, Sophie Rabau,op .cit , P:161. Riffaterre a été le premier à théoriser l'idée selon laquelle « pour exister l'intertextualité a besoin d'être reconnue comme telle par un lecteur ».*

[6]- *La trace de l'intertexte , Article, Michaël Riffaterre, op.cit, P:5. « parce que l'intertexte laisse dans le texte une trace indélébile, une constante formelle qui joue le rôle d'un impératif de lecture, et gouverne le déchiffrement du message dans ce qu'il a de littéraire».*

وَيَزِيدُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الإِدْرَاكِ لِطَبِيعَةِ التَّناصِّ وَمَاهِيَّتِهِ الإِشْكَالَ تَعْقِيدًا وَتَشَعُّبًا، إِذْ يُلاَمِسُ بِهِ حِينًا حُدُودَ السَّرِقَةِ، وَيَنْقُلُهُ حِينًا آخَرَ إِلَى مَشَارِفِ الإِبْدَاعِ وَالتَّجْدِيدِ. فَـ " التَّنَاصُّ هُوَ مَجْمُوعُ النُّصُوصِ التِّي يُمْكِنُ تَقْرِيبُهَا إِلَى ذَاكَ الذِّي بَيْنَ أَيْدِينَا، مَجْمُوعُ النُّصُوصِ التِّي نَجِدُهَا فِي ذَاكِرَتِنَا عِنْدَ قِرَاءَةِ مَقْطَعٍ مَا. التَّناصُّ إِذَنْ مُدَوّنَةٌ غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ. بِمَقْدُورِنَا دَوْمًا التَّعرُّفُ فِعْلِيًّا عَلَى بِدَايَتِهِ: إِنَّهُ النَّصُّ الذِّي يُحَرِّكُ تَجْمِيعَاتِ فِي الذَّاكِرَةِ بِمُجَرَّدِ بَدْءِ قِرَاءَتِهِ. غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ البَدِيهِيِّ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، أَلاَّ نَرَى نِهَايَتَهُ. هَذِهِ التَّجْمِيعَاتُ هِيَ، وَاسِعَةٌ، غَنِيَّةٌ بِنِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ، بِحَسَبِ ثَقَافَةِ القَارِئِ. إِنَّهَا تَمْتَدُّ وَتَتَطَوَّرُ بِحَسَبِ تَطَوُّرِ هَذِهِ الثَّقَافَةِ، أَوْ حَتَّى اعْتِبَارًا لِعَدَدِ المَرَّاتِ التِّي نُعِيدُ فِيهَا قِرَاءَةَ النَّصَّ "[1]. وَهُنَا يَصِيرُ القَارِئُ فَاعِلاً لَيْسَ فِي اكْتِشَافِ التَّنَاصِّ وَحَسْب، بَلْ فِي تأْوِيلِ النُّصُوصِ وَإِثْرَائِهَا بِمَا تَجَمَّعَ فِي ذَاكِرَتِهِ مِنْ ثَقَافَةٍ ورَصِيدٍ مَعرِفِيٍّ، يُشَكِّلُ بِالنِّهَايَةِ وَجْهَ التَّأْوِيلِ الذِّي يُعْطِيهِ للنَّصِّ فِي القِرَاءَةِ الأُولَى، وَمَعَ كُلِّ قِرَاءَةٍ يَتَجَدَّدُ وَيَغْنَى.

وَإِلَى هَذَا القَارِئِ، فِي الوَاقِعِ، " تَعُودُ مَسْؤُولِيَّةُ كَشْفَ التَّنَاصِّ. وَعَلَيْهِ تَقَعُ مَهَمَّةُ تَفْعِيلِ (ذَاكِرَتِهِ، وَثَقَافَتِهِ، وَإِبْدَاعِيَّتِهِ، وَرُوحِ اللَّعِبِ لَدَيْهِ) "[2]، وَالتِّي مِنْ دُونِهَا تَبْقَى مَغَالِيقُ النَّصِّ أَكْثَرَ حُضُورًا مِنْ مَفَاتِيحِهِ، فِي مُقَابِلِ الشِّفْرَاتِ التِّي تَزْدَادُ تَعْقِيدًا وَتَشَعُّبًا. وَفِي الجَانِبِ الآخَرِ مِنَ المُعَادَلَةِ " سَيُمَثِّلُ التَّنَاصُّ، (...)، أَدَاةَ الفَصْلِ بَيْنَ القُرَّاءِ المُتَمكِّنِينَ، وَالذِّينَ سَيَكُونُونَ قَادِرِينَ عَلَى التَّعَرُّفِ عَلَى التَّنَاصِّ، وَالقُرَّاءِ (العَادِيِّينَ) الذِّينَ، رُبَّمَا، لَنْ يَنْتَبِهُوا إِطْلاَقًا إِلَى التَّجَاذُبِ الذِّي يُتِيحُهُ وُجُودُ أَثَرٍ تَنَاصِّيٍّ "[3]، مُتَسَرِّبٍ عَبْرَ ثَنَايَا النَّصِّ، مُتَسَتِّرٍ

---

[1]- *L'intertexte Inconnu(Liminaire), Michael Riffaterre, Revue« Littérature », N°:41, 1981, Ed:Larousse, P:4.« L'intertexte est l'ensemble des textes que l'on peut rapprocher de celui que l'on a sous les yeux, l'ensemble des textes que l'on retrouve dans sa mémoire à la lecture d'un passage donné. L'intertexte est donc un corpus indéfini. On peut toujours, en effet, en reconnaître le commencement : c'est le texte qui déclenche des associations mémorielles dès que nous commençons à le lire. Il est évident, par contre, qu'on n'en voit pas la fin. Ces associations sont plus ou moins étendues, plus ou moins riches, selon la culture du lecteur. Elles se prolongent et se développent selon le progrès de cette culture, ou même en fonction du nombre de fois que nous relisons un texte ».*

[2]- *L'intertextualité, Tiphaine Samoyault, Mémoire de la littérature, Nathan, Paris, 2001, P:68. « En effet, c'est au lecteur qu'il appartient de déceler l'intertext. Il lui revient de faire travailler « sa mémoire, sa culture, son inventivité et son esprit de jeu ».*

[3]-*Introduction à l'Intertextualité, Nathalie Piegay-Gros, Ed:Dunod, Paris, 1996, P:17. « l'intertexte représente alors un outil qui fait le partage entre les lecteurs savants, qui seront aptes à reconnaître l'intertexte, et les*

بِلِحَافِ لُغَةٍ مُرَاوِغَةٍ، أَوْ أُسْلُوبٍ أَنِيقٍ يَمْنَعُ تَكَشُّفَهُ لِمَنْ افْتَقَدَ الوَسَائِطَ المُوصِلَةَ إِلَيْهِ.

لِهَذَا يُصْبِحُ مِنَ الضَّرُورِيِّ، حَسْبَ أُمْبِرْطُو إِيكُو، وُجُودُ عَامِلٍ مُحَرِّكٍ لِعَمَلِيَّةِ التَّأْوِيلِ وَالقِرَاءَةِ، فَـ" تَدَخُّلُ فَاعِلٍ مُتَكَلِّمٍ هُوَ مُكَمِّلٌ لِتَفْعِيلِ قَارِئٍ نَمُوذَجِيٍّ وَالذِّي مَلْمَحُهُ الثَّقَافِيُّ لَيْسَ يَتَحَدَّدُ إِلاَّ عَنْ طَرِيقِ نَوْعِ العَمَلِيَّاتِ التَّأْوِيلِيَّةِ التِيِّ مِنَ المُفْتَرَضِ أَنَّهُ يُنْجِزُهَا: التَّعَرُّفُ عَلَى التَّشَابُهَاتِ، وَالأَخْذُ بِعَيْنِ الاعْتِبَارِ بَعْضَ التَّلْوِينَاتِ(...). القَارِئُ النَّمُوذَجِيُّ هُوَ مَجْمُوعُ شُرُوطِ نَجَاحٍ أَوْ سَعَادَةٍ (*conditions felicity*)، مُهَيَّأَةٌ نَصِّيًّا، وَالتِّي يَجِبُ أَنْ تَتحَقَّقَ حَتَّى يَتِمَّ التَّحْيِينُ الكُلِّيُّ لِنَصٍّ مَا فِي مُحْتَوَاهُ المحْتَمَلِ "[1].

وَلَعَلَّ اللاَّنَحْوِيَّاتِ التِّي تَخْتَرِقُ نَصًّا مَا، وَتَخْرِقُ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ قَوَانِينَ وَقَوَاعِدَ الكِتَابَةِ المُتَعَارَفِ عَلَيْهَا، وَاحِدَةٌ مِنْ تِلْكَ الشُّرُوطِ المُسَاعِدَةِ عَلَى اقْتِفَاءِ آثَارِ الكِتَابَاتِ السَّابِقَةِ، فَـ" هَذِهِ اللاَّنَحْوِيَّاتِ تُشِيرُ إِلَى الحُضُورِ الكَامِنِ، الضِّمْنِيِّ، لِجِسْمٍ دَخِيلٍ، الذِّي هُوَ المُتَنَاصُّ. إِنَّهَا تَكْفِي لِتُثِيرَ عِنْدَ القَارِئِ رُدُودَ فِعْلٍ بِأَنَّ تَعَرُّفَ التَّنَاصِّ سَيَسْتَمِرُّ وَيَتَوَاصَلُ، عَلَى أَنَّهَا فِي الحَدِّ الأَدْنَى، تَكْفِي بَعْضَهَا بَعْضًا "[2] مَا دَامَ أَنَّ تَآلُفَهَا وَتَجَانُسَهَا يَفْضَحُ كُلَّ غَرِيبٍ وَيُومِئُ إِلَيْهِ.

وَهُنَا، قَدْ يُلِحُّ عَلَيْنَا سُؤَالٌ يُشَكِّكُ فِي أَدَبِيَّةِ النُّصُوصِ " المَكْرُورَةِ "، وَالتِّي تَقُومُ عَلَى

---

lecteurs « ordinaires » qui ne percevront peut-être même plus la résistance qu'offre la présence d'une trace intertextuelle ».

[1]- Lector in fabula ou la coopération interprétative dans les textes narratifs, Eco Umberto, Grasset, Paris, 1985, Pp:76-77.« Tous les pronoms personnels n'indiquent absolument pas [...] un lecteur empirique quelconque : ils représentent de pures stratégies textuelles. L'intervention d'un sujet locuteur est complémentaire de l'activation d'un Lecteur Modèle dont le profil intellectuel n'est déterminé que par le type d'opérations interprétatives qu'il est censé accomplir : reconnaître des similitudes, prendre en considération certains jeux [...]. Le Lecteur Modèle est un ensemble de conditions de succès ou de bonheur (felicity conditions), établis textuellement, qui doivent être satisfaites pour qu'un texte soit pleinement actualisé dans= =son contenu potentiel».

[2]- L'intertexte Inconnu, Michael Riffatèrre, Littérature, 41, Année1981, Intertextualité et roman en France, au Moyen Âge, P: 6. www.persee.fr/issue/litt_0047-4800_1981_num_41_1_1330. « Ces agrammaticalités indiquent la présence latente, implicite, d'un corps étranger, qui est l'intertexte. Elles suffisent à provoquer chez le lecteur des réactions que l'identification de l'intertexte continuera et prolongera, mais qui au minimum se suffisent à elles-mêmes.

Je redéfinirai donc ainsi l'intertextualité : il s'agit d'un phénomène qui oriente la lecture du texte, qui en gouverne éventuellement l'interprétation, et qui est le contraire de la lecture linéaire ».

(الذِّي سَبَقَتْ رُؤْيَتُهُ) بِتَعْبِيرِ رِيفَاتِير، الذِّي يُؤَكِّدُ أَنَّ القِرَاءَةَ الأَدَبِيَّةَ " هِيَ هَذَا، لَكِنْ فِي مَدْلُولٍ أَوْسَعَ، هِيَ مُمَارسَةُ (مَا يُمْكِن أَنَّهُ قَدْ مَرَّ بِنَا). هِيَ إِذَنْ، (مَا مَرَّ بِنَا) فِعْلاً، وَلَكِنْ أَيْضًا، (مَا مَرَّ بِنَا) فِي الاحْتِمَالِ "[1]، تَعَابِيرٌ وَأَفْكَارٌ قَدْ تَكُونُ شَكَّلَتْ ذَاكِرَتَنَا وَهَيَّأَتْهَا لِلتَّعَرُّفِ عَلَى المُعَادِ لِتُسَهِّلَ عَلَيْهَا فَكَّ شِفْرَاتِهَا.

وَذَلِكَ لاَ يَمْنَعُ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، تَجَدُّدَ اللَّذَّةِ وَاسْتِمْرَارَ المُتْعَةِ، فَـ "كَمَا عِنْدَ كُلِّ مُسَافِرٍ، يَحْدُثُ لَنَا[نَحْنُ القُرَّاءَ] أَنْ نُحِبَّ، بِذَاتِ مِقْدَارِ لَذَّةِ الاكْتِشَافِ، وَلَذَّةِ التَّعَرُّفِ: سَعَادَةَ أَنْ نَجِدَ أَنْفُسَنَا فِي أَرْضٍ نَعْرِفُهَا، لَيْسَ مِنْ أَجْلِ الاسْتِرَاحَةِ بِقَدْرِ مَا هِيَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الانْطِبَاعِ الذِّي سَأُسَمِّيهِ، فِي غِيَابِ مُصْطَلَحٍ دَقِيقٍ، حِدَّةُ المَأْلُوفِ، مَتَى مَا كَانَ المَكَانُ الذِّي زُرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ، مَعَ بَقَائِهِ هُوَ ذَاتَهُ، يَبْدُو لَنَا، حِينَ نَعُودُ إِلَيْهِ، قَدْ تَغَيَّرَ بِشَكْلٍ طَفِيفٍ، تَغَيُّرٌ عَائِدٌ، رُبَّمَا إِلَى تَحَسُّنٍ فِي نَظْرَتِنَا، أَوْ إِلَى بَعْضِ الفَضَائِلِ الخَفِيَّةِ لِهَذَا المَكَانِ، والتِّي جَعَلَهَا انْقِضَاءُ الزَّمَنِ تَتَجَلَّى، بَعْدَ آخِرِ مُرُورٍ لَنا بِهِ "[2].

المُكَرَّرُ إِذَنْ، لاَ يَفْقِدُ أَدَبِيَّتَهُ بِالتَّقَادُمِ وَلاَ بِالإِعَادَةِ، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا، فَهُوَ غَالِبًا مَا يَصْبِغُهَا بِطَابِعِ الجِدَّةِ وَالتَّنَوُّعِ، فَالتَّناصُّ يُعَيِّنُ بِهَذَا " نَوْعًا مِنَ الإِضَافَةِ، التِّي قَدْ لاَ تَنْضَبُ، وَهِيَ أَسَاسِيَّةٌ لِلنَّصِّ ذَاتِهِ "[3]، بَلْ إِنَّهَا تَثْرَى أَكْثَرَ بِالتَّلاقُحِ الذِّي يَتَكَثَّفُ مَعَ كُلِّ تَمَاسٍّ بِالآخَرِ، اقْتِبَاسًا، سَرِقَةً، أَوْ هُمَا مَعًا، لِنَجِدَ أَنْفُسَنَا، مَرَّةً أُخْرَى، أَمَامَ "صِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ لِلإِشْكَالِ الأَبَدِيِّ المُتَمَثِّلِ فِي الاسْتِقلاَلِيَّة أَوِ التَّبَعِيَّةِ النَّصِّيَّةِ "[4]، فَيَسْتَجِدُّ الصِّرَاعُ

---

[1]- *L'intertexte Inconnu, Michael Riffatèrre, op.cit, Pp :5,6.« Ce qui ne veut pas dire que la lecture littéraire suit une pratique du déjà-vu : elle est cela, mais plus largement, elle est une pratique de ce qui aurait pu être déjà vu. Déjà-vu réel, donc, mais aussi déjà-vu potentiel».*

[2]- *"Jacques Poulin:de la douceur à la mort ", François Ricard, Liberté, Vol:16, N°:5-6, Ed:Collectif Liberté, sept-déc1974, P: 97. « Pourtant, comme à tout voyageur, il nous [lecteurs] arrive d'aimer, autant que le plaisir de la découverte, celui de la reconnaissance : la joie de nous retrouver en territoire connu, non tant pour nous y reposer que pour éprouver plutôt cette impression que je nommerais, faute d'un terme plus juste, la nouveauté du familier, quand un lieu déjà visité, tout en demeurant le même, nous semble néanmoins, lorsque nous y revenons, s'être légèrement transformé, d'une transformation due peut-être à l'amélioration de notre regard, ou peut-être à quel-que vertu latente de ce lieu, que le temps écoulé depuis notre dernier passage a laissée se manifester».*

[3]- *Intertextualité et mouvance, Paul Zumthor, Article, Littérature, Année1981, N°:41, P: 8.« L'intertextualité désigne une sorte de supplément, peut-être inépuisable, essentiel au texte meme».*

[4]- *intertextuatité et critiques des textes, Peter Dembowski, Trad:Eric Hicks , Revue:Littérature, N°:41, 1981,*

حَوْلَ نَقْدِ اليَنَابِيعِ وَمَشْرُوعِيَّةِ الأَخْذِ، بِإِحَالَةٍ أَوْ مِنْ دُونِهَا، كَيْفَ يَكُونُ؟ وَمَتَى؟ وَلِمَ؟

فِي مِثْلِ هَذَا المَقَامِ لاَ يَتَرَدَّدُ بِيتَر دُمْبُاوْسْكِي *Peter Dembowski* فِي اعْتِبَارِ التَّنَاصِّ " رَدَّةَ فِعْلٍ ضِدَّ اسْتِقْلاَلِيَّةِ النَّصِّ المُدَّعَاةِ. إِنَّهُ يُلْفِتُ انْتِبَاهَنا إِلَى هَذِهِ التَّبَعِيَّةِ التِّي يَكُونُ كُلُّ نَصٍّ مَوْضُوعَهَا. النَّصُّ، أَوْ بَعْضُ مَظَاهِرِ النَّصِّ، تَابِعَةٌ لِلنُّصُوصِ السَّابِقَةِ الوُجُودِ. النَّصُّ يَتْبَعُ كَذلِكَ لِسِيَاقِهِ السَّابِقِ. وَالحَالُ هَذِهِ، يُؤَكِّدُ التَّناصُّ عَلَى التَّرَاسُلاَتِ بَيْنَ النَّصِّ وَسِيَاقٍ أَدَبِيٍّ أَكْثَرَ اتِّسَاعًا، أَيْ اللَّهْجَةُ، النَّوْعُ، الأَعْرَافُ. لِذَا يَجِبُ اعْتِبَارُ التَّنَاصِّ كَمُقَارَبَةٍ أَدَبِيَّةٍ تُعْطِي قِيمَةً لِصَيْرُورَةٍ تَارِيخِيَّةٍ بِالأَسَاسِ، لَكِنْ –وَهَذَا هُوَ المهِمُّ– فَإِنَّ التَّناصُّ لاَ يَتَوَجَّهُ إِلَى اسْتِكْشَافِ جُذُورِ هَذِهِ (القَبْلَ–نُصُوصٍ) أَوْ(القَبْلَ–سِيَاقَاتٍ)، وَإِنَّمَا مِنْ بَابِ أَوْلَى، إِلَى دَوْرِهَا فِي النَّصِّ "[1]. لِيَتَأَكَّدَ لَنَا مَرَّةً أُخْرَى، أَنَّ التَّنَاصَّ ضَرُورَةٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ عَلَى تَجَنُّبِ آثَارِهَا، وَغَيْرُ مَشْكُوكٍ فِي دَوْرِهَا فِي بِنَاءِ النُّصُوصِ، وَهُوَ مَا يَجِبُ العَمَلُ عَلَى تَبَيُّنِهِ، وَمَعْرِفَةُ طَبِيعَتِهَا هُوَ الغَايَةُ المَنْشُودَةُ مِنَ الاشْتِغَالِ عَلى التَّناصِّ، وَلَيْسَ البَحْثُ فِي العَلاَقَاتِ بَيْنَ النُّصُوصِ.

" وَحَيْثُ إِنَّ التَّناصَّ يُرَكِّزُ عَلَى مُخْتَلَفِ أَنْظِمَةِ التَّبَعِيَّةِ النَّصِّيَّةِ، أَكْثَرَ مِنْهُ عَلَى اسْتِقْلاَلِيَّةِ النَّصِّ، فَإِنَّ مَفْهُومَ المَخْطُوطِ القَاعِدِيِّ هُوَ الذِّي يَجِبُ لِزَامًا، تَحْوِيرُهُ "[2]، أَيْ حَتْمِيَّةُ العَوْدَةُ، كُلَّ حِينٍ، إِلَى القَالَبِ الأَصْلِ، لِلرَّحِمِ الأُولَى–إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ–كَيْ نَتَمَكَّنَ مِنْ تَمْيِيزِ حَجْمِ الاتِّكَاءِ الذِّي يُمَارِسُهُ نَصٌّ مَا عَلَى آخَرَ، سَابِقٍ عَلَيْهِ أَوْ مُعَاصِرٍ لَهُ.

P:19.« L'intertextualité amène donc une formulation nouvelle du problème éternel de l'autonomie ou de la dépendance textuelle ».

[1]- intertextuatité et critiques des textes, Article, Peter Dembowski,op.cit, Pp:19,20. « Sans doute l'intertex-= =tualité est-elle à son tour une réaction contre la prétendue autonomie du texte. Elle attire notre attention sur cette dépendance dont tout texte fait l'objet. Le texte, ou certains aspects du texte, dépendent de textes pré-existants. Le texte dépend également de son pré-contexte. En l'occurrence, l'intertextualité met l'accent sur les correspondances entre le texte et un contexte littéraire plus large, c'est-à-dire le dialecte, le genre, les conventions. Il faut donc considérer l'intertextualité comme une approche littéraire mettant en valeur un devenir foncièrement historique, mais - et c'est là l'important - l'intertextualité s'adresse, non pas à la découverte de l'origine de ces pré-textes ou pré-contextes, mais plutôt à leur rôle dans le texte ».

[2]-Op.Cit, P:22.« Comme l'intertextualité met l'accent sur les différents ordres de dépendance textuelle, plutôt que sur l'autonomie du texte, c'est le concept de manuscrit de base qui doit obligatoirement être modifié ».

هِيَ إِذَنْ، بِتَعْبِيرِ بَارْت، عَمَلِيَّةُ (هَدْمٍ–بِنَاءٍ) بَعْضُ طَرَائِقِهَا التِّي يَنْتُجُ فِي أَعْقَابِهَا النَّصُّ الجَدِيدُ تَقُومُ عَلَى " تَبَادُلِ نُصُوصٍ، أَوْ مَقَاطِعِ نُصُوصٍ وُجِدَتْ أَوْ تُوجَدُ حَوْلَ النَّصِّ المَقْصُودِ، وَبِالنِّهَايَةِ فِيهِ هُوَ ذَاتُهُ: كُلُّ نَصٍّ هُوَ تَنَاصٌّ، نُصُوصٌ أُخْرَى حَاضِرَةٌ فِيهِ، عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ مُتَغَيِّرَةٍ، فِي أَشْكَالَ مُتَعَرَّفٍ عَلَيْهَا بِنِسَبٍ مُتَفَاوِتَةٍ: نُصُوصُ الثَّقَافَةِ السَّابِقَةِ والثَقَافَةِ المُحِيطَةِ، كُلُّ نَصٍّ هُوَ نَسِيجٌ جَدِيدٌ مِنَ الاقْتِبَاسَاتِ السَّالِفَةِ "[1]. بِهَذَا الجَزْمِ حَوْلَ حَقِيقَةِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ المُنْبَنِي فِي جَوْهَرِهِ عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ التَّدَاخُلاَتِ وَالاقْتِرَاضَاتِ يُعِيدُ بَارْتْ بَلْوَرَةَ المَفَاهِيمِ القَبْلِيَّةِ حَوْلَ النَّصِّ فِي جَوْهَرِهِ.

مُنْطَلِقًا مِمَّا انْتَهَتْ إِلَيْهِ كْرِيسْتِيفَا فِي مَسْأَلَةِ النَّصِّ وَالتَّنَاصِّ يُلِحُّ بَارْتْ عَلَى أَنَّ النَّصَّ نَسِيجٌ تَمُرُّ فِيهِ " مُعَادًا تَوْزِيعُهَا، أَجْزَاءٌ مِنَ الشِّيفْرَاتِ، تَرْكِيبَاتٌ، نَمَاذِجُ إِيقَاعِيَّةٌ، مَقَاطِعُ مِنْ أَحَادِيثَ اجْتِمَاعِيَّةٍ، إِلخ، إِذْ يُوجَدُ دَوْمًا، كَلاَمٌ قَبْلَ النَّصِّ وَمِنْ حَوْلِهِ. التَّنَاصُّ، شَرْطُ كُلِّ نَصٍّ، أَيًّا كَانَ، لاَ يُخْتَزَلُ قَطْعًا إِلَى إِشْكَالِيَّةِ مَنَابِعِ أَوْ تَأْثِيرَاتٍ، المُتَنَاصُّ حَقْلٌ عَامٌّ مِنْ تَرْكِيبَاتٍ مَجْهُولَةٍ، وَالتِّي نَادِرًا مَا يُتَعَرَّفُ عَلَيْهَا، وَاقْتِبَاسَاتٍ لاَوَاعِيَةٍ أَوْ أُوتُومَاتِيكِيَّةٍ، مُعْطَاةٌ مِنْ غَيْرِ تَنْصِيصٍ "[2]، وَهِيَ التِّي تَعْمَلُ، فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، عَلَى صَبْغِ النَّصِّ بِمِيزَتَيْهِ المُتَنَاظِرَتَيْنِ: الجِدَّةُ (الإِبْدَاعُ) وَالتَّعَالُقُ مَعَ السَّالِفِ مِنَ الأَعْمَالِ.

هَذَا مَا جَعَلَ بَارْتْ يَقُولُ فِي غَيْرِ حَرَجٍ: " لَيْسَ بْرُوسْت مَا أَسْتَدْعِيهِ، إِنَّهُ مَا يَحْضُرُنِي، لَيْسَ (سُلْطَةً)؛ هُوَ بِبَسَاطَةٍ ذِكْرَى دَائِرِيَّةٌ. وَهَذَا هُوَ بِالضَّبْطِ التَّدَاخُلُ النَّصِّيُّ:

---

[1]- *« Texte (théorie du) » in Œuvres complètes (O.C.), Roland Barthes, T:IV, Ed:Éric Marty, Éd:Seuil, Paris, 2002, P:447. « L'une des voies de cette déconstruction-reconstruction est de permuter des textes, des lambeaux de textes qui ont existé ou existent autour du texte considéré, et finalement en lui : tout texte est un intertexte ; d'autres textes sont présents en lui, à des niveaux variables, sous des formes plus ou moins reco=-=nnaissables : les textes de la culture antérieure et ceux de la culture environnante ; tout texte est un tissu nouveau de citations révolues». Roland Barthes, article "Texte (théorie du)", Encyclopaedia universalis, 1973.* وَ يُنظر ترجمة الفقرة في: التّناصّ والتّناصِّيَّةُ، البقاعي، ص38.

[2]- *Op.Cit, P:447. «Passent dans le texte, redistribués en lui, des morceaux de codes, des formules, des modèles rythmiques, des fragments de langages sociaux, etc., car il y a toujours du langage avant le texte et autour de lui. L'intertextualité, condition de tout texte, quel qu'il soit, ne se réduit évidemment pas à un problème de sources ou d'influences ; l'intertexte est un champ général de formules anonymes, dont l'origine est rarement repérable, de citations inconscientes ou automatiques, données sans guillemets ». Roland Barthes, article "Texte (théorie du)", Encyclo-paedia universalis, 1973.* وَ يُنظر ترجمة الفقرة في: التّناصّ والتّناصِّيَّةُ، البقاعي، ص38. م.س، ن.ص

اسْـتِحَالَةُ العَيْشِ خَارِجَ النَّصِّ اللاَّنِهَائِيِّ "[1]، إِذْ إِنَّ تَوَاصُـلَ النَّصِّ الجَدِيدِ مَعَ السَّـابِقِ أَوِ الذِّي يُعَاصِرُهُ، وَالذِّي يَتِمُّ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ، عَمَلِيَّةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي بِنَائِهِ، بَلْ وَفِي تَأْكِيدِ تَمَيُّزِهِ عَنْ غَيْرِهِ مَا دَامَ العَمَلُ الأَدَبِيُّ خَيْطًا مُتَّصِلاً، دَائِرِيَّ المَسَارِ، لاَ يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى نُقْطَةِ البَدْءِ كُلَّ حِينَ، يَسْتَحِيلُ العَيْشُ خَارِجَهُ وَيَنْتَفِي.

لَيْسَ هَذَا فَحَسْـب، بَلْ إِنَّ هَذَا التَّلاقُحَ، وَهَذِهِ الدَّائِرِيَّةَ التِّي تَحْكُمُ خُطَاطَةَ العَمَلِ الأَدَبِيِّ فِي كُلِّيَّتِهِ تَجْعَلُ اللَّذَّةَ كَامِنَةً فِي هَذَا الاسْـتِدْعَاءِ لِلآخَرِ، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ بَارْت الذِّي يَسْتَلِذُّ " سُلْطَانَ الصِّيَاغَاتِ، وَانْقِلاَبَ الأُصُولِ، اسْتِدْعَاءَ النَّصِّ السَّابِقِ إِلَى النَّصِّ اللاَّحِقِ. أُدْرِكُ أَنَّ عَمَلَ بْرُوسْت – عَلَى الأَقَلِّ بِالنِّسْبَةِ لِي– هُوَ العَمَلُ المَـرْجِعِيُّ "[2]، كَمَا هِيَ أَعْمَالُ كَثِيرِينَ غَيْرِهِ[3] كَوَّنُوا الخَلْفِيَّةَ " الكِتَابِيَّةَ " لَدَى بَارْتْ، وَأَسَّـسُـوا عِنْدَهُ لمَـــبْدَإِ الاتِّكَاءِ الحَتْمِيِّ فِي الإِبْدَاعِ الأَدَبِيِّ وَاللَّذَّةِ المُصَاحِبَةِ لَهُ.

لَقَدْ كَانَ جِيرَار جِينَاتْ *Gérard Genette* عَرَّفَ التَّنَاصَّ بِطَرِيقَةٍ، يَرَاهَا " مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مُقَيَّدَةٌ، مِنْ خِلاَلِ عَلاقَةِ الحُضُورُ المُتزَامن لِنَصَّيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، أَيْ، بِشَكْلٍ أَسَاسِيٍّ، وَفِي الغَالِبِ الأَعَمِّ، مِنْ خِلاَلِ الحُضُورِ الفِعْلِيِّ لِنَّصٍّ دَاخِلَ آخَرَ. فِي صُورَتِهِ الأَكْثَرِ جَلاَءً وَالأَكْثَرِ حَرْفِيَّةً، إِنَّهُ المُمَارَسَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ لِلاقْتِبَاسِ "[4]. فَالتَّنَاصُّ فِي مَنْظُورِ جِينَات لاَ يَفْتَرِقُ عَنِ المَفْهُومِ القَدِيمِ لِلاقْتِبَاسِ، وَإِنَّمَا هُوَ صُورَةٌ مِنْهُ تَسْتَمِرُّ بِشَكْلٍ، أَوْ بِتَعْبِيرٍ أَدَقَّ، بِاصْطِلاَحٍ

---

[1]- *Le Plaisir du Texte, Roland Barthes, Coll:" Tel Quel ", Éd:Seuil, 1973, P :59.« Proust, c'est ce qui me vient, ce n'est pas ce que j'appelle; ce n'est pas une (autorité); simplement un souvenir circulaire . Et c'est bien cela l'intertexte: l'impossibilité de vivre hors du texte infini*.» يُنظر أَيْضًا: رولان بارت، تر: فؤاد صَفَا والحسين سبحان، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط1، 1988م، ص40. وَكَذلك: لذَّة النَّصّ، تر: منذر عيَّاشي، مركز الإنماء الحضاريّ، حلب، سوريا، ط1، 1992م، ص70.

[2]- *Le Plaisir du Texte, Roland Barthes, op.cit, P:59. «Je savoure le règne des formules, le renversement des origines, la désinvolture qui fait venir le texte antérieur du texte ultérieur. Je comprends que l'œuvre de Proust est, du moins pour moi, l'œuvre de reference».*

[3]-*Standhal, Flaubert, Balzac,...ect, Voir: Le plaisir du texte, P:52 entre autre.* يُنظر أَيْضًا: رولان بارت، تر: فؤاد صَفَا والحسين سبحان، ص40. وَكَذلك: لذَّة النَّصّ، تر: منذر عيَّاشي، ص70.

[4]- *Palimpsestes, Gérard Genette, La collection poétique, Éd.Seuil, 1982 , P:14. « Je le définis pour ma part, d'une manière sans doute restrictive, par une relation de coprésence entre deux ou plusieurs textes, c'est-à-dire, eidétiquement et le plus souvent, par la présence effective d'un texte dans un autre. Sous sa forme la plus explicite et la plus littérale, c'est la pratique traditionnelle de la citation ».*

جَدِيدٍ.

يَجِدُ أُنطْوَان كُمْبَانْيُون *Antoine Compagon*" الاقْتِبَاسَ مَوْضِعَ تَوَافُقٍ مُعَدٍّ مُسْبَقًا فِي النَّصِّ. إِنَّهُ يُدْمِجُهُ فِي مَجْمُوعٍ أَوْ فِي شَبَكَةِ نُصُوصٍ، فِي تَصْنِيفٍ مِنَ الكَفَاءَاتِ المَطلُوبَةِ لِلقِرَاءَةِ "[1]، وَهُوَ " عَامِلٌ مُبْتَذَلٌ فِي التَّنَاصِّ. إِنَّهُ يَسْتَدْعِي مَهَارَاتِ القَارِئِ "[2]، وَالتِّي هِيَ، حَتْمًا، غَيْرُ مُتَوَفِّرَةٍ عِنْدَ كُلِّ مُتَلَقٍّ، أَوْ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، لَيْسَتْ مُتَهَيِّئَةً لَدَيْهِ بِذَاتِ الدَّرَجَةِ مِنَ الكَفَاءَةِ.

هُنَا نُقَرِّرُ، وَمِنْ البَدَءِ، أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ لاَ يُمْكِنُ الجَزْمُ فِيهَا، بَلْ يَغْلُبُ عَلَيْهَا التَّرْجِيحُ وَالاحْتِمَالُ المُرْتَبِطُ بِشَكْلٍ وَثِيقٍ بِقُدُرَاتِ القَارِئِ عَلَى التَّذَكُّرِ المَشْفُوعِ بِالخِبْرَةِ لِيَسْتَطِيعَ السَّيْرَ فِي مَسَارِبِ النُّصُوصِ وَإِيجَادَ العَلاَئِقِ المُمْكِنَةِ بَيْنَهَا فِي حَالَتَيْ الاقْتِبَاسِ: الظَّاهِرِ (بِإِحالَةٍ)، وَالخَفِي(بِدُونِ إِحَالَةٍ).

يَتَبَدَّى الاقْتِبَاسُ فِي الحَالَةِ الأُولَى "كَإِشَارَةٍ حَرْفِيَّةٍ للنَّصِّ المذْكُورِ وَلَيْسَ كَاسْتِحْضَارٍ بَسِيطٍ "[3]، بِاخْتِصَارٍ، إِنَّهُ اقْتِرَاضٌ مُبَاحٌ يَعْمِدُ إِلَيْهِ الكَاتِبُ لِغَايَةٍ فَرَضَتْهَا عَمَلِيَّةُ الإِبْدَاعِ، فَتَطَلَّبَ الأَمْرُ أَنْ تَخْرُجَ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ، بَيْنَ عَلاَمَتَيْ تَنْصِيصٍ. أَمَّا الحَالَةُ الثَّانِيَةُ، فَتُعَادُ صِيَاغَةُ الاقِتِبَاسِ بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَقَدْ عَرَّف أُنْدْرِي لاَمُونْطَانْ *André Lamontagne* هَذَا النَّوْعَ عَلَى أَنَّهُ: "كُلُّ مَقْطَعٍ يُتَعَرَّفُ عَلَيْهِ كَاقْتِبَاسٍ بِوَاسِطَةِ قَرَائِنَ لِسَانِيَّةٍ، مَطْبَعِيَّةٍ أَوْ دَلاَلِيَّةٍ، وَالذِّي يَخْضَعُ أَوْ نَعْتَقِدُ أَنَّهُ خَضَعَ لِتَحْوِيرٍ ذِي مَنْحَى تَفْسِيرِيٍّ "[4].

فَعَلاَقَةُ الانْتِمَاءِ بَيْنَ النُّصُوصِ هُنَا لاَ يَتِمُّ كَشْفُهَا بِسُهُولَةٍ كَمَا فِي الحَالَةِ السَّابِقَةِ،

---

[1]- *la seconde main ou le travail de la citation, Antoine Compagon, Ed:Seuil, 1979, P:23. « La citation est un lieu d'accommodation prédisposé dans le texte. Elle l'intègre dans un ensemble ou dans un réseaux de textes, dans une typologie des compétences requises pour la lecture» .*

[2]-*Ibid, P:44. « La citation est un opérateur trivial d'intertextualité. Elle fait appel a la compétence du lecteur » .*

[3] -*L'intertextualité, Sophie Rabau, op.cit, P: 231. « mention littérale du texte cité et non simple evocation » .*

[4]- *Les mots des autres, La poétique intertextuelle des œuvres romanesques de Hubert Aquin, André Lamontagne, Les presses de l'Université Laval, Sainte-Foy, 1992, P:53. « Tout fragment reconnu comme citation au moyen d'indices linguistiques, typographiques ou sémantiques et qui subit ou que l'on suppose avoir subi une modification d'ordre paraphrastique».*

وَإِنَّمَا تَتَجَلَّى مِنْ خِلاَلِ جُهْدٍ مُسْتَمِرٍّ يَرْبِطُ بَيْنَ كِتَابَاتِ الأَدِيبِ الوَاحِدِ جَمِيعِهَا، أَوْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كِتَابَاتِ غَيْرِهِ فِي شَكْلِ اقْتِبَاسٍ ضِمْنِيٍّ أَوْعَلاَقَاتٍ إِضْمَارِيَّةٍ[1]، كَمَا يُسَمِّيهَا بَارْنَارْ مَانْيِّي *Bernard Magné*. " هَكَذَا يُمَوْضِعُ الشَّاعِرُ سَلَفَهُ، ثُمَّ يَنْحَرِفُ عَنْ مَسَارِهِ. فَتَذْوَى الأَشْيَاءُ الرُّؤْيَوِيَّةُ بِكَثَافَتِهَا العَالِيَةِ، وَتَغِيبُ فِي مِضْمَارِ السَّيْرُورَةِ، فِي عَلاَقَةِ الشَّاعِرِ بِعَالَمِ سَلَفِهِ "[2]، فَهُوَ يَقُومُ بِعَمَلِيَّةِ تَنْقِيحٍ وَاسْتِبْدَالٍ فَنِّيَّةٍ يَخْلُقُ مَعَهَا أَجْوَاءَ إِبدَاعِهِ الخَاصِّ تَخْفَى مَعَهَا كُلُّ عَلاَقَةٍ لَهُ مَعَ عَوَالِمِ الآخَرِ وَنُصُوصِهِ.

3- التَّنَاصُّ عِنْدَ العَرَبِ:

لَقَدْ تَدَارَسَ نُقَّادُنا مِنْ زَمنٍ بَعِيدٍ قَضِيَّةَ الشِّعْرِيَّةِ وَمَا يَرْتَبِطُ بِهَا مِن مَسَائِلَ وَإِشْكَالاتٍ، وَأَفَاضُوا القَوْلَ فِيهَا، وَأَسْهَبُوا وَتَشَعَّبُوا حَدَّ الاخْتِلاَفِ وَالتَّنَاقُضِ البَيِّنِ. ولَعَلَّ قَضِيَّةَ السَّرِقَاتِ وَاحِدَةٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ التِّي لَمْ تُغْلَقْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، لمَا اعْتَرَاهَا مِنْ تَبَايُنٍ، وَصُعُوبَةِ فَصْلٍ لارْتِبَاطِهَا المُتَعَدِّدِ وَالمُعَقَّدِ فِي آنٍ، خُصُوصًا مَعَ مَا أَتَاحَتْهُ النَّظَرِيَّاتُ النَّقْدِيَّةُ الحَدَاثِيَّةُ وَإِجْرَاءَاتُهَا مِنْ سُبُلٍ لمُقَارَبَةِ النَّصِّ، قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ، يَدُلُّ عَلَى انْشِغَالِ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ بِعَلاَقَةِ النُّصُوصِ بِبَعْضِهَا بَعْضٍ.

وَإِنَّهُ لَمِنَ المُرْبِكِ بَعْدَهَا أَنْ نَقْرَأَ عَنْتَرَةَ – مَثَلاً– وَهُو يَقُولُ بِأَنّ مَا يُرَدِّدُهُ، هُوَ وَأَقْرَانُهُ فِي زَمَانِهِ، مُسْتَهْلَكٌ تَعَاطَتْهُ الأَلْسُنُ حَتَّى خَلِقَ:

هَلْ غَادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدِّمِ *** أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[3].

فَهُوَ بِهَذَا يَجْعَلُ الشِّعْرَ كُلَّهُ ابْنَ التَّكْرَارِ وَوَلِيدَ الإِعَادَةِ، حَتَّى صَارَ بَالِيًا مُرَقَّعًا!... وَيَزِيدُنَا كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ ارْتِبَاكاً وَاضْطِرَابًا وَنَحْنُ نَقْرَأُ لَهُ:

---

[1]- *Métatextuel et lisibilité, Bernard Magné, Québec, Protée, vol:14, N°:1-2, printemps-été 1986, P:83. « La relation d'appartenance fonde la synecdoque métatextuelle, dont la forme la plus stricte est la citation implicite ou, comme je l'ai risqué ailleurs, implicitation ».*

[2]- قَلَقُ التَّأَثُّرِ – نظريّةٌ فِي الشِّعر، هَارُولد بْلُوم، تر: عابد إسماعِيل، دارُ الكُنُوز الأَدبِيّة، ط1، 1998م، صص45،46.

[3]- شرح ديوان عنترة، للخطِيبِ التّبرِيزِي، تق: مجيد طرّاد، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط1، 1416هـ/1992م، ص147.

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلاَّ رَجِيعًا *** وَمُعَادًا مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورَا[1].

يُعَلِّقُ ابْنُ المُــقَفَّعِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ بِأَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نُبْهَرَ بِمَا نَقُولُ، فَمَا هُو إِلاَّ حَصِيلَةُ كَلاَمِ مَنْ قَبْلَنَا عَادَ فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ، فَ:" مَن جَرَى عَلَى لِسَانِهِ كَلاَمٌ يَسْتَحْسِنُهُ، أَوْ يُسْتَحْسَنُ، فَلاَ يُعْجَبَنَّ بِهِ إِعْجَابَ المُخْتَرِعِ المُبْتَدِعِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اجْتَبَاهُ "[2]، وَفِي هَذَا شَيْءٌ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى تَأْكِيدِ حَتْمِيَّةِ الاجْتِلاَبِ وَالأَخْذِ وَوَقْعِ الحَافِرِ عَلَى الحَافِرِ...

تُؤَسِّسُ مِثْلُ هَذِهِ الآرَاءِ، وَمِنْ أَوَّلِ عَهْدِ العَرَبِ بِالشِّعْرِ*، لِمَاهِيَّةِ الإِبْدَاعِ فِي عَلاَقَتِهِ بِمَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ فِي الزَّمَنِ قَدِيمِهِ أَوْ مُعَاصِرِهِ، وَتَجِدُ، كَمَا هِيَ الحَالُ عِنْدَ المُــنَظِّرِينَ الغَرْبِيِّينَ اليَوْمَ، بِأَنَّهُ لاَ مَنَاصَّ مِنَ التَّفَاعُلِ مَعَ الآخَرِ وَالاسْــتِعَارَةَ مِنْهُ، فَذَلِكَ دَأْبُ كُلِّ مُبْدِعٍ، وَسَبِيلُ كُلِّ خَائِضٍ طَرِيقَ الفَنِّ.

هِيَ إِذَنْ إِشْكَالِيَّةٌ تَضَعُنَا أَمَامَ حَقِيقَةِ التَّكْرَارِ وَالتَّنَاصِّ مُبَاشَرَةً، فَإِنْ كَانَتْ السَّرِقَةُ مِمَّا يُمْكِنُ حَدُّهُ بِشَيْءٍ مِنَ اليُسْرِ، خُصُوصًا الفَاحِشُ الفَاضِحُ مِنْهَا، فَالأَوَّلاَنِ لاَ يُمْكِنُنَا وَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ وَاحِدِهِمَا التَّمَلُّصُ مِنَ الحَدِيثِ عَنْ صِنْوِهِ. لَقَدْ اسْتَمَرَّ التَّكْرَارُ فِي تُرَاثِنَا العَرَبِيِّ وَسِيلَةَ الشُّعَرَاءِ إِلَى تَدْوِيرِ المَعَانِي وَتَرْدِيدِهَا، وَعَدُّوهُ ظَاهِرةً حَتْمِيّةً لِلْحِفَاظِ عَلَى الجِنْسِ الأَدَبِيِّ وَاسْتِمْرَارِيَّتِهِ، فَهُوَ مُؤَشِّرٌ قَوِيٌّ عَلَى عَدَمِ اسْتِقلاَلِيَّة النَّصِّ الأَدَبِيِّ، إِذِ المَعْنَى الأَوَّلُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ كَمَصْدَرٍ لِلمَعْرِفَةِ الجَدِيدَةِ وَمُؤَوِّلاً لِلدَّلاَلَةِ المتَنَامِيَةِ، لَكِنَّهُمْ وَضَعُوا لِلأَدِيبِ شُروطًا وَضَوابِطَ تَصُونُهُ مِن الانْزِلاَقِ إِلَى السَّرْقِ المَمْجُوجِ، وَالأَخْذِ المُسْتَقْبحِ، فَـ " قَدْ أَقْدَمَ المتَقَدِّمُونَ وَالمتَأَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ المعَانِي فِيمَا بَينَهُمْ، فَلَيْسَ علَى أَحَدٍ فِيهِمْ عَيْبٌ، إِلاَّ إِذَا

---

[1]- شرح ديوان كعب بن زهير، الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين السّكري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1369هـ/1950م، ص15، ويُنْسَبُ لأَبِيهِ وَنَصُّهُ: مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلاَّ مُعَارًا.....

[2]- الأدب الكبير والأدب الصّغير ورسالة الصّحابة، عبد الله بن المقفّع، شر:يوسف أبو حلقة، مكتبة البيان، بيروت، لبنان، 1964م، ص34.

* كَمَا فِي مَسْأَلَةِ نَحْلِ الشِّعْرِ، يُنظر مَثلاً: طَبَقَاتُ الشُّعَراء، ابنُ سلاّمٍ الجُمَحِيُّ، دار الكُتُب العلميّة، بَيْرُوت، لُبْنَان، 1422هـ/2001م، صص39،40.

أَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ، أَوْ أَخَذَهُ فَأَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَ "[1]، عَدَا ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُخْرَجُ مِنْ دَائِرَةِ السَّرْقِ، بَلْ قَدْ يَسْبِقُ المَأْخُوذَ عَنْهُ إِنْ هُوَ قَرَّبَ المَعْنَى وَوَفَّى بَيَانَهُ.

وَيَنْقُلُ صَاحِبُ (المُوَشَّحِ) عَنْ ابْنِ المُعْتَزِّ دَعْوَتَهُ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي المَعْنَى المَأْخُوذِ حَتَّى لاَ يَكُونَ رَجْعَ صَدًى يُمَهِّدُ لِلرَّتَابَةِ وَالمَلَلِ وَيُرَسِّخُهَا، إِذْ " لاَ يُعْذَرُ الشَّاعِرُ فِي سَرِقَتِهِ حَتَّى يَزِيدَ فِي إِضَاءَةِ المَعْنَى، أَوْ يَأْتِيَ بِأَجْزَلَ مِنَ الكَلاَمِ الأَوَّلِ، أَوْ يَسْنَحَ لَهُ بِذَلِكَ مَعْنًى يَفْضَحُ بِهِ مَا تَقَدَّمَ وَلاَ يُفتَضَحُ بِهِ، وَيَنْظُرُ إِلَى قَصْدِهِ نَظَرَ مُسْتَغْنٍ عَنْهُ لاَ فَقِيرٍ إِلَيْهِ "[2].

إِذَنْ، لَيْسَ – فِيمَا نَرَى– مَن يَرُدُّ التَّكْرَارَ وَالأَخْذَ فَيَمنَعُهُمَا وَيَعِيبُهُمَا، بَلْ عَلَى العَكْسِ مِنْهُ، يَعْتَقِدُ المتَقَدِّمُونَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَظْهَرَ اقْتِدَارًا، وَحَازَ سَبْقًا، وَهُوَ المُتَأَخِّرُ، وَاسْتَأْثَرَ بِالمَعْنَى وَإِلَيْهِ نُسِبَ، حَيْثُ إِنَّهُ عَلَى " الشُّعَرَاءَ إِذَا أَخَذُوا المَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُمْ، عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْسُوهَا أَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِمْ، وَيُبْرِزُوهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِمْ، وَيُورِدُوهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا الأُولَى وَيَزِيدُوهَا فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَكَمَالِ حِلْيَتِها وَمَعْرِضِهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، فَهُم أَحَقُّ بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ إِلَيْهَا "[3]. فَإِنْ كَانَ لِلشَّاعِرُ الأَوَّلِ فَضْلُ السَّبْقِ وَالاخْتِرَاعِ، فَإِنَّ لِلثَّانِي فَضْلَ الزِّيَادَةِ فِيهِ وَالتَّفَنُّنِ فِي إِخْرَاجِهِ مَخْرَجَ الجَدِيدِ، وَهَذَا أَصْعَبُ وَأَدَقُّ فِي نَظَرَ أَهْلِ النَّقْدِ وَصِنَاعَةِ الأَدَبِ، حَيْثُ إِنَّهُ إِذَا تَنَاوَلَ:" المَعَانِيَ التِّي سُبِقَ إِلَيْهَا فَأَبْرَزَهَا فِي أَحْسَنَ مِنَ الكُسْوَةِ التِّي عَلَيْهَا، لَمْ يُعَبْ، بَلْ وَجَبَ لَهُ فَضْلُ لُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ مِنْهُ "[4].

وَيَذْهَبُ صَاحِبُ (الأَسْرَارِ) ذَاتَ المَذْهَبِ وَهُوَ يُفَاضِلُ بَيْنَ قَوْلَيْنِ، فَيَتَسَاءَلُ عَنْ سِرِّ اسْتِحسَانِكَ أَوِ اسْتِثْقَالِكَ أَحَدَهُمَا، أَهُوَ " لأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى اللَّفْظِ، أَمْ لأَنَّكَ رَأَيْتَ الفَائِدَةَ

[1]– كتاب الصّناعتيْن، م.س، ص203.

[2]– الموشّح، المرزبانيّ، تح:عليّ محمّد البجاويّ، دار الفكر العربيّ، القاهرة، د.ط، د.ت، ص478.

[3]– كتاب الصّناعتين، م.س، ص196.

[4]– عيارُ الشّعر، ابنُ طباطبا، م.س، ص123.

ضَعُفَتْ عَنِ الأَوَّلِ وَقَوِيَتْ فِي الثَّانِي؟ وَرَأَيْتَ لَمْ يَزِدْكَ بِمَذْهَبٍ وَمَذْهَبٍ عَلَى أَنْ أَسْمَعَكَ حُرُوفًا مُكَرَّرَةً، تَرُومُ لهَا فَائِدَةً فَلاَ تَجِدُهَا إِلاَّ مَجْهُولَةً مُنْكَرَةً، وَرَأَيْتَ الآخَرَ قَدْ أَعَادَ عَلَيْكَ اللَّفْظَةَ كَأَنَّهُ يَخْدَعُكَ عَنِ الفَائِدَةِ وَقَدْ أَعْطَاهَا، وَيُوهِمُكَ كَأَنَّهُ لَمْ يَزِدْكَ وَقَدْ أَحْسَنَ الزِّيَادَةَ وَوَفَّاهَا "[1]، وَلَعَلَّ الجَمالَ كُلَّهُ فِي هَذَا الإِيهَامِ بِالجَدِيدِ الذِّي لاَ يَتَأَتَّى إِلاَّ عَنْ قَدِيمٍ!

عَمَلِيَّة التَّكْرَارِ فِي أَحَدِ أَبهَى وُجُوهِهَا وَأَنْصَعِها، عَمَلِيَّةُ إِبدَاعٍ، مِحْوَرَاها الرَّئِيسَانِ: الزِّيَادَةُ وَالجِدَّةُ، تِلْكَ قُوَّةُ التَّكْرَارِ وَتَفرّدُهُ، أَنْ نُبْصِرَ فِي المُعَادِ كُلَّ مَا يُخْفِيهِ مِنْ عَوَامِلِ التَّمَيُّزِ وَإِنْ كَانَ ابْنَ غَيْرِهِ، وَمِنْ أَفْكَارِهِ يَنْهَلُ، فَـ" أَن يُنتزَعَ مِن التَّكْرَار شَيْءٌ جَدِيدٌ، أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْهُ الاخْتِلاَفُ، هَذَا دَوْرُ المُخَيِّلَةِ أَوِ الرُّوحِ الذِّي يَتَأَمَّلُ فِي أَحْوالِهِ المُتَكَثِّرَةِ وَالمُقَطَّعَةِ "[2]، إِذْ ذَاكَ نَكْتَشِفُ أَنَّ الاخْتِلاَفَ إِنَّمَا يَقْطُنُ فِي التَّكْرَارِ وَمِنْ مَعِينِهِ يَمْتَحُ[3]، فَإِذَا هُوَ أَحَدُ صُوَرِهِ وَبَعْضِ تَقْلِيبَاتِهِ.

فَوَ نَحْنُ نُكرِّرُ، لاَ نَجْمَعُ المُنْتَجَ إِلَى المُنْتَجِ، وَالسَّابِقَ إِلَى اللاَّحِقِ فِي عَمَلِيَّةٍ مُرَاكَمَةٍ تُضَخِّمُ الفِكْرَةَ دُونَ أَنْ تُضِيفَ إِلَيْهَا جَدِيدًا، وَتَسْعَى لِتَلْمِيعِ المُتَقَدِّمِ فَلاَ يَبْرُقُ، إِنَّ التَّكْرَارَ " أَكْثَرُ مِن عَمَلِيَّةِ جَمْعٍ، هِيَ عَمَلِيَّةُ ضَرْبٍ فَإِنْ لمَ تَكُنْ كَذَلِكَ، فَهِيَ وَلِيدَةُ ضَرُورَةٍ لُغَوِيَّةٍ، أَوِ مَدْلُولِيَّةٍ، أَوْ تَوازُنٍ صَوْتِيٍّ أَوْ هِيَ تَحْرِيرٌ لمَلْءِ البَيْتِ وَالبُلُوغِ إِلَى مُنْتَهَاهُ"[4]. فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ فِي الاجْتِرَارِ العَقِيمِ، وَيَسُدُّ أُفُقُ القَارِئِ حَدَّ الخَيْبَةِ، حَيْثُ " يَسْتَمِدُّ الأَدِيبُ مِنْ عُصُورٍ سَابِقَةٍ، وَيتَعَامَلُ مَعَ النَّصِّ الغَائِبِ بِوَعْيٍ سُكُونِيٍّ، فَيَنْتُجُ عَنْ ذَلِكَ انْفِصَالٌ بَيْنَ عَنَاصِرِ الإِبْدَاعِ السَّابِقَةِ وَاللاَّحِقَةِ، وَيُمَجِّدُ السَّابقَ حَتَّى لَوْ كَانَ مُجَرَّدَ (شَكْلٍ) فَارِغٍ..."[5]، وَهَذَا عَيْنُ مَا ذَهَب إِلَيْه كَثيرٌ مِنَ المتَقَدِّمِين حِينَ اسْتَقْبَحُوا السَّرْقَ الفَاضِحَ وَالاتِّبَاعَ المُقَصِّرَ، وَمِنْهُمْ

[1]- أسرار البلاغة، ج1،عبد القاهر الجرجاني، شر وتع: عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط3، 1399هـ/1979م، صص99، 100.

[2]- الاختلافُ و التّكرارُ، جيل دولوز، م.س، ص175.

[3]- يُنظر: الاختلافُ و التّكرارُ، جيل دولوز، م.س، ص.ن.

[4]- خصائص الأُسلوب في الشَّوقيَات، مُحَمَّد الهَادِي الطّرابلسيّ، م.س، ص62.

[5]- النّصّ الغائب، م.س، ص54.

ابْنُ رَشِيقٍ الذّي مَثَّلَ لَنَا ذَلِكَ بِالشَّاعِرِ الذِّي يَعْمَلُ " مَعْنىً رَدِيًّا وَلَفْظًا رَدِيًّا مُسْتَهْجَنًا ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ فَيَتَّبِعُهُ فِيهِ عَلَى رَدَاءَتِه "[1]، فَيُضَاعِفُ مَسَاوِئَ النَّصِّ الأَوَّلِ وَيَزِيدُ عَلَيْهَا مَا يُخْرِجُهَا، تَمَامًا، مِنْ سَاحَةِ الفَنِّيَّةِ وَالابْتِكَارِ.

تِلْكَ، إِذَنْ، عِلَّةٌ لاَ يَرْتَضِيهَا مُبْدِعٌ مُجِيدٌ، وَلاَ نَاقِدٌ مُطَّلِعٌ، وَقَدْ تَمَرَّسَا الشِّعْرَ فَعَلِمَا أَنَّ السَّرِقَةَ وَالأَخْذَ أَمْرٌ " مَا تَعَرَّى مِنْهُ مُتَّقَدِّمٌ وَلاَ مُتَأَخِّرٌ "[2]، حَتَّى كَأَنَّهُ ضَرُورَةٌ لاَ مَفَرَّ مِنْهَا، وَطَرِيقٌ لَيْسَ مِنْ شَاعِرٍ إِلاَّ وَقَدْ خَاضَ غِمَارَهُ، وَتَجَشَّمَ عُبُورَ وَعْرِ مَسَالِكِهِ، فَهُوَ بِذَلِكَ مَسارٌ لاَبُدَّ لِلمُبْدِعِ أَنْ يَسْلُكَهُ مُبْتَدئًا كَانَ أَوْ فَحْلاً مُقْتَدِرًا، فـ " هَذَا بَابٌ مُتَّسِعٌ جِدّاً لاَ يَقْدِر أَحَدُ الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ يَدَّعِي السَّلاَمَةَ مِنْهُ "[3]، بَلْ إِنَّهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الحَالِ يَصِيرُ مَدْعَاةً لِلتَّفَنُّنِ وَإِظْهَارِ الاقْتِدَارِ بِالنَّهْلِ مِنْ مَعِينِ الآخَرِينَ مَعَ إِخْفَائِهِ بِحِنْكَةٍ وَدُرْبَةٍ عَنْ أَعْيُنِ القُرَّاءِ، حَتَّى المُتَمَرِّسِينَ مِنْهُمْ. لِذَا نَجِدُ النُّقَّادَ، وَقَدْ شَدَّتْهُمْ الظَّاهِرَةُ، يَجْتَهِدُونَ فِي إِبْرَازِ مَحَاسِنِهَا وَمَسَاوِئِهَا، يُحَلِّلُونَ أَقْسَامَهَا، وَيُعَلِّلُونَ أَحْكَامَهَا، فَشَقَّقُوا مِنْ ذَلِكَ أَصْنَافًا[4] لاَ يَسَعُهَا البَحْثُ هُنَا، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ، وَيَصْلُحُ لَهُ.

فَهَاهُوَ الخَطِيبُ القَزْوِينِيُّ يُقَسِّمُ السَّرِقَاتِ وَيُفَرِّعُهَا لَكِنَّهُ لاَ يُضِيفُ عَلَى سَابِقِيهِ شَيْئًا جَدِيدًا[5] مِنْ أَنَّ الأَخْذَ فِيهِ المَذْمُومُ المُسْتَقْبَحُ، وَالحَسَنُ المُسْتَمْلَحُ "عَلَى أَنَّ المَعَانِي مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ العُقَلاَءِ "[6]، وَالعَيْبُ لَيْسَ فِي الأَخْذِ كَمَا نَرَى وَإِنَّمَا فِي التَّقْصِيرِ فِيهِ، وَالتَّأْلِيفِ دُونَهُ، فَقَدْ " أَطْبَقَ المتَقَدِّمُونَ وَالمتَأَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ المَعَانِي بَيْنَهُمْ، فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ فِيهِمْ عَيْبٌ

---

[1]- العُمدَةُ في نقْدِ الشِّعْر وآدابِهِ وَنَقده، ج2، ابن رشيق القيرواني، م.س، ص291.

[2]- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ج1، الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط1، 1994 م، ص311.

[3]- العمدة، ج2، م.س، ص282.

[4]- يُنظر مثلاً: الوَسَاطَةُ، ص4 وبعدها، العُمدة، ص282 وما بعدها، الموازنة، سرقات أبي تمّام، ص58 وما بعدها، سرقات البحتريّ، ص311 وما بعدها، المثل السّائر، ص222 وما بعدها.

[5]- يُنظر: الإيضاح في عُلُوم البلاَغةِ المعانِي والبيَانِ والبَديعِ، الخطيب القزويني، تح: عبدالحميد هنداوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1419هـ، صص358،349.

[6]- كِتَابُ الصِّناعتين، م.س، ص196.

إِلاَّ إِذَا أَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ، أَوْ أَخَذَهُ فَأَفْسَدَهُ، وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ "[1].

بَلْ وَأَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَجَدْنَا مَنْ يُقَدِّمُ الأَعْذَارَ بَيْنَ يَدَيْ النُّقَّادِ كَيْ يَتَفَهَّمُوا بَعْضَ الأَحْوَالِ المُتَعَلِّقَةِ بِطَبِيعَةِ الإِبْدَاعِ فَيَعْذُرُوا فِيهَا الشُّعَرَاءَ، وَيَبْنُوا أَحْكَامَهُمْ النَّقْدِيَّةَ آخِذِينَ فِي الحُسْبَانِ أُمُورًا تَتَجَاوَزُ المُبْدِعَ أَوْ هُوَ يَتَبَنَّاهَا لِغَايَةٍ هِيَ مِنْ صَمِيمِ حَقِيقَةِ الإِبْدَاعِ وَخُصُوصِيَّتِهِ. فَقَدْ سَأَلَ ابْنُ سَلاَّمٍ يُونُسَ بْنَ حَبِيبٍ عَنْ بَيْتٍ فَأَجَابَهُ: " هُوَ لِلنَّابِغَةِ، أَظُنُّ الزِّبْرِقَانَ اسْتَزَادَهُ فِي شِعْرِهِ كَالمُثَلِ حِينَ جَاءَ مَوْضِعُهُ، لاَ مُجْتَلِبًا لَهُ "[2]، فَنَحْنُ نَرَى كَيْفَ سَوَّغَ الأَخْذَ هُنَا بِأَنْ صَيَّرَهُ كَالمَثَلِ مَشَاعًا بَيْنَ النَّاسِ، لاَ أَحَدَ يَزْعُمُهُ لِنَفْسِهِ، وَلاَ هُوَ يَسْتَطِيعُ ادِّعَاءَ تَمَلُّكِهِ حِينَ صَارَ كَذَلِكَ.

وَقَد نَأْتِي إِلَى تَفْصِيلِ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ مِنْ بَحْثِنَا، وَإِنَّمَا نَعُودُ لِنُتِمَّ حَدِيثَنَا السَّابِقَ، فَفِيهِ ضَرُورَةٌ تُيَسِّرُ لَنَا اسْتِيعَابَ كَثِيرٍ مِمَّا جَاءَ فِي التُّرَاثِ فَنَضَعُهُ فِي مَحَلِّهِ الذِّي يَلِيقُ بِهِ مِنْ غَيرِ إِفْرَاطٍ أَوْ تَفْرِيطٍ! مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ الأَثِيرِ رَأَى أَنَّهُ لاَ بُدَّ لِلآخِذِ مَعَانِيَ غَيْرِهِ " مِنْ مُخَالَفَةِ المُتَأَخِّرِ المُتَقَدِّمَ، إِمَّا بِأَنْ يَأْخُذَ المَعْنَى فَيَزِيدَهُ مَعْنًى آخَرَ، أَوْ يُوجِزَ فِي لَفْظِهِ، أَوْ يَكْسُوَهُ عِبَارَةً أَحْسَنَ مِنْ عِبَارَتِهِ "[3]، فَلاَ يُنْسَبُ إِلاَّ إِلَيْهِ، وَلاَ يُورَدُ إِلاَّ مَعَ اسْمِهِ.

وَقَبْلَ ابْنِ الأَثِيرِ بِأَكْثَرَ مِنَ قَرنَيْنِ، كَانَ ابْنُ رَشِيقٍ كَتَبَ فِي (القُرَاضَةِ): " وَلَمَّا كَثُرَ هَذِهِ الكَثْرَةَ وَتَصَرَّفَ النَّاسُ فيه هذَا التَّصَرُّفَ لَمْ يُسَمَّ آخِذُهُ سَارِقًا، لأَنَّ المَعْنَى يَكُونُ قَلِيلاً فَيُحْصَرُ، وَيُدْعَى صَاحِبُهُ سَارِقًا مُبْتَدِعًا، فَإِذَا شَاعَ وَتَدَاوَلَتْهُ الأَلْسُنُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، تَسَاوَى فِيهِ الشُّعَرَاءُ إِلاَّ المجِيدُ، فَإِنَّ لَهُ فَضْلَهُ، أَوْ المُقَصِّرُ فَإِنَّ عَلَيْهِ دَرَكَ تَقْصِيرِهِ، إِلاَّ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ شَاعِرٌ زِيَادَةً بَارِعَةً مُسْتَحْسَنَةً، يَسْتَوْجِبُهُ بِهَا وَيَسْتَحِقُّهُ عَلَى مُبْتَدِعِهِ وَمُخْتَرِعِهِ "[4]، وَلَعَلَّ

---

[1]- نفسه، ص197.

[2]- الطّبقات، م.س، ص58.

[3]- المثلُ السَّائرُ، ج3، م.س، ص243.

[4]- قُراضَةُ الذَّهَبِ فِي نَقدأَشعَار العَرَبِ، ابنُ رَشيقٍ، تح: مُنِيف موسى، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط1، 1991م، صص20،21.

هَذَا ذَاتَهُ بَعْضُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الغَرْبِيُونَ اليَوْمَ وَهُمْ يَعْرِضُونَ لِقَضَايَا السَّرِقَةِ وَالتَّناصِّ.

إِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ يَضَعُنَا هُنَا أَمَامَ مَسْأَلَةٍ غَايَةٍ فِي الدِّقَّةِ تَتَعَلَّقُ بِأَهَمِيَّةِ الفَصْلِ بَيْنَ السَّرَقَةِ وَالأَخْذِ، فَالأُولَى مَرْفُوضَةٌ بِإِجْمَاعٍ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَفِيهَا نَظَرٌ!..لِذَا اجْتَهَدَ هَؤُلاَءِ فِي تَقْسِيمِ السَّرِقَاتِ وَتَبْوِيبِهَا، وَخَرَّجُوا لَنَا مِنْهَا أَنْوَاعًا، بَلْ وَأَطْنَبُوا فِي الحَدِيثِ فِيهَا حَتَّى أَشْكَلَتْ عَلَى غَيْرِ المُلِمِّينَ بمَسَائِلِهَا، وَلَكِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ (الأَخْذَ) بِأَنْوَاعِهِ دَاخِلٌ فِي صَمِيمِ عَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِ، كَيْفَ لاَ وَالذِّي يَأْخُذُ مِنْ غَيْرِهِ وَيَبْرَعُ فِي الزِّيَادَةِ فِيهِ يَصِيرُ أَحَقَّ بِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الجُمَحِيُّ أَنَّ امْرِئَ القَيْسِ " مَا قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا، وَلَكِنَّهُ سَبَقَ العَرَبَ إِلَى أَشْيَاءَ ابْتَدَعَهَا، وَاسْتَحْسَنَتْهَا العَرَبُ، وَاتَّبَعَتْهُ فِيهَا الشُّعَرَاءُ "[1]، فَفَضْلُهُ هُنَا كُلُّهُ فِي الاخْتِرَاعِ دَاخِلَ اللُّغَةِ ذَاتِهَا وَبِهَا، إِذْ هُوَ لَمْ يَقُلْ مَا لَمْ يَقُولُوا، وَلَكِنْ لَهُ سَبْقُ الإِبْدَاعِ وَلِغَيْرِهِ الاسْتِحْسَانُ وَالاتِّبَاعُ. فَنَحْنُ، وَمَعَ أَوَّلِ مَا وَصَلَنَا مِنْ شِعْرٍ، كَمَا أَشَرْنَا سَلَفًا، أَمَامَ مُعْضِلَةِ التَّكْرَارِ وَالتَّنَاصِ. وَلَسَيْت هَذِهِ الحَالُ مُقْتَصِرَةً عَلَيْنَا نَحْنُ العَرَبَ، بَلْ هِيَ عَامَّةٌ لِكُلِّ نِتَاجٍ أَدَبِيٍّ فِي أَيِّ لُغَةٍ أَوْ بَلَدٍ كَانَ.

وَلَعَلَّ أَبَا هِلاَلٍ العَسْكَرِيَّ كَانَ قَدْ اهْتَدَى إِلَى مَعْنىً طَرِيفٍ يَلِيقُ بِالمَـــقَامِ، وَيَصِفُ تِلْكَ الحَالَةَ الشُّعُورِيَّةَ التِّي تَعْتَرِي المُـــبدِعَ حِينَ " يَتَسَلَّلُ " إِلَى مَعَانِي غَرِيمِهِ يَسْتَلْهِمُ مِنْهَا وَيَبْنِي عَلَيْهَا، فَقَالَ: " وَالحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى المَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي مَسْتَرَةٍ فَيُحْكَمَ لَهُ بِالسَّبْقِ أَكْثَرُ مَنْ يَمُرُّ بِهِ "[2]، فَعَبَّرَ عَنْ تَرَسُّمِ خَطَوَاتِ غَيْـــرِهِ بِلَفْظَةِ "دَبِيبِ" وَهُوَ أَخْفَى مَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ المِشْـيَةُ، وَأَدْعَى مَا يَتَطلَّبُه السِّـتْرُ، إِذِ الكَشْـفُ وَالإِفْصَـاحُ هُنَا يَجْعَلُنَا إِلَى السَّرِقَةِ وَالانْتِحَالِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الإِبْدَاعِ وَالتَّجدِيدِ. وَرَأْيُ أَبِي هِلاَلٍ هَذَا هُوَ صُورَةٌ لِمَـــا انْتَهَى إِلَيْهِ نُقَّادُ الغَرْبِ فِي حَدِيثِهِمْ عَنِ السَّرِقَةِ*.

[1]- الطّبقات، م.س، ص55.

[2]- كِتَابُ الصّناعتين، م.س، ص198.

* يُنظر، على سبيل المثال الإحالتَان 3و4 ص18 من هذا الفصل.

وَإِلَى مِثْلِهِ ذَهَبَ القَاضِي الـــجُرْجَانِيُّ مِنْ بَابٍ سَمَّاهُ:(التَّفنُّنُ فِي السَّرِقَةُ)، يَقُولُ فِيهِ أَنَّ:" الشَّاعِرَ الحَاذِقَ إِذَا عَلِقَ المَـــعْنَى المُـــخْتَلَسَ عَدَلَ بِهِ عَنْ نَوْعِهِ وَصِنْفِهِ وَعَنْ وَزْنِهِ وَنَظْمِهِ، وَعَنْ رَوِيِّهِ وَقَافِيَتِهِ، فَإِذَا مَرَّ بِالغَبِيِّ الغُفْلِ وَجَدَهُمَا أَجْنَبِيَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ، وَإِذَا تَأَمَّلَهُمَا الفَطِنُ الذَّكِيُّ عَرَفَ قَرَابَةٍ مَا بَيْنِهِمَا، وَالوَصْـــلَةَ التِّي تَجْمَعُهُمَا "[1]. وَهُوَ ذَاتُ كَلاَمِ ابْنِ رَشِيقٍ الذِّي يَرَى أَنَّ فِي السَّرِقَةِ وَالأَخْذِ " أَشْيَاءَ غَامِضَةً إِلاَّ عَنِ البَصِيرِ الحَاذِقِ بِالصِّنَاعَةِ، وَأُخَرَ فَاضِحَةً لاَ تَخْفَى عَلَى الجَاهِلِ المُغَفَّلِ"[2].

هَكَذَا يُجْمِعُ نُقَّادُنَا، ثَلاثَتُهُمْ (العَسْكَرِيُّ، القَاضِي، ابْنُ رَشِيقٍ)، عَلَى جَمَالِيَّةِ الاتِّكَاءِ عَلَى مَعَانِي الغَيْرِ بِشَرْطِ الزِّيَادَةِ وَالحِذْقِ فِي ذَلِكَ، أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، يُلْقُونَ عَلَى المُتَلَقِّي مَسْؤُولِيَّةَ تَدَبُّرِ القَوْلِ وَمُقَارَنَتِهِ بِمَا عَلِقَ فِي أَذْهَانِهِمْ لإِظْهَارِ مِقْدَارِ التَّمَيُّزِ إِسَاءَةً أَوْ إِحْسَانًا، وَهُوَ عَيْنُ مَا جَاءَتْ إِلَيهِ القِرَاءَاتُ الحَدَاثِيَّةُ مِنْ تَقْسِيمٍ لِلقُرَّاءِ نَوْعَيْنِ: القَارِئُ العَادِيُّ وَالقَارِئُ الكُفْءُ، وَهُمَا مُصْطَلَحَانِ لاَ يَبْتَعِدَانِ، فِي مَا أَرَى، عَنْ "الفَطِنِ الذَّكِيِّ" وَ"الغَبِيِّ الجَاهِلِ" فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ!

يَحْمِلُنَا التَّكْرَارُ عَلَى الحَدِيثِ عَنْ ظَاهِرةٍ مُتَوَلِّدَةٍ عَنْهُ، عَالِقةٍ بِه هِيَ تَدَاخُلُ النُّصُوصِ وَالوَعْيُ بِالآخَرِ، وَقِرَاءَةِ نَصٍّ لِنَصٍّ ثَانٍ، وَحُضُورُهُ فِيهِ كَمًّا وَكَيْفًا، فَلَيْسَ هُنَاكَ نَصٌّ مُسْتَقِلٌّ بِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ الكَلِمَةُ مِنْ مَعَانِي الفَرَادةِ كَمَا مَثَّلْنَا سَابِقًا، إِذْ كُلُّ نَصٍّ هُوَ مَزِيجٌ مِنَ العَلاَقَاتِ الشُّعُورِيَّةِ وَ/أَوِ اللاَّشُعُورِيَّةِ المُتَبَادَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، تَعْتَمِلُ عَنْ وَعْيٍ أَوْ لاَوَعْيٍ فِي خَلَدِ المُبْدِعِ لِتَخْرُجَ إِلَى النُّورِ تَحْمِلُ مِنْ جِينَاتِ النُّصُوصِ السَّابِقَةِ فِي ذَاتِ الوَقْتِ الذِّي تَبْنِي فِيهِ تَمَيُّزَهَا، فَلَيْسَ التَّكْرَارُ " إِعَادَةَ إِنْتَاجِ الـ(عَيْنُهُ)، وَلَكِنْ قُدْرَةَ الاخْتِلاَفِ، بَلْ إِنَّ التَّكْرَارَ هُوَ مَوْضُوعُ الاخْتِلاَفِ نَفْسِهِ. هُوَ إِنْتَاجٌ إِيجَابِيٌّ وَتَكْثِيفُ الفَرَادَاتِ. وَالتَّكْرَارُ هُوَ

[1]- الوَسَاطةُ، القَاضِي الجُرْجانيُّ، م.س، ص204.

[2]- العمدة، ج 2، ابن رشيق، م.س، ص282.

كُلِّيَّةُ الفَرِيدِ ضِدَّ عُمُومِيَّةِ الخَاصِّ "[1]، إِذْ يَدْخُلُ النَّصُّ الخَاصُّ (مُنْتَجُ الشَّاعِرِ) فِي تَفَاعُلٍ وَتَمَاهِي مَعَ النَّصِّ العَامِّ (المُدَوَّناتُ السَّابِقَةُ) قَدْ تَمَّحِي مَعَهُ حُدُودُ الخُصُوصِيَّةِ، وَتَتَبَدَّدُ خُيُوطُ الفِكْرَةِ، وَتتوزَّعُ الصِّيَاغَةُ الفَرْدِيَّةُ مُتَنَاثِرَةً فِي النَّسِيجِ العَامِّ، وَإِنَّ عَكْسَ هَذَا صَحِيحٌ تَمَامًا، فَيَتَعَذَّرُ مَعَهَا الفَصْلُ بَيْنَهُمَا بَعْدَ أَنْ ذَابَا وَامْتَزجَا فِي كَيَانٍ وَاحِدٍ.

وَلِفَهْمِ هَذَا الأَمْرِ أَكْثَرَ، وَنَعْنِي عَلاَقَةَ التَّكْرَارِ بِالتَّنَاصِّ، نَسْتَدْعِي مِنَ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ شِعْرَ النَّقَائِضِ لمَا لَهُ مِنْ خُصُوصِيَّةٍ سَتُضِيءُ، بِالتَّأْكِيدِ، بَعْضَ غَوَامِضِ هَذِهِ العَلاَقَةِ المتَشَابِكَةِ الخُيُوطِ. لَقَدْ لاَحَظْنَا كَيْفَ أَنَّ أَحَدَ الشَّاعِرَيْنِ يَسْتَنِدُ، دُونَ حَرَجٍ، عَلَى نَصِّ خَصْمِهِ لِيَرْفَعَ بِنَاءَ قَصِيدَتِهِ عَلَى أَنْقَاضِهِ! فَيُعِيدُ اللَّفْظَ وَالعِبَارَةَ بَلْ وَالبَيْتَ كَامِلاً أَحْيَانًا عَدِيدَةً، عَدَا عَنِ الوَزْنِ وَتَوَابِعِهِ، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ عَنْ وَعْيٍ وَتَمَلُّكٍ لِلأَدَوَاتِ الفَنِّيَّةِ، إِذْ طَبِيعَةُ ذَلِكَ الشِّعْرِ تَرَى الضُّعْفَ وَالعَجْزَ فِي مُخَالَفَةِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ. فَإِنَّمَا التَّكْرَارُ هُنَا " تَكْوِينُ رَدِّ فِعْلٍ مُضَادٍّ مِنْ قِبَلِ النَّصِّ الثَّانِي يَتَجَلَّى فِي عِنَايَةٍ مُفْرِطَةٍ وَاسْتِيعَابٍ، وَإِعَادَةِ تَأْسِيسٍ وَإِعَادَةِ إِنْتَاجِ لُغَةِ النَّصِّ الأَوَّلِ "[2].

وَعَلَى هَذَا، فَلَيْسَ التَّكْرَارُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ " إِلْغَاءً لِلأَفْكَارِ السَّابِقَةِ، وَلاَ دَفْعًا لَهَا، وَإِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ تَوَاصُلِيٌّ تَوَالُدِيٌّ تَدَاوُلِيٌّ "[3]. يُعْطِي التَّكْرَارُ هُنَا، إِمْكَانِيَةَ التَّعَرُّفِ عَلَى خِطَابِ الآخَرِ مِن خِلاَل تَكْرَارِ خِطَابِهِ ذَاتِه بِـ(الضَّغْطِ) عَلَى مَوَاقِعَ مُحَدَّدَةٍ فِيهِ عَنْ قَصْدٍ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِك يَتَشَكَّلُ خِطَابُ الذَّاتِ وَيتَمَيَّزُ. إِنَّ التَّكْرَارَ–التَّنَاصَّ بِهَذِهِ الخَاصِّيَةِ، مُرَاوِغٌ وَمُنْتِجٌ، يُصَرِّحُ بِخِطَابٍ لِيُمَرِّرَ نَقِيضَهُ، إِنَّهُ خِطَابٌ يَهْدِمُ لِيَرْفَعَ عَلَى أَنْقَاضِ (الآخَرِ) وَفِي سَاحَتِهِ ذَاتِهَا خِطَابًا مُنَاوِئًا فِي بَعْضِ وُجُوهِهِ، " لِأَنَّ البِنْيَةَ اللَّفْظِيَّةَ فِي نُصُوصِ النَّقَائِضِ، هِيَ بِنْيَةٌ انْفِعَالِيَّةٌ تَقُومُ عَلَى الإِثَارَةِ، وعَلَى الارْتِدَادِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النُّصُوصِ الوَاقِعَةِ فِي مَجَالِهَا

[1]– يُنظر: الاختلاف والتّكرار، التّبت التّعريفيّ، م.س، ص555.

[2]– فاعلية التّكرار في بنية الخطاب الشّعريّ للنّقائض، م.س، ص37.

[3]– نفسه، ص33.

التَّناصِّيِّ "[1].

فَإِنْ نَحْنُ رُمْنَا البَحْثَ فِي الظَّاهِرَةِ وَجَدْنَاهَا مُتَجَذِّرَةً مِنْ قِدَمٍ، قَدْ حَفَلَتْ كُتُبُ الأَدَبِ وَالأَخْبَارِ بِذِكْرِ أَشْكَالِهَا العَدِيدَةِ، وَمَا أَثَارَتْهُ مِنْ جَدَلٍ لَمْ يَكْتَفِ بِوَصْفِهَا وَضَبْطِ حُدُودِهَا وَمَاهِيَّتِهَا، بَلْ تَجَاوَزَ إِلَى البَحْثِ فِي مُسَوِّغَاتِهَا وَدَوَاعِيهَا الفَنِّيَّةِ، فَقَدْ " حُكِيَ عَن أَصْحَابٍ لِلبُحْتُرِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ سُبِقْتَ بِهَذَا المَعْنَى لِأَنَّكَ سَرَقْتَهُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ، فَقَالَ: أَأُعَابُ بِأَخْذِي مِن أَبِي تَمَّامٍ؟! وَاللهِ مَا قُلْتُ شِعْرًا قَطُّ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ أَخْطَرْتُ شِعْرَهُ عَلَى بَالِي ثُمَّ أُسْقِطُ البَيْتَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ شِعْرِهِ فَلاَ يَكَادُ يُوجَدُ إِلاَّ فِي أَقَلِّ النُّسَخِ "[2].

وَفِي ذَاتِ الاتِّجَاهِ يَذْهَبُ ابْنُ خَلْدُونَ وَقَبْلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ الذِّي يَقُولُ: " وَجُمْلَةُ الحَالِ أَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ شِعْرِ المَاضِينَ، فَمَا اسْتَحْسَنَ العُلَماءُ فَاقْصِدْهُ، وَمَا تَرَكُوهُ فَاجْتَنِبْه"[3]، فَالأَخْذُ وَاسْتِحْضَارُ إِبْدَاعِ السَّابِقِينَ لاَ مَنَاصَّ مِنْهُ، وإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ، كَالبُحْتُرِيِّ مَثَلاً، يَتَفَاخَرُ بِأَنَّ شِعْرَهُ يَجْتَنِبُ التَّكْرَارَ وَيَتَنَزَّهُ عَنِ الإِعَادَةِ:

لاَ يَعْمَلُ المَعْنَى المُكَرَّرُ *** فِيـهِ وَاللَّفْظ المُـرَدَّدُ.

وَهَذَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَكَأَنَّهُ يَجِدُ مَعَرَّةً فِي أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ السَّرْقُ، فَيَنْفِي أَنْ يُطَابِقَ شِعْرُهُ كَلاَمَ غَيْرِهِ، فَيَقُولُ:

لاَ أَسْرِقُ الشُّعَرَاءَ مَا نَطَقُـوا *** بَلْ لاَ يُوَافِقُ شِعْرُهُـمْ شِعْرِي.
إِنِّي أَبَى لِي ذَلِكُمْ حَسَبِي *** وَمَقَـالُهُ كَمَقَاطِعِ الصَّـخْرِ.
وَأَخِي مِنَ الجِنِّ البَصِير إِذَا *** حَاكَ الكَلاَمَ بِأَحْسَنِ الحِبْرِ.

[1]- نفسه، ص37.

[2]- المنصف للسارق والمسروق منه، ابن وكيع، الحسن بن علي الضبي التنيسي أبو محمد، تح:عمر خليفة بن ادريس، الناشر جامعة قات يونس،= =بنغازي، ط1، 1994م، ص181.

[3]- العُمدَة، ج2، م.س، صص115،114.

لَكِنْ أَنَّ لَهُ أَوْ لِسِوَاهُ ذَلِكَ، وَالكَلامُ لَوْلاَ أَنَّهُ يُعَادُ لَنَفِدَ كَمَا يَقُول الإِمَامُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1]، وَهَذَا الأَصْمَعِيُّ حِينَ سُئِلَ عَنِ شِعْرِ المُوَلَّدِينَ، قَالَ:" مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ "[2]، وَكَأَنِّي بِهِ يَقْطَعُ بِاسْتِحَالَةِ اللَّحَاقِ بِمَا تَفَرَّدَ بِهِ الأَوَائِلُ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تَحْتَاجُ إِعْمَالَ نَظَرٍ إِذْ لَوْ كَانَتِ اللَّفْظَةُ " فَضِيلَةَ السَّابِقِ، وَمَقَالَةَ المُتَقَدِّمِ لَمَا تَعَايَرَتْ الشُّعَرَاءُ بِالسَّرْقِ وَالاجْتِلاَبِ!! "[3]، وَإِنَّمَا حَدَثَ التَّنَازُعُ وَالاسْتِلْحَاقُ بِسَبَبِ امْتِنَاعِ رَدِّ الكَلاَمِ إِلَى صَاحِبِهِ الأَوَّلِ.

وَلَعَلَّ هَذَا الذِّي دَفَعَ القَاضِي الجُرْجَانِيَّ إِلَى التَّأَنِّي فِي رَمْيِ الشُّعَرَاءِ بِالسَّرْقِ لاعْتِبَارَاتٍ مَوْضُوعِيَّةٍ عِدَّةٍ، فَـ" إِبْدَاعُ الشَّاعِرِ المُتَقَدِّمِ الذِّي أَبْلَتِ العُصُورُ جِدَّتَهُ، فَتَنَاوَشَهُ الشُّعَرَاءُ، وَتَقَاسَمُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ (مَا الأَسَدُ إِلاَّ بِضْعَةُ خِرَافٍ مَهْضُومَةٍ) فَاسْتَبَاحُوا اسْتِعمَالَهُ، حَتَّى غَدَا مَشَاعًا لَهُمْ، عِنْدَهَا يُصْبِحُ اتِّهَامُهُمْ بِالسَّرِقَةِ غَيْرَ مُسْتَسَاغٍ وَلاَ وَارِدٍ "[4]، وَهَذَا يُوَافِقُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ سَلاَّمَ فِي مَسْأَلَةِ الاسْتِزَادَةِ مِمَّا صَارَ مَثَلاً أَوْ كَالمَثَلِ.

وَقَدْ أَوْرَدَ صَاحِبُ (الحِلْيَةِ) كَلاَمًا مُهِمًّا فِي دَفْعِ شُبْهَةِ السَّرِقَةِ عَنْ الشُّعَرَاءِ تَحْتَ بَابِ (الانْتِحَالُ وَالاسْتِلْحَاقُ) نُفَصِّلُهُ هُنَا لأَهَمِّيَتِهِ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّنَا نَرَى "الأَعْرَابِيَّ أَعْرَمَ لاَ يَقْرأُ ولاَ يَكْتُبُ، وَلاَ يَرْوِي وَلاَ يَحْفَظُ، وَلاَ يَتَمَثَّلُ وَلاَ يَحْذُو. وَلاَ يَكَادُ يُخْرِجُ كَلاَمَهُ عَنْ كَلاَمِ مَن قَبْلَهُ، ولاَ يَسْلُكُ إِلاَّ طَرِيقَةً قَدْ ذُلِّلَتْ لَهُ "[5]. فَهُوَ إِذَنْ، سَمْتٌ خَطَّهُ السَّابِقُونَ وَيَسَّروا السَّيْرَ فِيهِ لِمَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى إِنَّهُمْ لاَ يَكَادُونَ يُغَادِرُونَهُ، " وَمَن ظَنَّ أَنَّ كَلامَهُ لاَ يَلْتَبِسُ بِكَلاَمِ غَيْرِهِ، فَقَد كَذَبَ ظَنُّهُ، وَفَضَحَهُ امْتِحَانُهُ. وَقَدْ قَالَ أَرِسْطُوطَالِيس:(مِن البَلاغَةِ حُسْنُ الاسْتِعَارَةِ) ولَوْ نَظَرَ نَاظِرٌ فِي مَعَانِي الشِّعْرِ وَالبَلاَغَةِ، حَتَّى يُخْلِصَ لِكُلِّ شَاعِرٍ وبَلِيغٍ مَا

---

[1]- نفسه، ج1، ص80.

[2]- نفسه، ص.ن.

[3]- حِلية المحاضرة فِي صِناعَةِ الشِّعْر، أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّد بنُ الحَسَنِ بن المظَفَّر الحاتميّ، تح:جَعْفَر الكَتَّانِي، دارُ الرَّشِيد للنَّشْرِ، العِرَاق، د.ط، 1979م، ص29.

[4]- النّصّ الغائب، م.س، ص114.

[5]- حلية المحاضرة، ج2، الخبر رقم:796، م.س، ص28.

انْفَرَدَ بِهِ مِنْ قَوْلٍ، وَتَقَدَّمَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى، لَمْ يُشْرِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ، لأَلْفَى ذَلِكَ قَلِيلاً مَعْدُودًا، ونَزَرًا مَحْدُودًا "[1].

وَهَاهُوَ شِعْرُ امْرِئِ القَيْسِ ذَاتُهُ، وَقَدْ أَجمَعَ العُلَماءُ بِالشِّعْرِ، وَأَصْحَابُ العَرَبِيَّةِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ بَكَى الدِّيَارَ، وَرَثَى الآثَارَ، يُبْطِلُ هَذَا الحُكْمَ وَيُخَطِّئُهُ، أَلَيْسَ يَقُولُ؟! [مِنَ الكَامِلِ]:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنا *** نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِذَامِ[2].

فَانْظُرْ خَبَرِ ابْنِ حَذَامٍ هَذَا وَقَدْ أَقَرَّ امْرُؤُ القَيْسِ بِأَنَّهُ قُدْوَتُهُ فِي البُكَاءِ عَلَى الدِّيَارِ[3]، أَيْ أَنَّهُ يَحْذُو مِثَالَهُ فِي صَنِيعِهِ ذَاكَ، مِنْ بُكَاءٍ وَوُقُوفٍ عَلَى الدَّارِسِ مِنَ الأَطْلاَلِ.

إِذَن، فَالكَلاَمُ العَرَبِيُّ، عَلَى رَأْيِ أَحمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ: " مُلْتَبِسٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَآخِذٌ أَوَاخِرَهُ مِنْ أَوَائِلِهِ، وَالمُبْتَدَعُ مِنْهُ وَالمُخْتَرَعُ قَلِيلٌ، إِذَا تَصَفَّحْتَهُ وَامْتَحَنْتَهُ، وَالمُحْتَرِسُ المتَحَفِّظُ المَطْبُوعُ بَلاَغَةً وَشِعْرًا مِنَ المُتَقَدِّمِينَ وَالمتَأَخِّرِينَ لاَ يَسْلَمُ أَنْ يَكُونَ كَلاَمُهُ آخِذًا مِنْ كَلاَمِ غَيْرِهِ، وَإِنْ اجْتَهَدَ فِي الاحْتِرَاسِ، وَتَخَلَّلَ طَرِيقَ الكَلاَمِ، وَبَاعَدَ فِي المَعْنَى، وَأَقْرَبَ فِي اللَّفْظِ، وأَفْلَتَ مِنْ شِبَاكِ التَّدَاخُلِ. فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ مَعَ المُتَكَلِّفِ المُتَصَنِّعِ وَالمُعْتَمِدِ القَاصِدِ "[4]. حَتْمِيَّةٌ إِذَنْ، هِيَ تِلْكَ الطَّرِيقُ، بَيِّنَةُ المَعَالِمِ، يَهْتَدِي فِيهَا الشَّاعِرِ بِالأَثَرِ الذِّي انْطَبَعَ فِي اللُّغَةِ ذَاتِهَا عَبْرَ الاسْتِعْمَالِ المُتَوَاتِرِ، إِذْ إِنَّ كَلِمَاتِهِ مَسْكُونَةٌ سَلَفاً بِصَوتِ الآخَرِ، مُمْتَلِئَةٌ بِهِ.

وَهَذِهِ كَانَتْ الحُجَّةَ التِّي اتَّكَأَ عَلَيْهَا المُتَنَبِّي لِرَدِّ تُهْمَةِ الإِغَارَةِ التِّي الْتصَقَتْ بِكَثِيرٍ مِنْ

---

[1]- نفسه، ص.ن.

[2]- ديوان امرئ القيس، ج1، ديوان امرئ القيس، امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1425 هـ/2004م، ص151، و الشّعر والشّعراء، ص128.

[3]- حلية المحاضرة ،م.س، ج2، ص30. ويُنظر: جمهرة أنساب العرب، أَبُو عَلِيّ بنُ أحمدَ بنُ سَعِيدِ بن حزم الأندلسيّ، تح وتع: عبد السّلام محمّد هارُون، ط5، دار المعارف، د.ت، ص456.

[4]- حلية المحاضرة، الخبر رقم:795، م.س، ص28.

شِعْرِهِ، فَهَا هُوَ يَقُولُ مُتَحَدِّيًّا وَاثِقًا مِنْ مَذْهَبِهِ:" تِلْكَ عُقُولُ رِجَالٍ تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا. وَبَعْدُ فَمَنْ هَذَا الذِّي تَعَرَّى مِنَ الاتِّبَاعِ، وَتَفَرَّدَ بِالاخْتِرَاعِ وَالابتِدَاعِ، لاَ أَعْلَمُ شَاعِرًا جَاهِلِيًّا وَلاَ إِسْلاَمِيًّا إِلاَّ وَقَدْ احْتَذَى وَاقْتَفَى، وَاجْتَذَبَ وَاجْتَلَبَ "[1]. فَمَنْ ذَا يَجْرُأُ عَلَى إِنْكَارِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ، حَقِيقَةِ حَتِمِيَّةِ الاتِّبَاعِ وَالتَّمَثُّلِ بِالسَّابِقِ؟ فَهَا إِنَّ الجَمِيعَ فَعَلُوا ذَلِكَ عَبْرَ جَمِيعِ العُصُورِ! عَدَمُ التَّقْلِيدِ زَعْمٌ لاَ يَخْلُو مِنْ نِفَاقٍ...فَكُلُّ النَّاسِ يُقَلِّدُونَ وَإِنْ كَانُوا لاَ يُقِرُّونَ بِذَلِكَ.

عَلَى أَنَّ عَبْدَ القَاهِرِ الجُرْجَانِيَّ يَرَى أَنَّ الكَلاَمَ : " إِذَا رُكِّبَ عَلَيْهِ مَعْنًى، وَوُصِـــلَ بِهِ لَطِيفَةٌ، وَدُخِلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ الكِفَايَةِ وَالتَّعْرِيضِ وَالرَّمْزِ وَالتَّلْوِيحِ، فَقَدْ صَـــارَ بِمَا غُيِّرَ مِنْ طَرِيقَتِهِ، وَاسْتُأْنِفَ مِنْ صُورَتِهِ، وَاسْتُجِدَّ لَهُ مِنَ المعْرَضِ، وَكُسِيَ مِنْ ذَلِكَ المِعْرَضِ دَاخِلاً فِي قَبِيلِ الخَاصِّ الذِّي يُمْلَكُ بِالفِكْرَةِ وَالتَّعَمُّلِ، وَيُتَوَصَّـلُ إِلَيْهِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ "[2]. وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ إِخْرَاجَ الكَلاَمِ مِنَ العُمُومِ المُـــشْـتَرَكِ وَإِدْخَالِهِ دَائِرَةَ الخَاصِّ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَا يُحْدِثُهُ الشَّاعِرُ مِنْ صُنُوفِ التَّحْوِيرِ الفَنِيِّ لاَ تَمَّحِي مَعَهُ الصُّورَةُ الأَصْلِيَّةُ لِلكَلاَمِ بَلْ تَتَرَاجَعُ خَلْفَ سِتَارِ الجِدَّةِ الشَّفَّافِ الذِّي يَفْصِلُ بَيْنَ المَـعْنَى الأَوَّلِ والثَّانِي، وَبِهَذَا نَقَل الجُرْجَانِيُّ مَوْضُوعَ السَّـرِقَاتِ " مِن دَائِرَةِ الاتِّهَامِ إِلَى دِرَاسَـةٍ فَنِّيَّة خَالِصَـةٍ لِلمَعَانِي يَنْتَفِي مَعَهَا وُجُودُ سَـرِقَةٍ عَلَى الإِطْلاَقِ إِلاَّ إِذَا كَانَتْ نَسْخًا "[3].

وَلَمَّا كَانَ نُقَّادُنَا القُدَمَاءُ قَدْ أَدْرَكُوا الفُرُوقَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالأُسْلُوبِ وَبَيْنَ بِنْيَةِ الخِطَابِ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا الأَوَّلَيْنِ فِي مَنْزِلَةِ السَّرِقَةِ وَأَدْخَلُوا الثَّانِيَةَ فِي بَابِ الضَّرُورَةِ التِّي يَشْتَرِطُهَا الخِطَابُ[4]، وَلَمْ يَعُدُّوهَا مَنْقَصَةً وَعَيْبًا، وَفَوْقَ هَذَا فَإِنَّهُ لاَ يُمْكِنُكَ أَنْ تَكُونَ فَحْلاً مُقْتَدِرًا إِنْ

[1]- الرّسالة المُوضّحة في ذكر سرقات المتنبّي وساقِطِ شعْرِهِ، ج1، الحاتِمِيُّ، تح:محمّد يوسف نجم، دار صادر للطّباعة والنّشر، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت، 1385هـ/1965م، ص41.

[2]- أَسْرارُ البلاغَةِ، عبد القاهر الجرجانيّ، ص296، يُنظر: النّقد الأدبيّ، عبد العزيز عتيق، صص352،351.

[3]- في النّقد الأدبيّ، عبد العزيز عتيق، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1972م، ص353.

[4]- يُنظر:الشّعر العربيّ الحديث بنياته وإبدالاتها، ج3:الشّعر المعاصر، محمّد بنّيس، دار توبقال، المغرب، ط1، 1990م، ص183.

أَنْتَ لَمْ تَرْوِ شِعْرَ غَيْرِكَ، وَتَتَّخِذْهُ مُرْتَقًى عَلَيْهِ تَتَسَنَّمُ مِنَصَّةَ الاسْتِحْقَاقِ، إِذِ:" الفُحُولَةُ هُمُ الرُّواةُ "[1] كَمَا يَقُولُ رُؤْبَةُ بْنُ العَجَاجِ وَيُؤَكِّدُهُ الأَصْمَعِيُّ، فَالشَّاعِرُ لاَ يَصِيرُ:" فِي قَرْضِ الشِّعرِ فَحْلاً حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ العَرَبِ، وَيَسْمَعَ الأَخْبَارَ، وَيَعْرِفَ المَعَانِي وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الأَلْفَاظُ "[2]. فَكَيْفَ لَهُ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَنْسَاهُ، أَوْ أَنْ نَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يُخْلِيَ مِنْهُ شِعْرَهُ وَقَدْ خَالَطَ فِكْرَهُ وَتَشَرَّبَتْهُ ذَاكِرَتُهُ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ عَنْ وَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ؟!

الْتَقَطَ أَحمَد أَمِينْ رَأْيَ ابْنَ خَلْدُونَ فِي عَمَلِ الشِّعْرِ وَصِنَاعَتِهِ ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ فِكْرَتَهُ فِي كَيْفِيَّةِ تَجْوِيدِ الكِتَابَةِ وَامْتِلاَكِ نَاصِيَتِهَا، فَقَالَ:" النَّقْدُ الأَدَبِيُّ كَكُلِّ عِلْمٍ نَاشِئٌ عَنْ مَلَكَاتٍ خَاصَّةٍ تنُمُو بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّمْرِينِ، فَلَوْ سُئِلْتُ عَنْ نَاشِئٍ يُرِيدُ أَنْ يُعِدَّ نَفْسَهُ لِيكُونَ نَاقدًا أَيَّ طَرِيقٍ يَسْلُكُ؟ أَقُولُ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَوَّلاً أَنْ يُكْثِرَ مِن قِرَاءَةِ الأَدَبِ وَيتَفَهَّمَهُ وَيُحَاكِي جَيِّدَهُ، كَالذِّي رَوَى أَنَّ نَاشِئًا عَرَبِيًّا سَأَلَ أُستَاذهُ كَيفَ يَشْدُو فِي الأَدَب؟ فَنصَحَهُ أَنْ يحْفَظَ دَيوَانَ الحَمَاسَةِ ثُمَّ يَجْتَهِدَ أَنْ يجْعَلَ شِعْرَهُ نَثْرًا بَلِيغًا. فَلَمَّا فرَغَ مِنْ ذَلِكَ طَلَبَ مِنْهُ الإِعَادَةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَنْسَاهَا، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الشَّيْخَ نَصَحَ بِذَلِك لِأَنَّ النَّاشِئَ إِذَا نَسَاهَا نَسِيَ مَادَّتَهَا وَبَقِيَتْ أَنْمَاطُهَا فِي ذِهْنِهِ يَسْتَمِدُّ مِنْهَا عِنْدَ حُضُورِ مَا يُنَاسِبُهَا "[3]، وَهَذَا شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ التَّدَاخُلِ التِّي تَحْدُثُ مِنْ لاَوَعْيِ الأَدِيبِ وَتَتسَلَّلُ إِلَى نُصُوصِهِ لِتُصْبِحَ جُزْءً مِنْهَا لَهُ كَامِلُ الحَقِّ فِي ادِّعَاءِ مِلْكِيَّتِهَا.

وَيُؤَكِّدُ عَبْدَ المَالِك مُرْتَاضْ هَذَا التَّوَجُّهُ حِينَ رَاحَ يُعَرِّفُ التَّنَاصَّ بِأَنَّـهُ " الوُّقُوعُ فِي حَالٍ تَجْعَلُ المُبْدِعَ يَقْتَبِسُ أَوْ يُضَمِّنُ أَلْفَاظاً وَأَفْكَارًا كَانَ الْتَهَمَهَا فِي وَقْتٍ سَابِقٍ مَا، دُونَ وَعْيٍ صَرِيحٍ بِهَذَا الأَخْذِ المُتَسَلِّطِ عَلَيْهِ مِنْ مَجَاهِلِ ذَاكِرَتِه، وَمَتَاهَاتِ وَعْيِه "[4]. فَمَا يَعْلَقُ

---

[1]- البيان والتّبيين، ج2، الجاحظ، م.س، ص8.

[2]- العُمدة، ج2، م.س، ص329.

[3]- النّقد الأدبيّ، أحمد أمين، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، ، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ص14.

[4]- فكرة السّرقات الأدبيّة ونظريّة التّناصّ، عبد الملك مرتاض، علامات في النّقد، الجزء:1، المجلّد:1، النّادِي الأَدبِيُّ الثَّقَافِي، جَدَّة، مايو1991م، ص87.

بِالذِّهْنِ مِنْ (رَوَاسِبَ) يُعزِّزُ الرَّصِيدَ المَعْرِفِيَّ وَاللُّغَوِيَّ لِلمُبْدِعِ وَالقَارِئِ فِي آنٍ، وَتَقُومُ الذَّاكِرَةُ بِاسْتِدْعَائِهِ حِينَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ التَّنَاصُّ بِهَذَا مُعَبِّرًا " عَنِ الاسْتِمْرَارِيَّة الجِينِيَّة لِلنَّصِّ يَكْشِفُ أَنَّ الإِبْدَاعَ نَصٌّ وَاحِدٌ أَزَلِيٌّ مُسْتَمِرٌّ، تُعَبِّرُ الإِنْجَازَاتُ المُتَتَالِيَةُ عَنْ تَمَظْهُرَاتِهِ التِيِّ تَتَنَاسَبُ طَرَدِيًّا وَالمَوَاقِفَ التِيِّ أَمْلَتْهَا فَقَطْ، فَإِذَا تَغيَّرَتْ هَذِهِ الاقْتِضَاءَاتُ الخَارِجِيَّةُ، تَغَيَّرَ شَكْلُ النَّصِّ لِيُنَاسِبهَا، وَيُناسِبَ حِدَّةَ التَّوتُّرَاتِ التِيِّ تَسْكُنُهَا "[1].

فَالتَّكْرَارُ وَالسَّرِقَةِ، أَوْ كُلُّ ذَلِكَ مَعًا، مَسْأَلَةٌ شَغَلَتْ فَضَاءً كَبِيرًا فِي النِّتَاجِ الشِّعْرِيِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، وَلاَ تَزَالُ إِلَى يَوْمِنَا تُثِيرُ اهْتِمَامَ النُّقَّادِ وَتَسْتَفِزُّ فُضُولَهُمْ مَعَ كُلِّ سَانِحَةٍ لِمُصْطَلَحٍ أَوْ إِجْرَاءٍ نَقْدِيٍّ يَجِدُّ، فَهَاهُوَ عَبْدُ الفَتَّاحِ يُوسف يَلْتَفِتُ إِلَى ظَاهِرَةٍ ارْتَبَطَتْ " بِرُؤْيَةٍ نَقْدِيَّةٍ، أَوْ مِعْيَارٍ نَقْدِيٍّ، الْتَمَسَ فِيهِ النُّقَّادُ القُدَمَاءُ العُذْرَ لِلشُّعَرَاءِ فِي تَكْرَارِ مَعَانِي مَنْ سَبَقَهُمْ، شَرِيطَةَ أَنْ يَبْتَعِدُوا عَنِ التَّكْرَارِ الذِّي يَقُومُ عَلَىَ المُمَاثَلَةِ أَوِ السَّرِقَةِ؛ لأَنَّ هَذِهِ المُمَارَسَةَ تَخْرُجُ بِالشَّاعِرِ مِنْ حَيِّزِ الإِبْدَاعِ، وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ تُوَازِي نَظَرِيَّةَ تَدَاخُلِ النُّصُوصِ أَوِ التَّنَاصِّ (*intertextualité*) بِمَعْنَاهَا الوَاسِعِ فِي النَّقْدِ الغَرْبِيِّ الحَدِيثِ "[2]. فَالتَّكْرَارُ مَقْبُولٌ مَا بَقِيَ بَعِيدًا عَنِ الإِغَارَةِ وَالاجْتِلاَبِ الصَّرِيحِ الذِّي يُلْحِقُهُ بِالسَّرِقَةِ المَحْضَةِ التِّي تُفْقِدُهُ أَهْلِيَتَهُ لِلارْتِقَاءِ فِي مَدَارِجِ الإِبْدَاعِ وَالجَمَالِ.

لَقَدْ مُورِسَ التَّكْرَارُ فِي تُرَاثُنَا بِشَكْلٍ كَثِيفٍ حَتَّى غدَا ظَاهِرَةً اسْتَحَقَّتْ الدِّرَاسَةَ وَالتَّدَبُّر، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ تُخْطِئْهُ عَيْنُ النَّاقِدِ العَرَبِيِّ الحَصِيفِ قَدِيمًا، وَعَدَّهَا كَثِيرُونَ حَتْمِيَّةً لِلْحِفَاظِ عَلَى الجِنْسِ الأَدَبِيِّ وَاسْتِمرَارِيَّتِهِ، وَفِي ذَاتِ الوَقْتِ دَلِيلاً عَلَى عَدَمِ اسْتِقْلاَلِيَّةِ النَّصِّ، كَوْنَ المَعْنَى الأَوَّل اعْتُبِرَ مَصْدَرًا لِلمَعْرِفَةِ الجَدِيدَةِ وَمُؤَوِّلاً لِلدَّلاَلَةِ المُتَنَامِيَّة[3]، خُصُوصًا إِذَا مَا تَعَلَّقَ الأَمرُ بِالمُعَارَضَاتِ وَالنَّقَائِضِ وَالاقْتِبَاسَاتِ وَمَا شَابَهَهَا مِنْ طَرَائِقِ

[1]- توتُّرات الإبداع الشّعريّ نحو رؤية داخليّة للدّفق الشّعريّ وتضاريس القصيدة، حبيب مونسي، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، ط2002/2001م، ص67.

[2]- فاعليّة التّكرار في بنية الخطاب الشّعريّ للنّقائض، م.س، ص31.

[3]- يُنظر: نفسه، ص.ن.

الإِبْدَاعِ الأَدَبِيِّ.

غَيْرَ أَنَّ هَذَا التَّكْرَارَ بَلَغَ حَدًّا عَادَ مَعَهُ الكَلاَمُ مُشْتَبِهًا، وَالسَّرْقُ تُهْمَةً وَادِّعَاءً لاَ يَسْلَمُ مِنْهُ مُبْدِعٌ وَإِنْ عَلاَ كَعْبُهُ، وَبَزَّ أَقْرَانَهُ، فَوَجَبَ حِينَهَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ التَّكْرَارِ وَالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ الأَبْوَابِ التِّي أَتَاهَا مِنْهُ السَّابِقُونَ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ، مُرَاجَعَةُ المُصْطَلَحَاتِ وَإِعَادَةُ ضَبْطِهَا:أَخْذًا وَاجْتِلاَبًا وَنَقْلاً وَاهْتِدَامًا، وَابْتِدَاعًا وَاتِّبَاعًا مِمَّا يَضَعُنَا، ونَحْنُ نَدْرُسُ نَصَّ الزُّهْدِ عُمُومًا، وَالنَّصَّ العَتَاهِيِّ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، أَمَامَ جُمْلَةٍ مِنَ التَّسَاؤُلاَتِ التِّي تَفْرِضُ إِعَادَةَ النَّظَرِ فِي كَثِيرٍ مِنَ المُسَلَّماتِ النَّقْدِيَّةِ التِّي كَانتْ تَقُولُ بِمَاهِيَّةِ السَّرِقَةِ الأَدَبِيَّةِ، وَتُهْمَةِ التَّلَصُّصِ وَالإِغَارَةِ التِّي اسْتَتْبَعَتْهَا، وَالتِّي عَلِقَتْ مَعَايِبُهَا بِالشُّعَرَاءِ، مَشَاهِيرِهِمْ ومَغْمُورِيهِمْ، بَلْ إِنَّهَا كَانَتْ بِالمُتَفَوِّقِينَ أَلْصَقَ وَأَشْنَعَ.

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ أَمْرًا آخَرَ لاَ يُمْكِنُ الالْتِفَاتُ عَنْهُ وَنَحْنُ نَتَناوَلُ مَسْأَلَةَ السَّرِقَةِ وَشِعْرَ الزُّهْدِ، وَهُوَ التَّكْرَارُ المُطَّرِدُ فِي لُغَةِ هَذَا الشِّعْرِ وَأَسَالِيبِهِ وَمَوْضُوعَاتِهِ وَصُوَرِهِ، وَالذِّي أَتَاحَ التَّنَاصُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الزَّاوِيَةِ التِّي كَانتْ دَارِجَةً مِنْ قَبْلُ. وَسَنُحَاوِلُ مِنْ خِلاَلِ بَعْضِ النَّمَاذِجِ التَّطْبِيقِيَّةِ، مَشْفُوعَةً بِالآرَاءِ النَّقْدِيَّةِ التِّي تُقَارِبُهَا، تَحْقِيقَ مَدْخَلٍ مُخْتَلِفٍ لِفَهْمِ إِصْرَارِ الشُّعَرَاءِ عَلَى هَذَا التَّكْرَارِ وَالأَخْذِ، وَهُمْ يُصَرِّحُونَ، غَيْرَ مَا مَرَّةٍ، بِأَنَّهُم يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، بَلْ يَرْغَبُونَهُ وَيَطْلُبُونَهُ، قُدَمَاؤُهُم وَمُحْدَثُوهُمْ، عَرَبًا كَانُوا أَوْ عَجَمًا.

فَالشَّاعِرُ يَبْنِي خِطَابَهُ الشِّعْرِيَّ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ المُقَوِّمَاتِ وَالخَصَائِصِ، وَالتِّي مِنْ أَهَمِّهَا " حَسَاسِيَّتُهُ المُفْرِطَةُ بِمَا يَدُورُ حَولَهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَى التَّعْبِيرِ عَمَا يَخْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَحَاسِيسَ، (...)، فَلِكَيْ يَكُونَ نَاجِحًا فِي خَلْقِهِ الشِّعْرِيِّ لاَبُدَّ لَهُ مِنْ ثَقَافَةٍ شَامِلَةٍ وَاسِعَةٍ تَتَطَرَّقُ إِلَى كُلِّ العُلُومِ وَتَضْرِبُ فِيهَا بِسَهْمٍ وَأَهَمُّهَا اللُّغَةُ وَالشِّعْرُ وَالتَّارِيخُ "[1]، وَيَسْعَى بِفِطْنَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ إِلَى إِدْمَاجِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي بِنْيَةِ الخِطَابِ كُلَّما احْتَاجَ إِلَيْهِ، فَالنَّصُّ يَعْتَمِدُ " عَلَى

[1]- فِي ماهيّة النّصّ الشّعريّ، إطلالة أسلوبيّة من نافذة التّراث النّقديّ، محمّد عبد العظيم، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1415 هـ/1998م، ص39.

غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ النَّثْرِيَّةِ أَوِ الشِّعْرِيَّةِ القَدِيمَةِ أَوِ المُعَاصِرَةِ، الشَّفَاهِيَّةِ أَوِ الكِتَابِيَّةِ، العَرَبِيَّةِ أَوِ الأَجْنَبِيَّةِ، وَوُجُودُ صِيغَةٍ مِنَ الصِّيَغِ العَلاَئِقِيَّةِ وَالبِنْيَوِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ وَالتَّشْكِيلِيَّةِ وَالأَسْلُوبِيَّةِ بَيْنَ النَّصّيْنِ "[1]، وَالتِّي تَعْمَلُ عَلَى النُّهُوضِ بِالنَّصِّ الجَدِيدِ مِنْ خِلاَلِ جُمْلَةٍ مِنَ الوَسَائِطِ، خَفِيَّةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ، تَرْبِطُهُ بِالسَّابِقِ عَلَيْهِ.

هَذَا الفَهْمُ لِمَاهِيَّةِ التَّناصِّ وَإِشْكَالِيَّةِ (التَّلاَصِّ) مِنْ طَرَفِ نُقَّادِنَا المُحْدَثِينَ وَإِنْ كَانَ يَسْعَى، فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، إِلَى تَوْظِيفِ المَوْرُوثِ العَرَبِيِّ الذِّي تَنَاوَلَ المَسْأَلَةَ، إِلاَّ أَنَّهُم كَانُوا فِي الأَغْلَبِ مَبْهُورِينَ بِالمُصْطَلَحِ الغَرْبِيِّ، مُنْكَبِّينَ عَلَى تَدَارُسِهِ، وَمِنِ خِلاَلِهِ قَدَّمُوا قِرَاءَاتِهِمْ لِلمُدَوَّنَةِ الأَدَبِيَّةِ القَدِيمَةِ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ. فَقَدْ حَدَّهُ أَحْمَدُ الزُّعْبِي بِـ " أَنْ يَتَضَمَّنَ نَصٌّ أَدَبِيٌّ مَا نُصُوصاً أَوْ أَفْكَارًا أُخْرَى سَابِقَةً عَلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ الاقْتِبَاسِ أَوِ التَّضْمِينِ أَوِ الإِشَارَةِ أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ مِنَ المَقْرُوءِ الثَّقَافِيِّ لَدَى الأَدِيبِ، بِحَيْثُ تَنْدَمِجُ هَذِهِ النُّصُوصُ أَوِ الأَفْكَارُ مَعَ النَّصِّ الأَصْلِيِّ وَتَنْدَغِمُ فِيهِ لِيَتَشَكَّلَ نَصٌّ جَدِيدٌ وَاحِدٌ مُتَكَامِلٌ "[2]، إِذِ النَّصُّ ابْنُ النَّصِّ [3] بِحَسَبِ تَعْبِيرِ عَبْدِ اللهِ الغَذَامِيّ.

وَقَدْ عَرَّفَ سَمِيرٌ حِجَازِي فِي (قَامُوسُ مُصْطَلَحَاتِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ المُعَاصِرِ) التَّنَاصَّ بِأَنَّهُ " وُجُودُ نَصٍّ أَصْلِيٍّ فِي مجَالِ الأَدَبِ أَوِ النَّقْدِ أَوِ العِلْمِ عَلَى عَلاَقَةٍ بِنُصُوصٍ أُخْرَى، وَأَنَّ هَذِهِ النُّصُوصَ قَدْ مَارَسَتْ تَأْثِيراً مُبَاشِرًا أَوْ غَيْرَ مُبَاشِرٍ عَلَى النَّصِّ الأَصْلِيِّ فِي مَرْحَلَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ "[4]. وفِي دِرَاسَةٍ لِرِوَايَةِ (رُؤْيَا) لِهَاشِمْ غْرَايْبَةَ عَرَّفَهُ أَحْمَدُ الزُّعْبِيُّ بِكَوْنِهِ " تَدَاخُلَ نُصُوصٍ أَدَبِيَّةٍ مُخْتَارَةٍ، قَدِيمَةٍ أَوْ حَدِيثَةٍ، شِعْراً أَوْ نَثْراً مَعَ نَصِّ الرِّوَايَةِ الأَصْلِيِّ بِحَيْثُ تَكُونُ مُنْسَجِمَةً وَمُوَظَّفَةً وَدَالَّةً قَدْرَ الإِمْكَانِ عَلَى الفِكْرَةِ التيِّ يَطْرَحُهَا المُؤَلِّفُ أَوِ الحَالَةِ التِّي يُجَسِّدُهَا "[5]؛

---

[1]- استراتيجيّة التّناص في الخطاب الشّعريّ العربيّ الحديث، محمود جابر عبّاس، علامات في النّقد، ج46، م12، نَادِي جَدَّةَ الأَدَبِيُّ، شوّال 1423هـ، ص266.

[2]- التّناص نظريّاً وتطبيقيّاً، أحمد الزّعبي، مؤسّسة عمّون للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، ط2، 1420هـ/2000م، ص11.

[3]- ينظر: ثقافة الأسئلة (مقالات في النّقد والنّظريّة)، عبد الله الغذامي، النّادي الأدبيّ الثّقافيّ، جدة، ط2، 1992م، ص111 وما بعدها.

[4]- قَامُوس مُصطلحات النَّقدِ الأَدبيِّ المعاصر، سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م، ص74.

[5]- ينظر: التّناص نظريّاً وتطبيقيّاً، م.س، ص50.

عَلَى أَنَّنَا نَتَحَفَّظُ هُنَا عَلَى كَلِمَةِ "أَصْلِيٍّ" فَالنَّصُّ "الأَوَّلُ"، فِي مَفْهُومِ التَّنَاصِّ، مَجْهُولُ النَّسَبِ، لاَ يُمْكِنُ الجَزْمُ بِأُبُوَّةِ أَحَدٍ لَهُ، هَذَا إِنْ وُجِدَ ذَاكَ النَّصُّ أَصْلاً!

وَيَدْعُونَا عَبْدُ المَالِك مُرْتَاض إِلَى الابْتِعَادِ عَنِ النَّقْدِ القَائِمِ عَلَى إِصْدَارِ الأَحْكَامِ وَأَنْ نُحِلَّ القِرَاءَةَ مَحَلَّهُ كَوْنَهَا " تُمْسِي إِبْدَاعًا يُكْتَبُ عَنْ إِبْدَاعٍ، فَيَصِيرُ النَّصُّ قَادِرًا عَلَى الإِخْصَابِ، وَيَشْتَدُّ مِنْ حَوْلِهِ حِوَارُ النُّصُوصِ، فيُفْضِي نَصٌّ إِلَى نَصٍّ ثَانٍ، وَنَصٌّ ثَالِثٌ إِلَى نَصٍّ رَابِعٍ، فنُمْسِي أَمَامَ مَلْحَمَةٍ يُمْكِنُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَيْهَا (النَّصْنَصَةُ المُتَسَلْسِلَةُ)... وَتَبلُغُ فَعَّالِيَّـةُ اللُّغَةِ فِي هَذَا المُسْتَوَى مِنَ الكِتَابَةِ ذِرْوَتهَا العُلْيَا وَدَرَجَتَهَا القُصْوَى "[1]، مِمَّا يَفْسَحُ أَمَامَ الكَاتِبِ وَالقَارِئِ، عَلَى سَوَاءٍ، فَضَاءَاتٍ أَكْبَرَ لِلتَّأْوِيلِ فَيَكُونُ النَّاتِجُ النَّصِّـيُّ " حَصِيلَةً لِسِلْسِلَةٍ مِنَ التَّحَوُّلاَتِ النَّصِّيَّةِ السَّابِقَةِ التِّي تَنْصَهِرُ وَتَتَمَازَجُ فِيمَا بَيْنَهَا التِّي يَظُنُّ المُبْدِعُ أَنَّهُ صَاحِبُهَا لَكِنَّهَا تَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ بِطُرُقٍ لاَشُعُورِيَّةٍ فَهِيَ عَمَلِيَّةٌ كِيمْيَائِيَّةٌ تَتِمُّ فِي ذِهْنِ المُؤَلِّفِ "[2].

وَقَدْ رَأَى خَلِيل المُوسَى أَنَّ النَّصَّ المُضَمَّنَ أَوِ المُقْتَبَسَ يَبْقَى دَخِيلاً عَلَى النَّصِّ الثَّانِي يَقُومُ بِدَوْرٍ ثَقَافِيٍّ جَمَالِيٍّ بِالأَسَاسِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُ:" هُوَ الذِّي يَتَكَلَّمُ فِي النَّصِّ الجَدِيدِ وَهُو الذِّي يَشْرَحُ وَيُفَسِّرُ"[3]، إِذْ إِنَّهُ إِضَافَةٌ أَكِيدَةٌ لإِضَاءَةِ المَـعْنَى الأَوَّلِ أَوْ تَوْلِيدِ مَعْنًى جَدِيدٍ، لِذَا تُصْـبِحُ وَاحِدَةٌ مِنْ أَهَمِّ أَدْوَارِ النَّقْدِ البَحْثُ فِي مَصَـادِرِ النَّصِّ، وَفِي وَسَـائِلِ التَّوْظِيفِ وَالاسْتِشْـهَادِ أَوْ مَا يُسَـمَّى بِالتَّضْـمِينِ أَوِ اسْتِخْدَامِ التَّنْصِيصِ الذِّي هُوَ طَرِيقَةٌ مِنْ طَرَائِقِ رَبْطِ نَصٍّ بِنَصٍّ آخَرَ وَإِدْمَاجِهِ فِي سِيَاقِهِ[4]. الكلام لدي سوسير أمْ لخمري؟؟؟

إِنَّ تَوْظِيفَ هَذِهِ البُنَى المُقْتَبَسَةَ شَائِعٌ فِي النُّصُوصِ التُّرَاثِيَّةِ بِشَكْلٍ يَجْعَلُهَا تَبْدُو وَكَأَنَّهَا جُزْءٌ وَثِيقٌ مِنْهَا عَبْرَ العَلاَقَاتِ التِّي تُقِيمُهَا فِيمَا بَيْنَهَا. فَتَتَبَدَّى فِي صُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ كَالـ"

[1]- نظريّة النّصّ الأدبيّ، عبد المالك مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2010م، ص9 وما بعدها.

[2]- القراءة النّسقية ومقولاتها النّقديّة، أحمد يوسف، دار الغرب للنّشر والتوزيع، ج2، ط2002/2001م، ص125.

[3]- التّناص والإجناسيّة، خليل المُوسَى، مقال، مجلّة الموقف الأدبيّ، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ع:305، سبتمبر/أيلول1996م، ص82.

[4]- يُنظر: إنتاجُ معرفةٍ بالنّصِّ، حُسين خمُري، م.س، ص84.

الاسْتِشْهَادِ بِالآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، وَالأَشْعَارِ، أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ (أَوْ ضِمْنِيَّةٍ)، تَتَجَلَّى فِي الإِيحَاءَاتِ وَالظِّلاَلِ البَلاَغِيَّةِ. وَيَخْتَلِفُ القُرَّاءُ فِي تَحْدِيدِهَا حَسَبَ خَلْفِيَاتِهِمْ الثَّقَافِيَّةِ "[1]. فَالنَّصُّ الجَدِيدُ يَسْتَوْعِبُ، وَيُحَاوِرُ وَيَتَمَاهَى مَع مَا سَبَقَهُ أَوْ مَا يُعَاصِرُهُ مِنْ نُصُوصٍ فِي تَمَاسٍّ جَلِيٍّ حِينًا وَخَفِيٍّ حِينًا آخَرَ، لاَ تُدْرِكُهُ إِلاَّ العُقُول اليَقِظَةُ التِّي تَمَثَّلَ أَصْحَابُهَا النِّتَاجَ السَّابِقَ وَاسْتَذْكَرُوهُ واسْتَدْعُوهُ إِلَى الوَاجِهَةِ.

هَكَذَا، فَإِنَّ النُّتَفَ التِّي يُوَزِّعُهَا الشَّاعِرُ، عَبْرَ نُصُوصِهِ سَتَكُونُ مُهِمَّةُ تَعَرُّفِهَا قَضِيَّةً نِسْبِيَّةً، عِمَادُهَا مَدَى اتِّسَاعِ ثَقَافَةِ القَارِئِ " فَالمَعْرِفَةُ رَكِيزَةُ تَأْوِيلِ النَّصِّ مِنْ قِبَلِ المُتَلَقِّي أَيْضًا "[2]، وَهُوَ مَا يَشِي بِأَنَّ تَسَلُّحَهُ بِثَقَافَةٍ مُعَيَّنَةٍ يَعْنِي، حَتْمًا، إِمْكَانِيَّةَ أَنْ يُقَارِنَ النُّصُوصَ أَوْ لِنَقُلْ: يَعْرِضَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ لِيَسْتَنْتِجَ دَرَجَاتِ التَّقَارُبُ أَوِ(الأَخْذِ) المُتَبَادَلِ الذِّي يَكُونُ حَدَثَ بَيْنَهَا عَنْ وَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ. فَـ" التَّنَاصُّ، إِذَن، هُوَ وَسِيلَةُ تَوَاصُلٍ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ القَصْدُ مِنْ أَيِّ خِطَابٍ لُغَوِيٍّ بِدُونِهِ، إِذْ يَكُونُ هُنَاكَ مُرْسِلٌ بِغَيْرِ مُتَلَقٍّ مُتَقَبِّلٍ مُسْتَوْعِبٍ مُدْرِكٍ لِمَرَامِيهِ. وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ وُجُودَ مِيثَاقٍ، وَقِسْطًا مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّقَالِيدِ الأَدَبِيَّةِ، وَمِنَ المَعَانِي ضَرُورِيٌّ لِنَجَاحِ العَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِيَّةِ "[3].

فَوَ نَحْنُ نَقْرَأُ نَصًّا نَجِدُ أَنْفُسَنَا مَشْدُودِينَ بِخُيُوطٍ شَفَّافَةٍ مَنْسُوجَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكِرَتِنَا عَبْرَ حُضُورٍ ذِهْنِيٍّ لِدَلاَلَةٍ مَا تَشِعُّ فِي خَلْفِيَّتِهَا آثَارٌ لِمَقْرُوءٍ سَابِقٍ لاَ يُمْكِنُ إِلاَّ أَنْ نَرُدَّهُ لِلتَّنَاصِّ، فَهُوَ يُلْفِتُ " اهْتِمَامَنَا إِلَى النُّصُوصِ الغَائِبَةِ وَالمُسْبَقَةُ، وَإِلَى التَّخَلِّي عَنْ أُغْلُوطَةِ اسْتِقْلاَلِيَّةِ النَّصِّ. لِأَنَّ أَيَّ عَمَلٍ يَكْتَسِبُ مَا يُحَقِّقُهُ مِنْ مَعْنَى بِقُوَّةِ كُلِّ مَا كُتِبَ قَبْلَهُ مِنْ نُصُوصٍ "[4]. حِينَذَاكَ تَصِيرُ وَاحِدَةٌ مِنْ مَهَامِّنَا الرَّئِيسِيَّةِ كَقُرَّاءَ البَحْثَ " عَنْ مَصْدَرٍ لِذَلِكَ الصَّدَى فِي مَخْزُونِنَا الثَّقَافِيِّ الخَاصِّ، وَمِنْهُ نَتَعَرَّفُ عَلَى كَيفِيَّةِ اسْتِثْمَارِ الشَّاعِرِ لَهُ، وَالذَّائِقَةُ الشِّعْرِيَّةُ تَمِيلُ

---

[1]- النَّصُّ الغائب، م.س، ص53.

[2]- تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناص)، محمّد مفتاح، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء/بيروت، ط3، جويلية 1992م، ص123.

[3]- تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناص)، محمّد مفتاح، صص134،135.

[4]- أفق الخطاب النّقديّ دراسات نظريّة وقراءات تطبيقيّة، صبري حافظ، دار شرقيات للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1996م، ص58.

إِلَى الاسْتِمْتَاعِ بِتَأْوِيلِ التَّنَاصِّ فِي النَّصِّ كُلَّمَا كَانَتِ الصِّلَةُ بَيْنَ النَّصَّيْنِ أَخْفَى وَأَبْعَدَ وَأَعْمَقَ "[1].

يَنْتَهِي بِنَا الأَمْرُ هُنَا، إِلَى التَّأْكِيدِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ التَّناصِّ كَإِجْرَاءٍ يُسْهِمُ بِشَكْلٍ لاَ شَكَّ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ بَعْضِ مَنَاحِي العَمَلِ الأَدَبِيِّ، بَلْ إِنَّهُ لِلشَّاعِرِ ذَاتِهِ " بِمَثَابَةِ الهَوَاءِ وَالمَاءِ وَالزَّمَانِ وَالمَكَانِ لِلإِنْسَانِ فَلاَ حَيَاةَ لَهُ بِدُونِهِمَا وَلاَ عَيْشَةَ لَهُ خَارِجَهُمَا "[2]. وَهَذَا مَا مِنْ شَأْنِهِ، رُبَّمَا، أَنْ يُعِيدَنَا إِلَى المُرَبَّعِ الأَوَّلِ الذِّي مِنْهُ انْطَلَقَ النَّقْدُ العَرَبِيُّ فِي اعْتِبَارِ السَّرِقَةِ فِي مَيْدَانِ الإِبْدَاعِ أَكْثَرَ مِنْ ضَرُورَةٍ، إِذْ " إِنَّ هَذَا الذِّي يَلُوكُ النَّاسُ أَلْسِنَتَهُمْ بِهِ لَيْسَ إِلاَّ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ السَّرِقَاتِ الأَدَبِيَّةِ التِّي عُرِفَتْ فِي الفِكْرِ النَّقْدِيِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ، حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ"[3]، حَتَّى أَنَّهَا عَادَتْ عِنْدَ بَعْضِهِم هَدَفًا وَغَايَةً كَالذِّي رَأَيْنَاهُ فِي بَابِ الإِغَارَةِ وَالاجْتِلاَبِ.

فَـ " ظَاهِرَةُ تَدَاخُلِ النُّصُوصِ هِيَ سِمَةٌ جَوْهَرِيَّةٌ فِي الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ حَيْثُ تَتَشَكَّلُ العَوَالِمُ الثَّقَافِيَّةُ فِي ذَاكِرَةِ الإِنْسَانِ العَرَبِيِّ مُمْتَزِجَةً وَمُتَدَاخِلَةً فِي تَشَابُكٍ عَجِيبٍ وَمُذْهِلٍ"[4]. وَيَرَى عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضُ أَنَّ " مِثْلَ هَذَا الصَّنِيعِ يَدُلُّ عَلَى الاحْتِرَافِيَّةِ النَّسْجِيَّةِ، أَوْ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، أَيْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّاعِرَ لِكَثْرَةِ مَا نَسَجَ مِنْ نُسُوجٍ كَلاَمِيَّةٍ تَكَوَّنَ لَدَيْهِ مَا يُشْبِهُ الأُسْلُوبَ الذِّي يُلاَزِمُهُ وَلاَ يُزَايِلُهُ، وَيُرَافِقُهُ وَلاَ يُفَارِقُهُ "[5].

يَسُوقُنَا الحَدِيثُ عَنِ السَّرِقَةِ وَالاقْتِبَاسِ وَتَدَاخُلِ النُّصُوصِ إِلَى مُخَاطَبَةِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ فِي نُصُوصِهِ الكَثِيرَةِ وَمَوَاضِيعِهِ المُتَشَعِّبَةِ، وَالتِّي يَتَعَذَّرُ الخَوْضُ فِيهَا مُجْتَمِعَةً لأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ، لَعَلَّ أَهَمَّهَا هُنَا: طَبِيعَةُ البَحْثِ التِّي تَقْتَضِي النَّظَرَ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ مِنْ خِلاَلِ مَوْضُوعَةِ الزُّهْدِ

---

[1]- استراتيجيّة التّناص في الخطاب الشّعريّ العربيّ الحديث، م.س، ص267. وَيُنْظَر: تحليلُ الخِطابِ الشِّعرِيِّ(استراتيجيّة التّناص)، م.س، ص130.

[2]- تحليل الخطاب الشّعريّ (استراتيجيّة التّناص)، م.س، ص125.

[3]- الكتابة مِن مَوقِعِ العَدَمِ – مُساءلات حَول نظريّة الكتابة، عبد الملك مرتاض، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، د.ط، 2003، ص270.

[4]- ثقافةُ الأسئلةِ (مقالاتٌ في النّقدِ والنّظريّةِ)، عبد الله الغذامي، النّادي الأدبيّ الثّقافيّ، جدة، ط2، 1992م، ص119.

[5]- السّبع المعلقات(مقاربة سيميائيّة أنثروبولوجيّة لنصوصها)، دراسة، عبد المالك مرتاض، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، 1998م، ص209.

ذَاتِ السِّمَاتِ الخَاصَّةِ فِي تَارِيخِنَا الأَدَبِيِّ عُمُومًا، وَالإِسْلاَمِيِّ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ.

فَلَمَّا كَانَ الزُّهْدُ يَدُورُ فِي فَلَكِ الصَّلاَحِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَالْتِزَامِ ضَوَابِطِهِ لِلسَّلاَمَةِ فِي الدُّنْيَا، وَاسْتِعْدَادًا لِلدَّارِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ المَعِينُ الذِّي مِنْهُ يَسْتَقِي الشَّاعِرُ وَيَسْتَلْهِمُ، مُرْتَبِطًا رَأْسًا بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَبَعًا لِذَلِكَ، سَيَنْعَكِسُ أَثَرُ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ وَالنَّبَوِيَّةِ فِي إِبْدَاعِهِ، وَيَبْرُزَ فِي صُوَرٍ مُخْتَلِفَةٍ وَبِأَقْدَارٍ تَتَبَايَنُ مِنْ شَاعِرٍ إِلَى آخَرَ كَمًّا وَكَيْفًا، الْتِمَاسًا لِلرَّاحَةِ وَالسَّكِينَةِ، وَاتِّقَاءً لِشُرُورِ الحَيَاةِ وَمَسَاوِئِهَا، وَمُجَاهَدَةً لِلنَّفْسِ أَوْ سَعْيًا لِلعُزْلَةِ وَالخُلْوَةِ، وَارْتِقَاءً بِالإِنْسَانِ فِي مَدَارِجِ الفَضَائِلِ. وَلَنَا أَنْ نَسْأَلَ هُنَا: مَا مِقْدَارُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي شِعْرِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ؟ مَا هِيَ حَالاَتُ الحِوَارِ وَالتَّخَاطِبِ القَائِمِ بَيْنَ شِعْرِهِ وَبَيْنَ النَّصِّ الآخَرِ، مُقَدَّسًا كَانَ أَوْ مُدَنَّسًا؟ أَيَّ دَرَجَةٍ بَلَغَ هَذَا الاقْتِرَابُ وَالتَّدَاخُلُ؟ ثُمَّ كَيْفَ كَانَ تَجَلِّيهِ؟

4- التَّنَاصُّ الدِّينِيُّ:

لَيْسَ غَرِيبًا إِذَنْ، عَلَى مَنْ تَشَرَّبَ القُرْآنَ وَعَاشَ فِي أَجْوَائِهِ، وَتَمَثَّلَ لُغَتَهُ وَعَرَفَ خَصَائِصَهَا، وَامْتَلَكَ نَاصِيَتَهَا، أَنْ يَتَّكِأَ عَلَيْهِ وَيَتَمَاهَى مَعَهُ فِي حَالَيْ التَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ، يَبْنِي عَلَيْهِ خِطَابَ زُهْدِهِ، وَيُقَوِّي بِهِ حُجَّتَهُ، وَيَسْتَمِيلُ بِهِ سَامِعَهُ، فَيَتَقَاطَعُ عِنْدَ عَدِيدِ المحَطَّاتِ، وَيَتَنَاصُّ مَعَهُ بِأَشْكَالَ كَثِيرةٍ، لَعَلَّ أَوْضَحَهَا الاقْتِبَاسَاتُ وَالتَّلْمِيحَاتُ الصَّرِيحَةُ، التِّي تَظْهَرُ كَقَرَائِنَ حَرْفِيَّةٍ مِنَ النَّصِّ المسْتَشْهَدِ بِهِ.

وَحَيْثُ إِنَّ شِعْرَ الزُّهْدِ قَائِمٌ، كَمَا أَسْلَفْنا، عَلَى وَازِعٍ دِينِيٍّ بِالأَسَاسِ، فَإِنَّ الرَّافِدَ الأَكْبَرَ الذِّي سَيَنْحِتُ مِنْهُ خِطَابَهُ، ويَمْتَحُ مِنْهُ أَفْكَارَهُ شَاعِرٌ مُسْلِمٌ، كَمَا هِيَ الحَالُ هُنَا مَعَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، سَيَكُونُ حَتْمًا النَّصَّ القُرْآنِيَّ وَالنَّبَوِيَّ. وَإِنَّ قِرَاءَةً عَجْلَى لِدَيْوَانِ الشَّاعِرِ لَنْ تَعْمَلَ إِلاَّ عَلَى تَأْكِيدِ ذَلِكَ وَتَقْرِيرِهِ، وَهُوَ مَا سَنُمَثِّلُ لَهُ عَلَى امْتِدَادِ مَسَافَةِ هَذَا المَبْحَثِ.

4-1- التَّنَاصُّ مَعَ القُرْآنِ الكَرِيمِ:

أ- التَّنَاصُّ فِي الأُرْجُوزَةِ:

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ53 مِنْ أُرْجُوزَتِهِ ذَاتِ الأَمْثَالِ:

البِرُّ وَالصِّدْقُ هُمَا الوِقَاءُ *** يَوْمَ **تَقُومُ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ**.

وَهَذَا البَيْتُ يَتَقَاطَعُ فِي دَلاَلاَتٍ كَثِيرَةٍ مَعَ النَّصِّ القُرْآنِيِّ إِذْ إِنَّ الشَّاعِرَ لَنْ يَجِدَ أَفْضَلَ مِنْهُ لِيَعْضُدَ كَلاَمَهُ عَنْ البِرِّ وَالصِّدْقِ وَهُمَا مِنْ أَوْكَدِ أَبْوَابِ الزُّهْدِ الذِّي يَدْعُو إِلَيْهِ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، فَلِكَيْ يُقَوِّيَ وُجْهَةَ نَظَرِهِ يَأْتِي، بِوَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ، إِلَى مَا تَشَرَّبَتْهُ ذَاكِرَتُهُ عَلَى مَرِّ السِّنِينِ لِيَسْتَلْهِمَ مِنْهَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ** ﴾ [1]، فَيَقْتَبِسُ مِنْهُ مَا يُوَافِقُ مَذْهَبَهُ، وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي جُلِّ زُهْدِيَاتِهِ، وَيُكَرِّرُهُ فِي القَصِيدَةِ الوَاحِدَةِ مَرَّاتٍ عِدَّةٍ، كَمَا سَيَأْتِي مَعَنَا.

وَفِي البَيْتِ159 يَقُولُ:

لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ أَهْلِ الآخِرَة * إِنَّا لَنَعْمَى وَالعُيُونُ نَاظِرَةٌ**.

وَهَذَا يَتَناصُّ فِي شَطْرِهِ الأَوَّلِ مَعَ الآيَةِ 46 مِنْ سُورَةِ العَنْكَبُوتِ، يَقُولُ تَعَالَى:﴿**وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ** ﴾ [2]، فَالحَيَاةُ الفِعْلِيَّةُ هِيَ تِلْكَ التِّي خَصَّ بِهَا اللهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ، حَيَاةُ الآخِرَةِ التِّي لاَ انْقِطَاعَ فِيهَا وَلاَ نَصَبَ، أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي فَيَتَّكِئُ فِيهِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي " الحَجِّ ":﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى**

---

[1]- الرّوم/25.

[2]- العنكبوت/64.

ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1]. وَهُوَ هُنَا يُؤَكِّدُ عَلَى قَطْعِيَّةِ النَّصِّ الدِّينيِّ بِأَنَّ الحَيَاةَ الحَقَّةَ إِنَّمَا هِيَ المَوْعُودَةُ وَالتِّي يَسْتَوْجِبُ العَمَلُ لِبُلُوغِهَا، فَـ ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا** ﴾[2].

وَيَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّة فِي البَيْتِ160:

المَوْتُ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ شَكٌّ * تَفْنَى المُلُوكُ وَيَبِيدُ المُلْكُ.**

وَهَذَا المَعْنَى تَشَرَّبَ دَلاَلَتَهُ مِنْ عَدِيدِ الآيَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿**كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ**﴾[3]، وَ﴿**وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ**﴾[4] أَوْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:﴿**كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ**﴾[5].

أَمَّا البَيْتُ161 وَالذِّي يَقُولُ فِيهِ:

اللهُ رَبِّي وَهُوَ المَلِيكُ * لَيْسَ لَهُ فِي مُلْكِهِ شَرِيكُ.**

فَيَتَمَاهَى لَفْظًا وَمَعْنًى مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ التِّي تَدْعُو إِلَى الإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، وَالابتِعَادِ عَنِ الشِّرْكِ، يَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ:﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا **وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ** وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا﴾[6]. وَيَقُولُ جَلَّ شَأْنُهُ فِي" الكَهْفِ":﴿... أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ **وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا**﴾[7]، وَفِي سُورَةِ الفُرْقَانِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن**

---

[1]- الحج/46.

[2]- الإسراء/18،19.

[3]- العنكبوت/57.

[4]- ق/19.

[5]- الرّحمن/26، وَيُنظر: النّساء/78، والأنبياء/35.

[6]- الإسراء/111.

[7]- الكهف/26، وَيُنظر:نفسه/38.

لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1].

وَمِنَ المعَاني التِّي تَتَرَدَّدُ فِي شِعْرِ الزُّهْدِ عُمُومًا، وَالتِّي يَحْفَلُ بِهَا شِعْرُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ تِلْكَ التِّي تَصِفُ زَوَالَ الخَلْقِ مُتَّكِئَةً عَلَى التَّعَابِيرِ القُرْآنِيَّةِ مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فيِ"الفُرْقَانِ": ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ** وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[2]، فَكُلُّ المَوْجُودَاتِ فَانِيَةٌ إِلاَّ وَجْهُهُ الكَرِيمُ:

يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتُ162:

اللهُ يُفْنِينَا وَلَيْسَ يَفْنَى *** لَهُ الجَلاَلُ **وَالصِّفَاتُ الحُسْنَى**.

فَهُوَ يَقْتَبِسُ الشَّطْرَ الثَّانِيَ مِنْ الآيَةِ الكَرِيمَةِ فِي "الأَعْرَافِ":﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا** ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وَفِي الوَعِيدِ، الذِّي يُمَثِّلُ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الرَّدْعِ لِلنُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ لَعَلَّهَا تَرْعَوِي فَتَعُودُ إِلَى جَادَّةِ الصَّوَابِ، يَأْتِي أَبُو العَتَاهِيَّةِ إِلَى القُرْآنِ الكَرِيمِ يَسْتَمِدُّ مِنْهُ مَا يُعَزِّزُ خِطَابَهُ، فَهَا هُوَ فِي البَيْتِ163 يَقُولُ:

اللهُ مَوْلاَنَا وَنِعْمَ المَوْلَى *** فَقُلْ لِمَنْ يَعْصِيهِ **أَوْلَى أَوْلَى**.

وَهَذَا يُحِيلُنَا عَلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ وَرَدَتْ فِي التَّرْهِيبِ أَوِ التَّرْغِيبِ تُنَاسِبُ المَقَامَ وَتَعْضُدُ الفِكْرَةَ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي"الأَنْفَالِ":﴿**وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ**﴾[4]، وَيَقُولُ وَفِي "الحَجِّ":﴿... فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ

[1]- الفرقان/2.

[2]- الفرقان/58.

[3]- الأعراف/180، ويُنظر: الحشر/24.

[4]- الأنفال/40.

هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[1]. وَفِي سُورَةِ "القِيَامَةِ" يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ**﴾ [2]. فَالشَّاعِرُ يَتَشَرَّبُ أَلْفَاظَ وَمَعَانِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ لِتَظْهَرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي ثَنَايَا نُصُوصِهِ صَرِيحَةً تَكَادُ تَكُونُ اقْتِبَاسًا حَرْفِيًّا فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، وَفِي أُخْرَى تَكُونُ خَفِيَّةً فَتَتَطَلَّبُ جُهْدًا أَكْبَرَ لِتَعَرُّفِهَا وَرَدِّهَا لِمَصَادِرِهَا.

وَنَأْتِي لِلبَيْتِ 164 وَالذِّي يَقُولُ فِيهِ:

مَا هُوَ إِلاَّ عَفْوُهُ وَحِلْمُهُ *** سُبْحَانَ مَنْ **لاَ حُكْمَ إِلاَّ حُكْمُهُ**.

فَنَجِدُهُ يَتَقَاطَعُ مَعَ عَدِيدِ الآيَاتِ التِّي تُنَزِّهُ اللهَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الحُكْمِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مُطْلَقُ المَلَكُوتِ ﴿ ...**وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ** وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[3]. فَالشَّاعِرُ يُقِيمُ الشَّطْرَ الثَّانِي عَلَى عِبَارَةٍ يَقْتَبِسُهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ "الأَنْعَامُ":﴿**... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ** ﴾ [4]، وَمِثْلُهَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي "يُوسُفُ": ﴿**... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ** ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5].

وَفِي البَيْتِ 166 يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

يَذْهَبُ شَيءٌ وَيَجِيءُ شَيُّ *** **مَا هُوَ إِلاَّ رُشْدٌ وَغَيُّ**.

مُسْتَنِدًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ...**﴾[6]، وَفِي "الأَعْرَافِ" يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**...** وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا **وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا**

---

[1]- الحج/78.

[2]- القيامة/34،35.

[3]- الرَّعْدُ/41.

[4]- الأنعام/57.

[5]- يوسف/40.

[6]- البقرة/256.

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً **وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاًۚ ...**﴾[1]. وَهَذَا كَمَا نَرَى، دَارِجٌ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ، إِذْ يُذَكِّرُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ بِحَتْمِيَّةِ زَوَالِ الدُّنْيَا، وَأَنَّ الإِنْسَانَ فِيهَا بَيْنَ حَالَيْنِ: رَشَدٌ وَغَيٌّ، وَمِنْ ثَمَّ فَعَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ انْشِغَالَهُ بِرَغَدِهَا عَنْ تَدَبُّرِ أَسْبَابِ الخَلاَصِ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ.

وَعَلَى مِثْلِ ذَلِكَ يُقِيمُ الشَّاعِرُ البَيْتَ 177 إِذْ يَقُولُ:

اللهُ فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ *** غَدًا غَدًا **يَنْكَشِفُ الغِطَاءُ**.

وَوَاضِحٌ تَمَثُّلُهُ فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾[2]، وَفِي الشَّطْرِ الثَّانِي لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ** فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3].

وَيَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ199:

وَارْغَبْ إِلَى اللهِ عَسَى اللهُ عَسَى*.

وَهُوَ هُنَا يَسْتَلْهِمُ المَعنىَ، بَلْ وَاللَّفْظَ أَيْضًا، كَمَا هُوَ دَيْدَنُهُ دَائِمًا، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ**﴾ [4].

وَفِي البَيْتِ 204 يَتَّكِئُ الشَّاعِرُ عَلَى آيَتَيْنِ مِنَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ لِيَرْسُمَ الصُّورَةَ التِّي يُرِيدُهَا عَنْ قُدْرَةِ اللهِ المُطْلَقَةُ، فَيَقُولُ:

الدِّينُ للهِ هُوَ الدَّيَّانُ *** **وَحُجَّةُ اللهِ هِيَ السُّلطَانُ**.

---

[1]- الأعراف/146.

[2]- هود/107.

[3]- ق/22.

* لَمْ يُثْبِتِ المُحَقِّقُ غَيْرَ هَذَا الشَّطْرِ فِي الدِّيْوَان، وَيَبْدُو أَنّ شَطْرَهُ الأَوَّلَ مَفْقُودٌ، يُنْظَر: الدّيوَان، ص458.

[4]- القَلَمُ/32.

وَهُوَ مَأْخُوذٌ فِي شَطْرِهِ الأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ **وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ** فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وَفِي شَطْرِهِ الثَّانِي مِن قَوْلِهِ: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ** فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وَفِي البَيْتِ 217 الذِّي يَقُولُ فِيهِ:

المَرْءُ **دُنْيَاهُ لَهُ غَرَّارَةٌ** *** وَالنَّفْسُ **بِالسُّوءِ لَهُ أَمَّارَةٌ**.

فَإِنَّا نَجِدُهُ يَسْتَدْعِي مِنَ الحَافِظَةِ آيَتَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ، الأُولَى: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ "آل عِمْرَانَ": ﴿**... وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ**﴾[3]، وَالثَّانِيَةُ هِيَ قَوْلُهُ فِي " يُوسُف": ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ **إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ** إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [4].

ثُمَّ يَأْتِي إِلَى سُورَةِ النَّجْمِ لِيَأْخُذَ مِنْهَا جُزْءً مُعْتَبَرًا مِنَ الآيَةِ43 وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ**﴾[5] لِيَبْنِي، بِلَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا، الشّطْرَ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ 244 إِذْ يَقُولُ:

بَيْتُ البِلَى أَقْصَرُ بَيْتٍ **سَمْكًا** *** سُبحَانَ مَنْ **أَضْحَكَ وَأَبْكَى**.

ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةُ "سَمْكًا" فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ تُحِيلُنَا عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا**﴾[6]، إِذْ يُؤَشِّرُ بِهَا عَلَى المُتَنَاقِضَيْنِ فِي البَيْتِ، وَيُؤَكِّدُ المَعْنَى بِاسْتِحْضَارِ ضِدِّهِ: بَيْتُ البِلَى الوَضِيعُ فِي الدُّنْيَا فِي مُقَابِلِ عَظَمَةِ بِنَاءِ السَّمَاءِ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بَيْنَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى.

وَيَقْتَبِسُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، لَفْظًا وَمَعْنًى كَذَلِكَ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي "البَقَرَة": ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ

[1]- البقرة/193.

[2]- الأنعام/149.

[3]- آل عمران/185، ويُنظر: الأنعام/70، و130، والأعراف/51.

[4]- يوسف/53، وَيُنظر:الحديد/20.

[5]- النّجم/43.

[6]- النّازعات/28.

أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ**﴾[1] لِيُوَظِّفَهُ فِي البَيْتِ299 مُتَمَاهِيًا مَعَ مَوْضُوعَةِ زُهْدِهِ الأَسَاسِيَّةُ القَائِمَةُ عَلَى تَوْكِيدِ نِهَايَةِ الإِنْسَانِ التِّي لاَ مَفَرَّ مِنْهَا فَيَقُولُ:

إِنَّا إِلَى اللهِ لَرَاجِعُونَا *** حَتَّى مَتَى نَحْنُ مُضَيِّعُونَا.

وَيَسْتَحْضِرُ فِي البَيْتِ303 قَوْلَهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿**أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ** وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2]، وَمِثْلُهُ فِي " الفُرْقَانِ ":﴿**أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ** أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[3]، فَيُنْشِدُ قَائِلاً:

طُوبَى لِمَنْ يَقْنَعُ مَا أَغْنَاهُ *** وَيْحَ مَنْ **اسْتَعْبَدَهُ هَوَاهُ**.

هَذَا بَعْضُ مَا اقْتَبَسَهُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي أُرْجُوزَتِهِ "ذَاتِ الأَمْثَالِ"، أَوْ عَلَى الأَصَحِّ، مَا تَنَاصَّ فِيهِ مَع آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ، إِلَى دَرَجَةِ التَّطَابُقِ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ مِمَّا لاَ يَتَّسِعُ المَقَامُ هُنَا لِنَأْتِيَ عَلَى جُمْلَةِ مَا وَظَّفَهُ فِيهَا، سَوَاءً لَفْظًا أَوْ مَعْنًى أَوْ كُلُّ ذَلِكَ مَعًا، لِنَمُرَّ إِلَى النَّظَرِ فِي بَعْضِ مَا جَاءَهُ مِنْ هَذَا الإِجْرَاءِ فِي قَصَائِدَ أُخَرَ.

ب- نَمَاذِجُ مِنَ التَّنَاصِّ فِي الزُّهْدِيَاتِ:

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ10 [مِنَ الكَامِلِ]:

المَرْءُ آفَتُهُ هَوَى الدُّنْيَا *** **وَالمَرْءُ يَطْغَى كُلَّمَا اسْتَغْنَى**.

وَوَاضِحٌ تَنَاصُّ الشَّاعِرِ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي مَعَ الآيَتَيْنِ:6 و7 مِنْ سُورَةِ العَلَقِ، يَقُولُ تَعَالَى:﴿ **كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧**﴾.[4]

---

[1]- البقرة/156.

[2]- الجاثية/23.

[3]- الفرقان/43.

[4]- العلق/7.

وَهُوَ يَسْتَمِدُ أَلْفَاظَ وَمَعْنَى البَيْتِ29 مِنَ القَصِيدَةِ ذَاتِهَا مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي "النَّجْمِ":﴿ **وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ** ﴾ [1]، فَيَقُولُ:

فَلَئِنْ عَقَلْتَ لَتَشْكُرَنَّ وَإِنْ *** تَشْكُرْ **فَقَدْ أَغْنَى وَقَدْ أَقْنَى**.

أَمَّا القَصِيدَةِ رَقَمِ12 [مِنَ الكَامِلِ]، فَعَدِيدُ أَبْيَاتِهَا يَنْهَضُ عَلَى تَمَاهٍ صَرِيحٍ، وَاقْتِبَاسٍ وَاضِحٍ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ فِي البَيْتِ25:

وَهُوَ الخَفِيُّ الظَّاهِرُ المَلِكُ الذِّي *** هُوَ لَمْ يَزَلْ **مَلِكًا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى**.

فَهُوَ هُنَا يُقَرِّرُ الحَقِيقَةَ القُرْآنِيَّةَ المُتَمَثِّلَةَ فِي اسْتِوَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى العَرْشِ مَلِكًا لاَ يُنَازِعُهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، لاَ فِي صِفَاتِهِ التِّي مِنْهَا الخَفَاءُ وَالتَّجَلِّي، وَلاَ فِي قُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، يَقُولُ فِي سُورَةِ الحَدِيدِ:﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ **وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ** وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ **ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ** يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ ...﴾[2]، وَيَقُولُ فِي سُورَةِ طَهَ:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ٥﴾ [3]، وفِي " يُونُسُ " يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ **ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ** مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ٣ ﴾ [4].

وَمِنْ ذَاتِ الآيَةِ يَقْتَبِسُ الشَّاعِرُ الشَّطْرَ الأَوَّلَ مِنَ البَيْتِ26 فَيَقُولُ:

وَهُوَ **المُقَدِّرُ وَالمُدَبِّرُ خَلْقَهُ** *** وَهُوَ الذِّي فِي المُلْكِ **لَيْسَ لَهُ سِوَى**.

أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي مِنْهُ فَنَلْمَسُ فِيهِ أَثَرًا مِنْ سُورَةِ الإِخْلاَصِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**وَلَمْ**

[1]- النّجم/48.

[2]- الحديد/3،4.

[3]- طه/5.

[4]- يونس/3.

يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ٤﴾[1] وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الشَّاعِرُ بِمَعْنًى قَرِيبٍ يُحَاوِلُ فِيهِ تَرْسِيخَ فِكْرَةِ الوِحْدَانِيَّةِ وَاخْتِصَاصِ اللهِ بِهَا، فَهُوَ الذِّي لَيْسَ لَهُ فِي مُلْكِهِ عَدِيلٌ وَلاَ مُسَاوٍ.

وَفِي البَيْتِ27 يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ وَاصِفًا قُدْرَةَ اللهِ المُطْلَقَةُ:

وَهُوَ الذِّي يَقْضِي بِمَا هُوَ أَهْلُهُ *** فِينَا **وَلاَ يُقْضَى عَلَيْهِ إِذَا قَضَى.**

وَهَذَا اقْتِبَاسٌ وَاضِحٌ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿**وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ** إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ٢٠ ﴾[2].

أَمَّا البَيْتَانِ 28 و29 وَاللَّذَانِ يَقُولُ فِيهِمَا:

وَهُوَ **الذِّي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا** *** **صَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ المُصْـطَفَى.**
وَهُوَ الذِّي أَنْجَى وَأَنْقَذَنَا بِهِ *** بَعْدَ الصَّلاَلِ **مِنَ الضَّلاَلِ إِلَى الهُدَى.**

فَالشَّاعِرُ يَقْتَبِسُ مِنْ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ تَحْمِلُ هَذِهِ المَعَانِي، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي "آلِ عِمْرَانَ": ﴿**لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ١٦٤** ﴾[3]. فَهُوَ يَسْعَى إِلَى تَرْسِيخِ فِكْرَةِ النَّجَاةِ التِّي لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِإِنْكَارِ هَدْيِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ الذِّي بَعَثَهُ اللهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ لِيَقُودَ الإِنْسَانِيَّةَ إِلَى بَرِّ الأَمَانِ. أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ 28 فَإِنَّهُ يُقِيمُهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا٥٦** ﴾[4].

وَيُوَاصِلُ الشَّاعِرُ اسْتِلْهَامَهُ مِنَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ، إِذْ هُوَ، كَمَا أَسْلَفْنَا، أَبْلَغُ وَسِيلَةٍ بِيَدِ

---

[1]- الإخلاص/4.
[2]- غَافِر/20.
[3]- آل عمران/164، وَيُنظر: البقرة/129.
[4]- الأحزاب/56.

الزُّهَّادِ، وَشُعَرَائِهِمْ بِالأَخَصِّ، لنَقْلِ صُورَةِ الإِنْسَانِ المُتَخَبِّطِ فِي مَسَالِكِ الحَيَاةِ، الغَافِلِ عَنْ مَآلاَتِ إِغْوَائِهَا التِّي قَدْ تَهْوِي بِهِ فِي النَّارِ إِنْ لَمْ يَرْعَوِ، يَقُولُ فِي البَيْتَيْنِ30،31:

حَتَّى مَتَى لاَ تَرْعَوِي يَا صَاحِبِي *** حَتَّى مَتَى حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى.
وَاللَّيْلُ يَذْهَبُ وَالنَّهَارُ وَفِيهِمَا *** **عِبَرٌ تَمُرُّ وَفِكْرَةٌ لأُلِي النُّهَى**.

فَفِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَتَقَلُّبِ الأَزْمِنَةِ فُسْحَةٌ لِلبَشَرِ كَيْمَا يَعْتَبِرُوا وَيَؤُوبُوا إِلَى خَالِقِهِمْ الذِّي يَعِظُهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ عَلَّهُمْ يَسْتَفِيقُونَ مِنْ غَفْلَتِهِمَ قَبْلَ فَوَاتِ الأَوَانِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿**يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤** ﴾[1]، فَفِي مِثْلِ هَذَهِ المَوَاقِفِ فُرَصٌ تَفْتَحُ أَمَامَ العُقَلاَءِ أَبْوَابًا تُشْرَعُ لِكُلِّ مُتَدَبِّرٍ: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ١٢٨** ﴾[2].

وَفِي البَيْتِ13 مِنَ القَصِيدَةِ رَقْم 15 يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

فَيَا عَجَبًا تَمُوتُ وَأَنْتَ تَبْنِي *** **وَتَتَّخِذُ المَصَانِعَ وَالقِبَابَا**.

وَنُلاَحِظُ فِي البَدْءِ أَنَّ الكَلِمَةَ المِفْتَاحِيَّةَ الأَكْثَرَ وُرُودًا فِي قَصَائِدِ الزُّهْدِ العَتَاهِيَّةِ هِي "المَوْتُ" وَمَا يَدُورُ فِي فَضَائِهَا مِنْ حَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَوُجُوبِ الاسْتِعْدَادِ لمَا بَعْدَهَا، وَنَبْذِ مَتَاعِهَا الزَّائِلِ المُتَهَالِكِ. فَهَاهُوَ هُنَا يَسْتَعِيرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي "الشُّعَرَاءِ": ﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ١٢٩** ﴾[3].

وَفِي البَيْتِ18 مِنْ ذَاتِ القَصِيدَةِ يَقُولُ:

أَلَيْسَ **اللهُ فِي كُلٍّ قَرِيبًا** *** بَلَى مِنْ حَيْثُ مَا **نُودِيَ أَجَابَا**.

---

[1]- النّور/44.

[2]- طه/128، وَيُنظر: نَفسُه/54.

[3]- الشُّعراء/129.

وَهُوَ اتِّكَاءٌ صَرِيحٌ عَلَى الآيَةِ الكَرِيمَةِ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**١٨٦ ﴾[1]، فَالمَلْجَأُ إِذَنْ، حِينَ تَتَقَطَّعُ بِالإِنْسَانِ السُّبُلُ، وَيَرْتَدُّ إِلَى نَفْسِهِ مَهِيضَ الجَنَاحِ عَاجِزًا، فَلَيْسَ أَمَامَهُ وَقْتَذَاكَ غَيْرُ الإِنَابَةِ وَنِدَاءِ مَنْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ.

فَالقُرْآنُ إِذَنْ، هُوَ المَعِينُ الذِّي يَسْتَقِي مِنْهُ الشَّاعِرُ مَعَانِي نُصُوصِهِ، وَيَغْرِفُ مِنْ أَلْفَاظِهِ التِّي تَفْتَحُ أَمَامَهُ فَضَاءَاتِ التَّدْلاَلِ وَالتَّصْوِيرِ المُبْتَكَرِ، فَيَعْمِدُ إِلَيْهِ كُلَّمَا أَعْوَزَتْهُ الحِيلَةُ، يَنْتَقِي مِنْهُ، عَنْ وَعْيٍ أَوْ غَيْرِ وَعْيٍ، مَا يُشِيِّدُ بِهِ خِطَابَهُ كَمَا هِي الحَالُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم16[مِنَ الطَّوِيلُ]:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلاَ تَقُلْ *** خَلَوْتُ وَ**لَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ**.

وَيَجِيءُ الشَّاعِرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الحَجِّ:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ٤٦ ﴾[2]، لِيَصُوغَ خِطَابَهُ فِي البَيْتِ الثَّامِنِ مِنَ القَصِيدَةِ 18 [مِنَ الوَافِرُ] قَائِلاً:

وَمَا تَعْمَى العُيُونُ عَنِ الخَطَايَا * وَلَكِنْ إِنَّمَا تَعْمَى القُلُوبُ**.

وَفِي البَيْتَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم22[مِنَ الرَّمَلِ] يَقُولُ الشَّاعِرُ:

قَدْ سَمِعْنَا الوَعْظَ لَوْ يَنْفَعُنَا *** وَقَرَأْنَا جُلَّ آيَـــاتِ الكُتُبْ.

كُلُّ نَفْسٍ سَتُـوَفَّى سَعْيَـهَا * وَلَهَا مِيـقَاتُ يَوْمٍ قَدْ وَجَبْ**.

وَالأَلْفَاظُ وَالمَعَانِي هُنَا مُقْتَبَسَةٌ مِنْ مَجْمُوعِ آيَاتٍ شَكَّلَ بِهَا الشَّاعِرُ خِطَابَهُ، وَصَاغَ بِنْيَةَ أُسْلُوبِهِ، فَنِهَايَةُ الإِنْسَانِ وَمَآلُهُ مُوكَلَةٌ إِلَى رَبِّ العَالمِينَ فَيُحَاسِبُهُ عَلَى مَا اقْتَرَفَ فِي حَيَاتِهِ

[1]- البقرة/186.

[2]- الحج/46.

الدُّنْيَا مِنْ قَبِيحٍ أَوْ حَسَنٍ: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ٣٩** ﴾[1]، وَلاَ خَلاَصَ إِذَنْ إِلاَّ بِتَقْوَى اللهِ:﴿ **وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ٢٨١** ﴾[2]، فَعَلَيْنَا، إِذَنْ، الاسْتِعْدَادُ لِيَوْمِ الحَقِّ الذِّي هُوَ آتٍ وَلاَ رَيْبَ، إِذْ ذَاكَ يُفْصَلُ بَيْنَ أَهْلِ الخَيْرِ وَالصَّلاَحِ وَبَيْنَ مَنْ غَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ وَزُخْرُفُهَا:﴿ **إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا١٧** ﴾[3].

وَنَقْتَطِعُ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم28[مِنَ الوَافِر] هَذِهِ الأَبْيَاتَ لِنَرَى حَجْمَ الاقْتِبَاسِ التِّي أَتَاهُ الشَّاعِرُ هُنَا لِيُصَوِّرَ لَنَا حَيْرَةَ الإِنْسَانِ الكُبْرَى يَوْمَ يَقِفُ أَمَامَ رَبِّهِ عَاجِزًا وَلَوْ أَنْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ، فَيَقُولُ:

16/سَأُسْأَلُ عَنْ أُمُورٍ كُنْتُ فِيهَا * فَمَا عُذْرِي هُنَاكَ وَمَا جَوَابِي.**
17/بِأَيَّةِ حُجَّةٍ أَحْتَجُّ يَوْمَ الـ * ـحِسَابِ إِذَا دُعِيتُ إِلَى الحِسَابِ.**
18/هُمَا أَمْرَانِ يُوضِحُ عَنْهُمَا لِي * كِتَابِي حِينَ أَنْظُرُ فِي كِتَابِي.**
19/فَإِمَّا أَنْ أُخَلَّدَ فِي نَعِيمٍ * وَإِمَّا أَنْ أُخَلَّدَ فِي عَذَابِ.**

فَهَاهُوَ الإِنْسَانُ قَدْ أُسْقِطَ فِي يَدِهِ، وَارْتَدَّ حَسِيرًا أَمَامَ جَلاَلَةِ المَوْقِفِ وَهَوْلِهِ وَقَدْ افْتَقَدَ الحَسَنَاتِ، وَقَدَّمَ السَّيِّئَاتِ، فَانْكَفَأَ لاَ يَسْتَطِيعُ نُطْقًا أَوْ مُحَاجَجَةً ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا١١** ﴾[4]، هَكَذَا يَجِدُ المُذْنِبُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ مَصِيرٍ كَانُوا لَهُ يَمْهَدُونَ، فَكَانَتْ النِّهَايَةُ عَلَى غَيْرِ مَا كَانُوا بِهِ يَغْتَرُّونَ:﴿ **رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ**

---

[1]- النّجم/39.
[2]- البقرة/281.
[3]- النَّبأ/17، ويُنظر: الوَاقِعة/50.
[4]- الإنْشقاق/7-11.

أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا٣٨ ﴾[1]. فَهُوَ أَحَدُ أَمْرَيْنِ حَوَاهُمَا كِتَابُ المَرْءِ وَيَخْشَى أَنْ يَكُونَ سَيِّئُهُ قَدْ سُجِّلَ عَلَيْهِ:﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ١٠٥**﴾[2]، وَحِينَهَا إِمَّا يُخَلَّدُ فِي نَعِيمٍ أَوْ فِي عَذَابٍ:﴿ **إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ١٤** ﴾[3].

أَمَّا فِي البَيْتِ السَّادِسِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقْم32 فَيَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

نَرَى اللَّيلَ يَطْلُبُنَا وَالنَّهَارَ *** وَلَمْ نَدْرِ أَيُّـــهُمَا أَطْلَبُ.

وَهَذِهِ صُورَةٌ يَسْتَمِدُّهَا مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ كَذَلِكَ، فَهُوَ يَسْتَدْعِي أَلْفَاظَ الآيَةِ:5 مِنْ سُورَةِ "البَقَرَةِ " لِيَنْظِمَ الشَّطْرَ الأَوَّلَ، يَقُولُ تَعَالَى:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ **يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا ...٥٤** ﴾[4].

إِنَّ حَرَكَةَ الكَوْنِ، وَجَرَيَانَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَتَانِ عَلَى الفَنَاءِ الذِّي يَشْغَلُ الإِنْسَانِ وَيَقُضُّ مَضْجِعَهُ، فَهُمَا بِهَذَا سَيَكُونَانِ خَيْرَ إِضَاءَةٍ لِحَقِيقَةِ المَوْتِ التِّي يَتَحَاشَى كَثِيرُونَ الخَوْضَ فِي عَاقِبَتِهَا، وَالشَّاعِرُ يَنْتَهِزُ هَذَا المَوْقِفَ الذِّي يُوَاجِهُهُ الإِنْسَانُ مَعَ إِشْرَاقَةِ كُلِّ شَمْسٍ لِيُعِيدَهُ إِلَى حَلَبَةِ الصِّرَاعِ مَعَ الدَّهْرِ وَتَقَلُّبَاتِهِ.

يَتَوَاصَلُ الارْتِيَابُ مِنَ عَوَاقِبِ الدُّنْيَا وَالخَشْيَةُ مِنَ المَآلِ إِلَى المَهَالِكِ، إِذِ المَوْتُ يَتَرَصَّدُكَ أَيُّهَا المُغْتَرُّ بِمَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَأَنْتَ لاَهٍ غَافِلٌ، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ، القَصِيدَةُ 37 [مِنَ الخَفِيفِ]:

1/ مِنْ تُرَابٍ خُلِقْتَ لاَ شَكَّ فِيهِ *** **وَغَـدًا أَنْتَ صَـائِرٌ لِتُـرَابِ.**

---

[1]- النبأ/37،38، ويُنظر: الرّوم/57، وَغَافر/52.

[2]- هُود/105.

[3]- الإِنفِطَار/13-14، ويُنظر: مريم/75.

[4]- الأعراف/54.

وَهُوَ مَعْنًى يَسْتَوْحِيهِ مِنَ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠** ﴾[1]، أَوْ قَوْلِه:﴿**مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ٥٥** ﴾.

وَفِي البَيْتِ الرَّابِعِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ42[مِنَ الكَامِلُ]:

أَيُّ امْرِئٍ إِلاَّ عَلَيْهِ مِنَ البِلَى *** فِي كُلِّ **نَاحِيَةٍ رَقِيبٌ يَرْقُبُهُ**.

إِذْ هُوَ فِي كِلَيْهِمَا يَقْتَبِسُ مِنْ كِتَابِ اللهِ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ "قَ": ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨** وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩ ﴾[2]، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ:﴿ **... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١** ﴾[3].

وَفِي البَيْتِ الثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ44 يَقُولُ:

سُبْحَانَ مَنْ **جَلَّ اسْمُه وَعَلاَ *** وَدَنَا وَوَارَتْ عَيْنَهُ حُجُبُهْ**.

وَهَذَا المَعْنَى يَسْتَوْحِيهِ الشَّاعِرُ مِنْ الآيَةِ103 مِنْ سُورَةِ الأَنْعَامِ، لِإِثْبَاتِ سَيْطَرَةِ اللهِ عَلَى الكَائِنَاتِ وَإِحَاطَتِهِ بِهَا، فَهِيَ عَاجِزَةٌ عَنْ إِدْرَاكِهِ مَعَ قُرْبِهِ إِلَيْهَا، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣**﴾[4]، فَاللهُ، مَعَ جَلاَلِهِ وعُلُوِّ شَأْنِهِ وَتَوَارِيهِ عَنْ عُيُونِ عِبَادِهِ، قَرِيبٌ إِلَيْهِمْ دَانٍ مِنْهُمْ.

وَيَذْهَبُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ إِلَى نَصِّ الآيَةِ 257 مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ فَيَتَّخِذُ مَعْنَاهَا أَسَاسًا لِلبَيْتُ الثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ49[مِنَ الكَامِلِ] الذِّي يَقُولُ فِيهِ:

---

[1]- الرُّوم/20، وَيُنظر: طه/55.

[2]- ق/18،19.

[3]- النِّسَاء/01.

[4]- الأنعام/103.

2/ **مَنْ لَمْ يُوَالِ اللهَ وَالرُّسُلَ التِّي *** نَصَحَتْ لَهُ فَوَلِيُّهُ الطَّاغُوتُ.**[1]

فَمُوَالاَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ خَلاَصٌ وَغُنْمٌ، أَمَّا الرُّكُونُ إِلَى الطَّاغُوتِ فَخَسَارَةٌ وَغُرْمٌ، يَقُولُ تَعَالَى:﴿ **ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ** أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ٢٥٧ ﴾[2]، وَهَذَا مَا يُحَذِّرُ الشَّاعِرُ مِنْهُ وَمِنْ عَوَاقِبِهِ فِي جُلِّ زُهْدِيَاتِهِ.

أَمَّا فِي البَيْتِ5 مِنَ المَقْطُوعَةِ 68 فَيَقُولُ[مِنَ الطَّوِيلِ]:

5/ فَمَا مُوِّتَ الأَحْيَاءُ إِلاَّ لِيُبْعَثُوا***وَإِلاَّ **لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَتْ.**[3]

فَالبَيْتُ فِي شَطْرِهِ الثَّانِي يَتَّكِئُ عَلَى صَرِيحِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ:﴿ **إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ١٥** ﴾[4]. وَهَذَا أَمْرٌ يَتَكَرَّرُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي نُصُوصِ الشَّاعِرِ كَمَا هِيَ الحَالُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم50 [مِنَ المُنْسَرِحِ]، البَيْتُ الثَّالِثُ:

المَوْتُ حَقٌّ وَالدَّارُ فَانِيَةٌ *** **وَكُلُّ نَفْسٍ تُجْزَى بِمَا كَسَبَتْ.**

وَفِي القَصِيدَةِ ذَاتِهَا يَأْتِي أَبُو العَتَاهِيَّةِ إِلَى نَصٍّ قُرْآنِيٍّ يَتَوافَقُ مَعَ الخِطَابِ الذِّي يَبْنِيهِ فِي الحَثِّ عَلَى الوَرَعِ وَالكَفَافِ لِيُوَظِّفَهُ فِي سِيَاقٍ جَدِيدٍ فَيَقُولُ [البَيْتُ11]:

مَنْ لَمْ يَسَعْهُ الكَفَافُ مُقْتَنِعًا *** **ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِمَا رَحُبَتْ.**

وَذَلِكَ مُسْتَوْحَى مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، الآيَةُ 25 وَالتِّي يَقُولُ فِيهَا تَعَالَى:﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا **وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ**

---

[1]- قصيدة رقم:49 [من الكامل]، ص53.

[2]- البقرة/257، ويُنظَر: المائدة/55،56.

[3]- مقطوعة رقم:68 [من الطويل]، ص70.

[4]- طه/15.

بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ٢٥ ﴾[1]، فَالشَّاعِرُ رَأَى فِي مَوْقِفِ الاضْطِّرَابِ وَالحَيْرَةِ التِّي اسْتَبَدَّتْ بِالمُسْلِمِينَ يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ غَرَّتْهُمْ كَثْرَتُهُمْ فَاسْتَهَانُوا بِعَدُوِّهِمْ مَوْقِفًا مُشَابِهًا لِذَاكَ الإِنْسَانِ الذِّي تَسْتَعْبِدُهُ الثَّرْوَةُ وَتَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِ فَتَشْغَلُهُ عَنْ التَّفْكِيرِ فِي غَيْرِهَا، فَاسْتَعَارَ الصُّورَةَ التِّي فِي الآيَةِ لِيُصَوِّرَ حَالَ جَامِعِ المَالِ غَيْرِ القَنُوعِ أَوِ الفَقِيرِ الذِّي لَمْ يَرْضَ بِوَاقِعِهِ فَإِنَّ الأَرْضَ، عَلَى رَحَابَةِ أَرْجَائِهَا، وَسَعَةِ أَنْحَائِهَا، تَضِيقُ عَلَيْهِمَا وَتَشْتَدُّ أَزْمَتُهُمَا.

وَعَنِ التَّوَاضُعِ لِلنَّاسِ وَالبُعْدِ عَنِ الاسْتِبْدَادِ وَالتَّسَلُّطِ بِالمَالِ أَوِ الجَاهِ وَالمَنْصِبِ يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ الثَّامِنِ مِنَ القَصِيدَةِ 56[مِنَ الكَامِلُ]:

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ إِنْ رُزِقْتَ تَسَلُّطًا *** وَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَنْ هَنٍ وَهَنَاتِ.

وَهُوَ المَعْنَى الذِّي يَنْحَتُهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي "الشُّعَرَاءِ":﴿**وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ٢١٥**﴾[2]، فَهَذَا الخُلُقُ مَدْعَاةٌ لِمَحَبَّةِ الآخَرِينَ وَمَجْلَبَةٌ لاحْتِرَامِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ إِيَّاكَ بَعِيدًا عَنِ التَّسَلُّطِ وَمَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنْ سَقَطَاتٍ.

وفِي المَقْطُوعَةِ رَقم:93 مِنْ تَكْمِلَةِ الدِّيْوَانِ يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ [مِنَ الخَفِيف]:

إِنَّ يَوْمَ الحِسَابِ يَومٌ عَسِيرُ *** **لَيْسَ لِلظَّالِمِينَ فِيهِ نَصِيرُ**.

وَهَذَا المَعْنَى، كَمَا نَرَى، يَتَقَاطَعُ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ التِّي تُحَذِّرُ مِنَ الخُسْرَانِ الكَبِيرِ يَوْمَ لاَ يَجِدُ الإِنْسَانُ نَاصِرًا أَوْ مُعِينًا لِاجْتِيَازِ امْتِحَانٍ عَسِيرٍ تَقْصُرُ عَنْهُ كُلُّ حِيلَةٍ. فَالشَّاعِرُ يَسْتَعِيرُ بِشَكْلٍ جَلِيٍّ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ **فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ٩** ﴾[3]، أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي فَيَسْتَلْهِمُ لَفْظَهُ وَمَعْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ

[1]- التّوبة/25، ويُنْظَر:نفسُهُ/118.

[2]- الشُّعَرَاءُ/215، وَيُنظَر: الحِجْرُ/88.

[3]- المدّثر/9، وَيُنظر: الفرقان/26.

يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا **وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٧١** ﴾ [1].

ثُمَّ يَجْعَلُ الشَّاعِرُ الآيَةَ الثَّالِثَةَ مِنْ "الإِخْلاَصِ": ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣**﴾[2]، أَسَاسَ المَعْنَى وَاللَّفْظِ فِي بَيْتِهِ الثّانِي مِنَ القَصِيدَةِ 104[مِنَ الطَّوِيلِ] حِينَ يَقُولُ:

شَهِدْنَا لَكَ اللَّهُمَّ أَنْ **لَسْتَ وَالِدًا** *** وَلَكِنَّكَ المَوْلَى **وَلَسْتَ بِمَوْلُودِ**.

أَمَّا البَيْتانِ الثَّامِنُ والتَّاسِعُ مِن القَصِيدةِ رَقَم 107 واللَّذَانِ يَقُولُ فِيهِمَا:

8/ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ كُلَّهُ * يَبِيدُ وَمِنْهُ قَائِمٌ وَحَصِيدُ.**
9/ أَرَى المَوْتَ دَيْنًا لَهُ عِلَّةٌ * فَتِلْكَ التِّي كُنْتَ مِنْهَا تَحِيدُ.**[3]

فيَأْخُذُ اللَّفْظَ والمَعْنى فِيهِمَا، مِن قَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى التَّرْتِيبِ:

* البَيْتُ8: – الشَّطرُ الأَوَّلُ مِن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا **وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَۗ** وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ٢٠٥﴾[4].

– الشَّطرُ الثَّانِي مِنْ سُورةِ هُود: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَۖ **مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ**﴾[5].

* البَيْتُ 9: – الشَّطْرُ الأَوَّلُ مِنْ الآيَةِ 53 مِن سُورَةِ الصَّفَّاتِ: ﴿ أَءِذَا **مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣**﴾[6].

– الشَّطرُ الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ " ق": ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ

---

[1]– الحج/71، ويُنظر:المائدة/72.
[2]– الإِخْلاصُ/3.
[3]– الديوان، القصيدة [من المتقارب] رقم:107، ص106.
[4]– البقرة/205.
[5]– هود/100.
[6]– الصّافّات/53.

ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ **مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ**﴾[1]

أَمَّا الأَبْيَاتُ: 6-9 مِن القَصِيدَةِ رَقم 108 فَتَتَنَاصُّ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ الآيَاتِ: 3-6 مِنْ سُورَةِ البَلَدِ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ٢ **وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ** ٤**أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ**٥ يَقُولُ **أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا**٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٞ٧﴾[2]، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَجْمَعُ المَالَ لِغيْرِي دَائِبًا * وَأُقَاسِي العَيْشَ مِنْهُ فِي كَبَدْ.**
لِمَنْ المَالُ الذِّي أَجْمَعُهُ * أَلِنَفْسِي أَمْ لِأَهْلِي وَالوَلَدْ.**
مَا يُبَالِي وَلَدِي بَعْدِي إِذَا * غَيَّبُوا وَالِدَهُمْ تَحْتَ اللَّبَدْ.**
وَأَصَابُوا مَا لَهُ مِنْ بَعْدِهِ * أَلِغَيٍّ قَدْ مَضَى أَمْ لِرَشَدْ.**[3]

وَتِلْكَ الحَقِيقَةُ يُؤَكِّدُها وَيُكَرِّرُها الشَّاعِرُ فِي زُهْدِيَاتِهِ، وَيُدِيرُ حَوْلَهَا أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيهِ. ذَاكَ مَصِيرُ الإِنْسَانِ حِيَالَهَا، وَهُوَ رَهِينَةٌ أَمَامَهَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَـ ﴿**ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۚ** لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[4]، وَيَقُولُ الشَّاعِرُ مُتَمَثِّلاً هَذِهِ المَعَانِي:

3/ المَوْتُ حَقٌّ وَالدَّارُ فَانِيَةٌ * وَكُلُّ نَفْسٍ تَجْرِي بِمَا كَسَبَتْ.**[5]

أَمَّا البَيْتَانِ الأَوَّلُ وَالثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ114[مِنَ الخَفِيفِ] وَاللَّذَانِ يَقُولُ فِيهِمَا:

المَنَايَا **تَجُوسُ كُلَّ البِلاَدِ *** وَالمَنَايَا تُفْنِي كُلَّ العِبَادِ.**
لَتَنَالَنَّ مِنْ قُرُونٍ أَرَاهَا *** **مِثْلَ مَا نِلْنَ مِنْ ثَمُودٍ وَعَادِ.**

فَإِنَّنَا نَلْمَسُ التَّأَثُّرَ البَيِّنَ بِسُورَةِ الفَجْرِ إِذْ نَجِدُ أَلْفَاظَهَا قَدْ شَغَلَتْ مَسَاحَةً مُعْتَبَرَةً مِنَ

---

[1]- ق/19.
[2]- البلد/1-7.
[3]- الديوان، القصيدة[من الرّمل]رقم: 108، ص108.
[4]- غافر/17، ويُنظر: المدثّر/38.
[5]- الديوان، القصيدة [من المنسرح] رقم:50، ص54.

النَّصِّ هُنَا، يَقُولُ تَعَالَى:﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ٨**﴾ [1]. أَمَّا نَبْرَةُ الوَعِيدِ فِي البَيْتِ الثَّانِي فَفِيهَا اتِّكَاءٌ وَاضِحٌ عَلَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ " فُصِّلَتْ":﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣** ﴾[2].

وَنَأْتِي إِلَى المَقْطُوعَةِ رَقَمِ119[مِنَ المَنْسَرِحِ] وَهِيَ مِنْ بَيْتَيْنِ يَقُولُ فِيهِمَا:

الحَمْدُ للهِ **الوَاحِدِ الصَّـمَدِ** *** هُوَ الذِّي **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَلِدِ.**
عَلَيْـهِ أَرْزَاقُـــنَا فَلَيْـسَ مَعَ * اللهِ بِــنَا حَـاجَةٌ إِلَى أَحَدِ.**

فَنُلْفِي أَبَا العَتَاهِيَّةِ يَصُوغُ البَيْتَ الأَوَّلَ لَفْظًا وَمَعْنًى مِنْ سُورَةِ الإِخْلاَصِ التِّي تُثْبِتُ وِحْدَانِيَّةَ اللهِ وَتُنَزِّهُهُ عَنِ الوَالِدِ وَالوَلَدِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣** ﴾[3]، أَمَّا البَيْتُ الثَّانِي فَيَسْتَوْحِيهِ مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١** ﴾[4].

وَهُو يَبْنِي شَطْرَ البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ121 لِيَسْتَحْضِرَ أَوَائِلَ سُورَةِ الإِخْلاَصِ: الآيَتَانِ 2،3 فَيَقُولُ [مِنَ البَسِيطِ]:

إِيْأَسْ مِنَ النَّاسِ وَارْجُ **الوَاحِدَ الصَّمَدَا** *** فَهُـوَ **أَعْلَـى مِنَّـــةً وَيَـــدَا.**

وَمِنْ مَجْمُوعِ آيَاتٍ يُرَكِّبُ الشَّطْرَ الثَّانِي مِنْهُ وَهُوَ يَصِفُ قُدْرَةَ اللهِ وَمَنَّهُ وَفَضْلَهُ عَلَى سَائِرِ الخَلِيقَةِ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٧** ﴾[5]، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ**

---

[1]- الفجر/6،7،8.
[2]- فُصِّلَتْ/13.
[3]- الإِخْلاصُ/1-3.
[4]- يُونُسُ/31، وَيُنظر:الملكُ/21.
[5]- الحجرات/17، وَيُنظر: إبراهيم11.

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠﴾[1].

ثُمَّ نَأْتِي إِلَى بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ، هُمَا الخَامِسُ وَالسَّادِسُ مِنَ المَقْطُوعَةِ 125، حِينَ يَقُولُ:

5/ خلَقَ الخَـلْقَ لِلفَنَـاءِ **فَهُـمْ بَيْـ *** ـــنَ شَقِـــيٍّ وَسَـــــعِيدِ.**

6/ لَيْتَ شِعْرِي وَكَيْفَ حَالُكِ **يَا نَفْـ *** ـسُ غَدًا بَيْنَ سَائِقٍ وَشَهِيدِ.**[2]

فَفِي الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الأَوَّلِ يَسْتَعِيرُ قَوْلَهُ تَعَالَى:﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ **فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ١٠٥**﴾[3] بِشَكْلٍ يَكَادُ يَتَطابَقُ، ثُمَّ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِك فِي الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الذِّي يَلِيهِ حِينَ يَأْخُذُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:﴿ **وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ٢١**﴾[4] مَعَ تَغْيِيرٍ يَسِيرٍ.

وَيَقْتَبِسُ الشَّاعِرُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الآيَاتِ أَلْفَاظَهَا وَمَعَانِيهَا لِيَبْنِيَ البَيْتَ السَّادِسَ مِنَ القَصِيدَةِ134[مِنَ المُتَقَارِبِ] فَيَقُولُ:

فَمَا لِي **أَرَى النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ** *** كَـأَنَّ **قُلُوبَـهُمْ سَـامِدَهْ.**

وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي " مَرْيَمَ ": ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩** ﴾[5]، وَفِي " الأَنْبِيَاءِ": ﴿**ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ١**﴾[6]، أَمَّا فِي " النَّجْمِ" فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿**وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ٦١** ﴾[7].

---

[1]- الفتح/10.

[2]- الديوان، المقطوعة رقم:125 [من الخفيف]، ص123.

[3]- هود/105.

[4]- ق/21.

[5]- مريم/39.

[6]- الأَنْبِياء/1.

[7]- النَّجْمِ/60،61.

وَيَسْتَلْهِمُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ آخِرَ البَيْتِ18مِنَ قَصِيدَتِهِ رَقَم164[مِنَ المُتَقَارِبِ] مِنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ٣٥**﴾[1] لِيَضَعَ المَغْرُورِينَ بِدَارِ الفَنَاءِ أَمَامَ حَقِيقَةِ النِّهَايَةِ كَمَا صَوَّرَهَا سُبْحَانَهُ إِمَعَانًا مِنَ الشَّاعِرِ فِي تَخْوِيفِهِمْ إِنْ هُمْ لَمْ تَنْفَعْهُم الذِّكْرَى، فَيَقُولُ:

وَأَنْ تَسْتَخِفَّ **بِدَارِ الغُرُورِ** *** وَأَنْ تَسْتَعِدَّ **لِإِحْدَى الكُبَرْ**.

وَمعَ قَصِيدَةٍ أُخْرَى لِنَرَى شَغَفَ الشَّاعِرِ الدَّائِمِ بِاسْتِثْمَارِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ، شَغَفٌ صَارَ مَعَ الوَقْتُ اللَّبِنَةَ الأُمَّ فِي تَأْسِيسِ خِطَابِهِ، وَصِيَاغَةِ تَرَاكِيبِهِ وَدَلاَلاَتِهَا، أَوْ قُلْ: إِنَّهُ كَانَ هَكَذَا مُنْذُ أَوَّلِ عَهْدِهِ بِالزُّهْدِ، يَجِدُ فِي البِنْيَةِ القُرْآنِيَّةِ أَدَوَاتِ تَشْكِيلِهِ، وَتَقْوِيَةِ مَقْصِدِيَّتِهِ، يَقُولُ فِي الأَبْيَاتِ 2،3،4 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم166 [مِنَ المُنْسَرِحِ]:

يَا **عَجَبًا كُلُّنَا يَحِيدُ عَنِ الـ *** حَيْنِ وَكُلٌّ لِحَيْنِهِ لاَقِ**.

كَأَنَّ حَيًّا قَدْ قَامَ نَادِبُهُ *** **وَالْتَفَّتِ السَّاقُ مِنْهُ بِالسَّاقِ**.

وَاسْتَلَّ مِنْهُ حَيَاتَهُ مَلَكُ الـ *** ـمَوْتِ خَفِيًّا **وَقِيلَ:مَنْ رَاقِ**.

يُنَبِّهُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ اللاَّهِينَ مُطَمئِنِّينَ غَافِلِينَ عَمَّا قُدِّرَ لَهُمْ مِنْ نِهَايَةٍ لاَ مَحِيدَ عَنْهَا، كُلُّهُمْ إِلَيْهَا صَائِرٌ ﴿**وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩**﴾[2]، وَيُصَوِّرُ لَنَا فِي البَيْتَيْنِ: الثَّانِي وَالثَّالِثِ قُرْبَ ذَلِكَ اليَوْمِ حَتَّى لَكَأَنَّ نَاعِيَ القَوْمِ وَنَادِبَهُمْ قَدْ تَهَيَّأَ قَائِمًا أَمَامَ الجَسَدِ الذِّي اسْتَسْلَمَ لِمَلَكِ المَوْتِ، لاَ يَسْتَطِيعُ رَدَّهُ: ﴿**كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩**﴾[3]، فَالشَّاعِرُ يَجِدُ فِي هَذِهِ الآيَاتِ غَايَتَهُ فِي تَصْوِيرِ عَظَمَةِ المَوْقِفِ وَرَهْبَتَهُ، فَانْبَرَى إِلَيْهِ يَسْتَعِيرُ لَفْظَهُ ودَلاَلَتَهُ لِيُقِيمَ خِطَابَ أَبْيَاتِهِ الثَّلاَثَةِ هَذِهِ.

---

[1]- المدّثّر/35.

[2]- ق/19.

[3]- القِيَامة/26- 29.

ثُمَّ يَسْتَعِيرُ أَلْفَاظَ الآيَةِ 28 مِنْ السُّورَةِ ذَاتِهَا ﴿**لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ٢٨**﴾[1]، وَالتِّي تَصِفُ أَهْوَال جَهَنَّمَ التِّي تَمْحَقُ كُلَّ مَا أُلْقِيَ فِيهَا لِيُوَظِّفَهَا فِي تَصْوِيرِ المَوْتِ، فَيَقُولُ فِي البَيْتِ4 مِنَ القَصِيدَةِ رَقم167:

رَأَيْتُ المَوْتَ **لاَ يُبْقِي** *** عَلَى أَحَـدٍ **وَلاَ يَــذَرُ**.

وَعَلَى المِنْوَالِ ذَاتِهِ يَسِيرُ الشَّاعِرُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم171مُتَّكِئًا عَلَى القُرْآنِ الكَرِيمِ لِمَا فِيهِ مِنْ أَثَرٍ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنِ جِهَةٍ أُخْرَى لِمُوَاءَمَتِهِ خِطَابَهُ الزَّاهِدَ فِي مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا التِّي وَإِنْ طَالَتْ الآجَالُ بِهَا فَإِنَّهَا إِلَى زَوَالٍ، يَقُولُ فِي البَيْتِ13 [مِنَ الطَّوِيلِ]:

وَأَمَّا جَمِيعُ الخَلْقِ فِيهَا فَمَيِّتُ *** وَلَكِنَّ آجَالاً تَطُولُ وَتَقْصُرُ.

وَهَذَا المَعْنَى يُوَافِقُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي " الرَّحْمَنِ ":﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ٢٧** ﴾[2].

وَفِي البَيْتَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم172 وَاللَّذَيْنِ يَقُولُ فِيهِمَا [مِنَ الخَفِيفِ]:

لَيْتَ شِعْرِي فَإِنَّنِي **لَسْتُ أَدْرِي** *** **أَيُّ يَوْمٍ يَكُونُ آخِرَ عُمْرِي**.
وَبِـأَيِّ البِــلاَدِ تُقْبَـضُ رُوحِـي *** **وَبِـــأَيِّ البِقَاعِ يُحْفَرُ قَبْرِي**.

نَجِدُ الشَّاعِرَ مُتَأَثِّرًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ٣٤** ﴾[3].

وَلاَ يَنْقَطِعُ الشَّاعِرُ عَنِ التَّذْكِيرِ بِالقُبُورِ التِّي هِيَ مَصِيرُ الإِنْسَانِ، طَالَ عُمْرُهُ أَوْ قَصُرَ،

[1]- المدّثر/28.
[2]- الرّحمن/26،27.
[3]- لقمان/34.

فَيَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم176[مِنَ السَّرِيعِ]:

1/ **أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيـرُ الأُمُورُ** *** مَا أَنْتِ **يَا دُنْيَـايَ إِلاَّ غُـرُورُ**.

2/ إِنَّ امْرِءًا يَصْفُو لَهُ عَيْشُهُ *** لَغَـــافِلُ عَمَّا تَجِـنُّ القُبُورُ.

وَهُوَ فِيهَا يَتَّكِئُ، كَمَا عَوَّدَنَا، عَلَى المَعَانِي التِّي يَسْتَعِيرُهَا مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّورَى:﴿ **صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ٥٣** ﴾[1]، وَقَوْلُهُ فِي " الحَدِيدِ ": ﴿**ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ** كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ **وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ٢٠** ﴾[2].

وقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ عَنِ البَيْت العَاشِرِ مِنَ القَصِيدة رَقَم 192 وَالذِّي يَلْتَمِسُ مَعْنَاهُ وَلَفْظَهُ فِي آيَتَيْنِ:

أَمَا يَهُــولُكَ يَــوْمٌ لاَ دِفَاعَ لَهُ *** إِذْ أَنْتَ فِي **غَمَرَاتِ الموْتِ** مُنْغَمِسُ.[3]

فَوَهُوَ يُحَذِّرُ مِن المَوْتِ وَأَهْوَالِهَا التِّي سَيَقِفُ الجَمْعُ إِزَاءَها عَاجِزِينَ، لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً لِرَدِّهَا، يَسْتَعِينُ بِالآيَةِ الثَّامِنَةِ مِن سُورَةِ الطُّورِ وفِيهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ٧ **مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ٨**﴾[4]، وَحِينَهَا يَصِيرُ الإِنْسَانُ كَالغَرِيقِ الذِّي يَغْشَاهُ المَوتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿... **وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ** وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ...٩٣﴾[5].

---

[1]- الشُّورَى/53.

[2]- الحديد/20.

[3]- الديوان، القصيدة[من البسيط] رقم:192، ص188.

[4]- الطّور/7-8.

[5]- الأنعام/93.

أَمَّا القَصِيدَةُ197[مِنَ المُتَقَارِبِ] فَلَهَا قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ كُنَّا أَوْرَدْنَاهَا فِي فَصْلٍ سَابِقٍ تُبَيِّنُ قُدْرَةَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ عَلَى الرَّفْعِ مِنْ وَتِيرَةِ خِطَابِهِ، وَالسُّمُوِّ بِهِ عَلَى بَسَاطَتِهِ، بَلْ إِنَّ بَسَاطَتَهُ تِلْكَ، وَانْسِيَابِيَّتَهُ فِي أَرِيحِيَّةٍ إِلَى دَرَجَاتٍ لاَفِتَةٍ، هُوَ الذِّي جَعَلَ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ كِبَارِ الشُّعَرَاءِ يَتَحَوَّلُونَ، مَعَ تَوَالِي السَّمَاعِ، مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ، مِنْ اسْتِهْجَانٍ وَاحْتِقَارٍ، إِلَى غَيْرَةٍ وَانْبِهَارٍ. وَهَذِهِ القَصِيدَةُ هُنَا تُمَثِّلُ بِصِدْقِ هَذَا التَّوَجُّهَ فِي اخْتِيَارِ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الأُسْلُوبِ، وَالطَّرِيقَةَ فِي الخِطَابِ التِّي تَتَّخِذُ مِنَ خِطَابِ الآخَرِ، عَلَى تَعَدُّدِهِ وَتَنَوُّعِهِ، مُرْتَكَزًا فَنِّيًّا لِبِنَاءِ خِطَابِ الذَّاتِ.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ التَّاسِعِ مِنْهَا:

وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ *** **لَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**.

فَانْظُرْ إِلَى الشَّاعِرِ كَيْفَ يُضَمِّنُ الشَّطْرَ الثَّانِيَ مِنَ البَيْتِ الآيَةَ الأُولَى مِنْ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١** ﴾[1]، بَلْ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، جَعَلَ إِيقَاعَ القَصِيدَةِ إِلَى إِيقَاعِ السُّورَةِ أَقْرَبَ وَبِهِ أَلْصَقَ.

وَعَنْ جَمْعِ المَالِ وَالافْتِتَانِ بِالثَّرْوَةِ يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ الثَّالِثِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم224[مِنَ الطَّوِيلِ]:

وَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لِغَيْرِ بَلاَغِهِ *** سَتَتْرُكُهَا **فَانْظُرْ لِمَنْ أَنْتَ جَامِعُ**.

وَهَذَا مَعْنًى يَتَرَدَّدُ فِي دَيْوَانِهِ، حَتَّى لاَ تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ قَصِيدَةٌ أَوْ مَقْطَعٌ، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَسْتَعِيرُ مِنَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ مَا يَخْدُمُ فِكْرَتَهُ، فَهَاهُوَ يَقُولُ فِي البَيْتِ التَّاسِعِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم225 [مِنَ الرَّمَلِ]:

[1]- الزَّلْزَلة/1.

أَبْلِغِ الجَامِعَ أَنْ لَوْ قَدْ أَتَى*** يَوْمُهُ **لَمْ يُغْنِ عَنْهُ مَا جَمَعْ**.

فَالشَّاعِرُ، وَلاَ شَكَّ، مُتَأَثِّرٌ بِالقُرْآنِ الكَرِيمِ لَفْظًا وَمَعْنَى حِينَ يَتَحَدّثُ عَنْ مَصِيرِ الإِنْسَانِ، وَمَبْلَغِ جُهْدِهِ فِي جَمْعِ المَالِ الذِّي لَيْسَ بِمَقْدُورِهِ اذِّخَارَهُ لِنَفْسِهِ مَا دَامَ الفَنَاءُ نِهَايَتَهُ المَحْتُومَةُ، يَقُولُ تَعَالَى فِي سُورَةِ اللَّيْلِ:﴿ **وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١** ﴾[1]، وَفِي سُورَةِ المَسَدِ يَقُولُ سُبْحَانَهُ:﴿ **مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢** ﴾[2].

وَيَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ السَّادِسِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم251[مِنَ الطَّوِيلِ]:

وَلاَ تَجْعَلَنَّ الحَمْدَ إِلاَّ لِأَهْلِهِ *** وَلَا تَدَعِ **الإِمْسَاكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى**.

فَنَحْنُ نَجِدُ الشَّطْرِ الثَّانِي مُسْتَلْهَمًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي " البَقَرَة":﴿**لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦** ﴾[3].

ثُمَّ وَهُوَ يُسَائِلُ النَّفْسَ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، المُنْشَغِلَةَ بِالأَمَانِي الخَادِعَاتِ، يَأْتِي الشَّاعِرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي "الحَاقَّةِ":﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ٢٥** ﴾[4] فَيَقْتَبِسُ مِنْهُ قَائِلاً [القَصِيدَةُ رَقَمُ 288 مِنَ الطّوِيلِ] الأَبْيَاتُ 5،6،7:

أَيَا نَفْسُ لاَ تَسْتَوْطِنِي دَارَ قُـــلْعَةٍ *** وَلَكِنْ خُذِي فِي الزَّادِ قَبْلَ ارْتِحَالِكِ.
أَيَا نَفْسُ لاَ تَنْسَيْ كِتَابَكِ وَاذْكُرِي *** **لَكِ الوَيْـــلُ إِنْ أُعْـطِيتِهِ بِشِمَـــالِكِ**.
أَيَا نَفْسُ إِنَّ اليَوْمَ يَـــــــوْمُ تَفَرُّغٍ *** فَدُونَـــكِ مِنْ قَبْلِ يَوْمِ اشْتِغَـــالِكِ.

وَمِنَ القَصِيدَةِ رَقَم295[مِنَ الكَامِلِ] نَقْتَطِعُ الأَبْيَاتَ مِنْ26 إِلَى32:

---

[1]- اللّيلُ/11.
[2]- المَسَدُ/2، ويُنظر: الهُمَزَةُ/2،3.
[3]- البقرة/256.
[4]- الحاقَّةُ/25.

الحَمْـدُ للهِ الحَـــمِيدِ بِمَنِّــهِ *** **خَسِرَتْ وَلَـمْ تَرْبَحْ يَدُ البَـطَّالِ.**
للهِ **يَـوْمٌ** تَقْشَــعِرُّ جُلُودُهُـــمْ *** **وَتَشِيبُ مِنْهُ ذَوَائِـبُ الأَطْفَـالْ.**
يَوْمُ النَّــوَازِلِ وَالزَّلاَزِلِ وَالحَــوَا * مِلِ فِيــهِ إِذْ يَقْذِفْـنَ بِالأَحْمَالِ.**
يَوْمُ التَّغَــابُنِ وَالتَّبَــايُنِ وَالتَّـــوَا * زُنِ** وَالأُمُـورِ عَظِيـمَةِ الأَهْـوَالِ.
يَومٌ يُنَــادَى فِــيهِ كُـلُّ مُضَــلَّلٍ * بِمُقَطِّعَاتِ النَّــارِ وَالأَغْـلاَلِ.**
لِلمُتَّــقِينَ هُنَـالِكَ نُـــزُلُ كَــرَامَةٍ * عَلَتِ الوُجُوهَ بِنَضْـرَةٍ وَجَمَالِ.**
زُمَرٌ أَضَاءَتْ لِلحِسَابِ وُجُوهُهَا * فَلَهَا بَرِيـقٌ عِنْـدَهُ وَتَـــــلاَلِي.**

إِنَّ البِنْيَةَ الغَالِبَةَ عَلَى هَذَا المَقْطَعِ قُرْآنِيَّةُ الأُسْلُوبِ وَالدَّلاَلَةِ فِي كُلِّيَّتِهَا، إِذْ لاَ يَخْلُو شَطْرٌ مِنْ أَبْيَاتِهَا، مَعْجَمًا وَتَرْكِيبًا، مِنْ تِلْكِ السِّمَةِ التِّي هِيَ طَرِيقَةُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي تَشْكِيلِ خِطَابِهِ الزُّهْدِيِّ. فَفِي البَيْتِ 26 الْتِفَاتَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ٢٧** ﴾[1]، وَيَوْمَ الخُسْرَانِ هَذَا، يَفْتَقِدُ أَهْلُ البَاطِلِ أَسْبَابَ الخَلاَصِ وَتَتَقَطَّعُ بِهِمُ السُّبُلُ لِهَوْلِ مَا يَرَوْنَهُ وَيُلاَقُونَهُ، إِنَّهُ يَوْمٌ تَقْشَعِرُّ لَهُ الجُلُودُ وَيَشِيبُ الأَطْفَالَ ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا١٧**﴾[2]، يَوْمٌ تُزَلْزَلُ فِيهِ الأَرْضُ، وَتُوضَعُ المَوَازِينُ، وَيَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَهْلِهِ وَبَنِيهِ ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ٢** ﴾[3].

فَأَبُو العَتَاهِيَّةِ يَجِدُ فِي النَّصِّ القُرْآنِيِّ ضَالَّتَهُ الأُسْلُوبِيَّةَ التِّي تَمْلأُ فَرَاغَاتِ المَعْنَى حِينَ تَعْجَزُ الكَلِمَاتُ عَنِ دِقَّةِ الوَصْفِ، فَإِذَا كَانَ ﴿**وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ٣٢**﴾[4]،

[1]- الجاثية/27.
[2]- المزمل/17.
[3]- الحج/2.
[4]- غَافِر/32.

وَ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا١﴾[1] وَضَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿... ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ٤٧﴾[2] وَذَلِكَ ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ٣٧ ﴾[3].

إِنَّ هَوْلَ هَذَا اليَوْمِ، كَمَا يُصَوِّرُهُ الشَّاعِرُ مُسْتَعِينًا بِأَسَالِيبِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، يَجْعَلُ النَّاسَ فِي صِرَاعٍ مَعَ أَقْرَبِ المُقَرَّبِينَ عَسَى يَظْفَرُوا بِحَسَنَةٍ تُخَلِّصُهُمْ مِنْ عَذَابِ يَومٍ مَهِينٍ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ..٩ ﴾[4] فَمَنْ أُدْخِلَ الجَنَّةَ يَوْمَهَا لَيْسَ فَازَ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ١٥ ﴾[5]، فَيَكُونُ مِنْ عَلَامَاتِ أَهْلِ النَّارِ أَنْ خُصُّوا بِلِبَاسٍ قُدَّ مِنْ نِيرَانِ جَهَنَّمَ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ٢٠ ﴾[6]، أَمَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ نُزُلَ الكَرَامَةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا١٠٧﴾[7]، لَقَدْ خَشُوا رَبَّهُمْ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا١١﴾[8]، إِذْ ذَاكَ تُشْرِقُ الوُجُوهُ وَتَتَلأْلأُ بِحُسْنِ الخَاتِمَةِ وَرِضَى اللهِ تَعَالَى فَـ ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ٢٤ ﴾[9].

وَيَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ الأُولَى مِنَ القَصِيدَةِ296 [مِنَ السَّرِيعِ]:

---

[1]- الزَّلْزَلَةُ/1.

[2]- الأَنْبِيَاءُ/47، وَيُنظر:الأَعرافُ/8.

[3]- الأَنْفَالُ/37.

[4]- التَّغَابُنُ/9.

[5]- مُحَمّد/15.

[6]- الحَجُّ/19،20.

[7]- الكهف/107، ويُنظر: السّجدة/19، وَفُصِّلَتْ/30-32.

[8]- الإِنسَانُ/11.

[9]- المطفّفين/24، وَيُنظر: القيامة/22.

يَا ذَا الذِّي يَقْرَأُ فِي كُتْبِهِ *** **مَا قَدْ نَهَى اللهُ وَلاَ يَعْمَلُ.**
قَدْ بَيَّنَ اللهُ مَقْتَ الذِّي *** **يَأْمُرُ بِالحَــــقِّ وَلاَ يَفْعَلُ.**
مَنْ كَانَ لاَ يُشْبِـهُ أَفْعَالُهُ * أَقْـــوَالَهُ فَصَـمْتُهُ أَجْمَــلُ.**[1]

فَالشَّاعِرُ يَزْدَرِي أَفْعَالَ الذِّينَ يَنْصَحُونَ لِلنَّاسِ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الحَقِّ غَيْرَ أَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُمْ عَاكِفُونَ عَلَى مَا يَنْهَوْنَ عَنْهُ، وَذَلِكَ مِنْ أَسْوَإِ مَا قَدْ يَتَخَلَّقُ بِهِ المَرْءُ، يَقُولُ تَعَالَى وَاصِفًا هَذِهِ الزُّمْرَةَ: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٤٤** ﴾[2]. وَهَذَا المَعْنَى يُلِحُّ عَلَيْهِ الشَّاعِرُ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنْ زُهْدِيَاتِهِ، فَهَاهُوَ يَقُولُ فِي البَيْتِ9 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم31 [مِنَ المُتَقَارِبِ]:

إِذَا عِبْتَ أَمْرًا فَلاَ تَـأْتِهِ * وَذُو اللُّبِّ مُجْتَنِبٌ مَا يُعِيبُ.**

وَفِي البَيْتِ الثَّالِثِ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَم106 [مِنَ المُنْسَرِحِ] يَقُولُ أَيْضًا:

دَعَ عَنْكَ تَقْوِيمَ مَنْ تُقَوِّمُهُ * وَابْدَأْ فَقَوِّمَ مَا فِيكَ مِنْ أَوَدِ.**

بَلْ إِنَّ الشَّاعِرَ يَسْتَثْمِرُ هَذَا التَّوْجِيهَ القُرْآنِيَّ لِيَقُولَ فِي المَقْطُوعَةِ رَقَم441 [مِنَ البَسِيطِ]:

يَا وَاعِـظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّـهَمًا* إِذْ عِبْتَ مِنْـهُمْ أُمُـورًا أَنْتَ تَاتِيــهَا.**
كَالمُلْبِسَ الثَّوْبَ مِنْ عُرْيٍ عَـــوْرَتُهُ *** لِلنَّـــــــاسِ بَادِيَةٌ مَا إِنْ يُوَارِيهَا.
وَأَعْظَمُ الإِثْمِ بَعْدَ الشِّـــــرْكِ نَعْلَمُهُ *** فِي كُلِّ نَفْـــسٍ عَنْ مَسَاوِيهَا.
وَشُغْلُهَا بِعُيُوبِ النَّـــــاسِ تُبْصِرُهَا *** مِنْهُمْ وَلاَ تُبْصِرُ العَيْبَ الذِّي فِيهَا.

وَفِي الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم301 [مِنَ السَّرِيعِ] يَقُولُ أَبُو

[1]- الديوان، ص285.
[2]- البقرة/44، ويُنظر: الشُّعَراءُ/226.

العَتَاهِيَّةِ:

أَصْبَحَ هَذَا النَّاسُ قَالاً وَقِيلْ *** **فَالمُسْتَعَانُ اللهُ صَبْرٌ جَمِيلْ**.

وَهُوَ اسْتِحْضَارٌ صَرِيحٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ **فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**١٨﴾ [1].

وَفِي القَصِيدَةِ ذَاتِهَا، يَأْتِي الشَّاعِرُ إِلَى الآيَةِ57 مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا٥٧**﴾[2]، فَيَسْتَعِيرُ لَفْظَهَا وَمَعْنَاهَا لِيَصُوغَ دَلاَلاَتِ البَيْتِ الحَادِي عَشَرَ فَيَقُولُ:

أُسْلُ عَنِ الدُّنْيَا وَعَنْ ظِلِّهَا *** فَإِنَّ فِي **الجَنَّةِ ظِلاً ظَلِيلْ**.

وَيَسْتَقِي لَفْظَ وَمَعْنَى البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم303 مِنْ القُرْآنِ الكَرِيمِ أَيْضًا، فَيَقُولُ:

إِنْ قَدَّرَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاَ *** وَكَيْفَ نَجْهَلُ أَمْرًا لَيْسَ مَجْهُولاَ.

وَهُوَ بَعْضُ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن **لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا** لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ٤٢ ﴾[3].

وَمِنْ دَعْوَتِهِ النَّاسَ إِلَى الانْتِبَاهِ مِنَ الغَفْلَةِ وَعَدَمِ الاغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي القَصِيدَةُ رَقَمُ359 [مِنَ الكَامِلِ] مُذَكِّرًا بِأَنَّهَا لَيْسَتْ دَارَ خُلُودٍ لأَحَدٍ:

[1]- يُوسفُ/18.

[2]- النِّسَاءُ/57.

[3]- الأَنفَالُ/42، وَيُنظر: الأحزاب/38.

31/فَالحَمْدُ للهِ الذِّي هُوَ دَائِمُ * أَبَدًا وَ لَيْسَ لِمَا سِوَاهُ دَوَامُ.**

34/سُبْحَانَهُ مَلِكٌ تَعَالَى جَدُّهُ * وَ لِوَجْهِهِ الإِجْلاَلُ وَ الإِكْرَامُ.**

وَهَذِهِ المَعَانِي جَارِيَةٌ فِي أَسَالِيبِ القُرْآنِ يُذَكِّرُ بِهَا اللهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ بِمَهَالِكِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَبِأَنَّ الدَّوَامَ لِلحَيِّ الذِّي لاَ يَمُوتُ، فَـ ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ٢٧**﴾[1]، أَمَّا الشَّطْرُ الأَوَّلُ مِنَ البَيْتِ 34 فَقَد أَخَذَ جُلَّ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ **وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا٣**﴾[2].

أَمَّا البَيْتُ السَّادِسُ مِنَ المَقْطُوعَةِ 435 وَالذِّي يَقُولُ:

عَجَبًا لِمَنْ يَنْسَى المَقَابِرَ وَالبِلَى*** **سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ البَالِيَهْ.**

فَإِنَّهُ مُسْتَوْحَى، فِي شَطْرِهِ الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ٧٩** ﴾[3]، فَفِيهَا دَعْوَةٌ لِلاعْتِبَارِ مِنْ أَهْلِ المَقَابِرِ الذِّينَ وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُنْشِئَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ، وَذَلِكَ مَدْعَاةٌ لِلاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ البَعْثِ وَالحِسَابِ ﴿**يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ١٢** ﴾[4].

وَفِي البَيْتِ 19 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم437 يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ:

كَمْ مِنْ فَتَى قَدْ دَنَتْ لِلمَوْتِ رِحْلَتُهُ *** **وَخَيْرُ زَادِ الفَتَى لِلمَوْتِ تَقْوَاهُ.**

مُقْتَبِسًا دَلاَلَةَ الشَّطْرِ الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي "البَقَرَةِ ":﴿ **ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ**

---

[1]- الرّحمن/26،27.

[2]- الجِنُّ/3.

[3]- يس/78،79.

[4]- النَّازِعَاتُ/10-12.

يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ١٩٧ ﴾[1].

وَيُلِحُّ الشَّاعِرُ عَلَى مَدَارِ زُهْدِيَّاتِهِ عَلى تَذَكُّرِ المَوْتِ وَالعَمَلِ لِمَا بَعْدَهُ، وَخَيْرُ مَا يَحْتَاطُ بِهِ الإِنْسَانُ لِذَلِكَ الحِينِ تَقْوَى اللهِ لأَنَّهَا زَادُهُ الوَحِيدُ الذِّي يُرَافِقُهُ إِلَى دَارِ الفَنَاءِ، فَيُغَطِّي عَلَى سَوْءَاتِهِ، وَيَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ نَجَاتِهِ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ** ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ٢٦﴾[2]، فَيَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مُقْتَبِسًا [قصيدة 450، مِنَ الطَّوِيلِ]:

11/ إِذَا المَرْءُ **لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى*** **تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسْيَا**.

وَفِي البَيْتِ13 مِنَ القَصِيدَةِ451[مِنَ البَسِيطِ] يَبْنِي أَبُو العَتَاهِيَّةِ الشَّطْرَ الأَوَّلَ عَلَى مَعَانِي وَأَلْفَاظَ يَسْتَقِيهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿**..يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ٣٧**﴾[3]، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا **يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ٤٢**﴾[4]. أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي فَيَمْتَحُ مِنَ الآيَةِ "19" مِنْ سُورَةِ "قَ": ﴿**وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ٢٠**﴾[5]، فَيَقُولُ الشَّاعِرُ:

يَوْمَ **أُقَلِّبُ** فِيهِ **شَاخِصًا بَصَرِي** *** تَمِيدُ بِي فِي حِيَاضِ **المَوْتِ سَكْرَتِيَهْ**.

ثُمَّ يَأْتِي إِلَى مَجْمُوعَةٍ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ لِيَصُوغَ مِنْهَا البَيْتَيْنِ الأَوَّلَ وَالثَّانِي مِنْ القَصِيدَة رَقَمِ 452، فَيَقُولُ:

أَيْنَ القُرُونُ المَاضِيَةْ * تَرَكُوا المَنَازِلَ خَالِيَهْ**.

---

[1]- البقرة/197.

[2]- الأعراف/26.

[3]- النّور/37.

[4]- إبراهيم/42، وَيُنظر: الأنبياء/97.

[5]- ق/19.

فَاسْتَبدَلَتْ بِهِمُ **دِيَـا** *** **رُهُمُ الرِّيَاحَ الهَـاوِيَهْ**.

فَهُوَ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ يُسَائِلُ أُولِي النُّهَى، فِي دَعْوَةٍ لِلاعْتِبَارِ، عَنْ مَآلِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي أَفْنَاهَا اللهُ سُبْحَانَهُ فَمَا أَغْنَى عَنْهَا مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ وَجَاهٍ، يَقُولُ تَعَالَى فِي الآيَةِ51 مِنْ سُورَةِ " **طَهَ** ": ﴿ **قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ٥١** ﴾[1]، وَالآيَةُ 128 مِنْهَا: ﴿**أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ١٢٨**﴾[2]. وَفِي "**السَّجْدَةُ**" يَقُولُ سُبْحَانَهُ:﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ٢٦** ﴾[3]، فَفَرَاغُ المَنَازِلِ وَبِلَى الدِّيَارِ آيَاتٌ لِمَنْ أَرَادَ الاعْتِبَارَ قَبْلَ الرَّحِيلِ.

إِنَّهُ المَصِيرُ المَحْتُومُ الذِّي عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَذْكِرَهُ وَيَعِيَهُ، لِذَا يَرْسُمُ لَنَا الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ الثَّانِي تِلْكَ الصُّورَةَ المُوحِشَةَ التِّي تَسْتَبِـدُّ بِالمَكَانِ بَعْدَ أَزْمِنَةٍ مِنَ الحَيَاةِ وَالحَيَوِيَّةِ مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُـهُمْ خَـاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ٥٢** ﴾[4].

4-2- التَّنَاصُّ مَعَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ:

وَلِذَاتِ السَّبَبِ الرَّئِيسِ الذِّي أَسْلَفْنَا، وَهُوَ تَوَاؤُمُ غَرَضِ الزُّهدِ مَعَ الوَازِعِ الدِّينِيِّ، وَالمَيْلُ إِلَى مُنَاكَفَةِ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا، نَجِدُ شُعَرَاءَ هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ، وِمِنْهُمْ شَاعِرَنَا أَبَا العَتَاهِيَّةِ، يَنْزَعُونَ إِلَى تَوْظِيفِ الأَثَرِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ لِتَمْرِيرِ رِسَالَتِهِمْ، وَجَعْلِهَا أَكْثَرَ قَبُولًا، وَأَقْوَى حُجَّةً لَدَى سَامِعِيهِمْ، فَهُمْ يَرَوْنَ الخِطَابَ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ أَنْفَذَ إِلَى القُلُوبِ وَالعُقُولِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، يَكْتَسِبُ إِبْلاَغِيَّتَهُ وَبَلاَغَتَهُ مِنِ اتِّكَائِهِ عَلَى تِلْكَ النُّصُوصِ المُقَدَّسَةِ.

---

[1]- طه/51.

[2]- طه/128.

[3]- السّجدة/26.

[4]- النّمل/52، وَيُنظر: الحج/31، وَالحاقّة/6.

يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ الثَّامِنِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم11[مِنَ السَّرِيعِ]:

وَاللهُ لِلنَّاسِ **بِأَعْمَـــالِهِمْ** *** **وَكُلُّ نَـــــاوٍ فَلَهُ مَا نَوَى**.[1]

فَالبَيْتُ فِي جُملَتِهِ يَقْتَبِسُهُ الشَّاعِرُ مِنَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ الذِّي يَرْوِيهِ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ **إِنَمَّا الأَعْمَالُ بِالنِيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَا نَوَى**، ...﴾[2].

أَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ 32 مِنَ القَصِيدَةِ12[مِنَ الكَامِلِ] وَالذِّي يَقُولُ فِيهِ:

حَتَّى مَتَى تَبْغِي عِمَارَةَ مَنْزِلٍ *** **لاَ تَأْمَنُ الرَّوْعَاتِ فِيهِ وَلاَ الأَذَى**.[3]

فَإِنَّهُ يَقْتَبِسُهُ لَفْظًا وَمَعْنًى مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ، وَالذِّي يَرْوِيهِ ابْنُ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– يَقُولُ صَلىَّ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿ اللَّهُمَّ إِنِيِّ أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِيِّ أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي، وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي – وَفِي رِوَايَةٍ :عَوْرَتِي– **وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَين يَدَيَّ**، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالِ مِنْ تَحْتِي ﴾[4].

وَيسْتَعِيرُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ لَفْظَ وَمَعْنَى البَيْتِ العَاشِرِ مِنَ القَصِيدَةِ31[مِنَ المُتَقَارِبِ] مِنْ حَدِيثٍ يَرْوِيهِ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ**﴾[5]، فَيَقُولُ:

---

[1]– الدّيوان، ص321.

[2]– صحيح البخاري، ج1،م.س، ص6.

[3]– الدّيوان، ص311.

[4]– سنن أبي داود، ج4، رقم الحَدِيث:5074، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزديّ السِّجِسْتانيّ، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص318. ،

[5]– السّنن الصّغرى للنّسائي، ج7، حَدِيث رَقم:5711، أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب بن عليّ الخراسانيّ، النّسائيّ، تح: عبد الفتّاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلاميّة، حلب، سوريا، ط2، 1406هـ/1986م، ص327.

وَدَعْ مَا يَرِيبُك لاَ تَأْتِهِ * وَجُزْهُ إِلَى كُلِّ مَا لاَ يُرِيبُ.** [1]

وَفِي البَيْتِ التَّاسِع مِنَ القَصِيدةِ رَقم42 يَقُولُ:

مَن كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ أَكْبَرَ هَمِّهِ *** نَصَبَتْ لَهُ مِن حُبِّهَا مَا يُتْعِبُهْ.[2]

وهَذَا المَعْنَى يَتقَاطَعُ مَعَ تَحْذِيرِ النَّبِيِّ الكَرِيمِ مِنْ خَطَرِ الدُّنيَا عَلَى ابْنِ آدَمَ، مِنْ ذَلِكَ مَا يَرْوِيه ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: ﴿ (...) **وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا،** وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ غَايَةَ رَغْبَتِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا﴾[3].

وَيَقُولُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ العَاشِرِ مِنَ القَصِيدَةِ52[مِنَ الرَّمْلِ]:

رَحِمَ اللهُ امْرِءًا أَنْصَفَ مِنْ * نَفْسِهِ إِذْ قَالَ خَيْرًا أَوْ صَمَتْ.**[4]

وَهُوَ اسْتِلْهَامٌ صَرِيحٌ مِنْ حَدِيثِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلاَمُ الذِّي يَقُولُ فِيهِ: ﴿...، **وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**﴾[5].

أَمَّا المَقْطُوعَةُ رَقَمُ203 [مِنْ مَجْزُوءِ الرَّجَزِ] وَالتِّي يَقُولُ فِيهَا الشَّاعِرُ:

الحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ لَكْ * وَالمُلْكُ لاَ شَرِيكَ لَكْ.**
لَبَّيْكَ إِنَّ المُلْكَ لَكْ.[6]

---

[1]- الدّيوان، ص231.

[2]- الدّيوان، ص142.

[3]- الكلم الطيّب، تقيّ الدّين أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيميّة الحرّانيّ الحنبليّ الدّمشقيّ، تح وتخ: السيّد الجميليّ، دار الفكر اللّبنانيّ للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1407 هـ/1978م، ص93.

[4]- الدّيوان، ص117.

[5]- المسند الصّحيح المختصر، ج1، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيريّ النّيسابوريّ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص68.

[6]- الدّيوان، ص157.

فَهِيَ فِي كُلِّيَّتِهَا مُسْتَقَاةٌ، لَفْظًا وَدَلاَلَتِهَا مِنْ تَلْبِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَجِّ، إِذْ كَانَ يَقُولُ: ﴿ **لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ لَبَّيكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ**... ﴾[1].

أَمَّا البَيْتُ الخَامِسُ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَم210[مِنَ الكَامِلِ] وَالذِّي يَقُولُ فِيهِ:

لَنْ يَصْدُقَ اللهَ المَحَبَّةَ عَبْدُهُ * إِلاَّ أَحَبَّ لَهُ وَمِنْهُ وَأَبْغَضَا.**[2]

فَإِنَّهُ يَبْنِيهِ عَلَى الاقْتِبَاسِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: ﴿ **أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الحُبَّ فِي اللهِ ، وَالبُغِضَ فِي اللهِ**﴾ [3].

وَفِي الأَبْيَاتِ: 10إِلَى14 مِنَ القَصِيدَةِ 248[مِنَ البَسِيطِ] يَسْتَحْضِرُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ حَدِيثَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذِّي يَحُثُّ فِيهِ عَلَى نُبْلِ الخُلُقِ: ﴿ **أَفْضَلُ الفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ**، وَتُعْطِيَ مَنْ مَنَعَكَ، **وَتَصْفَحَ عَمَّنْ شَتَمَكَ**﴾[4]، فَيَقُولُ مُقْتَفِيًا:

وَاقْطَعْ قُوَى كُلِّ حِقْدٍ أَنْتَ مُضْمِرُهُ ***إِنْ زَلَّ ذُو زَلَّةٍ أَوْ إِنْ هَـفَا هَـافِ.
وَارْغَبْ بِنَفْسِـكَ عَمَّا لاَ صَلاَحَ لَهُ *** **وَ أَوْسِـعِ النَّـاسَ مِنْ بِرٍّ وَإِلْطَافِ.**
وَإِنْ يَكُ أَحَـــدٌ أَوْلاَكَ صَـــالِحَةً *** **فَكَـافِهِ فَوْقَ مَـا أَوْلَـى بِأَضْـعَافِ.**
وَلاَ تُكَشِّفْ مُسِيـــئًا عَنْ إِسَاءَتِهِ *** **وَصِلْ حِبَالَ أَخِيكَ القَاطِعِ الجَافِي.**
فَتَسْتَحِقَّ مِنَ الدُّنْـــيَا سَلاَمَتَهَا *** وَتَسْتَقِـلَّ بِعِـرْضٍ وَافِـــرٍ وَافِ.[5]

وَيَتَوَالَى اتِّكَاءُ الشَّاعِرِ عَلَى النَّصِّ النَّبَوِيِّ كَوْنَهُ، مَعَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَسِيلَتُهُ لِتَعْزِيزِ

[1]- المسند الصّحيح المختصر، ج2، م.س، ص842.
[2]- الدّيوان، ص187.
[3]- الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، ج8، جلال الدّين السّيوطيّ، عبد الرّحمن بن أبي بكر، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط. د.ت، ص87.
[4]- نفسه، ج3، جلال الدين السيوطي، ص630.
[5]- الدّيوان، ص165.

خِطَابِهِ وَاكْسَابِ رِسَالَتِهِ قُوَّتَهَا الإِقْنَاعِيَّةَ، فَيَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم251 [مِنَ الطَّوِيلِ]، وَفِي البَيْتِ الخَامِسِ مِنْهَا:

فَإِنِّي رَأَيْتُ **المَرْءَ يُحْرَمُ حَظَّهُ** *** مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا **إِذَا حُرِمَ الرِّفْقَا**.

وَفِي هَذَا التَّرْكِيبِ اسْتِلْهَامٌ وَاضِحٌ مِنَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ:﴿ **مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ** ﴾[1].

وَمِثْلُ ذَلِكَ يُقَالُ عَنِ البَيْتِ 33 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم295[مِنَ الكَامِلِ][2]:

وَسَوَابِقٌ **غُرٌّ مُحَجَّـــــلَةٌ** جَرَتْ *** خُمْصَ البُطُونِ خَفِيفَةَ الأَثْقَالِ.

فَإِنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ يَذْهَبُ فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنَ البَيْتِ33 إِلَى حَدِيثِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَعِيرَ وَصْفَهُ لِصَحَابَتِهِ إِذْ يَقُولُ: ﴿أَنْتُمْ **الغُرُّ المُحَجَّلُونَ** يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الوُضُوءِ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ﴾[3]، وَمِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:﴿ إِنَّ اللهَ يُبَاهِي بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ أَهْلَ السَّمَاءِ فَيَقُولُ لَهُمْ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي هَؤُلَاءِ جَاءُونِي **شُعْثًا غُبْرًا** ﴾[4] يَسْتَقِي الشَّاعِرُ الشَّطْرَ الأَوَّلَ مِنَ البَيْتِ34 مِنَ القَصِيدَةِ ذَاتِهَا فَيَقُولُ:

مِنْ كُلِّ **أَشْعَثَ كَانَ أَغْبَرَ** نَاحِلاً *** خَلِقَ الرِّدَاءِ مُرَقَّـعَ السِّـــرْبَالِ.

وَمِنْ حَدِيثِ:﴿ **الخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، فَأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَى اللهِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى**

---

[1]- المسند الصحيح المختصر، ج4، م.س، ص2003.

[2]- الدّيوان، ص174.

[3]- المسند الصّحيح المختصر، ج1، م.س، ص216.

[4]- صَحيحُ الجامِع الصَّغير وزِياداتُه، ج1، حديث رقمُ:1868، أبُو عبد الرّحمن محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، مطبعة المكتب الإسلاميّ، د.ط، د.ت، ص381.

عِيَالِهِ﴾[1] يَقْتَبِسُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي مَوْضِعَيْنِ، عَلى الأَقَلِّ، مِنْ زُهْدِيَاتِهِ فَيَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ336[مِنَ الوَافِرِ]:

4/ عِيَالُ اللهِ أَكْرَمُهُمْ عَلَيْهِ *** **أَبَثَّهُمُ المَكَارِمَ فِي عِيَالِهْ.**

وَيَقُولُ فِي البَيْتَيْنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ القَصِيدَةِ 342[مِنْ مَجْزُوءِ الكَامِلِ]:

الخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَـا * لُ اللهِ تَحْتَ ظِلاَلِهِ.**
فَأَحَبُّهُم طُرًّا إِلَيْه * أَبَرُّهُـــمْ بِعِيَـــــالِهِ.**

أَمَّا البَيْتُ الثَّلاَثُونَ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ359[مِنَ الكَامِلِ]:

مَا كُلُّ شَيْءٍ كَانَ أَوْ هُوَ * كَائِنُ إِلاَّ وَقَدْ جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ.**

فَهُوَ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ مُتَنَاصٌّ مَعَ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الذِّي يَرْوِيهِ أَبُو العَبَّاسَ عَبْدُ اللهِ بْنِ عَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: ﴿ يَا غُلاَمُ، إِنِيِّ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، (...)، **رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**﴾[2].

وَنَجِدُ البَيْتَ159 مِنَ الأُرجُوزَةِ مُتَنَاصًّا مَعَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ المَرْوِيِّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ:﴿ **اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ** ﴾[3]، وَعَلَيْهِ يَبْنِي أَبُو العَتَاهِيَّةِ الشَّطْرَ الأَوَّلَ فَيَقُولُ:

لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ أَهْلِ الآخِرَة *** إِنَّا لَنَعْمَى وَالعُيُـونُ نَـاظِرَةٌ.

---

[1]- شُعب الإيمان،ج9، الحَدِيثُ رَقَمُ:7048، البيهقيّ، أحمد بن الحسين بن عليّ بن موسى الخُسْرَوْجِرديّ الخراسانيّ، تح وتخ: عبد العليّ عبد الحميد حامد، مكتبة الرّشد للنّشر والتّوزيع، الرياض، ط1، 1423 هـ/2003م، ص523.

[2]- صحيح الجامع الصغير وزياداته، ج2، الحَدِيث رَقَمُ:7957، م.س، ص1318.

[3]- نفسه، ج1، الحَدِيث رَقَمُ:1308، م.س، ص280.

وَنَبْقَى مَعَ الأُرْجُوزَةُ، فِي بَيْتِهَا 204 الذِّي يَقُولُ:

الدِّينُ للهِ هُوَ الدَّيَّانُ *** وَحُجَّةُ اللهِ هِيَ السُّلطَانُ.

فهُوَ يَتَنَاصُّ مَعَ الحَدِيثِ الذِّي يَرْوِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ إِذْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ قَالَ: العِبَادُ، عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا، قَالَ: قُلْنَا:وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: **أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ**،...﴾[1].

كُنْ لِمَا قدَّمْتَهُ مُغْتَنِمًا *** **لاَ تُؤَخِّرْ عَمَلَ اليَوْمِ لِغَدِ**.

5- التَّنَاصُّ مَعَ الآخَرِ:

يَتَقَاطَعُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ فِي عَدِيدٍ مِنْ قَصَائِدِهِ، الزُّهْدِيَّةِ مِنْهَا عَلَى الخُصُوصِ، وَإِنَّا سَنَكْتَفِي هُنَا بِبَعْضِ أَمْثِلَةٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِشْهَادِ.

يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم14[مِنَ الكَامِلِ]:

1/إِنَّ **الطَّبِيـــــــــبَ بِطِـبِّهِ** وَدَوَائِــهِ *** **لاَ يَسْتَـطِيعُ دِفَــاعَ مَكْـرُوهٍ أَتَـى**.
2/مَا **لِلطَّبِيبِ يَمُوتُ بِالــدَّاءِ** الذِّي *** **قَدْ كَانَ يُبْرِئُ جُرْحَهُ فِيمَا مَضَى**.
3/ذَهَبَ **المُدَاوِي وَالمُدَاوَى** وَالذِّي *** **جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنِ اشْتَرَى**.

وَفِي هَامِشِ الدِّيْوَانِ بِرَقْمِ:4 يَقُولُ المُحَقِّقُ: " قَالَ أَبُو عَمْرُو:لاَ أَدْرِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ الأَخِيرَيْنِ هُمَا لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ "[2].

[1]- مجلسٌ في حديث جابر، ابن ناصر الدّين، ابن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسيّ الدّمشقيّ الشّافعيّ، شمس الدّين، تح وتع: أبو عبد الله مشعل بن باني الجبرين المطيري، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1422 هـ/2001م، ص206.
[2]- هَامش الدّيوان، رقم4، ص18.

وَقَدْ أَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيمَانِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الحَافِظُ،" قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حُمَيْدٍ أَحْمَدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الحَنْظَلِيَّ, يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَبَّاسِ السَّلِيطِيِّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ أَسْلَمَ، يُنْشِدُ: إِنَّ الطَّبِيبِ بِطِبِّهِ وَدَوَائِهِ *** .... "[1]، وَذَكَرَ الأَبْيَاتَ الثَّلاَثَةَ. وَيَنْسِبُهَا بَعْضُهُمْ لِلشَّافِعِيِّ أَيْضًا، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْهَا فِي دَيْوَانِهِ!

وَتَتَنَاصُّ هَذِهِ الأَبْيَاتُ عِنْدَ عَدَدٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ فِي حِقَبَ مُتَبَايِنَةٍ، مِنْهُمْ عَنْتَرَةُ الذِّي يَقُولُ [مِنَ الوَافِرِ]:

5/ يَقُولُ لَكَ الطَّبِيبُ دَوَاكَ عِنْدِي * إِذَا مَا جَسَّ كَفَّكَ وَالـذِّرَاعَا.**

6/ وَلَوْ عَرَفَ الطَّـــبِيبُ دَوَاءَ دَاءٍ * يَرُدُّ الـمَوْتَ مَا قَاسَى النِّـزَاعَا.**[2]

أَمَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ [– 35ق.هـ]فَيَقُولُ:

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ *** ثُـمَّ عَـــادٍ مِنْ بَعْدِهَا وَثَمُودُ.

وَأَطِبَّـاءٌ بَعْـدَهُمْ لَحَقُـــوهُمْ * ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ.**

وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا * وَهْوَ أَدْنَى لِلْمَوْتِ مِمَّنْ يَعُـودُ.**[3]

وَيَقُولُ مَحْمُودٌ الوَرَّاقُ [–230هـ] [مِنَ المتَقَارِبِ]:

وَكَمْ مِنْ مَرِيـضٍ نَعَـاهُ الطَّـبِيبُ * إِلَى نَفْسِهِ وَتَـوَلَّى كَئِيـــــــباً.**

فَمَاتَ الطَّبِيـبُ وَعَـاشَ المَرِيضُ * فَأَضْحَى إِلَى النَّاسِ يَنْعَى الطَّبِيـبَا.**[4]

وَيَقُولُ عَلِيُّ بْنُ الجَهْمِ[–249هـ]:

---

[1]– شُعَبُ الإِيمَانِ، البَيْهَقِيُّ، الحديث رَقَمُ: 9325.

[2]– ديوان عنترة، شر: حَمْدُو طَمَّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ/2004م، ص135.

[3]– يُنظر:العقد الفريد، ج1، ابنُ عَبدِ رَبِّهِ، ص321.

[4]– ديوان محمود الوراق، شاعر الحكمة والموعظة، تح:وليد قصّاب، مؤسّسة الفُنون، عجمان ط1، 1412هـ/1991م، ص70.

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى * فَنَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالعُوَّدُ.** [1]

وَيَتَنَاصُّ الشَّاعِرُ مَعَ لَقِيطِ بْنِ يَعْمُرَ الإِيَادِيِّ الذِّي يَقُولُ:

مَا انْفَكَّ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطُرَهُ *** يَكُونُ مُتَّبَعًا طَوْراً وَمُتَّبِعَا.[2]

أَمَّا أَبُو العَتَاهِيَّةِ فَيَقُولُ فِي القَصِيدَةِ21[مِنَ الكَامِلِ]، البَيْتُ14 مِنْهَا مُحَاكِيًا:

وَلَقَدْ حَلَبْتَ الدَّهْرَ أَشْطُرَ دَرِّهِ *** حِقَبًا وَأَنْتَ مُجَرِّبٌ وَأَرِيبُ.

وَيُكَرِّرُهُ فِي البَيْتِ العَاشِرِ مِنَ القَصِيدَةِ44[مِنَ الكَامِلِ]:

إِنِّي حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ *** فَرَأَيْتُهُ لَمْ يَصْفُ لِي حَلَبُهْ.[3]

وَكَذَا فِي البَيْتِ التَّاسِعِ مِنَ القَصِيدَةِ 238[مِنَ المنْسَرِحِ].

لَقَدْ حَلَبْتُ الزَّمَانَ أَشْطُرَهُ *** فَكَانَ فِيهِنَّ الصَّابُ وَالسَّلَعُ.[4]

وَفِي القَصِيدَةِ163، البَيْتُ الخَامِسُ، يَقُولُ الشَّاعِرُ [مِنَ الطَّوِيلِ]:

أُحِبُّ الفَتَى يَنْفِي الفَوَاحِشَ سَمْعُهُ * كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقْرًا.**

وَيُعَلِّقُ مُحَقِّقُ الدِّيْوَانِ قَائِلاً:" يَبْدُو أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ ضَمَّنَ قَصِيدَتَهُ هَذِهِ الأَبْيَاتَ:5، 6،7،10فَوَاضِحٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ، وَإِنَّمَا هِيَ لِسَالِمِ بْنِ وَاصِبَةَ الأَسَدِيِّ(...)، وَقَدْ اخْتَارَهَا أَبُو تَمَّامٍ فِيمَا اخْتَارَ مِنْ أَشْعَارِ الحَمَاسَةِ فِي بَابِ الأَدَبِ.(...) وَهِيَ فِي شَرْحِ المَرْزُوقِي عَلَى الحَمَاسَةِ(...) أَرْبَعَةُ أَبْيَاتٍ، وَهِيَ فِي شَرْحِ التَّبْرِيزِيِّ (...) خَمْسَةُ أَبْيَاتٍ بِزِيَادَةِ البَيْتِ الثَّالِثِ:

---

[1]- ديوان عليّ بن الجهم، وزارة المعارف، المكتبات المدرسيّة، المملكة السّعوديّة، ص44.

[2]- ديوان لقيط بن يعمُر الإياديُّ، تح: خليل إبراهيم العطيّة، وزارة الإعلام، بغداد، د.ط، د.ت، ص47.

[3]- الدّيوان، ص49.

[4]- نفسه، ص230.

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى مُكَرَّمًا * أَدِيبًا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًّا** "[1].

أَمَّا الأَبْيَاتُ الثَّلاَثَةُ الأُخَرُ فَهِيَ قَوْلُهُ(6،7،10):

سَلِيمَ دَوَاعِي الصَّدْرِ لاَ بَاسِطًا يَدًا *** وَلاَ مَانِعًا خَيْرًا وَلاَ قَائِلاً هُجْرًا.
إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةً *** فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرًا.
غِنَى المَرْءِ مَا يَكْفِيهِ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ *** فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَاكَ الغِنَى فَقْرًا.

وَبِذَا يَكُونُ هَذَا "التَّضْمِينُ" الذِّي دَلَّل عَلَيْهِ المُحَقِّقُ هُنَا أَوْضَحَ أَشْكَالِ التَّنَاصِّ التِّي أَتَاهَا الشَّاعِرُ، وَالتِّي لاَ نَسْتَطِيعُ، مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَنْ نَجْزِمَ إِنْ كَانَ فَعَلَهُ عَنْ وَعْيٍ وَتَقَصُّدٍ، فَتَكُونُ بِهَذَا إِلَى السَّرِقَةِ أَقْرَبَ، أَمْ أَنَّ الأَبْيَاتَ فَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى شَاعِرِنَا فَلَمْ يَكُنْ إِلاَّ أَنَّهَا اخْتَرَقَتْ لاَوَعْيَهُ، وَطَفَتْ إِلَى خِطَابِهِ مِنْ أَخَادِيدِ الذَّاكِرَةِ البَعِيدَةِ، أَوْ لَعَلَّهَا لَمْ تَكُنْ لاَ ذَا وَلاَ ذَاكَ، وَإِنَّمَا هِيَ يَدُ النَّاسِخِ اسْتَزَادَتْهَا وَضَمَّتْهَا إِلَى أَشْعَارِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الحَافِظَةِ، أَوْ عَنْ جَهْلٍ بِقَائِلِهَا الفِعْلِيِّ!

وَفِي الشَّطْرِ الثَّانِي مِنَ البَيْتِ رَقَمِ إِثْنَانِ مِنَ القَصِيدَةِ203[مِنَ السَّرِيعِ]:

كَمْ مِنْ صَرِيعٍ قَدْ نَجَا سَالِمًا *** **وَمِنْ عَرُوسٍ مَاتَ فِي عُرْسِهِ.**[2]

نَجِدُ الشَّاعِرَ مُتَنَاصًّا مَعَ الشَّافِعِيِّ إِذْ يَقُولُ:

وَكَمْ مِنْ عَرُوسٍ زَيَّنُوهَا لِزَوْجِهَا * وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهَا وَهِيَ لاَ تَدْرِي.**
وَكَمْ مِنْ عَرُوسٍ زَيَّنُوهَا لِزَوْجِهَا *** وَقَدْ قُبِضَتْ أَرْوَاحُهُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ.

وَيَتَنَاصُّ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مَعَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ حِينَ يَصِفُ أَنْوَارَ المُصْطَفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

[1]- نفسه، هَامش ص159.
[2]- الدّيوان، ص 196.

وَسَلَّمَ التِّي أَضَاءَتِ الأَكْوَانَ، فَيَقُولُ مَادِحًا فِي البَيْتِ12 مِنَ القَصِيدَةِ 414 [مِنَ الوَافِرِ]:

إِمَامُ هُدَى يَنْجَابُ عَنْ **وَجْهِهِ الدُّجَى** *** **كَأَنَّ الثُّــرَيَّا عُلِّقَتْ بِجَبِينِهِ**.[1]

أَمَّا بَيْتُ حَسَّانَ فَقَوْلُهُ [مِنَ الطَّوِيلِ]:

مَتَى يَبْدُ فِي **الدَّاجِي البَهِيمِ جَبِينُهُ** *** يَلُحْ مِثْلَ **مِصْبَاحِ الدُّجَى المُتَوَقِّدِ**.[2]

وَيَبْدُو أَنَّ أَبَا العَتَاهِيَّةِ قَدْ تَشَرَّبَ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلَّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ *** **وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا**.[3]

فَحَاكَاهُ وَزَادَ عَلَيْهِ زِيَادَاتٍ جَمِيلَةٍ حِينَ قَالَ فِي المَقْطُوعَةِ441 [مِنَ البَسِيطِ]:

يَا وَاعِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَمًا*** إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُــورًا أَنْتَ تَاتِيـهَا.
كَالمُلْبِسَ الثَّوْبَ مِنْ عُــرْيٍ عَوْرَتُهُ *** لِلنَّاسِ بَـــــادِيَةٌ مَا إِنْ يُـــــوَارِيهَا.
وَأَعْظَمُ الإِثْمِ بَعْدَ الشِّــرْكِ نَعْلَـمُهُ *** فِي كُلِّ نَفْــسٍ عَنْ مَسَــــــــاوِيهَا.
وَشُغْلُهَا بِعُيُــوبِ النَّـاسِ تُبْصِــرُهَا * مِنْـهُمْ وَلاَ تُبْـصِرُ العَيْـبَ الذِّي فِيهَا**.

وَفِي البَيْتِ السَّابِعِ مِنَ القَصِيدَةِ450[مِنَ الطَّوِيلِ] يَقُولُ:

فَكَمْ مِنْ مَنَارٍ كَانَ أَوْضَحَهُ لَنَا * وَمِنْ عِلْمٍ أَمْسَى وَأَصْبَحَ عَافِيَا**.[4]

وَهُوَ هُنَا يَتَّكِئُ بِجَلاَءٍ عَلَى قَوْلِ حَسَّانَ فِي رِثَاءِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

[1]- نفسه، ص402.

[2]- دَيْوان حَسَّان، شر:عبْد مَهَنَّا، دَار الكتب العِلميَّة، بَيرُوت، لُبنَان، ط2، 1414هـ/1994م، ص67.

[3]- الجَوْهر النَّفِيسُ فِي شِعر محمّدِ بنِ إدرِيسَ، تق: محمّد إبراهيم سلِيم، مكتبة ابن سينا، القاهرة، د.ط، د.ت، ص157.

[4]- الدّيوان، ص433.

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُـــــولِ وَمَعْـهَـدٌ * مُنِـيرٌ، وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُـــومُ وَتَهْـمَدُ.**
وَلاَ تَنْمَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ * بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي الذِّي كَانَ يَصْعَدُ.**
وَوَاضِـحُ آيَـاتٍ، وَبَاقِي مَعَـــالِمٍ * ورَبْـعٌ لَـهُ فِـيهِ مُصَـلًّى وَمَسْـجِدُ.**[1]

وَعَلَى سَبِيلِ الاسْتِدْلاَلِ، وَمِنْ بَابِ تَأْكِيدِ حَتْمِيَّةِ التَّنَاصِّ، وَأَنَّهُ جُزْءٌ أَصِيلٌ فِي العَمَلِيَّةِ الإِبْدَاعِيَّةِ، إِذْ بَيَّنَّا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الأَخْذَ عَنِ المُتَقَدِّمِينَ أَمْرٌ لاَ خِلاَفَ عَلَيْهِ، نَسُوقُ هَذَا المِثَالَ الذِّي يُبَيِّنُ تَنَاصَّ أَبِي العَلاَءِ المَعَرِّي – وَهُوَ اللاَّحِقُ المُتَأَخِّرُ– مَعَ شَاعِرِنَا فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، يَقُولُ فِي البَيْتِ17 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ450[مِنَ الطَّوِيلِ]:

كَأَنَّا خُلِقْنَا لِلبَقَـــــاءِ وَأَيُّنَا * وَإِنْ مُدَّتْ الدُّنيَا لَهُ لَيْسَ فَانِيًا.**[2]

فَيَبْنِي أَبُو العَلاَءِ عَلَى مِنْوَالِهِ، لَفْظًا وَدَلاَلَةً، يَقُولُ:

خُلِق النَّاسُ لِلبَقَاءِ فَضَلَّتْ * أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهَا لِلنَفَـــادِ**[3].

ثُمَّ هَاهُوَ ذَا يَتَنَاصَّ مَعَ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى، وَالذِّي نَعْلَمُ حِكَمَهُ وَتَجَارِبَهُ مَعَ مَوْضُوعِ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ التِّي يَنْقُلُهَا إِلَيْنا فِي مُعَلَّقَتِهِ عَلَى وَجْهِ الخُصُوصِ إِذْ يَقُولُ:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ *** عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ يَوْمًا مَحْمُولُ.[4]

فَيَتَّخِذُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ مِنْ شَطْرِ البَيْتِ الأَوَّلِ هَذَا شَطْرًا لِبَيْتِهِ الذِّي يَقُولُ فِيهِ:

12/ **كَأَنَّ حَيًّا وقَدْ طَالَتْ سَلامَتُهُ ***** قَد صَارَ فِي سَكرَاتِ المَوتِ تَغْشَاهُ.[5]

---

[1]– ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ، م.س، ص60.
[2]– الدّيوان، ن.ص.
[3]– ديوانُ أَبِي العَلاءِ، المطبعة الأدبيّة، بَيروت، د.ط، 1884م، ص67.
[4]– ديوان كَعبِ بن زُهير، تح: عليّ فاعور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د.ط، 1417هـ/1997م، ص65.
[5]– قصيدة رقم: 439[من البسيط]، ص420.

6- التَّنَاصُّ الذَّاتِيُّ:

إِنَّ تَوْظِيفَ التَّنَاصِّ كَتِقْنِيَةٍ وَاسْـــتِرَاتِيجِيَّةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ لَيْسَـــتْ تَتَوَقَّفُ عَلَى الأَخْذِ مِنَ الآخَرِ، فَالمُـــبْدِعُ ذَاتُهُ " يَسِـيرُ فِيهَا فَيُفِيدُ مِنْ تَجَارِبِهِ وَمَعَارِفِهِ وَخِبْرَاتِهِ لِيُعِيدَ إِنْتَاجَهَا أَوْ لِيَتَّخِذَهَا أَسَـاسًـا لإِبْدَاعَاتٍ جَدِيدَةٍ. لِهَذَا فَإِنَّ كُلَّ نَصٍّ تَأْوِيلِيٍّ أَوْ كُلَّ نَصٍّ إِبْدَاعِيٍّ مَزِيجٌ مِنْ تَرَاكُمَاتٍ سَـابِقَةٍ بَعْدَ أَنْ خَضَـعَتْ لِلانْتِقَاءِ ثُمَّ التَّأْلِيفِ "[1]، فَالإِبْدَاعُ عَمَلِيَّةٌ مُسْـتَمِرَّةٌ، وَإِنْ كَانَتْ تَبْدُو فِي ظَاهِرِهَا نِتَاجًا مُسْتَقِلاً عَنْ بَعْضِهِ بَعْضٍ.

وَيُؤَكِّدُ مُحَمَّد مَفْتَاح هَذَا الرَّأْيَ ثَانِيَةً فِي (اسْـــتْرَاتِيجِيَّةُ التَّنَاصِّ) فَيَقُولُ:" إِنَّ كُلَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ وَمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُسَـــلَّمَاتٍ تُؤَكِّدُ أَنَّ الكَاتِبَ أَوِ الشَّـــاعِرَ لَيْسَ إِلاَّ مُعِيدًا لإِنْتَاجٍ سَابِقٍ فِي حُدُودِ الحُرِّيَّةِ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ الإِنْتَاجُ لِنَفْسِهِ أَوْ لِغَيْرِهِ. وَمُؤَدَّى هَذَا أَنَّهُ مِنَ المُـــبْتَذَلِ (...) أَنْ يُقَالَ إِنَّ الشَّاعِرَ قَدْ يَمْتَصُّ آثَارَهُ السَّابِقَةَ أَوْ يُحَاوِرُهَا أَوْ يَتَجَوَزُهَا. فَنُصُوصُهُ يُفَسِّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَضْمَنُ الانْسِجَامَ فِيمَا بَيْنَهَا، أَوْ تَعْكِسُ تَنَاقُضًا لَدَيْهِ إِذَا مَا غَيَّرَ رَأْيَهُ "[2]. فَتَمَاهِي الشَّـاعِرِ مَعَ نُصُـوصِـهِ السَّـابِقَةِ امْتِصَـاصٌ ضَـرُورِيٌّ يَضْـمَنُ الانْسِجَامَ أَوْ لَعَلَّهُ يَكْشِفُ التَّحَوُّلاَتِ الطَّارِئَةِ عَلَى فِكْرِهِ وَمُعْتَقَدَاتِهِ.

لَيْسَـتِ القَصِـيدَةُ سِـوَى صُـورَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ لِبُنَى سَـابِقَةٍ كَمَا يَقُولُ ابْنُ الشِّـيخِ، فَهِيَ: " صُورَةٌ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى لِمَجْمُوعٍ سَابِقٍ عَلَيْهَا. فَانْطِلاَقًا مِنْ دَافِعٍ أَصِيلٍ يُحَدَّدُ المَـــشْرُوعُ بِصُـــورَةٍ جُزْئِيَّةٍ، وَمِنَ الخُطَاطَاتِ اللُّغَوِيَّةِ التِّي تَسْـــتَوْلِي عَلَى ذَلِكَ الدَّافِعِ وَتُتَرْجِمُهُ، يُعِيدُ الشَّاعِرُ إِنتَاجَ بِنْيَةٍ وَيُدْمِجُهَا فِي نِظَامِ التَّلَقِّي "[3]، لِيُشَكِّلَ خِطَابَهُ الجَدِيدَ أَوْ يُعِيدَ القَدِيمَ إِلَى الوَاجِهَةِ الفَنِّيَّةِ فِي هَيْئَةٍ يَرَاهَا أَنْسَـبَ مَعَ اللَّحْظَةِ وَالبَاعِثِ عَلَى اسْـتِعَادَتِهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، أَوْ إِلَى مَا لَا نِهَايَةٍ، خُصُـوصًـا وَنَحْنُ " نَعْلَمُ وَيَعلَمُ غَيْرُنَا أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ كَتَبَ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ

[1]- المفاهيم معالم – نحو تأويل واقعيّ، محمّد مفتاح، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م، ص40.

[2]- اسْتراتيجيّة التّناصّ، محمّد مفتاح، م.س، صص134،135.

[3]- الشّعريّة العربيّة، جمال الدّين بن الشّيخ، م. س، ص153.

قَدْ أَعَادَ الكِتَابَةَ وَلَيْسَ ثَمَّةَ مَنْ قَرَأَ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعَادَ القِرَاءَةَ "[1].

لَقَدْ شَغَلَ التَّكْرَارُ، كَظَاهِرَةِ خِطَابٍ، وَلَا يَزَالُ، " عُلَمَاءَ اللِّسَانِ وَعُلَمَاءَ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ وَقَدْ تَجَمَّعَتْ فِي دَائِرَةِ مَفْهُومَيْ (التَّنَاصِ) وَ(الكِتَابَةِ المُكَرَّرَةِ) اللَّذَيْنِ تَبَلْوَرَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً الأَدَوَاتِ اللاَّزِمَة لِتَعْيِينِ عَلاَقَةِ التَّشَابُهِ إِنْ فِي مُسْتَوى نَصٍّ أَوْ جُمْلةٍ مِنَ النُّصُوصِ، أَوْ تَعَلَّقَ الأَمْرُ بِالتَّعَرُّفِ عَلَى الظَّاهِرَةِ فِي مُدَوَّنةٍ تَضُمُّ أَعْمَالاً مُؤَلِّفُوهَا عَدِيدُونَ، أَوْ نُصُوصًا عَدِيدَةً مَوْسُومَةً بِتَوْقِيعٍ وَاحِدٍ "[2]، وَتِلْكَ هِيَ حَالُ شَاعِرِنَا أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي مُجْمَلِ شِعْرِهِ، وَهِيَ فِي زُهْدِيَاتِهِ أَوْضَحُ.

عَلَى أَنَّنَا نُؤَكِّدُ مَعَ كْرِيسْتِيفَا أَنَّ هَذَا لَيْسَ إِعَادَةً بَائِسَةً لِلسَّابِقِ، أَوْ تَكْرَارًا مُنْبِيًا عَنْ جُمُودٍ وَعَجْزٍ أَوْ ضَيْقٍ فِي الأُفُقِ الإِبْدَاعِيِّ، وَذَاكَ مَا أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ فِي مَوَاطِنَ أُخَرَ مِنْ هَذَا البَحْثِ، أَنَّ " الشَّأْنَ فِيهِ [التَّكْرَارِ] لَيْسَ كَذَلِكَ فِي اللُّغَةِ الشِّعْرِيَّةِ. فَالوَحَدَاتُ هُنَا غَيْرُ مُتَكَرِّرَةٍ أَوْ لِنَقُلْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى إِنَّ الوِحْدَةَ المُتَكَرِّرَةَ لَيْسَتْ هِيَ إِيَاهَا البَتَّةَ بِحَيْثُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَزْعُمَ أَنَّ الوِحْدَةَ إِذْ تَتَكَرَّرُ لاَ تَلْبَثُ أَنْ تَغْدُوَ غَيْرَ مَا هِيَ "[3] بِمُجَرَّدِ انْدِمَاجِهَا فِي بِنْيَةٍ جَدِيدَةٍ أَوْ تَشَكُّلِهَا عُنْصُرًا مِنْ خِطَابٍ مُتَجَدِّدٍ.

وَهَذِهِ بَعْضُ أَمْثِلَةٍ عَنْ هَذَا التَّنَاصِّ الذَّاتِيِّ الذِّي يَأْتِيهِ أَبُو العَتَاهِيَّةِ عَلَى امْتِدَادِ دَيْوَانِهِ، حَتَّى لَكَأَنَّكَ تَقْرَأُ نَصًّا وَاحِدًا فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ دُونَمَا أَنْ يَعْنِيَ ذَلِكَ تَعَثُّرًا وَاجْتِرَارًا، بَلْ إِنَّهُ مِنَ أَسْبَابِ انْسِجَامِ الخِطَابِ وَاتِّسَاقِهِ فِي كُلِّيَّتِهِ، فَيَهَبُهُ الدَّيْمُومَةَ وَالتَّجَدُّدَ، إِذْ يَصِيرُ البَيْتُ/الأَبْيَاتُ مَحَلُّ التَّنَاصِّ وَسِيلَةَ رَبْطٍ تَكْفُلُ تَنَاسُقَ الرِّسَالَةِ، وَتَشُدُّ أَطْرَافَ خُيُوطِهَا إِلَى بَعْضِهَا وَإِنْ تَبَاعَدَتْ أَزْمِنَةُ القَوْلِ بَيْنَهَا أَوِ اخْتَلَفَتْ ظُرُوفُهَا.

يَقُولُ الشَّاعِرُ[مِنَ المُتَقَارِبِ]:

---

[1]- التَّكْرَارُ، مَارِي لُور بَارِدِيش، تر: أحمد حيزم، م.س، ص11.

[2]- نفسه، ص10.

[3]- نفسه، ص32.

نَعَى لَكَ شَرْخَ الشَّبَابِ المَشِيبُ *** وَنَادَتْكَ بِاسْمِ سِوَاكَ الخُطُوبُ.

وَقَبْلَكَ دَاوَى المَرِيضَ الطَّبِيبُ * فَعَاشَ المَرِيضُ وَمَاتَ الطَّبِيبُ.**[1]

وَفِي البَيْتِ 38 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم12[مِنَ الكَامِلِ] يَقُولُ:

أَأُخَيَّ لَمْ يَقِكَ المَنِيَّةَ إِذْ أَتَتْ * مَا كَانَ أَطْعَمَكَ الطَّبِيبُ وَمَا سَقَى.**[2]

وَيُكَرِّرُ المَعْنَى ذَاتَهُ فِي المَقْطُوعَةِ رَقَم14[مِنَ الكَامِلِ] إِذْ يَقُولُ:

1/إِنَّ الطَّبِيبَ بِطِبِّهِ وَدَوَائِهِ * لاَ يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَكْرُوهٍ أَتَى.**

2/مَا لِلطَّبِيبِ يَمُوتُ بِالدَّاءِ الذِّي * قَدْ كَانَ يُبْرِئُ جُرْحَهُ فِيمَا مَضَى.**

3/ذَهَبَ المُدَاوِي وَالمُدَاوَى وَالذِّي * جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنِ اشْتَرَى.**[3]

إِنَّ المَوْضُوعَاتِ الدَّائِرَةَ فِي فَضَاءِ الزُّهْدِ لَيْسَتْ تَخْرُجُ – كَمَا أَشَرْنَا فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ – عَنِ الحَدِيثِ عَنِ المَوْت وَالحَيَاةِ، الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، الشَّبَابِ وَالشَّيْبِ، الصِّحَّةِ وَالسَّقَمِ، الرِّضَى وَالسَّخَطِ، الفَقْرِ وَالغِنَى،...لِذَا لَنْ يَكُونَ صَعْبًا – مِنْ بَعْضِ الوُجُوهِ– حَصْرُ خَصَائِصِ الخِطَابِ العَتَاهِيِّ، وَكَشْفُ حَقِيقَةِ التَّنَاصَّاتِ التِّي تَعْبُرُهُ، فِي تَبَايُنَاتِهَا وَتَشَاكُلاَتِهَا التِّي تَصْبِغُهُ بِطَابِعِ الوَاحِدِ المُتَعَدِّدِ، أَوْ لَعَلَّهُ المَكْرُورُ المتَجَدِّدُ.

يَقُولُ فِي مَوْضُوعَةِ التَّعَبِ المُتَأَتِّي مِنَ الحِرْصِ بِالدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَعَلَيْهَا، القَصِيدَةُ رَقَم19 [مِنَ المَنْسَرِحِ]:

---

[1]– البَيْتَانِ فِي هامش ص27.

[2]– الدّيوان، ص16.

[3]– الدّيوان، ص18.

3/مَا زَالَ حِرْصُ الحَرِيــصِ يُطْمِعُهُ *** فِي دَرْكِـهِ الشَّيْءَ دُونَهُ العَـطَبُ.
4/مَا طَابَ عَيْشُ الحَرِيصِ قَطُّ وَلاَ *** فَـــارَقَهُ التَّـعْسُ مِنْـهُ وَالنَّصَبُ.
5/البَغْيُ وَالحِرْصُ وَالهَـوَى فِتَـــنٌ *** لَـمْ يَنْجُ مِنْـــهَا عُـجْمٌ وَلاَ عَرَبُ.
6/لَيْسَ عَلَى المَرْءِ فِي قَنَـــــاعَتِهِ *** إِنْ هِيَ **صَحَّتْ أَذًى وَلاَ نَصَبُ**.[1]

وَيَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَم22[مِنَ الرَّمْلِ]:

13/وَصِــرَاطُ مَنْ يَزُلْ عَنْ حَدِّهِ *** فَإِلَى **خِـــزْيٍ طَـــوِيلٍ وَنَصَبْ**.[2]

وَفِي القَصِيدَةِ رَقَم30[مِنَ الطَّوِيلِ] يَقُولُ:

1/طَلَبتُكِ يَا دُنيَا فَأَعْذَرْتُ فِي الطَّلَبِ *** فَمَا نِلْتُ إِلاَّ **الهَمَّ وَالغَمَّ وَالنَّصَبْ**.
2/فلَمَّا بَدَا لِي أَنَّنِي لَسْتُ وَاصِـــلاً *** إِلَى **لَذَّةٍ إِلاَّ بِأَضْعَـــــافِهَا تَعَبْ**.[3]

ثُمَّ إِنَّهُ لاَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا، فَيَذْهَبُ إِلَى إِعَادَةِ شَطْرٍ كَامِلٍ كَمَا فِي المَقْطُوعَةِ رَقَم 25 [مِنَ البَسِيطِ]:

3/سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُعَادِلُهُ *** **إِنَّ الحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ**.

إِذْ يُكَرِّرُ الشَّطْرَ الثَّانِي فِي القَصِيدَةِ:35 مِنْ "تَكْمِلَةِ الدِّيْوَانِ" [مِنَ البَسِيطِ] فَيَقُولُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنْهَا:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الحِرْصِ لَمْ يَشِبِ *** إِنَّ الحَرِيصَ **عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ**.

وَيَمْضِي الشَّاعِرُ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ التِّي يَعْمِدُ فِيهَا إِلَى نُصُوصِهِ السَّابِقَةِ يَأْخُذُ مِنْهَا

[1]- نفسه، ص24.
[2]- نفسه، ص30.
[3]- الدّيوان، ص35.

المَعَانِيَ وَالأَلْفَاظَ لِيَصُوغَ قَصَائِدَهُ الجَدِيدَةَ، فَتَتَّفِقُ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ مِنْ حَيْثُ الدَّلاَلَةُ وَالأُسْلُوبُ، وَهِيَ السِّمَةُ العَامَّةُ التِّي تَطْبَعُ زُهْدِيَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ مِنْ قَبِيلِ (الذِّي مَرَّ بِنَا). يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ39 [مِنَ المنْسَرِحِ]:

6/ وَفِي جَمِيلِ القُنُوعِ يَنْخَفِضُ الـ * عَيْشُ وَبِالحِرْصِ يَعْظُـمُ التَّعَبُ.**[1]

وَفِي البَيْتِ العاشِرِ مِن القَصِيدةِ رَقَمِ41[مِنْ مَجْزُوءِ الكَامِلِ] يَقُولُ:

يُمْسِي وَيُصْبِحُ طَـــالِبُ الدُّ * نْيَـــا مُعَنًّى مُتْعَـــبَا.**[2]

وَفِي القَصِيدَةِ رَقَمِ42 [مِنَ الكَامِلِ]، البَيْتُ التّاسِعُ يَقُولُ:

مَن كَانتِ الدُّنيا مِنْ أَكبَرِ هَمِّهِ * نَصَبَتْ لَهُ مِن حُبِّهَا مَا يُتْعِبُهْ.**[3]

ثُمَّ يَقُولُ فِي البَيْتِ السَّادِسِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ44 [مِنَ الكَامِلِ]:

يَا صَاحِبَ الدُّنْيَا المحُبَّ لَهَا * أَنْتَ الذِّي لاَ يَنْقَضِي تَعَبُهْ.**[4]

وَفِي البَيْتِ56 مِنَ الأُرْجُوزَةِ يَقُولُ:

مَسَرَّةُ الدُّنْيَا إِلَى تَنْغِيصِ * وَرُبَّمَا أَكْدَتْ يَدُ الحَرِيصِ.**

وَفِي حَدِيثِهِ عَنْ عَجَائِبِ مَا يُلاَقِيهِ الإِنْسَانُ مِنْ تَقَلُّبَاتٍ فِي حَيَاتِهِ، وَعَجَبُهُ أَشَدُّ مِنْ مُصِيبَةِ الاغْتِرَارِ بِهَا عَنْ إِبْصَارِ حَقِيقَةِ مَا تُخْفِيهِ لَهُ مِنْ مُفَاجَآتٍ، يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ الثَّالِثِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ39[مِنَ المُنْسَرِحِ]:

مِنْ أَيِّ خَلْقِ الإِلَهِ يَعْجَبُ مَنْ * يَعْجَبُ والخَلْقُ كُلُّهُ عَجَبُ.**

---

[1]- نفسه، ص45.

[2]- نفسه، ص46.

[3]- الدّيوان، ص47.

[4]- نفسه، ص49.

وَهُوَ المَعْنَى الذِّي يُرَدِّدُهُ فِي البَيْتِ12 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ42 [مِنَ الكَامِلِ]:

مَنْ لَم يَزَلْ مُتَعَجِّبًا مِن كُلِّ مَا * تَأْتِي بِهِ الأَيَّامُ طَالَ تَعَجُّبُهْ.**

وَفِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ44 [مِنَ الكَامِلِ]:

كُلٌّ إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْـــقَلَبُهُ * وَالخَـلْقُ مَا لاَ ينْقَضِي عَجَبُهْ.**

وَيَقُولُ فِي (ذَاتِ الأَمْثَالِ):

مَنْ عَـاشَ لَمْ يَخْلُ مِنَ المُصِيبَهْ * وَقَلَّمَا يَنْـــفَكُّ عَنْ عَجِيبَهْ**[1].

فَالحَيَاةُ وَالمَوْتُ، وَالخَشْيَةُ مِنْ سُوءِ المَآلِ يَجْعَلُ الشَّاعِرَ يُلِحُّ عَلَى تَقْدِيمِ النُّصْحِ، خُصُوصًا لِلشَّبَابِ، لِيَتَدَارَكُوا أَمْرَهُمْ قَبْلَ المَصِيرِ المَحْتُومِ. هَذَا الإِلْحَاحُ نَقَلَ التَّكْرَارَ فِي زُهْدِيَاتِهِ إِلَى دَرَجَةٍ أَرْقَى مِنْ مُجَرَّدِ إِعَادَةٍ، لِتَتَنَاصَّ قَصَائِدُهُ فِي مُسْتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ، يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ49 [مِنَ الكَامِلِ]، البَيْتُ الأَوَّلُ مِنْهَا:

لِمَ لاَ نُبَادِرُ مَا نَرَاهُ يَفُوتُ *** إِذْ نَحْنُ نَعْـلَمُ أَنَّنَا سَنَمُوتُ.[2]

ثُمَّ نَجِدُهُ يَجْعَلُ مِنَ تَرْكِيبَةِ الشَّطْرِ الأَوَّلِ بِنْيَةً لِلشَّطْرِ الثَّانِي فِي المَقْطُوعَةِ رَقَمِ51 [مِنَ الوَافِرِ]، فَيَقُولُ فِي البَيْتِ الثَّانِي مِنْهَا:

أَلَيْسَ المَوْتُ غَايَةَ كُلِّ حَيٍّ*** **فَمَا لِي لاَ أُبَادِرُ مَا يَفُوتُ**.[3]

وَفِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ143[مِنَ البَسِيطِ] يَقُولُ:

---

[1]- الأُرجُوزَةُ، يُنْظَرُ: هامش ص447.

[2]- الدّيوان، ص53.

[3]- نفسه، ص55.

الموْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ *** فَلَيْتَ شِعْرِيَ بَعْدَ البَابِ مَا الدَّارُ.[1]

وَفِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ195[مِنَ الوَافِرِ] يَقُولُ:

أَلاَ لِلْمَـوْتِ كَـاسٌ أَيُّ كَـــاسِ * وَأَنتَ لِكَـأْسِهِ لاَ بُــدَّ حَـاسِ.**

وَلِأَنَّ المَوْتَ حَقِيقَةٌ لاَ تُنْكَرُ، وَمَصِيرٌ لاَ يُدْفَعُ، وَعَدُوٌّ لاَ يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْهُ، يَذْهَبُ الشَّاعِرُ إِلَى التَّأْكِيدِ عَلَى اسْتِحَالَةِ التَّخَفِي مِنْهُ، أَوْ رَدِّهُ بِالحَرَسِ وَالحُمَاةِ، فَنَرَاهُ يُكَرِّرُ ذَلِكَ فِي قَصَائِدَ عِدَّةٍ. يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ 192[مِنَ البَسِيطِ]البَيْتُ الأَوَّلُ:

مَا يَدْفَعُ المَوْتَ أَرْصَادٌ وَلَا حَرَسُ * مَا يَغْلِبُ المَوْتَ لاَ جِنٌّ ولاَ أَنَسُ.[2]**

ثُمَّ يُكَرِّرُ ذَلِكَ المَعْنَى فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ194[مِنَ البَسِيطِ]البَيْتُ الخَامِسُ:

أَيْنَ المُلُوكُ التِّي حُفَّتْ مَدَائِنُهَا * دُونَ المَنَـــايَا بِحُجَّابٍ وحُرَّاسِ.[3]**

وَفِي البَيْتِ الخَامِسِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ197[مِنَ الطّوِيلِ] يَقُولُ:

وَلَمْ يُنْجِ مَخْلُوقًا مِنَ المَوْتِ حِيلَةٌ * وَلَوْ كَانَ فِي سِجْنٍ وَثِيقٍ وَأَحْرَاسِ.[4]**

وَفِي البَيْتِ الثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ199[مِنَ البَسِيطِ] يُرَدِّدُ قَائِلاً:

لاَ تأْمَنِ المَوْتَ فِي طَرْفٍ ولاَ نَفَسٍ * وَإِنْ تَمَنَّعْتَ بِالحُجَّابِ وَالحَرَسِ.[5]**

وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي المَقْطُوعَةِ رَقَمِ201[مِنَ الرَّمَلِ]، يَقُولُ فِي البَيْتِ السَّادِسِ مِنْهَا:

---

[1]- نفسه، ص141.

[2]- نفسه، ص188.

[3]- الدّيوان، ص190.

[4]- نفسه، ص192.

[5]- نفسه، ص194.

يَا لَهَا مَحْرُوسَةً لَمْ يَسْتَـــطِعْ * أَحَدٌ دُونَ المَنَـــايَا حَرْسَهَا.**[1]

فَالمَوْتُ تَشْغَلُ الحَيِّزَ الأَكْبَرَ مِنْ زُهْدِيَاتِهِ، وَتَسِمُ خِطَابَهُ كُلَّهُ بِالتَّكْرَارِيَّةِ وَالتَّمَاثُلِ الذِّي نَعُدُّهُ تَنَاصًّا يَقْصِدُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ، وَاعِيًا أَوْ عَنْ غَيْرِ وَعْيٍ، حَتَّى لَكَأَنَّ القَصَائِدَ فِي لَفْظِهَا وَدَلاَلَاتِهَا نَصٌّ وَاحِدٌ!

يَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ219[مِنَ الكَامِلِ]، البَيْتُ الرَّابِعُ:

المَوْتُ حَقٌّ لاَ مَحَـالَةَ دُونَهُ * وَلِكُلِّ مَوْتٍ عِـلَّةٌ لاَ تُدْفَعُ.**[2]

وَهُوَ يُعِيدُ ذَلِكَ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ221[مِنَ الطَّوِيلِ]:

لَعَمْرِي لَقَدْ نُودِيتَ لَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَوْتَ مَا لَيْسَ يُدْفَعُ.**[3]

وَفِي البَيْتِ13مِنْهَا يَقُولُ:

وَمَا هُوَ إِلاَّ المَوْتُ يَأْتِي لِوَقْتِهِ * فَمَا لَكَ فِي تَأْخِيرِهِ عَنْكَ مَدْفَعُ.**[4]

وَكَذَلِكَ فِي البَيْتِ الثَّالِثِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ241[مِنَ الكَامِلِ] إِذْ يَقُولُ:

وَمُدَافِعٍ لِلشَّيْبِ يَخْضُبُـــهُ * وَالشَّيْبُ نَحْوَ المَوْتِ يَدْفَـــعُهُ.**[5]

وَإِذْ هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ التِّي تَنْتَظِرُ كُلَّ حَيٍّ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ لاَ يَفْتَأُ يُسَائِلُ نَفْسَهُ، وَمِنْ خِلاَلِهَا كُلَّ إِنْسَانٍ، عَنْ جَدْوَى التَّطَاوُلِ فِي البِنَاءِ، وَالتَّصَارُعِ عَلَى شَيْءٍ سَيَخْرَبُ حَتْمًا، وَهُوَ يُكَرِّرُ ذَلِكَ، فِي قَصَائِدَ كَثِيرَةٍ، عَلَّ الرِّسَالَةَ تَبْلُغُ وَالغَافِلَ يَنْتَبِهُ، فَيَقُولُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ

[1]- نفسه، ص195.
[2]- نفسه، ص208.
[3]- الدّيوان، ص210.
[4]- نفسه، ص211.
[5]- نفسه، ص234.

33[مِنَ المَدِيدِ]:

04/ أَيُّهَا البَـــانِي قُصُـورًا طِوَالاَ * أَيْنَ تَبْغِي هَلْ تُرِيدُ السَّحَابَا.**
06/ أَيُّهَا البَـانِي لِهَـدْمِ اللَّيَـــالِي * إِبْنِ مَا شِئْتَ سَتَلْقَى خَـرَابَا.**
21/ غَيْرَ أَنَّ المـوْتَ شَيْءٌ جَلِيلٌ * يَتْـــرُكُ الدُّورَ يَبَـــابًا خَـــرَابَا.**[1]

وَفِي البَيْتِ24 مِنَ القَصِيدَةِ450 [مِنَ الطَّوِيلِ] يَقُولُ:

أَلاَ أَيُّهَا البَانِي لِغَيْرِ بَلاَغِهِ * أَلاَ لِخَرَابِ الدَّهْرِ أَصْبَحْتَ بَانِيَا.**[2]

وَهُوَ فِي هَذَا يَتَنَاصُّ أَيْضًا مَعَ زُهْدِيَاتٍ أُخْرَى، كَمَا هِيَ الحَالُ مَعَ القَصِيدَةِ رَقَمِ 15[مِنَ الوَافِرِ] إِذْ يَقُولُ فِي البَيْتِ الثَّامِنِ مِنْهَا:

وَكُلُّ سَلاَمَةٍ تَعِدُ المَنَـــــايَا * وَكُلُّ عِمَارَةٍ تَعِـدُ الخَـــــرَابَا.**[3]

وَفِي البَيْتِ الثَّالِثِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ32[مِنَ المتَقَارِبِ] يَتَسَائَلُ:

أَيَلْهُو وَيَلْعَبُ مَنْ نَفْـــسُهُ * تَمُوتُ وَمَنْـــــــزِلُهُ يَخْرَبُ.**[4]

ثُمَّ وَكَأَنَّهُ يُجِيبُ عَنْ سُؤَالِهِ ذَاكَ فِي البَيْتِ الحَادِي عَشَرَ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ41[مِنْ مجْزُوءِ الكَامِلِ] فَيَقُولُ:

يَبْنِي الخَـــــرَابَ وَإِنَّمَا * يُبْنَى الخَـــــرَابُ لِيَخْرَبَا.**[5]

وَفِي تَأْكِيدٍ لِهَذَا الخِطَابِ المُتَوَازِنِ المُنْسَجِمِ، يَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ فِي ثَنَايَا مَوْضُوعَتِهِ الرَّئِيسَةِ

[1]- نفسه، ص ص39 و41.
[2]- نفسه، ص435.
[3]- الدّيوان، ص19.
[4]- نفسه، ص38.
[5]- نفسه، ص46.

(المَوْتُ/الفَنَاءُ)، يُحَدِّثُنَا عَنْ حَيَاةِ الغُرُورِ وَخَرَابِهَا المُحَقَّقِ، إِذْ لَيْسَ يَخْلُدُ إِنْسَانٌ وَلاَ يَبْقَى كَائِنٌ فِيهَا، وَإِنَّمَا الخُلُودُ فِي إِحدى دَارَيْ الآخِرَةِ، يَقُولُ فِي البَيْتِ التَّاسِعِ عَشَرَ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ 28[مِنَ الوَافِرِ]:

فَإِمَّا أَنْ أُخَلَّدَ فِي نَعِيمٍ * وَإِمَّا أَنْ أُخَلَّدَ فِي عَذَابِ.**[1]

أَمَّا مَا عَلَى هَذِهِ الأَرْضِ فَإِلَى زَوَالٍ كَمَا يَجْزِمُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِن المَقْطُوعَةِ103 [مِنَ المُتَقَارِبِ]:

أَلاَ إِنَّنَا كُلُّنَا بَائِدُ * وَأَيُّ بَنِي آدَمٍ خَالِدُ.**[2]

وَيُرَدِّدُ الشَّاعِرُ هَذَا المَعْنَى فِي قَصَائِدَ أُخْرَى، فَيَقُولُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ الزُّهْدِيَّةِ رَقَمِ109[مِنَ الطَّوِيلِ]:

أَلاَ كُلُّ مَولُودٍ فَلِلْمَوْتِ يُولَدُ * وَلَسْتُ أَرَى حَيًّا لِشَيْءٍ يُخَلَّدُ.**[3]

فَهُوَ يُرَكِّزُ عَلَى انْتِفَاءِ البَقَاءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الدِّيْوَانِ، فَتَتَنَاصُّ بِذَلِكَ أَبْيَاتٌ عَدِيدَةٌ مُشَكِّلَةً حُزْمَةً إِشَارِيَّةً وَدَلاَلِيَّةً مُوَحَّدَةً، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ111[مِنَ الكَامِلِ]:

إِصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ * وَاعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ.**[4]

وَفِي البَيْتِ الثَّانِي مِنَ المَقْطُوعَةِ112[مِنَ البَسِيطِ] يَقُولُ مُحَاجِجًا المُشَكِّكِينَ:

كَانَ النَّبِيُّ فَلَم يَخْلُدْ لِأُمَّتِهِ * لَوْ خَلَّدَ اللهُ حَيًّا قَبلَهُ خَلَدَا.**[5]

---

[1]- نفسه، ص34.

[2]- نفسه، ص102.

[3]- الدّيوان، ص109.

[4]- نفسه، ص110.

[5]- نفسه، ص111.

وَيُثَبِّتُ ذَلِكَ فِي البَيْتِ الخَامِسِ مِنَ القَصِيدَةِ116 [مِنَ الطَّوِيلِ]:

شَهِدْتُ عَلى أَنْ لاَ نُبُوَّةَ بَعْدَهُ * وَأَنْ لَيْسَ حَيٌّ بَعْدَهُ بِمُخَلَّدِ.**[1]

وَيُعِيدُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ دَلاَلَةَ النُّصُوصِ السَّابِقَةِ، فَيَقُولُ فِي البَيْتِ الرَّابِعِ مِنَ القَصِيدَةِ 124[مِنَ البَسِيطِ]:

جَدَّ الرَّحِيلُ عَنِ الدُّنْيَا، وَسَاكِنُهَا * يَرْجُو الخُلُودَ وَلَيْسَتْ دَارَ تَخْلِيدِ.**[2]

فَالحَيَاةُ فَانِيَةٌ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، وَكُلُّ مَا فِيهَا إِلَى زَوَالٍ وَلَنَا فِي آبَائِنَا عِبْرَةٌ، فَإِنَّهُمْ مَا خَلَدُوا حَتَّى نَطْمَعَ نَحْنُ فِي ذَلِكَ، يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي البَيْتِ الثَّانِي مِنَ القَصِيدَةِ129 [مِنَ الطّوِيلِ]:

نُرَجِّي خُلُودَ العَيْشِ حَيْنًا وَضِلَّةً * وَلَمْ نَرَ مِنْ آبَائِنا مِنْ مُخَلَّدِ.**[3]

وَيَقُولُ[مِنَ الطَّوِيلِ]:

فَتُبْ مِنِ ذُنُوبٍ مُوبِقَاتٍ جَنَيْتَهَا *** **فَمَا أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ هَذِي مُخَلَّدُ.**[4]

وَلَمَّا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ لِي – يَقُولُ الشَّاعِرُ– وَلاَ لِغَيْرِي، بَعْدَ الذِّي خَبِرْنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا، أَنْ نَأْسَفَ عَلَى مُغَادَرَتِنَا إِيَاهَا إِذْ كُلُّنَا عَنْهَا رَاحِلُونَ، يَقُولُ فِي البَيْتِ السَّابِعِ مِنَ القَصِيدَةِ 304[مِنَ الطَّوِيلِ]:

سَأَمْضِي وَمَنْ بَعْدِي فَغَيْرُ مُخَلَّدٍ كَمَا * لَمْ يُخَلَّدْ بَعْدُ مَنْ مَضَى قَبْلِي.**[5]

إِنَّ ذَلِكَ هُوَ قَدَرُ اللهِ الذِّي يَرْتَضِيهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ بِزَوَالِ الدُّنْيَا فَهُوَ يَعْمَلُ لآخِرَتِهِ رَجَاءَ مَغْفِرَةِ اللهِ وَثَوَابِهِ، فَشَاعِرُنَا لاَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ كَالذِّي:

---

[1]- نفسه، ص116.

[2]- نفسه، ص122.

[3]- الدّيوان، ص126.

[4]- يُنظر: نفسه، هامش رَقم:2، ص134.

[5]- نفسه، ص293.

يَعُدُّ الغُرُورَ وَيَبْنِي القُصُورَ * وَيَنْسَى الفَنَاءَ وَيَنْسَى القَدَرْ**[1].

وَتِلْكَ حَقِيقَةُ الإِنْسَانِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، يَنْشَغِلُ بِدُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، يَجْمَعُ بِنَهَمٍ شَدِيدٍ، فَيُصِيبُ أَوْ يَخِيبُ، وَهُوَ فِي الحَالَيْنِ غَيْرُ رَاضٍ بِمَا قُدِرَ لَهُ، يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَقَلَّ امْرُؤٌ تَلْقَاهُ للهِ شَاكِرًا * وَقَلَّ امْرُؤٌ يَرْضَى لَهُ بِقَضَاءِ.**[2]

فَنَفْسُ المَرْءِ تَأْبَى عَلَيْهِ الانْصِيَاعَ وَالقَنَاعَةَ، فَيَنْبَرِي لاَهِثًا إِلَى أَنْ يَصْطَدِمَ بِالحَقَائِقِ التِّي طَالَمَا رَفَضَ قَبُولَهَا سَاعِيًا إِلَى أَنْ يَخُطَّ قَدَرَهُ الخَاصَّ، وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ:

يُقَدِّرُ الإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ * أَمْرًا وَيَأْبَاهُ عَلَيْهِ القَضَا**[3].

إِذَنْ، يَخْتَارُ البَشَرُ– جَرْيًا وَرَاءَ أَهْوَائِهِمْ– مَا يَرَوْنَ فِيهِ سَعَادَتَهُمْ، لَكِنَّ اللهَ يَقْضِي لَهُمْ بِمَا شَاءَ اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا، يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي

دَعْهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ * فَاللهُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَقْضِي.**[4]

سَتَنْكَشِفُ لِلإِنْسَانِ حَقِيقَتُهُ وَيُدْرِكُ أَنَّ مَا أَمْضَى فِيهِ عُمْرَهُ يَخُطُّ لِنَفْسِهِ مَسَارَاتٍ يَرَاهَا أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ كَانَ مُجَرَّدَ اغْتِرَارٍ وَتَوَهُّمٍ لاَ يَصْمُدُ أَمَامَ اليَقِينِ، فَزَالَ فَخْرُهُ، وَخَابَ حَذَرُهُ:

وَأَصبَح الأَمرُ إِلَى غَيْـــــرِهِ *** **فِي كُلِّ مَا يُقْضَى وَ يُقْـــــدَرُ**[5].

فَكُلُّ مَا يَرْغَبُهُ الإِنْسَانُ لَيْسَ يَتَحَقَّقُ إِنْ سَرَتْ مَشِيئَةُ اللهِ بِخِلاَفِهِ:

مَا أَبْعَدَ الشَيْءَ مِنْكَ مَا لَمْ يُسَا * عِدْكَ عَلَيْهِ القَضَاءُ وَالقَدَرُ**[6].

---

[1]– القَصِيدةُ رَقَم:164، [مِنَ المتَقَارِبُ]، البَيْتُ7.

[2]– القَصِيدَةِ رقم:2 [مِنَ الطَّوِيلِ]، البَيْتُ5.

[3]– القَصِيدةُ رَقَم:9 [من السَّرِيعِ]، البَيْتُ3.

[4]– القَصِيدَةِ رَقَمِ:207 [مِنَ الكَامِلِ]، البَيْتِ2.

[5]– القَصِيدَةِ رَقَمِ:154 [مِنَ السَّرِيعِ]، البَيْتُ11.

[6]– المقطُوعة رقمُ:144 [من المُنْسَرِحِ]، البَيْتُ2.

فَالرِّسَالَةُ التِّي تَتَكَرَّرُ فِي الزُّهْدِيَاتِ تُرِيدُ أَنْ تُرَسِّخَ فِي ذِهْنِ المُتَلَقِّي تِلْكَ الصُّورَةَ التِّي يَرْسُمُهَا القُرْآنُ لِلإِنْسَانِ مُتَمَثِّلَةً فِي أَنَّ هَذِهِ دَارُ عُبُورٍ إِلَى دَارِ القَرَارِ، وَأَنَّهُ مُطَالَبٌ بِالاسْتِعْدَادِ لَهَا لَمَّا ثَبُتَ عَجْزُهُ عَنْ رَدِّ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ المَحْتُومِ، يَقُولُ فِي البَيْتُ27 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ12 [مِنَ الكَامِلِ]:

وَهُوَ الذِّي يَقْضِي بِمَا هُوَ أَهْلُهُ * فِينَا وَلاَ يُقْضَى عَلَيْهِ إِذَا قَضَى.**[1]

هَكَذَا نُلْفِي الشَّاعِرَ كَثِيرًا مَا يُرَدِّدُ هَذَا المَعْنَى فَتَتَقَاطَعُ قَصَائِدُهُ فِي مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ لِيَزْدَادَ خِطَابُهُ الْتِحَامًا وَتَنَاسُقًا، فَاسْمَعْهُ يَقُولُ فِي البَيْتَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ 153 [مِنَ الطَّوِيلِ]:

لَعَمْرُ أَبِـــي لَوْ أَنَّنِـي أَتَفَـكَّرُ *** رَضِيتُ **بِمَا يُقضَى عَلَيَّ وَيُقْدَرُ.**
تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَانِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ *** **أَرَدْتَ، فَإِنَّ اللهَ يَقْضِـي وَيَقْدِرُ.**[2]

ثُمَّ يُلِحُّ عَلَى ذَاتِ المَعْنَى لَفْظًا وَدَلاَلَةً، فَيَقُولُ فِي البَيْتِ التَّاسِعِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ 169[مِنَ المُنْسَرِحِ]:

المُلْكُ للهِ لاَ شَرِيكَ لَهُ *** **تَجْرِي القَضَايَا مِنْهُ عَلَى قَدَرِ.**[3]

وَيَقُولُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَمِ211 [مِنَ الرَّمَلِ] يَقُولُ:

نَسْأَلُ اللهَ بِمَا يَقْضِي الرِّضَى * حَسْبِيَ اللهُ فَمَا شَاءَ قَضَى.**[4]

وَفِي البَيتِ الخَامِسِ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ212 [مِنَ المُتَقَارِبِ]:

---

[1]- الدّيوان، ص15.
[2]- الدّيوان، ص151.
[3]- نفسه، ص168.
[4]- نفسه، ص202.

قَضَى اللهُ فِيهِ عَلَيْنَا الفَنَا * لَهُ الحَمْدُ شُكْرًا عَلَى مَا قَضَى.**[1]

وَمِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ213 [مِنَ البَسِيطِ] يَقُولُ فِي البَيْتِ الثَّانِي:

فَحَسْبِيَ اللهُ رَبِّي لاَ شَرِيكَ لَهُ * إِلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ بَسْطِي وَقَبْضِي.**[2]

أَمَّا فِي البَيْتِ السَّادِسِ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ214 [مِنَ الكَامِلِ]فَيَقُولُ:

مَا لِابْنِ آدَمَ فِي تَصَرُّفِ مَا * يَجْرِي بِهِ بَسْطٌ وَلاَ قَبْضُ.**

وَإِذَا دَقَّقْنَا النَّظَرَ فِي الأَبْيَاتِ الثَّلاَثَةِ الأَخِيرَةِ وَجَدْنَاهَا، فَضْلاً عَنْ تَقَاطُعِهَا مَعَ مَا سَبَقَهَا، تَتَنَاصُّ إِلَى دَرَجَةٍ يَجْعَلُ الشَّاعِرُ الشَّطْرَ الأَوَّلَ مِنَ البَيْتِ الثَّانِي مِنَ المَقْطُوعَةِ 213 شَطْرًا ثَانِيًا لِلبَيْتَ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ211، وَشَطْرَهُ الثَّانِي شَطْرًا ثَانِيًا للبَيْتِ السَّادِسِ مِنَ المَقْطُوعَةِ 214.

وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ يَجْرِي عَلَيْهَا أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي سَائِرِ زُهْدِيَاتِهِ حَتَّى كَانَتْ ظَاهِرَةً لاَ تُخْطِئُهَا العَيْنُ، فَهُوَ يَتَّخِذُهَا أُسْلُوبًا يَبْنِي عَلَيْهِ خِطَابَهُ مِنْ خِلاَلِ التَّكْرَارِ وَالتَّقَاطُعِ الذِّي يَرْتَقِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَبْيَاتِ، كَمَا مَثَّلْنَا آنِفًا، إِلَى مُسْتَوَى التَّنَاصِّ الذَّاتِيِّ دَلاَلَةً وَلَفْظًا.

يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي القَصِيدَةِ رَقَمِ312[مِنَ المُنْسَرِحِ]، البَيْتُ18:

مَا أَقْطَعَ المَوْتَ لِلأَمَـــانِي * وَالأَمَـــلِ النَّـــازِحِ الطَّوِيلِ.**[3]

ثُمَّ نَجِدُهُ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَمِ313[مِنَ الرَّجَزِ] يَقُولُ مُتَّكِئًا عَلَى البَيْتِ السَّابِقِ:

---

[1]- نفسه، ص203.

[2]- نفسه، ص203.

[3]- الدّيوان، ص301.

مَا أَقْطَعَ الآجَالَ لِلآمَـالِ * وَأَسْرَعَ الآمَالَ فِي الآجَـالِ.**[1]

وَفِي البَيْتِ الثَّانِي مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَم51 [مِنَ الوَافِرِ] يَقُولُ:

أَلَيْسَ المَوْتُ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ * فَمَا لِي لاَ أُبَادِرُ مَا يَفُوتُ.**[2]

لِيُرَدِّدَهُ مَعْنًى وَلَفْظًا فِي البَيْتِ الأَوَّلِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم49[مِنَ الكَامِلِ] مَعَ عَكْسِهِ لِتَرْتِيبِ البَيْتَيْنِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا فَيَقُولُ:

لِمَ لاَ نُبَادِرُ مَا نَـــرَاهُ يَفُوتُ * إِذْ نَحْنُ نَعْـــلَمُ أَنَّنَا سَنَمُوتُ.**[3]

وَيَسْتَمِرُّ الشَّاعِرُ عَلَى نَهْجِهِ فِي الاسْتِعَارَةِ مِنْ نُصُوصِهِ السَّابِقَةِ، جُزْئِيًّا أَوْ كُلِّيًّا، بِحَسَبِ الحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ، وَهُوَ لاَ يَجِدُ فِي ذَلِكَ مَعَرَّةً أَوْ مَنْقَصَةً، بَلْ عَلَى العَكْسِ تَمَامًا، فَإِنَّهُ يَبْدُو مُنْسَجِمًا مُتَمَاهِيًّا، إِنْ مَعَ المَرْجِعَيْنِ الأَسَاسَيْنِ فِي الخِطَابِ الدِّينِيِّ (القُرْآنُ وَالحَدِيثُ)، أَوْ مَعَ مُدَوَّنَتِهِ هُوَ ذَاتِهُ وَمَا اخْتَارَهُ لَهَا مِنْ مَفَاتِيحَ وَكَلِمَاتٍ تَكُونُ عَلاَمَاتٍ لِتَيْسِيرِ فَكِّ شِيفْرَةِ تِلْكَ الرِّسَالَةِ. فَهَاهُوَ يَقُولُ فِي البَيْتِ22 مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم295 [مِنَ الكَامِلِ]:

يَا أَيُّهَا البَطِرُ الذِّي هُوَ مِنْ غَدٍ *** **فِي قَبْرِهِ مُتَفَرِّقُ الأَوْصَـــالِ.**[4]

فَيَأْخُذُ الشَّطْرَ الثَّانِي وَيَبْنِي بِهِ البَيْتَ الرَّابِعَ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم340[مِنَ الكَامِلِ]:

أَمْسَى وَقَدْ دَرَسَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ *** **وَتَفَرَّقَتْ فِي قَبْرِهِ أَوْصَـــالُهُ.**[5]

وَنَأْتِي إِلَى مَثَلٍ آخَرَ، يَقُولُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ فِي البَيْتِ الخَامِسِ مِنْ القَصِيدَةِ رَقَم11[مِنَ السَّرِيعِ] :

---

[1]- نفسه، ص302.

[2]- نفسه، ص55.

[3]- الدّيوان، ص53.

[4]- نفسه، ص282.

[5]- نفسه، ص334.

الحُرْقُ شُؤْمٌ وَالتُّقَى جُـــــنَّةٌ *** وَالرِّفْقُ يُمْنٌ **وَالقُنُـــــوعُ غِنَى**.[1]

لِيَبْدَأَ البَيْتَ العَاشِرَ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم12[مِنَ الكَامِلِ]بِالذِّي كَان انْتَهَى عِنْدَهُ فِي النَّصِّ السَّابِقِ فَيَقُولُ:

إِنَّ الغِنَى لَهُوَ القُنُوعُ بِعَيْنِـــهِ *** مَا أَبْعَدَ الطَّبْعَ الحَرِيصَ مِنَ الغِنَى.[2]

وَمِنْ مِثْلِ فِعْلِهِ ذَاكَ قَوْلُهُ فِي البَيْتِ السَّادِسِ مِنَ القَصِيدَةِ رَقَم7[مِنَ المُتَقَارِبِ]:

وَلَيْسَ الغِـــنَى نَشَبٌ فِي يَدٍ *** **وَلَكِنْ غِنَى النَّـــفْسِ كُلُّ الغِنَى**.[3]

فَهُوَ يَبْنِي عَلَى نَحْوِهِ البَيْتَ الثَّالِثَ مِنَ المَقْطُوعَةِ رَقَم81[مِنَ الرَّمَلِ]:

يَطْلُبُ العَيْشَ الفَتَى عَبَـــثًا *** **وَالغِنَى فِي النَّـــفْسِ إِنْ قَنِعَتْ**.[4]

نَقِفُ عِنْدَ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ، فَإِنَّ حَصْرَهَا كُلَّهَا لَيْسَ غَايَةَ هَذَا المَبْحَثِ، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا إِلَيْهَا لِإِثْبَاتِ طَرِيقَةٍ وَمَنْهَجٍ اخْتَطَّهُ الشَّاعِرُ لِنَفْسِهِ عَلَى امْتِدَادِ زُهْدِيَاتِهِ، مُكَرِّرًا وَمُتَقَاطِعًا مَعَ نُصُوصٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَبَايِنَةٍ، فَيَأْتِي حِينًا إِلَى الدِّينِيِّ مِنْهَا، قُرْآنًا وَحَدِيثًا، مُضَمِّنًا وَمُقْتَبِسًا تَارَةً، أَوْ مُسْتَلْهِمًا، يَسْتَنْسِخُ دَلَالَاتِهَا أَوْ يُعِيدُ تَشْكِيلَهَا، وَمُتَّكِئًا عَلَى نُصُوصِهِ أَوْ نُصُوصِ غَيْرِهِ تَارَةً أُخْرَى يَصُوغُ مِنْهَا خِطَابَهُ، وَاضِعًا بِذَلِكَ عَلَامَاتٍ وَإِشَارَاتٍ يَسِمُ بِهَا رِسَالَتَهُ فِي خُصُوصِيَّةِ أُسْلُوبِهَا، وَطَبِيعَةِ بِنْيَتِهَا، وَذَلِكَ، فِيمَا نَزْعُمُ، يُمَكِّنُ القَارِئَ مِنْ تَمْيِيزِ حُدُودِ تَدَاخُلِهَا وَتَمَاسِّهَا مَعَ إِبْدَاعَاتِ الآخَرِ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ أَوِ المُعَاصِرِينَ لَهُ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، وَلِنُؤَكِّدُ مَرَّةً أُخْرَى مَعَ فَانْسُونْ لِيتْشْ بِأَنَّ " النَّصَّ لَيْسَ ذَاتاً مُسْتَقِلَّةً ".

[1]- نفسه، ص12.

[2]- نفسه، ص13.

[3]- الدّيوان، ص7.

[4]- نفسه، ص82.

خَاتِمَة

وَبَعْدُ، وَإِذْ نَحْنُ نَصِلُ بِبَحْثِنَا هَذَا إِلَى مُنْتَهَاهُ، تَعُودُ مَعَنَا إِشْكَالاَتُهُ الأُولَى وَتَسْتَجِدُّ، وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَا يَشْغَلُنَا مِنْهَا هُوَ: أَهَذِهِ فِعْلًا نِهَايَةُ العَمَلِ وَخَاتِمَتُهُ؟! وَالجَوَابُ قَطْعًا: لَا! ... وَإِلَّا كُنَّا جَزَمْنَا بِمَا لَيْسَ بِأَيْدِينَا مَقَالِيدُهُ. غَيْرَ أَنَّنَا نَطْمَحُ، وَالطُّمُوحُ مَشْرُوعٌ فِي كُلِّ مَشْرُوعٍ، أَنْ نَكُونَ وَقْفْنَا عَلَى أَقْصَى غَايَاتٍ رَامَهَا البَحْثُ وَاسْتَقْصَاهَا، وَأَنَّنَا أَجَبْنَا عَمَّا كَانَ خَالَجَنَا مِنْ نَوَازِعِ فِتْنَةٍ تَسْكُنُ كُلَّ رَغْبَةٍ.

لَقَدْ سَعَى البَحْثُ، فِي شِقِّهِ النَّظَرِيِّ، إِلَى تَتَبُّعِ الأُسْلُوبِيَّةِ فِي مَوَاطِنِهَا الأُولَى، لِتَحْدِيدِ الفُرُوقِ المَعْرِفِيَّةِ التِّي بَيْنَ اتِّجَاهَاتِهَا المُخْتَلِفَةِ، وَتَمَثُّلِ المُرْتَكَزَاتِ التِّي يَنْطَلِقُ مِنْهَا كُلُّ تَوَجُّهٍ فِي تَحْدِيدِ السِّمَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، فَذَلِكَ سَيُسَهِّلُ، مَنْهَجِيًّا، التَّعَامُلَ مَعَ المُعْطَى الإِبْدَاعِيِّ المُتَوَفِّرِ بَيْنَ أَيْدِينَا، لِيَنْطَلِقَ الاشْتِغَالُ عَلَى الشِّقِّ التَّطْبِيقِيِّ بِخُطًى وَاثِقَةٍ.

وَلِأَنَّ النَّصَّ العَتَاهِيَّ، وَنَصَّ الزُّهْدِ مِنْهُ بِالأَخَصِّ، قَدْ تَصَدَّى لَهُ عَدِيدُ الدَّارِسِينَ فِي سَعْيٍ لاسْتِخْلَاصِ مَزَايَاهُ وَخَوَاصِّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيَجْعَلُ مُبَاشَرَةَ هَذَا العَمَلِ يَسِيرًا مِنْ جِهَةِ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ شَقَّ الطَّرِيقَ أَمَامَنَا، وَوَفَّرَ عَلَيْنَا الخَوْضَ فِي جَوَانِبَ مُعَيَّنَةٍ، وَتَجْعَلُهُ صَعْبًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى إِذْ تُضَيِّقُ مَجَالَاتِ البَحْثِ لَدَيْنَا، فَتُرَافِقُنَا خِلاَلَهُ خَشْيَةُ تَكْرَارِ الفُرُوضِ، وَبِالتَّالِي تَكْرَارِ النَّتَائِجِ، وَذَاكَ مِنَ المَزَالِقِ التِّي لاَ نَرْتَضِيهَا.

وَعَلَى كُلٍّ، فَإِنَّ القِرَاءَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ، مُتَوَاشِجَةً مَعَ قِرَاءَاتٍ أُخْرَى، قَدْ فَتَحَتْ النَّوَافِذَ مُشْرَعَةً عَلَى نُصُوصِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ كُنَّا سَنَغْفَلُ عَنْهَا وَعَنْ أَهَمِّيَتِهَا فِي فَهْمِ إِبْدَاعِ هَذَا الشَّاعِرِ وَخُصُوصِيَّاتِهِ البِنَائِيَّةِ وَالجَمَالِيَّةِ عَلَى المُسْتَوَيَاتِ كُلِّهَا، وَمِنْهَا: اللُّغَوِيَّةِ والإِيقَاعِيَّةِ وَالدَّلاَلِيَّةِ.

وَتَبَيَّنَ لَنَا، فِي نِهَايَةِ عَمَلِنَا هَذَا، مَدَى القَابِلِيَّةِ التِّي تُتِيحُهَا مُتُونُ هَذِهِ المُدَوَّنَةِ الشِّعْرِيَّةِ لِلدَّرْسِ الأُسْلُوبِيِّ، وَكَيْفَ أَنَّهَا تُفْصِحُ، فِي غَيْرِ إِرْغَامٍ، عَنْ الطَّاقَةِ الخِطَابِيَّةِ التِّي

تَكْتَنِزُهَا وَتَشِي بِهَا إِذَا مَا تَوَفَّرَتِ الإِجْرَاءَاتُ وَالأَدَوَاتُ المُلاَئِمَةُ. وَلَعَلَّ النَّتَائِجَ التِّي سَنَسْرُدُهَا فِيمَا يَلِي تَكْشِفُ بَعْضَ ذَلِكَ:

1- عَلَى مُسْتَوَى **الإِيقَاعِ** يَمِيلُ الشَّاعِرُ إِلَى الخَفِيفِ مِنَ الأَوْزَانِ بِمَا يُوَافِقُ رُوحَ العَصْرِ وَلُغَتَهُ.

2- لاَ يَجِدُ أَبُو العَتَاهِيَّةِ حَرَجًا فِي اسْتِخْدَامِ الأَوْزَانِ المُهْمَلَةِ، أَوْ تِلْكَ التِّي يَنْفُرُ مِنْهَا الشُّعَرَاءُ المُقْتَدِرُونَ، إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيُصِرُّ عَلَيْهِ، بَلْ يَبْنِي عَلَى بَعْضِهَا أَشْهَرَ أَشْعَارِهِ، كَمَا هِي الحَالُ مَعَ " الأُرْجُوزَةِ ذَاتِ الأَمْثَالِ ".

3- تَبْلُغُ الحَمَاسَةُ بِالشَّاعِرِ دَرَجَةً تَدْفَعُهُ إِلَى مُحَاوَلَةِ اسْتِحْدَاثِ بُحُورٍ وَإِيقَاعَاتٍ جَدِيدَةٍ دُونَ أَنْ يُزْعِجَهُ اسْتِنْفَارُ " حُرَّاسِ مَعْبَدِ " العَرُوضِ وَتَهَجُّمَاتُهُمْ.

4- يَدُلُّ هَذَا، فِيمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، أَنَّ الشَّاعِرِيَّةَ وَالتَّفَنُّنَ وَالبَحْثَ عَنِ الجَدِيدِ، يَسْبِقُ عِنْدَ الشَّاعِرِ مَا عَدَاهُ، فَإِشْبَاعُ رُوحِ الإِبْدَاعِ تَتَفَوَّقُ عَلَى رَهْبَةِ المُحَاوَلَةِ وَخَشْيَةِ الرَّفْضِ.

5- تَجْنَحُ **لُغَةُ** أَبِي العَتَاهِيَّةِ فِي أَكْثَرِ زُهْدِيَّاتِهِ إِلَى السُّهُولَةِ حَتَّى إِنَّهَا لَتُلاَمِسُ لُغَةَ النَّثْرِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، وَقَدْ بَيَّنَا أَنَّ ذَلِكَ ارْتَبَطَ بِأَحْوَالِ المُجْتَمَعِ العَبَّاسِيِّ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ (اخْتِلاَطُ الأَجْنَاسِ وَالأُمَمِ وَالثَّقَافَاتِ...) وَمَيْلُهُ، بِسَبَبٍ هَذَا، إِلَى تَقْرِيبِ اللُّغَةِ مِنْ طَبَقَاتِ المُجْتَمَعِ المُتَبَايِنَةِ وَالتِّي صَارَتْ تَنْزِعُ إِلَى السُّهُولَةِ وَاليُسْرِ، وَتَسْتَظْرِفُ كُلَّ جَدِيدٍ وَخَارِجٍ عَنِ المُعْتَادِ، أَوْ كُلَّ ذَلِكَ مَعًا.

6- وَلاَ يَعْنِي هَذَا أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ أَوْهَنَ شِعْرَهُ عَلَى مُسْتَوَى اللُّغَةِ وَانْسَاقَ مَعَ مَوْجَةِ الحَضَارَةِ التِّي بَدَأَتْ تَسْتَحْكِمُ وَتَفْرِضُ سُلْطَانَهَا، وَقَدْ سُقْنَا أَمْثِلَةً عَلَى ذَلِكَ، بَلْ إِنَّهُ أَظْهَرَ قُدْرَةً كَبِيرَةً عَلَى التَّصَرُّفِ فِي لُغَتِهِ بِمَا يَسْبِغُهَا بِالحَيَوِيَّةِ وَالحَرَكِيَّةِ إِيقَاعًا وَدَلاَلَةً فَيَفْتَحُ أَبْوَابًا عَلَى مَضَامِينَ جَدِيدَةٍ أَوْ تَدَثَّرَتْ بِالجَدِيدِ.

7- وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّهَا لُغَةُ الوَاقِعِ التِّي تُعَبِّرُ عَنْهُ بِصِدْقٍ وَتَقْتَرِبُ مِنْهُ بِوَعْيٍ، تَتَشَرَّبُ المَعْجَمَ الجَدِيدَ، وَتُعِيدُ صِيَاغَتَهُ بِمَا يَخْدُمُ خِطَابَهُ.

8- لُغَةُ الشَّاعِرِ، كَمَا هِيَ عَادَةُ لُغَةِ شِعْرِ الزُّهْدِ، تَمْتَحُ مِنَ المَعْجَمِ الدِّينِيِّ، وَلاَ تَكْتَفِي بِالاسْتِفَادَةِ مِنْهُ، بَلْ إِنَّهَا فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ تُكَرِّرُهُ بِوُضُوحٍ وَعَنْ قَنَاعَةٍ.

9- إِنَّ تَكْرَارَ القَامُوسِ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ صَارَ " قَانُونًا " أُسْلُوبِيًّا يَضْبِطُ الخِطَابَ وَيُؤَشِّرُ عَلَى تَوَجُّهِهِ العَامِّ، وَيُؤَكِّدُ انْسِجَامَهُ وَتَنَاسُقَهُ إِنْ عَلَى مُسْتَوَى البِنْيَةِ أَوْ الدَّلاَلَةِ.

10- حَفَلَتْ نُصُوصُ أَبِي العَتَاهِيَّةِ بِأَسَالِيبِ النِّدَاءِ وَالتَّحْذِيرِ وَالتَّرْغِيبِ وَالاسْتِفْهَامِ... وَذَلِكَ لأَنَّ شِعْرَ الزُّهْدِ يَتَوَسَّلُ نَزْعَةَ الوَعْظِ وَالإِرْشَادِ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ.

11- يَسْمَحُ تَكْرَارُ اللُّغَةِ بِالعَوْدَةِ إِلَى تَفَحُّصِ الدَّلاَلَةِ الكَامِنَةِ فِيهَا لِتَنْكَشِفَ بِذَلِكَ مَوَاطِنُ جَدِيدَةٌ لِلمَعْنَى، وَتَنْفَتِحَ أَبْوَابٌ تَكُونُ قَدْ أَفْلَتَتْ مِنَ القِرَاءَةِ الأُولَى، أَوِ السَّمَاعِ الأَوَّلِ.

12- إِنَّ اطِّرَادَ التَّكْرَارِ لَا يَنُمُّ عَنْ قُصُورٍ فِي المَعْجَمِ أَوْ عَجْزٍ فِي نَحْتِ المَعَانِي وَإِنَّمَا هُو تَأْشِيرٌ عَلَى خُصُوصِيَّةٍ فِي اخْتِيَارِ الطَّرِيقَةِ وَتَمَثُّلِ المَنْهَجِ، إِنَّهُ بِبَسَاطَةٍ: عَمَلٌ وَاعٍ، وَأُسْلُوبٌ مَرْغُوبٌ مُسْتَقْصَدٌ.

13- إِنَّ التَّكْرَارَ لاَ يُوَلِّدُ الرَّتَابَةَ كَمَا قَدْ يَسْبِقُ إِلَى الذِّهْنِ، إِذَا ما اسْتَثْنَيْنَا حَالاَتٍ قَلِيلَةٍ، بَلْ يَضْبِطُ إِيقَاعًا نَفْسِيًّا فِي ذَاتِ المُتَلَقِّي يَجْعَلُهُ فِي حَالَةِ انْتِظَارٍ مُسْتَمِرٍّ، أَتَعُودُ (الكَلِمَةُ/ العِبَارَةُ) السَّابِقَةُ أَمْ لَا؟ مَا دَرَجَةُ التَّكْرَارِ التِّي سَتَكُونُ عَلَيْهَا؟ مَا التَّغْيِيرَاتِ التِّي قَدْ تَطْرَأُ عَلَيْهَا نُقْصَانًا وَزِيَادَةً؟

14- وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ تَكْرَارٌ يُرَاكِمُ المَعْنَى مِنْ خِلاَلِ زِيَادَةِ حِدَّةِ التَّوَتُّرِ وَالانْفِعَالِ نَاقِلًا إِيَاهُ، عَبْرَ الخِطَابِ، مِنْ ذَاتِ المُتَكَلِّمِ إِلَى ذَاتِ المُتَلَقِّي، فَإِنَّهُ " أَمْكَنُ مِنَ النُّفُوسِ مَوْقِعًا ".

15- يَلْعَبُ التَّكْرَارُ فِي النَّصِّ العَتَاهِيِّ دَوْرًا هَامًّا عَلَى مُسْتَوَيَيْنِ:

أ- يَتَحَقَّقُ المُسْتَوَى الأَوَّلُ، وَهُوَ المُوسِيقِيُّ الجَمَالِيُّ، حِينَ تَتَّخِذُ العِبَارَةُ/الصِّيغَةُ المُكَرَّرَةُ فِي تَوَالِيهَا وَتَتَابُعِهَا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ اللاَّزِمَةِ، إِنْ جَازَ القَوْلُ، فَيُسْهِمُ ذَلِكَ فِي تَوْلِيدِ نَغَمِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَطْبَعُ أَجْوَاءَ النَّصِّ.

ب- وَفِي الثَّانِي، يَصِيرُ التَّكْرَارُ مِفْتَاحًا لِوُلُوجِ النَّصِّ، يُقَرِّبُ المَعْنَى عَبْرَ التَّوْكِيدِ وَالإِعَادَةِ، لَافِتًا بِذَلِكَ نَظَرَ القَارِئِ لِمَا يَشْغَلُ المُخَاطِبِ، عَلَى المُسْتَوَيَيْنِ الفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِيِّ بِالأَخَصِّ.

16- بِهَذَا، يَصِيرُ **التَّكْرَارُ** عِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ ضَرُورَةً أُسْلُوبِيَّةً أَكِيدَةً وَلَيْسَ "رُوتِينًا" فَنِّيًّا يَأْتِي لِمَلْءِ فَرَاغٍ فِي القَصِيدَةِ فَحَسْبَ. إِنَّهُ وَسِيلَةٌ وَعَلاَمَةٌ فِي ذَاتِ الوَقْتِ، وَهُوَ، قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَدَاةُ إِقْنَاعٍ.

17- يُسَاهِمُ التَّكْرَارُ فِي تَبْئِيرِ الدَّلاَلَةِ دَاخِلَ النَّصِّ، وَذَلِكَ يُسَاعِدُ المُتَلَقِّي فِي تَلَقِّي الرِّسَالَةِ وَفَكِّ شِفْرَاتِهَا. فَالتَّكْرَارُ يَسْمَحُ بِإِشْبَاعِ المَعْنَى وَتَرْكِيزِهِ.

18- وَيَتَأَكَّدُ لَدَيْنَا، حِينَهَا، أَنَّ المُكَرَّرَ عِنْدَ شَاعِرِنَا، لَا يَفْقِدُ أَدَبِيَّتَهُ بِالتَّقَادُمِ وَالإِعَادَةِ، بَلْ هُوَ عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا، غَالِبًا مَا يَصْبِغُهَا بِطَابِعِ الجِدَّةِ وَالتَّنَوُّعِ.

8- فَالتَّكْرَارُ فِي شِعْرِ الزُّهْدِ عُمُومًا، وَعِنْدَ أَبِي العَتَاهِيَّةِ تَخْصِيصًا، إِعَادَةُ تَأْسِيسٍ وَإِعَادَةُ إِنْتَاجِ لُغَةِ النَّصِّ الأَوَّلِ.

19- يُعَزِّزُ التَّكْرَارُ التَّجْرِبَةَ الشِّعْرِيَّةَ لَدَى الشَّاعِرِ وَيُكَثِّفُهَا بِمَا يَتَمَاهَى وَالتَّجْرِبَةَ الشُّعُورِيَّةَ.

20- يَشْتَغِلُ النَّصُّ العَتَاهِيُّ عَلَى إِعَادَةِ " الذِّي مَرَّ بِمَا "، سَوَاءً أَكَانَ نَصًّا قُرْآنِيًّا أَو حَدِيثِيًّا أَوْ شِعْرِيًّا، وَذَلِكَ مِنْ مُسْتَلْزَمَاتِ هَذَا اللَّوْنِ الشِّعْرِيِّ التِّي لَمْ تَغِبْ عَنْ شَاعِرِنَا

فَاعِلِيَّتُهَا الأُسْلُوبِيَّةُ وَقُدْرَتُهَا عَلَى تَعْزِيزِ الخِطَابِ شَكْلاً وَمَضْمُونًا.

21- **التَّنَاصُّ** الذَّاتِيُّ ظَاهِرَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فِي زُهْدِيَاتِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ، لاَ تَكَادُ تَخْلُو مِنْهَا قَصِيدَةٌ حَتّى المَقْطُوعَاتُ القَصِيرَةُ مِنْهَا، وَهُوَ أَمْرٌ يَتَفَاوَتُ بَيْنَ النَّصِّ وَالآخَرَ، مِنْ اسْتِلْهَامِ جُزْءٍ إِلَى تَوْظِيفِ المُتَنَاصِّ فِي كُلِّيَّتِهِ.

22- التَّنَاصُ عِنْدَهُ لَيْسَ اتِّكَاءً عَلَى السَّابِقِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَوْظِيفٌ يَرُومُ اسْتِعَارَتَهُ والإِضَافَةَ إِلَيْهِ، فَهُوَ بِهَذَا اشْتِغَالٌ مُؤَسَّسٌ عَلَى الابْتِكَارِ مِنَ السَّابِقِ، وَاقْتِدَارٌ عَلَى تَطْوِيعِهِ فِي بِنَاءِ الخِطَابِ اللاّحِقِ.

23- فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ نَصٍّ مُقَدَّسٍ، دَلَّ عَلَى رَغْبَةٍ جَمَالِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ، جَمَالِيَّةٍ لِأَنَّهُ يُعَزِّزُ أَسَالِيبَ الشَّاعِرِ، وَيُدَلِّلُ عَلَى تَمَاسُكِ بِنْيَتِهَا، وَمَعْنَوِيَّةٍ إِذْ يُفَتِّقُ مَعَانِيَ خِطَابِهِ مِنْ خِطَابٍ أَعْلَى.

هَذَا بَعْضُ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ هَذَا البَحْثُ، وَنُعِيدُ التَّأْكِيدَ مَرَّةً أُخْرَى، أَنَّ النَّصَّ، أَيَّ نَصٍّ كَانَ، يَبْقَى مُغْلَقًا فِي جَوانِبَ مِنْهُ، تَعْجَزُ الأَدَواتُ المُتَوَفِّرَةُ عَنِ الغَوْصِ وَرَاءَ كُلِّ مَكْنُونَاتِهِ، وَسَبْرِ جَمِيعِ أَغْوَارِهِ، وَذَاكَ مَا لاَ يَدَّعِيهِ أَيُّ مَنْهَجٍ أَوْ يَسْتَفْرِدُ بِهِ. وَلَعَلَّ بَعْضَ اللَّذَّةِ وَالجَمَالِ كَامِنٌ فِي ذَاكَ العَجْزِ الذِّي يُذْكِي أَشْوَاقَنَا وَمَطَامِحَنَا لِمَعْرِفَةِ خَبَايَا القَصِيدَةِ، وَيُبْقِي عَلَى تِلْكَ الرَّغْبَةِ مُتَّقِدَةً فِي دَوَاخِلِنَا.

وَنَرْجُو أَخِيرًا، أَنْ يَكُونَ هَذَا الاعْتِرَافُ عَتَبَةً تُمَهِّدُ لِفَتْحِ أَبْوَابَ أُخْرَى أَمَامَنَا فِيمَا يَأْتِي مِنْ جُهُودٍ، أَوْ لَعَلَّهُ يَفْتَحُ آفَاقًا غَيْرَهَا فِي هَذَا العَمَلِ ذَاتِهِ، تَتِمَّةً وَإِثْرَاءً.

وَاللهُ المُوَفِّقُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ.

الغَزَوَاتُ فِي 23 أُوت 2021

- القُرْآنُ الكَرِيمُ بِرِوَايَةِ حَفْصٍ عَنْ عَاصِمٍ.

* المَرَاجِعُ العَرَبِيَّةُ:

﴿ أ ﴾

1- إبداعُ الدّلالة في الشعر الجاهليّ "مدخل لغويّ أسلوبيّ"، محمّد العبد، دار المعارف، مصر، ط1، 1988م.

2- الإبداعُ الموازيّ، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، د.ط،2001م.

3- الإبلاغيّةُ في البلاغة العربيّة، سمير أبو حمادن، منشورات عويدات الدوليّة، بيروت، باريس، ط1، 1991م.

4- اتّجاهاتُ الشّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ، محمّد مصطفى هدارة، مكتبة الدّراسات الأدبيّة ،دار المعارف، مصر، دط، 1963م.

5- الاتّجاهُ الأسلوبيّ البنيويّ في نقد الشّعر العربيّ، عدنان حسين قاسم، مؤسّسة علوم القرآن، إ.ع.م، وَدار ابن كثير، بيروت، ط1، 1412هـ /1992م.

6- الاتّجاهاتُ الجديدة في الشّعر العربيّ المعاصر، عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت، ط1، 1980م.

7- أثر اللّسانيات في النقد الأدبي الحديث من خلال بعض نماذجه، توفيق الزّيدي، د.ط، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م.

8- الأدبُ الكبير والأدب الصّغير ورسالة الصّحابة، عبد الله بن المقفّع، شر:يوسف أبو حلقة، مكتبة البيان، بيروت، لبنان، 1964م.

9- الأدبُ وفنونه، محمد مندور، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط5، أوت 2006 م.

10- الأدبُ وفنونه - دراسة ونقد، عزّ الدّين إسماعيل، دار الفكر العربيّ، القاهِرَة، ط9، 1425هـ/2004م.

11- أسرارُ البلاغة، ج1،عبد القاهر الجرجاني، شر وتع: عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ط3، 1399هـ/1979م.

12- الأسسُ الجماليّة في النّقد العربيّ- عرض وتفسير ومقارنة، عزّ الديّن إسماعيل، دار الفكر العربيّ، القاهرة،د،ط، 1412هـ/1992م.

13- الأسسُ الجماليّة للإيقاع البلاغيّ في العصر العباسيّ، ابتسام أحمد حمدان، دار القلم، حلب، سوريا، ط1، 1418هـ/1997م.

14- الأسلوبُ دراسة لغوية إحصائيّة، سعد مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط3، 1992م.

15- الأسلوبيةُ منهجا ونقدا، محمد عزام، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ط1، 1989.

16- الأسلوبيةُ والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدّار العربيّة للكتاب، ط3، د.ت.

17- الأسلوبيةُ وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاريّ، سوريا، ط1، 2002م.

18- الأسلوبيّةُ وتحليل الخطاب، نور الدّين السّد، ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، 1997م.

19- أشكالُ التّخييل، من فتات الأدب والنّقد، صلاح فضل، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، دار نوبار للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 1997م.

20- الأصمعيّاتُ، للأصمعيّ تح: أحمد محمد شاكر وعبد السّلام هارون، دار المعارف بمصر 1964م.

21- أصُولُ الشّعريّة العربيَّةِ، نظريّة حازم القرطاجَنِيِّ في تأصيلِ الخِطابِ الشّعريِّ، الطّاهر بومزبَر، ط1، الدَّار العَربيَّة للعُلوم-نَاشِرون، بَيرُوت، لبنَان، منْشوُرات الاختلاف، الجزائر، 1428هـ/ 2007م.

22- أبُو العتاهية أخباره وأشعاره، أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم، تح: شكري الفيصل، مطبعة جامعة دمشق، د.ط، 1374هـ/1965م.

23- الإعجاز الصّرفيّ في القرآن الكريم، عبد الحميد أحمد يوسف الهنداويّ، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، ط1، 1429هـ/2008م.

24- إعجازُ القُرآنِ والبَلاغَة النَّبويِّة، مُصطفَى صَادق الرَّافعيُّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ط9، 1393هـ/1983م.

25- الأَغاني، ج8، أبُو الفرج الأصفهانِيُّ، دارُ الكتبِ المِصريَّةُ، القاهرة، د.ط، 1935م.

26- أبو فراس الحمداني- الموقف والتّشكيل الجماليّ، النّعمان القاضي، دار الثّقافة للنّشر، القاهرة، د.ط، 1982م.

27- أفق الخطاب النّقديّ دراسات نظريّة وقراءات تطبيقيّة، صبري حافظ، دار شرقيات للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، ط1، 1996م.

28- الاقتصادُ اللّغويُّ في صياغة المفردِ، قَباوة فخر الدّينِ، مكتبة لبنان ناشرون- الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، لونجمان-دار نوبار، القاهرة، ط1، 2001م.

29- الأَماليّ، ج1، أبو عليٍّ إسماعيل بن القاسم القاليّ البغداديّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1975م.

30- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التّوحيدي، المكتبة العصريّة، صيدا-بيروت، د.ط، 1432هـ/

2011م.

31- إنتاج الدّلالة الأدبيّة، صلاح فضل، مؤسّسة مختار للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، د.ت.

32- الإيضاح في عُلُوم البلاَغةِ المعانِي والبيَانِ والبَديعِ، الخطيب القزويني، تح: عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1419هـ.

33- الإيقاع في السّجع العربيّ، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدّي، مؤسسات عبد الكريم ابن عبدالله، تونس، ط1، 1996م.

34 - الإيقاع في الشّعر العربيّ؛ عبد الرّحمن الوجّي، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، جوان 1989م.

35- الإيقاع في الشّعر العربيّ، محمّد المسعدّي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1986م.

﴿ ب ﴾

1- البحثُ الأسلوبيّ - معاصرة وتراث، رجاء عيد، دار المعارف، الإسكندرية، ط1، 1993م.

2- بديع التّراكيب في شعر أبي تمّام، منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندريّة، مصر، ط 3، 1997م.

4- بلاغة الخطاب وعلم النّص، صلاح فضل، عالم المعرفة،ع: 164، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، أوت 1992م.

5- بلاغة الكَلمة في التّعبير القرآنيّ، فاضل صالح السّامرائي، شركةُ العاتك لِصناعة الكتاب، القاهرة، ط2، 1427هـ/2006م.

6- البلاغة العربيّة- قراءة أخرى ، محمّد عبد المطّلب، مكتبة لبنان ناشرون، الشّركة المصريّة

العلميّة للنّشر- لونجمان، ط1، 1997م.

7- البلاغةُ والأسلوبيَّةُ، محمّد عبد المطّلب، مكتبة لبنان ناشرون - الشركة المصريّة العالميّة للنّشر/لُونجمان، ط1، 1994م.

8- البنى الأسلوبية- دراسة في أنشودة المطر للسيّاب، حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1 ، 2002م.

9- بناءُ الأُسلوبِ في شِعرِ الحَدَاثَة-التّكْوين البديعيّ، محمّد عبد المطلب، دار المعارف، ط2، 1995م.

10- البنيات الأسلوبيّة في لغة الشّعر العربيّ الحديث، مصطفى السّعدني، مُنشأة المَعارف، مصر، ط1، 1998م.

11- البنية الأسلوبيّة في التّراكيب النّحويّة، مهدي حمد مصطفى عبد الله آل سيد علي العاني، أطروحة دكتوراه فلسفة في اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب، جامعة بغداد، رمضان 1424هـ /تشرين الثاني2003م.

12- البنية الإيقاعيّة في شعر حميد سعيد، حسن الغرفي، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط1، 1989م.

13- البنية الإيقاعيّة للقصيدة المعاصرة، عبد الرّحمان تيبرماسين، دار الفجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 2003م.

14- بنية الخطاب الشّعريّ، دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية، عبد المالك مرتاض، دار الحداثة للطّبع والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.

15- البيان والتبيين، ج1+ج2، الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د.ط، 1423 هـ.

﴿ ت ﴾

1- تاريخ بغداد، ج8، أبُو بكر أحمَد بن عليٍّ بن ثابت الشّهير بالخَطيب البغداديّ، تح و تع بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1422هـ/2001م.

2- تأويل مُشكِل القُرآنِ، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، تح: السّيد أحمد صقر، مكتبة دار التّراث، ط2، 1393هـ/1973م.

3- تحريرُ المعنى، دراسة نقديّة في ديوان أدونيس، أسيمة درويش، دارُ الآداب، بيروت، ط1، 1997م.

4- تحليل الخطاب الشّعري (إستراتيجيّة التّناص)، محمّد مفتاح، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء-بيروت، ط3، جويلية 1992م.

5- تحليل الخطاب الشّعريّ ثنائيّة الاتّساق والانسجام في ديوان أحد عشر كوكبا - دراسات، فتحي رزق الخوالدة، دار أزمنة للنّشر، عمان، الأُردن، ط1، 2006م.

6- التّحليل الألسنيّ للأدب، محمّد عزام، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريا، د.ط، 1994م.

7- تذوّقُ النَّصِّ الأدبيّ (جمالياتُ الأداءِ الفّنيّ)، رجاء عيد، دار قطري بن الفجاءة، للنّشر والتّوزيع، قطر، ط1، 1994م.

8- التّركيب اللّغويّ للأدب (بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا)، لطفي عبد البديع، دار المرّيخ للنّشر، الرّياض، ط1409هـ/1989م.

9- التّسلسل الإيحائيّ، تطبيق على قصيدة لأبي الطّيب المتنبّي، عمر بن سالم، ضمن: المتنبّي مالئ الدّنيا وشاغل النّاس، دار الرّشيد للنّشر، وزارة الثّقافة والإعلام، دار الحريّة للطّباعة، بغداد، العراق، د.ط، 1979م.

10- التّشابه والاختلاف(نحْوَ مِنهاجيّة شموليّة)، محمّد مفتاح، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1996م.

11- التّشكيل المكانيّ البنائيّ لظاهرة التّكرار في شعر جرير، إسماعيل العالم، جرش للبحوث والدّراسات، مج3، ع1، جامعة جرش، الأردن.

12- تطوّر الشّعر العربيّ الحديث في العراق، عليّ عبّاس علوان، منشورات وزارة الإعلام، الجمهوريّة العراقيّة، د.ط، 1975م.

13- التّعبير الموسيقيّ، فؤاد زكريا، النّاشر مؤسسة هنداوي، مصر، د.ط، د.ت.

14- التّعليقات، ابن سينا، تح: عبد الرّحمن بدوي، الدّار الإسلاميّة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

15- التّفسير النّفسيّ للأدب، عزّ الدّين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، ط4، 1981م.

16- التّفكير البلاغيّ عند العرب، أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، منشورات الجامعة التّونسيّة، السّلسلة السّادسة، الفلسفة والآداب، مجلّد عدد 21، تونس، 1981م.

17- التّفكير الصّوتيّ عند الخليل، حِلمي خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط1، 1988م.

18- التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، عبد السّلام المسدّي، الدّار العربيّة للكتاب، ط2، 1986م.

19- التّكرار الإيقاعيّ في اللّغة العربيّة، سيد خضر، دار الهدى للكتاب، كفر الشّيخ، مصر، ط1، 1418هـ/1998م.

20- التّكرَارُ بَلاغَةٌ، إبراهيم محمّد عبد الله الخولي، دار الأدب الإِسلامي للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 2004م.

21- تكرار التّراكم وتكرار التّلاشي- ظاهرة أسلوبيّة، عبد الكريم راضي جعفر، مهرجان المربد

الشّعريّ الـ4(1999)، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط1، 2000م.

22- التَّكْرَارُ فِي شِعر محمُود دَرْوِيش، فَهْد نَاصر عَاشُورْ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

23- التّكرير بين المثير والتّأثير، عزّ الدّين عليّ السّيد، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1407هـ/ 1986م.

24- تمهيد في النّقد الأدبيّ، رُوز غَريب، دار المكشوف، بيروت، لبنان، ط1، 1971م.

25- توتُّرات الإبداع الشّعريّ نحو رؤية داخليّة للدّفق الشّعريّ وتضاريس القصيدة، حبيب مونسي، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، ط2001/2002م.

26- التّناص نظريًّا وتطبيقيًّا، أحمد الزّعبي، مؤسَّسة عمّون للنّشر والتّوزِيع، عمّان، الأردن، ط2، 1420هـ/2000م.

27- التّناص بين الرّؤية والإجراء في النّقد الأدبيّ (مقاربة محايِثَة للسّرقات الأدبيّة عند العرب)، محمود المصفار، مطبعة التّسفير الفنيّ، تونس، د.ط، 2000م.

﴿ ث ﴾

1- ثقافةُ الأسئلةِ (مقالاتٌ في النّقدِ والنّظريّةِ)، عبد الله الغذامي، النّادي الأدبيّ الثّقافيّ، جدة، ط2، 1992م.

2- ثلاث رسائل في إعجاز القُرآن- النُّكت في إعجازِ القرآن، أبِي الحسن عليّ بن عيسى الرّماني، تح: محمّد خلَف الله ومحمّد زغلول سلاّم، دار المعارف، مصر، ط3، د.ت.

﴿ ج ﴾

1- الجامع لِشُعَبِ الإيمان، ج1 + ج9، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر، تح: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرُّشد للنّشر والتّوزيع، الرّياض، المملكة العربيّة

السّعوديّة، ط1، 1423هـ/ 2003م.

2- جدليّة الخفاء والتّجلّي، دراسات بنيويّة في الشّعر،كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1995م.

3- جماليّات التّلوين الصّوتي في القرآن الكريم، أسامة عبد العزيز جاب الله، دار ومكتبة الإسراء للطّبع والتّوزيع والنّشر، طنطا، مصر، ط2، 2009م.

4- جماليّات القصيدة المعاصرة، وادي طه، مطبعة دار المعارف القاهرة، مصر، ط2، 1989م.

5- الجملة في الشّعر العربيّ، محمّد حماسة عبد اللّطيف، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1410هـ /1990م.

6- جمهرة أنساب العرب، أَبُو عَلِيّ بنُ أحمدَ بنُ سَعِيدٍ بن حزم الأندلسيّ، تح وتع: عبد السّلام محمّد هارُون، ط5، دار المعارف، د.ت

﴿ ح ﴾

1- الحاشية الكبرى، محمد الدّمنهوريّ، د.ط، د.ت.

2- حديث الأربعاء، ج2، طه حسين، دار المعارف، مصر، ط14، د.ت.

3- الحركة الشّعرية في فلسطين المحتلّة منذ عام 1948 حتّى 1975، دراسة نقديّة، صالح أبو الأصبع، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1999م.

4- حركيّة الإبداع، دراسات في الأدب العربي الحديث، خالدة سعيد، دار العودة، بيروت، ط1، 1979م.

5- الحُرُوف، الخليل بن أحمد، تح: رمضان عبد التّواب، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ط1، 1969م.

6- حِلية المحاضرة فِي صِناعَةِ الشِّعْر، أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّد بنُ الحَسَنِ بن المُظَفَّر الحاتميّ، تح:جَعْفَر الكَتَّانِي، دارُ الرَّشِيد للنَّشْرِ، العِرَاق، د.ط، 1979م.

7- الحماسة في شعر الشّريف الرّضيّ، محمّد جميل شلش، المكتبة العالميّة، مطبعة وأوفسيت المشرق، بغداد، ط2، 1985م.

﴿ خ ﴾

1- الخبرة الجمالية دراسة في فلسفة الجمال الظّاهراتيّة (هيدرجر- سارتر- ميرلو بونتي-دوفرين- إنجاردن)، سعيد توفيق، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط1، 1412هـ/ 1992م.

2- خصائص الأسلوب في الشّوقيات، محمّد الهادي الطّرابلسيّ، منشورات الجامعة التّونسيّة، د.ط، 1981م.

3- خصائصُ الحُروف فِي اللُّغةِ العَربيَّة - دراسة، حسن عباس، منشورات اتّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، سوريا، 1998م.

4- خطاب البيّاتي الشّعريّ دراسة في الإيقاع و الدّلالة والتّناص، محمّد مصطفى علي حسانين، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، ط1، 2009م.

5- الخِطابُ الشّعريُّ العربيُّ الحديثُ، المصادر والآليات، جودة كسّاب، مؤسّسة حمادة للدّراسات و النّشر والتّوزيع، دار اليَازُوري، الأردن، ط1، 2011م.

6- الخطيئة والتّكفير، من البنيويّة إلى التّشريحيّة، قراءة نقديّة لنموذج معاصر، محمّد عبد الله الغذامي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب،ط4، 1998م.

﴿ د ﴾

1- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن بحيرى، مكتبة دار الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1426هـ/2005م.

2- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.

3- دراسة في الشّعر العربيّ الحديث والمعاصر، جمعة بوبعير، منشورات جامعة قاريونس بنغازي، ط1، 1998م.

4- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1976م.

5- الدّلالة الصّوتيّة – دراسة لغويّة لدلالة الصّوت ودوره في التّواصل، كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1412هـ/ 1992م.

6- دلائل الإعجاز في علم المعاني، الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ /2001 م.

7- ديوانُ أَبِي العَلاءِ، المطبعة الأدبِيّة، بَيروت، د.ط، 1884م.

8- ديوان امرئ القيس، ج1، ديوان امرِئ القيس، امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1425هـ /2004م.

9- ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ، شر وتق:عبدأ.مهَنَّا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1414هـ/1994م.

10- ديوان حُميد بن ثور الهلالي، تح: محمّد شفيق البيطار، دار الكتب الوطنية، أبو ظبيّ، ط1، 1431هـ/2010م.

11- ديوان الزّهّاوي، صدقي الزّهّاوِي، المطبعة العربيّة بمصر، د.ط، 1343هـ/ 1924م.

12- ديوان عليّ بن الجهم، وزارة المعارف، المكتبات المدرسيّة، المملكة السّعوديّة، د.ط، د.ت.

13- ديوان عنترة، شر: حَمْدُو طَمَّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1425هـ/ 2004م.

14- ديوان لقيط بن يعمُر الإياديُّ، تح: خليل إبراهيم العطيّة، وزارة الإعلام، بغداد، د.ط، د.ت.

15- ديوان محمود الوراق، شاعر الحكمة والموعظة، تح:وليد قصّاب، مؤسّسة الفُنون، عجمان، ط1، 1412هـ/1991م.

16- ديوان الهذليّين، القسم الأوّل – شعرُ أبي ذؤيبٍ وساعِدةَ بن جؤيَّةَ، تح: أحمد الزّين ومحمود أبو الوفا، دار الكتب المصريّة، 1385هـ/1965م.

17- ديوان الهذليّين، ج2، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، د.ط، 1965م.

﴿ ر ﴾

1- رباعيّات الخيّام، جميل الملائكة، بغداد، د.ط، 1957م.

2- رسالة الغفران، لأبِي العلاء المعريّ، تح: عائشة عبد الرّحمن، ط9، دار المعارف، مصر، د.ت.

3- الرّسالة المُوضّحة في ذكر سرقات المتنبّي وساقِطِ شعْرِهِ، ج1، الحاتِميُّ، تح:محمّد يوسف نجم، دار صادر للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1385هـ /1965م.

4- الرّمز الشّعريّ عند الصّوفيّة، نصر عاطف جودة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط3، 1983م.

﴿ س ﴾

1- سايكولوجيّة الشّعر ومقالات أخرى، نازك الملائكة، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، مصر، د.ط، يناير2000م.

2- السّبع المعلقات(مقاربة سيميائيّة أنثروبولوجيّة لنصوصها)، دراسة، عبد المالك مرتاض،

منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 1998م.

3- سلسلة أعلام العرب، أحمد رامِي، السَّعيد شوارب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1985م.

4- سمط اللآلي - اللآلي في شرح أمالي القالي، ج2، أبو عبيدٍ عبد الله بنُ عبد العزيز بن محمد البكريّ الأندلسيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

5- سنن أبي داود، ج4، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد ابن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

6- السنن الصغرى للنسائي، ج7، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تح: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط2، 1406هـ/ 1986م.

﴿ ش ﴾

1- شذراتُ الذَّهب فِي أَخبارِ مَن ذَهَب، ج2، عبد الحيّ بن أحمد بن محمّد بن العماد العكري الحنبليّ، أبو الفلاح، تح:عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1406هـ/1986م.

2- شرح ديوان الحماسة، المرزوقي،ج1، تح:أحمد أمين وعبد السّلام محمّد هارون، مطبعة لجنةُ التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، د.ط، 1956م.

3- شرح ديوان عنترة، للخطِيبِ التّبرِيزِي، تق: مجيد طرَّاد، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط1، 1416هـ/1992م.

4- شرح ديوان كعب بن زهير، أَبو سعيدٍ الحسن بن الحسين بن عبيد الله صنعة السّكري، دار

الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1369هـ/1950م.

5- الشّريف الرّضيّ، دراسات في ذكراه الألفيّة ، مجموعة مؤلفين، دار آفاق عربيّة، بغداد، د.ط، 1985م.

6- شظايا ورماد، نازك الملائكة، دار العودة، بيروت، لبنان، د.ط، 1997م.

7- شِعرُ إبراهيم ناجِي، دراسة أسلوبيّة بنائيّة، شريف سعد الجيّار، الهيئة المصريّة العامّة للكِتاب، ط1، 2008م.

8- شعر أمل دنقل (دراسة أسلوبيّة)، فتحي محمود يوسف أبو مراد، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع، ط1، 2004م.

9- الشّعر الجاهليّ، عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللّبنانيّ، مكتبة المدرسة، بيروت، ط2، 1986م.

10- الشّعر الجاهليّ خصائصهُ وفُنونُه، مؤسسة الرّسالة، بيرُوت، ط5، 1407هـ/1986م.

11- شِعرُ ابن الجوزي-دراسة أسلوبيّة، سامي شهاب أحمد الجُبُورِي، دار غَيدَاء للنّشر والتّوزيع، د.ط، 2011م.

12- شِعرُ الخوارِجِ دراسة أسلوبيّة، جاسم محمّد الصُّميدعي، دار دجلة للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 2010م.

13- الشّعر العربيّ الحديث بنياته وإبدالاتها، ج3: الشّعر المعاصر، محمّد بنّيس، دار توبقال، المغرب، ط1، 1990م.

14- الشّعر العربيّ المعاصر قضاياه وظواهره الفنيّة والمعنويّة، عزّ الدّين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط3، 1981م.

15- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدّينوري، دار الحديث، القاهرة،

مصر، د.ط، 1423 هـ.

16- الشّعر والشّعراء في العصر العباسيّ، مصطفى الشّكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، جانفي 1986م.

17- الشّعر وطوابِعه الشَّعبيّة على مَرِّ العُصور، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت.

18- الشّعر والوجود دراسة فلسفية في شعر أدونيس، عادل ضاهر، دار المدَى للثقافة والنشر دمشق سوريا، ط1، 2000.

19- الشّعراء السّود وخصائصهم في الشّعر العربيّ، عبدُه بدوِي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1988م.

20- شعراءُ مصر وبيئاتُهم في الجِيل الماضي، عبّاس محمود العقّاد، نهضة مصر، د.ط، 1981م.

21- الشّفاء- جوامع علم الموسيقى، ابن سينا، تح:زكريا يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د.ط، 1977م.

22- شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربيّ حتّى القرن الثّامن الهجريّ، جودت فخر الدّين، ط1، دار المعارف، بيروت، لبنان، د.ط، 1984م.

﴿ ص ﴾

1- الصّاحبيّ في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامهما ، لأبي الحسن أحمد بن فارس ، تح: مصطفى الشويحيّ، مؤسسة أ.بدران للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، د.ط، 1383هـ/1964م.

2- صحيح البخاري، ج7، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير ابن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.

3- صَحيحُ الجامِع الصَّغير وزِياداتُه، ج1، أبُو عبد الرّحمن محمّد ناصر الدّين الألبانيّ، مطبعة

المكتب الإسلاميّ، د.ط، د.ت.

4- صفوة التّفاسير، ج3، محمّد عليّ الصّابونيّ، دار القرآن الكريم، بيروت، ط2، 1981م.

5- الصّناعتيْنِ، أبُو هلال العسكريُّ، تح: علي محمّد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، د.ط، د.ت.

6- الصّورة البلاغيّة عند عبد القاهر الجرجانيّ، منهجاً وتطبيقاً، ج1، أحمد عليّ دهمان، دار طلاس، دمشق، ط1، 1986م.

7- الصّومعة والشّرفة الحمراء – دراسة نقديّة في شّعر عليّ محمود طه، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1399،2هـ/1989م.

﴿ ط ﴾

1- طبقات فحول الشّعراء، ابن سلاّم الجُمحيّ، تح: محمُود محمَّد شاكر، مطبعة المدني، د.ط، 1974م.

﴿ ظ ﴾

1- ظاهرة الشّعر المعاصر في المغرب- مقارنة بنيوية تكوينية، محمّد بنّيس، دار العودة، بيروت، دط، 1979م.

2- الظّاهرة الشّعريّة العربيّة – الحضور و الغياب- دراسة، حسين خمري، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م.

3- ظواهر أسلوبية في شعر بدويّ الجبل- دراسة، عِصام شرتح، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2005م.

﴿ ع ﴾

1- عبقرية اللّغة العربيّة، عمر فرّوخ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1401هـ/1981م.

2- عزف على وتر النّصّ، دراسة في تحليل النّصوص الأدبيّة والشّعريّة، عمر محمّد عبد المطلب، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2000م.

3- العصر العبّاسيّ الأوّل، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط8، د.ت.

4- عضوية الموسيقى في النّصّ الشّعريّ، عبد الفتّاح صالح نافع، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1982م.

5- العقد الفريد، ج3، أحمد بن عبد ربّه، المطبعة الشّرقيّة، القاهرة، د.ط، 1305هـ.

6- علمُ أساليبِ البيانِ، غَازي يمُوت، دار الفكر اللّبنانيّ، ط2، 1995م.

7- علم الأسلوب، مبادئه، وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة - بيروت، ط1، 1419هـ/1998م.

8- علم الأسلوب مفاهيم وتطبيقات، محمد كريم الكواز، منشورات جامعة السابع من أبريل ليبيا، ط1، 1426هـ/1997م.

9- عِلمُ لغَةِ النَّصّ، المفاهيم والاتّجاهات، سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان ناشرون، الشّركة العالميّة للنّشر- لونجمان، ط1، 1997م.

10- عُمدَةُ القَارِي شَرْحُ صَحيح البُخارِي، ج4، بدر الدّين أبِي محمّد محمود بن أَحمد العينيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ /2001م.

11- العُمدَةُ، ابنُ رَشِيق، ج1، أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ، تح:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصريّة، بيروت، لُبْنان، 1424هـ /2004م.

12- عن بناء القصيدة العربيّة الحديثة، علي عشري زايد، ط4، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 2002م.

13- عيار الشعر، طباطبا، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الحسني العلوي، تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.

﴿ غ ﴾

1- الغربال، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط15، 1991م.

﴿ ف ﴾

1- الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، العيد محمد شبايك، دارُ حِراء، القاهرة، ط1، 1993م.

2- فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط10، 1969م.

3- فصول في الشّعر ونقده، شوقي ضيف، دار المعارف، د.ط، د.ت.

4- فضاء البيت الشّعريّ، عبد الجبّار داود البصريّ، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، د.ط، 1417هـ/ 1996م.

5- فلسفة الإيقاع في الشّعر العربيّ، علوي الهاشميّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، مملكة البحرين، ط1، 2006م.

6- فهم الفهم - مدخل إلى الميتافيزيقا - نظريّة التّأويل من أفلاطون إلى جادامير، عادل مصطفى، رؤية للنّشر و التّوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 2007م.

7- في بلاغة الضّمير والتّكرار، دراسات في النّصّ العذريّ، فايز عارف القرعان، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010م.

8- في البنيّة الإيقاعيّة للشّعر العربيّ، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط2،

1981م.

9- في بنية الشّعر العربي المعاصر، محمد لطفي اليوسفي، دار سراس للنّشر، تونس، ط1، 1985م.

10- في التّحليل العروضيّ لأبنِيَةِ اللّغة وتركِيبِها، ممدوح عبد الرّحمن الرّمالي، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 2000م.

11- في التّنظيم الإيقاعيّ للّغة العربيّة، نموذج الوقف، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان وَمنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ/2010م.

12- في جماليّةِ الكلمة (دراسة جماليّة بلاغيّة نقديّة)، حُسين جمعة، منشورات اتّحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، د.ط، 2002م.

13- في الشّعريّة، كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت، لبنان، ط1، 1987م.

14- في الضّرورات الشّعريّة، خليل بنيان الحسّون، المؤسّسة الجامعة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.

15- في فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، دار النهار للنّشر، بيروت، د.ط، 1967م.

16- في ماهيّة اللّغة و فلسفة التّأويل، سعيد توفيق، المؤسسة الجَامعيّة للدّراسَات والنّشر وَالتَّوزِيع، ط1، 1423هـ/2002م.

17- في ماهيّة النّصّ الشّعريّ، إطلالة أسلوبيّة من نافذة التّراث النّقديّ، محمّد عبد العظيم، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1415 هـ/1998م.

18- في المصطلح النّقديّ، أحمد مطلوب، منشورات المجمّع العلميّ، مطبعة المجمّع العلميّ، د.ط، 1423هـ/2002م.

19- في الميزان الجديد، محمّد مندور، نشر و توزيع مؤسّسات ع.بن عبد الله، تونس، ط1،

1988م.

20- في النّحو العربيّ نقد وتوجيه، مهدي المخزُوميّ، دار الرّائد العربي، بيروت ط1، 1986م.

21- في النَّصّ الأدبيّ دراسة أسلوبيّة إحصائيّة، عبدُ العَزيز سَعد مَصلُوح، عالم الكُتب للنِّشر والتّوزيع والطّباعة، ط3، 2002م.

22- في النّقد الأدبيّ، عبد العزيز عتيق، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، د.ط، 1972م.

23- فيض القدير شرح الجامع الصّغير، ج1، عبد الرّؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحداديّ(المتوفى1031هـ)، المكتبة التّجاريّة الكبرى، مصر، ط1، 1356هـ.

﴿ ق ﴾

1- قراءات أسلوبية في الشّعر الحديث، محمّد عبد المطّلب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1995م.

2- القراءة النّسقية ومقولاتها النّقديّة، أحمد يوسف، دار الغرب للنّشر والتوزيع، ج2، ط:2001 /2002 م.

3- قُراضَةُ الذَّهَبِ فِي نَقدأَشعَار العَرَبِ، أَبُو عَليٍّ الحَسَنُ بنُ رَشيقٍ القَيْروانِيُّ الأَزْدِيُّ، تح: مُنِيف موسى، دار الفكر اللّبنانيّ، بيروت، ط1، 1991م.

4- القسطاس في علم العروض، الزّمخشريّ، تح: فخر الدّين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط2، 1410هـ/1989م.

5- القصيدة العربيّة الحديثة بين البنية الدّلاليّة وَالبنية الإيقاعية(حساسية الانبثاقة الشعرية الأولى جيل الرواد والستينات)، محمّد صابر عبيد، من منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م.

6- قصيدة النّثر من التّأسيس إلى المرجعيّة، عبد العزيز موافي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 2006م.

7- قضايا الشعر المعاصر، نازك صادق الملائكة، دار العلم للملايين، لبنان، ط5، 2010م.

8- قضايا النّقد الأدبيّ بين القديم والحديث، محمّد زكي عشماوي، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د.ط، 1979م.

9- قضيّة الشّعر الجديد، محمّد النّويهي، معهد الدّراسات العربيّة العاليّة، جامعة الدّول العربيّة، د.ط، 1964م.

10- القولُ الشّعريُّ، منظورات معاصرة، رجاء عيد، مُؤسّسة المعارف للطّباعة والنّشر، ط1، 1995م.

11- القيم الجماليّة في الشّعر العربيّ الحديث (1950م- 1975م)، كليب سعد الدّين، د.ط، 1989م.

﴿ ك ﴾

1- الكامل في النقد الأدبي، كمال أبو مصلح، المكتبة الحديثة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط5، 1983م.

2- كِتابُ التّرْبيعِ والتّدوْيرِ، الجاحظ، تح: شارْل بْلاَّتْ، دمشق، د.ط، 1955م.

3- كتاب الصّناعتيْن، أبو هِلال العَسكريّ، تح: عليّ محمّد البجاويّ، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د.ط، 1952م.

4- الكتابة مِن مَوقِعِ العَدَمِ - مُساءلات حَول نظريّة الكتابة، عبد الملك مرتاض، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، د.ط، 2003.

5- كشف المغطىّ من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ، الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور، نشر الشّركة التّونسية للتّوزيع والشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، 1976م.

﴿ ل ﴾

1- لسان الميزان، ج2، أحمد بن عليّ بن حجّر العسقلانيّ، دار البشائر الإسلاميّة، ط1، 1423هـ/2002م.

2- اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، رابح بوحوش، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006م.

3- لُغة تميم دِراسة تاريخيّة وصفيّة، ضَاحي عبد الباقي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة، مجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، د.ط، 1985م.

4- لغة الشّعر- قراءة في الشّعر العربيّ الحديث، رجاء عيد، مُنشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1، 1998م.

5- لغة الشّعر العراقيّ المعاصر، عمران خضير حميد الكبيسيّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1982م.

6- لغة الشّعر العربيّ الحديث، مقوّماتها الفنيّة وطاقاتها الإبداعيّة، السّعيد الورقي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1983م.

7- لغة القرآن الكريم في جزء عم، محمّد أحمد نجلة، دار النّهضة العربية للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، 1981م.

8- لُغتُنَا الجَمِيلةُ، فارُوق شُوشَة، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، د.ت.

9- اللّغة الشّاعرة، عبّاس محمود العقّاد, مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، د.ط، د.ت.

10- اللّغة الشّعريّة في الخطاب النّقديّ تلازُم التُّراث والمُعاصَرة، محمّد رضَا مُبارك، دار الشّؤون

الثَّقافيَّة العامَّة، بغداد، ط1، 1993م.

11- اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مَعْناها ومبناها، تَمَّام حَسَان، دار الثَقافة، الدّار البيضاء، المغرب، طبعة 1994م.

12- اللّغة والتّأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربيّة والتّأويل العربيّ الإسلاميّ، عمارة ناصر، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، دار الفارابي، منشورات الاختلاف، ط1، 1428هـ/2007م.

13- اللّغة والتّفسير والتّواصل، مصطفى ناصف، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، ع:193، رجب 1415هـ/ يناير1995م.

﴿ م ﴾

1- ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشّعر، مارتن هايدجر، تر: فؤاد كامل عبد العزيز ومحمود رجب السّيّد، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د.ط، 1964م.

2- مباحث إيقاعيّة في اللّغة العربيّة، والي دادة عبد الحكيم، دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، 2014م.

3- المثل السّائر في أدب الشّاعر وَالنّاثر، ج3، ضياء الدّين بن الأثير، تح وَتع: أحمد الحُوفي وَبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّبع وَالنّشر، الفُجالة، القاهرة، د.ط، د.ت.

4- مجموع رسائل الجاحظ، تح: محمّد طه الحاجري، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، د.ط، 1983م.

5- مُحاضرات فِي السيميولوجيا، محمّد السّرغِيني، ط1، دار الثّقافة للنّشر والتّوزِيع، الدّار البيضاء، المغرب، د.ط، 1407هـ/1987م.

6- محاضرات في مناهج النّقد الأدبيّ المعاصر، بشير تاوريرت، دار الفجر للطّباعة والنشّر، الجزائر، ط1، 2006م.

7- محنة المثقّف- دراسة نصوص عبد الله بن المقفّع أسلوبيًّا، عبد الحسين العمريّ، تَمّوز للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ط1، 2012م.

8- مَدخَلٌ إلىَ الأسلوبيّةِ تَنظِيرًا وتَطبِيقًا، الهادِي الجَطْلاَوِي، مَنشُورَاتُ عُيُونْ، الدَّارُ البَيْضَاءُ، المغرب، ط1، 1992م.

9- مَدْخَل لِدرَاسَةِ النَّصِّ وَالسُّلطَةِ، عُمَر أُوكَانْ، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، ط2، 1994م.

10- المدخل اللّغويّ في نقد الشّعر "قراءة بنيويّة"، مصطفى السّعدي، مطبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ط، 1987م.

11- المدخل من كتاب الشّفاء، ابن سينا، تح: الأب قنواتي ومحمود الخضيري وفُؤاد الأَهواني، وزارة المعارف العمومية، الإدارة العامّة للثّقافة، القاهرة، د.ط، 1952م.

12- مدرسة الإحياء والتّراث دراسة في أثرِ الشِّعْر العَرَبِيّ القَديم علىَ مَدرسة الإِحيَاءِ في مصر، إبراهيم السّعافين، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

13- مذاهب الأدب- معالم وانعكاسات، ج2، الرّمزية، ياسين النُّصير، المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ/1982م.

14- مراجعات في الآداب و الفنون، عَبّاس مَحمُود العقاد، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر،د.ت، د.ط.

15- المُرْشِدُ إِلَى فَهمِ أَشْعارِ العَرب وصناعتها، ج2(في الجرس اللّفظيّ)، عبد الله الطّيّب، دار الآثار الإسلاميّة، الكويت، د.ط، د.ت.

16- المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، ج1، عبد الرّحمن جلال الدّين السّيّوطيّ، شر وتع: محمّد أحمد جاد المَوْلى، محمّد أبو الفضلِ إبراهيم، عليّ محمّد البجاويّ، منشورات المكتبة العصريّة، صيْدا، بيرُوت، د.ط، 1406هـ/1986م.

17- مسار التّحولات- قراءة في شعر أدونيس، أُسَيمة درويش، دار الآداب، ط1، 1992م.

18- المستدرك على الصّحيحيْن، أبو عبد الله الحاكم النّيسابوريّ، دار الحرميْن للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1417هـ/1997م.

19- المسند الصّحيح المختصر، ج1وج4، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيريّ النّيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

20- مَعَ أَبِي العَلاءَ فِي سِجنِهِ، طَهَ حُسَين، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، د.ط، 2014.

21- معاني علم الأسلوب، مصطفى الصّاري الجوثيّ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 1999م.

22- معجم الأدباء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقُوت الحَمويُّ، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.

23- المفاهيم معالم- نحو تأويل واقعي، محمّد مفتاح، المركز الثّقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2010م.

24- مفهوم الشّعر، دراسة في التّراث النّقديّ، جابر عصفور، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط5، 1995م.

25- المقابسات، أبو حيّان التوحيدي، عليّ بن محمّد بن العبّاس، تح:حسن السّندوبي، دار سعاد الصّباح، الكويت، ط2، 1992م.

26- مقالات في الأسلوبيّة، منذر عيّاشي، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 1990م.

27- مقَالات فِي اللُّغةِ والأدب، تمّام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1427هـ/ 2006م.

28- المقدّمة، ج2، عبد الرّحمن بن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّرويش، دار البلخي، دمشق، ط1، 1425هـ/2004م.

29- مقدّمة للشّعر العربيّ، أَدُونيس، دار العودة، بيروت، ط3، 1983م.

30- مقوّمات عمُود الشّعر الأسلُوبيّة بين النّظريّة والتّطبيق، عبد الرّحمن غركان، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2004م.

31- ملاحظات حول مفهوم الشّعر عند العرب، ضمن قضايا الأدب العربيّ، حمّادي صمّود، مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، د.ط، 1978م.

32- ملامح التّجدِيد في موسيقى الشعر العربي، عبد الهادي عبد الله عطية، بستان المعرفة لطبع ونشر وتوزيع الكتب، مصر، د.ط، 1422هـ/ 2002م.

33- من تراثنا اللّغويّ – ما يُسمّى في العربيّة بالدّخيل(مُعجم ودراسة)، طه باقر، مطبعة المجمّع العلمي، بغداد، د.ط، 1980م.

39- من الصّوت إلى النّص- نحو نسق منهجيّ لدراسة النّص الشّعريّ، مراد عبد الرّحمن مبروك، عالم الكتب، القاهرة، د.ط، 1993م.

40- من الصّورة إلى الفضاء الشّعريّ، العلائق والذّاكرة والمعجم والدّليل، قراءة بنيوية، ديزة سقال، دار الفكر العربيّ، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.

41- المنصف للسّارق والمسروق منه، ابن وكيع، الحسن بن عليّ الضّبيّ التّنيسيّ أبو محمد، تح: عمر خليفة بن إدريس، النّاشر جامعة قات يونس، بنغازي، ط1، 1994م.

42- منهاج البُلغاء وسِراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجنّيّ، تح: محمّد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، ط3، 1986م.

43- موسِيقَا الشِّعرِ العربيّ، مَحمود فَاخورِي مديريّة الكتب والمطبوعات الجامعيّة، منشورات جامعة حلب،سوريا، ط1، 1416هـ/1996م.

44- موسيقى الشّعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرّية، القاهرة، ط2، 1952م.

45- مُوسيقَى الشّعر العربيّ، النُّعمان القاضي، ووحيد عبد الحكيم الجَمل، دار الفجر، د.ط، د.ت.

46- موسيقى الشّعر العربيّ - مشروع دراسة علمية، محمّد شكري عيّاد، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1978م.

47- موسيقى الشّعر العربيّ- العروض دراسة فنّيّة وعروضيّة، حسن عبد الجليل يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1989م.

48- المُوسيقى الكبير، أبو نصر محمد الفارابي، تح: غطّاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، د.ط، د.ت.

49- الموشّح، المرزبانيّ، تح: عليّ محمّد البجاويّ، دار الفكر العربيّ، القاهرة، د.ط، د.ت.

﴿ ن ﴾

1- النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، دار طيبة للنّشر والتّوزِيع، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 1417هـ /1997م.

2- النّصّ الغائب، تجلّيات التّناصّ في الشّعر العربيّ- دراسة، محمّد عزّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط، 2001م.

3- النّص والأسلوبيّة بين النظرية والتطبيق، عدنان بن ذريل، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، سوريا، د.ط، 2000م.

4- نظرة جديدة في موسيقى الشّعر العربيّ، علي يونس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د.ط، 1993م.

5- إيقاع الشّعر العربيّ في ضوء نظرية العيّاشي، فضل بن عمّار العمّاري، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، د.ط، 1437هـ.

6- نظريّة البنائيّة في النّقد الأدبيّ، صلاح فضل، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 1419هـ /1998م.

7- نظريّة التّطعيم الإيقاعيّ في الفصحى، البشير بن سلامة، الدّار التّونسيّة للنّشر، د.ط، 1984م.

8- نظرية القراءة – تأسيس للنّظريّة العامّة للقراءة الأدبيّة، عبد الملك مرتاض، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د.ط، 2003م.

9- نظريّة النّصّ الأدبيّ، عبد المالك مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2010م.

10- النّقد الأدبيّ، أحمد أمين، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت.

11- النّقد الأدبيّ الحديث، محمّد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د.ط، أكتوبر1997م.

12- النّقد التّطبيقيّ التّحليليُّ، مقدّمة لدراسة الأدب وعناصره في ضوء المناهج النقديّة الحديثة، عدنان خالد عبد الله، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، ط1، 1986م.

13- نقد الشّعر، قدامه بن جعفر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

14- نقد الشّعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، عبد السّلام عبد الحفيظ عبد العال، مركز الفكر العربيّ، د.ط، 1978م.

15- نَقد العَقل التَّأويلي أوْ فَلسفَةُ الإله الأَخِير، فَتحِي المَسكِيني، مَركز الإنماء العربيّ، بَيْروت، ط1، 2005م.

16- نقد القَصيدة العربيّة مدخل إلى نقد ميراث الرّواد، السّيّد فضل، مُنشأة المعارف،

الإسكندريّة، د.ط، د.ت.

﴿ هـ ﴾

1- هكذا تكلّم النّصّ استنطاق الخطاب الشّعريّ لِرفعتْ سلام، محمّد عبد المطّلب، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1، 1997م.

2- هندسة المقاطع الصّوتيّة و موسيقى الشّعر العربيّ، رؤية لسانية حديثة، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنّشر و التّوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2010م.

3- هيدجر والميتافيزيقا مُقاربة تُربة التّأويل التّقني للفكر، محمد طوّاع، أفريقيا الشرق، ط1، 2002م.

﴿ و ﴾

1- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز، تح:محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ط، د.ت.

2- وعي الحداثة، دراسة في جمالية الحداثة الشعرية، سعد الدين كليب، اتحاد الكتاب العرب، د.ط، 1997م.

3- ابن وكيع التّنيسي- شاعر الزّهر والخمر، تح:حسين نصّار، دار مصر للطباعة، د.ط، د.ت.

4- وهج العنقاء - دراسة فنية في شعر خليل الخوري، ثامر خلف السُّوداني، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، جْرُوس بْرَس، د.ط، 2001م.

* الكُتُبُ المُتَرْجَمَةُ:

1- الاختلاف والتّكرار، جيل دولوز، تر: وفاء شعبان، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ط1، أبريل2009م.

2- الأسلوبيّة، جيرو، تر: منذر عيّاشي، مركز الإنماء الحضاري، ط2، 1994م.

3- آفاق التّناصيّة: المفهوم والمنظور، تأليف مجموعة من المؤلفين، تر: محمد خير البقاعي، جداول للنّشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2013م.

4- البلاغة والأسلوبية – نحو نموذج سيميائيّ لتحليل النّصّ، هنريش بليت، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، د.ط، 1999م.

5- بناء لغة الشّعر، جان كوِين، تر:أحمد درويش، كتابات نقدية تصدرها الهيئة العامّة لقصُور الثّقافة، القاهرة، د.ط، أكتوبر1990م.

6- بنية اللّغة الشّعريّة، جان كوهن ، تر: محمّد الوليّ ومحمّد العُمريّ، دار توبقال للنّشر، ط1، 1986م.

7- البنيويّة الشّعريّة، جوناتان كُلَر، تر: السيّد إِمَام، دار شَرقيّات للنّشر والتّوزيع، ط1، 2001م.

8- البنيوية والنقد الأدبي، مونان جورج، جينيت جيرار، وريفاتير ميكائيل، تر:محمد لقاح، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991م.

9- تحلِيل النَّصَّ الشّعريِّ- بنية القصيدة، يُوري لَوتمان ، تر: محمد فتّوح أحمد، دار المعارف، مصر، د.ط، 1995م.

10- الوعي والفنّ – دراسات في تاريخ الصّورة الفنّيّة، غيورغي غاتشف، تر: نوفل نيّوف، عالم المعرفة،ع: 146، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير1990م.

11- الخطاب الرّوائي، ميخائيل باختين، تر: محمّد برادة، دار الأمان، الرّباط، 1987م.

12- دراسات في النّصّ والتّناصّيّة، من العمل إلى النّصّ، رولان بارت، تر:محمّد خير البقَاعِيّ،

مركز الإنماء الحضاريّ، حلب، سوريا، ط1، 1998م.

13- دلائليّات الشّعر، مايكل ريفاتير، تر: محمّد مُعتصم، منشورات كليّة الآداب، جامعة محمّد الخامس، المملكة المغربيّة، ط1، 1999م.

14- دور الكلمة في اللّغة، ستيفن أُولمان، تر:كمال محمّد بشر، مكتبة الشّباب، د.ط، 1975م.

15- دور الكلمة في اللّغة، ستيفن أولمان، تر:كمال بمحمّدِ بشر، دار غريب للطّباعة والنّشر، ط12، 1997م.

16- رولان بارت، تر: فؤاد صْفَا والحسين سبحان، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط1، 1988م.

17- السّيمياء والتّأويل، روبرت شولتز، تر: سعيد الغانميّ، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.

18- الشّعر العربيّ الحديث 1800-1970(تطوّر أشكاله، وموضوعاته بتأثير الأدب الغربيّ)، سامْوَال موريه(*Modern Arabic Poetry 1800-1970*)، تر: شفيع السّيّد وسعد مصلُوح، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزِيع، القاهرة، د.ط، 2003م.

19- الشّعر كيف نفهمه ونتذوّقه، إليزابت درو، تر:محمّد إبراهيم الشّوش، منشورات مكتبة منيمنه، بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطّباعة والنشر، بيروت/نيويورك، مطبعة عيتاني الجديدة، بيروت، لبنان، د.ط، 1961م.

20- الشّعرُ والتّجربَةُ، أَرشيبالد مكليش، تر:سلمى خضراء الجيّوسي، مر: توفيق الصّايغ، دار اليقظة العربيّة، بيروت، د.ط، 1963م.

21- الشّعريّة العربيّة، جمال الدّين بن شيخ، تر: مبارك حنون، محمد الولي، محمد أوراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996م.

22- صراع التّأويلات، دراسات هيرمينوطيقيّة، بول ريكور، تر: منذر عيّاشي، مر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان، ط1، يناير 2005م.

23- ضرورة الفنّ، آرنست فشر، تر: أسعد حليم، الهيئة المصريّة العامّة للتّأليف والنّشر، طبعة النّهضة المصريّة، د.ط، 1971م.

24- علم النّصّ، كريستيفا جوليا، تر:فريد الزاهي، مر:عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، المغرب، ط 2، 1997م.

25- فنّ الشّعر، أرسطوطاليس، تح: عبد الرّحمن بدوي، دار الثّقافة، بيروت، د.ط، (د.ت).

26- فنون الأدب، هـ.ب.تشارلتن، تر: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، من سلسلة الفكر الحديث، د.ط، 1945م.

27- في أصول الخطاب النّقديّ الجديد، تودوروف- بارتن - إكسو - إنجينو: تر: أحمد المديني، منشورات دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، د.ط، 1987م.

28- قضايا الشّعريّة، رومان جاكبسون، تر:محمد الوليّ ومبارك حنّون، دار توبقال للنّشر، المغرب، ط1، 1988م.

29- الفيلسوف وفنّ الموسيقى، جُوليُوس بُورتنوي، تر: فؤاد زكريا، د.ط، مطابع نهضة مصر للطّباعة والنّشر، القاهرة، د.ط، 1973م.

30- قَلَقُ التَأَثُّرِ نظريّةٌ فِي الشِّعر، هَارُولد بْلُوم، تر: عابد إسماعِيل، دارُ الكُنُوز الأَدبِيّةِ، ط1، 1998م.

31- قواعد النّقد الأدبيّ، لاسل آبركرومبي، تر: محمّد عوض محمد، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ط2، 1986م.

32- لذَّة النَّصّ، رولان بارت، تر: منذر عيَّاشي، مركز الإنماء الحضاريّ، حلب، سوريا، ط1، 1992م.

33- اللّغة، جوزيف فندريس، تر:عبد الحميد الدّواخلي، محمّد القصّاص، تق: فاطمة خليل، المركز القومي للتّرجمة،القاهرة، ط2014م.

34- اللّغة والأسطورة، إرنست كاسيرر،تر:سعيد الغانمي، هيئة أبُو ظبيّ للثّقافة والتّراث، ط1، 1430هـ/2009م.

35- اللُّغة والمعنى والسِّياق، جون لاينز، تر: عبّاس صادق الوهّاب، مُرَ: يُوئيل عزيز، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، وزارة الثّقافة والإعلام، ط1، 1987م.

36- مبادئ النّقد الأدبيّ والعلم والشّعر، أ.أ.ريتشاردز، تر: محمّد مصطفى بَدوي، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، ط1، 2005م.

37- المدخل إلى علم الجمال – فكرة الجمال، هيجل، تر: جورج طرابيشي، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط3، 1988م.

38- نظرية الأدب، روني ويلاك وأُوستن وارن، تر:عادل سلامة، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، د.ط، 1412هـ/1992م.

39- النّظريّة الأدبيّة المعَاصِرةُ، رَامَان سَالْدَن، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، د.ط، 1998م.

40- النّظريّة الرّومانتيكيّة – سيرة أدبيّة، صَاموئِيل تِيلركولردج، تر: عبد الحكيم حسّان، دار المعارف، مصر، د.ط، 1971م.

41- نقد النقد، تودوروف، تر: سامي سويدان، دار الشّئون الثّقافيّة، بغداد، د.ط، 1986م.

42- النقد والأدب، جان ستاروبنسكي، تر: بدر الدين القاسم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا، د.ط، 1976م.

43- هيدجر، ماركوري جرين، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، د.ط، 1973م.

44- الوزن والقافيّة والشّعر الحرّ، ج.س.فريزر، تر:عبد الواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النّقديّ، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام، الجمهوريّة العراقيّة، د.ط، 1980م.

45- مقدّمة في نظريّة الأدب، تيري إيجلْتون، تر: أحمد حسَان، الهيئة العامّة لِقصور الثّقافة، مصر، د.ط، سبتمبر1991م.

46- مِيخَائِيل باخْتِين- المبدأ الحواريُّ، تْزِفيتان تودوروف، تر: فخري صالح، المؤسّسة العربيّة للدِّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 1996م.

* المعَاجِمُ:

1- القاموس المحيط، ج1، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، 1426 هـ/ 2005م.

2- قَامُوس مُصطلحات النَّقدِ الأَدبيِّ المعاصر، سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1421هـ/2001م.

3- معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، سعيد علّوش، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لُبنان/ سُوشْبرِيس، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1405هـ/1985م.

4- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، الدار العربية للموسوعات، ط1، 1427هـ/2002م.

5- لاروس- المعجم العربيّ الحديث، خليل الجرّ، مكتبة باريس، 1973م.

6- لسان العرب، ابن منظور ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ/1999م.

7- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضلِ جمالُ الدِّينِ بن مكرَم، دار صادر، د.ط، 2003م.

8- المعجم المفصل في الأدب، ج1، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 1999م.

* المَجَلاَّتُ والدَّوْرِيَاتُ:

1- إنتَاجُ مَعرِفَة بِالنَّصِّ، حُسَين خمُرِي، مجلة دراسات عربيّة، بيروت، ع:11-12، س:23، أيلول-تشرين أوّل/ سبتمبر-أكتوبر1987م.

2- استراتيجيّة التّناص في الخطاب الشّعريّ العربيّ الحديث، محمود جابر عبّاس، علامات في النّقد، ج46، م12، نَادِي جَدَّةَ الأَدَبِيُّ، السّعوديّة، شوّال 1423هـ.

3- أسلوبيّة جديدة لإيقاع الشّعر المعاصر، عمران الكبيسيّ، مجلة الأقلام، ع:1، س:25، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، العراق، كانون الثّاني 1990م.

4- الأُسلُوبيَّةُ الصَّوتيّة في النّظرية والتّطبيق، ماهر مهدي هلال، مجلّة آفاق عربيّة، كانون الأول، ع12، السّنة17، 1992م.

5- الإيقاع ودلالته في الشّعر، أحمد سليمان الأحمد، مجلة المنهل، السّعوديّة، ع:183، 1995م.

6- البُنى الأسلوبيّة في شعر النّابغة الجعديّ، ياسر أحمد فيّاض ومَهَا فوَّاز خليفة، مجلّة جامعة الأنبار للعلوم الإسلاميّة، العراق، ع:4، مج:1، سنة:2009م.

7- تشكيلُ البنية الإيقاعيّة في الشّعر الفلسطينيّ المقاوم، عبد الخالق محمّد العفّ، مجلّة الجامعة الإسلاميّة، غزّة، مج:9، ع:2، 2001م.

8- التَّكرَار(*Le Principe de Répétition, Littérature et modernité*)، مَارِي لُور بَرْدِيش، *Marie-Laure Bardéche*، تر: أحمد حيزم، مجلّة نوافذ، ع:35، النّادِي الثّقافي الأدبيّ، جَدّة، السّعوديّة، صفر1427هـ/ مارس 2006م.

9- التّكرار في الشعر الجاهلي، دراسة أسلوبية، ربابعة موسى، مؤتة للبحوث والدراسات، مج:5, ع1، 1990م.

10- التّناص والإجناسيّة، خليل المُوسُى، مجلّة الموقف الأَدَبيُّ،اتحّاد الكتّاب العرب، دمشق، ع:305، سبتمبر/أيلول1996م.

11- جماليّات التّصوير الفنيّ عند الشّعراء اللّصوص في صدر الإسلام والعصر الأمويّ، سَمَر الديّوب، مجلّة مُجمّع اللّغة العربيّة الأردنيّ، ع:73، 01 ديسمبر2007م.

12- دلالات لُغة التّكرار في القصيدة المعاصرة- أديب ناصر نموذجا، رحمن غركان، مجلّة الموقف الثقافي، دار الشّؤون الثقافيّة العامّة، السّنة5، ع:32، آذار/نيسان (مارس/أفريل)2001م.

13- دور الشّعر وخدمته لعمليّة التّنمية الثّقافيّة في الحاضر والمستقبل، عبدُه بدَوِي، مجلّة عالم الفكر، مجلّة دورية ثقافيّة فكريّة محكّمة، مج: 16، ع:4، يناير- فبراير- مارس1986م، وزارة الإعلام، الكويت.

14- روافد البلاغة- بحث في أصول التّفكير البلاغيّ، سمير استيتيّة، مجلّة جذور، جدة، السّعودية، ع:6، 1422هـ/1سبتمبر2001م.

15- الشّاعر واللّغة، نازك الملائكة، مجلة الآداب، ع:10، أكتوبر/تشرين الأوّل، السّنة: 19، 1971م.

16- الشّعر العربيّ، محمّد مندور، مجلّة الرّسالة، ع:543، السّنة:11، 1ذو الحجّة 1362هـ /29 نوفمبر 194م، القاهرة.

17- شعريّة الإيقاع السّمعي ونبوءة الرّؤية الشّعريّة، محمد صابر عبيد، مجلة الأقلام، ع:3، أيار/ حزيران(ماي/جوان) 2002م.

18- ظواهر أسلوبيّة في شعر شوقي، صلاح فضل، مجلّة فصول، مج:1، ع:4، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، رمضان 1401هـ/1 يُوليُو 1981م.

19- الظّواهر الأسلوبيّة في جداريّة محمود درويش، محمد أحمد القضاة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج6، ع:2، 1430هـ/2009م.

20- فاعلية التّكرار في بنية الخطاب الشّعري للنّقائض، نمط خاصّ من الوعي بالآخر، عبد الفتاح يوسف، مجلّة فصول، ع:62، ربيع/ صيف2003م.

21- فكرة السّرقات الأدبيّة ونظريّة التّناصّ، عبد الملك مرتاض، علامات في النّقد، الجزء:1، مج:1، النّادِي الأَدبِيُّ الثَّقَافِي، جَدَّة، مايو 1991م.

22- لُغةُ الشِّعرِ نمَوذَج تَطبِيقيٌّ، محمُود الرِّبيعيُّ، فصول مجلة النَّقد الأدبيّ، ع:4، مج1، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، رمضان 1401هـ/01جويلية1981م.

23- اللّغة والشّعر، نُوري حمّودي، مجلّة المجمّع العلميّ العراقيّ، ع:4، 01 أكتوبر 1983م.

24- اللّغة في شعر أبي إسحاق الإلبيري، نافع محمود خلف، مجلّة كليّة الآداب، ع:56، 2001م.

25- ما لا تؤدّيه الصّدفة، حاتم الصّكر، بحث مقدّم إلى مهرجان المربد الشّعري العاشر، مُستَلّ مطبوع بدار الحريّة للطّباعة، بغداد، 1989م.

26- مدخل إلى علم اللسان الحديث – تحليل ونقد لأهمّ مفاهيمه ومناهجه، عبد الرحمن الحاج صالح، مجلة اللسانيات، معهد العلوم اللسانية والصّوتيّة – جامعة الجزائر، مج 1، ع:1، 1971م.

27- المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ، عبد السلام المسدي، حوليات الجامعة التونسية، ع:13، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التونسيّة، سنة:1976م.

28- المكوّنات الشّعريّة في يائيّة مالك بن الرّيب، نور الدّين السّدّ، مجلّة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، ع:14، 1999م.

29- مُمَارسة العِشق بالقِراءة – سَعيٌ لتأسيسِ نظريّة للقراءة الأدبيّة، عبد الملك مرتاض، مجلّة نزوى، ع:8، جمادى الأولى1417هـ/01 أكتوبر 1996م، مَسقط، عُمان.

30– نحو رؤية جديدة للدّلالة النّفسيّة لأسلوب التّكرار في القرآن الكريم- بديع الزّمان سعيد النّورسيّ أنموذجا، عزيز محمد عدمان، مجلّة النُّور للدّراسات الحضاريّة والفكريّة، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، تركيا، ع:8، س:4، جويلية 2013م.

31- " نحو مقاربة إنشائيّة للإيقاع "، أحمد حيزم، ضمن: مقاربات في اللغة والأدب، إعداد: فالح شبيب العجمي، منشورات جمعية اللّهجات والتراث الشّعبي، فسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الملك سعود، الرّياض، 1428هـ/2007م.

32- ندوة الأسلوبيّة، سعد مصلوح، مجلة فصول،ع:1، مج:5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1984م.

33- نظرية التّناص، المختار حسني، علامات في النّقد،ع:34، مج:9، شعبان 1420هـ/ ديسمبر 1999م.

34- النّقد والحقيقة، رولان بارت، تر:إبراهيم الخطيب، مر:محمد برادة، مجلة الكرمل – فصلية ثقافية،ع:11، بيسان للصّحافة والنّشر والتّوزيع، نيقوسيا، قبرص، 1984م.

35- وجود النّصّ الأدبيّ/نصّ الوجود، مصطفى الكيلاني، مجلّة الفكر العربيّ المعاصر، بيروت، لبنان – باريس، فرنسا، ع:54-55، 1988م.

* المَرَاجِعُ الأَجْنَبِيَّةُ:

A

1- *À la recherche du temps perdu, Marcel Proust, (Paris, Gallimard, 1989), IV.*

2- *An introduction to literary semiotics (Advances in semiotics series), Maria Corti, Hardcover, 1978.*

3- *Antigone, Jean Cocteau, Gallimard, Paris.*

C

1- *Correspondance, Gustave Flaubert, édition établie par Jean Bruneau et Yvan Leclerc, Paris, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 5 vol. , 1973-2007, II.*

2- *"Comment travaillent les écrivains", Jean-Luis de Rambures, Flammarion, Paris, 1978.*

3- *Contre Sainte-Beuve, Marcel Proust, Gallimard, « Pléiade », Paris, 1971.*

D

1- *«Dialogisme», Le dictionnaire du littéraire, Paul Aron, Denis Saint-Jacques, Alain Viala, Paris, PUF, 2002.*

2- *Dictionnaire de la linguistique, Jean DUBOIS et autres, Larousse-Bordas, 2ème éd, 2002.*

G

1- *Génie du christianisme, François-René vicomte de Chateaubriand, Furne, Juvet et C^{ie} Editeurs, Paris, 1826.*

2- *Guide des humanistes ou premiers principes du gout, Abbé Jean Charles François Tuet, Librerie N.S.P Le Pape, Lyon, France, 1845.*

I

1- *Introduction à l'Intertextualité, Nathalie Piegay-Gros, Ed:Dunod, Paris, 1996.*

2- *Intertextuatité et critiquesdes textes, Article, Peter Dembowski, Trad:Eric Hicks, Littérature, N°: 41, 1981.*

3- *Intertextuatité et mouvance(Article), Paul Zumthor, Revue: Littérature,(thème: Intertextualité et roman en France, au Moyen Âge.), N°:41, 1981, Ed:Larousse.*

L

1- *«La trace de l'intertexte», Michaël Riffaterre, La Pensée, N°:215, oct 1980.*

2- *la seconde main ou le travail de la citation, Antoine Compagon, Ed: Seuil, 1979.*

3- *La stratégie de la forme, Laurent Jenny, in Poétique, N°:27, Éd: du Seuil, Paris, 1976*

4- *. Lector in fabula ou la coopération interprétative dans les textes narratifs,Eco Umberto, Grasset, Paris, 1985.*

5- *Le Plaisir du Texte, Roland Barthes, Coll:" Tel Quel ", Éditions du Seuil, 1973.*

6- *Le Petit Larousse Illustré, , Librairie Larousse, 1990.*

7- *Lettre d'un éditeur de poésie à un poète en quête d'éditeur, Louis Dubost, Éd:Ginkgo,2006.*

8- *Le Robert, Paul Robert, Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, socicaise, société du Nouveau Littré Le Robert, Paris XI. Tome: 06*

9- *Le Rythme et la raison ,T:1, Rythmologiques, P.Sauvanet, Paris, Kimé, 2000.*

10- *Les mots des autres, La poétique intertextuelle des œuvres romanesques de Hubert Aquin , André Lamontagne, Les presses de*

l'Université Laval, Sainte-Foy, 1992.

***11**- Les Yeux d'Elsa (Préface), Louis Aragon, Seghers, 1942.*

***12**- L'Intertextualité, Sophie Rabau, Coll: Corpus, Flammarion, Paris, 2002.*

***13**- L'intertextualité, Tiphaine Samoyault, Mémoire de la littérature, Nathan, Paris, 2001.*

***14**- "L'intertextualitè", Pierre Marillaud, Colloque d'Albi (annuel), du 7 au 10 Juillet, 2003.*

***15**- «L'intertextualité critique», Perrone-Moisés Leyla, Poétique, N: 27, Sep1976.*

***16**- Le mot, le dialogue et le roman, Julia Kristeva, Semeiotike : recherches pour une sémanalyse, Seuil, Paris, 1969 .*

***17**- Les Cathégories du rècit littèraire, Tzvetan Todorov, article, Commu-nication, N°:8, Année:1966, Seuil.*

***18**- Les Mots et les choses: une archéologie des sciences humaines, Michel Foucault, Gallimard, Paris, 1966.*

***19**- Le Texte Clos, Langages, Julia Kristeva, (Linguistique et littérature), 3eme Année, N°12, Décembre 1968, Didier/ Larousse.*

***20**- Le texte du roman: approche sémiologique d'une structure discursive, Julia Kristeva, Mouton Publishers, The Hague-Paris-New York, 3ème Ed:1979.*

M

***1**- Méthodes du texte - introductions aux études littéraires, Maurice Delcroix et autres, Duculot Paris -Bruxelles, 1ère édition, 1995.*

***2**- Métatextuel et lisibilité, Bernard Magné, Québec, Protée, vol:14, N°:1-2, printemps-été 1986.*

3- *Mikhail Bakhtine - le principe dialogique, Tzvetan Todorov, Seuil, Paris, 1981.*

O

1- *Oedipe ou le roi boiteux (Préface de la pièce), Jean Anouilh, 2'Ed, la Table ronde, 1996.*

2- *Oeuvres complètes , T:5, " les Filles du Feu", dédicace à Alexandre Dumas, Gérard de Nerval, Ed:A. Béguin et J. Richer, Paris, Bibl. de la Pléiade, 2'éd, 1956.*

3- *Oeuvres complètes, Epître à Huet, Jean de La Fontaine, Firmin Didot frères, Libraires-Editeurs, Imptimerie de l'Institut de France, Paris.*

4- *Oeuvres complètes de Voltaire, Voltaire, Vol: 35, T: 42, "Lettres philosophiques", Imprimerie Jean-Jack Tourniesen, 1785.*

5- *Oeuvres de Platon, Lois N°665a, traduites par: Victor Coussin,T:, Pichons et Didiers Libraires, 1831.*

P

1- *Palimpsestes, Gérard Genette, La collection poétique, Éd:Seuil, 1982.*

2- *Pour comprendre les lectures nouvelles, linguistique et pratique textuelle, André Fossion et Jean-Paul Laurent, Ed :A.de Boeck, Bruxelles, 1981.*

3- *«Pour une sémiologie des paragrammes », Julia Kristeva, Semeiotike :recherches pour une sémanalyse, Paris, Seuil, 1969.*

4- *Pourquoi la littérature respire mal, Julien Gracq, Préférences, Ed: Corti.*

S

1- *Siegfried et le Limousin, acte:I, scène:6, Jean Giraudoux, J.Ferren-*

czi et Fils Editeurs, Paris, (1922).

***2-** Spinosa, Philosophie pratique, Gilles Deleuze, Minuit, 1981.*

T

***1**- « Texte (théorie du) » in Œuvres complètes (O.C.), Roland Barthes, T:IV, Ed:Éric Marty, Éd:Seuil, Paris, 2002.*

***2-** "Texte (théorie du)" article, Roland Barthes, Encyclopaedia universalis, 1973.*

***3**- The Anatomy of poetry, (The Use of Repetition - Pure Magical Effect), Boulton Marjorie, Routledge & Kegan Paul, Lodon, 2nd edition, 1982.*

***4-** Traité du rythme, des vers et des proses, Gérard DESSONS, & Henri MESCHONNIC,1998, Paris, Dunod.*

V

***1**- Variations sur un sujet, Stéphane Mallarmé, Ed:La Revue Blanche, Bruxelles, 1895-1896.*

***2**- Volkswagen Blues, Poulin Jacques, Montréal, Leméac, coll: Babel,*

1988.

* المَوَاقِعُ الإِلِكْتُرُونِيَّةُ:

1- البنيّة الإيقاعيّة في الشّعر الكويتيّ خلال النّصف الثّاني من القرن 20، محمّد العمريّ، بحث منشور ضمن أعمال مهرجان القرين الثّقافيّ الثّامن، في كتاب بعنوان:الأدب الكويتي خلال نصف قرن 1950-2000م، مطبوعات المجلس الوطنيّ، الكويت، 2003م. ينظر: *http://medelomari.net/KOWEIT2c.htm*

2- السّلطة على الأوزان..الوزن الجاهليّ وعلم العروض، محمد تقي جون، صحيفة المثقف، ع:4043، بتاريخ: 2017/10/01م، تصدر عن مؤسّسة المثقّف العربيّ، *https://www.almothaqaf.com/qadayaama/qadayama-09/6939----2*

3- الشّعر وتحرير الكائن - قراءة في اللّغة والمتخيّل، محمّد لطفي اليوسفي، مجلّة نِزوى، مجلّة فصليّة ثقافيّة، ع16، جمادى الآخرة1419هـ/ أكتوبر1998، مؤسّسة عُمان للصّحافة والأنباء والنّشر والإعلان، سلطنة عُمان. *https://www.nizwa.com/*

4- ظاهرة التّكرار في شعر أبي القاسم الشّابيّ-دراسة أسلوبيّة، زهير أحمد منصور، *https://www.google.com/url?sa=t&rct=j&q=&esrc=s&source=web&cd=&cad=rja&uact=8&ved=2ahUKEwir6y1rqL2AhUyhP0HHejuBr8QFnoECAIQAQ&url=https%3A%2F%2Falmaktaba.org%2Fbook%2F1190%2F3432&usg=AOvVaw0kLgMlN26GRFhssQyPe.ox1*

5- ماهية التّناص: قراءة في إشكاليّته النّقديّة، عبد الستّار جبر الأسديّ، مجلّة فكر ونقد، ع:28، 15أفريل2000، *http:// www.aljabriabed.net*.

6- النّسق الأفقيّ للتّكرار في الشّعر الفاطميّ المصريّ، أحمد عليّ عبد العاطي، *LITRE/article/viewFile/.../23547 scholar.mediu.edu.my/index.php/*

7- نظريّة الإيقاع عِندَ المسْعدّي في ضَوءِ الأسلوبيّة المعاصرة، محمَّد عبد المطلب، مقَالَ عَلى النِّت، غَيرُ مُصنَّفِ، موْقِع الجَسْرَة، السبت 24 مارس 2012م، 21:53 - *aljasra. org/archive/cms/?p=1475*.

8- نظرية التّناصّ، بيَار مَارك دُوبْيَازي(*Pierre Marc de Biazi*)، تر:المختار حسني، مجلّة فكر ونقد، ع:28. *http://www. Fikrwanakad.com*

9- النقد الأحدث من الحديث الأسلوبية والبنيوية، هنري جيفورد، تر: موسى عاصي، مجلة الآداب الأجنبية، ع:121، س:30، 2005م، موقع اتحاد الكتاب العرب -*www.awu-dam.org*

10–*Citations: Xavier de Maistre : https://fr.wikipedia.org/ wiki/Xavier de_Maistre# Citations.*

11–" Jacques Poulin:de la douceur à la mort ", François Ricard, Revue Liberté, Volume 16, numéro 5-6 (95-96), septembre-décembre 1974. https://www.erudit.org/fr/revues/liberte/1974-v16-n5-6-liberte 1031149/1500ac/

12–Larousse,https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/style/74959.

13– Le Jour et la nuit (1988), Georges Braque. http://la-plume-dilett-ante.over-blog.com/article-le-jour-et-la-nuit-de-georges-braque-46012910 .html

14– Le rythme critique d'Henri Meschonnic, Maïté Snauwaert, Acta fabula, vol. 13, n°6, « En rythme », Juillet-Août 2012, URL : http: // www.fabula.org/acta/document7129.php, page consultée le 22 novembre 2017.

15– «Les notions d'intertextualité et d'intratextualité dans les théories de la réception», Kareen Martel Protée, Vol:33, N°:1, printemps 2005, http://id.erudit.org/iderudit/ 012270ar .

16– L'intertexte Inconnu, Michael Riffatèrre, Littérature, N°: 41, Année 1981, Intertextualité et roman en France, au Moyen Âge/ www. persee. fr/ issue/litt_0047-4800_1981_num_41_1.

17– Oxford https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/ eng-lish/ style_1.

18– Oxford Living Dictionaries, https://en.oxforddictionaries.com/ defi-nition/Rythm.

19– Rumbissimo, Ivon Laurier Ngonbé, https://books.google.dz/ books? isbn=2322025704.

إهداء.	
– مقدمة:	أ–ج
– مدخل: الأُسلُوبُ والأُسْلُوبِيَّةُ.	
1– الأُسْلُوبُ:	01
أ– لُغَةً:	01
ب– اصْطِلاَحًا:	02
2– الأُسْلُوبِيَّةُ:	07
3– اتّجَاهَاتُ الأسلُوبِيَّةِ:	12
أ– الأُسْلُوبِيَّةُ الصَّوْتِيَّةُ.	13
ب– الأسلُوبِيَّةُ التَّعبِيرِيَّةُ.	14
ج– الأُسْلُوبِيَّةُ النَّفْسِيَّةُ.	16
ح– الأُسْلُوبِيَّةُ البِنْيَوِيَّةُ.	19
د– الأُسْلُوبِيَّةُ الإِحْصَائِيَّةُ.	21
4– البَلاَغَةُ وَالأُسْلُوبِيَّةُ:	25
5– الأُسْلُوبِيَّةُ وَاللِّسَانِيَاتُ:	26
6– الأُسْلُوبِيَّةُ فِي النَّقْدِ العَرَبِيِّ الحَدِيثِ:	29
الفَصل الأوّل: بِنْيَةُ الإِيقَاعِ فِي زُهْدِيَات أَبِي العَتَاهِيَّةِ.	
1– تمهيد:	38
2– فِي إِشْكَاليَّةِ الإِيقَاعِ:	38
3– تعريفُ الإِيقَاعِ:	40
4– الإِيقَاعُ واللُّغةُ:	58

5- فِي جمَاليَّةِ الإِيقَاعِ:	68

فِهْرِسْتْ

6- عَلى إِيقَاعِ القَدِيمِ والمُوَلَّدِ:	84
7- الظَّواهِرُ الأُسلُوبِيَّةُ فِي إيقَاعَاتِ أَبِي العتَاهيَّةِ:	96
أ-1/7- إيقَاعُ الصَّوتِ المُفْرَد:	112
1/1/7- إِيقَاعُ الحُرُوفِ:	112
2/1/7- الحَرْفُ وإِيقَاعُ الحَرَكَةِ والسُّكُونِ:	125
ب-2/7- إِيقاع التَّكْرار.	151
1/2/7- فِي إِيقاع الكلمة المُكرَّرةِ.	152
2/2/7- إِيقَاعُ التَّضَادِّ.	168
الفصل الثّاني: السِّمَاتُ الأُسْلُوبِيَّةُ فِي لُغَةِ أَبِي العَتَاهِيَّةِ.	
1- فِي اللُّغَةِ:	179
2- حَرَكِيَّةُ اللُّغَةِ ورُوحُ العَصْرِ:	190
3- المُعْجَمُ الشِّعْرِيُّ:	197
4- فِي ثُنائِيَات التَّضَادِّ وعَلاَقاتِهِ:	235
5- المُعْجَمُ والمَرْجِعُ:	253
الفصل الثالث: شعْرِيَّةُ التَّكْرَارِ.	
1- تَمْهِيد.	280
2- فِي التَّكْرَار.	280
3- تِكْرَارُ الحَرْفِ وَالكَلِمَةِ.	296
4- تكْرارُ العِبَارَةِ[الصِّيغَةِ].	369
الفصل الرابع: فِي التَّنَاصِّ.	

1- تَمْهِيد:	386
2- التَّناصُّ عِنْدَ الغَرْبِيِّين:	386
3- التَّنَاصُّ عِنْدَ العَرَبِ:	417

4- التَّنَاصُّ الدِّينِيُّ:	437
4/1- التَّنَاصُّ مَعَ القُرْآنِ الكَرِيمِ:	438
أ- التَّنَاصُّ فِي الأُرْجُوزَةِ:	438
ب- نَمَاذِجُ مِنَ التَّناصِّ فِي الزُّهْدِيَاتِ:	447
4/2- التَّنَاصُّ مَعَ الحَدِيثِ الشَّرِيفِ:	470
4/3- التَّنَاصُّ مَعَ الآخَرِ:	476
4/4- التَّنَاصُّ الذَّاتِيُّ:	482
خَاتِمَةٌ:	496
مكتبة البحث:	502
الفهرست:	548

Abstract (en Aglais) :

This work is about the ascetic poetry in the Abbasid Era, specifically the ascetics of Abu Al-Atahia, throughout the procedures provided by the stylistic studies. The purpose behind it is to know the extent of the potential in the ancient Arabic literary text, the poetic one in particular, so that it can be open to this form of approach with these kinds of instruments.

Hence, the main fields on which this sought to work on it, were spread-over four sides which we see forming the core of every creative work, which are: Sound/Rhythm, language, Repetition and Intertextuality, also how it contributes in activating the discourse and the style's coherence and concordance.

We hope that this choice will lead us to the established objectives set for it; the most important of which is exploring the aesthetics and characteristics of the Atahi's poetic text through the use of stylistic analysis mechanisms, which has allowed us to access new doors in the approach of this discourse in its overall structure: sound, language and semantics.

Keywords : *Discourse , The ancient Arabic literary , Ascetic poetry , The Abbasid Era , Abu Al-Atahia, The stylistic approach , Sound/Rhythm, language, Repetition and Intertextuality.*